



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



ارسلنا
عليكم يا صابغ
الرماد

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

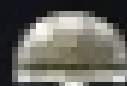
ذُرِّيَّةُ تَارِيخِهَا
مِنْ
الْمَقَرَّاتِ الْكَلِمَةِ

(١-٢)

فِي مَصْرٍ

رَكْتور
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دارالبيروت للطباعة والنشر
بيروت - لبنان
١٩٥٥



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دراسات تاريخية من القرآن الكريم

كاتب:

محمد بيومي مهران

نشرت في الطباعة:

دار النهضة العربية

رقمي الناشر:

مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
18	دراسات تاريخية من القرآن الكريم
18	هوية الكتاب
18	المجلد 1
18	اشارة
22	[الجزء الاول]
22	تقديم
34	الفصل الأول القرآن الكريم
34	اشارة
36	[1] التدوين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم
43	[2] جمع القرآن في عهد أبي بكر
49	[3] مصحف عثمان
55	[4] القرآن كمصدر تاريخي
64	[5] القصص القرآني والتوراة
72	[6] مقارنة بين القصص القرآني وروايات التوراة
106	الفصل الثاني الحديث
116	الفصل الثالث التفسير
130	الفصل الرابع إبراهيم الخليل جد العرب
130	اشارة
133	[1] مولد الخليل عليه السلام
138	[2] موطن الخليل وعصره
144	[3] هجراته
155	[4] رحلة الخليل الى الحجاز

173	[5] اسكان اسماعيل الحجاز
176	[6] قصة الذبيح
176	اشارة
178	(أ) وجهة النظر اليهودية و المسيحية
187	(ب) وجهة النظر الاسلامية
194	(ج) قصة الذبيح و التضحية البشرية
198	الفصل الخامس الكعبة الشريفة
198	اشارة
200	[1] بناء الكعبة
214	[2] الكعبة بعد ابراهيم و اسماعيل
228	[3] محاولات هدم الكعبة
238	[4] الكعبة قبيل الاسلام
254	الفصل السادس العاديون قوم هود
254	اشارة
256	[1] العاديون و العرب البائدة
258	[2] قصة عاد في القرآن الكريم
260	[3] قصة عاد و محاولة ربطها بالتوراة
263	[4] موقع منطقة عاد
266	[5] مبالغت عن العاديين
273	[6] هود عليه السلام
276	[7] عصر قوم هود
281	الفصل السابع الثموديون «قوم صالح»
281	اشارة
282	[1] أصل الثموديين
285	[2] ثمود في الكتابات القديمة

294	[3] ثمود في القرآن الكريم
297	[4] عصر قوم صالح عليه السلام
299	[5] النقوش التمودية
303	[6] المجتمع التمودي
306	الفصل الثامن المديانيون قوم شعيب
306	[1] قصة مدين في القرآن الكريم
314	[2] موطن المديانيين
318	[3] عصر المديانيين
320	[4] المديانيون و بنو اسرائيل
326	الفصل التاسع سيل العرم
326	[1] القصة في القرآن الكريم
329	[2] القصة في الروايات العربية
340	[3] السدود في بلاد العرب
346	[4] سد مأرب
350	[5] وصف السدّ
353	[6] تهدم السد
364	[7] سيل العرم والهجرات اليمنية
370	الفصل العاشر قصة أصحاب الأخدود
370	[1] القصة في المصادر العربية
384	[2] القصة في المصادر المسيحية واليونانية
386	[3] الاحتلال الحبشي وعلاقته بقصة الأخدود
406	الفصل الحادي عشر قصة أصحاب الفيل
406	[1] توطيد النفوذ الحبشي في اليمن
410	[2] بناء القليس
413	[3] حملة الفيل في الروايات العربية

418	[4] أسباب الحملة الاقتصادية والسياسية
421	[5] مقاومة العرب للحملة
426	[6] نتائج الحملة
430	المصادر والمراجع العربية
430	[1] كتب الحديث
430	[2] كتب التفسير
445	[3] دوريات
448	[4] المراجع الأجنبية
457	[5] الدوريات الأجنبية
459	فهرست المحتويات
465	المجلد 2
465	هوية الكتاب
465	اشارة
469	[الجزء الثاني]
469	تقديم
471	الكتاب الأول دراسات تمهيدية
471	اشارة
473	الفصل الأول النبوة والأنبياء
473	1- النبي والنبوة:
477	2- الفرق بين النبي والرسول:
482	3- نبوة المرأة:
485	4- وظائف الرسل:
490	[5] وحدة الهدف في دعوات الرسل:
501	الكتاب الثاني سيرة يوسف عليه السلام
501	اشارة

503 الفصل الأول يوسف فيما قبل الوزارة

503 [1] يوسف وأخوته في كنعان:

512 [2] يوسف وامرأة العزيز:-

520 [3] يوسف في السجن:-

529 الفصل الثاني يوسف عزيز مصر

529 [1] يوسف العزيز:-

538 [2] يوسف وإخوته في مصر:-

547 [3] استقرار بني إسرائيل في أرض جوشن:-

563 [4] عصر يوسف عليه السلام:-

563 إشارة

564 [1] الرأي الأول:

570 (ب) الرأي الثاني:

573 الفصل الثالث قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة

573 1- تمهيد:-

576 [2] قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة:-

597 الكتاب الثالث سيرة موسى عليه السلام

597 إشارة

599 الباب الأول موسى من المولد إلى المبعث

599 إشارة

601 الفصل الأول بنو إسرائيل في مصر

601 (أ) فيما قبل الاضطهاد:-

604 (ب) الاضطهاد- أسبابه و نتائجه:

627 الفصل الثاني موسى من المولد إلى المبعث

627 [1] موسى في قصر فرعون:

638 [2] موسى في مدين:-

645	الفصل الثالث موسى الرسول النبي
645	[1] المبعث:-
650	[2] بني موسى وفرعون:-
678	[3] ألوهية الفرعون المزعومة:-
678	اشارة
679	فما قصة ألوهية فرعون هذه:
688	الباب الثاني خروج بني إسرائيل من مصر
688	اشارة
690	الفصل الأول الخروج - أسبابه وتاريخه ومكانه
690	[1] أسباب الخروج:
696	[2] تاريخ الخروج:-
702	[3] مكان الخروج وبدايته:
706	الفصل الثاني معجزة انغلاق البحر
706	اشارة
710	[1] مكان انغلاق البحر:-
715	[2] تاريخ انغلاق البحر:-
717	[3] معجزة انغلاق البحر:-
724	[4] إيمان فرعون عند الغرق:-
728	الفصل الثالث فرعون موسى
728	اشارة
729	[1] الرأي الأول: فرعون موسى هو أحسن الأول:-
740	[2] الرأي الثاني: تحوتمس الثالث هو فرعون موسى:-
751	[3] توت عنخ آمون: هو فرعون موسى:-
767	[4] رعمسيس الثاني: هو فرعون موسى:-
773	[5] مرتبتاح: هو فرعون موسى:-

794	[6] آراء أخرى:-
795	[7] صمت الآثار المصرية عن قصة بني إسرائيل:-
798	الباب الثالث موسى و بني إسرائيل منذ انفلاق البحر وحتى موت موسى عليه السلام
798	اشارة
800	الفصل الأول بنو إسرائيل في سيناء
800	[1] محاولة الردة الأولى و عبادة الأصنام:-
808	[2] التمرد الإسرائيلي بسبب الماء و الطعام:-
812	[3] بنو إسرائيل و العماليق:-
813	[4] الردة و عبادة العجل في سيناء:-
827	[5] طلب بني إسرائيل رؤية الله جهرة:
832	الفصل الثاني بنو إسرائيل في التيه
832	[1] ظهور فكرة الوطن عند بني إسرائيل:-
834	[2] الخوف من دخول كنعان:-
839	[3] التيه:-
843	[4] عودة التمرد ضد موسى:-
845	[5] بنو إسرائيل على تخوم كنعان:-
852	الباب الرابع قضايا من سيرة موسى عليه السلام
852	اشارة
854	الفصل الأول موسى بين الأصل الإسرائيلي و المصري
872	الفصل الثاني الوجود التاريخي لموسى عليه السلام
880	الفصل الثالث موت موسى عليه السلام
890	الفصل الرابع مكانة موسى في التاريخ اليهودي
890	[1] مكانة موسى عند المسلمين:-
893	[2] مكانة موسى في التاريخ اليهودي:-
896	الباب الخامس قصة موسى بين آيات القرآن و روايات التوراة

914 فهرس
920 المجلد 3
920 هوية الكتاب
920 اشارة
924 [الجزء الثالث]
924 تقديم
926 الكتاب الرابع داود وسليمان عليهما السلام
926 اشارة
928 الباب الأول سيرة داود عليه السلام
928 اشارة
930 الفصل الأول بنو إسرائيل فيما بين عهدي و داود عليهما السلام
930 [1] دخول بني إسرائيل كنعان:
934 [2] عصر القضاة:
938 [3] قيام ملكية طالوت:
945 [4] حروب طالوت و ظهور داود:
953 الفصل الثاني داود الرسول النبي
953 اشارة
954 معجزات داود عليه السلام
960 قصة الخصمين
973 الفصل الثالث داود- ملك بني إسرائيل
973 1- داود فيما قبل الملكية:
976 2- اختيار داود ملكا على يهوذا:
978 3- داود و توحيد إسرائيل:
979 4- داود و الفلسطينيين:
982 5- داود و مؤاب و عمون و آرام و أدوم:

984	6- دولة داود ومدى اتساعها:
988	7- وراثة العرش و الخلفات العائلية:
990	8- ثورة أشالوم:
994	9- التعداد العام و نتائجه:
997	10- وفاة داود عليه السلام:
1001	الفصل الرابع داود بين آي الذكر الحكيم و روايات التّورا
1009	الباب الثاني سيرة سليمان عليه السّلام
1009	إشارة
1011	الفصل الأول سليمان- الرّسول التّبي
1011	1- وراثة سليمان داود:
1014	2- من أحكام سليمان:
1017	3- من معجزات سليمان:
1035	الفصل الثّاني بناء المسجد الأقصى
1049	الفصل الثّالث سليمان و ملكة سبأ
1080	الفصل الرّابع سليمان ملك بني إسرائيل
1080	[1] السياسة الداخليّة:
1083	[2] السياسة الخارجيّة:
1085	[3] التّظيمات العسكريّة:
1087	[4] النشاط التجاري:
1091	[5] النشاط البحري:
1100	[6] النشاط الصّناعي:
1101	[7] مملكة سليمان و مدى اتساعها:
1118	[8] القدس عاصمة سليمان:
1122	[9] مباني سليمان:
1128	الكتاب الخامس الأنبياء من أيّوب إلى يحيى عليهم السّلام

1128	اشارة
1130	الفصل الأول أيوب عليه السلام
1130	[1] قصة أيوب عليه السلام:-
1144	[2] سفر أيوب:-
1152	الفصل الثاني إلياس و إيسع عليهما السلام
1152	[1] إلياس عليه السلام:-
1160	[2] إيسع عليه السلام:-
1164	الفصل الثالث زكريا ويحيى عليهما السلام
1164	اشارة
1188	استشهاد يحيى عليه السلام:-
1195	الكتاب السادس المسيح عيسى ابن مريم رسول الله
1195	اشارة
1197	الفصل الأول مريم ام المسيح عليهما السلام
1207	الفصل الثاني مولد المسيح عليه السلام
1229	الفصل الثالث نبوة المسيح و معجزاته
1229	[1] نبوة المسيح:-
1233	[2] معجزات المسيح:-
1233	اشارة
1242	و أما هذه المعجزات التي جاءت في هذه الآية و في غيرها فهي:-
1242	أولا: كان المسيح يخلق من الطين كهينة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله تعالى:-
1243	ثانيا: إبراء الأكمة و الأبرص بإذن الله تعالى:-
1244	ثالثا: إحياء الموتى بإذن الله:-
1245	رابعا: إخبار القوم بما يأكلون و ما يدخرون في بيوتهم:-
1247	الفصل الرابع دعوى تأليه المسيح و صلبه
1247	اشارة

- 1247 [1] دعوى التأليه:-
- 1262 [2] دعوى الصلب:-
- 1279 فهرست
- 1283 المجلد 4
- 1283 هوية الكتاب
- 1283 اشارة
- 1287 [الجزء الرابع]
- 1287 تقديم
- 1289 الباب الأول سيرة نوح عليه السلام
- 1289 اشارة
- 1291 الفصل الأول دعوة نوح عليه السلام
- 1291 [1] نوح عليه السلام:-
- 1293 [2] معبودات قوم نوح:-
- 1297 [3] دعوة نوح عليه السلام:-
- 1305 [4] قضية ابن نوح:-
- 1311 الفصل الثاني قصة الطوفان بين الآثار و التّورة
- 1311 اشارة
- 1313 أولاً: قصة الطوفان السومرية:
- 1323 ثانياً: قصص الطوفان البابلية
- 1323 1- ملحمة جلجاميش:
- 1329 2- قصة بيروسوس:
- 1332 ثالثاً: قصة الطوفان اليهودية كما ترويها التوراة:
- 1332 اشارة
- 1335 1- مناقشة قصة التوراة عن الطوفان:
- 1343 2- قصة الطوفان: بين التوراة و قصص السومريين و البابليين:

1357	الفصل الثالث قصّة الطوفان في القرآن الكريم
1387	الباب الثاني سيرة إبراهيم الخليل عليه السّلام في العراق
1387	اشارة
1389	الفصل الأول معبودات قوم إبراهيم
1399	الفصل الثاني دعوة إبراهيم عليه السّلام
1399	اشارة
1399	[1] موقف إبراهيم من عبادة الكواكب:-
1411	[2] موقف إبراهيم من عبادة الأصنام:-
1411	اشارة
1412	(أ) بين إبراهيم وأبيه
1419	(ب) بين إبراهيم وقومه
1431	الفصل الثالث بين إبراهيم والملك
1441	الفصل الرابع سرّ الحياة و الموت
1457	الباب الثالث سيرة يونس عليه السّلام
1457	اشارة
1459	يونس عليه السّلام
1459	[1] قصة يونس عليه السلام
1472	[2] سفر يونان (يونس عليه السلام)
1477	المراجع المختارة
1477	أولاً- القرآن الكريم :
1477	ثانياً- كتب الحديث:
1478	ثالثاً- كتب التفسير:
1480	رابعاً- المراجع العربية:
1485	خامساً- المراجع المترجمة:
1487	سادساً- المراجع الأجنبية:

- 1493 مؤلفات الاستاذ الدكتور محمد بيومي مهراڤ أستاذ تاريخ مصر و الشرق القديم و رئيس قسم التاريخ و الآثار المصرية و الإسلامية كلية الآداب جامعة الاسكندرية
- 1493 أولا- في التاريخ المصري القديم:
- 1494 ثانيا- في تاريخ اليهود القديم:
- 1495 ثالثا- في تاريخ العرب القديم:
- 1495 رابعا: في تاريخ العراق القديم:
- 1496 خامسا: سلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»
- 1496 سادسا: سلسلة «في رحاب النبي و آل البيت الطاهرين»
- 1497 الفهرس
- 1499 تعريف مركز

حقوق الطبع محفوظة الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بروت - ص.ب. ١١٠٧٤٩

الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا بناية

كريدية، تلفون: 303816

309830/ 312213

برقياً: دانهضة، ص.ب. ٧٤٩-١١

تلكس: NAHDA 40290 LE

LE 29354

المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني

رقم ٣ غربي الجامعة العربية،

تلفون: ٣١٦٢٠٢

المستودع: بشر حسن، تلفون: 833180

ص: 2

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على محمد المبعوث رحمة للعالمين لا ريب في أن القرآن الكريم كمصدر تاريخي، إنما هو أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق، فهو موثوق السند، ثم هو قبل ذلك وبعده، كتاب الله الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (1)».

و من ثم فلا سبيل إلى الشك في صحة نصه بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل، ذلك لأن القرآن الكريم إنما دون في البداية بإملاء الرسول- صلوات الله و سلامه عليه- و تلي فيما بعد و حمل تصديقه النهائي قبل أن ينتقل - عليه أفضل الصلاة و السلام- إلى الرفيق الأعلى (2)، و لأن القصص القرآني إنما هو أنباء و أحداث تاريخية لم تلتبس بشيء من الخيال، و لم يدخل عليها شيء غير الواقع (3).

ثم إن الله سبحانه و تعالى قد تعهد بحفظه دون تحريف أو تبديل، يقول عز من قال: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (4)»، و يقول «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (5)»، و من ثم فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف و التبديل و انقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس، فقال

ص: 5

1- سورة فصلت: آية 42

2- محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص 49

3- عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني ص 52

4- سورة الحجر: آية 9

5- سورة القيامة: آية 17- 19

تعالى: «وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَابُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللّهِ (1)»، أي بما طلب إليهم حفظه.

و السرف في هذه التفرة أن سائر الكتب السماوية جي ء بها على التوقيت لا التأيد، وأن هذا القرآن جي ء به مصدقا لما بين يديه من الكتب، و مهيمنا عليها، و صدق الله العظيم حيث يقول «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ (2)» و من هنا كان القرآن الكريم جامعا لما في هذه الكتب من الحقائق الثابتة، زاندا عليها بما شاء الله زيادته، و كان سادا مسدها، و لم يكن شي ء منها يسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، و إذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه، و هو الحكيم العليم (3).

و مع ذلك كله- و يا للعجب- فإن ميدان الدراسة في التاريخ القديم، قد حرم من هذا المنهل الغزير، ربما لأن هذا الميدان إنما قد ظلّ إلى عهد قريب يكاد يكون مقصورا على المستشرقين، و تلاميذهم من العرب غير المسلمين، و إن هؤلاء و أولئك لم يتطرقوا في دراساتهم إلى الأحداث التاريخية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، ربما لأن هذه الدراسة بعيدة عن أغراضهم، أو لأن مجال البحث فيها قد لا يستهويهم لسبب أو لآخر، أو لأن العرب منهم إنما كانوا يحسون بحرج إن تناولوا أحداث القرآن التاريخية بالبحث و الدراسة.

و أيا ما كان السبب، فإن ميدان البحث في التاريخ القديم، إنما قد 14

ص: 6

1- سورة المائدة: آية 44

2- سورة المائدة: آية 48

3- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص 13- 14

خسر بذلك أصح مصادره وأصدقها على وجه الإطلاق، هذا فضلا عن أن الموقف إنما بقي كما هو، حتى بعد أن دخل نفر من المسلمين ميدان التخصص في التاريخ القديم، وحتى بعد أن حاولت قلة نادرة منهم- ربما لا يتجاوز عددها الواحد أو الاثنين- أن تعتمد في كتاباتها على ما جاء من محكم التنزيل، فقد ظل المتخصصون في تاريخ الشرق الأدنى القديم، يعتمدون على المصادر التقليدية لدراسة هذا الفرع من فروع الدراسات التاريخية، ولم يكن القرآن الكريم منها، على أي حال.

و من عجب، فإن المؤرخين المحدثين- الاوربيين منهم و الشرقيين، المسلمين و غير المسلمين- إنما ينظرون إلى التوراة، وكأنها المصدر الأساسي لدراسة فترات معينة من تاريخ الشرق الأدنى القديم، رغم أنهم يجمعون- او يكادون- على أنها غير موثوقة السند، ورغم ان هناك مئات من الأبحاث التي كتبها المؤمنون بالتوراة- فضلا عن غير المؤمنين بها- وهي جميعا إنما تثير جدلا طويلا حول وثاقة نصها، بل حول نسبة هذا النص لهذا الشخص أو ذاك (1).

ورغم ذلك كله، لم يفكر واحد من هؤلاء المؤرخين في أن يرجع إلى القرآن الكريم، ذلك الكتاب السماوي العظيم، الذي تجمع آراء العلماء في العالم كله على وثاقته نصه، أو كما يقول «سير وليم مور»- وهو من أشد المتعصبين ضد الإسلام- «إن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن الكريم ظل أربعة عشر قرنا كاملا بنص هذا مبلغ صفائه و دقته» (2)

ص: 7

1- أنظر عن التوراة كتابنا «إسرائيل» ص 19- 159 (القاهرة 1973)

2- محمد حسين هيكل: الصديق ابوبكر، القاهرة 1964 ص 323 و كذا 1923 dna, fo yrotsiH malsI ,hgrubnidE
riS mailliW riuM, ehT fiL efiM dammah

إنما بقي على أحسن صورة من الكمال و المطابقة (1).

هذا ويؤكد العلماء في كل أنحاء الدنيا أن المصحف الذي كتب على أيام أبي بكر الصديق، هو نفس المصحف الذي كتب على أيام الرسول- صلوات الله و سلامه عليه- و هو نفس المصحف الذي كتب على أيام عثمان، وبالتالي فإن كل قراءة قرآنية يجب أن تكون متفقة مع نصه، و أن الشك فيه كفر، و أن الزيادة عليه لا تجوز، و أنه القرآن المتواتر الخالد إلى يوم القيامة (2).

وليس من شك في أن القرآن الكريم، أنما يقدم لنا- عن طريق القصص القرآني- معلومات هامة و صحيحة تماما عن عصور ما قبل الإسلام، و أخبار دولها، أيدتها الكشوف الحديثة كل التأيد، و على سبيل المثال، فإنه يقدم لنا- عن طريق قصة الكليم عليه السلام- كثيرا من المعلومات الملكية الإلهية في مصر الفرعونية، و عن الأحوال السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية فيها (3)، و الأمر كذلك بالنسبة إلى قصة الخليل- صلوات الله و سلامه عليه- حيث يقدم لنا الكثير من المعلومات عن العراق القديم (4).

ص: 9

1- أنظر: P, 1961, snarauQ sed eihcihseG, ekedleoN. T. 16.

2- محمد أبو زهرة: القرآن ص 43، تفسير القرطبي 80/1-86، فتاوى ابن تيمية 13/420-421، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص

51-55، و انظر كذلك: XXIX- VIX. P. P, tic- po riuM. W

3- انظر عن قصة موسى (البقرة: آية 47-74، الأعراف: آية 103-155، يونس: آية 75-93، طه: آية 9-99، الشعراء: آية 10-68،

القصص: آية 3-44، غافر: آية 23-54)

4- انظر عن قصة إبراهيم (البقرة: آية 258، الأنعام: آية 74-83، إبراهيم: آية 35-41، مريم: آية 41-50، الأنبياء: آية 51-73،

الشعراء: آية 69-89، الصافات: آية 83-113.

و أما عن بني إسرائيل، فليس هناك من شك في أنه ليس هناك كتاب سماوي- حتى التوراة نفسها- قد فصل الحديث عن بني إسرائيل، و أفاض في وصف يهود و أحوالهم و أخلاقهم، و أبان مواقفهم من الأنبياء، كما فعل القرآن الكريم، و صدق الله العظيم حيث يقول «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (1)».

و أما عن بلاد العرب، فإنك تجد في كتاب الله الكريم تعالى جملة من الآيات الكريمة، تتحدث عن مملكة سبأ- في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام- هذا إلى أن القرآن الكريم قد انفرد- دون غيره من الكتب المقدسة المتداولة اليوم- بذكر أقوام عربية بادت- كقوم عاد (2) و ثمود (3)- فضلا عن قصة أصحاب الكهف (4)، و سيل العرم (5)، و قصة أصحاب الأخدود (6)، إلى جانب قصة أصحاب الفيل (7)، و هجرة الخليل و ولده إسماعيل عليهما السلام، إلى الأرض الطاهرة في الحجاز، ثم إقامة إسماعيل هناك (8) و صدق الله العظيم حيث يقول «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (9)»، و حيث يقول «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ

ص: 10

1- سورة النمل: آية 76

2- انظر: الأعراف: آية 65، هود: آية 50-60، الشعراء: آية 123-140

3- انظر: الأعراف: آية 73-79، هود: آية 61-68، الشعراء: آية 141-159

4- سورة الكهف: آية 9-26

5- سورة سبأ: آية 15-19

6- سورة البروج: آية 4-10

7- سورة الفيل

8- انظر: سورة البقرة: آية 124-131، سورة إبراهيم: آية 35-41

9- سورة هود: آية 49

لَدَيْهِمْ إِذِ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ يَخْتَصِمُونَ (1)».

غير أن ذلك كله لا يعني بحال من الأحوال، أن القرآن الكريم كتاب تاريخ، يتحدث عن أخبار الأمم، كما يتحدث عنها المؤرخون، وإنما هو كتاب هداية وارشاد للتي هي أقوم (2)، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستوراً للمسلمين، ومنها جا يسرون عليه في حياتهم، و يدعوهم إلى التوحيد (3)، وإلى تهذيب النفوس، وإلى وضع مبادئ للأخلاق (4)، و ميزان للعدالة (5)، و استنباط لبعض الأحكام (6)، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية، فانما للعبرة والعظة (7).

و مع ذلك فيجب ألا يغيب عن بالنا- دائما وأبدا- أن القصص القرآني إن هو الا الحق الصراح، وصدق الله العظيم حيث يقول «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (8)» و يقول «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ (9)» و يقول «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ (10)» و يقول «وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ

ص: 11

-
- 1- سورة آل عمران: آية 44
 - 2- سورة الإسراء: آية 9
 - 3- انظر مثلا: في قصة نوح (سورة نوح: آية 2-20) و في قصة يوسف (سورة يوسف آية 37-40) و في قصة عيسى (النساء: آية 171-172، آل عمران: آية 59، المائدة: آية 71، 76)
 - 4- انظر مثلا: سورة البقرة: آية 44، الأعراف: آية 85-87، هود: آية 84-88
 - 5- انظر مثلا في قصة داود (سورة ص: آية 21-26)
 - 6- انظر مثلا في قصة هابيل وقابيل: سورة المائدة: آية 27-32، 42-50، البقرة: آية 178-179
 - 7- انظر: عن أهداف القرآن و مقاصده: تفسير المنار 1/206-293
 - 8- سورة النساء: آية 87
 - 9- سورة آل عمران: آية 62
 - 10- سورة الكهف: آية 13

الكتاب هو الحق (1)» ويقول «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ (2)» ويقول «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (3)» ويقول «وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (4)» ويقول «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (5)» ويقول «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ (6)».

و يعلم الله، أنني منذ التحقت بقسم التاريخ في جامعة الاسكندرية، في الخمسينات من هذا القرن العشرين، كنت أسائل نفسي- عند ما أدرس أحداثا تاريخية تعرض لها القرآن الكريم بالإيجاز أو التفصيل- لم لم يرجع المؤرخون المسلمون- وفيهم الكثيرون ممن حفظوا كثيرا أو قليلا- من القرآن الكريم بحكم نشأتهم الدينية، و عرفوا الكثير مما جاء من محكم التنزيل بحكم دراساتهم العلمية- أقول لم لم يرجعوا إلى ما جاء في القرآن الكريم عن هذه الأحداث؟ على الأقل ليتثبتوا من صحتها او عدم صحتها، طبقا لما جاء عنها في كتاب الله الكريم، و لكنني لم أكن أهتدي إلى نوع من الإجابة يرضيني، أو على الأقل ينير أمامي الطريق، أزاء موقفهم هذا.

و بقيت كذلك في حيرة من أمري، حتى أكملت دراساتي العليا، و عينت مدرسا للتاريخ القديم بجامعة الإسكندرية في أخريات الستينات من هذا القرن العشرين، و بدأت اتجه نحو القرآن العظيم، نحو المصدر

ص: 12

1- سورة فاطر: آية 31

2- سورة الزمر: آية 2، و انظر الآية 41

3- سورة الجاثية: آية 6

4- سورة محمد: آية 2

5- سورة البقرة: آية 252

6- سورة آل عمران: آية 3

الذي يعلو فوق كل المصادر، ويبدو أنه مما يسر لي ذلك أن تخصصي إنما كان في تاريخ مصر و الشرق الأدنى القديم، فضلاً عن نشأتي في بيئة إسلامية محافظة، في الصعيد الاقصى من أرض الكنانة، هيأت لي المناخ المناسب لحفظ القرآن الكريم، ولم أكن قد تجاوزت العاشرة من عمري بكثير، هذا إلى جانب دراسات إسلامية، قضيت فيها الشطر المبكر من حياتي العلمية في معاهد المعلمين، وأخيراً فلقد كان وجودي بين اعضاء هيئة التدريس في قسم التاريخ، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فرصة طيبة، و حاسمة، للاتجاه إلى دراسة الأحداث التاريخية، التي جاءت في القرآن الكريم.

وهكذا عقدت العزم- بعد أن استخرت الله سبحانه و تعالى- على أن أكتب في الأحداث التاريخية التي تعرض لها القرآن الكريم- دون غيرها- سلسلة من الأبحاث تحت عنوان «دراسات تاريخية من القرآن الكريم (1)» في خمسة أجزاء، والتي أرجو أن يوفقني الله إلى اخراجها في صورة طيبة، وعلى النحو التالي:- 1- دراسات تاريخية من القرآن الكريم- الجزء الأول- في بلاد العرب 2- دراسات تاريخية من القرآن الكريم- الجزء الثاني- في العراق

ص: 13

1- يعني هذا العنوان أن هذه الدراسة في أجزائها الخمسة، لن تتعرض للأحداث التاريخية التي جاءت في غير القرآن الكريم، وإنما سوف تكون مقصورة- إن شاء الله- على ما جاء من محكم التنزيل من أحداث دينية و سياسية، و اقتصادية و اجتماعية ... الخ، في بلاد العرب و في العراق و في مصر و في سورية، ثم يكون ختام المسك من هذه السلسلة، سيرة أشرف الأولين و الآخرين، نبي الرحمة و رسول السلام، رسول الله، صلى الله عليه و سلم، كما جاءت في القرآن الكريم: و لعل هذه الإشارة الموجزة إنما توضح عنوان هذه السلسلة (دراسات تاريخية من القرآن الكريم)، أي التاريخ الذي جاء في القرآن الكريم فحسب، دون التعرض فيها لما جاء في المصادر التاريخية التقليدية، و لم يرد له ذكر في القرآن العظيم.

3- دراسات تاريخية من القرآن الكريم- الجزء الثالث- في مصر 4- دراسات تاريخية من القرآن الكريم- الجزء الرابع- في سورية (فلسطين).

5- دراسات تاريخية من القرآن الكريم- الجزء الخامس- في السيرة النبوية الشريفة.

وأما هذا الجزء الأول من هذه السلسلة، فإنما يتعرض للأحداث التي أشار إليها القرآن، والتي كانت أرض العروبة، و موطنها الأول، مسرحا لها، و من ثم فإننا نراه يتحدث عن إبراهيم الخليل، و عن الكعبة المشرفة، ثم عن العاديين قوم هود، و الثموديين قوم صالح، و المديانيين قوم شعيب، فضلا عن أحداث أخرى كان لها دوي كبير في تاريخ العرب قبل الإسلام، كسيل العرم، و قصة أصحاب الأخدود، و أخيرا غزوة الفيل، و التي كانت واحدة من إرهابات كثيرة، سبقت مطلع النور من مكة المكرمة، حيث ولد خاتم النبيين، و سيد المرسلين، و رسول رب العالمين، محمد رسول الله، (صلى الله عليه و سلم) و أما الفصول الثلاثة الأولى، فكانت دراسة في القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف، و أخيرا علم التفسير، حيث اعتمدت هذه الدراسة على القرآن الكريم، بصفته مصدرها الأول و الأساسي، ثم على حديث رسول (صلى الله عليه و سلم)، و تفسير القرآن الكريم، بصفتهما المفسرين الأساسيين لكتاب الله الكريم، و من هنا كان لزاما علينا أن نقدم للقارئ صورة موجزة عن مصادرنا الأساسية لهذه الدراسة.

و أما غير القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف و علم التفسير من مصادر، لا شك أنها أفادتنا كثيرا في دراستنا هذه، فلم تقدم عنها دراسة مستقلة لأنها مصادر مساعدة أو مصادر ثانوية، لم يكن عمادنا عليها إلا في

ص: 14

تفسير بعض الأحداث، أو تقديم وجهات نظر مختلفة، قد نتفق معها أحيانا، وقد نختلف معها أحيانا أخرى، ولكنها في كل الأحوال مصادر إنسانية- وليست سماوية- ثم إنها ليست مصادر أصيلة في هذه الدراسة التي تبحث في «الدراسات التاريخية من القرآن الكريم».

وبعد: فلعل من حسن الطالع أن يسبغ الله فضله على صاحب هذه الدراسة، وأن تشملها هي عناية الرحمن، فتهيأ لها وسيلة النشر عن طريق جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لتخرجها إلى الناس في ثوب قشيب، جزى الله القائمين بالأمر في هذه الجامعة الإسلامية عن صنيعهم الجميل هذا خير الجزاء.

وأخيرا، فهذا نوع جديد من الدراسة التاريخية، تهيئت كثيرا قبل أن أخوض في غمار بحره المتلاطم، ولكنني وجدت آخر الأمر أن التردد ليس في مصلحة البحث العلمي في كل الأحوال، ثم إنني ما زدت عن كوني باحثا يستحث خطاه في أول الطريق، و من ثم فعليه أن يضع لينة في بناء هذا الصرح الشامخ، وعلى غيره من الباحثين أن يضعوا لبنات أكثر قوة، وأشد رسوخا، حتى تأتي أجيال أخرى فتقيم صرح الدراسات التاريخية القرآنية، كما أقامت أجيال سبقت صرح الدراسات اللغوية والفقهية وغيرها من الدراسات التي اعتمدت على محكم التنزيل، فالقرآن الكريم كان- وما يزال وسيظل أبدا الدهر- «لا يشبع منه العلماء، ولا يملئه الاتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه».

وأملني من الله كبير أن تنال هذه الدراسة بعض الرضا.

«وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

محمد بيومي مهران

إشارة

ص: 17

القرآن الكريم كتاب الله الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (1)»، نزل على رسول الله- صلوات الله وسلامه عليه- منجما في ثلاث وعشرين سنة (2)، حسب الحوادث ومقتضى الحال (3)، وكانت الآيات والسور تدون ساعة نزولها، إذ كان المصطفى (صلى الله عليه وسلم) إذا ما انزلت عليه آية أو آيات، قال: «ضعوها في مكان كذا... من سورة كذا»، فقد ورد أن جبريل- عليه السلام- كان ينزل بالآية أو الآيات على النبي، فيقول له، يا محمد إن الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا»، ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن «توقيفي»، بمعنى أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصحف، إنما هو بأمر ووحى من الله (4)

ص: 19

1- سورة فصلت: آية 42

2- قارن صحيح البخارى 96/6

3- نزل القرآن منجما فيما بين عامي 13 ق.هـ، 11 هـ (610-632 م) لأسباب: منها تثبيت قلب النبي أمام أذى الكافرين، ومنها التلطف بالنبي عند نزول الوحي ومنها التدرج في تشريع الأحكام السماوية، ومنها تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين، ومنها مساندة الحوادث والوقائع والتنبه عليها في حينها، ومنها الارشاد إلى مصدر القرآن وانه تنزيل الحكيم الحميد (محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن ص 40-49، محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص 33، محمد سعيد رمضان: من روائع القرآن ص 36-41) ومنها أن العرب كانوا أمة أمية، والكتابة ليست فيهم رائجة، بل يندر فيهم من يعرفها، وأندر منه من يتقنها، فما كان في استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا نزل جملة واحدة، إذ يكون بسوره وآياته عسيرا عليهم أن يكتبوه وإن كتبوه لا يعدموا الخطأ والتصحيح والتحريف (محمد أبو زهرة: القرآن ص 23-24)

4- نفس المرجع السابق ص 27، 47-49، السيوطي: الاتقان في علوم القرآن 1/48، 63، الزركشي: البرهان في علوم القرآن ص 234، 237، 241، السجستاني: كتاب المصاحف ص 31، مقدمتان في علوم القرآن ص 26-32، 40، 41، 58، تفسير القرطبي 1/60، محمد علي الصابوني: المرجع السابق ص 59

وهكذا تمر الأيام بالرسول الكريم- صلوات الله وسلامه عليه- وهو على هذا العهد، يأتيه الوحي نجما بعد نجم، وكتاب الوحي يسجلونه آية بعد آية (1)، حتى إذا ما كمل التنزيل، وانتقل الرسول الأعظم- عليه الصلاة والسلام- إلى الرفيق الأعلى كان القرآن كله مسجلا في صحف- وإن كانت مفرقة لم يكونوا قد جمعوها فيما بين الدفتين، ولم يلزموا القراءة توالي سورها (2)- وفي صدور الحفاظ من الصحابة- رضوان الله عليهم- هؤلاء الصفوة من أمة محمد النبي المختار، الذين كانوا يتسابقون إلى تلاوة القرآن و مدارسته، ويبدلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه، ويعلمونه أولادهم وزوجاتهم في البيوت، حتى كان الذي يمر ببيوت الأنصار في غسق الدجى، لا يسمع فيها إلا صوت القرآن يتلى، وحتى كان المصطفى- صلوات الله وسلامه عليه- يمر على بعض دور الصحابة، فيقف عند بعضها يستمع القرآن في ظلام الليل، وحتى روي عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالليل بالقرآن، وإن كنت لم أر منازلهم بالنهار» [رواه الشيخان .

ومن هنا كان حفاظ القرآن الكريم في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يحصون، وتلك- ويم الله- عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن

ص: 20

1- لعل أشهر كتاب الوحي- والذين يقال أن عددهم بلغ تسعة وعشرين كتابا- الخلفاء الأربعة وأبي بن كعب وزيد بن ثابت والمغيرة بن شعبة والزبير بن العوام و شريحيل وعبد الله بن رواحه (أنظر فتح الباري 9/18) وكانوا يضعون ما يكتبونه في بيت النبي عليه الصلاة والسلام، ثم يكتبون لأنفسهم منه صورا أخرى يحفظونها لديهم (البرهان 1/238، الاتقان 1/58، محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 34-35، من روائع القرآن ص 49-51)

2- الاتقان في علوم القرآن 1/59، البرهان في علوم القرآن ص 235، مقدمتان في علوم القرآن ص 32، مقدمة كتاب المصاحف لآثر جفري ص 5، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص 49-50

العظيم، حين يسره للحفظ، «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (1)»، فكتب له الخلود، و حماه من التحريف و التبديل، و صانه من تطرق الضياع إلى شيء منه، عن طريق حفظه في السطور، و حفظه في الصدور (2) مصداقا لقوله تعالى «وَأِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (3)»، و قوله تعالى «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (4)»، و قوله تعالى «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (5)».

و لعل من الأفضل هنا أن نشير إلى أن القرآن الكريم، إنما كان مكتوبا كله عند الصحابة، قد لا يكون الأمر كذلك عندهم جميعا، أو عند واحد منهم بعينه، ولكنه كذلك عند الجميع، و أن ما ينقص الواحد منهم يكمله الآخر، و من ثم فقد تضافروا جميعا على نقله مكتوبا، و إن تقاصر بعضهم عن كتابته كمل الآخر، و كان الكمال النقلي جماعيا، و ليس أحاديا

على أن هناك بعض المؤرخين- و كذا بعض المستشرقين- إنما يذهبون إلى أن القرآن الكريم، إنما بقي حتى انتقال الرسول- صلوات الله و سلامه عليه- إلى الرفيق الأعلى، لم يجمع سورا، و لم ينتظم كتابا، فبقيت الآيات التي نزلت فرادى لم تضم إلى غيرها على الصورة التي نراها

(6) محمد أبو زهرة: القرآن ص 28

(7) انظر: عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية 1/250-251

(8) P. 1961, snarauQ sed ethcihseG, ekedleoN. T. 16 و كذا P 1959, naroc ua noitcudortnI, erehcalB. R. 22

ص: 21

1- سورة القمر. آية 32

2- أنظر: الدكتور محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص 12-14

3- سورة فصلت: آية 41-42

4- سورة الحجر: آية 9

5- سورة القيامة: آية 17-19، و انظر: تفسير الطبري 1/95-97

اليوم، فلما كان الجمع رتبت السور و نظمت في كتاب (1)، بل إن بعضهم ليذهب إلى حد ان ينسب إلى زيد بن ثابت، أنه قال: «قبض النبي و لم يكن القرآن جمع في شيء» (2).... إلى غير ذلك من ادعاءات لا يقصد بها وجه الله، فضلا عن البحث العلمي لذاته.

و الحق أن هؤلاء و أولئك قد جانبهم الصواب فيما ذهبوا إليه، فالأمر الذي لا شك فيه أن الآيات إنما جمعت سورا على عهد رسول الله- صلوات الله و سلامه عليه- و بتوقيفه، لأسباب كثيرة، منها (أولا) أن الإمام مالك- رضي الله عنه- كان يقول: «إنما أَلَفَ القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله، (صلى الله عليه و سلم) (3)»، و منها (ثانيا) أن عبد الله بن مسعود يقول: «قرأت من في رسول الله، (صلى الله عليه و سلم)، بضعا و سبعين سورة، و قرأت عليه من (سورة) البقرة إلى قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (4)» (أي إلى آخر الآية: 222)، و منها (ثالثا) ما رواه البخاري و مسلم، عن أنس بن مالك، أنه قال: «جمع القرآن على عهد النبي، (صلى الله عليه و سلم)، أربعة كلهم من الأنصار (5)».

و منها (رابعا) أن زيد بن ثابت قد قرأ القرآن كله على رسول الله، (صلى الله عليه و سلم)، و منها (خامسا) ما تظاهرت عليه الروايات بأن الأئمة الأربعة قد جمعوا القرآن على عهد النبي- عليه الصلاة و السلام- لأجل سبقهم

ص: 22

1- محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر ص 307

2- أنظر: hgrubnidE, dammahom fo efiL ehT, riuM mailiW riS, 1923

3- تفسير القرطبي 1/ 60، محمد أبو زهرة: القرآن ص 48، قارن: مقدمتان في علوم القرآن ص 49

4- نفس المرجع السابق ص 30، تفسير القرطبي 1/ 58

5- الزركشي: البرهان في علوم القرآن 1/ 241-243

للإسلام، وإعظام الرسول، (صلى الله عليه وسلم)، لهم (1)، ومنها (سادسا) ما ورد عن رسول الله، (صلى الله عليه وسلم) - من طريق عثمان رضي الله عنه - من أنه «كان (صلى الله عليه وسلم)، تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: «ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، ومنها (سابعاً) قول زيد بن ثابت:

«كنا عند النبي (صلى الله عليه وسلم)، نؤلف القرآن من الرقاع (2)، مما يدل على أن كتبة الوحي كانوا يتحرون أن تكون آيات كل سورة مجموعة مرتبة، بعضها إلى بعض، في مكان خاص، حتى يسهل عليهم تنفيذ أمر النبي عند ما ينزل الوحي، ليوضع في مكانه المحدد (3).

ومنها (ثامناً) ما روي عن ابن عباس من أن النبي، (صلى الله عليه وسلم)، كان أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي - (صلى الله عليه وسلم) القرآن (4)، وفي حديث فاطمة الزهراء - رضي الله عنها وأرضاها - قالت: «أسر إلي النبي، (صلى الله عليه وسلم)، أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضور أجلي» (5).

ومنها (تاسعاً) ما جاء في قصة إسلام عمر بن الخطاب، من أن الرجل قد شكاه ما أحدثه الدين الجديد من فرقة بين أهل مكة،

ص: 23

1- محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر ص 308-309

2- الاتقان في علوم القرآن 60/1، مقدمتان في علوم القرآن ص 41-42

3- عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن. القاهرة 1966 ص 78-79

4- نفس المرجع السابق ص 52، صحيح البخاري 287/1 (طبعة المطبعة البهية 1299 هـ).

5- ابن كثير: فضائل القرآن ص 44، البرهان 232/1، مقدمتان في علوم القرآن ص 26، مدخل إلى القرآن الكريم ص 36، مجموع فتاوى

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية 395/13

اضطرت كثيرين منهم إلى الهجرة إلى الحبشة، فهداه تفكيره إلى أن الخلاص من هذه الأزمة الحادة، إنما يكمن في «قتل محمد الذي فرق أمر قريش وعاب دينها»، و من ثم فقد خرج متوشحاً سيفه، فلقبه نعيم بن عبد الله، وأخبره أن اخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن الخطاب، قد أسلما و تابعا محمداً، فما كان من عمر إلا أن أسرع إليهما، وهناك سمع عندهما من يقرأ القرآن، فبطش بهما حتى شج أخته، غير أنه ما لبث غير قليل، حتى ندم على ما أصابها، و طلب منها أن تعطيه الصحيفة التي كانوا يقرءون فيها- و كان بها سورة طه- وقرأ ابن الخطاب ما بالصحيفة، فأخذه إعجازها و جلالها و سمو الدعوة التي تدعو إليها، فذهب إلى الرسول- (صلى الله عليه و سلم) و أسلم على يديه (1)، و ليس من شك في أن هذه الصحيفة لم تكن إلا واحدة من صحف كثيرة متداولة بين أيدي الذين أسلموا من أهل مكة، سجلت سورا أخرى من القرآن الكريم، و لقد ظل الرسول (صلى الله عليه و سلم) بين المسلمين في مكة و المدينة ثلاث عشرة سنة بعد إسلام عمر، كان يقول خلالها لأصحابه «لا- تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه»، و كان طبعاً أن يكتب الصحابة كل ما يستطيعون كتابته من القرآن لتلاوته في الصلاة، و لمعرفة أحكام الدين الذي يؤمنون به، كما كان يكتب القرآن كذلك أولئك الذين كان يوفدهم النبي إلى القبائل لتعليم أهلها القرآن، و تفتيحهم في الدين، و هم لم يكونوا يكتبونه آيات متقطعة، بل سورا متصلة، يملئها رسول الله، (صلى الله عليه و سلم) (2).

و منها (عاشراً) أن ما كان يوحى إلى النبي متصلاً بوحى سبق إليه

ص: 24

-
- 1- ابن الاثير: الكامل في التاريخ 2/ 84-87، ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب ص 11-12، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص 173-174
 - 2- محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر ص 309-310

كان الوحي يلحقه به، و من ذلك أن جبريل قال للنبي (صلى الله عليه و سلم) حين أوحى إليه قوله تعالى «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» «يا محمد ضعها في رأس ثمانين و مائتين من البقرة (1)»، و منها (حادي عشر) إن ترتيب السور و وضع البسملة في الأوائل، إنما هو توقيف من النبي، عليه الصلاة و السلام، حتى أنه عند ما لم يؤمر بذلك في أول سورة براءة، تركت بلا بسملة، و الأمر كذلك بالنسبة إلى تقديم سورتى البقرة و آل عمران، رغم نزول بضع و ثمانين سورة قبلهما، ذلك لأنه (صلى الله عليه و سلم) كان يقول: «ضعوا هذه السورة موضع كذا و كذا من القرآن (2)».

و منها (ثاني عشر) أن رسول الله (صلى الله عليه و سلم)، كثيرا ما كان يتلو في الصلاة- و في غير الصلاة- سورة كاملة، منها البقرة و آل عمران و النساء و الاعراف و النجم و الرحمن و القمر و الجن و غيرها، و هذا كله صريح في الدلالة على أن ترتيب الآيات في السور قد تم بتوقيف النبي، و أنه قبض و هذا الجمع تام معروف للمسلمين، ثابت في صدور القراء و الحفاظ (3)، و منها (ثالث عشر) ما نقله الرواة من أن رسول الله، (صلى الله عليه و سلم)، قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: اقرأ القرآن في كذا ليلة يدعوه إلى التيسير، و هو يقول: إني اطيق أكثر من ذلك، إلى أن قال له: اقرأ القرآن في ثلاث ليال (4)، و منها (رابع عشر) أن هناك كثيرا من أحاديث الرسول، (صلى الله عليه و سلم)، تتحدث عن فضائل سور معينة (5).

ص: 25

1- نفس المرجع السابق ص 310، تفسير القرطبي 1/ 60-61، مقدمتان في علوم القرآن ص 41،

2- تفسير القرطبي 1/ 59-60، 61/ 8

3- مقدمتان في علوم القرآن ص 26-27، 29-31، الصديق ابو بكر ص 311

4- انظر روايات أخرى للحديث الشريف (مقدمتان في علوم القرآن) ص 27-28

5- مقدمتان في علوم القرآن ص 29-30، 64-74 [مقدمة كتاب المباني و مقدمة ابن عطية، و قد صححه و نشره الدكتور آرثر جفري-

القاهرة 1954 م

ومنها (خامس عشر) ما تدل عليه الأخبار المروية عن النبي (صلى الله عليه و سلم)، في تسمية سورة «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» فاتحة الكتاب، فلو لا أنه (صلى الله عليه و سلم)، أمر اصحابه بأن يرتبوا هذا الترتيب عن أمر جبريل عليه السلام، عن الله عز و جل، لما كان لتسمية هذه السورة «فاتحة الكتاب» معنى، إذ قد ثبت بالإجماع أن هذه السورة ليست بفاتحة سور القرآن نزولا، فثبت أنها فاتحة نظما و ترتيبا و تكلما، (1)، و منها (سادس عشر) ما يروى عن ابن عباس أن النبي، (صلى الله عليه و سلم)، لم يكن يعلم ختم السورة حتى نزل «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، و هذا أيضا من أدل الدليل على أن ترتيب السور التي في أيدينا هو ما كان عليه في اللوح المحفوظ (2)، و أن السورة كانت تنزل في أمر يحدث، و الآية جوابا لسؤال، و يوقف جبريل رسول الله على موضع السورة و الآية، فاتساق السور كاتساق الآيات و الحروف، فكله عن رسول الله، عن رب العالمين، فمن آخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات، و غير الحروف و الكلمات (3).

[2] جمع القرآن في عهد أبي بكر

و جاء الصديق - رضي الله عنه و أرضاه- (11- 13 هـ - 632-634 م)، و كانت حروب الردة التي أبلى المسلمون فيها بلاء حسنا، و ليس من شك في أن أشدها عنفا و ضراوة، تلك التي دارت رحى الحرب فيها بين المسلمين - بقيادة خالد بن الوليد من ناحية، و بين المرتدين - بقيادة مسيلمة بن حبيب الكذاب - من ناحية أخرى، في

ص: 26

1- نفس المرجع السابق ص 41-42

2- نفس المرجع السابق ص 41

3- تفسير القرطبي 1/ 50-51، 61 (القاهرة 1967)

مكان من الصحراء في طرف اليمامة يسمى «عقرباء» (1)، وانتهت بفرار مسيلمة وأتباعه، إلا أن المسلمين تبعوه، واشتبك الفريقان من جديد، وقتل مسيلمة وعشرة آلاف من أتباعه، كما استشهد كثير من وجوه المسلمين وقراء القرآن الكريم- قيل سبعون، وقيل قريب من خمسمائة، وقيل سبعمائة- وسمي المكان الذي دارت فيه المعركة «حديقة الموت»، كما سمي يوم المعركة «يوم اليمامة» (2).

وبدأ عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يحس بالخطر الداهم، الذي لاحت نذره في معركة اليمامة، ويوشك أن يلتهم كل حفاظ القرآن من الصحابة- رضي الله عنهم- وهم الشهود العدول على وثيقة النص المكتوب، وقد كان مفرقا في لخاف وكرانيف وعسب. أضلاع و أكتاف، إلى جانب ما كان في الصدور، ولم يأخذ بعد صورة الكتاب الواحد، اللهم إلا في صدور الصحابة الذين جمعوه حفظا في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد بدأت الحرب تقرضهم واحدا إثر واحد (3).

وهكذا- وكما يروي الإمام البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت (4)- أن الفاروق عمر جاء إلى أبي بكر، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء في كل المواطن،

ص: 27

-
- 1- أنظر عن «عقرباء»: ياقوت 135/4، البكري 950/3، كتاب الحربي ص 616 (حيث يضعها مكان بلدة الجبيلية الحالية على ضفة وادي حنيفة) ثم قارن: صحيح الأخبار 196/1، 169/2، 93/5
 - 2- ياقوت 232/2، 442/4، مروج الذهب 303/2، تاريخ ابن خلدون 74/2-76 من القسم الثاني، صحيح الأخبار 196/1، ابن الاثير 367-360/2، تاريخ الطبري 301-281/3، الاتقان 59/1، تفسير القرطبي 50/1، فضل القرآن ص 15-17، الصديق ابوبكر ص 152-168
 - 3- عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص 102
 - 4- صحيح البخاري 196/2 (طبعة البهية)

فيذهب من القرآن كثير، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن»، و يتردد الصديق بعض الوقت، خشية إن يفعل ما لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه و سلم) ثم ما يلبث أن يشرح الله صدره لهذا العمل الجليل، فيأمر باستدعاء زيد بن ثابت، حيث يكلفه بجمع القرآن، و يتردد زيد- كما تردد الصديق من قبل- لأنه لا يريد كصحابي أن يقوم بعمل ما لم يقم به النبي أو يأمر به، ولأنه كمؤمن يتحاشى مثل هذا العمل الخطير خشية أبطأ الأخطاء و أتعهاها في تنفيذ مهمته، و أخيرا يشرح الله صدره لذلك، و يتم الأمر بما كان محفوظا في صدور الرجال، و بما كان يكتب بين يدي رسول الله- (صلى الله عليه و سلم) و يحفظ المصحف الشريف عند الصديق، ثم عند الفاروق عمر (13- 23 هـ- 634- 644 م) من بعده، ثم عند أم المؤمنين «حفصة بنت عمر»- رضي الله عنهم أجمعين (1).

و لعل هدف الفاروق- رضي الله عنه و أرضاه- من هذه الطريقة لم يقتصر على حفظ المدون من التنزيل في مأمن من الأخطار، و في صورة يسهل الرجوع إليها، و إنما كان يقصد أيضا إقرار الشكل النهائي لكتاب الله الكريم و توثيقه عن طريق حفظه الباقين على قيد الحياة، و اعتماده من الصحابة الذين كان كل منهم يحفظ منه أجزاء كبيرة أو صغيرة (2).

ص: 28

-
- 1- الانتان 59/1-60، ابن الاثير 112/3، تفسير الطبري 59/1-62، كتاب المصاحف ص 5-10، 20، فضائل القرآن ص 14-16، مقدمتان في علوم القرآن ص 17-21 و كذا البرهان في علوم القرآن ص 233-234، 239، تفسير القرطبي 49/1-50، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص 50-51، الصديق أبو بكر ص 303-312، محمد أبو زهرة القرآن ص 30-31، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص 251-252 و كذا 2- 1261. IE, 14, PP.
 - 2- محمد عبد الله دراز: مدخل الى القرآن الكريم ص 36، و انظر: م. ج رستوفدوني: تاريخ القرآن و المصاحف ص 26-27 (مترجم).

ولعل من الأهمية بمكان هنا الإشارة إلى أن الخليفة الراشد أبا بكر الصديق كان موقفاً التوفيق كل التوفيق في مهمته الجليلة- والخطيرة كذلك- لثقة الناس فيه (1)، ثم لاختياره للصحابي الجليل «زيد بن ثابت»، ذلك الاختيار الذي توفرت له كل عوامل النجاح، لأسباب منها (أولاً) أن زيدا كان شاباً، ومن ثم فهو أقدر على العمل من غيره، وهو لشابه أقل تعصبا لرأيه واعتزازه بعلمه، وذلك يدعو إلى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ، والتدقيق في الجمع دون إيثار لما حفظه هو، ومنها (ثانياً) أن زيدا إنما كان من حفاظ القرآن الكريم، فقد وعاه كله، ورسول الله حي، ثم هو (ثالثاً) من كتاب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو فوق ذلك، كان معروفاً بشدة ورعه، وعظم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، فضلاً عن نبوغ وذكاء، ولعل كل ذلك، ما كان يعنيه الصديق من قوله: «إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله، (صلى الله عليه وسلم)، فاتبعت القرآن فأجمعه» (2)، ومنها (رابعاً) أنه من المتواتر أن زيدا إنما حضر العرصة الأخيرة للقرآن، حين عرضه رسول الله على جبريل للمرة الثانية، في السنة التي كانت فيها وفاته، (3)، ومنها (خامساً) أن زيد بن ثابت- وإن كان في حادثة من السن في جانب أكابر الصحابة- فقد كان من أكابرهم في الفقه والرأي، وكانت الرئاسة له بالمدينة في القضاء والفتيا،

ص: 29

P, tic- op, ekedleoN. T .205 -1

2- الاتقان 59/1 البرهان ص 233، تفسير القرطبي 50/1، فضائل القرآن ص 14، تاريخ القرآن للزنجاني ص 17، مقدمتان في علوم القرآن 18، 25، 26، 51، 52، وأنظر لوبلوا حيث يقول- بعد أن أورد هذه الرواية- «من ذا الذي لم يتمن لو أن أحدا من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة» (P, 1887, siraP, euqiarbeH elbiB al te naroK el, siolbeL. 47)

3- تفسير القرطبي 53/1، محمد أبو زهرة: القرآن ص 28، عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص 107، محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر ص 321

و بدهي أن عمليه جمع القرآن لم يقم بها زيد بن ثابت وحده، و إنما عاونه فيها الحفظه الكرام من صحابه النبي الاعلام، و أن زيدا سلك في سبيل الجمع الخطة المثلئ، فما كان ليعتمد على حفظه- و إنه لحافظ- و لا على حفظ من استعان بهم- و انهم لحفاظ أمناء- و لكنه كان لا بد أن يعتمد على أمر مادي، يرى بالحس و لا يحفظ بالقلب وحده، فكان لا بد أن يرى ما حفظه مكتوبا في عصر النبي، (صلى الله عليه و سلم) و أن يشهد شاهدان بأنهما هكذا رأوا ذلك المكتوب في عصر النبي، و ياملانه عليه الصلاة و السلام، و قد تتبع القرآن بذلك آية آية، لا يكتب إلا ما رآه مكتوبا عن النبي، (صلى الله عليه و سلم)، في عهده، و يشهد شاهدان أنهما رأيا ذلك المكتوب في عهد النبي و نقلاه، أو يرى ذلك المكتوب عند اثنين، فهو شهادة كاملة منهما (2)، و يروي ابن أبي داود- من طريق هشام بن عروة عن أبيه- أن أبا بكر قال لعمر و زيد: «أقعدا على باب المسجد، فمن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه» (3).

و هكذا يمكننا القول أن زيدا اتبع طريقة في الجمع نستطيع أن نقول عنها في غير تردد، أنها طريقة فذة في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية، و أنها طريقة التحقيق العلمي المألوف في العصر الحديث، و أن الصحابي الجليل قد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة، و أن هذه الدقة في جمع القرآن، متصلة بإيمان زيد بالله، فالقرآن كلام الله جل شأنه، فكل تهاون في أمره أو إغفال للدقة في جمعه و زر ما كان أحرص زيدا- في حسن إسلامه و جميل صحبته لرسول الله- أن يتنزه عنه، و لقد شهد المنصفون من

ص: 30

1- احمد أمين: فجر الاسلام ص 175، مقدمتان في علوم القرآن ص 50-51

2- محمد أبو زهرة: القرآن ص 31-32، الاتقان في علوم القرآن 60/1

3- عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص 106، الاتقان 60/1

المستشرقين جميعاً بهذه الدقة، حتى ليقول «سير وليم موير»، «و الأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل أربعة عشر قرناً كاملاً بنص هذا مبلغ صفائه ودقته» (1).

ويعلق الاستاذ أبو زهرة على هذا العمل الجليل الذي اشترك فيه الشيخان- أبو بكر وعمر- وحمل عبأه زيد بن ثابت، مع جمع من المهاجرين والأنصار، بحقيقتين هامتين، تدلان على إجماع الأمة كلها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل، وأنه مصون بصيانة الله سبحانه وتعالى له، ومحفوظ بحفظه، وإلهام المؤمنين بالقيام عليه وحياطته، أما أولى الحقيقتين، فهي أن عمل زيد هذا لم يكن كتابة مبتدأة، ولكنه إعادة لمكتوب، فقد كتب القرآن كله في عهد النبي، (صلى الله عليه وسلم) وعمل زيد الابتدائي هو البحث عما كتب عليه والتأكد من سلامته، بشهادة اثنين على الرقعة التي توجد فيها الآية أو الآيات أو الآيات، وبحفظ زيد نفسه، وبالحفاظين من الصحابة- وقد كانوا الجرم الغفير والعدد الكبير- فما كان لأحد أن يقول إن زيدا كتب من غير أصل مادي قائم، بل إنه أخذ من أصل قائم ثابت مادي، وأما الحقيقة الثانية، فهي أن عمل زيد لم يكن عملاً أحادياً، بل كان عملاً جماعياً من مشيخة صحابة رسول الله، (صلى الله عليه وسلم)، فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده من القرآن شيء مكتوب أن يجيء به إلى زيد، وإلى كل من يحفظ القرآن أن يدلي إليه بما يحفظه، واجتمع لزيد من الرقاع والعظام وجريد النخل ورقيق الحجارة، وكل ما كتب أصحاب رسول الله، وعند ذلك بدأ زيد يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه، ولا يثبت آية إلا إذا اطمان إلى اثباتها، كما أوحيت إلى رسول الله، واستمر الأمر كذلك، حتى إذا ما أتم زيد ما

ص: 31

1- محمد حسين هيكل: المرجع السابق ص 323، وكذا 1923، hgrubnidE ,malsI fo yrotsiH dna dammahom fo efiL, ehT ,riuM mailliW riS

كتب، تذاكره الناس، و تعرفوه و أفروه، فكان المكتوب متواترا بالكتابة، و متواترا بالحفظ في الصدور، و ما تمّ هذا لكتاب في الوجود غير القرآن، و تلك- و يم الله- عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن العظيم (1).

[3] مصحف عثمان

و تمر الأيام، و تمضي السنون، و في عهد ذي النورين- عثمان بن عفان، رضي الله عنه و أرضاه- (24-35 هـ- 644-656 م) تتسع الفتوحات الإسلامية، و يتفرق المسلمون في الأقطار و الأمصار، و يشرح الله صدر الخليفة الراشد إلى جمع القرآن الكريم في مصحف واحد، و ذلك في العام الرابع و العشرين (أو أوائل الخامس و العشرين) من هجرة المصطفى- عليه الصلاة و السلام- ثم كتب منه سبعة مصاحف (2)، و بعث منها إلى كل من مكة و الشام و اليمن و البحرين و البصرة و الكوفة، و حبس بالمدينة واحدا (3)، و يبدو أن عبد الله بن مسعود، قد خالطه شيء من غضب- كما سنوضح ذلك فيما بعد- و من ثم فقد أمر أصحابه بغل مصاحفهم، لما أمر عثمان بحرق ما عدا المصحف الإمام، غير أن الصحابي الجليل سرعان ما عاد إلى رأي جماعة المسلمين، و يروى أن الإمام علي- كرم الله وجهه- قال: «لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا»، و هكذا يتفق الأئمة الأربعة (أبو بكر و عمر و عثمان و علي)، على أن ذلك العمل العظيم، إنما كان من

ص: 32

- 1- محمد أبو زهرة: القرآن ص 33-35، الصديق أبو بكر ص 322-323
- 2- اختلف العلماء في عدد هذه المصاحف، فمن قائل أنظر أربعة، و أن الخليفة بعث بها إلى الكوفة و البصرة و الشام، و ترك واحدا بالمدينة، و من قائل خمسة، و من قائل أنها سبعة (الاتقان 1/ 62، البرهان 2/ 240 و كذا P, tic- po, ekedleoN. T. 234)
- 3- كتاب المصاحف ص 34

مصلحة الدين (1) ويرى العلماء أن الفرق بين جمع أبي بكر و جمع عثمان، أن الأول كان عبارة عن جمع القرآن و كتابته في مصحف واحد مرتب الآيات على ما وقفهم عليه النبي (صلى الله عليه و سلم) خشية أن يذهب من القرآن شيء، بسبب موت كثير من الحفاظ بعد موقعة اليمامة، و أن الثاني كان عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر لترسل إلى البلاد الإسلامية، و أن السبب في ذلك، إنما هو إختلاف بعض القراء في قراءة آيات من القرآن الكريم، ذلك أن «حذيفة بن اليمان»- فيما يروي الإمام البخاري في باب فضل القرآن، عن أنس بن مالك- قدم علي علي عثمان بن عفان، بعد غزوة في أذربيجان و أرمينية، رأى فيها القوم من أهل العراق و الشام مختلفين على قراءة القرآن، فأخبره بالذي رأى، و طلب منه أن يدرك الأمة قبل أن يختلفوا في القرآن إختلاف اليهود و النصارى في الكتب، و من ثم فإن الخليفة سرعان ما يرسل في طلب المصحف الذي عند حفصة، و يأمر زيد بن ثابت و سعيد بن العاص و عبد الله بن الزبير و عبد الرحمن بن هشام، أن ينسخوها في المصاحف، و قال لهم: «إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم»، ففعلوا ذلك حتى كتبت في المصاحف (2). و يروى أن هناك خلافا قد حدث على كتابة كلمة

ص: 33

-
- 1- فضائل القرآن ص 18-19 البرهان 230/1، تفسير القرطبي 52/1-55، فتاوى ابن تيمية 4/399-400، محمد أبو زهرة: القرآن ص 44-46، و كذا 92. P, 2. 1938, snaruQ sed ethcihcseG, yllawhcS.
- 2- الإتيان 60/1-63، فتاوى ابن تيمية 15/251-252، تفسير القرطبي 1/60-62، السجستاني ص 18-26 صحيح البخاري 6/98، فضائل القرآن ص 19، مقدمتان في علوم القرآن ص 51-52، فتاوى ابن تيمية 13/396، قارن 13/409-410، و كذا 53. P, tic- po, erehcalB. R و كذا 1078. P, IE. المرجع السابق ص 250-252

«التابوت» التي جاءت في قوله تعالى: «إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ» (1)، أ يكتبونه بالتاء أو الهاء، فقال زيد: إنما هو «التابوة»، وقال الثلاثة القرشيون: إنما هو «التابوت»، فترجعوا إلى عثمان، فقال: اكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم» (2).

و القضية التي ينبغي أن نناقشها الآن- فيما يرى الدكتور عبد الصبور شاهين- هي أهمية عمل عثمان من الناحية القرآنية، فإذا كان عمل عثمان مقتصرًا على نسخ مصاحف عدة من المصحف الذي كتبه زيد في عهد أبي بكر، فأية قيمة يمكن أن تكون لهذا العمل؟ وقد يزداد الأمر أهمية، إذا ما علمنا أن مصحف أبي بكر كان مكتوبًا- كما هو المنطق- على حرف واحد، والأمر كذلك بالنسبة إلى كتاب الوحي على عهد رسول الله، وإذا كان زيد بن ثابت- طبقًا لما ورد في الأحاديث الصحيحة- من أكثر كتاب الوحي ملازمة لرسول الله، (صلى الله عليه وسلم) ثم هو قد قام بكتابه على عهد أبي بكر، وعلى عهد عثمان، فإن ذلك يدلنا على أن منهج الكتابة كان واحدًا في المراحل الثلاثة تقريبًا، إلا- ما ارتآه عثمان من تجريد رسمه من الإعجام حتى يتسع الرسم لكثير من الوجوه التي صح نقلها عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، أي إضفاء صفة الشرعية على القراءات المختلفة التي كانت تدخل في إطار النص المدون، ولها أصل نبوي مجمع عليه، ثم إن هدفًا آخر قد تحقق بعمل عثمان، هو التقريب اللغوي ما بين وجوه القراءة المتلوة آنذاك في الأمصار المختلفة، والقضاء على الخلاف الذي كاد أن يعصف

ص: 34

-
- 1- سورة البقرة: آية 248 وانظر: و تفسير الطبري 5/ 315-328، تفسير الكشاف 1/ 293-294 (دار الكاتب العربي- بيروت)، تفسير ابن كثير 1/ 445-446، تفسير و جدي ص 51
 - 2- تفسير القرطبي 1/ 54، فضائل القرآن ص 20، البرهان 1/ 376، الانتان 1/ 98، مدخل إلى القرآن الكريم ص 38-39، مقدمتان في علوم القرآن ص 19، محمد أبو زهرة ص 39

بوحدة الجماعة، أي أن عمل عثمان كان من مقاصده أساسا نشر النص القرآني بلسان قريش، وإرساء هذا التقليد اللغوي الذي سبقته مقدمات كثيرة في عهد أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، ذلك لأن الخليفة الراشد إنما كان يعتبر التمارى في القرآن نوعا من الكفر (1).

ومن ثم فليس صحيحا ما ذهب إليه البعض من أنه قد يكون هناك غرض سياسي بقصد التقليل من نفوذ القراء الذي تزايد بسبب أنهم وحدهم الذين يعرفون مضمون القرآن، بأن يوجد له نصا مقروءا (2)، فما كان للسياسة دخل عند صحابة رسول الله في شئون القرآن الكريم.

وعلى أي حال، فلقد ساعد عثمان على تحقيق أهدافه من جمعه للقرآن، أنه قد أمر بإحراق كل ما عدا مصحفه من صحف أو مصاحف كان قيدها الصحابة والآخذون عنهم، وقد انصاع الناس لأمره في سائر الأمصار، فيما عدا ما روي عن عبد الله بن مسعود من أنه عارض ذلك، وأمر الناس في الكوفة بالتمسك بمصحفه- كما أشرنا آنفا- لشبهة اعترته، هي ظنه أن زيادا قد انفرد بالعمل، وقد كان هو أولى من يقوم به، فلما علم بعد ذلك أن موقفه قائم على شبهة لا أكثر، وأن المصحف الذي أرسله عثمان هو نسخة من جمع أبي بكر، الذي أخذ عن صدور الرجال، وعن العصب واللخاف، التي كتبت على عهد رسول الله ويا ملاحئه، وإن زيادا لم ينفرد بالعمل، بل شاركه فيه جمع كبير من الصحابة، وأجمع عليه المسلمون جميعا، وافق اقتناعا أولا، وحفاظا على وحدة الأمة ثانيا، وبذلك تمت موافقة الأمة كلها على مصحف عثمان، حتى قال مصعب بن

ص: 35

1- عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص 116-117، البرهان 1/ 235-236، البخاري 3/ 196-197

2- عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص 252، قارن 60-56. R. erehcalB. PP tic-co

سعد: «أدرکت الناس متوافرين حين أحرق عثمان المصحف، فأعجبهم ذلك، وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد»، وقال الإمام علي - كرم الله وجهه - لرجل كوفي عاب عثمان بجمع الناس على المصحف، «اسكت، فمن ملأ منا فعل ذلك، فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكت سبيله» (1).

و يقرر «نولدكه» أن ذلك كله يعد أقوى دليل على أن النص القرآني على أحسن صورة من الكمال و المطابقة (2)، كما يؤكد «لوبلوا» أن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير (3)، و كان «سيروليم موير» قد أعلن من قبل: أن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، و لقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها و المتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، و هذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة و دليل على صحة النص المنزل الموجود معنا (4).

و هكذا يبدو واضحاً - من كل ما سبق - أنه ليس صحيحاً ما يزعمه البعض من أن جمع القرآن قد تأخر إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان (5)،

ص: 36

1- عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص 117، كتاب المصاحف ص 13-18، فضائل القرآن ص 22-23، تفسير القرطبي 1/52-54، مقدمتان في علوم القرآن ص 45-46، ابن الاثير 3/111-112، محمد أبو زهرة: القرآن ص 44، مدخل الى القرآن الكريم ص 49-50

2- P, tic- po, ekedleoN. T .93

3- مدخل إلى القرآن الكريم ص 40 و كذا، tic- po siolbeL,

4- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 40، و كذا dammahom fo efiL ehT, riuM. W temohaM, erialiH. tS. B و كذا P, narok el te .33

5- عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص 18، و كذا 59-55 P. P. malsI, emuatliuG. A .55

ذلك لأن القرآن الكريم كان كله مسجلا في صحف- وإن كانت مفرقة- وفي صدور الصحابة، قبل أن ينتقل الرسول (صلى الله عليه و سلم) إلى الرفيق الأعلى، وأنه قد جمع في مصحف واحد على أيام الصديق، وأن هذا المصحف قد أودع عنده، ثم عند الفاروق من بعده، ثم عند حفصة أم المؤمنين (1)، وفي عهد عثمان- رضي الله عنهم أجمعين- نسخت منه عدة نسخ أرسلت إلى الآفاق الإسلامية، بمشورة من حضره من صحابة رسول الله، (صلى الله عليه و سلم)، وأن الإمام علي- كرم الله وجهه- قد ارتضى هذا العمل الجليل و حمد أثره (2)، ومعنى هذا ببساطة أن المصحف الذي كتب على أيام أبي بكر- هو نفس المصحف الذي كتب على أيام الرسول- صلوات الله و سلامه عليه- و هو نفسه الذي كتب على أيام عثمان (3)، و بالتالي فإن كل قراءة قرآنية يجب أن تكون متفقة مع نصه، و أن الشك فيه كفر، و أن الزيادة عليه لا تجوز، و أنه القرآن المتواتر الخالد إلى يوم القيامة (4).

ص: 37

- 1- فضائل القرآن ص 15، كتاب المصاحف ص 5، مقدمتان في علوم القرآن ص 23، البرهان 59/1
- 2- هناك رواية تنسب فضل السبق في جمع القرآن إلى الإمام علي كرم الله وجهه، إذ يروي أشعث عن ابن سيرين أنه لما توفي الرسول (صلى الله عليه و سلم)، أقسم على ألا يرتدي برداء إلا- لجمعة، حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل، فأرسل أبو بكر إليه بعد أيام: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: لا و الله، إلا أنني أقسمت ألا ارتدي برداء إلا لجمعة، فبايعه ثم رجع، و يقول السجستاني: أن أحدا لم يذكر كلمة مصحف إلا أشعث، و هو لين الحديث، و إنما رووا حتى أجمع القرآن، يعني أتم حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن، قد جمع القرآن (انظر: كتاب المصاحف ص 10، الاتقان 59/1، تاريخ القرآن ص 104-105) و الأمر كذلك بالنسبة الى جمع عمر بن الخطاب (كتاب المصاحف ص 10-11) إلا إذا كان المراد أول من أشار بجمعه (الاتقان 58/1)
- 3- للمقارنة بين تدوين القرآن الكريم و غيره من الكتب المقدسة، أنظر عن التوراة (كتابنا إسرائيل ص 24-45) و عن الانجيل (المدخل الى الكتاب المقدس، احمد شلبي: المسيحية ص 153-160)
- 4- محمد أبو زهرة: القرآن ص 43، تفسير القرطبي 80/1-86، فتاوى ابن تيمية 420/13-421، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص 51-55، و كذا XXIX- VIX. P, tic- po, riuM. W

القرآن الكريم كمصدر تاريخي لا ريب أنه أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق، فهو موثوق السند- كما بيّنا آنفا- ثم هو قبل ذلك وبعده كتاب الله الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميدٍ (1)»، ومن ثم فلا سبيل إلى الشك في صحة نصه (2) بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل، فقد دون في البداية بإملاء الرسول، (صلى الله عليه وسلم)، و تلي فيما بعد و حمل تصديقه النهائي قبل وفاته (3)، ولأن القصص القرآني إنما هو أنباء وأحداث تاريخية، لم تلتبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع (4)، وأنه كما يقول سبحانه وتعالى «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ» (5)، ثم أن الله عز وجل قد تعهد- كما أشرنا من قبل- بحفظه دون تحريف أو تبديل.

ويرى الدكتور دراز أن تسمية القرآن الكريم، بالقرآن وبالكتاب، إنما تعني الأولى كونه متلوا بالألسن، بينما تعني الثانية كونه مدونا بالأقلام، وأن في تسمية القرآن الكريم بهذين الاسمين، إشارة إلى أن الله سوف يحفظه في موضعين، لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر الأخرى، فلا ثقة لنا لحفظ حافظ، حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح

ص: 38

1- سورة فصلت: آية 42

2- طه حسين: في الأدب الجاهلي- القاهرة 1933 ص 68

3- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 49

4- عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني، القاهرة 1964 ص 52

5- سورة الإسراء: آية 105

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها، بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعده الله الذي تكفل بحفظه، حيث يقول «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (2)، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس، فقال تعالى: «وَالرَّبَّائِيُونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ» (3)، أي بما طلب إليهم حفظه، والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأييد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة، زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان ساداً مسدها ولم يكن شيء فيها يسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم (4).

غير أنني أودّ أن أنبه - بعد أن أستغفر ربي العظيم كثيراً - إلى أن القرآن الكريم لم ينزل كتاباً في التاريخ، يتحدث عن أخبار الأمم، كما يتحدث عنها المؤرخون، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للتي هي أقوم (5)، أنزله الله، سبحانه وتعالى - ليكون دستوراً للمسلمين، ومنهاجاً يسيرون

ص: 39

1- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ونظرات جديدة في القرآن من 12، 13

2- سورة الحجر: آية 9

3- سورة المائدة: آية 44

4- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص 13، 14

5- سورة الإسراء: آية 9

عليه في حياتهم، يدعوهم إلى التوحيد (1) وإلى تهذيب النفوس، وإلى وضع مبادئ للأخلاق (2)، و ميزان للعدالة في الحكم (3)، و استنباط لبعض الأحكام (4)، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية، فإنما للعبرة والعظة (5).

وفي الواقع إن في القرآن الكريم لقصصا شتى من غير قصص الدعوة، أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة، ولكنها تتراد كذلك لعبرتها، ولا تتراد لأخبارها التاريخية، ومنها قصة يوسف، وقصة إسماعيل عليهما السلام، فقصة يوسف قصة إنسان قد تمرس منذ طفولته بأفات الطبائع البشرية، من حسد الأخوة، إلى غواية المرأة، إلى ظلم السجن، إلى تكاليف الولاية و تدبير المصالح في إبان الشدة والمجاعة، وقصة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنسانية من عهد الطفولة كذلك، فيصاب بالغرابة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد والماء، وإن كان الأخطر من ذلك كله أن تكتب عليه التجارب الإنسانية ضريبة الفداء، وهي في مفترق الطرق بين الهمجية التي كانت- في معظم مجتمعات الشرق القديم- لا تتورع عن الذبائح البشرية، وبين الإنسانية المهذبة التي لا تأبى الفداء بالحياة، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان، ثم يكتب لهذا الغلام الوحيد بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم، أن تنتمي إليه أمة ذات شعوب وقبائل تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام (6).

ص: 40

- 1- انظر مثلا في قصة نوح (سورة نوح آية 2-20) وفي قصة يوسف (يوسف: آية 37-40) وفي قصة عيسى (النساء: آية 171-172، آل عمران: آية 59، المائدة: آية 71، 76)
- 2- أنظر مثلا (البقرة: آية 44، الاعراف: آية 85-87، هود: آية 84-88)
- 3- أنظر مثلا في قصة داود (ص: آية 21-26)
- 4- أنظر مثلا في قصة هابيل وقايل (المائدة: آية 27-32، 42-50، البقرة: آية 178-179)
- 5- راجع عن أهداف القرآن ومقاصده: تفسير المنار 1/206-293
- 6- عباس العقاد: الإسلام دعوة عالمية ص 218-219

وهكذا، وعن طريق القصص القرآني، يقدم لنا كتاب الله العزيز، معلومات هامة عن عصور ما قبل الإسلام وأخبار دولها، أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد، فيقدم لنا- عن طريق قصة موسى- كثيرا من المعلومات عن الملكية الإلهية في مصر الفرعونية، وعن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها (1)، والأمر كذلك بالنسبة إلى قصة إبراهيم، حيث تقدم لنا الكثير عن العراق القديم (2).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم، إنما هما قصتا إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهما قصتان مسهبتان في أجزاءه، ربما لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارة الإنسانية وهما أمة وادي النهرين وأمة وادي النيل، ومن أجل ذلك كانت القصتان أو في القصص بين جميع قصص الأنبياء، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم (3).

وأما عن بني إسرائيل، فليس هناك من شك في أنه ليس هناك كتاب سماوي- حتى التوراة نفسها- قد فصل الحديث عن بني إسرائيل، و أفاض في وصف يهود وأحوالهم وأخلاقهم، وأبان مواقفهم من الأنبياء، كما فعل القرآن الكريم، وصدق الله العظيم، حيث يقول: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (4).

ص: 41

-
- 1- انظر عن قصة موسى (البقرة: آية 47-74، الأعراف: آية 103-155، يونس: آية 75-93، طه: آية 9-99، الشعراء: آية 10-68، القصص: آية 3-44، غافر: آية 23-54)
 - 2- أنظر عن قصة إبراهيم (البقرة: آية 258، الإنعام: آية 74-83، مريم: آية 41-50، الأنبياء: آية 51-73، الشعراء: آية 69-89، الصافات: آية 83-113)
 - 3- عباس العقاد: المرجع السابق ص 218
 - 4- سورة النمل: آية 76

و أما عن بلاد العرب، فإنك تجد في كتاب الله الكريم سورة تحمل اسم مملكة في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام- و أعني بها سورة سبأ- هذا إلى أن القرآن الكريم قد انفرد- دون غيره من الكتب المقدسة- بذكر أقوام عربية بادت، كقوم عاد (1) و ثمود (2)، فضلا عن قصة أصحاب الكهف (3) و سيل العرم (4)، و قصة أصحاب الأخدود (5) إلى جانب قصة أصحاب الفيل (6)، و هجرة الخليل و ولده إسماعيل عليهما السلام إلى الأرض الطاهرة في الحجاز، ثم إقامة إسماعيل هناك (7)، و صدق الله العظيم، حيث يقول «تَدْلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» (8)، و يقول: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ» (9)، و يقول: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ، وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» (10)، و يقول: «وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ، وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، وَ مَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا، وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا

ص: 42

1- الاعراف: آية 65، هود: آية 50-60، الشعراء: آية 123-140

2- الاعراف: آية 73-79، هود: آية 61-68، الشعراء: آية 141-159

3- سورة الكهف: آية 9-26

4- سورة سبأ: آية 15-19

5- سورة البروج: آية 4-10

6- سورة الفيل

7- سورة البقرة: آية 124-131، سورة إبراهيم: آية 35-41

8- سورة هود: آية 49

9- سورة يوسف آية 102

10- سورة آل عمران: آية 44

ما أتاهم من نذيرٍ من قبلك لعلهم يتذكرون» (1) ويقول: «وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» (2) ويقول «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ» (3) ويقول «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (4).

و صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث يقول في وصف القرآن:

«كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا يزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشعب معه الآراء، ولا يشعب منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم (5)».

على أنه يجب أن نلاحظ جيدا، أن هدف القرآن من قصصه، ليس التأريخ لهذا القصص، وإنما عبرا تقرض الاستفادة بما حل بالسابقين،

ص: 43

1- سورة القصص: آية 44-46

2- سورة هود: آية 120

3- سورة الكهف: آية 13

4- سورة يوسف: آية 111

5- الاتقان 2/151، سنن الترمذي 2/149، مقومتان في علوم القرآن ص 59، تفسير القرطبي 1/5، محمد ابوزهرة: القرآن ص 15

وزجرا لخصوم الإسلام من قريش، ثم تثبيتاً لقلب النبي (صلى الله عليه وسلم) أمام أذى الكافرين، حيث شاءت رحمة الله بالمصطفى المختار، أن تخفف عنه الشدائد والآلام، عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين، حيث يذكره الله - جل وعلا- بما لاقاه أخوة كرام له من عنت الضالين، وبغي الكافرين، فما وهنوا وما استكانوا، وما ضعفوا وما تخاذلوا، ولكنهم صبروا وصابروا، ومن هنا يخاطب الله رسوله الكريم في كتابه العزيز: «وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» (1)، كما أن في هذا القصص بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور، والجبابرة الذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، والله من ورائهم محيط (2)، ومع ذلك فيجب ألا يغيب عن بالنا- دائما وأبدا- أن هذا القصص إن هو إلا الحق الصراح، وصدق الله حيث يقول «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا» (3)، ويقول «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ» (4)، ويقول: «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» (5)، ويقول: «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» (6)، ويقول:

«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ» (7)، ويقول: «وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ» (8)، ويقول: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» (9)، ويقول «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعَدَ اللَّهُ وَآيَاتِهِ

ص: 44

- 1- سورة هود: آية 120
- 2- محمد أبو زهرة: القرآن ص 203
- 3- سورة النساء: آية 87
- 4- سورة آل عمران: آية 62
- 5- سورة البقرة: آية 252
- 6- سورة آل عمران: آية 3
- 7- سورة الكهف: آية 13
- 8- سورة فاطر: آية 31
- 9- سورة الرمز: آية 2 و أنظر الآية 41

يُؤْمِنُونَ» (1) ويقول «وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» (2).

و من هنا فليس صحيحا ما ذهب إليه البعض، من أن المنطق العاطفي هو الذي يسود القصة التاريخية في القرآن الكريم، و معنى هذا أن القصص التاريخية في القرآن، إنما هو قصص أدبي أولا وأخيرا، و أن الأساس الذي كان يلحظه القرآن دائما في نفوس المعاصرين للنبي عليه الصلاة و السلام، إنما هو القدرة على التأثير (3) و أن مقابلة القصص القرآني و أحداثه و شخصياته بالحقائق التاريخية يكشف عن مفارقات كبيرة تفتح المجال لمن يريدون أن ينالوا من القرآن و أن يشككوا في صحته، و في صدق النبي، و أنه تلقى القرآن من السماء (4)، ذلك لأنك إن قرأت ما ورد في القرآن الكريم من قصص، فإنك لن تجد شيئا من المبالغات التي وصلت إلينا في كتب التاريخ، أو في توراة اليهود المتداولة اليوم، فضلا عن أن ما ذكره القرآن الكريم صحيحا تؤيده الاكتشافات الحديثة (5) و من عجب أن المستشرقين إنما قد سبقوا أصحاب هذا الإتجاه، إلى الشك فيما جاء في القرآن الكريم، و ليس له نظير في التوراة- كقصة عاد و ثمود- ثم سرعان ما تبين لهم أن عادا و ثمودا مذكورتان في جغرافية بطليموس، و أن هناك الكثير من النصوص التاريخية التي تتحدث عن ثمود- كما سنرى فيما بعد- فضلا عن أن الكتاب اليونان و الرومان، إنما ذكروا اسم عاد مقرونا باسم إرم، كما جاء في القرآن الكريم (6) و صدق الله العظيم، حيث

ص: 45

1- سورة الجاثية: آية 6

2- سورة محمد: آية 2

3- محمد احمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن ص 137-138، 248، 305، 337

4- مقدمة كتاب الفن القصصي في القرآن، و كذا ص 174-177، عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني ص 295، 320-339. و

راجع: محمود شلتوت: تفسير القرآن الكريم، القاهرة 1973 ص 45-50، 273 (رأيه في الأمثال المضروبة في القرآن). FFI 6. P.

narok eht fo secruoS ehT, lladsiT. S

5- جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام ص 13

6- عباس العقاد: مطلع النور، أو طوابع البعثة المحمدية ص 61

يقول: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ» (1)، وحيث يقول «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» (2)، وحيث يقول «وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» (3).

وليس صحيحاً كذلك ما ذهب إليه البعض من أنه لا شك أن إشارات القرآن الكريم إلى كثير من القصص، إنما هو دليل على أنها كانت من القصص الشعبي السائد الذي كان يتداوله الناس في بلاد العرب (4)، ذلك لأن العرب ما كانوا يعرفون شيئاً عن كثير من قصص القرآن، وعلى سبيل المثال، فإن القرآن الكريم يختم قصة نوح بقوله تعالى «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا»، فلو كان العرب يعرفون هذه القصة مثلاً، وأنها كانت من قصصهم الشعبي الذي يتداولونه في أسماهم، أفكان العرب- وفيهم أشد أعداء النبي- من يسكت على قوله تعالى «مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا»؟

أليس من المنطق أن أعداء المصطفى، (صلى الله عليه وسلم)- وقد كانوا دائماً على يقظة يتمنون أقل ثغرة، ليوجهوا من خلالها ضرباتهم، ويحولوها إلى سخرية واستهزاء- سوف يجيبونه أنهم يعرفون القصة، بل وأنها من أساطيرهم التي تفيض بها مجالسهم ونواديهم، ولكن التاريخ لم يحدثنا عن أنكر على الرسول هذه الآية الكريمة، مما يدل على أن ما جاء به القرآن الكريم

ص: 46

1- سورة المائدة: آية 48، وأنظر تفسير أبي السعود 3/33 و تفسير الكشاف 1/639-640، تفسير روح المعاني 6/151-155، تفسير الطبرسي 6/110-113، في ظلال القرآن 6/178-182 (دار إحياء التراث العربي- بيروت 1961)، تفسير الطبري 10/377-391 (دار المعارف- القاهرة 1957)

2- سورة الإنعام: آية 92

3- سورة فاطر: آية 31

4- الأدب العربي الحديث ص 302 (من مقررات طلاب البكالوريا الأدبية السورية)، محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن- دمشق 1972، ص 237.

من أخبار الأمم البائدة، كان شيئاً يكاد يجهله العرب جهلاً تاماً، وإن كان يعلم بعضاً منه أهل الكتاب الذين درسوا التوراة والإنجيل (1).

[5] القصص القرآني و التوراة

وليس صحيحاً كذلك ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن القرآن الكريم، قد اعتمد إلى حد كبير في قصصه على التوراة والإنجيل (2)، وزاد بعض من تابعهم من الباحثين العرب على ذلك أن القرآن الكريم جعل هذه الأخبار مطابقة لما في الكتب السابقة، أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار، حتى ليخيل إلينا أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية، ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة، أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار (3)، وذهب «مالك بن نبي» أن هناك تشابهاً عجبياً بين القرآن و الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)، وأن تاريخ الأنبياء يتوالى منذ إبراهيم إلى زكريا ويحيى ومريم والمسيح، فأحياناً نجد القرآن يكرر نفس القصة، وأحياناً يأتي بمادة تاريخية خاصة به مثل هود و صالح و لقمان و أهل الكهف و ذي القرنين (4)، و من عجب أن صاحب كتاب «من روائع القرآن» ينقل عنه- فيما يزعم- أن القرآن جاء بقتصص الأنبياء السابقين و الأمم الغابرة، على نحو يتفق جملة و تفصيلاً مع ما أثبتته التوراة و الإنجيل من عرض تلك الأخبار و القصص، و أن ذلك دليل لا يقبل الشك بأن هذا القرآن ما كان حديثاً يفترى (5)، ولكنه وحي من الله

ص: 47

1- نفس المرجع السابق ص 238-240

2- جولدتسهير: العقيدة و الشريعة في الإسلام، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى ص 12، 15، و كذا 62-61، 1964، PP, (skooB nacileP), malsI, emualliuG derflA

3- محمد أحمد خلف الله: المرجع السابق ص 22، و أنظر ص 27-28، 45، 174-177، 182

4- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص 251

5- محمد سعيد البوطي: المرجع السابق ص 221

و الحقيقة غير ذلك تماما لأسباب كثيرة، منها (أولا) أن الرسول (صلى الله عليه و سلم) لم يغادر مكة، إلا في رحلة يحيط بها الشك، صاحب فيها عمه أبا طالب، و هو في التاسعة من عمره (2)، و ثانية و هو في الخامسة و العشرين في فترة قصيرة كان لا يكاد ينفك فيها عن قومه و رفاقه، و قد ذهب بعض المستشرقين - و منهم جولدتسهيير - (3) إلى أن لهذه الرحلة أثرا في نظام النبي الإصلاحي، غير أن بعضا آخر، إنما يشك في ذلك لعدم وجود أية إشارة في القرآن الكريم عن المظاهر الخارجية للديانة المسيحية، و إن كان يتوسع في الحديث عن أعماق روح المسيحية الشرقية (4)، و الواقع أن الرسول (صلى الله عليه و سلم) حتى لو افترضنا جدلا بأنه قد اتصل بالمسيحية في ذلك الوقت - و هذا ما نرفضه - فإنه سوف لا يجد - فيما يرى سال - إلا ما ينفره من المسيحية، بسبب أطماع رجال الدين، و الانشقاق بينهم و الخلافات على أتفه الأسباب، و كان المسيحيون في تحفزههم لإرضاء شهواتهم، قد انتهوا تقريبا إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود، بفضل جدالهم المستمر حول

ص: 48

- 1- من عجب أن الدكتور البوطي ينقل كل ذلك دون تعليق، و المستشرقون المبعوضون للقرآن لم يقولوا أكثر من ذلك، فضلا عن أن الجملة التي جاءت في كتاب «الظاهرة القرآنية» لا تعني ما ذهب إليه، و إن اقتربت منه
- 2- يتفق الباحثون الآن على أن مقابلة بحيري الراهب - إن صحت - فهي لا تعدو نبوءة في مضمونها توقع بعثة هذا الشاب (أي محمد) رسولا في المستقبل (انظر: هيورات: مصدر جديد للقرآن، الجريدة الآسيوية، عدد يوليو - أغسطس 1904)
- 3- 128 el. emgoD al te edioL malsI'L .P ,regnerpS 4 .P ,naroK uD ecruoS ellevuON eno ,trauH raP etiC ,P ,rehizldoG و كذا. 8-37 .T .P ,enirtcoD aS te eiv aS, temohoM, eardnA. و كذا

طريقة فهمها (1)، وهكذا- وكما يقول تايلور- إن كل ما كان يقابله محمد (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه في كل اتجاه، لم يكن إلا خرافات منفرة، ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، بحيث شعر العرب ذو العقول النيرة، بأنهم رسل من قبل الله مكلفين بما ألم بالعالم من فساد، وعند ما أراد «موشايم» وصف هذا العصر، رسم صورة مقارنة، أبرز فيها التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر؛ وخرج بأن الديانة الحقيقية في القرن السابع الميلادي، كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام، حتى إنه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها (2)، وكما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز، إن هذه الصفحات تبدو، وكأنها كتبت لتفسر الآية الكريمة (3) «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» (4)، ولعل كل هذه الأسباب هي التي دفعت «هوارت» إلى أن يقرر في النهاية أنه مهما كان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب (يعني رسول الله (صلى الله عليه وسلم)) قد تأثر بقوة عند ما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسورية، فإنه يتحتم استبعادها، نظرا لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة (5).

ص: 49

1- 71-68 G. segroelaS, O. snoitavresb, H. seuqirotsiH, C. seuqitirC, el rus emsitemoham p,

2- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 135-138

3- نفس المرجع السابق ص 138

4- سورة المائدة: آية 14 وانظر: تفسير الطبري 10/135-140 (دار المعارف- القاهرة 1957)، تفسير الكشاف 1/616-617 (دار الكاتب العربي، بيروت)، تفسير روح المعاني 6/95-97 (دار احياء التراث العربي، بيروت)، تفسير مجمع البيان 6/54-55 (دار مكتبة الحياة، بيروت 1961)، في ظلال القرآن 6/104، 107-108 (دار احياء التراث العربي، بيروت 1961)، تفسير الجواهر (طنطاوي جوهري) 3/151 (المكتبة الاسلامية- طبعة ثالثة 1974)

5- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 138 وكذا H. 129. P, 1904, narok ud ecruoS ellevuon enu, trauH.

ومنها (ثانيا) أن النبي نشأ أميا لا- يقرأ ولا يكتب (1)، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب حتى يعلم بالتلقين علمهم، والفئة القليلة المستضعفة التي وجدت في مكة منهم، تكاد تعد على أصابع اليد الواحدة، وكانت تعد من أجهل سكان المدينة المقدسة وأحطهم مقاما في المجتمع الانساني، يحترفون بدنيء الحرف، كخدمة بعض العرب، أو الاتجار في أشياء حقيرة، كبيع النبيذ، وغير ذلك مما يقوم به المستضعفون الذين يقطنون الأحياء المنزوية (2)، ثم إن هؤلاء المظمورين لم يكونوا يجهلون دينهم فحسب، ولكن بصفة خاصة- وهنا تتركز حجة القرآن (3) كانت لغتهم الأجنبية حاجزا أمام النبي (4)، وفي نفس الوقت كان قوم محمد (صلى الله عليه وسلم)، أميين، لا يسود فيهم علم من أي طريق كان، إلا أن يكون علم الفطرة والبيان، ولم تكن عندهم مدرسة يتعلمون فيها، ولا علماء يتلقونه عليهم، لقد كانوا منزوين بشركهم عن أهل الكتاب، والمعرفة في أي باب من أبوابها، يقول سبحانه وتعالى «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (5)، وكانت رحلتا الصيف والشتاء إلى الشام واليمن تجاريتين لا تتصلان بالعلم في أي باب من أبوابه، ولا منزوع من منازعه (6) ومنها (ثالثا) أنه لم يثبت أنه كان بمكة أو ضواحيها أي مركز ثقافي

ص: 50

1- سورة العنكبوت: آية 48

2- مؤتمر سورة يوسف 1310/2، مدخل إلى القرآن الكريم ص 134، وكذا trauH وكذا 21. essaM, malsI'L, siraP, 1937, P,

131. P. tic- po

3- سورة النحل: آية 103

4- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 135، وكذا 28. ereP, snemmaL, malsI'L, te ecnayorC noitutitsnI, 1926, P,

5- سورة الجمعة: آية 2

6- محمد أبو زهرة: القرآن ص 363

ديني ليقوم بنشر فكرة الكتاب المقدس التي عبر عنها القرآن (1)، و منها (رابعا) أنه لو كانت الفكرة اليهودية المسيحية قد تغلغلت حقا في الثقافة و البيئة الجاهلية، لكانت هناك ترجمة عربية للكتاب المقدس، الأمر الذي لم يثبت على الإطلاق، بل إن الآية الكريمة «قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (2)، تشير إلى أنه لم يكن بين العرب من يعرف العبرية، فضلا عن عدم وجود ترجمة عربية للتوراة (3)، قبل عام 718 م، و أما ترجمة الانجيل، فلم تكن هناك حاجة إليها، إلا في القرن التاسع و العاشر الميلادي، بل إن القس «شيدياك» ليصرح بأنه لم يتمكن من الرجوع بتاريخ أقدم ترجمات العهد الجديد (الانجيل) باللغة العبرية إلى أبعد من القرن الحادي عشر الميلادي (4).

و منها (خامسا) الخلاف الجوهرى بين القرآن و الانجيل في أمور

ص: 51

1- مالك بن نبي: المرجع السابق ص 310

2- سورة آل عمران: آية 93

3- مالك بن نبي: المرجع السابق ص 311-312، راجع ترجمات التوراة في كتابنا «إسرائيل» ص 48-51

4- انظر: شيدياك: دراسة عن الغزالي الفصل السابع، مقالة «مس بادويك» عن أصل الترجمة العربية للكتاب المقدس، مجلة «العالم الاسلامي» عدد أبريل 1939، مدخل إلى القرآن الكريم ص 138-142، و كذا P, tic- po, siolbeL. 35 و كذا P, tic- po, .35

lldsIT. S

رئيسية- كألوهية المسيح وصلبه و عقيدة التثليث (1)- فضلا عما أشار إليه القرآن من تحريف النصارى لإنجيل المسيح عليه السلام، و منها (سادسا) أن السور المكية- وهي التي نزلت قبل هجرة الرسول، (صلى الله عليه وسلم)، الى المدينة، حيث يوجد اليهود، هي التي تعرض أطوار قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة (2)، و لم تترك للسور المدنية سوى فرصة استخلاص الدروس منها و غالبا في تلميحات موجزة (3)، و منها (سابعا) أن القرآن الكريم يختلف اختلافا جوهريا في أمور رئيسية مع التوراة كذلك، و من ثم فإن الخلاف بين قصص القرآن و حكايات التوراة واضح الى حد كبير.

ص: 52

-
- 1- أنظر: النساء: آية 171، المائدة 17، 72-75، 116 و التوبة: آية 30-31، النساء: آية 157 و انظر عن هذه الآيات الكريمة: تفسير الطبري 9/367-377، 415-424، 10/146-150، 486-480، 14/201-212، 11/237-238 (طبعة دار المعارف) تفسير روح المعاني 6/10-12، 24-40، 98-103، 207-211، 7/64-69، تفسير البحر المحيط 3/536-540، تفسير المنار 6/81-98، 479-487، 7/260-276، تفسير الكشاف 1/584-585، 593-594، 617-618، 663-664، 694، تفسير مجمع البيان 5/279-284، 299-303، 6/57-60، 161-168، تفسير ابن كثير 2/458-461، 615-617، تفسير أبي السعود 2/49-51، تفسير القرطبي 6/20-25، 249-251، 374-377 (دار الكتب المصرية- القاهرة 1938)
- 2- انظر مثلا: الأعراف عن آدم (11-25) و موسى (102-176) يونس عن موسى (75-92) و هود عن نوح (25-49) و إبراهيم و لوط (69-82) و سورة يوسف عن يوسف، و سورة الحجر عن آدم و إبراهيم و لوط (26-77) و سورة الإسراء عن بني اسرائيل (4-8) و سورة الكهف عن أهل الكهف (9-25) و موسى (60-82) و سورة مريم عن زكريا و يحيى و مريم و عيسى .. الخ (1-33) و سورة طه عن موسى (9-98) و سورة الأنبياء عن إبراهيم (51-70) و داود و سليمان (78-82) و سورة الشعراء عن موسى و إبراهيم و نوح .. الخ (10-189) و سورة النمل عن موسى و داود و سليمان (7-44) و سورة القصص عن موسى (3-43) و قارون (76-82) و سورة العنكبوت عن نوح و إبراهيم و لوط (14-35) و سورة سبأ عن داود و سليمان (10-14) و سورة ص عن داود و سليمان و أيوب (17-14) و سورة الذاريات عن إبراهيم (24-37)
- 3- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 156-157

وأخيراً (ثامناً) فإن محمداً (صلى الله عليه وسلم)، لم يكن له معلم من قومه الأميين قط، بل لم يكن له - عليه الصلاة والسلام - معلم من غيرهم من أمم الأرض قاطبة، وحسب الباحث في ذلك أن نحيله على التاريخ، وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث، والإسلامي منه والعالمي، ثم نسأله: هل قرأ فيه سطراً واحداً يقول: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، لقي قبل إعلان نبوته فلاناً من العلماء، فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين، ومن قصصه عن الأولين والآخرين (1).

وأما الذين لقوه بعد النبوة، فقد سمع منهم وسمعوا منه، ولكنهم كانوا له سائلين، وعنه آخذين، وكان هو لهم معلماً واعظاً، ومنذراً ومبشراً (2).

على أنه يجب أن نلاحظ أن قصص التوراة إن كانت تحمل أوجه شبه بالقصص القرآني، فربما يرجع ذلك إلى أن التوراة - في الأصل - كتاب مقدس، وأن الإسلام الحنيف، إنما يؤمن بموسى - كنبى وكرسول وككليم لله عز وجل - ثم يقرر بعد ذلك - دونما لبس أو غموض - أن موسى جاءته صحف وأنزلت عليه توراة، إلا أن توراة موسى هذه، سرعان ما امتدت إليها أيد أئيمة، فحرفت وبدلت، ثم كتبت سواها، بما يتلاءم مع يهود، ويتواءم مع مخططاتهم، ثم زعموا - بعد كل هذا - أنها هي التوراة التي أنزلها الله على موسى (3)، «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» (4).

والذي تولى هذا التصحيف والتأويل والتعمية، إنما هي طائفة

ص: 53

1- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص 56-57

2- نفس المرجع السابق ص 57

3- راجع كتابنا إسرائيل ص 21-23

4- سورة الكهف: آية 5

متخصصة من أبحارهم، بغية الحفاظ على مكانتها و مكاسبها، وعن هذا يقول القرآن الكريم «مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ» (1) و يقول «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسْتَ بِرَبِّهِمْ قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» (2)، و يقول: «فَبِمَا نَقُضُوا مِنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» (3).

هذا وقد عمد لفيف من رؤسائهم الدينيين إلى إخفاء بعض الأسفار في الهيكل - وهي التي عرفت بالأسفار الخفية (4) - ثم اختلفت نظرتهم إليها، إذ كان بعضها - فيما يعتقدون - غير مقدس، بينما بعضها الآخر موحى به من عند الله، وإن رأي الأبحار إخفاءه في الهيكل حتى لا يطلع عليه العامة من القوم، كما رأوا عدم إدراجه بين أسفار التوراة، ربما

ص: 54

1- سورة النساء: آية 46

2- سورة البقرة: آية 79

3- سورة المائدة: آية 13

4- انظر عنها كتابنا إسرائيل ص 95-97

لأن ما بها من حقائق لا تتفق وأهواءهم، وربما لأن ما بها من بشارات لا يتلاءم وميولهم العنصرية وعن هذا يقول القرآن الكريم «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا» (1)، ومن ثم فقد كان حكم الإسلام على كتاب اليهود هذا، أنه يحمل بعض لمحات من توراة موسى، ذلك لأن اليهود، إنما قد أتوا نصيبا منها، ونسوا نصيبا وخطا، فلم يحفظوها كلها، ولم يضيعوها كلها، وأنهم قد حرفوا ما أتوه عن مواضعه تحريفا لفظيا ومعنويا (2).

[6] مقارنة بين القصص القرآني وروايات التوراة

و الرأي عندي أن خير ما نفعه لثبت الخلاف الجوهرى بين قصص القرآن وروايات التوراة، وأن المصدر الأول لم يعتمد على الثانى، بل إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كما يؤكد الباحثون من المستشرقين- حتى المتعصبين منهم- لم يقرأ التوراة، أو أي كتاب آخر من كتب أهل الكتاب (3)، هو أن نقدم مقارنة بين بعض قصص القرآن، ونظائرها في التوراة.

و إذا بدأنا بقصة نوح- عليه السلام- وجدنا أنها في القرآن (4)، غيرها

ص: 55

1- سورة الانعام: آية 91

2- تفسير المنار 1/ 213

3- P, I, tic- po, ekedleoN. T. 16

4- ذكر القرآن قصة نوح في سور كثيرة منها الأعراف (59-64) و يونس (71-73) و هود (25-49) و الانبياء (76-77) و المؤمنون (23-30) و الشعراء (105-122) و العنكبوت (14-15) و الصافات (75-82) و القمر (9-17) ثم سورة كاملة هي سورة نوح، كما ذكر في مواضع متفرقة من النساء و الأنعام و التوبة و إبراهيم و الإسراء و الاحزاب و ص و غافر و الشورى و ق و الذاريات و النجم و الحديد و التحريم

في التوراة، وعلى سبيل المثال، لا الحصر، فإن القرآن وحده هو الذي يذكر أن نوحا- عليه السلام- إنما كان رسولا من رب العالمين، وأنه قد قضى من الوقت- ما شاء الله له أن يقضي- في دعوة قومه إلى عبادة الله الواحد القهار، وأن الله- جل وعلا- لم يأت بالطوفان إلا بعد أن تحمل النبي الكريم في سبيل دعوته كل صنوف الأذى والاضطهاد، وإلا بعد أن جرب النبي الكريم كل سبل الإقناع دونما أية نتيجة، وإلا- بعد أن يؤمن به قومه (1)، وإلا- بعد أن أوحى إليه «أَنْتَ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ (2)»، وهكذا اتبع النبي الكريم كل ما يمكن اتباعه، تصديقا لقوله تعالى «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا (3)»، والأمر غير ذلك تماما في التوراة (4).

هذا فضلا عن أن القرآن الكريم هو وحده الذي يؤكد- التأكيد كل التأكيد- أن الناجين من الطوفان، إنما نجوا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحكيم، بل إن القرآن ليقص علينا- من بين ما يقص من أحداث- ما وقع مع ابن النبي الكريم، وكيف كان من الغارقين (5)، عملا بالمبدأ الإسلامي العظيم، «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» (6).

ص: 56

-
- 1- سورة نوح: آية 1- 27
 - 2- سورة هود: آية 36
 - 3- سورة الاسراء: آية 15
 - 4- أنظر مقالنا «قصة الطوفان بين الآثار و الكتب المقدسة» مجلة كلية اللغة العربية و العلوم الاجتماعية- العدد الخامس- الرياض 1975 ص 448
 - 5- سورة هود: آية 25- 48
 - 6- سورة فصلت: آية 46

«وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (1)»، «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى (2)»، «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (3)».

و القرآن الكريم وحده هو الذي لا نجد فيه نصا قطعيا على أن الطوفان قد شمل الأرض كلها- وهذا ما نميل إليه و نرجحه (4)- أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم- بعكس التوراة- إنما ينزه الله سبحانه و تعالى عن الندم على إحداث الطوفان، بل أن التوراة لتذهب إلى أبعد من ذلك، حين تزعم أن الله- تعالى عن ذلك علوا كبيرا- قد عزم على ألا يحدث طوفانا بعد ذلك و أنه قد وضع علامة، هي القوس في السماء، ليتذكر وعده، فلا يكون طوفان يغرق الأرض أبدا (5)، كما تذهب التوراة

ص: 57

1- سورة فاطر: آية 18 و انظر: تفسير الطبري 126/22 - 128، تفسير البيضاوي 270/2، تفسير الفخر الرازي 14/26 - 15، تفسير القرطبي 14/337 - 338، تفسير روح المعاني 186/22 - 185، تفسير مجمع البيان 22/235 - 237، تفسير و جدي (و انظر نفس الآية: الأنعام: 164، الإسراء: 15) و انظر قوله تعالى «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» من سورة البقرة: آية 141، و انظر عنها: تفسير المنار 1/400 - 404، تفسير القرطبي ص 531 (دار الشعب- القاهرة 1969) تفسير ابن كثير 1/272 - 273 (دار الشعب- 1971 م)، تفسير الطبري 3/128 - 129 (دار المعارف) الدرر المنثور في التفسير بالمأثور 1/140 - 141، تفسير أبي السعود 1/265 - 266، في ظلال القرآن 1/119، تفسير الكشاف 1/316، تفسير روح المعاني 1/401، تفسير الفخر الرازي 4/100، تفسير مجمع البيان 1/498، تفسير القاسمي (محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي - طبعة الحلبي 1957) 2/277 - 278، تفسير و جدي ص 27، و انظر: محمود أبو رييدة: دين الله واحد، القاهرة 1970 ص 65 - 67.

2- سورة النجم: آية 39 - 40

3- سورة الزلزلة: آية 7 - 8

4- راجع مقالنا: قصة الطوفان بين الآثار و الكتب المقدسة ص 383 - 457، تفسير المنار 12/106 - 109

5- تكوين 9: 1 - 17

كذلك إلى أن نوحا إنما قدم الأضحى للرب بعد نجاته، وأن الرب ما لبث أن شم رائحة الشواء، فسكن غضبه، و تنسم رائحة الرضا (1)، و يرد القرآن الكريم على فحش يهود هذا، بقوله تعالى «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَ لَا دِمَاؤُهَا، وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ» (2)، و يقول تعالى «فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (3)»، و ما أصدق القرآن الكريم حيث يختم هذه القصة بقوله تعالى «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (4)».

و في قصة أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل - عليه الصلاة و السلام - قد تفرد القرآن الكريم - دون غيره من الكتب المقدسة - بأن يقدم لنا الخليل - عليه السلام - في صورة المجاهد بنفسه و ولده و ماله لله، و الذي حطم الأصنام، و تحدى الجبابرة الطغام، و ألقى من أجل دعوته في النار، فأنجاه الله في كفاح طويل و جهاد موصول، كان للناس إماما، و على مدارجه أو من نسله درج الأنبياء (5)، و من أسف أن إبراهيم العظيم هذا، لم تصوره التوراة إلا رجلا لا هم له، إلا جمع البقر و الغنم، و الأتن و الجمال، و الإماء و العبيد، متخذًا من الوسائل أخطأها، و من الطرق أحقرها، بل إن التوراة لم تجد وسيلة لجمع المال، إلا أن تجعل أبا الأنبياء - و حاشاه أن يكون كذلك - و كأنما هو يتاجر بامرأته سارة، متنقلا بها من بلد إلى بلد (6).

و من الغريب المؤلم أن مفسري التوراة لم يحاولوا رد هذه الروايات

ص: 58

1- تكوين 8: 20-12، و أنظر عن رأى التوراة في نوح (تكوين 9: 20-27)

2- سورة الحج: آية 37

3- سورة الحج: آية 28

4- سورة هود: آية 49

5- كمال عون: اليهود من كتابهم المقدس ص 107

6- تكوين 12: 10-20، 20: 1-18

الكذوب، وإنما جهدوا- قدر طاقتهم- لإثباتها، وهم أول من يعلم أن التوراة- أو العهد القديم- غير موثوقة السند، وراح بعضهم يتناول على المقام السامي، دونما أي حذر أو حيلة، إثباتا لصحة نصوص التوراة، فيما يزعمون (1)، و كأن التوراة لا تكون كتابا مقدسا، إلا اذا صورت المصطفين الأخيار، من أنبياء الله الكرام في صورة مشوهة (2).

و يقدم لنا القرآن الكريم- بعكس التوراة تماما- خليل الرحمن، وهو يترك موطنه الأصلي في حاران (3)، مبشرا بدعوة التوحيد، في مكان غير هذه الأرض، التي لم تتقبل دعوته بقبول حسن، و تقص علينا الآيات الكريمة من سورة مريم، كيف بدأ إبراهيم دعوته مع أبيه، يهديه بها صراطا مستقيما، غير أن أباه قد رفض الدعوة، بل و هدده إن لم ينته عنها، ليرجمه و ليهجرنه مليا، فما كان من الخليل، تأدبا مع أبيه و حذبا عليه، إلا أن يدعو له بالمغفرة، و أن ينتظر إجابة دعوته إلى حين، و لنقرأ هذه الآيات الكريمة: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا، قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَتَكَ وَ اهُجُرْنِي مَلِيًّا، قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا، وَ اعْتَرَلَكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

ص: 59

1- ف. ب. ماير: حياة إبراهيم ص 65، 221، حبيب سعيد: خليل الله في اليهودية و المسيحية و الاسلام ص 47، القس منيس عبد النور:

إبراهيم السائح الروحي ص 26

2- انظر رحله في كتابنا اسرائيل ص 69-86

3- انظر وجهات نظر مختلفة عن موطن الخليل و هجرته، في كتابنا «اسرائيل» ص 165-196

وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (1)».

وهذه الآيات الكريمة تدل بوضوح على أن هناك حلافا عميق الجذور بين إبراهيم وأبيه، تأدي بالوالد أن يأمر ابنه بالهجرة، حيث لا أمل في اتفاق، ولكن الأمور سرعان ما تتأزم كذلك بين إبراهيم وقومه، إلى الحد الذي لا يجد القوم مخرجا منها، إلا أن يلقوا بإبراهيم في نار أوقدوها لإحراقه، وهنا يفقد إبراهيم الأمل في إيمان القوم، ويقرر الهجرة، «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ» (2)، ولم يجد من القوم من يؤمن به إلا ابن أخيه لوط (3)، «فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (4)، وهكذا كتب الله لإبراهيم - وكذا لابن أخيه - النجاة، بعد أن اعد القوم العدة لإحراقه، «قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَارْتَدُوا بِهٖ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ» (5).

ولعل من المفيد الإشارة هنا إلى رأي عالم يهودي، يعترف فيه صراحة، بأن التوراة لم تأت على السبب الصريح لمهاجرة إبراهيم أرض آبائه، وإنما يؤخذ مما جاء فيها في مواضع مختلفة، أنه فضل ذلك كي يعبد الله عملا بما أنزل عليه من الوحي، وهذا يطابق ما جاء في القرآن من أنه إنما غادر أهله وبلاده، لأنهم كانوا عبدة أصنام، وكان يعبد الله فخاصمهم وارتحل عنهم إلى حيث يبيت في مأمن منهم، وحيث تتسنى له

ص: 60

1- سورة مريم: آية 41-48

2- سورة الصافات: آية 99، وأنظر عن تفسير هذه الآيات: تفسير الطبري 75/23-76، تفسير القرطبي 15/97-98، روح المعاني 23/

127-126

3- انظر عن رأي التوراة في لوط: تكوين 19: 30-38، كتابنا إسرائيل ص 73-74

4- سورة العنكبوت: آية 26

5- سورة الأنبياء: آية 68-71

هذا، وقد انفرد القرآن الكريم- دون غيره من الكتب المقدسة- بأخبار إبراهيم ورحلته إلى الحجاز، وأنه ترك هناك ولده إسماعيل- وكذا زوجته هاجر- وإنه فعل ذلك امتثالاً لأمر الله، ورغبته في نشر الإيمان بالله، في بيئة جديدة، وفي مناخ جديد، بعد أن قام بذلك في العراق وسورية، وفلسطين و مصر، ليربط ولده وبكره، بما ارتبط به هو من قبل، فأبراهيم الخليل يرجع في نسبه الأول إلى العرب البادية- كما يسميهم الاخباريون- والتي هاجرت في فترة لا نستطيع تحديدها على وجه اليقين من بلاد العرب إلى الرافدين (2).

وأخيراً، فإن القرآن الكريم- بعكس التوراة- إنما ينظر إلى إبراهيم، على أنه أبو الأنبياء، حيث أخرج الله من صلبه أنبياء بررة، حملوا الراية و توارثوا المشعل (3)، و هو خليل الله (4)، و هو الأسوة الحسنة للمؤمنين جميعاً (5)، إذ «كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاءً وَ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (6)، و من ثم فقد أوحى الله إلى حبيبه و نبيه المصطفى- صلوات الله و سلامه عليه- «أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (7)، و من هنا فلا يرغب عن ملته إلا من سفه نفسه (8)، ثم هو- أول من أعطى المسلمين اسمهم (9)، و أول من

ص: 61

1- شاهين مكاريوس: تاريخ الأمة الإسرائيلية ص 15

2- أنظر: كتابنا اسرائيل ص 195-196

3- سورة الانعام: آية 84-87

4- سورة النساء: آية 125

5- سورة الممتحنة: آية 4

6- سورة النحل: آية 120-121

7- سورة النحل: آية 123

8- سورة البقرة: آية 130

9- سورة الحج: آية 78

دعا لهم ربهم أن يبعث فيهم رسولا منهم يهديهم سواء السبيل (1)، وهو باني كعبتهم الشريفة، و جاعل مكة أقدس بقاع الأرض قاطبة (2) و من دعا لهم «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ (3)»، وهو أول من أذن في الناس بالحج (4)، و أخيرا، فالى الخليل يشرف بالانتساب كل أصحاب الديانات السماوية- اليهودية و المسيحية و الإسلامية- و تلك مكانة- علم الله- ما استطاعت التوراة أن تصل إلى شيء منها، بالنسبة إلى الخليل- عليه السلام- و لكنه القرآن- كتاب الله الكريم- يعطي كل ذي حق حقه (5).

و الأمر كذلك بالنسبة إلى بقية قصص الأنبياء الكرام، كموسى و هارون، و قد تحدثنا عن قصتهما مع بني إسرائيل بالتفصيل في كتابنا إسرائيل (6)، و رأينا كيف لقي النبيان الكريمان من يهود عناء، ما بعده عناء، و كيف تختم التوراة قصتها برواية كذوب، مؤداها أن موتهما إنما كان بسبب خيانتهم للرب، «عند مربية قادش في بركة صين»، «إذ لم يقدا رب إسرائيل في وسط إسرائيل»، و من ثم فقد حرم الله الأرض

ص: 62

1- سورة البقرة: آية 129

2- سورة آل عمران: آية 96

3- سورة البقرة: آية 126

4- سورة الحج: آية 27

5- ذكر القرآن الكريم إبراهيم في عدة آيات من سورة، منها: البقرة (124-140، 258، 260) و آل عمران (67-68، 95-97) و النساء (54-163) و الانعام (74-88) و التوبة (70، 114) و هود (69-76) و يوسف (6، 38) و إبراهيم (35-41) و الحجر (51-60) و النحل (120-123) و مريم (41-50) و الانبياء (51-73) و الحج (26-33، 78) و الشعراء (69-89) و العنكبوت (16-27، 31-32) و الاحزاب (7) و الصافات (83-113) و ص (45) و الشورى (13) و الزخرف (26، 27) و الذاريات (24-30) و النجم (37) و الحديد (26) و الممتحنة (4) و الاعلى (19) (6) كتابنا إسرائيل ص 254-329

ولعل الذين يقولون بأن قصص القرآن، قد اعتمد على التوراة، يعلمون أن القرآن الكريم إنما يقدم لنا النبيين الكريمين وقد بذلا الجهد في تبليغ دعوة ربهما، وأفيا عمرهما من أجلها، حتى لقيا ربهما مطمئنين إلى رضاه، وهكذا نرى القرآن الكريم يكرمهما أمجد تكرم، وذلك حين يقول، «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا، وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (2)»، وحين يقول «وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ، وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ (3)» و يقول «وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (4)» و يقول «يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (5)»، و يقول «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ، هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (6)» و يقول

ص: 63

- 1- سفر التثنية 32: 48-52
- 2- سورة مريم: آية 51-52 تفسير البيضاوي 36/2، تفسير روح المعاني 103/16-104، تفسير الفخر الرازي 231/21، تفسير الطبري 94/16-95، تفسير مجمع البيان 44/16-46، تفسير القاسمي 4149/11، تفسير القرطبي ص 4152-4153
- 3- سورة الصافات: آية 114-115 تفسير القرطبي 114/15، تفسير الفخر الرازي 159/26، تفسير الطبري 90/23، تفسير روح المعاني 138/23، تفسير ابن كثير 31/7 (دار الشعب 1972)، تفسير البيضاوي 298/2، تفسير وجدي ص 593
- 4- سورة الصافات: آية 118-121 تفسير البيضاوي 298/2-299، و تفسير القرطبي 114/15، تفسير الطبري 90/23-91، تفسير الفخر الرازي 159/26، تفسير روح المعاني 138/23، تفسير وجدي ص 594، تفسير ابن كثير 31/7
- 5- سورة الاعراف: آية 144 تفسير الطبري 105/13 (دار المعارف) 1958، تفسير مجمع البيان 18/19-20، تفسير القاسمي 2754، تفسير المنار 104/9-113 (دار الشعب 1974)، تفسير القرطبي ص 2716 (دار الشعب 1970)، تفسير ابن كثير 471/7، تفسير وجدي ص 214.
- 6- سورة غافر: آية 53-54

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَ لِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي (1)»، و يقول «وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (2)».

و هكذا يرفع القرآن الكريم هذين الرسولين الكريمين إلى الدرجة التي يستحقانها، ثم يطلب إلى المؤمنين به أن يرتفعوا إلى مستوى دينهم القويم، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بني إسرائيل في حكمهم على موسى عليه السلام، فيقول «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (3)».

و تصور التوراة النبي الأواب داود عليه السلام، الذي آتاه الله الحكمة و فصل الخطاب، و هو يقضي وقته في نزهة فوق قصره يتطلع إلى حرمان الناس، فإذا ما رأى امرأة أعجبه حسننها، سرعان ما يأمر جنده بارسالها إلى فراشه، و حين يقضي منها وطره، و تثمر جريمته، يرسل في طلب زوجها من ميدان القتال، إيها ما له بأنه عنه راض، و لقضاء وقت جميل مع صاحبتة موافق، و حين يتعفف الرجل من أن يكون بين أحضان امرأته، بينما اخوة له يجندلون بسيف العدو، يدبر أمر قتله، و ما أن تنتهي المناحة

ص: 64

1- سور طه: آية 39 تفسير روح المعاني 93/16-94، تفسير البيضاوي 49/2-50 تفسير الفخر الرازي 50/22، تفسير الطبري 16/162-167، تفسير الطبرسي 98/16-100، تفسير القاسمي 4179/11، تفسير وجدى ص 408 تفسير القرطبي ص 4235-4237 (دار الشعب 1970).

2- سورة طه: آية 41 تفسير القاسمي 4181/11، تفسير الطبرسي 98/16-104، تفسير الطبري 168/16-169، تفسير البيضاوي 2/50، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) 50/2، تفسير روح المعاني 95/16-96، تفسير الفخر الرازي 50/22، تفسير القرطبي ص 4235-4238 (دار الشعب 1970)

3- سورة الاحزاب: آية 69، و انظر كتاب: عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 214 تفسير البيضاوي 253/2، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) 253/2، تفسير القرطبي 250/14-252، تفسير الفخر الرازي 233/25، تفسير الطبري 50/22-53.

حتى يأمر بضم امرأته إلى حريمه (1) و الواقع أنه ليست هناك صورة تجمع بين النقيضين اللذين لا التقاء بينهما، كالصورة التي تقدمها التوراة لنا عن داود ملك اليهود القدير، فهو الشجاع قاتل جالوت الجبار بمقلّعه دون سيف في يده (2)، وبذا يصبح مطاردا من الفلسطينيين، ولكنه سرعان ما يشاركهم في محاربة عدو لهم، بل ويضع سيفه تحت تصرفهم ضد مواطنيهم اليهود، (3)، وهو يعمل حامل سلاح شاؤل الإسرائيلي يوما ما، ثم حارسا ل «أخيش» الفلسطيني يوما آخر (4)، وهو قد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ثم أنهاه وقد قضى على نفوذهم تماما، وهو عدو شاؤل اللدود، ولكنه في نفس الوقت زوج ابنته، و حبيب ابنه «يوناثان»، و كثير من فتيات إسرائيل (5)، وهو يعمل مغنيا في بلاط شاؤل، لأنه يجيد الضرب على القيثارة، و يغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم ولكنه في نفس الوقت الفارس المغوار، حامل سلاح الملك وقاتل أعدائه (6).

و هو قاس غليظ القلب- كما كان الناس في وقته و كما كانت قبيلته- و هي صور مستحبة في اذهان اليهود، خلعوها على إلههم «يهوه»، من بين ما خلعوا عليه من صفات، ولكنه في نفس الوقت كان مستعدا لأن

ص: 65

-
- 1- صموئيل ثان 2:11 إلى 12:12، و أنظر عن تهم كذب أخرى ألصقتها التوراة بالنبي الأواب (صموئيل أول 2:21، 2:18، 25، 27، ملوك أول 2:8، 9، صموئيل ثان 13:1-14، 14:24، 28، ملوك أول 15:5، أخيار أول 20:30، صموئيل ثان 2:6-19، وراجع كتابنا إسرائيل ص 79-84)
 - 2- صموئيل أول 17:50
 - 3- صموئيل أول 29:2-2
 - 4- صموئيل أول 28:1-2
 - 5- صموئيل أول 18:1-7
 - 6- صموئيل أول 16:21-23

يعفو عن أعدائه، كما كان يعفو عنهم قيصر و المسيح، يقتل الأسرى جملة، كأنه ملك من ملوك الآشوريين، بل إنه ليبالغ حتى في النسوة، حين يأمر بحرق المغلوبين و سلخ جلودهم و شرهم بالمنشار (1). و حين يطلب منه شاول مائة غلفة من الفلسطينيين مهرا لابنته «ميكال»، إذا به يقتل مائتي رجل من الفلسطينيين (2)، و يقدم غلفهم مهرا لابنة شاول هذه (3)، و حين يوصي ولده سليمان- و هو على فراش الموت- بأن «يحدر بالدم إلى الهاوية (4)» شبيهة شمعي بن جيرا، الذي لعنه منذ سنين طويلة.

و هو يأخذ النساء من أزواجهن قسرا، مستغلا في ذلك جاهه و سلطانه، فهو يشترط لمقابلة «أبنيير قائد جيوش شاول، أن يأتي له بميكال ابنة شاول- و التي دفع مهرها من قبل رءوس مائتين من الفلسطينيين- من زوجها «فلطيطيل بن لايش»، الذي أدمى قلبه فراقها، ثم سار وراءها و هو يبكي حتى «بحوريم»، و لم يرجع من ورائها، إلا- بأمر من أبنيير، و إلا خوفا منه (5)، ثم يأخذ امرأة «أوريا الحيثي» بين نسائه، و يرسل بزوجها إلى الصف الأول في ميدان القتال ليتخلص منه (6).

و هو يقبل زجر «ناثان» له في ذلة، و لكنه مع ذلك يحتفظ ب «بتشيع» الجميلة، و يعفو عن صموئيل عدة مرات، تكاد تبلغ اربعمائة و تسعين، و لا يسلبه الا درعه، حين كان في مقدوره أن يسلبه حياته، و يعفو عن

ص: 66

1- صموئيل ثان 12: 29-31

2- كان الفلسطينيون- و هم غير ساميين- لا يختنون، و من ثم فقد كان الإسرائيليون- بعد ان تعلموا الختان في مصر- يقطعون غلف القتلى من الفلسطينيين

3- صموئيل أول 18: 25-27

4- ملوك أول 2: 9

5- صموئيل ثان 3: 12-16

6- صموئيل ثان 11: 2-26

«مغيبوشت» و يساعده- رغم أنه حفيد شاؤل، وقد يكون من المطالبين بعرش عمه وجده من قبله (1)- وهو يعفو عن ولده «أبشالوم» بعد أن قبض عليه في ثورة مسلحة، وبعد أن دنس عرضه على ملاء من القوم (2)، بل إنه ليعفو عن «شاؤل» الذي كان يسعى لقتله، بعد أن تمكن منه عدة مرات، وفي أمان مطلق و مناعة تامة (3).

و يعلق المؤرخ الأمريكي «ول ديورانت» على ذلك، بأن هذا وصف رجل حقيقي، لا رجل خيالي، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة، ينطوي على جميع بقايا الهمجية، و على كل مقومات الحضارة (4).

و أما في القرآن الكريم، فإن داود- عليه السلام- إنما هو «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (5)، و قد «آتاه الله الملكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» (6)، «وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا» (7)، «وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَ قَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (8)»، «وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا حِبَالِ أَوَّيِّ مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ النَّارَ لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَ قَدَّرْ فِي السَّرْدِ» (9)، ثم يأمر الله نبيه الكريم محمد- صلوات الله و سلامه عليه-

ص: 67

1- صموئيل ثان 4: 4-5

2- صموئيل ثان 16: 23، 18: 33

3- صموئيل أول 24: 2-22

4- ول ديورانت: قصة الحضارة- ج 2 ص 331-332، نجيب ميخائيل: مصر و الشرق الادنى القديم ح 3 ص 362-373

5- سورة ص: آية 30

6- سورة البقرة: آية 251

7- سورة النساء: آية 163

8- سورة النمل: آية 15

9- سورة سبأ: آية 10، 11

«اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ، وَ سَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَضَّلَ الْخِطَابِ» (1)، «وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ» (2) و أخيراً، و ليس آخراً (3)، «وَ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» (4).

و أما أعظم ملوك إسرائيل، سليمان الحكيم، فليس في نظر التوراة، إلا ذلك الحاكم الذي يرتكب أبشع الجرائم في سبيل توطيد سلطانه، فيقتل أخاه الأكبر «أدونيا» (5) صاحب الحق الشرعي في العرش- ثم يقتل «يوآب» قائد جيش أبيه (6)، ثم هو- في نظر التوراة كذلك- ذلك الرجل الغارق في ملذاته، و الذي يجمع في بلاطه ألفاً من النساء بين الزوجات و الحظيات، و من كل بلد و لون (7)، و يبدو أن كاتب سفر الملوك (8) لم يرضه كل ما الصقه من تهمة بسليمان، فإذا به يحول النبي الكريم إلى كافر، و يجعل الرسول الجليل- و حاشاه أن يكون كذلك- مشركاً، فإذا بغضب الرب يحل به، و اذا باللعنة تنزل عليه،

ص: 68

-
- 1- سورة ص: آية 17-20
 - 2- سورة ص: آية 25
 - 3- ذكر القرآن الكريم داود عليه السلام في عدة آيات من سورة، منها البقرة (251) و المائدة (78) و الانعام (84) و الاسراء (55) و الانبياء (78-80) و النمل (15-16) و سبأ (10-11) و ص (17-26)
 - 4- سورة ص: آية 30
 - 5- التوراة: ملوك أول 2: 13-25
 - 6- ملوك أول 2: 28-35
 - 7- ملوك أول 11: 1-3
 - 8- التوراة: سفر الملوك الأول 11: 4-11، ثم قارن الآية الكريمة (102) من سورة البقرة، و انظر: تفسير الطبري 2/ 405-457 (دار المعارف)، تفسير الكشاف 1/ 171-173 (دار الكاتب العربي- بيروت).

والتقمة تحل بنسله من بعده وينفذ رب اسرائيل وعيده، فيفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، ويمزق مملكته من بعده ليفوز عبده يربعام منها بنصيب الأسد، ولم ينس كاتب التوراة أن يذكر لنا أن تأجيل انحلال المملكة، ليس من أجل سليمان، فقد عصي ربه واستحق وعيده، وإنما من أجل داود عبده، و من أجل أورشليم مدينته التي اختارها (1).

و أما سليمان في القرآن الكريم (2)، فهو الملك النبي، أعطاه الله العلم بلغة الحيوان، و سخر له الطير، و سخر له الجن، و أوتي علم لغة النمل و الطير، يقول سبحانه و تعالى «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا، وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ، وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ، قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا، وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (3)» و يقول «وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (4)» و قد دعا سليمان ربه، «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ

ص: 69

-
- 1- ملوك أول 11: 1-13، قارن أخبار أول 22: 6-19 حيث التعارض الصارخ بين نصوص التوراة.
 - 2- ذكر القرآن الكريم سليمان عليه السلام في سورة البقرة (102) و النساء (163) و الانعام (84) و الانبياء (78-82) و النمل (15-44) و سبأ (12-14) و ص (30-40).
 - 3- سورة النمل: آية 15-19، و انظر تفسير الطبري 19/140-143، تفسير البيضاوي 172/2-173
 - 4- سورة ص: آية 30

كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَإِنَّ لَهٗ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ (1)» وفي قصة مريم البتول يشير القرآن الكريم إلى أحداث لم ترد في التوراة- فضلا عن الإنجيل وأعمال الرسل- فالقرآن الكريم (2) وحده هو الذي يشير إلى كفالة نبي الله زكريا لها، «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

ص: 70

1- سورة ص: آية 35-40، وانظر: تفسير الطبري 156/23-164، تفسير البيضاوي 309/2-311، تفسير القرطبي 15/198-207، تفسير الألوسي 23/200-205، وانظر موقف سليمان من ملكة سبأ في القرآن وفي توراة اليهود- كما بسطناه في مقالنا «العرب و علاقاتهم الدولية في العصور القديمة» مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد السادس، 1976

2- ذكرت السيدة مريم في القرآن الكريم في عدة سور منها آل عمران (35-37، 42-48) مريم (16-35) والأنبياء (91) والتحريم (12)، وانظر: تفسير الطبري 6/328-359، 393-423 (دار المعارف)، 16/59-88، 28/172، تفسير البيضاوي 2/30-34، 448، تفسير روح المعاني 16/74-95، 28/164-165، تفسير الطبرسي 3/63-69، 76-85، 16/20-39، 28/125-130، تفسير القاسمي 16/5869-5873، تفسير ابن كثير 4/443-459 (دار الاندلس، بيروت)، 8/199-200 (دار الشعب، القاهرة 1973)، تفسير الكشاف 1/354-358، 361-362، 2/504-509، 4/132، الدرر المنتور 4/264-271، تفسير النسفي 3/32-36، تفسير أبي السعود 3/278-282، تفسير القرطبي 11/89-109 (دار الكاتب العربي) ص 6682-6683 (دار الشعب 1970)، في ظلال القرآن 6/2305-2309 وانظر: عبد الله محمود شحاتة: من نور القرآن، القاهرة 1973 ص 163-165 وانظر الحديث الشريف: حيث يروى عن أنس بن مالك، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «خير نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله» (صحيح البخاري 6/320، 7/83، تفسير ابن كثير 2/139، البداية و النهاية لابن كثير 2/60، وانظر: روايات اخرى للحديث الشريف في: تفسير الطبري 6/393-398، صحيح مسلم 2/243، صحيح البخاري 6/339، 7/100-101، سنن الترمذي 4/365-366، مسند الإمام احمد 3/135).

إِلَيْكَ، وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ، وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (1)»، و القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى اصطفاؤها وفضلها على نساء العالمين، «وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (2)».

و أما قصة يوسف عليه السلام، فقد آثرنا أن نُؤخرها- رغم أن التسلسل التاريخي يحتم علينا أن نضعها بين قصة إبراهيم و قصة موسى - لأننا أردنا أن نناقشها بشيء من التفصيل، و ذلك بسبب الجدل الذي طال حولها- حتى زعم «الفرد جيوم» أنها إنما تدل على أن محمدا (صلى الله عليه و سلم) لم يكن يعرف قصة الآباء الأول- كما جاءت في سفر التكوين من التوراة- فحسب، بل إنه يعرف كذلك التطور اليهودي المتأخر للقصة (3)، حيث تداخلت مصادر التوراة الثلاثة (اليهوي و الألوهوي و الكهنوتي)، و كونت قصة لا- تمثل واحدا من هذه المصادر، و إنما تكون مزيجا عجيبا منها جميعا (4).

و لعل افضل ما نفعله هنا للرد على مزاعم «جيوم» و غيره من المستشرقين- بل و بعض المسلمين للأسف- أن نعقد مقارنة بين القصتين، ذلك لأن قصة التوراة، و إن كانت تحمل بعض أوجه شبه من القصة القرآنية (5)، فإن هناك خلافات جوهرية بين القصتين، منها (أولا)

ص: 71

1- سورة آل عمران: آية 44

2- سورة آل عمران آية 42

3- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص 251 و كذا 61. P, 1964, malsI, emualluG derflA.

4- راجع عن مصادر التوراة، كتابنا إسرائيل ص 45-48، حسن ظاظا: الفكر الديني الاسرائيلي ص 28-31

5- جاءت قصة سيدنا يوسف في القرآن الكريم في سورة كاملة هي سورة يوسف، و في التوراة في الاصحاح 37 ثم من 39 إلى 50 من سفر التكوين.

تلك الملامح الروحية التي تتميز بها القصة القرآنية، فضلاً عن أن شخصية يوسف النبي، أكثر وضوحاً في القصة القرآنية (1)، منها في رواية التوراة، و منها (ثانياً) أن حب يعقوب ليوسف إنما تصوره التوراة، على أن الصديق إنما كان يأتي لأبيه «بنميمة أخوته الرديئة»، ولأنه ابن شيخوخته، في الدرجة الأولى، ثم رؤيا يوسف في الدرجة الثانية (2)، و أما في القرآن الكريم، فإن السبب إنما هو الرؤيا الصادقة، ثم احساس عميق من يعقوب النبي، بما سوف يكون للصديق من مستقبل في عالم النبوة و تأويل الأحاديث (3)، و منها (ثالثاً) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن مؤامرة اخوة يوسف عليه، إنما بدأت قبل ان يذهب معهم، فضلاً عن توضيح رأي أبناء يعقوب في أيهم، و لنقرأ هذه الآيات الكريمة «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَّائِلِينَ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، افْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (4)».

و منها (رابعاً) إن قصة التوراة تذهب إلى أن يعقوب هو الذي طلب من يوسف أن يذهب إلى إخوته الذين يرعون أغنامهم عند شكيم (5)- و التي يحتمل أنها تل بلاطة شرق نابلس الحالية- بينما يرى القرآن الكريم أن

ص: 72

1- راجع عن تفسير سورة يوسف: تفسير المنار 12/251-324، 1/13 و ما بعدها+ تفسير سورة يوسف لرشيد رضا، تفسير البيضاوي 1/486-511، تفسير الطبري 12/149-238، 1/13-91، تفسير القرطبي 9/118-277، تفسير الألوسي 12/170-261، 1/13-84 مؤتمر تفسير سورة يوسف (جزءان)، تفسير النسفي 2/210-241

2- تكوين 37: 2-11

3- سورة يوسف: آية 6

4- سورة يوسف: آية 7-9

5- تكوين 37: 12-16

أخوة يوسف هم الذين طلبوا من أبيهم أن يذهب يوسف معهم، لأن أباه إنما كان يخشى عليه من حقدهم، «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (1)»، و منها (خامسا) أن القرآن الكريم إنما يشير إلى ارتياب يعقوب في بنيه عقب تنفيذ المؤامرة- فضلا عن ارتيابهم في أنفسهم- «وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ، وَجَاؤُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً (2)»، بينما تشير رواية التوراة إلى سرعة تصديق يعقوب لفرية أولاده، و يأسه عقب المؤامرة (3)، «فتحققه (أي قميص يوسف) وقال قميص ابني وحش رديء أكله، افترس يوسف افتراسا فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه، وناح على ابنه أياما كثيرة» و منها (سادسا) أن الحيوان الذي ألصقت به تهمة قتل يوسف، إنما هو «تيس من المعزى» في التوراة (4)، ولكنه الذئب في القرآن الكريم (5).

و منها (سابعاً) أن التوراة في عرضها لقصة يوسف مع امرأة العزيز، لم تحاول أن تركز على براءة يوسف، كما فعل القرآن الكريم الذي عرض البراءة في جلاء ووضوح، و منها (ثامناً) أن القرآن الكريم يصور لنا يوسف بعد حادث المراودة، و هو يفر من أمام امرأة العزيز، غير أنها سرعان ما تلحق به، فتتعلق بقميصه، و يتمزق منه ما علقت يدها به، و هنا يصل العزيز ويفاجأ بما لا يتصوره، فتبادر المرأة إلى دفع التهمة عن نفسها، و ترمي بها على يوسف في جراءة (6)، ثم لا تنتظر رأي العزيز في

ص: 73

1- سورة يوسف: آية 11-12.

2- سورة يوسف: آية 17-18.

3- مالك بن نبي: المرجع السابق ص 302.

4- تكوين 37: 33-34.

5- تكوين 37: 31.

6- سورة يوسف: آية 13-14، 17.

صححة الاتهام، فتغريه به و تعمل على توكيده في نفسه، بأن تطلب إليه رأيه في الجزاء الذي يجزى به هذا المتهم (1)، يقول تعالى «وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَاجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (2)»، بينما تتجاهل رواية التوراة حضور العزيز، و تذهب إلى أن امرأة العزيز قد اخبرت أهل البيت بأن الرجل العبراني قد حاول الاعتداء عليها، وأنه لم يتركها إلا- بعد أن استغاثت بمن في البيت، و من ثم فقد ترك ثوبه و خرج، و أبقث الثوب حتى إذا ما جاء بعلمها أخبرته أن عبده العبراني حاول الاعتداء على شرفها و لما صرخت ترك ثوبه بجوارها و فر هاربا، و لعل من المفيد هنا الإشارة إلى ما في النص التوراتي من اضطراب، فمرة لا- يوجد أحد في البيت، و مرة أخرى، فإن البيت مليء بأهله، و مرة يوصف يوسف بأنه رجل عبراني، و أخرى عبد عبراني و فرق بين العبارتين في مثل هذه الحالة النفسية (3) و منها (تاسعا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن الله- سبحانه و تعالى- قد أظهر براءة يوسف على يد شاهد من أهل امرأة العزيز نفسها، تروي كتب التفسير أنه صبي في المهدي، و ذلك حين قال «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ، قَالَ إِنَّهُ مِنْ

ص: 74

1- عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني ص 100

2- سورة يوسف: آية 25

3- تكوين 39: 11-18

كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (1)»، كما شهدت ببراءته النسوة الآتي قطعن أيديهن بقولهن «حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ (2)»، بينما لم تذهب التوراة إلى أكثر من أن العزيز حين سمع بالقصة لم يزد عن «أن غضبه حمى، فأخذ يوسف و وضعه في بيت السجن (3)».

ومنها (عاشرا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن عزيز مصر، حينما عرف الحقيقة، فإذا به يطلب من يوسف كتمان الأمر، و عدم إذاعته بين الناس، وفي نفس الوقت فإنه يتجه إلى امرأته يأمرها ان تستغفر لذنبها و أن تتوب إلى ربها (4)، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، و أهل مصر- و إن كانوا وقت ذاك غير موحدين- إلا أنهم إنما كانوا يعلمون أن الذي يغفر الذنوب و يؤخذ بها، إنما هو الله وحده، لا شريك له في ذلك (5)، و منها (حادي عشر) أن التوراة لم تتعرض لحادث النسوة اللاتي أخذن يرددن في المدينة، «امْرَأْتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا، وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ما هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (6)».

ومنها (ثاني عشر) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف- عليه السلام- قد فضل السجن، على أن يقترب الفاحشة، و ذلك حين خيّر، بين ان تنال المرأة منه ما تريد، و إلا فان أبواب السجن

ص: 75

1- سورة يوسف: آية 26- 28

2- سورة يوسف: آية 51

3- تكوين 39: 19- 20

4- سورة يوسف: آية 29

5- ابن كثير: البداية و النهاية 1/ 204 التفسير 4/ 22

6- سورة يوسف: آية 30- 31

مفتوحة على مصراعها لاستقباله، «قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (1)».

ومنها (ثالث عشر) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يعقوب- عليه السلام- حينما فقد في عاصفة هو جاء من عواصف الفتنة و الحسد، أعز فلذات كبده- يوسف الصديق- لم يغلبه الحزن الذي عصف بقلبه، على الصبر الذي ملأ كيانه (2)، فإذا به يتقبل المأساة بما يتفق و مكان النبوة السامي، «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (3)»، بينما تصوره التوراة في صورة لا نرضيها للنبي الكريم، «فأبى ان يتعزى، وقال إني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية» (4)، و حين تتكرر المأساة مرة أخرى، و يفقد يعقوب بنيامين- كما فقد يوسف من قبل- فإن الجواب في القرآن الكريم، «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (5)»، و أما الجواب في التوراة- و حتى قبل وقوع الكارثة- «إذا أصابته أذية تنزلون شيبتي بشر إلى الهاوية (6)»، بل إن القرآن الكريم ليشير بوضوح إلى أن مر السنين، و كر الأيام، لا يفقد الأمل في نفس النبي الكريم، «يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (7)».

ص: 76

1- سورة يوسف: آية 33-34

2- عبد الكريم الخطيب: المرجع السابق ص 211

3- سورة يوسف: آية 18

4- تكوين 37: 35

5- سورة يوسف: آية 83

6- تكوين 42: 36-38، 44: 29-31

7- سورة يوسف: آية 87

ومنها (رابع عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير الى ان يوسف قد تنبأ بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، بعد سبع سنوات من القحط (1)، ومنها (خامس عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف بعد أن فسر الحلم لملك مصر، ورسم له الطريق الصحيح للخروج من الأزمة بسلام، رفض في إباء وشمم أن يقبل المنصب الخطير الذي عرض عليه، حتى يتحقق الملك ورجاله- بل والناس جميعا- من براءته ونزاهة عرضه، مما نسب إليه بشأن امرأة العزيز، وكان سببا في أن يلبث في السجن بضع سنين، «ازجَعِ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (2)»، والآية الكريمة تعيد أن يوسف لم يشأ أن يقال عنه مجرم سر منه الملك، فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن، وتجيء الشواهد كلها- بعد بحث دقيق- بعفة الصديق وطهارته، وعندئذ يتقدم الصديق في ثقة وثبات، «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»، وهكذا يتحمل يوسف المسؤولية كاملة في صدق وشجاعة، وينجح آخر الأمر في ان يرسي السفينة على مرفأ الأمن والسلامة (3)، والأمر عكس ذلك تماما في التوراة، فما أن يفسر الصديق الحلم للملك، وما أن يعرض الملك الأمر عليه، حتى يقبله فورا (4) ومنها (سادس عشر) أن قصة يوسف إنما تشير إلى ان المصريين، ربما كانوا يعيشون في حرية شخصية إلى حد ما، حتى مع نفس الملك القابض على السلطة في مصر، وإن هذا الملك قد قبل أن يأمر بشيء في حق عبد دخيل، فيأبى عليه ذلك العبد امتثال أمره، إلا بعد إجراء

ص: 77

1- سورة يوسف: آية 47-49

2- سورة يوسف: آية 50، وانظر: تفسير الطبري 16/133-137.

3- سورة يوسف: آية 46-57

4- تكوين 41: 37-46

التحقيق، مع أنه يمكنه الجمع بين امثال إرادة الملك و إجراء التحقيق، بأن يبادر يوسف بالخروج من السجن، ثم يطلب من الملك التحقيق في قضيته (1).

ومنها (سابع عشر) إن التوراة لم تشر إطلاقاً إلى قيام يوسف- عليه السلام- بدعوة التوحيد، بعكس القرآن الكريم الذي يشير إلى أن الصديق قد انتهز الثقة المكينه التي اكتسبها بين السجناء، بسبب تفسير الرؤيا و تأويل الأحلام، فيقوم بدعوته الدينية، شارحاً عقيدة الأنبياء جميعاً في وحدانية الله الخالق العظيم. و هاتفا بمستمعيه (2)، «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (3)»، و ذلك لأن يوسف لم يكن عالماً يؤول الرؤيا فحسب، بل كان رسولا مصلحاً، أرسله الله هادياً للناس في دنياهم و آخرتهم و معاشهم و معادهم، فما كان يرى فرصة يتنفس فيها برسالته إلا انتهزها، و لا نهزة صالحة للدعوة إلا علق بها (4)، و لهذا فإن الإشارة إلى الآخرة في قصة يوسف مقصورة على القرآن (5) دون التوراة.

ص: 78

1- مؤتمر تفسير سورة يوسف 839/2

2- محمد رجب البيومي: البيان القرآني ص 225 عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 140

3- سورة يوسف: آية 37-40

4- محمد احمد جاد المولى و آخرون: قصص القرآن ص 103

5- سورة يوسف: آية 57

و منها (ثامن عشر) إن القرآن الكريم هو وحده الذي يشير إلى إعلان امرأة العزيز براءة يوسف، وأنها هي التي راودته عن نفسها، «قالت امرأة العزيز الآن حصص حصص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين (1)»، وهكذا تقدم لنا القصة القرآنية امرأة العزيز، وهي تتحدث بلغة تليق بضمير انساني وخزه الندم و ارغمته طهارة التضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها و تقر بخطيئتها (2).

و منها (تاسع عشر) إن يوسف عليه السلام قد وصف في القرآن الكريم بالصادق وبالعزيز (3)، وفي التوراة ب «صفنات فعنج» (4)، و منها (عشرون) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يتحدث عن نبوءة عزيز مصر الصادقة في يوسف الصديق، «وقال الذي اشتراه من مصر لا مرايته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (5)»، و منها (واحد وعشرون) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير في ختام قصة يوسف مع أبيه وأخوته إلى تحقيق حلمه الأول، «فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن

ص: 79

1- سورة يوسف: آية 51-52

2- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص 304-305

3- سورة يوسف: آية 46، 48

4- تكوين 41: 45

5- سورة يوسف: آية 21

(1308-1184 ق. م) وفيما بعد، في بعض الأحيان، كمرادف لكلمة «جلالته»، ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ: «خرج فرعون» و«قال فرعون... وهكذا (1)».

ومن ثم، فإن القرآن الكريم - فيما يبدو لي - أراد أن يفرق بين حاكم مصر الأجنبي على أيام يوسف الصديق في عهد الهكسوس (2) فأطلق عليه لقب «ملك»، وبين حاكم مصر الوطني على أيام موسى - مثلاً - الذي أطلق عليه لقب «فرعون»، وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر منذ عهد إخناتون، هذا فضلاً عن أن ذلك من إعجاز القرآن، الذي لا إعجاز بعده، وإذا ما عدنا إلى التوراة، لوجدنا أن الحقائق التاريخية تقف ضد ما أوردته التوراة بشأن استعمال لقب فرعون، إذ أنها تستعمله حين يجب أن تستعمل لقب ملك، وذلك قبل الأسرة الثامنة عشرة، وتستعمل لقب ملك حين يجب أن تستعمل لقب فرعون، وذلك منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة (1575-1308 ق. م)، وفيما بعدها.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك أشياء ذكرتها التوراة لم يذكرها القرآن الكريم، وهي في أمور تتفق في بعضها وخلق يهود - كاتبي التوراة - وتتعد في بعضها الآخر عن الحقائق التاريخية، وأما هذه الأمور، فأهمها (أولاً) أن التوراة في عرضها لقصة الصديق - بعكس القرآن

ص: 81

1- 52. H. A. renidraG. ehT fo tpygE, shoarahP ehT, drofxO, 1964, P, و كذا 75. E, naitpyG rammarG, drofxO, 1966, P
renidraG. H. A
2- حوالي (1725-1575 ق. م.)، وانظر آراء أخرى في كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» دار المعارف 1975 ص 137-138، و كذا R. B. D. drofdeR. ehT, soskyH ehT, orettoB. J, و كذا H, yrotsi dna noitidarT, 1970, P. J 23. A. nosliW
ni noisavnI و كذا E. rsa ehT, ylrA ylriC, noitaziliviC, 1967, P. 393. H. A. renidraG, shoarahP ehT fo tpygE, P, raeN و كذا 159. P, uc- po

الكريم- إنما تعطي تأكيداً يكشف عن مطامع يهود في مصر، و لنقرأ هذا النص «خذوا أباكم وبيوتكم و تعالوا إليّ فأعطيكم خيرات أرض مصر، و تأكلون دسم الأرض ... خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم و نسائكم و احملوا أباكم و تعالوا، و لا تحزن عيونكم على أاثكم، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم» (1)، كما لم تهمل التوراة كذلك أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجاهدين الجياع إلى مصر، إنما كانت للقوت، و لكنها تؤكد أيضاً أنها لتحقيق مؤامرة على الأرض التي استضافتهم (2).

و منها (ثانياً) أن التوراة تزعم أن يوسف قد اشترى كل أرض مصر- من عليها و ما عليها- للفرعون (و هو اصطلاح لم يكن قد استعمل في مصر بعد، كما أشرنا آنفاً) بعد أن امتلأت الأرض جوعاً (3)، الأمر الذي لم يثبت تاريخياً، فضلاً عن أنني- علم الله- لست أدري: لما ذا تريد التوراة- أو بالأحرى يريد كاتبوها- أن يصوروا النبي الكريم في صورة صوت عذاب على المصريين، يستغل حاجتهم للمعونات الضرورية للحياة نفسها، فيستولي على أرض مصر كلها- باستثناء أرض الكهانة- لمصلحة الملك الهكسوسى؟. ثم و هل كان ملك مصر على أيام الهكسوس- و هو العصر الذي نرجح فيه دخول بني إسرائيل إلى أرض الكنانة (4)- يسيطر على مصر كلها، حتى يستولي له يوسف- عليه السلام- على كل أراضيها؟

إن جمهرة المؤرخين، إنما ترى أن الهكسوس لم يمدوا نفوذهم أبداً إلى أبعد من القوصية (5) جنوباً، اللهم إلا في احتلال مؤقت قصير لإقليم (بي)

ص: 82

1- تكوين 18: 45-20

2- تكوين 1: 46-4

3- تكوين 13: 47-26

4- راجع كتابنا «إسرائيل» ص 237-245، و انظر

5- FF 18 .P ,zrutS rhi dnu netpygeA ni soskyH red tfahcsrreH eiD ,bibaL rohaP..

حتحور)، قام به «أبو فيس»- ربما آخر من حمل هذا اللقب- وليس هناك من دليل حقيقي على أن غيره من الهكسوس قد تم له هذا الأمر (1)، أما أمر جبايتهم للضرائب من مصر العليا والسفلى على السواء، فموضع شك على الأقل، ذلك لأن وجهة النظر التي ترى احتلال الهكسوس للبلاد كلها، ليست سوى وهم قضى عليه النص الكبير للملك «كاموزا» الذي يتضمن في وضوح أن الغزاة لم يتقدموا إطلاقاً فيما وراء جبلين، والذي يشير إلى أنهم اضطروا بعد قليل إلى إرساء حدهم عند «خمون» (الاشمونين مركز ملوي) (2).

ومنها (ثالثاً) أن التوراة تصور لنا شعور المصريين تجاه الإسرائيليين بأنه شعور عدائي، أو على الأقل غير ودي، منذ اللحظة الأولى التي قدم الإسرائيليون فيها بأخيهم بنيامين، إذ نرى يوسف يولم وليمة تكريم لأخيه، ولكنه يضطر إلى أن تكون له وليمة خاصة، و ثانية لإخوته، و ثالثة للمصريين، و ذلك «لأن المصريين لا- يقدرّون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين» (3)، و هكذا تبدو نظرة المصريين للعبرانيين واضحة لنا منذ أول لقاء بينهما، و في ضيافة يوسف العبراني نفسه، و هي نظرة لا تدل بحال من الأحوال على احترام المصريين للعبرانيين، و إنما تدل على أنفة المصريين و تأييدهم عن مخالطة العبرانيين، و عدم استعدادهم حتى للأكل معهم، رغم أنهم يعرفون أنهم إخوة يوسف عزيز مصر وقت ذلك، و الأمين على خزائنها، و الأثير عند مليكها، و ليس من شك أن هذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أن القطيعة بين الفريقين كانت واضحة لا تحتاج إلى بيان (4).

ص: 83

1- P, tic- po, renidraG. H. A .168

2- P, dibI .168 , و كذا كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» ص 143-145

3- تكوين 43: 32، قارن: الظاهرة القرآنية ص 305

4- كتابنا «اسرائيل» ص 243

و منها (رابعاً) أن التوراة قد حددت اسم من اشترى يوسف و وظيفته، و أنه «فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة» (1) و بدهي أن القرآن الكريم لم يفعل ذلك، لأنه- كما قلنا من قبل- ليس كتاب حوادث و تواريخ، و إنما قصصه للعبرة و العظة، و إن لقبه «بالعزيز»، و لا شأن للقرآن بروايات المفسرين عن اسمه و اسم ملك مصر في عهده و اسم امرأة العزيز، فتلك اجتهادات، و فوق كل ذي علم عليم (2).

و هنا لنا أن نتساءل عن وصف التوراة لفوطيفار بأنه «خصي فرعون (3)»؟ و هل يتزوج الخصيان؟ و الحق أنني لست أدري كيف دار في خلد كاتب التوراة أن رئيس الشرطة المصري كان خصياً (4)؟ أو لم يكن شافعاً له في دحض هذه الفرية بأنه كان زوج أجمل سيدة في البلاد، و لكن ما الحيلة و صاحب سفر التكوين- أول أسفار التوراة- يرى أن حاشية القصر كلها من الخصيان، و منهم رئيس السقاة و رئيس الخبازين (5)، و هو أمر ما اعتدناه في مصر الفراعنة، و ما حدثنا به تاريخها، و إنما ذلك رأي يهود الأسر البابلي، حين كتبوا توراتهم على ضفاف الفرات، متأثرين بكل الحضارات القديمة التي شاهدوها- أو التي عاشوا في ظلالها- من ناحية، و بحقدهم الأعمى على مصر من ناحية أخرى، حتى أعماهم هذا الحقد عن حقائق التاريخ، فجعلوا كل رجال البلاط المصري من الخصيان.

ص: 84

1- تكوين 39: 1

2- تفسير الطبري 174/12-176 تفسير المنار 272/12، تفسير ابن كثير 17/4

3- تكوين 39: 1

4- من عجب أن هذه الأكاذيب قد انتقلت إلى بعض كتب التفسير (الطبري 175/12، القرطبي 160/9)، و ان رفضتهما جمهرة المفسرين (تفسير البيضاوي 1/491، تفسير المنار 272/12، تفسير الألوسي 207/12، مؤتمر تفسير سورة يوسف 1/434، 503، 504، قارن 1/525، 526، 873/2)

5- تكوين 40: 2

ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن الآية الكريمة «عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» قد تفيد أن الرجل كان عقيماً، لم يكن له ولد، و ما كان يرجو أن يكون له، ولكنها لن تفيد أنه كان خصياً (1).

ومنها (خامساً) ما تردده التوراة من أن يوسف إنما كان يتهم إخوته بأنهم «جواسيس جاءوا ليروا عورة الأرض»، فضلاً عن أن يوسف إنما كان يكرر القسم بحياة فرعون (2)، الأمر الذي لا يتفق و مكانه النبوة بحال من الأحوال.

بقيت نقطة أخيرة تتصل بذلك الاضطراب الواضح في قصة التوراة، ففي سفر التكوين (37: 26-28) نجد أن يهوذا هو صاحب الكلمة، و قد اقترح على إخوته أن يبيعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين مثقالاً، في حين نرى في نفس السفر (37: 21-24) أن راوئين هو صاحب الصوت الأعلى، يقترح القاءه في الجب فيوافق الجميع، حيث يأخذه التجار المديانيون، كما في (تكوين 37: 28) و الأمر كذلك بالنسبة إلى بيعه إلى فوطيفار، ففي أول القصة عن قوم من مدين (3)، بينما هم في آخرها من الإسماعيليين (4).

وبعد: فهذه نظرة سريعة إلى الفروق بين قصص القرآن و روايات التوراة، فإذا ما تذكرنا أن القرآن الكريم - كما هو معروف - جاء به محمد النبي الأمي، الذي لا يكتب و لا يقرأ، كما قال تعالى «وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ

ص: 85

1- تفسير المنار 272/12، تفسير البيضاوي 491/1، روح المعاني 207/12، تفسير القرطبي 160/9

2- تكوين 42: 9-16

3- تكوين 37: 36

4- تكوين 39: 1

قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ يَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطَلُونَ» (1)، مما يدل بوضوح لا لبس فيه ولا غموض - أن هذا القرآن من عند الله، وأنه و إن اتفق مع التوراة في القليل، فإنه يختلف معها في أكثر الكثير، كما يدل كذلك على أن هذا النوع من العلم ما كان عند العرب، وليس لهم به دراية، وأخيرا فهو يدل على أن هذا القرآن ليس حديثا يفتري، وليس أساطير الأولين اكتتبها، ولا يمكن أن تملأ عليه، وإذا كان بعض المشركين قد ادعوا أنه تلقاها من بعض الناس في مكة- كما يقول بعض المستشرقين الآن- فهو لم يثبت اتصاله به، ولسانه أعجمي، وهذا كتاب عربي مبين، وفوق ذلك في القرآن من صادق الأخبار، ما لم يكن في كتب أهل الكتاب المسطورة، ولا يأتيه الباطل فيما يقول (2)، ولست أدري إعجازا بعد هذا الإعجاز (3).

ص: 86

1- سورة العنكبوت: آية 48

2- محمد أبو زهرة: القرآن ص 364-365، الباقلائي: إعجاز القرآن ص 53-54

3- من إعجاز القرآن كذلك إخباره بأمور حدثت في المستقبل، منها إخباره بانتصار الروم على الفرس بعد أن كانت الهزيمة من نصيب الأولين (الروم 1-2) و منها إخباره بنصر المسلمين في بدر قبل الموقعة الكبرى (الأنفال: آية 7) و أن ذلك سوف يقع في نفس الوقت الذي سيهزم فيه الفرس امام الروم (الروم 3-5)، وغير ذلك من أمور لا- يمكن أن تكون حدسا أو تقديرا شخصيا، و انما هي من عند علام الغيوب، كقيام دولة الاسلام الفتية على الارض (النور 55) و عجز كل القوى عن القضاء عليها (الانفال 36) و الانشقاق بين المسيحيين إلى يوم القيامة (المائدة 14) و الشتات الاسرائيلي (آل عمران 112) و التفوق المسيحي على اليهود حتى يوم القيامة (آل عمران 55) [انظر: الباقلائي: إعجاز القرآن ص 77-79، تفسير القرطبي 1/73-78، الكشاف 3/252، 4/440، 445، مناهل العرفان للزرقاني 2/273، تفسير الطبري 21/16-21، 25/111-115، تفسير البيضاوي 2/215-216، 439، تفسير الجلالين ص 215-216 (نسخة على هامش البيضاوي) تفسير الألوسي 21/16-22، تفسير الطبرسي 21/5-9، تفسير الفخر الرازي 25/95-98، تفسير روح المعاني 6/95-97، تفسير الطبري 6/445-464، 7/116-118، 10/135-140، 13/398-407، 529-534 (دار المعارف بمصر)، تفسير مجمع البيان 3/94-96، 4/166-169، 6/54-55 (دار مكتبة الحياة، بيروت 1961): في ظلال القرآن 21/2753-2759، الدر المنثور في التفسير بالمأثور 5/150-153، تفسير النسفي 3/266-267 (طبعة الحلبي)، تفسير أبي السعود 4/179-180، تفسير الطبرسي 21/5-9، تفسير العلي القدير 3/304-306، تفسير المنار 4/47-58، تفسير القرطبي ص 1416-1417 (دار الشعب) تفسير ابن كثير 2/77-86 (دار الشعب)، تفسير الكشاف 1/366؛ 401-402، 616 (دار الكاتب العربي - بيروت)، 3/213-215 مدخل الى القرآن الكريم ص 177-181، القصص القرآني ص 49-50، التبيان في علوم القرآن ص 121-127

وهكذا يبدو بوضوح أن القرآن الكريم مصدر لا يرقى إليه الشك بحال من الأحوال، يحدثنا عن أقوام بادت، وعن أحداث جرت في عصور ما قبل الإسلام، ثم إنه مرآة صادقة للحياة في الجاهلية، حيث يصور لنا الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية أصدق تصوير (1)، ففي القرآن الكريم ذكر لبعض أصنام أهل الحجاز، و ذكر لجدلهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم في الإسلام، وفي الحياة، وفي المثل الجاهلية، كما تعرض القرآن الكريم لنواح اقتصادية وسياسية عندهم فضلا عن أمور جاهلية، تتصل بمعارضة قريش للقرآن والإسلام.

وقد تعرض الإسلام للقانون الجاهلي، وبعبارة أخرى لعرف العرب وتقاليدهم في الجاهلية، وأقر بعضا، وأنكر بعضا، وعدّل بعضا، ومثال ما عدّله الإسلام بعض شريعة الجاهلية في الحج والزواج والطلاق والمهر والخلع والايلاء، وألغى نظام التبني المعروف في الجاهلية وغير ذلك (2)، وكل تلك أمور يستطيع المؤرخ عن طريق دراستها أن يتعرف ما كان عليه القوم في جاهليتهم، ومن ثم يستطيع التعرف على كثير من أحوالهم الاجتماعية.

وبدهي أننا لا نستطيع الاستفادة من القرآن الكريم على الوجه الصحيح،

ص: 87

1- احمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص و- ط.

2- احمد أمين: فجر الإسلام ص 227

إلا إذا استعنا بمصدرين أساسيين آخرين، وأعني بهما: حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم و تفسير القرآن الكريم.

ص: 88

الحديث هو ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير (1)، وللحديث الشريف مكانة كبرى في الدين تلي مرتبة القرآن الكريم مباشرة، وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حيث يقول «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي» (2)، ذلك أن كثيرا من آيات القرآن الكريم مجملة أو مطلقة أو عامة، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فبيّنها أو قيدها أو خصصها (3)، قال تعالى «وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (4). وقال تعالى «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ، وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (5)، وقال تعالى «وَ إِنْكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (6).

هذا وقد فرض الله على المؤمنين طاعة رسوله- عليه الصلاة والسلام- في غير آية من القرآن الكريم، يقول تعالى: «وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» (7) ويقول «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (8)، كما قرن سبحانه و تعالى طاعة النبي بطاعته عز وجل، يقول تعالى «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» (9) ويقول «وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونُوا

ص: 91

1- أنظر تعريفات أخرى: مصطفى السباعي: السنة و مكانتها في التشريع ص 59-60

2- الحديث رواه أصحاب السنن

3- فتاوى ابن تيمية 15/443، 13/29، 17/431-432

4- سورة النحل: آية 44

5- سورة آل عمران: آية 164

6- سورة الشورى: آية 52

7- سورة الحشر: آية 7

8- سورة النور: آية 63

9- سورة النساء: آية 80

لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» (1)، وذلك لأن السنة- كما يقول الامام احمد بن حنبل - تفسر الكتاب و تبيته (2)، ويقول الإمام الشافعي إن الله سبحانه وتعالى، يقول في كتابه الكريم: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» ويقول: «وَأْتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ»، ثم يبين على لسان نبيه- صلى الله عليه وسلم عدد ما فرض من الصلوات و مواعيتها و سننها، و عدد الزكاة و مواعيتها، و كيفية أداء الحج و العمرة ...

و هكذا (3)، و من هنا كان الحديث الشريف هو المصدر الثاني للشريعة الاسلامية، ثم هو أصدق المصادر التاريخية- بعد القرآن الكريم- لمعرفة التاريخ العربي القديم في عصوره القريبة من الإسلام بالذات.

غير أن الحديث الشريف لم يدون على أيام النبي صلى الله عليه وسلم كما دون القرآن الكريم، حتى لا يتخذ المسلمون مع القرآن كتابا يضاهى به، و حتى لا يعتمد الصحابة على الكتابة، فيصرفوا عن حفظ الحديث (4)، و من ثم وجدنا أحاديث تنهى عن تدوين الحديث، منها ما رواه مسلم- عن أبي سعيد الخدري- من أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: «لا تكتبوا عني، و من كتب عني غير القرآن فليمححه، و حدثوا عني فلا حرج، و من كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار» (5).

ص: 92

1- سورة الأحزاب: آية 36

2- تفسير القرطبي 39/1

3- محمد يوسف محمد: منزله السنة من الكتاب، ص 20-23 من كتاب دفاع عن الحديث النبوي

4- ابن عبد البر: جامع بيان العلم و فضله 68/1، و انظر: سنن الدارمي 91/2 طبع الهند، تذكرة الحفاظ للذهبي 3/1، 5، تقييد العلم ص 27، محمود ابورية: المرجع السابق ص 46-53

5- ابن كثير 6/1، صحيح مسلم 298/4، تفسير القرطبي 80/1، فتاوى ابن تيمية 366/13، قارن: تأويل مختلف الحديث ص 49، مشكل الآثار للطحاوي 171/1، ابن سعد 74/2، 75، بحث في تاريخ السنة ص 142، أبورية: المرجع السابق ص 59-65

و مع ذلك فهناك ما يدل على أن صحفا من الحديث قد كتبت على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منها ما كتبه رسول الله- عليه الصلاة والسلام- لأهل نجران عند ما صالحهم، و ما كتبه لثقيف ولأهل دومة الجندل ولأهل هجر (1)، فضلا عن الرسائل التي أرسلها للملوك والأمراء، و الوثيقة التي بين فيها حقوق المسلمين و المشركين و اليهود في المدينة عند ما قدمها (2)، و ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص من أنه كان يكتب كل ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم (3)، بل إن هناك من يذهب إلى أن أبا هريرة قد كتب كذلك، و رغم أنه نفسه لا يكتب، فإنهم يعللون ذلك بأنه قد تعلم الكتابة بعد ذلك (4) هذا إلى جانب أن هناك ما يشير إلى أن عبد الله بن مسعود، و سعد بن عبادة كانا يكتبان (5)، فضلا عن خطبة النبي صلى الله عليه وسلم التي كتبت لأبي شاه اليماني (6)، و ما كتبه الرسول لبعض عماله من كتب حدد فيها مقادير الزكاة في الإبل و الغنم، و أخيرا فإن الإمام علي- كرم الله وجهه- كانت عنده صحيفة فيها أحكام الدية، كما كان عند أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب فيه استفتاح الصلاة، بالإضافة إلى صحف سمرة بن جندب، و جابر بن عبد الله (7)، و يعلل بعض العلماء لهذا الخلاف في أن

ص: 93

1- أنظر: الأموال لأبي عبد الله ص 272، 276، 282، 287

2- نهاية الارب 18/159-169

3- صحيح البخارى 34/1، جامع بيان العلم 70/1-71، ابن سعد 189/7 أسد الغابة 3/233-234

4- دفاع عن الحديث ص 16، فتح الباري 2/167، جامع بيان العلم 70/1.

5- ابن عبد البر 72/1، مسند الإمام احمد 5/285، قارن: مقدمة ابن الصلاح ص 170، الباعث الحثيث ص 148، دفاع عن الحديث ص 15

6- صحيح البخارى 3/110

7- بحوث في تاريخ السنة ص 147، دفاع عن الحديث ص 50

النهي عن الكتابة، إنما كان وقت نزول القرآن، خشية التباس القرآن بالحديث (1).

و هناك ما يشير إلى أن تدوين الحديث، إنما بدأ التفكير فيه على أيام الفاروق عمر بن الخطاب (13- 23 هـ- 634- 644 م)، ولكن الخليفة الراشد سرعان ما عدل عن ذلك، حتى لا ينصرف الناس عن كتاب الله (2)، ثم تجددت الفكرة على أيام عمر بن عبد العزيز (99- 101 هـ- 717- 719 م)، و كما يروي أبو نعيم- في تاريخ اصفهان- أن الخليفة قد كتب إلى أهل الآفاق: أنظروا إلى حديث رسول الله، صلى الله عليه و سلم، فأجمعه، و طبقاً لرواية الإمام البخاري، فإن عمر قد كتب إلى أبي بكر بن حزم- نائبه في الامارة و القضاء على المدينة- أن «أنظر ما كان من سنة أو حديث فأكتبه، فإني خفت دروس العلم و ذهاب العلماء»، غير أن الأمر لم يتم بسبب موت الخليفة، و تنحية ابن حزم عن إمارة المدينة، على أيام يزيد بن عبد الملك، و بقي الأمر كذلك إلى أن تولى هشام بن عبد الملك (105- 125 هـ- 724- 743 م)، فجدد في ذلك الأمر «ابن شهاب الزهري» (ت 124 هـ)، و إن كان هناك ما يشير الى أنه قد أكره على ذلك في أول الأمر، غير أن هذه الكراهية ما لبثت أن صارت رضا (3).

و بقي الأمر كذلك، حتى جاء أبو جعفر المنصور العباسي

ص: 94

-
- 1- أحمد أمين: فجر الإسلام ص 209، قارن: تأويل مختلف الحديث ص 396، و أنظر المسند 766/10
 - 2- ابن عبد البر 1/64-65، تقييد العلم ص 52، أضواء على السنة المحمدية ص 47
 - 3- نفس المرجع السابق ص 258-262، إرشاد الساري شرح القسطلاني 7/1، تقييد العلم للخطيب البغدادي ص 107، ابن عبد البر 1/77، صحيح البخاري: باب العلم، الأحياء للغزالي 1/79، مقدمة المصحح لكتاب معرفة علوم الحديث ص ي، صبحي الصالح: مباحث في علوم الحديث: ص 38-40، محمد الصباغ: الحديث النبوي ص 120-122

(136-158 هـ - 754-775 م)، الذي أراد أن ينسخ من موطأ مالك، الذي كتبه عام 148 هـ، نسخاً توزع على الأمصار، ليعمل الناس بها دون غيرها، إلا أن الإمام مالك قد رفض الفكرة من المنصور، كما رفضها من الرشيد (170-193 هـ - 786-809 م) من بعده، وذلك حين شاوره في أن يعلق الموطأ في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، فأبى الإمام مالك، لأن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكل مصيب (1).

وعلى أي حال، فلقد تم تدوين الحديث في القرن الثاني الهجري، ويروي ابن حجر في شرح البخاري أن أول من جمع ذلك الربيع بن صبيح (ت 160 هـ) وسعيد بن أبي عروبة (156 هـ)، إلى أن انتهى الأمر إلى كبار الطبقة الثالثة، من أمثال الإمام مالك (93-179 هـ) بالمدينة، وعبد الملك بن جريح (ت 150 هـ) بمكة، والأوزاعي (ت 156 أو 157 هـ) بالشام، وسفيان بن الثوري (ت 161 هـ) بالكوفة، وحماد بن سلمة بن دينار (ت 167 هـ) بالبصرة، والليث بن سعد (ت 175 هـ) بمصر، وهيثم (ت 188 هـ) بواسط، ومعر باليمن (ت 153 هـ) وابن المبارك (ت 181 هـ) بخراسان، وجرير بن عبد الحميد بالري، وكل هؤلاء من رجال القرن الثاني، وكانت مجموعات الحديث لهم مختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ثم تلاهم كثير من الأئمة في التصنيف كل على حسب ما سنح له وانتهى إليه علمه (2).

ص: 95

-
- 1- احمد امين: المرجع السابق ص 221-222، حياة محمد ص 66-67، محمود ابورية: المرجع السابق ص 298، الحافظ بن عبد البر: كتاب الانتقاد ص 41، مباحث في تدوين السنة المطهرة ص 186
 - 2- فجر الاسلام ص 222، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 101، النجوم الزاهرة 1/ 351، دفاع عن الحديث ص 73-74، كتاب معرفة علوم الحديث ص ي- يا

وعلى أي حال، فإنه من المتفق عليه- أو يكاد- تدوين الحديث إنما بصفة عامة ورسومية في نهاية القرن الأول الهجري، ولم يكد ينتهي القرن الثالث حتى كانت السنة كلها مدونة في الكتب من صحاح و سنن و مسانيد (1)، و أن بعض الصحابة و التابعين كانوا يدونون في القرن الأول الهجري، لا سيما بعد وفاة النبي، صلى الله عليه و سلم. (2).

وقد اتبع المسلمون الدقة- كل الدقة- في تدوين الحديث، إذ كانت الأحاديث تروى عن طريق سلسلة الحفاظ، أو ما يعرف «بالسند» أو «الإسناد»، حتى تصل إلى النبي، صلى الله عليه و سلم، أو إلى السلف الأول من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين (3)، هذا إلى جانب تقويم الرواة و تعديلهم أو تجريحهم، و وضعهم في درجات متفاوتة من الثقة فيما يروون (4)، و يروي الإمام مسلم في مقدمة صحيحه أنهم لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا «سموا لنا رجالكم» (5).

وقد أبدعت الثقافة الإسلامية في هذا فنا قائما بذاته هو «الجرح

ص: 96

-
- 1- المسانيد: هي كتب الحديث التي ألفت في القرن الثاني الهجري، وأشهرها: مسند معمر بن راشد (ت 152 هـ) و مسند الطيالسي (ت 204 هـ) و مسند الحميدي (ت 219 هـ) و مسند الإمام احمد بن حنبل (164- 241 هـ) و مسند الديلمي و الشافعي وغيرها.
 - 2- دفاع عن الحديث ص 122، مفتاح السنة ص 18
 - 3- مقدمة ابن خلدون ص 452، حاجي خليفة: كشف الظنون 1 / 423، مباحث في تدوين السنة ص 88- 103، النيسابوري: كتاب معرفة علوم الحديث ص 5- 12، و كذا 201. IE, 2, P
 - 4- عبد الستار الحلوجي: مقدمة لدراسة المراجع ص 62، و انظر: النيسابوري: المرجع السابق ص 14- 27
 - 5- احمد امين: فجر الإسلام ص 216، محمود أبو رية: المرجع السابق ص 72- 73، 331، مباحث في تدوين السنة ص 89- 92، و انظر صحيح مسلم، سنن الترمذي

و التعديل» (1)، لا نشك في أن من أعظم ما مهد لنشأته كذب الوضاعين (2)، و افتراء أهل الأهواء، و نسبتهم إلى القرآن و السنة أقوالا يدعمون بها زيفهم و يحاربون بها الاتجاه الحق في العقيدة و في الشريعة، و قد كان المسلمون يأخذون الأخبار من أفواه الرجال، و مما قيده في نسخهم، ناظرين دائما إلى هيئة الرجل و صلاحه، فهم لم يكونوا يفصلون بين علم الفرد و سلوكه، فالفرد- في نظرهم الصائب- وحدة متكاملة، يؤثر فيها سلوكه على علمه، أو العكس، و لا مناص من بحث

ص: 97

1- انظر عن الجرح و التعديل: فجر الاسلام ص 216-218، أضواء على السنة المحمدية ص 331-341، محمد الصباغ: الحديث النبوي ص 143-146، محب الدين الخطيب و آخرون: دفاع عن الحديث النبوي ص 90-96، مباحث في تدوين السنة المطهرة ص 123-160، النيسابوري: كتاب معرفة علوم الحديث ص 52-58.

2- ترجع نشأة الاختراع في الرواية و وضع الحديث على رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أخريات أيام الخليفة عثمان بن عفان، و بعد الفتنة التي أودت بحياته، ثم اشتد الاختراع و استفاض بعد ذلك، و أما أسباب الوضع فتتلخص في نقاط، منها الخلافات السياسية، و منها نصرة المذاهب في أصول الدين و فروعه، و منها الزنادقة اللابسون لباس الإسلام غشا و نفاقا و قصدهم بذلك إفساد الدين و إيقاع الخلاف بين المسلمين، و منها الغفلة عن الحفظ، اشتغالا عنه بالزهد و الانقطاع للعبادة، و منها التعصب للجنس و القبيلة و البلد، و منها التقرب إلى أصحاب السلطان من الملوك و الأمراء، و منها الرغبة في إرضاء الناس و ابتغاء القبول عندهم، و منهم الوعاظ و القصاص الذين لا يهتمهم إلا أن يبكي الناس في مجالسهم، و منها الرغبة في الإتيان بغريب الحديث من متن و إسناد، و منها الانتصار للفتيا، و منها الترويج لنوع من المأكل أو الطيب أو الثياب، و منها غفلة المحدث و اختلاط عقله في أخريات أيام حياته، و منها الرغبة في الخبر، و لكن مع جهل بالدين [أنظر: اللئالي المصنوعة في الأحاديث الموضوعية للسيوطي 2/232، 346، الباعث الحثيث ص 82، 86، 93، 94 اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص 208، رسالة التوحيد ص 7، 8، تاريخ بغداد 5/308، 13/335، مجلة المنار 27/747-754، لسان الميزان لابن حجر العسقلاني 1/13، 7/5، فتح الباري 1/161، ميزان الاعتدال للذهبي 3/338، 430، الموضوعات لابن الجوزي 1/42، و انظر امثلة للأحاديث الموضوعية في كتب: الحديث و المحدثون، تنزيه الشريعة لابن عراق، الاصابة في تمييز الصحابة، الفوائد الموضوعية في الأحاديث الموضوعية، الاستيعاب في معرفة الأصحاب

حاله بحثاً متقصياً، يتناول أدق تفاصيل حياته الذهنية والسلوكية ليتمكن قبول نقله أو رفضه، و ما نظن أن ثقافة في الأرض قامت على مثل هذا الأساس النقدي المنهجي التزيه، فذلك شيء تفرد به المسلمون (1).

وليس من شك في أن كتب الحديث (2) و شروحاها- رغم أنها مصدر فقهي أكثر منه تاريخي (3)- مورد غني من الموارد الأساسية لتدوين أخبار الجاهلية فيما قبل الإسلام، على أن الغريب من الأمر، أن مؤرخي تلك الفترة قد تجاهلوا هذا المنهل الغزير، وبخاصة فيما يتصل بتاريخ عرب الحجاز، إلى حد كبير، و من ثم فقد خسروا واحداً من أهم مصادر التاريخ العربي القديم.

ص: 98

1- عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص 82-83

2- أشهر مجاميع الحديث: موطأ مالك و مسند ابن حنبل و سنن الدارمي (ت 255 هـ) و صحيح البخاري (194-256 هـ) و صحيح مسلم (204-268 هـ) و سنن أبي داود (202-275 هـ) و سنن الترمذي (209-279 هـ) و سنن النسائي (215-303 هـ) و سنن ابن ماجه (209-273 أو 275 هـ)

P, 1952, siraP, iemohaM ed emelborP eL, arehcaiB. R. 7-3

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وعلى أساليب العرب و كلامهم (1)، يقول تعالى «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)» ويقول «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (3)»، ويقول «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (4)»، ويقول «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (5)» ابن قتيبة: رسالة في المسائل والأجوبة ص 8 (6)، وهذا طبيعي لأنه أتى يدعو العرب- بادئ ذي بدء- ثم الناس كافة، إلى الإسلام، فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها، تصديقا لقوله تعالى «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» (7).

ورغم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي، وفي بيئة عربية كانت تفاخر من نواحي الحضارة بفن القول، فإنه لم يكن كله في متناول الصحابة جميعا يستطيعون أن يفهموه- إجمالا و تفصيلا- بمجرد أن يسمعه، لأن العرب- كما يقول ابن قتيبة (7)- لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض، ومن هنا فليس صحيحا ما ذهب إليه «ابن خلدون» (8) من أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه،

ص: 101

- 1- أنظر تأويل مشكلات القرآن لابن قتيبة ص 62
- 2- سورة يوسف: آية 2
- 3- سورة الزمر: آية 28
- 4- سورة الزخرف: آية 3
- 5- سورة الشعراء: آية 192-195، و انظر الرعد (37) و النحل (102-103) و طه (113) و فصلت (1-3، 44) و الشورى
- 6- والأحقاف (12)
- 7- سورة إبراهيم: آية 4
- 8- مقدمة ابن خلدون ص 366

ويعلمون معانيه في مفرداته و تراكيبه لأن نزول القرآن بلغة العرب، لا يقتضي أن العرب كلهم يفهمونه في مفرداته و تراكيبه، وإنما كانوا يختلفون في مقدار فهمه حسب رقيهم العقلي، بل إن ألفاظ القرآن نفسها لم يكن العرب كلهم يفهمون معناها، كما لم يدع أحد أن كل فرد في كل أمة يعرف ألفاظ لغتها (1). وليس أدل على ذلك، مما يروى عن أنس بن مالك، أن رجلاً سأل الفاروق عمر عن قوله تعالى «وَأَفَاكِهِةً وَآبًا (2)»، ما الأب؟ فقال عمر: نهينا عن التكلف و التعمق»، و روي عن عمر أيضاً، أنه كان على المنبر، فقرأ «أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ» (3)، ثم سأل عن معنى «التخوف»، فقال رجل من هذيل: التخوف عندنا التتقص (4).

و قريب من هذا، ما روي عن ابن عباس (3 ق. هـ - 68 هـ) أنه قال: ما كنت لأدري ما فاطر السموات و الأرض، حتى أحتكم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي ابتدأت حفرها (5).

فإذا كان هذا شأن الفاروق، يلتبس عليه معنى «التخوف» إلى أن يفسره له شيخ من هذيل، لأن التخوف من لغة هذيل، وإذا كان هذا شأن ابن عباس - وهو حبر الأمة، و ترجمان القرآن، و من دعا له رسول الله صلى الله عليه و سلم بقوله: اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل، و من كان عنده أدق الفهم لإشارات القرآن و دقائق معانيه (6) - لا يدري معنى فاطر السموات

ص: 102

-
- 1- احمد امين: فجر الاسلام ص 196
 - 2- سورة عيسى: آية 31
 - 3- سورة النحل: آية 47
 - 4- الموافقات 2/ 57-58، فجر الاسلام ص 196
 - 5- مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية، تفسير الطبري 14/ 77
 - 6- الانتقان 2/ 179، 187، تفسير القرطبي 1/ 33، فتاوى ابن تيمية 4/ 93، 94، 365/ 13، 402/ 17، تفسير الطبري 1/ 90، مقدمتان في علوم القرآن ص 57-58، 264

و الأرض، حتى يحتكم إليه أعرابيان في بئر، فيقول أحدهما أنا فطرتها، أي بدأت حفرها (1)، بل و يروى عنه كذلك أنه قال: ما كنت أدري معنى قوله تعالى «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ» (2) حتى سمعت بنت ذي يزن، تقول لزوجها: تعال أفاتحك: أي أحاكمك (3) - إذا كان هذا شأن الفاروق و ابن عباس، فحريّ بالعامّة من العرب - و من باب أولي حريّ بنا، و فينا العجمة التي غلبت في كل مكان - ألا يفهموا جميعا لغة القرآن؛ لأنهم لم يكونوا جميعا على مستوى واحد في فهم اللغة العربية (4) فضلا عن أن هناك إشارات كثيرة في القرآن الكريم إلى أشياء في التوراة و الانجيل، و الرد عليها، و هي أمور لا يكفي في فهمها معرفة اللغة العربية (5).

إلا أن هذا لا يمنعنا من القول، بأن الصحابة على العموم كانوا أقدر الناس على فهم القرآن، لأنه نزل بلغتهم، و لأنهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها القرآن، و مع ذلك فقد اختلفوا في الفهم حسب اختلافهم في أدوات الفهم، و ذلك لأسباب منها (أولا) أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم، و ان كانت العربية لغتهم و منها (ثانيا) ان منهم من كان يلازم النبي صلى الله عليه و سلم، و يقيم بجانبه، و يشاهد الأسباب التي دعت إلى نزول الآية، و منهم من ليس كذلك، و منها (ثالثا) اختلافهم في معرفة عادات العرب في أقوالهم و أفعالهم، فمن عرف عادات العرب في الحج في

ص: 103

-
- 1- تفسير القرطبي 44 / 1، التفسير و المفسرون 35 / 1، أمين مدني: التاريخ العربي و مصادره ص 47-48
 - 2- سورة الاعراف: آية 89
 - 3- تفسير القرطبي 44 / 1
 - 4- محمد أبو زهرة: القرآن ص 584
 - 5- احمد أمين: فجر الاسلام ص 196.

الجاهلية، استطاع أن يعرف آيات الحج أكثر من غيره ممن لم يعرف (1).

وهكذا نشأ علم التفسير لفهم القرآن وتدبره، ولتبيان ما أوجز فيه، أو ما أشير إليه فيه إشارات غامضة، أو لما غمض علينا نحن من تشابهه و استعاراته و ألفاظه أو لشرح أحكامه (2)، هذا وقد نشأ التفسير في عصر الرسول، صلى الله عليه وسلم، فكان النبي أول المفسرين له، ثم تابعه أصحابه من بعد (3)، على أساس أنهم الواقفون على أسراره، المهتدون بهدي النبي صلى الله عليه وسلم (4)، ولعل أشهر المفسرين من الصحابة، الإمام علي - كرم الله وجهه - و عبد الله بن عباس، و عبد الله بن مسعود (5).

و جاء عصر التابعين، الذين أخذوا عن الصحابة، وأشهرهم تلاميذ ابن عباس في مكة، كمجاهد (21-103 هـ) و عطاء بن رباح (27-114 هـ) و عكرمة (25-105 هـ) مولى ابن عباس، و سعيد بن جبير (45-94 هـ)، و من أهل المدينة عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و محمد كعب القرظي (ت 117 هـ) و رافع بن مهران، أو كما يكنى أبو العالية الرياحي (ت 93 هـ)، و أما تلاميذ عبد الله بن مسعود في العراق، فمسروق بن الأجدع - و هو عربي من همدان - و قتادة أبو الخطاب السدوسي - و هو عربي كان يسكن البصرة - و عطاء الخراساني

ص: 104

1- نفس المرجع السابق ص 197-198

2- عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ص 16، و انظر: البرهان 13/2

3- فتاوى الإمام ابن تيمية 13/331-333

4- اشتهر بتفسير القرآن عشرة من الصحابة، و هم الخلفاء الاربعة و ابن مسعود و ابن عباس و أبي بن كعب و زيد بن ثابت و أبو موسى الأشعري و عبد الله بن الزبير، و أما الخلفاء فأكثر ما روي عنه هو الإمام علي، و الرواية عن الثلاثة نذرة جدا (كشف الظنون 1/178، الاتقان 2/187-189، فتاوى ابن تيمية 13/364-366، 17/402، فجر الاسلام ص 202-204)

5- راجع شروط المفسر و آدابه (الاتقان 2/175-187، تفسير المنار 1/17-26، التبيان في علوم القرآن ص 177-181)

(50-135 هـ)، فضلا عن الإمام الحسن البصري، ذلك العالم الزاهد، الذي ولد في المدينة المنورة، وشب في كنف الإمام علي بن أبي طالب، ثم استكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، فسكن البصرة، وتوفي بها عام 110 هـ (1).

وفي هذا العصر- عصر التابعين- تضخم التفسير بالإسرائيليات والنصرانيات، لأسباب كثيرة، منها (أولا) أن كثيرا من اليهود كان- إبان ظهور الإسلام وقبله- يقيمون في المدينة المنورة وفي مجاوراتها، كبني قينقاع وبني قريظة وبني النضير، فضلا عن يهود خيبر وفدك و تيماء، وكان هؤلاء وأولئك قد حملوا معهم إلى بلاد العرب- يوم وفدوا إليها خلال القرنين، الأول والثاني بعد الميلاد، على ما نرجح (2)- ما حملوا من ثقافات مستمدة من كتبهم الدينية، وما يتصل بها من شروح، وما توارثوه جيلا بعد جيل عن أنبيائهم وأخبارهم، هذا وقد كان لليهود في بلاد العرب مواضع يقيمون فيها عبادتهم وشعائر دينهم، ويتدارسون فيها أحكام شريعتهم وأيامهم الماضية، وأخبارهم الخاصة برسلمهم وأنبيائهم وكتبهم وغير ذلك، عرفت عند الجاهليين «بالمدراس» أو «بيت

ص: 105

-
- 1- الاتقان 2/190، 224، 225، فتاوى ابن تيمية 13/332، 347، 368، 369، 67/15، 68، 201، مقدمتان في علوم القرآن ص 263، 264، فجر الاسلام ص 174، 184، 204، 205، التبيان في علوم القرآن ص 160-170
- 2- يختلف المؤرخون في العصر الذي جاء فيه اليهود إلى بلاد العرب، ففريق يراه على أيام موسى (القرن 13 ق. م.) وفريق يراه على أيام داود (1000-960 ق. م.) وفريق يراه عقب استيلاء سرجون الثاني على السامرة عام 722 ق. م.، وفريق يراه بعد استيلاء نبوخذ نصر على أورشليم عام 586 ق. م.، وأخيرا هناك من يراه بعد القضاء النهائي على اليهود في فلسطين على أيام تيتوس عام 70 م، وعلى أيام هدریان فيما بين عامي 132، 135 م، وهذا ما نرجحه (أنظر التفصيلات في كتابنا «بلاد العرب»)، وهو الجزء الخامس، من «دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم- تحت الطبع)

المدارس» (1)، و يروي أبو داود عن ابن عباس، أن هذا الحي من الأنصار كانوا- وهم أهل وثن- مع هذا الحي من اليهود- وهم أهل كتاب- يرون لهم فضلا، و يقتدون بكثير من أفعالهم (2).

و منها (ثانيا) أن العرب كانوا يقومون برحلات إلى الشام و اليمن، و بدهي أنه كانت تتم بين العرب و اليهود الذين كانوا يستوطنون هذه البلاد، لقاءات لا- شك أنها كانت عاملا قويا من عوامل تسرب الثقافة اليهودية إلى العرب الذين كانت ثقافتهم- بحكم بداوتهم و جاهليتهم- محدودة ضيقة، و زاد الطين بلة، أن اليهود الذين نقل العرب عنهم، كانوا في غالبيتهم بداءة مثلهم، لا يعرفون من كتبهم، إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب (3).

و منها (ثالثا) دخول جماعات من علماء اليهود و أحبارهم في الإسلام، كعبد الله بن سلام، و عبد الله بن سوريا، و كعب الأحمار و غيرهم، ممن كانت لهم ثقافة يهودية واسعة، و كانت لهم بين المسلمين مكانة مرموقة و مركز ملحوظ، بهذا كله التحمت الثقافة الإسرائيلية بالثقافة الإسلامية، بصورة أوسع و على نطاق أرحب (4)، و منها (رابعا) ميل النفوس لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن من أحداث يهودية و نصرانية (5)، و منها (خامسا) أن العرب لم يكونوا أهل كتاب و لا علم، وإنما

ص: 106

1- أنظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي 120/2، رمزي نعاة: الاسرائيليات و أثرها في كتب التفسير ص 107، صحيح البخارى 131/9، كتاب الاعتصام بالكتاب و السنة.

2- انظر: تفسير ابن كثير 261/1

3- محمد السيد الذهبي: الإسرائيليات في التفسير و الحديث ص 24-25، مقدمة ابن خلدون ص 283-284.

4- محمد السيد الذهبي: المرجع السابق ص 26

5- احمد امين: فجر الإسلام ص 205

غلبت عليهم البداوة و الأمية، و إذا ما تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات و بدء الخليقة و أسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، و يستفيدون منهم (1)، لأنهم- كما يقول ابن إسحاق- أهل العلم الأول (2)، و كانت التوراة- و التلمود- من بعدها- تشتمل على كثير مما يشتمل عليه القرآن الكريم من وقائع و أحداث تتصل بالمصطفين و الأخيار، من أنبياء الله الكرام، و لكن بإسهاب و تفصيل، قد يغري، في كثير من الاحياء، عواطف العامة، اكثر مما يرضي عقول العلماء.

و منها (سادسا) أن العرب لم يكونوا يعرفون العبرية- لغة التوراة- و كان أحبار يهود- كما يروي عن أبي هريرة- يقرءون التوراة بالعبرية و يفسرونها بالعربية لأهل الإسلام (3)، و من ثم فلم تكن هناك من وسيلة أمام المسلمين للتأكد من صدق يهود، فضلا عن أنهم كانوا أقل منهم دهاء و مكر، و من ثم فقد راجت بينهم سوق أكاذيب ما يسمونهم أهل العلم الأول، و تساهل المفسرون و ملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات، و التي كانت إما من التوراة، أو مما يفترى أحبار التوراة، و لهذا حذر «النظام» من بعض المفسرين، فإن بعضا منهم- و بخاصة عكرمة و الكلبي و السدي و الضحاك و مقاتل و ابوبكر الأصم- يقول بغير رواية إلى غير أساس، و كلما كان المفسر أغرب عند العامة كان أحب إليهم (4).

و منها (سابعاً) ما يرويه «ابن النديم» من أن «أحمد بن عبد الله بن

ص: 107

1- مقدمة ابن خلدون ص 439-440، و انظر: تفسير الطبري 9/6، 10، 10/17، 31/27، تفسير ابن كثير ابن كثير 3/102

2- معجم الأدباء 8/18

3- صحيح البخاري 2/285

4- الحيوان للجاحظ 1/343-346

سلام» قد ترجم التوراة ترجمة دقيقة، (1) فاذا صح ذلك، فإن الرجل يكون قد قدم مادة جديدة خصبة من الاسرائيليات يضيفونها إلى تفسير القرآن الكريم، و من ثم فقد توسع المفسرون و المؤرخون في الاستعانة بهذه الترجمة- إن كانت قد وجدت حقا- في تصوير أخبار ما قبل البعثة و كانوا أحيانا يزيدون في هذه الأخبار، كلما استبد بالمفسر الميل إلى الإغراب و التقصي لجزيئات الأحداث، و قد جرأهم على ذلك ضعف ملكة النقد عند معاصريهم (2)، بل إن الأمر لم يقتصر على ضعف ملكة النقد هذه، وإنما تجاوزها إلى أن عدم معرفة العرب للغة العبرية جعلهم لا يعرفون مدى صحة هذه التوراة المترجمة، ثم إن اليهود أنفسهم- في دمشق و حلب مثلا- كانوا ينكرون على يهود بلاد العرب يهوديتهم، لأنهم لم يحافظوا على الديانة اليهودية التوحيدية (3)، كما أننا نعرف أن التوراة يصعب على رجل واحد القيام بترجمتها، فضلا عن أن تكون تلك الترجمة دقيقة (4)- و ان بخاصة الذي قام بها، فيما يزعمون، من يهود بلاد العرب، و هم ليسوا أعلم من العرب بكثير- و على أي حال، فالمعروف أن التوراة، إنما ترجمت إلى اللغة العربية حوالي عام 718 م، و بالتأكيد أن أحمد هذا لم يكن واحدا ممن شاركوا فيها.

و منها (ثامنا) أن معلومات العرب الجاهليين عن أسفار التوراة معلومات مشوهة، بل إن العربي الجاهلي كان ينظر إلى ما في أيدي الرهبان و الأحبار، نظرة احترام تمنعه من أن يجادل فيها، بل إن ما جاء في

ص: 108

-
- 1- الفهرست ص 32
 - 2- رمزي نعناعة: المرجع السابق 198
 - 3- اسرائيل و لفرنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب ص 13، حسن إبراهيم: تاريخ الاسلام السياسي 73 / 1 و كذا setilearsI dna P .PIII ,sweJ eht fo yrotsiH ,ztaerG 60 .P. 51, 75 و sbarA neewteB snoitaleR ehT, htuoilograM. S. D ,malsI fo esiR eht ot roirP
 - 4- راجع ترجمات التوراة في كتابنا اسرائيل ص 48- 51

«الفهرست» وفي «الطبقات» ليؤكد لنا أن حرص المسلمين على حرفية ما ينقلونه من الأسفار إلى اللغة العربية، ليس بأقل من حرصهم على ما يرويه الأخبار ونقله حرفياً، وهذا ما جعل القصص اليهودي ينتشر كما هو بين العامة، ويصدقه ضعاف المؤرخين (1)، بل لقد بلغ الأمر بالبعض - ومنهم كعب الأخبار ووهب بن منبه - إلى أن ينسب إلى التوراة، وغيرها من كتب الرسل، ما ليس فيها شيء منه، ولا حوت حوله (2).

ومنها (تاسعاً) ما يروي من أن عبد الله بن عمرو بن العاص، قد أصاب يوم اليرموك (15 هـ - 636 م) (3)، زاملتين من أهل الكتاب، فكان يحدث منهما، بعد ذلك، بقدر ما فهمه من حديث «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» (4)، ولعل هذا كله هو الذي دفع الإمام أحمد بن

ص: 109

1- أمين مدني: المرجع السابق ص 90

2- تفسير المنار 9/1

3- انظر عن معركة اليرموك: ابن الاثير 410/2 - 415 و كذا تاريخ الطبري 3/394 - 414، فتوح البلدان ص 137، فتوح الشام 2/120 - 124، 237 - 239، العقد: معاوية في الميزان ص 41، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص 184 - 188.

4- فتاوى ابن تيمية 13/366، وانظر عن الحديث الشريف: صحيح البخارى 6/319 - 320، هذا وهناك ما يشير إلى النهي عن الأخذ

عن بني إسرائيل (انظر: صحيح البخاري 3/181، 8/120، مسند الإمام احمد 3/387، فتح الباري 13/259، 404، تفسير ابن كثير 4/

6- 8، البداية و النهاية 1/198، محمد السيد الذهبي: المرجع السابق ص 68 - 71)، و يروي ابن حجر أن النهي كان قبل استقرار

الأحكام الإسلامية، و القواعد الدينية خشية الفتنة، فلما زال المحذور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من

الاعتبار (فتح الباري 6/388)، فضلاً عن الاحتياج الى الرد على المخالف، بدليل نقل الأئمة قديماً و حديثاً من التوراة، وإلزام اليهود

بالتصديق لمحمد صلى الله عليه وسلم بما يستخرجونه من كتابهم (فتح الباري 17/309، وانظر وجهات نظر أخرى في: مقدمة من

أصول التفسير ص 17 - 20، 45 - 46، عمدة التفسير، تعليق احمد شاكر 1/15، تفسير ابن كثير 1/4، محاسن التأويل للقاسمي 1/44 -

45، البداية و النهاية 1/6 - 7، تفسير البقاعي ص 89 - 90، محمد السيد الذهبي ص 71 - 90).

حنبل إلى أن يقول كلمته المشهورة «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي، أي ليس لها إسناد، لأن الغالب عليها المراسيل (1)، وإلى أن يقول ابن تيمية: «والموضوعات في كتب التفسير كثيرة» (2).

و مع ذلك كله، فإن الأمر لم يكن خطيرا على أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لأن صحابته كانوا أعرف الناس بأمر دينهم، إلا أن عصر التابعين كان جد مختلف، إذ كثر النقل فيه عن يهود، و من ثم فقد وجدت أسفار يهود و أناجيل النصارى طريقها إلى كتب التفسير، و زاد الطين بلة أن وجد في تلك الفترة جماعة من المفسرين أرادوا ان يسدوا ما يرونه ثغرة قائمة في التفسير، بما وصل إليهم من الإسرائيليات، فجاء ما روي عنهم في التفسير مليئا بقصص كله سخف و نكارة، كالذي نراه في كتب التفسير منسوباً إلى قتادة و مجاهد، ثم جاء في عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات و أفرط في الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردون قولاً، و لا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم، و إن كان لا يتصوره عقل، و استمر الشغف بالإسرائيليات، و الولع بنقل الأخبار التي كان يعتبر الكثير منها نوعاً من الخرافة، إلى أن جاء عصر التدوين (3).

و على أي حال، سواء أكانت هذه هي كل الأسباب، أم أن هناك أسباباً أخرى، فالذي لا شك فيه أن كثيراً من كتب التفسير قد اتسع لما قيل من ذلك و أكثر، حتى أصبح فيها مزيجاً متنوعاً من مخلفات الأديان المختلفة و المذاهب المتباينة، التي ترامت إلى علم العرب (4)، و حتى حوت

ص: 110

1- ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص 14 (طبعة دمشق)، تفسير المنار 8/1، و أنظر: الأسرار المرفوعة ص 339، كشف الخفاء 2/402، المقاصد الحسنة ص 481، تمييز الطيب من الخبيث ص 198.

2- ابن تيمية: الرجوع السابق ص 19

3- محمد السيد الذهبي: المرجع السابق ص 36-37 مقدمة ابن خلدون ص 490-491

4- أمين الحولي: التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم ص 10-11، دائرة المعارف الإسلامية 9/415، محمد السيد الذهبي: التفسير و المفسرون 88/1

من الإسرائيليات كل عجيب وعجيبة، واستوت في ذلك تفاسير المتقدمين والمتأخرين، والمتساهلين والمتشددين (1)، على تفاوت بينها في ذلك قلة وكثرة، وتعقبا عليها، وسكوتا عليها (2).

وأما ما كان الأمر، ورغم هذه الشوائب، فالذي لا شك فيه، أنه في كتب التفسير (3)، ثروة تاريخية قيمة، تفيد المؤرخ في تدوين التاريخ العربي القديم، وتشرح ما جاء مجملا في القرآن العظيم، وتبسط ما كان عالقا بأذهان الناس عن الأيام التي سبقت عصر الإسلام، وتحكي ما سمعوه عن القبائل العربية البائدة، التي ذكرت على وجه الإجمال في القرآن الكريم، وما ورد عندهم من أحكام وآراء ومعتقدات

ص: 111

1- لعل أشهر كتب التفسير التي روت كثيرا من الاسرائيليات هي: تفسير مقاتل بن سليمان (ت 150 هـ) و الطبري (224-310 هـ) و الثعلبي (ت 427 هـ) و الخازن (678-741 هـ)، و اما التي تخرجت عن التوسع فيها، فأشهرها: تفسير ابن كثير (700-774 هـ) و الألوسي (1217-1270 هـ) و محمد رشيد رضا (1282-1354 هـ) [أنظر: دارة المعارف الإسلامية 9/ 451-452، محمد السيد الذهبي: الاسرائيليات في التفسير والحديث ص 161-249

2- نفس المرجع السابق ص 158، 283

3- أشهر كتب التفسير: تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) و تفسير الثعلبي (الكشف عن بيان تفسير القرآن) (تفسير المرتضى) (آمال الشريف) و تفسير المشكاة (مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار) و تفسير البغوي (معالم التنزيل) و تفسير الزمخشري (الكشاف على حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل) و تفسير الطبرسي (مجمع البيان) و تفسير ابن العربي (أحكام القرآن) و تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) و تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) و تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) و تفسير النسفي (مدارك التنزيل و حقائق التأويل) و تفسير النيسابوري (غرائب القرآن و رغائب الفرقان) و تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) و تفسير أبي حيان (البحر المحيط) و تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) و تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل و أسرار التنزيل) و تفسير الجواهر (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) لعبد الرحمن الثعالبي الجزائري و تفسير السيوطي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) و تفسير الجلالين، و تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم) و تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني) و تفسير القاسمي (محاسن التأويل) و تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) و تفسير و جدي (المصحف المفسر) و تفسير سيد قطب (في ظلال القرآن) و تفسير طنطاوي جوهرى (الجواهر في تفسير القرآن الكريم).

إبراهيم أبو الانبياء، و الجد الأعلى لرسول الله، وأشدّ الناس شبيها به، خليل الله، وإمام المتقين، رمز الإيمان والأسوة الحسنة للمؤمنين جميعا (1)، وأول من أعطى المسلمين اسمهم (2)، وأول من دعا لهم ربهم أن يبعث فيهم رسولا- منهم، يهديهم سواء السبيل (3)، و صدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حيث يقول «أنا دعوة أبي إبراهيم» (4).

و تاريخ الحجاز لن يكون مفهوما إلا عن طريق دراسة تاريخ أبي الانبياء- سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام- فهو أبو العرب (5)، و هو باني كعبتهم (6)، و جاعل مكة أقدس بقاع الأرض قاطبة (7)، و هو أول من أذن في الناس بالحج (8)، و أول من دعا لهذه الأرض الطيبة بالأمن و السكينة، و الخير و البركة (9).

و هكذا كان الحجاز الشريف مهد خاتم الأنبياء و المرسلين، محمد رسول الله- صلوات الله و سلامه عليه- مهبط الوحي، و منزل القرآن، تتجه إليه ملايين قلوب المسلمين و وجوههم في كل يوم خمس مرات (10)،

ص: 115

1- سورة الممتحنة: آية 4

2- سورة الحج: آية 78

3- سورة البقرة: آية 129

4- تفسير القرطبي 2/ 131

5- سورة الحج: آية 78

6- سورة البقرة: آية 127

7- سورة آل عمران: آية 96، و انظر: تفسير الطبري 3/ 45

8- سورة الحج: آية 27

9- سورة البقرة: آية 126

10- سورة البقرة: آية 144

و تؤممه في كل سنة آلاف مؤلفة من الحجيج، استجابة لدعوة إبراهيم، و أداء للفريضة الخامسة من فرائض الإسلام (1).

و هكذا يبدو بوضوح أن الخليل عليه السلام، لم يرتبط بدين من الأديان، كما ارتبط بالإسلام، و لم يؤمن أصحاب دين بالخليل، كما آمن به المسلمون، و لم يتباه جنس بانتسابهم إلى الخليل، كما تباهى العرب بعامة- و قریش بخاصة- و لم يتمسك أصحاب دين بدعوة الخليل، كما تمسك بها المسلمون- رغم دعاوى يهود، و مزاعم النصارى- لأنهم ورثة الخليل في الإيمان و التوحيد الصحيح.

[1] مولد الخليل عليه السلام

تقدم لنا المصادر العربية عن مولد الخليل رواية مؤداها أنه ولد في عصر ملك دعوة «نمرود بن كنعان بن كوش» و الذي كان واحدا من ملوك أربعة ملكوا الأرض كلها (نمرود و بختنصر و هما كافران، و سليمان بن داود و ذي القرنين و هما مؤمنان). و أن أصحاب النجوم قد أخبروه أن غلاما- يقال له إبراهيم- سوف يولد في شهر كذا من سنة كذا من عهده، و أنه سوف يفارق دين القوم و يحطم أصنامهم، و من ثم فإن الرجل قد أمر بقتل كل غلام يولد في تلك الفترة، غير أن أم إبراهيم قد أخفت حملها، فضلا عن أنها قد وضعت سرافيا مغارة قريبة من المدينة، و من ثم فقد نجا من القتل، ثم أعلمت زوجها بأن الغلام قد مات على زعم، و أخبرته بالحقيقة على زعم آخر، و على أي حال، فإنها- طبقا للرواية- قد أخذت تتردد على وليدها يوما بعد آخر، و أنها كانت تتعجب كثيرا، حينما كانت

ص: 116

1- سورة آل عمران: آية 97

تراه يشب في اليوم ما يشبه غيره في الشهر (1).

و الرواية على هذا النحو مزيج عجيب من روايات مختلفة، فضلا عن أن سهام الريب توجه إليها من كل جانب، وليس بالوسع القول أنها ترقى إلى ما فوق مظان الشبهات، ولعل أهم ما يوجه إليها من شبهات يتلخص في نقاط: منها (أولا) أن تلك الأسطورة التي تتردد في المصادر العربية- دون غيرها من المصادر و الحقائق التاريخية- عن الملوك الاربعة الذين حكموا الدنيا بأسرها، لا تتفق و الحقائق التاريخية أبدا، فأول هؤلاء الملوك- و أعني به نمرود- قد لا يعلم أصحاب هذه الأسطورة أن التاريخ البابلي لا يعرف ملكا بهذا الإسم- حتى الآن على الأقل- و لست أدري من أين جاء به أصحابنا المؤرخون الإسلاميون، و أكبر الظن أنهم أخذوه من توراة يهود، حيث جاء فيها «و كوش ولد نمرود الذي ابتداء يكون جبارا في الأرض ... و كان ابتداء مملكته بابل و أرك و أكد و كلنه في أرض شنعار» (2)، على أن التاريخ يعرف بلدا باسم «نمرود»- على مجرى الزاب الأعلى- و قد كانت عاصمة للإمبراطورية الآشورية على أيام سرجون الثاني (722-705 ق.م)، و هي نفسها مدينة «كالح» في التوراة (3)، و هكذا خلط كاتب سفر التكوين بين الملك و المدينة، ثم جاء مؤرخونا و نقلوا ما في التوراة، و كأنه التاريخ الذي يرقى فوق كل هواتف الريبة و الشك.

و أما «نبوخذ نصر»- أو بختنصر كما يدعونه- (605-562

ص: 117

-
- 1- ابن الأثير 1/94-95، الطبري 1/233-237، أبو الفداء 1/13، ابن كثير 1/148، المحبر ص 392-394، تفسير ابن كثير 3/181، 182، مروج الذهب 1/56، تاريخ الخميس ص 89-91، 114، المقدسي 3/45-48، 53، 54
 - 2- تكوين 8: 10-10
 - 3- تكوين 10: 11

ق. م.)، فلم يكن ملكه يزيد- بحال من الأحوال- عن سوروية بمعناها القديم، فضلا عن العراق، و مرة أخرى، ربما تأثر الكتاب المسلمون بروايات التوراة عن «نبوخذ نصر» الذي كتب له القضاء على البقية الباقية من الكيان السياسي لليهود في فلسطين، ثم القيام بالأسر البابلي المعروف في التاريخ (1)، وهكذا بدأ كتابنا يتأثرون بكتابات اليهود عن الرجل، حتى أنهم جعلوه يغزو بلاد العرب على أيام «عدنان» لسبب لا يخطر على بال مؤرخ، ذلك السبب هو الغيرة على أنبياء الله الذين قتلهم العرب، و لست أدري كيف قبل المؤرخون الإسلاميون هذه الاسطورة، و هم يعتقدون- في نفس الوقت- أن الرجل إنما كان كافرا، و قد يزول العجب حين ينسبون إصدار أمر الغزو إلى «برخيا» اليهودي، و كأن مذلّ اليهود، إنما يعمل بأمر اليهود (2)، ثم قد يعود العجب مرة أخرى، إذا علمنا أن توراة اليهود تخلو تماما من هذه الروايات، و أن الفترة ما بين عهد «عدنان» و عهد نبوخذ نصر جد بعيدة (3).

و اما سليمان بن داود- عليه السلام- فإن المصادر التاريخية جميعا، بما فيها التوراة، تتفق- هذا إذا استثنينا المصادر العربية- على أن ملك

ص: 118

1- انظر كتابنا اسرائيل ص 529-535 و كذا P ,learsI dna tpygE ,yelretseO .E .O .W ,226 .P ,tsaP tneicnA eht. 233 و 285-288 .S ,kooC .S ,288 -285 .PP ,learsI fo yrotsiH ehT ,htoN morf thgiL ,nageniF .402 -399 .PP ,1965 ,II ,AHC ni ,kooC .S ,288 -285 .PP ,learsI fo yrotsiH ehT ,tamalaM .A 284 -280 .PP ,yrotsiH sa elbiB ehT ,M ,225 -223 .PP .haduJ fo modgniK eht fo sraW tsaL ehT ,relleK .W

2- تاريخ الطبري 1/558-560، ابن الأثير 1/270-272، المسعودي 2/130-131، معجم البلدان 2/328-331، الإكليل 2/286

3- أنظر: كتابنا «بلاد العرب»

قمتها فيما يتصل بموسى عليه السلام، بل إن بعض المؤرخين إنما جعل بني إسرائيل انفسهم- وليس المنجمين- هم الذين كانوا يرددون هذه النبوءة، وأن صاحبها هو الخليل نفسه (1).

ولعل سؤال البداهة الآن: لم يصر هؤلاء المؤرخون على أن يجعلوا المنجمين يعلمون الغيب من الأمر؟ حتى أنهم في قصة إبراهيم، إنما يحددون مولده بالسنة، بل والشهر كذلك، وإن لم يقل لنا أصحابنا المؤرخون: متى كان هذا الشهر، و تلك السنة، ثم ألا تبدو الصنعة واضحة في ولادة الخليل في مغارة، ثم تركه وحيدا فيها، ثم زيارة أمه له يوما بعد يوم، دون أن يدري الملك- أو حتى أبو الخليل نفسه- شيئا عن ذلك، ثم من أين أتى المؤرخون بكل هذا القصص؟

و الرأي عندي أنه ربما صاحبت مولد الخليل عليه السلام بعض الخوارق، فذلك أمر لا- ننكره، و ما كان لنا أن ننكره، و لكن أن تكون الخوارق بهذه الطريقة التي يذكرها مؤرخونا، و أن تتكرر مع بعض الأنبياء على نفس الوتيرة، مع تغيرات طفيفة في السرد القصصي، فذلك ما نراه أمر اختلاق، لعبت الإسرائيليات فيه الدور الأول، ثم شاء لمؤرخينا علمهم أن يزيّدوا فيها، و هم يعلمون أن التوراة محرفة، فما زادوا- و الحال هذه- على أن نقلوا التحريف، بل و ربما في بعض الأحيان أن حرفوا التحريف نفسه، فأنت كتاباتهم على هذا النحو أو ذاك.

ص: 120

1- ابن الأثير 170/1، تاريخ الطبري 1/234-237، 387-388، ابن كثير 1/237-238، تاريخ يعقوبي 1/23، مروج الذهب 1/56، متى 2: 1-22، قارن: تفسير المنار 1/313، المقدسي 3/45، تفسير الطبري 12/65-67، قصة مشابهة عن قوم صالح عليه السلام.

تروي التوراة أن الخليل عليه السلام، إنما هو «أبرام (1) بن تارح»، و من ثم فإن القرآن الكريم يختلف مع التوراة في اسم والد إبراهيم، حيث يقول سبحانه و تعالى «وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً» (2).

و يبدو أن بعض المفسرين و المؤرخين نظروا إلى رواية التوراة، و كأنها السند الصحيح (3)، و من ثم فقد حاولوا تأويل الآية الكريمة بما يخرجها عن صريح اللفظ، محاولين بذلك أن يقضوا على التناقض بين ما جاء في القرآن، و ما ذهبت إليه التوراة، الأمر الذي ناقشناه بالتفصيل في كتابنا إسرائيل، و ذهبنا إلى أن اسم والد الخليل، إنما هو «أزر»، طبقا لما جاء في القرآن الكريم و الحديث الشريف، فضلا عن أن الأدلة العلمية كلها تقف إلى جانبه، و من ثم فإن تأويلات المفسرين و المؤرخين لا معنى

ص: 121

- 1- دعت التوراة الخليل أبرام حتى التاسعة و التسعين من عمره، ثم إبراهيم بعد ذلك (انظر تكوين 11: 27-31، 12، 4، 7، 9، 10، 14، 16-18، 13: 1-8، 12، 14، 18، 14: 13، 14، 19، 22، 23، 15: 1-3، 13، 18، 16: 1-6، 15، 17: 1-6)
- 2- سورة الأنعام: آية 74 و انظر: تفسير الطبري 11/ 465-469 (دار الشعب- القاهرة 1957)، تفسير النسفي 2/ 53، الجواهر في تفسير القرآن الكريم (للشيخ طنطاوي جوهرى) 4/ 56 (طبعة ثالثة 1974).
- 3- ابن الأثير 1/ 94، تاريخ الطبري 1/ 223، أبو الفداء 1/ 13، المقدسي 3/ 47، تاريخ يعقوبي 1/ 23-24، مروج الذهب 1/ 56، ابن خلدون 2/ 33، تفسير روح المعاني 7/ 194، تفسير القرطبي ص 2458 (طبعة الشعب) دائرة المعارف الاسلامية 1/ 52-55، تفسير الطبري 11/ 465-466، و مع ذلك فهناك من يجمعون على أن «أزر» هو ابو إبراهيم طبقا لتصريح القرآن (تفسير الطبري 11/ 468-469، تفسير الفخر الرازي 3/ 72، تفسير البحر المحيط 4/ 163-164، تفسير روح المعاني 7/ 194-195، تفسير الجواهر 4/ 56، البداية و النهاية لابن كثير 1/ 142 عباس العقاد: أبو الأنبياء ص 135-136)

لها (1):

و أما قوم إبراهيم، فهناك من يجعلهم من المجموعة الآرامية التي تزوج منها إسحاق ويعقوب، و سواء أصبح هذا أم لا، فأن قوم إبراهيم قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التي نشئوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة، و لعل في تفكير إبراهيم في إسكان زوجته المصرية، و ابنه إسماعيل منها في منطقة مكة المكرمة، هربا من ضررتها العجوز سارة، لم يكن على الأرجح بمحض الصدفة، ذلك لأن الصدفة لم يكن لها محل في تنظيم مثل هذه الخلافات العائلية عند رؤساء العشائر الأقدمين، و إذا كان إبراهيم قد اختار هذه المنطقة، فمما لا شك فيه أنه هو شخصا كانت له صلات قرابة و صلات حلف و ذمة مع سكانها، و إلا لما اختار هذا المكان القفر البعيد مأوى لزوجته و ابنه (2).

و هكذا يمكن القول أن إبراهيم الخليل كان عربيا خالصا من سلالة العرب العاربة التي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح، عليه السلام، كما أنه سوف يكون أبا العرب العدنانية الذين هم أبناء ولده إسماعيل، و هو بهذا جد العرب، قبل أن يكون جد الإسرائيليين.

هذا و يقدم لنا المؤرخون وجهتي نظر، فيما يتصل بأور موطن الخليل عليه السلام، الواحدة تذهب إلى أنها إنما تقع في جنوب العراق (3)، بينما تذهب الثانية إلى أن «أور» هذه ليست من بابل، و لا تقع على الخليج العربي، بل هي من إقليم العراق الأعلى في منطقة الجزيرة بين دجلة و «الفرات» و أن هناك كثيرا من الأدلة التي تؤيد هذا

ص: 122

1- كتابنا اسرائيل ص 160-164

2- حسن ظاظا: الصهيونية العالمية و اسرائيل ص 26-27.

3- تكوين 11: 28، 31، 15: 7، نحemia 9: 7 و كذا P, tic- po, relleK. W. 42.

الإتجاه، موجودة في نصوص التوراة نفسها (1)، إلى جانب أدلة أخرى، سبق لنا مناقشتها في كتابنا إسرائيل (2)، وكلها تؤيد الفكرة القائلة أن «أور»، إنما كانت من مجاورات «حاران»، وبالذات إلى الشرق منها طبقاً لتقاليد محلية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، ولعل «إميانوس مركليوس» كان يعيها في إشارة له من نفس التاريخ إلى قلعة تقع بين سنجار و الدجلة (3)، و من ثم فقد ارتضينا الرأي الذي يجعل من حاران- وليس أور المشهورة في جنوب العراق (4)- موطننا للخليل (5).

هذا وقد اختلف المؤرخون كذلك في عصر الخليل (6)، فبينما يذهب «يونجر» إلى أنه ربما كان في الفترة (1261-1986 ق. م.) (7)، بينما يرى «ويجال» أن الخليل إنما ولد في حوالي منتصف القرن الحادي والعشرين ق. م. (8)، و أما أطلس و ستمنستر، فيحدد

ص: 123

1- تكوين 24: 7، 40، 27: 43-44، 28: 10، يشوع 24: 2، نجيب ميخائيل مصر و الشرق الأدنى 183/3، حسن محمود: حضارة

مصر و الشرق القديم: ص 349، و كذا P, tic- po, sdoL A .166 و كذا P, tic- po, nageniF. J .70

2- راجع كتابنا إسرائيل ص 165-171

3- P, tic- po, sdoL. A .165-6

4- تذهب بعض الروايات الإسلامية إلى أن موطن الخليل، إنما كان في كوثي من سواد العراق، و تذهب روايات أخرى إلى أنه في بابل، بينما تذهب رواية ثالثة إلى السوس من أرض الاهواز، ورابعة إلى حران، غير سادسة تذهب إلى الوركاء، بل ان رواية سابعة ترى أنه ولد بغوطة دمشق (تفسير الطبري 142/20، ابن كثير 140/1، تاريخ اليعقوبي 23/1، تاريخ الطبري 223/1، ياقوت 235/2، 487/4، أبو الفداء 13/1)

5- جون الدر: الاحجار تتكلم ص 43، 44 و كذا P 104 .P .A .514-492 .P, tic -po, sdoLL .A .6-165 .P .J .6-165 .P, tic -po, yarG .J .6-165

.P .P, msiaduJ .P .J .31-21 .P .P, tic -po, nageniF .J .71-70 .L .P .noitaziliviC fo sgninnigeB ehT ,yellowW .L .71-70 .P .nitetspE .I

6- راجع كتابنا إسرائيل ص 171-177

7- P. P, tic- po, regnU. M .10-14

8- P, shoarahP eht fo yrotsiHA, llagieW. A .40

عصر الخليل فيما بين عامي 2000، 1700 ق. م. (1)، بينما حددت موسوعة وستمستر- اعتمادا على تقدير الأسقف يوشر- مولد الخليل بعام 1996 ق. م. (2)، وأما السير «ليونارد وولي» فيراه معاصرا لعصر «لارسا»، أعني ما بين عامي 1920، 1800 ق. م.، مستشهدا في ذلك بما دونه العهد القديم، وبتحقيق كلمة «عاييرو» (3)، التي يرى أنها استعملت في ذلك الوقت للدلالة على العبرانيين (4).

ويذهب «كيلر» إلى أن الخليل قد عاش حوالي عام 1900 ق. م. (5)، وأما «جورج روكس» فيرى أن الرحلة التي قام بها إلى كنعان، قد تمت في حوالي عام 1850 ق. م.، أو بعد ذلك بقليل (6)، وهذا يعني أن الخليل قد ولد في الربع الأخير من القرن العشرين ق. م.،

ويحدد «جاك فينجان» عام 1900 ق. م.، كتاريخ لدخول إبراهيم كنعان، وأنه قد ترك ميز و بوتاميا في عصر الغزو الأموري والعيلامي، و أن الاضطرابات التي حدثت هي التي اضطرته إلى الرحيل من موطنه الأصلي (7).

و هناك طائفة من العلماء حاولت الربط بين إبراهيم الخليل، وبين حمورابي الملك البابلي الشهير، بصلة من نوع ما عن طريق «امرافل ملك

ص: 124

1- 234. W. retsenimts? H lacirotsiA saltA eht ot elbiB, P

2- عباس العقاد إبراهيم أبو الأنبياء ص 69، قاموس الكتاب المقدس ص 12

3- انظر عن كلمة عاييرو وصلتها بالعبرانيين، كتابنا إسرائيل ص 1-5، حسن ظاظا: الساميون و لغاتهم ص 71، 13-14 -po, tic PP, H .R .H .P, tic -po, tlaH .O .W, 7-406 .P, tic -po, yelretseO .I, 212 .nietspE

4- 492, 512 .L .W, yelooP, tic -po, P

5- 69 .W .K, relleP, tic -po, P

6- 215 .G .R, xuoA, tneicnI, qarP

7- 72 -3 .J .F, nageniP, tic -po, P

شنعار» الذي هزمه إبراهيم عند محاولته إنقاذ ابن أخيه لوط (1)، و من ثم فقد رأى البعض أن امرافل، إنما هو «امرايل» والد حمورابي (2)، أو أنه حمورابي نفسه على رأي آخر (3)، أو على الأقل - فيما يرى فريق ثالث- أن إبراهيم كان يعيش في نفس الوقت الذي كان يعيش فيه حمورابي في بابل (4)، غير أن هناك من يرى ان عصر حمورابي متأخر عن عصر الوقائع التي تنسب إلى امرافل بمائة سنة أو أكثر، و أن امرافل و حمورابي لا يدلان على شخص واحد، هذا فضلا عن أن الرأي قد استقر بين العلماء، على أن تاريخ حمورابي إنما كان في الفترة (1728-1686 ق. م.) فلو افترضنا جدلا أن إبراهيم كان يعاصر حمورابي على الأقل، و طبقا لنص التوراة- العبري أو السبعيني- فإن مدة إقامة آباء الإسرائيليين في كنعان قبل دخولهم مصر قدرت ب 215 سنة، و هذا يجعل دخولهم مصر في عام 1513 ق. م.، و هذا تاريخ يقع في أخريات عهد الفرعون تحوتمس الأول (1528-1510 ق. م.)، و بعد طرد الهكسوس من مصر (في عام 1575 ق. م.)، بأكثر من نصف القرن، و الذين يفترض دخول الإسرائيليين مصر على أيامهم، هذا فضلا عن أنه رغم ما يذهب إليه البعض من أن «امرافل» قريب من اسم حمورابي، فالأمر ما يزال مجال مناقشة و اعتراض من جانب العلماء، و أن اسم امرافل هذا ما يزال حتى الآن يصعب تعيين صاحبه، كما يصعب تعيين زملائه الآخرين الذين

ص: 125

1- تكوين 14: 1-23

2- ول ديورانت: قصة الحضارة 2/324 و كذا P. F. W. 17. earsI dna tpyE, irtP.

3- عباس العقاد: المرجع السابق ص 61 - 64، و كذا S. , 70 - 71. airsA foyrotsiH, ylrA ehT, htims. و كذا انظر

H. H. yellaH ehT tekcaB elbiB koobdnaH.

4- F. J. 74. p, tic- po, nageni. G. H 73. p, tic- po, slleW.

جاء ذكرهم في سفر التكوين (14: 1) (1).

وأخيرا فهناك من يوحد إبراهيم ب «دمقي يشو»، ذلك لأن «ديوتي» يترجم اسم «دمقي يشو» بحبيب الله، من المقمة بمعنى الحب، و الإيل بمعنى الله، وضمير الاضافة، ثم جاء «جون فليبي» فظن أن هذا الإسم يطابق في الزمن و الصفة اسم الخليل إبراهيم، وأن الخليل كان ملكا من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج العربي، لأن الأقوال متواترة لمقام الخليل هناك في أور الكلدانيين، ولأن اسم «دمشقي يشو» ورد في الآثار البابلية بين عدة ملوك يسمون بملوك الشاطئ أو ملوك الأرض البحرية، و هو اصطلاح يطلق على العرب من سكان تلك الجهات (2)، هذا وقد حدد «ديلابورت» لهذه الاسرة الفترة (1925-1761 ق. م.) (3)، غير أن هناك عقبات تقف في وجه هذا الإتجاه، منها ان واحدا من الكتب المقدسة- مصادرها الأصلية عن الخليل عليه السلام- لم يقل بأنه كان ملكا من الملوك، و منها ذلك الرأي الذي يجعل من حاران- وليس أور- موطننا للخليل، و الذي ارتضيناه من قبل، و أخيرا فإن هذه الفكرة تجعل هجرة إبراهيم، بسبب استيلاء الكاشيين على بابل، و ليس من أجل دعوة التوحيد التي حمل لواءها طوال حياته.

ولهذا كله، فليس أمامنا سوى أن نفترض - حدسا عن غير يقين- أن الرأي الذي يجعل الخليل يعيش حوالي عام 1900 ق. م.، أقرب إلى الصواب من غيره، على أساس أن الإسرائيليين قد خرجوا من مصر في أخريات القرن الثالث عشر ق. م.، في عصر مرنبتاح (1224-1214

ص: 126

1- راجع كتابنا إسرائيل ص 175-176

2- airdnaxelA, malsI fo dnuorgkcaB ehT, yblihP. B. J, 1947, و كذا: عباس العقاد: المرجع السابق ص 64, 134

3- ل. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، ترجمة محرم كمال ص 74

ق. م.)، وأنهم جاءوها على أيام الهكسوس، حوالي عام 1650 ق. م.، ولما كانت مدة إقامتهم في مصر - كما يحددها سفر الخروج (1) - 430 سنة، فإن قدوم إبراهيم إلى كنعان يصبح حينئذ في حوالي عام 1850 ق. م.، ولما كان قد هاجر إلى كنعان، وهو في الخامسة والسبعين من عمره (2)، فهو قد ولد حوالي عام 1940 ق. م.، وبهذا يكون قد عاش في الفترة (1940-1765 ق. م.)، على أساس أنه قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، وعمره 175 عاما (3).

[3] هجرته

كانت أولى هجرات الخليل - طبقا لرواية التوراة - من أور الكلدانيين، على اعتبار أنها الموطن الأول له، وهو أمر سبق أن ناقشناه، وخلصنا منه إلى أن ذلك إنما كان في حاران، وليس في أور، وعلى أي حال، فإن التوراة تنسب هذه الهجرة إلى تارح، وليس إلى إبراهيم، كما أنها تجعل كنعان هدف الرحلة من أور، وأن حاران لم تكن أكثر من محطة وقوف يستريح فيها المهاجرون أياما، أو يقيمون سنين عددا (4).

هذا ويرجح البعض أسباب هذه الهجرة إلى أن أور، إنما كانت في زمن إبراهيم قد فقدت شهرتها وطغت عليها بابل، فبارت تجارتها، ورسب الطين في مرفئها، وباتت الحياة فيها قلقة غير مستقرة، مما حمل أهلها على مغادرتها والارتحال شمالا، ومن هنا رحل إبراهيم من أور إلى حاران (5)، وتقول تعليقات «أبنجدون» أنه ربما كان من أسباب هذه

ص: 127

1- سفر الخروج 12: 40

2- تكوين 12: 4

3- تكوين 25: 7، (انظر ابن كثير 1/ 56-57، والمقدس 3/ 53)

4- تكوين 11: 31

5- حبيب سعيد: المرجع السابق ص 8.

الهجرة اضطراب سياسي في جنوب العراق، أصابت جرائره معيشة أهل أور، فلم تستقر عليه أحوال المعيشة و التجارة في أور (1).

ويرى أستاذنا الدكتور الناصوري أن هجرة إبراهيم عليه السلام، تتصل اتصالا وثيقا بالأحداث التاريخية التي كانت سائدة في جنوب بلاد الرافدين في بداية الألف الثاني ق. م.، حيث كان عصر الاختلال الاموري و العيلامي، أو كما يطلق عليه أيضا عصر إيسين و لارسا، و هو المرحلة التاريخية التي حدثت أثناءها عدة تحركات بشرية مثل تحركات العناصر العيلامية من سوسة بعيلام، و تحركات العناصر الآمورية من سورية بحذاء نهر الفرات، مما أدى إلى ازدياد ظاهرة الصراع السياسي و الحضاري بين حكومات المدن السومرية و الأكديّة، و تلك العناصر الوافدة، و كان ذلك من الأسباب المباشرة و التي أدت إلى هجرة إبراهيم عليه السلام و جماعته إلى حاران (2)، و هكذا ترجع هجرة الخليل إلى الأسباب السياسية و الاقتصادية في نفس الوقت، كما أنها كانت من «أور»، و لم تكن من حاران كذلك.

و ليس هناك من شك- فيما نعتقد- في أهمية الأسباب الاقتصادية و السياسية في الهجرات بصفة عامة، غير أن الأمر في حالة الخليل- عليه السلام- جد مختلف، و من ثم فعلينا أن نتذكر- بادئ ذي بدء- أن إبراهيم لم يكن ملكا من الملوك، وإنما كان نبيا رسولا، هذا إلى أن هجرة رجل بأسرته، لا تعني في كل الأحوال اضطراب الأمور في البلد الذي هاجر منه، إلا إذا كانت هناك هجرة جماعية، و لهذا فالرأي عندي أن هجرة إبراهيم لم تكن لأسباب سياسية أو اقتصادية في الدرجة

ص: 128

1- عباس العقاد: المرجع السابق ص 62

2- رشيد الناصوري: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ص 173-174

الأولى، وإنما كانت دينية، كانت هجرة نبي يريد أن يبشر بدعوة التوحيد في مكان غير هذه الأرض التي لم تتقبل دعوته بقبول حسن.

ويقص علينا القرآن الكريم- في آيات كريمة من سورة مريم (1)- كيف بدأ إبراهيم دعوته مع أبيه يهديه بها صراطا مستقيما- كما أشرنا من قبل- وكيف أن أباه قد رفض الدعوة، وهدده إن لم ينته عنها ليرجمه وليهجره مليا، فما كان من الخليل تأدبا مع أبيه وحببا عليه، إلا أن يدعو له بالمغفرة، وإلا أن ينتظر إجابة دعوته إلى حين.

غير أن الأمور سرعان ما بدأت تتأزم بين الخليل وقومه، حين بذل أبو الأنبياء الجهد- كل الجهد- لصرفهم عن عبادة الأوثان، والإتجاه إلى عبادة الله الواحد القهار، إلا أن القوم ظلوا في طغيانهم يعمهون، مما دفع الخليل إلى أن يجرب معهم وسائل حسية، و من ثم فقد حطم الأصنام وترك كبيرهم، لعل القوم يفكرون في الموقف الجديد، أملا في أن يهديهم الله سواء السبيل، فيعرفوا أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعا، ولا تمنع عنها ضرا، فضلا عن أن يكون ذلك للقوم أنفسهم، إلا أن هذه العقول المتحجرة، لم تزد على أن تلجأ إلى العنف لنصرة أصنامها، ولم تجد لها مخرجا من الموقف الجديد، إلا أن تلقي إبراهيم في نار، ظنوا أنها ستكون القاضية على الخليل، وأنها الحل السعيد لمشكلتهم، مع هذا الذي سفه عقولهم وحطم أصنامهم، دون أن يفكروا مرة في مقابلة الحجّة بالحجة، ودون أن يرجعوا إلى الحق، ما دام الحق مع إبراهيم، وتلك- ويم الله- عادة من طمس الله على قلوبهم في كل زمان و مكان، لا يعرفون إلا القوة الطاغية ضد العقول المستنيرة، التي تبغي لهم الخير والفلاح.

ص: 129

ولتقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة الانبياء «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ، قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصَدَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَمُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظِقُونَ، قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ» (1).

ويحاول بعض المؤرخين الإسلاميين أن يقدموا لنا قصصا تدعو إلى العجب في هذه المواقف الجادة، فيرون أن نمودا أمر بجمع الحطب، حتى أن المرأة العجوز كانت تحمل الحطب على ظهرها، وتقول «اذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا»، وحتى أن المرأة لتندر إن بلغت ما تريد أن تحتطب لنار إبراهيم، وأن أمه نظرت إليه في النار، فطلبت أن تجيء إليه فيها، على أن يدعو الله ألا يضرها شيء من حر النار، ففعل، وهكذا

ص: 130

ذهبت إليه فاعتنقته وقبلته ثم عادت وقد اطمأنت على ولدها (1)، ويتسابق البعض الآخر في رواية الأساطير، فيذهب إلى أنها إنما كانت ابنة نمرود- وليست أم الخليل- وأن الخليل قد زوجها بعد ذلك من ولده مدين، فحملت منه عشرين بطنا، أكرمهم الله بالنبوة (2).

ولست أدري كيف احتاج نمرود- وهو في رأي هذا النفر من المؤرخين قد ملك الدنيا بأسرها- إلى أن تحمل المرأة العجوز ما لا تطيق، و إلى أن ينتظر نذر النساء بجمع الحطب لناره، و هل كان جمع الحطب يحتاج إلى فترة تمضي بين أن يتحقق للمرأة ما طلبت و بين أن توفي بنذرها حطبا للنار التي أعدها النمرود لإبراهيم؟. و أما قصة أم إبراهيم، فأمرها عجب، فكيف رأته في النار سليما معافى، ثم اعتنقته وقبلته، ثم كيف سمح لها القوم بأن تذهب إليه، أم أن أصحابنا المؤرخين أرادوا لها أن تذهب خلصة- كما وضعته خلصة فيما يزعمون؟. و إن كان الأعجب من ذلك أن تكون هذه المرأة بنت النمرود، و أن يزوجه إبراهيم من ولده مدين، و أن تنجب له عشرين بطنا من الأنبياء، و أخيرا ما الهدف من هذا القصص و أمثاله، كقصة الميرة، و قصة جيوش الذباب، و قصة أفراس النور (3).

و أما روايتهم بأن النمرود من الأنباط، الذين لم يستقلوا بشبر واحد من الأرض، و من ثم فإن النمرود كان عاملا للضحاك- و هو فارسي- على السواد و ما اتصل به يمنة و يسرة (4)، فليت الذين كتبوا كل هذا

ص: 131

1- تاريخ الطبري 1/ 241، تفسير القرطبي 15/ 98 ابن الأثير 1/ 98-99، ابن كثير 1/ 146

2- تاريخ الخميس ص 93-95

3- ابن الأثير 1/ 115-117، ابن كثير 1/ 149، تاريخ الطبري 1/ 288-290، تاريخ الخميس ص 95-96، المقدسي 3/ 56، أخبار

الزمان للمسعودي ص 104-109، تفسير مقاتل 1/ 123-124

4- تاريخ الطبري 1/ 291-292، ابن الأثير 1/ 116-117

يعرفون أن الأنباط لم يكونوا في العراق، وإنما في شمال غرب الجزيرة العربية، وأن عاصمتهم إنما كانت «البتراء»، وأنهم أقاموا دولة مستقلة، فيما بين القرن الثاني قبل الميلاد، وأوائل الثاني الميلادي، ثم استولى الرومان عليها في عام 106 م، على أيام تراجان (98-117) م، ومن ثم فالفرق بين عهد الخليل، عليه الصلاة والسلام- وبين عهد الأنباط، جد كبير (1).

و عودا على بدء، إلى الخليل وقومه، حيث ترى أبا الأنبياء قد بدأ يفقد الأمل في إيمان القوم، وبخاصة بعد المناظرة التي جرت بينه وبين الذي آتاه الله الملك (2)، فإن الله لا يهدي القوم الظالمين، وهنا يقرر الخليل الهجرة، «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِينِ» (3)، ويعلن القرآن الكريم في وضوح- لا- لبس فيه و لا- غموض- إيمان لوط عليه السلام، «فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (4)، ويبدو أن النبي الكريم قد تحمل بعض الأذى الذي تحمله أبو الأنبياء- عليه السلام- ومن ثم فقد ربط القرآن الكريم نجاة الواحد منهما بالآخر، من عذاب هؤلاء القوم الظالمين، يقول سبحانه و تعالى «قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ» (5).

ص: 132

-
- 1- راجع عن دولة الانباط، كتابنا «بلاد العرب»
 - 2- سورة البقرة: آية 258 وانظر: تفسير الطبري 5/429-438 (دار المعارف بمصر)، الكشاف 1/304-306، تفسير النسفي 1/130-131، الدرر المنثور 1/332-333، تفسير القرطبي 3/283-284، تفسير روح المعاني 3/15-19
 - 3- سورة الصافات: آية 99
 - 4- سورة العنكبوت: آية 26
 - 5- سورة الأنبياء: آية 68-71

وبدهى أنه ليس في هذه الآيات الكريمة ما يشير إلى هجرة أبيه معه، ولو كان أبوه آمن به وهاجر معه، لكان ذلك حدثا هاما جديرا بالتنصيص عليه، تكريما له ولإبراهيم في نفس الوقت، ولم يكن ابن أخيه لوط أقرب إليه من أبيه، حتى ينال لوط وحده شرف الهجرة واثوبة التوحيد (1)، هذا فضلا عن أن الآيات الكريمة تشير إلى أن الهجرة إنما كانت «إلى الأرض التي بارَكنا فيها للعالمين (2)»، وليست هذه الأرض - بحال من الأحوال - حاران، فإذا تذكرنا أن موطن الخليل كان في حاران، لتبين لنا أن هجرة الخليل هذه إنما كانت من حاران إلى كنعان، وبالتالي فلا صلة لها بأور.

ومن هنا فليست الهجرة لأسباب سياسية أو اقتصادية، وإنما لأسباب دينية تتصل بدعوة التوحيد التي حمل لواءها جدنا الأكبر أبو الأنبياء إبراهيم الخليل - عليه السلام - بخاصة وأن حاران - وتقع على نهر بلخ على مبعده 60 ميلا - إلى الغرب من تل حلفا - كانت أثناء هذه الهجرة - حوالي عام 1865 ق.م - وطوال القرنين 19، 18 ق.م. مدينة مزدهرة، وتقع على طريق التجارة القادمة إليها من الشرق والغرب، أضف إلى ذلك أن الخليل كان يقيم المحارِب لله العلي القدير - كما سوف ترى - مما يدل على أن الأسباب الدينية لعبت أهم الأدوار في هجرته، الأمر الذي يبدو واضحا في آيات القرآن الكريم، وكذا في بعض نصوص التوراة.

وأيما ما كان الأمر، فإن الرحلة قد بدأت من كنعان، ولا تشير

ص: 133

1- محمود عمارة: اليهود في الكتب المقدسة ص 21، 23

2- انظر عن تفسير الآية الكريمة: تفسير البيضاوي 76/2 - 77، تفسير الجلالين ص 77 (نسخة على هامش البيضاوي).

التوراة من قريب أو بعيد إلى أماكن حط الخليل فيها ركبه ورحالهم أثناء هجرتهم هذه، حتى وصلوا إلى شكيم، وإن كان المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى»، قد ذهب إلى أن إبراهيم كان «ملك دمشق»، وأن «نقولا-الدمشقي» يقول في الكتاب الرابع من تاريخه، أن ابراميس (إبراهيم) حكم في دمشق، وكان مغيراً قدم من أرض بابل من البلاد التي تسمى بلاد الكلدانيين، ولم يمض عليه طويل وقت حتى هجرها وقومه إلى كنعان، وهو أمر لم يذكره القرآن من بعد، ولا التوراة أو الإنجيل من بعد، وإن ورد اسم «اليعاذر الدمشقي» في التوراة- وهو وكيل بيت إبراهيم- وإن أشار كذلك المؤرخون الإسلاميون إلى رواية ابن عباس من أن الخليل قد ولد بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون، وقد صحح ذلك الحافظ بن عساكر، فقال أنه ولد في بابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه، إذ جاء معينا للوط عليه السلام (1)، و كل ذلك يدل على أن هناك علاقة من نوع ما بين إبراهيم الخليل وبين دمشق، وإن كانت وصلت إلينا من مصادر متأخرة.

و على أي حال، فإن إبراهيم الخليل قد اختار- كما تشير التوراة- في ريادته الأولى لأرض كنعان، الطريق الشاق والموحش، إذ كان متجولاً فوق التلال نحو الجنوب، وهنا نجد حواف التلال المليئة بالأشجار، تقدم ملجأً وملاذاً للغريب في الأرض الأجنبية بينما يقدم الخلاء الواسع المرعى الواسع لقطعانه ورعاته، وعند ما أراد الخليل أن يستقر في بادئ الأمر، فضل ذلك أن يكون فوق هضبة، ذلك لأنه- بأقواسه ومقاليعه- لم يكن في حالة تمكنه من أن يخاطر بالصدام مع الكنعانيين، الذين كانوا- بسيوفهم وحرابهم- أكبر من ند له، ولم يكن إبراهيم بعد مستعداً

ص: 134

للمغامرة بعيدا عن الهضاب، وأياما كان الأمر، فقد نزل إبراهيم عند شكيم في مكان بلوطة مورة، بين جبل عيبال وجرزيم، وهناك بنى مذبحا للرب، وربما قد تحرش به الكنعانيون، ولهذا نراه ينتقل إلى المنطقة الجبلية بين بيت إيل وعاي، فيضرب خيامه هناك، و يقيم مذبحا للرب، ثم يرتحل ارتحالا متواليا نحو الجنوب (1).

و يقيم الخليل - ما شاء الله له أن يقيم - في أرض كنعان، ثم يرحل عنها صوب أرض النيل الطيبة، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان (2)، و مصر كانت دائما و أبدا، للبدو و الكنعانيين - وبخاصة في أوقات القحط - ملاذهم، و غالبا منقذهم الوحيد، فحينما كانت الأرض تجف في أوطانهم، كانت أرض الكنانة الطيبة تقدم لهم المأوى و المرعى، و كان النيل بفيضانه المنتظم يتعهد بذلك (3).

و تأبى التوراة أن تمر رحلة الخليل - عليه السلام - إلى أرض الكنانة بخير، فتقول إن خليل الله قد هاجر بزوجه سارة إلى مصر، بسبب قحط قد أصاب أرض كنعان، و عند ما أشرف على التخوم المصرية، اتفق مع سارة على أن تقول أنها أخته، و ليست زوجته، ذلك لأن المصريين إن علموا أنها زوجته قتلوه، و أما إن كانت أخته فمن أجلها أكرموه، و حدث ما توقعه، و أبرت سارة بوعدھا، و أخذت إلى بيت فرعون، و نال إبراهيم خيرا بسببھا، إذ أسبغ عليه فرعون وافر نعمته، من غنم و بقر، و حمير و أتن و جمال، و عبيد و إماء، إلا أن المصائب سرعان ما أخذت

ص: 135

1- . 10 . F. M . tic- po, regnU. و انظر: تكوين 12 : 6- 9

2- تكوين 12 : 10

3- . 87 . K. W . tic- po, relle

تتوالى على فرعون وبيته، مما اضطره أن يستدعي إبراهيم ويؤنبه على فعلته هذه، «لما ذا لم تخبرني أنها امرأتك، لما ذا قلت أنها أختي، حتى أخذتها لي لتكون زوجتي» ثم يصدر أمره بطرد إبراهيم وامرأته من مصر، وإن سمح له بأن يأخذ ما كان قد أعطاه إياه من قبل (1).

ويعلم الله، وتشهد ملائكته، أن نفسي تتأفف من مجرد التعليق على هذه الفرية الدينية التي يلصقها كاتب سفر التكوين بأبي الأنبياء، فتلك فعلة لا- يقبلها على نفسه، ولا يرتضيها لعرضه أخط الناس، فضلا عن أن يكون ذلك نبي الله وخليه العظيم، ومع ذلك فإذا رجعنا إلى نصوص التوراة نفسها، لعلمنا أن إبراهيم قد جاء إلى كنعان، وهو في الخامسة والسبعين من عمره، وأن سارة كانت في الخامسة والستين (2)، وأنهما أقاما في أرض كنعان- ما شاء الله لهما أن يقيما- ثم هاجر إلى مصر، فهل كانت سارة، وقد تجاوزت الخامسة والستين من عمرها بسنين عددا، تفتن الرجال، فضلا عن أن يكون فيها لملوك مصر المترفين إربا، ثم أليست هي نفسها قد وصفت في إصحاح قبل هذا الإصحاح من سفر التكوين نفسه، بعد أن بشرت بإسحاق، بأنها قد صكت وجهها وضحكت وقالت: أ يحدث هذا مع عجوز عقيم، انقطعت عنها عادة النساء، وبعلمها شيخ كبير (3)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَسَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ

ص: 136

1- تكوين 12: 10-20، وانظر قصة مشابهة لإبراهيم مع سارة وملك جيران في (تكوين 1: 20-18) غير أن سارة هنا قد تجاوزت

التسعين من عمرها

2- تكوين 12: 4، 17: 17

3- تكوين 18: 9-15

عَجِيبٌ (1)»، أضف إلى ذلك أن التاريخ ما حدثنا أن الفراعين كانوا يأخذون النساء من أهلهم غضبا، ولكنه حدثنا أن عقوبة الزنا كانت عندهم من أفسى العقوبات.

و من عجب أن بعض المؤرخين الإسلاميين قد تابعوا التوراة في مزاعمها، فيروون القصة- كما جاءت في التوراة- وإن حاولوا صبغها بالصبغة الإسلامية، فعند ما يطلب إبراهيم من سارة أن تقول لفرعون أنها أخته، إنما يفسرون ذلك لأنه ليس على وجه الأرض غيرهما مؤمن، فهي إذن أخته في الإسلام، ثم إن فرعون- وهو هنا سنان بن علوان- لم يستطع أن يقضي منها وطره (2).

و لعل سائلا- يتساءل: هل عرفت مصر- حتى في أيام الهكسوس، و الذين يسميهم المؤرخون المسلمون العماليق- ملكا يحمل اسم «سنان بن علوان»- أو حتى «صاروف بن صاروف» سواء أكان أخو الضحاك أو كان غلاما للنمرود- و الجواب: أن التاريخ المصري كله لا يعرف هذه الأسماء، و لست أدري من أين جاء به أصحابنا المؤرخون الإسلاميون، على أن الأمر الذي يدعو إلى العجب حقا، ادعاء الرواة إن إبراهيم قال عن سارة أنها أخته، لأنه لا- يوجد على ظهر الأرض غيرهما من المؤمنين، و الأعجب من ذلك أن تأتي الرواية من كبار المفسرين، و القرآن الكريم لا يشير إلى ذلك، وإنما هو يصرح- دونما لبس أو

ص: 137

1- سورة هود: آية 71-72

2- أنظر: تاريخ الطبري 1/244-247. ابن كثير 1/150-152، ابن الأثير 1/100-101، المقدس 3/52، تاريخ ابن خلدون 2/35، محمد احمد جاد المولى و آخرون: قصص القرآن ص 53-55، قارن: مؤتمر تفسير سورة يوسف 1/136-139

غموض- أن الذي آمن بإبراهيم، إنما هو لوط، يقول تعالى «فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (1) ويقول «وَنَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ» (2)، بل إن هناك ما يشير إلى مؤمنين آخرين مع إبراهيم غير لوط، يقول سبحانه وتعالى «فَدَكَانَتْ لَكُمْ أَسْوَأَ حَسَنَةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ» (3)، فماذا يقول هؤلاء الرواة في هذه الآيات الكريمة، التي تتعارض ورواياتهم، ولعل هذا هو الذي دعا الإمام ابن كثير إلى أن يرى أن إبراهيم إنما كان يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك، لأن لوطا كان معهم وهو نبي عليه السلام (4)، وكان ابن كثير إنما يسلم بالقصة، ولكنه يحاول أن يخفف من تعارضها مع القرآن الكريم بتفسيره هذا الذي يخالف إجماع رواة القصة التوراتية من المؤرخين المسلمين.

[4] رحلة الخليل الى الحجاز

انفردت المصادر الإسلامية بأخبار إبراهيم في الحجاز، وعلق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشيء كثير من الدهشة والاستنكار، وكان المصادر الإسلامية قد نسبت إلى إبراهيم خارقة من

ص: 138

1- سورة العنكبوت: آية 26

2- سورة الأنبياء: آية 71

3- سورة الممتحنة: آية 4 وانظر: تفسير روح المعاني 28/69-73، تفسير الفخر الرازي 29/300-301، تفسير الطبري 28/62-63، تفسير الطبرسي 28/47-49، تفسير الكشاف 4/90، تفسير القاسمي 16/5765-5766، تفسير ابن كثير 8/113، تفسير القرطبي ص 6535 (دار الشعب 1970)

4- ابن كثير: البداية و النهاية 1/152 (طبعة 1966)

خوارق الفلك، وأسندت إليه واقعة بينة البطلان بذاتها، وغير قابلة الوقوع... و واضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لإثبات دين، وإنكار دين، ولا يفتحون عقولهم للحجة حيث تكون، فضلا عن الاجتهاد في طلب الحقيقة، قبل أن يوجههم إليها المخالفون والمختلفون، أما الواقع الغريب حقا، فهو طواف إبراهيم بين أنحاء العالم المعمور، و وقوفه دون الجنوب، لغير سبب بل مع تجدد الأسباب التي تدعوه إلى الجنوب، و لو من قبيل التجربة والاستطلاع.

و يستطرد الأستاذ العقاد (1)- طيب الله ثراه- مبينا الأسباب التي تدعو الخليل إلى الاتجاه نحو الجنوب- نحو الحجاز- ذلك لأنه لم يكن صاحب وطن عند بيت المقدس، سواء نظرنا إلى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى، فالمتواتر من روايات التوراة أنه لم يجد هناك مدفنا لوجه فاشتراه من عفرون الحثي (2)، أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها الأحبار «إيل عليون» و كان إبراهيم يقدم العشر أحيانا لأولئك الأحبار (3)، و من المعروف أن من كان معه أتباع يخرجون في طلب المرعى، فلا بد لهم من مكان يسيمون فيه إبلهم و ماشيتهم بعيدا عن المزاومة و المنازعة، و هكذا كان إبراهيم يعمل في أكثر أيامه- كما تواترت أبنائه في سفر التكوين- فلا يزال متجها نحو الجنوب.

و هناك أسباب دينية غير الأسباب الدنيوية توحى إليه أن يجرب المسير الى الجنوب، حيث يستطيع أن يبني لعبادة الله هيكلًا، غير الهياكل التي كان يتولاها الكهان و الأحبار من سادة بيت المقدس في ذلك الحين، فقد بدا له أن

ص: 139

1- عباس العقاد: المرجع السابق ص 191-193

2- تكوين 23: 4-20، و انظر مقالنا «قصة أرض الميعاد بين الحقيقة و الأسطورة»

3- تكوين 14: 18-20

إقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه و جعلتهم يتقربون في كل مذبح إلى الرب المعبود بجواره، و مثل هذه الفتنة بعد عصر إبراهيم قد أفنعت حكماء الشعب بحصر القربان في مكان واحد، فاتخذوا له خيمة و انتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرّون على البناء، هذا إلى جانب أن الأهمية الدينية لبيت المقدس جاءت متأخرة بعد عصر إبراهيم و عصر موسى بزمن طويل، حتى استولى داود (1000-960 ق.م.) على المدينة المقدسة في العام الثامن من حكمه، ثم اتخذها عاصمة له (1)، ثم جاء من بعده ولده سليمان (960-922 ق.م.)، فأقام فيها هيكله المشهور (2)، و بقي أمرها كذلك حتى عهد «يوآش» (801-786 ق.م.) ملك إسرائيل، الذي حارب «أمصيا» (800-783 ق.م.) ملك يهوذا، و هدم أسوار أورشليم من باب أفرام (3) أما الجنوب المسكوت عنه، فقد كان له شأن من القداسة إلى أيام «أرمياء» و ما بعدها، و كانت كلمة «تيمان» مرادفة لكلمة الحكمة و المشورة الصادقة، و هي تقابل كلمة «يمن» في اللغة العربية بجميع معانيها، و منها الإشارة إلى الجنوب، ففي سفر حبقوق «اللّه جاء من تيمان و القدوس من جبل فاران» (4)، و أوضح من ذلك قول إرمياء متسائلا «ألا حكمة بعد في تيمان، هل بادت المشورة من الفهماء» (5)، و أيسر ما يستوجب طالب الحقيقة أن يتساءل: كيف يكون هذا الجنوب موصدا أمام إبراهيم، و كيف يطوف الأقطار جميعا و لا يفتح له الباب

ص: 140

1- انظر كتابنا اسرائيل ص 455-464

2- انظر كتابنا اسرائيل ص 464-471

3- ملوك ثان 13: 13-14

4- حبقوق 3: 3

5- إرمياء 49: 7

الذي لا موصل عليه؟ إن كان أحد الطرفين مفتوحاً أمامه، فليس هو طريق بيت المقدس، بل طريق الحجاز.

ورغم ذلك كله، يأتي المستشرق الإنجليزي «سير وليم موير»، وينفي القصة من أساسها في كتابه «حياة محمد» (1) ويذهب - فيما يروي عنه الدكتور هيكل (2) - أنها بعض الإسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال، ليربطوا بها بينهم وبين العرب، بالاشتراك في أبوة إبراهيم لهم جميعاً، فلئن كان إسحاق أباً لليهود، وإذا كان أخوه إسماعيل أباً للعرب، فهم إذن أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود، وتيسر لتجارة اليهود في شبه الجزيرة العربية.

ويستند المؤرخ الإنجليزي في ذلك إلى أن أوضاع العبادة في بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم، لأنها وثنية مغرقة في الوثنية، و كان إبراهيم حنيفاً مسلماً، غير أن وثنية العرب - فيما يرى الدكتور هيكل - بعد موت إبراهيم وإسماعيل بقرون كثيرة لا تدل أنهم كانوا كذلك، حين جاء إبراهيم إلى الحجاز، حين اشترك مع إسماعيل في بناء الكعبة، ولو أنها كانت وثنية يومئذ لما أيد ذلك رأي «موير»، فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام، وحاول هو هدايتهم فلم ينجح، فإذا دعا العرب الى مثل ما دعا إليه قومه فلم ينجح وبقي العرب على عبادة الأوثان، لم يطعن ذلك في ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكة، بل إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ، فإبراهيم الذي خرج من العراق فاراً من أهله إلى فلسطين ومصر، رجل ألف الارتحال وألف اجتياز الصحارى، والطريق ما بين

ص: 141

1- 1923, riuM mailliW riS, dammahom fo efiL ehT, hgrubnidE

2- محمد حسين هيكل: حياة محمد ص 90-91 (طبعة 1965)

فلسطين و مكة كان مطروفا من القوافل منذ أقدم العصور، فلا محل إذن للريبة في واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها (1).

هذا فضلا عن أنه إن كانت وثنية العرب هي دليل «وليم موير» على عدم انتسابهم إلى إبراهيم، فإن الإسرائيليين لم يكونوا خيرا منهم في ذلك، فقد بقيت عبادة الأوثان فيهم، بعد دعوة إبراهيم، و حتى ظهور الأنبياء من بعده، حدث ذلك أثناء عهد يعقوب (2) - أو إسرائيل كما يكنى - وفي أثناء إقامتهم بمصر (3)، وفي أثناء الخروج بقيادة موسى، وفي التيه في صحراوات سيناء (4)، بل إن التراث الديني اليهودي ليزخر بأدلة لا تقبل الشك، على أن اليهود الذين رافقوا موسى إلى سيناء، لم يكونوا كفؤا لعبء حمل التوحيد و فلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، و لم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة، أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوا من المراسيم الدينية في مصر، و ودوا لو أنهم يعودون إليها، أو يعبدونها ممسوخة منسوخة في الصحراء (5)، و أبلغ دليل على ذلك قصة عبادة العجل التي وردت في القرآن الكريم (6) - و كذا في التوراة (7) - إذ عبد القوم عجل الذهب، و موسى ما يزال بين ظهرانيهم يتلقى الوحي من ربه على جبال سيناء.

ص: 142

1- نفس المرجع السابق ص 106-107 (طبعة 1971)

2- تكوين 35: 2، 4

3- لاويون 17: 7، يشوع 24: 14، حزقيال 20: 7-8، إرمياء 44: 8-19

4- خروج 22: 27-28، 9: 15، 20: 7-26، تثنية 9: 7

5- مطلع النور ص 107

6- سورة البقرة آية 92، الاعراف: آية 142-152، طه: آية 83-98

7- خروج 22: 7-28

وليس من شك في أن هذا كان من نتيجة تأثير الديانة المصرية عليهم، تلك الديانة التي تمكنت من نفوسهم إبان إقامتهم الطويلة في مصر، لدرجة أنهم ما كانوا بمستطيعين الإيمان بدعوة موسى، إما خوفا من فرعون، وإما خوفا من شيوخ بني إسرائيل، وإلى هذا يشير القرآن الكريم «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَآ يَهُمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ» (1)، باعتبار الضمير في «ملئهم» راجعا إلى قوم موسى، بل إن القوم برموا بموسى و ضجروا به، وقالوا «أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا» (2).

وهكذا بقيت الوثنية راسخة في قلوبهم، حتى بعد انغلاق البحر لهم، و حتى بعد أن جاوزوه على ييس (3)، و حتى بعد أن منّ الله عليهم باليمن والسلوى، و حتى بعد أن استسقوا موسى، فضرب الحجر بعصاه فانبجست منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط من الأسباط مشربهم (4)، حتى بعد أن نزلت عليهم شريعة السماء تحذرهم من اتخاذ آلهة أخرى غير الله، حتى بعد هذا كله، فإنهم سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم، و كفروا بالله الواحد الأحد، «و صنعوا لهم عجلا مسبوكا و سجدوا له و ذبحوا له و قالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (5).

و لم تكن أيام يشوع، بأفضل من أيام موسى، بالنسبة للوثنية الإسرائيلية (6)، هذا فضلا عن أن السمة المميزة لعصر القضاة، إنما

ص: 143

1- سورة يونس: آية 83

2- الاعراف: آية 129

3- سورة البقرة: آية 50، يونس: آية 91-92، طه: آية 77، الشعراء: آية 61-68

4- سورة البقرة: آية 60-61، الاعراف: آية 160 و طه: آية 80-81

5- خروج 32: 8

6- يشوع 24: 14، 23

كانت هي الردة وعبادة الأوثان (1)، كما بقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين إلى حين، حتى إذا ما حدث الانقسام إلى مملكتين، تبنى ملوك إسرائيل ديانات الشرك، بالإضافة إلى دين يهوه وأقاموا عجولا من الذهب وضعوها في مبان كالمعابد (2)، كما فعل يربعام الأول (922-901 ق.م.) في مدينتي دان وبيت إيل (3)، و كما فعل «أخاب» (869-850 ق.م.) حين أقام الهياكل للبعل (4)، و تروي التوراة ان «حزقيا» (715-687 ق.م.) ملك يهوذا، قد «أزال المرتفعات و كسر التماثيل و قطع السوراي، و سحق حية النحاس التي حملها موسى، لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها» (5).

وهكذا بقي بنو إسرائيل - كالعرب تماما- يعبدون الأصنام إلى ما بعد إبراهيم بمئات السنين، و من هنا فإن عبادة الأوثان لا تدل على انتماء العرب أو اليهود إلى إبراهيم، أو عدم انتمائهم، ثم أليس إبراهيم يرجع في أصوله الأولى إلى جزيرة العرب و أن أسلافه قدموا إلى منطقة الهلال الخصيب كغيرهم من الكتل البشرية السامية، التي قذفت بها صحراء

ص: 144

-
- 1- قضاة 2: 8-23، 3: 5-9، 2: 19، 4: 1، 6: 25، 28، 30، 8: 24-27، 8: 33، 10: 6، 10، 13-16، 13: 1، 17: 4-13، 17: 18، 24، 30، صموئيل 3، 4
- 2- عن الوثنية الإسرائيلية في عصر الملكية، أنظر التوراة: صموئيل أول (15: 23) (29: 13) ملوك أول 11: 4-8، (33) (14: 23، 32) (15: 3، 12) ملوك ثان (8: 26) (21: 11-12) (23: 10) (24: 18-21) (14: 4) (25: 14-16، 20) (16: 3-4) (28: 2-4، 6) (23: 25) (2: 2-16) (21: 21) (22: 7) (23: 4-26، 37) (24: 2-3) أخبار ثان (33: 2-11) (34: 3-7) (26: 12-17) حزقيال (14: 22-23)
- 3- ملوك أول 12: 26-36
- 4- ملوك أول 16: 31-33
- 5- ملوك ثان 18: 4

العرب إلى تلك المنطقة الخصيبة، فما المانع إذن أن يكون إبراهيم قد فكر، لا نقول في العودة إلى موطن الأجداد، بل في زيارته فحسب، و هو الرجل الذي قضى حياته و هو يعيش حياة أشبه بحياة البدو و أبناء الصحراء العربية.

ثم هناك البيئة الكبرى التي تأتي من مباحث اللغة، و هي التقارب الشديد بين لغة الحجاز و لغة النبط أو النباتيين، الذين ينتمون إلى «نبات بن إسماعيل بن إبراهيم، ذلك لأن لغة الحجاز لم تتطور من اللغة اليمنية مباشرة، وإنما جاء التطور من العربية القديمة (1) إلى الآشورية إلى الآرامية إلى النبطية إلى القرشية، فتقارب لغة النبط و لغة قريش من هذا السبيل، و كان التقارب بينهما في الزمان و المكان، أو في درجات التطور، و لم يكن تقاربا يقاس بالفراسخ و الأميال، و كانت هذه هي البيئة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين أو النباتيين أبناء إسماعيل، و لم تكن هذه القرابة من اختراع النسابين أو فقهاء الإسلام، و لكنها كانت قرابة الواقع التي حفظتها أسانيد اللغة و الثقافة، و استخرجتها من حجارة الأحافير و الكشوف الحديثة (2)، و مما يدعو إلى

ص: 145

1- راجع عن الصلات اللغوية بين العرب و مصر، و مدى أثر الهيروغليزية المصرية في الكتابة السامية الجنوبية (مقالنا: العرب و علاقاتهم الدولية، و كذا. H. nesneJ, ngiS, I. I. hctivobiel. seuqitiamisorP snoitpircsnI seL, EIM, 24, 1934, P. 21 FF. P, snoiT pircsnI ilaniS ehT morf. 64 و كذا 350. P etirW ot stroftE s'naM fo tnuodcAdna ,tpircS dna lobmvs M. gnilgnerpS ,tebahaplA ehT ,tnempoleveD dna esiR sti, دراسة تاريخية للصلات و المؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية و حضارات البحر الاحمر ص 118-122

2- يتجه العلماء إلى أن الأنباط عرب، بل و أقرب في عروبتهم إلى قريش و عرب الحجاز من عرب الجنوب، لأن أسماءهم عربية، و لأن أسماء ملوكهم و ملكاتهم عربية كذلك، و لأنهم يعبدون آلهة عربية، و لأن لغتهم لم تكن آرامية و إنما عربية، و ان استعملوا الآرامية في نقوشهم، و لأن الكتاب الكلاسيكيين - و كذا اليهود- إنما كانوا يطلقون عليهم لفظ العرب (أنظر: كتابنا «بلاد العرب»، بلاشير: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي ص 55-56، جرجي زيدان: المرجع السابق ص 81: و كذا 242, 260, SIC. P, و كذا 6-172, PP, cibara ne euqigoloehcra noissiM, cangivaS dna nessuaJ

احترام روايات النسابين في هذا الباب أنهم عرفوا الحقيقة التي كشفها علماء الأحافير، فقال ابن عباس «نحن معاشر قريش من النبط» (1).

هذا وقد أشار «مارتن شبرنجلنج» في العصر الحديث إلى ظاهرة انتقال الكتابة النبطية إلى الحجاز، والى تطور الخط العربي عن الخط النبطي (2)، كما ذهب «سوزمين» إلى أن اليهود إنما كانوا ينظرون إلى العرب الذين يقطنون إلى الشرق من الحد العربي، على أنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم.

ويضيف الدكتور «إسرائيل ولفنسون» إلى ذلك حججا، منها أنه إذا وجد الميل عند بعض المستشرقين إلى إنكار وجود الآباء الأقدمين من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا وجود قبائل بني إسرائيل وبني إسماعيل، لأن التوراة نصت على وجودها في طور سيناء والحجاز، بما ذكرته من الحوادث التي وقعت بين بطون إسماعيلية وأدومية وإسرائيلية ولا شك أن هذا كاف لإثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طور سيناء والحجاز، ثم يؤيد ذلك بترجمة جديدة لنص سفر التكوين (25: 18)، «و نزلت (بطون بني إسماعيل) مع نساؤها بين أخواتها، واستوطنت البلاد من الحولة إلى

ص: 146

1- عباس العقاد: المرجع السابق ص 136-137، سفر التكوين 25: 13، اللسان 7/ 411، عبد الرحمن الانصاري: لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية ص 89، مقالنا عن «العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد السادس، 1976 م ص 313-316، حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص 114، وانظر: 52 nitraM, gnilgnerpS nitraM -po, tic P, 1931, snoit -pircsnI ianiS eht morF tnempoleveD dna esiR sti, tebahplA ehT, gnilgnerpS nitraM .52 .P,

و منها ما جاء في ترجمة التوراة السامرية (2) التي صدرت في 1851 م، من أن إسماعيل قد «سكن بريا فاران بالحجاز، و أخذت له أمه امرأة من أرض مصر»، و أن سفر العدد يفرق بين سيناء و فاران، إذ جاء فيه أن بني إسرائيل ارتحلوا «من بريا سيناء، فحلت السحابة في بريا فاران»، و لم يسكن أبناء إسماعيل قط في غرب سيناء، فيقال أن جبل فاران واقع إلى غربها، و إنما تدل الشواهد القديمة جميعا على وجود فاران في مكة، أو هي أرض التلال التي بين مكة و المدينة، و يذهب المؤرخ جيروم و اللاهوتي يوسبيوس إلى أن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيله (3).

و منها ما يراه علماء الإفرنج من أن علاقة بطون اسرائيل الجنوبية بعرب الحجاز و طور سيناء، أقرب منها إلى قبائل بني إسرائيل الشمالية، و منها أن اليهود لو كانوا يريدون استغلال هذه القرابة للتلذف إلى قريش أو العدنانيين، لكان الأليق و الأجدر أن يخترعوا تلك القرابة بينهم و بين الأوس و الخزرج الذين يتأخمونهم و يشاركونهم في المواطن و المرافق، و يرتبطون معهم برباط المعاملة و الجوار، و منها أن التوراة قد ترجمت إلى اليونانية في عهد بطليموس الثاني (285-246 ق. م.)، و في صلبها كل النصوص التي تربط العرب الاسماعيلية بالقرابة النسبية مع اليهود، و ذلك قبل رحيل يهود يثرب إلى الحجاز بما يقرب من أربعة قرون (4).

و هكذا فإن القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزه

ص: 147

1- اسرائيل و لفسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب ص 75-76

2- راجع الفرق بين التوراة السامرية و العبرية في كتابنا إسرائيل ص 20

3- عباس العقاد: مطلع النور ص 14-16

4- اسرائيل و لفسون: المرجع السابق ص 76-78

عن الغرض، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة إبراهيم إلى الحجاز، وإنها هي وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية، وقد جاء الإسلام مثبتاً رحلة إبراهيم إلى الحجاز، وأثبتها ولا شك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول، لأن انتساب أناس من العرب إلى إبراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض، ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه، لأنكرت إسرائيل انتساب العرب إلى إبراهيم، وأنكر العرب أنهم أبناء إبراهيم من جارية مطرودة، وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الاختراع (1).

ومع ذلك، فهناك اتجاه آخر، إنما ينسب انتساب العرب إلى إبراهيم، لا إلى اليهود، وإنما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية- نقلاً عن فنسك- أن «شبر نجر» كان أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم- كما في القرآن الكريم- قد مرت بأطوار قبل أن تصبح في نهاية الأمر مؤسسة للكعبة، ثم جاء «هرجوني» وزعم أن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل (2)، ولم يذكر لإسماعيل صلة به، كما لم يذكر قط أن إبراهيم هو واضع البيت، ولا أنه أول المسلمين، أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك، فإبراهيم يدعى حنيفاً مسلماً، وهو واضع ملة إبراهيم، وقد رفع مع إسماعيل قواعد البيت المحرم (الكعبة).

وأما سر هذا- في زعم هؤلاء المستشرقين- فهو أن محمداً- صلوات

ص: 148

-
- 1- عباس العقاد: إبراهيم أبو الانبياء ص 196، مع ملاحظة أننا لا نوافق على أن هاجر جارية انظر كتابنا إسرائيل ص 210-213
 - 2- يشير «هرجوني» هنا إلى الآيات الكريمة (الذاريات: آية 24-37، الحجر: آية 51-59، سورة الصافات: آية 83-113، سورة الأنعام: آية 74-83، سورة هود: آية 69-76، سورة مريم: آية 41-50، سورة الأنبياء: آية 51-73، سورة العنكبوت: آية 16-27) وهي آيات مكية تحدثت عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وإسحاق من سارة (1)، ثم هناك رواية سفر التكوين - الأنفة الذكر - التي تجعل أبناء إسماعيل إنما يسكنون بين مصر و العراق، «سكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر» (2)، و حويلة هي خولان، و خولان قبيلة يمنية تسكن سرة اليمن مما يلي الحجاز، مما يدل على أن مكة تشملها مساكن إسماعيل و بنيه - كما أشرنا من قبل - و منها (ثالثاً) أن الإسلام لم يعتز قط بالانتساب إلى يهودية إبراهيم، بل إنه لينفي عنه اليهودية أصلاً، «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، و لكن كان حنيفاً مسلماً» (3).

و منها (رابعاً)، ففيما يختص بالكعبة، فقد ثبت بنص القرآن الكريم - و كذا التوراة - أن إبراهيم قد أوصل ابنه إسماعيل إلى مكة، و إذا كان من المتعين أن يقيم له فيها بنية يجعلها متعبداً على مثال الصوامع، و لم ينازع أحد إلى اليوم إبراهيم في أنه باني ذلك المصلى، حتى يصح أن يقال، أن محمداً (صلى الله عليه و سلم) نسبه إليه تعظيماً لشأنه، و لم تختص الكعبة وحدها بأنها بيت الله، فكل المساجد بيوت الله عند المسلمين، و إنما عظمت الكعبة لأنها أول بيت لله وضع للناس بكة، و مما يدل على أن النبي (صلى الله عليه و سلم) لم يتخذ بناء الكعبة أساساً من أسس دعوته أنه أمر أصحابه أن يولوا و جوههم في صلاتهم شطر بيت المقدس طوال مقامه بمكة (4)، ثم ألم يؤمن أصحاب هذا الاتجاه - مسيحيون كانوا أم يهوداً - بما جاء في التوراة من أن إبراهيم قد أقام مذابح للرب عند شكيم

ص: 150

1- تكوين 16: 15-16، 21: 21

2- تكوين 25: 18

3- سورة آل عمران: آية 67 و انظر: تفسير الكشاف/ 370-371، تفسير مجمع البيان 3/ 109-111، تفسير العلى القدير 1/ 280-281، تفسير ابن كثير 2/ 54-55، في ظلال القرآن 3/ 407-412، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور 2/ 41، تفسير القرطبي 4/ 109، تفسير الطبري 6/ 493-496.

4- دائرة المعارف الاسلامية 1/ 146-147.

وبيت إيل، وعند بلوطات ممر التي في حبرون وغيرها (1)، فاذا كانوا يؤمنون بذلك، فلم ينكرون بناء إبراهيم للكعبة.

ومنها (خامسا) أن الاتجاه الذي يذهب إلى أن محمدا- صلوات الله وسلامه عليه- ظل بعيدا عن صلة العرب بإبراهيم واسماعيل إلى أن هاجر إلى المدينة، فبدت له فكرة أن يصل حبل العرب الذين هو منهم باليهود عن طريق إبراهيم وإسماعيل، إنما هو اتجاه يهدم التوراة، قبل أن يشير أي شكوك حول القرآن الكريم، لأن التوراة ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل، وأنه جدّ عدة قبائل في بلاد العرب (2).

ومنها (سادسا) أن «فنسنك» حين عدّ السور المكية عمد إلى التي يذكر فيها إبراهيم مجردا عن الصلة بإسماعيل والعرب، ولذا فهو قد تخطى سورة إبراهيم- وهي مكية- وقد شهدت بعكس ما يقول، وآياتها شاهدة بأن إبراهيم وإسماعيل بنايا البيت، وأنهما كانا يدعوان الله تعالى بالهداية وأن يجنبهما وبنيهما عبادة الأصنام، وإبراهيم يذكر أنه أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، ويدعو الله أن يرزقهم من الثمرات، ويحمد الله أن وهب له إسماعيل وإسحاق، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة، «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

ص: 151

1- تكوين 12: 7-8، 13: 18

2- تكوين 12: 25-18.

وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِرِوَالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ» (1).

ومنها (سابعاً) أن القول بأن القرآن الكريم لم يذكر إلا في السور المدنية أن إبراهيم كان حنيفاً، فذلك - مرة أخرى - غير صحيح، ذلك لأن القرآن الكريم، إنما ذكر ذلك في سورتي الأنعام والنحل - وهما مكتتان - ولنقرأ هذه الآيات الكريمة، «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (2) و «قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (3) و «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (4)، «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (5)، و هكذا يتخطى فنسنتك - كما يقول الأستاذ النجار - هذه الآيات عمداً، غاضاً النظر عما تقضي به الأمانة في سبيل تأييد نظريته (6).

ومنها (ثامناً) تلك الدعوة التي تذهب إلى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جاء إلى المدينة، و كله أمل أن يؤمن اليهود به و يظاهروه على أمره، فلما أخلفوا ما أمله و كذبوه، أراد أن يتصل بهم عن طريق إبراهيم، و عبّر عن ذلك بيهودية إبراهيم، فذلك غير صحيح كذلك، ذلك لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يعتز باليهود أبداً، وإنما كان يتوقع أن

ص: 152

1- سورة إبراهيم: آية 35- 41

2- سورة الأنعام: آية 79

3- سورة الأنعام: آية 161

4- سورة النحل: آية 120

5- سورة النحل: آية 123

6- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 75

يؤمنوا به لأنهم أهل توحيد- في الأصل- يجانبون الاصنام، ويعادون أهلها، ولأن النبي مذكور في توراتهم، ذلك لأن بني إسرائيل كانوا قد وعدوا في توراتهم- كما جاء في سفري التثنية و أشعيا (1)- بنبي يقوم من بين إختهم- وهم العرب الاسماعيلية، فلما مجدوا ذلك كله كانوا عنده بمثابة غيرهم فقط.

ومنها (تاسعا) أننا لا نعرف شعبا آخر له ما للعرب من شغف بالأنساب، حيث يحرصون على الاحتفاظ في ذاكرتهم بسلسلة أجدادهم، حتى يصلوا بها إلى الجيل العشرين (2)، فهل من المحتمل أن يبقى هذا الشعب في جهالة تامة بأصله حتى آخر لحظة (3)، و منها (عاشرا) أن وجود الكعبة بينهم- وفيها بعض الأماكن المعروفة تحمل اسم إبراهيم و اسماعيل- ألا يذكرهم ذلك كله بعلاقتهم بهذه الأسماء المجيدة (4)، و منها (حادي عشر) سكوت كفار قريش- وهم أعلم الناس بأنسابهم- عن قوله تعالى: «مَلَّةَ أَيِّكُمْ إِبراهيمَ» (5)، فلو لم يكن العرب يعلمون قبل محمد أنهم من سلالة إبراهيم- عن طريق ولده إسماعيل- لما سكتوا لمحمد، وفيهم أشد أعدائه، وأكثر الناس حرصا على تكذيب دعواه.

ومنها (ثاني عشر) ذكره «زيد بن عمرو بن نفيل»- وهو قبل

ص: 153

1- سفر التثنية 18: 15-19، سفر أشعيا 42: 10-13

2- ما زلنا نحتفظ بهذه العادة في قرانا بصعيد مصر، حيث يعلم الآباء الأبناء سلسلة نسبهم حتى الجد الأعلى الذي يتشرفون بالانتساب إليه

3- عبد الرحمن الانصاري: المرجع السابق ص 91، محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص 157.

4- نفس المرجع السابق من 157

5- سورة الحج: آية 78

المصطفى - لإبراهيم الخليل، حيث يقول: «يا معشر قريش: والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيري» (1)، و زيد هذا- كما هو معروف- من الحنفاء، والذين كانوا على ملة إبراهيم، ولم يكونوا يهودا ولا نصارى (2)، وأن مجموعة من هؤلاء الحنفاء أو المتحنفين- ومنهم زيد بن عمرو و ورقة بن نوفل و عثمان بن الحويرث و عبد الله بن جحش- قد حضروا قريشا عند وثن لهم، فلما اجتمعوا خلا أولئك نفر إلى بعض، فقال قائلهم: «تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد اخطئوا دين أبيهم إبراهيم» (3).

و منها (ثالث عشر) ذكر إبراهيم الخليل في شعر عبد المطلب- جد النبي (صلى الله عليه وسلم) إبان غزو الحبشة للكعبة،- والمعروفة بغزوة الفيل (4)-

ص: 154

- 1- ابن كثير 2/237-241، الذهبي: تاريخ الإسلام 1/54، الاشتقاق ص 84، 103، جواد علي 6/472-473
- 2- انظر عن الحنفاء: تفسير القرطبي 2/139-140، تفسير المنار 1/480-482، تفسير الطبري 3/104-108، مجمع البيان 1/215 و ما بعدها، التفسير الكبير للفتوح الرازي 4/89 و ما بعدها، جواد علي 6/452-453، مدخل إلى القرآن الكريم ص 131-132، ريجيس بلاشير: المرجع السابق ص 68 و كذا H. J. Yvela, AJ, 1905, P, و كذا P. 773, SARJ, 1903, milsuM dna . P, II, IE. 259. finaH droW ehht, llayL. C
- 3- ابن كثير 2/238، مطلع النور ص 68، جواد علي 6/476
- 4- أنظر عن غزوة الفيل: ابن الأثير 1/442-447، تاريخ الطبري 2/130-139، تفسير الطبري 20/188، 30/193-194، تفسير القرطبي ص 7277-7290 (طبعة الشعب)، تفسير ابن كثير 8/503-511 (طبعة الشعب)، في ظلال القرآن 8/664-675، تفسير الألوسي 30/232-237، البيهقي: دلائل النبوة 1/56-57، صحيح الأخبار 4/21-22، البداية و النهاية 2/170-176، تاريخ الخميس ص 212-217 نهاية الارب 1/251-264، تفسير الفيضاني 2/576، الكشاف 3/288، أعلام النبوة ص 149، احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 154-155، و كذا ht 6 ehT ni. 277-79 .D .A yrutneC .P .D .A 435 .noesuM el 3-4, 1953, PP, 4-3
5. S .htimS ,stnevE ni aibarA و كذا 275 .noesuM el .P, 66, 1964, و كذا P, I, suipocorP .180

حيث يقول (نحن أهل الله في بلدته: لم يزل ذلك عهد إبراهيم) (1) ثم تلقيب عبد المطلب بعد فشل الحملة الغشوم بلقب «إبراهيم الثاني»، نسبة إلى جده الأعظم إبراهيم الخليل، عليه السلام (2).

ومنها (رابع عشر) صورة إبراهيم الخليل التي وجدت على جدران الكعبة فيما قبل الإسلام، حيث صورته القوم في يده الأضلاع، ويقابلها صورة ابنه على فرس يجيز الناس مقبضا، ثم مجموعة صور لكثير من أولادهما، حتى قصى بن كلاب (3). وأخيرا (خامس عشر) فإن العرب كانوا- قبل أن يبعث محمد رسولا من رب العالمين- إنما يعتقدون أنهم من ولد إبراهيم وها هو أبو طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول في خطبة له يوم زواج المصطفى صلى الله عليه وسلم من خديجة: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما وبنينا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس».

ثم (سادس عشر) ما عرف عند العرب القرشيين في الجاهلية بنظام (الخمس) والذي كان شعاره «نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمه وولاة البيت وقاطنو مكة وساكنوها، ليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا تعرف له العرب ما تعرف لنا»، فضلا عن أن عبد المطلب يقول لرسول أبرهة حين جاء يعلمه ان القائد الحبشي لم يأت لحربهم وانما لهدم البيت، يقول له «هذا بيت الله الحرام، وبيت إبراهيم خليله» (4).

ص: 155

1- الازرقى 146/1

2- أنظر مقالنا: العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة- مجلة كلية اللغة العربية و العلوم الاجتماعية العدد السادس.

3- المسعودي 272/2، الازرقى 168-170.

4- تفسير الطبري ذ/188، محمد الخضري: تاريخ الأمم الاسلامية 56/1-57، ابن هشام 1/201، وانظر مقالنا «العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة» مجلة كلية اللغة العربية و العلوم الاجتماعية- العدد السادس- الرياض 1976 ص 408 الازرقى 1/43، 176، تاريخ الطبري 133/2.

و أخيراً منها (سابع عشر) ما أشار إليه المسعودي من أن العرب قبل الإسلام انما كانوا يؤرخون بتواريخ كثيرة، و منها التاريخ بوفاة إبراهيم و اسماعيل عليهما السلام (1)

[5] اسكان اسماعيل الحجاز

و هكذا يبدو واضحاً أن رحلة الخليل - عليه السلام - إلى الحجاز أمر مؤكد، و أنه ترك هناك ولده إسماعيل، و زوجته هاجر، و لعل السبب المباشر في انتقال إسماعيل و أمه هاجر إلى الحجاز، و سكناهم هناك، يرجع إلى القصة المشهورة عن سارة التي أرادت أن تبعد إسماعيل عن أبيه، بعد أن رآته يملأ حياة الشيخ الجليل، و الذي كان قد حرم الولد، و قد قارب التسعين من عمره.

و هنا غضبت سارة و اكتأبت، و لزمها همّ مقيم، فلم تعد تطيق هاجر أو ولدها، و أبدت رغبتها في التخلص منهما، و ارسالهما إلى مكان سحيق، إذ لم يعد عيش يطيب بجوارهما، و لم يبق للإسعاد من أثر في بيت يضمهما معاً، و هذا أمر طبيعي، فالغيرة بين النساء من ألق الصفتان بهن، فليست هناك امرأة - كائنة من كانت - لا تريد أن تكون صاحبة الحظوة وحدها عند بعلها، و ليست هناك امرأة تقبل راضية، أن تشاركها في حب زوجها ضرة لها، و بخاصة إن كانت هذه الضرة في ريعان الشباب، بينما هي على أبواب الشيخوخة، و أن الضرة قد أعطت الزوج العظيم الولد، بينما هي قد حرمت منه، و حرمت الزوج منه،

ص: 156

1- ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي: التنبيه و الاشراف، القاهرة 1938 ص 172-181، انظر كتابنا «دراسات في تاريخ العرب القديم». المطابع الاهلية للأؤفست، الرياض 1977 ص 28-29 (جامعة الامام محمد بن مسعود الاسلامية).

تلك أمور عادية تحدث في كل بيت تتعدد فيه الزوجات، أيا كان هذا البيت، وسواء أكان صاحب هذا البيت ملكا يحكم الناس، أو زعيما تصفق له الملايين، أو حتى فقيرا يكد ليله ونهاره من أجل لقمة العيش، بل إن ذلك أمر، عرفناه في بيوت أنبياء بني إسرائيل و ملوكهم من بعد، عرفناه في بيت يعقوب بين زوجاته الأربعة، كما عرفنا آثاره في قصة يوسف عليه السلام، و عرفناه في بيت داود، ممثلا في قصة أمنون و إيشالوم (1)، و في النزاع بين أدونيا و سليمان (2)، كما عرفناه في بيت سليمان بين نسائه الكثيرات، بل إن قصة غيرة السيدة عائشة من السيدة خديجة- رضي الله عنهما- و قد انتقلت الأخيرة إلى جوار ربها الكريم، أمر معروف.

و من هنا فإن غيرة السيدة سارة- فيما أعتقد- ليست من خوارق العادات أو شواذ الأمور، و من ثم فإننا لا نوافق رواية التوراة من أن «سارة رأت ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح، فقالت لإبراهيم اطرده هذه الجارية و ابنها»، ذلك لأن العداوة بين المرأتين بدأت حتى قبل أن ترزق هاجر بوليدها، و ذلك حين أذلتها سارة، فهربت منها إلى الصحراء المقفرة، و لم تعد إليها إلا بأمر ملاك الرب الذي بشرها بأنها ستلد ابنا تدعوه إسماعيل (3).

و هكذا يبدو واضحا أن تعليل التوراة لطرده هاجر بأن إسماعيل كان يمزح يوم فطم إسحاق تعليل غير كاف، ففي حديث البخاري أن إسماعيل كان رضيعا يوم أبعد هو و أمه إلى مكة، و محال أن يكون من رضيع مزح و لا غيره، وإنما هي غيرة سارة من أن يكون لإبراهيم ولد من

ص: 157

1- صموئيل ثان 13: 1-39

2- ملوك أول 1: 5-53

3- تكوين 16: 5-15، 21: 9-10

غيرها تراه معهما في البيت، و تحريف اليهود لكتابهم أشهر من نار على علم (1).

وهكذا يبدو بوضوح ما ذهبنا إليه، وهو أن الأمر لم يكن مزاح صبي، وإنما كان غيرة امرأة من ابن ضرته، و خوفا منها على مكانتها عند زوجها، ورغبتها في أن لا ينصرف حبّ هذا الزوج إلى غيرها من النساء، وفي أن لا ينال ابن ضرته- وهو بكر أبيه (2)- شيئا من ميراث أبيه، ذلك لأن حب المرأة لأبنائها أمر معلوم، و من هنا بدأت تفكر في إزاحة إسماعيل و أمه من مكانتهما، فكان التبرير من كاتب التوراة أن إسماعيل كان يمزح في وليمة فطام إسحاق- كما أشرنا آنفا- و انطلاقا من هذا فقد استجاب إسماعيل و أمه لإبراهيم فيما ارتآه من أن يجنبهما النزاع الذي قد يتفاقم بين الزوجتين، و الغيرة التي قد تقتل سارة، و تززع أمن إبراهيم و استقراره.

و أيا ما كان الأمر، فإن القرآن الكريم لم يشر الى سبب هذا الحادث، و انما يروي البخارى عن ابن عباس أن هاجر سألت إبراهيم حين وضعها و ابنها هناك في مكة عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، ثم قفى منطلقا، «أالله أمرك بهذا؟ فقال نعم: قالت: إذا لا يضيعنا» (3).

ص: 158

-
- 1- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 104
 - 2- أنظر عن البكورية و أهميتها عند بني إسرائيل: مقالنا «قصة أرض الميعاد بين الحقيقة و الأسطورة» و كذا: صبري جرجس: التراث اليهودي الصهيوني ص 67، تكوين 25: 27-33، كتابنا إسرائيل ص 75
 - 3- ابن كثير 1/154، تفسير القرطبي 9/369، تفسير الطبري 13/229-230 (طبعة 1954)، تفسير الألوسي 13/236، المقدسي 3/60، الازرقى 1/54، 2/39، تاريخ ابن خلدون 2/36، تاريخ الخميس ص 106، ابن الأثير 1/103، شفاء الغرام 2/3، تاريخ يعقوبي 1/25.

و من هذا المنطلق كان اعتقادنا، أن الخليل - عليه الصلاة والسلام- قد أقدم على ما أقدم عليه من رحلته إلى الحجاز بزوجه وولده، امتثالاً لأمر الله، ورغبة في نشر الإيمان بالله في بيئة جديدة، وفي مناخ جديد، بعد أن قام بذلك في العراق وفي سورية وفي مصر، وليربط ولده و بكره بما ارتبط به هو من قبل، فإبراهيم - كما أشرنا من قبل - يرجع في نسبه الأول إلى العرب العاربة، والتي هاجرت من جزيرة العرب، و إبراهيم قد ولد ونشأ في العراق، وإبراهيم هاجر إلى الشام ثم إلى مصر، و من مصر إلى فلسطين ثانية، ثم من فلسطين إلى الحجاز، و من الحجاز إلى فلسطين، و أما إسماعيل - عليه السلام- فقد كان نصف مصري، نصف عراقي، و اسماعيل قد ولد في الشام، وعاش في الحجاز، و تزوج من يمنية- أو مصرية طبقاً لرواية التوراة (1)- و تخريجاً من هذا، فإن إسماعيل رمز العروبة كلها، رمز لعروبة العراق، و رمز لعروبة الشام، و رمز لعروبة مصر، و رمز لعروبة الجزيرة العربية، و لعل هذا ما يميزه على أخيه إسحاق، الذي اقتصرته حياته و مماته على جزء من الشام فحسب، و لم يتصل بقراة من دم، أو صلة من نسب، بغير عشيرة أمه، حيث تزوج من ابنة خاله لابان (2).

[6] قصة الذبيح

إشارة

لم يترك الأب الحنون و الشيخ الجليل ابنه في ذلك المكان الموحش القفر بصحراء مكة، دون أن يحن إليه و يذكره، و دون أن يزوره بين الحين و الحين، و في إحدى هذه الزيارات، و كان الغلام قد شبَّ و ارتحل، و أطلق ما يفعله أبوه من السعي و العمل، رأى الخليل - عليه الصلاة

ص: 159

1- تكوين 21: 21

2- تكوين 28: 1- 2

و السلام- أنه يؤمر بذبح ولده هذا، ولما كانت أنبياء الله تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فإن «رؤيا الأنبياء وحي» (1)، ولهذا صمم الخليل على تنفيذ أمر ربه، ولم يشته عن عزمه هذا، أن إسماعيل وحيد، وأنه قد رزق به وهو شيخ كبير، على رأس ست وثمانين سنة من عمره، و بعد أن ظل يرجوه أعواما وأعواما، رغم ذلك كله، فإن خليل الله قد عقد العزم على إنجاز ما أمر به، بإيمان المؤمنين، واستسلام المسلمين لله وحده، مما يدل على منتهى الطاعة والامتثال لأمر الله، وهذا هو الإسلام بعينه، إذ أن الإسلام هو الطاعة والامتثال لله، وهو دين الأولين والآخرين (2)، ولهذا فقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الأمر بقوله تعالى: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ» (3)، على أن الخليل إنما رأى أن يعرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا (4).

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة: «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

ص: 160

1- تفسير ابن كثير 9/4، البداية والنهاية 157/1، قارن: تفسير البيضاوي 297/2 روح المعاني 128/23

2- انظر: تفسير الطبري 510/2-511، 74/3 (طبعة دار المعارف)

3- سورة الصافات: آية 106

4- انظر: تفسير القرطبي 101/15-104، تفسير البيضاوي 297/2، تفسير الطبري 78/15-79

الْمُؤْمِنِينَ، وَبَشَّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» (1) ولعل سؤال البداهة الآن: من هو الذبيح من ولدي إبراهيم؟ وهو في الواقع سؤال، ما تزال الإجابة عنه موضع خلاف بين اليهود والنصارى من ناحية، والمسلمين من ناحية أخرى، فضلا عن أن قصة الذبيح عند اليهود، تحتل مكانة تختلف عنها عند المسلمين، ولنحاول الآن أن نتعرف وجهات النظر المختلفة.

(أ) وجهة النظر اليهودية و المسيحية

يختلف اليهود والنصارى عن المسلمين في اسم الذبيح، فبينما يرى المسلمون أنه إسماعيل، يذهب اليهود والنصارى إلى أنه إسحاق، فضلا عن أن قصة الذبيح هذه، إنما تحتل في التاريخ اليهودي مكانة تختلف عنها عند المسلمين، والذي يقرأ تاريخ اليهود ليرى أن هذا الاختلاف له جانب هام يفوق في أهميته جانب البحث التاريخي، الذي يراد به معرفة اسم الذبيح من ولدي إبراهيم، لأنه في الواقع إختلاف يتعلق به- في نظرهم- اختيار الشعب الموعود، كما يتعلق به الحذف والإثبات في سيرة إبراهيم ليتصل بذرية إسحاق، وينقطع عن ذرية إسماعيل، أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق بإسرائيل، ونقطع منها كل ما يتصل بالعرب، وأن هذا النزاع قد بدأ قديما قبل تدوين نسخ التوراة التي كتبت في بابل- أثناء السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد- و واضح أن هذا النزاع في أوله، لم يكن نزاعا على العقيدة، فإن التوراة (2) تروى أن إبراهيم قد قدم العشر لملكي صادق، كاهن الله العلي أو عليون، الذي كان معبود

ص: 161

1- سورة الصافات: آية 99-102

2- سفر التكوين 14: 18-20

السكان في فلسطين، و ما جاورها إلى الجنوب، وقد زار «هيروdot» (484-430 ق. م.) بلاد العرب الشمالية عند مدخل مصر، و روى أنهم كانوا يعبدون الله تعالى، و اللات أو إيليلات، منذ قرون سابقة للقرن الخامس ق. م.، و من ثم فلم يكن النزاع على العقيدة في نشأته، إلا-فرعا من فروع التنازع على الميراث، و لم يكن شأن الذرية الموعودة أو المختارة إلا أنها تعزز دعوها في ذلك النزاع، و تنفي عنه من ينازعها عليه (1)، و من هنا كانت الدعوى بأن الذبيح كان إسحاق، رغبة في اغتصاب شرف عرف لإسماعيل جد العرب.

و هكذا تقول اليهود و النصارى أن الذبيح إنما هو إسحاق، معتمدين في ذلك على عدة عوامل، منها (أولا) ما جاء في التوراة «خذ ابنك و حيدك الذي تحبه إسحاق، و أذهب إلى أرض المريا، و اصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك» (2)، و منها (ثانيا) ما جاء في الإنجيل «بالإيمان قدم إبراهيم إسحاق و هو مجرب، قدم الذي قبل المواعيد و حيده، الذي قيل له إنه باسحاق يدعى لك نسل، إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضا» (3)، و منها (ثالثا) أن إسحاق قد ولد بطريقة خارقة للطبيعة، و أنه قد أعطي اسما قبل أن تحمل به أمه (4)، و منها (رابعا) ما يذهب إليه الدكتور ماير من أن هناك فوارق عظمى بين الأخوين، فقد كان إسماعيل ابن الجارية، و إسحاق ابن الزوجة الشرعية، بل إنه ليبلغ به الشطط و التعصب الأعمى إلى أبعد من ذلك، حين يرى أن إسحاق أرفع قدرا من إسماعيل بدرجة لا تترك مجالاً للمقارنة بينهما (5)، و منها (خامسا) بعض الروايات الإسلامية عن كعب الأحمار

ص: 162

1- عباس العقاد: المرجع السابق ص 87

2- تكوين 2: 22

3- الرسالة إلى العبرانيين 11: 17-19

4- حبيب سعيد: المرجع السابق ص 93، تكوين 18: 9-15

5- ف. ب. ماير: حياة إبراهيم ص 305-306

من أن الذي امر إبراهيم بذبحه إنما كان إسحاق (1).

وإذا أردنا مناقشة حجج اليهود والنصارى هذه، فإننا نلاحظ عليها عدة نقاط، منها (أولاً) أنها تصف الذبيح بأنه ابن إبراهيم الوحيد، وهو وصف لا يمكن - بحال من الأحوال - أن ينطبق على غير إسماعيل وحده في السنوات الأربعة عشرة الأولى من عمره، والتي سبقت مولد إسحاق، وانطلاقاً من هذا، فإن إسحاق لم يكتب له في يوم من الأيام أن يكون وحيداً إبراهيم، ذلك لأن إسماعيل قد عاش حتى وفاة إبراهيم، ثم اشترك مع إسحاق في دفنه بمغارة المكفية، كنص التوراة نفسها (2)، وهكذا لم يكن إسحاق أبداً وحيداً مع وجود إسماعيل، أما إسماعيل فقد كان وحيداً قبل مولد إسحاق، ومن هنا كانت لفظة إسحاق في نص التوراة «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق» (3) مقحمة، لأنه لم يكن وحيداً ولا بكرة، وإنما ذلك هو إسماعيل، ولعل الذي حمل اليهود على ذلك هو حسد العرب (4)، وحرصاً منهم على أن يكون أبوهم إسحاق هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه، وهو في حالة صغره، هذا فضلاً عن أن ذلك إنما يتعارض ونصوص أخرى من التوراة.

ومنها (ثانياً) أن ما جاء في الإنجيل - في الرسالة إلى العبرانيين - فقد كان الحل الذي ارتضاه فقهاء المسيحية للخروج من مشكلة: كيف يؤمر إبراهيم بذبح إسحاق، وهو ابنه الموعود الذي يخرج منه الشعب المختار، طبقاً لرواية التوراة «باسحاق يدعى لك نسل» (5)، إذ لو كان إسحاق

ص: 163

-
- 1- الطبري 1 / 265، ابن كثير 1 / 159 - 160، ابن الأثير 1 / 109، تفسير البيضاوي 2 / 297، تفسير الطبري 23 / 77 - 83، تفسير القرطبي 15 / 101
 - 2- تكوين 16: 16، 25: 9
 - 3- تكوين 22: 2
 - 4- ابن كثير 1 / 159، راجع فتاوى ابن تيمية 4 / 331 - 332
 - 5- تكوين 21: 12

قد كبر وصار له ابن يحافظ على النسل في الأجيال القادمة لزال العقبه، ولكن كيف يتفق أن يموت إسحاق الذي لم يكن له ابن بعد، وأن يتحقق الوعد الذي أعطي لإبراهيم، بأن يكون له من إسحاق نسلا، كرمل البحر وكنجوم السماء.

ومن هنا- وكما يقول الدكتور ماير (1)- كان الفكر الوحيد الذي ملأ قلب إبراهيم على أي حال، هو «أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضا»، وحل المشكلة على هذا الوجه جديد في المسيحية، لم ينظر اليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم إبراهيم بموت إسحاق، وأنه أطاع الله ولم يطع قلبه، ولم يحفل بحنانه على ابنه الموعود (2)، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن هذا الحل، الذي ارتضاه فقهاء المسيحية، إنما يقلل من قيمة تضحية إبراهيم وإذعانه لربه، وإن لم يذهب بقيمتها تماما، ما دام أنه كان على يقين من أن الله سوف يعيد الحياة إلى ولده، بعد أن يقوم بذبحه بنفسه.

ومنها (ثالثا) أن حجتهم من أن إسحاق قد ولد بطريقة خارقة للطبيعة، وأنه قد أعطي اسمه قبل أن تحمل به أمه فلعلهم يقصدون بالولادة الخارقة للعادة، أن إسحاق ولد لإبراهيم وهو شيخ في المائة، وامراته عجوز في التسعين من عمرها (3)، فإذا كان ذلك كذلك، فهو صحيح، ولكن صحيح كذلك أن ولادة إسماعيل فيها نفس الأمر، أو

ص: 164

1- ف. ب. ماير: حياة إبراهيم ص 256

2- تكوين 22: 1-18، وانظر: العقاد: المرجع السابق ص 87

3- تكوين 17: 17

قريب منه، لأنه قد ولد وإبراهيم في السادسة والثمانين من عمره (1)، بل إن إبراهيم- فيما تروي التوراة نفسها- قد تزوج و هو في السابعة و الثلاثين بعد المائة من قطورة، ورزق منها بستة بنين (2)، هذا فضلا عن أن الروايات الإسلامية، إنما تضيف لإبراهيم زوجة رابعة، بني بها في الفترة ما بين زواجه بقطورة، وبين وفاته و هو في الخامسة والسبعين بعد المائة من عمره، دعته حجورة ولدت له خمسة بنين (3)، أضف إلى ذلك أن قصة ولادة إسحاق، بالطريقة التي روتها التوراة، ليست فريدة في نوعها، فهناك ولادة يحيى عليه السلام- و المعروف عند النصارى بيوحنا المعمدان- تكاد تكون تكرارا لولادة إسحاق، ذلك إن أبا يحيى زكريا- عليه السلام- كان قد بلغ من الكبر عتيا، وكانت امرأته- الیصابات في الروايات المسيحية- عاقرا، فسأل ربه أن يهبه غلاما زكيا، فكان يحيى (4)، ثم هناك ولادة عيسى عليه السلام، بدون أب، ثم هناك كذلك آدم عليه السلام من غير أب، حتى و لا أم، و إلى هذا يشير القرآن الكريم، في قوله تعالى «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (5).

ص: 165

1- تكوين 16: 16، هذا و تذهب بعض الروايات الاسلامية إلى أن إسماعيل ولد لإبراهيم و هو ابن أربع وستين، و اسحاق لسبعين، بينما تذهب رواية أخرى إلى أن إسماعيل ولد لإبراهيم و هو ابن تسع و تسعين، و ولد له إسحاق و هو ابن مائة و اثنتي عشرة سنة، على أن رواية ثالثة ترى ان اسحاق ولد لإبراهيم و هو ابن مائة و سبع عشرة سنة [أنظر تفسير الألويسي 242/13، تفسير المنسقي 264/2، تفسير القرطبي 375/9، تفسير الطبري 235/13، تفسير البيضاوي 533/1]

2- تكوين 23: 1-2، 25: 1-4 و انظر: الطبري 309/1-311، ابن كثير 175/1

3- الطبري 311/1، ابن الاثير 123/1، ابن كثير 175/1، ابن سعد 21/1، تكوين 25: 7

4- سورة آل عمران: آية 37-41، سورة مريم: آية 2-15، سورة الأنبياء: آية 89-90، انجيل لوقا 1: 5-80

5- سورة آل عمران: آية 59

ومنها (رابعاً) أن حجتهم بأن إسحاق قد أعطى اسماً قبل أن يولد، فالرد على ذلك، أن إسماعيل - وبنص التوراة - كذلك قد أعطى اسماً قبل أن يولد (1)، فإذا كان في ذلك كرامة لإسحاق - وهذا ما نعتقده - فهو كرامة لإسماعيل كذلك، بل إن إسماعيل قد سبق إسحاق في هذه الكرامة، إذ أعطى اسمه قبله، بل إن التوراة نفسها إنما تتحدث عن البشارة بإسماعيل قبل أن تتحدث عن البشارة بإسحاق (2)، هذا إلى أن يحيى وعيسى قد أعطيا اسميهما قبل أن يولدا كذلك، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» (3)، ويقول «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا» (4)، ويقول «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» (5).

ومنها (خامساً) أن ما يزعمه الدكتور ماير من أن إسماعيل ابن الجارية، وأن إسحاق ابن الحرة، إنما هو يعتمد في ذلك على ما جاء في الإنجيل من «أنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية وآخر من الحرة، لكن الذي من الجارية ولد حسب الجسد، وأما الذي من الحرة فبالموعد» (6)، وهذا بدوره ليس إلا تكراراً لما جاء في التوراة (7)، وقد سبق لنا مناقشته، وإن كان لزاماً علينا أن نضيف جديداً هنا، فهو

ص: 166

1- تكوين 16: 11

2- تكوين 16: 18

3- سورة آل عمران: آية 39

4- سورة مريم: آية 7

5- سورة آل عمران: آية 45

6- الرسالة لأهل غلاطية 4: 22-23

7- تكوين 16: 1-9

أن القول بأن هاجر أم إسماعيل كانت جارية لسارة، أمر يحتاج إلى إعادة نظر، وقد سبق لنا مناقشته في كتابنا «إسرائيل»، وخرجنا منه برأي جديد- تقدمنا به حدسا عن غير يقين- أنها ربما كانت ابنة واحد من كبار رجال الدين المصريين، على أساس أنهم الطبقة المنتظر أن يكون الخليل أكثر اتصالا بها (1) ومنها (سادسا) أن مفسري التوراة من المسيحيين يريدون أن يصبغوا هذه النصوص بالصيغة المسيحية، ذلك لأن المسيحية- فيما يرى آباء الكنيسة وفقهاؤها- تحرم تعدد الزوجات، فجعلوا من هاجر جارية، وسارة زوجة شرعية، وفاتهم أن الأسرة الإسرائيلية كانت تقوم على تعدد الزوجات، كما كانت تساوي بين هؤلاء الزوجات في الحقوق والواجبات، وأن كان عددهن يتفاوت قلة و كثرة، حسب ثروة الزوج ومكانته، ولو أن علماء التلمود يحددون للرجل أربع زوجات فقط، وللملك ثماني عشرة زوجة، كما أن قانون الملوك يمنعهم من المبالغة في اقتناء الزوجات «ولا يكثر له نساء لئلا يزيغ قبله» (2)، وقد استغل بعض الإسرائيليين هذا الحق، فبالغوا فيه، إذ «كان لجدعون سبعون ولدا خارجون من صلبه، لأنه كانت له نساء كثيرات» (3)، وقد تزوج داود

ص: 167

1- راجع كتابنا اسرائيل ص 210-213 مع ملاحظة أن هناك وجهات نظر أخرى، منها أنها أميرة مصرية وقعت في أيدي العماليق ثم أهديت إلى إبراهيم، ومنها أنها أخت زوج فرعون، ومنها أنها ابنة أحد ملوك مصر .. (انظر: حبيب سعيد: المرجع السابق ص 82، ف. ب. ماير: المرجع السابق ص 136، 236، عبد الحميد السحار: بنو اسماعيل ص 93، عبد الحميد واكد: نهاية اسرائيل ص 88، شفاء الغرام ص 15، تاريخ الخميس ص 165، ياقوت: معجم البلدان 1/ 249 (بيروت 1955) و كذا. A. S 369. P, tic- po, kooC

2- تثنية 17: 17، وكذا فؤاد حسنين: إسرائيل عبر التاريخ 1/ 99

3- قضاة 8: 13

من نساء كثيرات، فضلا عن الإماء و السراري (1)، و اقترن «رحبعام» بثمانى عشرة امرأة؛ و ستين سرية، ولدن له ثمانية و عشرين ابنا و ستين ابنة (2) و تزوج «أبيا» أربع عشرة امرأة و خلف اثنين و عشرين ابنا و ست عشرة بنتا (3)، وفاق سليمان جميع أقرانه، إذ «كانت له سبع مائة من النساء السيدات و ثلاث مائة من السراري» (4)، و إذا ما عدنا إلى عصر الآباء الأوائل - كما يسمونه- فإننا نجد أن الخليل نفسه يتبع هذا المبدأ، فيجمع بين هاجر و سارة، ثم بين قطورة و حجورة، ثم ألم يجمع يعقوب- أبو الآباء- و الذي حمل الإسرائيليون اسمه، بين نساء أربعة- بين راحيل و لية و زلفة و بلهة- و كان منهن أبناؤه الاثنا عشر (5)، ثم ألم يجمع موسى- صاحب التوراة- بين صفورة ابنة كاهن مدين، و بين المرأة الكوشية التي ثار عليه أخواه من أجلها (6).

و هكذا يبدو لنا بوضوح أن مبدأ تعدد الزوجات- كما يقول جوستاف لوبون- كان شائعا كثيرا لدى بني إسرائيل على الدوام، و ما كان القانون المدني أو الشرعي ليعارضه (7)، سواء أ كان ذلك للأنبيا أو غير الأنبياء، و سواء أ كان ذلك في عصر الآباء الأول أو عصر الملكية، حتى حدده الربانيون بأربعة، و ان أطلقه القراءون، و أن التفسير الذي قدمه صاحب «الرسالة إلى أهل غلاطية»، إنما يقدم الصورة المسيحية- و ليس اليهودية- للزواج، و أنه لأمر مناف للعقل- فضلا عن المنطق و الدين- أن

ص: 168

1- صموئيل أول 25: 39، 43، 28: 27 صموئيل ثان 3: 3، 4، 5: 13

2- أخبار أيام ثان 11: 21

3- أخبار أيام ثان 13: 21

4- ملوك أول 11: 3

5- تكوين 35: 22-26

6- خروج 2: 21، عدد 12: 1

7- جوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص 50

وهكذا نستطيع أن نقرر، ونحن مطمئنون، أن هاجر و سارة- رضي الله عنهما- كانت كلتاهما زوجة لخليل عليه السلام، و لكل منهما من الحقوق والواجبات ما للأخرى، و أن الأمر كذلك بالنسبة لابنيهما النبيين الكريمين، و اذا لم يقتنع علماء اليهود بما نقول، فما رأيهم في أبناء يعقوب الاثني عشر، و هم في نفس الوقت رءوس الأسباط الاثني عشر، فهم كما نعلم- و بنص التوراة نفسها (1)- من زوجاته الأربعة (الحرائر و الجوارى)، و لم يقل واحد من العلماء أو رجال اللاهوت من اليهود و النصارى، أن أبناء يعقوب من الجاريتين، بلهة و زلفة، أقل مرتبة من أخوتهم أبناء السيدتين، ليثة و راحيل، هذا إذا سلمنا جدلا، بأن أم إسماعيل كانت جارية لسارة، أضف إلى ذلك كله أن إسماعيل إنما كان بكر إبراهيم، و للبكورية في بني إسرائيل شأن عظيم، و حقوق كثيرة.

بقيت نقطة أخيرة، تتصل بما يزعمه «ماير» من أن إسحاق كان أرفع قدرا من إسماعيل بدرجة لا تترك مجالا للمقارنة بينهما، فذلك تعصب أعمى، و تلك دعوة الغرب و حقدهم على العرب أبناء إسماعيل، نحتمي منه بقوله تعالى «لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» (2)، إيماننا منا بأن كلا من إسماعيل و إسحاق ابن لخليل، و قد وصف إسحاق في القرآن الكريم بأنه كان «نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» (3)، و وصف إسماعيل بأنه «كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (4)، فما كان لنا أن نفرق بين أحد من رسل

ص: 169

1- تكوين 35: 22-26

2- سورة البقرة: آية 285

3- سورة الصافات: آية 112

4- سورة مريم: آية 54

اللّٰه، فذلك شأنه سبحانه وتعالى، ونحن نؤمن بالإيمان، كل الإيمان، بأن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، أفضل منا ملايين المرات، و ذلك فضل اللّٰه يؤتيه من يشاء واللّٰه ذو الفضل العظيم، سائلين اللّٰه الغفور الرحيم أن يغفر لنا ذلاتنا، إن كنا قد أخطأنا فيما كتبنا عن أنبيائه الكرام، وما أردنا من ذلك إلا أن نقول كلمة حق - قدر استطاعتنا- «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (1).

ومنها (سابعاً) أن ما جاء في الروايات الإسلامية، نقلاً عن كعب الأحبار وغيره، فذلك يرجع إلى أن المسلمين إنما يؤمنون بنبوة إسحاق و يعقوب و يوسف، و من هنا فقد استغل ذلك بعض اليهود الذين أسلموا- و منهم كعب الأحبار و وهب بن منبه (2)- و نقلوا أمثال هذه الروايات التي لم يبت القرآن الكريم فيها، تحقيقاً لأغراض خاصة بهم، ثم أن هذه الروايات الإسلامية مضطربة، فبينما ينسبها أصحابها إلى ابن عباس، فإنهم يرون رواية أخرى- عن ابن عباس كذلك- يذهبون فيها إلى أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السلام (3).

(ب) وجهة النظر الإسلامية

يرى المسلمون أن الذبيح إنما كان إسماعيل عليه السلام، اعتماداً على رواية ابن عباس في تفسيره لقوله تعالى «وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ» (4)، على أنه إسماعيل، و على أننا نجد في كتاب اللّٰه- عز و جل- في قصة الخبر عن إبراهيم، و ما أمر به من ذبح ابنه إسماعيل، و ذلك أن اللّٰه سبحانه

ص: 170

1- سورة هود: آية 88

2- أنظر ما كتبناه من قبل عن الاسرائيليات في التفسير

3- تفسير الطبري 23/ 81-84، تفسير القرطبي 15/ 99-100

4- سورة الصافات: آية 107

و تعالى، حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم، فإنه يقول «وَبَشِّرْنَا هَاسِحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ» (1)، فالإتيان بالبشرى بعد ذكر القصة صريح في أن إسحاق غير الغلام الذي ابتلى الله إبراهيم بذبحه وعودة الضمير إلى الغلام الذبيح، ثم ذكر اسم إسحاق معه صريحا، يقتضي التباير بين إسحاق و الذبيح (2).

و يضيف الإمام ابن تيمية إلى ذلك، أن قصة الذبيح المذكورة في سورة الصافات (3) تدل على أنه إسماعيل، إذ يقول سبحانه و تعالى «فَبَشِّرْنَا هَاسِحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ»، فقد انطوت البشارة هنا على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، و على أنه يبلغ الحلم، و على أنه يكون حلما، و أي حلم أعظم من أن يعرض عليه أبوه الذبيح، فيقول «سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِّنَ الصَّابِرِينَ»، ثم إنه لم يذكر قصة الذبيح في القرآن الكريم، إلا في هذا الموضوع، و في سائر المواضع يذكر البشارة بإسحاق خاصة- كما في سورة هود (4)- ثم إنه ذكر في البشارة في الصافات، بأنه غلام حلیم، و حين ذكر البشارة بإسحاق، وصفه بأنه غلام عليم (5)، و التخصيص لا بد له من حكمة، و هذا مما يقوي اقتران الوصفين، و الحلم هنا مناسب للصبر الذي هو خلق الذبيح، هذا فضلا عن أن إسماعيل قد وصف بالصبر، دون إسحاق، في قوله تعالى «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكُفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ» (6)، و بصدق الوعد، «إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ» (7)، لأنه

ص: 171

1- سورة الصافات: آية 112

2- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 102، فتاوى ابن تيمية 4/332-333

3- سورة الصافات: آية 99-113

4- سورة هود: آية 71-72

5- سورة الحجر: آية 53، الذاريات: آية 28

6- سورة الأنبياء: آية 85

7- سورة مريم: آية 54

وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به، ثم إن البشارة بإسحاق كانت معجزة، لأن العجوز عقيم، وأنها كانت مشتركة بين إبراهيم و امرأته، بينما البشارة بالذبيح فقد كانت لإبراهيم، ثم امتحانا له، دون الأم المبشرة به (1).

أضف إلى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول «وَبَشِّرْنَا هَٰؤُلَاءِ بِسَبْحَةِ إِسْحَاقَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ» (2)، فكيف يأمره الله بذبحه، وقد وعده أن يكون نبيا (3)، ثم إن البشارة بإسحاق إنما كانت مقرونة بولادة يعقوب منه، فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقا (4)، ومن هنا استدل محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل، وليس إسحاقا، حيث يقول سبحانه وتعالى «فَبَشِّرْهُمَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» (5)، فكيف تقع البشارة بإسحاق، وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق، وهو صغير قبل أن يولد له، هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة، و هناك ما روي من أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي، سأل رجلا من علماء اليهود، كان قد أسلم و حسن إسلامه: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك و يزعمون أنه (0)

ص: 172

1- مجموع فتاوى شيخ الإسلام احمد بن تيمية 4/ 331-335، وانظر: روح المعاني 134/23 تفسير الطبري 85/23

2- سورة الصافات: آية 112

3- تفسير القرطبي ص 5545 (طبعة الشعب)

4- روح المعاني 134/23، تاريخ الخميس ص 108

5- سورة هود: آية 71، وانظر: تفسير الطبري 15/389-397 (دار المعارف- القاهرة 1960)

إسحاق، لأن إسحاق أبوهم (1).

و هناك ما جاء في إنجيل برنابا على لسان المسيح- عليه الصلاة والسلام- «الحق أقول لكم، أنكم إذا أمعنتم النظر في كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا، لأن الملاك قال يا إبراهيم: سيعلم العالم كله كيف يحبك الله، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله؟ حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله، فأجاب إبراهيم ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله، فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا: خذ ابنك بكرك و أصعد الجبل لتقدمه ذبيحة»، فكيف يكون إسحاق البكر، و هو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين (2).

ثم أليس في شعائر الحج عند المسلمين كثيرا من الأدلة على أن الحادث إنما كان في مكة- وليس في فلسطين- وأنه مع إسماعيل- و ليس مع إسحاق- و أن المسلمين، بعكس اليهود، كانوا- و ما يزالون و سوف يظلون أبد الدهر- يحيون ذكرى الفداء الفذ هذا في كل عام، عند حجهم إلى بيت الله الحرام، في الأضحية يوم النحر، و في السعي بين الصفا و المروة، و في رمي الجمار، و كل تلك أمور لا توجد عند يهود، فإذا ما تذكرنا أن إسماعيل و أمه- و ليس إسحاق و أمه- هما اللذان كانا بمكة، و أن إسماعيل، و ليس إسحاق، هو الذي شارك أباه الخليل في بناء البيت الحرام، و أن النحر في منى- و ليس في فلسطين- في يوم عيد الأضحى

ص: 173

1- ابن كثير: قصص الأنبياء 1/ 215-217، البداية و النهاية 1/ 159-160، تفسير القرآن العظيم 7/ 28-30، تاريخ ابن خلدون 2/ 38، ابن الأثير 1/ 110-111، تفسير الطبري 23/ 84-85، تفسير البيضاوي 2/ 297، تفسير القرطبي 15/ 101، روح المعاني 23/ 133-135

2- محمد حسني عبد الحميد: أبو الأنبياء إبراهيم الخليل ص 86، علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة ص 87-88، مع ملاحظة مخالفة هذا النص لنصي التوراة (تكوين 16: 16، 17: 3)

المبارك، إنما هو من تمام سنن الحج إلى هذا البيت المعمور، و من هنا يبدو لنا بوضوح أن الذين زعموا من يهود- و من تابعهم في زعمهم هذا من نصارى و مسلمين- أن الفداء إنما كان في الشام، قد أخطئوا كثيرا، إذ لو كان الأمر كما يزعمون، لكانت كل الشعائر التي تتصل بعملية الفداء هذه في الشام، و ليس في مكة.

و يذهب الإمام السيوطي إلى أن البشارة بمولود، إنما جاءت مرتين، الواحدة في قوله تعالى «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» (1)، فهذه الآيات الكريمة قاطعة في أن المبشر به هو الذبيح، و الأخرى في قوله تعالى «وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ» (2)، و في هذه الآيات الكريمة، إنما المبشر به إسحاق، و قد وقعت هذه البشارة في فلسطين، لما جاءت الملائكة بسبب قوم لوط، و هو في آخر مرة، و لم تكن بدعوة من إبراهيم، فهو شيخ كبير، و امرأته عجوز، و أما البشارة الأولى فقد كانت عند ما انتقل الخليل عليه السلام من العراق إلى الشام، و كانت بدعوة منه، حيث كان في سن لا- يستغرب منه الولد، و من ثم فقد سأل ربه أن يهبه غلاما من الصالحين، و ينتهي السيوطي إلى أنهما بشارتان في وقتين مختلفين، بغلامين مختلفين، الواحد بغير سؤال- و هو إسحاق- و قد جاء اسمه صريحا في الآيات الكريمة، و الآخر بسؤال، و قد ارتبط

ص: 174

1- سورة الصافات: آية 99-102

2- سورة هود: آية 71-72

بقصة الذبح، وهو اسماعيل (1)، فضلا عن أن البشارة باسحاق إنما كانت مقرونة بولادة يعقوب منه، فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقا (2).

أضف الى ذلك كله، أن الآية الكريمة: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ»، تفيد أنه دعاء وقع من إبراهيم قبل أن يرزق بواحد من ابنائه، إذ لو كان له ولد ما طلب الولد الواحد، وكلمة «من» هنا للتبعيض، وأقل درجات البعضية الواحد، ومن ثم فإن قوله تعالى من الصالحين لا تفيد الا طلب الواحد، وبهذا يكون الدعاء في وقت لم يكن للخليل فيه شيء من الذرية، ومن المعروف أن هناك اجماعا بين علماء المسلمين- فضلا عن كتب اليهود والنصارى- ان اسماعيل انما هو ولد إبراهيم البكر، ومن ثم فإن الدعاء انما يراد به اسماعيل، وحيث أن رؤيا البشري ثم رؤيا الذبح انما جاءت بعد ذلك، فالذبيح اذن هو اسماعيل. (3).

وهناك رواية تذهب إلى أن بعضا من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد رأوا بقايا رأس الكبش في بيت الله الحرام، فعثمان بن طلحة يروي أنه رأى قرني الكبش، وأنهما بقيا حتى احتراق البيت أثناء حصار الحجاج لابن

ص: 175

-
- 1- تفسير القاسمي 5053/14، محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم ص 165، شفاء الغرام 10/2-11، تفسير الألوسي 12/101-97، 13/135-136، 14/60-61، تفسير المنار 12/127-130، تفسير القرطبي 9/62-71، 15/100-103، تفسير البيضاوي 1/474-475، 2/297، 1/543-544، وانظر السيوطي في رسالته القول الفصيح في تعيين الذبيح، فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 4/332-333، تفسير الطبري 12/71-77، 14/39-41
 - 2- تاريخ الخميس ص 108، وانظر: التفسير الكبير للفخر الرازي 26/154
 - 3- تفسير الفخر الرازي 26/154

الزبير (1)، وابن عباس يروي أنه رأى رأس الكبش (2) ما يزال معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس، ويبدو أن قريشا قد توارثت قرني الكبش، خلفا عن سلف، وأن ذلك إنما كان من دعاوى الفخر عندهم، وبدهي أنهم لا يتفاخرون بهما، إن كان الذبيح إسحاق، وليس إسماعيل، و كل تلك الروايات إنما تدل على أن الذبيح إنما كان إسماعيل، فهو الذي كان- وليس إسحاق- في مكة المكرمة (3).

و أخيرا فهناك رواية تذهب إلى أن رجلا جاء إلى الحبيب المصطفى- صلوات الله و سلامه عليه- فقال: يا رسول الله، عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم (صلى الله عليه و سلم)، فقيل لمعاوية بن أبي سفيان- و كان حاضرا- و ما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب نذر إن سهل الله حفر زمزم أن يذبح أحد أولاده، فخرج السهم على عبد الله أبي النبي (صلى الله عليه و سلم) ففداه بمائة بعير، و أما الذبيح الثاني فهو إسماعيل (4).

ص: 176

-
- 1- انظر عن هذا الحصار (73 /72 هـ- 692 م): ابن الأثير 4 /22-24، العقد الفريد 2 /182، الازرقى 1 /196-200، مروج الذهب 5 /259-260، الاخبار الطوال ص 304 و ما بعدها
 - 2- هناك من يرى ان الذبيح إنما فدي بوعل (وهو التيس الجبلي)، و من يرى أنه تيس من الأروي، و لكن الجمهور على أنه كبش، و لذا يفضل العلماء الأضحية بالغنم عنها بالبقر و الابل (تفسير الطبري 23 /86-87، تفسير القرطبي 15 /107)
 - 3- ابن كثير 1 /158، شفاء الغرام 2 /9، تاريخ الخميس ص 108، الازرقى 1 /159-160، تفسير الألوسي 23 /134، تفسير الطبري 23 /83-84، 87، تفسير القرطبي 15 /106، فتاوى ابن تيمية 4 /335، تفسير البيضاوي 2 /297
 - 4- ابن كثير 1 /160، ابن الأثير 1 /180، ابن خلدون 2 /337، شفاء الغرام 2 /11، تفسير الألوسي 23 /134، 136 تفسير البيضاوي 2 /297، تفسير الطبري 23 /85

عرفت بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم نظام الضحايا البشرية التي كانت تقدم على مذابح الآلهة وعند دفن الملوك، و تدلنا حفائر «أور» السومرية على قدم تلك العادة، إذ كان الملوك يدفنون و معهم حاشيتهم ووزرائهم، و لا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم ماتوا على الرغم منهم، فليس منهم من وجدت جثته و فيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل أو الضرب العنيف، و لهذا يعتقد «سير ليونارد وولي» أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقارا ساما يخدرهم و يميتهم، إيماننا منهم بالانتقال مع الملوك الأرباب إلى حالة في السماء، كحالتهم في الحياة الأرضية، هذا وقد وجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعا يشبه رأس الحيوان، و المظنون أن هذا الذي كان مقدمة للذبح الرمزي، و اجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس في الاحتفالات العامة، و لا سيما الاحتفال برأس السنة (1).

و تدلنا مقبرة «زفاحبي»- الحاكم المصري في كرمه بالسودان على أيام الأسرة الثانية عشرة (1786 - 1991 ق. م.)- على إتباع نفس العادة، إذ ضحى باكثر من مائتي شخص من خدمه و أتباعه، ثم دفنوا في الممر المؤدي إلى قبره، و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه العادة ربما كانت معروفة في مصر في عهد ما قبل الأسرات، و ربما في الأسرة الأولى كذلك، و لكنها انقرضت بعد ذلك (2).

و لم يكن الأمر مختلفا بالنسبة إلى الكنعانيين و الفينيقيين، فقد كانت

ص: 177

1- عباس العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء ص 172، و أنظر و كذا 1963، RUTA SNOITAVACXE, seedlahc eht fo ru, yellow.

L و كذا lautir citimes yltraE fo snigirO, ekooH

2- أحمد فخري: مصر الفرعونية ص 320

التضحية بالطفل البكر عرفا جاريا لدى الكنعانيين في العصر العتيق، وفي حفريات «جازر» دليل قاطع في هذا الصدد، فقد وجدت بها عظام أطفال في حالة بلاء بين بين، مودعة في أسس المنازل، وقد احتفظ الفينيقيون بهذه العادة إلى عصور قريبة، حتى روى «فيلون» أن من عادات القوم في حالات الأخطار العامة، أن يضحوا بأعز آبائهم لإبعاد الكوارث عن أنفسهم (1)، وطبقا لرواية التوراة، فإن المؤابيين إنما كانوا يفعلون كذلك، وقد ضحى ملك مؤاب (ميشع) بابنه البكر لإلهه شمس، لينقذه من قوات إسرائيل ويهوذا التي أحاطت به (2). هذا وقد تبين من مخلفات المدافن من «أم التار» في «أبو ظبي» أنها تضم العديد من الهياكل العظمية المتكدسة في المدفن المشترك، ويدل وجود الهياكل العظيمة خارج الجدران الخارجية على ظاهرة التضحية البشرية التي تواكب مراسم الدفن، حيث توضع جثث الأشخاص الذين يضحى بهم خارج المبنى الذي يضم جثة المتوفي (3).

وهنا- فيما يبدو لي- تظهر أهمية قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام، في التاريخ الإنساني، إذ كتبت عليه ضريبة الفداء، وهي في مفترق الطرق بين الهمجية التي كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية، وبين الإنسانية المهدبة التي لا تأبى الفداء بالحياة، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان (4)، ولما كان الأنبياء هم الأسوة الحسنة التي يحتذى حذوها كافة الناس و خاصتهم، فإن الله جلت قدرته أراد أن يجعل من خليله قدوة حسنة، و مثلا أعلى، لأرفع صور الإيمان و أجلها في تاريخ الإنسانية، وفي الوقت

ص: 178

1- ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص 145

2- ملوك ثان 3: 27

3- 212. G. ybbiB. rof gnikooL, numleD nodnoL, P, 1970, و كذا 217-218. K. nesdivrohT. lamuK, 1962, PP,

4- عباس العقاد: الإسلام دعوة عالمية ص 218-219

ذاته، فإنه- جل و علا- قد أعطى الإنسانية نفسها، مثلاً حيناً في إبراهيم وابنه إسماعيل، تمهيداً لمنع هذه العادة البربرية، فيأمره بذبح ولده، ثم يفتديه بكبش عظيم، و من هنا كان ارتباط هذا الحادث ارتباطاً وثيقاً، بظاهرة التضحية البشرية، التي كانت تمارس في بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم، و الحث على استبدال ذلك التقليد بالتضحية الحيوانية (1).

و من عجب، أن ذرية إبراهيم من إسحاق، لم يكونوا على مستوى الدعوة، فبقيت فيهم عادة التضحية البشرية إلى ما بعد أيام موسى و نزول التوراة، و يتضح هذا من رواية سفر الخروج (2)، حيث يحرم الله على بني إسرائيل أن يعطوا أبنائهم قرباناً إلى الله تعالى، كما يتضح كذلك من سفر اللاويين (3)، حيث ينص على عقوبة الرجم لمن يعطي ابنه قرباناً لملكوم- إله العمونيين- و قد كانوا يقدمون له الذبائح البشرية، لا سيما من الأطفال (4).

و مع ذلك فقد ظل أمراء بني إسرائيل يندرون أبناءهم، محرقة على المذابح، كما فعل «يفتاح الجلعادي» حين نذر للرب «إن دفعت بني عمون ليدي، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون، يكون للرب، و أصعده محرقة» (5)، و تشاء الأقدار أن تكون ابنته الوحيدة هي التي تهب للقائه عند ما عاد من معركته هذه، و من ثم فقد اضطر أن يفني بنذره هذا بعد شهرين (6).

ص: 179

1- رشيد الناضوري: المرجع السابق ص 174

2- خروج 22: 9

3- لاويون 18: 21، 20: 2

4- قاموس الكتاب المقدس 721/2

5- قضاة 11: 30-31

6- قضاة 11: 34-40

و هكذا بقي الإسرائيليون، و حتى عصر القضاة، يمارسون التضحية البشرية- تقليدا للكنعانيين و المؤابيين و غيرهم- رغم أنها ليست من شريعة موسى، و رغم أنهم نهوا عنها مرارا، بل إن الأمر قد بقي كذلك، حتى عصر ارمياء النبي (627-577 ق. م.) الذي نعى عليهم أنهم «بنو المرتفعات ليحرقوا بنيتهم و بناتهم بالنار»، و حتى عصر أشعيا، الذي يقول لهم: «يا بني الساحرة، نسل الفاسق و الزانية ... المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء، القاتلون الأولاد في الأودية تحت شقوق المعازل» (1).

ص: 180

1- أشعيا 57: 3-5

إشارة

ص: 181

لا- ريب في أن الكعبة، إنما قام بنائها الخليل وولده إسماعيل - عليهما السلام- الأمر الذي يؤكد القرآن الكريم، ويرتضيه محققو المؤرخين، إلا أن نفرا من المؤرخين، إنما يحلو لهم أن يقدموا لنا روايات ترجع ببناء الكعبة إلى ما قبل عهد إبراهيم بآلاف السنين، بل أن البعض إنما يذهب إلى أنها قد بنيت قبل أن يبرأ الله الأرض نفسها، وهكذا وجدت لدينا روايات تنسب بناء الكعبة إلى الملائكة، وقبل أن يخلق آدم بألفي سنة، بل إن هذا النفر إنما يذهب إلى أن الملائكة قد خاطبت آدم عند حجه إلى البيت الحرام، و بلسان عربي مبين، قائلة: «برّ حجك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام» بينما تواضع بعض هؤلاء الرواة فنسب بناء الكعبة إلى آدم فحسب، و تواضع بعض آخر أكثر، فنسب بناءها إلى شيث بن آدم، و أن هذا البيت المقدس، إنما غرق في طوفان نوح، حتى أتى إبراهيم فأعاد بناءه (1).

على أن فريقا آخر، إنما يذهب إلى أن الكعبة، إنما أقيمت في مكان معبد قديم للعمالق، اندثر و اختفى قبل قدوم إبراهيم إلى الحجاز، مما جعل هذه البلاد موضع تقديس، حتى أن المصريين القدماء، إنما كانوا يسمون بلاد الحجاز «البلاد المقدسة» (2). بل إن البعض قد زاد، فأراد أن يطوّع

ص: 183

-
- 1- العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار 93/1-94، تفسير المنار 466/1، تفسير البيضاوي 172/1، الكشاف 311/1، تاريخ الخميس ص 100-104، 133، نهاية الأرب 228-230، ياقوت 463-465، الأزرقى 32-53، الحربى: كتاب المناسك و أماكن الحج و معالم الجزيرة ص 481-482، علي حسني الخربوطلي: الكعبة على مرّ العصور ص 5-10
- 2- نفس المرجع السابق ص 10، مع ملاحظة أنه ليس هناك شيء مؤكد من الناحية التاريخية عن هذا الاسم

الآيتين الكريمتين، «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ» (1) و«إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ» (2)، لتتفق مع هذا الهدف، فرأى أنهما تلهمان أن هذه المنطقة كانت معروفة، وأن الكعبة ربما أقامت على أنقاض معبد قديم، جرت عليه أحداث تاريخية وجغرافية غيرت من طبيعة المكان وأهمل هذا المعبد، حتى هبى لإبراهيم أن يرفع قواعده من جديد (3).

و الرأي عندي أن الكعبة المشرفة، إنما ترجع في بنائها إلى الخليل وولده إسماعيل، عليهما السلام (4)، دون غيرهما من العالمين، يقول سبحانه وتعالى «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَدَاءً آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (5)، ويقول

ص: 184

1- سورة الحج: آية 26

2- سورة البقرة: آية 127

3- احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 167، تاريخ الطبري 1/254، قارن: تفسير القرطبي 2/120، الكشاف 1/311

4- نلاحظ في الآية الكريمة «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ»، تأخير ذكر اسماعيل عن ذكر المفعول، إشارة إلى أن المأمور من الله إنما هو إبراهيم، وإنما كان إسماعيل مساعداً له، وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة (تفسير المنار 1/469، البداية والنهاية 1/156)، ثم قارن تفسير الطبري 3/64-67، 71-72، حيث نرى أن النبيين الكريمين قد رفعوا القواعد معا بدليل قوله تعالى «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (البقرة: آية 127-128).

5- سورة البقرة: آية 125-127

سبحانه و تعالى «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مِنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» (1)، ويقول «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَأَذَّنْ فِي النَّاسِ بِالْحِجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (2).

ويرى الإمام ابن كثير وغيره من العلماء، أنه لم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم (صلى الله عليه وسلم) أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام (3)، ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت، فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء، موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم، ولنعرف ذلك كله، فلنعد إلى القصة من أولها.

استجابت هاجر لما ارتآه الخليل عليه السلام- كما أشرنا آنفا- من أن يجنبها النزاع الذي قد يتفاقم بين سارة و هاجر، والغيرة التي قد تقتل سارة، وتزعج أمن إبراهيم واستقراره، ومن ثم فقد قام الخليل برحلته إلى الحجاز، ومعه هاجر وإسماعيل، امتثالاً لأمر الله ورغبة في نشر الإيمان في بيئة جديدة، وفي مناخ جديد، وإلا لو كان الأمر مجرد إبعاد هاجر ولدها إسماعيل عن سارة، لكان الأولى بإبراهيم- وهو الرحيم بولده، الحنون على زوجته- أن يذهب بهما إلى أرض الكنانة، فيحقق بذلك عدة أغراض، تستقر زوجته عند أهلها، ويطمئن على ولده عند خنولته، ولا

ص: 185

1- سورة آل عمران: آية 96-97

2- سورة الحج: آية 26-27

3- ابن كثير: البداية والنهاية 1/163، الكشاف 1/446، تفسير المنار 1/466-467، تفسير الطبري 3/70، البداية والنهاية 2/298 تاريخ اليعقوبي 1/27

تقول يرد المرأة إلى أهلها، بدل أن يقذف بها هناك في صحراء جرداء، لا زرع فيه ولا ماء.

ولكن الخليل - عليه السلام - لم يكن يفعل ما فعل بأمر من نفسه، أو بأمر من سارة - كما يحلوا للسطحيين من المؤرخين - وإنما كان يفعل ذلك كله بأمر من رب إبراهيم، تمهيدا لأعظم مهمة، خلدت ذكر إبراهيم، وهدت أقواما إلى الإيمان بالواحد القهار، أعني أول بيت وضع للناس - بيت الله الحرام - وليعيش إسماعيل هناك، وحتى يخرج من ظهره أشرف الأولين والآخرين، رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحتى تنشأ هناك خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهكذا، فالرأي عندي أن هجرة أبي الأنبياء بولده الحبيب وأمه، إنما كانت لأمر أرادته الله، وليست انتقاما من سارة، أرادت به أن يذهب الخليل بزوجه وولده إلى مكان سحيق، لا تعرف عنهم شيئا، ثم يعود إليها الخليل وحده، ولهذا يتجه البعض أن هجرة إبراهيم بولده وزوجته إلى الأرض المقدسة في الحجاز إنما كانت بعد أن أمر الله إبراهيم ببناء البيت (1).

ومن هنا فإن الروايات التي ذهبت إلى أن سارة في قرارها الغاضب هذا أقسمت لتقطع من هاجر ثلاثة أعضاء، ومن ثم فقد أمر الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها، فتبر بقسمها، وهكذا كانت هاجر أول من اختتن من النساء، وأول من تثقت أذنيها منهن (2)، روايات لا تتفق و مكانة الخليل أبدا، فضلا عن جهل فاضح بالتاريخ.

وليت الذين يذكرون ذلك كله يعرفون أن المصريات كن يلبسن «الحلقان» في آذانهن قبل تلك الأيام بمئات السنين، وأن الختان عادة

ص: 186

1- تفسير الطبري 68/3 - 69

2- ابن كثير 1/154، العقد الفريد 1/135، تاريخ الخميس ص 105، شفاء الغرام 2/15، المقدسي 3/53، قارن: مروج الذهب 2/

مصرية متأصلة، تفرد بها المصريون دون شعوب المنطقة جميعاً، منذ أن كان فجر التاريخ، وأن اليهود لم يعرفوا هذه العادة إلا إبان إقامتهم في مصر، حتى أن التوراة نفسها لم تتحدث عن سنة الختان إلا بعد زيارة إبراهيم لمصر، وأنه لا يوجد شعب في حوض البحر المتوسط كان يتبع هذه السنة غير المصريين، ثم انتقل بعد ذلك منهم إلى السوريين و الفينيقيين، وأن هيرودت يروي أنه سألهم عن هذه العادة، فقالوا إنهم أخذوها من المصريين، الذين كانوا يتحرون بها النظافة و الطهارة، و ما يزال الختان حتى اليوم في عرف المصريين يسمى «الطهارة»، و لعل هذا هو السبب في أن المصريين كانوا يعتبرون أي قوم غير مختونين دنسين، و من ثم فقد كانوا يقطعون غلف القتلى من هؤلاء القوم، الأمر الذي يبدو واضحاً في حروب مرنبتاح (1224-1214 ق. م) و رعمسيس الثالث (1182-1151 ق. م) (1).

وأيما ما كان الأمر، فإن الأسرة المباركة، سرعان ما تصل إلى الأرض الطيبة، حيث تبقى هاجر و وليدها العظيم، بينما يعود الخليل إلى فلسطين، و هنا تقدم لنا الروايات العربية منظراً فريداً في التاريخ، يقدم الخليل فيه- كما تقدم هاجر كذلك- دليلاً ما بعده دليل على قوة الايمان بالخالق الأعظم.

تقول الروايات أن الله أوحى إلى إبراهيم أن يأتي مكة، و ليس بمكة يومئذ بيت، و كان موضع البيت ربوة حمراء، و إن كانت هناك روايات تذهب إلى أن أناساً من العماليق كانوا وقت ذاك خارج مكة و ما حولها،

ص: 187

1- محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص 230، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة و الأسطورة، مجلة الأسطول- العدد 66 ص 14-15، جوزيف لويس: الختان ص 52-54 و أنظر: ألكار السقاف: إسرائيل و عقيدة الأرض الموعودة- القاهرة 1967، تكوين 12: 10-20، 17: 9-27.

وأن واديهها قد اتخذ من قبل أن تبني موثلاً للراحة من قبل رجال القوافل - سواء إبان قدومها من ناحية اليمن قاصدة فلسطين، أو متجهة من فلسطين إلى اليمن - ولكنه كان فيما خلا - ذلك، من أشد الأماكن خلاء أو يكاد، وهناك في هذا المكان المقفر، يترك إبراهيم هاجر و إسماعيل، عند دوحة فوق زمزم، و يقفل راجعا، فتناديه هاجر: يا إبراهيم إلى من تكلنا؟

فيقول: إلى الله، فتقول له: انطلق فإنه لا يضيعنا، و ينطلق إبراهيم حتى إذا ما كان عند الثنية حيث لا يرونه، يستقبل بوجهه البيت ثم يدعو بهذه الدعوات (1)، «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيَتِمُّوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ (2) تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (3).

و فرغ الطعام و الماء فعطشت هاجر و عطش وليدها و راح يتلبط، و نظرت إليه و هو يتلوى من العطش، فأحست نياط قلبها تتمزق، و كاد عقلها أن يطيش، و راحت تسعى بين الصفا و المروة تتلهف على رؤية أحد ينقذ ولدها من الموت عطشا حتى إذا ما أتمت السعي سبع مرات،

ص: 188

1- ابن كثير 1/154-155، ابن الأثير 1/103، تاريخ الطبري 1/252-253، تفسير الطبري 3/62، 230/13-233، التفسير الكبير للفخر الرازي 19/136، تاريخ يعقوبي 1/25، شفاء الغرام 2/3، تاريخ الخميس ص 106، تفسير الألوسي 13/236، المقدسي 3/60، الازرقعي 1/54، 2/39، تاريخ ابن خلدون 2/36، قصص القرآن ص 57-58، قصص الأنبياء ص 104-105، مروج الذهب 2/18

2- يروي ابن عباس وغيره أن الله سبحانه و تعالى، لو قال «أفئدة الناس» و لم يقل «أفئدة من الناس»، لأزدحم عليهم الفرس و الروم و الناس كلهم، و لحجت اليهود و النصارى و المجوس، و لكنه قال «من الناس»، فاخص به المسلمون (تفسير ابن كثير 4/142، روح المعاني 13/238، 239، تفسير البيضاوي 1/533، تفسير الطبري 13/233-234، التفسير الكبير للفخر الرازي 19/137، تفسير القرطبي 9/373، تفسير النسفي 2/264)

3- سورة إبراهيم: آية 37

عادت إلى إسماعيل، فإذا الماء قد ظهر عند قدميه، فجعلت تخوضه في فرح و تعرف الماء في سقاتها و شربت و أرضعت وليدها، و اذا بملك عند زمزم يقول لها: لا تخافي الضيعة فإن هذا بيت الله الحرام، بينه هذا الغلام و أبوه، و أن الله لا يضيع أهله (1).

و هكذا كتب الله الرؤوف الرحيم لإسماعيل و أمه النجاة، و كان السعي بين الصفا و المروة من شعائر الله، و صدق عز من قال «إِنَّ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا، وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا، فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» (2)، و يروي ابن عباس عن الحبيب المصطفى - صلوات الله و سلامه عليه - قوله «فلذلك سعى الناس بينهما»، أي بين الصفا و المروة، و لست أدري: هل كان يدور بخلد جدتنا العظيمة أم إسماعيل - عليهما السلام - أن ملايين المؤمنين على مرّ السنين سوف يسعون بين الصفا و المروة سبعة أشواط، تخليداً لذكرى ما كان في ذلك السعي من خير و بركة (3).

و يمر نفر من جرهم - أو من العماليق على رواية أخرى بواد قريب من مكة، و يعرفوا بأمر زمزم، ثم لم يلبثوا إلا - قليلاً، حتى يعرضوا على هاجر

ص: 189

1- تاريخ الطبري 1/253-258، ابن الاثير 1/103-105، ابن كثير 1/155، تاريخ اليعقوبي 1/25، ياقوت 3/148-149، العقد الفريد 1/133، شفاء الغرام 2/3-4، الحربي: المرجع السابق ص 484-485، تفسير الطبري 3/69، المقدسي 3/60-62، روح المعاني 13/236-237، مروج الذهب 2/18، تاريخ ابن خلدون 2/36-37، قصص القرآن ص 58-59، قصص الأنبياء ص 105، حياة محمد ص 103-105، الازرقى 1/54-55، 2/39-40

2- سورة البقرة: آية 158

3- محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص 166-167، قصص الأنبياء ص 105، الازرقى 2/40، مروج الذهب 2/19، التفسير الكبير للفخر الرازي 19/136، تاريخ الخميس ص 106، العقد الفريد 1/135، شفاء الغرام 2/3-6، 16 مروج الذهب 2/46-47، تفسير الطبري 13/230-232، تفسير القرطبي 9/369-270 (طبعة 1967)

أن يقيموا في جوارها، على أن يكون الماء ماءها، فأذنت لهم، و شب إسماعيل بينهم، و تعلم العربية منهم، فضلا عن الزواج بواحدة من بناتهم (1)، و إن كانت التوراة تذهب إلى أن أمه قد أخذت له زوجة من أهلها من مصر (2)، كما أن هناك من المؤرخين المسلمين أنفسهم من تنبه إلى الفارق بين لغة قريش و لغة الجنوب- أي بين لغة العدنانيين و لغة القحطانيين- فلو كان إسماعيل قد تعلم العربية من جرهم لكانت لغته موافقة للغتهم، أو لغيرها ممن نزل مكة، فضلا عن أن منزلة يعرب عند الله ليست بأعلى من منزلة إسماعيل، كما أن منزلة قحطان ليست عند الله بأعلى من منزلة إبراهيم خليل الرحمن، فيمنع إسماعيل فضيلة اللسان العربي التي أعطيت ليعرب بن قحطان (3)، و لهذا ذهب بعض المؤرخين إلى أن إسماعيل كان أول من ألهم هذا اللسان العربي المبين (4)، بل إن هناك من يذهب إلى أن قحطان نفسه من ولد إسماعيل (5).

و على أي حال، فإن صاحب الإكليل، إنما يذهب إلى أن سبأ بن يشجب

ص: 190

1- ابن كثير 1/155، ابن الأثير 1/103-104، مروج الذهب 2/46-47، تاريخ الطبري 1/258، تفسير الطبري 13/230، تفسير البيضاوي 1/533، تفسير الألوسي 13/237، تفسير القرطبي 9/274، قصص القرآن ص 63، الأزرقى 1/57، 2/40-41 العقد الفريد 1/133، شفاء الغرام 2/4، تاريخ الخميس ص 110، الإكليل 1/98-102، 117، المعارف ص 16-17، تاريخ ابن خلدون 2/37، 2/331-332.

2- تكوين 21: 21

3- مروج الذهب 2/46

4- تاريخ ابن خلدون 2/86، تاريخ الخميس ص 110، تاريخ يعقوبي 1/221، العقد الفريد 1/134، لسان العرب 2/75، تاج العروس 2/352، شفاء الغرام ص 13، قارن: ياقوت 4/98

5- الإكليل 1/103-105، تاريخ ابن خلدون 2/241-242، نهاية الأرب للقلقشندي ص 396-397

- أو ولده حمير- هو الذي سيّر جرهم إلى جبال الحرم و الحجاز، ولاة على العماليق و عبد ضخم، فكانوا بنجد و كذا الطائف و أجبل الحرم، و وادي مكة يومئذ خاوا لا يدخلونه إلا رعاة، حتى إذا ما جاءت هاجر و ولدها، أقاموا معهم و تزوج إسماعيل منهم (1).

و أيا كان الأمر، فإن الخليل لم يكن ليترك ولده الحبيب في ذلك المكان الموحش القفر بوادي مكة، دون أن يزوره، بين الحين و الحين، فقد كان لا ينقطع عن زيارة هاجر و إسماعيل، ليشد الأواصر بين الأخوين، إسماعيل و إسحاق و ربما ليزيل الجفوة بين هاجر و سارة، و إن كان المصادر العربية تتجه اتجاهها عجيبا، فهي تروي أن الزيارة ما كانت تتم إلا برضى من سارة، و بشرط ألا ينزل عند هاجر، و حتى بعد وفاة هاجر، فإن سارة إنما كانت تفرض على إبراهيم ألا ينزل كذلك عند إسماعيل، و سار نفر من المؤرخين المحدثين في الركب، و زادوا أنها اشترطت كذلك ألا ينزل عن جواده (2).

و لست أدري كيف نسي هؤلاء المؤرخون- أو تناسوا- أن هاجر كانت ما تزال زوجة لل خليل، فما حدثنا مصدر قط عن فراق بينهما، و أن هاجر و سارة- رضي الله عنهما- كلتاهما زوجة فاضلة لل خليل، عليه السلام، و لكل منهما من الحقوق و عليها من الواجبات، ما للأخرى و ما عليها، و أن إسماعيل هو ولد إبراهيم البكر، و إذا كانت الروايات العربية على صواب فيما ذهبت إليه، من أنه كان ما يزال صغيرا عند ما تركه، فهو إذن ليس البكر فحسب، و لكنه الوحيد كذلك، لأن الخليل لم يرزق

ص: 191

1- الإكليل 101 / 1

2- ابن الاثير 104 / 1، تاريخ الطبري 258 / 1، تاريخ الخميس ص 111، تاريخ ابن خلدون 37 / 1، مروج الذهب 19 / 2- 21، علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق ص 15، قارن: تاريخ اليعقوبي 26 / 1

باسحاق، إلا و كان إسماعيل في الرابعة عشرة من عمره، فإذا كان ذلك كذلك، فكيف قبل هؤلاء المؤرخون أن لا يزور إبراهيم زوجته و ولده، إلا باذن من سارة، فأيهما صواب القوامة على الآخر، و الله سبحانه و تعالى يقول «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» (1)، و يقول «وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ» (2)، ثم أليس لهاجر في إبراهيم حق كسارة تماما، و العدل بين النساء أمر لا يحتاج إلى إيضاح، و ليس من شك في أن الخليل عليه السلام، كان أعلم بذلك كله، و أحرص عليه، من هؤلاء الذين كتبوا ما كتبوا.

ثم ألم يكن إسماعيل ولده، و له فيه حق كإسحاق تماما، إن لم يفق حق سارة في إبراهيم، أم أنه ابن الجارية- كما تزعم يهود، و كما يرد المؤرخون الإسلاميون مزاعم يهود في كتبهم- و من ثم فليس له حق في أبيه، إلا أن تأذن سارة، و حتى هذه، فلست أعرف نوعين من الأبوة، نوع لابن الحرة، و آخر لابن الجارية، ثم و ليقراً هؤلاء صفات هذا و ذلك في القرآن الكريم.

و أخيراً، فهل عرف هؤلاء المؤرخون أن الرحلة من فلسطين إلى مكة في هذه الصحراوات المقفرة، تحتاج إلى راحة، بعد عناء السفر، و مشقة الطريق، ثم كيف بعد كل هذا يرون أن إبراهيم قدم إلى مكة في إحدى زيارته لولده، فرفض أن ينزل من على دابته، رغم إلحاح زوج ولده، مما اضطرها إلى أن ترحل له شعره، و تغسله له، بل و يشرب لبنا، و يأكل

ص: 192

1- سورة النساء: آية 34، و انظر تفسير الكشاف 505 / 1

2- سورة البقرة: آية 228 و انظر: تفسير الطبري 533 / 4، 536 (دار المعارف بمصر)، تفسير الكشاف 272 / 1

شرائح من لحم، و هو ما يزال على دابته، و أنه ترك آثار رجله على حجر كان يتكى عليه أثناء ترجيل شعره أو غسله (1)، و إذا قيل أن الأرض كانت تطوي له، و أنه كان يركب البراق إذا سار إليهم، فسؤال البداهة هنا: كيف قبل هؤلاء المؤرخون أن يسجلوا في كتبهم أن الخليل - عليه السلام - لم يزر إسماعيل - منذ أن تركه رضيعاً مع أمه هناك في واد قفر - إلا بعد أن تزوج إسماعيل - عليه السلام - و كيف قبلوا أن يسجلوا على أنفسهم أن أبا الأنبياء تخلف كل هذه الفترة عن مطالعة أحوال ولده و زوجته، و هم في أشد الحاجة إليه، و هل هذا يتفق و خلق أبي الأنبياء، كما قدمه لنا القرآن الكريم (2).

و نحن لا ننكر أن تكون قدما الخليل عليه السلام، قد تركت أثراً في الحجر، فقد علمنا من القرآن معجزات للخليل أعظم من هذه و أكبر، و لكننا ننكر أن يكون السبب في ذلك أنه أبي أن ينزل عن دابته، لأن سارة اشترطت عليه ذلك، و من ثم فإننا نشم رائحة الاسرائيليات في هذه الروايات.

و على أي حال، ففي إحدى زيارات الخليل لولده إسماعيل، عليهما السلام، و جده يصلح نبلاً له من وراء زمزم، فقال له: يا إسماعيل، إن الله قد أمرني أن أنبي له بيتاً، فقال إسماعيل: فأطع ربك، فقال إبراهيم:

قد أمرك أن تعينني على بنائه، قال: إذن أفعل، فقام معه، فجعل إبراهيم بينه، و إسماعيل يناوله الحجارة، ثم قال إبراهيم لإسماعيل ائتني بحجر حسن أضعه على الركن، فيكون للناس علماً، و ذهب إسماعيل يلتمس لأبيه حجراً، فأثابه به، و لكنه و جده قد ركب الحجر الأسود في مكانه،

ص: 193

1- مروج الذهب 2/ 20-22، ابن الأثير 1/ 104، الطبري 1/ 258-259، الحربي: المرجع السابق ص 483-484، تفسير الطبري 3/

2- ابن كثير 1/ 157، تفسير القرطبي 9/ 370

فقال: يا أبت من أتاك بهذا الحجر، فقال: أتاني به من لم يتكل على بنائك، أتاني به جبريل من السماء (1).

والحجر الأسود حجر صقيل بيضي غير منتظم، ولونه أسمر يميل إلى الأحمرار، وفيه نقط حمراء و تعاريج صفراء، وقد يكون من نوع النيازك بدليل وصفه أنه كان يتلألاً نورا، فأضاء شرقاً وغرباً، ويمينا وشمالاً، إلى منتهى أنصاب الحرم، وتلألؤه الموصوف دليل على أنه كان ذي لون غير السواد، وقد ثبت عن النبي (ص) أن الحجر الأسود كان ياقوتة بيضاء فاسود بذنوب العباد، وأنه (ص) قال: «نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم». وأما تقديس الحجر الأسود، فربما قد نجم من ارتباطه بشيء مقدس، فهو إما أن يكون رمزا للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده، بجعل هذا البيت مثابة للناس وأمنا، وإما أن يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده، بأن هذا البيت قد انتقل من ملكهم إلى الله تعالى، ليكون للناس مصلى، و مسجدا للطائفين و العاكفين و الركع السجود، ولذا فقد وضعه في الركن الأقرب إلى الباب، ليكون أول حدود هذا البيت المكرم، الذي يبتدئ منه الطائفون، واختار له اللون الأسود لسهولة تعيينه و تحديد مكانه، لذلك كان الحجر الأسود محترما من إبراهيم، محترما من ولده، مقدسا عند المسلمين إلى اليوم وإلى الغد، وإلى أن يغير الله هذه الأرض غير الأرض (2).

و هكذا بنى إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، «الكعبة المشرفة» بينا

ص: 194

-
- 1- تاريخ الطبري 1/ 250-260، تفسير الطبري 3/ 66-70، ابن الأثير 1/ 106، ابن كثير 1/ 156، 163-166، الأزرقى 1/ 58-65، تاريخ الخميس ص 113، شفاء الغرام 2/ 4-8، تفسير القرطبي 2/ 122، قصص الأنبياء ص 106، قصص القرآن ص 65-67، مروج الذهب 2/ 22، قارن: اليعقوبي 1/ 27
 - 2- علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق ص 19-20، لطفي جمعة: ثورة الاسلام ص 59، الهجرسي: كتاب الحج ص 25، و أنظر: العقد الثمين 1/ 67-68.

لله تعالى، ليكون رمزا للحقيقة الكبرى في الوجود، حقيقة التوحيد، توحيد التوجه إلى الله الواحد الأحد، وتضرع خليل الله ودعائه، و أمن إسماعيل، أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم (1)، «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (2).

وإذا كان صحيحا ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل، عليه السلام، كان في الثلاثين من عمره، يوم أمر الله عز و جل إبراهيم ببناء الكعبة (3)، فإن بناء الكعبة حينئذ يكون في حوالي عام 1824 ق. م.

على أساس أن إسماعيل قد ولد في عام 1854 ق. م، لأنه ولد لإبراهيم وهو في السادسة والثمانين من عمره، وأن إبراهيم قد عاش في الفترة (1765-1940 ق. م)، ولما كان إسماعيل قد عاش مائة وسبع و ثلاثين سنة، فإنه يكون قد انتقل الى الرفيق الأعلى في حوالي عام 1717 ق. م (4).

وقد خلد القرآن الكريم بناء الكعبة، حيث يقول سبحانه وتعالى «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ

ص: 195

1- محمد الصادق عرجون: محمد (صلى الله عليه و سلم) من نبوته إلى بعثته ص 17

2- سورة إبراهيم: آية 37 و انظر: تفسير الطبري 13/229-235، تفسير الكشاف 2/380، تفسير ابن كثير 4/141-142، في ظلال القرآن 13/2104، 2109-2110، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور 4/86-87، تفسير النسفي 2/263-264، تفسير القرطبي 9/368-374.

3- مروج الذهب 2/22، علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق ص 16

4- أنظر: كتابنا إسرائيل ص 177، 202، مقالنا قصة الطوفان بين الآثار و الكتاب المقدسة ص 434، تكوين 12: 4، 16: 25، 7: 17

إِلَيْهِ سَبِيلًا (1)» و لعل في هذه الآيات الكريمة إشارة إلى أن الحج الى البيت على المستطيع هو استمرار لغرض إلهي قديم، معترف به من الناس، و ممارس من بعضهم، فهو أول بيت وضع للناس (2)، فيه الهدى، و فيه البركة، و فيه الخير الكثير، و هو من بناء إبراهيم بما فيه من علامات هي مقام إبراهيم، و أن من دخله كان آمنا، و يلفت النظر هنا كلمة «الناس» فإنها إنما تدل على أن الحج، إنما كان على الناس كافة (3)، كما تدل كلمة «العالمين» على أن البيت الحرام، إنما هو هداية للبشرية جمعاء، و هكذا ما نرى إبراهيم يفرغ من بناء البيت، حتى يأمره ربه أن يؤذن في الناس بالحج، «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (4).

و هنا يروي ابن عباس أن إبراهيم قال: يا رب و ما يبلغ صوتي، قال أذن و عليّ البلاغ، فنأدى: أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فسمعه ما بين السماء و الأرض، و ما في أصلاب الرجال و أرحام النساء، فأجابه من آمن ممن سبق في علم الله ان يحج إلى يوم القيامة، فأجيب: لبيك لبيك، ثم خرج بإسماعيل معه إلى التروية، فنزل به منى و من معه من المسلمين، فصلى بهم الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخرة، ثم بات حتى أصبح فصلى بهم الفجر، ثم سار إلى عرفة فأقام بها هناك، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين، الظهر

ص: 196

1- سورة آل عمران آية 96-97

2- هناك رواية تنسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه، مؤداها أن رجلا سأله: أ هو أول بيت. فقال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس (أي الناس كافة) مباركا، فيه الهدى و الرحمة و البركة، و أول من بناه إبراهيم (الكشاف 1/446)، تفسير الطبري 3/69، 7/19، قارن: 20/7، 22، ابن كثير 2/299، قصص الأنبياء 106)

3- احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 173، و انظر: تفسير ابن كثير 4/631-647 تفسير المنار 4/6-14

4- سورة الحج: آية 27

و العصر، ثم راح إلى الموقف من عرفة، الذي يقف عليه الإمام، فوقف به على الأراك، فلما غربت الشمس دفع به و من معه حتى أتى المزدلفة فجمع بين الصلاتين، المغرب و العشاء الآخرة، ثم بات بهما و من معه، حتى إذا طلع الفجر صلى الغداة، ثم وقف على قرح حتى إذا أسفر دفع به و بمن معه يريه و يعلمه كيف يصنع حتى رمى الجمرة، و أراه المنحر، ثم نحر و حلق، و أراه كيف يطوف، ثم عاد به إلى منى ليريه كيف رمى الجمار، حتى فرغ من الحج، و يروى عن النبي (صلى الله عليه و سلم)، أن جبريل هو الذي أرى إبراهيم كيف يحج (1).

[2] الكعبة بعد إبراهيم و اسماعيل

ظلت الكعبة بعد إبراهيم و إسماعيل، عليهما السلام، حرماً آمناً، يقده العرب، على أنه البيت الحرام الذي بناه أبوهما إبراهيم و ولده إسماعيل، ثم ما لبثت هذه القداسة أن امتدت إلى مكة و مجاوراتها، بل إن صاحب كتاب «الاصنام» ليرى أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن، إلا و قد حمل معه حجراً من حجارة الكعبة، تعظيماً لها، و صبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه و طافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمناً منهم بها، و صبابة بالحرم و حباله، و هم بعد يعظمون الكعبة و مكة، و يحجون و يعتمرون، على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة و الحج و الاعتمار (2).

و يروي الأخباريون أن المكيين كانوا يعظمون البيت و يقدهسونه، حتى أنهم كانوا يرون أن من علا الكعبة من العبيد فهو حر، حتى لا يجمع بين

ص: 197

-
- 1- تاريخ الطبري 1/260-262، تفسير الطبري 3/76-80، الأزرقى 1/66-72، تاريخ يعقوبي 1/27، ياقوت 4/465، تفسير القرطبي 2/128-130، ابن الأثير 1/107
 - 2- راجع كتاب الأصنام لابن الكلبي، و انظر كذلك العقد الثمين 1/136، نهاية الأرب 1/245، ابن هشام 1/51

عز علوها، و ذل الرق (1)، على أن هذه القداسة للبيت الحرام، لم تكن مقصورة على المكيين وحدهم، وإنما امتدت إلى سائر العرب الذين كانوا يشدون الرحال من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية إلى مكة في مواسم معينة، ليحجوا إلى البيت الحرام وليشهدوا منافع لهم في الأسواق التجارية، التي كانت تعقد في موسم الحج من كل عام- هو الربيع على رأي، و الخريف على رأي آخر (2).

و يرى «فلهاوزن» أن الشهر الحرام المذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ، وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ» (3)، هو شهر الحج- و هو الشهر الأول من السنة، أي المحرم- بينما يرى المفسرون أنه رجب أو ذو القعدة أو ذو الحجة (4)، و يذهب المسعودي إلى أن الأشهر؛ إنما هي المحرم و رجب و ذو القعدة و ذو الحجة، و أما شهور الحج فهي شوال و ذو القعدة و عشرة من ذي الحجة (5)، و على أي حال، فلقد تحدث القرآن الكريم عن الأشهر الحرم، و رغم أنه لم يعلن عن أسمائها، و لم يزد عن أنها أربعة حرم (6)، فإن الروايات المتواترة، إنما تذهب إلى أنها: رجب و ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم (7)، و الأشهر الثلاثة الأخيرة هي أشهر الحج، فيما قبل الإسلام، أما رجب، فقد كان المكيون- فيما يرى البعض- يحتفلون فيه بعيد ديني، ربما كان خاصا بقبائل مضر أو

ص: 198

1- الثعالبي: ثمار القلوب ص 18

2- P, LES .124

3- سورة المائدة: آية 97

4- جواد علي 6/349-350 و كذا P, malsI fo, ycnE, retrohS .409

5- مروج الذهب 2/189، تفسير القرطبي 2/405، تفسير الطبري 4/115-121 (طبعة دار المعارف)، عبد المنعم ماجد: المرجع

السابق ص 81

6- سورة البقرة: آية 197، سورة التوبة: آية 5، 36

7- صحيح البخارى 6/66، ابن سعد 2/27، السهيلي 2/60، ابن كثير 5/195، مروج الذهب 2/189، احمد إبراهيم الشريف:

المرجع السابق ص 192

قبائل الحجاز أو بعضها، وربما كان هذا هو أصل حرمة، حتى يتمكن القوم من الذهاب والإياب، وأداء المناسك في ظل هدنة دينية مقدسة، حتى كان الرجل منهم إذا لقي قاتل أبيه أو أخيه أو ابن عمه، فلا يعرض له، ثم ما لبث في وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين أن أصبح واحدا من الأشهر الحرم (1).

ويذهب الأخباريون بعيدا في تقديس الكعبة، فهو لم يكن - فيما يزعمون - مقصورا على العرب، وإنما امتد كذلك إلى الهند و الفرس و إلى غيرهم، وهم يرون كذلك أن الهنود إنما كانوا يعتقدون أن روح «شبهه» - أحد آلهتهم - إنما تقمصت الحجر الأسود، عند ما زار هو و زوجته أرض الحجاز، و الأمر كذلك بالنسبة إلى الفرس الذين كانوا يعتقدون أن روح «هرمز» قد حلت في الكعبة، و يزيد المسعودي أنهم كانوا يعتقدون أنهم من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، و من ثم فقد كانوا يحجون إليها، و أن آخر من حج منهم إنما كان «ساسان بن بابك»، و إنه كان إذا طاف بالبيت زمزم على بئر إسماعيل - كما كان أسلافه يفعلون - و من ثم فقد سميت زمزم باسمها هذا (2)، و هكذا نرى الأخباريين - كالعهد بهم يحولون الهنود و الفرس إلى مقدسين للبيت الحرام، حاجين إليه، متبركين بماء زمزم، فضلا عن أن الأخيرين منهم إنما كانوا من سلالة الخليل عليه السلام (3).

ص: 199

-
- 1- نفس المرجع السابق ص 192، محمد عزة دروزة: عصر النبي ص 210-211، تفسير الطبري 930/11
 - 2- هناك رواية تنسب لابن عباس على أنها سميت زمزم لأنها من زمة جبريل، أنبأها مرتين، الأولى لآدم و الثانية لإسماعيل (الحربي: المرجع السابق ص 500، البكري 701/2)
 - 3- جواد علي 439/6، اللسان 275/12، مروج الذهب 265/1، تاريخ الخميس ص 125، ياقوت 147/3-148 عمدة القارئ 9/277، البكري 700/2، علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق ص 25.

و يمضي حين من الدهر، و يؤول أمر الكعبة إلى جرهم، إلا أن العماليق فيما يرى الأخباريون قد نازعوه في الأمر، ثم سرعان ما ينشب القتال بين الفريقين، و لا تضع الحرب أوزارها حتى تكون الغلبة للعماليق، غير أن «جرهم» ما لبثت إن استعادت نفوذها من جديد، حيث بقي الأمر فيها قرابة قرنين- وربما ثلاثة- عاد بعدهما إلى بني إسماعيل، ثم انتزعتهم خزاعة، بعد حرب دارت رحاها بين إياد و مضر، و هكذا بقي الأمر في خزاعة إلى أيام «عمرو بن الحارث»، فانتزع منه «قصي بن كلاب» الملك و أمر الكعبة معا (1).

و أيا ما كان نصيب هذه الروايات من صواب أو خطأ، فإن هناك إجماعا على أن عمرو بن لحي، كان أول من أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة، و من ثم فقد غير دين إبراهيم و إسماعيل، عليهما السلام، و دعا العرب إلى عبادة الأوثان، و لهذا يروي أبو هريرة عن النبي (صلى الله عليه و سلم)، أنه قال:

«رأيت عمرو بن لحي يجر قصبة في النار، و كان أول من سيّب السوائب»، و تضيف رواية أخرى، «و هو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام» (2).

و هناك من يذهب إلى أن ذلك، إنما حدث حين رحل عمرو بن لحي إلى مدينة البلقاء بالشام، ليستشفى من مرض أصابه، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، و حين سألهم عنها أجابوه «هذه أصنام نعبدها، نستنصرها فتنصرنا، و نستسقي بها فنسقي»، فطلب واحدا منها ليضعه في الكعبة،

ص: 200

-
- 1- مروج الذهب 22/2-24، تاريخ اليعقوبي 222/1، تاريخ ابن خلدون 332/2-335، تاريخ الطبري 284/2، الأزرقى 82/1-87، شفاء الغرام 48/2-54
 - 2- صحيح البخاري 184/4، 54/6-55، فتح الباري 398/6-400، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص 233-235، العقد الثمين 136/1، شفاء الغرام 21/2، 46-47، تاريخ الخميس ص 124، الاشتقاق 474/2، مروج الذهب 29/2-30، روح المعاني 197/7

فأعطوه صنما يقال له «هبل»، فقدم به إلى مكة و وضعه عند الكعبة (1)، ويميل بعض المؤرخين المحدثين إلى هذا الرأي، معتمدين في ذلك على أن اسم هبل، إنما هو مشتق من لفظ آرامي بمعنى الروح، هذا ويميل بعض المستشرقين إلى أن هبل إنما هو رمز إله القمر، وأن قريشا من شدة تعظيمها له، إنما وضعت في جوف الكعبة (2)، بينما يذهب فريق ثالث إلى أن صورة الحية أو تمثالها، إنما يشير إلى هبل، أو إلى هبل وود (3)، وأخيرا فهناك ما يشير إلى أن هبل إنما كان من معبودات العرب الشماليين، بدليل أن اسمه قد ورد- بجانب ذي الشري ومناة- في نقوش نبطية من الحجر، كما أن هناك أشخاصا من قبيلة كلب قد حملوا اسمه (4).

وأيما ما كان الأمر، فإذا صدقت الرواية التي تذهب إلى أن الذي جاء به إلى مكة، إنما هو عمرو بن لحي (5)، فربما كانت تلك وسيلة من وسائل عمرو وهذا، لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال، وإيناسهم بها كلما دخلوا إلى الحجاز، وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام، وهم جميعا حريصون على تقريب هذه الشقة، و حماية روادها من كل قبيل، و من ثم فقد عمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز عند الأنباط، فوضعوا في [2

ص: 201

-
- 1- مروج الذهب 2/29-30، 227، الأزرقى 1/88، 117-118، تاريخ اليعقوبى 1/254، تاريخ الخميس ص 113، بلوغ الأرب 2/200-201، ابن كثير 2/187-188، ابن هشام 1/64، تاج العروس 8/168
 - 2- جواد علي 6/253 و كذا P, neibarA, nnamhorG. A .87
 - 3- P, tic- po, nnamhorG. A .87
 - 4- P. I, sciehtE dna noigileR fo aideapolcycnE, sgnitsaH. J .664
 - 5- هناك رواية تذهب إلى أن الذي جاء بهبل إنما هو «خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر» و لذا قيل لهبل «هبل خزيمة» [أنظر: الأصنام ص 28، ابن سعد 1/39، نهاية الأرب 16/12]

الكعبة تماثيل أرباب يعبدها النبط، يعدّ منها الرواة (1) هبل واللات (2) و مناة، التي قيل أنها من المنية بمعنى «القدر المقدور» معبود النبطيين، وقولهم حانت منيته و حان قدره، بمعنى واحد عند عباد مناة (3)، وربما كان للكلمة صلة بالكلمة الآرامية «مناتا» و العبرية «منا»، و بكلمة «منية» و جمعها «منايا» في عربية القرآن الكريم، و هي بذلك تمثل الحظوظ الأمانى- و بخاصة الموت- و من ثم فهي آلهة القضاء و القدر (4)، أضف إلى ذلك أن ارتباط «مني inem» ب «جد daG» في العهد القديم، قد يشير إلى ذلك أيضا، لأن كلا منهما إنما يعني المستقبل، و إن كان الأول إنما يعنيه بمعناه الضار في أغلب الأحيان، على عكس الثاني، الذي قد يعني الحظ السعيد و المستقبل المشرق (5).

ص: 202

1- الازرقى 1/124-128، كتاب الأصنام ص 28
2- اللات: من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب، و يبدو أنها قد انتقلت إلى الحجاز على يد عمرو بن لحي من الأنباط و القبائل العربية الشمالية، و قد كانت صخرة مربعة بيضاء بنت عليها ثقيف بيتا تضاهي به الكعبة المشرفة، و كانت تخصصها بما تخص به قريش العزى، كما كانت العرب كلها تعظمها كذلك و كانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها «غبغب» حفظت فيها الهدايا و النذور و الأموال التي كانت تقدم إلى الصنم، و لما أسلمت ثقيف بعث رسول الله، (صلى الله عليه و سلم)، المغيرة بن شعبة فهدمها و حرقها بالنار، ثم أخذ الأموال التي كانت بالغبغب، و سلمها إلى أبي سفيان، امتثالا لأمر النبي- عليه الصلاة و السلام- هذا و قد جاء ذكر اللات- بجانب العزى و مناة- في القرآن الكريم (سورة النجم: آية 19- 23، و أنظر: كتاب الأصنام ص 16، 19، 27، 43، ياقوت 4/5، تفسير ابن كثير 4/253، محمد عبد المعين خان: الأساطير العربية قبل الإسلام ص 119، اللسان 2/388، جواد علي 6/229، تاريخ الطبري 3/99، البداية و النهاية 1/149، ابن هشام 2/326، موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص 360، تفسير الطبري 23/67-69، روح المعاني 23/135)

3- عباس العقاد: المرجع السابق ص 59

4- P. P, smutnedieH nehcsibarA etseR, nesuahlleW. J 215 -214 P. P malsI ' tnavo droN ud sedarA te. 25- 29
J. sneetabaN, sneinerymlaP, ykcratS.
5- P. P, tic- po, sgnitsaH. J. 275, 604 -5

على أن هناك من يرى أن «مناة» لا تمثل القدر، الذي تمثله مناتو البابلية، و«منا» العبرية، ذلك لأن الدهر في تصور العرب و الشعراء الجاهليين رجل، لا امرأة، وقد يفسر هذا استقسام العرب عند هبل و ذي الخليفة بالأزلام، و حلفهم فقط أمام مناة، و يؤكد صفة مناة كذلك أن سيفي الحارث الغساني (مخدوم و رسوب) عثر عليهما على بن أبي طالب رضي الله عنه عند مناة حينما هدمت، لأن السيف رمز العدالة، و الإنصاف عند أهل البادية (1).

و أيا ما كان الأمر، فلقد لعبت أيدي الوثنية الخبيثة بدين إبراهيم الحنيف، و أصابت النكسة عقيدته السمحاء- التي قضى عمره يرفع لواءها في كفاح طويل و جهاد موصول، فحطم الأصنام و تحدى الجبابرة- و هكذا انقلب القوم إلى عبادة الأصنام، و جهلوا سر الفداء، و سر البقاء، و بدأ عصر الوثنية و تقديس الأصنام، إلى درجة أن الرجل منهم كان يأخذ معه في أسفاره أي حجر من أحجار الكعبة، يصل إلى، و يستأذنه في الإقامة و السفر، و يؤدي إليه كل ما يؤدي للنجوم و خالق النجوم من طقوس العبادة، و من ثم فقد استقرت الوثنية و قدست التماثيل و قدم العرب لها القرابين (2).

و يروي الأخباريون أن الجاهليين كانوا قد وضعوا «أسافا» و «نائلة» داخل المسجد الحرام، وضعوا كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف إذا طاف بدأ بأساف فقبله و ختم به، و إن كانت هناك رواية أخرى تذهب إلى أنهما قد وضعوا على الصفا و المروة، و أن عمرو بن لحي هو الذي نقلهما إلى الكعبة، و نصبهما على زمزم، و على أي حال، فيبدو أن

ص: 203

1- عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب 1/ 640

2- ابن كثير 2/ 191-192، الأزرقى 1/ 123، كتاب الاصنام ص 32، حياة محمد ص 100

قداسة هذين الصنمين، إنما كانت مقصورة على قريش، وأن القبائل الأخرى لم تكن تشاركها في تقديسهما، وربما كان هذا هو السبب في الروايات التي دارت حولهما، وأنهما صنمان استوردتهما القوم من الشام، وإن ذهبت روايات إلى أنهما من اليمن، من جرهم، هذا وقد نصب القرشيون كذلك على جبل الصفا صنما يقال له «مجاور الريح»، وآخر على جبل المروة، دعوه «مطعم الطير» (1).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القوم لم يكونوا شديدي الإيمان بأصنامهم؛ حتى أن العرب كانت إذا حجت إلى الكعبة، سألت قريشا عن تلك الأصنام، فكانوا يقولون لهم، إنما نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (2)»، وفي هذا إشارة إلى أن القوم إنما كانوا يعتقدون بوجود الله، ولكنهم يخلطون إيمانهم هذا بعبادة الأصنام واتخاذ الأولياء والشفعاء لتقربهم إلى الله زلفى (3)، هذا إلى أن قريشا إنما كانت تلبيتها عند الكعبة «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» (4)، هذا فضلا عن قلة احتفاء الجاهلين بتلك الأوثان والأصنام التي لا نجد لها ذكرا، إلا في مناسبات معينة، كما أنها لم تحل عند القوم محل الله، كما اتفق عند غير العرب، وعند غير الساميين على الأخص (5).

ص: 204

-
- 1- مروج الذهب 2/ 23، تاريخ يعقوبي 1/ 254-155- تاريخ الطبري 2/ 241، 284، ياقوت 1/ 170، الأزرقى 1/ 88، 119-122، ابن حبيب ص 311، ابن كثير 2/ 191، تفسير القرطبي 2/ 179-180، العقد الثمين 1/ 212، الروض الأنف 1/ 64-65، ابن هشام 1/ 86، جواد علي 6/ 267
 - 2- سورة الزمر: آية 3
 - 3- أنظر: سورة الانعام: آية 148، سورة النحل: آية 35، سورة الزمر: آية 3
 - 4- تاريخ يعقوبي 1/ 255، ابن حبيب ص 311
 - 5- عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ص 159

وأيما كان الأمر، فيبدو أن الأساس المهم الذي قامت عليه مكانة الكعبة، أن البيت الحرام بجملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور إلى الأصنام والأوثان التي اشتمل عليها، وربما اشتمل على الوثن تقدسه بعض القبائل، و تزديده قبائل أخرى، فلا يغض ذلك من مكانة «البيت» عند المعظمين والمزدرين، و اختلفت الشعائر والدعاوى التي يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه، و لم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون إلى جواره و المكلفون بخدمته، فكانت قداسة البيت هي القداسة التي لا خلاف عليها بين أهل مكة و أهل البادية، و جاز عندهم - من ثم - أن يحكموا بالضلالة على أتباع صنم معلوم، و يعطوا البيت غاية حقه من الرعاية و التقدير (1).

و على هذا كان يتفق في موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب، يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية و اليهودية و المسيحية و عبادات الأمم المختلفة، و لا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد، و ما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها و جملة معناها كالصلاة و الصوم و الزكاة و الطهارة، و مناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله (2).

و ظلت خزاعة تتولى شئون الكعبة، حتى نجحت قريش آخر الأمر في أن تنتزع القيادة منها، و هنا يحلوا للأخباريين أن يقدموا لنا رواية غريبة و عجيبة في نفس الوقت، فيرون أن الاسكندر المقدوني خرج من السودان متجها نحو اليمن، و هناك قابله «تبع الأقرن» ملك اليمن، و قدم له الولاء و الخضوع، و بعد أن أقام الاسكندر في صنعاء شهرا، اتجه إلى تهامة، و في

ص: 205

1- العقاد: مطلع الثور ص 115

2- نفس المرجع السابق ص 116

مكة- حيث السيادة لخزاعة- قابله «النضر بن كنانة»، فأعجب به، و من ثم فقد ساعده على إخراج خزاعة من مكة، وجعل السلطان فيها مقصورا على النضر و بني أبيه، ثم حج الاسكندر، و فرق الهبات و الهدايا في ولد «معد بن عدنان»، ثم عاد إلى الغرب (1).

و ليس من شك في أن ذلك كله، ليس له نصيب من صواب، وأنه لا- يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير، لست أدري ما الذي دفع بصاحبها إلى القول بها، و لعل أهم ما يلاحظ عليها: (أولا) أن الاسكندر الأكبر (336-323 ق. م) لم يذهب إلى السودان أبدا، و بالتالي فلم يعبر البحر الأحمر إلى عدن، ثم اليمن، و (ثانيا) أن صنعاء لم تكن عاصمة اليمن في القرن الرابع قبل الميلاد (2)- عصر الاسكندر- كما أن تبع الاقرن هذا لم يكن ملكا بها، و أما (ثالثا) فإن الاسكندر الأكبر لم يكن يؤمن بالبيت الحرام، حتى يحج إليه، فضلا عن أن يجعل أمر مكة بيد «النضر بن كنانة»، بدلا من خزاعة، و (رابعا) فإن الاسكندر قد حاول السيطرة على الجزيرة العربية- أو على الأقل على شواطئها- و من ثم السيطرة على طرق التجارة .

ص: 206

1- الدينوري: الأخبار الطوال ص 33-34

2- يرجع ظهور صنعاء (صنعو) إلى أيام الشرح يحضب، أي إلى النصف الثاني من القرن الأول ق. م. - (emmaJ. .390, tic- po, P, A) و إن ذهب فلبني إلى أنها كانت في الفترة 125-105 ق. م. - (P, tic- po, ybihP. B. J. 142)، و على أي حال، فلقد تردد اسمها في النصوص التي ترجع إلى ذلك العهد، مثل (emmaJ 575)، و في أيام الحروب التي دارت رحاها بين الشرح يحضب و شمر ذي ريدان، كما نعرف من نقش - 577 (emmaJ)، و أن الرجل - كما يدلنا نقش - 535 YR - قد بنى قصر غندان (غمندان)، لما بنى «شعر أوتر» سورها (أي سور صنعاء)، ثم بدأت المدينة تظهر بين المدن اليمنية القديمة من تلك الفترة، حتى غدت آخر الأمر عاصمة اليمن و مقر الحكام حتى الآن (أنظر: جواد علي 2/ 442، اللسان 3/ 327، قارن: ياقوت 3/ 426-427، 4/ 210، البكري 3/ 843، و انظر كذلك: P ,1960 ,sbarA eht fo yrotsiH ,ittiH .K .P ,19 .P ,1953 neibaraduS nehcsimalsiroV sed eihpargoeG. 57 nehcsirotsiH ruZ egartieB ,renfoH .M :dna nnamssiW noV .H

البحرية، و انطلاقا من هذا فقد أرسل حملات الاستكشاف من السويس و من الخليج العربي، و لكن المحاولة قد توقفت بسبب وفاته في بابل، في الثامن عشر من يونية عام 323 ق. م (1)، و يبدو أن هذه الحقيقة الأخيرة قد اختلطت بغيرها عند الأخباريين و كانت النتيجة تلك الأسطورة الآتفة الذكر.

على أنه ليس من الغريب على أصحابنا الأخباريين أن يجعلوا الاسكندر الأكبر يدخل مكة، فضلا عن أن يكون رجلا مؤمنا يحج إلى بيت الله الحرام- و هو الذي لم يكتف بتأليه نفسه عند الشرقيين، و إنما فعل ذلك في بلاد اليونان نفسها كأثينا و إسبرطة (2)- ما داموا قد جعلوه من قبل أحد اثنين من المؤمنين حكموا الدنيا بأسرها (3)، و ما داموا قد جعلوا من أسلاف الفرس من حج إلى بيت الله الحرام، و ما دام الخليل عليه السلام قد أصبح- في نظرهم- واحدا من أجدادهم، و من ثم فقد ربطوا نسب الفرس بنسب العرب العدنانيين، و ما دام «ساسان» قد جاء إلى الكعبة، و طاف بالبيت العتيق، و زمزم على بئر إسماعيل، ثم أهدى الكعبة غزالين من ذهب، و جواهر و سيوفا و ذهبها كثيرا (4).

و على أي حال، فمن المعروف أن أمر الكعبة قد آل إلى قريش مرة أخرى في عهد «قصي بن كلاب»- الجد الرابع لرسول الله (صلى الله عليه و سلم) و أصبحت مكة مركزا للحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية، بسبب وجود الكعبة فيها، و في الواقع أنه رغم وجود «البيوت الحرام» في بلاد العرب،

ص: 207

-
- 1- و. و. تارن: الاسكندر الاكبر ص 185-187، فضلو حوراني: العرب و الملاحة في المحيط الهندي ص 55
 - 2- ثاران: المرجع السابق ص 178-180
 - 3- انظر: الطبري 1/234، ابن كثير 1/148
 - 4- مروج الذهب 1/265، جواد علي 4/16

كبيت الأقيصر وبيت ذي الخليفة وبيت صنعاء وبيت نجران، وغيرها من البيوت الحرام (1)، فإن واحدا من هذه البيوت لم يجتمع له ما اجتمع لبيت مكة، ذلك لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها، فليست في مكة دولة كدولة التبابعة في اليمن، أو المناذرة في الحيرة، أو الغساسنة في الشام، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الامارات العربية المتفرقة على الشواطئ أو بين بوادي الصحراء، فمكة إذن مثابة عبادة وتجارة، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالى من عداه، وهي إن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها، فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق، الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يشرون كل ما دخلها من تجارة (2).

أضف إلى ذلك أن مكة كانت عربية لجميع العرب، ولم تكن كسرية أو قيصرية، ولا تبعية أو نجاشية، كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب، ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة، لا على حكم القهر والإكراه (3).

ص: 208

1- ياقوت 1/238، 3/427، 4/394-395، 5/268-269، بلوغ الأرب 1/346-347، 2/202، 207-209، 212، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ص 493، كتاب الاصنام ص 38، البكري 2/603، الروض الأنف 1/66، تاج العروس 3/397، ابن حبيب: كتاب المحير ص 317

2- العقاد: مطلع النور ص 112-113

3- نفس المرجع السابق ص 113

وقد عملت قريش على توفير الأمن في منطقة مكة، وهو أمر ضروري في بيئة تغلي بالغايات و طلب الثأر، حتى يكون البيت الحرام ملاذا للناس وأمنًا، وحتى يجد فيها من تضيق به الحياة ويتعرض لطلب الثأر، الأمن والحماية، ولعل هذا هو السبب في أن تحافظ قريش على حرمة الأشهر الحرم في موسم الحج، حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم.

ولم تكتف قريش بذلك، وإنما عملت على توفير الماء والطعام للحجيج في منطقة يشح فيها الماء، ويقل الطعام، ومن ثم فقد قامت بحفر الآبار في منطقة مكة وأنشأت أماكن للسقاية، ثم أوكلت سقاية الحاج إلى البطون القوية (1)، وهكذا غدت سقاية الحج - بجانب عمارة البيت وسدائنه - عملاً يراه القوم في قمة مفاخرهم، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (2).

وكانت ضيافة الحجيج عملاً لا يقل عن سقائتهم، وقد أسندتها قريش إلى الأغنياء من رجالاتها، لأن قدوم الحجاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية، يصعب معه حمل الزاد، ومن ثم فقد كانت الرفادة تكلف أصحابها الكثير من أموالهم، بجانب ما تقدمه قريش لهم، إلا أن هذا الأمر في الوقت ذاته، قد أفاد قريشا كثيرا، إذ كانت المؤاكلة في عرف العرب، إنما هي عقد جوار وحلف، فضلا عن أن الضيافة في ذاتها من أكبر ما يحمد الرجل عليه، وهكذا كانت قريش بعملها هذا، وكأنها تعقد حلفا مع كل القبائل العربية، تحمي به تجارتها، وتسبغ على رجالاتها نوعا

ص: 209

1- ابن هشام 1/159-162

2- سورة التوبة: آية 19، وانظر: تفسير الطبري 14/168-173، تفسير ابن كثير 3/373-374، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور 3/218، تفسير القرطبي 8/91-92، تفسير المنار 10/215-220.

من التقدير و الاحترام عند العرب، لا يتوفر لغيرهم (1).

و خطت قريش خطوة أخرى في اجتذاب القبائل العربية إلى مكة، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة، فكان لكل قبيلة أوثانها، تقدم في الموسم لزيارتها و تقديم القرابين لها، و زاد عدد الأصنام عند الكعبة على ثلاثمائة صنم، فيها الكبير و الصغير، و منها ما هو على هيئة الأدميين أو على هيئة بعض الحيوانات او النباتات، و كان أكبر الأصنام «هبل» في صورة انسان من عقيق أحمر (2).

و هكذا تمضي الأيام و تزداد مكانة الكعبة عند العرب، حتى تصبح آخر الأمر المفخرة القومية و الحرم الإلهي عندهم، ثم تغدو بعد حين من الدهر، الحوار الوحيد الذي يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة، عالية الرأس، غير مستكينة لأجنبي كائنا من كان، ذلك لأنهم كانوا يحسون أنهم من رعايا الروم في الشام، و من رعايا الفرس في الحيرة، و أتباع للحبشة أو الفرس في اليمن، و لكنهم هنا- في مكة- عند بيت الله، في حرم الله، يقدسونه جميعا، لأنه لهم جميعا، يضمهم إليه كما يضم أوثانهم و أصنامهم و أربابهم، يلوذون به، و يأوون إليه، فكلهم من معبود و عابد في حمي الكعبة، لأنهم في بيت الله، و شعورهم هنا، بأنهم «عرب» لم يماثله شعور قط في أنحاء الجزيرة العربية، و قد أوشك أن يشمل شعب اليمن و جمهرة أقوامه، على الرغم من سادته و حكامه، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانها و يقيموا لها نظيرا في أرضهم، لو كان شعب اليمن منصرفا عنها، غير معتر بها، كاعتزاز البادية و الصحراء (3).

ص: 210

1- ابن هشام 1/147، ابن سعد 1/58

2- اليعقوبي 1/254-255، الروض الانف 2/276، الأزرقى 1/120-121، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي 1/37،

جوستاف لوبون: حضارة العرب ص 124، كتاب الأصنام ص 27-28، G. E. nobbi P, 5, tic- po,

3- العقاد: المرجع السابق ص 56

ولعل هذه المكانة الفريدة للكعبة عند العرب هي التي دفعت بأصحاب السلطان والقوة في تلك الأيام محاولة هدم الكعبة، أو على الأقل انضوائها تحت لوائهم، وأول هذه المحاولات- طبقا لرواية الأخباريين- ما كان من «تبان أسعد أبو كرب» حين قدم من المشرق إلى المدينة غازيا، فجاءه حبران من يهود بني قريظة، ونصحاها أن لا يفعل، فإن أبي حيل بينه وبين ما يريد، فضلا عن عقاب سوف يناله، معللين ذلك بأن المدينة سوف تكون مهاجر نبي سوف يخرج من قريش، وهكذا صرف الحبران «تبع» عن تدمير المدينة- أو يثرب كما كانت تدعى- فضلا عن إيمانه بدينها، بل إن البعض إنما يذهب إلى أن الرجل ما أن سمع عن النبي، (صلى الله عليه وسلم)، من هذين الحبرين اليهوديين، إلا وقال فيه شعرا، يشهد فيه له بالنبوة، ويتمنى أن يعيش حتى يراه، فيكون له وزيرا و ابن عم، فضلا عن القتال إلى جانبه و تفريج همومه، لأنه كان على علم بما سيلاقيه الحبيب المصطفى- صلوات الله عليه- من قومه من أذى (1).

ويتجه «تبع» صوب مكة في طريقه إلى اليمن، حتى إذا ما كان بين «عسفان» و «أمج»، أتاه نفر من هذيل يغرونه بسلب البيت الحرام، و يستفتي تبع أحبار يهود في هذا الأمر، فيصدقونه النصح قائلين «ما نعلم بيتا لله عز و جل اتخذته لنفسه في الأرض غيره»، وأنه إن قبل ذلك الأمر، كان فيه هلاكه، و يعلم «تبع» أن الصدق ما نصحا به الحبران اليهوديان، فينتقم من هذيل، ثم يمضي إلى مكة، فيطوف بالبيت العتيق، و ينحر الذبائح عنده، ثم يقيم بمكة ستة أيام، يرى أثناءها- فيما يرى النائم-

ص: 211

1- ابن كثير 2/163-164، تفسير ابن كثير 4/142، جواد علي 2/514-515، بلوغ الأرب 2/170، 240-241، ابن خلدون 2/52، مروج الذهب 1/82، اليعقوبي 1/197-198، الأزرقى 1/132-134

و كأنه يكسو البيت الحرام، و تتكرر الرؤيا ثلاث ليال، و يفعل «تبع» ما أمر به في منامه، و هكذا كان الرجل - فيما يزعم الأخباريون- أول من كسا البيت ثم يعود إلى اليمن (1).

و لعل سائلا يتساءل: أ كان تبع يقول الشعر بلغة قريش- كما يقدمه لنا الأخباريون- و نحن نعرف أنها تختلف كثيرا عن لغة حمير، حتى ذهب الأمر بعلماء العربية في الإسلام إلى إخراج الحميرية و اللهجات العربية الأخرى من العربية، التي جعلوها مقصورة على العربية التي نزل بها القرآن الكريم، و حتى قال بعضهم «ما لسان حمير و أقاصي اليمن بلساننا و لا عربيتهم بعريتنا» (2).

ثم كيف فات هؤلاء الرواة ان يجعلوا «تبعاً» هذا، ابن عم المصطفى- صلوات الله و سلامه عليه- و هم الذين ملئوا صفحات كتبهم بأن العرب ليسوا جنسا واحدا، و إنما هم عرب عاربة- و هم القحطانيون و منهم تبع- و عرب مستعربة- و هم العدنانيون، و منهم رسول الله، (صلى الله عليه و سلم).

ثم من أين عرف الحبران اليهوديان أن هناك نبيا سوف يبعث من قريش، و مبلغ علمي أن التوراة لم يرد فيها نص يفيد ذلك أبدا، صحيح أن هناك نصوصا تؤكد مبعث نبي من العرب، و لكن صحيح كذلك أنها لم تشر إلى أنه من قريش، و أما هذه النصوص، فقد جاءت في سفر التثنية (18: 15-19). و في سفر أشعيا (42: 10-13)، يقول النص الأول ها

ص: 212

1- ابن كثير 2/164-167، تفسير الخازن 4/115، 175، اللسان 8/31، اليعقوبي 1/198، ابن خلدون 2/52-53، العقد الثمين 1/71، الازرقى 1/249-250، قارن: تفسير الطبري 25/128-149، تفسير البيضاوي 2/376-377، تفسير القرطبي 16/145-146، المعارف لابن قتيبة ص 275-276

2- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ص 4 و ما بعدها

«و يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون» و يقول «أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك و اجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه، و يكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطلبه».

ثم أليس من المضحك المبكي أن يجعل أصحابنا الأخباريون اليهود أشد حرصا على الحفاظ على الكعبة، و أكثر توقيرا لها من العرب أنفسهم، بل لا يتأنى هؤلاء الرواة في كتاباتهم حين يجعلون من اليهود بالذات هداة ملوك العرب إلى مكانة الكعبة المشرفة و أهميتها، و أن يصرحوا- كما يزعم الرواة بأن الله لم يتخذ له في الأرض بيتا غيرها، فإذا كان ذلك كذلك، فلم لم يحج اليهود إليها، ثم ما هو الموقف بالنسبة إلى المسجد الأقصى، أو هيكل سليمان كما يسميه اليهود.

ثم من أين عرف «تبع» هذا، أن الرسول- صلوات الله و سلامه عليه- سوف يسمى «أحمد»، و مبلغ علمي- مرة أخرى- أن ذلك لم يرد في النصوص العربية، و إنما كان ذلك في الإنجيل- و ليس في توراة اليهود الذين أخذ عنهم تبع معلوماته عن النبي- حيث يخبرنا القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى- على لسان المسيح عليه السلام- «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ، وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ»⁽¹⁾، و كيف آمن «تبع» برسول الإسلام الأعظم، قبل مبعثه

ص: 213

1- سورة الصف: آية 6 و انظر: تفسير البيضاوي 473/2-474، تفسير الكشاف 98/4-99، تفسير ابن كثير 646/6-648 (دار الاندلس- بيروت)، تيسير العلي القدير 229/4-230، تفسير الطبري 87/28، تفسير الطبرسي 60/28-62 تفسير القرطبي 83/18-84، تفسير أبي السعود 161/5، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور 213/6-214، تفسير روح المعاني 85/28-87، في ظلال القرآن 3549/28، 3555-3558

بنحو من سبعمئة عام (1)، كما يروي الأخباريون (2)، ألمجرد أن الحبرين اليهوديين أخبراه أن يثرب سوف تكون مهاجر نبي يخرج من قريش، لا أظن أن ذلك سببا كافيا لإيمانه بنبي كان حتى تلك اللحظة في ضمير الغيب.

و من ثم فأكبر الظن أن هناك- بجانب أثر الاسرائيليات في هذه الروايات- هدفا من ورائها، وأن هذا الهدف، إنما هو رفع شأن القحطانيين إبان النزاع السياسي بينهم وبين العدنانيين، و من ثم فإن هذه الروايات جد حريصة على أن تقدم لنا «تبعا» و قومه، في صورة أفضل بكثير من صورة العدنانيين بصفة عامة- و القرشيين بصفة خاصة- فهم، أي القحطانيين، أول من قال الشعر في مدح المصطفى (صلى الله عليه و سلم)، فعل ذلك سبأ (3)، و يفعله الآن «تبع» كما تقدمه لنا هذه الروايات، بل إن «تبع» ليزيد هنا عقده العزم، على أن يكون حربا على من حاربه، و سلما لمن سالمه، فضلا عن أن يصبح له وزيرا و ابن عم، و (ثانيا) أن القحطانيين كانوا على علم باسم المصطفى، (صلى الله عليه و سلم) أما كيف كان ذلك، فليس لدى الأخباريين من أصحاب هذه الروايات علم بذلك، فإن الهدف إنما كان أن القحطانيين، إنما كانوا يعرفون اسم النبي الأعظم قبل مولده بسبعة

ص: 214

1- اختلف العلماء في فترة حكم «أبي كرب أسعد» فإراها نلسن في الفترة (400-415 أو 420 م) P. B. J. 116. p. p, tic- po, yblih. و كذا (N. D. 104. p, tic- po neleini) و يراه هومل في الفترة 385-420 م [فريتز هومل: التاريخ العربي القديم ص 108] و يراه فليبي في الفترة 378-415 م (] P. B. J. 269. p, abas fo sgniK tsL eht no etoN, yblih) ، و يذهب الدكتور جواد علي أن الرجل استمر يحكم حتى عام 430 م [جواد علي 571 / 2 و كذا 492. NOESUM eL. 4- 3, 1964, P] و هذا يعني أن الفترة بين موت أبي كرب أسعد و مولد الرسول (صلى الله عليه و سلم) لا تصل حتى إلى قرنين من الزمان، و ليست سبعة قرون

2- تفسير ابن كثير 4 / 144

3- ابن كثير 2 / 158-159

قرون، بينما لم يكن العدنانيون، على علم بذلك حتى قبيل مبعث المصطفى - صلوات الله و سلامه عليه- و (ثالثا) تقديم القحطانيين في صورة قوم مؤمنين، كسوا البيت الحرام، و عمروه أكثر من مرة، ثم قدروا مكاتته قبل ظهور الإسلام بقرون- حتى إن كان اليهود هداتهم إلى ذلك.

و أخيرا، فإن هذا الإلحاح على أن التبابعة كانوا يؤمنون بإله واحد، و برسالة محمد (صلى الله عليه و سلم) ثم الإلحاح لذلك على عدم جواز سبهم، إنما قد يدل على أن هناك من كان يسب التبابعة و يلعنهم، و لعل هذا السب، و ذلك اللعن، لم يكن موجها بالذات إلى التبابعة، و إنما كان على اليمنيين بخاصة، و القحطانيين بعامة، و من هنا كان هذا الإلحاح على عدم السب، بل ربما وضعت أحاديث للرد على هذه الحملة- ربما العدنانية- ضد القحطانيين (1).

و أما المحاولة الثانية، فهي التي قام بها «حسان بن عبد كلال»، و ذلك حين أقبل من اليمن، «في حمير و قبائل من اليمن عظيمة، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن، ليجعل حج البيت عنده في بلاده»، و هناك عند «نخلة» خرج له القرشيون- بقيادة فهر بن مالك، و دارت بين الفريقين معركة ضارية، كان النصر فيها من نصيب قريش، و الهزيمة- بل و الأسر كذلك في مكة ثلاث سنوات- من نصيب حسان بن عبد كلال (2)، فإذا كان ذلك كذلك، فإن حملة أبرهة المشهور على مكة، كانت لها على الأقل سابقة يمنية من قبل، ثم إذا ما تذكرنا أن هناك من يرى أن عبد كلال، إنما قد اغتصب عرشه بعون من اكسوم (3)، فهل هذا يعني أن

ص: 215

1- جواد علي 515/2-516

2- الهمداني: الإكليل 357/2-359، الطبري 262/2-263

3- يرى «فلبلي» أن الرجل كان كاهنا و شيخا لقبيلة، و أنه استطاع أن يغتصب العرش لمدة خمس سنين، بمساعدة الأحباش. [أنظر: 260.

P, malsI fo dnuorgkcaB ehT, yblihP. B. J .143 و قارن: P, sdnalhgiH, naibarA yblihP. B. J

الحبيشة النصرانية كانت من وراء تلك الحملة، لست أدري، فتلك أخبار لا يوثق بها كثيرا، ثم إن الهمداني يرفض القصة من أساسها، وإن كان البعض يتهمه بأنه يمّني متعصب، لا يؤيد حربا تنتصر فيها قريش على اليمن، ثم يضع وزر نقل حجارة الكعبة من مكة الى اليمن على عاتق «هذيل بن مدركة» أحد سادات مكة (1)، وهو أمر لا نطمئن إليه كثيرا.

وسواء أضح هذا، أم كان مجرد ظن من الأخباريين، فهناك إشارات الى محاولة ثالثة حدثت في القرن الأول قبل الهجرة، وذلك حين بنت غطفان حرما كحرم مكة، ثم حاولت أن تصرف العرب إليه، غير أن سيّدا من سادات العرب، رفض ذلك، وقال «لا والله لا يكون ذلك أبدا وأنا حي»، واتبعه قومه حين قال لهم «إن أعظم مآثرة ندخرها عند العرب أن نمنع غطفان من عرضها»، وقاتل غطفان وظفر بهم وأبطل حرمهم (2).

وأما رابعة المحاولات، فكانت تلك التي قام بها أبرهة الحبشي في حملته المشهورة على الكعبة المشرفة، واليهما يشير القرآن الكريم في سورة كاملة هي سورة الفيل، يقول سبحانه وتعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّمٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ»، وفي هذا العصف المأكول كان أبرهة نفسه، فضلا عن القضاء على جيشه، الأمر الذي ناقشناه بالتفصيل في دراستنا عن «العرب وعلاقتهم الدولية

ص: 216

1- الإكليل 359/2، جواد علي 585/2

2- محمد حسين هيكل: في منزل الوحي ص 415

وفكر الرومان- كمحاولة خامسة- في ضرب مكة من داخلها، بعد أن فشلت كل جهودهم في الاستيلاء عليها، وذلك أن الإمبراطورية الرومانية بعد أن انقسمت إلى شرقية وغربية، سرعان ما اتخذت بيزنطة من المسيحية وسيلة لنشر نفوذها في بلاد العرب، فتعمل على إرسال البعثات التبشيرية، كما تنجح في تنصير الحبشة، و من ثم فإنها تستطيع ان تؤمن تجارتها هناك، فضلا عن بسط نفوذها عن طريق الأحباش أنفسهم، إلا أنها لم تحاول ان تتدخل في شئون بلاد العرب بطريقة مباشرة، و من ثم فقد كانت وراء حملة أبرهة على مكة (2)، و حين فشلت هذه، و طرد الأحباش من اليمن (3)، لجأت إلى وسيلة أخرى، تستطيع أن تحكم بها مكة، و لكن عن طريق سيد من

ص: 217

-
- 1- أنظر: مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية- العدد السادس- عام 1975 ص 400- 412 (مقال للمؤلف عن «العرب و علاقاتهم الدولية في العصور القديمة») و عن حملة أبرهة هذه: أنظر كذلك: ابن الأثير 1/ 442-447، تاريخ الطبري 2/ 130-139، تفسير الطبري 2/ 188، 30/ 193-194، تفسير القرطبي ص 7277-7290 (طبعة الشعب)، في ظلال القرآن 8/ 664-675، تفسير الألويسي 30/ 232-237، نهاية الأرب 1/ 251-264، تفسير البيضاوي 2/ 576، البيهقي: دلائل النبوة 1/ 56-57، الكشاف 3/ 288، ابن كثير 2/ 170-176، تفسير ابن كثير 8/ 503-511، صحيح الأخبار 4/ 21-22، أعلام النبوة ص 149 و كذا P, I, .180، P, D. A yrutneCeht 6 eht .435 و كذا P, 66, 1964, 279- 277. PP, 364, 1953, noesuM eL .275 و كذا siupocorP و كذا ni aibarA ni stnevE, htimS. S
- 2- احمد إبراهيم: المرجع السابق ص 154-155، جواد علي 3/ 518، و كذا P, I, suipocorP .180 و كذا P, tmemorivnE. 40، O' yrael, aibarA, erofeb, dammahuM, P, 184. R, lleB, ehT, nigirO fo nialsI sti ni sirhC nait
- 3- ابن الاثير 1/ 449-451، ابن كثير 2/ 177-178، الدينوري: الأخبار الطوال ص 64، ابن خلدون 2/ 63، الطبري 2/ 146-148، اليعقوبي 1/ 200، مروج الذهب 2/ 56، جواد علي 3/ 521-523، المقدسي 3/ 190-195، قارن: المعارف ص 278

وهكذا اختار قيصر، عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، ليكون ملكا على ملكة من قبله، وكتب له رسالة يبلغها قومه، ومن ثم فقد عاد عثمان إلى مكة، فجمع القوم إليه يرغبهم في حسن الجزاء من قيصر، وينذرهم بسوء العاقبة في الشام، إذا هم عصوه، وأهون ما هنالك ان يغلق ابواب بلاده في وجوههم، وهم يذهبون إليها ويعودون منها كل عام (1)، يقول عثمان بن الحويرث: «يا قوم، إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده، وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم، وأنا ابن عمكم وأحدكم، وإنما أخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب، فأجمع ذلك كله، ثم أذهب إليه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك، أن يمنع منكم الشام، فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه (2)».

وليس من شك في أن هذه المحاولة الرومية السياسية، إنما غرضها- كما هو ظاهر- غرض تلك المحاولة الحبشية العسكرية، وأن المحاولتين قد فشلتا، وبقيت مكة- كما أراد الله- حرما آمنا للعرب، وغير العرب، وبذلت قريش في المحاولتين جهدها، لإخفاق الواحدة تلو الأخرى، وليس من شك في أن الأولى كانت أشد خطرا، وان دفعت في الثانية ببعض رجالها، يقضون في سجون القيصر فترة لا تدري مداها على وجه التحقيق، ثم سرعان ما عادت الأمور إلى سيرتها الأولى (3).

ص: 218

1- العقاد: المرجع السابق ص 114-115، حياة محمد: ص 127-128

2- ابن هشام 1/224، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص 118، الروض الآنف 1/146، الأغاني 3/112

3- احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 162-163، السهيلي: الروض الآنف 1/146 وكذا M. W. ttaWUM. dammah, 1953. P.

وهكذا يبدو وبوضوح، أن كل هذه المحاولات: السياسية والعسكرية- تثبت قيام كعبة الحجاز على كره من ذوي السلطان في الجنوب و الشمال، وفي كل المحاولات استطاعت الكعبة أن تحفظ مكانها، على الرغم من خلو مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها، بل إنها إنما استطاعت ذلك لخلوها من العروش وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص، وعلى تمثيل جملة العرب بمأثوراتهم، ومعبوداتهم، دون أن يسخرهم المسخرون، أو يستبد بهم فريق يسخرهم تسخير السادة للأتباع المكرهين على الطاعة وبذل الإتاوة (1).

وهكذا كان المكيون يشعرون بمكانة الكعبة عند العرب عامة، و من ثم فقد كانوا يرون لأنفسهم ميزة لا يتناول إليها غيرهم من العرب، لأنها تتصل بكرامة البيت الحرام و حرمة، فهم أهله وأولياؤه، وهم سدنته والقائمون بالأمر فيه، يسقون الحجيج و يطعمونهم، و يوفرون لهم الأمن و الراحة، و من ثم فقد نشأ عندهم ما يسمى بنظام «الحمس»، و يعنون به ابن البلد و ابن الحرم و الوطني المقيم، و الذي ينتمي إلى الكعبة و المقام، فهو امتياز لأبناء الوطن و أهل الحرم و ولاية البيت قطان مكة و ساكنيها (2)، و لهذا فقد نادوا بين الناس: «نحن بنو إبراهيم و أهل الحرم و ولاية البيت و قاطنو مكة و ساكنوها فليس لأحد من العرب مثل حقنا، و لا تعرف له العرب ما تعرف لنا» (3).

و كان الحمس إذا زوجوا امرأة منهم لغريب عنهم، اشترطوا أن يكون أبناؤها منهم، ثم جعلوا لأنفسهم علامة، و هي ألا يعظم الأحمس شيئاً

ص: 219

1- العقاد: مطلع النور ص 115.

2- الخربوطلي: المرجع السابق ص 50، قارن: شفاء الغرام 2/ 43، ابن هشام 1/ 199

3- الأزرقى 1/ 176، ابن هشام 1/ 216، تفسير الطبري 4/ 188

من الحل - أي الأرض التي وراء الحرم- كما يعظم الحرم، وقالوا: «إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم، ولهذا فقد ترك الحمس الوقوف بعرفة، لأنها خارج عن الحرم، والإفاضة منها، مع إقرارهم بأنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرون أن لسائر الناس الوقوف عليها والإفاضة منها، وأما هم فقد جعلوا موقفهم في طرف الحرم من «نمرة»، يقفون به عشية عرفة، ويظلون به يوم عرفة في «الأراك من نمرة»، ثم يفيضون منه إلى المزدلفة، فإذا عممت الشمس رءوس الجبال دفعوا، وكانوا يقولون: «نحن أهل الحرم، فليس لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها، نحن الحمس»، ومن ثم فإنهم بذلك يظهرن تعصبهم لبقعة من الأرض، وترفعون عن أن يخرجوا عنها ولو كان في خروجهم إتمام لمشاعر الحج، كما كانوا إذا أرادوا بعض أطعمتهم وامتعتهم تسوروا من ظهر بيوتهم وأديارها، حتى يظهرها على السطح، ثم ينزلون في حجرتهم، ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب (1).

وكانوا يقولون: لا ينبغي للحمس أن يقطعوا الأقط ولا يسلثوا السمن، ولا يدخلوا بيتا من الشعر، ولا يستظلوا- إن استظلوا- إلا في بيوت الأدم، ما كانوا حرما، فهم إذن يحرمون على أنفسهم أشياء لم تكن العرب تحرمها، كما أنهم اختصوا أنفسهم بالقباب الحمر- وهي علامة الشرف والرئاسة- تضرب لهم من الأشهر الحرم، كما فرضوا على العرب ألا يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم- إذا جاءوا حججا

ص: 220

1- ابن كثير 1/ 233، 293، البخاري 2/ 163 ابن هشام 1/ 202، الطبرسي 2/ 411، ابن كثير 2/ 305، العقد الثمين 1/ 141، نهاية الأرب 1/ 244، المقدسي 4/ 32 (طبعة بالأوفست من طبعة كليمان هوار عام 1907)، تفسير القرطبي 2/ 427-428، اليعقوبي 1/ 256، الازرقى 1/ 176-180، جواد علي 6/ 362، احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 188 و كذا P, II, IE. 335

أو عمارة- ولا يطوفون بالبيت إذا قدموا أول طوافهم، إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة، لم يجد ثياب الحمس، فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل، ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها، ولم يمسه هو ولا أحد غيره أبدا، وكانت العرب تسمي تلك الثياب «اللقى» (1)

[4] الكعبة قبيل الاسلام

ولعل أهم ما يميز هذه الفترة من تاريخ الكعبة المشرفة أمران، الواحد إعادة حفر زمزم، والآخر إعادة بناء الكعبة نفسها. وأما الأمر الأول، فإن المصادر العبرية انما تروي أن عبد المطلب- جد النبي (صلى الله عليه وسلم)- قد لقي الكثير من العناء في توفير الماء للحجيج عند ما تولى أمر السقاية و الرفادة، وذلك بسبب دفن زمزم- ربما منذ أيام جرهم- وزاد الأمر صعوبة أن مكة كانت إذ ذاك تمر بفترة قاسية ندرت فيها الأمطار، وجفت مياه الآبار، أو كادت، في وقت كان موسم الحج فيه قد بدأت طلائعه، وهنا رأى عبد المطلب- فيما يرى النائم- أنه يؤمر بحفر طيبة، وحين يسأل عن طيبة هذه لا يلقى جوابا، غير أن الرؤيا تتكرر ليال ثلاث، يؤمر فيها عبد المطلب بحفر «برة» ثم بحفر «المضنونة»، ثم بحفر «زمزم»، وفي المرة الأخيرة، فإن الهاتف يجيبه حين يسأل عن زمزم، بأنها «تراث من أليك الأعظم، لا تنزف أبدا ولا تدم، تسقي الحجيج الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر لمنعم، يكون ميراثا

ص: 221

1- ابن كثير 305/2، البخارى 163/2، تاج العروس 132/4-133، روح المعاني 244/1، المقدسي 32/4-33، نهاية الأرب 1/244، شفاء الغرام/41-42، ياقوت 184/5، المعارف ص 269، الأزرقى 180/1-182، يعقوبي 257/1، العقاد: المرجع السابق ص 117، احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 189-190، ابن هشام 219/1.

وعقدا محكم، ليس كبعض ما قد تعلم، وهي بين الفرث و الدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل».

ويخرج عبد المطلب ومعه ولده الحارث، فيحفر بن اساف و نائلة، في الموضوع الذي تنحرف فيه قريش لأصنامها، وقد رأى الغراب ينقرها هناك، فلما بدا له الطوي كثير، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه، وقالوا: إنها بئر أئينا إسماعيل، و أن لنا فيها حقاً فأشركنا معك، قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به دونكم، قالوا: فإننا غير تاركين حتى نخاصمك فيها»، غير أن المخاصمة سرعان ما تنتهي في جانب عبد المطلب (1).

وتذهب المصادر العربية إلى أن عبد المطلب قد وجد غزالين من ذهب، كانت «جرهم» قد دفنتهما في البئر، فضلا عن سيوف و دروع، فضرب الأسياف بابا للكعبة، و جعل فيه الغزالين صفائح من ذهب، فكان أول ذهب حليت به الكعبة، و إن ذهبت بعض الروايات إلى أن بريق الذهب جعل بعض اللصوص يطمعون فيه، فتسللوا في جنح الظلام، و جردوها مما كانت تتحلى به من نفائس ذهبية (2).

وأيما ما كان الأمر، فلقد أقبل الحجاج على بئر زمزم تبركا بها و رغبة فيها، و أعرضوا عن سواها من الآبار، و ذلك لمكانة زمزم من المسجد

ص: 222

-
- 1- الطبري 2/ 251، ابن الأثير 2/ 12-14، ابن كثير 2/ 244-248، الروض الآنف 1/ 80، 98، الأزرقى 2/ 42-47، الحربي: المرجع السابق ص 485، المقدسي 4/ 114، ابن سعد 1/ 49-50، ابن هشام 1/ 142-150، حياة محمد ص 116-117، اليعقوبي 1/ 246-248، تاريخ الخميس ص 202-204، و كذا P, malslfo, ycnE retrohS. 657.
- 2- مروج الذهب 2/ 103، ياقوت 1/ 149، تاريخ ابن خلدون 2/ 338، تاريخ الخميس ص 204-205، المقدسي 4/ 114، الأزرقى 2/ 41، 43، تاريخ الطبري 2/ 251، الخربوطلي: المرجع السابق ص 57-58 الحربي: المرجع السابق ص 485

الحرام، و لفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر أبيهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

هذا وقد كان عبد المطلب قد نذر حين لقي من قريش العنت في حفر زمزم: لئن ولد له عشرة نفر، و بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى، فلما توفى له عشرة، أقرع بينهم: أيهم ينحرو؟ فطارت القرعة على عبد الله، و كان أحب الناس إليه، فقال عبد المطلب:

اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه و بين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل، على أن هناك من يذهب إلى أن هذا النذر، إنما كان حين عيّره «عدي بن نوفل»، فقال له: أ تستطيل علينا عبد المطلب و أنت فذ لا ولد لك، فأجابه عبد المطلب جوابه الذي أثر عن ذلك اليوم: بالقلة تعيرني فو الله: لئن أتاني الله عشرة من الولد لأنحرن أحدهم عند الكعبة (1).

و أما الأمر الثاني، فهو إعادة بناء الكعبة، و الذي يكاد يجمع المؤرخون على أنه تمّ و المصطفى - صلوات الله و سلامه عليه - في الخامسة و الثلاثين من عمره الشريف، فاذا كان ذلك كذلك، و إذا كان المولد النبوي

ص: 223

1- تاريخ الطبري 2/239-243، ابن الأثير 2/5-7، ابن كثير 2/248-249، روح المعاني 23/136، مروج الذهب 2/104، المقدسي 4/114-116، اليعقوبي 1/250-252، تاريخ ابن خلدون 2/337، تاريخ الخميس ص 129، 206، 207، ابن سعد 1/50، 53-54، ابن هشام 1/150-154، الأزرقى 2/43-44، 47-49، حياة محمد ص 117-118

التاريخ، غير نبينا- صلوات الله وسلامه عليه (1).

كانت قريش تفكر في أمر الكعبة التي كانت وقت ذلك بدون سقف، مخفضة الارتفاع، مما جعلها نهبا للصومال الذين أقدموا على سرقة بعض كنوزها، هذا فضلا عن أن مكة نفسها كانت قد تعرضت لعدة سيول في أوقات متفاوتة، آخرها سيل جارف نزل من الجبال المحيطة بمكة، وانحدر نحو الكعبة وصدع جدرانها، وهكذا أصبحت قريش مضطرة إلى الإقدام على ما أفسدته السيول، وزاد من عزم قريش أن البحر كان قد ألقى بسفينة إلى «جدة» لأحد تجار الروم، كان قيصر قد بعث بها من مصر إلى الحبشة، ليقوم ركابها ببناء كنيسة هناك، و من ثم فقد ذهب وفد من قريش- على رأسه الوليد بن المغيرة- واشترى السفينة (2).

وبدأت عمليات الهدم والبناء، وتذهب الروايات العربية إلى أن أول من بدأ الهدم، إنما كان الوليد بن المغيرة، بينما تذهب رواية منها إلى أنه أبو وهب بن عمرو المخزومي، وأيا كان الرجل، فالذي يهمننا هنا أن القرشيين، إنما كانوا يصرون على أن يبنوا بيت الله الحرام من كل طيب، و من ثم فقد نسب إلى الوليد- أو إلى أبي وهب- انه قال: «يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبا، ولا تدخلوا فيها مهر بغى، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس».

وبدأ البنيان، حتى إذا ما بلغ موضع الركن- أي الحجر الأسود- اختلفت

ص: 225

-
- 1- ابن هشام 192/1-193، العمري 1/64، المقدسي 4/139، الفلكي: المرجع السابق ص 38، الحربي: المرجع السابق ص 494-495 ماجد: المرجع السابق 1/95-96، وكذا. 23. G. A. emualliu، P، tic- po، و كذا 31. IHC، I، 1970 P
- 2- ابن الأثير 2/44، تاريخ الطبري 2/287، المسعودي 2/271-272، الأزرقى 1/157-158، نهاية الأرب 1/232، ياقوت 4/466، المقدس 1/139-140، الحربي: المرجع السابق ص 486-487

بطون قريش على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، واشتد الخلاف، و كاد القتال ان ينشب بين القوم، وقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاقدوا هم و بنو عدي على الموت، و أدخلوا أيديهم في ذلك الدم، فسموا «علقة الدم» بذلك، و مكثت قريش على ذلك أربع ليال، ثم تشاوروا، فقال أبو أمية بن المغيرة، و كان أسن قريش: «اجعلوا بينكم حكما أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينكم»، ففعلوا.

و كان النبي - صلوات الله و سلامه عليه - أول من دخل، فلما رأوه قالوا «هذا الأمين قد رضينا به» و أخبروه الخبر، فقال:

هلموا إلى ثوبا، فأتى به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا، فلما بلغوا به موضعه وضعه بيده، ثم بني عليه، و هكذا نجح النبي الأعظم في حسم الخلاف و جنب قومه القتال، و من عجب أنه سرعان ما قال قائل من قريش: وا عجباً لقوم أهل شرف و رئاسة و شيوخ و كهول، عمدوا إلى أصغرهم سنا، و أقلهم مالا، فجعلوه رئيسا و حاكما، أما و اللات و العزى: ليفوقهم سبقا، و ليقمن بينهم حظوظا و جدودا، و ليكون له بعد هذا اليوم شأن و بناء عظيم» (1).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن ذلك كله، إنما يدل على مكانة الحجر الأسود عند قريش، و على أنه إنما كان أقدس شيء عندهم، و إلا لما

ص: 226

1- ابن الأثير 2/44-45، تاريخ الطبري 2/288-290، ابن كثير 2/299-304، سيرة ابن هشام 1/195-199، ابن سعد 1/50، 93-95، الأزرقى 1/157-164، تاريخ الخميس ص 126-131، تفسير القرطبي 2/122-123، المقدسي 1/140، ياقوت 4/466، محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص 25-26، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص 117-118، الحربي: المرجع السابق ص 487، مروج الذهب 2/272، علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق ص 67-71 و كذا 100. . P, ticpo, ittiH.

K. P

اختلفوا كل هذا الاختلاف على وضعه في مكانه، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى غيره من مقتنيات الكعبة الشريفة، ويذهب «فلهاوزن» إلى أن قدسية البيت «لم تكن عند قريش بسبب ما فيه من أصنام، وإنما بسبب هذا الحجر الأسود، فهو إذن مقدس لذاته (1)»، بل إن البعض ليذهب إلى أن البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود، الذي كان أهم معبودات قريش في الجاهلية (2).

غير أننا نعرف أنه رغم شيوع عبادة الأوثان في سواد قبائل العرب، فإن التاريخ لم يحدثنا أبداً، أن القوم قد عبدوا هيكل الكعبة، أو أنهم قد عبدوا الحجر الأسود، مع احترامهم له ذلك الاحترام الذي يفوق كل احترام إذ كان القوم يلمسونه دائماً بغية التبرك به، كما كانت الجهة التي فيها هذا الأسود، إنما تسمى «بالركن» (3).

وقد بقيت هذه المكانة للحجر الأسود، حتى على أيام الإسلام الحنيف (4)، ويروى أن الرسول- صلوات الله وسلامه عليه- حين كان يطوف بالبيت الحرام، كان يستلم الحجر الأسود ويقبله، إلا أن مكانة

ص: 227

1- جواد علي 437/6، وكذا أنظر: P, ticpo, nesuahlleW. J 74

2- المشرق، تموز 1941 ص 247

3- جواد علي 437/6-438، احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 168، محمد البتونوي: المرجع السابق ص 152-156

4- أنظر: الأزرقى 1/322-330، 342-344

الحجر الأسود في الإسلام غيرها في الجاهلية (1)، فقد روى الإمام أحمد و البخاري، أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقف عند الحجر الأسود، فقال: «إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر»، ثم قبله، وكذلك فعل أبو بكر عند حجه بالناس، ولما حج عمر بن الخطاب، وقف عند الحجر - فيما يروي الإمام أحمد و البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و غيرهم - قال: «إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، و لو لا أني رأيت رسول الله، (صلى الله عليه وسلم)، يقبلك ما قبلتك»، ثم دنا و قبله (2).

وقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تفسير اسم «الكعبة»، فرأى بعضهم أنها كلمة رومية، أطلقت على كعبة مكة لتكعيبها - أو لتربيعها - و أن بناء من الروم عمل في بنائها و هندستها، فاستعير اسمها من اللغة الرومية، و قيل بل كان بناؤها في الحبشة التي عرف العرب عن طريقها

ص: 228

1- أزيل الحجر الأسود من مكانه غير مرة، من جرهم و إياد و العمالق، و خزاعة، و آخر من أزاله القرامطة عام 317 هـ، فقد قلعوه و ذهبوا به الى البحرين، عند ما أقام أبو طاهر القرمطي في «هجر» دارا دعاها غار الهجرة، و أراد أن ينقل الحج إليها، فسار الى مكة و دخل الحرم و وضع السيف على لفتة من الناس في الطائفين و العاكفين و الركع السجود، و قتل نحو ثلاثين ألفا بمكة و شعابها، و اقتلع باب الكعبة و جرده مما كان عليه من صفائح الذهب، و بقي الحجر الأسود عند القرامطة، حتى أعاده الخليفة العباسي «المطيع لله» إلى مكانه في عام 339 هـ، و صنع له طوقا من فضة و في عام 363 هـ، حاول رجل رومي قلعته، إلا أنه قتل بيد رجل يمني، و قد حاول ذلك كذلك بعض الباطنية في عام 414 هـ، و رجل أعجمي في القرن العاشر، غير أنهم قتلوا، و في محرم 1351 هـ، سرق رجل أفغاني قطعة من الحجر الأسود، و كذا قطعة من أستار الكعبة، فأعدم عقوبة له، ثم أعاد الملك عبد العزيز آل سعود القطعة المسروقة في 28/4/1351 هـ بعد أن وضع لها الأخصائيون المواد التي تمسكها و الممزوجة بالمسك و العنبر، أما ما يدور على الحجر من الأطواق، فقد عملها السلطان عبد المجيد العثماني عام 1268 هـ من ذهب، ثم غيرت إلى فضة عام 1281 هـ على أيام السلطان عبد العزيز، ثم في عام 1331 هـ، على أيام السلطان محمد رشاد العثماني (الازرقى 1/346 هامش رقم 4، انظر: في منزل الوحي ص 416)

2- الأزرقى 1/322-324، 329-330، تفسير المنار 1/467، قارن: الخربوطلي: المرجع السابق ص 20

بناء هذه المعابد وأمثالها، لأنهم أمة خيام لم تتأصل فيهم صناعة البناء، وهؤلاء الباحثون وأمثالهم- فيما يرى الأستاذ العقاد- يتشبثون بالفروع، ويغفلون الأصل، بجذوره وجذوعه عليه، فمهما يكن من لغة البناء الرومي أو الحبشي، فالقبائل العربية لم تبني تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش، ولم ترد أن تنشئ لها بيتا يسمى «الكعبة» أو المكعبة في اللغة الرومية، وإنما وجدت الحاجة إلى البيت الحرام، ثم وجدت الوسيلة إلى تلك الغاية، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش، لبناه أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من الأمم التي تقدمت في هذه الصناعات (1).

وقد بنى سليمان بن داود هيكله في وقت كان اليهود فيه ما يزالون في بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وكان الاعتماد على الفينيقيين الأجانب، وعلى رأسهم حيرام الصوري- كما نقرأ في التوراة (2)- هو الحل الوحيد الممكن أمام داود و سليمان ليرتفع هيكل الرب (3)، وكان المعبد في نهاية الأمر مزيجا عجيبا من الفنون المصرية و البابلية و الفينيقية، ورغم أن التوراة تشيد بإعجاب بالمساعدة الفينيقية، فإن المعلومات التي يقدمها لنا سفر الملوك الأول تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر و بلاد الرافدين، وعلى أي حال، فإن سليمان كان مضطرا إلى أن يتطلع إلى نماذج خارج بلاده، فهو لم يكن لديه في إسرائيل إلا تقاليد يهودية قليلة، ما كانت لتفيده شيئا في بناء المعبد، و من ثم، فإنه- رغم ما كان ينظر إليه تجاه الفن المصري و البابلي، إلا أن

ص: 229

-
- 1- عباس العقاد: مطلع النور ص 111-112، وأنظر: تفسير الطبري 89/11-90 (طبعة دار المعارف 1957) ياقوت 4/463-465، احمد حسن الباقوري: مع القرآن، القاهرة 1970
 - 2- ملوك أول 7: 13-14
 - 3- حسن ظاظا: القدس ص 36-38

بناء المعبد دون الاعتماد عليها كان أمرا بالغ الصعوبة، وربما كان السبب في التأثير المصري، هو مصاهرة سليمان للبلاط الفرعوني، وإن كان الأمر بالنسبة إلى التأثير البابلي أصعب من أن يفسر، وعلى أي حال، فلقد كان للطابعين المصري والبابلي أثر كبير على الفينيقيين، الذين اختلطت فنونهم بفنون المصريين من ناحية، والبابليين من ناحية أخرى، وطالما تحدثت التقاليد الإسرائيلية عن نشاط الحرفيين الفينيقيين بكل وضوح وتأکید (1) وعلى أي حال، فالذي يهمنا هنا، أن العقيدة لم تقم تبعا لعقيدة أصحاب تلك الصناعة، بل كان أصحاب الصناعة في الحالين - كعبة مكة و هيكل سليمان - ممن يخالفون تلك العقيدة، و يتسمون بسمة الكفر و الإنكار عند المعتقدين بها (2) و لم نعرف أن معبدا سمي بشكله، أو كان له شكل غير أشكال الأبنية التي يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة، و ليست مادة «كعب» بالعربية عن اللغة العربية، لأنهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة و يسمون الفتاة كاعبا إذا كعب ثدياها، و يلعبون بالكعوب و يتسلحون بالرمح و هي من القصب أو من الأتنية، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب و كلمة القناة فتصحفت في لغتهم إلى القانون و هو العصا التي تتخذ للقياس (3).

أما عن الحبشة، و أن العرب قد نقلوا عنها طريقة بناء المعابد و أمثالها،

ص: 230

1- كتابنا إسرائيل ص 464-472، أندريه إيمار، جانين أويوايه: الشرق و اليونان القديمة 1/267، و كذا 247. P, dnaL yloH eht ni .
P, 1965, III, HAC nimelasureJ fo yhpargopoT ehT ,retsilacaM .S .A. 348-9 و كذا 9-348 .S .A. K. K. noyneA, ygoloeahcrA, K. K.
.R

2- العقاد: مطلع النور ص 112

3- نفس المرجع السابق ص 112

فربما كانت الأدلة تتجه إلى العكس من ذلك، فهناك في الحبشة- على سبيل المثال- بقايا أعمدة لمعبد سبىء، فضلا عن مذبح سبىء للإله «سين»، إلى جانب كتابات أشياء أخرى من الفن العربي القديم، بل إن هناك من الباحثين من يرى أن نفوذ الفن العربي، إنما تجاوز تأثيره الحبشة إلى مجاوراتها، و من ثم فإنهم إنما يذهبون إلى أن بقايا المعابد التي عثر عليها في روديسيا وفي أوغنده، إنما هي من المعابد المتأثرة بطراز معبد «أوام» (محرم بلقيس)، فإن بين هذه المعابد جميعا شبيها كبيرا في طرز البناء وفي المساحة وفي الأبعاد كذلك (1).

و عودا على بدء، إلى الكعبة، حيث نرى القرشيين وقد أعادوا إليها الأصنام، ويروي المسعودي أنه كان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة، منها صورة إبراهيم الخليل في يده الأزام، و يقابلها صورة إسماعيل ولده، على فرس يجيز الناس مغيضا و بعد ذلك صور لكثير من أولادهم حتى «قصي بن كلاب» في نحو من ستين صورة مع كل واحدة من تلك الصور «إله» يصاحبها كيفية عبادته و ما اشتهر من فعله (2)، هذا إلى جانب ما فيها من أصنام بلغ عددها 360 صنما (3). بل و يرى البعض أن فيها صوراً للمسيح بن مريم و أمه (4)، فإذا كان ذلك كذلك، فلا بد أن تكون هذه الأخيرة من عمل نصارى الروم، و إن كان الدكتور جواد علي يعترض على وجود صور الأنبياء في الكعبة، فما للوثنية-

ص: 231

-
- 1- أنظر: مقالنا «العرب و علاقاتهم الدولية في العصور القديمة»، جواد علي 3/ 451 و كذا P, I, hcubdnaH. 34 موسكاتي: المرجع السابق ص 221-223 و كذا انظر H. M dna nnamssiW noV. 28 P, tic- po, renifoH.
 - 2- مروج الذهب 2/ 272، الأزرقى 1/ 165-169
 - 3- صحيح مسلم 5/ 173، ارشاد الساري 7/ 210، الأزرقى 1/ 120-123، بلوغ الأرب 2/ 211، شفاء الغرام 2/ 280، العقد الثمين 1/ 212.
 - 4- جواد علي 6/ 435-436، الأزرقى 1/ 165-168.

في رأيه- و الأنبياء، و ما شأن الشرك بمريم و ابنها و ببقية الرسل، حتى ترسم صورها على أعمدة أو جدران البيت الحرام (1).

و الرأي عندي، أن صور الأنبياء يمكن ان نقسمها إلى قسمين، الواحد يتصل بإبراهيم و إسماعيل عليهما السلام، و هما جدا العرب، و بناء البيت الحرام، فوجود صور لهما في الكعبة- و قد امتلأت بالأصنام- أمر لا يخالف المنطق، ما دام هؤلاء القرشيون يؤمنون بأبوة الخليل، و أنه هو- و إسماعيل- قد رفعا القواعد من البيت، و أما الشق الثاني، فيتصل بالمسيح و أمه البتول، و صورهما- فيما أظن- تتصل بأمرين، الواحد أن قريشا إنما سمحت للناس كافة بالطواف حول البيت، و يضعون فيه أصناما لمعبوداتهم، أضف إلى ذلك أن الأخباريين إنما يذهبون إلى أن «باقوم» الرومي، هو الذي أشرف على بناء الكعبة و هندستها، و من ثم فليس من المستبعد أن يكون الرجل- و هو نصراني- قد قام برسم تلك الصور بمفرده- أو بمساعدة أخوة له من نصارى الروم ممن كانوا معه- و لم يجد عمله هذا اعتراضا من قريش، لأن ذلك لا يتنافى و عقيدتها في أن البيت لله، يتعبد فيه الناس لآلهتهم (2).

و أيا ما كان الأمر، فلقد بقي الحال في الكعبة، حتى العام الثامن للهجرة، حيث أكرم الله رسوله و المؤمنين بفتح مكة (3)، فقام المسلمون بتحطيم الأصنام، و يروى أن النبي، صلوات الله و سلامه عليه- رأى

ص: 232

1- جواد علي 6/ 438-439

2- جواد علي 6/ 439

3- أنظر عن فتح مكة (رمضان 8 هـ- ديسمبر 630 م): ابن الأثير 2/ 239-255، تاريخ الطبري 3/ 38-62، ابن خلدون 2/ 41-45، حياة محمد ص 416-431، الأنبياء في القرآن الكريم ص 322-324، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص 122-123، ابن هشام 802/1، 814-822

صورا لإبراهيم وهو يستقسم بالأزلام، فقال «قاتلهم الله حيث جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام»، هذا وقد حطم الرسول، (صلى الله عليه و سلم)، كل التماثيل والصور (1)، وهو يقول «وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» (2).

ووقف المصطفى - عليه الصلاة والسلام - ثاني يوم الفتح، وخطب خطبته المشهورة، التي وضع فيها مآثر الجاهلية، إلا سدانة البيت و سقاية الحاج، ثم قال: يا أهل قريش، ويا أهل مكة: ما ترون أني فاعل بكم؟

قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وهكذا اعتنقهم رسول الله، (صلى الله عليه و سلم) وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئا- ومن ثم فقد سمي أهل مكة بالطلقاء، هذا ولم يحاول الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يقضي على نفوذ مكة المهزومة، فأعلن أنها سوف تبقى حراما آمنا لا يقاتل فيها، وأن تكون الكعبة هي بيت الله الحرام، يحج إليها العرب حتى المشركون منهم (3).

وفي العام التاسع للهجرة (630/631 م) - عام الوفود - بقي المصطفى (صلى الله عليه و سلم) في المدينة، يستقبل الوفود، حيث كان ما يزال في شبه الجزيرة العربية من لم يؤمن بالله ورسوله، وإن كانوا في الوقت، ما يزالون - كما كانوا في الجاهلية - يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرام - كما أشرنا آنفا - ومن ثم فليبق الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذا بالمدينة، حتى يتم الله

ص: 233

1- السيرة الحلبية 1/144، 3/87، الروض الانف 2/274-276، نهاية الأرب 17/312-314، صحيح مسلم 5/173، إرشاء الساري 7/210، العقد الثمين 1/157، 212، الأزرقى 1/168-169، كتاب الأصنام ص 31 وما بعدها

2- سورة الاسراء: آية 81

3- تاريخ الطبري 3/61، البلاذري: فتوح البلدان ص 42، النويري 1/298، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص 123، تاريخ ابن خلدون 2/44-45، مروج الذهب 2/290، ابن الأثير 2/255، حياة محمد ص 426-430 البداية و النهاية 4/301

كلمته، و حتى يأذن الله له بالحج إلى بيته الحرام، وليخرج أبو بكر في الناس حاجا (1).

على أن الرسول- (صلى الله عليه وسلم) سرعان ما أمر الإمام علي كرم الله وجهه، أن يسرع إلى مكة قبل أن تصل إليها وفود الحجيج من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، ليبلغهم بسورة نزل بها الوحي من السماء- والتي عرفت بسورة براءة- ويقوم الإمام علي بالمهمة خير قيام، ويبلغ رسالة النبي الأعظم إلى الناس في اجتماعهم العام هذا «يوم الحج الأكبر»- في منى وقبل الوقوف بعرفة- وقد جاء في هذه الرسالة، قوله سبحانه وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (2) ويعلن الإمام علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- بأمر رسول الله، (صلى الله عليه وسلم)، «أيها الناس: إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد اليوم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله، (صلى الله عليه وسلم)، عهد فهو إلى مدته»، وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك، ليرجع كل قوم إلى بلادهم، ومن يومئذ لم يحج مشرك، و لم يطف

ص: 234

-
- 1- ابن الأثير 2/286-292، المعارف ص 82، ابن هشام 2/919، هيكل: حياة محمد ص 470-476، الصديق أبو بكر ص 53، أرفنج: حياة محمد ص 229، تاريخ ابن خلدون 2/51-58، فيليب حتى: المرجع السابق ص 164-165، تاريخ مكة ص 54
 - 2- سورة التوبة: آية 28 وانظر: تفسير الطبري 14/190-198 (دار المعارف- القاهرة 1958)، تفسير البحر المحيط لابن حيان 5/27-29، في ظلال القرآن 10/1585، 1618-1619.

1- ابن الأثير 2/ 291، ابن هشام 4/ 201-205، المسعودي: مروج الذهب 2/ 290، التنبيه و الاشراف ص 186-187، تاريخ ابن خلدون 2/ 53، تفسير الطبري 14/ 95-112 (طبعة دار المعارف 1958)، تفسير البيضاوي 1/ 383، الإمام محمد بن عبد الوهاب: مختصر زاد المعاد ص 367-368. الخربوطلي: المرجع السابق ص 89، فيليب حتى: المرجع السابق ص 163-164، محمد لبيب البتنوني: المرجع السابق ص 17، هيكل: حياة محمد ص 476، تاريخ مكة ص 54، تاريخ العرب 1/ 163-164.

ينظر الأخباريون إلى قوم عاد على أنهم أقدم الأقسام العربية البائدة (1)، حتى أصبحت كلمة «عادي» و «عادية» تستعملان صفتين للأشياء البالغة القدم (2)، و حتى أصبح القوم إذا ما شاهدوا آثارا قديمة لا يعرفون تاريخها، أطلقوا عليها صفة «عادية» (3)، وربما كان السبب في ذلك قدم قوم عاد، أو أن عاد- و من بعدها ثمود- قد ورد اسميهما في القرآن الكريم، و من ثم فقد قدما على بقية الأقسام البائدة، رغم أننا لو جارينا الأخباريين في قوائم الأنساب، التي يقدمونها للشعوب البائدة، لكان علينا أن نقدم طسم و جديس و عمليق و أميم و غيرهم على عاد و ثمود، ذلك لأن الأولين- في نظرهم- من أولاد شقيق «إرم»، و أن الآخرين من حفدة «إرم»، و لكنهم هم أنفسهم يقدمون عادا على بقية الشعوب البائدة (4).

و هنا لعل من الأفضل أن نشير- بادئ ذي بدء- إلى أننا لا نعني بالعرب البائدة، و العرب الباقية، أن أقواما قد انقرضوا فلم يبق منهم أحد، و أن أقواما لم يكونوا ثم نشئوا من جديد، و انما ما نعنيه أن قوما قد يقل عددهم بالكوارث أو بالذوبان في آخرين، لسبب أو لآخر، و من ثم يتوقف تاريخهم و تبطل حضارتهم، مع أن بقاياهم ما تزال موجودة، و لكنها بدون قيمة حضارية، و التاريخ في حقيقته إنما هو تطور

ص: 239

1- مروج الذهب 11 / 2

2- مقدمة ابن خلدون ص 613- 614

3- مروج الذهب 12 / 2- 14

4- جواد علي 1 / 299

وعلى أي حال، فتلك تسمية ابتدعها الكتاب المسلمون، لم يكن يعرفها العرب القدامى، كما أن المصادر اليهودية- وعلی رأسها التوراة- وكذا المصادر اليونانية و اللاتينية و السريانية، على غير علم بهذه التقسيمات (2)، فضلا عن أنه من المعروف أن شيئا لن يبيد، ما دام قد ترك من الآثار ما يدل عليه، وهي دون شك مصدرنا الأساسي لنعرف الحضارات السابقة (3)، وربما كان المقصود بلفظ «باند» عدم وجود أحد من العرب ينتسب إلى هذه القبيلة أو تلك عند كتابة المؤرخين الإسلاميين لتاريخ ما قبل الإسلام.

و من ثم فليس صحيحا، ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن ما يسمى «بالعرب البائدة»، ليس من التاريخ الحقيقي في شيء، وإنما هو جزء من الميثولوجيا العربية، أو التاريخ الأسطوري، الذي يسبق عادة التاريخ الحقيقي لكل أمة، و من ثم فإنهم إذا ما عالجوا تاريخ بعض القبائل العربية التي تسمى بالبائدة، فإنما يعالجونها على هذا الأساس (4)، وإن كانت غالبية المؤرخين الأوربيين الآن قد عدلت عن هذا الإتجاه، بعد أن ثبت لهم أن بعضا من هذه القبائل البائدة قد تحدثت عنه المؤرخون القدامى من الأغرقة و الرومان، و بعد أن أثبتت الأحافير- إلى حد ما-

ص: 240

1- عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ص 49

2- جواد علي 1/ 295

3- عبد الرحمن الانصاري: المرجع السابق ص 86

4- محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام ص 30-31

صحة بعض ما ورد في المصادر الإسلامية عن هذه «القبائل البائدة» (1).

أما العرب الباقية، فلعلنا نعني بهم تلك الجماعات التي كانت تعيش في تلك المنطقة، وما زالت تعيش حتى الآن- وسوف تظل تعيش إن شاء الله إلى أن يغيّر الله هذه الأرض غير الأرض- وأن حضارتها مستمرة يتوارثها جيل عن جيل، وأن كل جيل يضيف إليها، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ومن ثم فإن مهمتنا أن نقوم بدراسة حضارة تلك الجماعات متبعين دورها في كل طور من أطوار التاريخ.

[2] قصة عاد في القرآن الكريم

لقد انفرد القرآن الكريم بذكر عاد، ونبههم هود عليه السلام،

ص: 241

1- يكاد يتفق الرواة وأهل الأخبار على تقسيم العرب من حيث القدم على طبقات: عرب بائدة وعاربة ومستعربة، أو: عرب عاربة ومتعربة ومستعربة، على أن هناك من يجعلهم طبقتين فقط: بائدة، وهم الذين كانوا عربا صرحاء خلصا ذوي نسب عربي خالص- نظريا على الأقل- ويتكونون من قبائل طسم وجديس وأميم وعييل وجرهم والعماليق وحضوراء ومدين وغيرهم، وعرب باقية: ويسمون أيضا متعربة ومستعربة، وهم ليسوا عربا خلصا، ويتكون من بني يعرب بن قحطان، وبني معد بن عدنان. وهناك تقسيم ثالث يعتمد في الدرجة الأولى على النسب، فهم قحطانية في اليمن، وعدنانية في الحجاز، وأما ابن خلدون، فهو يقسم العرب، طبقا للتسلسل التاريخي، إلى طبقات أربع، فهم عرب عاربة قد بادت، ثم مستعربة، وهم القحطانيون، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج، ثم الغساسنة والمناذرة، وأخيرا العرب المستعجمة، وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلامية (أبو الفداء 99/1، جواد علي 1/294، صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص 41، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ص 44، طه حسين: من الأدب الجاهلي ص 79، عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص 83، مقدمة ابن خلدون ص 28، قارن: تاريخ ابن خلدون 16/2-18، نهاية الأرب 9/1-11 (حيث يقسم العرب الى عرب عاربة ومستعربة وتابعة ومستعجمة)، ثم انظر: عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق ص 88، جواد علي 1/306.

فجاء ذكرهم في سور كثيرة من القرآن الكريم (1)، بل إن هناك سورة كاملة تسمى سورة هود، كما أن هناك في القرآن الكريم (2) ما يشير إلى أن هناك عادا الأولى، وعادا الثانية (3) وأن عادا الأولى، إنما هم «عاد إرم» الذين كانوا يسكنون الخيام (4)، وأن عادا الثانية إنما هم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع، وربما كانوا هم قوم ثمود، فيما يرى الأستاذ النجار (5)، الأمر الذي ما يزال موضع شك كبير.

وتدل الآيات الكريمة التي وردت عن هؤلاء القوم- وعن نبيهم الكريم- على أنهم قد استكبروا في الأرض بغير الحق، واعتروا بقوتهم، ربما لأنهم كانوا أشداء أقوياء، ولأن الله- جل وعلا- قد زادهم بسطة في الجسم، وربما لأنهم كانوا قد بلغوا شأوا من الحضارة لم يبلغه قوم آخرون من معاصريهم في المنطقة التي كانوا فيها يسكنون، وعلى أي حال، فإن أمرهم قد انتهى إلى عبادة الأوثان، وترك عبادة الله الواحد القهار، ومن ثم فقد أرسل الله إليهم من ينهاهم عن عبادة هذه الأوثان ولينذرهم بعذاب يوم عظيم، «لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (6).

ص: 242

-
- 1- أنظر: الأعراف (65-72) و هود (50-60) و المؤمنون (31-42) و الشعراء (123-140) و فصلت (15-16) و الأحقاف (21-26) و القمر (18-21) و الحاقة (21-26) و الفجر (6-8)، وقد جاء ذكر عاد كذلك في التوبة (70) و إبراهيم (9) و الفرقان (38) و العنكبوت (38) و ص (12) و الذاريات (41-42) و ق (13)
 - 2- سورة النجم: آية 50-51، سورة الفجر: آية 6-7
 - 3- مروج الذهب 11/2 وقارن: ابن كثير 130/1، حيث يرى أن ما جاء في الأحقاف كان عن عاد الثانية، وغير ذلك كله عن عاد الأولى
 - 4- ابن كثير 125/1
 - 5- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 53
 - 6- سورة النساء: آية 165 وانظر: تفسير الطبري 9/407-408 (دار المعارف بمصر)، تفسير الطبرسي 6/293-295 (دار مكتبة الحياة- بيروت 1961)، تفسير روح المعاني 6/18-19، تفسير الكشاف 1/590-591، في ظلال القرآن 6/25-29

غير أن القوم سرعان ما كذبوا هودا، واغترتوا بقوتهم، «فَأَسَدُّ تَكْبُرُوا فِي الْآ زُضِ بَغَيْرِ الْحَقِّ، وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» (1)، و من ثم فإن الله أنزل بهم العذاب الشديد، و ذلك بأن أرسل عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر، سخرها عليهم سبع ليال و ثمانية أيام حسوما، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، يقول سبحانه و تعالى «وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ» (2).

[3] قصة عاد و محاولة ربطها بالتوراة

وقصة عاد هذه- شأنها في ذلك شأن قصة ثمود- لم ترد في التوراة، وإنما هي قرآنية صرفة، كما أن شهرتها عند العرب في الجاهلية و الإسلام، كشهرة إبراهيم و قومه (3)، و لعل هذا هو السبب في أن كثيرا من المستشرقين قد تعجلوا الأمر، فأنكروا عادا و ثمودا، و أنكروا الكوارث التي أصابتهم بغير حجة، إلا أنهم يحسبون أن المنكر لا يطالب بحجة، و لا يعاب على النفي الجزاف، فما لبثوا طويلا حتى تبين لهم أن عادا eatidO و ثمودا adidumahT المذكورتان في تاريخ بطليموس، و أن اسم عاد، مقرون باسم «إرم» في كتب اليونان، فهم يكتبونها «أدرايمت» eatimardA، و يؤيدون تسمية القرآن الكريم لها بعاد إرم ذات العماد (4) إلا أن شأن المؤرخين الإسلاميين أغرب من شأن المستشرقين، فرغم

ص: 243

1- سورة فصلت: آية 15

2- سورة الحاقة: آية 6- 8، و انظر سورة الأحقاف: آية 24- 25

3- تاريخ الطبري 1/ 232

4- عباس العقاد: مطلع النور ص 61

أن القصة، كما قلنا، قرآنية صرفة، فحاولوا أن يربطوا بينها وبين التوراة، ثم أوجدوا لها صلة ونسباً بأسماء أعيان وردت في التوراة، فذهب بعضهم إلى أن عاداً، إنما هو «هدورام» التوراة (1)، وربما كانت حججهم في ذلك اقتران عاد بإرم في الكتب العبرية، وأن بعض القراءات تقرأ الآية الكريمة «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ» (2)، على الإضافة أو مفتوحتين، أو بسكون الراء على التخفيف، أو بإضافة إرم إلى ذات العماد، وعلى ما بين «عاد إرم» و «هدورام» من تشابه كبير في النطق، إلا أن التوراة تشير إلى أن «هدورام» هذا، إنما هو من نسل يقطان (قحطان في الروايات العربية)، وهذا لا يستقيم مع الروايات، ويعلل «جرجي زيدان» ذلك بأن كاتب سفر التكوين إما أنه رأى أن تلك القبيلة إنما تسكن اليمن، فذهب إلى أنها من نسل قحطان، لأن الروايات إنما تذهب إلى أن عاداً في الأحقاف، بين حضرموت و اليمن، الأمر الذي سوف نناقشه حالاً وإما أنه أراد أن يسجل القبائل التي سكنت اليمن - وهي في نظره تنسب جميعاً إلى يقطان أو قحطان - ومن ثم فقد جعل عاد إرم في جملتها (3).

ويذهب «تشارلس فورستر» إلى أن هناك صلة بين «عادة» زوجة «لامك»، وبين «عاد» والد «يابال» الذي كان «أبا» لسكان الخيام ورعاة المواشي (4)، ونسلها من الأعراب، وقوم عاد من الأعراب

ص: 244

1- سفر التكوين 10: 27، أخبار أيام أول 1: 21، وأنظر كذلك: الإكليل 8/ 162، جواد علي 1/ 300

2- سورة الفجر: آية 6-7

3- جر جي زيدان: مجلة الهلال 23/ 890 (أغسطس 1890 م)، جواد علي 1/ 300، ياقوت 1/ 115-116، البكري 1/ 119-120

4- تكوين 4: 20

كذلك، ولكنه إنما يذهب كذلك إلى أن القوم الذين ذكرهم بطليموس تحت اسم eatidO إنما كانوا يسكنون في شمال غرب شبه الجزيرة العربية (1)، وربما عند موضع «بئر إرم» في منطقة «حسمى»، على مقربة من جبل يعرف بهذا الاسم في ديار جدام، بين إيله و تيه بني اسرائيل (2)، وأن هذا الموقع ليس ببعيد عن ديار ثمود، الذين ارتبط اسمهم باسم عاد، كما أن هناك كثيرا من الباحثين - ومنهم سبرنجر- يؤيدون هذا الرأي إلى حد كبير (3).

وأخيرا، فإن إختلاف النسابة في نسب هود عليه السلام، و مكان دفنه، قد شجع البعض إلى عقد مقارنة لغوية بين هود و اليهود (4)، و أن هناك شبها بين هود النبي، و بين «هودا» الواردة في القرآن الكريم بمعنى «يهود» (5)، حيث يقول الله سبحانه و تعالى «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا» (6)، و أن «هودا» إنما تعني «التهود» (7)، غير أنهم قد اختلفوا في النتيجة فبينما ذهب فريق - مستغلا في ذلك أن بعض النسابة يرى أن هودا، إنما هو «عابر بن شالح بن أرفكشاد جد اليهود» ذهب إلى أن هودا لم يكن اسم رجل، و إنما اسم جماعة من اليهود هاجرت إلى بلاد العرب، و أقامت في الأحقاف، و حاولت تهويد الوثنيين، الذين عرفوا هناك بيهودا، و منها جاءت كلمة «هود»، و أنها استعملت من باب

ص: 245

1- 32. C. retsroF. ehT, lacirotsiH fo yhpargoeG aibarA, P, 2,

2- الهمداني: صفة جزيرة العرب ص 129، ياقوت 1/154-155، و انظر: P, I, IE, 121

3- 207. A. regnerpS. etlA, sneibarA eihpargoeG P,

4- أنظر مناقشتنا الاصطلاح يهود في كتابنا إسرائيل ص 9-11

5- لسان العرب 4/451، القاموس المحيط 1/349، P, 2, IE, 372

6- سورة البقرة: آية 135

7- جواد علي 1/311

التجوز علما لشخص (1)، وليس من شك في أن هذا الرأي متأثر بأفكار يهود إلى أقصى حد، إن لم يكن رأيا يهوديا صرفا، ثم إن التاريخ لم يحدثنا أبدا عن هجرات يهودية إلى منطقة الأحقاف بالذات من بلاد العرب، وإن حدثنا إلى مناطق أخرى منها.

[4] موقع منطقة عاد

يذهب المؤرخون المسلمون إلى أن منطقة عاد، إنما تقع في الأحقاف، إلى الشمال الشرقي من حضرموت في جنوب الربع الخالي (2)، استنادا إلى الآية الكريمة «وَ اذْكُرْ اٰخَا عَادٍ اِذْ اَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْاَحْقَافِ» (3)، و الحقف- كما في القاموس- المعوج من الرمل، أو الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشرف، و لكن الحقف يمكن أن يوجد في أكثر من مكان في شبه الجزيرة العربية، و لم يحدد القرآن الكريم موضع الأحقاف بالنسبة إلى شبه الجزيرة العربية، كما أن القاموس العربي لم يحدد وجود الرمل فقط في جنوب الجزيرة، كصفة من صفاته أكثر من كونه صفة لبقية أنحاء الجزيرة، بل يمكن أن نقول أن الجزيرة العربية معظمها رمال (4)، أما الذي حدد ذلك، فهم المفسرون- كما رأينا- و من ثم فقد ذهبوا إلى أن الأحقاف بناحية الشحر في الجانب الجنوبي الغربي من الربع الخالي بناحية حضرموت اليمن، و أن في الأحقاف هذه

ص: 246

1- مجلة الهلال 894/23، جواد علي 311/1، و كذا P, 2, IE. 328.

2- أبو الفداء 97/1، ابن كثير 120/1، مروج الذهب 12/2، ابن الأثير 85/1، تاريخ ابن خلدون 19/2، ياقوت 115-116/1

3- سورة الأحقاف: آية 21

4- عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق ص 88 و أنظر القاموس 129/3

كانت منازل عاد (1)، وزاد بعضهم فذهب إلى أنها إنما كانت فيما بين عمان إلى حضرموت فاليمن كله، و كانوا مع ذلك قد فشووا في الأرض كلها، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله (2).

هذا و تتجه الآراء الحديثة إلى أن عاداً، إنما تقع في شمال الجزيرة العربية، وليس في جنوبها، و أنها ربما كانت تموج في المنطقة الممتدة من منطقة «حسمى» في سيناء، حتى منطقة «أجأ و سلمى» في منطقة قبيلة شمر (3)، و لعل أهم ما يؤيد وجهة النظر هذه، ما سبق أن ذكرناه (أولاً) من أن «فورستر» يرى أن القوم الذين ذكرهم بطليموس تحت اسم eatidaO كانوا يسكنون في شمال غرب الجزيرة العربية (4)، و ربما عند موضع «بئر إرم» في منطقة حسمى، و منها (ثانياً) أننا لوقمنا بمسح الوديان الموجودة في شمال الحجاز، لوجدنا فعلاً أن أحد هذه الوديان يسمى «وادي إرم»، كما أثبتت الحفريات الأثرية وجود مكان يسمى «إرم» في منطقة جنوب الاردن (5) و منها (ثالثاً) أن عاداً قد اقترن ذكرها بشمود، «الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ

ص: 247

1- عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ص 28 ياقوت 1/ 115-116، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص 328، المعارف ص 14، البكري 1/ 119-120، ياقوت 5/ 442، قارن: القسطلاني (5/ 333) حيث يجعل قوم عاد يسكنون حضرموت على المحيط الهندي، ثم انظر: تفسير المنار (8/ 495-496) حيث يضيف أن عاداً إنما كانت بين الشام إلى اليمن، و أنظر كذلك روح المعاني 30/ 123، و انظر كذلك «أمين مدني» حيث يرى أن المعينيين إنما هم قوم عاد (العرب في أحقاب التاريخ 2/ 128- القاهرة 1971)

2- تفسير الطبري 12/ 507 (دار المعارف)، تفسير المنار 8/ 495

3- عبد الرحمن الانصاري: المرجع السابق ص 88

4- P, tic- po, retsroF. C .32

5- عبد الرحمن الانصاري: المرجع السابق ص 88

بِالْوَادِ» (1)، و لعله- فيما يرى البعض - وادي القرى (2)، أحد الأودية التي تتخلل سلسلة جبال حسمى، و من بينها جبل إرم، و الذي يسمى الآن «رم»، و يكون الحد الشمالي للحجاز، و عنده يوجد الكثير من الماء (3)، أضف إلى ذلك أن ياقوت قد ذكر جبلا سماه «جش إرم»- عند أجا أحد جبلي طيء- أملس الأعلى، سهل ترعاه الإبل، و في ذروته مساكن لعاد و ارم، فيه صور منحوتة من الصخر (4)، و رغم أن ياقوت قد فرق هنا بين عاد و إرم، و جعلهما قومين، إلا أن «الواو» هنا ربما كانت زيادة من الناسخ (5)، و منها (رابعا) وجود أسماء محلات أخرى، عثر فيها على نقوش و تماثيل، و صفت في الكتب العربية بأنها مساكن قوم عاد (6).

و منها (خامسا) أن حفائر «هورسفيلد» في جبل «رم»- على مبعدة 25 ميلا إلى الشرق من العقبة- و كذا حفائر «سافينياك» و اكتشافات «جليدن»، قد أثبتت أن هذا المكان هو موضع «إرم»، الوارد ذكره في القرآن الكريم، و قد حلّ به الخراب قبل الإسلام، و من ثم فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير «عين ماء» كان ينزل عليها التجار و رجال القوافل الذين كانوا يمرون بطريق «الشام- مصر- الحجاز» (7)، بل قد يفهم من نص «لأبي شامة»، أنه في الفترة التي كان الصليبيون يحتلون فيها حصن «الكرك و الشويك»، كان الجيش المصري يعسكر عند جبل

ص: 248

1- سورة الفجر: آية 9

2- انظر: ابن كثير 1/130، أبو الفداء 1/12، البكري 2/426، الطبري 1/226-227، ابن الأثير 1/89، ياقوت 2/221، المعارف ص

14، تاريخ الخميس ص 84، روح المعاني 8/162، 14/76

3- الويس موسل: شمال الحجاز ص 57، 130

4- ياقوت 2/141

5- جواد علي 1/306

6- جواد علي 1/306

7- جواد علي 1/306، و كذا. 572. euveR. euqilbiB ILX, 1932. P, 581, IILX, 1933. P, 405, ILX, II, 1934. P,

«رم»، أثناء مرور الحجيج من إيلة إلى مكة، وذلك لحماية الحجاج من الهجمات التي كان الصليبيون يشنونها عليهم (1).

ومنها (سادسا) أن بعضا من الكتاب العرب أنفسهم، إنما يرى أن الأحقاف- التي كانت منازل عاد- إنما هي جبل الشام، أو هي حشاف من «حسمى»، و الحشاف الحجارة في الموضع السهل (2)، و أن اسم الأحقاف (حشاف) ما تزال تراه باقيا حتى الآن في المنطقة الجنوبية العربية من البدع «مدين» (3)، بل إن القلقشندي إنما يضع عاد في مدين (4).

ومنها (سابعا) أن هناك من يذهب إلى أن هودا، قد يكون أحد الأنبياء الذين كانوا في منطقة فلسطين و شمال الحجاز، وأنه قد ارسل إلى قوم عاد، و إن كل هذه القرائن مجتمعة تجعلنا نعتقد أن عادا إنما كانت في شمال شبه الجزيرة العربية، و ليس في جنوبها (5).

[5] مبالغت عن العاديين

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن فريقا من المؤرخين و المفسرين، قد أسرف كثيرا في الاستنتاج مما ورد في بعض آي الذكر الحكيم، ففسر بعضهم قوله تعالى «وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً» (6)، إلى أن عادا إنما كانوا في هيئة النخل طولا، و أن الواحد منهم قد يبلغ اثني

ص: 249

1- الويس موسل: شمال الحجاز ص 57

2- البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلدان و المواضع 119 /1

3- الويس موسل: المرجع السابق ص 137

4- القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القاهرة 1959 ص 19

5- عبد الرحمن الانصاري: المرجع السابق ص 88

6- سورة الأعراف: آية 69

عشر ذراعا- وربما الطويل منهم اربعمائة ذراع، وربما خمسمائة (1)- كما كان الواحد منهم يأخذ الصخرة العظيمة فيقلبها على الحي فيهلكهم، وأن الرجل كان يتخذ المصراع من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه، هذا فضلا عن أنهم كانوا في اتصال الأعمار و طولها بحسب ذلك القدر (2)، وفي هذا تحميل للآية الكريمة أكثر مما تحتمل، يشبه ما كانت توصف به فراعنة مصر من الفخامة و الطول، مما كذبه الواقع بعد كشف مومياتهم، و لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن قوم هود كانوا يتميزون بضخامة، لا تزيد على ما يتميز به بعض الأفراد و العشائر بيننا الآن من بسطة في الخلق (3).

و أسرف خيال المؤرخين الإسلاميين كذلك في تفسير الآية الكريمة «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ» (4)، فذهب بعضهم إلى أن «إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ» هذه مدينة و أن الذي بناها إنما هو «شداد بن عاد» في بعض صحارى عدن في ثلاثمائة عام على رواية! و خمسمائة عام على رواية أخرى و كان عمره تسعمائة عام، و ذلك لكي ينافس بها قصور الذهب و الفضة من الجنة التي تجري من تحتها

ص: 250

- 1- لاحظ تعارض ذلك مع حديث الرسول (صلى الله عليه و سلم) «أن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في الهواء، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن» (أنظر: تفسير القرطبي 45/20، ابن كثير 1/144، مقالنا عن قصة الطوفان بين الآثار و الكتب المقدسة)
- 2- مروج الذهب 12/2، تفسير القرطبي 45/20 (طبعة دار الكتب المصرية القاهرة 1950)، الفخر الرازي، التفسير الكبير 168/31، تفسير الطبري 176/30، روح المعاني 123/30
- 3- محمد مبروك نافع: المرجع السابق ص 33
- 4- سورة الفجر: آية 6-8 و انظر: تفسير الفخر الرازي 166/31-169، تفسير القرطبي 44/20-47 (طبعة دار الكتب المصرية- القاهرة 1950)، تفسير الطبري 175/30-178 (طبعة الحلبي- القاهرة 1954) تفسير البيضاوي 557/2 (طبعة الحلبي- القاهرة 1968)

الأنهار، وأنه كتب إلى عماله- وكانوا فيما يصوره خيالهم في جميع ممالك العالم- أن يجمعوا له ما في أرضهم من الذهب والفضة و الدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران، فتوجهوا به إليه، ثم استخرج غواصو الجواهر فجمعوا أمثال الجبال، وأنه أمر بالذهب فضرب أمثال اللبن- وكذا فعل بالفضة- ثم بنى المدينة بهما، ثم زين حيطانها بالدر والياقوت والزبرجد، ثم جعل لها غرفا من فوقها غرف، تعتمد على أساطين من الزبرجد والياقوت، ثم أجرى تحت المدينة واديا طليت حافته بالذهب الأحمر، و جعل حصاه أنواع الجواهر، و بنى في المدينة ثلاثمائة الف قصر، و جعل على بابها مصراعين من ذهب، مفصصين بأنواع الياقوت، و جعل ارتفاع البيوت في المدينة ثلاثمائة ذراع، و بنى خارج السور كما يدور ثلاثمائة ألف قنطرة بلبن الذهب لينزلها جنوده.

و أما مصير المدينة بعد ذلك، فموضع خلاف بين هؤلاء القصاصين، فمنهم من يذهب إلى أنها طارت بعد بنائها في السماء و أن بعض الناس يلمحونها و هي طائرة، و منهم من يذهب إلى أنه لا يراها إلا من كتب الله له ذلك، بل و يروي بعضهم أن رجلا يدعى «عبد الله بن قلاية» رآها على أيام معاوية بن أبي سفيان (41-60 هـ)، و أنه حمل إلى الخليفة منها بعض الأحجار الصغيرة، فضلا عن المسك و الكافور و اللؤلؤ، غير أن هذه الأشياء سرعان ما تحولت إلى تراب عند ما تعرضت للهواء، و من ثم فقد استدعى معاوية كعب الأحبار، و سأله عن خبر هذه المدينة، فأجاب كعب على الفور- كعادته- أنها إرم ذات العماد، و سوف يدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر قصير على حاجبه خال، و على عقبه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر «ابن قلاية»

فقال: هذا والله ذاك الرجل (1) وهكذا يبلغ الخيال ببعض المؤرخين حدا لا نجد له مثيلا إلا في الأساطير، وإلا في التوراة حين تتحدث عن عجائب «يهوه» لشعبه المختار، ولست أدري من أين جاءوا بكل هذا، ثم من أين جاء «كعب الأحبار» بأساطيره هذه، والقصة- كما قلنا- قرآنية صرفة، وليس في التوراة- على فرض أنه خبير بما في التوراة- أية إشارة من قريب أو بعيد عن هذه القصة، ولعل الذي دفع المؤرخين الإسلاميين إلى هذا الغلو في الوصف، أن القوم بعد الفتوحات الإسلامية المجيدة، رأوا آثار الفراعين على أرض الكنانة، و الأشوريين ثم البابليين في بلاد الرافدين فضلا عن آثار الرومان في الشام، ومن ثم فقد أنفقوا أن تكون مدينة عاد أقل من هذه الآثار، إن لم تفقها إلى أقصى الحدود، فكان الخيال، وكان السخف الذي ينزل بكتابتهم من مستوى حقائق التاريخ، إلى مبالغت الأساطير.

وعلى أي حال، فلقد اختلفوا في مكان مدينة «إرم» هذه، فذهب بعضهم إلى أنها «تية أبين» بين عدن و حضرموت، وذهب فريق ثان إلى

ص: 252

1- جرجي زيدان: العرب قبل الاسلام ص 64-66، محمد مبروك نافع: المرجع السابق ص 34-35، مروج الذهب 13/2، تاريخ ابن خلدون 19/2-21، ياقوت: معجم البلدان 1/155-157 (طبعة بيروت 1955)، روح المعاني 30/123 تفسير القرطبي 20/47، محمود أبو رية: أضواء على السنة المحمدية ص 158-159، دائرة المعارف الإسلامية 3/16 قارن: ابن كثير 1/125

الحادي عشر ق. م.، و حتى احتلال الآشوريين لها في عام 722 ق. م.، وأن «عاد إرم»، إنما تعني «عاد أرام»، فضلا عن الآراميين - كما نعرف، و كما توصل إلى ذلك «مورتز» بعد دراسة لأسمائهم - لم يكونوا إلا عربا، هاجروا من شبه الجزيرة العربية إلى منطقة الهلال الخصيب (1)، و من ثم فقد التبس الأمر على المؤرخين المسلمين بين عاد إرم، و عاد أرام، و ظنوا أن ذات العماد صفة، فزعموا أنها مدينة بناها عاد، أو شداد بن عاد (2)، كما أنه ليس هناك من دليل حتى الآن يثبت أن «إرم» هنا، إنما تعني «أرام» (3)، و إن كان من الممكن هنا أن تكون «إِرم ذاتِ العِمادِ» هي التي أوحى إلى النسايبين فكرة جعل «عاد» من نسل «عوص بن إرم»، لتشابه الاسمين، و من ثم فقد كان «عاد» من الآراميين في رأي البعض (4)، على أساس أن «ذات العماد» صفة لدمشق، و أن «جبرون بن سعد بن عاد» نزل بها، و ابنتى مدينة تحليها

ص: 254

1- 67-66. A. R. SENJ, elbiB eht dna ciamarA, snaemarA, mwoB. P. P, 1948, 7,

2- البكري 1/140، ابن سعد 1/19، ياقوت 1/155-157، جواد علي ... 3

3- 121. I, malsI fo, ycnE. P, I,

4- جواد علي 1/303

عمد من الرخام، وقد استغل «لوث» هذه الرواية في تدعيم رأيه القائل بأن اسم «إرم» لا يتصل إلا بالروايات الآرامية (1)، بخاصة وأن هناك اتجاهها يذهب إلى أن عاداً، إنما كانت في شمال بلاد العرب وليس في جنوبها- كما أشرنا آنفاً- على أن «دمشق» وكذا الاسكندرية- ليستا من بلد الأحقاف و الرمال (2).

و أما اختيار الاسكندرية، فقد كان- فيما يرى المستشرقون- بسبب انتشار قصص الإسكندر الأكبر (356- 323 ق.م.) في الأساطير العربية الجنوبية، وبخاصة في كتابات وهب بن منبه، و من ثم فقد غدا «شداد بن عاد» بانبا للإسكندرية وأصبح الاسكندر المقدوني ليس إلا مكتشفا لها (3)، و يروي المسعودي أن الاسكندر المقدوني إنما اكتشف في موقع الاسكندرية أثرا لكتابة بخط المسند يسجل فيها «شداد بن عاد» أنه كان يبغى أن يبني هنا مدينة كمدينة إرم، غير أنه كان في عجلة من أمره، و لعل هذا يفيد أن الإسكندرية ليست إرم، وإنما مجرد مدينة أراد شداد أن تكون كإرم (4).

على أن هناك من يرى أنه ليست هناك مدينة في الأصل اسمها «إرم»، وأن كل ذلك لا يعدو أن يكون أثرا من خيال القصص الذي لعب دورا هاما في ضعاف المفسرين، و من ثم فإن «إرم» هي الأمة- وربما القبيلة- ولكنها ليست المدينة (5).

ص: 255

1- دائرة المعارف الإسلامية 15 /3

2- تفسير الطبري 178 /30، تفسير الألوسي 123 /30، تفسير الفخر الرازي 167 /31

3- P, 1939, 73, ROSAB, 13

4- تفسير القرطبي 46 /20- 47، تفسير الألوسي 156 /8- 157، دائرة المعارف الإسلامية 15 /3- 16، مروج الذهب 410 /1، ياقوت 184 /1- 185

5- تاريخ ابن خلدون 19 /2، جرجي زيدان: المرجع السابق ص 65، قارن: تفسير القرطبي 45 /20- 46، تفسير الطبري 175 /30- 177، الفخر الرازي: التفسير الكبير 167 /31- 168

اختلف المفسرون في اسم النبي الكريم- هود عليه السلام- وفي نسبه كذلك، فهو «هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح» على رأي، وهو «هود بن خالد بن الخلود بن العيص بن عمليق بن عاد» على رأي ثان، وهو «عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح» على رأي ثالث (1)، وربما كان الرأي الأول- حدسا عن غير يقين- أقرب إلى الصواب، لأن الرأي الثاني يجعله من العماليق، ولأن الرأي الثالث يجعله ذا صلة قريبة بيهود، لأن «عابر» إنما هو جد اليهود (2)- طبقا لرواية التوراة (3)- فضلا عن أن الأثر الإسرائيلي يبدو واضحا في هذا الرأي.

و الأمر كذلك بالنسبة إلى مكان دفنه، فهناك رواية تذهب إلى أنه إنما كان في دمشق (4)، غير أن هذه الرواية- كما يبدو- متأثرة بالعلاقة التي أشرنا إليها بين «إرم» و «أرام»، وربما بالظروف السياسية وقت كتابتها، ذلك لأن أصحاب هذه الرواية قد حددوا المسجد الأموي مكانا للدفن، بل لقد ذهب البعض إلى أن هودا قد بنى الحائط القبلي للجامع، ولعل السبب في ذلك الاسرائيليات التي انتشرت بين المفسرين- على أيام

ص: 256

-
- 1- المقدسي 32/3، روح المعاني 154/8، تاريخ ابن خلدون 20/2، تاريخ يعقوبي 22/1، الأخبار الطوال ص 4-5، المعارف ص 16، نهاية الأرب للقلقشندي ص 329، ابن حبيب: المحير ص 385، تفسير المنار 495/8-497، تاريخ الخميس ص 84، الإكليل 1/87، عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 49
 - 2- انظر كلمة عبري: وصلتها بعابر في كتابنا إسرائيل ص 1-6
 - 3- تكوين 10: 1، 21
 - 4- ابن كثير 1/130، تفسير الألوسي 8/161، رحلة ابن بطوطة 1/205، 2/203، ياقوت 1/156، 2/463-465، جواد علي 1/313

بني أمية- بهدف تفضيل الشام على بقية المناطق الإسلامية، حتى جعلوا «دمشق» واحدة من مدائن أربعة، زعموا أنها من مدائن الجنة (1)، وربما كان ذلك تمجيذا للمسجد الأموي، في وقت كان فيه «عبد الله بن الزبير» يتحصن بالمسجد الحرام في مكة المكرمة، وكان أهل الحجاز في شبه تحزب عام ضد بني أمية (2)، وربما أن المسجد الأموي كان في بادئ أمره كنيسة بها قبور بعض قديسي أهل دمشق، فلما تحولت إلى مسجد، تحولت قبور قديسيها بعواطف الناس إلى قبور للأنبياء (3)، وهنا لعبت السياسة دورها، فاستغلت عواطف الناس - أو قل عواطف السذج منهم- وضعاف الكتاب الأخباريين، فجعلت منه شيئا يرجع في قداسته إلى أبعد العهود، وما أكثر ما لعبت السياسة هذا الدور في تاريخ الشرق الأدنى في كثير من عصوره.

وهناك رواية أخرى تذهب إلى أن اليمن، إنما كانت مكان دفن النبي الكريم (4)، بينما تذهب رواية ثالثة إلى أنه قد دفن في حضر موت، في كتيب أحمر، عند رأسه سمرة (5)، وأن هناك قرية تسمى حتى الآن «قبر هود» (6)، أو في «وادي برهوت» على مقربة من مدينة «تريم»، غير

ص: 257

-
- 1- فتح الباري 69/13، روح المعاني 123/30، تاريخ ابن عساكر 14/1، 57، وأنظر: أضواء على السنة المحمدية ص 129-135، 172-170
 - 2- أنظر: عبد المنعم ماجد 2/79-91، ابن الاثير 3/265-316، الأزرقى 1/196-200، التنبيه والاشراف ص 402-404، الأخبار الطوال ص 260
 - 3- جواد علي 1/313
 - 4- ابن كثير 1/130
 - 5- نهاية الأرب للنويري 13/60، تفسير المنار 8/496، روح المعاني 8/161، تفسير الطبري 12/507 (دار المعارف)، ابن سعد 1/25، ياقوت 2/270، و كذا P, tic- po, retsroF, C, 374، و كذا: تاريخ اليعقوبي 1/270، صفة جزيرة العرب ص 87، ياقوت 1/116، قصص القرآن ص 27
 - 6- مبروك نافع: المرجع السابق ص 33

بعيد عن «بئر برهوت» (1)، التي اشتهرت في الجاهلية بأنها شرب بئر في الأرض، ماؤها أسود، ورائحتها كريهة، حتى ذهب الخيال بالبعض إلى أنها موضع تتعذب فيه أرواح الكافرين، وأنها تقذف بألوان من الحمم، يسمع لها أزيز راعب (2)، وهكذا نشأت قصة قبر هود، وهكذا حيك الروايات الساذجة عن عذاب عاد (3).

و هناك رواية رابعة تذهب إلى أن النبي الكريم إنما دفن في فلسطين (4)، بينما تذهب رواية خامسة إلى أن هودا قد ذهب مع من آمن به إلى مكة- و عددهم ثلاثة آلاف على زعم، و أربعة على زعم آخر- و أنه أقام هناك، و دفن بالحجر من مكة، فقبره إذن بمكة، بجوار قبور ثمانية و تسعين نبيا (5).

هذا و يقدم لنا الأخباريون رواية، مؤداها: أن وفدا من سبعين رجلا من عاد، يذهب إلى مكة ليستسقي لهم، و أن هذا الوفد قد نزل عند معاوية بن بكر- و كان بظاهر مكة خارجا عن الحرم- و أنه أقام عنده شهرا، يشرب الرجال فيه الخمر، و تغنيهم الجواري، و أن معاوية حين رأى طول مقامهم عنده، أوعز إلى جاريتته أن تغنيهم شعرا يذكرهم بمأساة قومهم، و حين فعلت الجاريتان تذكر القوم مهمتهم (6).

ص: 258

-
- 1- ياقوت 1/ 405، روح المعاني 8/ 156، تاريخ حضرموت السياسي 1/ 65
 - 2- نفس المرجع السابق ص 67، ياقوت 2/ 270، لسان العرب 1/ 143، 2/ 314، جواد علي 1/ 312
 - 3- أنظر 21. P, egaS ehcsibaradeuS eid rebU, remarK noV، و كذا: صفة جزيرة العرب ص 70
 - 4- الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 240، النجار: قصص الأنبياء ص 53
 - 5- روح المعاني 8/ 161، أبو الفداء 1/ 12، جواد علي 1/ 313، و كذا 2، P, 327. ycnE malslfo.
 - 6- تاريخ الطبري 1/ 217-226 تاريخ ابن خلدون 2/ 20، ابن كثير: البداية و النهاية 1/ 126-128

وليس يهمننا هنا أن تكون الرواية صحيحة، أو لا تكون، فذلك شأن من يعتقدون أن لهذا القصص نصيبا من صواب، وإنما الذي يهمننا هنا أن الذين يروون هذا القصص هم أنفسهم الذين يضعون هودا وقومه في مرحلة تاريخية سابقة لعهد الخليل عليه السلام، وهم في الوقت نفسه يرون أن مكة لم تعمر إلا منذ عهد إبراهيم، وربما بعده، «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (1)، فضلا عن أن الشعر الذي يروونه في هذه المناسبة، لا يمكن أن يكون من ذلك العهد الغابر، ولعله في أغلب الظن شعر منحول.

وأما قصة قبره عليه السلام في فلسطين، فربما كانت ترتبط بالروايات التي تجعل قوم عاد من شمال شبه الجزيرة العربية، وليس من جنوبها، فإذا كان ذلك كذلك، فربما كانت تحمل نصيبا من صواب.

[7] عصر قوم هود

لا شك أن الحديث عن تحديد عصر لقوم هود، إنما هو أمر بالغ الصعوبة، فالقصة- كما قلنا- قرآنية صرفة، وليس في القرآن الكريم- أو في السنة النبوية الشريفة- إشارة صريحة إلى ذلك، والآثار صامتة تماما في هذا المجال، وليس هناك أي نوع من الوثائق التاريخية التي يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليها في الوصول إلى نتيجة يظن أنها الصواب، أو

ص: 259

1- سورة إبراهيم: آية 37، وانظر تفسير النسفي 2/ 263-264، تفسير القرطبي 9/ 368-274، تفسير الكشاف 2/ 380، تفسير ابن كثير 4/ 141-142، تفسير الطبري 13/ 229-235، الدرر المنتثر 4/ 86-87.

حتى قريبا من الصواب، و من ثم فإن المحاولة لا تعدو أن تكون حدسا عن غير يقين.

على أننا ربما نستطيع أن نحدد ذلك العصر بالألف الثانية قبل الميلاد، على وجه التقريب، ذلك لأن القرآن الكريم إنما يذكر عادا بعد ثمود- وهي دون شك أوضح تاريخا من عاد- هذا إلى جانب أنه إنما يذكر عادا كذلك بعد قوم لوط أما ثمود، فهي واحدة من القبائل العربية التي جاء ذكرها في الكتابات الآشورية، على أنها كانت تعيش في شمال شبه الجزيرة العربية منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وأما قوم لوط، فقد كانوا معاصرين للخليل عليه السلام، وهو الذي حددنا لعهد من قبل- وكما جاء في كتابنا اسرائيل (1)- الفترة (1765 ق. م.)، على وجه التقريب، و من ثم فإننا ربما نستطيع أن نقول، أن عادا إنما كانت في الفترة ما بين عهد إبراهيم الخليل، و بين عهد ثمود، و من هنا فربما لو وضعنا قوم عاد في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، لما تجاوزنا الصواب بكثير.

على أن الأمر، قد يختلف كثيرا، إذا ما كان صحيحا ما ذهب إليه بعض الباحثين- كما أشرنا من قبل- من الربط بين «إرم» و «أرام»، و أن «إرم» إنما تتصل بالأراميين، و بمعنى آخر أن هناك صلة بين قوم عاد و بين الآراميين عن طريق «عاد إرم»، فإذا كان ذلك كذلك، فإن قوم عاد إنما يرجعون إلى ما قبل ظهور الآراميين في العراق القديم في القرن الثالث و العشرين قبل الميلاد، كما أشرنا من قبل- و هذا يتفق مع وجهة نظر بعض المؤرخين و المفسرين الإسلاميين من أن عادا إنما أتوا قبل إبراهيم عليه السلام، أي قبل القرن العشرين قبل الميلاد.

ص: 260

1- أنظر ما سبق «عصر إبراهيم»، و كذا كتابنا اسرائيل ص 171-176

وإذا صدقت وجهة النظر هذه، فإننا نستطيع أن ندعمها بعدة أدلة، منها تلك الآيات الكريمة التي جعلتهم خلفاء لقوم نوح (1)، و منها ورود قصة هود بعد قصة نوح، عليهما السلام، في كثير من المرات في القرآن الكريم (2)، هذا فضلا عن ذكر عاد و ثمود، بين قوم نوح وقوم إبراهيم (3)، و منها قوله تعالى «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَ ثَمُودَ، وَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ» (4)، و قد اتخذ البعض من هذه الآية الكريمة، و التي قبلها، دليلا على أن هذه الأقوام، إنما سبقت عهد موسى - أي القرن الثالث عشر ق. م. (5) على أساس أن الخطاب هنا موجه إلى قوم موسى (6).

غير أن ابن كثير، إنما يرى أن الخبر مستأنف من الله لهذه الأمة- أي أمة محمد (صلى الله عليه و سلم)- لأن قصة عاد و ثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من قول موسى لقومه و قصصه عليهم، فلا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة (7)، و توسط البيضاوي بين أن يكون من كلام موسى، أو كلام مبتدأ من الله (8)، أضف إلى ذلك أننا نرى الترتيب يختلف في سورة الشعراء، إذ تسبق قصة موسى (10-68) قصة إبراهيم (69-89) ثم تأتي بعد ذلك قصة نوح (105-121) فقصة هود (124-140) ثم قصة صالح (141-159) فقصة لوط (160-175) ثم قصة شعيب

ص: 261

1- سورة الأعراف: آية 69، سورة إبراهيم: آية 9، سورة غافر: آية 31

2- أنظر مثلا سور: هود و الأعراف و المؤمنون و الشعراء

3- سورة التوبة: آية 70

4- سورة إبراهيم: آية 9، و انظر سورة غافر: آية 31

5- راجع عن عصر موسى: كتابنا إسرائيل ص 268-303

6- تفسير الطبري 13/187 (طبعة الحلبي 1954)

7- تفسير ابن كثير 4/111

8- تفسير البيضاوي 1/525-526

(176-191)، بل إن ثمودا إنما تتقدم عاد في سورة «ق» حيث يقول سبحانه و تعالى: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ، وَ
عَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ» (1).

ص: 262

1- سورة ق: آية 12-13

ينسب التموديون إلى «ثمود بن جاثر بن إرم بن سام (1)»، ويذهب البعض إلى أن ثمودا، إنما هو أخو «جديس و طسم» وأنهم أبناء «عابر بن إرم بن سام بن نوح (2)»، ويكتفي البعض بارجاع نسبهم إلى عاد، على أنهم بقية من عاد (3) و أما النبي الكريم، صالح عليه السلام، فهو في رأي البعض - «صالح بن عبيد بن آسف بن ماسخ (أو ماشج) بن عبيد بن حاذر (أو حاجر) بن ثمود» وهو - في رأي البعض الآخر - صالح بن آسف بن كما شج بن إرم بن ثمود، وهو - في رأي فريق ثالث - صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود، إلى غير ذلك من سلسلة أنساب (4).

ويجمع المؤرخون الإسلاميون على أن التموديين عرب، بل و يكادون يتفقون على أنهم من العرب العاربة (5)، ثم يذهبون بعد ذلك مذاهب شتى، حيث يرى فريق منهم أنهم بقية من قوم عاد، و من ثم فإنهم يرون

ص: 265

-
- 1- ابن الأثير 89/1، صبح الأعشى 1/313، المحبر ص 395، المعارف ص 13، المقدسي 37/3، نهاية الأرب للقلقشندي ص 200، تفسير الطبري 524/12 (دار المعارف)
 - 2- ابن كثير 1/130، مروج الذهب 2/14، قارن: تفسير المنار 8/501، تفسير الطبري 12/524
 - 3- تاج العروس 2/312، لسان العرب 3/105
 - 4- تاريخ الطبري 1/226، ابن كثير 1/130-131، أبو الفداء 1/12، ابن الأثير 1/89، تفسير المنار 8/501، روح المعاني 8/162، المحبر ص 385، المعارف ص 14، الاكليل 2/291، المقدسي 3/37، قصص الأنبياء ص 58
 - 5- ابن كثير 1/13

أنهم إنما نشئوا في اليمن، ثم غلبهم الحميريون فأجلوهم إلى الشمال، فسكنوا منطقة الحجر (1)، و تلك رواية يناقضها (أولا) ما ذهبنا إليه من قبل، من أن عادا إنما كانت في شمال شبه الجزيرة العربية وليس في جنوبها و يناقضها (ثانيا) دعواهم بأنهم من العرب العاربة، وأنهم كانوا قبل عهد إبراهيم عليه السلام، و الخليل- كما أشرنا من قبل- إنما كان يعيش في الفترة (حوالي 1940-1765 ق. م.)، بينما بدأ الحميريون- كما هو معروف- سيادتهم في اليمن في فترة تقرب من الميلاد بقليل أو كثير (2)، و من ثم فالفرق بينهما جد شاسع.

و هناك فريق آخر، يذهب إلى أنهم بقية من العماليق، و لعل هذا هو الذي دفع بعضها من المؤرخين المحدثين إلى القول بأن ثمودا، إنما هم شرذمة من الهكسوس، الذين طردهم احمس الأول في حوالي عام 1575 ق. م.، من مصر (3)، و أنهم سكنوا منطقة الحجر، حيث نحتوا من الجبال بيوتا على غرار المقابر المصرية القديمة التي شاهدها أثناء إقامتهم في مصر (4).

و ليس لهذا الرأي من دليل، سوى أن أصحابه قد افترضوا أن الهكسوس من العماليق- الأمر الذي رفضناه في دراستنا عن الهكسوس (5)- و أن الثموديين بقية من هؤلاء العماليق، فإذا كان ذلك كذلك، فكيف سكت «احمس» عليهم، و هو الذي حاصر الهكسوس في «شاروهين»- و هو موقع في

ص: 266

1- أبو الفداء 70/1، اللسان 105/3، تاج العروس 312/2

2- عن مبدأ التقويم الحميري: أنظر Gethcihse sneibaraduS, I, 1937, P. 96. G. R. SnamkyR, C. S. EignolonorhC, S. Egnneebs
eL, 1964, P. 4-3, P. 429-407. F. F. LemmoH,

3- أنظر كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة»- الباب الثاني-

4- محمد مبروك نافع: المرجع السابق ص 36

5- محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 131-137

جنوب غرب فلسطين - ثلاثة أعوام، حتى أجلاهم عنها (1)، بل كيف يترك أحسن بقية منهم يقيمون دويلة - أو حتى إمارة صغيرة - على تخوم دولته، وهو الرجل الذي حدثتنا النصوص التاريخية من أيامه، على أنه قد طارد الهكسوس حتى «زاهي»، ومعنى هذا أنه لم يظهر مصر منهم فحسب بل طهر كذلك فلسطين و لبنان، ثم كيف سكت الفراعين على أيام الامبراطورية المصرية (1575-1087 ق.م.) على هذه الجيوب المعادية في جنوب الإمبراطورية على حدود فلسطين - أو قل على حدود الإمبراطورية مباشرة - وفي منطقة تسيطر على طريق القوافل بين مصر و جنوب شبه الجزيرة العربية، وهي جد هامة.

و أما النحت الذي تعلموه من مصر، فلا أظن أن ذلك يستدعي اقامتهم في أرض الكنانة، فوسائل الاتصال بينهم و بين مصر جد كثيرة، و لعلها قد تسربت عبر البحر الأحمر ضمن المؤثرات المصرية في الحضارة العربية القديمة (2) و هناك فريق ثالث يذهب إلى أن الثموديين عرب جنوبيون (3)، هاجروا إلى شمال غرب الجزيرة العربية، كدأب كثير من القبائل الجنوبية التي اشتهرت بكثرة تنقلاتها (4)، و لا أظن أن هذا الفريق من المؤرخين المحدثين قد أصاب كثيرا في رأيه هذا، لأن العادة أن يهاجر الناس من

ص: 267

1- أنظر: نفس المرجع السابق، احمد فخري: مصر الفرعونية ص 256-257 و كذا 32. P, tsaE eht deluR tpygE nehW, eleeS.

K dna fjrodniets. G

2- أنظر مقالنا «العرب و علاقاتهم الدولية في العصور القديمة»

3- أنظر 673-659. P, malsI'L tnavA eiryS ne sebarA sed noitarteneP al. 132 .P, O. GMDZ, nalB .O .P, 1868, 22,

,duassuD .R F 123 .P, 2, demmahuM netehporP mucsib netieZ netsetla ned nov sneibarA eihpargroeG

dmuethcihcseG red ezzikS, resalG .E

مواطن القحط إلى الخصب و النماء، و ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى اليمن و شمال غرب الجزيرة العربية، ثم إن الهجرات العربية الجنوبية، إنما حدثت في وقت متأخر عن ذلك، و لعل أشهرها تلك الهجرات التي حدثت بعد التصدع الخطير الذي أصاب سد مأرب في القرن السادس الميلادي، و أن كنا نعرف هجرات يمنية متعددة إلى السواحل الإفريقية، بدأت منذ الألف الثاني ق. م.، و استمرت حتى القرن الثالث الميلادي، بل إن بعض الباحثين يرى أن الأحباش أنفسهم، إنما كانوا من غرب اليمن (1).

و أيا ما كان الأمر، فهناك ما يدل على أن الثموديين إنما كانوا من القبائل العربية التي سكنت شمال شبه الجزيرة العربية، هذا فضلا عن أن قبيلة ثمود هذه لم تكن مملكة بالمفهوم الحضاري، و لم تتوطن بشكل دائم في منطقة من المناطق إلا إذا أخذنا في الاعتبار ما يقوله بعض المؤرخين من أن النبطيين و اللحيانيين أصولهم ثمودية، و عندئذ يمكن أن نقول أن هذه الممالك ممالك ثمودية باعتبار أصولها، و إن كانت قد اتخذت اسما جديدا (2).

[2] ثمود في الكتابات القديمة

ليس من شك في أن قصة ثمود اوضح بكثير من قصة عاد، فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد، و الكتابات الآشورية تتحدث عن الثموديين هؤلاء،

ص: 268

1- راجع مقالنا الآنف الذكر، ثم أنظر: فضلو حوراني: المرجع السابق ص 54، موسكاتي: المرجع السابق ص 213، 74-271، P. P. C sreteP. eht fo odarodI eht tneicnA و كذا 126. p, rebarA eiD . 25. G. A. nnamhear. A. tic- po,

2- عبد الرحمن الانصاري: المرجع السابق ص 89

الأشورية الطموح، أو أن الهدف لا يعدو أن يكون تعمير مناطق مر بها الآشوريون إلى السامرة، إنما قد عادوا في زمن لا حق لا نستطيع تحديده على وجه اليقين، وأنهم قد أسكنوا في مدين (1).

هذا وقد جاء ذكر الثموديين في النقوش السبئية، و من ذلك نقش، يرجع إلى نهاية القرن السادس أو بداية القرن الخامس ق. م.، ويحكي قصة اثنين من قبيلة ثمود كانا يباشران العمل في ري نخيلهما، ورغم أننا لا نعرف من أي مكان جاء هذا النقش، على وجه اليقين، فأغلب الظن أنه من بلاد سبأ (2). هذا وقد عثر في «نجران» على نقشين سبئيين كذلك، ورد فيهما اسم الإله (صلم)، الذي كان معبودا ثموديا في منطقة تيماء في العقد الذي استوطن فيه الملك البابلي «بنونيد» هذه المدينة- أي في الفترة (555-546 ق. م.)، بعد حملته المشهورة التي احتل فيها تيماء وديدان وخبير ويثرب (3)، ويبدو- على أي حال- أن النقش، الآنف الذكر، من عمل مهاجرين ثموديين (4) و الأمر كذلك بالنسبة إلى نقشين سبئيين يذكران كذلك اسم ثمود، وقد عثر على الواحد منها في وادي «ثوبا»- على مبعده 200 كيلومتر إلى الشمال الشرقي من عدن، بينما عثر على الآخر في سابق، بوادي ميفعة جنوب عدن (5).

وقد تحدث الكتاب الفدामी من الأغارقة والرومان عن الثموديين كذلك، فقد جاء في «استرابو» (66-24 م) أن

ص: 270

P, tic- po, resalG. E .102 -1

P, duomahT ed eriotSiH, nednarB ned naV .16 و N, sib, 3902, euqitimeS eihpargipE'd eriotrepeR .130 -2

P ,rozzahsleB dna sudinobaN ,ytrehguoD .P .R 38 .P ,skeerG ehT dna aisreP ,nruB .R .A 363 .P ,tic. 107 -3

-po ,renidraG .A

P .P ,1944 ,SARJ ,snoitpircsnI narjaN ,nottirT .S .A dna ,yblihP .B .J. 119- 29, -4

euqitimeS eihpargipE'd eriotrepeR ,5054 -5

«194- 276) «SENEHTSOTARE ق. م.) قد قسم بلاد العرب إلى قسمين، الواحد شمالي ويسكنه الأنباط، والآخر جنوبي، و يسكنه المعينيون والفيثانيون والحضارمة، وبين الاثنين منطقة وسط- هي الحجاز وعسير- يسكنها «عرب يقتفون الأثر ويرعون الإبل» (1)»، وأكبر الظن أن الرجل قد قصد بذلك الثموديين الذين شاهدتهم «ارستون» الذي قام برحلته على سواحل البحر الأحمر الشرقية على أيام بطليموس الثاني (284- 246 ق. م.) وأنهم كانوا- طبقا لتقريره- يسكنون أراض من الحجاز تقع إلى الجنوب من الأنباط (2).

وفي القرن الثاني الميلادي نرى «اجاثر شيدس» (120) «sedeihcrahtagA م) يشير إلى أن الثموديين إنما كانوا يحتلون وقت ذلك شواطئ البحر الأحمر، بين الوجه المويالح، ويصف «ديودور» هذه الشواطئ بأنها تمتد مائة ستاد، وأنها صخرية شديدة الإنحدار، وأما «أورانيوس» فثمود، إنما تقع في رأية على حدود المقاطعة النبطية (3).

ويبدو أن صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأرتيري (4)» كان يعتمد على موارد أكثر قدما، فهو يرى أن «inednumahT» كانوا يقيمون على ساحل صخري طويل، لا يصلح للملاحة، فلا خلجان تأوي إليه القوارب اتقاء العواصف من الرياح، ولا موانئ ترسوا فيها، أو جزر

ص: 271

-
- 1- 7- 8- A. nednarB ned naV .A. 7- 8- 1 P .P, SI, ROIB ,sneeduomahT emelborP ud noituloS ed iassE, nednarB ned naV .A. 7- 8- 1
- 2- فضلو حوراني: المرجع السابق ص 53- 54، إبراهيم نصحي: دراسات في تاريخ مصر ص 121 وكذا 14. P, SI, AEJ ni, nraT. .14
- W
- 3- الويس موسل: شمال الحجاز ص 92، وكذا 262. P, II, aeS naearhtyrE eht fo sulphireP ehT, tnečni V. W. 262
- 4- يحدد البعض تاريخ هذا الكتاب بالفترة (50- 60 م) (فضلو حوراني ص 54)، ويحدده آخرون لعام 75 م (موسكاتي ص 78)، أما جاكلين بيرين فتحده لعام 106 م (193- 167. P. P noitad as te nabataQ ed ebarA- duS emuayoR eL .167- 193)

تحتمي بها من الأخطار، و من ثم فربما كان ما يعنيه أن مواطن الثموديين، إنما كانت في الحجاز على سواحل البحر الأحمر (1).

أما موسوعة «(silarutaN airotSiH)» ل «بليني الأكبر» (32-79 م) فتضع «ieadumaT» بين «atamoD» و «argeaH» و مدينة دعتها «(2) (aznahcaB) (ahtanadaB)»، أما الحجر، فهي الخريبة الحالية (العلا-) على رأي، و مدائن صالح، على رأي آخر، و أما «دوماتا» فهي دومة الجندل في الجوف جنوب وادي السرحان، أما المدينة الثالثة، فيعتقد «ادوارد جلازر» أنها «بيشة» الحالية في عسير (3)، و هكذا نرى «بليني» إنما أسكن الثموديين في الداخل، فربما لأن الساحل في ذلك الوقت إنما كان يحتله اللحيانيون، الذين يعتبرون فرعا من الثموديين (4)، كما أشرنا آنفا.

و لعل «كلوديوس بتولمايس» (138-165 م)، أقرب إلى المصادر العربية منه إلى المصادر الكلاسيكية، فهو يضع الثموديين بين أل «ianekaraS» و بين «EATAPA»، أي في الجزء الشمالي الغربي من بلاد العرب (5)، على شواطئ مدين، وربما امتد نفوذهم إلى ما وراء

ص: 272

1- جواد علي 325 / 1، و كذا «و كذا» «كتابنا بلاد العرب»، و كذا 262. P, tic- po, lisuM. A . P, tic- po, tneckV. W 302.

2- 32.. P, tic- po, yrotsiH larutaN ,gnilP. (mahkcaR .H ,yb detalsnarT), 2 .P .P ,6 ,57 -456.

3- 126 .. P, tic- po. resalG. E .

4- 104 .. P, tic- po, resalG. E .

5- الويس موسل: شمال الحجاز ص 92، جواد علي 325 / 1، و كذا. 360. P, tic- po, sgnitsaH. J 7: 19, V, 2: 7, IV, 4: 7, .

IV, ymelotP

خليج العقبة (1)، بل إن نفس المؤلف ليشير إلى أنهم إنما سكنوا في المناطق الداخلية كذلك، وبخاصة حول جبل «زاماتوس»، و الذي يرى فيه «جلازر» جبل عريض (2).

و هكذا يبدو من جغرافية بطليموس أن ديار ثمود كانت غير بعيدة عن ديار عاد، لا يفصل بينهما إلا ديار «ionekaraS» وكلها في أعالي الحجاز، في منطقة الطرق التجارية التي تصل بين الشام و مصر من ناحية، و اليمن و الحجاز من ناحية أخرى، فإذا كانت «الحجر» و ما والاها مواطن ثمود، و جب أن تكون ديار عاد على مقربة منها (3).

و على أي حال، فإن المصادر الكلاسيكية، إنما تدلنا على أن الثموديين قد احتلوا المناطق التي سبق للجيش الآشورية أن احتلتها منذ قرون مضت، و هي مناطق الجوف و موصري (4)، حتى «باداناhtaB» في الجنوب، إذا صح ما افترضه «جلازر»، و لكن يجب أن نأخذ في الاعتبار أن الأماكن التي خصصتها المصادر المختلفة كمواطن لقبيلة ثمود، إنما كانت عرضة للاحتلال أو الإخلاء من جانب الثموديين، تبعاً للظروف السياسية السائدة في ذلك الوقت، غير أنه يجب

ص: 273

1- 360- P, tic- po, sgnitsaH. J .360، ويشير الزميل الدكتور خالد الدسوقي في بحثه (قوم ثمود: بين روايات المؤرخين و محتويات النقوش) (في مجلة كلية اللغة العربية و العلوم الاجتماعية- العدد السادس- 1976 ص 251-296) إلى أن النقوش و الرسومات التي عثر عليها في النقب تؤكد المعلومات التي أوردها بطليموس، قارن 49- 57 .- D ni sgniwarD .QEP, vegeN lartneC eht ni sgniwarD .P.P, 1955, E. itanA, kcoR tneicnA

2- 108 .E .G. resalG. P, tic- po,

3- جواد علي 325/1

4- أنظر ما كتبناه عن «موصري» هذه، في كتابنا «بلاد العرب»، ثم في كتابنا «إسرائيل» ص 225-237، و انظر كذلك: tic -po; A .A 228 .P, tic -po, yelretseO .E .O .W 5 .P, tic -po, relkniW .H 199 -197 .P .P, tic -po, sdoL .A كذا مادة sudoxE في 295. p ehT 295. p aidaepolcycnE hsiweJ

ألا نطبق ذلك كحقيقة مطلقة على الثموديين، آخذين في الاعتبار طبيعتهم كقبيلة بدوية، كما يجب ألا نأخذ كذلك المعلومات التي امتدنا بها المصادر الكلاسيكية كما هي، لأن الصورة التي ترسمها لمواطن الثموديين ليست كاملة، ففي الوقت الذي يتجاهل فيه «استرابون»- اعتمادا على مصدر من القرن الثالث ق. م.- وجود قبيلة ثمود، فإن معاصره «ديودور الصقلي» يذهب إلى أن ثمود، إنما كانت تسكن شواطئ البحر الأحمر، ثم يأتي «بليني» فيذهب إلى أن الثموديين إنما اتخذوا مواطنهم في الداخل، وليس على ساحل البحر الأحمر، ذلك لأن الرجل لم يكن- فيما يبدو- على علم باللحيانيين الذين كانوا يقطنون وقت ذاك سواحل مدين، والذين اعتبروا فرعا من ثمود، و تمضي ثلاثة أرباع القرن، و يأتي بطليموس فيجدد مواضع ثمود على شاطئ مدين، ثم يمتد بها حتى داخل الحجاز (1).

و هكذا يمكن القول بأن الثموديين إنما كانوا يسكنون في القرن الثاني ق. م.، و حتى نهاية القرن الثاني الميلادي في بلاد مدين، فضلا عن أننا نجدهم منذ بداية القرن الأول الميلادي في الحجاز و الجوف و وسط الجزيرة العربية، و أنهم قد بقوا في هذه المناطق حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يمكن استنتاجه من المصادر الآشورية و إشارات المؤرخين العرب، لأمكن القول، أنه منذ بداية القرن الثاني الميلادي، فإن المنطقة التي سكنها الثموديون قد اتسعت تدريجيا حتى شملت بلاد العرب الشمالية و الوسطى، من الحدود السورية شمالا، إلى مسافة قريبة

ص: 274

من حدود سبأ جنوباً (1) وأما المصادر العربية، فتكاد تجمع على أن ثموداً إنما كان مقامها بالحجر إلى وادي القرى بين الحجاز و الشام (2). على أن ارتباطها بعاد (3) إنما يقتضي تقاربهما في المكان، و من ثم فقد ذهب البعض إلى أن ثموداً إنما كانت بين الشام و الحجاز، إلى ساحل البحر الحبشي (البحر الأحمر)، و ديارهم بفتح الناقة، و أن بيوتهم منحوتة في الجبال، و أن رممهم كانت حتى أيامه (توفي 346 هـ) باقية، و آثارهم بادية، و ذلك في طريق الحجّ لمن ورد الشام في وادي القرى (4) و على أي حال، فوفقاً للنقوش الموجودة على معبد الغوافة الذي بنته قبيلة ثمود، فيما بين نهاية عام 166 م، و بداية عام 169 (5)، فإن ثمود كانت

ص: 275

1- نفس المرجع السابق ص 281-282

2- ابن كثير 1/130، أبو الفداء 1/12، البكري 2/426، الطبري 1/226-227، ابن الاثير 1/89، تفسير المنار 8/501، 12/120، تفسير الألوسي 8/162، 14/76، تفسير البيضاوي 1/545، تفسير ابن كثير 4/171، تفسير الطبري 12/524، 528 (دار المعارف)، روح المعاني 30/124، تفسير القرطبي 10/46 (دار الكاتب العربي 1967)، 20/48 (دار الكتب المصرية 1950)، تفسير النسفي 2/277، تفسير الطبري 14/49-50 (دار المعارف)، تفسير الجلالين 1/545 (نسخة على هامش البيضاوي)، تاريخ الخميس ص 84، ياقوت 2/221، المعارف ص 14، المحبر ص 384، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص 19، 200، قصص الأنبياء ص 58-59

3- كثيراً ما يقرن القرآن الكريم ذكر عاد بثمود، كما في التوبة و إبراهيم و الفرقان و ق و النجم و الفجر، بل ان هناك تشابهاً بين القصتين في الوقائع و في المصير، بل و في كثير من التعابير

4- مروج الذهب 2/14، نهاية الأرب 13/71، جواد علي 1/324، جرجي زيدان: المرجع السابق ص 67، ميرويل نافع ص 36

5- ROIB. 15, 1958, P. 8-9, duomahT ed eriotSiH, P. 15, M. H. gniryeS ni ,airyS ni ,34, 1957, P. J. B. ybihP ehT dnaL fo dnaM naidiM, JEM, 9, 1955, P. 127, F, nednarB ned naV

في منتصف القرن الثاني الميلادي تملك حرة العوارض و حرة الرحا (1) (الأرحاء)، وإن كان «دوتي» يذهب إلى أن الحجر التي كان يسكنها الثموديون، إنما هي في موضع الخريبة (العلا)، وليس في مدائن صالح، التي يرى أنها حجر الانباط، والتي تقع على مبعده عشرة أميال من الخريبة (2) هذا وليس هناك في المصادر الإسلامية ما يفيد بوجود قبائل ثمودية عند ظهور الإسلام، أو حتى قبيل ظهوره، وكل ما نعرفه هو محاولة البعض نسب «ثقيف» إلى ثمود، ربما نكايه في الحجاج الثقفي (3)، ورواية «دوتي» التي يذهب فيها إلى أن بدو «نجد» يذكرون أن قبيلة بني هلال من نسل عاد و ثمود (4).

ويروى أن رسول الله- صلوات الله و سلامه عليه- مرّ بقريّة ثمود- و هو في طريقه إلى تبوك- و أنه قال لأصحابه «لا يدخلن أحد منكم القرية و لا تشربوا من مائهم» ثم أراهم مرتقي الفصيل في الجبل، و الفج الذي كانت الناقة ترد منه، و أنه- (صلى الله عليه و سلم)- قال لهم: لا تدخلن على هؤلاء المعذيين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم ما أصابهم (5)

ص: 276

P, zageH nrehtroN eht, tisuM. A .291 -1

P, atreseD aibarA ni slevarT, ythguoD. M. C .229 -2

3- جواد علي 326/1، تاريخ ابن خلدون 24/2، ياقوت 3/54، نهاية الأرب للقلقشندي ص 198، 200، و كذا 137. P, tic- po, yremogtnoM. J

P, tic- po, ythguoD. M. C .63 -4

5- ابن الاثير 93/1، ابن كثير 138/1-139، تفسير ابن كثير 4/171، تاريخ الطبري 1/231، تفسير الطبري 12/524، 539، روح المعاني 8/168، 14/76، تفسير القرطبي 10/46-48، تفسير المنار 8/503، صحيح البخارى 6/270، 8/95، صحيح مسلم 18/111 تفسير الطبري 14/50

تحدث القرآن الكريم في كثير من سوره عن قوم ثمود (1)، هذا إلى جانب أن كثيرا ما يقرن الله في كتابه العزيز بين ذكر عاد و ثمود، كما في سورة التوبة و إبراهيم و الفرقان و ص و ق و النجم و الفجر (2) - كما أشرنا من قبل - و في كل هذه الآيات الكريمة نرى قوم ثمود (3) يعبدون آلهة غير الله، و يعيشون في الأرض فسادا، و ينحتون من الجبال بيوتا فارهين، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحا، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار، و ينهاهم عن عبادة الأوثان، و ينذرهم عذاب يوم عظيم، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (4).

و نجح صالح عليه السلام في دعوته مع نفر قليل من قومه، إلا أن الغالبية العظمى منهم قد كفروا برسالته، و عتوا في طغيانهم عتوا كبيرا، و طلبوا منه أن يجيء بآية، إن كان من الصادقين، فقال لهم:

«هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ، فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5)».

غير أن النفوس العاتية التي لا تسمع موعظة، و لا تقبل نصيحة،

ص: 277

-
- 1- سورة الأعراف (73-79) و هود (61-68) و الحجر (80-84) و الاسراء (59) و الشعراء (141-159) و النمل (45-53) و ص (13) و فصلت (17-18) و الذاريات (43-45) و النجم (50-51) و القمر (23-32) (4-5) و الفجر (9) و الشمس (11-15)
 - 2- ابن كثير 1/132، و انظر: التوبة (70) و إبراهيم (9) و الفرقان (38) و ق (12-13) و النجم (50-51) و الفجر (6-9)
 - 3- هناك خلاف في النسبة إلى ثمود، فهي إما إلى جد القبيلة ثمود، و إما لقله مائهم، فهو من ثمد الماء إذا قلّ، و الثمد الماء القليل (تفسير روح المعاني 8/162، تفسير المنار 8/501)
 - 4- سورة النساء: آية 165
 - 5- سورة الأعراف: آية 73

و التي قد أعمأها حب التمرد و الطغيان، و أصم أذانها عن قبول دعوة الله، قد أبت إلا الإجرام، فاقدموا على عقر الناقة بغيًا و عتوا (1)، «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَ قَالُوا يَا صَالِحُ اتَّبِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ» (2)، و هكذا هلك الكافرون بصالح، إلا رجلا واحدا- دعوه أبا رغال- كان في حرم الله، فمنعه حرم الله من عذاب الله (3)، و إن أضافت رواية أخرى، أنه ما أن خرج من الحرم حتى أصابه ما أصاب قومه (4).

هذه عجالة نلخص بها قصة ثمود- كما اوردها ربي جل جلاله في القرآن الكريم- إلا أن المؤرخين و المفسرين قد اضافوا إليها كثيرا من أخبار تتعلق بمصير الذين آمنوا مع صالح، عليه السلام، فذهب فريق إلى أنهم إنما سكنوا ناحية الرفلة من فلسطين، لأنها أقرب بلاد الخصب إليهم، و العربي إنما يطلب الكلاء لرعي ماشيته، و الأرض ذات الماء، و ذهب فريق آخر إلى أنهم إنما سكنوا مكة، و أن صالحا إنما توفي بها، و هو ابن ثمان و خمسين سنة، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن موطن المؤمنين الجديد، إنما كان في حضرموت، بل و زعم هذا الفريق أن قبر النبي الكريم هناك كذلك (5).

و هناك من يرى أن ثمودا، إنما أصيبوا بكارثة عظيمة، من ثوران براكين، أو من هزات أرضية، معتمدا في ذلك على ما ورد في القرآن

ص: 278

1- محمد علي الصابوني: المرجع السابق ص 245، تفسير الطبري 528/12-534 (دار المعارف)، مروج الذهب 15/2-18

2- سورة الأعراف: آية 77-78

3- تفسير الطبري 68/12-50/14

4- تفسير المنار 8/505-506، تفسير الطبري 12/538، البداية و النهاية 1/137

5- تفسير الطبري 12/536، روح المعاني 8/162، 168، المقدس 3/41، مبروك نافع: المرجع السابق ص 36، تاريخ الطبري 1/232

الكريم من كلمات «رجفة» و«صيحة»، وربما كان الأمر كذلك، فمنطقة إقامتهم، إنما هي واحدة من مناطق الحرار في شبه الجزيرة العربية (1).

ولعل مصير عاد و ثمود، كثيرا ما يشبه مصير سدوم وعمورة، وبقية مدن الدائرة الخمس في عمق السديم (2)، والتي تقع - فيما يرى علماء التوراة- في جنوب البحر الميت، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل على هذه المدن كبريتا و نارا، وأنه جعل عاليها سافلها (3)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُسْدِرِينَ، فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (4)»، فإذا ما تذكرنا أن سكان هذه المدن هم قوم (5) لوط- عليه السلام- سهل علينا أن نفهم السبب في أن الله، جل و علا، قد ربط بين هذه الأقوام جميعا في القرآن الكريم، حيث يقول سبحانه وتعالى «وَ ثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (6)

ص: 279

1- انظر: تفسير المنار 8/506-507، روح المعاني 8/165، 12/92، 14/76، تفسير الطبري 12/544-546 و كذا P,I 736 .J .P, tic -po, yremogtnoM .A .J 734 .P, tic -po, sgnitsaH .J ,malsI fo ycnE 91 .P, tic -po, yremogtnoM .A .J 734 .P, tic .91 و كذا P, tic -po, yremogtnoM .A .J 734 .P, tic .91

2- جواد علي 1/332، قاموس الكتاب المقدس 1/551، 2/119، 300، و كذا P, tic .91 .J 734 .P, tic .91 و كذا P, tic -po, yremogtnoM .A .J 734 .P, tic .91 .J 3790 .P, 1899, I, BE 28 .P, 1923, neibarA, ztiroM .B -po, sgnitsaH .J

3- تكوين 19: 23-26

4- سورة الحجر: آية 73-74

5- جاء ذكر قوم لوط في سورة كثيرة من القرآن الكريم (أنظر: الاعراف (80-84) و هود (77-83) و الحجر (61-75) و الشعراء (160-175) و النمل (54-58) و التحريم (10)، ثم أنظر القصة في: تاريخ الطبري 1/292-307، ابن الأثير 1/118-122، ابن كثير 1/175-183، مروج الذهب 1/57-58، اليعقوبي 1/25-26، قصص الأنبياء للنجار: ص 112-118، قصص الأنبياء للثعالبي ص 103 و ما بعدها.

6- سورة ص: آية 13

هذا ويرى «دي برسيفال» أن هناك ثمة تقارب بين الثموديين، وبين الحوريين (1) سكان بلاد سعير، حتى بركة فاران، وأن الخلط في الأخبار بينهما، يرجع إلى أن الثموديين، إنما كانوا يسكنون في مجاورات الحوريين (2).

[4] عصر قوم صالح عليه السلام

يتجه بعض المؤرخين الاسلاميين إلى أن عصر صالح عليه السلام، إنما كان على أيام إبراهيم عليه السلام، وأن الفترة بين هلاك عاد و هلاك ثمود كانت خمسمائة عام (3)، غير أن هناك من يرى أن عاداً إنما هلكوا بعد عهد إبراهيم الخليل و بناء الكعبة، و قبل زمن موسى عليه السلام (4)، و إذا كان صحيحاً ما ذهبنا إليه في كتابنا إسرائيل - و سبق أن اشرنا إليه هنا- من أن إبراهيم الخليل قد عاش في الفترة (1940-1765 ق. م.)، و أن

ص: 280

1- اختلف المؤرخون في الحوريين، فمنهم من يرى أنهم شعب ما زال أصله مجهولاً و من يرى أنهم شعب هندو أوريي، و لكنهم يجمعون على أنهم جاءوا من المرتفعات الواقعة بين بحيرة أورمية و جبال زاغروس، و قد غزوا شمال بلاد النهرين و سورية الشمالية، ثم كانوا مملكة «ميتاني» التي امتد سلطانها من مرتفعات ميديا إلى البحر المتوسط، و كانت عاصمتها «واشوكاني» التي يظن أنها مكان «الفخارية» على الخابور شرق تل حلف و حاران، و قد عرفت في النصوص المصرية باسم «تهارينا»، ثم انتشر الحوريون في سورية المنخفضة الخصيبة، و وصلوا الى فلسطين فنزلوا البقاع الواسعة بين نهر الحسا و خليج العقبة، و قد بلغ انتشارهم في بلاد الشام درجة دعت المصريين إلى أن يطلقوا اسم «خورو» (خارو) على بلاد كنعان، و يبدو أنهم هم الحوريين حكام شكيم على أيام يعقوب (أنظر كتابنا إسرائيل ص 354-355؛ فيليب حتى: المرجع السابق ص 161-165)

2- عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص 95-96، و كذا P. 26, lavcreP, iassE, l ruS, H'1 eriotsiA sed, sebarA, siraP, 1847, P ed nissuaC

3- الدينوري: الأخبار الطوال ص 7

4- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 50، 59

موسى قد خرج باليهود من مصر، حوالى عام 1216 ق. م.، أو عام 1214 ق. م.، (أي في القرن الثالث عشر ق. م.) (1)، فإن صالحا- طبقا لهذا الرأي- قد عاش فيما بين القرن الثامن عشر ق. م.، والقرن الثالث عشر ق. م.، غير أن صاحب هذا الرأي نفسه- الاستاذ النجار- لا يستبعد أن يكون قوم عاد أقدم من قوم إبراهيم، وأن قوم ثمود كانوا يتلون قوم عاد في الوجود والظهور (2)- الأمر الذي سبق ان ناقشناه هنا من قبل- وخرجنا منه أن هناك آيات كريمة يسبق فيها الثموديون قوم عاد (3)، وأخرى تسبق فيها قصة موسى قصة إبراهيم، ثم تأتي قصة نوح فقصة هود وصالح ولوط وشعيب (4).

أضف إلى هذا كله، أننا لا نملك أدلة علمية مؤكدة نستطيع ان نستند إليها في التأريخ لقوم ثمود، و من ثم فإننا يمكننا القول- حدسا عن غير يقين- ان الثموديين- بصفة عامة- ربما كانوا يشغلون صفحات في التاريخ، منذ أوائل الألف الاول ق. م.، وأنهم استمروا كذلك حتى القرن الخامس الميلادي، نقول منذ الألف الأول قبل الميلاد، لأن لدينا كتابات آشورية تتحدث عن الثموديين صراحة منذ القرن الثامن ق. م.

وبالتحديد منذ عهد سرجون الآشوري (722-705 ق. م.) (5) - NA

ص: 281

1- راجع التأريخ لعصر إبراهيم، وكذا الآراء المختلفة التي دارت حول تاريخ خروج اليهود من مصر في «كتابنا اسرائيل» ص 171-177، ص 268-303.

2- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 48

3- انظر: سورة ق: آية 12-13

4- انظر: سورة الشعراء، حيث تسبق قصة موسى (10-68) قصة إبراهيم (69-89) ثم تأتي بعد ذلك قصة نوح (105-121) فقصة هود (124-140) ثم قصة صالح (141-159) فقصة لوط (160-175) فقصة شعيب (176-191)

P, TENA .286-5

وبدهي أن هؤلاء الذين حاربوا العاهل الآشوري لم يظهرُوا فجأة في التاريخ، وإنما لهم أسلاف عاشوا قبل ذلك بقرون لا ندري مداها على وجه التحقيق، ونقول القرن الخامس الميلادي، لأن لدينا نقشا يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي (و بالتحديد إلى عام 267 م) (1)، وبدهي - مرة أخرى - كما أنهم لم يبدءوا فجأة، فإنهم لم يختفوا فجأة كذلك، و من هنا قلنا إنهم استمروا حتى القرن الخامس الميلادي، بل أن هناك ما يدل على أنهم كانوا في ذلك القرن فرسانا في جيش الروم، وأنهم كانوا يعسكرون في مصر، و كذا في فلسطين (2).

[5] النقوش الثمودية

لقد عثر الاثريون على نقوش ثمودية في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية، تمتد من الجوف شمالا، إلى الطائف جنوبا، و من الأحساء شرقا إلى يثرب فأرض مدين غربا، و في المسالك المؤدية إلى العقبة و الاردن و سورية، و حتى في ارض حضرموت من جنوب الجزيرة العربية، و أن ذلك - كما يقول الاستاذ شرف الدين - لدليل حي على أن الثموديين كانوا في يوم ما السكان الأصليين لشمال الجزيرة العربية، و لهذا فإن القرآن الكريم ذكر الثموديين في أكثر من آية دون غيرهم من شعوب المنطقة ممن كانوا أكثر منهم قوة، سواء في مجال المدنية أو التجارة كالديدانيين و اللحيانيين و الأنباط، و هو إن دل على شيء فإنما يدل على توافق تام و تطابق محكم بين نصوص القرآن الكريم و معلومات

ص: 282

P, 1950, senneeduomahT snoitpircsnI seL, nednarB ned naV. A .410 -1

P ,tic -po ,regnerpS .A 2390 -2387 .loC ,akaraS elcitra ,2 .AI ,awossiW -yluaP ed eidepolcycnE 229. 28 -2

.P ,tic -po ,ythguoD .M .C

هذا وتشير النقوش الشمودية إلى الحياة المستقرة التي كان يحيها القوم، و من ثم فقد رأينا رسما يصور لنا عملية حرث الأرض، وهو عمل كثيرا ما تتحدث عنه النقوش، كما كان البعض يوصف بأنه «اكار» أي فلاح كما وردت كلمة «عيان» بمعنى سكة المحراث، و كل تلك ألفاظ تشير إلى مهنة الزراعة، أضف إلى ذلك أن الإسم «رال» الذي يعني قش، إنما يدل على زراعة أنواع مختلفة من الحبوب، و الأمر كذلك إلى لفظة «زرا» بمعنى بذر (2).

و هناك ما يشير إلى أن القوم قد عرفوا زراعة العنب، بدليل وجود الإسم «عئاب» أي تاجر العنب، و لعل هذا يجعلنا نميل إلى جعلنا نميل إلى أن الرأي القائل بأن زراعة الكروم لم تعرف في بلاد العرب، إلا في القرن الرابع الميلادي، إنما هو بعيد عن الصواب إلى حد كبير (3).

هذا و تشير الرسوم المتعددة لشجرة النخيل إلى أن ثمارها ربما كانت الغذاء الرئيسي للشموديين (4)، و على أي حال فلا شك في أن شجرة النخيل إنما هي ملكة عالم النبات في شبه الجزيرة العربية، و رغم تدهور قيمة التمور في السنوات الأخيرة، فهذا لا يجعلنا ننسى أن ثمار النخيل إنما كانت إداما للعرب، و طبيا يستطبون به لمعالجة عدد من الأمراض،

ص: 284

1- خليل يحيى نامي: نشر نقوش سامية من جنوب بلاد العرب و شرحها- القاهرة 1943 ص 109، جواد علي 1/ 329 / 1956 niavuoL,yblhP ed sneeduomahT setxeT seL,nednarB ned naV .A 441 .P,1939 ,nodnoL ,srethguaD s'abehS, ,yblihP .B .J 189 -177 .P .P ,1959 ,72 ,noesuM eL ,lanoirtnetpeS nemaY ud sneeduomahT setiffarG ,snamkcyR .J

2- خالد الدسوقي: المرجع السابق ص 291 و كذا 590. nednarB ned naV .590 P, senneeduomahT snoitpircsnI sel,

3- خالد الدسوقي: المرجع السابق ص 291، فيليب حتى: المرجع السابق ص 23

4- نفس المرجع السابق ص 22-23

و مادة يستخرجون منها دبسا و خمرا و شرابا (1)، بل لقد ذهبوا إلى أكثر من ذلك، حين حلوا بها مشكلة الصراع بين الحرارة و الملوحة، ذلك أن الاشعاع الشمسي الهائل يرفع البحر إلى درجة تهدد الموارد الباطنية بالنفاد وسط التربة الزراعية بالاستصلاح المتزايد، و لهذا لجأ القوم إلى النخيل، لا كغذاء فقط، و إنما لتستظل به الزراعة (2)، و على أي حال، فإن ملكة الأشجار العربية هذه، غير عربية الأصل، نقلت إلى شبه الجزيرة من الشمال، من بابل، حيث كانت شجرة النخيل أعظم العوامل التي جذبت الإنسان القديم إلى التوطن هناك (3).

و هناك ما يشير إلى ان الثموديين قد عرفوا زراعة القطن كذلك، بدليل وجود الإسم «برس» أي شعر القطن، و الإسم «هلق» أي حلاج القطن، الذي يشير إلى صناعته كذلك، كما أن هناك ما يشير كذلك إلى معرفة القوم لزراعة البصل و البخور و الورود (4).

هذا و لم تقتصر النقوش الثمودية على بلاد العرب، و إنما وجدت كذلك في سيناء و في دلتا مصر و في وادي الحمامات بين القصير و قفط، و في الصفا شرق دمشق و في شمال غرب تدمر و في صيدا و جبل الرام و أم الرصاص قرب ديبان في شرق الاردن، و في النقب (5). و لعل من الأهمية

ص: 285

1- جواد علي 207 / 1

2- جمال حمدان: أنماط من البيئات ص 95-96

3- لاويون 23: 40، فحميا 18: 15، مكابيين أول 13: 51 و كذا J. H. S. J. 675. P, tic- po, sgnitsaH.

4- خالد الدسوقي: قوم ثمود بين روايات المؤرخين و محتويات النقوش - مجلة كلية اللغة العربية و العلوم الاجتماعية- العدد السادس -

1976 ص 292، 10، 5، 245-278. A. H. W. A. R. k. c. n. i. W. . R. k. o. . S. f. o. s. n. i. w. a. r. D. . P. P. , 1938, nodnoL, tpygE reppu nrehtuoS fo sgniwarD . kcoR ,relkcn

.P. P. , 1935, 44, lbiB .veR ,mmaR ed elpmeT el ,dleihstroH .S 95 ,6 .PP ,afaS dnudumahT ,nnamttiL .E 54 .P

,seitiC etilearsI dna soskyH ,eirteP .M .W 1952 ,nadroJ eht fo modgniK etimhsaH morF snoitpircsnI

cidumahT emoS ,gnidraH .G 288 -285 .P .P ,65 ,noesuM el ,atleD eliN eht morF snoitpircsnI cidumahT

.E .N .E .eladsneK ,eerhT

5- جواد علي 207 / 1

بمكان الإشارة إلى ان هذه النقوش الثمودية- في غالبيتها- من ذلك النوع القصير الذي يكتب في مناسبات شخصية مختلفة (1)، كما أنها ليست ذات فائدة تاريخية كبيرة، و ان كان بعضها يدلنا على علاقات من نوع ما بين الثموديين و الأنباط و غيرهم، فضلا عما تقيده من الناحية اللغوية، و في معرفة أسماء الثموديين و لهجاتهم، بخاصة إذا علمنا أنها كتابة متطورة من خط المسند، و إن الدكتور الأنصاري يرى أن نطلق على الخط الثمودي «خط البادية»، لأنه كثيرا ما يكون من ذلك النوع الذي يسمى «مخربشات»، و ليس من الكتابات المنمقة، التي وجدت بكثرة في كتابات السيئيين و المعينيين و القتبانيين و الحضارمة و الحميريين، و بعض كتابات الديدانيين و اللحيانين في منطقة العلا و مدائن صالح (2).

[6] المجتمع الثمودي

تدلنا الكتابات الثمودية على أن أصحابها إنما كانوا- في معظمهم- يعرفون القراءة و الكتابة إلى حد ما، و قد سميت إحدى النساء «سحف» أي التي تخطئ عند القراءة، كما أن هناك نصا يعرف منه أن فتاة صغيرة كتبت اسمها على الصخر، بينما كان والدها يراقبها عن قرب، فضلا عن أن هناك من احترف مهنة الكتابة، بدليل وجود الإسم «كتب» أي كاتب (3)، هذا و قد كان القوم زراعا، أقرب إلى الحضرمين منهم إلى أهل الوبر، و أن لهم مواطن استقرار و معابد، و أن من بينهم من اشتغلوا بالتجارة فضلا عن الصيد الذي مارسه الثموديون سكان مدين بصفة خاصة، و قد عثر على ثلاث رسومات في الجبال الداخلية لسفن كان

ص: 286

1- جواد على 329 /1 و كذا 1956, nednarB ned naV, senneeduomahT snoitpircsnI seL, niavuoL

2- عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق ص 89

3- F 57. P, duomahT ed eriotSiH, nednarB ned naV

يستعملها القوم في صيد الأسماك، ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى أنه قد عثر على سفن من نفس الطراز في صحور وادي الحمامات في صحراء مصر الشرقية، بجوار بعض النقوش الثمودية، الأمر الذي يحمل على الظن بأنها مراكب استعملها القوم في عبور البحر الأحمر (1)، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن فريقا من المجتمع الثمودي، إنما كان بدوا رحلا، و من بينهم من كان يعمل في تجارة القوافل، أو من أهل «أهل العير» على حد تعبير النقوش (2).

و تصور النقوش الثمودية رجالا ذوي قامة عادية، و يبدو أنهم كانوا من العنصر ذوي الرؤوس المستطيلة- مثلهم في ذلك مثل سكان بلاد العرب الشمالية، و كان الرجال ذوي شعور قصيرة، و يلبسون ازارا و حزاما في الوسط، و الرأس عادة عارية، و إن كان الرجال- في بعض الأحيان- يلبسون غطاء رأس من القش، كما أن هناك من يلبس ثوبا، و على رأسه عمامة، و من يرتدي قميصا ينزل حتى الركبة، أما النساء فكانت شعورهن طويلة، هذا و هناك بعض المناظر التي تبدو فيها المرأة و قد حملت سلة فوق رأسها، و ارتدت ثوبا طويلا ينزل حتى العرقوب، و ارتدت خمارا، هذا و تدل مناظر النساء على أن المرأة الثمودية إنما كانت شديدة الرغبة في التزين بالحلي و الأساور، فضلا عن العقود التي كانت على هيئة الهلال أو الجعل، حتى أن المرأة التي لم تكن ترتدي حليا في جيدها إنما تسمى «آتل»، أضف إلى أن استعمال الدهون كان شائعا بينهم (3).

ص: 287

-
- 1- 1956 .PP 275- .F 9 .M .neerG .setoN ,emoS setoN ,noitpircsnI yabtE ni ,tcirtsID yabtE ,35 ABSP ,1909 ,LP .IVXXX
ned naV ,nednarB ,tic -po ,F 40 .P ,seL ,setxeT ,sneuduomahT ed ,ybilihP
2- nednaV ,nednarB ,eriotsiH ,duomahT ed ,F 42 .P
3- 156- 164 ,268 .nednaV ,nednarB ,setxeT ,sneuduomahT ed ,yblihP .P

تحدث القرآن الكريم عن أهل مدين، وعن نبيهم الكريم، شعيب عليه السلام، في مواطن متفرقة من سورة (1)، ووفقا لما جاء في القرآن الكريم، فإن شعيبا أتى مدين (2) أو أصحاب الأيكة، فنهاهم عن عبادة الأوثان، كما أمرهم أن يقيموا الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان (3).

ويروى عن ابن عباس أن الأيكة المذكورة في القرآن، إنما كان يسكنها قوم شعيب، وأنها إنما تقع من مدين (4) إلى «شعب» و«بدا»، أو أنها من ساحل البحر إلى مدين، وكان شجرهم المقل (الدوم) (5)، وأسفل أرض مدين - حتى وقتنا الحالي - فإن الوادي فيما بين البدع و ساحل البحر تغطيه الأعراس الكثيفة التي يتميز من بينها نخيل الدوم، ولكن الطريق من مدين إلى بدا يمر خلال واحات عدة غزيرة المياه تملؤها الخضرة، وكانت

ص: 291

1- أنظر: سورة الأعراف (85-93) والتوبة (70) وهود (84-95) والحجر (78-79) والحج (44) والشعراء (176-191) والقصاص (22، 25، 45) والعنكبوت (36-37) وق (14) وغيرها

2- اختلف المفسرون في اسم مدين، فذهب البعض إلى أنه اسم رجل في الأصل، ثم كانت له ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما، وذهب آخرون إلى أنه اسم ماء نسب القوم إليه، والأول أصح، لأن الله أضاف الماء إلى مدين في قوله تعالى «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ»، ولو كان اسما للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية، والأصل في الإضافة التغاير حقيقة (تفسير الفخر الرازي 25/64)، ياقوت 77/5-78

3- أنظر: الاعراف (85) وهود (84-85) والشعراء (181-183)

4- يقول ياقوت في معجمه أنها تقع على بحر القلزم محاذية لتبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب (ياقوت 5/77-78)، البكري 4/1201

5- ياقوت 1/291، 2/14، البكري (1/215-216)، تفسير ابن كثير 4/170، تفسير البيضاوي 1/545، تفسير الطبري 14/48-49، تاج العروس 7/104 (طبعة بولاق 1307/1308)

هذه الواحات تابعة لأهل مدين، و هناك نص طريف لابن منظور في «لسان العرب» عن سبب تسميتها بالأيكة، و هو أن لفظ الأيكة يعني الشجر الملتف أو الغيضة، كما يعني كذلك اسم «ليكة» و هي البلد حولها (1)، أو هي بلدة كانوا يسكنونها، و إطلاقها على ما ذكر، إما بطريق النقل أو تسمية المحل باسم الحال فيه، ثم غلب عليه حتى صار علما (2)، و على أي حال، فإن «ليكة» تذكرنا بالكلمة اليونانية «ekueL» و معناها الأبيض، و الجزء من أطلال مدين الواقع على حافة الغيضة لا زال يعرف بالحوراء، و هو يعني كذلك البياض (3).

على أن هناك من يرى أن أصحاب الأيكة غير مدين، بدليل وصف «شعيب» في الآية (85) من سورة الأعراف، بأنه أخو مدين، و عدم وصفه بذلك في الآيتين (176، 177) من سورة الشعراء، و بدليل الحديث الذي رواه ابن عساكر مرفوعا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص من «أن مدين و أصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبي عليه السلام» و أن شعيبا إنما أرسل إلى قومه أهل مدين، و كذا أصحاب الأيكة، و أنه كان ينذرهم منتقلا بينهم في زمن واحد، و من ثم فرما كان عقابها واحدا في زمن واحد أو في وقتين متقاربين، أهل مدين بالرجفة و الصيحة المصاحبة لها، و أصحاب الأيكة بالسموم و شدة الحر الذي انتهى بظلة من السحاب فزعوا إليها يتبردون بظلها فأطبقت عليهم، حتى اختنقوا بها أجمعين (4)، هكذا يروي السدي و عكرمة «ما بعث الله تعالى نبيا مرتين إلا شعيبا»، مرة إلى مدين، فأخذهم

ص: 292

1- لسان العرب 274/12 (طبعة بولاق 1300 (1307)، شمال الحجاز ص 72

2- روح المعاني 75/14

3- شمال الحجاز ص 72

4- تفسير المنار 12-11/9

اللّٰه تعالى بالصّيحة، و مرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم اللّٰه تعالى بعذاب يوم الظّلة (1)، و أخيرا فهناك فريق ثالث زعم أن شعيبا إنما أرسل إلى أمم ثلاث، حيث أضافوا إلى أهل مدين و أصحاب الأيكة، أصحاب الرس (2).

و الرأي عندي أن الأمر غير ذلك تماما، لأسباب كثيرة، منها (أولا) أن الأنبياء إنما تبعث في أقوامها، لأن القوم سيكونون أفهم لقول النبي من قول غيره، و أعرف بحاله في صدقه و أمانته و شرف أصله (3)، و منها (ثانيا) لمعرفة النبي بلسان قومه، تصديقا لقوله تعالى «و ما أُرْسِدْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» (4)، و منها (ثالثا) أن ما جاء في سورة الشعراء من وصف لأصحاب الأيكة (5)، إنما يتفق و ما جاء في غيرها من وصف لأهل مدين، مما يدل على أن أهل مدين، إنما هم أنفسهم أصحاب الأيكة (6)، و منها (رابعا) أن أنواع العقاب التي أنزلها اللّٰه سبحانه و تعالى بالقوم، لا تعني أنهم أقوام عدة، و إنما تعني أن اللّٰه قد أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ففي سورة الأعراف رجف القوم نبي اللّٰه و أصحابه و توعدهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم، فقال تعالى «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصَّ بِحُورِ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ» (7)، فقابل الإرجاف بالرجفة، و أما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة

ص: 293

1- تفسير روح المعاني 175/8، 6/9، و أنظر 75/14

2- تفسير روح المعاني 176/8

3- تفسير روح المعاني 154/8

4- سورة إبراهيم: آية 4

5- سورة الشعراء: آية 176-191

6- محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 272

7- سورة الأعراف: آية 91

فأصبحوا في ديارهم جاثمين (1)، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء «أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَشْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» (2)، فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن قول ما قالوا، و من ثم فقد جاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكتتهم، و أما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، و كان ذلك إجابة لما طلبوا، حيث قالوا «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (3)، و من ثم يقول سبحانه و تعالى:

«فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (4).

و منها (خامسا) أن وصف شعيب في سورة الأعراف بأنه أخو مدين، و عدم وصفه بذلك في سورة الشعراء عند الحديث عن أصحاب الأيكة، فالرأي عند ابن كثير أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله تعالى «كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ» (5)، لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة هنا، و حين نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم، و منها (سادسا) أن الحديث الذي رواه ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب، مرفوعا إلى عبد الله بن عمرو، من أن مدين و أصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبي، إنما هو حديث غريب، و في رجاله من تكلم فيه، و ربما كان من كلام عبد الله بن عمرو من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك، و فيهما أخبار بني إسرائيل (6).

و منها (سابعا) أن نبي أصحاب الرس إنما هو- طبقا لروايات

ص: 294

1- أنظر الآية 94 من سورة هود

2- سورة: هود: آية 87

3- سورة الشعراء: آية 187

4- سورة الشعراء: آية 189

5- سورة الشعراء: آية 176

6- ابن كثير: البداية و النهاية 1/189-191

الأخباريين- «حنظلة بن صفوان» (1)، فضلا عن أن الآيات الكريمة (12-14) من سورة «ق» إنما تؤكد أنهما أمتان مختلفتان، وذلك حيث يقول سبحانه وتعالى «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ».

وعلى أي حال، فلقد كان ذكر قصة شعيب مع قومه من الميديانيين في القرآن الكريم، سببا في أن يهتم المفسرون بالنبي الكريم وقومه، إلا أنهم بالغوا في الأمر أحيانا، وابتكروا أشياء من عندهم في أحيان أخرى، ومن ثم فقد أصبح شعيب عندهم، هو «شعيب بن ميكيل بن يشجن أو يشجر بن مدين بن إبراهيم» مرة، وهو «شعيب بن نويب أو نويت بن عيفا بن مدين بن إبراهيم» مرة أخرى (2) وهو «شعيب بن نوبت أو نويل بن رعويل، بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم» مرة ثالثة (3)، وهو «يثرون بن ضيعون بن عنقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم» مرة رابعة (4)، وهكذا يختلف المفسرون والمؤرخون

ص: 295

1- يروي الأخباريون أن أصحاب الرس من ولد إسماعيل- وكذا نبيهم حنظلة بن صفوان- وأنهما قبيلتان، يقال لإحدهما «أدمان» أو قدمان، وللأخرى «يامن» أو رعويل، وأنهما كانا في اليمن، ومن ثم فقد زعم فريق أنهم من حمير أو من أهل عدن، وأن القوم كانوا قد قتلوا نبيهم، فسلط عليهم «بختنصر» (نبوخذ نصر 605-562 ق.م). بأمر من واحد من أنبياء بني إسرائيل (انظر: مروج الذهب 78/1، 25/2، ياقوت 43/3، البكري 652/2، 849/3، الروض الأنف 9/1، تاج العروس 410/1، اللسان 149/12) وليس من شك أن هذه القصص قد اختلطت فيها الحقائق بالأساطير، وقد ناقشنا ذلك في كتابنا «بلاد العرب»

2- ابن كثير 185/1، روح المعاني 175/8، تفسير الطبري 554/12، مروج الذهب 61/1

3- مروج الذهب 128/2، قصص الأنبياء للثعالبي ص 115، نهاية الأرب للقلقشندي ص 416.

4- ابن الأثير 157/1

الإسلاميون في نسب النبي الكريم، والغريب من الأمر، أن واحدا منهم لم يقدم لنا دليلا على أن رأيه هو الصحيح، وأن من خالفه كان على غير صواب.

هذا وقد وصل الخلاف كذلك إلى اسم النبي ذاته- وليس نسبه فقط، و من ثم فقد رأيناها- فيما يزعم أصحابنا الأخباريون- شعيبا مرة، و لكنه مرة أخرى «يثرون» أو «يثروب» أو حتى «يثرو»، و مرة ثالثة «يزون» أو حتى «بنزون»، و هو من أبناء إبراهيم مرة، و ممن آمنوا به يوم ألقى به في النار، ثم هاجر معه إلى الشام مرة أخرى، ثم هو من أبناء بعض من آمن به مرة ثالثة، و هو حفيد لوط من جهة أمه مرة رابعة (1).

و لكن أغرب ما في الأمر، أن يصل ادعاء العلم عند البعض إلى أن يحول النبي العربي إلى يهودي، فيزعم أنه «شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب»، أو خبري بن يشجر بن لاوي بن يعقوب (2)، و من عجب أن «لاوي بن يعقوب» هذا، ليس له ابنا يحمل اسم يشجر أو يشخر، و إنما أسماء أولاده- كما جاءت في التوراة- «جرشون و قهات و مراري» (3)، و أخيرا، فإن البعض إنما يزعم أن النبي الكريم قد ذهب مع المؤمنين به- بعد هلاك الكافرين به- إلى مكة، حيث ماتوا هناك، و أن قبورهم غربي الكعبة (4)، و إن زعم آخرون أن النبي الكريم إنما كان على مقربة من «حطين» في موقع سماه ياقوت «خبارة»، أو «خربة مدين» فيما يزعم

ص: 296

1- ابن كثير 1/185، أبو الفداء 1/18، الطبري 1/325-329، ابن الأثير 1/157

2- تفسير المنار 8/523-524، تفسير روح المعاني 8/175، نهاية الأرب للقلقشندي ص 416، ابن كثير 1/185

3- تكوين 46: 11

4- تفسير روح المعاني 9/8، ابن كثير 1/191

آخرون (1).

وليس من شك في أن قصة موسى - عليه السلام - وصلته بكاهن مدين - كما جاءت في التوراة (2) - لعبت أخطر الأدوار في تلوين قصة النبي العربي باللون الإسرائيلي - ولا نقول كادت أن تجعل بعضها مسخا إسرائيليا - حيث اعتمد الأخباريون على مدعي العلم ممن أسلم من يهود، فنقلوا عنهم كل ما جاءت به قرائحهم من غث وسمين، وهكذا وضعت له سلسلة من نسب، ليس لها نصيب من صواب، وأن ذلك كله لم يكن معروفا - فيما يرى البعض - في صدر الإسلام، وإنما حدث بعد فترة لا ندري مداها على وجه التحقيق (3).

[2] موطن المديانيين

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط (4)، هذا وقد كانت أرض مدين تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب و طور سيناء (5).

و يفهم من أسفار التوراة أن مواطن المديانيين إنما كانت تقع إلى الشرق من العبرانيين، و الظاهر أن القوم قد توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين، و سرعان ما اتخذوا لهم هناك مواطن جديدة، عاشوا فيها أمدا طويلا حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة، و قد ذكر بطليموس موضعا يقال له «مودينا

ص: 297

1- ياقوت 3/ 299، و كذا 389. P, 4, malsI fo, ycnE.

2- خروج 2: 15- 25

3- أنظر: 9. J. ztivoroH, ehcsinaroK, negnuhcusretnU, nilreB, 1916. P, 4, IEFF 119.

4- ابن كثير 1/ 184- 185، ياقوت 5/ 77- 78، 153- 154، تفسير المنار 8/ 524

5- قاموس الكتاب المقدس ص 850

فهناك كان يمر أهم طريق من طرق النقل التجاري، وكانت تحرس هذه الطرق حاميات من أهل الجنوب من بلاد العرب، وكان المركز الرئيسي لهذه الحاميات يقع في ديدان (العلا) وفي معون (معان) (1).

ويظهر من التوراة أن المديانيين قد غيروا مواضعهم مرارا بدليل ما يرد فيها من اختلاطهم ببني قدم و العمالقة و الكوشيين و الإسماعيليين، و يظهر أنهم استقروا في القرون الأخيرة قبل الميلاد في «anaidaM» و التي يرى «موسل» - كما أشرنا من قبل - أنها تقع في جنوب وادي العربة، و إلى شرق و جنوب شرق العقبة (2).

و لعل من المفيد هنا أن نشير إلى أمرين: الواحد يتصل بما جاء في الذكر الحكيم، من أن الله سبحانه و تعالى قد عاقب الذين كفروا بشعيب عليه السلام بالرجفة، «فَأَخَذْنَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ» (3)، و هذا يعني أن هزة أرضية أو هياج حرة قد أصابهم، و هو أمر يتفق و طبيعة المنطقة، لأن أرض مدين إنما هي من مناطق الزلازل و الحرار (4).

و أما الأمر الثاني، فيتصل بالموقع الإستراتيجي لمنطقة مدين، ذلك لأنها تقع على الطريق الرئيسي للتجارة بين جنوب بلاد العرب و شمالها، عبر مكة و يثرب و الساحل الشرقي للبحر المتوسط و حول خليج العقبة الى مصر، و يبدأ هذا الطريق من عدن و قنا في بلاد اليمن، متجها نحو الشمال إلى مأرب فنجران، ثم الطائف فمكة و المدينة و خيبر فالعلا و مدائن صالح، و هنا ينفصل الطريق فيتجه فرع منه إلى تيماء صوب العراق، و أما

ص: 299

1- نفس المرجع السابق ص 83-84

2- تكوين 25: 6، 37: 25، 28، عدد 12: 1، حبقوق 3: 7، جواد علي 456/1، و كذا 287. M. lisuT, ehT nrehtroH zageP, A، و في النسخة العربية ص 84.

3- سورة الأعراف: آية 91

4- جواد علي 452/1

الفرع الثاني فيستمر في نفس الإتجاه حتى البتراء، فغزة فبلاد الشام و مصر (1).

وهكذا كانت مدين تقع على أهم طريق من طرق النقل التجاري، و من ثم فقد كانت آفة مدين، إنما هي آفة كل المدن على مدرجة الطرق، و من ثم فقد كانت قصتها في القرآن الكريم، إنما هي قصة التجارة المحتكرة و العبث بالكيل و الميزان، و بخس الأسعار و التربص بكل منهج من مناهج الطريق، و هكذا كانت رسالة شعيب عليه السلام، رسالة خلاص من شرور الاحتكار و الخداع في البيئة التي تعرضت له بحكم موقعها من طرق التجارة و المرافق المتبادلة بين الأمم (2).

و من هنا كان التركيز في دعوة النبي الكريم على أن يقيم القوم الوزن بالقسط و لا يخسروا الميزان، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، و لا تتفصوا المكيال و الميزان إني أراكم بخير و إني أخاف عليكم عذاب يوم مقيم، و يا قوم أوفوا المكيال و الميزان بالقسط و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تعثوا في الأرض مفسدين» (3)، و يقول «كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب أ لا تتقون إني لكم رسول أمين، فأتقوا الله و أطيعون و ما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين، أوفوا الكيل و لا

ص: 300

1- محمود طه أبو العلا: جغرافية شبه جزيرة العرب- الجزآن الثالث و الرابع ص 127، عبد الرحمن الأنصاري: لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية- مجلة الدارة، العدد الأول، ص 78، و كذا 140-126 fo. aibarA eL, oriaC 1925 PP .A remA ehT tneicnA -snarT ralusnineP setuoR

2- عباس محمود العقاد: مطلع النور ص 93-94، تفسير روح المعاني 176/8-177، تفسير المنار 525/8-526، تفسير الطبري 555-554/12

3- سورة هود: آية 84-85

تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (1).

[3] عصر المديانيين

يرجح بعض الباحثين ان عصر شعيب عليه السلام، إنما كان قبل عصر موسى عليه السلام، معتمدا في ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيبا بعد نوح و هود و صالح و لوط، عليهم السلام، وقبل موسى (2)، كما في سورة الأعراف و يونس و هود و الحج و العنكبوت، و لكن الآيات في سورة يونس إنما تتحدث عن قصة نوح في الآيات (71-72) ثم آية (73) و هي مجملة لا تذكر أمما بعينها، ثم تأتي بعد ذلك قصة موسى عليه السلام، أضف إلى ذلك أن الآيات الكريمة (12-14) من سورة «ق»، إنما تذكر قوم نوح ثم أصحاب الرس فثمود، ثم عاد و فرعون و إخوان لوط، ثم يأتي أصحاب الأيكة فقوم تبع.

هذا و يجب علينا أن نلاحظ أن قصة شعيب إنما ترد بعد قصة لوط مباشرة في سورة الأعراف و هود و الحجر و الشعراء، بل إن الآية الكريمة (89) من سورة هود، إنما تصرح دون لبس أو غموض بقرب قوم شعيب من قوم لوط مكانا أو زمانا لا أستطيع القول على وجه اليقين، يقول سبحانه وتعالى «وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» (3).

وإذا ما اعتبرنا هذا القرب في الزمان، وعدنا إلى عصر الخليل عليه

ص: 301

1- سورة الشعراء: آية 176-183، و أنظر: سورة الأعراف: آية 85، تفسير الطبري 12/554-556 (دار المعارف- القاهرة 1957)

2- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 149

3- سورة هود: آية 89

السلام (1940-1765 ق.م)، و تذكرنا أن قوم لوط إنما كانوا معاصرين لأبي الأنبياء- عليه الصلاة والسلام (1)- لأمكننا القول أن شعيبا وقومه إنما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، بخاصة إذا ما كان صحيحا ما ذهبت إليه نصوص التوراة من أن القوم إنما كانوا ينتسبون إلى مدين- أو حتى مديان- ولد الخليل إبراهيم من زوجته الكنعانية قطورة (2).

على أننا نستطيع أن نقول من ناحية أخرى- حدسا عن غير يقين- أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر ق.م، إذا ما كان صحيحا ما ذهبت إليه بعض الروايات من أن «يثرون» كاهن مدين، و صهر موسى (3)، إنما هو شعيب نبي مدين العربي (4)، وذلك لأن رحلة موسى إلى مدين بعد فراره من مصر- وكذا لقاءه مع كاهن مدين بعد قيادته للخروج من مصر- إنما تم في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (5).

ص: 302

- 1- أنظر في ذلك: سورة الحجر: آية 51-77، سورة العنكبوت: آية 26-35، سورة الذاريات: آية 24-37، و انظر كذلك: تكوين 14: 1-24، 18: 1-33
- 2- تكوين 25: 1-2، أخبار أيام أول 1: 32
- 3- لاحظ التناقض العجيب في التوراة بشأن صهر موسى هذا، فهو في سفر الخروج (3: 1) يثرون كاهن مديان، و هو في سفر العدد (10: 29) حوبات بن رعوثيل، بل إنه مرة ثالثة في سفر الخروج (2: 16-18) رعوثيل نفسه، و الأمر كذلك بالنسبة إلى القبيلة التي صاهرها موسى، فهي مرة قبيلة مديانية، كما رأينا، و هي مرة أخرى- كما في سفر القضاة (1: 16) قينية، ثم يعود نفس السفر فيؤكد ذلك في (14: 11) و ذلك في ثنايا قصة دبورة حين تتعرض لنسب «حابر القيني» فتقرر أنه من بني حوباب حمى موسى، و من ثم فرما كان بنو القيني فرعا من المديانيين (انظر كتابنا إسرائيل ص 100-101 و كذا)، P, BE. 3080 و sgnltsaH. J 616. P, tic-po
- 4- انظر: ياقوت 5/77-78، البكري 4/1201، مروج الذهب 1/61، ابن خلدون 2/43، 82، عباس العقاد: «الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان و العبريين ص 80
- 5- أنظر كتابنا إسرائيل ص 268-303 عن تاريخ الخروج و الآراء التي دارت حوله

تنسب التوراة المديانيين إلى الخليل عليه السلام- كما أشرنا من قبل- و من ثم فهم أبناء عمومة للعرب و الإسرائيليين سواء بسواء، فالكل أبناء إبراهيم، و إن اختلفت الأمهات، فالعرب أبناء إسماعيل ولد إبراهيم من هاجر، و الإسرائيليون أبناء إسحاق ولد إبراهيم من سارة، و المديانيون أبناء مديان ولد إبراهيم من قطورة (1).

هذا و يظهر المديانيون في التوراة على أنهم كانوا في رفقة الإسماعيليين- أبناء عمومتهم- حين بيع الصديق لهم. و إن موسى قد هرب إليهم من مصر، حيث وجد عندهم المأوى- فضلا عن الزوج و الولد- و بقي كليم الله هناك في ضيافة صهره كاهن مدين أربعين عاما (2)، و حين خرج من مصر ببني إسرائيل التقاه صهره في سيناء، حيث كان له الناصح الأمين، إذ أن أمور القوم- كما تصورها التوراة- كانت إلى فوضى و اختلال، لو ترك موسى و شأنه، فيما كان قد اتبع من وسائل تدبير، و لم تكن بالأسلوب القويم، إنما الفضل لحميه يثرون كاهن مديان، يلقنه كيف يكون تنظيم بني إسرائيل في هيكل من تسلسل قيادي، فيختار من ذوي القدرة

ص: 303

1- تكوين 16: 15-16، 21: 2-3، 25: 1-2، أخبار أيام أول: 1: 28-34

2- لاحظ الخلاف بين التوراة و القرآن في المدة التي قضاها موسى في مدين، فالقرآن الكريم يرى انها ثمانين حجج أو عشر يقول تعالى «قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» (سورة القصص: آية 27-28)، و تذهب التقاليد اليهودية و النصرانية على ان موسى أقام في مدين أربعين عاما (اعمال الرسل 7: 30، شاهين مكاربوس، المرجع السابق ص 40) و انه حين خرج من مصر لاجئا إلى مدين كان في الأربعين من عمره (خروج 7: 6، أعمال الرسل 7: 23) و أنه مكث في التيه اربعين عاما (عدد 14: 33، أعمال الرسل 7: 306، 42) و أنه مات و هو ابن مائة و عشرون سنة (تثنية 34: 7)، و انظر تاريخ ابن خلدون 2/ 43، 82

«رؤساء على الشعب رؤساء الوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات»، لينظروا في القضايا الثانوية، ويبقى موسى المرجع الأعلى للأمور الخطيرة، وبهذا تستقر الأمور، وينجح موسى في قيادتهم، ويصل بهم إلى الأرض المباركة بسلام (1).

هذا إلى جانب أن يثرون- وهو شعيب نبي مدين العربي على الأرجح، كما أشرنا من قبل- كان يقرب القرابين إلى الله يتبعه في ذلك موسى و هارون و شيوخ بني إسرائيل (2)، و معنى هذا أن شعيبا- كما يقول الأستاذ العقاد- قد تقدم موسى في عقيدته الإلهية، و علمه تبليغ الشريعة، و تنظيم القضاء في قومه، و أن العبريين كانوا متعلمين من النبي العربي، و لم يكونوا معلمين (3).

و عند ما يتجول الإسرائيليون في جنوب فلسطين، يخشى موسى أن يضل و قومه الطريق في صحراء التيه، فلا يصلوا إلى الأرض المباركة أبدا، و من ثم فانه يستحلف حماه- و من عجب فهو هنا حوباب بن رعوئيل- «لا تتركنا لأنه بما أنك تعرف منازل البرية تكون لنا كعيون» (4).

و هكذا كانت العلاقات بين المديانيين و الإسرائيليين طيبة، و لكنها ساءت بعد ذلك، و طبقا لما جاء في التوراة (5)، فإن شيوخ مدين عقدوا

ص: 304

1- خروج 18: 13-27، و انظر: حسين ذو الفقار: المجلة يولييه 1970 ص 9

2- خروج 18: 12

3- عباس العقاد: المرجع السابق ص 80، تاريخ ابن خلدون 2/ 43، 84

4- عدد: 10: 29-33

5- عدد 22: 4، 7

حلفا مع «بلاق بن صفور» ملك مؤاب (1) ضد بني إسرائيل، وقرأ في سفر العدد أن الرب قد أمر موسى أن «انتقم نقمة لبني إسرائيل من المديانيين، ثم تضم إلى قومك»، وتستمر رواية التوراة بعد ذلك، فتذهب إلى أن موسى قد أرسل جنده إلى مديان، فقتلوا ذكورها، وسبوا نساءها وأطفالها، ونهبوا جميع مواشيها، وحرقوا مدنها، وهدموا حصونها، ثم عادوا «وقد أخذوا كل الغنيمة و كل النهب من الناس و البهائم»، فيخرج إليهم موسى ثائرا مهتدا و كلاء الجيش الذين أبقوا على النساء قائلا: «اقتلوا كل ذكر من الأطفال، و كل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقلوها، لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبوهن حيات» (2).

و نص التوراة هذا غريب، ما في ذلك من ريب، فكاتب النص يأبى إلا أن يصوّر موسى حريصا على قتل رجال مديان فضلا عن السبايا من نسائهم، و الذين لم يبلغوا الحلم من ذكورهم، و لعل من العجيب أن يكون ذلك مع قبيلة آوته و أكرمه و صاهرته، ثم عاد منها كريما لينقذ بني إسرائيل من سخط فرعون و عذابه المهين، و ليس من شك في أن الكليم، عليه السلام، براء من ذلك كله، و ليس من شك كذلك في أن الخيال

ص: 305

1- ينسب المؤابيون الى مؤاب بن لوط (تكوين 19: 37) و هم من الشعوب التي تتصل بالعبرانيين بصلة من قرابة عن طريق لوط ابن أخي إبراهيم، كما ان جدة داود موآبية (راعوث 1: 4)، و يقع اقليم المؤاب شمال وادي الحسا (وادي زارد في التوراة)، و قد امتدت مملكتهم من ناحية الشرق من البحر الميت حتى الصحراء، و اتسمت شمالا حتى وادي الموجب (نهر أرنون في سفر العدد 21: 13) و كانت مؤاب مثل أدوم حصينة قوية ذات مواقع استراتيجية على الحدود و في الداخل، و لهذا اضطر الإسرائيليون أثناء التيه أن يكفوا عن الاستمرار في السير «في البرية التي قبالة مؤاب» حتى وصلوا الى الجانب الآخر من أرنون، أما عربان مؤاب فهي وادي الأردن بين مصب يبوب و البحر الميت

2- عدد 31: 1-18

الاسرائيلي قد لعب دوره هنا إلى أبعد الحدود، فهل كان بنو إسرائيل في مرحلة التيه هذه بقادرين على سحق المديانيين إلى هذا الحد؟ إنني أشك في ذلك كثيرا، وشكى معتمد على نصوص التوراة نفسها (1)- عن آيات القرآن الكريم (2)- وكلها تتحدث عن جبن الإسرائيليين و تقاعسهم عن دخول الأرض الموعودة، «لأن فيها الجبابرة بني عناق، فكنا في أعيننا كالجراد»، ولست أدري كيف يستطيع شعب ذليل لا يعرف سوى رائحة الشواء عند قدور اللحم في مصر- حتى وان استعبد من أجل ذلك و ذلّ- أن يخوض المعارك ليدخل الأرض المقدسة، فضلا عن أن يغزو المديانيين، وأن يجعل بلادهم خرابا، ثم إن الأحداث التالية- و بنص التوراة نفسها- تكذب ذلك كله.

و من ثم فإن التوراة نفسها، إنما تفاجئنا بعد كل هذا الضجيج، و بعد كل ما زعمت أن بني إسرائيل قد فعلوه بالمديانيين، و بعد أن استقر بنو يعقوب في فلسطين، تفاجئنا بروايات تذهب فيها إلى أن المديانيين إنما كانوا يظهرون في فلسطين في كل عام- و لفترة ما- ينشرون الفزع و الرعب بين الإسرائيليين بجمالهم السريعة، و يمكننا أن نحس بهذا الرعب الذي كانوا ينشرونه من قصة «جدعون»، حيث يشار إلى الجمال التي لا يحصى عددها، و التي تسببت في أن الإسرائيليين كانوا لا يجدون حتى المأوى الذي يقيهم شر المديانيين، في غير الكهوف، و في قمم الجبال (3)، و من هنا

ص: 306

1- عدد 13: 1-33، 14: 1-35

2- سورة المائدة: آية 22-26، و انظر: تفسير الجواهر 3/154، تفسير روح المعاني 6/106-110، تفسير الطبرسي 6/65-69، في ظلال القرآن 6/124-129، تفسير الطبري 10/171-190، تفسير الكشاف 1/619-621، تفسير النسفي 401-403 تفسير ابن كثير 2/532-541 (دار الاندلس- بيروت)، في ظلال القرآن 6/856-871، تفسير أبي السعود 2/17-19، تفسير القرطبي 6/123-

133

3- M. 161-3، P, learsI fo, yrotsiH ehT, htoN.

نسب إليهم إدخال «الجملم المدجن» إلى فلسطين و سورية في القرن الحادي عشر ق. م (1).

واستمر الأمر كذلك سبع سنين، أخضع المديانيون فيها الإسرائيليين تماما، واستولوا على كل محاصيلهم، و طبقا لنص التوراة، فإنهم «لم يتركوا لإسرائيل قوة الحياة، ولا غنما، ولا بقرا ولا حميرا، لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم و خيامهم و يجيئون كالجراد في الكثرة، و ليس لهم ولا لجمالهم عدد، و دخلوا الأرض ليخربوها، فذل إسرائيل جدا من قبل المديانيين» (2).

و تمضي الأيام، و يبدأ اسم المديانيين يتوارى في الظلام شيئا فشيئا، و آخر ما ورد عنهم في التوراة ما جاء في سفر القضاة بشأن انتصار «جدعون» على شيخي مديان «ذبح و صلح» (3)، و كيف أدى هذا النصر إلى وضع حد للربح الذي كان يسببه المديانيون للإسرائيليين، أو أنه قد أثار تصميم بني إسرائيل على الدفاع عن أنفسهم، لأننا لا نسمع بعد ذلك عن هجوم من قبل المديانيين على بني إسرائيل (4)، و يبدو أنه لم يعد للمديانيين شأن بعد هذه الفترة، و لعلمهم ذابوا في القبائل العربية الأخرى (5).

ص: 307

1- مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين ص 408

2- قضاة 6: 1-12

3- قضاة 8: 1-21

4- أشعيا 9: 3-4، مزور 83: 9-10؛ و أنظر كتابنا إسرائيل ص 382، و كذا P, tic- po, htoN. M. 162

5- 616 H. J. sgnitsaH. fo yranoitciD, elbiB eht 1936, hgrubnidE, P,

جاءت هذه القصة في القرآن الكريم في سورة سبأ، حيث يقول سبحانه وتعالى «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَانِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَإِيَّامًا أَمِينِينَ، فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (1).

والآيات الكريمة تدل على أن القوم إنما كانوا في رغد من العيش، تحيط بهم جنتان عن يمين و شمال، و كان من المنتظر أن يشكروا ربهم على هذه النعم الجزيلة، و الخيرات الكثيرة، و ذلك الرزق السهل المسير، الذي لا يقتضي النصب و لا الكد، غير أن القوم لم يكونوا كذلك، و إنما جحدوا نعمة ربهم، و من ثم فقد أرسل عليهم سبحانه و تعالى سيل العرم (2).

ص: 311

1- سورة سبأ: آية 15-19

2- العرم: المسناة التي تحبس الماء، واحدا عرمة، أو هو صفة للمسناة التي كانت لهم و ليس باسم لها، و في اللسان: عرم (العرم) بفتح الراء و كسرهما- و كذا واحدا و هو العرمة- سد يعترض به الوادي (و الجمع عرم، و قيل العرم: جمع لا واحد له)، أو هو اسم الوادي الذي كان يأتي السيل منه، و بني السد فيه، أو هو الصعب: من عرم الرجل فهو عارم و عرم إذا شرس خلقه و صعب، أو هو المطر الشديد، أو السيل الذي لا يطاق، أو هو اسم للجرذ الذي نقب عليهم سدهم، فصار سببا في تسلط السيل عليهم، و هو الفأر الأعمى الذي يقال له الخلد، أو هو ماء أحمر أرسله الله تعالى في السد فشقه و هدمه، أو هو كل شيء ع حاجز بين شيئين و هو الذي يسمى السكر: أو هو مطر يجتمع بين جبلين و في وجهه مسناة، و هي التي يسميها أهل مصر الجسر، فكانوا يفتحونها إذا شاءوا، فإذا رويت جنتاهم سدوها، و لعل أقرب الآراء إلى الصواب، هو الذي يذهب إلى أن العرم إنما هو السد يعترض الوادي، ذلك لأن لفظة العرم (عرمن) إنما تعني السد في لغة اليمنيين القدامى، و بدهي أنها لم تكن علما على سد معين، أعني سد مأرب (أنظر: تفسير الطبري 22/78-80، تفسير الألوسي 22/126، تفسير البيضاوي 2/2458-259، تفسير القرطبي 14/285-286 (طبعة دار الكتب)، تفسير الجلالين (نسخة على هامش تفسير البيضاوي 2/258-259)، تفسير الفخر الرازي 25/251، تاريخ ابن خلدون 2/50، ابن هشام 1/9، مروج الذهب 2/163-164، الإكليل 8/43، معجم البلدان 4/110، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى 1/117، جواد علي 7/201، الدميري 1/445)

الذي أغرق جنتيهم، فبدلهم الله بهما جنتين ذواتي أكل خمط و أثل و شيء من سدر قليل، و هكذا هلكت أموال القوم، و خربت بلادهم، من ثم فقد اضطروا- أو اضطر أكثرهم- إلى أن يهاجروا من مواطنهم، و أن يتفرقوا في غور البلاد و نجدها، حتى ضرب بهم المثل «تفرقوا أيدي سبأ»، جزءا وفاقا على كفرهم بنعمة ربهم، و تلك- و يم الله- عاقبة من يجحدون فضل ربهم، و لا يحمدون له نعماءه، و صدق الله العظيم، حيث يقول «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَ لَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» (1)

[2] القصة في الروايات العربية

يروى المفسرون و الأخباريون أن أرض سبأ إنما كانت من أخصب أرض اليمن و أترها، و أكثرها جنانا و غيطانا، و أفسحها مروجاً، مع بنيان حسن، و شجر مصفوف، و مياه كثيرة، و أزهار متنوعة، غير أن السيل كثيرا ما كان يغرق هذه الأرضين، و في عهد ملكتهم «بلقيس» اقتتل القوم على ماء واديهم، فغضبت لذلك بلقيس و انزوت في قصرها، فأتى إليها المملأ من قومها يطلبون إليها العودة إلى ما كانت عليه، غير أنها رفضت أن تحيبيهم إلى مطلبهم، بحجة أنهم كثيرا ما يعصون أمرها، و أن تفكيرهم غير

ص: 312

سليم، وإن قبلت في نهاية الأمر أن تعود إلى عرشها، و هنا أمرت فسد ما بين الجبلين بمسناة بالصخر و القار و حبست الماء من وراء السد، و جعلت له أبوابا بعضها فوق بعض، و بنت من دونه بركة منها اثنا عشر مخرجا على عدة أنهارهم، و كان الماء يخرج لهم بالسوية إلى أن كان من شأنها مع سليمان عليه السلام.

غير أن أصحابنا المفسرين و الاخباريين لم يتفقوا على الرواية الآتفة الذكر، من أن بلقيس (1) هي التي بنت سد مأرب، فذهب فريق منهم إلى أن ذلك إنما كان «سبأ (2)» نفسه، و إن لم يكمل السد فأتمه ولده حمير،

ص: 313

1- أنظر عنها مقالنا «العرب و علاقاتهم الدولية في العصور القديمة»- مجلة كلية اللغة العربية و العلوم الاجتماعية- العدد السادس- 1976 م و كذا كتابنا «بلاد العرب»

2- تذهب الروايات العربية إلى أن «سبأ» هذا، إنما هو عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و أن سبب تسميته بسبأ أنه أول من سبى من العرب، و زعم البعض أنه كان مسلما و له شعر بشر به المصطفى (صلى الله عليه و سلم)، و أنه حكم 484 عاما- ثم خلفه ولده حمير، و أنه أنشأ مدينة سبأ و سد مأرب في اليمن، و عين شمس في مصر، حيث خلفه عليها ولده بابلون (الطبري 1/ 211، ابو الفداء 1/ 100، ابن الاثير 1/ 230، مروج الذهب 2/ 45-48، البلاذري: أنساب الاشراف ص 4، كتاب التيجان ص 48-50، ابن كثير 2/ 158-159، تاج العروس 10/ 169 ابن خلدون 2/ 47، منتخبات ص 47، المحبر ص 364، الأخبار الطوال ص 10، المعارف ص 46، 271، بلوغ الأرب 1/ 207، الاشتقاق 1/ 155، 2/ 361-263، يعقوبي 1/ 195، روح المعاني 22/ 124) و أما أن سبأ هو عبد شمس بن يشجب ... الخ فهناك كتابة حفرت على نحاس في مجموعة (P. eramaL.) جاء فيها هذا الاسم، و أما ان سبب التسمية كثرة السبي، حتى وصلت غزواته إلى بابل و أرمينية في آسيا، و مصر و المغرب في إفريقيا، فليس هذا إلا في خيال ابن منبه، و من دعوا بدعوته، و أن هذه البلاد التي ذكرت آنفا، فلا تعرف شيئا عن سبأ هذا- و ان عرفت السبئيين على أنهم من تجار البخور و اللبان و غيرهما من مستلزمات المعابد القديمة، و ليس غزاة يحتلون البلاد و يبنون المدن، و أما أن الرجل قد بنى مدينة سبأ و سد مأرب، فيكذبه أن التاريخ لا يعرف بلدا بهذا الاسم، و أما بنائه لسد مأرب فتلك دعوى لا تعرف نصيبا من صواب- كما سوف نعرف- و أما بنائه لعين شمس، فالواقع أن المدينة قد بنيت قبل ظهور سبأ هذا- إن كان هناك ملكا بهذا الاسم- بمئات من السنين، بل بآلاف من السنين، حيث كانت تدعى «اون» أو «أويون» و اما «بابلون» ولده، فهذا اسم حصن في مصر القديمة ما تزال بقاياها حتى الآن، و أما قوله شعرا في النبي عليه الصلاة و السلام، فهذا من نوع مزاعمهم من نسبة شعر إلى إبليس و الى آدم ...، و هي لا تعدو ان تكون أساطير، لا تعرف لها نصيبا من صواب، ثم إن عربية الجنوب تختلف كثيرا عن عربية الشمال، عربية القرآن الكريم

الذي يرى فيه فريق ثان المؤسس الأصلي للسد، و ليس متمما له، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن ذلك إنما كان لقمان الأكبر العادي و هو لقمان بن عاد بن عاد- وقد رصف أحجاره بالرصاص و الحديد (1).

و أيا ما كان الأمر، فإن القوم بدءوا يستغلون المياه التي أخذت تتجمع خلف السد كالبحر، فكانوا إذا أرادوا سقي مزارعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة و حركات مهندسة، فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه، فازدهرت بلادهم فوق ازدهارها الأول، و يزعم الأخباريون- فيما يزعمون- أن المرأة إنما كان تخرج- إذا أرادت جني شيء من الفاكهة- واضعة مكتلها على رأسها، فتمشي تحت الأشجار، و هي تغزل أو تعمل ما شاءت، فلا ترجع إلى بيتها، إلا و قد امتلأ مكتلها مما يتساقط من الثمار، و يزيد البعض أنها كانت تروح من قرية و تغدوها و تبيت في قرية لا تحمل زادا و لا ماء، لما بينها و بين الشام، و أن بلاد سبأ كانت طيبة لا يرى فيها بعوض و لا برغوث و لا عقرب و لا حية و لا ذباب، و كان الركب يأتون و في ثيابهم القمل و غيره، فإذا وصلوا إلى بلادهم ماتت، و هكذا عاش القوم في أطيب عيش و أهنأ حال، فضلا عن قوة الشوكة و اجتماع الكلمة، لا يعاندهم ملك إلا قصموه، و لا يوافيهم جبار في جيش إلا كسروه، فذلت

ص: 314

1- مروج الذهب 2/160-162، تفسير الطبري 22/78-80، تفسير روح المغاني 22/126، معجم البلدان 5/34-35، الدميري 1/445، تاريخ ابن خلدون 2/50، تفسير البيضاوي 2/259، ابن كثير: البداية و النهاية 2/159، تفسير القرطبي 14/486، تفسير الفخر الرازي 25/251، وفاء الوفا 1/117

لهم البلاد، وأذعن لطاعتهم العباد، فصاروا تاج الأرض (1).

وبقي القوم على هذه الحال حيناً من الدهر، لا يدري الأخباريون مداه على وجه التحقيق، أعرضوا بعده عن شكر الله على نعمائه، وانغمس امرؤهم في الترف والملذات، واللهو والشهوات، منصرفين عن تدبير الملك ورعايته، ومن ثم فقد بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً، فدعواهم إلى الله وذكرهم بنعمه عليهم، وأنذروهم عقابه، فأعرضوا، وقالوا ما نعرف لله علينا من نعمة، وكان نتيجة ذلك كله، إن سلب الله عليهم سيل العرم، فحمل السد وذهب بالجنان وكثير من الناس.

وهنا يجنح الأخباريون إلى الأساطير، فيرون أن القوم إنما كانوا يعلمون- عن طريق كهانهم- إنما يخرب عليهم سددهم هذا فأرة، فلم يتركوا فرجة بين حجرين، إلا ربطوا عندها هرة، وتمر الأيام ويصبح سيد القوم «عمرو بن عامر» الأزدي، فيرى- فيما يرى النائم- كأنه انبثق عليه الردم فسال الوادي، فأصبح مكروبا، فانطلق نحو الردم، فرأى الجرذ يحفر بمخالب من حديد، ويقرض بأنياب من حديد، فانصرف إلى أهله وأخبرهم بالأمر، ثم إنهم عمدوا إلى هرة، فأخذوها وأتوا إلى الجرذ، فصار الجرذ يحفر ولا يكثرث بالهرة، فولت هاربة.

على أن رواية أخرى تذهب إلى أن ذلك إنما كان من امرأة له كاهنة- يقال لها طريفة- رأت في منامها أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت كل ما وقعت عليه، ففزع طريفة لذلك وأتت عمرا وأخبرته بالأمر، فهدأها، ثم دخل حديقة له ومعه جاريتان من

ص: 315

1- الدميري 445/1، تفسير الطبري 77/22-85، مروج الذهب 161/2-162، وفاء الوفا 116/1-117، روح المعاني 126/22-127، ابن كثير 159/2، ياقوت 35/5، تفسير القرطبي 289/2-290، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي 258/2

جواريه، فلما علمت طريقة بذلك، جاءت، غير أنها رأت في طريقها إليه ما يؤكد لها ما رآته في منامها، و تستطرد الرواية فتصف ما رآته طريقة و تفسيرها له، و حين يطلب منها زوجها علامة على نبوءتها المشئومة هذه تخبره أنه لو خرج إلى السد لوجد هناك جرذا يكتر بيديه في السد الحفر، و يقلب برجليه من الجبل الصخر، و ينطلق عمرو إلى السد، فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا فرجع إلى طريقة و أعلمها الخبر، ثم أنشد شعرا عربيا فصيحاً.

و يستطرد الاخباريون في رواياتهم فيذهبون إلى أن الرجل و قد تأكد من وقوع المأساة، كتم ذلك عن قومه، و أجمع أمره أن يبيع كل شيء به بأرضه سباً، و من ثم فقد دعا أصغر بنيه- و يدعى مالكا- أو ابن أخيه- و يدعى حارثة- أو يتيما كان قد رباه، و قال له: إذا جلست في المجلس و اجتمع الناس إليّ، فإني سأمرّك بأمر، فأظهر فيه- العصيان، فإذا ضربتك بالعصا، فقم إليّ و الطمني، ثم قال لأولاده: فإذا فعل ذلك فلا تنكروا عليه و لا يتكلم أحد منكم، فإذا رأى الجلساء فعلكم لم يجسر أحد منهم أن ينكر عليه و لا يتكلم، فأحلف أنا عند ذلك يمينا لا كفارة لها أن لا أقيم بين أظهر قوم قام إلى أصغر بنيّ فلطمني فلم يغيروا.

و ينفذ عمرو و أولاده ما اتفقوا عليه، و يعرض الرجل ضياعه للبيع، و يبتاع الناس منه كل ما له بأرض مأرب، غير أنهم لم يلبثوا إلا قليلا حتى أتى الجرذ على الردم تستأصله، فبينما القوم ذات ليلة بعد ما هدأت العيون إذا هم بالسيل فاحتمل أنعامهم و أموالهم و خرب ديارهم، و لم يبق من الأرض و الكروم إلا ما كان في رءوس الجبال.

و تفرق القوم في البلاد، فذهب أولا- جفنة إلى الشام، و نزل الأوس و الخزرج في يثرب، و سارت ازد السراة إلى السراة، و ازد عمان إلى عمان، و ذهب مالك بن فهم إلى العراق، و نزلت طيء بأجأ و سلمى، و نزلت أبناء

ربيعة بن حارثة تهامة، حيث سموها بخزاعة، واستولوا على مكة من جرهم (1).

تلك هي الروايات التي جاءت عن سبيل العرم في الكتب العربية، موجزة، وهي روايات لا تكاد تزيد في معظمها عن مجموعة من الخرافات والقصص التي صيغت في جواسطوري، حافل بالإثارة، مجاف للعقل والمنطق، غاص بالمتناقضات، ومن ثم فلا يهم أن تكون لها قيمة علمية أو لا تكون، فذلك شأن من يريدون أن يروها في نصها الراهن على هذا النحو أو ذاك، ولكن المهم ألا تكون حقائق تاريخية يصدقها الناس تماماً، عن سد مأرب، وما حدث له من تصدعات في فترات متباعدة وفي ظروف مختلفة، ذلك لأن سهام الريب إنما توجه إليها من كل جانب، وليس بالوسع القول بأنها ترقى إلى ما فوق مظان الشبهات.

ولعل أهم ما يوجه إليها من نقد، يمكن حصره في نقاط، منها (أولاً) ذلك الخلاف بين الرواة فيمن بنى السد، فذهبت رواية إلى أنه سبأ، وأخرى إلى أنه حمير، وثالثة إلى أنه لقمان، ورابعة إلى أنها بلقيس، ومع ذلك فإن هذه الروايات جميعاً، إنما كانت بعيدة عن الحقيقة التاريخية- والمسجلة على السد نفسه- وهو أن صاحب الفكرة و منفذ المشروع، إنما كان «سمة علي بنوف» في القرن السابع قبل الميلاد، ثم أخذ خلفاؤه من بعده يضيفون إليه جديداً بعد جديد، حتى اكتمل في نهاية القرن الثالث الميلادي على أيام «شمر يهرعش»، كما سنوضح ذلك فيما بعد.

ص: 317

1- ياقوت 35/5-37، تفسير الألويسي 131/22-133، تفسير الطبري 80/22-86، تفسير البيضاوي 259/2، مروج الذهب 2/167-176، ابن خلدون 50/2، 57، ابن كثير 160/2-161، وفاء الوفا 117/1-122، تاريخ اليعقوبي 1/203-205، الدميري 1/445، ابن هشام 8/1-9، الإكليل 41/8، 115-116، الميداني 1/185، تفسير القرطبي 14/285-291، تفسير الفخر الرازي 25/253، قارن: نهاية الأرب 3/283-288، الميداني 1/275-276، الدرر الثمينة ص 326

ومنها (ثانيا) تلك الأسطورة التي تزعم أن السد إنما تهدم بفعل جرد له مخالف وأنياب من حديد، وهو سبب لا يمكن أن يكون مقبولا إلا في عالم الأساطير، وكما سنعرف فيما بعد، فإن السد إنما تصدع عدة مرات، كان آخرها في عام 543 م، وبفعل عوامل لا دخل لفأر كانت له أنياب من حديد فيها بحال من الأحوال، ومنها (ثالثا) أن الرواة أنفسهم، إنما يذهب فريق منهم إلى أن الماء قد سأل إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، وبذلك خرجت جناتهم.

ومنها (رابعا) تلك النبوءات التي ملئوا بها صفحات كتبهم - والتي أشرنا إلى بعضها آنفا - عن خراب السد، و كأن أصحابنا الأخباريين - وكذا المفسرين - يسلمون بأن الكهان إنما يعلمون الغيب من الأمر، و نسوا - أو تناسوا - أن الله وحده هو «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» (1)، ومنها (خامسا) ذلك الخلاف بين الروايات فيمن تكهن بخراب السد، ففريق يذهب إلى أنه «عمرو بن عامر الأزدي»، بينما يذهب فريق ثان إلى أن زوجته الكاهنة «طريفة» هي صاحبة النبوءة الأولى، هذا إلى جانب فريق ثالث ذهب إلى أن ذلك إنما كان أخاه «عمران».

ومنها (سادسا) تلك الوسيلة التي لجأ إليها سيد القوم «عمرو بن عامر» في الحصول على كل أمواله بعد أن علم عن طريق نبوءاته - أو

ص: 318

1- يروي البخاري في صحيحه ان جوهرات جلسن يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارية، ثم جعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر، حتى قالت جارية منهن «وفينا نبي يعلم ما في غد» فقال صلى الله عليه وسلم «لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين» (أنظر: النبأ العظيم ص 33)، ويقول الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ» (الانعام: آية 50) ويقول سبحانه وتعالى «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ» (الأعراف: آية 188) فهل هذا يتفق و روايات المؤرخين و المفسرين عن نبوءات القوم عن خراب السد؟

نبوءات زوجته أو أخيه- بخراب السد، هل تتفق هذه الحيلة و مكانة الرجل كسيد لقومه، بل هي تتفق و الخلق العربي؟ ثم أليست هي حيلة ساذجة، يبدو الاختراع فيها واضحا، فضلا عما تدل عليه من طبع دنيء و خلق غير كريم، ما عهدناه في سادات القبائل العربية من قبل.

و منها (سابعاً) تلك الصورة التي تقدمها الروايات عن الرخاء الذي عمّ بلاد سبأ، و عن خلوها من كل الحشرات الضارة، فلا يرى فيها برغوت و لا بعوض و لا عقرب و لا حية و لا ذباب، و أن الركب إنما كانوا يأتون و في ثيابهم القمل و غيره، فإذا ما وصلوا إلى مأرب ماتت، لطيب هوائها، و لست أدري كيف استطاع السبئيون، أو كيف استطاع أصحاب هذه الروايات أن يخلصوا السبئيين من كل هذه الحشرات الضارة، و ما هي وسيلتهم إلى ذلك؟ إلا أن يكون الخيال هو الذي دفعهم إلى أن يقولوا ما قالوا، و إلا أن يكون السبئيون قد توصلوا إلى طريقة- لا نعرفها حتى الآن- استطاعوا أن يتخلصوا بها من هذه الحشرات الضارة، و ليست هذه الوسيلة على أي حال، طيب هواء سبأ، كما يظن أصحابنا المفسرون و الأخباريون.

و منها (ثامناً) تلك المبالغات عن الرخاء و الأمن الذي ساد البلاد، حتى أن المرأة لتخرج واطعة مكتلها على رأسها، فتمشي تحت الأشجار- و هي تغزل أو تعمل ما شاءت- فلا تعود إلى بيتها إلا و قد امتلأ مكتلها مما يتساقط من الثمار، فهل هذا صحيح؟ و هل صحيح كذلك أن قوما تضطر نساؤهم إلى العمل، حتى و هن سائرات في الطرق يجمعن ما تساقط من ثمار الأشجار، يمكن أن نقول عنهم أنهم وصلوا إلى درجة من الرخاء لم يصلها غيرهم، و أي رخاء هذا الذي تضطر فيه نساء القوم إلى التجول بين الأشجار لجمع بقايا الفواكه التي تساقط من أشجارها.

و منها (تاسعا) تلك الصورة الأخرى التي يذهب فيها الأخباريون إلى أن المرأة لتخرج و معها مغزلها و مكتلها- مرة أخرى- تروح من قرية و تعدوها، و تبيت في قرية لا تحمل زادا و لا ماء لما بينها و بين الشام، فهل هذا صحيح؟ أم أنها مجرد كلمات؟ و هل صحيح كذلك أن هناك قرى متصلة بعضها ببعض الآخر فيما بين اليمن و الشام؟ ليت الذين كتبوا ذلك كله يتذكرون أن طريق القوافل بين اليمن و شمال بلاد العرب، إنما كانت- و لا زالت- تمر في صحراء مقفرة، و أن القرى حتى الآن بعيدة عن بعضها، ثم و هل كانت المرأة حقا تأمن على نفسها في صحراوات بلاد العرب، في وقت كان السبي فيه أمرا معهودا، ثم و هل من علامات الرخاء ان تمشي المرأة من اليمن إلى الشام، تروح من قرية إلى أخرى، ثم تبيت في ثلثه، لا تحمل زادا و لا ماء، و كأن الرخاء الذي يتحدثون عنه لا يتوفر إلا في الزاد و الماء.

و منها (عاشرا) تلك المبالغة التي يصفون بها جرذهم الذي خرب السد، حتى أنه كان يقلب برجليه صخرة، يعجز عنها خمسون رجلا، و منها (حادي عشر) ذلك الشعر الذي قاله «عمرو بن عامر الأزدي»، بلغة عربية بليغة إلى أرقى درجات البلاغة، فهل صحيح أن عمرا هذا قال هذا الشعر، أم أن الرجل بريء مما نسب إليه، كما هو بريء مما سجله الأخباريون على لسانه- و لسان زوجته طريفة- من نثر هو غاية في الفصاحة و البلاغة، و مرة أخرى ليت الذين نسبوا إلى الرجل و زوجته من شعر أو نثر، كانوا يعلمون أن سكان اليمن قبل الإسلام كانوا ينطقون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم، و أن من يأتي بعدهم سوف يكتشف سر «المسند»- الخط الذي يكتب به في جنوب بلاد العرب- و من ثم يتمكن من قراءة نصوصه و التعرف على لغته، و أن عربيته تختلف عن هذه العربية التي تدون بها- و التي زعم الأخباريون أن عمرا و زوجته قالوا

بها شعرا و نثرا- و من ثم فقد ذهب بعض علماء العربية في الإسلام إلى إخراج الحميرية و اللهجات العربية الأخرى في جنوب شبه الجزيرة العربية من اللغة العربية، و قصر العربية على العربية التي نزل بها القرآن الكريم، و على ما تفرع منها من لهجات، و من هنا يروي «الجمحي» أن أحد علماء العربية سئل عن لسان حمير، فقال: ما لسان حمير و أقاصي اليمن بلساننا و لا عربيتهم بعربيتنا (1)، و نستطيع أن نقدم هنا نصين كمثال يثبت مدى الخلاف بين هذه اللهجات، الواحد من الشمال، من نصوص المناذرة، ملوك الحيرة، و الذين يزعم الأخباريون أنهم يمنيون هاجروا بعد خراب السد إلى الحيرة بقيادة مالك بن فهم الارذي، و الثاني من اليمن نفسها و يرجع إلى القرن السادس الميلادي، و قبيل مولد الرسول، (صلى الله عليه و سلم) باكثر من ربع قرن قليلا.

يقول امرؤالقيس بن عمرو ملك الحيرة (288-328 م) «تي نفس مر القيس بر عمرو، ملك العرب كله، ذو أسر التج و ملك الأسدين و نزارو و ملوكهم، و هرب محجو عكدي، و جابزجي في جج نجرن مدينت شمير، و ملك معدو، و بين بنيه الشعوب و كلهن فرسولروم، فلم يبلغ ملك مبلغه، عكدي هلك سنت 223 يوم 7 بكسلول بسعد ذو ولده» (2).

ص: 321

1- طبقات الشعراء ص 4، جواد علي 15/1، قارن المسعودي 46/2

2- يعرف هذا النقش بنقش النمارة، و قد اكتشفه «رينيه ديسو» و «فريدريك ماكلر» في عام 1901 م، على مبعدة كيلومتر واحد من النمارة القائمة على انقاض مخفر روماني، شرقي جبل الدروز، و هو في خمسة أسطر محفور على حجر من البازلت، و أبعاده هي 73، 1 مترا من الطول، 45، 0 مترا في العرض، 40 و 0 مترا في السمك، و يوجد الآن بمتحف اللوفر بباريس، من الواضح أن كاتبه نبطي، لأن الخط المستعمل هو الخط النبطي، و اللغة العربية المستعملة تعرضت هي أيضا لتحريفات نبطية. و انظر عنه: (أ)- حسن ظا: الساميون و لغاتهم، الاسكندرية 1971 ص 165-173 (ب) ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي- ترجمة إبراهيم كيلاني، بيروت 1956 ص 71 (ح) فيليب حتى: تاريخ سورية و لبنان و فلسطين- الجزء الأول- ص 4427- جواد علي 190/3- 193 و كذا P, I. 22, neetabeN eL ,uaenitnaC .J ,32 .P ,sneitserhC sebarA seL ,uaN .F 35 .P ,1907 ,siraP ,malsI'L tnav a eiryS ne sebarA ,duassuD eneR

و ترجمته إلى لغة مفهومة قد تكون كالتالي: «هذا جثمان امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم، الذي عقد التاج و ملك قبيلتي أسد و نزار و ملوكهم، و صد بني محج حتى اليوم، و جاء بنجاح إلى حصار نجران عاصمة شمر، و ملك قبيلة معد، و قسم على أبنائه الشعوب، و جعلها فرسانا للروم، فلم يبلغ ملك مبلغه حتى اليوم، مات سنة 223 يوم 7 من شهر كسلول (7 ديسمبر 328 م)، السعادة لأولاده» (1).

و أما النص الثاني- و يرجع إلى عام 543 م، أي بعد النص الأول بحوالي 215 عاما- و فيه يتحدث أبرهة عن تهدم سد مأرب و اصلاحه، و قد افتتحه بالعبارة التالية «نجيل وردا و رحمت رحمن و مسحو و روح قدس» (2).

و ترجمته إلى لغة مفهومة قد تكون كالتالي «بحول و قوة و رحمة الرحمن و مسيحه و الروح القدس».

و ليس من شك أنه ليس واحدا من النصين يثبت أن لهجة اليمن إنما كانت تتفق و لغة القرآن الكريم التي سجل بها أصحابنا الأخباريون شعرا لعمر و بن عامر الأزدي، أو نثرا للرجل و زوجته، و لكن ما حيلتنا و اصحابنا الأخباريون يصرون على أن ينسبوا إلى يعرب بن قحطان و إلى سبأ و إلى تبع و إلى الزبء شعرا عربيا فصيحاً، بل إن الأمر وصل بهم إلى

ص: 322

1- حسن ظاظا: الساميون و لغاتهم ص 165-166

2- سوف نسجل النص كاملا فيما بعد عند الحديث عن تهدم سد مأرب

أن ينسبوا إلى آدم و إلى إبليس، شعرا مضبوطا وفق قواعد النحو و الصرف، و من ثم فليس غريبا أن ينسبوا إلى عمرو بن عامر الازدي شعرا كذلك.

و منها (ثاني عشر) تلك المبالغة فيمن أرسلهم الله للقوم من المصطفين الأخيار، حيث يروي ابن إسحاق - عن وهب بن منبه - أن الله جلّ و علا قد أرسل إليهم ثلاثة عشر نبيا، و زعم السدي أنهم اثنا عشر ألف نبي (1)، فضلا عن تعارض ذلك مع الإتجاه الذي يذهب إلى أن خراب السد إنما كان بين الميلاد و بعثة المصطفى (صلى الله عليه و سلم)، و هي فترة يرى الجمهور أنه لا أنبياء فيها، و إن ذهب البعض إلى أن بها أربعة أنبياء، ثلاثة من بني اسرائيل، و واحد من العرب، هو خالد العيسي، على أن هناك من يرى أنهم ثلاثة عشر نبيا، و أنهم كانوا فيما بين عهد سبأ نفسه، و بين فترة هلاكهم أجمعين (2).

و منها (ثالث عشر) من الذي ساعد عمرو بن عامر في حيلته الساذجة، فأهانته أمام قومه؟ هل ولده، أم ابن أخيه، أم كان يتيما رباه الرجل و أنكحه، كما يقول بعض الأخباريين (3).

[3] السدود في بلاد العرب

تعتبر شبه الجزيرة العربية من أشد البلاد جفافا و حرا، و ربما كان ذلك لوقوعها في منطقة قريبة من خط الاستواء، و لأن معظم أجزائها تقع في الإقليم المداري الحار، و لبعدها عن المحيطات الواسعة التي تخفف من درجة الحرارة، و لأن المسطحات المائية التي تقع إلى الشرق و إلى الغرب

ص: 323

1- ابن كثير 2/ 159

2- تفسير روح المعاني 22/ 128

3- وفاء الوفا 1/ 119

منها- و أعني بها الخليج العربي و البحر الأحمر- أضيق من أن تكفي لكسر حدة هذا الجفاف المستمر، و من ثم فقد كان أثرهما في اعتدال الحرارة غير ملموس، أما المحيط الهندي الذي يقع إلى الجنوب منها، فلئن ساعد في الجنوب على سقوط الأمطار في أطراف شبه الجزيرة العربية الجنوبية، فإن مرتفعات حضرموت و الربع الخالي قد تمنعها عن داخلها.

و من المعروف أن المطر غوث و رحمة لسكان شبه جزيرة العرب، يبعث الحياة في الأرض، فتنبت العشب و الكلاً و الكمأة و الازهار، و يحول وجهها الكئيب إلى وجه مشرق ضحوك، فيفرح الناس و تفرح معهم ماشيتهم، و من هنا كان من مرادفات المطر الغيث، و في الكلمة ما فيها من معاني الغوث و النصر، و هو على أي حال، جد قليل في داخل البلاد بالنسبة إلى شدة احتياج البلاد إليه، و لعل أكثر المناطق حظوة و نصيباً من المطر، هي النفود الشمالي و جبل شمر، إذ تنزل بها الأمطار في الشتاء فتنبت أعشاب الربيع، و أما الصحارى الجنوبية فلا يصيبها من المطر إلا رذاذ، و قد تبخل الطبيعة عليها حتى بهذا الرذاذ، و أما في اليمن و عسير، فتسقط الأمطار الموسمية، و هي هناك تكفي لتأمين زراعة الأرض زراعة منتظمة، و من ثم فهناك نجد خضرة دائمة تنبت في أودية خصبة قد تمتد نحو مائتي ميل من الساحل (1).

هذا و ليس في الجزيرة العربية كلها نهر واحد دائم الجريان يصب ماؤه في البحر، و ليس في نهيراتها الصغيرة ما يصلح للملاحة، و هي لذلك تعد من جملة الأرضين التي تقل فيها الأنهار و البحيرات، و في جملة البلاد التي يتغلب عليها الجفاف و يقل فيها سقوط الأمطار، و من ثم فقد أصبحت

ص: 324

وقد عوضت عن الأنهار بشبكة من الأودية التي تجري فيها السيول غب المطر، الذي ينهمر أحيانا وكأنه أفواه قرب قد تفتحت، فتكون سيولا عارمة جارفة، تكتسح كل ما تجده أمامها، وتسيل الأودية فتحولها إلى أنهار سريعة الجريان (2)، هذا وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كثيرا من أودية شبه الجزيرة العربية إنما كانت أنهارا في يوم ما (3)، وأما أدلتهم على ذلك، (فأولا) وجود ترسبات في هذه الأودية من النوع الذي يتكون عادة في قيعان الأنهار، ومنها (ثانيا) ما عثر عليه من عاديات و آثار سكن على حافة الأودية، ومنها (ثالثا) ما جاء في كتابات المؤرخين القدامى من الأغرقة والرومان عن وجود أنهار في شبه جزيرة العرب، ف «هيرودوت» يتحدث في (1: 214) عن نهر أسماه «كورس» رغم أنه ينبع من منطقة نجران، ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية، مخترقا بلاد العرب حتى يصب في الخليج العربي، و يرى «مورتز» أنه في وادي الدواسر الذي يمس حافة الربع الخالي، عند نقطة تبعد خمسين ميلا، من جنوب شرق السليل، وتمده الأودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول (4).

ص: 325

1- جواد علي 157/1-158

2- جواد علي 215/1

3- مما يؤكد وجود أنهار في الجزيرة العربية قديما، ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في «صحيحه» في كتاب الزكاة في «باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها». عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض و حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه، و حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً».

4- جواد علي 158/1-159، حافظ وهبه: المرجع السابق ص 54، محمود شكري الألوسي: تاريخ نجد ص 29، وكذا 21. 1923. P, revonaH ,sednaL sed eihpargoeG nehcsirotSiH dnu nehcsilakisyhP ruZ neidutS neibarA ,ztiroM .B 350 .P .Y .N ,aibarA fo retrauQ ytpmE ehT ssorcA ,xileF aibarA ,samohT ,marteB .1932 .

و أما أهم أودية شبه الجزيرة العربية، فوادي الرمة و وادي الحمض و وادي السرحان و وادي حنيفة و وادي الدواسر و وادي بيشه، ثم وادي نجران- و الذي يتصل بموضوعنا- و هو أحد الأودية الكبيرة في شبه الجزيرة العربية، بل هو في الواقع مجموعة أودية كبيرة، منها:

(1) وادي حرض: و ينبع من مرتفعات «وشحه» و مرتفعات «خولان بن عامر» غربي صعدة، و يتجه مجراه إلى ساحل البحر الأحمر شمال «ميدي» في المملكة العربية السعودية.

(2) وادي مور: و هو واد كبير تتصل به روافد كثيرة متعددة المنابع (من مرتفعات العشممة و وشحه و كحلان و حاشد) و يصب في البحر الأحمر شمال «اللحية».

(3) وادي سررد: و يغذي مناطق زراعية واسعة، و تتصل به عدة روافد، أهمها وادي الأهجر الذي تكثر به الشلالات و قد استخدم على أيام حمير في طحن الغلال، و يصب وادي سررد جنوب «الزيدية».

(4) وادي سهام: و تقع منابعه في وادي آنس جنوب صنعاء، و يصب في البحر الأحمر جنوب الحديدة.

(5) وادي رماع: و ينبع من المرتفعات الواقعة شمال «ذمار»، و تغذيه عدة روافد، و يصب في البحر الأحمر شمال «الفازة».

(6) وادي زبيد: و هو من الأودية الغزيرة المياه، و منابعه في مرتفعات لواء «آب» و يصيب في البحر الأحمر غربي مدينة «زبيد».

(7) ثم هناك وادي نخلة، و يصب في البحر الأحمر شمال «الخوضه»، ثم وادي رسيان و وادي موزع.

وكل هذه الأودية تتجه غرباً، أما الأودية التي تتجه شرقاً، فهي: (1) وادي الجوف، و تتجمع فيه عدة أودية. (2) وادي مأرب: وينبع من جبل بلق ثم يتجه شرقاً ماراً بمدينة مأرب- على مبعده 12 كيلومتراً من سد مأرب. (3) وادي حريب: وينبع من مرتفعات خولان الطيال (4) وادي أملح و العقيق (5) وادي بيجان، وينبع من مرتفعات لواء البيضاء ثم يتجه إلى الشمال الشرقي حتى يصل إلى بيجان القصاب، ثم تصبغ مياهه شرقاً في الأحقاف (1).

و تتميز هذه الأودية الأخيرة بأنها ذات أهمية تاريخية، إذ كانت مركزاً للسكنى والاستقرار، وكان حجم التجمعات السكانية ولا شك كبيراً، وقد دفعتهم قلة المياه في بلادهم، مع الرغبة في زراعة أراضيهم، إلى التفكير في إقامة السدود العديدة على مجاري الوديان، حتى أنهم في الغالب لم يتركوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد، و حتى أن الهمداني يشير إلى أنه في مخلاف «يحصب العلو» وحده ثمانون سداً، و الى هذا يشير شاعرهم بقوله [و في الجنة الخضراء من أرض يحصب: ثمانون سداً تقذف الماء سائلاً] (2).

و بقايا هذه السدود ما يزال يشهد بوجودها في مجاري الوديان، فضلاً عن بقايا المدن التي كانت تنتشر بالقرب من مجاري الوديان كذلك، و التي من أهمها براقش و معين التي ذكر بليني أنها كانت بلاداً كثيرة الغاب و الأعراس.

و أما أهم سدود اليمن القديمة هذه، إذا استثنينا سد مأرب العظيم، فهي: سد قصعان و ربوان (سد قتاب) و شحران و طمحان و سد عباد

ص: 327

1- محمود طه أبو العلا: المرجع السابق ص 43-52

2- الهمداني: صفة جزيرة العرب ص 101

وسد لحج (سد عرايس) و سد سحر ذي شهال و سد ذي رعين و سد تقاطه و سد نضار و هران و سد الشعابي و سد المليكي و سد النواصي و سد المهباد و سد الخائق بصعدة (وقد بناه نوال بن عتيك مولى سيف بن ذي يزن) و مظهره في الخنفرين من رحبان، و سد ريعان و سد سيان و سد شبام، على مقربة من صنعاء بثمانية فراسخ، و سد دعان وغيرها (1).

هذا و هناك كذلك سد قتبان، و قد أقيم في وادي بيجان عند «هجر بن حميد» (2)، و كان يسقي منطقة واسعة من دولة قتبان (3)، فضلا عن

سد

ص: 328

1- ياقوت 3/318، جرجي زيدان: المرجع السابق ص 154، جواد علي 7/212 (انظر 113, 119, abehS fo dnaL, JG, PP, 92, ehT, yblihP .B .J 116 .P, 1943 .101 .J .G, etarotcetorP nedA nretseW eht ni setiS, lacigoloeahcrA, notlimaH .A .R 153 .P, neibarA, nnamhorG .A

2- تقع دولة قتبان- فيما يرى سترابو- في الاقسام الغربية من العربية الجنوبية وفي جنوب السبئيين و جنوبهم الغربي، و قد امتدت منازلهم حتى باب المنذب (P, 2, IE .810)، و ليس في المصادر العربية شيئا يستحق الذكر عنها، سوى أنها موضع من نواحي عدن (ياقوت 4/310) و انها بطن من رعين حمير (تاج العروس 1/431) و قد اختلف المؤرخون في التأريخ لها، ربما لمعاصرتها لدولة معين و سبأ، و من ثم فإن تاريخ الدول الثلاث مرتبط ببعضها و مرتبط بالأبحاث اللغوية، و كل تلك امور ما تزال موضع خلاف، و من ثم فقد رأينا من يضع دولة قتبان فيما بين القرنين العاشر و الثاني قبل الميلاد، و من يرى أنها في الفترة (865-540 ق.م.)، و من يرى أنها فيما بين عام 645 ق.م. و القرن الثالث ق.م.، و من يرى أنها فيما بين القرن السادس ق.م.، و عام 50 ق.م. و من يضعها في الفترة (400-50 ق.م.) و من يرى انها فيما بين القرن الرابع ق.م.، و الأول الميلادي [أنظر 179 .P. 60 .S .itacsom, tneicnA, citimeS, snoitaziliviP .J .P .ehT, yblihP .P .malsI fo dnuorgkcaB ehT, netla netirO .P, 139 .W)spillihP .abehS dna nabataO, F 222 .P, ROSAB, 119, 1950, .PP 3-5 .F .lemmoH, sirdnurG, eihpargoG dna sedethcihcreG و أما أهم مدن قتبان فهي العاصمة تمنا» (تمنه- تمنع)

3- و تقع في وادي بيجان في منطقة تدل آثار الري فيها، على أنها كانت خصبة كثيرة المياه و البساتين، و أنها قد خربت بسبب حريق هائل، هذا فضلا عن «حريب» التي ذكر الهمداني، «و اشتهرت بنقود ضربت فيها و حملت اسمها كما كانت عاصمة لقتبان في أخريات أيامها» (أنظر الهمداني: المرجع السابق ص 80، 95، 135؛ جواد علي 2/230-231 و كذا 75 .M. aimatoposeM, aisreP dna VIXXI .P .F .G .IliH, eugolataC, eht fo keerg fo snioC, aibarA

عند «مرخة»، و آخر عند «شبو»، و ثالث عند «الحريضة» (1)، أضف إلى ذلك تلك السدود التي تظهر آثارها في وادي عديم و عند حصن العر و ثوبة في جنوب وادي حضرموت، كما أن هناك ما يشير إلى أن الصخور قد نحتت عند «نجران» لعمل ممر مائي يتجه إلى حوض واسع أحيط بسد و جدار، حيث يستطيع القوم تخزين مائة مليون جالون من المياه هناك (2).

[4] سد مأرب

كان خصب أرض سبأ مضرب الأمثال عند العرب، و كان أهلها ينعمون بخيرات واديهم، و بما تدره التجارة عليهم من أموال، إذ كان السبئيون القدامى يتحكمون في ذلك الدرب التجاري الهام الذي لعب دورا من أكبر الأدوار في تاريخ العالم القديم.

و هناك على مقربة من مدينة مأرب توجد فتحة لتنظيم تصريف المياه التي كانت تسير في القناة اليمنى - إحدى القناتين اللتين كانتا تخرجان من سد مأرب- و ما زالت بقايا جداريها المشيدين بالحجر، ترى حتى الآن في الجهة الجنوبية من المدينة، و هي الباب الرئيسي في السور الذي كان يواجه معبد «أوام» أو «محرم بلقيس»، و على الجدار الشمالي من ذلك الأثر نقش معروف (رقم 1-44) و مكتوب فيه أن مكرب سبأ «ذمار على و تار» بن «كرب ايل»- الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد- هو الذي بنى هذه الفتحة أمام هيكل الإله «عتتر» (3)، و يبدو أن الرجل كان

ص: 329

1- جواد علي 213 /7 و كذا 5-34 . P. P, 1939, 93, JG ni, renidraG. E dnA nospmohT. C .

2- جواد علي 213 /7 و كذا 16. P. B. J. abehS fo dnaL ehT, yblihP. B. J. 153 و كذا . P, tic- po, nnamhorG. A .

3- احمد فخري: المرجع السابق ص 171، 180 و كذا 3-62. P. P, seuqihcranom snoituitsnI seL, snamkcyR. J .

مهتما بالإصلاح الزراعي، و كما نعرف من نقش (هاليفي 349) فإنه قد أمر بتوسيع مدينة «تشق»، كما أمر بتحسين وسائل الري، و باستصلاح الأراضي المحيطة بالمدينة واستغلالها في الزراعة (1).

و على أي حال، فلقد جاء بعد «ذمار علي وتار» ولده «سمه علي نيوف» الذي ينسب إليه أنه صاحب فكرة و منفذ أكبر مشروع للري عرفته بلاد العرب، و ذلك بالرغم من أن سكان مأرب كانوا ذوي خبرة بشئون الري، إلا أن سدودهم كانت بدائية، حتى جاء «سمه علي نيوف» و أحدث تطورا خطيرا في وسائل الري، و ذلك حين شيد سد «رحب» للسيطرة على مياه الأمطار و الاستفادة من السيول، و هكذا بدأ المشروع العظيم و الذي عرف في التاريخ باسم «سد مأرب» الذي نما على مر الأيام، حتى اكتمل في نهاية القرن الثالث الميلادي على أيام «شمر يهرعش» (2)، فنظم وسائل الري و أضاف مساحات كثيرة إلى الأرض الصالحة للإنتاج (3).

و نعرف من نقش (جلانزر 514) أن «سمه علي نيوف» قد ثقب حاجزا في الحجر، و فتح ثغرة فيه لمرور المياه إلى سد «رحب» ثم إلى منطقة «يسرن» التي كانت تغذيها مسايل و قنوات عديدة تأتي بالمياه من حوض السد (4)، و تستمد ماءها من مسيل «ذنة» فتغذي أرضا كانت-

ص: 330

1- جواد علي 280/2

2- حكم شمر يهرعش في الفترة (270-310 م)، و إن كان «فون فيسمان» يحدد النصف الثاني من حكمه بالفترة (285-291- أو 310-316 م) [فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 395 و كذا انظر: P. P 4-3, 1964, noesuMeL.456,486]

3- جواد علي 281/2، و كذا انظر: P. I, hcubdnaH, nosleiN. D. 79.

4- انظر. 27. dna. M. renfoH ,egartieB ruz nehcsirotsih nehspargroeG sed eihsimarsiV neibaraduS ,P .H .nnamssiW noV

و ما تزال- خصبة، يمكن للقوم الإفادة منها إذا ما استعملوا الوسائل الحديثة لإيجاد المياه (1).

وليس من شك في أن عهد «سمة علي ينوف» من أهم عهود مكاربة سبأ (2)، فيما يتصل بالتأريخ لسد مأرب، وأن أقدم ما لدينا من وثائق عنه، إنما يرجع إلى عهد هذا المكرب، وربما إلى حوالي عام 750 ق. م.، على رأي (3)، وإلى حوالي عام 700 ق. م.، على رأي آخر (4) وجاء «يتع أمرين» و سار على سنة أبيه «سمة علي ينوف» في الاهتمام بتحسين وسائل الري في البلاد، ويبدو أن «سد رحب» لم يف بجميع حاجيات الأراضي الصالحة للزراعة من المياه، و من ثم فقد عمل «يتع أمرين» على إدخال بعض التحسينات على هذا السد، و إنشاء فروع له، و منها فتح ثغرة في منطقة صخرية، حتى تصل المياه إلى أرض «يسرن»، هذا إلى جانب تعلية سد رحب و تقويته، أضف إلى ذلك أن الرجل إنما قام ببناء السد المسمى «هباذ». و هو أكبر من «سد رحب»، و الذي كان على الأرجح البوابة الأخرى على اليسار (5)، كما أقام سده الجبار المعروف باسم «سد حبا بض» الذي مكّن كثيرا من الأرض من الإفادة بأكثر كمية من المياه التي كانت من قبل تجري عبثا، فلا تقيد زرعاً

ص: 331

1- جواد علي 2/ 281، نزيه مؤيد العظم: المرجع السابق ص 88

2- تقع هذه الفترة فيما بين عامي (800-650 ق. م.) أو (750-450 ق. م.) و إن كنا نفضل الرأي الذي يبدأ تأريخها بالقرن العاشر ق.

م.، و إليها تنتمي ملكة سبأ صاحبة سليمان [أنظر: جواد علي 2/ 269، 38. ROSAB, 1955, 137, P, و كذا 73. seirevocsiD, P]

3- جواد علي 2/ 282 و كذا 75. seirevocsiD, P

4- 290. P, III, malsI fo, ycnE

5- احمد فخري: المرجع السابق ص 183، جواد علي 2/ 282، و كذا 75. seirevocsiD, p, و كذا 523, 525, resalG

ولعل هذا كله، هو الذي دفع بعض الباحثين إلى اعتبار «بتع أمربين» وأبيه «سمه علي ينوف» المؤسسين الأصليين لسد مأرب، والذي يعتبر أكبر عمل هندسي عرفته شبه الجزيرة العربية في تاريخها القديم.

هذا وقد كان من أثر الاهتمام بإنشاء السدود وتنظيم الري، أن زادت مساحة الأراضي الزراعية، وخاصة حول مأرب، مما كان سببا في الإغلاء من شأنها وزيادة سكانها، ولما كان الرخاء الاقتصادي في سبأ يعتمد على الحياة النباتية- وليس الحيوانية- فإن الاهتمام بتنظيم الري إنما كان سببا في الرخاء الذي ساد البلاد إبان تلك الفترة، وجعل من «مأرب» مدينة مزدهرة، وأوجد الصورة الرومانتيكية لبلاد العرب في أذهان المؤلفين الكلاسيكيين، فأطلقوا عليها «بلاد العرب السعيدة»، وهكذا أصبحت مأرب تنازع «صرواح» (2) مكانتها أول الأمر، ثم

ص: 332

1- فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 291 و كذا 290. P, III, malsI fo, ycnE. وكذا انظر: F 13. P, II, negruB eiD, relluM. H. D

2- كانت صرواح عاصمة سبأ في عصر المكاربة، ثم واحدة من أهم مدن سبأ لعدة قرون بعد ذلك، وتقع الآن في موضع «الخربة» و «صرواح الخريبة» ما بين صنعاء و مأرب، وكثيرا ما تردد ذكرها في أشعار العرب، وقال عنها الهمداني: أنه لا يقارن بها شيء من المحافد المختلفة، ويروي الأخباريون أنها حصن باليمن، وأن الجن قد بنوه لبقيس بأمر من سليمان، وليس من شك في أن هذا من الأساطير التي لعب الخيال فيها دورا كبيرا، فضلا عن جهل بتاريخ المدينة، إلى جانب أثر الاسرائيليات في إرجاع أي أثر لا يعرفون صاحبه، إلى سليمان و إلى جن سليمان، وتوجد المناطق الأثرية في صرواح في ثلاثة مناطق هي: منطقة البناء والمنطقة المسماة القصر، وهي قرية حديثة استخدموا في تشييدها بعض أحجار المعابد، وإما المنطقة الثالثة فهي المسماة الخريبة، وإما أهم آثار صرواح فهو معبد إله القمر الموقاة، و دار بلقيس و معبد «يفعان» الذي نال حظوة كبيرة بعد معبد الموقاة عند المكاربة [أنظر: احمد فخري ص 160-162، نزيه مؤيد العظم /2 34، ياقوت 402/5، اللسان 343/3، الهمداني الإكليل 24/8، 45، 75، 22/10، 24، 26، 39، 110، صفة جزيرة العرب ص 102، 110، 203، منتخبات ص 60 و كذا 141 P, tic -po, nosleiN .D 1951 ,III ,snoitpircsnI eht fo noitacilbuP ,snankeyR. (.G

سلبتها هذه المكانة بعد حين من الدهر، فغدت عاصمة سبأ، وصاحبة معبد الإله الموقاة- إله سبأ الكبير (1).

هذا وهناك ما يشير إلى أن ملوكا آخرين قد أضافوا أجزاء أخرى إلى السد، فضلا عن تقوية أجزائه القديمة، ومن هؤلاء الملوك «كرب ايل بين بن يتع أمر» و«ذمار علي ذريح» و«يدع ايل و تار» (2).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القوم إنما كانوا يهدفون من وراء السد إلى تحقيق أمرين، الواحد السيطرة على مياه السيول المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها إذا جاءت فجأة بكثرة غير عادية، والآخر تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد وعدم صرف شيء منها إلا بالمقدار اللازم، وبذلك يضمنون ري وادي مأرب، الذي يرتفع عن مستوى السائلة بخمسة أمتار، ويؤمنون توفير كميات المياه اللازمة للري حين يحين موعد مجيء سيول أخرى من المناطق الممطرة في شرق اليمن لأن منطقة مأرب من المناطق الجافة قليلة الأمطار، ولا يزرع أهلها اليوم- أي بعد تخريب السد- إلا مساحات ضئيلة على مقربة من مجرى المياه في وادي دنة، وتضيع أكثر مياه السيول هباء في الوقت الحالي، ولا يمكن استخدامها في زراعة أراضي الوادي المرتفعة (3).

[5] وصف السدّ

تسقط كميات كثيرة من الأمطار في مناطق كثيرة في شرق اليمن، وتسير

ص: 333

1- فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 291 و كذا 39. A. IHC ni, aibar P. B. J 10. P, I, tic- po, yblihP. و كذا erP- cimalsI dilahS. I

2- جرجي زيدان؛ المرجع السابق ص 161، جواد علي 7/ 210 و كذا 15. M. H. D. P, tic- po, rellu

3- احمد فخري: المرجع السابق ص 181

سيولها في الوديان المختلفة، ثم تتجمع مع غيرها من السيول القادمة من الشمال و من الجنوب، و تؤلف هذه السيول شبه بحيرة كبيرة مستديرة و مرتفعة من جهة الغرب و الشمال و الجنوب، و منخفضة من جهة الشرق، حيث تسير جميعها شرقا في مجرى سيل واحد يطلق عليه اسم أكبرها «ذنة» (إذنة) و تدخل جميعها في واد كبير في جبل يقال له جبل بلق، فتقسمه إلى جبلين - بلق الأيسر و بلق الأيمن - و أما الفتحة بين الجبلين فتعرف باسم «الضيقة» (1).

و يرتفع جبل بلق في تلك المنطقة إلى حوالي 300 م، و أما الضيقة فتبلغ متوسط اتساعها حوالي 230 م، و إن اتسعت في الوسط إلى حوالي 500 م، ثم تضيق بعد ذلك فلا تزيد عن 190 م، ثم تستمر الناحية الشمالية (أي التي على يمين الشخص المواجه للسد) في امتدادها، بينما تنفرج الناحية الأخرى، و قد اختار السبتيون القدامى هذا المكان لتشييد السد، فبنوا جدارا قويا يعترض الوادي و يوقف مياه السيول المتدفقة، و جعلوا في الناحيتين فتحتين، إحداها إلى أقصى اليمين، و استغلوا ذلك الجبل المرتفع في هذا الغرض فلم يبنوا إلا جدارا ضخما واحدا ليكون صدغا ثانيا للبوابة، أما البوابة التي في الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهي أكبر و أعظم و تنقسم إلى قسمين، و بنوا لها جدارين كبيرين يسيران مسافة غير قليلة، ثم ينتهيان بحوض كبير مبني بالحجر ترى في وجهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لري ناحية من نواحي الوادي الفسيح (2).

و يطلق الاهالي على البوابة اليمنى مربط الدم و كانت تروى الناحية اليمنى التي ما زالت بقايا كثيرة من قراها ظاهرة حتى اليوم و كلها على يمين

ص: 334

1- محمد مبروك نافع: المرجع السابق ص 82

2- احمد فخري: المرجع السابق ص 181

وادي زنة، وربما كان ذلك الإسم في حد ذاته ما يثبت أن تهدم السد قد حدث في هذه الناحية القريبة من مدخل الضيقة و يبدو أن صخرة الجبل تكوّن إحدى جانبي هذه الفتحة، أما الناحية الأخرى فمشيدة من الحجر، وربما كان في صدغي تلك الفتحة المكان الذي كانوا يزلقون فيه كتل الأخشاب لتصريف الكميات اللازمة من المياه و تسير بعد ذلك في قناة عادية، و يبدو أنه كان هناك بروزا مثلثا في ذلك الجدار الحجري، و قد كان ذلك البروز داخلا في جدار السد الكبير، و هو الجدار الذي تهدم و سبب ذلك الخراب (1).

و أما البوابة اليسرى، فقد كان لها عينان، و وراءها قناة مبنية الجوانب طولها أكثر من كيلومتر تنتهي بحوض كبير تتفرع منه عدة قنوات، كما يبدو أنهم سدوا الناحية الجنوبية بجدار يرتكز على صخرة الجبل، ثم جعلوا في مكان مرتفع من الجدار أربع فتحات و ذلك لتصريف أي كميات زائدة من المياه حتى لا يرتفع منسوب المياه أمام السد إلى حد لا يريدونه، أو يؤثر على الفتحات أو يتعارض مع النظام المقرر لها، و تخرج تلك المياه الزائدة إلى الخارج و تنزل إلى باطن الوادي، و في وقت من الأوقات رأوا أنه لا حاجة للعينين فسدوا واحدة منهما و اكتفوا بالأخرى، و كان يخرج من الحوض المبنى بالحجر في آخر القناة الكبرى قنوات متعددة، تبلغ فتحات بعضها نحو ثلاثة أمتار، و كلها مبنية بالحجر، و كانت مثل البوابتين الكبيرتين تغلق بوضع كتل من الخشب تنزلق في فتحتين في جانبي كل بوابة (2).

هذا و تدل دراسة المباني التي ما زالت قائمة عند البوابتين على أنه قد

ص: 335

1- نفس المرجع السابق ص 183

2- نفس المرجع السابق ص 184

على ينوف» و «يشع أمرين» أو الى عهد غيرهما، غير أننا إذا ما قارنا مبانيهما بمباني معبد صرواح و معبد محرم بلقيس- و كلاهما من هذا العهد- و وضعنا في أذهاننا أن تهدم ذلك السد يحدث من تصدع جداره الكبير الذي كان بين البوابتين، نرى أنفسنا ميالين إلى الأخذ بالرأي القائل بأن مباني البوابتين القائمتين هما من ذلك العهد (مع افتراض حدوث بعض الترميمات فيهما) اللهم إلا إذا ظهر من الوثائق القديمة ما يثبت غير ذلك، و هو ما لم يحدث حتى الآن (1).

و نقرأ في نقش (جلالزر 825) أن الرومانيين قد انتهزوا فرصة الحرب التي دارت رحاها بين الملك السبيئي «شعر أوتر» (65-55 ق.م.) (2)، و بين ملك حضرموت «العزيط» (3)، فأغاروا على سد مأرب بغية إيقاع الخسائر به، غير أن قبيلة «حملان» التي عهد إليها حماية السد، نجحت في صد هجوم الرومانيين، هذا و يذهب البعض إلى أن هذا الهجوم ربما كان بتحريض من ملك حضرموت بهدف إنزال ضربة قاصمة بالسبيين، و ذلك بتخريب سدهم الذي هو بمثابة العمود الفقري للاقتصاد السبيئي، و بخاصة بالنسبة للعاصمة مأرب (4).

هذا و هناك ما يشير إلى أن هناك تصدعا قد حدث في سد مأرب على أيام الملك «شمريهرعش» و أن الرجل قد نجح في إصلاحه (5).

ص: 337

1- أحمد فخري: المرجع السابق ص 184

2- P, tic- po, nnamhorG. A .28 و قارن: P, stuqliB marhaM morf, snoitpircsnI, naeabaS, emmaJ. A .390

3- انظر nilreB و كذا H, 93 ,H, noV ,Mdna nnamssiW ,renfoH ,P, tic -po, I ,hcubdnaH 113 .P, tic -po, و كذا 300, P, tic- po, emmaJ. A

و كذا 2672 و كذا 334, HIC

4- انظر: P, tic- po, renfoH airaM dna nnamssiW noV H .38

5- جواد علي 210/7

موضع طمحن (طمحان)، و حفر مسايل المياه و بناء القواعد و الجدران بالحجارة و تقوية فروعها، و بناء أقسام جديدة بين «عيلن» (عيلان) و «مغلل» (مغلول)، و تجديد سد «يسرن»، و أن هذه الأعمال كلها، إنما تمت في شهر «ذي داون» من عام 564/565 من التقويم الحميري (1)، الموافق عام 449/450 (أو عام 456) من التقويم الميلادي (2).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن النص إنما يشير إلى أمور عدة، منها (أولاً) أن تصدع السد قد اضطر الملك إلى تجديد بناء أقسام منه، و ترميم أقسام أخرى، فضلاً عن إضافة أقسام جديدة إليه، و منها (ثانياً) أن السد إنما تهدم مرة أخرى، و بعد فترة قصيرة، و ذلك في شهر ذو ثبتن (ذو الثبت) من عام 565 من التقويم الحميري (الموافق 450/451 م أو 455/456 م)، و كان التهدم هذه المرة في غاية الخطورة حتى أن القوم في «رحبتن» (الرحبة) قد اضطروا إلى الفرار إلى الجبال خوف الموت، و من ثم فقد لجأ الملك إلى حمير و إلى قبائل حضر موت يستعين بهم على إعادة بناء السد، و قد تجمع لديه من هؤلاء و أولئك زهاء عشرين ألف رجل، عملوا في قطع الأحجار و حفر الأسس و تنظيف الأودية و انشاء الخزانات و عمل الأبواب و منافذ مرور المياه، و قد تم ذلك بنجاح في شهر «ذو داو» من عام (565) من التقويم الحميري (450/451 م).

و منها (ثالثاً) أن تصدع السد بعد فترة قصيرة من ترميمه و اصلاحه

ص: 339

1- يبدأ هذا التقويم عام 115 أو 109 ق. م.، لأنه عام قيام دولة حمير، أو لأنه تاريخ سقوط معين تحت سيادة سبأ أو لأنه عام انتصار سبأ على قتيبان

2- جواد علي 579/2-581 و كذا P, tic- po, regnerS. A. 20 و كذا P, tic- po, resalG. E. 379 و كذا P, malsI fo. 118 و كذا dnuorgkcuB ehT, yblihP .B .J 494 .P, 4-3, 1964, noesuM eL

و تجديده، و بعد إنفاق أموال طائلة عليه، و اشتغال آلاف من العمال في بنائه، شيء يدعو إلى التساؤل عن سبب سقوطه أو سقوط جزء منه بهذه السرعة، و هنا يقدم الباحثون ثلاثة احتمالات، أولها: أن التصدع إنما كان بسبب سقوط أمطار غزيرة في هذا العام لم يكن في طاقة السد احتمالها، و ثانيها: أن إصلاح السد لم يكن قد كمل تماما، فسقطت أمطار غزيرة سببت انهيار الأماكن الضعيفة في المواضع التي لم تكن قد تمت، و ثالثها: أن التصدع إنما كان بسبب كوارث طبيعية كالزلازل و البراكين (1).

و ايا ما كان الأمر، فلقد كان لهذه الأحداث أثر سيئ على مأرب، و من ثم فقد أخذ الناس يرحلون عنها إلى مناطق أخرى مثل «صنعاء» التي بدأ نجمها يتألق حتى صارت فيما بعد مقر الحكام الذين أقاموا في قصر غمدان، ربما بسبب التحول السياسي الذي أصاب هذا العهد، و ان كان تصدع السد عدة مرات كان هو السبب الأول، حيث ترك المزارعون أراضيهم التي أصابها التلف و الجفاف إلى أرضين أخرى، فضلا عن اللجوء إلى الهضاب و الجبال (2)، على أن نص (جلازر 554) الذي أشار إلى هذه الأحداث الخطيرة، لم يشر إلى أسماء القبائل التي هربت من «رحبتن» خوف الموت، و إن كان يفهم منه أن القبائل التي كانت تسكن هذه المنطقة قد تفرقت و تشتت بسبب ما أصاب السد، و في هذا دليل على أن هناك أصلا تاريخيا للروايات العديدة التي يرويها الأخباريون عن تهدم سد مأرب و تفرق سبأ (3)، و إن غلب فيها عنصر المبالغة و الخيال على عنصر

ص: 340

1- جواد علي 580/2- 581 و كذا P. B. J .118, tic- po, yblih

2- 493. noesMeL, 1964, 3- 4, P

3- أنظر: 387. E. resalG, ni ,resalG, II, ttahsesnl n ehcsitaisaredroV red negnultiettiM ni , P .1897, و كذا P. tic- po, .28
regnerpS. A

و نقرأ في نص (جلالزر 618) و نص (HIC 541) من عهد أبرهة الحبشي عن ترميم سد مأرب و تجديده مرتين (1)، الواحدة في شهر «ذو المدرح» من عام 657 من التقويم الحميري (542 م)، و الثانية في شهر «ذو معان» من عام 658 من التقويم الحميري، الموافق عام 543 من التقويم الميلادي (2).

و يبدأ أبرهة نصه بقوله «بقوة و جلال و رحمة الرحمن و مسيحه و الروح القدس، سطوروا هذه الكتابة، إن أبرهة نائب ملك الجغريين رمخر زيمان، ملك سبأ و ذوريدان و حضرموت و أعرابها في النجاد و التهائم» (3)، ثم يتحدث النص بعد ذلك عن ثورة شبت بقيادة «يزيد بن كبشة»، و الذي عينه أبرهة نائبا عنه في قبيلة كنده، و سرعان ما انضم إليه «معد يكر» بن «السميفع أشوع» و بعض الزعماء اليمنيين، و من ثم فقد بدأت الثورة تنتشر في أجزاء كثيرة من اليمن، حتى أنها قد شملت حضرموت و حريب و ذو جدن و حياي عند صرواح، إلا أن أبرهة سرعان ما انتصر على الثوار و بطش بهم، بمساعدة قبائل يمنية

ص: 341

-
- 1- جواد علي 3 / 483-484، و كذا 390. E. P, tic- po, resalG. و كذا 71, 1962, 65, 1961, ed, euqitnA eipoihtE'I
D. J. A. sewer. snoitpircsnI, و كذا 587. F. A. F. S. R. dna miehtlA. P, tic- po, lheitS. و كذا 340. el. noesuM 66, 1953, P, و
A. F. A. L. B. notseeB, P, tic- po, smelborP, fo, raebaS ni, ygolonorhC ROSAB و كذا 126-31. P, tic- po, regnerP. A. و كذا 106. H. hcuvdnaH. P, و كذا 506. R. snamhcy
2- جواد علي 3 / 484 و كذا انظر 15, 5, 1899, GMDZ ni, biraM uz hcurbmmaD moV netfirhcsnI nessorg nedieb, ned ruZ negnukremeB, suirotarP. F.
3- جواد علي 3 / 484 و كذا 421. E. P, tic- po, resalG.

قوية (1) ثم نقرأ بعد ذلك أن أبرهة سرعان ما يسمع بتصدع سد مأرب، وهو يصلي في كنيسة مأرب، فيسرع إلى إصلاح السد، مستعينا بحمير و جنوده من الاحباش، غير أنه يضطر إلى إعطائهم مهلة يستريحون فيها من شرور الحرب، فضلا عن القضاء على تدمير القبائل التي لم تتعود مثل هذه الأعمال الشاقة، إلى جانب عقد هدنة مع أقيال سبأ الذين كانوا ما يزالون خارج سلطانه. ثم يبدأ بعد ذلك في جمع العمال من أبناء العشائر، وتخزين المؤن التي سوف يحتاج إليها إبان عمله في إصلاح السد، وأخيرا يبدأ العمل في السد، فضلا عن القنوات والأحواض والمشروعات الفرعية الجديدة، حتى إذا ما كمل المشروع، بعد أحد عشر شهرا من العمل المتواصل، كان طول السد 45 ذراعا، وعرضه 14 ذراعا، وارتفاعه 35 ذراعا، وهذا ويحدثنا أبرهة أن مقدار المؤمن التي صرفت أثناء العمل كانت 50806 كيسا من الدقيق، 26000 حملا من البلح، فضلا عن نحر 3000 جملا و ثورا، 207000 رأسا من الغنم، وذلك منذ اليوم الذي بدأ فيه العمل، و حتى الانتهاء منه في شهر «ذو معان» من عام 658 من التقويم الحميري، الموافق عام 543 من التقويم الميلادي (2).

و كان نجاح أبرهة في ترميم سد مأرب- وهو آخر ترميم له- أمرا اعتز به الرجل، وقرر الاحتفال به، فجاءت إلى مأرب وفود كثيرة تمثل مراكز القوى في العالم وقت ذلك، يذكر أبرهة منها في نقشه، وفدا يمثل «زمخير

ص: 342

-
- 1- فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 303 وكذا H. 121. M dna nnamssiW noV. H. P, tic- po renfoH.
 - 2- جواد علي 3/ 483-486، احمد فخري: المرجع السابق ص 187، جرجي زيدان: المرجع السابق ص 162-163

زيمان» نجاشي الحبشة، ووفدا يمثل «جستينان» (527-566 م) ملك الروم، ووفدا يمثل ملك فارس، ورسلا من الحارث بن جبله الغساني (528-569 م)، وآخرين من المنذر بن امرئ القيس (508-554 م) أمير الحيرة (1).

ولعل سؤال البدهة الآن: أي هذه التصدعات في سد مأرب هي التي يعنيه القرآن الكريم؟

و الواقع أن هذا واحدا من الاسئلة الصعبة التي لا يمكن الإجابة عليها في يسر و سهولة، وذلك لانعدام المادة العلمية التي نستطيع الاعتماد عليها في الاجابة المؤكدة عن السؤال من ناحية، ولأن سد مأرب إنما تهدم عدة مرات، و من ناحية أخرى، و من ثم فإن الأمر لا يخرج هنا عن حيز الحدس و التخمين.

و على أي حال، إننا إذا ما اعتمدنا على النصوص التي قدمناها من قبل، فربما كان التصدع الذي حدث على أيام «شرحبيلى يعفر»، أقرب إلى ما يعنيه القرآن الكريم من غيره، لأنه أشدها قوة، و لأن آثاره تعدت الإضرار الجانبية إلى هروب سكان المنطقة إلى الهضاب و الجبال، ثم هجرتهم من هذه المنطقة إلى أرضين أخرى، و لأنه دون غيره- فيما يرى بعض الباحثين- ربما كان بسبب كوارث طبيعية كالزلازل و البراكين، و ليس لمجرد سقوط أمطار غزيرة، و من ثم فقد كان أثره خطيرا على الأرض و على الناس سواء بسواء.

و مع ذلك فلست أزعم أن هذا رأي يمكن الاعتماد عليه تماما، وإنما هو مجرد فرض لا أجد له من الأدلة التي تدعمه غير الحدس و التخمين، ذلك

ص: 343

1- جواد علي 3/489-491، احمد فخري: المرجع السابق ص 187 و كذا 408,421, G. E. p. p, tic- po, resal. E. 408, 421, 650. p, tic- po, suirotearP. F

فترة قريبة جدا من الإسلام لسيل العرم، ولو كان الأمر كذلك لاستطاع المؤرخون الإسلاميون تحديده على وجه اليقين، بل لاستطاع شعراء العرب تحديده كذلك، ومنها (ثانيا) أنه يرجع بالهجرات العربية التي خرجت من اليمن بعد تهدم السد إلى فترة متأخرة، لا تتفق و تاريخ قيام دولتي المناذرة والغساسنة- وأصحابها من هذه الهجرات كما يرى المؤرخون الإسلاميون- كما أن وجود الأوس و الخزرج في يثرب إنما يرجع بالتأكيد إلى ما قبل هذه الفترة، و منها (ثالثا) أن الفترة ما بين استيلاء أبرهة على اليمن و ظهور الإسلام، ليست من الفترات الغامضة في تاريخ اليمن، ثم هي فترة قصيرة على أية حال، و منها (رابعا) أن عام 575 م، هو العام الذي يرى فيه المؤرخون نهاية الحكم الحبشي و بداية حكم «سيف بن ذي يزن»، فضلا عن النفوذ الفارسي في أول الأمر، ثم السيطرة الفارسية بعد ذلك، و تاريخ اليمن في هذه الفترة لا يتحدث عن تصدع سد مأرب، بل ليست هناك أية إشارة في هذا التاريخ عن السد، أو عن هجرة قبائل يمنية من مواطنها الأصلية إلى الشمال، كما نعرف من أحداث تهدم السد.

و أما الروايات العربية، فإن بعضها يشير إلى أن الحدث الخطير إنما كان قبل الإسلام بقرون أربعة (أي في القرن الثالث الميلادي)، و يشير بعضها الآخر إلى أن ذلك إنما كان على أيام ملك حبشان، و لعل صاحب هذه الإتجاه يعني بذلك الأحباش لأنهم خربوا كثيرا من قصور اليمن و أبنيتها، فإذا كان ذلك كذلك، فما ذا يعني «ياقوت» بأيامهم هذه، هل يعني فترة تدخلهم في شئون العربية الجنوبية قبل الاحتلال الحبشي في عام 525 م، أم يعني فترة الاحتلال نفسه؟ و على أي حال، فإن «ابن خلدون» إنما يذهب إلى أن ذلك إنما كان على أيام «حسان بن تبان

هذا ويرجح «بلو ualB» أن ذلك إنما كان في القرن الثاني الميلادي (2)، بينما يذهب آخرون إلى أن ذلك إنما كان في القرن الرابع الميلادي معتمدين في ذلك على نسب «سعد بن عبادة الخزرجي»، و جعله مقياسا للزمن الذي ربما تكون الهجرة قد تمت فيه، فنسب سعد هذا- طبقا لرواية النسابين- إنما هو «سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الأصغر بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر بن حارثة»، فمن «سعد» إلى «الخزرج الأكبر» أحد عشر جيلا، وإذا افترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسة وعشرون عاما، كانت المدة بين الهجرة النبوية الشريفة (في عام 622 م) وبين الخزرج الأكبر، حوالي مائتين وخمس وسبعين سنة، أي أن هجرة الأوس والخزرج- بعد حادث سيل العرم- ربما كانت في أخريات القرن الرابع الميلادي، هذا ويحدد «سديو» هذه الهجرة بعام 300 م، وأن الاستيلاء على المدينة إنما كان حوالي عام 492 م (3).

وهكذا يبدو بوضوح أن تحديد تاريخ معين لخراب سد مأرب وهجرة القبائل العربية من جنوب بلاد العرب إلى وسطها وشمالها، أمر لا يمكن- على ضوء معلوماتنا الحالية- أن نقول فيه كلمة نظن أنها القول الفصل، أو حتى قريبا من هذا القول، وأن الأمر ما يزال في مرحلة الحدس والتخمين، حتى تقدم لنا الأرض الطيبة في اليمن أو في غيرها ما ينير الطريق أمامنا.

ص: 346

1- ياقوت 5/ 35، جرجي زيدان: المرجع السابق ص 155

2- ريجيس بلاشير: المرجع السابق ص 31

3- احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 315، وانظر: سديو: تاريخ العرب العام.

يروى الأخباريون أن كثيرا من القبائل العربية التي كانت تسكن منطقة سد مأرب، قد هاجرت بعد سيل العرم من اليمن إلى شمال بلاد العرب ووسطها، ومن ثم فقد ذهب الأوس و الخزرج الى يثرب، واتجه أولاد جفنة الى الشام، وسار مالك بن فهم الازدي إلى العراق، و ذهب أزد السراة إلى السراة، و أزد عمان إلى عمان، و أما طيء فنزلت بأجأ و سلمى، و ذهب أبناء ربيعة بن حارثة إلى تهامة، حيث سموا بخزاعة، و استولوا على مكة من جرهم (1).

و هكذا كان سيل العرم سببا في تغييرات اقتصادية و سياسية هائلة في شبه جزيرة العرب، و على تخومها الشمالية و الشمالية الغربية، بل كان سببا في قيام دولتي المناذرة و الغساسنة كدولتين حاجزتين بين بلاد العرب من ناحية، و بين الامبراطوريتين الفارسية و الرومية من ناحية أخرى.

على أن هناك من المؤرخين من يشكك في حقيقة هذه الهجرات العربية الجنوبية نحو التخوم السورية، بحجة أن أسماء الاعلام في هذه المناطق في القرن السابع، ليس فيها بقايا الأسماء الشائعة في المنطقة الجنوبية العربية (2).

ص: 347

1- ياقوت 36/5-37، الدميري 445/1، احمد فخري: المرجع السابق 178-188، وفاء الوفا 120/1-122، تفسير الألوسي 22/132-133، تفسير البيضاوي 2/259، تفسير الطبري 22/80-86، و مروج الذهب 2/171-174، ابن كثير 2/161، تفسير القرطبي 14/285-291، تفسير الفخر الرازي 5/253 الإكليل 8/41، 115-116، تاريخ يعقوبي 1/203-205، نهاية الأرب 3/283-288، الميداني 1/275-276.

2- ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي - ترجمة د. إبراهيم كيلاني ص 29 و كذا 1872, AJ, nemeY, 19, sirap, el snad euqigoloeahcarA noissim enu rus troppaR yevlaH .J

و الواقع أن هذه الهجرات إنما تؤكد لها عدة أمور، منها (أولاً) أن منطقة مأرب إنما تعود خصوبة الأرض فيها إلى سد مأرب، أما وقد تعطل السد و أدى خرابه إلى خراب الحضريين و انكفائهم إلى حياة البداوة، و البحث عن أماكن جديدة، فربما كان أمرا لم يقتصر على منطقة مأرب وحدها، بل ربما شمل كذلك منطقة حضرموت، حيث تدل منشآت الري المهملة وسط الصحراء على تدني الحياة الحضرية، و منها (ثانياً) أن هناك من بين الأمراء المؤابيين في شرق الأردن أميراً يدعى «شرحبيل» و هو اسم عربي جنوبي، كما أننا نجد كذلك بعض أمراء شرق الأردن الذين ينتسبون إلى قبيلة كندة اليمينية في القرن الخامس يسمون «شرحبيل» و «معدى كرب» (1).

و منها (ثالثاً) وجود قبائل في المناطق الشمالية و الجنوبية من بلاد العرب لها أسماء موحدة كقبيلة كندة التي نزل قسم منها نجداً، و نزل القسم الآخر حضرموت، و قبيلة الأزدي التي نزل قسم كبير منها في السراة في الحافة الشمالية من اليمن، في حين استقر القسم الآخر في «عمان»- كما أن قبيلتي الأوس و الخزرج تنتسبان إلى الأزدي- و كذلك القول في قبيلة «إياد» التي يضرب بعض أفرادها في وادي بيشة- الذي ينبع من مرتفعات عسير الشرقية قرب مدينة أبها- بينما ضربت أكثريتها في السهول الغربية من الفرات الأسفل (2) هذا و هناك فريق الباحثين يشكك في أن يكون السيل وحده هو سبب

ص: 348

1- بلاشير: المرجع السابق ص 30، و كذا 53-250. C. nissuaP ed lavecresE, H'1 rusiassE, A sed eriotisI, 2, P. P.

2- ريجيس بلاشير: المرجع السابق ص 30-31، دائرة المعارف الإسلامية 3/169-172 (طبعة الشعب)

هجرة كل تلك القبائل من الجنوب الى الشمال و الوسط، ذلك لأن سد مأرب إنما كان يسقي ربوة من الأرض لم تكن مسكنا لكل بطون «الأزد» و من ثم فإنه يصبح من الصعب أن نقبل القول بأن جميع البطون الأزدية قد هاجرت من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها، بسبب؟؟؟ السد وحده، و انه لمن المحتمل أن تكون هناك أسباب أخرى؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

العزم، و اضطرت بعض هذه البطون إلى ترك وطنها و الهجرة إلى الأرجاء النائية (1)، هذا فضلا عن أن المؤرخين الإسلاميين أنفسهم، إنما يرى الكثير منهم أن القوم لما أصيبوا بكارثة سيل العزم لم يخرجوا جميعا من اليمن، و إنما بقي فيها الكثير من قبائل حمير و كندة و مذبح و أنمار و الأشعريين (2).

أضف إلى ذلك أن القول بأن قبائل الأزد إنما هاجرت دفعة واحدة، أمر غير مقبول، ذلك لأن خزاعة- و هي بطن من الأزد- كانت تحكم مكة حتى حوالي عام 450 م، و قد استمرت مدة طويلة تلي ذلك الأمر، رأى البعض أنها ثلاثمائة سنة، و رأى آخرون أنها خمسمائة سنة، و هذا يعني أنها هاجرت من اليمن حوالي منتصف القرن الثاني أو في بداية القرن الثالث الميلادي، و ربما في عام 207 م، فيما يرى سديو (3).

هذا و لا يذهبن بنا الظن إلى اعتبار الهجرات الجنوبية كسيل جارف اتجه من الجنوب إلى شمال الجزيرة العربية، لأن ظواهر الأمور إنما تدل على أن هناك حركة أكثر تعقيدا، هي هجرة قبائل كهمدان مثلا، و التي هاجرت من حضرموت و استقرت فيما بين مأرب و نجران، حيث طردت قبيلة

ص: 349

1- عبد الفتاح شحاتة: المرجع السابق ص 283، إسرائيل و لفسون: المرجع السابق ص 54

2- ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 161

3- احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 315، ابن كثير 2/ 183، لويس اميل سديو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر

فتلك أساطير لا تدور إلا في رءوس أصحابها، و من ثم فهي لا تعرف نصيبا من صواب، كما أن «كيتاني» قد جانبه الصواب كذلك، حين ذهب إلى أن خراب سد مأرب، إنما كان بسبب الجفاف الذي أثر على السد، بل إن ضغط الماء على جوانب السد، ثم حدوث سيل العرم، إنما هو في حد ذاته لدليل على فساد نظرية الجفاف هذه (1)، فضلا عن معارضتها الصريحة لما جاء في القرآن الكريم عن حادث السيل هذا (2).

ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى تصدع السد، ثم حدوث السيل، إنما هو ضعف الحكومات، ثم تحول الطرق التجارية، فضعف الحكومات في اليمن أدى إلى تزعم سادات القبائل والرؤساء، وانشقاق الزعامة في البلاد، و زاد الطين بلة أن تلك القلاقل الداخلية، قد صاحبها تدخل الحبشة ثم الفرس في شئون البلاد الداخلية، و كان نتيجة ذلك كله، اضطراب الأمن في اليمن، و ظهور ثورات و فتن داخلية، كما تدلنا على ذلك النقوش منذ القرن الرابع الميلادي، و إن ظهوره بوضوح إبان القرن السادس الميلادي، فألهى ذلك الحكومة عن القيام بواجباتها، مما أدى إلى إهمال السد، و من ثم فقد تصدعت جوانبه، فكان السيل الذي أغرق مناطق واسعة من الأرض الخصبة، التي كان القوم يعتمدون عليها في حياتهم الاقتصادية (3).

أضف إلى ذلك كله، أن اليمن لم تصبح في تلك الفترة صاحبة السيادة على الطرق التجارية، كما أنها لم تعد الوسيط الوحيد في نقل التجارة إلى

ص: 351

1- جواد علي 1 / 244 - 246، و كذا انظر 296، 267، 192، 188، 185، 64، idutS, alleD ,irotsiH airotsiO ,elatneirO ,I ,P .P

.L ,inateaC ,و كذا 10 - 309 .P , djeN nrehtroN, lisuM siolA

2- سورة سبأ: آية 15 - 19

3- جواد علي 1 / 246 و كذا انظر 41 - 540، 384، 540-41 ,muracitimeS munoitpircsnI suproC, 1911 ,traP ,4 ,loV ,2 ,soN

المناطق الشمالية، بل ربما لم يعد دور اليمن- بعد سيطرة الرومان على البحر الأحمر، فضلا عن ظهور القرشيين وقيامهم برحلاتي الشتاء و الصيف المشهورتين- إلا دورا ثانويا. وهكذا تجمعت العوامل السياسية و الاقتصادية معا على إهمال الزراعة و كساد التجارة، مما دفع بقبائل عربية غير قليلة إلى الهجرة إلى بلاد العرب الشمالية و الوسطى (1). A.

ص: 352

PP, tic- po, lisuM. A .909,317 -1

الفصل العاشر قصة أصحاب الأُخُدود

[1] القصة في المصادر العربية

ص: 353

لا- ريب في أن الفضل - كل الفضل في كل ما جاء في المصادر الإسلامية عن تعذيب «ذي نواس» لنصارى نجران إنما يرجع إلى القرآن الكريم الذي أشار إلى الحادث في قوله تعالى «قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (1)، ومن ثم فقد كانت هذه الإشارة حافزا دفع بالمفسرين وأصحاب التاريخ والأخبار على جمع ما علق بالأذهان عن الحادث الخطير.

ولعل من الأفضل هنا- قبل أن نناقش روايات المؤرخين والمفسرين التي دارت حول هذا الحادث- أن نثبت- بادئ ذي بدء- تلك الرواية الصحيحة، التي جاءت في صحيح الإمام مسلم عن رسول الله، (صلى الله عليه وسلم)، والتي تتلخص في أن ملكا كان له ساحر، وان هذا الساحر قد طلب من مليكه عند ما بلغ من الكبر عتيا، أن يبعث إليه بسلام يعلمه السحر، فأجابه الملك إلى طلبه، غير أن راهبا كان في طريق الغلام إلى الساحر، فكان يقعد إليه ويسمع منه، مما كان سببا في أن يتأخر عن الساحر، الذي كان يضربه بسبب تأخره عنه.

و مرت الأيام، وبينما كان الغلام في طريقه إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فأخذ حجرا وقال: «اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها،

ص: 355

فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى و إنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدلّ علي».

و ينجح الغلام بعد ذلك في أن يبرئ الأكمه و الأبرص و في أن يشفي الناس من أوجاعهم، و في أن يرد لواحد من رجال البلاط بصره، و ما أن يعلم الملك بالأمر الأخير، حتى يسأل رجل بلاطه عن الذي رد عليه بصره، فيجيبه: إنما هو ربي، فيقول له الملك: و لك رب غيري، فيقول: ربي و ربك الله، فما كان من الملك إلا أن يعذب رجل بلاطه، الذي يعترف بأمر الغلام، و هنا يأمر الملك بقتله، فضلا عن قتل الراهب، بعد أن عرض عليهما أن يتركا دينهما الجديد، فلما رفضا شق رأس كل منهما بمنشار.

غير أن الملك إنما يفشل تماما في قتل الغلام، بعد أن جرب معه وسائل مختلفة، منها القاءه من فوق قمة جبل، و منها قذفه في البحر، و منها ضربه بسيف، و أخيرا يدلّه الغلام على الطريقة الوحيدة لقتله، و ذلك بأن يجمع الناس، ثم يرميه بسهم، قائلا: «بسم الله رب الغلام».

و هكذا يقتل الغلام، و لكن الناس - و قد رأوا كل ما حدث - إنما يؤمنون برب الغلام، فيغضب الملك و يأمر بقتل المؤمنين و من ثم فإنه يأمر بالأخدود (1) في أفواه السكك، ثم يضرم النار، و يعرض عليها الناس، فمن رجع عن دينه الجديد تركه، و من أصر على الإيمان ألقاه في الأخدود فأحرقه، حتى أن امرأة جاءت و معها صبي لها فتعاست أن تقع في النار، فقال لها صبيها: امض يا أمه فإنك على الحق، فاقتمحت

ص: 356

1- الأخدود: الشق في الأرض يحفر مستطيلا، و جمعه الأخاديد، و مصدره الحد، و هو الشق، يقال خدّ من الأرض خدا، و تتحدد لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق (تفسير الفخر الرازي 119/31، و انظر: تفسير جزء عم للآلوسي ص 87-88

هذا وقد قدم لنا المؤرخون الإسلاميون عدة روايات عن قصة تعذيب «ذي نواس» لنصارى نجران- (غير تلك الرواية الصحيحة، الأنفة الذكر، والتي جاءت في صحيح مسلم)- وبالتالي عن تدخل الأحباش واستيلائهم على اليمن، و من هذه الروايات واحدة تذهب إلى أن من يدعى «عبد الله بن الثامر» قد أخذ النصرانية عن راهب مسيحي- لعله فيميون- وأن عبد الله بن الثامر- وكذا فيميون- قد قتلا، وأن رجلا قد حفر حفرة على أيام الفاروق عمر بن الخطاب، فرأى عبد الله، وقد وضع يده على ضربة في رأسه، فإذا رفعت عنها يده جرت دما، و إذا أرسلت يده ردها إليها و هو قاعد، فكتب بذلك إلى عمر، فأمر الخليفة الراشد أن يتركه على حاله (2).

على أن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن ذا نواس كان يهوديا متعصبا، فقدم عليه يهودي- يقال له دوس من أهل نجران- فأخبره أن القوم قد قتلوا له بنين ظلما، فاستنصره عليهم- وأهل نجران نصارى- فغضب ذو نواس لليهودي، و شن حملة على أهل نجران، ثم خيرهم بين اليهودية أو القتل، فاختاروا القتل، و هنا حفر لهم أخذودا ثم أضرم فيه النار، و ألقاهم فيه، فقتل منهم عشرين ألفا على رواية، و سبعين ألفا على رواية أخرى (3).

ص: 357

1- صحيح مسلم 130/18-133

2- تاريخ الطبري 124/2

3- تاريخ الطبري 123/2، مروج الذهب 80/1-81، تاريخ الخميس ص 220، تاريخ ابن خلدون 60/2 و تفسير القرطبي 292/19، تفسير الفخر الرازي 118/31، تفسير روح المعاني 89/30

و هناك رواية ثالثة تذهب إلى أن قوما من المجوس سكر ملكهم فوقع على أخته- أو ابنته- ثم أراد أن يجعل ذلك شرعا في رعيته، فخطب الناس بأن الله- تعالى عن ذلك علوا كبيرا- قد أحل نكاح الأخوات أو البنات، فرفض القوم متابعتة في شريعته هذه، فأشارت عليه تلك التي وقع عليها أن يخذلهم أخذودا، فمن أبى قذف به في النار، و من لم يأب تركه، هذا إلى رواية رابعة يذهب أصحابها إلى أن هناك نبيا بعث في الحبشة فأمن به خلق كثير، فخذلهم قومهم أخذودا ثم أخذوا يعرضون الناس عليه، فمن أتبع النبي قذف به في الأخدود، و من تابعهم تركوه.

و أيا ما كان الأمر في هذه الروايات، فإن أصحابنا الأخباريين يذهبون إلى ان واحدا من أهل نجران الذين عذبهم ذو نواس- و يقال له دوس ذو ثعلبان- قد استطاع أن يهرب على فرس له، فسلك الرمل فأعجزهم، فمضى على وجهه ذلك، حتى إذا أتى الامبراطور الروماني «جستين» (518-527 م) فاستنصره على ذي نواس و جنوده، و أخبره بما بلغ منهم، فقال له القيصر: «بعدت بلادك من بلادنا و نأت عنا، فلا نقدر على أن نتناولها بالجنود، و لكنني سأكتب إلى النجاشي ملك الحبشة، و هو على هذا الدين و قريب منكم».

و يكتب القيصر إلى النجاشي يأمره بنصرة دوس هذا، و ينفذ الملك الحبشي ما أمر به العاهل الروماني، فيرسل مع دوس سبعين ألفا من الرجال، على رأسهم «أرياط»- و في جنوده أبرهة الأشرم- و يأمره إن ظفر باليمن: «أن يقتل ثلث رجالهم، و أن يخرب ثلث بلادهم، و أن يسبي ثلث نسائهم و أبناءهم». (1)

و يخرج الجيش من الحبشة، فينزل بسواحل اليمن، و يجمع ذو نواس

ص: 358

1- تفسير القرطبي 290/19، تفسير الألوسي 88/30-89، تفسير الفخر الرازي 118/31.

إليه حمير، و من أطاعه من قبائل اليمن، و تقوم الحرب بين الفريقين، و ما هي إلا جولة حتى يكتب النصر للأحباش، و تكون الهزيمة من نصيب ذي نواس و ما أن يرى ذو نواس ما نزل به و بقومه، حتى يقتحم البحر بفرسه فيغرق، و يطأ أرباط اليمن بالحبشة، فيقتل ثلث رجالها، و يخرب ثلث بلادها، و يبعث إلى النجاشي بثلث سباياها، و يقيم بها و يستذل أهلها (1).

على أن هناك رواية أخرى، تختلف عن الرواية السابقة بعض الشيء، فهي ترى أن الذي هرب إنما كان «جبار بن فيض»، وأنه ذهب إلى الحبشة مباشرة، و معه الإنجيل قد أحرقت النار بعضه، و أن ملك الحبشة قد قال له: «الرجال عندي كثير، و ليست عندي سفن، و أنا كاتب إلى قيصر في البعثة إليّ بسفن أحمل فيها الرجال»، فكتب إلى قيصر في ذلك! و بعث إليه بالإنجيل المحروق، فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة» (2).

و تستطرد الرواية فتذهب إلى أن السفن لما قدمت إلى النجاشي من بيزنطة، حمل فيها جيشه، فخرجوا إلى مضيق باب المنذب، فلما سمع بهم ذو نواس كتب إلى أقيال اليمن يدعوهم إلى نصرته، و أن يكون أمرهم في محاربة الحبشة و دفعهم عن بلادهم واحداً، غير أن الأقيال رفضوا الفكرة، و طلبوا «أن يقاتل كل رجل عن مقولته و ناحيته»، فلما رأى ذو نواس ذلك صنع مفاتيح كثيرة، ثم حملها على عدد من الإبل، و خرج حتى لقي عدوه الحبشي، فقال له: هذه مفاتيح خزائن اليمن قد جتتكم

ص: 359

-
- 1- تاريخ الطبري 124/2 - 125، ابن الأثير 1/431-432، المعارف لابن قتيبة ص 277، الكشاف 1594/2، تفسير البيضاوي 2/550، ابن كثير 2/168-169، قصص القرآن ص 291-293، تاريخ ابن خلدون 2/59-60، تاريخ يعقوبي 1/199-200، قارن المقدسي 3/182-183
- 2- تاريخ الطبري 124/2، المقدسي 3/184، قارن: تاريخ ابن خلدون 2/60.

بها»، فلما وجه أرباط الثقات من رجاله لاستلام خزائن اليمن، كتب ذو نواس إلى كل ناحية: أن اذبحوا كل ثور أسود في بلدكم، فقتلت الحبشة، فلم يبق منهم إلا الشريد، فلما بلغ النجاشي ذلك جهز إليهم سبعين ألفاً، عليهم قائدان، أحدهما أبرهة الأشرم، فلما وصلوا إلى صنعاء (1)، و أدرك ذو نواس أنه لا طاقة له بهم ركب فرسه، و اعترض البحر فاقتحمه، فكان آخر العهد به (2).

هذه هي أهم الروايات العربية التي تحدثت عن غزو الحبشة، و السيطرة عليها قرابة نصف قرن من الزمان، إلا أن هناك بعض النقاط التي تدعو إلى التساؤل في هذه الروايات، منها (أولاً) ذلك الخلاف في أسباب تلك المذبحة الرهيبة التي حدثت في نجران، ففريق يذهب إلى أن السبب إنما كان لاعتناق القوم النصرانية، وفريق آخر أنها كانت لنصرة رجل يهودي قتل نصارى نجران ولديه، بل ان فريقاً ثالثاً إنما يذهب إلى أن السبب إنما كان لأن واحداً من الملوك أراد أن يجبر الناس على الزواج من

ص: 360

1- بدأ اسم صنعاء (صنعو) يظهر في تاريخ اليمن منذ أيام الملك «الشرح يحصب» (من القرن الثاني ق. م.، على رأي، و من القرن الأول ق. م.، على رأي آخر)، حيث تردد كثيراً من نصوص ذلك العهد (كما من نقوش جام 575، 577، ريكمانز 535)، ثم سرعان ما بدأت تأخذ مكانتها بين مدن اليمن، حتى أصبحت آخر الأمر عاصمة البلاد و مقر الحكام حتى الآن (انظر H. K. P. 57، P, tic- po, itti و كذا J. A. 393، P, tic- po, emma و كذا Pi. B. J. 142، P, tic- po, ybbih و كذا W. 19، H. M dnu namssi، P, tic- po, renfo و بدهي أن ذلك لا يتفق و روايات الاخباريين من أنها كانت تدعى «أزال»، و أن «و هرز» القائد الفارسي هو الذي اطلق عليها اسم «صنعاء» حين قال إبان دخوله إياها «صنعة صنعة»، يريد أن الحبشة قد أحكمت صنعها، أو أن التسمية كانت نسبة إلى بانيتها «صنعاء بن أزال بن عبير بن عابر بن شالخ» على رواية، و «غمدان بن سام بن نوح» على رواية أخرى، فكانت تعرف تارة بأزال و تارة بصنعاء (ياقوت 426/3-427، البكري 843/3)

2- تاريخ الطبري 125/2، 127، تاريخ ابن خلدون 60/2-61، تاريخ اليعقوبي 199/1-220، تاريخ الخميس ص 220

أخواتهم أو بناتهم، و من ثم فالقصة كانت- فيما يزعم هذا الفريق- مع المجوس، وليست مع النصارى، وأخيرا فإن فريقا رابعا ذهب إلى أن القصة إنما كانت مع الأحباش، وأن المجزرة إنما كانت بسبب إيمان فريق من الناس بنبي هناك.

ومنها (ثانيا) ذلك الخلاف في مكان الأخدود، أهو في اليمن أم في الشام أم في فارس أم في الحبشة، بل إن فريقا خامسا زعم أن أصحاب الأخدود إنما هم «عمرو بن هند» (1) المشهور بمحرق و من معه، حين حرقوا مائة من بني تميم (2) و منها (ثالثا) أنه من المعروف تاريخيا أن ذا نواس، إنما قتل بيد الأحباش على رواية، وأنه قد ركب فرسه و اعترض البحر فاقتحمه، فكان آخر العهد به، على رواية أخرى، غير ان رواية ثالثة إنما تذهب إلى أن نار الأخدود قد ارتفعت فصارت فوق الملك و أصحابه أربعين ذراعا فأحرقتهم (3).

و منها (رابعا) تلك الحيلة الساذجة التي يزعم الأخباريون أن ذا نواس قد لجأ إليها للقضاء على الأحباش، و ذلك بإعطائهم مفاتيح خزائن

ص: 361

1- هو «عمرو بن المنذر» كان مليكا على الحيرة في الفترة (554-569 م)، و أما «هند» هذه، فهي امه بنت «عمرو بن حجر آكل المرار»، عمه امرئ القيس الشاعر المشهور، و كان «عمرو بن هند» يسمى «مضرط الحجارة» كناية عن قوة ملكه و شدة بأسه، كما كان يسمى «المحرق» لأنه حرق «بني تميم»، أو لأنه حرق نخل اليمامة، و كان جبارا عاتيا، لا يبتسم و لا يضحك، و من ثم فقد كانت العرب تهابه و تخشاه (حمزة الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض و الأنبياء ص 72، ابن قتيبة: المعارف ص 283، المقدسي: البدء و التاريخ 3/203)

2- تفسير القرطبي 19/290، تفسير الطبري 30/131-133، تفسير روح المعاني 30/88-90

3- تفسير القرطبي 19/289

اليمن محملة على جمال عدة، ثم أمر نوابه في الأقاليم بقتل رسل القائد الحبشي ثم كيف قبل أرباط هذه الحيلة الساذجة، و هل تحتاج خزائن اليمن إلى مفاتيح تحمل على جمال عدة.

و منها (خامسا) أن أصحابنا الأخباريين لم يبينوا لنا لما ذا أراد النجاشي من قائدة أن يقتل له ثلث رجال اليمن، و أن يخرب ثلث بلادهم، و أن يسبي ثلث النساء و الأطفال، ثم ما الهدف من هذا النظام الثلاثي في العقوبة، و كيف يمكن تحديد هذا الثلث، و بخاصة في الرجال و النساء و الأطفال، و أخيرا ما هو المصدر الذي اعتمدوا عليه في هذه الرواية، بل و في غيرها من الروايات.

و منها (سادسا) من الذي نجا من مذبحه ذي نواس؟ أ هو «دوس ذو ثعلبان» أم «جبار بن فيض»، ثم إلى أين ذهب هذا الذي نجا، أ لملك الحبشة، أم لقيصر الروم؟ و منها (سابعا) كيف حدد أصحاب هذه الروايات عدد القتلى في مذبحه نجران بعشرين ألفا، أ هو مجرد رقم؛ أم أن لهم مصدرا اعتمدوا عليه في تحديد هذا الرقم؟ إن الوثائق لم تتحدث عن عدد القتلى، و من ثم فأكبر الظن أنه مجرد رقم، أريد به المبالغة في تصوير المذبحة الرهيبة، ذكره بعض الأخباريين، ثم تابعه الآخرون في ذكره، بل إن بعضهم ذهب إلى أنهم اثنا عشر ألفا، بينما ذهب الخيال بفريق ثالث حدا جعله يقرر أن من قتلهم ذو نواس، إنما كانوا سبعين ألفا (1)، و على أية حال، فالدكتور إسرائيل ولفنسون إنما يعترض على هذه الأرقام، و يرى أن عدد القتلى مبالغ فيه، و أن نجران لم تكن سوى بلدة صغيرة، لا يزيد عدد سكانها عن بضع مئات، فضلا عن أن ذا نواس لم يقتل كل أهالي نجران، بدليل أنهم ذكروا في أخبار صدر الإسلام (2).

ص: 362

1- تفسير القرطبي 292/19، تفسير الفخر الرازي 118/31، تفسير الألويسي 89/30

2- إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص 45، ابن هشام 165/2

أضف إلى ذلك أن ترنيمة يوحنا، إنما تحدد عدد القتلى بما يقارب المائتين، وهو رقم مقبول، وربما قد يدل على صحة هذه الترنيمة، وعلى معاصرتها للحادث الخطير (1).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم لم يتحدث عن هذا الذي خدّ الأخدود، ولا على عدد القتلى، والأمر كذلك بالنسبة إلى مكان هذا الحادث، و من ثم فقد كان الخلاف البين بين الباحثين في كل هذه الأمور، فذهب بعضهم إلى أن الحادث إنما كان بنجران في الفترة ما بين المسيح و محمد صلوات الله و سلامه عليهما، و ذهب فريق آخر إلى أنه إنما كان باليمن (دون تحديد مكان معين)، وقبل مبعث المصطفى، (صلى الله عليه و سلم)، بأربعين عاما، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن هناك أخاديد، و ليس أخدودا واحدا، فهناك أخدود في اليمن على أيام «تبع» و آخر في القسطنطينية على أيام قسطنطين، حين صرف الناس من أتباع عيسى قبلتهم عن دين المسيح و التوحيد، و اتخذ أتونا و ألقى فيه النصرارى الذين كانوا على دين المسيح و التوحيد، ثم هناك أخدود ثالث في العراق على أيام بخت نصر (نبوخذ نصر 605-562 ق. م.)، حين صنع صنما و أمر الناس بالسجود له، ففعلوا، إلا دانيال و عزريا و مشايل، فألقي بهم في أتون من نار، إلا أن الله سبحانه و تعالى جعلها عليهم بردا و سلاما، ثم ألقى بأعدائهم فيه فاكلتهم النار (2).

و لست أدري من أين جاء أصحابنا الأخباريون برواياتهم هذه، و تاريخ المسيحية لا يتحدث عن اضطهاد للنصارى على أيام الامبراطور قسطنطين (306-337 م)، بل إن العكس هو الصحيح تماما،

ص: 363

P, tic- po, lleB. R. 38 -1

2- ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 131-132، تفسير القرطبي 19/ 290

فالتاريخ يحدثنا أن الرجل قد اعترف بالنصرانية في عام 311 م، كواحدة من ديانات امبراطوريته، بل إن هناك بعض الروايات التي تذهب إلى أن الرجل قد تنصر في عام 312 م، وإن ذهبت روايات أخرى إلى أنه بقي وثنيا طوال حياته، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش الموت، هذا فضلا عن أن أمه «هيلانة» هي التي بنت كنيسة القيامة في بيت المقدس (1).

أما رواية خدّ العراق، فهي اسرائيلية صرفة، وليس في تاريخ البابليين- فضلا عن اليهود أنفسهم- ما يشير إلى هذا الحادث، وإن كانت التوراة (2) قد أشارت إلى حادث يشبه هذا، إلا أنه لم يكن مع «دانيال» الذي كان مقربا إلى البلاط البابلي، وإنما كان مع ثلاثة من اليهود يعملون سقاة في القصر الملكي، ويبدو أن الرواية قد نقلت إلى المؤرخين المسلمين من اليهود محرفة، فضلا عن أن أكبر الظن عندي أن قصة التوراة نفسها، إنما هي قصة الخليل- عليه الصلاة والسلام- إلا أن طغمة باغية من يهود قد عبثت بالقصة، فحولتها إلى هؤلاء الذين كانوا يشرفون على شراب الملك البابلي، و ما أكثر الحقائق الدينية و التاريخية التي حرفها اليهود في توراتهم.

أضف إلى ذلك، أن القرآن الكريم لم يتحدث عن عدد الضحايا في مذبحه الأخدود هذه، إلا أن المفسرين و أهل الأخبار أخذوا يتنافسون في تقديم أرقام مختلفة عن ضحايا الحادث الأليم، دون أن يذكروا لنا

ص: 364

1- عمر كمال توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية 1967 ص 29، وانظر كذلك: إدوارد جيون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية و سقوطها، ترجمة محمد علي أبو ريده، القاهرة 1969، الجزء الأول ص 563 و ما بعدها، فيليب حتى: تاريخ سورية و لبنان و فلسطين- الجزء الأول- ص 387 - 388، ثم قارن: S ,hC ,X .kB ,suibesU 4 ,hc ,I .KB ,acitsaiseleccE airotSiH ,sunemozoS

2- دانيال: 1-3: 30

المصادر التي اعتمدوا عليها، و من ثم رأينا ارقاما تتفاوت فيما بين 70، 80، 87، 12، ألف، 20 ألف، 70 ألف، و الفرق جدّ شاسع بين أقل هذه الأرقام و أكبرها، و من ثم فإننا لا نستطيع أن نقول أي الأرقام هو الصحيح، أو حتى أيها هو الأقرب إلى الصحيح.

و أخيرا فإن الذي يفهم من النص القرآني الكريم أن الذي قتل أصحاب الأخدود، إنما كان مشركا (1)، بدليل قوله تعالى «وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»، و من ثم فإن الذي دعا نصارى نجران، إنما دعاهم إلى الوثنية، لا إلى اليهودية، لأن اليهودية و النصرانية ديانتان سماويتان، لا مجال لتفضيل إحداها على الأخرى، و إذا بدا أن اليهود كانوا أشدّ عداء للرسول، (صلى الله عليه و سلم)، و للإسلام، و أن النصارى أقرب مودة، طبقا لقوله تعالى «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَ رُهْبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» (2)، فذلك يقتضي أن يفضل النصارى على اليهود، و لا يقتضي تفضيل اليهودية على النصرانية، أو النصرانية على اليهودية (3)، و من ثم فإن ذا نواس، إما أن يكون قد دعا نصارى نجران إلى الوثنية، و بالتالي فهو لم يكن يهوديا، و إنما كان وثنيا، أو أنه لا صلة له من قريب أو بعيد، بقصة الأخدود التي جاء ذكرها في القرآن الكريم.

بقي أن نشير إلى أن الروايات العربية إنما تذهب إلى أن ذا نواس، إنما

ص: 365

-
- 1- تفسير ابن كثير 548/4، تفسير القرطبي 134/30، ياقوت 268/5
 - 2- سورة المائدة: آية 82 و انظر: تفسير الجواهر 202/3-203، تفسير الطبرسي 171/6-176، تفسير الطبري 498/10-506، تفسير الكشاف 668/1-669، تفسير النسفي 3/2-4، تفسير ابن كثير 623/2، في ظلال القرآن 959/7-966
 - 3- عمر فروخ: المرجع السابق ص 74، و انظر كذلك: ياقوت 268/5

أنهى حياته بنفسه، وذلك حين ركب فرسه فوجهه نحو البحر، ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر، حتى أفضى به إلى غمرة، فاقحمه فيه، فكان آخر العهد به (1)، إلا أن الروايات الحبشية والإغريقية، إنما تذهب إلى أن الرجل قد وقع أسيرا في أيدي أعدائه فقتلوه، بل إن هناك رواية غريبة تنسب إلى «علقمة ذي جدن» شعرا جاء فيه:

[أو ما سمعت بقتل حمير يوسفنا: أكل الثعالب لحمه فلم يقتبر]، و الرواية قد يفهم منها أن الرجل إنما قتل بيد الحميريين أنفسهم، وإن جثته لم تقبر، وإنما ألقيت إلى الحيوانات المفترسة حيث أكلتها، وطبقا لهذه الرواية، فإن «فون كريم» إنما يذهب إلى أن ذا نواس لم يغرق في البحر، وإنما قتل قتلا، كما جاء في الروايات العربية، وأخيرا، فإن هناك رواية تذهب إلى أنه قد مات حريقا بنيران الأخدود الذي أوقده (2).

وعلى أي حال، فإن «جون فليبي» قد زار نجران، و عثر هناك على خرائب أثرية قديمة في بلدة «رجمت»، ذهب إلى أنها هي آثار الأخدود الذي احتفره ذو نواس في هذه القصة موضوع الدراسة (3).

ص: 366

1- تاريخ الطبري 2/ 125، 127، المقدسي 3/ 185

2- تفسير القرطبي 19 / 289، عبد المجيد عابدين: بين الحبشة واليمن ص 51، جواد علي 3 / 471 - 472، و كذا I, XX, I, suipocorP و كذا 16. GMDZ. 35, 188, P, و كذا 433. P, alalaM. و كذا انظر 127, 92. S, ehcsibaraduS, P. P 127, remerk noV و كذا 5. PER. RGIFE. P, I, V, ثم قارن: سعد زغلول: من تاريخ العرب قبل الاسلام ص 197-198، حيث يرى أنه ربما قتل دون أن يعرف أمره في وسط اضطراب المعركة التي دارت على مقربة من الشاطئ ربما من موضع نزول الحملة من مراكبها.

3- عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص 186 و كذا B. J. Pi. B. J. F 237. P, sdnalghiH naibarA, yblihPi.

و من الغريب أن الكتابات العربية الجنوبية لم تحدثنا بشيء عما ورد في كتابات المؤرخين الإسلاميين، إلا أن نقش «حصن غراب»، و المعروف (RGIFE. PER, 2633)، و يرجع تاريخه إلى عام 525 م، إنما يشير إلى أن الأحباش قد استولوا على اليمن في عهد ملك لم يذكر النقش اسمه، و أنهم قد قتلوا هذا الملك و أقباله (1)، على أن «هوجو فنكلر»، إنما يذهب إلى أن هذا الملك إنما هو ذو نواس، و أنه كان البادئ بالحرب، و أن أصحاب النص (السميفع أشوع و أولاده)، كانوا من أنصار ذي نواس على غير رغبة منهم، و أن المعارك التي دارت بين الفريقين قد انتهت بانتصار الأحباش، و من ثم فإن «السميفع أشوع» و أولاده، قد اضطروا إلى الالتجاء إلى حصن ماوية حتى انتهت العاصفة، و حينئذ فإنهم قد عقدوا صلحا مع السادة الجدد (2).

[2] القصة في المصادر المسيحية و اليونانية

اهتمت المصادر المسيحية المعاصرة بغزو الحبشة لليمن، و من هؤلاء «فزما»، الذي كان في الحبشة إبان عمل الاستعدادات لغزو اليمن، و قد سجل لنا قصة الغزو، ربما بعد 25 سنة من وقوعها، و قد رأى ان الحملة إنما تمت في أوائل أيام القيصر «جستين» (518-527 م) (3)،

ص: 367

P.P. 131- 132 انظر s. p, i, V, RGIFE. PER و كذا P 1890, VILX, GMDZ ni, nnamtdroM. H. J . 176 - 1

1895 ,acirfA dnu neibarA ni reinissebA eiD ,resalG .E

2- جواد علي 3/ 459-410 انظر: H. 327. relkniW ,netlA ruZ ,ethcihcseG netlA snameY dnu sneinissebA P,

3- جواد علي 3/ 461، مجلة المجمع العلمي العرب بدمشق، المجلد 23، الجزء الأول، 1948 ص 18 و ما بعدها، و كذا و كذا. S. P,

P, samsoc .141 و كذا P, II, eripmE namoR eht fo yrotsiH, yruB. B. J .323 و 1881, GMDZ

بل إن «ثيوفانس» و«سدريوس» قد حدداها بالعام الخامس من حكم هذا القيصر (أي عام 523 م)، وأن سبب قيام الحملة إنما كان تعذيب ذي نواس - الذي قتل في المعارك - لنصارى نجران، على أنهما يتحدثان كذلك عن غزو آخر قام به الملك الحبشي «أداد» ضد «دمياتوس»، وأن هذا الغزو الأخير قد حدث في العام الخامس عشر من عهد القيصر «جستيان» 527-565 م، أي في عام 542 م. (1)

و هناك رواية يونانية إلى أن «ذا نواس saanuD» ملك حمير، قد عذب نصارى نجران في العام الخامس من عهد الأمبراطور «جستين» (أي عام 523 م)، و من ثم فقد قام نجاشي الحبشة بغزو حمير، ففر ذو نواس إلى الجبال، حتى إذا ما وافته الفرصة انقض على الجيش الحبشي، فأباده واحتل نجران، مما اضطر الأحباش إلى القيام بحملة ثانية، انتصرت على الملك الحميري، و عينت مكانه «أبرهة (2)». (semarBA)

و لعل من أهم الوثائق المسيحية التي تتصل بتعذيب نصارى نجران، إنما هي «رسالة مار شمعون» أسقف بيت رشام إلى رئيس أساقفة «دير جبلة»، يصف فيها ما سمعه من شهود عيان من أهل اليمن عن تعذيب نصارى نجران، و ما لا قوة هناك من صنوف التعذيب، ثم يتحدث بعد ذلك «مار شمعون» في رسالته عن الرسالة التي أرسلها ملك حمير إلى ملك الحيرة، و فيها يطلب منه أن يفعل بنصارى مملكته، ما فعله هو بنصارى نجران، و أن شمعون قد تأكد بنفسه من الحادث، و ذلك حين أرسل من قبله رسولا ليأتيه بالخبر اليقين، و من ثم فقد وجه شمعون نداء إلى كل الأساقفة الرومان، و إلى بطريق الإسكندرية، و إلى أحبار

ص: 368

1- جواد علي 462/3 و كذا انظر 67. H. J. GMDZ, nnamtdroM. 31. 1877. p. و كذا 1,346, senahpoehT,

2- جواد علي 463/3، و كذا. 67. H. J. nantdroM. tic- po,

طبرية، طالبا منهم بذل الجهود الجادة لإيقاف هذه المذابح البشرية، ورغم ما تقيض به الرسالة من عواطف شخصية، و من مبالغات متعمدة لإثارة الحمية الدينية عند رجال الدين المسيحي، ورغم أن ما جاء بها على لسان ملك حمير، إنما هو من كلام شمعون، وليس كلام الملك الحميري فإن الرسالة بصفة عامة صحيحة، و من ثم فهي وثيقة تاريخية يمكن أن ينظر إليها باهتمام (1).

هذا وقد تحدثت المصادر السريانية كذلك عن شهداء نجران، و منها كتاب ينسب إلى «يعقوب السروجي»، و قصيدة في رثاء الشهداء لأسقف الرها «بولس»، فضلا عن نشيد كنسي سرياني لرئيس دير قنسرين «يوحنا بسالطس» المتوفي عام 526 م، أو 600 م (2).

[3] الاحتلال الحبشي و علاقته بقصة الأخدود

ليس من شك في أن العلاقة بين اليمن و الحبشة، إنما ترجع إلى عصور موعلة في القدم، قد تبعد عن الميلاد بقرون طويلة، و ربما كان ذلك بسبب قرب الحبشة من اليمن، حيث لا يفصل بينهما إلا مضيق باب المنذب الضيق، و الذي كان يمكن عبوره بسهولة بوسائل النقل التي كانت متاحة في تلك العصور الخالية، و من ثم فقد تبادل الفريقان الهجرات، و هكذا رأينا هجرات عربية تنتقل من بلادها إلى الشواطئ الأفريقية المقابلة، كما رأينا كذلك هجرات إفريقية إلى العربية الجنوبية، فضلا

ص: 369

-
- 1- عبد المجيد عابدين: المرجع السابق ص 55-56، جواد علي 3/464-465، و كذا P. B. J. 323. tic- po, yruB. B. J. و كذا 4-2. P, VI, ageerG, irotsiH stnamgarF .177 و PP, 1881, 35, GMDZ
 - 2- جواد علي 3/465، اللؤلؤ المنثور في تاريخ الآداب و العلوم السريانية ص 254، و كذا P. B. J. 324. tic- po, yruB. B. J. و كذا 4. P, 35, 400, 324. P. P, 31, GMDZ

عن هجرات مرتدة من هذا الجانب أو ذلك، إلى جانب حملات عسكرية من الجانب العربي - وكذا من الجانب الإفريقي - نجحت في أن تحتل جزءا كبيرا أو صغيرا من هذه المنطقة أو تلك.

هذا ويذهب كثير من الباحثين إلى أن العرب الساميين، إنما كانوا يتجهون إلى إفريقية منذ وقت مبكر، على دفعات متعددة، وفي أوقات مختلفة، وهكذا رأينا في الألفي سنة قبل الميلاد جماعات عربية تهاجر من جنوب غربي شبه الجزيرة العربية إلى الحبشة (1)، و يرى «كارل بيترز» أن هناك جالية حميرية كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين نهري الزمبزي واللمببو منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وأن المعبد الكبير في «زمبويه» إنما بني في عام 1100 قبل الميلاد، وأن السبئيين كانوا أصحاب السيادة في ذلك الوقت (2).

على أن الأمر إنما يزداد وضوحا منذ القرن السادس ق. م.، حيث نزحت جالية سبئية إلى المنطقة المعروفة ب «تعزية» في أرتيريا- وكذا إلى هضبة الحبشة- مكونة حكومة محلية هناك (3)، ولعل هجرة الأوسانيين إلى السواحل الأفريقية، إنما كانت في نفس تلك الفترة، حيث اتخذوا من «عزانيا» مقرا لهم، ثم سرعان ما أخذوا يشقون طريقهم نحو الجنوب، ويحدثنا صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأريتري» أن هذه المنطقة التي شغلها الأوسانيون، إنما كانت تسمى على أيامه «eatinasu»، وهو اسم لا شك أنه قريب من اسم «أوسان» وأن

ص: 370

1- مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ص 107

2- فضلو حوراني: المرجع السابق ص 128 وكذا 14- 271. P. P, stneicA eht fo odarodIE ehT, sreteP. C .

3- P, tic- po, nnamhorG. A .25

هذه المنطقة إنما كانت على أيامه (القرن الأول الميلادي) (1) تخضع لحكام «(2) (sittirahpaM)» ويريد بهم حكام سبأ وذي ريدان (3)، هذا بالإضافة إلى أن هناك هجرة سبئية من القرن الخامس قبل الميلاد، إلى جانب تلك الجالية الحبشية من غرب اليمن (4).

وهكذا وجدت منذ زمن قديم، قبل النصف الأول من الألف الأول ق. م.، جماعات من العرب الجنوبيين تعبر البحر الأحمر، وتؤسس جاليات و محطات تجارية على الساحل المقابل، وقد تابعت الهجرات نحو المنطقة التي كانت «عدولي» مركزاً لها، فأتسعت المنطقة المستوطنة اتساعاً متصلاً، وتولت الطبيعة نفسها دفع المستوطنين إلى الهضبة المشتهة، وتبين النقوش العربية الجنوبية التي وجدت في منطقة أكسوم، وإلى الشرق منها حيث يمر الطريق الممتد من عدولي، سعة انتشار النفوذ العربي في أثيوبيا قبل القرن السادس قبل الميلاد (5).

وقد استمرت الهجرات العربية إلى الحبشة حتى الفترة فيما بين عامي

ص: 371

1- يحدد فضلو حوراني (المرجع السابق ص 54) تاريخ هذا الكتاب بالفترة (50- 60 م)، بينما يرى موسكاتي (المرجع السابق ص 378) أنه يرجع إلى عام 75 م، و أما «جاكولين بيرين، فالرأي عندها أنه كتب في عام 106 م- (P.P, nonad aS te nabataQ ed. 167- 193) (ebarA -duS enmuayor el ,enneriP .J

2- جواد علي 450 /3 وكذا انظر G. A. 25. P, neibarA, nnamhor

3- 25. P, dibI . وأنظر كذلك آراء أخرى: حيث يتجه البعض إلى أن الاوسانيين كانوا يسيطرون على المنطقة شمال «بمبا» و«زنجبار» ربما منذ ما قبل عام 400 ق. م.، وأن لهم نشاط تجاري مع السواحل الافريقية عن طريق ميناء «عدن» الذي كان يتبع «أوسان» وقت ذلك: جواد علي 502 /2 وكذا W. 22. P, aeS naearhtvrE eht fo sulphireP ehT, ffohcS. و Kذا P, seirevcsiD .39 وكذا انظر 74.

P, tic- po, renfoH. M dna nnamssiW noV. H

4- جواد علي 450 /3 وكذا انظر P. L, rebarA eiD .126

5- موسكاتي: المرجع السابق ص 213

232، 250 م (1)، بل إن بعض الباحثين ليذهب إلى أن أصل الأحباش أنفسهم، إنما كان من غرب اليمن، معتمدين في ذلك على أن هناك جبلا في اليمن يدعى «حبيش»، فضلا عن أن هناك قبيلة عربية تحمل اسم «حبشت» (الحبشات)، قد يكون لاسم الجبل، أو اسم القبيلة، صلة بهؤلاء المهاجرين إلى إفريقية، وأن القوم أنفسهم هم الذين أطلقوا اسم الجبل - وربما اسم القبيلة - على مواطنهم الجديدة، و من هنا جاء اسم «الحبشة»، و من نفس الكلمة أخذ الإفرنج لفظ «(2) ainissybA» و الأمر كذلك بالنسبة إلى «الجعز»، و هم «inaseC» الذين رأى «بليني» أن مواطنهم إنما كانت على مقربة من «عدن»، و الذين يرى فيهم العلماء عربا جنوبيين هاجروا إلى الحبشة، و كونوا هناك مملكة، ثم سرعان ما سادت لغتهم بين السكان الساميين في أثيوبيا، و من ثم فقد عرفت لغة الحبش «بالجعزية» (3) هذا و قد بلغ من سيادة تلك اللغة هناك، أن الانجيل حين ترجم في الحبشة خلال القرن الرابع الميلادي، إنما ترجم من الإغريقية إلى الجعزية، و حتى أصبحت لغة الجعز لغة التخاطب و الكتابة، ثم ظلت تلك اللغة مستعملة في الحبشة حتى القرن الثالث عشر الميلادي فغلبتها اللغة الأمهرية (4).

ص: 372

1- 126 . P, I, rebarA eiD

2- موسكاتي: المرجع السابق ص 214، حسن ظاظا: المرجع السابق ص 195 و كذا جواد علي 3/ 4439، و كذا انظر 5 . P,eibarA

.C ,inissoR ,ne tasabaH sed snoissessoP te noitidexE

3- موسكاتي: المرجع السابق ص 214، حسن ظاظا: المرجع السابق ص 195، و كذا 114, 274 . P, P, I, rebarA eiD

4- إبراهيم طرخان: محاضرات في تاريخ الحبشة، عبد المجيد عابدين: المرجع السابق ص 9

و على أي حال، فعلى أيام «علهان نهفان» (1) ملك سبأ وذي ريدان، كانت العربية الجنوبية تمر بفترة من الاضطرابات الداخلية، اضطر بسببها «علهان» إلى عقد معاهدة مع «جدرة» ملك الحبشة، والذي كان- فيما يرى فون فيسمان- يسيطر على ساحل البحر الأحمر الشرقي من ينبع إلى عسير، فضلاً عن مضيق باب المندب (2).

و نقرأ في النص المعروف ب (I snekeuG) أن الأحباش- وربما باتفاق مع الردمانيين قد أغاروا على جيش «شعر أوتر» أثناء محاربتة للحضرميين، هذا فضلاً عن الإغارة على أرضين تابعة له، و ألحقوا بهما أضراراً بالغة (3)، و كما جاء في نقش (جام 631)، فإن «شعر أوتر» قد أوكل إلى قائده «قطبان أو كان» أمر الانتقام من الأحباش، و أن «قطبان» هذا قد نجح- بمساعدة قوات سبئية أخرى جاءت تعيينه على مهمته هذه- في حصار الأحباش، ثم مهاجمتهم على غرة، ثم أعمل السيف فيهم، حتى اضطروهم إلى ترك منطقة «ظفار»، و الاتجاه إلى المعاهر (معهر تن) (4)، و ان لم يستطع الرجل أن يسيطر على المناطق الغربية من اليمن، و التي تطل على البحر الأحمر، حيث بقيت تحت النفوذ الحبشي (5).

ص: 374

-
- 1- يرى فليبي أنه حكم حوالي عام 135 ق. م.، و يرى البرت جام أنه حكم في الفترة (85- 65 ق. م.)، و يرى البرايت أنه حكم حوالي عام 60 ق. م.، و أما فون فيسمان فيرى انه كان حوالي عام 160 م (انظر: 113. P, tic- po, renfoH dna namssiW noV . 390. P, tic- po, emmaJ. A . 142. P. J. ybilih)
 - 2- 471. P, 4- 3, 1964, noesuM eL .
 - 3- 297. P, sebarA- duS noitpircsnI, snamkcyRG . 301. P, tic- po, emmaJ. A .
 - 4- 132. P, dibI .
 - 5- 475. P. 4- 3, 1964, noesuM eL .

على أن هناك، من ناحية أخرى، بعض الروايات التاريخية التي تشير إلى أن الحميريين قد قاموا بحملات عسكرية في وادي النيل الأوسط، و شمال إفريقية (1)، وقد أشار «كوسان دي برسيفال» إلى حملة قادها «أبو مالك بن شمر يرعش» إلى معادن الزمرد في أرض البجة، و من المحتمل أن يكون الرجل قد لقي حتفه هو و معظم جيشه حوالي منتصف القرن الأول الميلادي (2).

و في عهد دولة أكسوم يتغير ميزان القوى إلى جانب الأثيوبيين، و ضد العرب الجنوبيين، بخاصة بعد اعتناق الملك «عيزانا» (أزانا) - و الذي اعتلى العرش حوالي عام 325 م- النصرانية، و أيا ما كان السبب في اعتناق «عيزانا» النصرانية، و سواء أ كان ذلك عن اقتناع بالدين الجديد، أو لمزيد من التقرب إلى بيزنطة، حامية المسيحية الكبرى في الشرق، فإن اليمن قد وضعت بين قوتين مسيحيين، الحبشة من جهة، و الروم من جهة أخرى (3).

و زاد تنصر أثيوبيا من حدة منافستها لليمن غير المسيحية، و بدأت في تنفيذ خططها القديمة لاحتلال اليمن، تلك الخطة التي بدأت منذ حوالي القرن الأول قبل الميلاد، كما نعرف ذلك من النقوش العربية القديمة، مثل نقش (جام 631) بل إن نقش (جام 635) ليحدثنا عن معارك دارت رحاها خلف مدينة «نجران»، بين جيش «سقر أوتر» (65-55 ق. م.) و بين الأحباش، و ربما كان ذلك يشير إلى أن «نجران» إنما كانت في أيدي الأحباش في تلك الأونة (4)، و نقرأ في نقوش (جام 574،

ص: 375

1- مصطفى مسعد: المرجع السابق ص 108

2- .82 P, tic- po, lavesreP ed nisuaC

3- موسكاتي: المرجع السابق ص 215، حسن ظاظا المرجع السابق ص 196-197

4- P. P, tic- po, emmaJ. A . 132, 135 -6, 303, 390

575، 590، 595) عن حرب نشبت بين «الشرح يحضب» وأخيه «يأزل بين» وبين الأحباش، وأن الأخوين قد انتصرا على الأحباش في «وادي سهام» و«وادي سردد»- على مبعده 40 كيلومترا إلى الشمال من الحديدة- وفي غير ذلك من المناطق التي يوجد فيها الأحباش (1)، ويسجل نقش (جام 576) انتصار «الشرح يحضب» على ملك كنده و حلفائه، وكذا على قوات حبشية (2) ونقرأ في نقش (407 HIC) عن حرب شنها «شمر يهرعش» على قبائل تهامه في شمال غربي اليمن، والتي شملت عسير و صبيه بين وادي بيش و وادي سهام، و أن جيوش الملك الحميري قد انتصرت على هذه القبائل برا، ثم سرعان ما طاردتهم في البحر، حيث أوقعت بهم خسائر فادحة، وربما كان ذلك يشير إلى أن هؤلاء المهزومين، إنما كانوا من الأحباش الذين كانوا يسيطرون على ساحل تهامه، وأن المعركة إنما دارت في البحر الأحمر (3)، و أن شمر يهرعش قد استعان بقبيلة «سردود» في قتاله ضدهم، وربما كانت هذه المعارك سببا في تدخل الأكسوميين مرة أخرى في شؤون العربية الجنوبية (4) و على أي حال، فلقد استمرت محاولات الحبشة في احتلال اليمن (5)،

ص: 376

-
- 1- 5. D. S. M. IograhtuoS htuoS A naibarA snoitpircsnI P، وكذا 316. 311-310, 64, 60. J. Emma. tic- po, PP
- A و كذا انظر 38, 18. M. H. renfoH ,egartieB ruZ egartieB nehcsirotisih nehcsimarsiR -oV sed eihpargoG .P .P ,neibaraduS .H dnu nnamssiW noV
- 2- 319-317, 96, 93, 88. A. J. Emma. tic- po, PP
- 3- . H . V. naW nnamssiM dna renfoH . M وكذا 119. A. J. Emma. tic- po, P. tic- po 369.
- 4- عبد المجيد عابدين: المرجع السابق ص 32-33
- 5- 480, 498. M. el. noesuM 3, 1964, P. P 4-3، وكذا 29. A. G. nnamnor. tic- po, P

وقد نجحت مرة، وفشلت مرات، وضمت إليها جزءا كبيرا أو صغيرا طبقا لظروف البلدين، بدليل ذكر اليمن في ألقاب السيادة التي اتخذها ملوك أكسوم في نقوشهم، فالملك «عيزانا» مثلا كان لقبه «ملك أكسوم وحمير وزيدان وسبأ و سلحين» (1)، بل ان هناك نقشا لملك جاء قبل عيزانا يلقب فيه بملك الأكسوميين و الحميريين (2)، وفي عام 515 م يجلس على عرش اليمن «ذو نواس»، وهو «زرحة ذو نواس بن تبان أسعد أب كرب»، والذي سمي «يوسف» بعد اعتناقه اليهودية، هذا و يذهب بعض الأخباريين إلى أن السبب في تسميته «ذي نواس» أن كانت له ذؤابتان تنوسان على عاتقه، وبهما سمي ذي نواس (3)، وعلى أي حال، فهو الملك الذي احتل الأحباش اليمن في عهده، و بقوا فيها نصف قرن من الزمان، وإن كانت هذه ليست هي المرة الأولى التي يغزو الأحباش فيها اليمن، كما رأينا من قبل، وإن كان الجديد هنا أن الغزو قد اتخذ من الدفاع عن المسيحية و المسيحيين سببا.

هذا و يتجه بعض الباحثين إلى أن المسيحية بدأت تأخذ طريقها نحو اليمن منذ القرن الرابع الميلادي، و أن ذلك إنما تمّ على يد «ثيوفيلس» الذي نجح في حوالي عام 354 م من نشر الديانة الجديدة بين العرب الجنوبيين، ثم سرعان ما أنشأ كنيسة في «ظفار»، كان لها الأسبقية على غيرها، و من ثم فقد أصبح رئيس أساقفتها بمثابة المشرف على كنائس بلاد العرب الجنوبية (4).

ص: 377

1- 448. P, 4- 3- 1964, noesuM, eL.

2- عبد المجيد عابدين: المرجع السابق ص 34

3- ابن الاثير 1/ 425، مروج الذهب 2/ 52 تاريخ اليعقوبي 1/ 199، المعارف لابن قتيبة ص 311، وهب بن منبه: المرجع السابق ص 300، تفسير القرطبي 19/ 293 كتاب المحير ص 368

4- انظر: 29. P, naeibarA, nnamhorG. A. و كذا H. K. P. 61. tic- po, itti

و كانت اليهودية- كما جاء في القرآن الكريم (1)- قد بدأت تأخذ طريقها إلى مملكة سبأ منذ القرن العاشر قبل الميلاد- وعلى أيام سليمان (960-922 ق. م.)- وذلك طبقاً لما جاء في القرآن الكريم على لسان ملكة سبأ في ختام قصتها مع النبي الكريم (2)، حيث يقول سبحانه وتعالى «قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (3).

وفي القرن السادس قبل الميلاد، وبعد استيلاء «نبوخذ نصر» على بيت المقدس و تدمير الهيكل في عام 586 ق. م. (4)، بدأت أعداد من يهود تتجه نحو اليمن، ثم جاءت أعداد أخرى، ربما أكثر من الأولى، بعد تدمير أورشليم على يد «تيتوس» الروماني في عام 70 م، ثم على يد الامبراطور «هدريان» (117-138 م)، حيث مرّ اليهود و اليهودية بأقسى المحن و أشدها، و حيث تم القضاء على اليهود ككيان سياسي في فلسطين، ثم تغيير اسم المدينة المقدسة (القدس) إلى «إيليا كابيتولينا»، و تحويل المعبد اليهودي إلى معبد لإله الرومان «جوبيتر»، ثم بيعت النساء اليهوديات كإماء، و ضاع اليهود في غياهب التاريخ، و سرعان ما فرّ- من أسعده الحظ فنجوا من القتل أو الأسر- إلى مكان يحتمى به من غضبة الرومان القاسية، و كان من هؤلاء المحظوظين فريق من يهود وصل الى يثرب و إلى اليمن (5)، و من ثم فهناك من يرى أننا لو تفحصنا أسماء اليهود المقيمين في بلاد العرب لرأينا ان كثيرا منهم أراميون

ص: 378

1- سورة النمل: آية 20-44

2- راجع قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام في مقالنا «العرب و علاقاتهم الدولية في العصور القديمة»

3- سورة النمل: آية 44

4- أنظر كتابنا «إسرائيل» ص 529-535، و كذا أستاذ: الملوك الثاني و أرميا: و كذا N. M. 286-88، P. P, tic- po, hto و كذا F 5 F

P. P, tic- po, relleK. W ,400-403 و كذا 225. P, tic- po, tamelaM. A

II, raW hsiweJ ehT, syhpesoJ ,18,1,3 -4 -5

وعرب متهودون (1)، اعتنقوا اليهودية بتأثير من اليهود أنفسهم.

وعلى أي حال، وسواء أكان انتشار اليهودية في اليمن يرجع إلى تلك الفترة المبكرة، أو إلى عهد «أب كرب أسعد» (400-415 م) (2)، حيث يروي الأخباريون في قصة طويلة أن الرجل قد تهود، بل وفرض اليهودية على الحميريين كذلك (3)، أو منذ تهود «ذي نواس»، سواء أكان تهوده هذا رغبة منه في أن يقاوم دينا سماويا بدين سماوي آخر، و من ثم فهو يمثل الروح القومية في اليمن، حين رأى في النصارى من مواطنيه ما يذكره بحكم الأحباش المسيحيين البغيض (4)، أو لأنه كان في الأصل - طبقاً لرواية ابن العبري - من أهل الحيرة، وأن أمه يهودية من «نصيين» وقعت في الأسر، فتزوجها أبوه، فأولده منها، و من ثم فهو يهودي وفد على اليمن من الحيرة (5)، أو لأنه حين اعتنق اليهودية كان آمناً على نفسه وعلى دولته من أن يتسلط عليه أو عليها دولة ذات نفوذ واسع، و سلطان كبير، إذ لم يكن لليهودية في ذلك الوقت دولة سياسية، في حين أن النصرانية إنما كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة في فتح

ص: 379

1- .. P, tic- po, ittiH. K. P. 61

2- هناك من يحدد له كذلك الفترة (385-420 م) و من يحدد له الفترة (378-415 م)، و من يرى أن حكمه استمر إلى عام 430 م (أنظر: جواد علي 571/2، فريتز هومل: المرجع السابق ص 108 و كذا P, tic- po, nesleiN. D. 104 و كذا P.P, malsI. 116, 14

J. B. P, abas fo sgniK tsal eht no eton, ybliH. P, 269 fo dnuorgkcaB ehT,

3- ابن كثير 163/2-167، تفسير ابن كثير 142/4، الأزرقى 132/1-134، تفسير الطبري 128/25-129، تفسير الخازن 115/4، 175، تفسير القرطبي 145/16-146، تفسير البيضاوي 376/2-377، بلوغ الأرب 170/2، 240-241، مروج الذهب 82/1، اليعقوبي 197/1-198، العقد الثمين 71/1، ابن خلدون 52/2، قارن: المعارف ص 275-276

4- .. P, tic- po, ittiH. K. P. 02

5- جواد علي 593/2، قارن: الإكليل 63/2.

اليمن (1)، فكل تلك أمور ليس مجال مناقشتها هنا، لأن الذي يهمنا الآن أن الفرقة الداخلية التي ترجع في الدرجة الأولى إلى التنافس بين اليهودية و المسيحية في اليمن العربية، إنما بدأت تدفع بالبلاد إلى طريق الاضمحلال و التفكك أول الأمر (2)، ثم إلى وقوعها تحت السيادة الحبشية ثم الفارسية في آخر الأمر.

على أن ظروف بلاد اليمن الداخلية، إنما لعبت دورا خطيرا في التمهيد للفتح الأثيوبي للبلاد، ذلك لأننا نقرأ في نقش (فلبى 228) عن حرب داخلية استعر أوارها قبيل الغزو الحبشي لليمن، وربما في عام 516 م، و على أيام الملك «معد يكرب يعفر»، و اشتركت فيها قبائل سبأ و حمير و رحبة و كندة و مضر و ثعلبة (3)، و من ثم فقد مهدت هذه الفتنة الطريق للأحباش ليحتلوا اليمن في سهولة، و ذلك بسبب الخصومات القبلية القديمة بين القبائل العربية، و بسبب ظهور الروح القبلية التي لا تعرف طريقا للتعاون القومي، إلا إذا كان من أجل القبيلة و في مصلحتها، دونما أي اهتمام بما يجره ذلك على الكيان القومي من نكبات قد تؤدي باستقلال البلاد و خضوعها للأجنبي.

و نقرأ في نصي (ريكمانز 507، 508) (4)، و يرجعان إلى عام 518 م، عن إشارات عن حرب دارت رحاها بين الأحباش و ملك حميري دعوه «يسف أسار» (يوسف أسار)، و لعل عدم الإشارة هنا إلى اللقب الملكي الطويل، ربما يعني أن سلطان ذلك الملك (ذي نواس) لم يكن

ص: 380

1- اسرائيل و لفسون: المرجع السابق ص 36

2- موسكاتي: المرجع السابق ص 193

3- جواد علي 2/ 591 و كذا J. G. 214. IVXC, loV. P, 1950, 6- 4,

4- أنظر: جواد علي 2/ 595-596، و كذا F 284. P, 4- 3, 1953, noesuM eL و كذا 434. IVX, loV, 3: traP, 1954, P,

SAOSB و كذا 507, 508, snamkeyR

يمتد إلى كل بلاد العرب الجنوبية، وإنما كان مقصوراً على أجزاء منها، وأن الأحباش إنما كانوا يشاركونه هذا السلطان، ف «ظفار» و مجاوراتها إنما كانت في أيدي الأحباش، كما كان الأقبال قد كونوا حكومات إقطاعية في إماراتهم، بل و كانوا يثيرون الفتن و القلاقل في أنحاء البلاد، و قد أشرنا من قبل إلى حرب أهلية استعرا أوارها حوالي عام 516 م، و اشتركت مجموعة من القبائل، و هكذا كانت تلك الظروف الداخلية سبباً في ضعف البلاد و جعلها آخر الأمر لقمة سائغة في أيدي المستعمرين الأحباش (1).

هذا و يشير نص (ريمانز 508) إلى حرب وقعت بين الملك يوسف أسأر من ناحية، و بين الأحباش، و من كان يؤيدهم من اقبال اليمن، من ناحية أخرى، و أن الملك الحميري قد هاجم «ظفار» و «مخا»، و استولى على كنائسهما، و إن كان أشد القتال، إنما كان بينه و بين قبيلة الأشاعر، حيث قتل منهم ثلاثة عشر ألف قتيل، و أسر تسعة آلاف و خمسمائة أسير، كما استولى على 280 ألف رأس من الابل و البقر و الغنم، ثم اتجه بعد ذلك إلى «نجران» حيث أنزل بالأحباش، و من سار في ركابهم، خسائر فادحة (2).

و لعل كل هذا يشير إلى عدة أمور، منها (أولاً) أن الوضع في اليمن في تلك الفترة الحرجة من تاريخ البلاد، إنما كان جد قلق، و منها (ثانياً) أن الأحباش إنما كانوا يسيطرون على جزء غير قليل من البلاد، و أنهم اتخذوا من العاصمة الحميرية (ظفار) مقراً لهم، و منها (ثالثاً) أن هناك كثيراً من أمراء اليمن، إنما كانوا أعواناً للمستعمر الجديد، يساعده في

ص: 381

1- جواد علي 595/2

2- P, 1954, 3, traP, IVX, SAOSB 434 و كذا P, 1953, noesM el .296 3, 4- P,

القضاء على السلطة الوطنية في البلاد، ويحاربون برجالهم ضد الملك الشرعي للبلاد، و من كان إلى جانبه من أبناء الوطن الاحرار، و كانت النتيجة أن استولى الأحباش على اليمن، و جعلوها مستعمرة حبشية، يتحكمون فيها و يستغلون مواردها الاقتصادية لمصلحة بلادهم، و بدهي أن الخونة من أمراء اليمن لم ينالوا من ساداتهم الجدد، إلا الفتات، و إلا العار يسجله التاريخ عليهم أبد الدهر، شأن الخونة في كل مكان و في كل زمان.

هذا و يقدم المؤرخون عدة أسباب لغزو الحبشة لليمن، منها (أولا) الرغبة في السيطرة على اليمن، و ذلك لضمان توزيع السلع الحبشية، دون أن تتعرض لاعتداءات الحميريين (1)، و منها (ثانيا) ما يذهب إليه البعض من أن عداوة الحبشة للعرب قديمة العهد، نشأت منذ أن كان عرب اليمن يخطفون الأحباش من سواحل الحبشة، و يبيعونهم أرقاء في شبه جزيرة العرب، حيث وجد الحبش في الحجاز (2)، و منها (ثالثا) أن بلاد العرب الجنوبية كانت تقوم في ذلك الوقت بنفس الدور الذي تقوم به مصر الآن، حيث أصبحت منذ شق قناة السويس تهيمن على شريان من أهم شرايين الملاحة الدولية، و الأمر كذلك بالنسبة إلى بلاد العرب الجنوبية، نظرا لمركزها الهام على البحر الأحمر و المحيط الهندي، و حيث يوجد مضيق باب المندب، و في تلك الأيام كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية حريصة على انتزاع تلك المكانة و إعطائها لمصر، و مختلف الولايات الرومانية الشرقية الأخرى التي تستطيع الإفادة من مركزها

ص: 382

1- مراد كامل: مقدمة لكتاب سيرة الحبشة، القاهرة 1958 ص 61، عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص 182

2- يوسف احمد: الإسلام في الحبشة، القاهرة 1935 ص 6-7، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص 74

الجغرافي، وبخاصة فإن المسيحية كانت قد استقرت في كثير من هذه الولايات الرومانية الشرقية، حتى اضطر الإمبراطور قسطنطين في عام 311 م، إلى السماح بانتشار المسيحية في بلاده (1)، وهنا بدأ الرومان يفكرون في استغلال الدين لضم بلاد العرب الجنوبية إلى إمبراطوريتهم، فعمدوا إلى ارسال البعثات التبشيرية لتلك البلاد، لنشر المسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة، ولتهينة الأفكار و النفوس لقبول النفوذ الروماني من جهة أخرى (2).

لقد كان العالم وقت ذلك- كما هو الآن- منقسما إلى جبهتين شرقية وغربية، أو الفرس و الروم، و لكل أتباع من الدويلات الصغيرة ورؤساء القبائل، وفي هذه الظروف عمل الروم على الهيمنة على بلاد العرب، أو ابعادها عن النفوذ الفارسي على الأقل، وعمل الفرس من ناحية أخرى على تحطيم كل جبهة عربية تعمل لمصلحة الروم، فضلا عن منع السفن الرومية من الدخول إلى المحيط الهندي، والاتجار مع بلاد العرب، ولجأ الروم إلى الدين كوسيلة لسيط نفوذهم على شبه الجزيرة العربية، فأرسلوا المبشرين لنشر المسيحية بين القوم، و طلبوا من الأحباش مساعدتهم في أداء مهمتهم هذه- الدينية في الظاهرة، السياسية أو قل الاستعمارية في الواقع، و أتخذ الفرس من النصرانية- المخالفة في المذهب لنصرانية الروم- وكذا اليهودية، وسيلتهم لمعارضة نفوذ الروم و الأحباش، وهكذا يبدو واضحا أن الروم- وكذا الفرس- لم يقصدوا وجه الله من نشر المسيحية أو اليهودية، وإنما كانت الأغراض السياسية و المطامع الاستعمارية هي الهدف أولا و أخيرا، و لعل مما يؤيد وجهة النظر هذه، أن أبرهة الحبشي لم يقتصر على القضاء على ذي نواس و احتلال

ص: 383

1- فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 301

2- إسرائيل و لفسون: المرجع السابق ص 36

اليمن، وإنما بسط نفوذه على وسط بلاد العرب كذلك، حيث نقرأ في نص (ريكمانز 506)- والذي يرجع تاريخه إلى عام 535 أو 547 م (1)- عن حرب أشعلها أبرهة ضد قبائل معد، بل وعن العلاقات بينه وبين ملوك الحيرة، أتباع الفرس، كما سوف نرى فيما بعد.

وهكذا يبدو واضحاً أن تعذيب ذي نواس لنصارى نجران لم يكن هو السبب الحقيقي للغزو الحبشي، ودليلنا على ذلك- غير ما قدمنا من أدلة- أن المصادر الإغريقية، وكذا الحبشية نفسها، إنما تذهب إلى أن الأحباش قد أغاروا على اليمن، قبل قصة التعذيب هذه بسنين، وأنهم قد انتصروا على ذي نواس! واضطروه إلى اللجوء إلى الجبال، إلا أنه استطاع بعد فترة أن ينجح في لّم شمل جنده، وأن يهاجم الأحباش، و ينتصر عليهم، وأن يغزو نجران ويتمكن من الاستيلاء عليها، بعد حصار دام سبعة أشهر، ثم ينتقم من أهلها شر انتقام (2).

وهكذا اتفقت مصالح الأحباش والرومان في السيطرة على بلاد العرب الجنوبية، وكانت سياسة ذي نواس التي تربط بين انتشار المسيحية في اليمن، وبين ازدياد نفوذ الأحباش السياسي في البلاد، سبباً في أن يتخذ من نصارى اليمن موقفاً عدائياً، وكانت هذه هي الفرصة التي وجدها الرومان للقضاء على استقلال اليمن، ولكن دون التدخل المباشر، وإنما بتحريض الأحباش على غزوها، ولعل الامبراطور «جستين» (518-527 م) قد اتخذ هذه الخطوة، ربما نتيجة لأطماع الفرس التي ازدادت في شبه الجزيرة العربية، بحيث أنهم استقروا في ساحل الخليج العربي،

ص: 384

P, 1953, 66, 275. و كذا P, 1954, KSAOSB ni ,snoitpircsnI nahgiaruM eht no setoN ,notseeB .L .F .A. 389 -1

P. D. A yrutneC ht 6 eht ni aibarA ni stnevE, htimS. S .435 و كذا noesuM eL

P., 2, tic- po, yruB. B. J .323 -2

وهناك رواية تذهب إلى أن السبب المباشر لغزو الحبشة لليمن، إنما كان لأن الملك الحميري «دميون noimiD» (دميانوس sonaimiD)، كان قد أمر بقتل التجار الروم الذين هم في بلاده، وبنهب أموالهم، وذلك بسبب اضطهاد اليهود وإساءة معاملتهم في بلاد الروم، مما أدى إلى أن يتجنب تجار الروم الذهاب إلى الحبشة أو اليمن - أو حتى المناطق القريبة من حمير - ومن هنا رأى البعض أن بعثة «ثيوفيلوس» التبشيرية، إنما كانت للعمل على ضمان حسن نية الأمراء اليمنيين إزاء التجار الروم، غير أن تلك البعثة قد فشلت في تحقيق أهدافها بسبب نفوذ الفرس في اليمن وقت ذلك، وقد أثر ذلك في التجارة مع الحبشة تأثيرا سيئا، وهنا اضطر النجاشي إلى أن يقدم عروضاً رفضها الملك الحميري، مما كان سببا في نشوب حرب بينهما، وتزعم الرواية أن النجاشي كان حتى تلك اللحظة ما يزال على وثنيته، ومن ثم فقد عرض عليه أن يعتنق المسيحية - إن كتب له النجاح على الحميريين - وحين انتهت الحرب في صالحه، اعتنق النصرانية وأرسل إلى قيصر يطلب منه إرسال عدد من رجال الدين، ليعلموه العقيدة الجديدة، وقد تمّ له ما أراد (2).

وأيا ما كان الأمر، فلقد نجح الأحباش في القضاء على ذي نواس واحتلال اليمن، ولكنهم على ما يبدو لم يحكموها حكما مباشرا، وإنما

ص: 385

1- البلاذري: فتوح البلدان ص 78، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص 74، وكذا 1929, etiuqitnA'L siuqed, eriaC eL .I reremmaK, reM aL, eguoR te einissybA'L, eibarA'L

2- جواد على 3/ 468-469، عبد المجيد عابدين: المرجع السابق ص 39، 45-46 وكذا. P, 2, tic- po, yruB. B. J. 322. و كذا P, irabaT, ekedloN .188 و كذا P, IIV, GMDZ .357 و كذا انظر sti nemsirhC ,nemnorivne ,nodnoL ,P 1926 .F 33 .E, resalG, eiD, reinissebA ni neibarA dnu acirfA .P, 1895, R 176 .lleB .R 176 .P, 1895, acirfA dnu neibarA ni reinissebA eiD, resalG, E

اختاروا واحدا من الأقبال الذين عاونوهم على نجاح مهمتهم الاستعمارية هذه، وكان هذا الرجل هو «السميفع أشوع» والذي سبق أن أشرنا إلى أنه كان في جانب ذي نواس على غير رغبة منه، وأنه قد تحصن بعد الهزيمة في حصن ماوية، ثم هادن السادة الجدد، و من ثم فقد عينه الأحباش ملكا على حمير، على أن يدفع لهم جزية سنوية.

و هناك نص من متحف «استنبول»، نشره العالم البلجيكي «ج- ريكمانز»، يفهم منه أن السميفع أشوع كان ملكا على سبأ، و كان يدين بالنصرانية، بدليل أن النص جاء فيه «باسم رحمن و بنهو كرشش غلبن»، و ترجمته «باسم الرحمن و ابنه المسيح الغالب» (1)، و لعل هذا النص يعضد ما ذهب إليه «بركوبيوس» من أن الذي حكم حمير بعد ذي نواس، إنما هو «sueahpimisE» (سام يفع أشوع- السميفع أشوع) (2)، على أنه لم يكن في الواقع إلا تابعا لملك الحبشة، و أنه- كما يفهم من النص المعروف- (HIC, 621)- قد بدأ حكمه في عام 525 م (3) و ما أن تمضي ستون سنة، (أي في عام 531 م)، حتى تبدأ البقية الباقية من جنود الحبشة الثورة على «السميفع أشوع»، ثم محاصرته في إحدى القلاع، و تعيين «إبراهام»- و هو عبد نصراني كان مملوكا لتاجر

ص: 386

-
- 1- 4, D. nesleiN. P, tic- po, 105. etoN, و كذا 7- 165. noesuM eL. P, 4- 3, 1950, و P. P, 4- 3, 1964, و كذا انظر
P, I, aipoirE'D airots, inissoRitnoC. C. 180
2- جواد علي 472/3 و كذا 1- 2, suipocorP, I, XX
3- 1848, G. tnuH, H. ciraymiH fo snoitpircsnI baruhG nsiH و كذا 21. R. J 230. P, tic- po, detslleW. 1885, و
P, neibaraduS, hcaN esieR, neztlaM noV. 225 و كذا انظر 39, GMDZ و كذا جواد علي 475/3- 476

يوناني في مدينة عدولي- في مكانه، وقد حاول النجاشي أن يعيد الأمور إلى نصابها، إلا أن هزيمة قواته التي أرسلها مرة بعد أخرى، جعلته يتقبل الوضع على علاقته، و ما أن تنته حياته في هذه الدنيا حتى يسرع ابراهام إلى عقد صلح مع خليفته، يدفع له بمقتضاه جزية سنوية، في مقابل أن يعترف النجاشي الجديد به نائبا للملك في اليمن (1)، وهكذا يصبح ابراهام، أو أبرهة، حاكما على اليمن، وإن اعترف اسميا بأنه «عزلي ملكن أجمعين» أي «نائب ملك الأجازة» على اليمن.

ص: 387

1- أنظر 324 .H. W noV .M dna nnamssiW noV .P .P ,tic -po ,renfoH .M dna nnamssiW noV .P .P ,tic -po ,yruB .B .J 120 ,92 .P .P ,tic -po ,renfoH .M dna nnamssiW noV .H. 324

الفصل الحادي عشر قصة أصحاب الفيل

[1] توطيد النفوذ الحبشي في اليمن

ص: 389

نجاح الأحباش - كما اشترنا من قبل - في الاستيلاء على اليمن، ثم سرعان ما بدأ أبرهة في توطيد سلطانه في هذه الأرض العربية، وكان أول ما فعله في سبيل ذلك أن قاد ثورة أطاحت «بالسميفع أشوع»، وأتت به في مكانه على رأس السلطة في اليمن (1)، ثم دخل في منافسة شديدة مع أرباط على هذه السلطة، انتهت بعد جولة حاسمة، لعبت فيها الخيانة دوراً كبيراً (2)، ومن ثم فقد أصبح سيد الموقف في اليمن العربية، رغم أنه كان ما يزال يحمل لقب «نائب ملك الأجازة في اليمن»، وليس ادل على ذلك من أن ملك الحبشة نفسه، إنما كان يطلق عليه في نصي (جلازر 618) و (HIC 541) «ملك الجعز»، بينما يطلق أبرهة على نفسه في نفس النص لقب «ملك سبأ وذي ريدان و حصرموت و يمنات و أعرابها في الجبال و التهائم»، وهو ما يزال بعد - من الناحية الاسمية على الأقل - «نائب ملك الجعز» (3).

ورغم أن النصوص تحدثنا عن ثورة قام بها «يزيد بن كبشة»، والذي عينه أبرهة نائباً عنه في قبيلة كندة، سرعان ما ينضم إليها «السميفع».

ص: 391

1- 92, 120 . H. M dna nnamssiW noV. P. P, tic- po, renfoH. B .324 و كذا P, tic- po, yruB.

2- تاريخ الطبري 2/ 127-130، ابن الأثير 1/ 431-433، وابن كثير 2/ 169، تاريخ ابن خلدون 2/ 60-61، اليعقوبي 1/ 200 تاريخ الخميس ص 220-221، المقدسي 3/ 185، الأخبار الطوال ص 62، تفسير القرطبي 20/ 193-194، الأزرقى 1/ 136-137

تفسير روح المعاني 30/ 233، جواد علي 3/ 481-482. و كذا P, I, sraW eht fo yrotsiH, suipocorP .191

3- جواد علي 3/ 484 و كذا انظر 421 .E. resalG, P, II, biraM nov hcurbmmaD ned rebu nettfirhcsnI ieuwZ,

أشوع» و«معد يكره»، وبعض الزعماء اليمنيين، ورغم أن الثورة سرعان ما امتدت إلى حضرموت و حريب و ذو جدن و حياب عند صرواح، فإن أبرهة- بمساعدة قبائل يمنية قوية أخرى- قد نجح في القضاء على الثورة، وأن يبطل بقادتها، وأن يقضي على الثائرين على سلطانه من أبناء القبائل (1).

وهكذا تستقر الأمور لأبرهة في اليمن، و يبدأ في مد نفوذه على قبائل في وسط الجزيرة العربية، وقرأ في نقش (ريكمانز 506) (2)، عن حرب أشعلها أبرهة ضد قبيلة معد، و عن العلاقات بين أمراء الحيرة و بين حكام اليمن من الأحباش، و عن نفوذ هؤلاء الأحباش على قبائل مثل معد، و لعل هذا يؤيد ما ذهب إليه الكتاب العرب من أن لليمن نفوذ على قبائل معد، و أن تبابعة اليمن كانوا ينصبون الملوك و الحكام على هذه القبائل (3).

و يحدثنا أبرهة في نصه هذا على هذه الحرب التي شنها على معد عند «حلبان»، و عن أوامره التي أصدرها إلى رؤساء قبائل كندة و عل و سعد بالقضاء على ثورة بني عامر، هذا و يشير النص بعد ذلك إلى أن أبرهة قد انتصر على قبيلة معد، ثم أخذ منها الرهائن، انقاء لثورة أخرى قد تقوم بها في مستقبل الأيام، فضلا عن قبوله بأن يبقى «عمرو بن المنذر»، الذي عينه أبوه المنذر أميراً على معد، في مكانه (4).

ص: 392

1- فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 303 و كذا P, tic- po, renfoH. M dna nnamssiW noV. H .121

2- 275. P, tic- po, notseeB. L. F. E .389 و كذا P, tic- po, htimS. S .435

3- جواد علي 3/ 333- 494

4- جواد علي 3/ 494- 496 و كذا PP. 4- 3, 1953, noesuM eL .277- 279

هذا، وقد ذهب بعض الباحثين مذاهب شتى في تفسيرهم لهذا النص، فمنهم من رأى أن النص إنما يشير إلى حملة أبرهة على مكة المكرمة في العام المعروف بعام الفيل (1)، وذهب آخرون إلى أنه إنما يشير إلى غزو قام به أبرهة تمهيدا لحملة كبيرة كان ينوي القيام بها إلى أعالي شبه الجزيرة العربية، غير أنه توقف عند مكة (2)، هذا في الوقت الذي يرفض فيه فريق ثالث أن يربط بين هذه الحملة، و حملة عام الفيل على مكة، إذ يرون أن هذه الحملة قد تمت في عام 547 م، بينما كانت الاخرى في عام 563 م (3)، هذا وهناك فريق رابع يتجه إلى أن النص إنما يتحدث عن معركتين، الواحدة قادها أبرهة في «حلبان»، والثانية قامت بها مجموعة قبائل في «تربة» في بلاد بني عامر (4)، وربما على مبعده ثمانين ميلا إلى الجنوب الشرقي من الطائف (5).

[2] بناء القليس

استقرت الأمور لأبرهة في اليمن بعد القضاء على الثورات التي هبت ضده، وبعد أن بسط نفوذه على قبائل معد، وبعد أن نجح في إيجاد علاقات من نوع ما مع أمراء الحيرة، وبعد أن انتهى من ترميم سد مأرب، ومن ثم فقد عمد إلى نشر المسيحية و محاربة الأديان الأخرى في

ص: 393

-
- 1- جواد علي 495 / 3 و كذا 426. noesum eL. 3, 1965, 4- P, و كذا انظر nilreB, 1954, .P .P, 200-207 .F meihlA .F nedinasas dnu rebarA ,theitS ,R dna miehtlA .F
 - 2- 426. noesum eL. 3, 1965, 4- P, و كذا انظر 30. W. leksaC. E, negnakcedtnE, ni neibarA P
 - 3- 277-279. noesum eL. 3, 1953, 4- P, P,
 - 4- 391. SAOSB, 1954, P, و كذا 426. noesum eL. 3, 1965, 4- P, و كذا جواد علي 495 / 3-496
 - 5- البكري 308 / 1

شبه الجزيرة العربية، فقوي ساعد مسيحي بلاد العرب الجنوبية، واتخذ من «نجران» مركزا رئيسيا لحملته الدينية، فوجد جماعة مسيحية في صحراء اليمامة، في منتصف الطريق بين اليمن والحيرة، فضلا عن جماعة أخرى في يثرب، وعلى امتداد الطريق التجاري إلى فلسطين و سورية (1)، و تبع ذلك بناء الكنائس في أنحاء مختلفة من اليمن، لعل أهمها مأرب و نجران و صنعاء، وفي هذه الأخيرة بنى أبرهة كنيسته المشهورة «القليس»، بغية أن يصرف الحجيج عن مكة إلى صنعاء، فسيفيد من ذلك فوائد مادية و أدبية و سياسية، و بالتالي فقد كان ذلك سببا في حملته المشهورة على مكة.

و يبالغ الأخباريون كثيرا في وصف كنيسة القليس هذه، حتى أنهم يرون أن أبرهة لما أتمّ بناءها كتب إلى النجاشي يقول «إني قد بنيت لك بصنعاء بيتا لم تبن العرب و لا- العجم مثله»، أو «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، و لست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب (2)».

و يروي الأخباريون أن القليس إنما بنيت بجوار قصر غمدان، و بحجارة من قصر بلقيس في مأرب، و أن أبرهة قد كتب إلى قيصر الروم يطلب منه الرخام و الفسيفساء و مهرة الصناع، و أنه قد أستعمل في بنائها طبقات من حجر ذي ألوان مختلفة، لها بريق و أنه نقشها بالذهب و الفضة و الفسيفساء و ألوان الأصباغ و صنوف الجواهر، و طعموا بابها بالذهب و اللؤلؤ، و رشوا حوائطها بالمسك، و أقاموا فيها صلبانا منقوشة بالذهب و الفضة و الفسيفساء، و فيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البلق

ص: 394

1- فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 304

2- الازرقى 1/138-139، تفسير الطبري 30/300، تفسير القرطبي 20/187، تفسير الألويسي 30/223، ابن كثير 1/170، ابن هشام

1/43، تفسير ابن كثير 4/548

مربعة، عشر أذرع في عشر، تغشي عين من ينظر إليها من بطن القبة، تؤدي ضوء الشمس و القمر إلى داخل القبة و كان تحت القبة منبر من شجر اللبخ- و هو عندهم الأبنوس- مفصداً بالعاج الأبيض، و درج المنبر من خشب الساج ملبسه ذهباً و فضة، و كان في القبة سلاسل من فضة (1).

و في الواقع فإنه رغم ما في وصف الأخبارين للقليس من مبالغات، فإن القصر كان حقاً، عصر بناء الكنائس الضخمة التي أنشئت في العالم المسيحي، و أهمها كنيسة «أيا صوفيا» في القسطنطينية، و كنيسة «المهد» في بيت لحم، اللتان تعودان إلى عهد الأباطور «جستينيان» (527-565 م)، و التي تأثرت جميعها بالفن البيزنطي، و إن جمعت كنيسة «القليس» بين الفن العربي القديم، و الفن البيزنطي النصراني في بناء الكنائس.

هذا و قد لجأ أبرهة في بناء القليس إلى السخرة، فضلاً عن القسوة الشديدة، التي كانت تصل إلى حد قطع يد العامل، إن تهاون أو تكاسل في عمله، و يروي «ياقوت الحموي» أن أبرهة قد استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة، و جشمهم فيها أنواعاً مختلفة من السخرة، و كان ينقل إلى كنيسته هذه آلات البناء كالرخام أو الحجارة المنقوشة بالذهب، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، و كان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ، و كان فيه بقايا من آثار ملكهم، فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه الكنيسة و بهجتها و بهائها (2).

ص: 395

-
- 1- ابن الأثير 1/442، الازرقى 1/138-139، تاريخ الطبري 2/130-131، النويري 1/182-183، على الجارم أديان العرب ص 35، ابن سعد 1/55 و كذا 212. H. ttocS. ni eht Y hgiH nemeL nodno, 1947, P,
 - 2- ياقوت 4/394-396، روح المعاني 30/233

إلى أن رجلا قد أتى «القليس»، حين علم أن أبرهة قد عقد العزم على أن يصرف إليها حج العرب، فتغوط فيها، ثم لحق بأهله من «فقيم»، و أن أبرهة سرعان ما علم بالخبر، و من ثم فقد أقسم ليسيرن إلى البيت الذي يحج إليه العرب بمكة فيهدمه، ثم بعث رجلا كان عنده إلى «بني كنانة» يدعوهم إلى الحج إلى القليس، غير أن القوم قد رفضوا، ثم قتلوا رسول أبرهة كذلك، مما زاد من غضب الطاغية الحبشي و حنقه، و من ثم فقد أمر بالجيش فتجهز و سار على رأسه إلى مكة المكرمة، يبغى هدم البيت الحرام (1).

على أن هناك رواية أخرى- صاحبها السيوطي- تذهب إلى أن اكسوم- ابن ابنة أبرهة- خرج حاجا إلى البيت الحرام، فلما انصرف من مكة، نزل في كنيسة نجران، فعدا عليها ناس من مكة، فأخذوا ما فيها من حلي، و كذا قناع اكسوم، و من ثم فقد غضب أبرهة، و أرسل إليهم جيشا من عشرين ألفا من خولان و الاشعريين، حتى إذا ما كان على مقربة من الطائف قابله زعماءؤها، و صرفوه عن مدينتهم، و دلوه على الطريق إلى مكة (2).

و هناك رواية ثالث نسبها القرطبي الى مقاتل بن سليمان و إلى ابن الكلبي-

ص: 397

1- ابن الأثير 442/1، تاريخ الطبري 130/2-131، تفسير الطبري 30/300، ابن كثير 170/2-171، تفسير ابن كثير 4/549، تفسير النيسابوري 30/163، تفسير البيضاوي 2/576، الكشف 3/288، روح المعاني 30/233-234، الأزرقى 1/140-141، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي 2/576)، في ظلال القرآن 1/664-665، تفسير القرطبي ص 7277-7278 (طبعة الشعب)، ابن هشام 1/43-46، الطبقات الكبرى 1/55، ياقوت 4/395، أبو بكر احمد بن الحسين البيهقي: دلائل النبوة، القاهرة 1970، 1/56-57

2- السيوطي: الدرر المنتور في التفسير بالمأثور 6/394، الاصبهاني: دلائل النبوة ص 100، تفسير الكشاف للزمخشري 3/288.

خلاصتها أن فتية من قريش خرجوا تجارا إلى الحبشة، وهناك وعلى ساحل البحر الأحمر، و بجوار بيعة للنصارى، أوقدوا نارا لطعامهم، ثم تركوها بعد حين، إلا ان ريحا عاصفة هبت على النار فأشعلتها، وأحرقت البيعة فغضب النجاشي لذلك أشد الغضب، و اتفق أن أتاه أبرهة- و معه حجر بن شرحبيل و أبو يكسوم الكنديين- و ضمنوا له إحراق الكعبة، و من ثم فقد كانت الحملة إلى مكة (1).

و تذهب رواية رابعة إلى أن أبرهة قد توج «محمد بن خزاعي بن خرابة الذكواني» على «مضر»، و أمره أن يسير في الناس يدعوهم إلى حج القليس، فذهب محمد هذا حتى إذا ما نزل ببعض أرض بني كنانة- و كان قد بلغ أهل تهامة أمره- بعثوا له برجل من هذيل، يقال له عروة بن حياض، فرماه بسهم و قتله، فهرب أخوه «قيس» الذي كان بصحبته إلى أبرهة فأعلمه الخبر، فحلف أبرهة ليغزون بني كنانة و ليهدم البيت (2).

هذه هي الأسباب التي رأى المؤرخون المسلمون، و كذا المفسرون، إنها كانت من وراء حملة أبرهة على البيت الحرام (3)، و لست أظن أن واحدا منها بكاف وحده لتبرير هذه الحملة التي أراد أصحابها القضاء على أقدس مقدسات العرب، و إن كانت الرواية الرابعة، تحمل- فيما أظن- بعضا من صواب، فقصّة تدنيس القليس على يد رجل من النساء،- و هم الذين كانوا يؤخرون المحرم إلى صفر لشن الغارات و طلب الثارات- قد

ص: 398

1- تفسير القرطبي ص 7282-7283 (طبعة الشعب)، تفسير الطبري 30/300، أعلام النبوة ص 149، قارن: تفسير ابن كثير 8/504 (طبعة الشعب)

2- تاريخ الطبري 2/131، تفسير الطبري 30/300

3- تاريخ الطبري 2/130-139، تاريخ الخميس ص 212-217، نهاية الأرب 1/251-264، سيد قطب: في ظلال القرآن، بيروت 1967، الجزء الثامن ص 664-665، تفسير القرطبي ص 7277-7290 (طبعة الشعب)، تفسير ابن كثير 8/503-511 (طبعة الشعب)

تكون حقيقة وقعت، وقد تكون أسطورة وضعت، فإنه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ومع ذلك، فلو صدقنا جدلاً أنها قد حدثت فعلاً، فهي إنما تمثل احتجاج رجل - أو جماعة من العرب - على سياسة أبرهة نحو الكعبة، ورجبته في صرف حاج العرب عنها، ولكنها لن تكون سبباً كافياً لقيام حملة تضم آلاف مؤلفة من جنود الحبشة، فضلاً عن الذين اشتركوا فيها من قبائل اليمن، وبقيادة أبرهة نفسه. وهو الذي يملك الكثير من الوسائل الأخرى لتأديب هذا الرجل، أو تلك الجماعة، على تدنيسهم لكنيسة.

و أما رواية السيوطي، فظاهرها المنطق، وباطنها كثير من الخيال، فأكسوم بن الصباح - حفيد أبرهة - رجل نصراني، وما كانت النصرانية ترحب إلى مكة، وما كان حفيد أبرهة بالذات هو الذي يحج إلى كعبة قريش، لأنها كانت محجة الوثنيين وقت ذاك، ولأن جده أبرهة هو الذي كان يعمل جاهداً على صرف العرب عنها وتحويلهم إلى القليس، وليس من المنطق، فضلاً عن حقائق التاريخ، إن يكون أول الخارجين على سياسة أبرهة، حفيده يكسوم هذا، وإلا لما غضب أبرهة من أجل سرقة قناعة، فضلاً عن حلي كنيسة نجران، ثم إن السيوطي إنما يخالف الإجماع فيما ذهب إليه من أن الذي كان على رأس الجيش، إنما هو «شهر بن معقود» وليس أبرهة نفسه، كما أنه يسبغ على قائد الحملة لقب «ملك»، وقد كان ذلك لقب أبرهة، ولم يكن «شهر» هذا ممن يحملون هذا اللقب الرفيع (1).

و أما رواية القرطبي، فالجديد فيها أن سبب الحملة، إنما كان أحراق بيعة، وليس تدنيس القليس، وأنها في الحبشة، وليست في اليمن، وأن الذي أمر بها إنما كان النجاشي، وليس أبرهة، الذي لم يتجاوز دوره فيها

ص: 399

دور المنفذ لما ارتآه مليكه، على أن المعروف تاريخيا أن أبرهة إنما نظم هذه الحملة من حيث هو حاكم مستقل، فضلا عن أن السبب الذي قدمه القرطبي، لا أظنه بكاف لأن يدفع النجاشي بقوات الحبشة إلى مكة، ثم ما هي الصلة بين حرق بيعة في الحبشة بدون قصد، وبين حملة أبرهة على مكة، حتى لو افترضنا أن رواية القرطبي صحيحة، ثم أليس في الإمكان أن يعاقب الجناة هناك في الحبشة، بل أما كان في الإمكان منع تجار قريش من النزول بأرض النجاشي و الاتجار فيها، لكن أن يكون العقاب هو هدم الكعبة، فلا أظن أن وراء ذلك أسبابا أخرى، فما كانت سياسة الدول تدار بهذه الطريقة، ولن تكون.

و أما الرواية التي ذهبت إلى أن الحملة إنما كانت لأن بني كنانة قتلوا «محمد بن خزاعي» الذي اختاره أبرهة واليا على مضر من قبله، كما فعل نفس الشيء من قبل مع معد، فربما كانت أقرب من غيرها إلى الصواب، لأن قتل محمد هذا، يتعارض تماما و ما يريده أبرهة من فرض نفوذه على مضر، فالهدف إذن لم يكن هدم الكعبة لذاتها، بقدر ما كان رمزا لفرض النفوذ الحبشي على الحجاز، بعد أن تمت السيطرة على اليمن، و فرض نفوذ أبرهة على معد.

أضف إلى ذلك أن هناك بعض الملاحظات على هذه الروايات بصفة عامة، منها ذلك الخلاف بين الروايات العربية في أسباب الحملة، و منها قصة أبي رغال، و التي تكررت- كما أشرنا من قبل- في قصة ثمود قوم صالح عليه السلام، و منها ذلك الحديث الذي همس به «نفيل بن حبيب الخثعمي» في أذن الفيل، و منها ذلك الحديث الذي دار بين مسعود بن معتب سيد ثقيف و بين قائد الحملة، و الذي يفهم منه أن أبرهة ما كان يعرف طريقه إلى مكة، فهل يعدّ الرجل ذلك الجيش الجرار، دون أن

يعرف الطريق إلى هدف هذا الجيش، ثم وهل كانت الكعبة مجهولة إلى هذا الحد، وهي التي بنى أبرهة كنيسته القليس ليصرف الناس عنها، وأخيراً، أما كانت القبائل العربية التي انضمت إلى أبرهة تعرف الطريق إلى الكعبة المشرفة، وبخاصة «نفييل بن حبيب» الذي قاوم الحملة- بادئ ذي بدء- ثم رضي بعد ذلك أن يكون دليلاً لها في مقابل إطلاق سراحه.

[4] أسباب الحملة الاقتصادية و السياسية

لا ريب في أن حملة أبرهة الحبشي على مكة المكرمة، إنما كانت لأسباب سياسية واقتصادية في الدرجة الأولى، وربما كانت دينية في الدرجة الثانية، وحتى هذه فقد كانت في خدمة العوامل السياسية والاقتصادية، ذلك لأن اليمن، بعد الاحتلال الحبشي، قد فقدت دورها التقليدي في نقل التجارة العالمية، يوم أن كانت تسيطر على باب المندب، وتملك أسطولا ضخماً ينقل البضائع من الهند والصين و سوقطرة إلى موانئها مثل عدن وقنا، بحيث كان ذلك شبه احتكار في يدها (1).

وزاد الطين بله، أن النزاع بين الفرس والروم قد أدى إلى اغلاق الطريق التجاري الشرقي المار ببلاد العراق إلى الشام، كما أن البحرية الحبشية لم تنجح في سد الفراغ الذي تركته البحرية الرومية في البحر الأحمر، ربما لظروف جغرافية أكثر منها سياسية، ومن ثم فقد أصبح الطريق البري، عبر تهامة والحجاز، هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة، وكان لا بد- بعد زوال النشاط اليمني- أن يوجد من يسد هذا الفراغ، ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين، لنقل التجارة، وقد

ص: 401

1- عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص 74، وكذا 32. 30. W. ffohcS. P. P, aeS naearhtyrE eht fo sulpireP ehT, ffohcS. W. 30. 32.

وجد هذا الوسيط ممثلاً في مدينة مكة (1)، التي حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادي بمكانة سامية بين عرب الشمال، فضلاً عن طرفي الصراع الدولي (الفرس و الروم) في تلك الفترة، و ساعد على ذلك رغبة الفريقين المتنازعين في وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية، و بعد مكة و صعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى.

غير أن الحبشة- بتأثير من الروم على ما يبدو- لم تكن ترى هذا الرأي، إذ كانت حريصة على ان تحتكر هذا المصدر الاقتصادي الهام لنفسها، و من ثم كانت حملة أبرهة للاستيلاء على مكة (2)، و بالتالي السيطرة على التجارة القادمة من الجنوب إلى الشمال، عن طريق مكة، و لعل ذلك قد حدث بعد فشل مشروع تحويل العرب من الكعبة إلى القليس، و ما كان يرجى من وراء ذلك من مكاسب مادية و دينية و أدبية.

و أما الأسباب السياسية، فلعل أهمها أن الاستيلاء على مكة، إنما يعني إزاحة عقبة كئود، كانت تقف حائلاً بين اتصال الأحباش في اليمن بحلفائهم البيزنطيين في الشمال، و ربما كانت بيزنطة تقف بكل قوتها وراء هذا المشروع الخطير، بل أن هناك ما يشير إلى أن ذلك إنما كان كذلك، فنجاح هذا المشروع يجعل العربية الغربية كلها تحت نفوذ النصرانية، كما أن أبرهة يستطيع، بعد فتح مكة، أن يزحف نحو الشرق، و من ثم يمكنه إلى حد كبير أن يقضي على النفوذ الفارسي في العربية الشرقية، و بالتالي طرد الفرس من بلاد العرب و جعل النفوذ الأجنبي فيها مقصوراً على النفوذ الحبشي الرومي.

ص: 402

1- احمد إبراهيم الشريف: مكة و المدينة في الجاهلية و عصر الرسول، القاهرة 1965 ص 154 143 - 142، .oriaC, 1942, P. P,

H. A. S niyyazuA, aibarA, dna eht raF tsaE

2- احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 155، جواد علي 3/ 518.

وهكذا فإن نجاح المشروع سوف يحقق للأحباش والروم أهدافهم في بلاد العرب، يحقق للأحباش أهدافهم الدينية بالقضاء على المركز الديني العربي الأساسي وتحويلهم نحو القليس - مكرهين أو راغبين - و يحقق لهم أهدافهم الاقتصادية عن طريق سيطرتهم على الطريق التجاري البري بين جنوب بلاد العرب و شمالها، فضلا عن الفوائد الاقتصادية التي يجنيها الأحباش من تحويل الحجيج من مكة إلى صنعاء، و يحقق للروم أهدافهم عن طريق بسط نفوذهم على بلاد العرب، و القضاء على النفوذ الفارسي فيها، بل و تقديم المساعدة لهم في الوقت المناسب في الصراع القائم بينهم و بين الساسانيين، بل إن «بركوبيوس» ليرى أن «ايراموس» (أبرهة) عند ما بسط نفوذه في العربية الجنوبية، و أمّن ملكه، وعد الإمبراطور «جستينان» ان يغزو الفرس، و أنه قد بدأ مشروعه هذا بالفعل، إلا أنه سرعان ما تردد في تنفيذه بعد ذلك.

ولعل أهم الشواهد التي تؤيد أهداف الحملة السياسية و الاقتصادية ما يرويّه المؤرخون المسلمون أنفسهم من أن أبرهة قد كتب للنجاشي بعد بناء القليس - و قبل تدنيسها - بأنه ليس منته حتى يصرف إليها حج العرب (1) و منها كذلك (ثانيا) حملة أبرهة على «معد» و فرض نفوذه عليها (2)، و هناك من يذهب الى أن هذه خطة كان المراد منها إقامة قيس على معد، ثم تكوين جيش من هؤلاء و أولئك لغزو فارس، و لم يكن أبرهة ذلك الرجل الذي يزهّد في مثل هذه الفرصة، لمد نفوذه على بلاد العرب (3).

ص: 403

1- تاريخ الطبري 2/130، تفسير الطبري (30/193، تفسير القرطبي 2/187-188 (طبعة دار الكتب)، ص 7277 (طبعة الشعب)،

تفسير ابن كثير 8/504 (طبعة الشعب)، البداية و النهاية 1/170، ابن هشام 1/43.

2- جواد علي 3/494-496، 79-277. P. P, 4-3, noesuMeL. 277-79، 496-494/3 علي 3/953، 3/494-496، 79-277. P. P, 4-3.

3- .. 193. P. 12-9, XX, I, suipocorP.

ومنها (ثالثاً) إن الروم إنما كانوا يسعون إلى توحيد القبائل العربية تحت نفوذهم، و من ثم فقد حاولوا من قبل تكوين حلف منهم و من «السميفع أشوع»- ملك اليمن بعد ذي نواس و قبل أبرهة- ضد الفرس (1)، بل إن أوليري» ليرى أن بعض تجار الروم في مكة، إنما كانوا يقومون بأعمال التجسس لحساب بلادهم (2).

[5] مقاومة العرب للحملة

بدأ أبرهة يعدّ العدة لغزو مكة، و هدم البيت الحرام. و من ثم فقد جهز جيشاً ضخماً، و إن كان المؤرخون الإسلاميون قد بالغوا في عدده، حتى ذهب بعضهم إلى أنه كان ما بين 40، 60 ألفاً، و قد اشترك في هذا الجيش من قبائل عرب الجنوب، خولان و الأشعريون و خندف و حميس بن أد (3).

هذا و تذهب المصادر العربية إلى أن العرب حينما سمعت بهذا الأمر عظمتها، و رأوا أن جهاده حقا عليهم، و ذلك لمكانة الكعبة عند العرب، فضلاً عن مكانة مكة نفسها، ذلك لأن المدينة المقدسة، إنما كانت- كما اشرنا من قبل (4)- تتمتع عند القوم بمكانة لا تتناول إليها مكانة بلد آخر في شبه الجزيرة العربية، فمن المعروف أنه رغم وجود «البيوت الحرام» كبيت الأقيصر و بيت ذي الخليفة و بيت نجران، و غيرهما من البيوت

ص: 404

1- 437. E. G. V. M. II, P. II, GVM ni, resalG. E. و كذا. P. 40. I, suipocorP. 40. P, tic- po, lleB, R 180. P, 16- 8, XIX.

2- 184. D. O. ycaL' O. yaeL' P, tic- po, yvaeL' O. ycaL' eD.

3- تفسير القرطبي 193/20، البيهقي: دلائل النبوة 57/1، روح المعاني 234/30، جواد علي 519/3، و كذا. 433، 1965، 3- 4- P

noesuM eL

4- راجع هنا الفصل الخاص بالكعبة المشرفة.

الحرام (1)، فإن واحدا من هذه البيوت لم يجتمع له ما أجمع لبيت مكة، لأن مكة ملتقى القوافل بين الجنوب و الشمال و بين الشرق و الغرب، و كانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، و لمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب، و كانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها، و لم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها (2).

و كانت مكة كذلك عربية لجميع العرب، و لم تكن كسروية و لا قيصرية، و لا تبعية و لا نجاشية، كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب، و لهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها يجدون فيها من يبادلهم و يبادلونه على حكم المنفعة المشتركة، لا على حكم القهر و الإكراه (3).

هذا بالاضافة إلى أن كعبة مكة- دون غيرها من البيوت الحرام- إنما هي من بناء أبيهم إبراهيم و ولده إسماعيل، عليهما السلام، فضلا عن إنها إنما كانت تضم أصناما لكل قبيلة عربية، حتى زاد عدد الأصنام في الكعبة على ثلاثمائة صنم (4)، و أخيرا فإن الكعبة إنما أصبحت آخر الأمر، المفخرة القومية، و الحرام الإلهي عند العرب، ثم غدت بعد حين من الدهر،

ص: 405

-
- 1- ياقوت 1/238، 3/427، 4/394-395، 5/268-269، بلوغ الأرب 1/346-347، 2/202، 207-209، كتاب الأصنام ص 38، البكري 2/603، كتاب المحبر ص 317، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص 493، الروض الأنف 1/66.
 - 2- عباس العقاد، مطلع النور ص 112-113.
 - 3- نفس المرجع السابق ص 113.
 - 4- الازرقى 1/120-121، اليعقوبي 1/254-255، الروض الأنف 2/276، كتاب الأصنام ص 27-28، جوستاف لوبون: حضارة العرب ص 124، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي 1/37 و كذا. P, tic- po, nobbiG, E. 225.

الجوار الوحيد الذي يشعر العرب عنده، بشعور العروبة الموحدة، عالية الرأس، غير مستكينة لأجنبي، كائنا من كان.

ولعل هذا كله إنما كان سببا في أن يرى العرب أن مقاومة حملة أبرهة، إنما هو الواجب المفروض عليهم، ومن ثم فقد تعرض للحملة شريف يماني يدعى «ذونفر»، لم يكتب له النجاح في مهمته، وأخذ اسيرا، والأمر كذلك بالنسبة إلى «نفيل بن حبيب الخثعمي»، وهكذا استمرت الحملة في طريقها، حتى إذا ما وصلت إلى الطائف، تقدم زعيمها «مسعود بن معقب» إلى الطاغية الحبشي، يعلن له الخضوع، ثم بعث معه «أبا زغال» ليدله على الطريق إلى مكة، فأنزله «المغمس» - على مبعدة ثلثي فرسخ من مكة في طريق الطائف - وهناك هلك أبو زغال، ورجمت العرب قبره بعد ذلك (1).

ويصل أبرهة إلى أرباض مكة، ويرسل «الأسود بن مقصود» على فرسانه، فيسوق إليه أموال تهامة من قريش وغيرها، ومن بينها مائتا أو أربعمائة بعير لسيد مكة، عبد المطلب بن هاشم، ثم يبعث برجل من العرب يدعى «حقاطة» يبلغ سيد مكة أن أبرهة لم يأت لقتالهم، وإنما لهدم البيت الحرام، فإن لم يمنعه، فهم في أمان من حربه.

ويلقى رسول أبرهة سيد مكة، ويبلغه رسالة أبرهة، فيقول له عبد المطلب: «والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، وهذا بيت الله الحرام، وبيت إبراهيم خليله عليه السلام، فإن يمنع منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبنيه، فوالله ما عندنا دفع عنه».

ص: 406

1- ابن الأثير 1/ 443-445، تفسير الطبري 30/ 300-301، تفسير القرطبي ص 7278-7279 (طبعة الشعب)، ص 188-189 (طبعة دار الكتب)، تفسير ابن كثير 8/ 504-505 (طبعة الشغب)، تفسير روح المعاني 30/ 234، في ظلال القرآن 8/ 665، مروج الذهب 2/ 53، ياقوت 3/ 53-54، 5/ 161-162، الأزرقى 1/ 141-142.

و تستمر الرواية بعد ذلك، فتذهب إلى أن الرسول إنما أخذ معه عبد المطلب إلى أبرهة، وكان عبد المطلب رجلا عظيما مهيبا وسيما، فنزل أبرهة عن سريره وأجلسه معه، وسأله عن طلبه، فقال عبد المطلب:

الإبل التي ساقها جندك، وهنا يذهب الرواة إلى أن أمر عبد المطلب قد هان في نظر أبرهة، وقال له: «أ تسأل عن البعير، و تترك البيت الذي هو دين أبائك، و دينك من بعدهم»، فقال عبد المطلب: «أنا رب الإبل، و للبيت رب يحميه»، و هنا أمر أبرهة برد إبل عبد المطلب دون غيرها (1)، فأخذها عبد المطلب و قلدها النعال، و ساقها هديا إلى الحرم، و هناك وقف على باب الكعبة يقول:

[يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا]

[إن عدو البيت من عاداكا فامنعهم أن يخربوا قراكا]

[لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك لا يغلبن صليبهم

و محالهم غدرا محالك] و انصر على آل الصليب و عابديه اليوم آلك

(2).

و يعلق الاستاذ العقاد- طيب الله ثراه- على موقف عبد المطلب هذا، بأنه كان موقفا حكيما، يتفق و ما عرف عن صفات هذا السيد العظيم، لا تهور مع القوة الطاغية، و لكن لا خضوع لها، بل وضع لها في موضعها،

ص: 407

1- هناك رواية تذهب إل أن عبد المطلب صحب معه نفاثة بن عدي سيد بكر، و خويلد بن واثلة سيد هذيل، فعرضا على أبرهة ثلث أموال تهامه على أن يرجع و لا يهدم البيت، فرفض (أنظر: الازرقى 1/ 145، روح المعاني 30/ 235، تفسير الطبري 30/ 302)

2- تاريخ الطبري 2/ 133-136، تفسير الطبري 30/ 300-302، الازرقى 1/ 143-145، ابن الأثير 1/ 444، تفسير الفخر الرازي 32/ 96، تفسير روح المعاني 30/ 234-235، في ظلال القرآن 8/ 665-666، مروج الذهب 2/ 104-106، تاريخ اليعقوبي 1/ 252-253، دلائل النبوة 1/ 58-59، ابن هشام 1/ 48-52، ابن سعد 1/ 55-56، تفسير ابن كثير 8/ 504-506، حياة محمد ص 101-102، تفسير القرطبي ص 7279-7282 (طبعة الشعب)، العقاد: مطلع النور ص 121-122، عبد المجيد عابدين المرجع السابق ص 64-65، تاريخ ابن خلدون 2/ 62.

وقول يناسب كل مقام، فإذا خامر الظن أحدا لا يفهم معنى هذه الأنفة التي تأنف من التهور، لما تأنف من الجبن، فهناك الجواب الفعال الذي يغني ما ليس يغنيه المقال: ما سألت عن الإبل لأنني اضن بأثمانها، فإنني قد وهبتها بعد ذلك للبيت، ولكنني سألت عنها لأنها موضع سؤالي، وتركت السؤال عن البيت لأن استجداء الرحمة من أبرهة لبيت الله ينفي الثقة بالبيت وباللّه (1)، فضلا عن أن أبرهة ما كان ليرجع عن عزمه، إن سأله عبد المطلب أن يكف عن البيت، وهو الذي أعد كل ذلك من أجل أن يهدم هذا البيت، ومن ثم فإن طلب عبد المطلب من أبرهة الرحمة بالبيت، طلب لا موضع له، في هذه الظروف، وإزاء كل هذه التجهيزات العسكرية.

وهنا تروي المصادر العربية أن عبد المطلب قد انطلق و من معه من قريش إلى شعاب الجبال، فتحرزوا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكة إذا دخلها، غير أن هناك رواية أخرى- نرجحها ونميل إلى الأخذ بها- تذهب إلى أن عبد المطلب، بعد أن لم يفلح في تعبئة قريش لقتال الأحباش، لم يفارق الكعبة حين تفرقت قريش في شعاب مكة و جبالها خوفا من الغزاة، وإنما أخذ يستعد لمقاومة الغزو بمن أطاعه من قومه، وهو مع ذلك كان دائم الدعاء لربه، ليرد كيد المغير عن بيته الحرام، و من ثم فإن المرض حين تقشى في جيش أبرهة و ارتد عن مكة، علت مكانة عبد المطلب فوق علوها (2). و لعل مما يرجح مقاومة عبد المطلب أن العرب حين سمعت بحملة أبرهة على الكعبة، رأوا جهاده حقا عليهم، و من ثم فقد خرج رجل من أشرف اليمن دعوه «ذو نفر»، فدعا قومه و من أجابه من سائر

ص: 408

1- عباس العقاد: مطلع النور ص 122.

2- ابن هشام (1/49-50)، تاريخ يعقوبي 1/252-253، دلائل النبوة 15/57، المعارف ص 312، الازرقى 1/145، احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص 138.

العرب إلى حرب أبرهة و جهاده، ورغم أن «ذانفر» قد فشل في مهمته، فإنه قد أثبت أن العرب لم يخنعوا لأبرهة، و لم يستكينوا لرغبته في هدم كعبتهم الشريفة، أضف إلى ذلك أن «البيهقي» يذهب إلى أن الأشعريين و خثعم، حينما وصلوا إلى الحرم الشريف كسروا رماحهم و سيوفهم، و برءوا إلى الله تعالى من أن يعينوا على هدم البيت الحرام (1).

[6] نتائج الحملة

منيت حملة أبرهة بفشل ذريع، ذلك لأن إرادة الله أرادت غير ما أراد الطاغية الحبشي، «و أرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول»، و سواء أ كانت هذه الطير الأبابيل، طيرا من البحر رمتهم بحجارة مثل الحمص و العدس، لا تصيب الواحد منهم إلا هلك، أو أنها أشباه اليعاسيب رمتهم بحجارة من سجيل، و هو طين خلط بحجارة خرجت من البحر، أو أنها مثل صغار العصافير السوداء، أو أن المراد بها جراثيم الوباء، أو أنه وباء لا ندري عنه شيئا، فتلك بجيش أبرهة، أو أنه بالتحديد مرض الجدري قد فتك بالجنود و قائدهم، أو أنه الجدري و الحصبة معا (2)، فالنتيجة واحدة لا تتغير

ص: 409

-
- 1- البيهقي: دلائل النبوة 1/ 59، ابن هشام 1/ 45-46، تفسير القرطبي ص 7278، تفسير ابن كثير 8/ 504.
 - 2- ابن هشام 1/ 59 و مروج الذهب 2/ 105، تفسير الفخر الرازي 32/ 96-97، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) 2/ 576-577، تفسير روح المعاني 30/ 235-237، تفسير الطبري 30/ 298-299، 304، تفسير النيسابوري 30/ 165، تفسير القرطبي ص 7282-7283-7286 ص 7290 (طبعة الشعب)، 20/ 196-199 (طبعة دار الكتب)، تفسير في ظلال القرآن 8/ 666-675، تفسير ابن كثير 8/ 507-509، تفسير جزء عم للامام محمد عبده ص 121-122، تفسير البيضاوي 2/ 576، الأزرقى 1/ 146-148، تاريخ الطبري 2/ 136-139، البداية و النهاية 2/ 169، وهب ابن منبه: المرجع السابق ص 303، يوسف احمد: المحمل و الحج ص 77، الرحلة الحجازية ص 129، ابن سعد 1/ 56، حياة محمد ص 102، تاريخ ابن خلدون 2/ 62

بصحة سبب من هذه الأسباب، وعدم صحة آخر، فشل ذريع لحملة ظلوم من طاغية غشوم، أراد بالبيت الحرام سوءا ما بعده سوء، فحمى الله بيته، وأهلك عدوه، حتى أن المراجع تكاد تجمع على أن أبرهة لم يبلغ صنعاء، إلا بعد جهد جهيد، وهناك مات مشيعا بلعنات العرب من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، ومقدما في الوقت نفسه العبرة لكل ظالم جبار تسول له نفسه أن يفكر في الاعتداء على بيت الله الحرام وآله.

وكان من نتائج الحملة أن علت مكانة عبد المطلب الدينية والأدبية علوا كبيرا، حتى كانت قريش تقول بعد ذلك «عبد المطلب إبراهيم الثاني»، كما علت، في الوقت نفسه، مكانة قريش بين القبائل العربية، وقالت العرب عنهم «أهل الله قاتل عنهم كفاهم مؤونة عدوهم» (1).

هذا وقد اشار القرآن الكريم إلى هذا الحادث الجلل في سورة كاملة، هي سورة الفيل، يقول عزّ من قال: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول».

وأخيرا فإن هذا النصر العظيم الذي أعطاه الله للعرب على أبرهة، إنما كان ارهاصا بدعوة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) وشرفه العظيم، فضلا عن دلالة واضحة على شرف البيت الحرام، وحماية الله له من كل ظالم غشوم، وإجابة لدعوة الخليل - عليه الصلاة والسلام - «رب أجعل هذا بلدا آمنا (2)».

ص: 410

-
- 1- ابن هشام 57/1، الازرقى 148/1، تفسير القرطبي 195/20-196، 200
 - 2- سورة البقرة آية 126، وانظر: تفسير الفخر الرازي 97/32، تفسير روح المعاني 233/30، تفسير القرطبي 502/2-505، تفسير ابن كثير 247/1-253، تفسير المنار 383/1-386، تفسير الطبري 44/3-56 (دار المعارف)، تفسير الكشاف 186/1

المؤرخين، فهو عام 552 م على رأي (1)، وهو عام 563 م على رأي آخر (2)، وكلاهما يخالف المعهود من أن الحملة إنما كانت في عام 570 - 571 م، وهو ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به، طبقاً للدراسة التي قام بها «محمود باشا الفلكي» (3)، وأثبت فيها أن مولد المصطفى (صلى الله عليه وسلم) - وقد كان في عام الفيل (4) - إنما كان في يوم الاثنين، التاسع من ربيع الأول، الموافق 20 أبريل من عام 571 م (5).

ص: 412

1- 28-427. noesuMeL. 1965, 3-4 P. P.

2- جواد علي 3/496 و كذا 427. noesuMeL. 1965, 3-4 P.

3- محمود باشا الفلكي: التقويم العربي قبل الاسلام، و تاريخ ميلاد الرسول و هجرته، القاهرة 1969 ص 33-44

4- تفسير القرطبي 20/194-195، تفسير روح المعاني 30/233

5- راجع ما قدمناه هنا في هذه الدراسة من قبل عن الآراء التي دارت حول المولد النبوي الشريف.

[1] كتب الحديث

- 1- القرآن الكريم
- 2- البخارى، الامام ابو عبد الله محمد بن اسماعيل: صحيح البخارى، 25 جزءا دار أحياء الكتب العربية، القاهرة (بدون)
- 3- ابن حنبل، الامام احمد: مسند الامام احمد بن حنبل، المكتب الاسلامي، بيروت (بدون)
- 4- ابو داود، الامام الحافظ السجستاني الازدي: سنن ابي داود، نشر و توزيع محمد علي السيد، حمص، 1388 هـ 1969 م
- 5- ابن ماجه، الحافظ ابي عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه: جزءان، عيسى البابي الحلبي، القاهرة (بدون)
- 6- مسلم، الامام ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، الطبعة الثانية، تحقيق محمد ناصر الدين، بيروت 1392 هـ - 1972 م

[2] كتب التفسير

- 7- الألوسي، السيد محمد شكري: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، بيروت (بدون)
- 8- البيضاوي، ابو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد: أنوار التنزيل و أسرار التأويل، دار صادر، بيروت (بدون)
- 9- لخازن، ابي محمد الحسين الفراء البغوي: لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت (بدون)

10- الرازي، الفخر: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران (بدون)

11- الزمخشري، الامام جار الله محمود بن عمر: الكشف على حقائق التنزيل و عيون الاقاويل في وجوه التأويل، بيروت (بدون)

12- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر: الدرر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت (بدون)

13- الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار المعرفة، بيروت 1392 هـ

14- القرطبي، ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري: الجامع لأحكام القرآن، 20 جزءا الطبعة الثالثة، دار الكاتب العربي، القاهرة 1387 هـ 1967

15- قطب، سيد: في ظلال القرآن، الطبعة الثانية، دار احياء الكتب العربية، القاهرة (بدون)

16- ابن كثير، اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، مطبعة الاستقامة، القاهرة 1373 هـ 1954 م

17- المنار، دار المنار: تفسير القرآن الحكيم، الطبعة الرابعة، دار المنار، القاهرة 1373 هـ

18- النسفي، ابو البركات عبد الله بن احمد بن محمود: مدارك التنزيل و حقائق التأويل، المكتبة الأموية، بيروت (بدون)

19- النيسابوري، نظام الدين بن محمد بن حسين القمي: غرائب القرآن و رغائب الفرقان، الطبعة الاولى، بولاق مصر 1323 هـ

20- الكتاب المقدس: العهد القديم و العهد الجديد، دار الكتاب المقدس، القاهرة 1969

- 21- ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي الشيباني: الكامل في التاريخ- الجزء الأول و الثاني - بيروت 1965
- 22- ابن العبري، ابو الفرج جريجورس بن هارون: تاريخ مختصر الدول، بيروت 1958
- 23- ابن الكلبي، ابو المنذر هشام بن محمد: كتاب الأصنام، القاهرة 1965
- 24- ابن النديم، ابو الفرج محمد بن اسحاق: كتاب الفهرست، القاهرة 1348 هـ
- 25- ابن بكار، الزبير: جمهرة نسب قريش، القاهرة 1381 هـ
- 26- ابن بلهيد، محمد بن عبد الله: صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار- خمسة أجزاء، القاهرة 51-1953
- 27- ابن تيمية، احمد بن عبد الحلیم: مقدمة في أصول التفسير، دمشق 1936
- 28- ابن تيمية، احمد بن عبد الحلیم: اقتضاء الصراط المستقيم، القاهرة 1950
- 29- ابن تيمية، احمد بن عبد الحلیم: مجموع فتاوى ابن تيمية، الرياض 82-1383 هـ
- 30- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: الموضوعات، القاهرة 1386 هـ
- 31- ابن حبيب، ابو جعفر محمد: كتاب المحجّر، حيدرآباد 1942
- 32- ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي: فتح الباري بشرح البخاري، القاهرة 1380 هـ
- 33- ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي: الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف، القاهرة 1354 هـ

- 34- ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي: لسان الميزان، حيدرآباد 1329 هـ
- 35- ابن حزم، ابو محمد علي بن احمد: جمهرة أنساب العرب، القاهرة 1962
- 36- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون- الجزء الثاني، بيروت 1965
- 37- ابن دريد، ابو بكر محمد بن الحسن: الاشتقاق- جزءان، القاهرة 1958
- 38- ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر: الأعلام النفيسة، ليدن 1892
- 39- ابن سعد، ابو عبد الله محمد بن سعد: الطبقات الكبرى- الجزء الأول، القاهرة 1968
- 40- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: جامع بيان العلم وفضله، القاهرة (بدون)
- 41- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: الاستيعاب في اسماء الأصحاب، القاهرة 1939
- 42- ابن عبد ربه، ابو عمر احمد بن محمد الاندلسي: العقد الفريد، القاهرة 1953
- 43- ابن عبد الوهاب، الامام محمد: مختصر زاد المعاد، بيروت 1391 هـ
- 44- ابن عراق، علي بن محمد: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، القاهرة (بدون)
- 45- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن سالم: المعارف، القاهرة 1934
- 46- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن سالم: تأويل مشكل القرآن،

- 47- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن سالم: الشعر و الشعراء (جزءان)، القاهرة 1964
- 48- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن سالم: عيون الأخبار، القاهرة 1963
- 49- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن سالم: تأويل مختلف الحديث، القاهرة 1966
- 50- ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل: البداية و النهاية في التاريخ- الجزء الاول و الثاني، الرياض 1966.
- 51- ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل: فضائل القرآن، بيروت 1966
- 52- ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء، اسماعيل: قصص الأنبياء- الجزء الاول و الثاني، القاهرة 1968
- 53- ابن منبه، وهب: كتاب التيجان في ملوك حمير، حيدرآباد، 1347 هـ
- 54- ابن منظور، ابو الفضل محمد عبد الملك: لسان العرب، بيروت 1965
- 55- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك: سيرة النبي (صلى الله عليه و سلم)، القاهرة 1955
- 56- أبو ريه، محمود: أضواء على السنة المحمدية، القاهرة 1960
- 57- أبو زهرة، محمد: المعجزة الكبرى: القرآن، القاهرة 1970
- 58- ابو شهبة، محمد محمد: دفاع عن السنة، القاهرة 1967
- 59- ابو العلاء، محمود طه: جغرافية شبه الجزيرة العربية (الجزء الثالث و الرابع)، القاهرة 1972
- 60- ابو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل: المختصر في أخبار البشر، القاهرة 1325 هـ
- 61- الارياضي، مطهر علي، في تاريخ اليمن، القاهرة 1973

- 62- الأزرقى، ابو اليد محمد بن عبد الله: أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار- (جزءان) بيروت 1969
- 63- الأسد، ناصر الدين (دكتور): مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، القاهرة 1966
- 64- الاصفهاني، حمزة: تاريخ سني ملوك الارض و الأنبياء، برلين 1340 هـ
- 65- الألوسى، السيد محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، (3 أجزاء)، القاهرة 24- 1925
- 66- الأنصاري، عبد الرحمن (دكتور): لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية، الرياض 1969
- 67- الأنصاري، عبد الرحمن (دكتور): لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية، الرياض 1975
- 68- الباقوري، احمد حسن: مع القرآن، القاهرة 1970
- 69- البتونى، محمد لبيب: الرحلة الحجازية، القاهرة 1329 هـ
- 70- البغدادي، ابو بكر احمد بن علي: تقييد العلم، دمشق 1949
- 71- البكري، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز: معجم ما استعجم من اسماء البلاد و المواضع، (أربعة أجزاء)، القاهرة 45- 1951
- 72- البلاذري، احمد بن يحيى: كتاب فتوح البلدان (3 أجزاء)، القاهرة 56- 1957
- 73- البلاذري، احمد بن يحيى: أنساب الأشراف، القاهرة 1959.
- 74- البوطى، محمد سعيد رمضان (دكتور): من روائع القرآن، دمشق 1972
- 75- البيهقي، ابو بكر احمد بن الحسين: دلائل النبوة- الجزء الأول، القاهرة 1970

- 76- الجاحظ، ابو عثمان عمر بن بحر: البيان و التبيين، القاهرة 1948
- 77- الجارم، محمد نعمان: أديان العرب في الجاهلية، القاهرة 1923
- 78- الجبوري، ابو اليقظان عطية: مباحث في تدوين السنة المطهرة، القاهرة 1972
- 79- الحربي، ابو اسحاق إبراهيم: كتاب المناسك و أماكن طرق الحج و معالم الجزيرة، الرياض 1969
- 79- الجمحي، محمد بن سلام: طبقات فحول الشعراء، القاهرة 1952
- 80- الحربي، ابو اسحاق إبراهيم: كتاب المناسك و أماكن طرق الحج و معالم الجزيرة، الرياض 1969
- 81- الحيمي، الحسن بن احمد: سيرة الحبشة، القاهرة 1958
- 82- الخربوطلي، علي حسني (دكتور): الكعبة على مر العصور، القاهرة 1967
- 83- الخطيب، عبد الكريم: القصص القرآني، القاهرة 1964
- 84- الخطيب، محب الدين و آخرون: دفاع عن الحديث النبوي، القاهرة 1958
- 85- الديار بكري، حسين بن محمد الحسن: تاريخ الخميس، القاهرة 1302 هـ
- 86- الدميري، كمال الدين: حياة الحيوان الكبرى- طبعة صبيح، القاهرة (بدون)
- 87- الدينوري، ابو حنيفة احمد بن داود، الأخبار الطوال، القاهرة 1960
- 88- الذهبي، محمد بن احمد: ميزان الاعتدال، القاهرة (بدون)

- 89- الذهبي، محمد ابن احمد: تذكرة الحفاظ، حيدرآباد 1956
- 90- الذهبي، محمد بن احمد: سير أعلام النبلاء، القاهرة 1955
- 91- الذهبي، محمد السيد حسين: التفسير و المفسرون، القاهرة 1961
- 92- الذهبي، محمد السيد حسين: الإسرائيليات في التفسير و الحديث، القاهرة 1971
- 93- الزبيدي، ابو الفيض مرتضى بن محمد: تاج العروس، الكويت (بدون)
- 94- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، القاهرة 1957
- 95- الزنجاني، ابو عبد الله: تاريخ القرآن، القاهرة 1935
- 96- السباعي، مصطفى: السنة و مكانتها في التشريع الاسلامي، القاهرة 1961
- 97- السجستاني، ابو بكر عبد الله بن ابي داود: كتاب المصاحف- نشره آرثر جفري، القاهرة 1936
- 98- السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله: الروض الآنف، القاهرة 1971
- 99- السمهودي، نور الدين علي بن جمال الدين: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (صلى الله عليه و سلم)، (جزءان)، القاهرة 1326 هـ
- 100- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر: المزهري في علوم اللغة، القاهرة 1942
- 101- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر: الاتقان في علوم القرآن (جزءان)، القاهرة 1278 هـ
- 102- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين، القاهرة 1351 هـ

- 103- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تحذير الخواص من اكاذيب القصاص، القاهرة 1972
- 104- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: اللآلئ المصنوعة من الأحاديث الموضوعة، القاهرة (بدون)
- 105- الشافعي، عثمان بن أبي نصر: علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح، القاهرة 1326 هـ
- 106- الشرقاوي، محمود: الأنبياء في القرآن، القاهرة 1970
- 107- الشريف، احمد إبراهيم (دكتور): مكة و المدينة في الجاهلية و عصر الرسول، القاهرة 1965
- 108- الصابوني محمد علي: التبيان في علوم القرآن، بيروت 1970
- 109- الصالح، صبحي (دكتور): مباحث في علوم القرآن، دمشق 1962
- 110- الصباغ، محمد: الحديث النبوي، بيروت 1972
- 111- الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل و الملوك- الجزء الأول، القاهرة 1967
- 112- الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل و الملوك- الجزء الثاني، القاهرة 1968
- 113- العظم، نزيه مؤيد: رحلة في بلاد العرب السعيدة (جزءان)، القاهرة 1938
- 114- العقاد، عباس محمود: إبراهيم ابو الأنبياء، القاهرة (بدون)
- 115- العقاد، عباس محمود: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان و العبريين، القاهرة 1960
- 116- العقاد، عباس محمود: مطلع النور، القاهرة 1968
- 117- العقاد، عباس محمود: الاسلام دعوة عالمية، القاهرة 1970
- 118- العلمي، عبد الله: تفسير سورة يوسف (جزءان)، بيروت 1970

- 119- الفاسي، تقي الدين محمد بن احمد: شفا الغرام بأخبار البلد الحرام (جزءان)، القاهرة 1956
- 120- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين- الجزء الأول القاهرة 1959.
- 121- القاسمي، محمد جمال الدين: قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، القاهرة 1925
- 122- القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القاهرة 1959
- 123- المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب و معادن الجواهر، بيروت 1973
- 124- المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين: التنبيه و الاشراف، القاهرة 1968
- 125- المقدسي، المطهر بن طاهر: كتاب البدء و التاريخ، (الجزء الثالث و الرابع)، 1903-1907
- 126- الميداني، ابو الفضل احمد بن محمد: مجمع الأمثال، (جزءان) القاهرة 1955
- 127- الناضوري، رشيد (دكتور): المدخل الى الفكر الديني، بيروت 1969
- 128- النجار، عبد الوهاب: قصص الأنبياء، القاهرة 1966
- 129- النووي، يحيى بن شرف: تهذيب الأسماء و اللغات، القاهرة (بدون)
- 130- النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة 1943
- 131- النيسابوري، ابو عبد الله محمد بن عبد الله: معرفة علوم الحديث، بيروت (بدون)

- 132- الهمداني، ابو محمد الحسن بن احمد: صفة جزيرة العرب، القاهرة 1953
- 133- الهمداني، ابو محمد الحسن بن احمد: كتاب الإكليل - الجزء الأول، القاهرة 1963
- 134- الهمداني، ابو محمد الحسن بن احمد: كتاب الإكليل - الجزء الثامن، القاهرة 1966
- 135- الهيثمي، علي بن ابي بكر: مجمع الزوائد، القاهرة 1352 هـ
- 136- اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب: تاريخ اليعقوبي - الجزء الأول، بيروت 1960
- 137- إبراهيم، حسن (دكتور): تاريخ الاسلام السياسي - الجزء الاول - القاهرة 1966
- 138- احمد، يوسف: الاسلام في الحبشة، القاهرة 1935
- 139- أمين، احمد: فجر الاسلام، بيروت 1969
- 140- جاد المولى، محمد احمد وآخرون: قصص القرآن، القاهرة 1969
- 141- جاء المولى، محمد احمد وآخرون: أيام العرب في الجاهلية، القاهرة 1942
- 142- جرجس، صبري (دكتور): التراث اليهودي الصهيوني، القاهرة 1970
- 143- حسين، طه (دكتور): في الأدب الجاهلي، القاهرة 1933
- 144- خلف الله، محمد احمد: الفن القصصي في القرآن الكريم، القاهرة 1953
- 145- خليفة، حاجي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استنبول 1321 هـ

- 146- دراز، محمد عبد الله (دكتور): النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، الكويت 1970
- 147- دراز، محمد عبد الله (دكتور): المدخل الى القرآن الكريم، الكويت 1974
- 148- رضا، محمد رشيد: تفسير سورة يوسف، القاهرة 1936
- 149- سالم، السيد عبد العزيز (دكتور): دراسات في تاريخ العرب- الجزء الأول، الاسكندرية 1967
- 150- سعيد، حبيب: المدخل الى الكتاب المقدس، القاهرة (بدون)
- 151- شاهين، عبد الصبور (دكتور): تاريخ القرآن، القاهرة 1966
- 152- شحاتة، عبد الفتاح (دكتور): تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الاسلام- الجزء الثاني، القاهرة 1960
- 153- شرف الدين، احمد حسين: اللغة العربية في عصور ما قبل الاسلام، القاهرة 1975
- 154- ظاظا، حسن (دكتور): الساميون ولغاتهم، الاسكندرية 1970
- 155- عابدين، عبد المجيد: الحبشة و العرب- دار الفكر، القاهرة (بدون)
- 156- عبده، الامام محمد: تفسير جزء عم، القاهرة 1957
- 157- علي، جواد (دكتور): المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (عشرة أجزاء) بيروت 68- 1971
- 158- فخري، احمد (دكتور): اليمن ماضيها و حاضرها، القاهرة 1959
- 159- فخري، احمد (دكتور): دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة 1963
- 160- فروخ، عمر (دكتور): تاريخ الجاهلية، بيروت 1964

161- فودة، عبد الرحيم: من معاني القرآن، القاهرة (بدون)

162- قاموس الكتاب المقدس - الجزء الأول، بيروت 1964

163- قاموس الكتاب المقدس - الجزء الثاني، بيروت 1967

164- مسعد، مصطفى محمد (دكتور): الاسلام و النوبة في العصور الوسطى، القاهرة 1960

165- مقدمتان في علوم القرآن (مقدمة كتاب المباني و مقدمة ابن عطية)، صححه و نشره الدكتور آرثر جفري، القاهرة 1954

166- مهران، محمد بيومي (دكتور): دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم - الجزء الثاني - اسرائيل - القاهرة 1973

167- مهران - محمد بيومي (دكتور): دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم - الجزء الثالث - حركات التحرير في مصر القديمة، الاسكندرية 1975

168- نافع، محمد مبروك، عصر ما قبل الاسلام، القاهرة 1952

169- نعناعة، رمزي (دكتور): الاسرائيليات و أثرها في كتب التفسير، بيروت 1970

170- هيكل، محمد حسين (دكتور): حياة محمد (صلى الله عليه و سلم)، القاهرة 1965

171- هيكل، محمد حسين (دكتور): الصديق ابوبكر، القاهرة 1964

172- ولفنسون، اسرائيل (دكتور): تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة 1927

173- ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله: معجم البلدان (خمسة أجزاء) بيروت 55- 1957

174- بلاشير، ريجيس: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، ترجمة الدكتور إبراهيم كيلاني، بيروت 1956

175- تارن، و. و.: الاسكندر الأكبر، ترجمة زكي علي، القاهرة 1963

- 176- جولد تسيهر، اجنتس: المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن، ترجمة علي حسن عبد القادر، القاهرة 1958
- 177- جولد تسيهر، اجنتس: العقيدة والشريعة في الاسلام، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى، القاهرة (بدون)
- 178- جيون، ادوارد: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي ابوريدة القاهرة 1969.
- 179- حتى، فيليب: تاريخ العرب- الجزء الاول، ترجمة ادوارد جرجي، جبرائيل جبور، بيروت 1965
- 180- حوراني، جورج فضلو: العرب و الملاحة في المحيط الهندي، ترجمه وزاد عليه الدكتور فؤاد حسنين، القاهرة 1958
- 181- دائرة المعارف الاسلامية، دار الشعب، القاهرة 1969
- 182- ديسو، رينيه: العرب في سورية قبل الاسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، القاهرة 1959
- 183- ديمومبين، ج: النظم الاسلامية، ترجمة الشماع و السامر، بغداد 1952
- 184- ديورانت، ول: قصة الحضارة- الجزء الثاني- ترجمة محمد بدران، القاهرة 1961
- 185- سديو، لويس اميل: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتير، بيروت 1948
- 186- فنسك، ا. ي.: مفتاح كنوز السنة، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة 1934
- 187- فنسك، آ. ي. و آخرون: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ليدن 36- 1937
- 188- لويون، جوستاف: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتير، القاهرة 1948

189- ماير، ف. ب.: حياة إبراهيم- ترجمة القس مرقص داود، القاهرة 1960

190- موسكاتي، سبتيو: الحضارات السامية القديمة، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر، القاهرة 1958

191- موسل، الويس: شمال الحجاز، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني، الاسكندرية 1952

192- بن نبي، مالك: الظاهرة القرآنية، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، بيروت 1961

193- نسلن، ديتلف و آخرون: التاريخ العربي القديم، ترجمه وزاد عليه الدكتور فؤاد حسنين، القاهرة 1958

ص: 427

- 1- بلتاجي، محمد (دكتور): التفسير البياني للقصص القرآني - مجلة كلية الشريعة- العدد السادس، الرياض 1975
 - 2- الدسوقي، خالد (دكتور): قوم ثمود: بين روايات المؤرخين و محتويات النقوش - مجلة كلية اللغة العربية- العدد السادس الرياض 1976
 - 3- مهران، محمد بيومي (دكتور): قصة أرض الميعاد بين الحقيقة و الاسطورة (1)- مجلة الأسطول- العدد 66، الاسكندرية 1971
 - 4- مهران، محمد بيومي (دكتور): قصة أرض الميعاد بين الحقيقة و الاسطورة (2)- مجلة الاسطول- العدد 67، الاسكندرية 1971
 - 5- مهران، محمد بيومي (دكتور): الساميون و الآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي- مجلة كلية اللغة العربية، العدد الرابع، الرياض 1974
 - 6- مهران، محمد بيومي (دكتور): قصة الطوفان بين الآثار و الكتب المقدسة- مجلة كلية اللغة العربية، العدد الخامس، الرياض 1975
 - 7- مهران، محمد بيومي (دكتور): العرب و علاقاتهم الدولية في العصور القديمة- مجلة كلية اللغة العربية- العدد السادس، الرياض 1976
- ص: 428

Abbreviations

- .ANET→Ancient Near Eastern Texts
- .EASOR→Bulletin of the American Schools of Oriental Research
- .BSOAS→Bulletin of the Schools of Oriental and African Studies
- .CAH→The Cambridge Ancient History
- .CHI→The Cambridge History of Islam
- .CIS→Corpus Inscriptionum Semiticarum
- DB→Dictionary of The Bible
- .EB→Encyclopaedia Biblica
- .ERE→Encyclopaedia of Religion and Ethics
- .EI→Encyclopaedia of Islam
- .GJ→Geographical Journal
- .JA→Journal Asiatique
- .JE→The Jewish Encyclopaedia
- .JNES→Journal of Near Eastern Studies
- .JRAS→Journal of the Royal Asiatic Society
- .JRGS→Journal of the Royal Geographical Society
- .MET→The Middle East Journal
- .PSBA→Proceedings of the Society of Biblical Archaeology
- .UJE→The Universal Jewish Encyclopaedia
- .ZDMG→Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft

- .Albright, W.F., The Bible and the Ancient Near East, London, 1961 .1
- .Andrae, T., Mahomet, Sa Vie et Sa Doctrine, Paris, 1945 .2
- .Altheim, F., and Stiehl, R., Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964 .3
- .Altheim, F., and Stiehl, R., Araber und Sasaniden, Berlin, 1954 .4
- .Amer, M., The Ancient Irans Peninsular Routes of Arabia, le Caire, 1926 .5
- .Beeston, A.F.L., Epigraphic South Arabian Calendars and Dating, London, 1956 .6
- .Bell, R., The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926 .7
- .Blachère, R., Introduction Au Coran, Paris, 1959 .8
- .Blachère, R., Le Probleme de Mahomet, Paris, 1952 .9
- .Branden, A. Vanden, Les textes Thamoudeens de Philby, Lou vain, 1956 .10
- .Branden, A. Van den, Histoire de Thamoud .11
- .Branden, A. Van den, Les Inscriptions Thamoudeens, Lou vain, 1950 .12
- .Budge, E.A.W., A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, I, London, 1938 .13
- .Bury, J.B. A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912 .14
- .Bury, J.B., A History of the Later Roman Empire, 2 Vols., London, 1931 .15
- .Caetnani L., Studi di Storia Orientale, Milano, 1911 .16
- .Caussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabe's avant l'Isla mismo, I, Paris, 1847 .17
- .Clark, J.D., The Prehistoric Culture of the Horn of Africa .18
- .Cooke, G.A., A TextBook of North Semitic Inscriptions, Oxford, 1907 .19

- .Conti Rossini, C., Storia d'Etiopia, I, Milan, 1928 .20
- .Doughty, C.M., Travels in Arabia Desert, 2 Vols. N.Y., 1946 .21
- .Drewes, A.J., Inscriptions de l'Ethiopie Antique, 1961 .22
- .Dussaud, R., la Penetrations des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955 .23
- .Epstein, I., Judaism, Penguin Books, 1970 .24
- .Fleisch, H., Introduction a l'é tude des Langues Semitiques, Paris, 1947 .25
- Finegan, J., Light from the Ancient Past, the Archaeological Background of Judaism and Christianitu, I, .26
 .Princeton, 1969
- .Forster, C., The Historical Geography of Arabia, 2 vols.,London .27
- .Gardiner, A.H., Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964 .28
- .Gibbon, E., The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1950 .29
- .Jeffery Arthur, Materials for the History of the Text of the Qur'an, Leiden, 1937 .30
- .Goitein S.D., Jews and Arabes, N.Y., 1955 .31
- .Glaser, E., Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895 .32
- .Glaser E., Zwein Inschriftten uber de nDambruch von Marib, 1897 .33
- .Grohmann, A., Arabien, Munchen, 1963 .34
- .Grohmann, A., alArab, in Encyclopaedia of Islam, New edition .35
- .Guillaume, A., Prophecy and Divination among the Hebreuws and other Semites, London, 1938 .36
- .Guillaume, A., Islam, Penguin Books, 1964 .37
- .Hastings, J., Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936 .38
- .Hastings, J., Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh, 19081921 .39

.Hardings, G., Some Thamudic Inscriptions from the Hashmite Kingdom, Leiden, 1952 .40

.Hill, G.F., Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia, and Persia, London, 1922 .41

.Hitti, P.K., History of the Arabs, London, 1960 .42

.Hogarth, D.G., A History of Arabia, Oxford, 1922 .43

.Hogarth, D.G., The Penetration of Arabia, London, 1922 .44

ص: 431

- .Hommel, F., Grundriss der Geographie und Geschichte des Alten Orients. Munchen, 1926 .45
- .Hommel. F.. Explorations in Arabia. Philadelphia. 1903 .46
- .Hornell. J.. SeaTrade in Early Times, in Antiquity, 15, 1941 .47
- .Huart, une Nouvelle Source du Koran, 1904 .48
- .Hunt, G., Himyaric Inscriptions of Hism Ghurab. 1848 .49
- .Huzayyin, S.A.. Arabia and the Far East, Cairo, 1942 .50
- .Jamme. A., Sabaean Inscriptions from Mahram Bilgris (Marib). Baltimore, 1962 .51
- .Jamme, A., Thamudic Studies, Washington D.C., 1967 .52
- .Jamme A. . New Sabaean Inscriptions from South Arabia, 1968 .53
- .Jamme A., South Arabia Inscriptions. Princeton. 1955 .54
- .Jaussen. A.J. and Savignac, R., Mission Archeologique en Arabie, 4 Vols., 1904, 1920 .55
- .Jones, A.H.M.. and Monroe. E.. A History of Abyssinia, Oxford, 1935 .56
- .Kammerer, (A., La Mer Rouge. L'Abyssinie et L'Arabie depuis l'Antiquité , Le Caire, 1929 .57
- .Keller, W.. The Bible As History. (Hodder and Stoughton). 1967 .58
- .Kenyon, K.M., Archaeology in The Holy Land, London, 1970 .59
- .Lammens, P., L'Islam, Croyances et Institutions, Beyrouth, 1926 .60
- .Littmann, E., Thamud und Safa. Leipzeg, 1940 .61
- .Leblois, le Koran et la Bible Hebraique, Paris, 1887 .62
- .Lods, A., Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eight Century, London, 1962 .63
- .Margoliouth, D.S., The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, London, 1924 .64
- .Masse, L'Islam, Paris, 1937 .65

- .Montgomery, J.A., Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934 .66
- .Moritz, B., Arabien, Hanover, 1923 .67
- .Moscatti, S., Ancient Semitic Civilizations, London, 1957 .68
- .Muir, W., The Life of Muhammad, and History of Islam, Edin burgh, 1923 .69
- .Musil, A., The Northern Hegas, N.Y., 1926 .70
- Musil, A., The Northern Nejd, N.Y., 1928 .71

- .Musil, A., In the Arabian Desert, N.Y, 1930 .72
- .Musil, A., Arabia Petraea, Wien, 1907 .73
- .Nielsen D., Handbuch der Altarabischen Altertumskunde, Hamburg, 1927 .74
- .Nöldeke, T., Geschichte des Qurans, Gottingen, 1860, 1961 .75
- .Noth. M., The History of Israel, London, 1965 .76
- .Oeasterly, W. o.E., and Robinson, T.H., A History of Israel, 2 Vols., Oxford, 1932 .77
- .O'Leary, De Lacy. D.D., Arabia Before Muhammad, London, 1927 .78
- .Olmeasted, A.T., Weastern Asia in the days of Sargon of Assyria, 1908 .79
- .Peters, C., The El dorado of The Ancient .80
- .Philby, H.St. J.B., The Heart of Arabia, 2 Vols., London, 1922 .81
- Philby, H.St.J.B., The Empty Quarter, N. Y., 1933 .82
- .Philby, H. St. J.B., Arabian Highlands N. Y., 1952 .83
- .Philby, H. St.J.B., Sheba's Daughters, London, 1939 .84
- .Philby, H.St. J.B., The Background of Islam, Alexandria, 1947 .85
- .Pirenne, J., la Decouverte de l'Arabie, Paris, 1958 .86
- .Pirenne, J., le Royaume, Sud Arabe de Qataban et sa datation, Louvain, 1961 .87
- .Pliny, Natural History, Trans by H. Rackham, London, 1949 .88
- .Ptolemy, Geographie, Edited by C.F. Nobbe, 3 Vols, Leipzig, 18431845 .89
- .Roth. C., Ashort History of the Jewish People, London, 1969 .90
- .Roux, G. Ancient Iraq, Penguin Books, 1966 .91
- .Ryckmans, G., Publication of the Inscriptions, III, 1951 .92

.Ryckmans, J., L'Institution Monarchique en Arabie Meridionale avant l'Islam, Louvain, 1951 .93

.Sale, G., Observations Historiques et Critiques sur le Mahometisme .94

.Schoff, W.. The Periplus of the Erythraean Sea, London, 1912 .95

.Schwally. 'Geschichte des Quran, 2, 1938 .96

.Scott. H., In the High Yemen, London, 1947 .97

.Shahid 1 Pre Islamic Arabia, in CHI, I, Cambridge, 1970 .98

.Sprenger, A.. Das Leben und die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861 .99

ص: 433

- .Sprenger, A. . Cité Par Huart, une Nouvelle Source du Koran .100
- .Sprenger, A., Die Alte Geographie Arabiens, Berlin, 1875 .101
- .Sprengling, M., The Alphabet, its Rise and Development from The Sinai Inscriptions, Chicago, 1931 .102
- Starcky, J., Palmyré niens, Nabaté ens et Arabes du Nord avant L'Islam, en Histoire des Religions, . 103
.4,1956
- . Strabo, Georgraphy, Trans. by H.L. Jones, London, 1949 .104
- .Tisdall, S., The Sources of the Koran .105
- .Thomas, B., Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Ara bia, N. Y., 1932 .106
- .Unger, M.F., Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970 .107
- .Vincent, W., The Periplus of the Erythraean Sea, London, 1805 .108
- .Watt, W.M., Muhammad at Mecca, Oxford, 1953 .109
- Wilson, A., The Persian Gulf, London, 1928 .110
- .Wilson, J.A., The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963 .111
- Wissmann, H.Von., and Hofner, M., Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen . 112
.Sü darabien, Wiesbaden, 1953
- .Woolley, L., Excavations at Ur, London, 1963 .113
- .Woolley, L., The Beginnings of Civilization, N. Y., 1965 .114
- Encyclopaedia Biblica .115
- Encyclopaedia of Islam .116
- The Jewish Encyclopaedia .117
- Corpus Inscriptionum Semiticarum .118

- 1 . Albright, (W.F.). The Chronology of Ancient South Arabia, in The Light of The First Campaign of .xcavation in Qataban, in BASOR, 119, 1950
- 2 . Albright, (W.F.), Anote on Early Sabaean Chronology, in BASOR, 143, 1956
- 3 . Beeston, (A.F.L.), Notes on the Muraighan Inscriptions, in BSOAS, 1954
- 4 . Beeston, (A.F.L.), Problems of Sabaean Chronology, in BSOAS, 16, 1954
- 5 . Branden, (A. Van den), Essai de Solution du Problè me Thamoudeens, BIOR, 15, 1958
- 6 . Branden, (A. Van den), une Inscriptions Thamoudeens, le museon, LXIII, 1950
- 7 . Cornwall, (P.B.), Ancient Arabia, in GJ, CVii, 1946
- 8 . Grohmann, (A.), The Problem of dating early Quraans, der Islam, 33, 1958
- 9 . Halvey, (J.), Rapport sur une Mission Arché ologique dans le Yemen, JA, VI, Paris, 1872
- 10 . Hamilton, (R.), Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, GJ, 101, 1943
- 11 . Kensdale, (E.N.), Three Thamudic Inscriptions from The Nile Delta, le museon, 65, 1952
- 12 . Lammens, (P.), L'Age de Mahomet et la Chronologie de la Sira, JA, 17, 1911
- 13 . Lyall, (C.), The Word Hanif and Muslim, JRAS, 1903
- 14 . Macalister, (R.A.S.), The Topography of Jerusalem, in CAH, 111, 1965
- 15 . Malamat, (A.), The Last Wars of the Kingdom of Judah, JNES, 9, 1950
- 16 . Oppenheim, (A.L.), Babylonian and Assyrian Texts, ANET, 1966
- 17 . Philby, (H.St. J.B.), Note on the Last Kings of Saba, le museon, LXIII, 1950
- 18 . Philby, (H. St.J.B.), The Land of Midian, MEJ, 9, 1955

- .Philby, (H.St. J.B.), South Arabian Chronology, le Museon, LXII, 1949 .19
- .Philby, (H.St. J.B.), The Land of Sheba, GJ, 92, 1938 .20
- .Philby, (J.B.), and Tritton, (A.S.), Najran Inscriptions, JRAS, 1944 .21
- .Ryckmans, (G.), Inscriptions Sud Arabes, le Museon, XII, 1942 .22
- .Ryckmans, (G.), on Some Problems of South Arabian Epigraphy, BSOAS, 1952 .23
- .Ryckmans, (J.), Aspects Nouveaux du Problème Thamoudéens, Studia Islamica, S, 1956 .24
- .Smith, (S.), Events in Arabia in the 6th Century A.D., BSOAS, 1954 .25
- .Tarn (W. W.), Ptolemy II and Arabia, in JEA, IS, 1929 .26

الموضوع رقم الصفحة

تقديم 5

الفصل الأول القرآن الكريم 17

(1) التدوين في عهد النبي 19

(2) جمع القرآن في عهد أبي بكر 26

(3) مصحف عثمان 32

(4) القرآن كمصدر تاريخي 38

(5) القصص القرآني والتوراة 47

(6) مقارنة بين القصص القرآني وروايات التوراة 55

الفصل الثاني الحديث 89

الفصل الثالث التفسير 99

الفصل الرابع إبراهيم الخليل جد العرب 113

(1) مولد الخليل عليه السلام 116

(2) موطن الخليل وعصره 121

(3) هجرته 127

ص: 437

- (4) رحلة الخليل الى الحجاز 138
- (5) اسكان اسماعيل الحجاز 156
- (6) قصة الذبيح 159
- (أ) وجهة النظر اليهودية و المسيحية 161
- (ب) وجهة النظر الاسلامية 170
- (ج) قصة الذبيح و التضحية البشرية 177
- الفصل الخامس الكعبة الشريفة 181
- (1) بناء الكعبة 183
- (2) الكعبة بعد إبراهيم و اسماعيل 197
- (3) محاولات هدم الكعبة 211
- (4) الكعبة قبيل الاسلام 221
- الفصل السادس العاديون قوم هود 237
- (1) العاديون و العرب البائدة 239
- (2) قصة عاد في القرآن الكريم 241
- (3) قصة عاد و محاولة ربطها بالتوراة 243
- (4) موقع منطقة عاد 246
- (5) مبالغات عن العاديين 249
- (6) هود عليه السلام 256
- (7) عصر قوم هود 259
- الفصل السابع الثموديون (قوم صالح) 263
- (1) أصل الثموديين 265

(2) ثمود في الكتابات القديمة 268

(3) ثمود في القرآن الكريم 277

ص: 438

(4) عصر قوم صالح عليه السلام 280

(5) النقوش الثمودية 282

(6) المجتمع الثمودي 286

الفصل الثامن المديانيون (قوم شعيب) 289

(1) قصة مدين في القرآن الكريم 291

(2) موطن المديانيين 297

(3) عصر المديانيين 301

(4) المديانيون و بنو اسرائيل 303

الفصل التاسع سيل العرم 309

(1) القصة في القرآن الكريم 311

(2) القصة في الروايات العربية 312

(3) السدود في بلاد العرب 323

(4) سد مأرب 329

(5) وصف السد 333

(6) تهدم السد 336

(7) سيل العرم و الهجرات اليمنية 347

الفصل العاشر قصة أصحاب الأخدود 353

(1) القصة في المصادر العربية 355

(2) القصة في المصادر المسيحية و اليونانية 367

(3) الاحتلال الحبشي و علاقته بقصة الأخدود 369

الفصل الحادي عشر قصة أصحاب الفيل 389

(1) توطيد النفوذ الحبشي في اليمن 391

(2) بناء القليس 393

(3) حملة الفيل في الروايات العربية 396

(4) أسباب الحملة الاقتصادية و السياسية 401

(5) مقاومة العرب للحملة 404

(6) نتائج الحملة 409

المصادر و المراجع العربية

(1) القرآن الكريم 413

كتب الحديث 413

(2) كتب التفسير 413

(3) دوريات 428

(4) المراجع الأجنبية 430 snoitaiverbA

(5) الدوريات الأجنبية 435

بطاقة تعريف: مهراڻ محمدبيومي

عنوان واسم المؤلف: دراساٲ تاريخية من القرآن الكريم محمدبيومي مهراڻ

تفاصيل المنشور: بيروت : دارالنهضة العربية ، ق 1408 = م. 1988 = 1367.

خصائص المظهر: ج 4

حالة الاستماع: القائمة السابقة

ملحوظة : كتابناه مندرجات : ج 1. بلاد العرب -- ج 2. مصر -- ج 3. في بلاد الشام -- ج 4. في العراق

موضوع : قرآن -- قصه ها

ترتيب الكونجرس: 1367 4د86/BP88

رقم الببليوغرافيا الوطنية: م 81-8979

ص: 1

اشارة

حقوق الطبع محفوظة الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بروت - ص.ب. ١١٠٧٤٩

الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا بناية

كريدية، تلفون: 303816

309830/ 312213

برقياً: دانهضة، ص.ب. ٧٤٩-١١

تلکس: NAHDA 40290 LE

LE 29354

المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني رقم ٣ غربي الجامعة العربية،

تلفون: ٣١٦٢٠٢

المستودع: بشر حسن، تلفون: 833180

ص: 2

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام عليه المبعوث رحمه للعالمين سيدنا محمد وآله تحدثنا في الجزء الأول من هذه الدراسة عن النبوات في بلاد العرب، ومن ثم فقد قدمنا دراسة تاريخية عن أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وكذا عن هود وصالح وشعيب عليهم السلام، هذا إلى جانب دراسة أحداث تاريخية جاء ذكرها في القرآن الكريم، كقصة سيل العرم وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل.

وقد خصصنا هذا الجزء الثاني من هذه السلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» لدراسة تاريخ النبوات في أرض الكنانة.

وقد قدمنا له بدراسة عن النبوة والأنبياء، ثم قدمنا بعد ذلك دراسة مفصلة عن تاريخ النبيين الكريمين يوسف وموسى عليهما السلام، فضلا عن تاريخ بني إسرائيل في مصر.

وأملي في الله تعالى كبير أن يكون فيها بعض النفع، والله من وراء

القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

«و ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

دكتور محمد بيومي مهران استاذ تاريخ مصر و الشرق القديم و رئيس قسم التاريخ و الآثار المصريّة و الاسلاميّة كآية الآداب. جامعة الإسكندرية الإسكندرية في 12 ربيع الأول عام 1408 هـ 4 نوفمبر عام 1987 م

ص: 6

إشارة

ص: 7

1- النبي و النبوة:

النبيّ: لغة قيل المنبأ المأخوذ من النبأ، أي الخبر المفيد لماله شأن، و يصح فيه معنى الفاعل و المفعول، لأنه منبئ عن الله و منبأ عنه، و إن كان الإمام ابن تيمية يفضل أن يكون بمعنى مفعول، فإنه إذا أنبأه الله، فهو نبي الله (1)، و النبي بالتشديد أكثر استعمالاً، أبدلت الهمزة فيه ياء، لأنه من أنبأ عن الله فهو ينبي عنه، و الاسم منه منبئ، أو هو من النبوة، و هي الرفعة و الشرف (2).

و تجمع كلمة «نبي» على «نبيين و أنبياء» (3)، و قد حكى سماعاً عن العرب في جمع النبي «النبأ»، و ذلك من لغة الذين يهمزون «النبي ء»، ثم يجمعونه على «النبأ»، و من ذلك قول عباس بن مرداس في مدح النبي (صلى الله عليه و سلم).

ص: 9

1- ابن تيمية: النبوات- القاهرة 1346 هـ ص 166، و انظر: ابن حزم: الفصل في الملل و الأهواء و النحل- الجزء الخامس، القاهرة 1964 ص 87.

2- محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي- القاهرة 1955 ص 37، تفسير الطبري 2/ 140-141، محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم، القاهرة 1970 ص 9، معجم ياقوت الحموي 5/ 259-360 (بيروت 1957).

3- انظر: سورة البقرة: آية 61، آل عمران: آية 112، تفسير الطبري 2/ 139-141، 7/ 116-118 (دار المعارف).

يا خاتم النبأ إنك مرسل بالخير كل هدى السبيل هداكا (1)

و النبوة فضل يسبغه الله على من يشاء من عباده، وهبة ربانية يمنحها الله لمن يريد من خلقه، وهي لا تدرك بالجد والتعب، ولا يتوسل إليها بسبب ولا نسب، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي، فالله تعالى، يختص برحمته من يشاء، وهي تأتي إلى النبي من تلقاء نفسها، و على غير توقع منه، فهي إذن اصطفاء واختيار من الله سبحانه وتعالى للمصطفين الأخيار من عباده (2)، و «الله أعلم حيث يجعل رسالته» (3)، و من ثم فإن الله تعالى إنما يختص بهذه الرحمة العظيمة، و المنقبة الكريمة، من كان أهلاً لها، بما أهله هو، جل شأنه، من سلامة الفطرة، و علو الهمة، و زكاة النفس و طهارة القلب، و حب الخير و الحق.

هذا، و ليس صحيحاً ما ذهب إليه «سيجال» من أن كلمة «نبي» عبرية الأصل، و أن لفظ «النبي» (4) إنما كان خاصاً ببني إسرائيل، ذلك لأنه، فيما يرى سيجال هذا، ليست هناك نقوش تثبت وجوده في اللغة الكنعانية و الفينيقية، ثم إن الفعل «نبأ» الذي اشتق منه الاسم «نبي» لا يوجد في عبرية العهد القديم في صورته الأساسية، أي في الثلاثي المجرد، و أن الفعل الذي جاء للدلالة على عمل النبي في العهد القديم (التوراة) إنما جاء في الصيغ المزيده على زنة «فعل» و «تفعل»، و هي في الحقيقة صيغ مشتقة من الاسم

ص: 10

1- انظر: تفسير الطبري 2/ 141، سيرة ابن هشام 4/ 103، ثم قارن: تفسير البحر المحيط 1/ 220، ياقوت 5/ 259-260.

2- تفسير المنار 8/ 33-34، محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء، بيروت 1980 ص 9-10.

3- سورة الأنعام: آية 124.

4- انظر تعريفات مختلفة للفظ النبي عند بني إسرائيل و عند علماء اللاهوت الأوربيين (محمد بيومي مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل - الإسكندرية 1978 ص 25-30).

«نبي» نفسه، وهذه الحقيقة تدعونا إلى الاعتقاد بأن الاسم «نبي» قديم جدا في العبرية الإسرائيلية، وأنه يصعد إلى ما قبل التاريخ من حياة بني إسرائيل، ولما كان هذا الاسم يميز عمادا حيا وفعالاً لا في حياة الأمة، فإنه حفظ منذ تلك الحقب السحيقة، بعد أن نسي الفعل المجرد «نبا» الذي اشتق منه، مع توالي العصور، وانتهى أمره واختفى من اللغة (1).

وفي الواقع، فإن كلمة «نبي» ليست عبرية الأصل، كما يقول أدولف لودز (2)، ومن ثم فإن علماء اللاهوت الأوروبيين وغيرهم، من أمثال جوستاف هولشر (3)، وشميدت، و لودز (4)، و كلود سوربري (5)، إنما يتفقون على أن كلمة «نبي»، عربية، وليست عبرية، في شكلها ومعناها، وأن أصل الكلمة سامي قديم موجود في الأكديّة بمعنى «يدعو» (6) (ulaN).

غير أن الأمر، كما يقول الأستاذ العقاد (7)، طيب الله ثراه، غني عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين، من يفقه منهم اللغة العربية، ومن لا يفقه منها غير الأشباح والخيالات، فإن وفرة الكلمات التي لا تلتبس بمعنى «النبوة» في اللغة العربية كالعرافة والكهانة والعيافة والزجر والرؤية، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرائي والنبوي، و تاريخ النبوات العربية التي وردت

ص: 11

-
- 1- م. ص. سيجال: حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل - ترجمة الدكتور حسن ظاظا- بيروت 1967 ص 17- 18.
 - 2- .A 445. p, 1962, .yrtneC thgiE eht fo elddim eht ot sgninnigeB eht morF ,learsI ,sdoL.
 - 3- .gizpieL ,laersI ethcihseG noigileR nuZ gnuhcusretN ,netforP eiD ,rehcsloH .G 46- 145. p, 1914, .
 - 4- .nodnoL, msiaduJ fo esiR eht dna stehporP ehT, sdoL. A 1937 ,
 - 5- .SENJ ni ,ycehporP fo tnempoleveD eht ni ydutsA ,learsI ni nam yloH ehT ,ierluaS .C 216. p, 1947, 6. -
 - 6- .notecnrP, yrotsiH eht ni tsaE raen ehT, ittiH. K. P 107. p, 1961 , .
 - 7- عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام و أباطيل خصومه- بيروت 1966 ص 91- 92.

في التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبي بدلا كلمة الرائي و الناظر، و تلمذة موسى لنبي شعيب مذكورة في التوراة قبل سائر النبوات الإسرائيلية، و موسى الكليم، و لا ريب، راند النبوة الكبرى بين بني إسرائيل.

ثم إن كلمة «النبي» عربية لفظا و معنى، عربية لفظا، لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعها كلمة واحدة في اللغات الأخرى، فهي تجمع معاني الكشف و الوحي و الإنباء بالغيب و الإنذار و التبشير، و هي معاني متفرقة تؤديها في اللغات الحديثة بكلمات متعددة، فالكشف مثلا تؤديه في اللغة الإنجليزية كلمة (noitaleveR)، و الوحي تؤديه كلمة (noitaripsnI) و استطلاع الغيب تؤديه كلمة (noitaniviD) أو (clcarO) و لا تجتمع كلها في معنى «النبوة» كما تجتمع في هذه الكلمة باللغة العربية.

وقد وجدت كلمة «النبوة» في اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر، لأن اللغة العربية غنية بكلمات العرافة و العيافة و الكهانة و ما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة، كما تلتبس في الألسنة الأخرى عن أصل التسمية و اشتقاق المعاني الجديدة عن الألفاظ القديمة، فكلمة «النبي» تدل على معنى واحد لا تدل على غيره، خلافا لأمثالها من الكلمات في كثير من اللغات.

وقد استعار العبريون كلمة «النبي» من العرب في شمال شبه الجزيرة العربية بعد اتصالهم بها، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء، و كانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائي أو الناظر، و لم يفهموا من كلمة «النبوة» في مبدأ الأمر، إلا معنى الإنذار (1) و أما كلمة (tehpORP) الإنجليزية و كلمة (etehporP) الفرنسية، و كلمة (neteforP) الألمانية و غيرها، فإنها منقولة عن اليونانية القديمة، ذلك أن

ص: 12

الأمم التي كانت تشيع فيها نبوة الجذب، يكثر أن يكون مع المجذوب، مفسر يدعى العلم بمغزى كلامه و لحن رموزه وإشارات، وقد كانوا من اليونان يسمون المجذوب «ماتي» (itnaM) و يسمون المفسر (بروفيت tēporP) أي المتكلم عن غيره، و من هذه الكلمة نقل الأرويون كلمة «النبوة» بجميع معانيها (1).

2- الفرق بين النبي والرسول:

هذا ويفرق العلماء بين النبي والرسول، اعتمادا على عدة أمور، منها ما ورد في كتاب الله من عطف النبي على الرسول في قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ (2)، ومنها وصف الله بعض رسله بالنبوة والرسالة، مما يدل على أن الرسالة أمر زائد على النبوة، كقوله تعالى: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (3)، و كقوله تعالى: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (4)، ومنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن النبي (ص) أن عدة الأنبياء مائة و أربعة وعشرون ألف نبي، و عدة الرسل ثلاثمائة و بضعة عشر رسولا.

و من هنا ذهب فريق من العلماء إلى أن النبي هو من أوحى إليه بشرع، سواء أمر بتبليغه أو لم يؤمر، و الرسول هو من أوحى إليه بشرع و أمر بتبليغه (5)، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا آتِيًا،

ص: 13

1- عباس العقاد، حقائق الإسلام و أباطيل خصومه ص 90.

2- سورة الحج: آية 52.

3- سورة مريم: آية 51.

4- سورة مريم: آية 54.

5- تفسير القرطبي ص 4472، الإمام الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، بيروت 1971 ص 167، الديار بكري: تاريخ الخميس ص 7، محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص 9.

و يرى الإمام ابن تيمية أن الله في قوله: مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ قَدْ ذَكَرَ إِسْرَافًا يَعْصِمُ النَّوْعَيْنِ، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمر بتبليغ رسالته إلى من خالف الله، كنوح عليه السلام، والذي ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس، وقبلهما آدم كان نبيا مكلما (1).

على أن العقل، فيما يرى الشرقاوي، لا يستسيغ أن يوحي الله العلي القدير إلى نبي بشرع ثم لا يأمره بتبليغه، لأن الشرع أمانة وعلم وأداء واجب، و كتمان العلم نقص و رذيله (2)، ثم إن الله لا ينزل وحيه ليكتفم و يدفن في صدر واحد من الناس، ثم يموت هذا العلم بموته، هذا فضلا عن الحديث الشريف الذي رواه البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي، و الذي يقول فيه (ص) «عرضت على الأمم فرأيت النبي و معه الرهط، و النبي و معه الرجل و الرجلان و النبي و ليس معه أحد»، فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ، و أنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم (3).

على أن هناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أن الرسول من أوحى إليه بشرع، و أنزل عليه كتاب، كإبراهيم و موسى. و داود و عيسى و محمد، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، و النبي الذي ليس برسول هو من أوحى إليه بشرع، و لم ينزل عليه كتاب، كإسماعيل و شعيب و يونس و لوط و زكريا و غيرهم من الأنبياء، و هذا التعريف لا يستقيم أيضا لأن الله سبحانه و تعالى قد وصف بعض الأنبياء الذين لم تنزل عليهم كتب بالرسالة (4)، فقال عن إسماعيل عليه السلام. «و اذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد

ص: 14

1- ابن تيمية: كتاب النبوات ص 173.

2- محمود الشرقاوي: المرجع السابق 9-10.

3- عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق ص 14-15.

4- محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص 10.

و كان رسولا نبيا» (1)، وقال تعالى عن لوط عليه السلام: وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (2)، وقال تعالى عن يونس: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3).

و هناك وجه ثالث للنظر يذهب إلى أن الرسول من الأنبياء إنما هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه، أما النبي الذي ليس برسول، فهو من بعث لتقرير شرع سابق، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام، و من ثم فقد قيل إن كل رسول نبي، و ليس كل نبي رسولا (4).

غير أن الإمام ابن تيمية إنما يرى أنه ليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولا، و كان على ملة إبراهيم، و داود و سليمان كانا رسولين، و كانا على شريعة التوراة (5)، قال تعالى، عن مؤمن آل فرعون: وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلُوبُكُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا (6).

هذا و يذهب فريق رابع من العلماء إلى أن الرسول إنها يختلف عن النبي، لأن اختلاف الأسماء إنما يدل على اختلاف المسميات، و الرسول أعلى منزلة من النبي، و لذلك سميت الملائكة رسلا، و لم يسموا أنبياء، هذا و قد اختلف من قال بهذا في الفرق بينهما على ثلاثة أقاويل، أحدهما: أن الرسول هو الذي تنزل عليه الملائكة بالوحي، و النبي هو الذي يوحى إليه في

ص: 15

-
- 1- سورة مريم: آية 54.
 - 2- سورة الصافات: آية 133.
 - 3- سورة الصافات: آية 139.
 - 4- تفسير البيضاوي 95/2-96، تفسير القرطبي ص 4472، الإمام الطحاوي: المرجع السابق ص 167، عبد الحلیم محمود: في رحاب الأنبياء و الرسل - القاهرة 1977 ص 42، تفسير المنار 9/194-195.
 - 5- ابن تيمية: المرجع السابق ص 173.
 - 6- سورة غافر: آية 34.

نومه، والثاني أن الرسول هو المبعوث إلى أمة، والنبى هو المحدث الذي لا يبعث إلى أمة، والثالث أن الرسول المبتدئ بوضع الشرائع و الأحكام، والنبى هو الذي يحفظ شريعة غيره (1).

و من هنا يذهب الإمام الطحاوي في العقيدة (ص 167) إلى أن الرسول أخص من النبى، وأن الرسالة أعم من جهة نفسها فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس، فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها.

و أما عدد الأنبياء والرسل، فعلم ذلك عند ربي جل جلاله، ولكننا نعرف من القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين من هؤلاء المصطفين الأختيار (2)، ونعلم كذلك أنه ما من أمة إلا وجاءها رسول من عند الله العلي القدير، فلقد اقتضت حكمة الله تعالى في الأمم، قبل هذه الأمة، أن يرسل في كل منها نذيرا، ولم يرسل رسولا للبشرية كلها، إلا سيدنا محمد (ص)، واقتضى عدله ألا يعذب أحدا من الخلق، إلا بعد أن تقوم عليه الحجة (3)، قال تعالى: **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (4)**، و من هنا كثر الأنبياء والرسل في تاريخ البشرية كثرة هائلة، قال تعالى: **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا**

ص: 16

1- أبو الحسن الماوردي: المرجع السابق ص 38.

2- هم آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس والسبع وزكريا ويحيى وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد (ص)، وفي حديث أبي ذر، منهم أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ومحمد (ص) (انظر تفسير ابن كثير 422/2، تفسير البيضاوي 312/2).

3- عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق ص 17.

4- سورة الإسراء: آية 15.

فيها نذيرٌ (1)، وقال تعالى: وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (2)، وقال تعالى: مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (3)، وقال تعالى: رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (4).

و من هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء، عليهم السلام، فمن قائل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ومن قائل إنهم ثمانية آلاف، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس، ومن قائل إنهم أربعة آلاف، ومن قائل إنهم ثلاثة آلاف، وأن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم وآخرهم محمد (ص) (5).

و على أية حال، فليس من المستحب، فيما أظن، وليس كل الظن إثماً، الخوض في إحصاء الرسل والأنبياء، فإنه لا يعلم إلا بوحى من الله تعالى، ولم يبين الله ذلك في كتابه (6)، غير أن هناك حديث أبي ذر المشهور، والذي جاء فيه أنه دخل المسجد النبوي الشريف، فإذا رسول الله (ص) جالس وحده، فسأله عن أشياء كثيرة، منها الصلاة والهجرة والصيام والصدقة، ثم سأله: كم الأنبياء؟ فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون، قال:

قلت يا رسول الله كم الرسل عن ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير، كثير طيب، قال قلت: فمن كان أولهم، قال آدم، قلت: أنبي مرسل؟ قال

ص: 17

1- سورة فاطر: آية 24.

2- سورة الزخرف: آية 6.

3- سورة غافر: آية 78.

4- سورة النساء: آية 164.

5- تفسير ابن كثير 2/ 422-428 (القاهرة 1971)، تفسير القرطبي ص 2014-2015 (دار الشعب- القاهرة 1970) تفسير المنار 7/

500-507، تفسير روح المعاني 24/ 88-89، مجمع الزوائد 8/ 210، ابن قتيبة: المعارف، القاهرة 1934 ص 26، أبو الحسن

الماوردي: المرجع السابق ص 52.

6- محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص 24.

نعم، خلقه الله بيده، و نفخ فيه من روحه، و سواه قبلاً» (1).

3- نبوة المرأة:

من المعروف أن النبوة في الإسلام إنما هي مقصورة على الرجال دون النساء، لقوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» (2)، وهكذا استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن النبوة لا تكون إلا في الرجال، و أما النساء فليس فيهن نبية أبدا (3)، و الحكمة من تخصيص الرجال بالنبوة دون النساء، أن النبوة عبء ثقيل، و تكليف شاق لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة، لأنه يحتاج إلى مجاهدة و مصابرة، و لهذا كان جميع الرسل في محنة قاسية مع أقوامهم، و ابتلوا ابتلاء شديدا في سبيل تبليغ دعوة الله تعالى (4)، يقول الله تعالى لنبيه الكريم: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» (5).

غير أن الإمام ابن حزم إنما يتجه إلى أن آية النحل «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا»، إنما تعني الرسل دون الأنبياء، و من ثم فلم يدع أحد أن الله تعالى قد أرسل امرأة، و أما النبوة، و هي لفظة مأخوذة من الإنباء و هو الإعلام، فمن أعلمه الله، عز و جل، بما يكون قبل أن يكون، أو أوحى إليه

ص: 18

-
- 1- تفسير ابن كثير 2/ 422-426، و انظر: مسند الإمام أحمد 5/ 265-266، تفسير روح المعاني 24/ 88، مجمع الزوائد 8/ 210، مشكاة المصابيح 3/ 122، تفسير النسفي 1/ 263-264.
 - 2- سورة النحل: آية 43، يوسف: آية 109 و انظر: تفسير الطبري 14/ 108-109، تفسير روح المعاني 14/ 147-148، تفسير الطبرسي 14/ 75-78.
 - 3- لم تكن النبوة الإسرائيلية مقصورة على الرجال دون النساء، فلقد تنبأت المرأة، كما تنبأ الرجال، و من ذلك: مريم، أخت هارون و موسى (خروج 15/ 20) و دبور (قضاة 4/ 4) و حنة أم صموئيل النبي (صموئيل أول 1/ 2) و خلدة امرأة شلوم بن تقوة (ملوك ثان 22/ 14) و حنة بنت فتوئيل (لوقا 2/ 26) و بنات فيلبس العذارى الأربع (أعمال الرسل 21/ 9)، كما كانت زوجات الأنبياء يدعون أحيانا نبيات (إشعيا 3/ 8).
 - 4- محمد على الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 10، صفوة التفاسير 2/ 129.
 - 5- سورة الأحقاف: آية 35.

منبأ بأمر ما، فهو نبي بلا شك، فأمرها مختلف، وقد جاء في القرآن الكريم بأن الله قد أرسل ملائكة إلى نساء، فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، كما حدث مع أم إسحاق و أم موسى و أم المسيح، عليهم السلام (1).

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة، يقول تعالى: **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ، فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ، وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَسَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ، وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحِمَتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (2)**، فهذا خطاب الملائكة لأم إسحاق عن الله عز وجل بالبشارة لها بإسحاق، ثم يعقوب، ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي (3).

هذا فضلا عن أن الله تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم المسيح، عليهم السلام، يقول لها: «إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا» (4)، فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح، ورسالة من الله تعالى إليها، وليس قوله عز وجل: **وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ (5)**. يمانع أن تكون نبيه، فقد قال الله تعالى:

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ (6).

وهو مع ذلك رسول نبي (7)، وجاء في تفسير روح المعاني (154/3)

ص: 19

1- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل 87/5.

2- سورة هود: آية 69-73، وانظر: تفسير ابن كثير 264/4-266، تفسير الطبري 15/381-400، تفسير القرطبي ص 3290-3299، تفسير المنار 12/105-108.

3- ابن حزم: المرجع السابق ص 87.

4- سورة مريم: آية 19، وانظر تفسير القرطبي ص 4128-4130.

5- سورة المائدة: آية 75.

6- سورة يوسف: آية 46.

7- ابن حزم: المرجع السابق ص 87-88.

أن القول بنبوّة مريم شهير، بل مال الشيخ تقي الدين السبكي في الحلبيات، وابن السيد، إلى ترجيحه، وذكر أن ذكرها مع الأنبياء في سورتهم قرينة قوية لذلك، وأما الاستدلال بآية وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا، لا يصح، لأن المذكور فيها الإرسال وهو أخص من الاستنباء على الصحيح المشهور، ولا يلزم من نفي الأخص، نفي الأعم. والأمر كذلك بالنسبة إلى أم موسى، إذ أوحى الله تعالى إليها بإلقاء ولدها في اليم، وأنه سوف يرده إليها ويجعله نبيا مرسلًا (1)، يقول تعالى:

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (2)، غير أن هناك من يرى أن ذلك استدلالا خاطئا، لأن الوحي ليس بإنزال ملك، وإنما هو بطريق الإلهام، فقد أخبر الله تعالى بأنه أوحى إلى النحل، فقال تعالى: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (3)، فهل يصح أن نقول أن النحل قد نبأه الله تعالى (4).

ويذهب الفخر الرازي في التفسير الكبير إلى أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء، لقوله تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ»، وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها، إما أن يكون كرامة لها، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرھاصا لعيسى عليه السلام، وذلك جائز عندنا، وعند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لذكريا عليه السلام، و من الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروح والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ (5).

ص: 20

1- نفس المرجع السابق ص 88.

2- سورة القصص: آية 7.

3- سورة النحل: آية 68.

4- محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء ص 10.

5- تفسير الفخر الرازي 54/3.

هذا وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أن مريم ليست نبية، وذكر النووي في الأذكار عن إمام الحرمين أنه نقل الإجماع على أن مريم ليست نبية، ونسبه في «شرح المذهب» لجماعة، وجاء عن الحسن البصري: ليس في النساء نبية، ولا في الجن (1).

4- وظائف الرسل:

بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بوضوح و جلاء وظائف الرسل، عليهم السلام، ومهامهم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أوكل إلى الأنبياء أهم الواجبات، وأقدس المهمات، وأشرف الغايات، والتي من أهمها (أولاً) أنهم الدعاة البررة إلى عبادة الله الواحد القهار، وهذه في الحقيقة هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي بعث من أجلها الرسل الكرام، وهي تعريف الخلق بالخالق، جل وعلاه وتخصيص العبادة له دون سواه (2). كما قال جل ثناؤه: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (3)، وقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (4)، وقال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ

ص: 21

-
- 1- فتح الباري 6/ 471، 473، عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، الكويت 1985 ص 86-89.
 - 2- انظر: محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل - الإسكندرية 1978 ص 77-81، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، بيروت 1980 ص 23-25، عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات - الكويت 1985 ص 43-54.
 - 3- سورة النحل، آية 36، وانظر: تفسير الطبري 14/ 103، تفسير الفخر الرازي 20/ 26-27، تفسير أبي السعود 3/ 360-361.
 - 4- سورة الأنبياء: آية 25، وانظر كذلك من سورة هود: الآيات 25، 50، 61، 84، تفسير الطبري 15/ 293-294، تفسير روح المعاني 12/ 35-37، 77-80، 88، 114-115، 17/ 31-32.

عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (1)، وقال تعالى: وَإِلَىٰ آخَاهُم هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (2)، وقال تعالى:

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (3)، وقال تعالى: وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4).

ومنها (ثانيا) إنارة الطريق أمام الناس، وهدايتهم إلى سواء السبيل، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (5)، وهكذا كان كل رسول يدعو قومه إلى الصراط المستقيم، ويبينه ويهديهم إليه، فضلا عن مقاومة الانحراف الحادث في عهده ومصره، وهكذا أنكر هود على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها، وأنكر صالح على قومه الإفساد في الأرض واتباع المفسدين، وحارب لوط جريمة اللواط التي استشرت في قومه، وقاوم شعيب في قومه جريمة التطفيف في المكيال والميزان (6).

ومنها (ثالثا) أن من رحمة الله على عباده أن يرسل إليهم الرسل قبل أن يقع عليهم عقابه، ومن ثم لا تكون للعاصين منهم حجة على الله بعد الرسل، قال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (7)، وقال تعالى:

ص: 22

-
- 1- سورة الأعراف: آية 59، وانظر تفسير ابن كثير 3/ 427-428، تفسير القرطبي ص 2668-2670 (ط الشعيب).
 - 2- سورة هود: آية 50.
 - 3- سورة الأعراف: آية 73.
 - 4- سورة العنكبوت: آية 16.
 - 5- سورة الأحزاب: آية 45-46.
 - 6- عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق ص 51.
 - 7- سورة الإسراء: آية 15.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لِيُنذِرَ لِنَاسٍ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (1)، وقال تعالى: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزَى (2)، ومن ثم ففي يوم القيامة عند ما يجمع الله الأولين و الآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنه بلغها رسالة ربه، و أقام عليها الحجة، قال تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا، يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ، وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (3).

و منها (رابعاً) أن الرسل سفراء الله إلى عباده و حملة وحيه، فهم الذين يقومون بتبليغ أوامر الله تعالى و نواهيه إلى عبادة قال تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ (4)، وقال تعالى:

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (5)، و منها (خامساً) تذكير الناس، كل الناس، بيوم الدين يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (6)، ذلك أن من مهمة الأنبياء التبشير و الإنذار، قال تعالى: وَ مَا نُزِّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا لِمُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ (7)، مبشرين المؤمنين بالحياة الطيبة، و منذرين العصاة بعذاب الله في الآخرة (8).

ص: 23

1- سورة النساء: آية 165.

2- سورة طه: آية 134.

3- سورة النساء: آية 41-42.

4- سورة المائدة: آية 67.

5- سورة الأحزاب: آية 39.

6- سورة الشعراء: آية 88-89.

7- سورة الكهف: آية 56.

8- انظر: سورة النحل: آية 97، طه: آية 123، النور: آية 55، النساء: آية 13-14، الواقعة: آية 215-38، 41-51-56.

ومنها (سادسا) أن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، هم الأسوة الحسنة للناس جميعا، قال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (1)، وقال تعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ (2)، وقال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (3)، وقال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدَى (4)، وقال تعالى: وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (5)، وذلك لأن الرسل صفوة من خليفته، وخيرته من عبادة (6)، طهرهم، وعلمهم ما شاء أن يعلمهم، ثم أرسلهم إلى الناس ليأخذوهم بأسباب الهداية، وينأوا بهم عن معاهد الضلالة، ولذلك كان من كليات أصول المسلمين، أن شرع من قبلنا شرع لنا، إلا إذا ورد من رسول الله (ص) ما ينسخه (7).

ص: 24

1- سورة الأحزاب: آية 21.

2- سورة الممتحنة: آية 4.

3- سورة الممتحنة: آية 6.

4- سورة الأنعام: آية 90.

5- سورة الأنبياء: آية 73.

6- وتصديقا لهذا فلقد جاء في الحديث الشريف، الذي رواه مسلم والترمذي، أنه (ص) قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، و اصطفى قريشا من كنانة، و اصطفى من قريش بني هاشم، و اصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار»، و من مسند الإمام أحمد و سنن الترمذي عن النبي (ص) أنه قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني من خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا، و خيركم نفسا» (انظر: صحيح مسلم المواهب للقسطلاني 1 / 13، ابن كثير: السيرة النبوية 1 / 191، عبد الحليم محمود: دلائل النبوة و معجزات الرسول، القاهرة 1973 ص 68، أحمد حسن الباقوري: مع القرآن، القاهرة 1970 ص 21).

7- محمود أبو رية: دين الله واحد على السنة جميع الرسل - القاهرة 1970 ص 58.

و من هنا فقد أوجب الله للرسول العصمة الكاملة، لتصح بهم القدوة، و تقوم بهم الحجة، فلا يكون من أحدهم عمل ينال من كرامته أو يقدح في عدالته أو يحط من منزلته العلية بين ذوي المروءات و العقول الرجحة (1)، ذلك أمر ضروري، إذ لو لم يكن ذلك كذلك، و لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص، اختصاصهم بوحية، و الكشف لهم عن أسرار حلمه، و لو لم تسلم أبدانهم من المنفريات، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في إنكار دعواهم، و لو كذبوا أو خافوا أو قبحت سيرتهم، لضعفت الثقة فيهم، و لكانوا مضلين لا مرشدين، فتذهب الحكمة من بعثهم، و الأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم بتبليغه من القصائد و الأحكام (2).

و منها سابعاً: سياسة الأمة المسلمة، ذلك أن الذين يستجيبون للرسول يكوّنون جماعة و أمة، و بالتالي يحتاجون إلى من يسوسهم و يقودهم و يدبر أمورهم، و الرسول يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم، فهم يحكمون بين الناس بحكم الله قال تعالى: فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ (3)، و قال تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (4) و في الحديث، الذي رواه البخاري و مسلم و أحمد و ابن ماجه، عن النبي (ص) «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي قام نبي»، و من ثم فقد أوجب الله طاعتهم، قال تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (5).

ص: 25

1- كمال أحمد عون: اليهود من كتبهم المقدسة- القاهرة 1970 ص 106.

2- محمد عبث: رسالة التوحيد- القاهرة 1969 ص 77.

3- سورة المائدة: آية 48.

4- سورة (ص): آية 26.

5- سورة النساء: آية 8.

لا-ريب في أن دين الله واحد في الأولين والآخرين، لا يختلف إلا في صورة ومظاهره، وأما روحه وحقيقته، وهو ما طولب به العالمون أجمعون على ألسنة جميع الأنبياء والمرسلين، فلا يتغير، وهو إيمان بالله الواحد الأحد، وإخلاص له في العبادة، وأن يتعاون الناس على البر والتقوى، وألا يتعاونوا على الإثم والعدوان، هذا هو دين الله الذي أرسل في كل أمة، ولكل قوم على مدى الدهور والأزمان (1)، و لا ريب كذلك في أن هذا الدين هو الإسلام (2)، وصدق ربنا جل وعلا حيث يقول: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (3) ويقول: وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (4)، والإسلام، في لغة القرآن، ليس اسما لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء (5)، ومن ثم فإن الإسلام شعار عام يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر البعثة المحمدية (6).

ص: 26

-
- 1- محمود أبو رية: المرجع السابق ص 35.
 - 2- الإسلام: هو دين الله في الأولين والآخرين، وهو الطاعة والامتثال (تفسير الطبري 2/ 510-511) ويقول الإمام ابن تيمية: الإسلام هو أن يستسلم الإنسان لله، لا لغيره، فيعبد الله ولا يشرك به شيئا، ويتوكل على الله وحده، ويرجوه ويخافه وحده، ويحب الله المحبة التامة، لا يحب مخلوقا كحبه لله، بل يحب لله ويغض لله، ويوالي لله ويعادي لله، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلما، ومن يعبد مع الله غيره لم يكن مسلما (ابن تيمية: كتاب النبوات- القاهرة 1346 هـ ص 87-88).
 - 3- سورة آل عمران: آية 19.
 - 4- سورة آل عمران: آية 85.
 - 5- محمد الراوي: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ص 51.
 - 6- محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم ص 75-76.

وهكذا أخبر القرآن في غير موضع أن الأنبياء جميعاً إنما كان دينهم الإسلام، كما في سورة البقرة وآل عمران والمائدة والأعراف ويونس ويوسف والأنبياء والحج والنمل والقصص والشورى وغيرها (1)، وهكذا يبدو واضحاً أن دين الله واحد منذ الأزل إلى مبعث محمد (ص) إلى يوم الدين «إن الدين عند الله الإسلام»، فالدين منذ القدم هو دين الإسلام «هو حاكم المسلمين من قبل»، من قبل مبعث محمد، ومن قبل مبعث إبراهيم، وقد سمي الله منذ الأزل «مسلماً» كل من اعتنق أسس هذه الدين، دين الله، وسار على مضامينه من: إسلام الوجه لله، وانقياد له، وتوكل عليه، وتسليم الأمر لمدير الأمر وصرف الكون، ومن هذا يتضح أن وصف الإسلام ليس منصباً على كل من آمن بدعوة محمد (ص) في عهد محمد أو من بعده فحسب، بل هو وصف ولقب أطلقه الله من قبل على كل من آمن برسوله الذي بعث في زمنه، وبكل من وَّحد ربه وأسلم وجهه وقلبه وأمره كله لله رب العالمين، والمسلم في عرف القرآن هو كل من آمن برسوله وكل من وَّحد الله من الأزل حتى اليوم، ومن هذا يتضح أن محمد (ص). لم يأت بدين جديد مستقل، وإنما جاء ليصلح دين الله مما طرأ عليه من مغالاة وزيادة وجهالة، وليهدي الأمم القادمة على الطريق إلى الدين الأول الذي أرسل الله به سائر الرسل، والذي كمله محمد (ص) وأتمه الله على يد محمد (ص) بما جعله

ص: 27

1- انظر: سورة البقرة: آية 128، 132، 136، آل عمران: آية 51-53، 64-67، 83-85، المائدة: آية 3، 44، 11، الأعراف: آية 126، يونس: آية 72، 84، 90، يوسف: آية 101، الأنبياء: آية 108، الحج: آية 78، النمل: آية 31، 38، 42، القصص: آية 52، الزمر: آية 12، فصلت: آية 33، الشورى: آية 13، وانظر: محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 134-135، محمد عبد الله دراز: الدين: بحوث ممهدة لدراسة الأديان- القاهرة 1969 ص 183، محمود أبو رية: المرجع السابق ص 60-67، مناع القطان: الإسلام شريعة الله الخالدة إلى البشر كافة- الرياض 1974 ص 11-40، تفسير المنار 67/1، 477.

وفي هذا يقول سيدنا رسول الله (ص)، فيما أخرجه الإمام أحمد و البخاري و مسلم عن أبي هريرة، «مثلي في النبيين كمثل رجل بني دارا فأحسنها و أكملها و أجملها و ترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان و يعجبون منه و يقولون لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة» (2)، و في رواية للبخاري. «مثلي و مثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بني بيتا فحسنته و جملة إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به، و يعجبون و يقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، و أنا خاتم النبيين» (3).

و من هنا فإن نبوة القرآن الكريم إنما تؤمن بكل ما سبقها من نبوات، لأن الهدف واحد، و العقيدة واحدة، فالأنبياء، صلوات الله و سلامه عليهم، دينهم واحد، و إن تنوعت شرائعهم (4)، و قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد» (5)، قال تعالى: (5)

ص: 28

1- محمود بن الشريف: الأديان في القرآن- جدة 1979 ص 30-33.

2- الحديث: أخرجه أيضا الإمام أحمد و البخاري و مسلم و الترمذي عن جابر بن عبد الله، و أخرجه الإمام أحمد و مسلم عن أبي سعيد الخدري.

3- صحيح البخاري- كتاب المناقب- باب خاتم النبيين- دار الشعب- القاهرة 1378 هـ 226/4.

4- مجموعة فتاوي ابن تيمية- الرياض 1381 هـ 357/1.

5- روي الحديث الشريف بعدة روايات، فرواية في البخاري و مسلم و أحمد، أنه (ص) قال: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا و الآخرة، و الأنبياء أخوة من علات، أمهاتهم شتى، و دينهم واحد، و في رواية أخرى للبخاري «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، و الأنبياء أولاد علات ليس بيني و بينه نبي»، و في رواية ثالثة «نحن معشر الأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد»، يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله و ضمه كل كتاب أنزله، و أبناء العلات أبناء الضرائر، يكون أبوهم رجلا واحدا، و أمهاتهم متعدّدات و كذلك الرسل ربهم الذي أرسلهم إله واحد، و رسالاتهم متعدّدة بتعدد بلادهم، أي إن الدين واحد، و هو عبادة الله و حدد لا شريك له، و إن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، و المقصود، كما يقول ابن كثير، أن الشرائع و إن تنوعت في أوقاتها إلا- أن الجميع أمرة بعبادة الله و حده لا شريك له، و هو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء، و هو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة، كما قال تعالى: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، و يقول الإمام محمد عبده: أن القرآن قد صرح بما لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان و على ألسن جميع الأنبياء، واحد، و يقول الأستاذ الشاذلي و أما الشرائع فمختلفة في الأوامر و النواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراما ثم يحل في الأخرى و بالعكس، و خفيفا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، لماله تعالى من الحجّة الدافعة و الحكمة البالغة، قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: «لكل جعلنا منكم شرعة و منها جما»، يقول: سبيلا و سنّة، و السنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، و في الإنجيل شريعة و في الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء و يحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، و الدين الذي لا يقبل الله غيره هو التوحيد و الإخلاص لله تعالى الذي جاءت به جميع الرسل (انظر: محمد عبده: المرجع السابق ص 163، عبد الله شحاتة: تفسير سورة الإسراء، القاهرة 1975 ص 10، الباقوري: المرجع السابق ص 139، عبد المجيد الشاذلي: حد الإسلام و حقيقة الإيمان- جامعة أم القرى- مكة المكرمة ص 100، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 5-6، مختصر تفسير ابن كثير 459/1، البداية و النهاية 153/1-154، محمود أبو رية: المرجع السابق ص 35-45)

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (1) وقال تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (2).

و من هنا كان طلب القرآن الكريم الإيمان بكل الرسل، كما طلب كذلك الإيمان بما أنزل عليهم، و كان الإيمان بالبعض دون البعض الآخر خروجاً عن دين الله و هديه (3)، يقول سبحانه و تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ -

ص: 29

1- سورة المؤمنون: آية 52، وانظر تفسير القرطبي ص 4520-4521 (دار الشعب).

2- سورة الشورى: آية 13.

3- محمد أبو زهرة: العقيدة الإسلامية لما جاء بها القرآن الكريم- القاهرة 1969 ص 85-86، تفسير المنار 10/ 182-183 خالد محمد خالد: كما تحدث القرآن- القاهرة 1970 ص 99-122.

وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَوْلَيْكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (1)، ويقول تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ، مِنْ رَبِّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (2)، و قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رُسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (3)، وقال تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (4).

وانطلاقاً من كل هذا، فإن القرآن الكريم إنما يعلمنا أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل إنما قد جاء مصدقاً ومؤكداً لما قبله، فالإنجيل مصدق ومؤكد للتوراة (5)، والقرآن مصدق ومؤكد للتوراة والإنجيل، ولكل ما بين يديه من الكتب (6) يقول سبحانه وتعالى: وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ، وَإِنَّا نُنزِّلُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ، وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ،

ص: 30

1- سورة النساء: آية 15.

2- سورة البقرة: آية 285.

3- سورة النساء: آية 136.

4- سورة البقرة: آية 136.

5- من البدهي أننا نعني هنا التوراة والإنجيل اللذين أنزلهما الله على رسوله موسى وعيسى، عليهما السلام، وليس توراة اليهود وأنجيل النصرى المتداولة اليوم (انظر عن التوراة الحالية: محمد بيومي مهران: إسرائيل - الكتاب الثالث - الإسكندرية 1979 ص 1-379).

6- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 185، محمد أبو زهرة: المرجع السابق ص 85-86.

وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَ لَكِنْ لِنَبِّئُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (1).

و يقول المسيح، عليه السلام، كما جاء في العهد الجديد «لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس و الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء و الأرض و لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (2).

و لا ريب في أن هذا التصديق لا يعني أن الكتب المتأخرة، إنما هي تجديد للمتقدمة و تذكير بها، فلا نبدل فيها معنى و لا نغير حكما، و إنما الواقع غير ذلك، فقد جاء الإنجيل بتبديل بعض أحكام التوراة، كما جاء القرآن بتبديل بعض أحكام الإنجيل، و لكن يجب أن يفهم أن هذا و ذاك لم يكن من المتأخر نقضا للمتقدم، و لا إنكارا لحكمة أحكامه في إبانها، و إنما كان وقفا عند وقتها المناسب و أجلها المقدر (3)، و من هنا كان قوله (ص) في الحديث الشريف: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، و في رواية الإمام مالك في الموطأ «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق». و هكذا فإن الله تعالى، بمقتضى حكمته في رسالاته، إنما كان يجعل كل نبي يبشر بمن يجيء بعده، فالتوراة بشرت بالمسيح و بمحمد، عليهما الصلاة و أتم التسليم، و المسيح بشر بمحمد (ص)، يقول تعالى: وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ

ص: 31

1- سورة المائدة: آية 46-48.

2- إنجيل متى 17/5-18.

3- انظر: سورة آل عمران: آية 50، الأعراف: آية 157، محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 185-186.

يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (1).

و من المعروف أن أحدا من أسماء رسول الله (ص). و من ثم فقد جاء في الحديث الشريف، قوله (ص): «و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار» (2)، و في بعض الأحاديث «لو كان موسى و عيسى حين لما وسعهما إلا أتباعي» (3)، و أن النبي (ص) وقف على «مدراس» اليهود في المدينة المنورة فقال: يا معشر يهود أسلموا، فو الذي لا إله إلا هو لتعلمون أني رسول الله إليكم، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، قال: ذلك أريد» (4)، و من ثم فالذي يقطع به في كتاب الله و سنته رسوله، و من حيث المعنى، أن رسول الله (ص) قد بشرت به الأنبياء قبله، و أتباع الأنبياء يعلمون ذلك، و لكن أكثرهم يكتُمونه و يخفونه (5).

هذا و قد أخذ الله الميثاق على كل نبي، إذا جاءه رسول و صدق لما معه أن يؤمن به و ينصره (6)، يقول تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا

ص: 32

- 1- سورة الصف: آية 6، و عن بشارات التوراة بسيدنا رسول الله (ص) (انظر: سفر التثنية 15/18، 18، 23/3، أشعياء 1/60-7، 42/10-12، حبقوق 3/3-4) و عن بشارة الإنجيل (انظر: متى 7/21-23، 15/8-9، 23/42-43) ثم انظر: إبراهيم خليل أحمد: محمد في التوراة و الإنجيل و القرآن- الطبقة الخامسة- القاهرة 1983 ص 33-95، بشرى زخاري ميخائيل: محمد رسول الله- هكذا بشرت به الأناجيل- القاهرة 1972، ابن كثير: السيرة النبوية 1/286-340 (القاهرة 1964).
- 2- صحيح مسلم 1/367 (دار الشعب- القاهرة 1971).
- 3- مختصر تفسير ابن كثير 1/296.
- 4- ابن كثير: شمائل الرسول و دلائل نبوته و فضله و خصائصه- القاهرة 1967 ص 339، ثم قارن: ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى- الجزء الأول- القاهرة 1966 ص 36-37، عماد الدين خليل: دراسة في السيرة- بيروت 1974 ص 319-322.
- 5- ابن كثير: المرجع السابق ص 339، ابن الجوزي: المرجع السابق ص 37.
- 6- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 185.

آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (1). قال الإمام علي و ابن عباس، رضي الله عنهما، ما بعث الله نبيا من الأنبياء، إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمدا: وهو حي، ليؤمنن به و لينصرنه، و قال الحسن البصري و قتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا، و هذا لإيضاح ما قاله علي و ابن عباس و لا ينفيه بل يستلزمه و يقتضيه (2).

و صدق سيدنا رسول الله (ص) حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير في قوله (ص): «مثلي و مثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه و جمّله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به و يعجبون له و يقولون هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة و أنا خاتم النبيين» (3).

و قريب من هذا ما يراه بعض الباحثين من أن صلاة المصطفى (ص) بالأنبياء، ليلة أن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، إنما تشير إلى وحدة الرسالات و النبوات، و أنها جميعا من عند الله، و أن الأنبياء و المرسلين إنما أرسلوا من أجل هداية الناس، و دعوتهم إلى التوحيد (4).

و بدهي أن ذلك كذلك، لأن دين جميع الأنبياء واحد في التوحيد و روح العبادة، و تزكية النفس بالأعمال التي تقوم الملكات و تهذب

ص: 33

-
- 1- سورة آل عمران: آية 81، و انظر: تفسير المنار 3/ 287-290، تفسير ابن كثير 2/ 55-57، تفسير الطبري 6/ 550-561.
 - 2- مختصر تفسير ابن كثير 1/ 296.
 - 3- صحيح البخاري 4/ 226 (دار الشعب- القاهرة 1378 هـ).
 - 4- عبد الله شحاتة: المرجع السابق ص 8، و انظر: عماد الدين خليل: المرجع السابق ص 115-116.

الأخلاق، وهكذا فالأنبياء في الأساس دعاء إلى توحيد الله وهداة إلى الفضائل. و مكارم الأخلاق، و من ثم فإن الديانات إنما تلتقي على فكرة التوحيد و حسن السلوك، و إن اختلفت الوسيلة لتهذيب هذا السلوك من نبي لآخر، و هكذا رأينا من الأنبياء من حارب رذائل معينة انتشرت بين قومه، كتطيف الكيل الذي حاربه شعيب، و كالانحراف الجنسي الذي وقف أمامه لوط بكل إصرار و حزم (1).

و هنا علينا أن نلاحظ أن هناك فرقا بين الدين في ثباته و عدم تبدله بتبدل الأنبياء، و بين تبدل الشرائع و تغييرها بتبدل الأنبياء و تغييرهم، بل ينبغي أن يكون هذا الفرق واضحا في الذهن، سائقا في الفهم، و هو كذلك فيما يقرر القرآن الكريم، فأما من ناحية العقل و الفكر، فإن الدين، أي دين، إنما هو قائم على أصول ثلاثة: أولها: الإيمان بأن لهذا الكون إلها خالقا مدبرا، و محيط العلم، بالغ القدرة، لا يغرب عن علمه شيء، و لا يعترض قدرته شيء، و ثاني الأصول الدعوة إلى العمل الصالح الذي يشيع على الإنسانية الأمن و السلام، و ثالث الأصول أن الله لم يخلق الناس عبثا، و لن يتركهم سدى، و أنهم لا بد راجعون إليه، و محاسبون بين يديه، و مجازون على ما عملوا إن خيرا فخييرا، و إن شرا فشرا.

هذا ما يتصل بالدين في عدم قبوله التغيير و التبديل، و أما ما يتصل بالشرائع حيث هي مجموعة قوانين تنظم السلوك في المجتمع، فإنها قابلة للتغيير و التبديل، بمقتضى تعبير البيئات و اختلاف المصالح، و قد أشار إلى ذلك القرآن الكريم و الحديث الشريف (2).

ص: 34

-
- 1- أبو الحسن الماوردي: أعلام النبوة- القاهرة 1971 ص 22، محمود أبو رية: المرجع السابق ص 119، عبد الله شحاتة، المرجع السابق 8-9.
 - 2- مجموعة فتاوي ابن تيمية 357/1، و انظر: الباقوري: المرجع السابق ص 137-139، خالد محمد خالد: المرجع السابق، ص 115، عبد الله شحاتة: المرجع السابق ص 10.

بقيت الإشارة هنا إلى أن النبوة فضل يسبغه الله على من يشاء من عباده، وهبة ربانية يمنحها الله لمن يريد من خلقه، وهي لا تدرك بالجد و التعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، ولا يتوسل إليها بسبب ولا نسب، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي، فالله يختص برحمته من يشاء، وهي تأتي إلى النبي من تلقاء نفسها، وعلى غير توقع منه، فهي إذن اصطفاء واختيار من الله سبحانه وتعالى للمصطفين الأختيار من عباده (1)، وصدق الله العظيم حيث يقول: «الله أعلم حيث يجعل رسالته» (2).

و من ثم فإن الله سبحانه وتعالى إنما يختص بهذه الرحمة العظيمة، والمنقبة الكريمة، من كان أهلاً لها، بما أهله، جل شأنه، من سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وزكاة النفس، وطهارة القلب، وحب الخير والحق، وكان أذكياً العرب في الجاهلية، على شركهم بالله تعالى، يعلمون أن الصادقين محبي الحق، وفاعلي الخير من الفضلاء، أهل لكرامته تعالى وعنايته، كما يؤخذ من استنباط أم المؤمنين خديجة في حديث أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهما، في بدء الوحي، فإنه (ص) لما قال لخديجة: «لقد خشيت على نفسي»، قالت له: «كلا فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» (3).

ص: 35

-
- 1- تفسير المنار 8/ 33-34، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء- بيروت 1980 ص 8.
 - 2- سورة الأنعام: آية 124، وانظر: تفسير روح المعاني 8/ 21-23، تفسير المنار 8/ 32-35، تفسير ابن كثير 3/ 323-326.
 - 3- صحيح مسلم 1/ 379-380، وانظر: ابن كثير: السيرة النبوية 1/ 394-395، تفسير المنار 8/ 34، عبد الحلیم محمود: المرجع السابق ص 354.

[1] يوسف و أخوته في كنعان:

يوسف الصديق عليه السلام هو: يوسف النبي بن يعقوب النبي بن إسحاق النبي بن إبراهيم النبي، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، و قد أثنى عليه ربنا جل جلاله في القرآن الكريم بقوله تعالى: كَذَلِكَ لِنَصِّرَكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ كما أثنى عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة، حيث وصفه بقوله الشريف «إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» و قد جاءت قصته في سورة كاملة من القرآن الكريم هي سورة يوسف (1).

ص: 39

1- انظر عن قصة يوسف كاملة من وجهة النظر الإسلامية: سورة يوسف آية 1-102، تفسير الطبري 547/15-586، 1/16-315 (دار المعارف) تفسير الفخر الرازي 83/17-229، تفسير الطبري 5/13-134، تفسير النسفي 2/352-397، تفسير أبي السعود 3/77-143، في ظلال القرآن 4/1949-2037 (بيروت 1982) تفسير المنثور للسيوطي 4/2-42، تفسير ابن كثير 4/294-349، تفسير القرطبي ص 3347-3506، تفسير المنار 12/213-268، محمد رشيد رضا، تفسير سورة يوسف (القاهرة 1936)، صفوة التفاسير 2/39-71، تفسير الجلالين ص 302-320، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 4/3-41، تفسير الخازن 3/262-293، تفسير البغوي (على هامش الخازن)، ابن كثير: البداية و النهاية 1/197-220، تاريخ الطبري 1/330-364، تاريخ ابن خلدون 2/44-47، تاريخ ابن الأثير 1/78-88، تفسير ابن عباس 2/497-502، حسن محمد باجودة: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، جدة- 1983 م.

هذا وتشير التوراة إلى أن يوسف الصديق قد ولد لأبيه من زوجته الثانية «راحيل»، ابنة خال أبيه لابان في «حاران» (وتقع على نهر بلخ على مبعدة 60 ميلا من اتصاله بالفرات، و إلى الغرب من تل حلفا، و على مبعدة 280 ميلا إلى الشمال الشرقي من دمشق)، و كان يعقوب عليه السلام قد تزوج من أختها الكبرى «ليئة»، ثم تزوج من راحيل، ثم من جاريتها بلهة، ثم من زلفة جارية ليئة (1)، و هكذا جمع يعقوب تحته الشقيقتين، فضلا عن جاريتيهما، و كان ذلك، فيما يرى ابن كثير، سائغا في ملتهم، ثم نسخ في شريعة التوراة، و هذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ، لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا و إباحته لأنه معصوم (2)، بل إن الطبري (3) يرى في ذلك قوله تعالى: وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، و إن كان المفسرون يجمعون أو يكادون، على أن المراد بقوله تعالى: إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ أي في الجاهلية قبل الإسلام، و ليس قبل نزول التوراة، كما ذهب ابن كثير، أي أن النسخ كان بالقرآن، و ليس بالتوراة، على أية حال، فلقد ماتت راحيل أم يوسف، و هي تضع ابنها الثاني «بنيامين» و دفنت في بيت لحم (على مبعدة خمسة أميال جنوبي القدس) حيث ولد داود و المسيح عيسى بن مريم، عليهما السلام. (4)

هذا و قد زود يعقوب عن زوجاته الأربع باثني عشر ولدا، فضلا عن (8

ص: 40

1- تكوين 23/29، 28، 30/5، 79.

2- تاريخ ابن كثير 1/195.

3- تاريخ الطبري 1/320.

4- تكوين 19/35-20، تاريخ ابن كثير 1/197، محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/646 (الاسكندرية 1978)، و انظر عن قصة يوسف من الناحية التاريخية و دخول بني إسرائيل مصر (محمد بيومي مهران- إسرائيل 1/212-260- الاسكندرية 1978)

ابنته دينة التي ولدتها ليثة، وهكذا «كان بنو يعقوب اثني عشر، بنو ليثة راؤبين بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهودا ويساكر وزبولوث، و أبناء راحيل يوسف وبنيامين، و أبناء بلهة جارية راحيل، دان و نفتالى، و أبناء زلفة جارية ليثة، جاد و أشير، هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا في فدان أرام (1)»، ثم هاجر يعقوب ببنيه و زوجته إلى كنعان (فلسطين) حيث عاشوا في «حبرون» (و تقع على مبعده 19 ميلا جنوب غرب القدس، و هي مدينة الخليل الحالية، و فيها قبر إبراهيم و سارة و إسحاق و يعقوب، حيث يقوم اليوم مسجد كبير هو الحرم الإبراهيمي) و ظلوا هناك في أرض كنعان حتى هاجروا إلى مصر بدعوة من الصديق عليه السلام.

و هكذا عاش الصديق مع أبيه و إخوته حينما من الدهر في كنعان، كان الصديق فيها أحب الأخوة إلى أبيه يعقوب النبي عليه السلام، لأنه كان، فيما تقول توراة اليهود، «يأتي بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم»، و لأنه «ابن شيخوخته» و لأنه صنع له من دونهم قميصا ملونا، و لأنه رأى حلمين فسرهما إخوته على أنه سيكون سيذا عليهم، أما أولهما: « «فها نحن حازمون حزما في الحقل، و إذا حزمتن قامت و انتصبت فاحتاطت حزمكم و سجدت لحزمتي»، و أما الثاني فقد رأى فيه «و إذا الشمس و القمر و أحد عشر كوكبا ساجدة لي، و قصه على أبيه و على إخوته، فانتهره أبوه، و قال له ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنا و أمك و إخوتك لنسجد لك إلى الأرض، فحسده إخوته، و أما أبوه فحفظ الأمر (2)»، و لم يشر القرآن الكريم إلا- إلى الرؤيا الأخيرة، و أن أباه أمره أن يكتب رؤياه عن إخوته، يقول تعالى إذ قال يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

ص: 41

1- تكوين 22/35-26.

2- تكوين 37/1-11.

ساجدين، قال يا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (1).

وهكذا عرف يعقوب، كما جاء في تفسير أبي السعود (252/4)، من رؤيا يوسف أن الله تعالى سيبلغه مبلغا جليلا من الحكمة، و يصطفيه للنبوة، و ينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه حسد الأخوة، و نصحه بأن لا يقص رؤياه عليهم فيكيّدوا له، مع أن يعقوب كان يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا عليه، و قد جاء في الأثر «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».

هكذا بدأ إخوة يوسف يضمرون له الشر، لأنه أحب إلى أبيهم منهم «قالوا ليوسف و أخوه أحب إلى أبينا منا و نحن عصابة، إن أبانا لفي ضلال مبين»، و الآية الكريمة تشير إلى إثارة يعقوب ليوسف و أخيه عليهم، و هم عصابة (و العصابة و العصابة: العشرة من الرجال فصاعدا سماوا بذلك لأن الأمور تعصب بهم) و يقول الشيخ الشعراوي في الفتاوى: إن إثارة فرد بالحب عن الآخرين ينشئ في نفس الآخرين عقدة النقص التي تؤدي إلى أن يكون السلوك غير منطقي على المبدأ الخلقى، و لذلك حين أحس إخوة يوسف بأن يوسف و أخاه أحب إلى أبيهم منهم، فكروا في أن يزيحوا ذلك الحب من طريقهم و قالوا: نحن عصابة، و لو أنهم فهموا بعض الفهم لعرفوا أنهم جاءوا بحيشية امتاز ذلك الصغير بالحب، لأنهم عصابة و لأنهم أشداء، و هو صغير يعطف عليه، فلا يقيسوا العطف و الحب هنا على العطف و الحب عليهم، لأنهم اجتازوا مرحلة العطف و الحب، فالإنسان منا يحب صغيره لأنه يعتقد أن هذا الصغير بالنسبة لأخوته هو أقصرهم عمرا معه،

ص: 42

1- سورة يوسف آية 4-5، 554-559، تفسير المنار 11/290-299، تفسير ابن كثير 4/297-299، تفسير الخازن 3/261-263.

وأنه في حاجة مع العجز إلى شيء كثير من الحب، فلو أن الكبار فهموا تلك العلاقة لما جعلوها عيباً في الأب (1).

وعلى أية حال، فالآية، كما في ظلال القرآن (2)، لا تشير إلى علمهم برؤياه، ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاؤا ذكرها على ألسنتهم (3)، وكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقده عليه، فما خافه يعقوب على يوسف لوقص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له، ولم يكن بد أن يتم لأنه حلقة في سلسلة الرواية الكبرى المرسومة لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة، والتي تمهد لها ظروف حياته وواقع أسرته، ومجيئه لأبيه على كبره، وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر، كما كان الحال مع يوسف وأخيه، وإخوته من أمهات، وهكذا بدأ الحقد يغلي في نفوس إخوة يوسف، ويدخل الشيطان بينهم، فيختل تقديرهم للواقع، وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة، وتهون أحداث ضخام، تهون الفعلة الشفعاء المتمثلة في إزهاق روح غلام برىء لا يملك دفعا عن نفسه، وهو أخ لهم، وهم أبناء نبي، وإن لم يكونوا هم أنبياء، يهون هذا، وتتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب، حتى توازي القتل، أكبر جرائم الأرض قاطبة، بعد الشرك بالله، وهكذا دبروا له مكيدة، كي يخلو لهم وجه أبيهم، وأنجزوا خطتهم للتخلص منه، بأن اقتلوا يوسف.

ص: 43

1- محمد متولي الشعراوي: الفتاوى 10 / 71-74 (بيروت 1982).

2- في ظلال القرآن 4 / 1973 (بيروت 1982).

3- جاء في تاريخ ابن الأثير: أن امرأة يعقوب سمعت ما قال يوسف لأبيه، فقال لها يعقوب: اكنمي ما قال يوسف ولا تخبري أولادك، قالت نعم، فلما أقبل أولاد يعقوب من الرعي أخبرتهم بالرؤيا، فزادوا حسدا وكرهة له وقالوا: ما عنى بالشمس غير أبنينا ولا بالقمر غيرك ولا بالكواكب غيرنا، إن ابن راحيل يريد أن يمتلك علينا ويقول: أنا سيدكم. (الكامل 1 / 78-79).

أَوْ اطَّرَحُوهُ أَرْضًا يَخُلُّ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (1).

وفي الواقع، فإن قصة الصديق، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم، إنما تشير بوضوح إلى أن إخوته إنما ظلوا ردحا من الزمن ضحايا الكبت الذي عانوه، كي يخفوا رغبتهم في التخلص من يوسف رغبة في أن يخلوا لهم حب أبيهم، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها و كبتها، بل كثيرا ما كانت تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف، مما جعل أباهم يعقوب يشك في حسن نواياهم، عند ما دعوا يوسف ليلعب معهم (2)، فقال لهم وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (3)، و هو في الواقع إنما كان يتخوف عليه من عدوانهم أكثر مما يتخوف عليه عدوان الذئب، ولكنه أراد أن يصرفهم عنه بتلك الفعلة، ولكن إخوة يوسف كانوا بارعين في الدهاء، فقالوا لأبيهم لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (4).

وهكذا كان من نتيجة الكبت الذي عانوه أن انحرفوا بتفكيرهم، فكل ما كان يهمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف و أبيه فاتفقوا على قتله، و تلطبخ قميصه بالدم، و ادعاء أن الذئب أكله، لما ذهبوا يتسابقون و تركوه عند متاعهم، غير أن التلفيق كان واضحا، أو كان ساذجا، لأن القميص لم يكن ممزقا بآثار أسنان الذئب، أو كما قال يعقوب، في رواية السدي، إن كان هذا الذئب لرحيما، كيف أكل لحمه و لم يخرق قميصه (5)، و هكذا ألهاهم).

ص: 44

1- سورة يوسف: آية 9.

2- التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن- تونس 1974 ص 156 (رسالة دكتوراه).

3- سورة يوسف آية 13.

4- سورة يوسف: آية 14.

5- جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس أنه قال: ذبحوا شاة و لطنخوا بدمها القميص، فلما جاءوا يعقوب قال: كذبتم لو أكله الذئب لمزق قميصه، و في رواية أخرى، كما في تفسير النسفي و أبي السعود و الخازن، نهم ذبحوا سخلة و لطنخوا القميص بدمها، و زل عنهم أن يمزقوا القميص، فلما سمع يعقوب بخبر يوسف صاح بأعلى صوته، و قال: أين القميص و أخذوه و ألقاه على وجهه و بكى حتى خضب وجهه بدم القميص و قال: تالله ما رأيت كالسيوم ذنبا أحلم من هذا، أكله و لم يمزق عليه قميصه، و في رواية ثالثة في تفسير الخازن أنهم أتوا بذئب و قالوا ليعقوب: هذا أكل ابنك، فقال الذئب حين سأله، و قد أنطقه الله، و الله ما أكلت و ما رأيت ولدك قط، و لا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء، فقال يعقوب كيف وقعت في أرض كنعان، قال: أتيت لصلة الرحم فأخذوني و أتوا بي إليك فأطلقه يعقوب (انظر: تفسير الطبري 164/12، تفسير أبي السعود 260/4، تفسير الخازن 269/3، تفسير النسفي 214/2-215، صفوة التفاسير 44/2).

الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصابا ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم، و لكنهم كانوا معجلين لا- يصبرون، يخشون أن لا تواتيهم الفرصة مرة أخرى، كذلك كان التقاطهم لحكاية الذنب المكشوفة دليلا على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم فيها أمس و هم ينفونها، و يكادون يتهكمون بها، فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذنب الذي حذرهم منه أبوهم أمس، و يمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطحوه في غير إتيان، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب (1)، الأمر الذي جعل يعقوب لا يصدقهم، و لهذا كان يدعوهم دائما إلى أن يتقصوا آثار أخيهم، و قد وقعوا في حالة «التبرير»، كما يفعل المذنب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه لبيّن لنفسه و للناس أن لسلوكه هذا أسبابا معقولة (2)، فهم يقولون يا أبانا إنّنا ذهَبنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا، فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (3).

و على أية حال، فلقد كان أخوة يوسف قد أجمعوا أمرهم على أن

ص: 45

1- في ظلال القرآن 4/ 1975-1976.

2- التهامي نقرة: المرجع السابق ص 516-517.

3- سورة يوسف: آية 17.

يجعلوه في غيابت الجب (1)، ولكنهم سرعان ما غيروا رأيهم حيث أشار يهوذا على أن يبيعه للإسماعيليين، ولكن الأمور لم تسر كما يرغبون، وكما تقول التوراة «جاء رجال مديانين تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر، وبعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة، فأتوا بيوسف إلى مصر (2)»، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (3).

وهكذا هبط الصديق مصر، كرفيق اشتراه رئيس الشرطة المصري بثمان بخس دراهم معدودة، رأى بعض المفسرين أنها دون الأربعين، على أساس أنها معدودة لا موزونة، وإنما يعدّ القليل، ويوزن الكثير، وكانت العرب تزن ما بلغ الأوقية، وهي أربعون درهما مما فوقها، وتعدّ ما دونها، ولهذا يعبرون عن القليلة بالمعدودة، وذهب ابن عباس وابن مسعود وغيرهما إلى أنهم باعوه بعشرين درهما، بينما ذهب فريق ثالث إلى أنهم باعوه بأربعين درهما (4)، وأيا ما كان الأمر، فقد كانت هذه نهاية المحنة الأولى في حياة النبي الكريم.

ص: 46

1- ذهب بعض المفسرين إلى أنها بئر بأرض الأردن أو هي بين مصر و مدين أو هي على مبعدة ثلاثة فراسخ من منازل يعقوب في كنعان، و هو الأرجح، أو هي بئر المقدس، غير أن التقاط السيارة له و مجيئهم أباهم عشاء يبكون ذلك اليوم، يضعف هذا الإتجاه (تفسير أبي السعود 258/4، تفسير النسف 214/2).

2- تكوين 18/37-28.

3- سورة يوسف: آية 19-20.

4- تفسير الطبري 16/13-16، تفسير القرطبي 9/155-157، تفسير المنار 2/281، تفسير ابن كثير 4/305، تفسير روح المعاني 12/204-205، تفسير أبي السعود 4/261، تفسير الخازن 3/271، تفسير النسفي 2/215، مؤتمر تفسير سورة يوسف 1/421-427، المقدسي: البدء والتاريخ 3/68.

بقيت الإشارة إلى أن هناك فريقاً من المفسرين ذهب إلى أن أخوة يوسف كانوا أنبياء، واستدلوا على ذلك بأنهم الأسباط المذكورون في آية آل عمران (84) قُلْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ، وَ الصَّحِيحُ أَنَّ الْأَسْبَاطَ لَيْسُوا أولاد يعقوب، وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب، كما نبه عليه المحققون (1)، هذا وقد جاء في المصباح المنير: السبط ولد الولد، و الجمع أسباط، مثل حمل و أحمال، و السبط: الفريق من اليهود، يقال للعرب قبائل، و لليهود أسباط، و من هنا ذهب المفسرون المسلمون إلى أن الأسباط هم بنو يعقوب، كانوا اثني عشر رجلاً، كل واحد منهم ولد سبطاً، أمة من الناس، فسموا أسباطاً، هذا وقد بعث الله منهم عدة رسل، غير أنه لم يصح أن أخوة يوسف بالذات كانوا أنبياء، إذ لو كانوا كذلك لما أقدموا عليه من الأفعال الشنيعة، فالحسد و السعي بالفساد، و الإقدام على القتل، و الكذب، و إلقاء يوسف في الجب، كل ذلك من الكبائر التي تتنافى في عصمة الأنبياء، فالقول بأنهم أنبياء، مع هذه الجرائم، لا يقبله عقل حصيف (2)، و يقول ابن كثير: و ظاهر ما ذكرنا من فعالهم و مقالهم في هذه القصة يدل على أنهم غير أنبياء، و من استدل بنبوتهم بآية آل عمران (84) و زعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلال بقوى، لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل و ما كان يوجد فيهم من الأنبياء ينزل عليهم الوحي من السماء، و مما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من

ص: 47

-
- 1- يذهب البعض إلى أن الأسباط كانوا من بني إسماعيل الذين أرسل الله إليهم رسلاً، لم يذكروا أسماءهم و لا أممهم، و بخاصة من بني قحطان، كقوم تبع و أصحاب الرس و سبأ (انظر صابر طيحة: بنو إسرائيل في ميزان القرآن- بيروت 1975 ص 181-196).
 - 2- محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير 2/ 45-46 (بيروت 1981)، تفسير الطبري 2/ 121، 3/ 111، 113، 6/ 569، تفسير الكشاف 1/ 195، تفسير روح المعاني 6/ 16، في ظلال القرآن 4/ 1973، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 150.

بين إخوته بالرسالة و النبوة أنه لم ينص على واحد من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه (1).

[2] يوسف و امرأة العزيز:-

اشترى عزيز مصر يوسف من تجار الرقيق، ثم ذهب به إلى بيته و قال لامرأته «أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا (2)»، ذلك لأن الرجل إنما توسم في الصديق خيرا، و الخير يتوسم في الوجوه الصباح، و خاصة حين تصاحبها السجايا الملاح، فإذا هو يوصي به امرأته خيرا، و هكذا بدأ الصديق مرحلة جديدة في حياته في قصر عزيز مصر الذي اشتراه، و هو طبقا للرواية العربية، الوزير بمصر، و كان اسمه، فيما يروى عن ابن عباس، «قطفير» و كان على خزائن مصر، و كان الملك يومئذ «الريان بن الوليد» رجل من العماليق، و اسم امرأته راعيل أو زليخا (3).

على أن العجيب من الأمر أن تصف التوراة عزيز مصر بأنه «خصى فرعون رئيس الشرطة» (4)، و لست أدري كيف دار في خلد كاتب نص التوراة هذا، بأن رئيس الشرطة المصري كان خصيا، و من عجب أن هذه الأكاذيب قد انتقلت إلى بعض كتب التفسير، و إن رفضتها جمهرة المفسرين (5)، و كأن

ص: 48

1- ابن كثير: البداية و النهاية 1/198-199.

2- سورة يوسف: آية 21: و روى ابن كثير في تفسيره عن عبد الله بن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر، حين قال لامرأته «أكرمي مثواه» و المرأة التي قالت لأبيها عن موسى «يا أبت استأجره»، و أبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما (مختصر تفسير ابن كثير 2/245).

3- مختصر تفسير ابن كثير 2/244.

4- تكوين 1/29.

5- تفسير الطبري 16/19، تفسير القرطبي ص 3389، تفسير أبي السعود 4/286، تفسير الخازن 3/293، و انظر: تفسير البيضاوي 1/491، تفسير المنار 12/272، تفسير روح المعاني 12/207، مؤتمر تفسير سورة يوسف 1/434، 503-504، 1/525-526.

الرجل لم يكن شافعا له، في نظر كتبة التوراة و من لفّ لفّهم، في دحض هذه الغيرة، أنه كان زوج أجمل سيدة في مجتمع الهكسوس، و لكن ما الحيلة و صاحب سفر التكوين من التوراة إنما يرى أن حاشية القصر كانت كلها من الخصيان، حتى لنجده كذلك يصف رئيس سقاة الملك و رئيس خبازية بأنهما من الخصيان (1).

غير أن الصديق، عليه السلام، إنما تعرض في أخريات أيامه في قصر العزيز إلى امتحان رهيب، بدأت به المحنة الثانية في حياته، و هي أشد من المحنة الأولى، تبيته و قد أوتي صحة الحكم، و أوتي العلم، ليواجهها و ينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله تعالى في قرآنه، و ذلك حين راودته امرأة العزيز عن نفسه، لأنها افتتنت بحسنه فأحبته، و ليس لها ما يردعها من خوف زوجها عن خيانتها، لأنها تملك قيادة كما يشاء هواها، شأن ربات القصور المترفات اللائي أفسدت طباعهن الحرية و الفراغ، و كادت له لما رفض أن يستجيب، لأن لها من نفاذ الكلمة و من السلطان على زوجها ما مكنها من الانتقام، رغم ما عرف زوجها من آيات صدقه (2). و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا، لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (3)، و يقول الأستاذ سيد قطب (4)، طيب الله ثراه، إن هذه الدعوة السافرة الجاهرة من امرأة العزيز، لا تكون).

ص: 49

1- تكوين 2/40.

2- التهامي نفرة: المرجع السابق ص 512.

3- سورة يوسف: آية 23-24، و انظر: تفسير الطبري 16/24-50، تفسير ابن كثير 4/306-309، تفسير المنار 12/227-235،

تفسير القرطبي ص 3391-3399.

4- في ظلال القرآن 4/1980-1981 (بيروت 1982).

أول دعوة من المرأة، إنما تكون هي الدعوة الأخيرة، وقد لا تكون أبداً، إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً، و الفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل، و أنوثتها هي تكمل و تنضج، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة العنيفة الغليظة، «قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا- يفلح الظالمون»، و النص هنا صريح و قاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبي، المصحوب بتذكير نعمة الله عليه، و تذكر حدوده و جزاء من يتجاوز هذه الحدود، فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعت إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، و بعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته و روايته و قالت: هيت لك.

هذا و قد حصر المفسرون القدامى منهم و المحدثون نظرهم في الواقعة الأخيرة «و لقد همّت به و همّ بها لو لا أن رأى برهان ربه»، فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة و مندفعاً شبقاً، و الله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع، صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على إصبعه بضمه، و صورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن (نعم القرآن) تنهى عن مثل هذا المنكر، و هو لا يروعى، حتى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبدى، فجاء فضربه على صدره، إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة، و هي واضحة التلفيق و الاختراع (1).

على أن جمهور المفسرين إنما ساروا على أنها همّت به همّ الفعل، و همّ بها همّ النفس، ثم تجلّى له برهان ربه فتركه، و أنكر صاحب تفسير

ص: 50

1- في ظلال القرآن 1981/4 ثم انظر: تفسير النسفى 217/2، تفسير الطبري 33/16-48 تفسير ابن كثير 308/4-309 تفسير القرطبي ص 3391-3398، تاريخ الطبري 337/1-338، الكامل لابن الأثير 80/1-81، و من عجب أن التوراة لم تذكر شيئاً مما ذكره المفسرون من هذه الروايات، كما جاءت قصة المراودة في سفر التكوين 7/39-20.

المنار على الجمهور هذا الرأي، ويقول الإمام الفخر الرازي: الهم خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع، كالصائم يرى في الصيف الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه و طلب شربه، و لكن يمنعه دينه عنه، وقال أبو حيان في البحر: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبه لآحاد الفساق و الذي اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، وقال أبو السعود: إن همّ إليها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميلا جليا، لأنه قصدها قصدا اختياريا، الا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له و نفرتة منه، و حكمه بعدم إفلاح الظالمين، و هل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهمّ منه تسجيلا محكما، و ما قيل: إنه حلّ الهميان، و جلس مجلس الختان، فإنما هي خرافات و أباطيل تمجّها الأذان، و تردها العقول و الأذهان (1).

هذا و قد ذهب صاحب تفسير المنار (2) إلى أنها همت بضربه نتيجة إباطه و إهانتة لها، و هي السيدة الآمرة، و همّ هو برد الاعتداء، و لكنه أثر الهرب فلحقت به و قدت قميصه من دبر، على أن تفسير الهمّ، فيما يرى صاحب الظلال (3)، بأنه همّ الضرب و رد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة، فهم مجرد رأى لمحاولة البعد بيوسف عن همّ الفعل أو همّ الميل إليه في تلك الواقعة، و فيه تكلف و إبعاد عن مدلول النص، ثم يرى في قوله تعالى وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ نَهَاة موقف طويل من الإغراء، بعد ما أبى يوسف في أول الأمر و استعصم، و هو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة و الضعف، ثم الاعتصام بالله في النهاية).

ص: 51

1- تفسير الفخر الرازي 18/119، تفسير البحر المحيط 5/295، تفسير أبي السعود 2/63، تفسير المنار 12/231-136.

2- تفسير المنار 12/229-231.

3- في ظلال القرآن 4/1981-1982 (بيروت 1982).

و النجاة، و لكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة، لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من تلك اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، و في محيط الحياة البشرية الكاملة كذلك، فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله و الاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق و الواقعية و الجو النظيف جميعاً، ثم يرى صاحب الظلال بعد ذلك أن ذلك أقرب إلى الطبيعة البشرية و إلى العصمة النبوية، و ما كان يوسف سوى بشر، نعم إنه بشر ممتاز، و من ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره و قلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة عاد إلى الاعتصام و التأبي.

و لعل هذا قريباً مما ذهب إليه الزمخشري في الكشف حيث يقول:

فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية و قصد إليها، قلت (أي الزمخشري) المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة، و نازعت إليها عن شهوة الشباب و قرمه ميلاً يشبه الهمّ به و القصد إليه، و كما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول و العزائم، و هو يسر ما به و يرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، و لو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لشدته، لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظيم الابتلاء و شدته.

و أياً ما كان الأمر، فلقد أثر الصديق التخلص بعد أن استفاق، و هي عدت خلفه لتمسك به، و هي ما تزال في هياجها الحيواني و استتبعاً الباب و قدت قميصه من دبرٍ و ألفياً سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم، قال هي راودتني عن نفسي و شهد شاهد من أهلها، إن كان قميصه قد من قبل فصدق و هو من الكاذبين، وإن كان

فَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَدَّبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى فَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ، قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ، يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا، وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (1).

هذا وقد اختلف المفسرون في هذا الشاهد، قيل هو ابن عم امرأة العزيز، و كان جالسا مع زوجها لدى الباب، و قيل كان حكيما يرجع إليه الملك و يستشيره، و ربما كان بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى لنبيه بالشهادة له و القيام بالحق، و إنما ألقى الله الشهادة إلى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته و أنفى للتهمة (2)، قال أبو حيان في البحر: و كونه من أهلها أوجب للحجة عليها، و أوثق لبراءة يوسف، و أنفى للتهمة (3)، و ذهب جماعة من علماء السلف، على رأسهم ابن عباس و الحسن البصري و سعيد بن جبير و الضحاك، أنه كان صبيا في الدار، و اختاره ابن جرير، و فيه حديث مرفوع رواه ابن جرير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «تكلم أربعة و هم صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف، و رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة و هم صغار، ابن ماشطة بنت فرعون، و شاهد يوسف، و صاحب جريح، و عيسى بن مريم»، و رواه الحاكم عن أبي هريرة (4)، و هكذا ظهرت براءة يوسف عليه السلام للعزيز، فقال له «يوسف أعرض عن هذا» أي لا تذكره لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور، كما يقول ابن كثير، هو الأليق و الأحسن، و أمرها هي بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، و التوبة إلى ربها، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب

ص: 53

1- سورة يوسف: آية 25-29.

2- تفسير أبي السعود 4/268.

3- تفسير البحر المحيط 5/297.

4- مختصر تفسير ابن كثير 2/247، و انظر: تفسير الطبري 12/193، تفسير النسفي 2/218، تفسير أبي السعود 4/268.

اللّه عليه، وأهل مصر، وإن كانوا يعبدون الأصنام، إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها، هو الله وحده لا شريك له في ذلك (1).

غير أن أبناء الفضيحة سرعان ما تترامى إلى الناس، وطفق النساء خاصة يتحدثن بسقطة امرأة العزيز، ويتناقلنها بينهم، وأنها شغفت حبا بفتاها وخدامها، وكيف خرجت على طبع أنوثتها في إدلالها وتمنعها، ونزلت عن كبريائها وسلطانها (2)، وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (3)، وفي ذلك إشباع في اللوم، فإن من لا زوج لها من النساء، أو لها زوج دنيء، قد تعذر في مراودة الأخدان، لا سيما إذا كان فيهم علو الجانب، وأما التي لها زوج، وأي زوج، إنه عزيز مصر، فمراودتها لغيره، لا سيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلا، وتماديا في ذلك، إنما هو غاية الغي ونهاية الضلال (4)، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (5).

هذا وتشير الآية الكريمة إلى أن امرأة العزيز إنما أرادت أن ترد على النساء اللواتي أطلقن ألسنتهن فيها بمكر يوقعهن فيما وقعت فيه من طريق ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها، ومن ثم فقد أقامت لهن مأدبة في قصرها، وبدهي أنهن كن من نساء الطبقة الراقية اللواتي يهملها أمرهن، وهن اللواتي يدعين إلى الموائد في القصور، ويؤخذ

ص: 54

1- ابن كثير: البداية والنهاية 204/1.

2- التهامي نقرة: المرجع السابق ص 512.

3- سورة يوسف: آية 30.

4- تفسير أبي السعود 270/4.

5- سورة يوسف: آية 31.

بهذه الوسائل الناعمة المظهر، وأنهن كن يأكلن و هن متكئات على الوسائد والحشايا، فأعدت لهن هذا المتكأ، و آتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام، و يؤخذ من هذا أن الحضارة في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً، و أن الترف في القصور كان عظيماً، فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلف من السنين له قيمة في تصوير الترف و الحضارة المصرية بين حكام مصر من الهكسوس، و هم خليط من شعوب شتى، فما بالك بالمصريين أنفسهم، و هم أرفع شأنًا، و أكثر تمدناً، و أرقى حضارة من كل شعوب الشرق القديم، و على أية حال، فبينما النساء منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة، فاجأتهن بيوسف، فلما رأيته أكبرنه و جرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة، «و قلن حاشا لله، ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم»، و هذه التعبيرات، فيما يرى صاحب الظلال (1)، دليل على تسرب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان، و هنا أدركت امرأة العزيز أن هؤلاء النسوة يقفن معها على أرض واحدة، حيث تبدو فيها الأثني متجردة من كل تجمل المرأة و حيائها، فإذا بها تقول قول المرأة المنتصرة، و التي تفخر عليهن بأن هذا في متناول يدها، و إن كان قد استعصى قياده مرة، فهي تملك هذه القيادة مرة أخرى قالتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ، وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسَّ جَنَنٌ وَ لَيَكُونُنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ، قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَ إِلَّا تَصْرَفْنِي عَنْ كَيْدِهِنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (2).

و هكذا تحولت الأمور إلى صراع بين المرأة و الفتى، و دخلت كما يقال في دور من العناد و المفاعلة غريب، هي بتهالكها الذي انكشف عن تحجيج

ص: 55

1- في ظلال القرآن 4/ 1953، 1984-1985.

2- سورة يوسف: آية 32-34.

سافر، و كبر خائر، و هو بإصراره الذي لا سبيل له إلا إلى الماضي فيما بدا و أعلن للناس، و لكنه مع ذلك لم ينج منهم و من كيد نسايتهم، و تحالفت عليه قوى البغي، فكان لهن من السلطان على أزواجهن ما حجب الحق الأبلج، و أساء إلى الخلق المتين (1)، ثمَّ بدأ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوْا الآياتِ لَيْسُجُنَّةً حَتَّى حِينَ (2).

و ليس هناك من سبيل إلى شك في أن هذه إنما تقدم لنا صورة لمجتمع فاسد آثم، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس المغتصبين في مصر من فساد و انحلال، و لو لم يكن لدينا عن مصر في ذلك الزمان سوى تلك القصة، لاتخذناها وحدها دليلا على مجتمع يسوده الأجانب و الغرباء، و لنفيناها عن المصريين و نسبناها إلى المجتمع الأجنبي مطمئنين، لأنها إنما تخالف عن طبيعة الأشياء في مصر، و تخرج عن سليقة المصري بما ركب فيه من الأنفة و الحمية و الكرامة و الكبرياء، و لو نظرنا إلى بعض قصص التوراة، لوجدنا قصتنا هذه أشبه بقصص التوراة و أدنى إلى مجتمعها (3)، على حين تنبوع عن مجتمع المصريين الأصيل، و تخالف تقاليدهم و أذواقهم، خلافا يفوق كل خلاف (4).

[3] يوسف في السجن:-

تمثل هذه الفترة في حياة الصديق المحنة الثالثة و الأخيرة، فكل ما بعدها رخاء، و ابتلاء لصبره على الرخاء، بعد ابتلاء صبره على الشدة، و المحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة، و السجن للبريء المظلوم أقسى، و إن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية

ص: 56

- 1- أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن و السنة- القاهرة 1973 ص 45.
- 2- سورة يوسف: آية 35.
- 3- انظر عن مجتمع قصص التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 162/3 - 218).
- 4- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 45-46.

وسلوى (1)، ذلك أن القوم من الهكسوس سرعان ما قذفوا بالصدى إلى السجن، رغم ما رأوا من آيات براءته، كقد القميص وقطع الأيدي و شهادة الصبي وغير ذلك، مدة لم يحددوا زمنها، لأن الهدف من ذلك إنما كان أن ينسى الناس قصته مع امرأة العزيز، هذه القصة التي لاكتها الألسن بين أوساط الناس.

و مع ذلك، فإن الصديق عليه السلام، إنما يتقبل السجن صابرا محتسبا، ورغم أنه كان في سجنه غريبا وحيدا بيد أنه كان دائما يسبح لمن أحيا الفؤاد بنوره، فإذا به يستشعر رحابة في وجدانه وسعت الكون كله، و سمت روحه لتتصل بروح الوجود، و إذا به يأنس بربه، و يحس تعاطفا مع كل من حوله و ما حوله، و إذا بقلبه يفتح للبشرية جمعا، حتى الذين ظلموه لم يحقد عليهم، كانت إرادته أن يتقي الله حق تقاته، و نيته أن يخلص لله، و عزمه أن يصل حبله بحبل الله، و قصده أن يهب نفسه لله، و أن يسير في سبيل الله فجراه الله الجزاء الأوفى، فعلمه من علمه، و الله بكل شيء عليم (2).

و كان ملك مصر من الهكسوس الغزاة قد أدخل معه صاحب طعامه و صاحب شرابه بعد أن اتهمهما بأنهما تأمرا عليه و دسا له السم في الطعام، فراح الصديق يدعوها إلى الله و يذهب عنهما حزنها، و يبذل لهما ما وسعه البذل لتطمئن نفوسهما، و يرى السجناء في مسلكه الطاهر ما يجذبهم إليه، فيطلبون إليه تفسير الرؤيا و تأويل الأحلام (3)، و يكاد القرآن الكريم و العهد

ص: 57

1- في ظلال القرآن 1987/4.

2- عبد الحميد جودة السحار: بنو إسماعيل - القاهرة 1966 ص 56-58.

3- هناك بحوث كثيرة لعلماء النفس في الأحلام، فمن قائل إنها صورة من اللاشعور النهائي، أو هي صورة من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الأحلام في غياب الوعي، و من قائل إنها تعويضية، و من قائل إنها تقوم بوظيفة لإعداد الحياة، إذ أن الأمر كله لا يعدو أن القوم يحلمون، لأنهم يلتمسون في الحلم حلولا - لا - يسيرون عليها في نشاطهم المقبل (إسحاق رمزي: علم النفس الفردي - القاهرة 1919 ص 132-134، التهامي نقرة: المرجع السابق ص 518، في ظلال القرآن 1972/4)، و يذهب ابن خلدون في المقدمة (ص 180) أن النفس إذا خفت عنها شواغل الحس و موانعه بالنوم، تتعرض إلى معرفة ما تشوق إليه في عالم الحق، فقدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر المطلوب، و لذلك جعل الله الرؤيا من المبشرات. و روى عن أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قيل و ما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة» (صحيح البخاري 40/9 - القاهرة 1378) و في تفسير النسفي 169/2 روى عنه صلى الله عليه و سلم) عن البشرى «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»، و عنه صلى الله عليه و سلم «ذهبت النبوة و بقيت المبشرات، و الرؤيا الصالحة جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوة» (تفسير النسفي 169/2)، و يرى الإمام الغزالي أن أدلة العقل وحدها لا تكفي لنبوة نبي، و يقول: إنما نعرف النبي أو العارف الذي يتلقى علمه من الله بأمر آخر، فإن الله أعطانا نموذجا من خصائص النبوة نشاهده في نفوسنا، و يعني بذلك ما يراه النائم من أسرار الغيب (الغزالي: المنقذ من الضلال - القاهرة 1308 هـ ص 24-26)، و يذهب صاحب الظلال (1972/4) إلى أننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد، ملزمون بهذا أولا من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف، و رؤيا صاحبه في السجن و رؤيا ملك مصر، و ثانيا ما نراه في حياتنا من تحقيق رؤيا تنبئية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده لأنه موجود بالفعل.

القديم يتشابهون في عرضهما للأمر، وإن استغرقت التوراة كثيرا في رؤيا السجينين (1).

على أن القرآن الكريم إنما ينفرد وحده بذكر دعوة يوسف عليه السلام، وهو في السجن، إلى توحيد الله، وبتث العقيدة الصحيحة، ويظهر جليا في هذه الدعوة لطف مدخله إلى النفوس، وسيره خطوة خطوة في رفق وتوده (2)، لا- يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي (3)، وكأنه أراد إخبارهما بمعجزاته توطئه لدعائهما إلى الإيمان، قال

ص: 58

1- سورة يوسف: آية 36-37-41، تكوين 1/40-22.

2- التهامي نقرة: المرجع السابق ص 535.

3- سورة يوسف: آية 37.

الإمام البيضاوي: أراد أن يدعوهم إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه، كما هي طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الأخبار بالغيب لدهما على صدقه في الدعوة والتعبير (1).

ثم يتوغل في قلوبهما أكثر، ويفصح عن دعوته، ويكشف عن فساد اعتقادهما، واعتقاد قومهما بعد ذلك التمهيد الطويل (2)، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَأَزْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (3)، وهي صورة للإسلام واضحة كاملة دقيقة شاملة، كما جاء بها رسل الله جميعا، من ناحية أصول العقيدة تحتوي، الإيمان بالله وبالآخرة، وتوحيد الله وعدم الإشراف به أصلا، ومعرفة الله تعالى بصفاته الواحد القهار، والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلا، ومن ثم نفي الأرقاب التي تتحكم في رقاب العباد، وإعلان السلطان والحكم لله وحده، ما دام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره، ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده، وحديد معنى «العبادة» بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية، وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، أي إفراده بالحكم، فهما مترادفان أو متلازمان «إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا

ص: 59

1- تفسير البيضاوي 2/ 264.

2- محمد رجب البيومي: البيان القرآني - القاهرة 1971 ص 225.

3- سورة يوسف: آية 37-40.

إلا إياه ذلك الدين القيم»، وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها (1).

وهكذا يبلغ الصديق عليه السلام، أقصى الغاية من الدرس الذي ألقاه، مرتبطاً في مطلعته بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن، ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا في نهاية الدرس، ليزيدهما ثقة في قوله كله وتعلقاً به يا صاحبي السجنِ أمّا أحدكما فيسدّ قمي ربّه حمراً، وأمّا الآخر فيصَلب فتأكل الطير من رأسه فضي الأمر الذي فيه تستفتيان (2).

والصديق، مع هذا كله، بشر، فيه ضعف البشر، فهو يتطلب الخلاص من سجنه، بمحاولة إيصال خبره إلى الملك، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن، وإن كان الله تعالى شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده، وقال للذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث في السجن بضع سنين (3)، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع، وفي الحديث «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل أذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعا» (4)، والاستعانة بالعباد، وإن كانت مرخصة، لكن اللائق بالأنبياء الأخذ بالعزائم (5)، وجاء في تفسير القرطبي أن جبريل جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتباً فقال له: يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوانك، قال الله تعالى، قال فمن أخرجك من الجب، قال الله تعالى، قال فمن عصمك من الفاحشة، قال الله تعالى، قال فمن صرف عنك كيد النساء، قال الله تعالى، قال: فكيف تركت ربك فلم تسأله

ص: 60

1- في ظلال القرآن 4/ 1960.

2- سورة يوسف: آية 41.

3- سورة يوسف: آية 42.

4- تفسير النسفي 2/ 223.

5- تفسير أبي السعود 4/ 280، تفسير الخازن 3/ 285-286.

و وثقت بمخلوق، قال يا رب كلمة زلت مني، أسألك يا إله إبراهيم وإله الشيخ يعقوب عليهم السلام: أن ترحمني، قال جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين (1).

وجاءت ساعة الذكرى عند ما رأى الملك حلما غريبا لا يقدر تفسيره أحد، فتذكر السجين السالف براعة يوسف، ويشير به، ثم ينهض إلى استفتائه فينطوي بالتأويل الصريح (2)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ، وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ، قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ، وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ، يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ (3)، قال الإمام الزمخشري: تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضرة بسنين مخصيب، والعجاف اليابسات بسنين مجدية، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً، كثير الخير، غزير النعم، وذلك من جهة الوحي (4)، لأن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف، فبشر به الساقى ليشتر به الملك والناس بالخلاص من الجذب والجوع بعام رخي رغيد.

ص: 61

1- تفسير القرطبي 196/9.

2- محمد رجب البيومي: المرجع السابق ص 225.

3- سورة يوسف: آية 43-49.

4- تفسير الكشاف 477/2.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أنه قد مرت بنا رؤى ثلاث، رؤيا يوسف، ورؤيا صاحب السجن، ورؤيا الملك، وطلب تأويلها في كل مرة، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وفي خارج مصر، وأن الهبة التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه، على ما نعهد في معجزات الأنبياء، فهل كانت هذه هي معجزة يوسف عليه السلام (1)؟ ربما كان الأمر كذلك.

وعلى أي حال، فلقد طلب الملك أن يأتوا بيوسف من السجن، غير أن الصديق إنما يرفض أن يغادر سجنه حتى تظهر براءته للناس جميعا، مما ألصق به من تهمة هو منها براء، قال السدي، قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه ما زالت في نفس العزيز منه حاجة يقول:

هذا الذي راود امرأتي، فلما رجع الرسول إلى الملك من عند يوسف جمع الملك أولئك النسوة (2) فقال لهن: ما خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ، وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (3).

وهكذا تثبت الأحداث السابقة جميعا عصمة النبي الكريم سيدنا يوسف عليه السلام وبراءته من تلك التهمة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة ولا صفات الأنبياء الكرام البررة، فضلا عن أن يوسف نبي وجد أبيه نبي، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، هذا وقد قدم لنا الأستاذ الصابوني وجوها عشرة على عصمة يوسف وبراءته،

ص: 62

1- في ظلال القرآن 4/ 1993-1994.

2- تاريخ الطبري 1/ 346.

3- سورة يوسف: آية 51-53.

منها (أولاً) امتناعه عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم «قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون»
و منها (ثانياً) فراره من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقته عليه الخناق وأرادته على نفسها بالغضب والإكراه، ولو كان يوسف قد همّ
بالفاحشة لما فر منها، لأن الذي يريد ذلك يقدم ولا يفر «واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر» الآية، و منها (ثالثاً) شهادة بعض أقرباء
المرأة ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه فإن كان طالبا وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام، وإن كانت هي الطالبة له وهو الممتنع
فإن ثوبه سيشق من خلف، وهذا ما ثبت (الآيات 26-29)، و منها (رابعاً) تفضيله السجن على عمل الفاحشة (آية 33) وهذا من أعظم
البراهين على براءته، ذلك لأنه لو طأوعها لما لبث في السجن بضع سنين بسبب تلك التهمة الظالمة، و منها (خامساً) ثناء الله تعالى عليه
في مواطن عديدة من السورة، كما في الآيات (21، 22، 24) فلقد أخبر الله تعالى أنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين، ولن يكون
ثناء الله تعالى إلا على من صفت نفسه، و ظهرت سيرته من كل نية سوء، و كل عمل قبيح، فكان من الأطهار المقربين، كما أثنى عليه سيدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: إن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن
إبراهيم، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

و منها (سادساً) اعتراف امرأة العزيز نفسها بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة، كما في الآيات (31-32) و منها (سابعاً) ظهور
أمارات براءة يوسف بكل الأدلة، كقد القميص وقطع النسوة أيديهن وشهادة الصبي، و مع ذلك فقد أقدم العزيز على سجنه إيهاماً للناس، و
سترا على زوجته (الآية 35)، و منها (ثامناً) استجابة الله تعالى لدعوة يوسف بأن يصرف عنه كيدهن، ولو كان راغباً في مطاوعة امرأة
العزيز، لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن (الآية 34)، و منها (تاسعاً) عدم قبول يوسف الخروج من السجن

حتى تظهر براءته أمام الناس جميعاً، (الآية 50) و منها (عاشراً) الاعتراف الواضح من النسوة و من امرأة العزيز ببراءة يوسف و عفته (الآيات 51-53) (1).

ص: 64

1- محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 74-78، صفوة التفاسير 2/ 53-54، تفسير النسفي 2/ 221

ظهرت براءة يوسف عليه السلام، كما رأينا، في الفصل السابق، و من ثم فقد خرج من السجن، و لقي الملك و تحدث إليه، فرأى فيه مخايل الأمانة، و حكمة التصرف و عزة النفس، و أمارات السيادة فقربه إليه، و رفع منزلته لديه، و هكذا تشاء إرادة الله أن يصبح الصديق على خزائن الأرض أميناً، بعد أن كان في زوايا الأرض سجيناً، إذ ينال الحظوة عند ملك مصر من الهكسوس بعد أن قام بتفسير رؤياه تفسيراً يتفق و مقام النبوة، و ينتزه عن تفسيرات رجال البلاط و حكمائه من سدنة و كهان، فضلاً عن براءته مما نسب إليه بشأن امرأة العزيز، و من ثم فقد قلده الملك ما يشبه وزارة التموين في عصرنا الحاضر (1)، و إن كانت التوراة تجعله أشبه برئيس الوزراء (2)، و هكذا قدّر للصديق عليه السلام أن يرتفع من رق العبودية إلى كرسي الوزارة (3)، و أن يتزوج، فيما تروي التوراة، من سيدة مصرية هي «أسنات

ص: 65

1- انظر: سورة يوسف: آية 54-56، تكوين 41 / 1-44.

2- تكوين 41 / 40-44.

3- ربما كان الصديق، حدسا عن غير يقين، يشرف على ما كان يسمى في مصر القديمة، مصلحة الحقول و الخزانة، فأما مصلحة الحقول: فكان يتبعها الأراضي الزراعية على ضفاف النيل، فضلاً عن تلك التي تقع على حافة الصحراء و المحيطة بالمقابر و الأهرامات الملكية، و أما مصلحة الخزانة، و كانت تسمى بيت المال الأبيض (برجج) و يتولى إدارتها، تحت إشراف الوزير، مدير البيت الأبيض المزدوج، و لها فروع من الأقاليم، كما كانت تنقسم إلى قسمين: بيت الذهب و بيت الشونة (أنظر: محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 129)، غير أن المؤكد أن يوسف كان يشغل منصب العزيز، كما وصف في القرآن (سورة يوسف: آية 78).

بنت فوطي فارع» كاهن أون (عين شمس)، و منها أنجب ولديه منسي وأفرايم (1)، وإن زوّجته المصادر العربية من امرأة العزيز التي راودته عن نفسه من قبل، وقد أسموها راعيل أو زليخا، بعد أن شغل منصب زوجها كذلك بسبب موته أو إعفائه من منصبه (2).

ولعل سائلا- يتساءل: أليس في قول يوسف عليه السلام «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» أمران محظوران في الإسلام، أولهما:

طلب التولية وهو محظور بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله أو حرص عليه» (متفق عليه)، وأنه صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة: يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها»، و ثانيهما: تزكية النفس، وهي محظورة بقوله تعالى: فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ (3).

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن يوسف إنما طلب الولاية رغبة في العدل، وإقامة الحق والإحسان، وليس هو من باب التزكية للنفس، وإنما هو للإشعار بحنكته و درايته لاستلام وزارة المالية (4)، و ذهب أبو السعود

ص: 66

1- تكوين 45/41، 50-52.

2- تفسير أبي السعود 286/4، تفسير النسفي 228/2، تفسير الخازن 293/3، تاريخ الطبري 347/1، تاريخ ابن خلدون 45/2، الكامل في التاريخ لابن الأثير 83/1، البداية والنهاية لابن كثير 210/1.

3- في ظلال القرآن 2006/4، تفسير الخازن 292/3.

4- صفوة التفاسير 57/2.

في تفسيره (1) إلى أنه قال «اجعلني على خزائن الأرض» أي أرض مصر (2) ولني أمرها من الإيراد و الصرف، إني حفيظ لهما ممن لا يستحقهما، عليم بوجود التصرف فيهما، وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الجائر أو الكافر، وقيل إن الملك أسلم، وقال الخازن في تفسيره: يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها، فإذا تعيّن وجب عليه ولا كراهية عليه، وأما يوسف فكان عليه طلب الإمارة لأنه مرسل من الله تعالى، والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره، وإذا كان مكلفاً برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك إلا بطلب الإمارة وجب عليه طلبها، وهنا في طلب الإمارة، بسبب ما سيحدث من قحط، إيصال الخير للمستحقين، فيجب طلبها (3).

وذهب الإمام النسفي في تفسيره إلى أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في قوله «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليهم»، بالأمانة والكفاية وهما طلبية الملوك ممن يولونهم، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلبه ابتغاء وجه الله، لا لحب الملك والدينا، وفي الحديث «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة»، قالوا وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان حمالة من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة، وإذا علم النبي أو الظالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم، إلا بتمكين الملك الكافر أو

ص: 67

1- تفسير أبي السعود 286/4.

2- قال الإمام القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: قال: اجعلني على خزائن الأرض. «قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول: مصر خزانة الأرض» أما سمعت قوله «اجعلني على خزائن الأرض» أي على حفظها (تفسير القرطبي ص 3442).

3- تفسير الخازن 292/3.

الفاسق فله أن يستظهر به (1)، وأما ابن كثير فيذهب إلى أنه يجوز للرجل أن يمدح نفسه، إذا جهل أمره، للحاجة، ولهذا قال يوسف إنه حفيظ، أي خازن أمين، وعليم، أي ذو علم و بصيرة بما يتولاه، و من ثم فقد طلب يوسف من الملك أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء، لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سنن الخصب لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم و الرفق بهم، وأخبر الملك إنه حفيظ أي قوي على حفظ ما لديه، أمين عليه، عليم بضبط الأشياء و مصالح الأهراء، و في هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة و الكفاية (2).

هذا و يتجه صاحب الظلال إلى أننا لا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد (عدم طلب التولية و عدم تزكية النفس) إنما تقررت في النظام الإسلامي على عهد سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أنها لم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام، و المسائل التنظيمية في هذا الدين (الإسلام) ليست موحدة كأصول العقيدة الثابتة في كل رسالة و على كل رسول، لا نريد أن نجيب بذلك، و إن كان له وجه، لأن الأمر يرتكن إلى اعتبارات أخرى لا بدّ من إدراكها، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول و النصوص، و ذلك لأن يوسف عليه السلام لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس، و عدم طلب الإمارة، كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا، لا خادما في وضع جاهلي، و كان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه و نشره في مصر في أيام حكمه، و قد توارى العزيز، و توارى الملك تماما (3).

ص: 68

1- تفسير النسفي 2/ 227.

2- تفسير ابن كثير 2/ 254 (المختصر)، البداية و النهاية 1/ 210، و انظر تاريخ الطبري 1/ 347.

3- في ظلال القرآن 4/ 2006، 2013.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك من يزعم أن يوسف عليه السلام، قد استقل بملك مصر، اعتماداً على قول يوسف في دعائه «رب قد آتيتني من الملك و علمتني من تأويل الأحاديث»، ولا دليل لهم في ذلك، فيما يرى ابن خلدون، لأن كل من ملك شيئاً، ولو في خاصة نفسه، فاستيلاؤه يسمى ملكاً، حتى البيت و الفرس و الخادم، فكيف من ملك التصرف، ولو كان من شعب واحد منها، فهو ملك، و قد كان العرب يسمون أهل القرى و المدائن ملوكاً (1)، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد، و في تلك الدولة، و أما الذين يستدلون بقوله تعالى: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ فَهُوَ لَيْسَ بِدِيلٍ أَيْضًا، لأن التمكين يكون بغير الملك، و نص القرآن إنما هو بولاية على أمور الزرع في جمعه و تفريقه، كما قال تعالى:

اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، و مساق القصة كلها أنه مرءوس في تلك الدولة بقرائن الحال كلها، لا يتوهم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه، فلا نعدل عن النص المحفوف بالقرائن إلى هذا المتوهم الضعيف، و أيضاً فالقصة في التوراة (2) قد وقعت صريحة في أنه لم يكن ملكاً و لا صار إليه ملك، و أيضاً فالأمر الطبيعي من الشوكة و القطامة له يدفع أن يكون حصل له ملك، لأنه إنما كان في تلك الدولة قبل أن يأتي إليه إخوته منفرداً لا يملك إلا نفسه، و لا يتأتى الملك في هذا الحال (3)، هذا فضلاً عن

ص: 69

1- تشير نصوص فرعون مصر تحوتمس الثالث (1490-1436 ق، م) على أنه حارب في موقعه مجد و حوالي عام 1468 ق، م، أعداءه من ملوك سورية بزعامة أمير قادش، و عددهم 330 ملكاً و أميراً، مع كل منهم جيشه الخاص، و قد انتصر عليهم، كما تشير نصوص شلمنصر الثالث الأشوري أنه حارب في موقعه قرقر عام 853 ق، م حلفاً من الأمراء السوريين يضم اثني عشر ملكاً على رأسهم بنحدد ملك دمشق، كما اعتاد العرب تسمية حكام القرى و المدائن ملوكاً مثل هجر و معان و دومة الجندل، و كان ولاية الأطراف و عمالها في الخلافة العباسية يسمون ملوكاً.

2- تكوين 41/33-57.

3- تاريخ ابن خلدون 47/2.

أن جمهرة المؤرخين و المفسرين إنما تذهب إلى أنه كان أشبه بوزير التموين أو المالية أو ما يشبه ذلك، مما يفهم منه أنه كان المسئول عن جمع الغلال و حفظها في الأهراء في سنوات الرخاء، و حسن استخدامها في أعوام المجاعة (1).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التاريخ المصري إنما يصدق الأحداث التي أتت بيوسف عليه السلام إلى هذا المنصب ذلك أن مصر إنما كانت عرضة للمجاعات، و فترات من تدهور الإنتاج الزراعي و الحيواني على مَرَّ العصور، و لقد كان ذلك في أغلب الأحيان من آثار اضطراب النيل و امتناع فيضه، و إخلاله بالوفاء، كما تعود و تعود منه الناس كل عام، فإذا تدهور و أقام على نقائصه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التي تتحرق شوقاً إليه، و تنتظر العام كله، أو جلّه، للقاءه، فعندئذ فلا ريّ و لا استنبات، ثم لا زرع و لا ضرع، فتكون الكارثة التي تنزل بالبلاد و العباد (2).

و التاريخ يحدثنا أن الله تعالى ما جعل بلدا في العالم، تتوقف حياته و وجوده، مصيره و مستقبله، في السلم أو في الحرب، أو يرتبط سكانه و تاريخه بنهر، مثلما تفعل مصر و النيل، و من ثم فإذا بالغ النيل في فيضه أحيانا، فتعظم أمواجه و تضري أمواجه، فإذا هو يندفع طوفانا عنيفا مدمرا مغرقا كل شيء، ثم لا يكاد ينحسر عن الأرض إلا وقف انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الإنتاج أيام الحصاد سيّئ المسغبة، و إن لم يبلغ

ص: 70

1- أنظر: تاريخ الطبري 1/ 347-348، الكل لابن الأثير 1/ 83-88، ابن كثير: البداية و النهاية 1/ 210، صفوة التفاسير 2/ 57، تفسير أبي السعود 4/ 286، تفسير الخازن 3/ 292.

2- انظر: تفسير ابن كثير 4/ 321، تفسير القرطبي ص 3446-3447، تفسير الطبري 16/ 148-152، تفسير النسفي 2/ 228، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 55، تفسير الجلالين ص 311-312، صفوة التفاسير 2/ 57.

ذلك من سوئه مبلغ نقص الماء، ذلك أن النهر إن هبط عن معدله الطبيعي، فهي «الشدة» التي قد تصل إلى «المجاعة»، وإذا كان الفيض المغرق يعني الطاعون، فإن المجاعة كانت تعني «الموتان» الذي يصل إلى حد نشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة (1).

على أن إنحباس النيل ونضوب موارد الدولة، إنما كان وثيق الصلة بما كان ينزل بها من الضعف السياسي، وتحلل السلطة المركزية، و تدهور الأمن واضطراب النظام، فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع، شرا مستطيرا، و شقاء متصلا، يحل بالناس فيترك في نفوسهم وعقولهم أثرا لا يمحي أو لا يكاد يمحي (2). و يقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة لانخفاض النيل في مصر قبل وبعد عصر يوسف الصديق عليه السلام، و ما ينتج عن ذلك من كوارث اقتصادية، و من أشهر الأمثلة ما حدث على أيام الثورة الاجتماعية الأولى (الأسرات 7-10) يقول «نفتي»: لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم، و سوف يبحث الناس عن الماء لتجري عليه السفن فيجدوا أن الطريق قد صار شاطئا، و أن الشاطئ قد صار ماء (3)، و من ثم فقد رأينا من نفس الفترة شريفا من الصعيد هو «عنخ تقي» حاكم «نخن» (البصيلية- مركز أدفو بمحافظة أسوان) يتحدث عن سني المجاعة فيقول إنه أمد خلالها مدنا أخرى، إلى جانب مدينته، بالهبات و القمح، و قد امتدت دائرة نشاطه حتى دندرة، في مقابل قنا عبر النهر، و بدأ أنقذ الصعيد الجنوبي الذي كاد يموت جوعا، و كاد كل رجل فيه أن يغتال أطفاله (4).

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة و حسن التدبير،

ص: 71

1- جمال حمدان: شخصية مصر - القاهرة 1970 ص 241-245.

2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 56.

3- EAL, namrE. A 113. p, 1927.

4- shoarahP eht fo tpygE, renidraG. A 111. p, 1961.

إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الري لأيام الجفاف، و من يسرهم لعسرهم، و من رخائهم لشدتهم، و كانت حكمة الملوك و الأمراء و حكام الأقاليم و حسن تدبيرهم خليقا أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون (1)، و من ثم فقد رأينا «خيتي» أمير أسيوط على أيام الإهناسيين يتحدث عن جهوده في القضاء على الأزمة الاقتصادية، بأن يقدم هدية لمدينته بأن حفر ترعة ليروي الفلاحون منها أرضهم و يسقوا زرعهم، ثم يقول: إنني غني بقمح الشمال حيث كانت الأرض في جفاف، و عند ما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب و الخبز، و سمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه و نصيب زوجته، و قد أعطيت الأرملة و ولدها، و تجاوزت عن الضرائب التي فرضها أبي، و ملأت المراعي بالمواشي (2)، و في مدينة الكاب، مقابل البصيلية عبر النهر، نرى أميرها «ببي» من الأسرة الثالثة عشرة، التي سبقت قليلا جدا عصر الصديق، و ربما عاصرت أوائله من أيام الهكسوس، يقول: «لقد كنت أكس القمح الجيد المطلوب، و كنت يقظا في فصل البذر، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت مدينتي القمح في كل مجاعة (3)».

على أن العلماء على كثرة ما قرءوا من أخبار المجاعات في مصر القديمة (4)، إنما يقفون خاصة موقف الفاحص من مجاعة نقشت أخبارها

ص: 72

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 57-58.

2- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى - الإسكندرية 1966 ص 128-129. و كذا F, eriac eL, enneicnA etpygE'l 129-128. و كذا I, ERA, detsaerB. H. J 181. p, 1906 و كذا, snad enimaF aL, reidnaV. J 101. p, 1936

3- P, tic, po reidnaV. T 114

4- تعرضت مصر لكثير من المجاعات في العصور الوسطى بسبب انخفاض النيل، كالتي حدثت على أيام الأمويين في عام 87 م، و على أيام الإخشيديين في أعوام 329 م، 338 م، 341 م، 343 م، 351 م، و لعل أشهر و أشع المجاعات ما سجله البغدادي أثناء الشدة المستنصرية التي بدأت عام 457 م، و استمرت سبع سنين متصلة في أخريات أيام الفاطميين، و بلغ من قسوته أن أكل الناس القطط و الكلاب، ثم الجيف، ثم أكلوا بعضهم بعضا، حتى انتهت بفناء رهيب للسكان، لا يملك قارئ البغدادي إلا أن يتصوره فناء كاملا أو شبه كامل (أنظر: جمال حمدان: المرجع السابق ص 244-245، محمد حمدي المناوي: مصر في ظل الإسلام 171/1-175، الكندي: كتاب الولاية و كتاب القضاة ص 59 (بيروت 1908)، السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة 154/2).

على الصخر من جزيرة سهيل جنوبي أسوان، ولئن كان الخبر منسوباً إلى أيام الملك «زوسر» من الأسرة الثالثة فالذي لا شك فيه إنما نقش بعده بعشرين قرناً من الزمان، نقشه كهان «خنوم» على عهد البطالة، ربما عام 187 ق. م.

على أيام بطليموس الخامس، وربما بطليموس العاشر في أكبر الظن، أي في الفترة (107-88 ق. م.)، وغير بعيد أن يكون النص صوتاً من واقع بعيد، يرجع إلى أيام الصديق، وأن كهان خنوم حين كتبوه على عهد بطليموس الخامس أو العاشر، إنما كانوا تحت تأثير ما كان يومئذ من أصداء الماضي السحيق، وبما ورد في التوراة من أصداء السنين السبع الشداد التي جرت بها السنة من كان بمصر يومئذ من يهود، بخاصة وأن الترجمة السبعينية (1) للتوراة كانت قد تمت بمصر على أيام بطليموس الثاني (284-246 ق. م.)، وأن هناك جالية من يهود إنما كانت تقيم في اليفانتين (جزيرة أسوان) (2) وتطل من حيث الموقع على جزيرة سهيل حيث نقش نص المجاعة (3).

وعلى أية حال وأياً ما كانت ظروف هذه المجاعات التي كانت بسبب عدم فيضان النيل، فإن المجاعة التي كانت ستحدث على أيام الصديق في عهد

ص: 73

1- انظر: عن الترجمة السبعينية للتوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 107/3 - 112).

2- أنظر: عن الجالية اليهودية في أسوان (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1076/2 - 1102).

3- أنظر: عن نقش المجاعة على جزيرة سهيل: محمد بيومي مهران: مصر 366/1 - 366، إسرائيل 1/227 - 229، و كذا، oriaC, P, tic- po, TENA, nosliW. A. J 32- 31. p, 1966، و كذا، lehaS a enimaF aL ed eletS aL, teugraB. P 1953 reidnaV. J. 139- 132

الهكسوس، إنما كانت حقيقة لا ريب فيها، لو لا أن تداركت رحمة الله أرض الكنانة بحكمة يوسف عليه السلام، و من ثم فقد كانت أيام الصديق في مصر خيرا كلها، دينا و دنيا، بل إن وجود يوسف في مصر حين من الدهر، شرف ما بعده شرف، و أن دعوته كانت رحمة و هداية للمصريين، ما في ذلك من ريب، و أن الصديق عليه السلام قد أنقذ الله به مصر من مجاعة محققة، كادت تهلك الحرث و النسل، و أنه قد نشر في مصر دعوة التوحيد و بث العقيدة الصحيحة، ما في ذلك شبهة من شك، و هكذا حمل الصديق عليه السلام إلى مصر نور الإيمان و هداية التوحيد، و عدالة الله، و كل ما هو خير و طيب من نعم الله التي يجريها، سبحانه و تعالى، على أيدي المصطفين الأخيار من أنبيائه الكرام البررة.

[2] يوسف و إخوته في مصر :-

ما أن تمضي سنون الرخاء السبع، و تبدأ سنون الجفاف في مصر، حتى يجتاح أرض كنعان (فلسطين) جذب، فتفقر الأرض و تعم المجاعة، و تتجه كنعان صوب أرض الكنانة، الطيبة و الكريمة كذلك، لعلها تجد عندها المأوى، كالعهد بها دائما و أبدا، و ينطلق أبناء يعقوب إلى مصر مع المنطلقين، فقد أصابهم من الجوع ما أصاب غيرهم، و يتعرف الصديق على إخوته و هم له منكرون، و هذا من بديهيات الأمور، فإن يوسف قد عرفهم لقوة فهمه، و عدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقتهم إياهم و هم رجال، و تشابه هياتهم و زيّهم في الحالين، و لكن همته معقودة بهم و بمعرفة أحوالهم، لا سيما زمن القحط، و أما هم فلم يعرفوه لأن خيالهم لا يتصور قط أن هذا الوزير الخطير، هو ذلك الغلام العبراني الذي ألقوه في الجب منذ عشرين عاما أو تزيد، فقد كبر بعد صغر، و اغتنى بعد فقر، و عاش بعد أن دفعوه إلى الموت، و عزّ بعد أن حقّروه و أهانوه، و ورّر بعد أن كان من رعاة

الأغنام، فكيف يعرفون وجودا من عدم، و من أجل هذا عرفهم، و هم له منكرون، و لم يخطر على بالهم أنه نجا من الجب الذي ألقوه فيه، و أنه عاش و كبر، و نزع من كنعان إلى مصر ليصير وزيرا خطيرا (1).

و من عجب أن التوراة، و من نحا نحوها من المفسرين، إنما تفاجئنا بصورة غريبة عن محاورة دارت بين يوسف و إخوته، تذهب فيها إلى أن الصديق إنما عرف إخوته منذ اللحظة الأولى للقائه بهم، و أنه قد اتهمهم بالتجسس ثم حبسهم أياما ثلاثة، ثم أطلق سبيلهم، و إن استبق أخاهم «شمعون» حيث قيده على مرأى منهم، حتى يعودوا إليه بأخيهم «بنيامين» (2)، و هذا التهديد، إن حملناه محمل الجد، فلا بد من القول إنه إنما يدل على أن يوسف إنما كان يحمل حقدا دفيناً على إخوته، و هو أمر لا نشك في براءة الصديق منه البراءة، كل البراءة، هذا و قد ذهبت جمهرة من المفسرين و المؤرخين المسلمين إلى أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه عرفهم و قال كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: جئنا للميرة، قال لعلكم عيون (جواسيس) علينا، قالوا: معاذ الله، قال فمن أين أنتم، قالوا من بلاد كنعان، و أبونا يعقوب نبي الله، قال: و له أولاد غيركم، قالوا نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا و هلك في البرية، و كان أحبنا إليه، و بقي شقيقه فاحتبسه ليتسلى به عنه، و جئنا نحن العشرة، فأمر بإنزالهم و إكرامهم (3).

و أما القرآن الكريم فقد ذكر أن يوسف أكرم وفادتهم، ورد إليهم ما

ص: 75

1- تفسير أبي السعود 288/4، محمود زهران: قصص من القرآن ص 87.

2- تكوين 7/42-24.

3- أنظر: تفسير النسفي 288/2، تفسير الجلالين 249/2، مختصر تفسير ابن كثير 255/2، صفوة التفاسير 58/2، تاريخ الطبري 1/348، الكامل لابن الأثير 84/1، البداية و النهاية لابن كثير 1/211.

دفعوه من ثمن دون أن يشعروهم (1)، وجاء أن يغريهم ذلك بإحضار شقيقه بنيامين، وهددهم بلطف إن لم يأتوا به فلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ، ولم يرد في الذكر الحكيم مما ورد في التوراة من إساءته لإخوته، إذ أن ذلك لا يتفق و الصورة التي رسمها القرآن الكريم وأبرز معالمها لشخصية يوسف، و ما اتسمت به من حلم وإخلاص وبر، وهو الذي علمه ربه وأحسن هدايته، و طهر قلبه من الحسد، قال تعالى منها بشأته: كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (2).

و دارت مفاوضات بين يعقوب عليه السلام وأبنائه انتهت بقبوله إرسال بنيامين معهم، على أن يؤتره موثقا من الله أن يردوه عليه، إلا أن يحاط بهم (3)، فلما آتوه موثقهم جعل النبي الكريم يوصيهم بما خطر له، وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقْتُكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ، وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (4).

و تضرب الروايات و التفاسير في هذا و تبدي و تعيد بلا ضرورة، و لو كان السياق القرآني يحب أن يكشف عن السبب لقال، و لكنه قال فقط «إلا حاجة في نفس يعقوب قضاهها، فينبغي أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق احتفاظا بالجو الذي أراده، و الجو يوحى بأنه كان يخشى شيئا عليهم، و يرى

ص: 76

-
- 1- جاء في تفسير الظلال (4/2016) أن يوسف لم يعطهم قمحا، إنما وضع لهم بضاعتهم في رحالهم، فلما عادوا قالوا: يا أبانا منع منا الكيل، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم، و كان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم، و كان هذا بعض الدرس الذي عليهم أن يأخذوه.
 - 2- أنظر: سورة يوسف: آية 58-63.
 - 3- سورة يوسف: آية 63-66.
 - 4- سورة يوسف: آية 67-68.

في دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشيء، مع تسليمه بأنه لا يغني عنهم من الله شيء، فالحكم كله إليه، والاعتماد كله عليه، إنما هو خاطر شعر به، و حاجة في نفسه قضاها بالوصية، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة، فقد علمه الله هذا فتعلم بنور النبوة أنه لا ينفع حذر من قدر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ثم ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة، وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن العين حق، وقال صلى الله عليه و سلم العين حق تدخل الرجل القبر، و الجمل القدر، و كان صلى الله عليه و سلم يعوذ الحسن و الحسين فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة و من كل عين لامة»، و في رواية «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان و هامة، و من كل عين لامة»، و كان صلى الله عليه و سلم يقول: كان أبوكما (يعني إبراهيم) يعوذ بهما إسماعيل و إسحاق» (رواه البخاري)، أو كان يعقوب يخشى على أولاده غيرة الملك من كثرتهم و فتوتهم أو هو تتبع قطاع الطرق لهم، أو كائنا ما كان فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع (1).

و على أية حال، فما أن دخلوا على يوسف و رأى أخاه، حتى سجد شكراً لله على أن ساق إليه أخاه و وجده على قيد الحياة، في يد أعداءه، و هم الذين من قبل طاردوا أخاه، و ثارت شجون يوسف لما رآه، و تحركت نفسه لسابق ما عاناه، فمال على أخيه بنيامين و قال: إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون، و سادبر أمرا و هم لا يشعرون، و ستبقى و هم راحلون، فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ، ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيبُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ، قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ، قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ، وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ، قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِيهِ

ص: 77

1- في ظلال القرآن 2018/4، صفوة التفاسير 59/2، تفسير النسفي 230/2، تفسير أبي السعود 292/4، مختصر تفسير ابن كثير 2/256.

الآ زُضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ (1)، قال البيضاوي استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم، و ككم أفواه الدواب لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد (2)، و هنا سألوهم: فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ، قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (3).

و هنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله يوسف، و طبقا الرواية ابن كثير، فقد كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه، أو كما يقول صاحب الظلال: فقد كان المتبع في دين يعقوب أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيراً أو رقيقاً في مقابل ما يسرق، و تقول التوراة: الذي يوجد معه من عبيدك يموت، و نحن أيضاً نكون عبيداً لسيدي، فقال نعم الآن بحسب كلامكم هذا يكون الذي يوجد معه يكون لي عبداً، و أما أنتم فتكونون أبرياء»، و لما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق، ذلك ليتم تدبير الله ليوسف و أخيه، ذلك لأنه لو حكم فيهم بشريعة ملك مصر ما تمكن من أخذ أخيه، إنما كان يعاقب السارق على سرقته، دون أن يستولي على أخيه، كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم، و هذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه، و هو كيد الله له، و الكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء و إن كان الشر قد غلب عليه (4).

و بدأ التفتيش، و أرشدت الصديق حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل

ص: 78

1- سورة يوسف: آية 70-73.

2- تفسير البيضاوي 2/267.

3- سورة يوسف: آية 74-75.

4- تفسير الظلال 4/2019-2020، مختصر تفسير ابن كثير 2/257، تفسير النسفي 2/232 تكوين 9/44-10.

رحل أخيه، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش، قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعا و لا ينظر وعاء إلا أستغفر الله مما قذفهم به، حتى بقي أخوه، وهو أصغرهم، فقال: ما أظن هذا أخذ شيئا، فقالوا والله لا نتركك حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه، فلما أخرجها منه نكس الأخوة رؤوسهم من الحياء وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له: فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل. وفي رواية لابن الأثير قالوا: يا بني راحيل لا يزال لنا منكم بلاء، فقال بنيامين: بل بنو راحيل ما يزال لهم منكم بلاء، وزاد الطبري: ذهبت بأخي فأهلكتموه في البرية، وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، فقالوا: لا تذكر الدراهم فتؤخذ بها. ثم صاح الأخوة، وقد حرك الحرج الذي يلاقونه الآن كوامن حقدهم على بنيامين، وعلى يوسف قبله، فإذا هم ينتصلون من نقيصة السرقة، و ينفونها عنهم و يلقونها على أبناء هذا الفرع من أبناء يعقوب (أبناء راحيل) قالوا: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل»، و تنطلق الروايات و التفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعالنية و حكايات و أساطير، فمن قائل إنه كان سرق صنما لجده أبي أمه فكسره فعيروه بذلك، و من قائل كان بنو يعقوب على طعام، إذ نظر يوسف إلى عرق (وهو العظم أكل لحمه) فخبأه فعيروه بذلك، إلى غير ذلك من روايات لا سند لها، و كأن أخوة يوسف لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف، و كأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعا للتهمة التي تخرجهم، و تبرءوا من يوسف و أخيه السارق، و إرواء لحقدهم القديم على يوسف و أخيه، و على أية حال، فلقد أسرها يوسف في نفسه و لم يبدها لهم (1).

ص: 79

1- تفسير النسفي 2/232، تفسير الظلال 4/2022، صفوة التفاسير 2/62، تاريخ الطبري 1/354-355، الكامل لابن الأثير 1/85، مختصر تفسير ابن كثير 2/258، البداية و النهاية 1/213.

ثم سرعان ما عاد أخوة يوسف إلى الموقف الحرج الذي وقعوا فيه، و إلى الموثق الذي أخذه عليهم أبوهم، فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى، الشيخ الكبير، و يعرضون أن يأخذ بدله واحدا منهم، إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه، و يستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه و صلاحه و بره لعله يلين «قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدا منا مكانه إنا نراك من المحسنين»، و لكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درسا، و كان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم و لأبيه ليكون وقعها أعمق و أشد أثرا في النفوس «قال معاذ الله أن نأخذ إلا- من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون»، و لم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئا بجريرة سارق، لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق، فعبر أدق تعبير يحيكه السياق هنا باللغة العربية بدقة، قال صاحب تفسير روح المعاني: و التعبير بقوله «من وجدنا متاعنا عنده» بدل «من سرق» لتحقيق الحق و الاحتراز عن الكذب (1).

و هكذا وقع القوم في ضيق، و انحدروا في مأزق، و ابتعدوا عن الناس، و تناجوا في أمرهم، «قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله و من قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي و هو خير الحاكمين، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق و ما شهدنا إلا ما علمنا و ما كنا للغيب حافظين»، و إن كان في شك من أمرهم فليسأل القرية (2) التي كنا فيها، أو ليسأل القافلة التي كنا فيها فهم

ص: 80

1- في ظلال القرآن 4 / 2022، تفسير روح المعاني 13 / 34.

2- القرية هنا ليست اسما لعاصمة مصر، حتى و إن رأى البعض أن اسم القرية إنما يعني المدينة الكبيرة لأن عاصمة مصر على أيام الهكسوس (أفاريس) و هو عصر يوسف، لم تكن عاصمة لمصر كلها، و إنما للجزء الذي كان يحكمه الهكسوس حتى مدينة القوصية (شمالي أسبوط بحوالي 15 كيلا-) فحسب، و لأن الله وصف مكة المكرمة عند ظهور الإسلام بأنها أم القرى (الأنعام 92) ثم يصف عاصمة مصر كلها بأنها قرية، و من ثم فالرأي عندي أنها ربما كانت القرية أو المدينة التي اختيرت لتوزيع الغلال خارج العاصمة أو قريبا منها.

لم يكونوا وحدهم فقد كانت القوافل ترد مصر بكثرة كثرة لتمتار الغلة من أرض الكنانة في السنين العجاف، غير أن يعقوب ما كان يبحث عن أعذار، و من ثم فقد انصرف إلى ربه يدعوه و يضرع إليه و يقول: «بل سولت لكم أنفسكم أمرا، فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا، إنه هو العليم الحكيم»، و تولى عنهم يبكي ولدا بعد ولد، و الجرح الأول أعمق، و الجرح على الجرح أنكى و أشد، «و قال يا أسفا على يوسف و ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم»، و يبلغ الحقد بقلوب بنيه لا يرحموا ما به، و أن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف و حزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم، فلا يسرون عنه و لا يعزونه، و لا يعللونه بالرجاء، بل يريدون أن يطمسوا في قلبه الشعاع الأخير، «قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين»، و يرد عليهم بأن يتركوه لربه، فهو لا يشكو لأحد من خلقه، و هو على صلة بربه غير صلتهم، و يعلم من حقيقته ما لا يعلمون، ثم يوجههم إلى تلمس يوسف و أخيه، و ألا يبأسوا من رحمة الله في العثور عليهما، فإن رحمته واسعة و فرجه دائما منظور (1).

و جهز القوم جهازهم و حملوا متاعهم و بضاعتهم، و دخلوا مصر، للمرة الثالثة، و قد هدّهم التعب و كدهم العيش، و ضاقت بهم السبل، و كاد أن يقضي عليهم القحط القاتل، فلقد أضرت بهم المجاعة، و نفدت منهم النقود، و جاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد، يدخلون و في حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل، و شكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام، و دخلوا على يوسف فقالوا: يا أيها العزيز مسنا و أهلنا الضرّ و جئنا ببضاعة مزجاة من صوف و دراهم زيوف أو رديئة، قال ابن عباس، فيما يروي الرازي، كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام،

ص: 81

ثم سألوه «فأوف لنا الكيل و تصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين»، وكان الصديق عليه السلام دقيق الحس، رقيق القلب، لطيف الوجدان، وإلى هذا الحد لا يطيق أن يرى على إخوته الذل والتذلل، والمهانة والاستكانة، و طلب الصدقة والمعونة، و من ثم فقد أعلمهم بحقيقة أمره و عفا عنهم، و قال لهم «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا، و أتوني بأهلكم أجمعين»، و أما كيف عرف الصديق أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل، فذلك مما علمه الله، و المفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة، و ما لها لا تكون خارقة، و يوسف نبي رسول، و يعقوب نبي رسول (1).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن صياغة التوراة لدعوة يوسف أباه و أهله أن يأتوا إليه في مصر، إنما تعطي تأكيدا يكشف عن مطامع يهود في مصر، تقول التوراة «خذوا أباكم و بيوتكم (خيامكم) و تعالوا إلي فأعطيكم خيرات أرض مصر و تأكلون دسم الأرض ... خذوا لكم من أرض مصر عجالات لأولادكم و نسانكم و احملوا أباكم و تعالوا، و لا تحزن عيونكم على أثاثكم لأن خيرات جميع أرض مصر لكم (2)»، كما أن التوراة لم تهمل كذلك أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجاهدين الجياع إلى مصر المضيفة، دائما و أبدا، إنما كانت للقوت، و لكنها تؤكد كذلك أنها لتحقيق مؤامرة على الأرض الطيبة التي استضافتهم (3).

و على أية حال، فإن يعقوب عليه السلام، سرعان ما يصل إلى مصر، بعد أن ارتد بصيرا، و يصف القرآن الكريم لقاء يوسف بأبيه و إخوته في قول الله تعالى: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن

ص: 82

1- في ظلال القرآن 4/ 2026-2027، تفسير الفخر الرازي 18/ 201.

2- تكوين 18/ 45-20.

3- تكوين 1/ 46-4.

شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ، ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (1).

و تذهب التوراة إلى أن يعقوب عليه السلام، إنما جاء و معه كل أفراد أسرته «ست و ستون نفسا»، فضلا عن نساء بني يعقوب، و أبناء يوسف اللذان ولدا في مصر نفسان، جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون (2).

[3] استقرار بني إسرائيل في أرض جوشن:-

تروي التوراة أن يوسف عليه السلام طلب من أبيه و إخوته أن يقولوا للملك إذا ما سألهم عن صناعتهم: عبيدك أهل مواشي منذ صابنا إلى الآن نحن و أبأؤنا جميعا لكي تسكنوا في أرض جاسان، لأن كل راعي غنم رجس للمصريين (3)، و هكذا يذهب إخوة يوسف إلى ملك مصر يسألونه السكنى

ص: 83

1- سورة يوسف: آية 99-102، و انظر: تفسير الكشاف 504/2-507، تفسير ابن كثير 334/4-337، تفسير الطبري 118/13-126، تفسير الفخر الرازي 210/17-217، تفسير أبي السعود 293/4 و ما بعدها، تفسير القرطبي ص 3492-3494، الدار المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 27/4-40، محمد رشيد رضا: تفسير سورة يوسف ص 126-130 (القاهرة 1936)، تفسير النسفي 235/4-240، صفوة التفاسير 68/2-69 (بيروت 1981).

2- تكوين 26/46-27.

3- تكوين 33/46-34.

في أرض جاسان، و يجيب الملك سؤلهم (1)، و لعل في اختيار هذا المكان، إلى جانب جودته، روعى فيه قربه من حدود مصر الشرقية، و سيناء المطلة على أرض كنعان، حيث ورد يعقوب و بنوه، كي يقيموا ما أحبوا الإقامة، و يرحلوا متى شاءوا الرحيل (2).

و هكذا استقر المطاف ببني يعقوب إلى الاستقرار في مصر، حيث نزلوا أرض جوشن (جسم أو جسام، كما قرئ اسمها في النصوص المصرية (3))، أو أرض «جاسان»، كما وردت في توراة يهود، و يكون استقرارهم هذا في تلك البقعة من وادي طميلات شرقي الدلتا، فاتحة لقصة تاريخ أكبر تشعبت أحداثه، و تقلبت فصوله.

على أن هناك خطأ تاريخيا في رواية التوراة، حيث تقول في سفر التكوين أن يوسف قد أسكن أباه و أخوته في «أرض رعمسيس»، ذلك لأن كلمة «رعمسيس» لا تستعمل إلا منذ الأسرة التاسعة عشرة (1308-1194 ق م)، و ليس منذ عهد الهكسوس (حوالي 1725-1575 ق. م)، و هو العصر الذي يفترض دخول بني يعقوب فيه مصر، كما سوف نفصل ذلك فيما بعد.

و على أي حال، فلقد قام جدل طويل حول موقع «أرض جوشن» أو جاسان، و ربما كان ذلك لأن «أرض جوشو» لم تذكر في أي نقش مصري (4)، و إنما بدلا عنها «أرض جسم أو جاسم» (5). هذا فضلا عن أن

ص: 84

1- تكوين 5/48-6.

2- كمال عون: اليهود من كتابهم المقدس - القاهرة 1970 ص 85.

3- ., 1959, p. 57. elbiB al te tpyg'E'L, tetnoM. P.

4- جيمس بيكي: الآثار المصرية في وادي النيل - الجزء الأول، ترجمة لبيب حبشي و شفيق فريد، مراجعة محمد جمال الدين مختار، القاهرة 1963 ص 49.

5- .. P 57, elbiB al te tpyg'E'L, tetnom. P

التوراة نفسها، إنما هي مضطربة في تحديدها بالنسبة إلى مصر، فهي في بعض نصوص التوراة، إقليم يقع على مقربة من مصر، ملائم لرعي الماشية، و لكنه غير مسكون بالمصريين (1)، وهي في نصوص أخرى- توراتية كذلك (2)- ليست إقليما مجاورا لمصر، و لكنه جزء من مصر نفسها (3)، و ليت الأمر اقتصر على ذلك بل إن التوراة إنما تطلق نفس هذا الإسم (أرض جوشن)، على منطقة في فلسطين الجنوبية، تقع فيما بين غزة و جبعون (4)- و تقع في مكانها الآن قرية الجيب، على مبعده خمسة أميال إلى الشمال الغربي من أورشليم (5)- أحيانا، و على واحدة من مجموعة مدن في جبال يهوذا أحيانا أخرى (6).

وقد أدى ذلك كله إلى وجود أكثر من رأي بشأن موقع «أرض جوشن» فهناك من يرى مطابقتها بالمدينة و الإقليم المعروف لدى المصريين باسم «بر- سوبد» (صفت الحنة الحالية) (7)، و هناك فريق ثان يذهب إلى أنها إنما تقع في وادي طميلات، و تمتد من بحيرة التمساح حتى النيل (8)، على أن هناك من يرى أن وادي طميلات إنما يمتد من فرع النيل الشرقي حتى بحيرة التمساح الحالية، التي تقع في وسط قناة السويس، و يمثل اتساعا من أراض زراعية على الحد الشرقي لدلتا النيل المصرية، مجاورا لصحراء سيناء

ص: 85

- 1- تكوين 46: 34، خروج 9: 16.
- 2- تكوين 47: 6، خروج 3: 22821، 11: 2.
- 3- AEJ, renidraG A 262. p. 1918، 5، و كذا، AEJ ellivan. E. 10 31. p. 1924. 10.
- 4- قاموس المتاب المقدس 246/1.
- 5- يشوع 10: 41، 11: 16.
- 6- يشوع 15: 51، قاموس الكتاب المقدس 277/1 (بيروت 1964).
- 7- جيمس بيكي: المرجع السابق ص 49.
- 8- .p, tic. po, regnu. FM 420 .

مباشرة، و يبدو أن وادي طميلات- وربما جزءا منه- كان له اسم في العصور القديمة يظهر في التوراة على شكل «أرض جوشن» أو «جاسان»، و طبقا لما جاء في سفر الخروج (1) فإنه كان في أرض جوشن التي استقر فيها الإسرائيليون إبان هبوطهم مصر (2).

على أن هناك فريقا ثالثا، إنما يذهب إلى أن أرض جوشن إنما تقع في شبه جزيرة سيناء، و تمتد فيما بين تانيس و منطقة العريش، فضلا عن وادي طميلات الذي ينحدر من الشرق إلى الغرب فيما بين الزقازيق و الإسماعيلية (3)، و إن كان هناك فريق رابع يتردد في ذلك، على أساس أن هناك «جوشن» أخرى، قد ذكرت مع «قادش» و غزة في جنوب فلسطين، و تقع في تخوم نهر مصر (وادي العريش)، و بما أن هاجر أم إسماعيل دعيت في التوراة «مصرية»، فمن المستطاع إذن القول باتساع اسم مصر، و الأمر كذلك بالنسبة إلى «برية أرض مصر» حيث وضع «حزقيال» (4)- على ما يبدو- هؤلاء الإسرائيليين الرحل (5).

و هناك فريق خامس، يذهب إلى أن أرض جوشن إنما هي وادي طميلات- و الذي يرى أنه يمتد شرقا و غربا من الزقازيق حتى الإسماعيلية- غير أن هذا التوحيد غير مؤكد (6)، ذلك لأن الدكتور «سير ألن جاردنر» (1879-1962 م) يرى أن الكلمة المصرية التي قرأها «هينرش بروجش» (1827-1894 م) و «إدوارد نافيل» (1875-1914 م)، على أنها

ص: 86

1- خروج 8: 18. 9: 26.

2- , 1965 , M 113. p. htoN. ehT. yrotsiH fo learsI ,nodnoL.

3- حسن محمود: حضارة مصر و الشرق القديم- العبرانيون ص 351.

4- حزقيال 20: 26.

5- , 1965 , S 359. p. egdirbmaC, III, HAC, skooc. A.

6- 178. p. ,sdoL ,learsI ,mroF sti sgninnigeB eht ot elddim eht fo thgiE eht yrutneC ,nodnoL.

«جوشن» كانت اسما لسيناء (1)، وهناك تقاليد يهودية عديدة وضعت مكان استيطان العبرانيين بعيدا إلى الشمال، ناحية تانيس و بلوزيوم (2).

و مع ذلك، فهناك احتمال أن يكون وادي طميلات، على الأقل جزءا من «أرض جوشن»، ذلك لأن مدينة «بيشوم» (3)، كانت بالتأكيد في هذا الوادي و الأمر كذلك بالنسبة إلى مدينة «هيرونبوليس» و التي وحدتها الترجمة السبعينية التي تمت بمصر في عهد بطليموس الثاني (284-246 ق.م)، مرتين بجوشن (4)، هذا فضلا عن أن وادي طميلات إقليم بدوي تخترقه ترعة تتغذى من مياه النيل، وفي الوقت الحاضر- و طبقا للتطور الزراعي- تستطيع إعالة اثني عشر ألفا من السكان المزارعين، و لكن كان يسكنها منذ قرن مضى أربعة آلاف من البدو، وهكذا كانت طبيعة هذا الوادي وقت أن سمح موظف الحدود على أيام مرنباح (1224-1214 ق.م) لقبائل البدو الشاسو من أدوم بالدخول (5).

و الرأي عندي، أن «أرض جوشن» هذه، إنما تقع في وادي طميلات و الذي يمتد من فرع النيل الشرقي (البيلوزي) متجها نحو الشرق، حتى بحيرة التمساح- ذلك لأننا لا نستطيع أن نجعل «أرض جوشن» هذه في جنوب فلسطين، أو في المنطقة الممتدة من وادي العريش حتى غزة، إذ أن ذلك إنما يتعارض تعارضا تاما مع القول بأن الإسرائيليين دخلوا مصر و عاشوا فيها

ص: 87

1- .AEJ nehsoG fo emaN eht fo tnelaviuqE naitpygE desoppuS ehT ,renidraG .H .A 23- 18. p، 1918، 5، .-

2- مز مور 78: 12.

3- خروج 1: 11.

4- تكوين 28-29: 45.

5- .. 172- 174 .A tic. po, sdoL .p.

هذا فضلا عن أن إطلاق اسم «جوشن» على منطقة بجنوب فلسطين، ربما كان إحياء لذكرى مصر التي ترسبت في نفوس القوم، دون أن يجدوا لها فكاكا، وقد ظهر ذلك الإسم على مدينة في جبال يهوذا كذلك، ربما لأن هذه المنطقة إنما كانت خصبة بدرجة تشبه في ذلك منطقة جوشن في مصر، كما أن الاضطهاد الذي تحدثت عنه التوراة قد ارتبط ببناء مدينتي رعسيس و فيثوم، و كانت الأولى في موقع على الأقل ليس ببعيد عن وادي طميلات، أما الثانية «فيثوم» (بيثوم بر- أتوم)، فهي بالتأكيد في هذا الوادي، كما أن خروج بني إسرائيل إنما تم من هذه المنطقة (من رعسيس إلى سكوت ... الخ)، و ليس هناك من دليل - أو حتى مجرد إشارة- على أن الإسرائيليين قد نقلوا من منطقة استقرارهم الأولى على أيام يوسف الصديق، و حتى الخروج على أيام موسى الكليم، عليهما السلام.

و أيا ما كان الأمر، فقد دخل الإسرائيليون مصر، و استقروا في «أرض جوشن»، و إن كان بعض الباحثين إنما يحاول أن يتشكك في ذلك كله، و أن ينفي دخول العبرانيين مصر من أساس، معتمدين في ذلك على عدة أسباب، منها (أولا) أنه لا توجد وثائق غير إسرائيلية تؤكد صحة التقاليد العبرية الخاصة بإقامة الإسرائيليين في مصر و خروجهم منها، و إن كان بعض المفسرين قد بحثوا جادين لإعطاء النصوص و التفسيرات المطلوبة.

و منها (ثانيا) أن النقوش المصرية المختلفة تسجل دخول الآسيويين مصر، و لكن ليس واحدا منها يشير إلى دخول بني إسرائيل أرض الفراعين، و إن كانت قد أشارت إلى العمال الآسيويين الذين كانوا يقدون إلى مصر، و يستخدمهم الفراعين في أعمال البناء، و كان يطلق عليهم «عبر» (R. P)،

و تقرأ «عايرو» (uirupA)، و قد استدل عليهم كثير من علماء المصريات، مثل «شاباس»، و علماء العبرية- من أمثال هومل و سكونر و درايفر و كريجلز- الذين و هوهم بالعبريين، إلا أن ذلك لم تثبت صحته بسبب الصعوبات

اللغوية، وأما عن وجود «العابرو» في مصر، فأمر تويده نقوش مصرية، ترجع إلى أيام «رعسيس الرابع» (1151-1145 ق.م) - من الأسرة العشرين- وهي ترجع إلى فترة متأخرة عن أي تاريخ مقترح لخروج بني إسرائيل من مصر، ومن هنا يمكننا- اعتمادا على سكوت المصادر المصرية- أن نستنتج أن دخول الإسرائيليين مصر، إنما هو خيال بحث، لا يعتمد على أي أساس تاريخي.

ومنها (ثالثا) أن كلمة «مصريايم» التي وردت في التوراة لا تدل على مصر، وإنما على الإقليم الواقع شمال شبه الجزيرة العربية والذي يمتد غربا حتى حدود مصر الشرقية، ولهذا فإن ما يقال عن إقامة العبريين في مصر، معناه إقامتهم في جنوب فلسطين، أو في شبه جزيرة سيناء، ذلك أن الخروج- طبقا لنظرية العالم اليهودي هوجوفنكلر- لم يحدث من مصر، إذ أن «فنكلر» يعتقد أن اسم «مصريايم» لم يكن مقصورا على الإشارة إلى مصر، ولكنه كان كذلك يشمل الإقليم الذي سماه الجغرافيون البابليون «مصر» (أو موصري)، والذي يقع جنوب البحر الميت شمال شبه جزيرة العرب، ويمتد غربا حتى حدود مصر الشرقية ويضم جبل سعيير ومدينة البتراء وأراضي مدين وأدوم.

ويعتقد «فنكلر» أن التقاليد الأصلية عند ما تحدثت عن إقامة الآباء- وبخاصة موسى- في «مصريايم»، فقد كانت تشير إلى ذلك الزمن، حيث عاش أسلاف العبرانيين في صحراء جنوب فلسطين، ثم بدأ سكان كنعان يستخدمون اصطلاح «مصريايم» على المراعي الجنوبية، وكذا على مصر نفسها، ذلك البلد الذي يقع بالنسبة إليهم فيما وراء الصحراء، ولعل مما يفسر افتراضنا هذا، أن الوادي القريب من غزة سمي «نهر مصريايم»، بالرغم من أنه كان على مسيرة ثلاثة أيام من الحدود المصرية، ومن هنا فمن الممكن أن يشير اسم «مصريايم» في بعض النصوص و التقاليد العبرية إلى الصحراء

المصرية، وليس إلى اسم مصر بالذات (1).

غير أن هناك كثيرا من الصعاب التي تقف عقبة كئود في سبيل قبولنا لوجهة النظر هذه، منها (أولا) أن التقاليد الإسرائيلية لا تتحدث عن مجرد الإقامة المؤقتة في «مصر»؛ ولكنها تتحدث كذلك عن استبعاد الآباء الأولين فيها، وليس من المقبول أن يتحدث العبرانيون عن استعبادهم في مصر بهذه الصورة، لمجرد الثناء على قوة الرب التي يعزون إليها خلاصهم (2).

ومنها (ثانيا) أن مصر، وإن لم تقدم دليلا مباشرا على إقامة العبريين فيها، فإنها قدمت ما يجعل الإقامة والخروج منها أمرا مقبولا تماما، فهناك صلات عديدة بين الحياة في مصر، كما نعرفها من الآثار، وتفصيلات الرواية الإسرائيلية عن هذه النقطة (3)، ذلك لأن التقارير الخاصة عن أقدم صورة للتقاليد الإسرائيلية (في المصدر إيهوي) بشأن أسلوب الحياة في «جوشن» ومدن المخازن (رعمسيس وبيثوم)، تتفق مع الحقائق التي قدمتها الحفريات عنها (4)، هذا فضلا عن أن ما جاء بالتوراة من وصف لجو مصر وأحوالها، إنما يدل على إقامة فعلية في مصر، فقد وصفوا ماء النيل وقت الفيضان، وأشاروا إلى ما يعقب هبوط مستوى النيل بعد الفيضان من انتشار الأوبئة

ص: 90

-
- 1- حسن محمود: المرجع السابق 350، هز جز ويلز: معالم تاريخ الإنسانية 2/ 286 (ترجمة عبد العزيز جاويد)، محمد العزبي: مجلة الهلال يونية 1971 ص 65 و أنظر: مادة aidipolcycnE hsiweJ ehT في sudOXE و كذا: , ahhuleM, niaM, GVM, I, nilreB, 1898 H. W. relkniM. irsuM.
- 2- . A 169 . p. tic- po. sdoL.
- 3- 1956 . p. 53 . E. G. W. thgir, lacilbiB, F. ygolocahcrA . و كذا. F. J 134 . p. tic- po nageniF.
- 4- . P. tic- po sdoL. A 169 ,

و الأمراض (1)، فطبقا للمؤرخ العبراني أن سبب ذلك هو أن ماء النيل يصبح «محمرا» وغير صحي في فصول معينة من السنة، وأن أسراب الضفادع إنما تتكاثر بعد الفيضان، كما أن البعوض يتكاثر بعد انحسار المياه، وهكذا اعتقد الإسرائيليون أن مصر قد أصبحت لهذا السبب بلد الأمراض الوبائية والمستوطنة (2).

و منها (ثالثا) أن بعض أسماء الأعلام الإسرائيلية من أصل مصري، فمثلا «فينحاس» و معناه «زنجي»، و كذا موسى و هو اسم مصري (3)- كما سوف نشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد-، و منها (رابعا) أن هناك فقرات كاملة من أدب الحكمة في مصر، قد ظهرت في كتابات الإسرائيليين، كما في المزامير و كتب الحكمة (4) و أعمال أنبياء بني إسرائيل (5)، و كلها تظهر صلة الأدب العبري بالأدب المصري (6).

ص: 91

1- حسن محمود: المرجع السابق ص 351.

2- , p. tic- po. sdoL. A 170

3- .P, tic- op, nageniF. J 134

4- قارن بين الرموز 104 و نشيد أخناتون، و بين المزامير بصفة عامة و قصائد المديح المصري في الإله آمون رع، ثم قارن بين سفر الأمثال في التوراة و تعاليم الحكيم المصري أمنمويي.

5- 49 p. F, LSJA, htimS. M. J 172. و كذا، 19 p. RBJ, htimS. S. W. 15- 12. و كذا. P, tic- po, nageniF. J 134

6- قدم لنا «أوسترلي» أهم خصائص الأدب المصري التي تشبه خصائص الأدب العبري، و التي منها (أولا) أن القصائد مقسمة في كل منهما إلى فقرات و أبيات، و منها (ثانيا) تكرار استخدام التماثل، فتأخذ الفكرة في كل منهما تعبيرا مزدوجا، حتى أن السطر يتكون فيها من جملتين قصيرتين، توجد فيهما نفس الفكرة بصيغة مختلفة عن الأخرى، و منها (ثالثا) أن السطور الشعرية في كل من الأدبين تحتوي على عدد محدد و منتظم من الأنغام، و منها (رابعا) تكرار التلاعب بالألفاظ، و ورود ألفاظ كثيرة متشابهة التطور جنبا إلى جنب و منها (خامسا) الاستعمال الغريب الذي يظهر أحيانا في أخذ كلمة وردت في سطر، ثم تكرر في السطر التالي، كما كانت الاستعارة كثيرة الاستعمال أيضا، و من كل هذا- و لوجود هذه الصور في الأدب العبري- استنتج العلماء أن اليهود قد اعتمدوا في التركيب النهائي لأدبهم الشعري على النماذج المصرية بدرجة ما، و بخاصة في مجالات رئيسية ثلاث، هي: الشعر الديني، و كتابات الحكمة، و الشعر غير الديني (أنظر: drofXO, tpygE, tneicnA eht fo erutaretiL eht, namrE. A 242- 241. p, 1947

و منها (خامسا) أن هناك نصوصا صريحة في التوراة تتحدث عن دخول الإسرائيليين مصر، بل وقد ذكر كذلك أسماء الذين دخلوا منهم أرض الكنانة (1)، فضلا عما جاء في القرآن الكريم بهذا الشأن (2).

وفي الواقع- وكما أشرنا آنفا- أن التوراة ليست وحدها من بين الكتب المقدسة التي تحدثت عن دخول بني إسرائيل مصر، وإنما ذلك أمر تجمع عليه الكتب المقدسة الثلاثة، فالإنجيل يقول في الرسالة إلى العبرانيين:

«بالإيمان يوسف عند موته ذكر خروج بني إسرائيل، وأوصى من جهة عظامه، بالإيمان موسى لما كبر أبى أن يدعي ابن ابنة فرعون، مفضلا بالأحرى أن يذل مع شعب الله (3).

و أما القرآن الكريم، فإنه يتحدث بصراحة عن إقامة يوسف في مصر، وعن قدوم يعقوب وبنيه إليه فيها، يقول سبحانه و تعالى: وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا (4)، ويقول:

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ

ص: 92

1- تكوين 46: 1-27.

2- سورة يوسف: آية 99.

3- الرسالة إلى العبرانيين 11: 22-29.

4- سورة يوسف: آية 21.

الْبُدُو مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (1).

ثم يتحدث كتاب الله الكريم بعد ذلك عن حياة بني إسرائيل في مصر، وعن نماذج العذاب الذي أنزله فرعون مصر و جنده بني إسرائيل، من ذلك قوله تعالى: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (2)، ويقول:

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُمْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (3)، ويقول: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (4).

وليس هناك من ريب في أن إنكارنا لأمر تجمع عليه الكتب المقدسة لا يتفق و منتج البحث العلمي، فضلا عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء- الأمر الذي لا يقره منطوق أو عقل أو دين، فضلا عن العلم نفسه- هذا إلى أن جمهرة المؤرخين وأساتذة علم اللاهوت إنما يتحدثون عن قصة يوسف في مصر.

ص: 93

1- سورة يوسف: آية 99-100.

2- سورة البقرة: آية 49، وأنظر: تفسير الكشاف 1/137-138، تفسير الطبري 2/36-39، تفسير النسفي 1/49، تفسير روح المعاني 1/252-254، تفسير الطبرسي 1/231-235، التفسير الكاشف 1/98-100 (لمحمد جواد مغنية)، تفسير البحر المحيط 1/187-188، تفسير المنار 1/308-313، تفسير ابن كثير 1/128-129 الدر المنثور في التفسير بالمأثور 1/68-69، في ظلال القرآن 1/70-72، تفسير الجواهر ص 1/59-61.

3- سورة الأعراف: آية 141.

4- سورة إبراهيم: آية 6.

ويضيف «كيلر» إلى ذلك، أن قصة بيع الإسماعيليين للصديق عليه السلام إنما هي جد مقبولة، ذلك لأن القوم إنما كانوا يترددون على مصر لبيع التوابل و العطور التي كانت تستخدم في الخدمة الدينية، ذلك لأن هذه الأخشاب العجيبة ذات الرائحة الزكية إنما كانت تحرق في المعابد، ويستخدمها الأطباء في إبراء المرضى، والكهان في تحنيط أجساد الموتى من النبلاء (1)، بل إن هناك ما يشير إلى أن هذه التجارة قد استمرت إلى زمن متأخر جدا بعد هذا الحادث، فهناك كتابة مدونة بخط المسند في الجيزة، ذهب «أدولف جرومان» إلى أنها إنما ترجع إلى عام (264-263 ق.م) (2)- وربما إلى ما بعد عام 261 ق.م، أو حتى إلى عام 159 ق.م، فيما يرى بعض الباحثين (3)- وتشير إلى وجود جالية معينة كانت تقيم في مصر، و تتجر في الطيب و البخور، ثم «فوطيفار» و هو اسم رئيس الشرطة المصري الذي اشترى يوسف الصديق، و هو اسم وطني تماما، فهو يعني في المصرية القديمة (با- دي- بارع) بمعنى «عطية الإله رع» (4).

و هكذا يبدو لنا بوضوح أن الروايات الإسرائيلية التي تتحدث عن إقامة القوم في مصر إنما هي روايات جد صحيحة، وأنه ليس من الغريب أن تستضيف أرض الكنانة على حدودها الشرقية بعضا من البدو و الرعاة، فذلك أمر عهدناه كثيرا طوال تاريخ مصر على أيام الفراعين، و إن كان يختلف في فترات ضعفها عنه في فترات قوتها.

و من النوع الأول ما حدث في أوائل عصر الثورة الاجتماعية الأولى، حين ضعفت البلاد من الإجهاد الداخلي الذي أصابها في أعقاب الدولة

ص: 94

1- . 103- 103 K. W relle, po- tic, p

2- , 1963 p. 26. G. A namhor, A. naibar, M. nehcnu

3- فؤاد حسنين: التاريخ العربي القديم ص 269، و كذا. 73، 1939، p. 7. ROSAB

4- , 1967 p. 103. K. W relle, ehT, elbiB saH yrotsi

القديمة، فتركت الحدود مفتوحة دونما أية حماية، و من ثم فقد تدفق البدو الآسيويون إلى الدلتا واستقروا فيها (1).

و من النوع الثاني تلك القبيلة الآسيوية التي صورت على مقبرة «خنم حتب» ببني حسن، من عهد «سنوسرت الثاني» (1877-1897 ق م)، وعدتها 37 شخصا، يتقدمهم رئيس الجماعة «أبشاي» (2)، و من هذا النوع كذلك ما عرف «بتقرير موظف الحدود»؛ والذي يرجع إلى السنة الثامنة من عهد «مرنبتاح» (1224-1214 ق م)، وقد جاء فيه: أنه سمح لقبائل البدو من أدوم بدخول الدلتا الشرقية، ليظلوا أحياء و لتظل ماشيتهم حيّة، و يشير هذا الموظف إلى أن هناك أياما يستطيع البدو فيها أن يدخلوا من استحكامات الحدود لمثل هذه الأغراض (3).

و بدهي أننا لا نستطيع القول أن واحدة من هذه الهجرات الآسيوية إنما هي هجرة العبرانيين إلى مصر، إلا أن تقرير موظف الحدود هذا يبدو منه أن تقاليد التوراة إنما تشير إلى نوع من الأحداث التي كانت تقع في أغلب الأحيان، كما يصور كذلك نوع الباعث الذي قاد الإسرائيليين إلى مصر (4).

و هكذا نستطيع أن نصور دخول الإسرائيليين مصر- فيما يرى أدولف لودز- بأن جماعة من البدو العبرانيين من الصعب أن نطلق عليهم اسم قبائل- و الذين كوّنوا فيما بعد بيت يوسف (أفرايم و منسي و بنيامين)، ثم لحقت بهم

ص: 95

1- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص 99، حركات التحرير في مصر القديمة ص 73-88.

2- جيمس بيكي: الآثار المصرية في وادي النيل- الجزء الثاني ص 72-73.

3- TENA، 259. p، 1966. و كذا. A 172- 171، tic- po، sdoL. و كذا. J 258، tic- po، nosliW. و كذا. f. oN، 636.

III، tpygE fo sdroceR tneicnA، detsaerB. H. J

4- .P، tic- pO، htroN nitraM 113 .

قبائل أخرى، وأجزاء من قبائل - قد سمح لهم بالاستقرار على حدود مصر في منطقة رعوية، تقع بين الدلتا والصحراء الشرقية (العربية)، ذلك لأنهم كانوا قد اضطروا أن يتركوا أماكنهم المعتادة، بسبب مجاعة أملت بهم نتيجة الجفاف، على رواية، وبسبب إختوتهم - أي البدو الآخرين - طبقاً لرواية أخرى (قصة يوسف في التقاليد العبرية وغيرها (1)). والأمر بهذه الصور مقبول نوعاً ما رغم اختلافه في بعض الأمور مع رواية الكتاب المقدس.

ويبدو أن هذا الخلاف بين روايات التوراة وآراء المؤرخين لم يكن مقصوداً على دخول الإسرائيليين مصر، وإنما امتد كذلك إلى الأسباب التي عاشت في مصر كذلك، و من ثم فإنه على الرغم من أن التوراة تروي في سفر التكوين أن يوسف قد استدعى أباه وإخوته جميعاً للإقامة معه في أرض الكنانة، وأن يعقوب قد أتى إلى مصر، (و معه كل نسله، بنوه و بنو بنيه معه، و بنات بنيه و كل نسائه، جاء بهم معه إلى مصر) (2)، هذا فضلاً عن أن التوراة إنما ذكرت أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر وعددهم. (3)

رغم هذا كله، فإن هناك فريقاً كبيراً من المؤرخين يذهب إلى أن هناك جزءاً كبيراً ممن أطلق عليهم اسم «الإسرائيليين» لم تطأ أقدامهم أرض النيل أبداً، أو على الأقل - فيما يرى البعض - لم يبقوا بها حتى الخروج المشهور على أيام موسى، عليه السلام، وهكذا رأينا «تيودور روبنسون» يذهب إلى أن شعب إسرائيل الذي يتحدث التاريخ عنه، إنما يشمل عشائر كثيرة لم تطأ أقدامها أرض مصر مطلقاً، بل إن الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين قد يفهم منه أن يهوذا قد استقر في الجزء الجنوبي من كنعان، وأن

ص: 96

1- . 171 . A . sdoL . po- tic , p

2- تكوين 16 : 28 - 45 .

3- تكوين 46 : 7 - 27 ، أنظر : سورة يوسف : آية 93 - 101 .

قبيلة أشير كانت قد أقامت في ديارها التي استقرت فيها عند ولادة موسى (1)، ويكاد «فيليب حتى» يعتقد أن الإسرائيليين الذين دخلوا مصر، إنما هم قبيلة «راحيل» (أفرايم و منسي و بنيامين)، في زمن الهكسوس (2).

و يرى «ستانلي كوك» أن الذين هبطوا مصر لم يكونوا كل الإسرائيليين، وأن أولئك الذين بقوا في كنعان إنما كانت لهم تقاليد جد مختلفة عن تلك التي حدثت في الخروج (3)، و الأمر كذلك بالنسبة إلى دائرة المعارف اليهودية، و يتجه «السير فلنדרز بتري» نفس الإتجاه، مستندا في ذلك إلى وجود أسماء مثل «يعقوب إل» و «يوسف إل»، في قوائم انتصارات فرعون مصر العظيم «تحتتمس الثالث» (1490-1436 ق. م)، ثم يفترض بعد ذلك أن هذه الأسماء، إنما هي أسماء أولئك الإسرائيليين الذين عادوا إلى كنعان مباشرة بعد انتهاء القحط الذي ألم بها (4).

و أما المؤرخ اليهودي «سيسل جوزيف روث»، فالرأي عنده أن بيت يوسف - متضمنا سبطي أفرايم و منسي - هم الذين كانوا في مصر، و من ثم فإنه يذهب إلى أن موسى نفسه إنما كان عبرانيا أو إسرائيلييا، مع نوع من الانتساب المصري، و في كل الاحتمالات فإن الكلیم إنما ينتمي إلى قبيلة أفرايم، أكثر من انتمائه إلى قبيلة لاوى، التي نسب إليها عن طريق التقاليد العبرية، ثم يرى بعد ذلك أن هناك موجات بدوية كثيرة دخلت فلسطين، و أن أكثرها أهمية تلك التي دعيت «بيت يوسف».

و من هنا، فالرأي عنده أن هناك بعضا من القبائل الإسرائيلية لم تكن قد

ص: 97

1- تيودور روبنسون: تاريخ العالم - إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس ص 108.

2- فيلب حتى: المرجع السابق ص 193.

3- . A. S 360 . p, tic- po. kooC.

4- , 1925 , p 34, M. W 34, P. M. W 34, p, 1925 , -4 .nodnoL, learsI dnatpygE, eirteP.

شاركت في العبودية المصرية أو في الخروج من مصر، وبخاصة قبيلة يهوذا، والتي كانت بطنا كنعانيا، أكثر منه جماعة أرامية مهاجرة، وقد دخلت هذه القبيلة في المجموعة الإسرائيلية وامتصت مظاهرها القومية في تاريخ متأخر نسبياً، وربما كان ذلك في عصر الحروب و العناء الطويل الذي نجح آخر الأمر في إدخال العبرانيين إلى فلسطين (1).

ويرى «أدولف لودز» أن الجزء الأكبر من القبائل الإسرائيلية لم تهاجر إلى مصر، وإنما عاشوا حياة حل و ترحال حول الواحات الجنوبية (بئر سبع وقادش)، وأن بعض هذه القبائل هو الذي ذهب مهاجراً إلى مصر، وهناك استعبدتهم «رعمسيس الثاني» (1290-1224 ق.م)، أو أحد أسلافه، ثم هربوا بعد فترة ونصبوا خيامهم في واحة قادش، ويبدو أنهم اتحدوا هناك مع القبائل التي بقيت في هذا الإقليم، وكونوا معاً أمة واحدة (2).

وأما «هوجو جرسمان» فالرأي عنده أن القبائل التي نزلت إلى مصر إنما كانت قبائل بيت يوسف، وربما شمعون، و من المحتمل كذلك لاوى، ولكن الجزء الأساسي من الإسرائيليين قد بقي في فلسطين (3).

ويرى «مارتن نوث» أن الرحيل من مصر، والخلاص الذي تم عن «طريق البحر»، لا يفترض عدد أكبر من قبائل كاملة، وإنما جماعة صغيرة كانت في موقف يضطرها بسبب صغر حجمها إلى الهروب، وأما اسم الجماعة فهي «جماعة راحيل» التي يقع الاختيار عليها غالباً بسهولة، ولكن الأسباب التي تدعو إلى ذلك لا تبدو سليمة تماماً، وعلى أي حال، فإنه من الخطأ أن نسأل عن: أي القبائل الإسرائيلية هي التي كانت في مصر، لأن

ص: 98

1- 7, C 8- 7, R. J. C. A, H trotsiH fo yrotsiH eht p, elpoeP hsiweJ .

2- 188 . A 189- 188 . L. A sdoL. po, tic- p.

3- 184 . dibI p.

هذه القبائل الإسرائيلية قد تكونت في وحدات معينة عند ما وصلت إلى فلسطين فحسب، و أنها قد أخذت أسماءها المعروفة هناك في فلسطين كذلك.

وعلى أي حال، فيمكن الظن بأن هؤلاء المهاجرين إلى مصر، إنما كانت لهم صلات بهذه البلاد في أوقات تغيير المرعى، وربما رجع هؤلاء المهاجرون إلى نفس الإقليم مرة أخرى بعد الخروج من مصر، وإن كنا لا ندري كيف حدث هذا، وأيا ما كان الأمر، فإن العناصر التي أتت إلى مصر إنما قد وصلت إلى حدود أقاربها الذين كانوا يعيشون في مجاورات فلسطين، وربما كانوا على صلة بهذه البطون إبان إقامتهم في مصر، وأنهم قد أخبروهم بقصة «معجزة الخلاص الإلهية» التي أثرت فيهم بعمق، لدرجة أنهم نقلوا القصة إلى كل مكان، ثم إلى أحفادهم من بعدهم، على أنها قد حدثت لهم جميعا، وليس فقط إلى هؤلاء الذين كانوا في مصر وبهذه الطريقة كان الاعتراف بالعقيدة في الله، الذي أوضح عن نفسه بمهابة، وذلك عن طريق تخليصهم من أيدي المصريين القوية، ثم أصبحت هذه القصة ملكية شائعة لكل بني إسرائيل، و واحدة من الأسس الخاصة بالعقيدة التي كانت حيوية في نظام اتحاد القبائل الاثني عشر، تحت حماية قانون الرب الإجابري (1).

[4] عصر يوسف عليه السلام:-

إشارة

يختلف العلماء في تحديد عصر يوسف عليه السلام، وبالتالي في وقت دخول بني إسرائيل مصر، ولعل السبب الأساسي في ذلك أن التوراة والقرآن العظيم، لم يحددا وقتا لدخول الصديق عليه السلام أرض الكنانة، بل إنهما حتى لم يذكر اسم الملك الذي عاصر يوسف الصديق عليه السلام، هذا

ص: 99

فضلا عن أن مصر- وهي البلد التي كان يأمل العلماء أن يجدوا فيها وثائق معاصرة للأحداث التي جاءت في التوراة- لم تشر أبدا إلى هبوط الإسرائيليين إليها، بل ليست هناك أية إشارة في التاريخ المصري القديم إلى إسرائيل، فيما قبل عصر مرتباتح (1224-1214 ق. م)، و من هنا كان الخلاف بين العلماء على تحديد ذلك العصر الذي دخل الإسرائيليون فيه مصر، فهناك من رأى أنهم قد هبطوا مصر على أيام الهكسوس (حوالي 1725-1575 ق. م)، وهناك من تأخر بهم إلى أيام أمنحتب الثاني (1436-1413 ق. م).

[1] الرأي الأول:

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن عصر الهكسوس (1) إنما هو العصر الذي هبط بنو إسرائيل فيه مصر، معتمدين في ذلك على أدلة كثيرة، منها (أولا) أن التوراة تروي في سفر التكوين أن يوسف كان يركب في عربة الفرعون الثانية على أساس أنه «نائب الملك»، وفي هذا دلالة على عصر الهكسوس، ذلك لأن «حكام البلاد الأجنبية» هؤلاء، إنما كانوا أول من أدخل عربة الحرب السريعة إلى مصر، و منها (ثانيا) أن الهكسوس هم أول من استعمل العربات الرسمية في المناسبات العامة في مصر، و كانت العربة الأولى من نصيب الملك، بينما كانت الثانية من نصيب وزيره الأول (2).

و منها (ثالثا) أن «ساكن الرمال» ما كان يستطيع أن يصل إلى منصب الوزير على أيام الفراعين المصريين في تلك العصور المجيدة من تاريخ

ص: 100

1- أنظر عن عصر الهكسوس: محمد بيومي مهران: «حركات التحرير في مصر القديمة» (و هو الجزء الثالث من سلسلة «دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم») - دار المعارف- القاهرة 1976، ص 127-130، 211.

2- . 103- 105 K. W relle .p, tic-

الكنانة، ذلك لأن البدو إنما كانوا يعملون في تربية الحمير و الغنم و الماعز «و أن كل راعي غنم رجس عند المصريين» (1)، و من هنا، و في عهد سيادة الهكسوس فحسب، يجد الأسيوي الفرصة سانحة ليصل إلى أعلى المراكز في الدولة- و الأمر كذلك في أيام الضعف- و من هنا فقد وجدنا موظفين يحملون أسماء سامية في عصر الهكسوس (2) و إن كانت نبوة يوسف و تأويله الأحاديث هما سبب وصوله إلى منصبه، و ليس لأنه أسيوي.

و منها (رابعا) أن هناك «جعولا» من ذلك العصر، جاءت بها أسماء رؤساء مثل «يعقوب حر» و «عنات حر»، و مهما يكن معنى «حر» هذه، فإن «عنات» هي الإلهة السامية المعروفة، و إنه لمن الصعب أن ننحى وجهة النظر القائلة بأن الأب يعقوب قد خلد ذكره في الإسم الآخر (3). مما جعل المؤرخ الأمريكي «جيمس هنري برستد» يعتبر ذلك إشارة إلى أن قائد قبيلة يعقوب الإسرائيلية، ربما نال الفرصة ليصل إلى بعض السلطة في وادي النيل في تلك الفترة المظلمة، و التي تتناسب مع احتمال دخول بني إسرائيل إلى مصر وقت ذلك.

و منها (خامسا) ما ذهب إليه «حبيب سعيد» من أن دخول الإسرائيليين إلى مصر، إنما حدث خلال حكم الهكسوس لمصر، لأنه في مثل هذا الاضطراب التاريخي فقط، يتسنى لهم أن يلقوا ترحابا، و هم الغرباء النازحون، و منها (سادسا) أن هناك من الباحثين من يجعل الهكسوس من أصول سامية شمالية غربية، (شمال غربي الجزيرة العربية) و من ثم فهم

ص: 101

1- تكوين: 46: 34.

2- . 105- 107 K. W relle, po- tic, p.

3- . 157 G. A renidra, E. pyg fo eht P shoarah, p.

أقرباء للعبرانيين، مما جعل يوسف العبراني يجد الفرصة ليصل إلى مركز القوة في البلاط المصري (1)، و بالتالي فقد قوبل أبوه و إخوته بالترحاب من الهكسوس الساميين، و الذين سمحوا لهم بالإقامة في «جوشن» (2).

و منها (سابعاً) ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن دخول الإسرائيليين إلى مصر، إنما كان في عصر الهكسوس، على أساس أن هذا يعطي الإسرائيليين أربعة قرون كفترة إقامة في مصر، حتى تم طردهم منها على أيام رعمسيس الثاني (3) أو ولده و منها (ثامناً) ما ذهب إليه «فلنדרز بيتري» من أن عصر يوسف إنما كان على أيام الهكسوس، و يظهر ذلك عن طريق اللقب البابلي الذي أعطى له، و هو "kerbA"، و الذي هو "uhkarabA"، و هو واحد من ضباط الدولة الخمسة العظام (4).

و منها (تاسعاً) ما ذهبنا إليه من قبل من أن القرآن الكريم قد حرص في سرده لقصة يوسف، على أن يلقب الحاكم الذي عاصره بلقب «ملك» (5)، بينما حرص على أن يلقب الحاكم الذي عاصر موسى بلقب «فرعون»، و قد أثبتنا من قبل أن لقب «فرعون» (6) لم يستعمل للدلالة على شخص الملك إلا منذ أيام تحوتمس الثالث (7)، و بصفة مؤكدة منذ أيام «أخناتون» (8)، مما يدل

ص: 102

1- 1970, p. 15. I siaduJ, nietopE.

2- 4. C. htoB. pO, tiC- P,.

3- 242. G. xuoR. P, . tiC- pO.

4- 27. P. F. M. W. eirteP. P, tiC- pO.

5- سورة يوسف: آية 43 و 50 و 4 و 5. E. O. W F. yelretseO. E. O. W F. ni, learsI dna tpygE, fo ycgaeL eht

6- سورة الأعراف: آية 103 - 104، 109، 112، 123، 117، 117، 117، يونس. آية 75، 76، 83، 88، 90، هود: آية 97، الإسراء: آية 101-102، طه: آية 24، 43، 60، 78، 79، المؤمنون: آية 46 ... و هكذا.

7- 52. A. renidraG. P, . tiC- pO.

8- 1966, p. 75. A. renidnaG. rammarg naitpygE.

على أن عصر يوسف إنما كان قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة التي أستعمل فيها لقب «فرعون» (1)، و بالتالي فهو في عصر الهكسوس.

ومنها (عاشرا) أن هناك ما يشير إلى أن يوسف قد وصل إلى ما وصل إليه من النفوذ في عصر الهكسوس - وربما ليس بعد عام 1700 ق. م - ففي سفر التكوين ما يشير إلى أن قصر الملك لم يكن بعيدا عن «أرض جوشن»، وهذا يعني أن العاصمة المصرية كانت في منطقة الدلتا، وهو أمر يتفق وعصر الهكسوس، حيث كانت عصمتهم «أواريس» (حت و عرت - صان الحجر الحالية)، هذا فضلا عن أن سفر الخروج يقرر أن مدة إقامة الإسرائيليين في مصر، إنما كانت 430 سنة (2)، و حيث أن الخروج قد تم بعد عام 1300 ق. م (الأمر الذي سنناقشه فيما بعد)، فإن ذلك يرجع بعهد يوسف إلى حوالي عام 1700 ق. م، و هي فترة تتفق و حكم الهكسوس (3).

بل إننا نستطيع أن نصل إلى نفس النتيجة من إشارة سفر التكوين من أن قصر الملك كان في «أرض جوشن»، ذلك أن عاصمة مصر لم تكن في الدلتا الشرقية إلى في عصر الهكسوس، ثم في عصر الرعامسة بعد ذلك، حيث كانت «أواريس» في العصر الأول، و «بر - رعسيس» في العصر الثاني، و لما كان عصر يوسف لا يمكن أن يكون - بحال من الأحوال - في عصر الرعامسة، فهو إذن في عصر الهكسوس، بل إنني أعتقد أن تحديد إقامتهم في أرض جوشن - و هي منطقة نفوذ الهكسوس الأساسية، وقاعدة هذا النفوذ، كما نعرف - إنما يعد دليلا على أن عصر وجود الإسرائيليين في مصر، إنما كان على أيام الهكسوس.

ص: 103

1- , 1963 , W. A. J 102. p، nosli eht, tneicna fo erutuc ogacihC, tpygE و انظر عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة و

آثارها، الجزء الأول القاهرة 1962، ص 30 - 31.

2- خروج 12: 40.

3- . 28 ehT W retsenimtseH lacirotsiA saltA eht ot elbiB p.

و منها (حادي عشر) أن هناك ما يشير إلى أن يوسف قد حمل إلى مصر، حيث كانت تجارة الرقيق من البنين و البنات الأسويين تلقي يومئذ رواجاً دلاً عليه ما كشفت عنه بريدة في متحف بروكلين (1) بالولايات المتحدة الأمريكية، فقد جاء فيها ذكر ما يربو على أربعين أسويًا من نيف و ثمانين، كانوا يعملون خدماً في بيت واحد من عصر الأسرة الثالثة عشرة قبل مجيء الهكسوس، و لم يكن من سبيل بحكم ما هو معروف من تاريخ تلك الفترة، و أحوال مصر المتواضعة، أن يكون هؤلاء مع إخوان لهم في بيوت أخرى، من أسرى الحرب في زمان لم تقع فيه حروب (2).

و أما عدم ذكر «يوسف» في الآثار المصرية، رغم أنه شغل منصب الوزير للملك، فهذه - فيما أظن - هذا الرأي و لا نقضه، إذ لو كان يوسف عاش في غير عصر الهكسوس، لكان من الممكن أن نعثر على دليل أثري يؤيد وجوده، أو على الأقل يشير إلى الأحداث التي روتها التوراة، ذلك لأن التاريخ المصري، رغم أنه يمتاز على تاريخ الشرق الأدنى القديم بوضوحه و كثرة آثاره، فإن عصر الهكسوس بالذات يمتاز بالغموض، بل إنه ليعتد واحداً من أغمض فترات التاريخ المصري القديم، ذلك لأن المصريين ما كانوا براغبين في تسجيل ذكرى هذا العصر البغيض إلى نفوسهم (3)، بل إنهم لم يحاولوا حتى الإشارة إليه إلا على أيام الملكة «حتشبسوت» (4)، (1490 - 1468 ق. م)، هذا فضلاً عن تدميرهم لآثار الهكسوس بعد نجاحهم في طردهم و تحرير البلاد من سيطرتهم.

أضف إلى ذلك كله، أن يوسف، على الرغم من أنه كان ذا مكانة في

ص: 104

1- W 1955 .C .W seyapA surypaht fo etaldim K modgniht ni BkooB nylsum .m

2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 43.

3- أنظر: كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» ص 103 - 106.

4- أنظر: AEJ renidraG. A 48- 45. p, 1946, 32.

حكومة مصر، غير أنه لم يعد أن يكون وزيراً فحسب، وأن كل عمل عظيم يقوم به ويستحق التسجيل، إنما كان ينسب إلى الملك، الذي كانت النقوش تهدف إلى تعظيمه والإشادة بذكره، لأن كل شيء كان في مصر من وحيه هو، وعلى ذلك فإن اسم يوسف لم يكن ليظهر بطبيعة الحال (1).

و انطلاقاً من هذا، إذا أردنا أن نحدد- قدر استطاعتنا، وفي الوقت نفسه حدساً غير يقين- ملك مصر الذي عاصر الصديق، مستعينين في ذلك بقوائم الملوك من تلك الفترة، و مستعينين في الوقت نفسه بالمصادر الإسلامية، لوجدنا أن واحداً من ملوك الهكسوس كان يدعى «سا أوسر إن رع- خيان» (2) من ملوك الأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية- أي في بداية عصر الهكسوس- لوجدنا في الوقت نفسه، أن المصادر الإسلامية تذكر أن ملك مصر على أيام الصديق، إنما كان من ملوك العرب، المعروفين بالرعاة (الهكسوس) (3) وأنه كان يدعى «الريان» (4)، وإني لأظن- وليس كل الظن إثماً- أنه ليس من الصعب كثيراً تصحيف الإسم «ريان» إلى «خيان» وإن كانت هناك قصة قديمة تجعلهم يصلون مصر على أيام الملك (إيبسي) (5).

ص: 105

- 1- سليم حسن: مصر القديمة- الجزء السابع- القاهرة 1950 ص 107-10.
- 2- أنظر: عن هذا الملك: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص 145-148، و كذا fo tpygE. renidraG. A و كذا، AEJ, hgrebredaS- evasg .. T 63. p، 1951، 37. erneneqeS ot, III, semenemmA fo htaeD eht morf tpygE, و كذا، seyah. C. W و كذا. 1965. p، 22. II, egdirbmaC, 158, shoarahP. p.
- 3- محمد رشيد رضا: تفسير سورة يوسف، القاهرة 1936 ص 68.
- 4- الإمام الطبري: تاريخ الطبري 1/325-336، تفسير الطبري 16/17 الإمام ابن كثير: قصص الأنبياء 1/306، تفسير ابن كثير 4/306، تاريخ ابن خلدون 2/75-76، المسعودي: مروج الذهب 1/61، سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص 104 (بيروت 1975).
- 5- نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم 1/403.

(ب) الرأي الثاني:

ويذهب إلى أن الإسرائيليين قد هبطوا مصر على أيام «أمنحتب الثاني» (1436-1413 ق. م) وينادي به «برني وجرسمان»، ذلك أن «برني» كتب في عام 1918 م مقالا عن الموضوع (1)، ثم عاد إليه مرة أخرى في عام 1920 م في تعليقه على «سفر القضاة» (2)، وفيه رأي: أن بعضا من قبائل العبريين قد استقر في مصر على أيام الهكسوس و طردوا منهم و هذا يتفق مع هبوط إبراهيم الخليل - عليه السلام - مصر، و خروجه منها (3).

هذا وقد وجد تحوتمس الثالث في فلسطين إحدى المجموعات العبرية، و تدعى «يعقوب إل»، بعد أن طردها الأدوميون من كنعان (هروب يعقوب من عيسو)، ثم غزت البلاد مرة أخرى (غزو الخايير و حوالي عام 1400 ق. م) لأن «لابان» - صهر يعقوب و خاله - كان يتعقبهم (أي القبائل الآرامية و ساجاز تل العمرانية)، و أن هؤلاء الخايير و الذين سموا «عابيرو» (العبرانيين) قد وجهوا هجومهم نحو «شكيم» بصفة خاصة، و أن جماعة منهم - متضمنة يوسف، و ربما شمعون و لاوى - قد أخذت طريقها نحو مصر أثناء حكم أمنحتب الثاني، حوالي عام 1435 ق. م، لأن هؤلاء قد استقروا هناك - طبقا للترجمة السبعينية - مدة 215 (4) عاما، و لكن الجزء الأساسي من الإسرائيليين قد بقي في فلسطين، و من ثم فقد ذكر سبط «أشير» في سجلات «سي تي الأول» (1309-1291 ق. م) و رعسيس الثاني (1224-1290)

ص: 106

1- .naanaC ni tmemelteS learsI, yenruB. F. C 1918, .

2- .segduJ fo kooB eht, yenruB. F. C 1920, .

3- تكوين 12: 10-20.

4- خروج 12: 40-41، مع ملاحظة أن بعض المصادر الإسلامية ذهبت إلى هذا الإتجاه (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر 20/1، ابن حزم الفصل في الملل و الأهواء و النحل - الجزء الأول ص 10).

ق. م)، و الأمر كذلك بالنسبة إلى إسرائيل عصر مرنبتاح، أو في فترة الاضطرابات التي تلت موته (1).

و أما الملامح الخاصة لنظرية «جرسمان»، فهي ضغط الأحداث إلى أقصر فترة زمنية ممكنة، فهو يرى أن الخابير و ينتمون إلى موجة من موجات الغزاة الآراميين سابقة للتي أتت بالإسرائيليين، و أن الأخرى قد وصلوا إلى حدود فلسطين حوالي عام 1300 ق. م، و أن جزءا منهم قد اتجه إلى مصر مباشرة، و أقاموا هناك فترة جيلين فقط، و هو الزمن الذي يتطلبه الجزء الأقدم من التقاليد الإسرائيلية (2)، و لنقل أنها كانت خمسين عاما، و أنهم هربوا أثناء حكم فرعون الاضطهاد، و استقروا في كنعان حوالي عام 1230 ق. م، و من ثم فليس من الغريب أن يذكر مرنبتاح إسرائيل بين الشعوب التي أخضعها أثناء حملته إلى فلسطين.

على أن هناك كثيرا من العقبات التي تقف في وجه قبولنا لرأي «برني» هذا، منها (أولا) أنه يتعارض تماما مع التوراة- مصدرنا الأساسي في هذه الفترة من تاريخ بني إسرائيل-، ذلك لأن التوراة إنما تذهب إلى أن بني إسرائيل إنما قدموا إلى مصر، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان، ثم بدعوة من يوسف- عليه السلام (3)- و ليس بسبب طرد الآدوميين لهم، و منها (ثانيا) أنه يختصر مدة إقامة بني إسرائيل في مصر إلى 215 عاما، و التوراة صريحة في ذلك، إذ تحدد مدة إقامتهم ب 430 عاما (4)- و إن كان ما ذهب إليه يتفق مع الترجمة السبعينية.

ص: 107

1- . 184- 185. A sdoL. tic- p.

2- تكوين 15: 16، خروج 1: 6- 8، 6: 20.

3- سورة يوسف: آية 58- 100، تكوين 41: 56- 45: 28.

4- خروج 12: 40- 41.

و منها (ثالثا) أنها ترتبط بين نزول إبراهيم و خروجه منها، و بين عهد الهكسوس، الأمر الذي رفضناه من قبل، و منها (رابعا) أنها ترتبط بين روايات إسرائيلية تتعلق بأحداث مبكرة في فلسطين، و بين قصة دخول الإسرائيليين مصر، و منها (خامسا) أنها تجعل دخول الإسرائيليين مصر، إنما كان مقصورا على أسباط معينة، علما بأن التوراة تجعل ذلك للإسرائيليين عامة (1).

و منها (سادسا) أن يوسف الصديق كان- كما هو معروف- قد شغل منصبا كبيرا في الدولة، و لم يكن من عامة القوم، فكيف لم تشر إليه النصوص المصرية؟ و هي التي أشارت كثيرا إلى الوزراء و كبار الموظفين، بجانب ملوكهم، و هو أمر قد عللناه في عصر الهكسوس بغموض هذا العصر و ضياع آثاره، و هذا ما لم يقل به أحد ممن أروخوا لعصر أمنحتب الثاني (1436-1413 ق. م).

أما نظرية «جرسمان» فهي تضغط الأحداث بدرجة كبيرة، هذا فضلا عن اعتمادها على تفسيرات معينة لنصوص معينة، و في نفس الوقت، فإنها تتجاهل نصوصا أخرى تحدد بصراحة مدة الإقامة ب 430 سنة، أضف إلى ذلك أن تحديدها لدخول بني إسرائيل مصر في عام 1300 ق. م، و الخروج بعام 1230 ق. م، يجعل مدة إقامة بني إسرائيل في مصر، حوالي 70 عاما، كما يحددها جرسمان نفسه- و هو أمر يخالف كل التقاليد العبرية، بل إن القصة كلها- كما يقدمها لنا جرسمان- إنما تخالف كل التقاليد اليهودية، الخاصة بقصة دخول و خروج بني إسرائيل من مصر.

و هكذا يبدو لي أن عصر الهكسوس- و ليس غيره- إنما هو العصر الذي دخل الإسرائيليون فيه أرض الكنانة.

ص: 108

1- تكوين 45: 16-28.

1- تمهيد:-

من البدهي أن تحمل قصص التوراة بعض أوجه شبه بالقصص القرآني، وإن كان قليلا ذلك لأن التوراة في الأصل، إنما هي كتاب مقدس، فالإسلام الحنيف إنما يؤمن بموسى، كنبى و كرسول و ككليم لله تعالى، ثم يقرر بعد ذلك، دونما لبس أو غموض، أن موسى جاءته صحف (1)، و أنزلت عليه توراة (2)، غير أن توراة موسى هذه سرعان ما امتدت إليها أيد أئيمة، فحرفت و بدلت، ثم كتبت سواها، بما يتلائم مع يهود، و يتواءم مع مخططاتهم، ثم زعموا، بعد كل هذا، أنها التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام (3) كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (4).

ص: 109

-
- 1- سورة النجم: آية 36، الأعلى: آية 19.
 - 2- جاءت كلمة التوراة في القرآن الكريم 18 مرة (أنظر: آل عمران: 3، 48، 50، 65، 93، المائة: 43، 44، 46، 66، 68، 110، الأعراف: 157، التوبة. 111، الفتح: 29 الصف: 6 الجمعة: 5).
 - 3- قدم المؤلف دراسة مستقلة عن التوراة (أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الثالث - الإسكندرية 1979).
 - 4- سورة الكهف: آية 5.

و الذي تولى هذا التصحيف و التأويل و التعمية، إنما هي طائفة متخصصة من أئمة يهود، بغية الحفاظ على مكانتها و مكاسبها، و إلى هذا يشير القرآن الكريم مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ (1)، وَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (2).

هذا و قد عمد لفيق من رؤسائهم الدينيين إلى إخفاء بعض الأسفار في الهيكل، و هي التي عرفت بالأسفار الخفية (3)، ثم اختلفت نظرتهم إليها، إذ كان بعضها، فيما يعتقدون، غير مقدس، بينما بعضها الآخر موحى به من عند الله، و إن رأى الأئمة إخفاءه في الهيكل حتى لا يطلع عليه العامة من القوم، كما رأوا عدم إدراجه بين أسفار التوراة، ربما لأن ما به من حقائق لا يتفق و أهواءهم، و ربما لأن ما به من بشارات لا- يتلاءم و ميولهم العنصرية، و من هذا يقول القرآن الكريم قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَ هُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَ تُخْفُونَ كَثِيرًا (4)، و من ثم فقد كان حكم الإسلام على كتاب اليهود المتداول اليوم، أنه يحمل بعض لمحات من توراة موسى، ذلك لأن اليهود إنما قد أوتوا نصيبا منها، و نسوا نصيبا و خطأ، فلم يحفظوها كلها، و لم يضيفوها كلها، و إنما قد حرفوا ما أتوه عن مواضعه تحريفا لفظيا و معنويا (5).

و يقول الإمام ابن تيمية: أما من ذهب إلى أنها كلها (أي التوراة) مبدلة من أولها إلى آخرها، و لم يبق منها حرف إلا بدلوه، فهذا بعيد، و كذا

ص: 110

1- سورة النساء: آية 46.

2- سورة البقرة: آية 79.

3- أنظر: عن الأسفار الخفية في التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/ 219-223).

4- سورة الأنعام: آية 91.

5- تفسير المنار 1/ 213.

من قال لم يبدل شيء منها بالكلية بعيد أيضا، و الحق أنه دخلها تبديل و تغيير و تصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة و النقص، كما تصرفوا في معانيها، و هذا معلوم عند التأمل (1).

و من ثم فليس صحيحا ما ذهبت إليه بعض المستشرقين من أن القرآن الكريم قد اعتمد إلى حد كبير في قصصه على التوراة و الإنجيل (2)، و زاد بعض من تابعهم من الباحثين العرب أن القرآن الكريم جعل هذه الأخبار مطابقة لما في الكتب السابقة، أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار، حتى ليخيل إلينا (أي الباحثين العرب) أن مقياس صدقها و صحتها من الوجهة التاريخية، و من وجهة دلالتها على النبوة و الرسالة، أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار (3).

و ذهب الأستاذ مالك بن نبي أن هناك تشابها عجبيا بين القرآن و الكتاب المقدس (التوراة و الإنجيل) و أن تاريخ الأنبياء يتوالى منذ إبراهيم إلى زكريا و يحيى و مريم و المسيح، فأحيانا نجد القرآن يكرر نفس القصة، و أحيانا يأتي بمادة تاريخية خاصة به، مثل هود و صالح و لقمان و أهل الكهف و ذي القرنين (4)، و من عجب أن الدكتور البوطي ينقل عنه، فيما يزعم، أن القرآن جاء بقصص الأنبياء و الأمم الغابرة، على نحو يتفق جملة و تفصيلا مع ما أثبتته التوراة و الإنجيل من عرض تلك الأخبار و القصص، و أن ذلك دليلا لا

ص: 111

1- ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 149.

2- جولد تسيهر: العقيدة و الشريعة تب الإسلام- ترجمة محمد يوسف موسى- القاهرة 1946 ص 12، 15 و كذا: ((stooB nacileP)). 61- 62. p, 1964. emualliuG derflA malsI.

3- محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم- القاهرة 1953 ص 22، و أنظر ص 27، 28، 45، 173، 175، 182.

4- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية- ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين- بيروت 1961 ص 251.

يقبل الشك بأن هذا القرآن ما كان حديثا يفترى، ولكنه وحى من الله عز وجل (1)، ولست أدري كيف نقل البوطي كل ذلك دون تعليق، والمستشرقون المبغضون للقرآن لم يقولوا أكثر من ذلك، فضلا عن أن الجملة التي قالها مالك بن نبي لا تعني ما ذهب إليه، وإن اقتربت منه.

وقد ناقشنا ذلك كله في الجزء الأول من هذه السلسلة، وبيّنا بطلانه، ثم أثبتنا ذلك البطلان بعقد مقارنة لكثير من قصص الأنبياء، مثل نوح وإبراهيم وموسى وهارون وداود وسليمان ومريم والمسيح عليهم السلام، كما جاءت في القصص القرآني وروايات التوراة (2).

[2] قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة:-

لعل قصة يوسف عليه السلام، إنما كانت أكثر القصص الذي طال الجدل واشتد حولها، حتى زعم «الفرد جيوم» أنها تدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف قصة الآباء الأوائل، كما جاءت في سفر التكوين من التوراة، فحسب، بل إنه يعرف كذلك التطور اليهودي المتأخر للقصة (3)، حيث تداخلت مصادر التوراة الثلاثة (إلهوي والإلهيمي والكهنوتي)، وكونت قصة تكون مزيجا عجيبا من هذه المصادر جميعا (4).

ولعل أفضل ما نفعله للرد على مزاعم «جيوم» وغيره من المستشرقين، بل وبعض المسلمين للأسف، أن نعقد مقارنة بين القصتين، ذلك لأن قصته التوراة، وإن كانت تحمل بعض أوجه شبه من القصة القرآنية، فإن هناك

ص: 112

1- محمد سعيد البوطي: من روائع القرآن- دمشق 1972 ص 221.

2- أنظر: محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن- الجزء الأول- في بلاد العرب- الرياض: 198 ص 47-88.

3- مالك بن نبي: المرجع السابق ص 251 وكذا.. G. A 61 emualliuG. A 61, tic- po.

4- أنظر عن مصادر التوراة: محمد بيومي مهران: إسرائيل 97/3-106، حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي- الإسكندرية 1971 ص 28-31.

خلافات جوهرية بين القصتين، كما جاءت في الذكر الحكيم (سورة يوسف) وفي سفر التكوين من التوراة (الإصحاحات 37، 39-50)، تثبت، دونما أي ريب، أن المصدر الأول لم يعتمد على الثاني، بل إن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يؤكد الباحثون من المستشرقين، حتى المتعصبين منهم، لم يقرأ التوراة أو أي كتاب آخر من كتب أهل الكتاب (1).

و أما هذه الخلافات الجوهرية بين قصة يوسف القرآنية، و تلك التي جاءت في التوراة، فمنها (أولا) تلك الملامح الروحية التي تتميز بها القصة القرآنية، فضلا عن أن شخصية يوسف النبي، أكثر وضوحا في القصة القرآنية، منها في رواية التوراة، و منها (ثانيا) أن حب يعقوب ليوسف إنما تصوره التوراة، على أن الصديق إنما كان يأتي لأبيه «بنميمة أخوته الرديئة»، و لأنه ابن شيخوخته، في الدرجة الأولى، ثم رؤيا يوسف في الدرجة الثانية (2)، و أما في القرآن الكريم، فإن السبب إنما هو الرؤيا الصادقة، ثم إحساس عميق من يعقوب النبي، بما سوف يكون للصديق من مستقبل في عالم النبوة و تأويل الأحاديث (3)، و منها (ثالثا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن مؤامرة إخوة يوسف عليه، إنما بدأت قبل أن يذهب معهم، فضلا عن توضيح رأي أبناء يعقوب في أبيهم، و لنقرأ هذه الآيات الكريمة لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ

ص: 113

-
- 1- راجع عن تفسير سورة يوسف: تفسير المنار 12/ 251-324، 1/ 13 و ما بعدها+ تفسير سورة يوسف لرشيد رضا، تفسير البيضاوي 1/ 486-511، تفسير الطبري 12/ 149-238، 1/ 13-91، تفسير القرطبي 9/ 118-277، تفسير الألوسي 12/ 170-261، 1/ 13-84 مؤتمر تفسير سورة يوسف (جزءان)، تفسير النسفي 2/ 210-241.
 - 2- تكوين 37: 2-11.
 - 3- سورة يوسف: آية 6.

اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (1).

ومنها (رابعا) إن قصة التوراة تذهب إلى أن يعقوب هو الذي طلب من يوسف أن يذهب إلى إخوته الذين يرعون أغنامهم عند شكيم (2)- والتي يحتمل أنها تل بلاطة شرق نابلس الحالية- بينما يرى القرآن الكريم أن أخوة يوسف هم الذين طلبوا من أبيهم أن يذهب يوسف معهم، لأن أباه إنما كان يخشى عليه من حقدهم، قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصي حون، أُرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبِ وَ إِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ (3)، ومنها (خامسا) أن القرآن الكريم إنما يشير إلى ارتياب يعقوب في بنيه عقب تنفيذ المؤامرة- فضلا عن ارتيابهم في أنفسهم- و ما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا (4)، بينما تشير رواية التوراة إلى سرعة تصديق يعقوب لفرية أولاده، و يأسه عقب المؤامرة (5)، «فتحققه (أي قميص يوسف) وقال قميص ابني وحش رديء أكله، افترس يوسف افتراسا فمزق يعقوب ثيابه و وضع مسحاً على حقويه، و ناح على ابنه أياما كثيرة» و منها (سادسا) أن الحيوان الذي ألصقت به تهمة قتل يوسف، إنما هو «تيس من المعزى» في التوراة (6)، ولكنه الذئب في القرآن الكريم (7).

ومنها (سابعا) أن التوراة في عرضها لقصة يوسف مع امرأة العزيز، لم

ص: 114

1- سورة يوسف: آية 7-!.

2- تكوين 37: 12- 16.

3- سورة يوسف: آية 11- 12.

4- سورة يوسف: آية 17- 18.

5- مالك بن نبي: المرجع السابق ص 302.

6- تكوين 37: 33- 34.

7- سورة يوسف: آية 13- 14، 17.

تحاول أن تركز على براءة يوسف، كما فعل القرآن الكريم الذي عرض البراءة في جلاء ووضوح، ومنها (ثامنا) أن القرآن الكريم يصور لنا يوسف بعد حادث المراودة، وهو يفر من أمام امرأة العزيز، غير أنها سرعان ما تلحق به، فتتعلق بقميصه، ويتمزق منه ما علقت يدها به، و هنا يصل العزيز ويفاجأ بما لا يتصوره، فتبادر المرأة إلى دفع التهمة عن نفسها، و ترمي بها على يوسف في جرة، ثم لا تنتظر رأي العزيز في صحة الاتهام، فتغريه به و تعمل على توكيده في نفسه، بأن تطلب إليه رأيه في الجزاء الذي يجزى به هذا المتهم (1)، يقول تعالى: وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَاجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (2)، بينما تتجاهل رواية التوراة حضور العزيز، و تذهب إلى أن امرأة العزيز قد أخبرت أهل البيت بأن الرجل العبراني قد حاول الاعتداء عليها، و أنه لم يتركها إلا بعد أن استغاثت بمن في البيت، و من ثم فقد ترك ثوبه و خرج، و أبقث الثوب حتى إذا ما جاء بعلها أخبرته أن عبده العبراني حاول الاعتداء على شرفها و لما صرخت ترك ثوبه بجوارها و فر هاربا، و لعل من المفيد هنا الإشارة إلى ما في النص التوراتي من اضطراب، فمرة لا يوجد أحد في البيت، و مرة أخرى، فإن البيت مليء بأهله، و مرة يوصف يوسف بأنه رجل عبراني، و أخرى عبد عبراني و فرق بين العبارتين في مثل هذه الحالة النفسية (3).

و منها (تاسعا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن الله سبحانه و تعالى - قد أظهر براءة يوسف على يد شاهد من أهل امرأة العزيز

ص: 115

1- عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني ص 100.

2- سورة يوسف: آية 25.

3- تكوين 39: 11-18.

نفسها، تروي كتب التفسير أنه صبي في المهدي، وذلك حين قال إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قد من دبر، قال إنه من كيدك إن كيدك عظيم (1)، كما شهدت ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن بقولهن حاش لله ما علمنا عليه من سوء (2)، بينما لم تذهب التوراة إلى أكثر من أن العزيز حين سمع بالقصة لم يزد عن «أن غضبه حمي، فأخذ يوسف ووضعه في بيت السجن (3)».

ومنها (عاشرا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن عزيز مصر، حينما عرف الحقيقة، فإذا به يطلب من يوسف كتمان الأمر، و عدم إذاعته بين الناس، وفي نفس الوقت فإنه يتجه إلى امرأته يأمرها أن تستغفر لذنبيها وأن تتوب إلى ربها (4)، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، وأهل مصر- وإن كانوا وقت ذاك غير موحدين- إلا أنهم إنما كانوا يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤخذ بها، إنما هو الله وحده، لا شريك له في ذلك (5)، ومنها (حادي عشر) أن التوراة لم تتعرض لحادث النسوة اللاتي أخذن يرددن في المدينة، امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا، إنا لئراها في ضلال مبين، فلما سمعت بمكرهن أوسست لهن وأعدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وقالت اخرج عليهن، فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن، وقلن حاش لله ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم (6).

ص: 116

1- سورة يوسف: آية 26-28.

2- سورة يوسف: آية 51.

3- تكوين 39: 19-20.

4- سورة يوسف: آية 29.

5- ابن كثير: البداية والنهاية 1/ 204 التفسير 4/ 22.

6- سورة يوسف: آية 30-31.

و منها (ثاني عشر) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف - عليه السلام - قد فضل السجن، على أن يقترب الفاحشة، وذلك حين خيّر بين أن تنال المرأة منه ما تريد، وإلا فإن أبواب السجن مفتوحة على مصراعها لاستقباله، قال رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (1).

و منها (ثالث عشر) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يعقوب - عليه السلام - حينما فقد في عاصفة هو جاء من عواصف الفتنة و الحسد، أعز فلذات كبده - يوسف الصديق - لم يغلبه الحزن الذي عصف بقلبه، على الصبر الذي ملأ كيانه (2)، فإذا به يتقبل المأساة بما يتفق و مكان النبوة السامي، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (3)، بينما تصوره التوراة في صورة لا ترتضيها للنبي الكريم، «فأبى أن يتعزى، وقال إني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية» (4)، و حين تتكرر المأساة مرة أخرى، و يفقد يعقوب بنيامين - كما فقد يوسف من قبل - فإن الجواب في القرآن الكريم، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (5)، و أما الجواب في التوراة - و حتى قبل وقوع الكارثة - «إذا أصابته أذية تنزلون شيبتي بشر إلى الهاوية» (6)، بل إن القرآن الكريم ليشير بوضوح إلى أن مر السنين، و كر الأيام، لا يفقد الأمل في نفس النبي الكريم،

ص: 117

1- سورة يوسف: آية 33-34.

2- عبد الكريم الخطيب: المرجع السابق ص 211.

3- سورة يوسف: آية 18.

4- تكوين 37: 35.

5- سورة يوسف: آية 83.

6- تكوين 42: 36-38، 44: 29-31.

يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ بينما تنعى التوراة على موت يوسف «لا ينزل ابني معكم، لأن أخاه (أي يوسف) قد مات، وهو وحده باق».

ومنها (رابع عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف قد تنبأ بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، بعد سبع سنوات من القحط (1)، ومنها (خامس عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف بعد أن فسر الحلم لملك مصر، ورسم له الطريق الصحيح للخروج من الأزمة بسلام، رفض في إباء وشمم أن يقبل المنصب الخطير الذي عرض عليه، حتى يتحقق الملك ورجاله- بل والناس جميعا- من براءته ونزاهة عرضه، مما نسب إليه بشأن امرأة العزيز، وكان سببا في أن يلبث في السجن بضع سنين، اذ جع إلى ربك فسئل ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم (2)، والآية الكريمة تفيد أن يوسف لم يشأ أن يقال عنه مجرم سر منه الملك، فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن، وتجيء الشواهد كلها- بعد بحث دقيق- بعفة الصديق وطهارته، وعندئذ يتقدم الصديق في ثقة وثبات، قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم، وهكذا يتحمل يوسف المسؤولية كاملة في صدق وشجاعة، وينجح آخر الأمر في أن يرسى السفينة على مرفأ الأمن والسلامة (3)، والأمر عكس ذلك تماما في التوراة، فما أن يفسر الصديق الحلم للملك، وما أن يعرض الملك الأمر عليه، حتى يقبله فورا (4).

ص: 118

1- سورة يوسف: آية 47-49.

2- سورة يوسف: آية 50، وأنظر: تفسير الطبري 16/ 133-137.

3- سورة يوسف: آية 46-57.

4- تكوين 41: 37-46.

و منها (سادس عشر) أن قصة يوسف إنما تشير إلى أن المصريين، ربما كانوا يعيشون في حرية شخصية إلى حد ما، حتى مع نفس الملك القابض على السلطة في مصر، وإن هذا الملك قد قبل أن يأمر بشيء في حق عبد دخيل، فيأبى عليه ذلك العبد امتثال أمره، إلا بعد إجراء التحقيق، مع أنه يمكنه الجمع بين امتثال إرادة الملك وأجراء التحقيق، بأن يبادر يوسف بالخروج من السجن، ثم يطلب من الملك التحقيق في قصيته (1).

و منها (سابع عشر) إن التوراة لم تشر إطلاقاً إلى قيام يوسف - عليه السلام - بدعوة التوحيد، بعكس القرآن الكريم الذي يشير إلى أن الصديق قد انتهز الثقة المكينه التي اكتسبها بين السجناء، بسبب تفسير الرؤيا وتأويل الأحلام، فيقوم بدعوته الدينية، شارحاً عقيدة الأنبياء جميعاً في وحدانية الله الخالق العظيم. وهاثفا بمستمعيه (2)، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِيئُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (3)، وذلك لأن يوسف لم يكن عالماً يؤول الرؤيا فحسب، بل كان رسولاً مصلحاً، فما كان يرى فرصة يتنافس فيها برسالته إلا انتهزها، ولا نهضة صالحة للدعوة إلا علق بها (4)، ولهذا فإن الإشارة إلى

ص: 119

1- مؤتمر تفسير سورة يوسف 839/2.

2- محمد رجب البيومي: البيان القرآني ص 225 عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 140.

3- سورة يوسف: آية 37-40.

4- محمد أحمد جاد المولي وآخرون: قصص القرآن ص 103.

الآخرة في قصة يوسف مقصورة على القرآن (1) دون التوراة.

ومنها (ثامن عشر) إن القرآن الكريم هو وحده الذي يشير إلى إعلان امرأة العزيز براءة يوسف، وأنها هي التي راودته عن نفسها، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أنني لم أحنه بالغيب وأن الله لا يهدي الخائنين (2)، وهكذا تقدم لنا القصة القرآنية امرأة العزيز، وهي تتحدث بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم وأرغمته طهارة التضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها وتقر بخطيئتها (3).

ومنها (تاسع عشر) إن يوسف عليه السلام قد وصف في القرآن الكريم بالصديق والعزيز (4)، وفي التوراة ب «صفنات فعنج» (5)، و منها (عشرون) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يتحدث عن نبوة عزيز مصر الصادقة في يوسف الصديق، وقال الذي اشتراه من مصر لأمراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (6)، و منها (واحد وعشرون) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير في ختام قصة يوسف مع أبيه وأخوته إلى تحقيق حلمه الأول، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ

ص: 120

1- سورة يوسف: آية 57.

2- سورة يوسف: آية 51-52.

3- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص 304-305.

4- سورة يوسف: آية 46، 88.

5- تكوين 41: 45.

6- سورة يوسف: آية 21.

أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا، وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (1).

ومنها (اثنان وعشرون) أن قصة التوراة تتحدث دائما عن ملك مصر، على أنه فرعون مصر (2)، بينما يتحدث القرآن على أنه الملك وليس الفرعون (3)، ويرى الأستاذ حبيب سعيد أن هذه كانت هي العادة المتبعة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق. م (4)، والحقيقة غير ذلك تماما، فمن المعروف تاريخيا أن كلمة «فرعون» في صيغتها المصرية، «بر-عا» أو «بر-عو»، كانت تعني - بادئ ذي بدء- البيت العالي، أو البيت العظيم، وكانوا يشيرون بها إلى القصر الملكي - وليس إلى ساكنه- ثم سرعان ما تغيرت و غدت تعبيراً محترماً، يقصد به الملك نفسه، وذلك منذ الأسرة الثامنة عشرة (5)، وأما متى حدث هذا التغيير في استعمال لقب فرعون، فإن «سير ألن جاردنر»-العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة- يحدد ذلك بعهد الفرعون «تحتومس الثالث» (1490 - 1436 ق. م)، حيث بدئ في إطلاق الاصطلاح «أي فرعون» على الملك نفسه ثم في عهد الداعية الديني المشهور «أخناتون» (1367- 1350 ق. م)، مستندا في ذلك على خطاب من عهده، ثم استعمل منذ الأسرة التاسعة عشرة (1308- 1184 ق. م)

ص: 121

1- سورة يوسف: آية 99-101، وأنظر: تفسير الطبري 16/264-277 (دار المعارف- القاهرة 1969).

2- تكوين 40: 7-41: 15، 46: 31-50: 7.

3- سورة يوسف: آية 43، 50، 54، 72، 76.

4- حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس ص 76.

5- , 1963, p. 102. W. A. J nosli, erutluC ehT, tneicnA fo ogacihC.

وفيما بعد، في بعض الأحيان، كمرادف لكلمة «جلالته»، و من هذا الوقت أصبحنا نقراً: «خرج فرعون» و «قال فرعون ... و هكذا (1)».

و من ثم، فإن القرآن الكريم- فيما يبدو لي- أراد أن يفرق بين حاكم مصر الأجنبي على أيام يوسف الصديق في عهد الهكسوس (2) فأطلق عليه لقب «ملك»، و بين حاكم مصر الوطني على أيام موسى - مثلاً- الذي أطلق عليه لقب «فرعون»، و هو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر منذ عهد إخناتون، هذا فضلاً عن أن ذلك من إعجاز القرآن، الذي لا إعجاز بعده، و إذا ما عدنا إلى التوراة، لوجدنا أن الحقائق التاريخية تقف ضد ما أوردته التوراة بشأن استعمال لقب فرعون، إذ أنها تستعمله حين يجب أن تستعمل لقب ملك، و ذلك قبل الأسرة الثامنة عشرة، و تستعمل لقب ملك حين يجب أن تستعمل لقب فرعون، و ذلك منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة (1575- 1308 ق. م)، و فيما بعدها.

و منها (ثلاث و عشرون) أن رؤيا يوسف في القرآن الكريم واحدة إذ قال يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ، بينما هي في التوراة حلمان، الواحد رأى فيه يوسف أنه و إخوته حازمون حزماً في الحقل، و أن حزمته قامت و انتصبت فاحتاطت حزم أخيه فسجدت حزمهم لحزمته، فقال إخوته ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا

ص: 122

1- , 1964 , p. 52. H. A drofxO, shoarahP eht fo tpygE, renidraG. و كذا, .G. renidnaG, rammarG naitpyGE, drofxo,
.H. A 75. p, 1966

2- حوالي (1725- 1575 ق. م)، و أنظر آراء أخرى في كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» دار المعارف 1976 ص 137- 138،
و كذا, .D. B. drofdeR, eoskyH eht, J. noisavnI .noitaziliviC ylrA eht tsaE raeN eht orettoB .J. و كذا, .A. J 159 W. A. tic- po nosli و كذا, .p. 1970. p, shoarahP eht fo tpygE, renidraG. H. A 165
.p. 1967. 393

تسلطاً، فزادوا له بغضاً من أجل أحلامه و من أجل كلامه، و الثاني. رأى فيه يوسف أن الشمس و القمر و أحد عشر كوكبا ساجدة له، و لما قصه على أبيه و إخوته نهره أبوه و قال له: ما هذا الحلم الذي حلمت هل نأتي أنا و أمك و إخوتك لنسجد لك إلى الأرض، فحسده إخوته، و أما أبوه فحفظ الأمر، و أما القرآن الكريم فيقول يا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (1).

و منها (أربع و عشرون) أن الجب الذي ألقى فيه يوسف إنما هو في التوراة بئر فارغة ليس بها ماء، و لكنه في القرآن إنما كان به ماء و جاءت سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ (2)، و منها (خمس و عشرون) أن الذي اشترى يوسف من مصر، إنما هو في التوراة رئيس الشرطة، و هو العزيز في القرآن الكريم، و فرق كبير بين المنصيين (3)، و منها (ست و عشرون) أن التوراة تذهب إلى أن يوسف دخل السجن بمجرد أن سمع العزيز كلام امرأته، و دونما أي تحقيق، ذلك «أن غضبه حمى، و أخذ يوسف و وضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه»، بينما يؤكد القرآن الكريم أن الصديق قد أودع السجن، بعد ما ظهرت أدلة براءته، كقد القميص و قطع الأيدي و شهادة الصبي و غير ذلك ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليس جُننَهُ حَتَّىٰ (4)، و هذا يدل على أن سجن الصديق لم يكن بسبب غضب فجائي من العزيز للموقف المخزي الذي رأى فيه امرأته، و إنما تم ذلك بتدبير و تخطيط الهدف منه أن ينسى الناس قصة أو قل فضيحة امرأة العزيز التي لاكتها الألسن كثيرا بين أوساط الناس.

ص: 123

- 1- سورة يوسف: آية 4-5، تكوين 37/5-11.
- 2- سورة يوسف: آية 19، تكوين 37/24.
- 3- سورة يوسف: آية 21، 30-تكوين 37/36.
- 4- سورة يوسف: آية 23-35، تكوين 39/7-19.

ومنها (سبع وعشرون) أن رؤيا الملك في القرآن واحدة، و أما في التوراة فقد رأى الملك رؤياه على مرتين، في الأولى رأى البقرات السبع السمان يأكلهن سبع عجاف، ثم نام فرأى السنابل الرقيقة تبتلع السنابل السمينة وقد علّلت التوراة تكرار حلم الملك مرتين، وفي صورتين مختلفتين، «لأن الأمر مقرر من قبل الله، والله مسرع ليصنعه» (1)، ومنها (ثمان وعشرون) أن التوراة تذهب إلى أن فرعون قد أرسل إلى يوسف في السجن من استدعيه لتأويل رؤياه «فأسرعوا به من السجن، فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون»، وفسر له حلمه، ثم اقترح عليه أن يختار رجلا بصيرا وحكيما ويجعله على أرض مصر (2)، على أن القرآن الكريم (3) على غير ذلك، فصاحب يوسف الذي نجا من السجن هو الذي أشار على الملك أن يرسله إلى الصديق ليعرف منه تأويل رؤيا الملك، وأن يوسف لم يذهب إلى الملك، وإنما فسر الحلم، بل وأشار بالحل الذي يمكّن البلاد من اجتياز هذه المحنة، وبشر بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، وهو ما يزال بعد في زوايا الأرض سجيناً (4)، ومنها (تسع وعشرون) أن القرآن الكريم إنما يذكر أن يوسف الصديق إنما أمر بوضع صواع (مكيال) الملك في رحل أخيه، بينما تذكر التوراة أنه أمر بوضع طاسة الفضة في رحل أخيه بنيامين (5).

ومنها (ثلاثون) أن القرآن الكريم يشير إلى أن الصديق عليه السلام، لما اتهم إخوته بسرقة صواع الملك سألهم رجاله فما جزأوه إن كُنْتُمْ كاذِبِينَ، قالوا جزأوه من وجد في رحله فهو جزأوه كذلك نَجْزِي الظَّالِمِينَ،

ص: 124

1- سورة يوسف: آية 43، تكوين 1/41-7، 23.

2- تكوين 14/41-36.

3- سورة يوسف: آية 45-48.

4- سورة يوسف: آية 49.

5- سورة يوسف: آية 70-72، تكوين 2/44.

و أما في التوراة فقد قال إخوة يوسف، دون أن يسألهم أحد عن عقاب من يوجد عنده صواع الملك، «الذي يوجد معه من عبيدك (يعنون أنفسهم) يموت، ونحن أيضا نكون عبيدا لسيدي، قال نعم الآن بحسب كلامكم هذا يكون، الذي يوجد معه يكون لي عبدا، و أما أنتم فتكونون أبرياء»، و مع ملاحظة التناقض في نص التوراة، فهي تذكر أن من يوجد معه يحكم عليه، بالموت، بينما يصبح الباقون أبرياء، فإن حكم يوسف عليهم أن من وجد معه يصبح وحده عبدا له، و أما الباقون فأبرياء، رغم هذا التناقض، فإن التوراة لم تذكر ما أضافه القرآن الكريم عن أن ذلك القانون إنما كان شريعتهم هم، و ما كان يطبق في الشرائع المصرية، و من ثم فما كان من حق يوسف عليه السلام أن يأخذ أخاه في دين الملك، لأنه لم يكن من حكم ذلك الملك المصري وقضائه أن يسترق أحد بالسرقة، فضلا عن أن يحكم عليه بالموت (1).

و منها (واحد و ثلاثون) أن القرآن وحده من دون التوراة، هو الذي أشار إلى أن إخوة يوسف سرعان ما قالوا، عند ما وجد صواع الملك في رحل أخيهم بنيامين «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» (يعنون يوسف عليه السلام)، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ، قَالَ أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (2)، و منها (اثنان و ثلاثون) أن القرآن وحده، من دون التوراة، هو الذي أشار إلى قول يعقوب لبنيه يا بني لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (3).

ص: 125

1- سورة يوسف: آية 74-76، تكوين 9/44-10.

2- سورة يوسف: آية 77.

3- سورة يوسف: آية 67.

ومنها (ثلاثة و ثلاثون) أن القرآن الكريم وحده، من دون التوراة، هو الذي أشار إلى قول إخوة يوسف اذْجِعُوا إِلَىٰ أَيْكُمُ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ، ولما كانوا يخشون أن يكذبهم، نظرا لتجربة يوسف السابقة، فإنهم طلبوا منه أن يسأل القرية التي كانوا فيها، وَسَمَّلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (1)، ومنها (أربع و ثلاثون) أن القرآن الكريم يشير إلى أن الصديق هو الذي سأل إخوته عما فعلوه به وبأخيه فعرفوه، ثم اعترفوا بخطئهم في حقه، وأن الله تعالى قد آثره عليهم، و حينئذ عفا يوسف عنهم قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ، قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ، قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وأن ذلك إنما قد حدث بعد أن أخذ يوسف أخاه منهم، و بعد أن عادوا إلى أبيهم وأعلموه أن ابنه سرق، و في التوراة، فإن يوسف هو الذي قدم نفسه لهم، بعد أن أحضروا أخاهم، و قبل أن يعودوا إلى أبيهم، و بعد أن سألهم عن أبيهم و هل ما يزال حيا، و أنهم ارتاعوا منه، و لم يستطيعوا أن يجيبوه (2).

ومنها (خمس و ثلاثون) أن القرآن الكريم وحده، من دون التوراة، الذي يشير إلى أن يوسف عليه السلام بعد أن عفا عن إخوته، و أكرم وفادتهم، قال اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ، وَلَمَّا فَصَّ لَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تَقْنَدُونَ، قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ

ص: 126

1- سورة يوسف: آية 81-82.

2- سورة يوسف: آية 89-92، تكوين 1/45-14.

وَجْهَهُ فَازْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (1). و أما كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل، فلقد سبق أن أشرنا أن ذلك مما علمه الله و المفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة، و ما لها لا تكون خارقة، و يوسف نبي رسول، و يعقوب نبي رسول (2).

و أخيرا فإن القرآن الكريم إنما يختم قصة يوسف عليه السلام، بقول الله تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ، أي ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف و قصته من الأخبار المغيبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، و إنما نعلمك نحن بها على أبلغ وجه، و أدق تصوير، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة (3).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التوراة إنما قد انفردت، من دون القرآن الكريم، بأمر، تتفق في بعضها و خلق يهود، و تتعد في بعضها الآخر عن الحقائق التاريخية، و من هذه الأمور (أولا) أن التوراة في عرضها لقصة يوسف الصديق، عليه السلام- بعكس القرآن الكريم- إنما تعطي تأكيدا يكشف عن مطامع يهود في مصر، و لنقرأ هذا النص «خذوا أباكم و بيوتكم و تعالوا إلي فأعطيكم خيرات أرض مصر، و تأكلون دسم الأرض ... خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم و نسائكم و احملوا أباكم و تعالوا، و لا تحزن عيونكم على أثاثكم، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم» (4)، كما لم تهمل التوراة كذلك أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجاهدين

ص: 127

1- سورة يوسف: آية 93-96.

2- في ظلال القرآن 4/ 2027.

3- سورة يوسف: آية 102، صفوة التفاسير 69/2.

4- تكوين 18: 20-25.

الجياع إلى مصر، إنما كانت للقت، و لكنها تؤكد أيضا أنها لتحقيق مؤامرة على الأرض التي استضافتهم (1).

و منها (ثانيا) أن التوراة تزعم أن يوسف قد اشترى كل أرض مصر - من عليها و ما عليها- للفرعون (و هو اصطلاح لم يكن قد أستعمل في مصر بعد، كما أشرنا آنفا) يعد أن امتلأت الأرض جوعا (2)، الأمر الذي لم يثبت تاريخيا، فضلا عن أنني - علم الله- لست أدري: لما ذا تريد التوراة- أو بالأحرى يريد كاتبها- أن يصوروا النبي الكريم في صورة صوت عذاب المصريين، يستغل حاجتهم للمقومات الضرورية للحياة نفسها، فيستولي على أرض مصر كلها- باستثناء أرض الكهانة- لمصلحة الملك الهكسوسى؟. ثم و هل كان ملك مصر على أيام الهكسوس - و هو العصر الذي نرجع فيه دخول بني إسرائيل إلى أرض الكنانة (3)- يسيطر على مصر كلها، حتى يستولي له يوسف- عليه السلام- على كل حال أراضيها؟.

إن جمهرة المؤرخين، إنما ترى أن الهكسوس لم يمدوا نفوذهم أبدا إلى أبعد من القوصية (4) جنوبا، اللهم إلا في احتلال مؤقت قصير لإقليم (بي حتحور)، قام به «أبوفيس»- ربما آخر من حمل هذا اللقب- و ليس هناك من دليل حقيقي على أن غيره من الهكسوس قد تم له هذا الأمر (5)، أما أمر جبايتهم للضرائب من مصر العليا و السفلى على السواء، فموضوع شك على الأقل، ذلك لأن وجهة النظر التي ترى احتلال الهكسوس للبلاد كلها، ليست سوى و هم قضى عليه النص الكبير للملك «كاموزا» الذي يتضمن في وضوح

ص: 128

1- تكوين 46: 1-4.

2- تكوين 47: 13-26، و أنظر تفسير الخازن 3/ 193.

3- راجع كتابنا «إسرائيل» ص 237-245، و أنظر.

4- .FF .p ,zrutS rhi dnu netpygeA ni soskyH red tfahcsrreH eiD ,bibaL rohaP 18 .

5- .p, tic- po, renidraG. H. A. 168 .

أن الغزاة لم يتقدموا إطلاقاً فيما وراء جبلين، و الذي يشير إلى أنهم اضطروا بعد قليل إلى إرساء حدهم عند «خمون» (الأشمونين مركز ملوي) (1).

و منها (ثالثاً) أن التوراة تصور لنا شعور المصريين تجاه الإسرائيليين بأنه شعور عدائي، أو على الأقل غير ودي، منذ اللحظة الأولى التي قدم الإسرائيليون فيها بأخيهم بنيامين، إذ نرى يوسف يولم وليمة تكريم لأخيه، ولكنه يضطر إلى أن تكون له وليمة خاصة، و ثانية لإخوته، و ثالثة للمصريين، و ذلك «لأن المصريين لا- يقدرّون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين» (2)، و هكذا تبدو نظرة المصريين للعبرانيين واضحة لنا منذ أول لقاء بينهما، و في ضيافة يوسف العبراني نفسه، و هي نظرة لا تدل بحال من الأحوال على احترام المصريين للعبرانيين، و إنما تدل على أنفة المصريين و تأييدهم عن مخالطة العبرانيين، و عدم استعدادهم حتى للأكل معهم، رغم أنهم يعرفون أنهم إخوة يوسف عزيز مصر وقت ذلك، و الأمين على خزائنها، و الأثير عند مليكها، و ليس من شك أن هذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أن القطيعة بين الفريقين كانت واضحة لا تحتاج إلى بيان (3).

و منها (رابعاً) أن التوراة قد حددت اسم من اشترى يوسف و وظيفته، و أنه «فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة» (4) و بدهي أن القرآن الكريم لم يفعل ذلك، لأنه- كما قلنا من قبل- ليس كتاب حوادث و تواريخ، و إنما قصصه للعبرة و العظة، و إن لقبه «بالعزيز»، و لا شأن للقرآن بروايات

ص: 129

1- P. dibl 167 و كذا كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» ص 143-145.

2- تكوين 43: 32، قارن: الظاهرة القرآنية ص 305.

3- كتابنا «إسرائيل» ص 243 (الإسكندرية 1983).

4- تكوين: 39: 1.

المفسرين عن اسمه واسم ملك مصر في عهده واسم امرأة العزيز، فتلك اجتهادات، وفوق كل ذي علم عليم (1).

وهنا لنا أن نتساءل عن وصف التوراة لفوطيفار بأنه «خصي فرعون» (2)؟ وهل يتزوج الخصيان؟ والحق أنني لست أدري كيف دار في خلد كاتب التوراة أن رئيس الشرطة المصري كان خصيا (3)؟ أو لم يكن شافعا له في دحض هذه الفسرية بأنه زوج أجمل سيدة في البلاد، ولكن ما الحيلة وصاحب سفر التكوين - أول أسفار التوراة - يرى أن حاشية القصر كلها من الخصيان، ومنهم رئيس السقاة ورئيس الخبازين (4)، وهو أمر اعتدناه في مصر الفراعنة، وما حدثنا به تاريخا، وإنما ذلك رأي يهود الأسر البابلي، حين كتبوا توراتهم على ضفاف الفرات، متأثرين بكل الحضارات القديمة التي شاهدوها - أو التي عاشوا في ظلالها - من ناحية، وبحقدهم الأعمى على مصر من ناحية أخرى، حتى أعماهم هذا الحقد عن حقائق التاريخ، فجعلوا كل رجال البلاط المصري من الخصيان.

ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن الآية الكريمة عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا قد تفيد أن الرجل كان عقيما، لم يكن له ولد، وما كان يرجو أن يكون له، ولكنها لن تفيد أنه كان خصيا (5).

ص: 130

1- تفسير الطبري 174/12 - 176 تفسير المنار 272/12، تفسير ابن كثير 17/4.

2- تكوين 39: 1.

3- من عجب أن هذه الأكاذيب قد انتقلت إلى بعض كتب التفسير (الطبري 175/12، القرطبي 160/9)، وأن رفضتهما جمهرة المفسرين (تفسير البيضاوي 491/1، تفسير المنار 272/12، تفسير الألوسي 207/12، مؤتمر تفسير سورة يوسف 434/1، 503، 504، قارن 525/1، 526، 873/2).

4- تكوين: 40: 2.

5- تفسير المنار 272/12، تفسير البيضاوي 491/1، روح المعاني 207/12، تفسير القرطبي 160/9.

و منها (خامسا) ما تردده التوراة من أن يوسف إنما كان يتهم إخوته بأنهم «جواسيس جاءوا ليروا عورة الأرض»، فضلا عن أن يوسف إنما كان يكرر القسم بحياة فرعون (1)، الأمر الذي لا يتفق و مكانة النبوة بحال من الأحوال.

بقيت نقطة أخيرة تتصل بذلك الاضطراب الواضح في قصة التوراة، ففي سفر التكوين (37: 26-28) نجد أن يهوذا هو صاحب الكلمة، و قد اقترح على إخوته أن يبيعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين مثقالا، في حين نرى في نفس السفر (37: 21-24) أن راوئين هو صاحب الصوت الأعلى، يقترح إلقاءه في البئر فيوافق الجميع، حيث يأخذه التجار المديانيون، كما في (تكوين 37: 28) و الأمر كذلك بالنسبة إلى بيعه إلى فوطيفار، ففي أول القصة عن قوم من مدين (2)، بينما هم في آخرها من الإسماعيليين (3).

و بعد: فهذه نظرة سريعة إلى الفروق بين قصص القرآن و روايات التوراة، فإذا ما تذكرنا أن القرآن الكريم- كما هو معروف- جاء به محمد النبي الأُمي، الذي لا يكتب و لا يقرأ، كما قال تعالى: وَ مَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (4)، مما يدل بوضوح لا لبس فيه و لا غموض- أن هذا القرآن من عند الله، و أنه و إن اتفق مع التوراة في القليل، فإنه يختلف معها في أكثر الكثير، كما يدل كذلك على أن هذا النوع من العلم ما كان عند العرب، و ليس لهم به دراية، و أخيرا فهو يدل على أن هذا القرآن ليس حديثا يفترى، و ليس أساطير الأولين اكتتبها، و لا

ص: 131

1- تكوين 42: 9-16.

2- تكوين 37: 36.

3- تكوين 39: 1.

4- سورة العنكبوت: آية 48.

يمكن أن تملى عليه، وإذا كان بعض المشركين قد ادعوا أنه تلقاها من بعض الناس في مكة- كما يقول بعض المستشرقين الآن- فهو لم يثبت اتصاله به، ولسانه أعجمي، وهذا كتاب عربي مبین، و فوق ذلك في القرآن من صادق الأخبار، ما لم يكن في كتب أهل الكتاب المسطورة، و لا يأتيه الباطل فيما يقول (1)، و لست أدري إعجازا بعد هذا الإعجاز (2).

ص: 132

- 1- محمد أبو زهرة: القرآن ص 364-365، الباقلائي: إعجاز القرآن ص 53-54.
- 2- من إعجاز القرآن كذلك إخباره بأمر حدث في المستقبل، منها إخباره بانتصار الروم على الفرس بعد أن كانت الهزيمة من نصيب الأولين (الروم 1-2) و منها إخباره بنصر المسلمين في بدر قبل الموقعة الكبرى (الأنفال: آية 7) و أن ذلك سوف يقع في نفس الوقت الذي سيهزم فيه الفرس أمام الروم (الروم 3-5)، و غير ذلك من أمور لا- يمكن أن تكون حدسا أو تقديرا شخصيا، و إنما هي من عند علام الغيوب، كقيام دولة الإسلام الفتية على الأرض (النور 55) و عجز كل القوى عن القضاء عليها (الأنفال 36) و الانشقاق بين المسيحيين إلى يوم القيامة (المائدة 14) و الشتات الإسرائيلي (آل عمران 112) و التفوق المسيحي إلى اليهود حتى يوم القيامة (آل عمران 55) [أنظر: الباقلائي: إعجاز القرآن ص 77-79، تفسير القرطبي 1/73-78، الكشاف 3/252، 4/440، 445، مناهل العرفان للزرقاني 2/273، تفسير الطبري 21/16-21، 25/111-115، تفسير البيضاوي 2/215-216، 439، تفسير الجلالين ص 215-216 (نسخة على هامش البيضاوي) تفسير الألوسي 21/16-22، تفسير الطبرسي 21/5-9، تفسير الفخر الرازي 25/95-98، تفسير روح المعاني 6/95-97، تفسير الطبري 6/445-464، 7/116-118، 10/135-140، 13/398-407، 529-534 (دار المعارف بمصر)، تفسير مجمع البيان 3/94-96، 4/166-169، 6/54-55 (دار مكتبة الحياة، بيروت 1961).

(أ) فيما قبل الاضطهاد:-

قدم بنو إسرائيل، كما رأينا من قبل، لا كغزاة فاتحين، وإنما كلاجئين من جذب أصاب أرض كنعان، فوجدوا في مصر، وفي ظل أخيهم يوسف عليه السلام، ضيافة كريمة، فاختروا، أو اختار لهم يوسف، أرض جوشن في وادي طميلات، لأنهم رعاة أغنام، وهذه أرض مراعى، ولأنها تبعدهم عن مخالطة أهل البلاد والاندماج فيهم، والامتزاج بهم، حيث كانوا يؤثرون الإقامة في جهات خاصة بهم، ربما لأن تلك طبيعتهم، وربما بسبب نفور المصريين منهم أو من حرفتهم كـ «الأن كل راعي غنم رجس عند المصريين، ولعلنا نحس بذلك منذ اللحظة الأولى التي قدم فيها بنو إسرائيل بأخيهم بنيامين، إذ نرى يوسف يولم وليمة تكريماً لأخيه، ولكنه، فيما تروي التوراة، يأمر بأن تكون له مائدة خاصة به، وأخرى لإخوته، وثالثة للمصريين «لأن المصريين لا يقدرُوا أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين» (1).

وهكذا تبدو نظرة المصريين للعبرانيين واضحة لنا منذ أول لقاء بينهم، وفي ضيافة يوسف العبراني نفسه، وهي نظرة لا تدل، بحال من الأحوال،

ص: 137

على احترام المصريين العبرانيين، وإنما تدل على أنفة المصريين، وتأييدهم عن مخالطة العبرانيين، وعدم استعدادهم حتى للأكل معهم على مائدة واحدة، لأن الأكل معهم رجس لا يليق بالمصريين، رغم أنهم يعرفون أنهم إخوة يوسف، عزيز مصر وقت ذلك، والأمين على خزائنها، والأثير عند مليكهما، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن القطيعة بين الفريقين ما كانت تحتاج إلى بيان، بل إن يوسف نفسه، طبقاً لرواية التوراة، إنما يسلم بها سلفاً، ومن ثم فقد أعد مائدة للمصريين، وأخرى لإخوته، وثالثة له، ولعل أراد بذلك ألا يغضب أحد الفريقين، إن جلس على مائدة فريق دون الآخر.

هذا وربما كان من أسباب هذه النفرة بين المصريين والإسرائيليين تلك النظرة المتعالية التي كان ينظر بها المصريون إلى من عداهم من الشعوب، بل إنهم إنما كانوا يعتبرون أنفسهم وحدهم هم «الناس» أو «الرجال» وأما الأجانب فلا، ومن ثم فقد كانوا يزدرونهم ويطلقون على رؤسائهم لقب «وغد»⁽¹⁾، وزاد الأمر بالنسبة للعبرانيين حريفهم كرهاً، «وكل راعي غنم رجس عند المصريين».

وأياً ما كان الأمر، فلقد عاش بنو إسرائيل في ظل الهكسوس الغزاة، ما شاء الله لهم أن يعيشوا، حتى تقوم ثورة التحرير، التي يحمل لواءها أبناء الصعيد من طيبة، أولئك الذين لم يخنعوا للهكسوس أو يخضعوا لسلطانهم، وتنتهي الأمور بمصر بطرد الهكسوس مصر ومطاردتهم حتى زاهى في لبنان، ومن ثم يسترد المصريون زمام الأمور، وتقوم الأسرة الثامنة عشرة حوالى عام 1575 ق. م، وعلى رأسها أحسن الأول، الذي مجّده الأجيال اللاحقة،

ص: 138

1- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراغنة ص 162، 209، وكذا، drofxO, shoorahP ehT fo tpygE, renidraG. H. A 37. p, 1961.

كمؤسس للأسرة الثامنة عشرة، و كبداية لعهد الإمبراطورية المصرية، و كبطل لا يباري نجح في طرد الهكسوس من مصر (1).

كان الإسرائيليون مرتبطين بالهكسوس بأوثق رباط، فيوسف الصديق عليه السلام، وصل إلى ما وصل إليه في عهدهم، كما أن بني إسرائيل قد ساعدوا الغاصب الأجنبي و من ثم فقد تركهم في مراعيهم آمنين، و لعل هذا كان واحدا من الأسباب التي جعلت المصريين ينفرون من اليهود، و يضمرون لهم أشد المقت، هذا إلى أنهم ربما كانوا على اتصال بالهكسوس، اتصال الملق و المصانعة، و تقديم كافة الخدمات، و من بينها خدمات التجسس، و نتج عن ذلك أن تشابهت بعض الأسماء بين الفريقين، و إن كان علماء اليهود يردون ذلك إلى أن الهكسوس إنما كانوا أيضا قبائل من بينها العبرانيين (2) - الأمر الذي سوف نناقشه فيما بعد- و لعل هذا الذي يقوله علماء اليهود هو ذاته على ما كان بين الغزاة الهكسوس، و الضيوف الإسرائيليين، من صلوات و ثقة أقرها اليهود في تراثهم العبري، و عزوا إليها استقرار العبرانيين في مصر.

على أنه يجب أن نشير هنا إلى أن الإسرائيليين إنما قد تأثروا كثيرا بسادتهم الهكسوس، الذين حاولوا بدورهم أن يكسبوا ود المصريين، و يتكيفوا بالحضارة المصرية، فتنبوا ثقافة البلاد، و طريقتها في الكتابة، بل و عبدوا الإله «رع»، و كانوا يقرنون اسمه بألقابهم مثل «عاقن رع»- و هو الملك أبو فيس - كما عبدوا الإله المصري «ست»، و الذي كان يشبه إلههم الأصلي «تثوب»، و كانوا يطلقون عليه أحيانا «سوتخ» (3).

ص: 139

1- أنظر عن عصر الهكسوس في مصر و حرب التحرير (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة- القاهرة 1976 ط دار المعارف) ص 101-223).

2- . 5 . C . htoR . p, tic- po, nietspE. I 15 و كذا.

3- محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 155-160، عبد العزيز صالح: مصر و العراق ص 191.

و من هنا، فأكبر الظن، أن الإسرائيليين قد تأثروا بالهكسوس في اعتناق الديانة المصرية، و من ثم فقد رأينا «دين ستانلي» يقول: إن إقامة بني إسرائيل في مصر، قد أثرت فيهم كثيرا، فيما يتصل بحريتهم السابقة و نشاطهم السابق، و إن كان الأهم من ذلك كثيرا، أن الديانة السابقة التي تمتع بها عصر الآباء البطارقة الأقدمين، إنما قد تلاشت الآن كثيرا.

و تقدم لنا التوراة الكثير من الأدلة على أن الإسرائيليين إنما كانوا يعبدون آلهة البلاد التي كانت تستضيفهم، و من هنا جاء في سفر يشوع قول الرب: «انزعوا الآلهة الذين عبدتهم آبؤكم عبر النهر، و في مصر، و اعبدوا الرب» (1)، كما جاء في سفر حزقيال: «في ذلك اليوم رفعت لهم يدعني لأخرجهم من أرض مصر، إلى الأرض التي تجسستها لهم، تفيض لبنا و عسلا، هي فخر كل الأراضي، و قلت لهم: اطرحوا كل إنسان منكم أرجاس عينيه، و لا تتنجسوا بأصنام مصر، فتمردوا عليّ... و لم يتركوا أصنام مصر» (2).

و هكذا عاش الإسرائيليون في مصر فترة رخاء في بادئ الأمر، و اعتنقوا ديانة المصريين، ثم مضت فترة لا ندري مداها على وجه التحقيق، و إن كنا لا نظن أن الاضطهاد قد بدأ بعد التحرير مباشرة، و إنما يبدو لي أن ذلك، إنما كان بعد حين من الدهر.

(ب) الاضطهاد - أسبابه و نتائجه:

ترجع التوراة أسباب اضطهاد المصريين للإسرائيليين إلى أنه «قام ملك جديد على مصر، لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر و أعظم منا، هلم نحتال لهم، لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب

ص: 140

1- يشوع 24: 14.

2- حزقيال 20: 6-8.

أنهم ينضمون إلى أعدائنا و يحاربوننا و يصعدون من الأرض» (1).

و في الواقع أننا إذا ما أردنا مناقشة أسباب التوراة هذه للاضطهاد المصري لبني إسرائيل، لرأينا فيها بعض الصواب، و لكننا سوف نرى فيها- في نفس الوقت- الكثير من الخطأ، فالتوراة تجعل من فرعون الذي «لم يكن يعرف يوسف» سببا في الاضطهاد، و رغم أنه سبب غير مقنع تماما، إلا- أنه ربما كان يحمل بعض الصواب بين طياته، ذلك لأن هذا الفرعون الذي تشير إليه التوراة- دون أن تذكر اسمه- ربما كان «رعمسيس الثاني» و ربما كان «سيتي الأول»- فيما يرى أطلس و ستمنستر التاريخي- هو الملك الذي بدأ العمل في بناء مدينة «بر- رعمسيس»، كما تدل بعض الآثار التي وجدت في موقع المدينة (2).

و أما جهل هذا الفرعون بيوسف الصديق، عليه السلام، فلعل السبب في ذلك أن الصديق إنما عاش قبل هذا الفرعون بقرون، ترجع إلى أيام الهكسوس، و هم الغزاة الذين يحمل لهم المصريون في قلوبهم كل الكره و البغض، و لم يحاولوا أن يسجلوا تاريخهم، فضلا عن تاريخ موظفيهم، و الصديق واحد منهم، و من هنا فقد ارتبط يوسف بحدث مؤلم في الضمير الوطني المصري، و ذلك لسببين، الواحد أنه كان أسيويا، و جواب رمال، و الآخر أنه كان من أكبر موظفي الدولة المحتملة المكروهة، و طبقا لوجهة النظر الأخيرة، فإن أي إعجاب بيوسف إنما كان يعني- في نظر فرعون- الثناء على الهكسوس (3).

و أما ما تذهب إليه التوراة من أن الإسرائيليين قد أصبحوا «شعبا أعظم

ص: 141

1- خروج 1: 8-10.

2- .. 37 ehT W retsenimtseH lacirotsiA saltA eht ot elbiB p.

3- .. 117 K. W relleK. po- tic, p.

وأكثر» من المصريين، فهذا منطوق غير مقبول، وأن النص التوراتي لا شك أنه قد أوغل في المبالغة، وأغرق في التعصب، ذلك أن التوراة نفسها إنما تحدثنا أن بني إسرائيل عند ما قدموا إلى مصر، للمرة الأولى، إنما كان «جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون» (1)، وها نحن الآن على أيام الاضطهاد- ثم الخروج فيما بعد- وقد انصرفت 215 سنة، على رأي التوراة السبعينية- أو ضعف هذا الرقم على رأي التوراة العبرية- حتى يصبح هذا البيت من الناس «شعباً أعظم وأكثر» من المصريين- أصحاب أعظم وأقوى دولة في العالم وقت ذلك- أو حتى يصبح عدد بيت يعقوب قد ناهز المليون- ربما الثلاثة- فلما طردوا من مصر، كان من بينهم «نحو ستمائة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، فكان جميع الأبقار الذكور، من ابن شهر فصاعد، اثنين وعشرين ألفاً ومائتين وثلاثة وسبعون» (2)، فإذا ضاعفنا هذا العدد كان الأبقار من الجنسين قرابة 45 ألف.

ويعلق بعض الباحثين على ذلك، بأننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبقار، لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية من اليهود الأبقين، كانت تلد زهاء 65 وليداً، وهو أمر لا يستقيم مع المنطق، فضلاً عما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير، ولا مع ما روى من عبورهم البحر في سويقات قصار، ومن ثم فإن علماء اللاهوت والمؤرخين، سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلقون على هذه الأرقام التي ذكرتها التوراة أية أهمية، ويعتبرونها محض خيال إسرائيلي (3)،- الأمر الذي سوف نناقشه عند الحديث عن الخروج.

ص: 142

- 1- تكوين 26: 27-26.
- 2- خروج 12: 32، عدد 43: 43.
- 3- عصام الدين حفني ناصف: محنة التوراة على أيدي اليهود، القاهرة 1965 ص 35، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 72. وكذا، 1931، p. 358. A. S. kooC. A. S. 358. p. 1931. II, HAC, learsI fo esiR ehT,

هذا فضلا عن أن الإسرائيليين لم يكونوا في مصر- في غالب الأحيان- إلا مجرد رعاة أغنام، وأن المصريين إنما هم أصحاب البلد الأصلاء هم المالكون للسلطة والقوة والثروة في البلاد، ومن ثم يبدو واضحا مدى المبالغة في نص التوراة الذي يصف الإسرائيليين بأنهم «شعب أكثر وأعظم» من المصريين، وليس أدل على ذلك من الاضطهاد الذي تقول به التوراة، وتحاول تبريره بمثل هذه الحجج الواهية، وإلا فخيرني بربك: كيف يضطهد الأقل الأكثر، والأذل الأعز، والأضعف الأقوى؟.

و أما قول التوراة، أنه «إذ حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض»، فلعل هنا موطن السر، ولعل من كتبوا هذه النصوص في التوراة قد أشاروا إلى موطن الداء، دون أن يدروا، وهو عدم ثقة المصريين في بني إسرائيل، وخشيتهم من أن يكونوا حربا عليهم، إن طمع فيهم غاز لثيم، أو أراد معتد أثيم أن يدنس أرضهم، ولعل لهم من عهد الهكسوس ذكريات لا تضع الإسرائيليين فوق مستوى الشبهات، بل إنهم- كما يقول الدكتور الحاخام أبشتين (1)- كانوا متهمين بالتعاطف مع الهكسوس، وأقرباء نائب الملك السابق، أو وزير تموينه على الأصح.

وهكذا يبدو واضحا- وبنص التوراة نفسها- أن سبب الاضطهاد من أقوى الأسباب التي تخيف منهم أمة متحضرة كمصر، وملكا مهيبا كفرعون، وهو انعدام ولائهم للبلاد التي يعيشون فيها، واستعدادهم للانضمام إلى أعدائهم وشن الحرب عليها (2)، حتى وقع في خلد فرعون وآله أنهم طابور خامس، وربما كان ذلك- فيما يرى سير ليونارد ولي- انعكاسا للكراهية القومية للهكسوس المحتلين التي رأت في العبرانيين ظلالهم (3).

ص: 143

1- . p, msiaJ, nietspE. I 15 .

2- حسن ظاظا: الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة 1971 م ص 4.

3- . p, tic- po, yellow. L 495 .

هذا فضلا عن أن الشعب المصري لم يكن ينظر بارتياح إلى الإسرائيليين منذ أول يوم عرفهم فيه (1)، ثم تحول هذا الشعور إلى كره و مقت، حين رآهم أجراء أذلاء يستخدمهم الهكسوس الغزاة في أعمالهم، ثم تحولت به الكراهية إلى احتقار و ازدراء، بخاصة وأنهم كانوا منذ البداية يعتبرون الأكل معهم نجاسة، ثم رحل الغزاة من أرض مصر، فبقي هؤلاء الأذئاب ليلعبوا دور الذئاب، و كان من رعمسيس ما كان مع هؤلاء الجواسيس (2).

و هنا لنا أن نتساءل هل كان هناك حقا استعباد من المصريين للإسرائيليين؟ أم أن الأمر لا يعدو أن الإسرائيليين قد اعتادوا الدعة و الرخاء منذ أيام يوسف، فلما تغيرت الحال نوعا، و رأى الفراعين ضرورة اشتراك اليهود فيما كان يبذل في البلاد من جهود نحو التنمية في الزراعة. و أعمال البناء و تشييد التماثيل و المعابد و ما إلى ذلك، عدوا ذلك عننا لا يطيقون احتمالاه و بدءوا يتدمرون (3)؟

و إذا ما أردنا أن نصل إلى الحقيقة، أو حتى أن نقرب منها، فعلينا أن نتذكر أن مصر، إحدى الدول التي لم تعرف السخرة و الاستعباد قبل عهد الدولة الحديثة، حين كان الأسرى يدفعون إلى العمل فيستعبدون عن هذا الطريق، و لم يقل أحد من العلماء أن الإسرائيليين دخلوا مصر كأسرى حرب، و من ثم استعبدهم المصريون، هذا فضلا عن أن التوراة إنما تذكر صراحة أن الفرعون إنما كان ينظر إليهم - حتى في أوقات الشغب - و كأنهم من الشعب ليسوا مجموعة من العبيد - أو حتى المستعبدين -، تقول التوراة:

ص: 144

1- تكوين 43: 32.

2- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 177-178.

3- صبري جرجس: التراث اليهودي الصهيوني، القاهرة 1970 م ص 25.

«فقال لهما ملك مصر: لما ذا يا موسى و هارون تبطلان الشعب من أعماله (1)»: بل إن القرآن الكريم إنما يقدم لنا الإسرائيليين على أنهم قد أصبحوا جزءا من رعية فرعون، أو طائفة منهم، يقول سبحانه و تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ (2).

بل إننا- حتى لو افترضنا جدلا- أن المصريين قد استعبدوهم يعد طرد الهكسوس، فإن العمال- سواء كانوا يعملون في المقابر أو المحاجر الملكية، أو كانوا يعملون في تشييد المدن- إنما كانوا يعاملون معاملة طيبة، و يمنحون المكافآت في الأوقات المناسبة، و أنهم كانوا يتمتعون بفترات راحة رسمية، كانت تقع في اليوم العاشر و العشرين و الثلاثين من كل شهر، كما كانوا يمنحون إجازات في المناسبات الخاصة بالأعياد الكبرى للآلهة الرسمية كانت كثيرا ما تصل إلى أيام متتالية (3)، كما كان بعضهم يتخلفون عن العمل لأسباب مختلفة كالمرض و تقديم القرابين للإله، كما كان انحراف مزاج الزوجة أو الابنة كافيا- و إن كان غريبا- يسوغ أحيانا التخلف عن العمل (4).

و من ثم فقد رأينا بعض الفراعنة يفخرون بأنهم إنما يعاملون عمالهم برفق و سخاء، فها هو «سيتي الأول» يحدثنا أن الواحد من عماله، إنما كان «يتقاضى أربعة أرتال من الخبز، و حزمتين من الخضروات، و قطعة من

ص: 145

1- خروج 5: 4.

2- سورة القصص: آية 4.

3- J 18., ynreC ,ypgE morf eht htaeD fo sessemaR ,III ,eht fo dnE eht ot ,tsriF ytnewT ,ytsanyD ,egdirbmaC ,p, 1965.

4- أرمان، رانكة: مصر و الحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة 1953 ص 124.

اللحم المشوي كل يوم، و ثوبا من الكتان النظيف مرتين كل شهر» (1)، وفي الواقع أنه لو كان ما يقوله «سيدي» صحيحا، لكان عماله يعيشون في مستوى يقارب مستوى العمال في العصر الحديث، وفي أكثر البلاد تقدما، فإذا أضفنا إلى ذلك أن «سيدي الأول» هذا، أو ابنه رعمسيس الثاني، هما اللذان تدور حولهما روايات التوراة عن السخرة، وبناء مدينتي «فيثوم و رعمسيس»، لتبين لنا مدى ما في رواية التوراة من مجافاة للحقيقة.

و لعلنا نستخلص الدليل على حسن معاملة الفراعين للعمال من بني إسرائيل من توراة بني إسرائيل نفسها، ذلك أننا نقرأ في سفر الخروج أن الإسرائيليين قد ثاروا على موسى، و لما يمضي شهر و نصف الشهر على خروجهم من مصر، بعد أن أفقدهم موسى حياة الرخاء في مصر، و جاء بهم إلى البرية (2)، ثم سرعان ما تمضي فترة فتعود الثورة و يشتد الحنين إلى مصر، و من ثم نقرأ في سفر العدد: «فعاد بنو إسرائيل أيضا، و بكوا و قالوا من يطعمنا لحما، قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً، و القثاء و البطيخ و الكرات و البصل و الثوم (3)، بل إن التوراة في سفر الخروج إنما تؤكد أن الإسرائيليين إنما كانوا يعارضون في الخروج من مصر منذ بادئ الأمر، تقول التوراة- على لسان الإسرائيليين- «ما ذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين: كف عنا فنخدم المصريين» (4).

و هكذا يبدو لي أن الأمر لم يكن بالصورة التي قدمتها التوراة، و أن

ص: 146

1- , 1907, p. 414. B. H. J. detsaer, A. tneicnA, fo sdroceR tpygE, VI, C.ogacih.

2- خروج 16: 2.

3- عدد 11: 4-6.

4- خروج: 14: 11-122.

الإسرائيليين لم يكونوا عبيدا مسخرين في مصر، وإنما كانوا قوما طفيليين اعتادوا حياة الدعة و الرخاء في ظل رعاية الهكسوس وإيثارهم على الوطنيين، وحين ولى ذلك كله، و تحررت البلاد من نير الهكسوس، وأراد الفراعين إعادة الدولة المصرية إلى ما كانت عليه من مجد و سؤدد، فكان لزاما عليهم الاهتمام بزراعتها وإعادة ما تهدم من منشآتها، وهنا كان على القاطنين بأرض الكنانة، الإسهام في هذا الجهد العظيم، فطلب أولوا الأمر من بني إسرائيل أن يشاركوا في ذلك كله، لا أن يكون عملهم مقصورا على رعاية المواشي و الأغنام، و هو أمر يعود عليهم بالنفع وحدهم.

وهنا غضب الإسرائيليون لأنهم ما تعودوا أن يشاركوا بجهد في إقامة الدولة من كبوتها، ولأنهم سوف يفقدون امتيازاتهم القديمة، وربما فكروا في العمل ضد الدولة، أو أن الدولة نفسها كانت تخشى - كما تقول التوراة (1) - أن يتآمر بنو إسرائيل ضدها في محاولة للانتكاس، بل إن بعض الباحثين إنما يذهب إلى أن شعب مصر إنما كان قد اكتشف فعلا أن بني إسرائيل يتآمرون عليه (2).

وعلى أي حال، فلو اتفقنا مع الآراء التي تنادي بأن فرعون التسخير، إنما كان «رعسيس الثاني» (3) - أو حتى أبوه «سيتي الأول»، لرأينا أن ظروف البلاد إنما كانت تستدعي وقت ذاك الحذر و الحيطه من الأخطار الخارجية التي كانت تهددها، ولم يكن لرعسيس - أو أبوه، - بداهة أن يفاجىء الناس - على غير علة و لا سبب - بتلك السياسة، عن مجرد مزاج مال

ص: 147

1- خروج 1: 10.

2- سليمان مظهر: قصة العقائد ص 283.

3- قاموس الكتاب المقدس 2/ 923، و أنظر: E. ellivan, T. eh و كذا. J. F. nageni, p. tic- po, hoN. M 134، 120. . p, tic- po, hoN. M 134، 120 و كذا. A. 39 p, tneatseT dlo eht fo yoloeahcr

به إليها، وشهوة إلى الدم عصفت به في قوم أبرياء. وإنما لا بد وأن تكون هناك أسباب، تستدعي كل هذا العنف، و تلك القوة القاسية.

كان عهد رعمسيس الثاني (1290 - 1224 ق. م) - وكذا عهد أبيه سيتي الأول (1309 - 1291 ق. م) من قبل - قد تميز بالحرب الضروس التي اشتعل أوارها بين القوتين الأعظم في ذلك الوقت، وأعني بهما القوة المصرية و القوة الحيثية، فالتاريخ يحدثنا أن الحيثيين كانوا من وراء الثورات التي شبت في إمبراطورية مصر الآسيوية على أيام أخناتون (1367 - 1350 ق. م)، حتى قضاوا - أو كادوا - على النفوذ المصري في غربي آسيا (1)، حتى إذا ما كانت أيام «حور محب» (1335 - 1308 ق. م) بدأت مصر تستعيد قوتها، و تنازع الحيثيين سلطانهم الذي اكتسبوه في غيبة الإمبراطورية المصرية، بل إن الرجل إنما أحرز انتصارا عليهم حتى قبل توليته عرش الكنانة (2).

على أن «سبتي الأول» إنما كان حقا هو الفرعون الذي قام بالمحاولة الجادة لاسترداد الإمبراطورية المفقودة في آسيا، و وضع حد لنزوات البدو الذين كانوا يهدون الحدود الفلسطينية من الشرق، فيقوم بحملات ثلاث ينجح فيها في إخضاع كل بلاد فلسطين، و جانب من سورية، ثم يستمر في تقدمه شمالا، حتى إذا ما كانت الحملة الرابعة تحدث المواجهة المباشرة بينه و بين الحيثيين في مكان ما إلى الشمال من مدينة قادش، و طبقا لنصوص

ص: 148

1- (1969, p. 51, O. R. G. Yent, H. E. Seti, (P. niugneB skoo), و كذا. T. H. E. I. A. T. A. I. p, I, tselbaT anramA le- lleT ehT, .recrem. B. A. S, 21- 417, 215, F. p, II 529, 238

2- أنظر: دريوتون، فانسبية: مصر، ترجمة عباس بيومي، القاهرة 1950 ص 466-467، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 229-230 و كذا، B. H. J. 40, p, 1946, Y, N, tpygE fo yrotsiH A, detsaer. H. J. 40, p, 1946, aej, bahmeraH lareneG eht fo bmoT, و كذا، .etihpeM eht, renidraG. H. A 4. p, 1951, 39

الكرنك، فقد كتب النصر للفرعون، فضلا عما استطاع الحصول عليه من الغنائم والأسرى، إلى جانب إجبار الحيثيين على العودة إلى بلادهم (1).

ويخلف «رعمسيس الثاني» أباه «سيتي الأول» على عرش الكنانة في عام 1290 ق. م، ويبدأ حكمه بأن يوجه كل جودة في متابعة الانتصارات التي حققها أبوه في فلسطين و مدها نحو الشمال، إلى سورية، و هنا تحدث مواجهة أخرى بين المصريين و الحيثيين على أرض قادش (2)، حيث كانت

ص: 149

1- أنظر محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 230-232. و كذا O. R. 254. p، 1966. . O. R. 33، 1974، 38-37. p، 1974، 33. و كذا. fo tpygE, renidraG, HA. و كذا. ni, I, sohteS fo sraW eht, renkluaF. O. R 201-218. p، 1975. , drofxo, shoarahP eht 254-253. p. 164، 1964. 2, trap, II, HAC ni, renkluaF

2- قادش: بلد تقع على نهر الأورنت (العاصي) في مكان «تل نبي مند»، على الشاطئ الأيسر لنهر العاصي، داخل الزاوية المكونة من التقاء العاصي بنهر الموقادية الصغير من ناحية الغرب، و على مبعدة بضعة أميال جنوبي النهاية الجنوبية لبحيرة حمص، و كانت قادش تدعى في حوليات تحوتمس الثالث «قدشو» و في رسائل العمارنة «كنزا» أو «كدش» و في بعض الحالات «كدشو» و «جيزا» و ربما كان «إدوارد ماير» مصيبا في ظنه أن الاسمين مختلفان حقيقة، فالأول هو الاسم الحقيقي، و الثاني اسم بمعنى «المحراب» من الأصل السامي «قدش» أي مقدس، و يبدو أن المدينة قد خربت بعد المعركة الطاحنة بين رعمسيس الثاني و مواتيلا ملك الحيثيين، ثم جددت بعد ذلك عدة مرات، ربما كان آخرها في العصر الروماني. و ترجع أهمية قادش من الناحية الإستراتيجية أنها تقع في النهاية الشمالية لوادي البقاع، و من ثم فقد كان لزاما على الجيوش المتجهة شمالا أو جنوبا أن تمر بها، إلا إذا فضلت السير على الساحل الضيق بطريق أرواد أو أجاريات. و أما قدش و قادش المذكورتان في التوراة فهما مكانان في جنوب فلسطين (غير قادش الأورنت)، فأما الأولى: فهي قادش برنيع، و التي يرجح أنها على مبعدة 50 ميلا جنوبي بئر سبع، 70 ميلا جنوبي حبرون (الخليل)، و أما الثانية فهي مكان قرية قدس الحالية على مبعدة عشرة أميال شمالي صفد، و أربعة أميال إلى الشمال الغربي من بحيرة الحولة (أنظر قاموس الكتاب المقدس 708 / 2 - 709 و كذا p, tic- po, regnU. و كذا. hsedak fo elttab ehT ,detsaerB .H .J ,I ,acitsamonO naitpygE tneicnA ,renidraG .A. .ogacihC P 13. p، 1903 ..137-141. F. M 625.

معركتها المشهورة في السنة الخامسة من عهد رمسيس الثاني (حوالي عام 1285 ق م)، والتي انتهت بنصر غير مؤزر للمصريين، مما اضطر الفرعون إلى العودة إلى النضال ثانية عام حكمه الثامن (حوالي عام 1282 ق م) ضد أعدائه في الأرض الآسيوية، ويكتب له هذه المرة نجاحا بعيد المدى في إخضاع المدن الثائرة من جنوبي فلسطين حتى شمال سورية، ثم يتقدم حتى بلاد النهرين، ويوقع بالحيثيين هزيمة ثانية في «توب»، وهكذا ينجح رمسيس الثاني في أن يستعيد الإمبراطورية المصرية في آسيا، وفي أن يسجل اسمه كأحد الفراعين المحاربين، الذين أفنوا عمرهم في الحفاظ على الإمبراطورية المصرية التي ورثوها عن فرعون مصر العظيم «تحتمس الثالث»، كما كانت الحملة درسا قاسيا للحيثيين أجبرهم على احترام السيادة المصرية في آسيا، وعدم التدخل في شئون الولايات المصرية هناك (1).

هذه هي الظروف التي كانت تمر بها مصر في تلك الفترة التي تحدثت التوراة عن استعباد الإسرائيليين في مصر إبانها، ولعل أي منصف ليرى أن الفرعون ما كان في استطاعته أن يترك البلاد تحت رحمة الدسائس الإسرائيلية، وأغلب الظن أن رمسيس إنما طارد بني إسرائيل بعد أن أوعز صدره عليهم، وثقة مفقودة ربما افتقدها عندهم في حروبه ضد الحيثيين، ولعله وجد فيهم ما لم يتعففوا عنه من خيانة و تجارة بولائهم للغالب في ظنهم من المتنازعين، و ما كان من حق الفرعون أن يترك طائفة من الناس - أيا

ص: 150

1- محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رمسيس الثالث- الإسكندرية 1969 ص 77-93 (رسالة دكتوراه) و أنظر: drofso, II, sessemaR, Kذا, p, TENA 265: eht no noitaredisnoC, ekcideoG. H .: Kذا. A. HsedraG. ehT, renidraG. A. AEJ, hsedak fo elttaB 79- 72. p, Kذا, fo noitpircsnI 9- 7. p. 1966. , 2 traP, II, HAC ni, renkluaF. O. R egdirbmaC, 230- 226. p. 1975. و كذا. 1966, 52. , 7, AEJ, hsedak fo elttaB eht no setoN snoS, neruB. A .195- 194. p, 1921

كانت- تنعم بخيرات الكنانة و دون أن تؤدي عملا يتفق و ظروف الحرب هذه، فضلا عن الخيانة و التجسس، بخاصة و أن الإسرائيليين كانوا يسكنون في منطقة الحدود الشرقية، و هو التي اضطر رعمسيس تحت ضغط الظروف أن ينقل إليها عاصمته، لتكون في مكان وسط بين مملكته في مصر و أملاكها في آسيا، و من ثم يصبح على مقربة من الأحداث التي كانت تدور وقت ذلك في أملاك مصر الآسيوية، أضف إلى ذلك كله أن الإسرائيليين إنما كانوا يرتبطون بفلسطين بالذات بالأساطير التي جعلها «أرض الميعاد»، فضلا عن أنهم قدموا إلى مصر منها كذلك، و من هنا كان خوف الفرعون من أن يكونوا جواسيس عليه، لمصلحة أعدائه من الأمراء الآسيويين، فضلا عن الحيثيين.

و انطلاقا من هذا كله، كان أمر فرعون أن يعمل عبيده الإسرائيليين في بناء المدن الجديدة- مكرهين كانوا أم راغبين- بل و تحت إشراف رؤساء مصريين، و لم يكن في هذا الأمر شيء من تعنت أو شذوذ- فما أظن- فالفرعون أراد بوضعهم تحت إشراف المصريين أن يكون في مأمن من جانبهم، و حتى لا يصاب بضربة خيانة منهم، في وقت هو في أشد الحاجة إلى من يؤمن له ظهره إبان قتاله الميرير ضد الحيثيين، و ضد الأمراء الآسيويين، هذا من ناحية، و من ناحية أخرى، فإن هذه الشوامخ الراسيات على أرض الكنانة قد قام بها من قبل مصريون، فما الغريب في الأمر، أن يسهم بنو إسرائيل في بناء مدينتي «فيثوم و رعمسيس»- و هما المدينتان اللتان شيدهما رعمسيس الثاني في نفس المنطقة التي يقيم فيها الإسرائيليون- و هو إسهام لم يتجاوز صنع قوالب من اللبن تستخدم في بناء المدن، بل إنه في أشد حالات قسوته- كما تصوره التوراة (1)- أن يجمع الإسرائيليون اللبن الذي يستخدمونه في صنع اللبن بأنفسهم من القرى المصرية، بعد أن كان

ص: 151

1- خروج 1: 8-14، 5: 6-11.

المشرفون عليهم هم الذين يقومون بجمعه.

هذا هو العمل القاسي الذي كلف به الإسرائيليون، إسهام في بناء بعض مدن الدلتا، و الحق أنه ما كان من المنطق، و ما كان من العدل، أن يعمل المصريون- فضلا عن الأسرى الآسيويين (1)- في الحقول، و في بناء المدن و تشييد المحاريب و التماثيل، ثم يخوض أشبال الكنانة و أسودها بعد ذلك المعارك الضارية، يقتلون و يقتلون، بينما يظل الإسرائيليون- ما شاء الله لهم أن يظلوا- عالية على البلاد التي استضافتهم نيفا و أربعة قرون، منذ أن وصلوا إليها لاجئين، يطلبون الرزق، و يلتمسون وسائل العيش الناعم، و الحياة السهلة الرضية، بين أهلها الكرام أبدا، دون أن يقوموا لأهلها جزءا و لا شكورا.

و الرأي عندي، أنه حتى هذه المرحلة، لم يكن هناك تعذيب للإسرائيليين قد بدأ بعد، و إنما العذاب المهين قد بدأ، حين «أمر فرعون جميع شعبه قائلا: كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها (2)»؛ و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا، يَسْتَصِدِّعُ عِشْرَةَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ (3). و قول: وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (4). .

ص: 152

1- أنظر عن استخدام الأسرى في المباني: te itnasaraB و كذا. on, III, ERA, detsaerB. J 498, IX, EASA (ibun) auobeS- .SE idauQ a seevuorT seletS, reihtuaG 84. p, 1911

2- خروج 1: 23.

3- سورة القصص: آية 4، و أنظر: تفسير روح المعاني 42/20-44، في ظلال القرآن 20/2676، تفسير ابن كثير 3/379-380 (دار إحياء التراث العربي- بيروت)، تفسير القرطبي ص 4963-4965.

4- سورة البقرة: آية 49، و أنظر: تفسير روح المعاني 1/252-254، تفسير الكشاف 1/127-138، تفسير الطبري 2/36-29 (دار المعارف)، تفسير النسفي 1/49، تفسير القرطبي ص 225-230 تفسير الطبرسي 2/231-215، التفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية 1/98-100، تفسير البحر المحيط 1/187-188، تفسير المنار 1/308-313، الدر المنثور في التفسير بالمأثور 1/68-69 (طهرا 1377 هـ)، في ظلال القرآن 1/70-72، تفسير ابن كثير 1/128 130 (القاهرة 1971) الجواهر في تفسير القرآن الكريم 1/59-61 (للشيخ طنطاوي جوهرى).

وسؤال البدهة الآن: لم تغير الحال إلى هذا المصير الأليم؟ ولم أذاق الفرعون بني إسرائيل العذاب المهين؟

إن الإسرائيليين - كما هو معروف - لم يكونوا أول الشعوب الآسيوية التي استضافتها مصر، ولم يكونوا كذلك آخرها، وبخاصة إذا أرخنا مرحلة الاضطهاد هذه بعصر رعمسيس الثاني، فإننا نعلم أن عاصمته التي سخر الإسرائيليين في بنائها، طبقا لرواية التوراة، مثل سائر المدن الكبرى في مصر حيث كان يخالط المصريون الليبيين و الزنوج و الآسيويين، ولا شك في أن موقع العاصمة الجديدة بين مصر و أقاليم الشرق جعل الوفود تقصدها، فظهر الغرباء في بعض وظائف الدولة، و امتلأت لغة المصريين بكلمات آسيوية سامية وردت كثيرا في الأدب المصري، وبخاصة في القرن الثالث عشر ق.

م، و كان ازدواج اللغة واضحاً في عاصمة الرعامسة، هذا فضلا عن أن الآلهة الكنعانية قد مثلت في مجمع الآلهة المصري، كذلك شاعت بين المصريين بعض العادات السامية، بل أصبح للغرباء في العاصمة أحياء خاصة، كما أصبح لغير المصريين من جندها ثكنات خاصة بهم في قلبها وفي ضواحيها (1).

ص: 153

1- بيير مونتيه: الحياة اليومية في مصر الرعامسة، ترجمة عزيز مرقس منصور، القاهرة 1965 ص 19 - 20، و أنظر arZE ot Y. N, 1963, p. 14. F. W. thgirblA. ehT, lacilbiB doireP morF, maharbA.

وإذا كان ذلك كذلك، فلم حاق الإسرائيليون بغضب فرعون دون سواهم من ضيوف مصر وأسراها؟

وهنا علينا أن نبحث عن سبب مقنع لهذا التحول الخطير في حياة الإسرائيليين في مصر، وليس هذا السبب- بحال من الأحوال- ما ترويهِ الأساطير من أن الإسرائيليين قد أذاعوا بين الناس- أو أن الكهنة المصريين قد تبتئوا- بأنه سيولد من بني إسرائيل من سيكون على يديه زوال فرعون و ضياع ملكه (1)، فلعمري إنما تلك روايات رأينا مثلها عن إبراهيم الخليل (2) و عن المسيح (3)، عليهما السلام، فضلا عن تلك التي دارت حول «زرادشت» (4).

و من هنا، فليس أمامنا سوى أن نفترض أن أمرا قد حدث من الإسرائيليين الذين ساءهم ما كانوا به من عمل في مدينتي فيثوم و رعمسيس، فعصف ذلك الأمر بالبقية الباقية من صبر فرعون، وإن كنا لا ندري على التحقيق ما هو هذا الأمر، فربما كان خيانة، وربما كان بداية تمرد، أو على الأقل، فإن الإسرائيليين ربما بدءوا يوجهون حربا نفسية لخلخلة الرأي العام المصري- إن صح هذا التعبير- وبخاصة في منطقة شرق الدلتا، التي كانت تعج بالأجانب من كل جنس، إن لم يكونوا قد قاموا بالاتصال بالعدو الآسيوي، والقوات المصرية في حالة نزال معه على الأرض الآسيوية نفسها، وربما اكتشف المصريون ذلك بعد عودة قواتهم من معركة قادش

ص: 154

-
- 1- ابن كثير: البداية والنهاية 1/137-238، قصص الأنبياء 2/4-5، تاريخ الطبري 1/386-388، تاريخ اليعقوبي 1/33 مروج الذهب 1/61.
 - 2- تاريخ الطبري 1/234-236، ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/94-95، ابن كثير البداية والنهاية 1/148، أبو الفداء المختصر في أخبار البشر 1/13.
 - 3- متى 2: 1-23.
 - 4- على عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة ص 129-130.

المشهوره، أو ربما كان ذلك بعد حملة العام الثامن التي قضى فيها رعمسيس الثاني على أعدائه- سواء أكانوا من الأمراء الآسيويين الثائرين، أو من الملوك الحيثيين الطامعين، ذلك لأننا نميل أن ما حدث إنما كان بعد هذه الحملة الأخيرة، حيث أن الفترة ما بين معركة قادش في السنة الخامسة من حكم رعمسيس الثاني (حوالي عام 1285 ق م)، وبين حملة العام الثامن (حوالي عام 1282 ق م) إنما تميزت باندلاع الثورة في كل فلسطين بتحريض من الحيثيين، وربما بدسائس الإسرائيليين كذلك.

و من هنا فقد عاد رعمسيس من حملته هذه، وفي غضب من أحس أنه طعن من وراء ظهره ممن آوئهم مصر بعد تشرده، و أطعمتهم بعد جوع، فكان العذاب الأليم صبه فرعون، دونما رحمة أو شفقة، على الإسرائيليين، حيث أمر بذبح أبنائهم و استحياء نسائهم، وفي هذه الأيام العصيبة ولد لبني إسرائيل أمل جديد، ذلكم هو «موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب» عليه السلام.

و يعلق أحد علماء الإسلام الأجلاء على هذه الأحداث، و على موقف فرعون منها، فيرى فضيلته: أن فرعون كان عظيما و كريما في موقفه من بني إسرائيل، ثم يتساءل فضيلته: ما ذا يفعل أي حاكم- عادل أو ظالم- في قوم دخلاء غرباء، وجدوا في بلاده المرعى الخصيب، و العيش الرطب، و الضيافة الكريمة، على الرغم من أن أهلها يكرهونهم، ثم وجدهم بعد ذلك، و بعد طول الإقامة في بلاده خونة و جواسيس، و مثارفتن و دسائس و أذنابا لأعدائه، يعملون على هدم وطنه و استعباد أهله.

و حين سئل فضيلته: أ يقتل أطفالهم، و يستحي نساءهم، و يسخرهم في تعبيد الطرق، و بناء المدن، كما فعل فرعون؟

أجاب فضيلته: و هل هذا يعد شيئا إذا قيس بما وقع عليهم من «نبوخذنصر

« (605-562 ق. م) و «أدولف هتلر» (1889-1945 م)، وأباطرة الرومان، و ما عانوه من المذابح التي أكلت نساءهم و أطفالهم في روسيا و أسبانيا، وفي كل مكان كان لهم فيه كيان؟.

إن هؤلاء كانوا وراء كل فتنة عامة، و خلف كل محنة إنسانية في كل عصر و لم يكن هلاك فرعون تكريما لهؤلاء الذين يقول الله فيهم مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تَقُفُوا، و إن كان انتقاما من فرعون لتكبره و تجيره و ما آل إليه أمره من الطغيان، حتى انتهى به إلى الكفر، و الإصرار على الكفر (1)، و قال: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (2)، و قوله لموسى: لَئِن اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (3)، و قوله: فَحَشِّرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (4)، و كذلك جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (5)، و هذا التعليل للفرق هو الذي تذكره الآية الكريمة: فَاتَّقِنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (6)، و أخيرا فإن النقيصة التي أخذت على فرعون إنما كانت اندفاعه في العذاب و إسرافه في القتل للمذنب و غير المذنب على السواء (7).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك رأيا يذهب إلى أن سبب اضطهاد الفراعين لبني إسرائيل إنما هي أسباب سياسية و دينية، ذلك أن ديانة

ص: 156

- 1- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 192-193.
- 2- سورة القصص: آية 38.
- 3- سورة الشعراء: آية 29.
- 4- سورة النازعات: آية 22-24.
- 5- سورة النازعات: آية 25-26.
- 6- سورة الأعراف: آية 136.
- 7- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 87.

التوحيد التي كانت قد عرفت قبل تولي يوسف مقاليد الحكم في مصر، لا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك و استقرت على نطاق واسع في أثناء توليه الحكم، ثم من بعد ذلك في عهد أسرة الرعاة (الهكسوس) فلما استرد الفراعنة زمام الأمور في الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر، لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية، وهكذا يكشف لنا سببا أصيلا من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني يعقوب، إلى جانب السبب السياسي، وهو أنهم جاءوا و استوطنوا و حكموا و استقروا في عهد ملوك الرعاة (الهكسوس) فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني يعقوب أيضا، و إن كان إختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع، ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعنة، فهي العدو الأصيل للطواغيت و حكم الطواغيت و ربوبية الطواغيت (1).

ورغم جاذبية هذه النظرية، و ما فيها من أوجه صواب، فإن فيها نقاط ضعف أيضا، منها (أولا) أن الهكسوس، على الأقل بعد عهد يوسف عليه السلام، لم يكونوا موحدين بدليل أن ملكهم أبو فيس الذي قامت ضده حرب التحرير لم يكن موحدا، فلقد أطلق على نفسه في رسالته لأمير كوش «عاوسرع، ابن رع، أبوبي»، كما وصف نفسه، كما أشرنا من قبل، بأنه «ابن رع من جسده» و «الصورة الحية لرع على الأرض»، و بدهي أن هذه ليست أسماء أو صفات الموحدين، و منها (ثانيا) أن كثيرا من ملوك الهكسوس، بعد عهد يوسف، قد قبلوا عبادة إله الشمس رع، بجانب ست، كما أن كثيرا من ملوكهم، كما أشرنا من قبل، كانت لهم أسماء مركبة من اسم «رع» مثل «هائلة هي قوة رع» و «رع هو سيد السيف».

ص: 157

1- في ظلال القرآن 4/ 1961 (بيروت 1982).

قرون، ربما تجاوزت الأربعة، حتى ينسى الإسرائيليون خلالها دعوة التوحيد، التي نادى بها الآباء من أنبياء الله الكرام، إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وينغمسون في وثنية المصريين، ويتعبدون لآلهتهم (1).

ومنها (سابعاً) أن سيرة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، لا تدل أبداً أنهم كانوا موحدين على أيام الاضطهاد فمن المعروف أنه ما أن كتب الله النصر لموسى على فرعون، ونجح في الخروج بقومه من قبضته، حتى عاد بنو إسرائيل إلى الوثنية، وعبادة الأصنام، وفي الواقع فإن التراث الديني اليهودي ليزخر بأدلة لا تقبل الشك، على أن اليهود الذين رافقوا موسى لم يكونوا أكفاء لحمل عبء التوحيد وفلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث رحلة الخروج أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصاً على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسيم الدينية في مصر، وودوا لو أنهم يعودون إليها، ويعبدونها مسوخة ممسوخة في الصحراء (2)، ومن ثم فلم يكذب بنو إسرائيل يمشون مع موسى عليه السلام، بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من آل فرعون، حتى رأوا قوماً يعبدون أصناماً لهم، فنسوا كل ما كانوا يذكرونه من آيات الله، و نجاتهم مع موسى، وقالوا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبِاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (3)، والفاء في قوله تعالى: فَأَتَوْا تقييداً، كما هو معروف،

ص: 159

1- خروج 40/12، حزقيال 4/20-8.

2- عباس العقاد: مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية- القاهرة 1968 ص 107.

3- سورة الأعراف: آية 138-139.

أيام يربعام الأول (922-901 ق.م) وبعد موت نبيهم سليمان عليه السلام مباشرة عام 922 ق.م (1).

ومنها (ثامنا) أن المفسرين والمؤرخين المسلمين يذكرون أسبابا للاضطهاد، ليس من بينها أبدا عقيدة بني إسرائيل التوحيدية، وإنما هي أسباب تتصل بنبوءات خشي فرعون منها على ملكه (2)، وسوف نناقشها بالتفصيل في مكانها من الفصل التالي، ومنها (تاسعا) أن حال بني إسرائيل في مصر لم يكن شرا كله، ولا نكرا كله، إذ أبدوا استعدادا للعيش مع المجتمع والتعاون بين بنيه، بل إن التوراة لتذكر صراحة أن الفرعون إنما كان ينظر إليهم، حتى في أوقات الشغب، وكأنهم من الشعب، وليسوا مجموعة من العبيد أو حتى المستعبدين «فقال لهما ملك مصر: لما ذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب عن أعماله (3)»، بل إن القرآن الكريم إنما يقدمهم على أنهم قد أصبحوا جزءا من رعية فرعون أو طائفة منهم، قال تعالى: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ (4)**، وهكذا كان ينو إسرائيل «طائفة منهم» أي من الشعب المصري، ولم يكونوا بالطائفة المنبوذة التي لا يتعامل معها الناس، أو يفر منها الملوك، بل لقد كان ساقى مرنبتاح رجلا يحمل اسما لا شك في صيغته العبرية هو «بن عزيز»، وقد روت التوراة من أمر موسى والتقاطه ما يدل على مكانة بني إسرائيل عامة من المصريين و تسامح المصريين معهم (5).

ص: 161

- 1- ملوك أول 25/12-33، هوشع 5/8-6.
- 2- أنظر: ابن كثير: البداية والنهاية 1/231-238، قصص الأنبياء 3/4-5، تاريخ الطبري 1/386-388، تاريخ يعقوبي 1/33، المسعودي مروج الذهب 1/61.
- 3- خروج 4/5.
- 4- سورة القصص: آية 4.
- 5- أنظر: خروج 2/5-10، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 91-92.

[1] موسى في قصر فرعون:

في فترة الاضطرابات العصبية التي سلب الله فيها فرعون على بني إسرائيل، يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم (1)، في هذه الظروف القاسية، ولد موسى عليه السلام (2)، وكان أصغر أولاد أبيه، و ثالث ثلاثة، مريم البكر، و هارون الثاني، و هو «موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام»، و أما أمه فهي يوكابد بنت لاوى، و هي عممة زوجها عمران، فيما تروي التوراة (3)، و هكذا، و نظرا للظروف المحيطة

ص: 163

-
- 1- أنظر عن الروايات التي دارت حول ذبح فرعون لأبناء بني إسرائيل (تفسير الطبري 1/ 269-328 ط 1954، تاريخ الطبري 1/ 385-388، تفسير الدر المنثور 5/ 119-120، مختصر تفسير ابن كثير 1/ 63-64، البداية و النهاية 1/ 137-238. تفسير الفخر الرازي 24/ 225، تفسير الخازن 1/ 58-59، تفسير النسفي 3/ 225-226، الكامل لابن الأثير 1/ 95-96).
 - 2- أنظر عن قصة موسى في القرآن الكريم: سورة البقرة (47-98) المائدة (20-26) الأعراف (103-171) يونس (75-94) هود (96-99) إبراهيم (5-8) الإسراء (2) الكهف (60-82) مريم (51-53) طه (9-98) الأنبياء (48-49) المؤمنون (45-49) الفرقان (35-36) الشعراء (10-68) النمل (7-14) القصص (3-47) العنكبوت (39) الأحزاب (69) الصافات (114-122) غافر (23-54) الزخرف (46-56) الدخان (17-33) الذاريات (38-40) وغيرها.
 - 3- خروج 6/ 20، عدد 26/ 58-59.

ببني إسرائيل، فما أن ولد موسى عليه السلام حتى أخفته أمه عن العيون حيناً من الدهر، قدرته التوراة وبعض المفسرين بثلاثة أشهر (1)، و لكنها سرعان ما خشيت أن يفتضح أمرها، بل وكادت تبدي به لولا أن ربط الله على قلبها، ففزعت إلى الله مما تخشى على وليدها من بطش فرعون، فأوحى الله إليها (2) أن أرضيه فإنه إذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزني إنا رأوه إليك وجاعلوه من المرسلين (3).

وشاءت إرادة الله، ولا راد لمشيئته، أن تقول لهذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع ملكه، قد حكم العظيم الذي لا يغلب ولا يمانع ولا يخالف أقداره، أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يتغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيته، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لتكذيبك ما جاء به من الحق المبين، حتى تعلم أنت وسائر الخلق أن الله هو الفعال لما يريد (4)، ومن ثم فإن إرادة الله إنما تلقى بالتابوت ومن فيه إلى جوار قصر

ص: 164

1- خروج 2/2، تفسير النسفي 227/3.

2- يقول ابن كثير: ليس هذا بوحي نبوة، كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين، بل الصحيح أنه وحي إلهام وإرشاد، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة، هذا وقد ورد عن ابن عباس: أنه وحي إلهام، وقال مقاتل: أخبرها جبريل بذلك، قال القرطبي: فعلى قول مقاتل هو وحي إعلام، لا إلهام، وأجمع الكل على أنها لم تكن بنية وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرب والأبرص والأعمى، كما في الحديث المشهور، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة، وقد سلمت على «عمران بن حصين» ولم يكن نبياً (تفسير البيضاوي 88/2، تفسير القرطبي 249-250، صفوة التفاسير 425/2، البداية والنهاية 239/1).

3- سورة القصص: آية 7، وأنظر: مختصر تفسير ابن كثير 6/3.

4- ابن كثير: البداية والنهاية 238/1.

فرعون، فيقع موسى من قلب امرأة فرعون (1)، موقع الحب و الحذب و الإشفاق بل إنها لتقول لفرعون قُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ، لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا (2)، فقد كان موسى عليه السلام، لا يراه أحد إلا أحبه، قال تعالى: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِيُصَدِّقَ عَلَى عَيْنِي (3)، لكن الشقي فرعون يقول لامرأته، فيما يروي الطبري، «يكون لك، فأما أنا فلا حاجة لي فيه، و لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «و الذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرّة عين، كما أقرت به، لهداه الله به، كما هدى به امرأته، و لكن الله حرمه ذلك»، و مع ذلك فقد قبل رجاء زوجته، فلا يقتل الطفل النبي لحكمة أرادها الله، لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا (4).

و هنا ظنت أم موسى أنها أوفعت وليدها بنفسها في عرين الأسد، حيث وقع موسى بين عدوه و عدوها، الذي حرصت على أن تباعد بينه و بين ابنها، و رضيت في سبيل استنقاذه منه أن يتعد عنها إلى حين وَ أَصَبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (5)، و لكن لله حكمة هو مبدئها، و أمر هو بالغه، فيحميه و يضمن له الحياة، و يكفل له التربية الكريمة الناعمة، و التعليم الناضج الذي يؤهله لقيادة شعب تعوذه القيادة، و لتعليم

ص: 165

1- ذهب بعض الباحثين إلى أن امرأة فرعون كانت من بني إسرائيل من سبط موسى، بل إن البعض ذهب إلى أنها عمته، (البداية و النهاية 239/1، الكامل لابن الأثير 95/1) و بدهي أن هذا ليس صحيحا، فامرأة فرعون مصرية، لا شك في ذلك، كما ترى جمهرة المفسرين، ثم إن فرعون ما كان يتزوج من بني إسرائيل، و هو يذبح أبناءهم و يستحي نساءهم، كما أن قوانين وراثّة العرش في مصر لا تسمح بذلك.

2- سورة القصص: آية 9.

3- سورة طه: آية 39.

4- سورة القصص: آية 8، تاريخ الطبري 393/1.

5- سورة القصص: آية 10-11.

أمة أعمها الجهل، لحمل رسالة التوحيد، و يحميه بالحب الذي يطغى على كوا من الشر، و غوائل الأحقاد (1).

و يأتي آل فرعون لموسى بالمراضع فيعافهن جميعا، و هنا تتقدم أخته فتعرض على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة عبرانية ترضعه و تكفله، و أن تكون له ناصحة مشفقة، و يقبل آل فرعون عرضها، و يبعثوا في طلب الطئر، و سرعان ما تجيء بأمه، دون أن تشعرهم بأن أمها أمه، و هو أخوها، و يقبل موسى على ثدي أمه، و هنا تذهب المراجع الإسلامية إلى أن فرعون عند ما رأى ذلك، سألها: من أنت منه؟ فقد أبى كل ثدي إلا ثديك، فقالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أوتي بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها و أجرى عليها، و ذهبت به إلى بيتها، و أنجز الله وعده في الرد، فعندها ثبت و استقر في علمها أنه سيكون نبيا، و هكذا عاد موسى إلى أمه ليعيش معها فترة حضانتها (2)، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (3).

و لعل في هذا ما يشير إلى أن حال بني إسرائيل في مصر لم يكن شرا كله، و لا نكرا، إن أبدوا استعدادا للعيش في المجتمع و التعاون بين بنيهم، و قد كانوا، كما قال سبحانه و تعالى: طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، و لم يكونوا بالطائفة المنبوذة التي لا يتعامل معها الناس، أو ينفر منها الملوك، بل لقد كان ساقى «مرنبتاح» فرعون موسى، فيما نرجح، رجلا يحمل اسما لا شك في صيغته

ص: 166

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 89.

2- تفسير النسفي 3/228-229، خروج 7/2-10.

3- سورة القصص: آية 12-13.

العبرية هو «بن عزيز»، وقد روت التوراة من أمر موسى و التقاطه ما يدل على مكانة بني إسرائيل عامة من المصريين، و تسامحهم معهم (1)، هذا فضلا عما جاء في القرآن الكريم بشأن قارون، قال تعالى: إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (2)، وهناك روايات تذهب إلى أنه كان من عشيرة موسى عليه السلام عمه أو ابن عمه، على خلاف في الرأي، و أن فرعون قد ولاه على بني إسرائيل، و أنه قد نafs موسى على رئاسة بني إسرائيل (3).

ص: 167

1- سورة القصص: آية 4، خروج 2/ 5-10، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 91-92.

2- سورة القصص: آية 76.

3- تشير بعض آي الذكر الحكيم إلى أن قارون كان من قوم موسى، و أن موسى أرسل إليه، و إلى فرعون و هامان (القصص: آية 76، العنكبوت: آية 39، غافر: آية 23-24)، و تذهب الروايات إلى أنه كان عظيم المال، كثير الكنوز، حتى أن مفاتيح خزائنه كانت تحمل على أربعين بغلا، فبغى على قومه بكثرة ماله، و أنه قال لموسى: لك الرسالة، و لهارون الحبورة، و أنا في غير شيء، إلى متى أصبر، فقال موسى: هذا صنع الله، و في رواية أنه قال لموسى: أما لئن كنت فضلت على بالنبوة، فلقد فضلت عليك بالدنيا، هذا و تذهب بعض الروايات إلى أن قارون قد دبر لموسى مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة مع بغى في مقابل رشوة من المال، قيل إنها ألف دينار أو طست من ذهب، فلما كان يوم عيد و خطب موسى فقال: إن من سرق قطعنا يده و من افترى جلدناه، و من زنى و هو محصن جلدناه، و إن أحسن رجمناه، فقال له قارون: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلان، فأحضرها و ناشدها بالذي فلق البحر. و أنزل التوراة أن تصدق، فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً، و هكذا برأ الله موسى، و أذن له في قارون، فقال موسى: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون، كما بعثني إلى فرعون، ثم دعا عليه، فحسف الله به و بمن اتبعه الأرض، هذا و قد لقب بعض الباحثين المحدثين أن قارون هذا، هو «قورح» الذي جاءت قصته في التوراة (عدد 1/ 16-50) و رغم وجه بعض شبه بين القصتين، فإنني أتردد في قبول هذا الرأي لوجود اختلافات كثيرة بينهما، إلا أن تكون من تحريفات التوراة (تفسير النسفي 3/ 244-248، في ظلال القرآن 5/ 2710-2714، تفسير البيضاوي 4/ 128-129، تفسير الكشاف 3/ 340-342، ابن كثير: مختصر التفسير 3/ 23-26، البداية و النهاية 1/ 309-312، تاريخ الطبري 1/ 443-452، ابن الأثير 1/ 115-116، سفر التثنية 22/ 22-29، ثم أنظر حكم الزنا في التوراة: محمد بيومي مهران: إسرائيل (195-194/3).

وأيا ما كان الأمر، فإن موسى عليه السلام، إنما ينشأ في قصر فرعون، أعظم ملوك الأرض في عصره، كما ينشأ الأمراء، وما أن يشب عن الطوق، حتى تظهر بواذر ذكائه وقوة شخصيته، فيتعلم، فيما يرى بعض المؤرخين، القراءة والكتابة والحساب، ونسخ الصحائف على البردى، ويتعلم شيئاً من الفلك والجغرافية، وأطرافاً من التاريخ، ويقرأ من قصص المصريين وآدابهم وحكمهم شيئاً كثيراً، وكما جاء في الإنجيل فقد «تهذب بكل حكمة المصريين»، وعلى أية حال، فلننا نعرف من حياة موسى عليه السلام، منذ مولده وحتى صدر شبابه شيئاً على وجه اليقين، وأكبر الظن أنه تولى منصباً، وتبوأ مكانة في دولة فرعون، حيث بدأ أتراه، كاتباً، وغير بعيد أن يكون قد التحق بالجيش مع من التحق من أمراء البيت المالِك (1).

وأما سياق قصة موسى في القرآن الكريم، كما يقول الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه، إنما يسكت عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى عليه السلام، والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكماله، فلا نعلم ما إذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه، ولا كيف تربى في قصر فرعون، ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة، ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه، بعد أن شب وكبر، ولا كيف كانت عقيدته، وهو الذي يصنع على عين الله، ويعد في وسط عباد فرعون وكهانته، يسكت القرآن عن كل هذا، ويبدأ الحلقة التالية مباشرة حين بلغ أشده واستوى فقد آتاه الله الحكمة والعلم وجزاه

ص: 168

1- أعمال الرسل 22/7، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 92-93، وكذا W. وكذا F, suhpesoJ suivalF fo skroW. وكذا dna efiL eht, notsihW 77. p, 1957. IX, retpahC, II, kooB, suhpesoJ

جزاء المحسنين، قال تعالى: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**، وبلوغ الأشد اكتمال القوة الجسمية، والاستواء اكتمال النضج العقلي والعفوي، وهو يكون عادة في سن الثلاثين، فهل ظل موسى في قصر فرعون ربيبا ومتبنا لفرعون وزوجته حتى بلغ هذه السن، أم أنه افترق عنهما واعتزل القصر، ولم تسترح نفسه في ظل الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة، كنفس موسى عليه السلام، وبخاصة وأن أمه لا بد أن تكون قد عرفت من هو ومن قومه وما دينه، وهو يرى كيف يسأم قومه الخسف البشع والظلم الشنيع، والبغي اللئيم (1).

في الواقع ليس لدينا من دليل على شيء من ذلك، وإن كان سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئا من هذا، فلقد كان موسى، فيما يبدو، لا ينسى أنه من بني إسرائيل، أولئك الذين فرض عليهم فرعون العذاب المهين، وربما كان النبي الكريم يدرك أن الله إنما آتاه العلم والحكمة ليدرك قومه، وينقذهم من ظلم فرعون وجبروته، فكان كثير الحذب عليهم والشفقة بهم، ومن ثم فقد تعرض بسببهم لمحنة قاسية، انتهت به إلى الخروج من مصر، والبقاء في مدين سنين عددا، ذلك أنه ربما كان خارجا في أحد الأيام من قصر فرعون «و دخل المدينة على حين غفلة (2) من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته (3) وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على ا-

ص: 169

1- في ظلال القرآن 5/ 2681.

2- الغفلة: روى عن ابن عباس: أنها بين العشاءين، وروى عنه أيضا، وعن سعيد بن جبيرة وعكرمة و قتادة والسدي: أنها وقت القائلة يعني انتصاف النهار (أنظر: تفسير القرطبي ص 4976 تفسير النسفي 3/ 229، تفسير الفخر الرازي 4/ 233، صفوة التفاسير 2/ 427، البداية و النهاية 1/ 241، ابن الأثير 1/ 98، تفسير البيضاوي 4/ 125) وقيل الغفلة عن ذكر موسى ونسيان أمره (تفسير الفخر الرازي 24/ 233).

3- يقول الفخر الرازي في تفسيره (24/ 233-234) قيل الرجلان كانا كافرين، إلا أن أحدهما-

الذي من عدوه فوكزه (1) موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم، قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين (2)».

ولم يكن المجرمون الذين عزم موسى عليه السلام على ألا يظاهرهم ويناصرهم، إلا هؤلاء من بني إسرائيل، وهكذا ندم موسى على أن ظاهر الإسرائيلي ضد المصري، فكان من نتيجة ذلك أن قتل نفساً حرم الله قتلها، و من ثم فقد عزم، بعد أن تاب و أناب، ألا يكون ظهيراً للمجرمين، وهذه العبارة قد يستشف منها أن الكليم عليه السلام إنما كان يستخدم نفوذه في مناصرة بني إسرائيل، و كف أيدي المصريين عنهم، و يبدو أن شبح القتل إنما كان يلوح أمام عينه، و يعترض طريقه أينما ذهب، و أن خوف الثأر أو القصاص إنما كان يملأ حياته قلقاً و أرقاً (3)، و مهما يكن من أمر، فسرعان ما يعثر القوم على جثة القتيل، فيطلب أهله من فرعون أن يأخذ لهم القصاص من قاتله، غير أن الفرعون إنما يمهل القوم إلى حين، حتى تكشف الشرطة عن الجاني، و تأتي بمن يشهد على أنه القاتل، أو أن ذلك المصري عند ما سمع الإسرائيلي في اليوم التالي يقول لموسى: «أ تريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس»، فلقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون و ألقاها عنده، - إسرائيلي، و الآخر مصري، و احتج على أنه موسى قال له: «إنك لغوي مبين»، و المشهور الذي كان من شيعته مسلماً لأنه لا يقال لمن يخالف الرجل في دينه و طريقه إنه من شيعته، و قيل إن المصري كان طباطخ فرعون و قد سخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخه، و قيل الرجلان المقتتلان أحدهما السامري، و هو الذي من شيعته، و الآخر طباطخ فرعون.

ص: 170

1- الوكز: الضرب بجمع اليد، و قال قتادة بعضاً كانت معه، و المفهوم من التعبير أنها و كزة واحدة كان فيها حتف المصري، مما يشي بقوة موسى و فتوته، و يصور كذلك انفعاله و غضبه، و يعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون و من يتصل به (في ظلال القرآن 2682/5).

2- سورة القصص: آية 15-17.

3- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 160.

فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى، فطلبوه (1).

و يصبح موسى في المدينة خائفاً و يتربق، و يذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن لفظ «يتربق» يصور هيئة القلق الذي يتلفت و يتوجس، و يتوقع الشر في كل لحظة، و هي سمة الشخصية الانفعالية تبدو كذلك في هذا الموقف، و التعبير يجسم هيئة القلق و الخوف بهذا اللفظ، كما أنه يضخمها بكلمتي «في المدينة»، فالمدينة عادة موطن الأمن و الطمأنينة فإذا كان خائفاً يتربق في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمّن و مستقر، و حالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن من رجال القصر، و إلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفساً في عهود الظلم و الطغيان، و ما كان ليخشى شيئاً، فضلاً عن أن يصبح خائفاً يتربق، لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون و قصره (2)، غير أن ابن كثير يذهب إلى أن الله تعالى يخبرنا أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً، أي من فرعون و ملئه أن يعلموا أن هذا القتل الذي رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصرته رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، و يترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير في المدينة في صبيحة هذا اليوم خائفاً يتربق (3)، و هذا ما نميل إليه و نرجحه.

و على أي حال، فإن موسى عليه السلام يمر بمن استصرخه بالأمس، فإذا به يستصرخه، مرة أخرى، ضد آخر، فيؤنبه موسى على مشاكسته و ميله إلى الخصام، و مع ذلك فما أن همّ موسى بنصرته حتى قال: أ تُرِيدُ أَنْ تُقْتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (4).

ص: 171

1- مختصر ابن كثير 9/3، تاريخ الطبري 1/391.

2- في ظلال القرآن 5/2682-2683.

3- ابن كثير: البداية و النهاية 1/242.

4- سورة القصص: آية 19.

وهكذا تورط موسى في قتل مصري، عن غير عمد، روى الإمام النسفي أن اسمه «فاتون»، ولا أدري كيف استقام لمفسري الإسلام هذا الإسم الذي تدل صيغته المصرية على أن سند الرواية و التواتر موصول، ذلك أنه اسم مصري خالص مؤلف من اسم الشمس «آتون» مع فاء التعريف (1)، وعلى أي حال، فإن موسى إنما يوشك الآن أن يتورط في محنة جديدة بسبب ذلك الإسرائيلي الذي استصرخه بالأمس، و يستصرخه اليوم، و من ثم فقد وصفه الكلیم بأنه «غوي مبین».

ويذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن العبرة التي تستشف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتين و ما تلاهما أنه لا يبرر الفعلة، ولكنه كذلك لا يضحّمها، و لعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية، و هو المختار ليكون رسول الله، المصنوع على عين الله، أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان، و الله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاه، حيث لا تجدي تلك الاشتباكات الفردية الجانبية في تغيير الأوضاع، كما كف الله المسلمين في مكة المكرمة عن الاشتباك حتى جاء الأوان (2).

وعلى أي حال، فقد كان تصرف الإسرائيلي الأحمق أو هذا الغوي المبين، كما وصفه موسى، أن شاع الخبر، و أنبئت السلطات التي ارتاعت، كما ارتاع الناس، لما ارتكب موسى من قتل رجل، و الشروع في قتل آخر، فكان أن استقر الرأي على محاكمته بما ارتكب، و القصاص منه بما جنت يده، و إن كان موسى قد رأى في ذلك ظلماً صارخاً، و إفتناتاً عنيفاً، أن يطلب بقتل خطأ لم يتعمده و لم يرغب فيه، و لكن الذي لا شك فيه أنه قتل،

ص: 172

1- تفسير النسفي 3/ 229، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 96.

2- في ظلال القرآن 5/ 2684.

وأن الظواهر وما وقع منه في اليوم التالي لا تقف إلى جانبه، و من ثم فقد تحقق موسى عليه السلام أنه مطلوب بدم القتييل، و أدرك ألا مظنة من القصاص، فلقد عرف المملأ- من قوم فرعون أنها فعلة موسى، و ما من شك أنهم أحسوا فيها بسبح الخطر، فهي فعلة طابعها التمرد و الثورة، و الانتصار لبني إسرائيل، و من ثم فهي ظاهرة خطيرة تستحق التأمل، و لو كانت جريمة قتل عادية ما استحققت أن يشتغل بها فرعون و المملأ و الكبراء، فانتدبت يد القدر واحدا من المملأ، الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتنم إيمانه، و الذي جاء ذكره في سورة غافر، انتدبته ليسعى إلى موسى من أقصى المدينة ليبلغه بتآمر القوم ضده قبل أن يبلغوه، قال تعالى: وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ، و قد سمي الله هنا التشاور ائتمارا، لأن كلا من المشاورين يأمر و ياتمر (1)، و قد جاءت القصة كاملة في «حديث الفتون» الذي يروي قصة موسى عليه السلام، و قد رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس (2).

و هكذا لم يكدم موسى يسمع أن المملأ ياتمرون به ليقتلوه حتى عزم على التعجيل بالرحيل، و لم يجد مع الخوف فرصة يتزود فيها لهذه الرحلة التي لم يكن يعرف مداها و لا منتهاها، فلقد أوشك القوم أن يحدقوا به، و أن يطبقوا عليه، و أن يفتكوا به، فلا مجال للتفكير فيما وراء ذلك من تعب يضنيه،).

ص: 173

1- سورة القصص: آية 20، تفسير البيضاوي 125/4، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 97-99، في ضلال القرآن 15/2685.

2- أنظر عن حديث الفتون المشهور (ابن كثير: مختصر التفسير 457/2-481، البداية و النهاية 1/300-307، تاريخ الطبري 1/392-296، و أخرجه النسائي في سننه، و ابن جرير و ابن حاتم في تفسيرهما، و هو موقوف من كلام ابن عباس، و ليس فيه مرفوع إلا قليل منه، كما يقول ابن كثير).

و جوع يذوبه، و مسالك يقطعها، و مهالك يرجو النجاة منها، كان كل همه أن يفلت بعنقه من هؤلاء الذين يأترون به ليقتلوه، فإن أعوزه الدليل بين متاهات السهول و التلال و الجبال، فلن يعوزه أن يلتمس في رحمة الله دليله و سبيله، و إن كمن له الخطر في كل مكن و مسكن، فعساه يجد في رعاية الله ملاذه و معاذه (1)، و هكذا يخرج موسى من مصر هائما على وجهه في صحراوات سيناء المقفرة، فارا مستوحشا، خائفا من أن تناله هروات الشرطة من رجال «المجاي» الأشداء، أو تصل إليه أيدي السلطات، و كان في مصر شرطة منظمة يجند رجالها من قبائل «مدجا» على مقربة من الجندل الثاني (2).

[2] موسى في مدين :-

و يكتب الله للنبي الكريم سيدنا موسى عليه السلام نجحا بعيد المدى في اجتياز القفار، ملتصبا الأمن و السكينة و الهدى، حتى يصل إلى مدين، عند خليج العقبة (3)، حيث يجد هناك المأوى و الأمان، و هنا تبدأ حلقة جديدة من حياة موسى عليه السلام، بدأت عند ما ورد ماء مدين، و رأى مشهدا لا تستريح إليه النفس ذات المروءة، كنفس موسى، رأى الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء، بينما هناك امرأتان تمنعان غنمهما عن ذلك، مع أن الأولى أن تسقي المرأتان و تصدرا بأغنامهما أولا، و أن يفسح

ص: 174

1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 161.

2- أنظر: shoorahP eht fo tpygE, renidraG. A, 101. p, 1961.

3- عن: مدين القبيلة و الموقع (أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 558-561، دراسات تاريخية من القرآن 1/ 297-307)، هذا و قد اختلف المفسرون في «اسم مدين» فذهب فريق إلى أنه اسم رجل في الأصل، ثم كانت له ذرية، فاشتهر في القبيلة كتميم و قيس و غيرهما، و ذهب آخرون إلى أنه اسم ماء نسب القوم إليه، و الأول أصح، لأن الله تعالى أضاف الماء إلى مدين في قوله تعالى: «و لما ورد ماء مدين»، و لو كان اسما للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية، و الأصل في الإضافة التغاير حقيقة، (تفسير الفخر الرازي 25/ 64، ياقوت الحموي 5/ 77-78).

لهما الرجال ويعينوهما، ولم يقعد موسى، وهو الهارب المطارد، والمسافر المكدود، ليستريح، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف، بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب، وعند ما عرف قصتهما تقدم فسقى لهما، ثم تولى إلى الظل، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ صَقَّ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (1).**

هذا و يقدم لنا المفسرون عدة روايات عن الحادث، فقد جاء في تفسير ابن كثير (2): روى عمرو بن ميمون الأودي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى عليه السلام، لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا- عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال ما خطبكما، فحدثناه فأتى الحجر فرفعه، لم يسق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم (أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده صحيح)، غير أن صاحب الظلال إنما يذهب إلى أنه لا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى، كرفع الحجر الذي يغطي البئر، وكان لا يرفعه، فيما قالوا، إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل، فالبئر لم يكن مغطى، إنما كان الرعاة يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين أو سقى لهما مع الرعاة، ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة:

ص: 175

1- سورة القصص: آية 23-26.

2- مختصر تفسير ابن كثير 9/3-10.

امشي خلفي و دليني على الطريق خوف أن يراها، أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرجع الهواء ثيابها عن كعبها (1)، فهذا كله تكلف لا داعي له، و دفع لريبة لا وجود لها، و موسى عليه السلام عفيف النظر، نظيف الحس، و هي كذلك، و العفة و الأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل و امرأة، فالعفة تنضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف و لا اصطناع.

و على أي حال، فلقد استجاب الشيخ لاقتراح ابنته، و لعله أحسن من نفس الفتاة، و نفس موسى، ثقة متبادلة، و ميلا فطريا سلينا صالحا لبناء أسرة، و القوة و الأمانة حين تجتمعان في رجل، لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تقسد و لم تلوث و لم تنحرف عن فطرة الله، فجمع الرجل بين الغايتين، و هو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه و يرعى ماشيته ثمانين سنين، فإن زادها إلى عشر، فهو تفضل منه لا يلزم به، قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانين حجاج، فإن أتممت عشرًا فمن عندك و ما أريد أن أشق عليك، سدّ تجدني إن شاء الله من الصالحين (2)، قال الإمام القرطبي: في الآية عرض الولي ابنته على الرجل، و هذه سنة قائمة، عرض شعيب ابنته على موسى، و عرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر و عثمان، و عرضت الموهوبة نفسها على النبي صلى الله عليه و سلم، فمن الحسن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح (3).

و لعل سائلا يتساءل: من هو شيخ مدين هذا الذي صاهر موسى عليه السلام؟

ص: 176

-
- 1- تفسير النسفي 3/231، تفسير البيضاوي 4/126، الدر المنثور 5/126-127، تفسير الفخر الرازي 4/239-244، مختصر تفسير ابن كثير 3/11، تاريخ الطبري 1/398، ابن الأثير 1/99.
 - 2- سورة القصص: آية 27، في ظلال القرآن 5/2687-2688.
 - 3- تفسير القرطبي 13/271.

إن سياق القصة في القرآن الكريم لم يتعرض لاسم هذا الشيخ، ذلك لأن التحديد التاريخي ليس هدفا من أهداف القصة في القرآن الكريم، ولا يزيد في دلالتها شيئا، وأما التوراة فجد مضطربة في اسم هذا الشيخ، وكذا قبيلته، فمرة هو يثرون كاهن عديان، و مرة هو حوباب بن رعوثيل، و مرة ثالثة هو رعوثيل نفسه، و قبيلته مرة هي قبيلة مديانية و مرة أخرى هي قينية، و مرة ثالثة تأكيد على أنها قينية، حتى زعم البعض أن بني القيني ربما كانوا مديانيين (1).

هذا وقد اختلف علماء المسلمين في صهر موسى عليه السلام، فذهب فريق إلى أنه شعيب عليه السلام، نبي مدين، قال بذلك الأئمة الحسن البصري و مالك بن أنس و النسفي و ابن الأثير (2)، و قال ابن كثير (3): جاء ذلك مصرحاً به في حديث في إسناده نظر، و صرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً، بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام و تزوج ابنته، و روى ابن أبي حاتم و غيره عن الحسن البصري أن صاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب، و كان سيد الماء، و لكن ليس بالنبي صاحب مدين، و قيل إنه ابن أخي شعيب، و قيل ابن عمه، و قيل رجل مؤمن من قوم شعيب، و قال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه «و ما قوم لوط منكم ببعيد، و قال ابن عباس و أبوه عبيدة بن عبد الله اسمه «يثرون»، زاد أبو عبيدة: و هو ابن أخي شعيب، و روى ابن جرير عن ابن

ص: 177

-
- 1- خروج 16/2-18، 1/3، عدد 29/10، قضاة 16/1، 11/4، و كذا. J 3080. H. J. 3080. I, p. acilbiB ideapolcycnE, sgnitsaH. و كذا. EAE, 616. p, 1908
 - 2- تفسير النسفي 3/232، مختصر تفسير ابن كثير 3/10، صفوة التفاسير 2/431، تاريخ ابن خلدون 2/93، الكامل لابن الأثير 1/99، مروج الذهب للمسعودي 1/61، تاريخ يعقوبي 1/34.
 - 3- ابن كثير: البداية و النهاية 1/244.

عباس أنه «يثري» صاحب مدين، ثم قال: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر يجب به الحجة في ذلك (1).

ويميل صاحب الظلال (2687/5) إلى ترجيح أن صهر موسى عليه السلام ليس شعيبا النبي، وإنما هو شيخ آخر من مدين، والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب النبي بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل، يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئا عن تعليمه لموسى صهره، ولو كان شعيبا النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى، وقد عاش معه عشر سنوات.

وأيا ما كان الأمر، فلم يكن لموسى من بلد يعرفه، ولا وطن يهفو إليه ويتطلع إلى رؤيته، بعد ذلك المنفى الذي فرض عليه أو قدر عليه، سوى مسقط رأسه مصر، وكأني به يستعجل الأيام ليعود إلى ذلك البلد الذي ولد فيه، ونشأ في ربوعه، وتنسم هواءه وسعد به، وهو لذلك لم يقطع على نفسه أطول الأجلين حين العهد مع حميه، فأعطى الأمل، وخص نفسه بالخيار (2)، غير أنه من المعروف أن موسى عليه السلام أتم المدة، وهي عشر سنين، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى، قال: أكملهما وأفضلهما، وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سألت جبريل: أي الأجلين قضى موسى، قال: أتمهما وأكملهما، وعن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى، قال: أوفاهما وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما، وأخرج ابن مردويه عن أبي

ص: 178

1- مختصر ابن كثير 10/3، تاريخ الطبري 400/1، ابن الأثير 99/1.

2- أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 101.

هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل: يا محمد، إن سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى، فقل أوفاهما، وإن سألك أيهما تزوج فقل الصغرى، وروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة، أي الأجلين قضى موسى فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل (ورواه النسائي في حديث الفتون)، وجاء في تاريخ الطبري عن سعيد بن جبير قال: سألتني رجل من أهل النصرانية: أي الأجلين قضى موسى، قلت لا أعلم، وأنا يومئذ لا أعلم، فلقيت ابن عباس، فذكرت له الذي سألتني عنه النصراني، فقال: أما كنت تعلم أن ثمانيا واجبة عليه، لم يكن نبي لينقض منها شيئا، وتعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التي وعده، فإنه قضى عشر سنين» (1).

وهكذا يمكث موسى في مدين عشر سنين (2)، يرزق فيها بولدين من زوجته صفورة (3) ثم يعود إلى مصر، بعد أن قضى أكمل وأتم الأجل الذي كان بينه وبين صهره، وبعد أن علم، طبقا لرواية التوراة، أن ملك مصر الذي كان يطلبه قد مات (4)، فينبعث الأمل في نفس موسى عليه السلام في العودة إلى أرض الكنانة، بل إنه يقرر العودة فعلا، وقد «تنهد بنو إسرائيل من العبودية (5)».

ص: 179

1- تفسير النسفي 1/234، الدر المنثور 5/126-127، تاريخ الطبري 1/399، ابن كثير: مختصر التفسير 3/11، البداية والنهاية 1/245.

2- تذهب التقاليد اليهودية والنصرانية إلى أن موسى قد أقام في مدين أربعين عاما (خروج 7/7، أعمال الرسل 30/7، قاموس الكتاب المقدس 2/931).

3- خروج 2/21-22، 1/18-6.

4- خروج 2/23، 4/29، وأنظر: في ظلال القرآن 5/3077.

5- خروج 2/23-25.

[1] المبعث: -

في الطريق من مدين إلى مصر، ضل موسى عليه السلام طريقه في الصحراء، و الليل مظلم، و المتاهة واسعة، نعرف هذا من قوله لأهله:

امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٌ عَلَي النَّارِ هُدًى (1)، قال ابن عباس: إنه رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضواء ما يكون، فوقف متعجبا من شدة ضوئها، و شدة خضرة الشجرة، فلا النار تغيّر خضرتها، و لا كثرة ماء الشجر تغيّر ضوؤها، و قيل إن الشجرة كانت عوسجة، و قيل كانت سمرة، و هناك طور سيناء، و في تلك الليلة المباركة نُودِيَ يا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ (2) إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنِّي

ص: 181

1- سورة طه: آية 10، تفسير أبي السعود 7/6.

2- ذهب المفسرون مذاهب شتى في أسباب أمر الله تعالى لموسى بخلع نعليه، فقالوا ربما لأن الحفوة أدخل في التواضع و حسن الأدب، و ربما تعظيما لهذه البقعة المقدسة، و من ثم فقد كان السلف الصالح يطوفون بالكعبة حافين، و ربما ليباشر الوادي بقدميه تبركا به، و ربما لأن نعليه كانتا جلد حمار غير مدبوغ، و ربما كان المعنى فرغ قلبك من الأهل و المال، ثم قيل إنك بالوادي المقدس و ذلك لتعليل الخلع، ثم نودي باصطفائه رسولا نبيا (تفسير أبي السعود 7/6، مختصر تفسير ابن كثير 471/2).

أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (1)، وذهل موسى، ونسي ما جاء من أجله، وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه، إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب: وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى فَلَقَّاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي، هَازُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا، قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (2).

وهكذا، هناك، وفي هذا الموقف المشهود، الذي وقفه موسى في تلك البقعة المباركة من سيناء، اصطفى الله تعالى موسى لنفسه، وعهد إليه برسالته إلى فرعون، اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي، اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ، فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (3).

وهنا يحس النبي الكريم بثقل العبء الذي ألقى على كاهله، وقد كان، وهو عائد إلى وطنه، يقدر الأمن بعد الخوف، والقرار بعد الفرار، فإذا

ص: 182

1- سورة طه: آية 11-14.

2- سورة طه: آية 17-36.

3- سورة طه: آية 42-46.

به يبعث، كما يقول ابن كثير إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفرا، وأكثرهم جنودا، وأبلغهم تمردا، ولا ريب في أن في أحداث التاريخ مصداقا لذلك، وموسى نفسه يعرف من هو فرعون، فقد ربّي في قصره، وشهد طغيانه وجبروته، وشاهد ما يصبه على قومه من بني إسرائيل من عذاب ونكال، إن موسى، عليه السلام، يعرف ذلك كله ويعرف أنه ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض و أطغى جبار، وأن قومه قد أذلهم الاستعباد الطويل و أفسد فطرتهم، و من ثم فإن رسالة موسى بالذات، قد تكون فيما يرى صاحب الظلال، أضخم تكليف تلقاه بشر، عدا رسالة سيد الأولين و الآخرين محمد صلى الله عليه و سلم، فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر، أعتى ملوك الأرض في زمانه، و أدمهم عرشا، و أثبتهم ملكا، و أعرقهم حضارة، و أشدهم بعدا للخلق، و استعلاء في الأرض.

و هو مرسل أيضا لاستنقاذ قوم قد شربوا من كأس الذل حتى استمروا مذاقه، فمروا عليه و استكانوا دهرًا طويلا، و الذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن و تتعفن، و يذهب بما فيها من الخير و الجمال و التطلع، و من الاشمئزاز من العفن و النتن و الرجس و الدنس، فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير، و هو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة انحرفوا عنها و فسدت صورتها في قلوبهم، فلا هي قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة، براءة و سلامة، و لا هي باقية على عقيدتها القديمة، و معالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة، و هو في اختصار مرسل لإعادة بناء أمة، بل لإنشائها من أساس، فلأول مرة سيصبح بنو إسرائيل شعبا مستقلا، له حياة خاصة، تحكمها رسالة، و إنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير (1).

و من هنا كانت دعوة موسى و هارون «ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو

ص: 183

1- في ظلال القرآن 5/ 2690.

أن يطغي»، و الفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، و الطغيان أشمل من الأذى، و فرعون يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما، و هنا يجيء الرد الحاسم للنبيين الكريمين لا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى ثم يحدد لهما قاعدة رسالتهما فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رُسُلَا رَبِّكَ ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلها هو ربه، و هو رب الناس، فليس هو إلها خاصا بموسى و هارون أو ببني إسرائيل (1)، كما كان سائدا في خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلها أو آلهة، أو كما كان سائدا في بعض العصور من أن فرعون مصر إله يعبد فيها لأنه من نسل الآلهة، الأمر الذي سنناقشه فيما بعد، ثم إيضاح لموضوع رسالتهما «فأرسل معنا بني إسرائيل و لا تعذبهم»، ففي هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون، لاستنقاذ بني إسرائيل، و العودة بهم إلى عقيدة التوحيد، و إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها إلى أن يفسدوا فيها فيدمرهم تدميرا (2).

على أن موسى عليه السلام سرعان ما يتذكر أنه قتل من المصريين نفسا، ما زال يحمل وزرها في ضميره، و أنه قد خرج من مصر هاربا من

ص: 184

1- تطلق التوراة على الله، جل جلاله، لفظ «يهوه» و أحيانا «إلوهيم»، و هو في كلتا الحالتين إله بني إسرائيل دون سائر البشر، و ليس رب العالمين، كما يعتقد المسلمون و المسيحيون، و قد بدأت فكرة الإله الواحد في التوراة مع إبراهيم، حيث جعلت الرب الإله، ربا لإبراهيم ثم إسحاق فيعقوب ثم موسى، ثم جعلته بعد ذلك إلها لبني إسرائيل جميعا على أيام النبي إشعيا، و لكنها لم تخرج به من دائرة بني إسرائيل إلى غيرهم من الشعوب، فقد ظل المعنى المتضمن لمفهوم الله تعالى في التوراة على أنه إله إسرائيل في المقام الأول، و هكذا كانت ديانة يهود في التوراة ديانة أسرة بشرية واحدة هي بنو إسرائيل (تكوين 1/12-3، 13/14-18، 15/18-20، 24/26، خروج 6/3، 6/6-7، يشوع 3/8، 18/9، 13، صموئيل أول 33/25، أخبار أيام أول 36/16، ثم أنظر: محمد بيومي مهرا: 219/4 (الباب الأول- الديانة اليهودية).

2- في ظلال القرآن 4/2336-2337.

الذين ائتمروا به ليقتلوه، فكيف يعود إلى قبضة الحاقدين عليه، المتربصين به، المطالبين بالثأر منه، ليدعو فرعون بترك ألوهيته المزعومة، ثم استنقاذ بني إسرائيل من بين يديه، وهم، فيما يرى، عبيده وخدمه، ولكنه عليه السلام، وهو في حضرة ربه، وربّه يكرمه بلقائه، ويكرمه بنجائه، ويكرمه بآياته، ويكرمه برعايته، فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتقطع رسالته قال رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (1)، يقولها لا ليعتذر أو يتقاعس، ولكن ليحتاط للدعوة، ويطمنن إلى مضيها في طريقها، لو لقي ما يخاف، وهو الحرص اللائق بموسى القوي الأمين وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي (2)، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (3)، ومن ثم فسرعان ما تأتيه البشارة من ربه سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا

ص: 185

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 102، عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 167. (1) سورة القصص: آية 33.
2- يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره (122/24 - 123، 249) لما أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون وقومه طلب أن يبعث معه هارون إليهم وذلك لسببين، الأول: أن فرعون ربما كذب موسى، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعثر الكلام على من يكون في لسانه جسة، ومن ثم فقد بدأ بخوف التكذيب، ثم ثنى بضيق الصدر، ثم تلت بعدم انطلاقة اللسان، وأما هارون فهو أفصح لساناً منه، وليس في حقه هذا المعنى، فكان إرساله لائقاً، والثاني: أن لهم عندي ذنبا، فأخاف أن يبادروا إلى قتلي، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة، وأما هارون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة، وأعلم أنه ليس في التماس موسى أن يضم إليه هارون ما يدل على أنه استعفى من الذهاب إلى فرعون، بل مقصودة فيما سأل ربه أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه في الوصول إلى المراد، وهكذا يكون تصديق هارون لموسى بمعنى أن يعاضده على إظهار الحجة والبيان، و ذلك بأن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل و يجيب عن الشبهات و يجادل به الكفار، و يذهب السدى إلى أن نبيين أقوى من نبي واحد و آية واحدة، و إن ذهب آخرون إلى أنه من حيث الدلالة لا فرق بين معجزة و معجزتين و نبي و نبيين.

3- سورة القصص: آية 34.

فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (1)، و هنا تبدأ قصة موسى عليه السلام، و خروج بني إسرائيل من مصر.

[2] بني موسى و فرعون: -

صدع موسى بما أمره الله عز و جل به، فولى وجهه، مع أخيه هارون، شطر قصر فرعون، ليدعو صاحبه بدعوة الحق و العدل و العقيدة الصحيحة، أملا من الكلیم في أن يسمع فرعون دعوة التوحيد، و يسمح بخروج بني إسرائيل من مصر، تقول التوراة: «و دخل موسى و هارون، و قالوا لفرعون:

هكذا يقول الرب إله إسرائيل، أطلق شعبي ليعودوا لي في البرية، فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل، لا أعرف الرب، و إسرائيل لأطلقه، فقالا له: إله العبرانيين قد التقانا، فنذهب سفر ثلاثة أيام في البرية، و نذبح للرب إلهنا، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف (2)»، و إلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (3).

غير أن فرعون لم يؤمن بموسى و لم يسمح له، و إنما اتهمه و هارون بأنهما «بيطان الشعب من أعماله» ثم أمر ألا يعطي الإسرائيليين تبنًا، و من ثم فعليهم أن يجمعوه بأنفسهم من القرى لعمل ما كلفوا به من التبن، و أن من يتأخر منهم عن القيام بصناعة الكمية المحددة إنما سوف يكون عقابه الضرب الشديد (4)، و من عجب أن التوراة و إن أشارت من قبل إلى إيمان بني

ص: 186

1- سورة القصص: آية 35.

2- خروج 1/5-3.

3- سورة الأعراف: آية 104-105، و أنظر: تفسير القرطبي 13/13-14، تفسير ابن كثير 3/450، تفسير المنار 9/33، 37-40.

4- خروج 4/5-18، ابن كثير: البداية و النهاية 1/263.

إسرائيل بموسى و هارون و دعوتهما، إلا أنها سرعان ما تعود ثانية لتقول إنهم «لم يسمعوا لموسى من صغر النفس و من العبودية القاسية، رغم ما وعدهم به موسى من إقناذ لهم من عبودية المصريين، و من اتخاذهم شعبا مختارا لرب إسرائيل، و إدخالهم الأرض التي تفيض لبنا و عسلا، رغم ذلك كله فإنهم لم يؤمنوا بموسى و لم يسمعوا له، بسبب صغار في نفوسهم بسبب العبودية القاسية (1)»، و إلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: **فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ (2) عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَن يُقْتِلَهُمْ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (3)**، و النص القرآني يفيد أن الذين أظهروا إيمانهم بموسى من بني إسرائيل إنما كانوا هم الفتيان

ص: 187

1- خروج 29/4-31، 6/6-9.

2- اختلف المفسرون في هذه الذرية التي آمنت بموسى، فذهب فريق، و هم الأكثر، إلى أنهم من بني إسرائيل، و ذلك أن موسى دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون، و أجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف، و قال مجاهد: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان و مات آباؤهم، و اختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل، لا من قوم فرعون، لعودة الضمير على أقرب المذكورين، و ذهب فريق آخر إلى أنهم من قوم فرعون، قال ابن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون، و مؤمن آل فرعون، و خازن فرعون و امرأته خازنة (وإن كان لابن عباس قول آخر من بني إسرائيل)، و يذهب ابن كثير إلى أنهم من قوم فرعون لأن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام، و قد كانوا يعرفون نعتة و صفته و البشارة به من كتبهم المتقدمة، و أن الله سينقذهم به من أسر فرعون و يظهرهم عليه، و أما الضمير «و في ملئهم» فيرجع إلى فرعون، و الجمع لما هو معتاد في ضمائر العظماء، و لا ياباه مقام بيان علوه في الفساد و التسلط على العباد، أو لأن المراد به فرعون بمعنى آل فرعون أو لأنه ذو أصحاب يأترون أو إلى الذرية على خوف من فرعون و أشرف بني إسرائيل لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم و على أنفسهم (تفسير النسفي 172/2-173، تفسير أبي السعود 170/4، تفسير ابن كثير 222/4-223، تفسير الطبري 163/15-167، تفسير الخازن 2048202/3، تفسير المنار 383/11-384، تفسير القرطبي ص 3208).

3- سورة يونس: آية 83.

الصغار، لا مجموعة الشعب الإسرائيلي، وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنهم وردهم من أتباع موسى، خوفا من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب السلطان، والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة، وبخاصة من بني إسرائيل، وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت، كما كان مسرفا في الطغيان لا يقف عند حد، ولا يتحرج من إجراء قاس (1)، وهكذا يبدو واضحا إلى أي مدى قد أذل الاستعباد قوم موسى، وأفسد طباعهم، فأعرضوا عن الحق وأصبحوا لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا، فلقي منهم نبيهم العنت الشديد.

وعلى أية حال، فلقد عجب فرعون، وهو يرى موسى عليه السلام، يواجهه بهذه الدعوى الضخمة «إني رسول رب العالمين» ثم يطالبه بهذا الطلب الضخم «أن أرسل معي بني إسرائيل»، ومن ثم فقد كان بين موسى وفرعون جدل شق واستطال ذكر فرعون فيه موسى بتربيته في القصر الملكي، وكيف أحسن سلفه (2) مثواه، ثم كيف ارتكب جريمته تلك، يعني قتل موسى لمصري، ثم فر هاربا من مصر كلها، دون أن يناله من القصاص ما يستحق قال ألم نربك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين (3)، وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه ردا قاتلا لا يملك معه موسى جوابا، ولا يستطيع مقاومته، وبخاصة حكاية القتل، وما يمكن أن يعقبها من القصاص، فأجابه موسى عليه السلام قال فعلتها إذا وأنا من الضالين، ففرزت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل (4).

ص: 188

1- في ظلال القرآن 3/ 1815.

2- قارن: ابن كثير: البداية والنهاية 1/ 250.

3- سورة الشعراء: آية 18-19.

4- سورة الشعراء: آية 20-22.

و يتصل الجدل و الحوار بين الرجلين، النبي و الملك، قال فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ، قَالَ لِمَنْ حَوْلُهُ أَلَا- تَسْتَمْعُونَ، قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمْ إِلَّا وَ لِينَ، قَالَ إِنْ رَسُوكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ، قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّاطِرِينَ (1)، و كانت هذه مفاجأة ضخمة لفرعون و ملئه، فالعصا (2) تنقلب إلى ثعبان لا شك في ثعبانيته، ثم إن).

ص: 189

1- سورة الشعراء: آية 23-33.

2- هناك عدة روايات بشأن عصا موسى هذه، منها (أولا) أن شعيبا كانت عنده عصى الأنبياء، فأمر موسى أن يأخذ له واحدة منها، فأخذ موسى عصا هبط بها آدم من الجنة و لم تزل الأنبياء تتوارثها حتى وقعت إلى شعيب، ففضن بها شعيب على موسى و طلب أن يأخذ غيرها، فما وقع في يده غيرها سبع مرات فعلم أن له معها شأنا، و روى أن شعيبا أمر ابنته أن تأتي لموسى بعصا، فلما أتته بها قال الله بغيرها، فلما أرادت أن تأخذ غيرها لم يقع في يدها غيرها، فلما رآها الشيخ رضى، ثم ندم و خرج يطلب موسى، لكن موسى رفض أن يعطيه إياها، ثم اتفقا على أن يحتكما إلى أول من يلقاهما، فلقيهما ملك فقضى بأن يضعوها على الأرض فمن حملها فهي له، فلم يستطع الشيخ حملها، و أخذها موسى بسهولة، فتركها له الشيخ، و منها (ثانيا) رواية تقول أنه كان في دار بيرون ابن أخي شعيب بيت لا يدخله إلا هو و ابنته التي تزوجها موسى، و كان في ذلك البيت ثلاث عشرة عصا، و كان له أحد عشر ولدا، فأخذ كل واحد منهم عصا، ثم احتاج موسى عصا، و لم يجد أهلها في الدار، فدخل البيت و أخذ تلك العصا، فلم علم بيرون بما حدث فرح و قال لابنته: إن زوجك هذا نبي، و أن له مع هذه العصا لشأنا، و منها (ثالثا) رواية تقول إن موسى كان يرعى غنم حميه فنام، و إذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى فقتلته و عادت و هي دامية، فلما استيقظ موسى و رأى العصا دامية و التنين مقتولا، أرتاح و علم أن في تلك العصا آية، فأخبر حميه بالقصة ففرح و علم أن لهذه العصا شأنا، و أراد أن يكافئ موسى على حسن رعيه وصلته لابنته، فوهب له كل أبلق و بلبقاء تضعها أغنامه في تلك السنة، فأوحى الله إلى موسى أن أضرب بعصاك الماء الذي تسقي الغنم منه، فوضعت جميعها ما بين أبلق و بلبقاء، فعلم شعيب أن هذا رزق ساقه الله لموسى و زوجته فوفي له شرطة، و منها (رابعا) رواية تقول إن هذه العصا عصا آدم و أن جبريل أخذها بعد موت آدم فبقيت معه حتى لقي موسى ربه ليلا، و منها (خامسا) رواية تنسب للحسن البصري تقول إنها من عرض الشجر أخذها موسى دون أن يتخيرها، و عن الكلبي أنها من شجرة العوسج، و رأى الفخر الرازي أنه لا مطمع في ترجيح رواية على أخرى، لأنه ليس في القرآن ما يدل عليها و الأخبار متعارضة (تفسير الفخر الرازي 24/246-247).

يده السمراء، وقد كان موسى عليه السلام «آدم» أي مائلا إلى السمرة، يخرجها من جيبه، فإذا هي بيضاء من غير سوء، بيضاء ليست عن مرض، ولكنها المعجزة، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء، فإذا فرعون، وقد أحس بضخامة المعجزة وقوتها يسرع بمقاومتها ودفعها، و هو يحس ضعف موقفه، ويكاد يتملق القوم من حوله، ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ليغطي على وقع المعجزة المزلزلة قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (1).

و لعل سائلا يتساءل: لم اختار الله معجزة لموسى عليه السلام من نوع السحر؟

و لعل الجواب على ذلك، إنما يأتي من دراستنا للتاريخ المصري في عصوره القديمة، حتى نستطيع أن ندرك الحكمة من نزول الآية و المعجزة بالصورة التي شاء الله أن تنزل بهما، فما كانت لتنزل إلا في أمر من واقع حياة الناس و ما يدور بأذهانهم فتكون محققة في أعينهم على غير قاعدة و لا-قياس لخارق من الأعمال، طالما فكروا فيه و سمروا به و ضربوا به أغوار الوهم و تخيلوه، و قد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر و السحارين ما كان الناس يخرجون به إلى عالم الغيب من عالم الشهادة، و من دنيا الواقع إلى آفاق الخيال (2).

ص: 190

1- سورة الشعراء: آية 34/35، تاريخ الطبري 1/403، في ظلال القرآن 3/1347، 5/2594.

2- أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 104.

و هكذا كانت معجزة موسى من نوع السحر الذي برع المصريون فيه، و من نفس المنطق، و على نفس الدرب، كانت معجزة القرآن الكريم الأولى في بيانه الذي خرسست معه الألسنة فما تنطق، و في فصاحته التي شدهت معها الأفتدة فما تعي، و سوف يظل هذا البيان و تلك الفصاحة حجة على العالمين، تلك كانت معجزة القرآن الأولى يوم طالع الرسول العرب، و هم ما هم بيانا و فصاحة (1)، يستوي في ذلك رجالهم و نساؤهم، و ما أمر أسواق العرب التي كانوا يعرضون فيها بضاعة الكلام و صناعة الشعر و الخطابة، بخاف على متأدب.

فما هو إلا أن جاء القرآن، و إذا الأسواق قد انفضت، إلا منه، و إذا الأندية صفرت، إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة و تأخير أخرى، ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة، بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفراد أو جماعات، بل تحداهم و كرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكما بهم متنزلا معهم إلى الأخف فالأخف (2)، فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله (3)، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله (4)، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله (5)، ثم بسورة واحدة من مثله (6)، و أباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا و من استطاعوا، ثم رماهم - و العلم كله -

ص: 191

-
- 1- إبراهيم الأبياري: تأريخ القرآن، القاهرة 1965 ص 44-45.
 - 2- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، الكويت 1970 ص 84.
 - 3- سورة الإسراء: آية 88.
 - 4- سورة هود: آية 13.
 - 5- سورة يونس: آية 38.
 - 6- سورة البقرة: آية 23.

بالعجز في غير موارد، فقال: قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (1).

وهكذا شاء الله، أن يقرأ النبي الأمي، وأن تكون معجزته كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلاً من حكيم حميد (2)، وأن يكون هذا الكتاب بما يتعلق فيه من آيات العلم والحكمة والسمو الأدبي، هو حجته البالغة على أنه مبلغ عن الله، لا بد له فيما يتلوه منه، كما يقول الله تعالى: وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (3)، ثم ليكون هذا الكتاب دستور أمة أمية، لم تكن تقرأ وتكتب، وأن يكون هذا الدستور أكمل وأمثل نظام عرفته البشرية، وأن يكون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، معجزة الإنس والجن في كل دهر وعصر (4).

وعودا على بدء، إلى معجزة موسى عليه السلام، حيث نرى أن المصريين إنما كانوا- فيما تشهد به قصص أدبهم- يحبون أحاديث السحر و خوارق الأعمال، وفيما نسبوه إلى خوفو- وهو اختصار اسمه الكامل خنوم خوفو وي- في بردية وستكار (5)- أو قصة خوفو والسحرة، من حبه السحر

ص: 192

-
- 1- سورة الإسراء: آية 38، وأنظر: تفسير القرطبي ص 3942-3943، عبد الله محمود شحاتة: تفسير سورة الإسراء ص 234-237.
 - 2- سورة فصلت: آية 42، وأنظر تفسير الكشاف 4/ 201-202، تفسير مجمع البيان 24/ 24-26، تفسير روح المعاني 14/ 127-128، تفسير الفخر الرازي 26/ 131، تفسير النسفي 4/ 380، تفسير القرطبي ص 5810-5811، تفسير ابن كثير 7/ 171-172.
 - 3- سورة العنكبوت: آية 48، وأنظر: تفسير القرطبي ص 5067-5069.
 - 4- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 4-6.
 - 5- البردية محفوظة بمتحف برلين، و ترجع إلى أيام الدولة الوسطى، وربما إلى عصر الهكسوس، و كان «أدولف إرمان» أول من عني بنشرها، كما نشرها «جاستون ماسبيرو» و «ماكس بيير» و «بييت»، و مجموعة من العلماء المصريين والأوروبيين بعد ذلك، (انظر: , siraP ,euqninoarahP, و كذا , nodnoL, snaitpygE tneicnA eht fo erutaretiL ehT, namrE. A 47- 36. p. 1927 euqopE'L ed neitpygE setnoC te snamoR ,ervbefel .G 77- 70. p. 1949. F. p, tpygE tneicnA fo seirotS ralupoP, orepsaM. J 21. . F. rutaretiL ehcsitpygA eiD, repeip xaM

وإقباله عليه، ما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس في العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السحر ويستعينونه عليها (1).

تروى البردية في القصة الثالثة- أوقصة الزوج المخدوع- أن كاهنا يدعى «أوبا أونر» كانت له زوجة قد أقامت علاقة غير شريفة مع فتى من أواسط الناس، وأنهما كانا يلتقيان- في غياب زوجها- في منزل ريفي يملكه الزوج الكاهن على حافة بحيرة، حيث كانا يعاقران الخمر، و يرتكبان ما حرم الله، ثم ينزل الفتى آخر النهار في البحيرة، على أن حارس البيت، وقد سدرت المرأة في غيها، و مضت في ضلالها زمنا، قد عمد فمشى بخبرها إلى زوجها، الذي صنع من الشمع كهية التمساح، فألقاه في البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر، ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم، فلما نزل الفتى إلى الماء قبض التمساح عليه و نزل به إلى الماء، ثم تحدث الكاهن بخبر زوجته الخاطئة إلى الملك و دعاه إلى بيته ليشهد العشيق الشاب بين فكي التمساح، هنالك وقف الملك على حافة البحيرة مع الكاهن الذي نادى التمساح فخرج إليهما فريسته، فما أن رأى الملك التمساح حتى ارتاع و فزع من مرآة، و لكن الكاهن ما كاد ينحني عليه ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع (2).

ص: 193

1- أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 105.

2- جوستاف لوفيفر: روايات و قصص مصرية من العصر الفرعوني، ترجمة علي حافظ، ص 141-144، أحمد فخري: تاريخ الحضارة المصرية- العصر الفرعوني، الأدب المصري القديم، القاهرة 1962 ص 317، أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 47، 105، سليم حسن: الأدب المصري القديم، الجزء الأول، القاهرة 1945 ص 77-78.

و تروي البردية في قصة سنفرو- رأس الأسرة الرابعة- وفتيات القصر، أن الملك إنما كان قد أحس ذات يوم ضيقاً في الصدر، و حزناً في النفس، فأشار عليه كاهنه «جا جام عنخ» بالنزول إلى بحيرة القصر، مع عشرين فتاة من الغيد الحسان من فتيات قصره، يجدفن و يغنين، و قد فعل الملك، فتسربت إليه البهجة و سرى إلى نفسه السرور، بما شهد من فتيات ليس عليهم من اللباس إلا ثياب من شبك لا تكاد تستر شيئاً، و بما سمع من غنائهن، و هن يسرن به في أمواه البحيرة وسط الخمائل و الأغصان، لو لا ما رأى من توقفهن عن التجديف، لما شكت إحداهن من سقوط حلية لها في الماء و إصرارها على الحصول على حليتها لا ترضى عنها بديلاً و لا عوضاً من الملك.

و سرعان ما استدعى الكاهن «جا جام عنخ» على عجل، فما أن علم بالخبر، حتى قرأ من عزائم السحر، الذي انشقت له مياه البحيرة، حيث انطوت نصف على نصف، فأصبح ارتفاع ماء البحيرة أربعة و عشرين ذراعاً في أحد الجانبين، بعد أن كان اثني عشر فقط، و رأوا في قاع البحيرة تلك الحلية، و قد استقرت فوق قطعة مكسورة من فخار، فأشار إليها الكاهن ثم سلمها إلى صاحبها.

و تروي البردية- مرة ثالثة- في قصة الساحر «ددي» الذي بلغ من سحره أن يلحم الرأس المقطوع، و يذلّل الأسد لإرادته، أن قد دعى إلى حضرة الملك «خوفو»، حيث عرض سحره عليه، و أوقعه بأوزة ثم ثور، فصل رأس كل منهما، ثم ما زال يقرأ من عزائمه، و الرأس يقترب من الجسد حتى التحما و عادت الحياة إلى كل منهما، ثم أعاد التجربة مرة ثانية في بطة، ثم في ثور، فنجح في ذلك كله (1).

ص: 194

-
- 1- جوستاف لفيقر: المرجع السابق ص 147- 151، أحمد فخري: المرجع السابق ص 398- 400، سليم حسن: المرجع السابق ص 81- 83، أحمد عبد الحميد يوسف المرجع السابق ص 105- 106.

و هكذا يمكننا أن نفهم ما دار بين موسى و سحرة فرعون، حينما «كلم الرب موسى و هارون قائلاً: إذا كلمكما فرعون قائلاً: هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك و أطحها أمام فرعون فتصير ثعبانا، فدخل موسى و هارون إلى فرعون و فعلا هكذا كما أمر الرب، طرح هارون عصاه أمام فرعون و أمام عبيده فصارت ثعبانا» (1)، و إلى عصا موسى - و ليس هارون كما تقول التوراة- يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (2).

و هنا رأى المملأ من قوم فرعون ما راعهم و روعهم، و لكن خوفهم من فرعون منعهم من أن يقولوا كلمة الحق، رأوا عصا موسى و قد صارت حية تسعى، و رأوا يده بعد أن أخرجها من جيبه، و قد صارت بيضاء من غير سوء، فلم يصدقوه مع ذلك في أنه مرسل من قبل الله رب العالمين، و اتهموه بأنه ساحر ماهر، يريد أن يستعلي هو و أخوه في أرض مصر، ليخرجها منها أهلها، و يمكننا لبني إسرائيل فيها، و انتهوا بعد التشاور إلى أن يرجئ فرعون موسى و أخاه، دون عقاب، حتى تبطل حجتهما و تثبت إدانتهم، و ذلك بأن يحضر المهرة من السحرة من مدائن مصر، ليواجه بهم هذا الساحر الماهر، و إلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَاتُمْرُونَ، قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (3).

و اجتمع السحرة في ميقات معلوم، يوم الزينة، و لعله يوم عيد وفاء

ص: 195

1- خروج 7: 8-10.

2- سورة الشعراء: آية 32-33.

3- سورة الأعراف: آية 109-112، و أنظر: تفسير الطبري: 13/18-25، تفسير المنار 9/33-55، تفسير ابن كثير 3/451-452، و أنظر: يونس آية 78-79، طه 57-64، الشعراء 34-38.

النيل، أو غيره من أعياد المصريين (1)، ثم تقدموا ممثلين ثقة بأن لهم النصر والأجر، قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبيين، قال نعم و إنكم لمن المقتربين (2)، و من ثم فقد خيروا موسى فيمن يبدأ قائلين: يا موسى إما أن تلقي وإما أن تكون أول من ألقى (3)، و يذهب الإمام الفخر الرازي إلى أن السحرة المصريين قد تواضعوا لموسى عليه السلام فقدموه على أنفسهم، فقالوا «إما أن تلقي وإما أن تكون أول من ألقى»، فلما تواضعوا له، تواضع هو أيضاً فقدمهم على نفسه، وقال: ألقوا ما أنتم ملقون، وهكذا قدم موسى السحرة على نفسه، رجاء أن يصير ذلك التواضع سبباً لقبول الحق، و لقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب، و يقول الزمخشري في الكشاف: تخيرهم إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاصموا في الجدل، و المتصارعين قبل أن يأخذوا في الصراع، و قال القرطبي: تأدبوا مع موسى بقولهم «إما أن تلقي» فكان ذلك سبب إيمانهم.

على أن هناك من يذهب إلى أن تخيرهم لموسى لم يكن من باب الأدب، وإنما كان كما يقول صاحب البحر المحيط، من باب الإدلال لما يعلمونه من السحر، و إيهام الغلبة و الثقة بأنفسهم، و عدم الاكتراث بأمر موسى، و قد أعطاهم موسى فرصة التقدم، و ثوقاً بالحق، و علماً بأن الله تعالى سيبطل سحرهم، كما حكى الله عن موسى، حيث قال: ما جئتم به السحر

ص: 196

1- أنظر عن الأعياد (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 112-115).

2- سورة الأعراف: آية 113-114، و أنظر: الشعراء: آية 41-42.

3- سورة طه: آية 65، و أنظر: الأعراف: آية 115، ثم قارن: يونس: آية 80 (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) و الشعراء آية 43 (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) و في هاتين الآيتين (بعكس آيتي الأعراف 115، طه 65) نرى موسى عليه السلام هو الذي يقدم السحرة، دونما تخيير منهم له، على أن يبدءوا بعرض مهاراتهم السحرية.

إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ وَيَذْهَبُ صَاحِبُ الظَّلَالِ إِلَى أَنْ التَّحْدِي إِذَا كَانَ وَاضِحًا فِي تَخْيِيرِهِمْ لِمُوسَى، وَتَبْدُو كَذَلِكَ ثِقَتَهُمْ بِسِحْرِهِمْ وَقَدْرَتَهُمْ عَلَى الغَلْبَةِ، وَفِي الجَانِبِ الأَخْر تَتَجَلَّى ثِقَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَهَانَتُهُ بِالتَّحْدِي، «قَالَ أَلْقُوا» فَهَذِهِ الكَلِمَةُ الوَاحِدَةُ تَبْدُو فِيهَا قَلَّةُ المَبَالَاةِ، وَتَلْقَى ظِلَّ الثِّقَّةِ الكَامِنَةِ وَرَاءَهَا فِي نَفْسِ مُوسَى، عَلَى طَرِيقَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي إِقَاءِ الظَّلَالِ بِالكَلِمَةِ المَفْرَدَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ (1).

وَأَيَا مَا كَانَ الأَمْرُ، فَلَقَدْ تَقَدَّمَ السِّحْرَةُ (2) وَاثْقَيْنِ مِنَ النُّصْرَةِ،

ص: 197

1- تفسير الفخر الرازي 133/24 - 134، تفسير البحر المحيط 361/4، تفسير القرطبي 214/11، في ظلال القرآن 1349/3.
2- اضطرب الناقلون للأخبار في عدد السحرة اضطراباً متناقضاً يعجب العاقل، كما يقول أبو حيان، من تسطيره في الكتب، فمن قائل 12 ألف أو 17 ألف أو 30 ألف أو 80 ألف، أو 70 ألف، ألقوا 70 ألف عصا، 70 ألف حبل، على أن أغرب ما في الروايات أنهم كانوا 72 ساحراً، اثنان من المصريين، 70 من بني إسرائيل، وقيل تسعمائة، ثلاثمائة من الفرس، و ثلاثمائة من الروم، و ثلاثمائة من الإسكندرية، و جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس أن فرعون قال: لا نغالبه (أي موسى) إلا بمن هو منه، فبعث بعلماء بني إسرائيل إلى الفرما يعلمونهم السحر، لما يعلم الصبيان الكتاب في الكتاب، فعلموهم سحراً كثيراً، حتى قال كبيرهم أنه علمهم سحراً لا يطيقه أهل الأرض، إلا أن يكون، أمراً من السماء، فإنهم لا طاقة لهم به، فأما سحر أهل الأرض فإنه لن يغلبهم (تفسير الطبري 25/13، تفسير البحر المحيط 360/4، 6/26، تفسير القرطبي 214/11، ابن كثير: مختصر التفسير 486/2، البداية و النهاية 254/1، تفسير الدر المنثور 106/3، تاريخ ابن الأثير 103/1، تفسير النسفي 57/3) و بدهي أن المبالغة واضحة من هذه الأعداد، فما كان التنافس بينهم وبين موسى يحتاج إلى أعداد تصل إلى تسعمائة ألف ساحر، وربما كان رقم 72 ساحراً، مقبولاً- نوعاً ما، و أما الأماكن التي جاء منها السحرة كبلاد الفرس و الروم و الإسكندرية، فليت الذين كتبوا ذلك يعلمون أن الإسكندرية أنشئت عام 332 ق.م، و بعد هذه الأحداث بما يقرب من ألف عام، و أن الفرس ظهرُوا عام 525 ق.م، أي بعد هذه الأحداث بحوالي 700 عام، و الروم بعدها بما يقرب من اثني عشر قرناً، و أن الفرما أو العريش لم تكن من المراكز العلمية في مصر، و أن مصر باتت تموج بالسحرة، و قد بلغوا شأواً بعيداً فيه، و ما كانوا في حاجة لبني إسرائيل، الذين ما كانوا يعرفون علماً أو فناً أو صناعة، غير سخرة في بناء المدن و رعي مواشيهم، ثم كيف يستعين فرعون ببني إسرائيل على موسى الذي جاء لينقذهم من فرعون الذي كان يذبح أبناءهم و يستبي نساءهم، ثم إن سياق القصة في القرآن يشير إلى استعانة فرعون بالسحرة المصريين، و ليس ببني إسرائيل.

فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (1)، وسرعان ما صارت الحبال والعصي، كما تقول التوراة، ثعابين، أو بالأحرى خيل إليهم من سحرهم إنها تسعى وكما نص الذكر الحكيم فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ، قال الزمخشري: استرعبوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، وحسبنا أن يقرر القرآن الكريم أنه سحر عظيم، لنذكر أي سحر كان، وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا أعين الناس وأثاروا الرهبة في قلوبهم، واسترعبوهم، لنتصور إي سحر كان، ولفظ «استرهب» ذاته لفظ مصور، فهم استجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسراً، ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآني الآخر في سورة طه أن موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة، لنتصور حقيقة ما كان، يقول الله تعالى:

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَ أَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَدَّ نَعْوَاهُ إِنَّمَا صَدَّ نَعْوَاهُ كَيْدُ سَاحِرٍ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (2).

و جاء في تفسير ابن كثير: قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشي ء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التهمته، فعرفت السحرة أن هذا شي ء من السماء، ليس هذا بسحر، فخرؤا سجداً، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى

ص: 198

1- سورة الشعراء: آية 44.

2- سورة الأعراف: آية 116، طه: آية 65-70، في ظلال القرآن 3/1349، تفسير الطبري 13/28.

و هارون، قال ابن إسحاق: جعلت تتبع تلك الجبال و العصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل و لا كثير، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، و وقع السحرة سجدا، و قالوا: لو كان هذا ساحرا ما غلبنا، و في هذا إشارة إلى أهمية العلم و تكريمه، فقد كان هؤلاء السحرة أعرف الناس بما جاء به موسى عليه السلام، و أنه من عند الله، و ليس من فنون السحر الذي تجروا فيه، و من ثم فقد خروا ساجدين و قالوا: «آمنا برب العالمين رب موسى و هارون»، لأن العالم في فنه إنما هو أكثر الناس استعدادا للتسليم بالحقيقة حين تنكشف له، لأنه أقرب من غيره إدراكا لهذه الحقيقة، و من ثم فما أن تأكدوا من معجزة موسى حتى ملك الحق قلوبهم، و ملأ الإيمان مشاعرهم، فاستخفوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف، و يصلبهم في جذوع النخل «و قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع أن يغفر لنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين».

و يقول أبو حيان: قال المتكلمون إن في هذا دلالة على فضل العلم، لأنهم كانوا كاملين في علم السحر، و من ثم فما أن علموا أن ما جاء به موسى خارج عن جنس السحر، حتى آمنوا به، و لو لا العلم لتوهموا أنه سحر، و أن موسى أسحر منهم، و لكن نظرا لأنهم كانوا، كما يقول الفخر الرازي، في الطبقة العليا من علم السحر، فقد علموا أن ذلك خارجا عن حد السحر، و ما كان ذلك إلا ببركة تحقيقهم في علم السحر، و من ثم لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا، قال أبو السعود: روى أن رئيسهم قال: كنا نغلب الناس، و كانت الآلات تبقي علينا، فلو كان هذا سحرا، فأين ما ألقيناه من الآلات، فاستدل بتغيير أحوال الأجسام على الصانع القادر العالم، و أن ظهور ذلك على يد موسى دليل على صحة رسالته، و من ثم فقد خروا سجروا، آمنا برب موسى و هارون (1).

ص: 199

1- تفسير البحر المحيط 4/364-365، تفسير الفخر الرازي 24/134، تفسير أبي السعود 6/27-28، في ظلال القرآن 3/1350، ابن كثير: مختصر التفسير 2/42، البداية و النهاية 1/258، تاريخ الطبري 1/409، الكامل لابن الأثير 1/103.

وبدهي أن ذلك كله إنما يدل على أن سلطان السحر محدود، فهو، وإن كان له حقيقة، فإن حقيقته لا تتجاوز الأيدي والأرجل من خلاف فرعون، وقد جاءت هذه الرواية في معظم كتب التفسير، على أن هناك خلافاً في تنفيذ فرعون لوعيده، فليس في القرآن الكريم نص على أن فرعون أنفذ وعيده، ولكن الظاهر من سياق القصة أنه صلبهم وعذبهم، قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة، ويؤيد هذا قولهم: «ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين» (1)، وأما النص الذي يصور وسائل التعذيب في زمان فرعون فقد ورد في معبد عمدا من بلاد النوبة المصرية، ويرجع إلى السنة الرابعة من عهد «مرنبتاح» (حوالي عام 1220 ق. م)، ويؤكد أن مرنبتاح هذا، والذي شاع في الناس أنه فرعون موسى، إنما قطع من خلاف وصلب، وقد نشر هذا النص الزميل الفاضل الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف (2).

وأياً ما كان الأمر، فلقد كان هذا موقف الذين آمنوا من المصريين، ملك الحق قلوبهم، وملاً الإيمان مشاعرهم، فاستخفوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جذوع النخل قالوا لا ضير إننا إلى ربنا مُنْقَلِبُونَ، إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (3)، وهنا تتجلى قوة الإيمان، إذا سكن القلب واطمأنت به

ص: 200

-
- 1- تفسير الطبري 34/13، تفسير البيضاوي 23/3، تفسير الفخر الرازي 135/4، تفسير البحر المحيط 365/4، تفسير النسفي 70/2، الدر المنثور 107/3، ابن كثير: مختصر التفسير 43/2، البداية والنهاية 258/1.
 - 2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 110، وكذا adamA ta txet raey htruof s'hatpnereM ,EASA ,IIV L F, 1964. p. 273. A. A. fessuoJ.
 - 3- سورة الشعراء: آية 50-51، عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 179.

النفس و تتجلى الحقيقة بالاستعداد للفداء في سبيلها، و يظهر طغيان فرعون هذا الذي يستعظم أن يكون في مصر من يدعن للحق، قبل أن يأذن له الملك.

و فوجئ فرعون بما لم يكن يتوقع من عجز السحرة، و فضيحة الهزيمة أمام موسى بين الناس، و أحس أن صرح كبريائه بدأ ينهار، و أنه كاد أن يكون أضحوكة عامة تشيع في أرجاء مصر كلها، و من ثم فقد وقف يزأر و لا زئير، و يتوعد السحرة و لا وعيد، كما أحس المملأ من حوله أن مقامهم كذلك صائر إلى دمار، و البطانة من حول الملك، و كل الملوك و أصحاب السلطان، لا تخلد إلى السكون، فهي دائمة الحركة، دائمة القول و التحريض، لأن الدعوة الجديدة تعصف بمقامهم و مقام زعيمهم في البلاد، و لعل ذلك يمكن أن يفهم من قولهم لموسى و هارون من أول لقاء أ جئتنا لتلقتنا عمًا و جدنا عليه آباءنا و تكون لكما الكبرياء في الأرض (1)، و من ثم فإننا نراهم يحرضون فرعون على مذبحه جديدة بين بني إسرائيل، و قال المملأ من قوم فرعون أ تدر موسى و قومه ليؤسدوا في الأرض و يدرك و آلهتك، قال سنقتل أبناءهم و نستحيي نساءهم و إننا فوقهم قاهرون (2)، و في سورة غافر قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه و استحيوا نساءهم و ما كيد الكافرين إلا في ضلال، و قال فرعون ذروني أقتل موسى و ليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (3).

و من المعروف أن بني إسرائيل قد عانوا من قبل، في إبان مولد موسى، مثل هذا التنكيل الوحشي من فرعون و ملئه، كما يقول تعالى:

ص: 201

1- سورة يونس: آية 78.

2- سورة الأعراف: آية 127.

3- سورة غافر: آية 25-26.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (1).

و من ثم فهناك، فيما يرى صاحب الظلال، أحد احتمالين، فيما حدث بعد ذلك الأمر، الأول أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر، كان قد مات وخلفه ابنه أو ولي عهده، وهذا ما تذهب إليه التوراة (2)، ولم يكن الأمر منفذا في العهد الجديد، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد، الذي كان يعرفه وهو ولي للعهد، ويعرف تربيته في القصر، ويعرف الأمر الأول بتذبيح الذكور وترك الإناث من بني إسرائيل، فحاشيته تشير إلى هذا الأمر، وتوحي بتخصيصه لمن آمنوا بموسى، سواء كانوا من السحرة أو من بني إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملئه، والاحتمال الثاني، أنه كان فرعون الأول الذي تبني موسى ما يزال، على عرشه، وقد تراخى في تنفيذ الأمر بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدته، فالحاشية تشير بتجديده وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف (3).

وأما قتل موسى عليه السلام، فإنما هو جد صعب المنال، وربما كان السبب في ذلك خوف الفرعون وملئه، من حدوث هياج عام بين المصريين أنفسهم، وخاصة بعد أن شاع وذاع، وملاً الأسماع، نبأ المعجزة الباهرة التي قهرت المهرة من السحرة وحملتهم على أن يؤمنوا ويعلموا إيمانهم على رؤوس الأشهاد بهذه الصورة المؤثرة، و من ثم فأكبر الظن أن النبيين الكريمين لم تكن لهما قوة تحميهما، في نظر فرعون، إلا الخوف من هياج

ص: 202

1- سورة القصص: آية 4.

2- خروج 23 / 2، 19 / 4، ثم قارن: البداية والنهاية 250 / 1.

3- في ظلال القرآن 3077 / 5 - 3078.

الرأي العام، إن صح هذا التعبير، بعد أن سمع ما سمع، ورأى ما رأى، و من يدري فقد يوحى هذا للجماهير بتقديس موسى واعتباره شهيدا، و الحماسة الشعورية له و للدين الذي جاء به، و لعلنا نستطيع أن نلمس هذه المعارضة فيما حكاه القرآن عن فرعون حين قال ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (1)، فإن كلمة «ذرنى» تفيد أنه كان هناك من يعوقونه أو يمنعونهم أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى، و قد يكون بعض مستشاري الفرعون أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له أو يبطش بهم، و ليس هذا ببعيد، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة، و يتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتقدون عليه، و يكون قول فرعون «و ليدع ربه» ردا على هذا التلويح، و إن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون إنما كانت تبجحا و استهتارا، لقي جزاءها في نهاية المطاف، حيث أغرقه الله و جنده في البحر (2).

هذا فضلا عن أن هناك دليلا من القرآن يفيد أن هناك من يعارض في قتل موسى عليه السلام، ذلك أن فرعون عند ما ضاق ذرعا بموسى، و عقد مع الملائكة مؤتمرا للفتك به، فوجئ بواحد من هذا الملائكة يكتنم إيمانه، ينهض لمعارضة هذه الفكرة و يقول: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ، يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا، و هال فرعون ما سمع، فأخذته العزة بالإثم و نفخ الشيطان في روحه، فقال: مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ، و عاد الرجل يعقب على كلام

ص: 203

1- سورة غافر: آية 26.

2- في ظلال القرآن 5/ 3078.

فرعون، ويحذره من غضب الله و بطشه، وبما حدث لغيره من الطغاة العتاة، ثم أعلن أنه أبرأ ذمته فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (1).

وهكذا فشل فرعون و ملؤه في تدبير خطة لاغتيال موسى، بل إن القرآن إنما يحدثنا أن فرعون إنما وجد المعارضة في داخل بيته نفسه، من زوجته، ذلك أن امرأة فرعون قد استطاعت أن تحرر فكرها و وجدانها من كل الأواصر و المؤثرات و القيود، فترفض أن تسير في ركاب زوجها، و أن تنساق في تيار المجتمع الذي تعيش فيه، بل و تعلن عن موقفها في ثبات و إيمان، بعد أن اتضح لها ضلال فرعون، و تبين لها الحق في دعوة موسى، رغم ضغط المجتمع و شدة وطأته، و رغم مغريات الحياة الرخية الناعمة في قصر أعظم ملوك الأرض، و أكثرهم غنى، و أرفعهم حضارة، و رغم آصرة الزوجية التي تربطها بفرعون، فكانت مثلاً للشخصية الإنسانية المستقلة في الإيمان و القيم (2)، و إلى هذه السيدة الجليلة يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

وَ صَدَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِدَدَكَ يُبْتَأُ فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (3)، و هي التي).

ص: 204

1- أنظر: سورة غافر: آية 28-44، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 315-330.

2- التهامي نقرة: المرجع السابق ص 401.

3- سورة التحريم: آية 11، هذا و قد جاءت أحاديث شريفة في فضل امرأة فرعون منها قوله صلى الله عليه و سلم «خير نساء العالمين أربع، مريم ابنة عمران، و آسية امرأة فرعون، و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد رسول الله»، و منها قوله صلى الله عليه و سلم: حسبك من نساء العالمين بأربع، مريم بنت عمران و آسية امرأة فرعون و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد» و قوله صلى الله عليه و سلم: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد و مريم بنت عمران و آسية امرأة فرعون» (و أنظر عن هذه الأحاديث الشريفة و روايات أخرى لها: ابن كثير: التفسير 2/ 32-34، البداية و النهاية 2/ 59-63، تفسير الطبري 6/ 393-394؟!، صحيح البخاري 4/ 193، 6/ 239، صحيح مسلم 2/ 243، سنن الترمذي 4/ 365-366، المستدرک للحاكم 3/ 184، تحفة الأوحدي 10/ 389) و أن امرأة فرعون ستكون زوجة للنبي صلى الله عليه و سلم في الجنة (أنظر: البداية و النهاية 2/ 62).

أودع الله في قلبها حب موسى عليها السلام، و الشفقة عليه، و الرحمة به منذ أول لحظة رآته فيها، و قالتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنٌ لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا (1).

و على أي حال، فلقد علم موسى عليه السلام أن فرعون ماض في غلوائه و كبريائه، كما علم بنو إسرائيل ما ينتظرهم من المحن و البلايا و الفتن، فتملكهم الرعب، و لم يجدوا في أنفسهم قوة تعينهم على مجرد الصبر و الاحتمال، فقد قال لهم موسى: اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، فكان جوابهم مما حكاه القرآن عنهم: أُودِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا، و هو جواب ينم عن عدم الإيمان بالله و الثقة بعونه و نصره، كما ينم عن شعورهم بهوان قدرهم و العجز عن الصبر (2).

و نقرأ في التوراة أن موسى ضرب النهر بعصاه، فتحول الماء دما، و مات السمك و أنتن النهر، و بعد أيام سبعة سلط الله عليهم الضفادع حتى اكتظت بها الأرض، و حتى خيل أن الأرض تتحرك بسببها، مما جعل فرعون يطلب من موسى أن يسأل ربه أن يرفع عنه هذا البلاء، و حين أجيب إلى مسأله عاد ثانية فاشتد قلبه (3). فسلط الله على كل أرض مصر البعوض (4)، فإذا ما تذكرنا أن المصريين كانوا قوما يراعون منتهى الدقة في النظافة، كما «.

ص: 205

1- سورة القصص: آية 9.

2- سورة الأعراف: آية 128-129، عبد الرحيم مودة: المرجع السابق ص 183.

3- خروج 14/7-22، 1/8-15، ف. ب. ماير: حياة موسى - ترجمة القس مرقس داود ص 104.

4- استعملت الترجمة العربية و الألمانية للتوراة كلمة «البعوض»، و أما الترجمة الإنجليزية و الفرنسية و هامش الكتاب المقدس، فقد استعملت كلمة «القمل» بدلا من كلمة «البعوض».

كان الكهنة أكثر القوم مراعاة للنظافة كانوا يغتسلون مرارا، ويحلقون شعورهم لكي لا يعلق بها أي دنس يعطلهم عن واجباتهم الدينية، ومن ثم فقد كانت ضربة «البعوض» هذه، فوق أنها أليمة، فهي بغیضة إلى نفوسهم، فإذا أضفنا إلى ذلك الذباب، ولعله الجعران، لعرفنا السبب الذي جعل فرعون يكرر طلبه إلى موسى أن يسأل ربه أن يرفع عن مصر هذه المصائب، في مقابل أن يسمح لبني إسرائيل أن يذبحوا لربهم في البرية، على ألا يتعدوا كثيرا، فما أن دعا موسى ربه، وفرج الله كربة فرعون وقومه، حتى عاد الطاغية إلى سيرته الأولى، فاشتد على بني إسرائيل، ومنعهم من الخروج، ومن ثم فإن دعوات موسى بالمصائب على فرعون وقومه سرعان ما تتكرر، ولكنها هذه المرة في الحقول، وعلى الخيل والحمير والجمال (1).

والبقر والغنم، ولا يستثنى رب إسرائيل من هذا الوباء غير ماشية بني إسرائيل، ولعل الأخيرة كانت السبب في أن فرعون لم يطلق سراح بني إسرائيل، بجانب عناده وإصراره على الكفر والعناد، ومن ثم فقد كرر رب إسرائيل مصائبه على فرعون وقومه، فإذا الدمامل تنتشر في كل أرض مصر.

ومع ذلك فإن فرعون لم يؤمن بدعوة موسى وهارون، ولم يسمح بخروج بني إسرائيل من مصر، ومن ثم فقد سلط الله عليه وعلى قومه عاصفة محملة بالرعد والبرد، ولم تهدأ إلا برجاء من فرعون لموسى بأن يكف الله هذا البرد، وذلك الرعد عن البلاد والعباد، وما أن تم ذلك حتى عاد فرعون سيرته الأولى، فسلط الله عليه الجراد، حتى أصبح وجه مصر الأخضر أسمرا).

ص: 206

1- لعل كلمة «الجمال» هنا من تحريفات التوراة، ذلك لأن الجمال وقت ذاك ظلت على التحقيق غريبة على المصريين، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر من الساميين، فقد جاءت قبيلة «أبشاي» في الأسرة الثانية عشرة على الحمير، لا الجمال، بل إن استعمال الجمال لم يعرف في هذه المنطقة إلا في أخريات القرن الثالث قبل الميلاد، وربما بعد ذلك (حسن ظاذا: الساميون ولغاتهم ص 12-13، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 26).

بسبب الجراد، وأخيراً، وبدون إنذار، حل الظلام على الأرض، حتى لم يبصر أحد أخاه، فشلت كل حركة في البلاد، وارتعدت أفسى القلوب، وطلب فرعون من موسى ألا يرى وجهه أبداً (1).

هذه هي الضربات التي أوقعها رب إسرائيل بفرعون وقومه، كما جاءت في توراة يهود، وهي وإن اتسمت بالمبالغة أحياناً، وعدم الدقة أحياناً أخرى، فإن ملامح مما جاء عنها في الذكر الحكيم، قال تعالى: **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** إلى قوله تعالى: **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ (2) وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ، وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُورِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (3).**

وروى ابن كثير في التفسير عن سعيد بن جبیر، وغيره من السلف، قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل،

ص: 207

1- خروج 16/8، 32-16/8، 35-1/10، 29-1/10، مزور 47/78-48، ماير: المرجع السابق ص 111-118.

2- اختلف المفسرون في لفظ «القمل» فقيل هي «الدبا» (الدي) بفتح الباء، وهي صغار الجراد الذي لا أجنحة له، وهي البراغيث، وهي دواب سود صغار، وهي «الحمنان» وهي ضرب من القردان، واحدها «حمنانة» فوق القمقمة، وهي ضرب شديد الشبث بأصول الشعر، وهي السوس الذي يخرج من الحنطة، وهي الجعلان وهو دابة سوداء من دواب الأرض، وهي القمل جمع قملة، وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل (تفسير ابن كثير 3/461-463، تفسير الطبري 13/54-56، مجاز القرآن 1/226، الدر المنثور 3/107-108، تفسير القرطبي ص 2705-2706، تفسير النسفي 2/72، صفوة التفاسير 1/467).

3- سورة الأعراف: آية 130-136، وأنظر: تفسير الطبري 13/45-75، تفسير المنار 9/74-84، تفسير ابن كثير 3/455-464، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/210-212، تفسير القرطبي ص 2699-2708، تفسير البيضاوي 3/24-25، الدر المنثور 3/107-108.

فأرسل الله عليهم الطوفان و هو المطر، فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا أدع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فلم يؤمنوا و لم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع و الثمار و الكلاً، فقالوا هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلاً، فلما رأوا أثره في الكلاً عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك فيكشف عنا الجراد، فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا و لم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا و أحرزوا في البيوت فقالوا قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل، و هو السوس الذي يخرج منه، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا ثلاثة أقدرة، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا و لم يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون ما تلقى أنت و قومك من هذا، فقال و ما عسى أن يكون كيد هذا، فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقته في الضفدع، و يهم أن يتكلم فيشب الضفدع في فيه، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا، و أرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقروا من الأنهار و الآبار و ما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم و ليس لنا شراب، فقال إنه قد سحرتم، فقالوا: من أين سحرنا و نحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً، و قالوا يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا و لم يرسلوا معه بني إسرائيل» (1).

ص: 208

وعلى أية حال، فإن الكوارث التي جاءت في القرآن الكريم و ترددت في التوراة، على أنها لحقت بمصر سنين عددا، فأصيبت البلاد بالقحط و العلل و الآفات، إنما تصدقها أحداث التاريخ، فمصر لم تكن، كما رأينا من قبل، بمنجاة مما قد ينزل بها من كوارث، فربما انحس النيل فصوّح الزرع، أو زاد فأغرق البلاد بطوفان عظيم، و هو على الحالين، كما يدمننا، نذير النوازل و نقص في الثمرات، فإذا وقعت الواقعة انتشرت بها الأدواء و الأوبئة، فحصدت الناس حصدا يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور، و قد حدث مثل ذلك على أيام الثورة الاجتماعية، و في أخريات أيام الأسرة العشرين، كما حدثنا «إيبو-ور» عن الأولى، و كما تحدثت و ثائق أخريات أيام الدولة الحديثة عن عام اشتد فيه الجوع بالناس، حتى سموه «عام الضياع» (1).

على أن الأمر هنا، بين موسى و فرعون، فيما نعتقد و نؤمن به، إنما هو معجزة نبي، و بدهي أنه ليس بالضرورة أن تتفق المعجزات مع بعض أحداث في التاريخ، فإذا ما كان لها صدى في هذه الأحداث التاريخية، فإن ذلك تصديقا لهذه الأحداث، و ليس للمعجزات، و التي سوف نتحدث عنها بالتفصيل عند حديثنا عن انقلاب البحر لموسى عليه السلام، و على أي حال، فالواضح من نصوص التوراة و آي الذكر الحكيم أن البلاد قد أصيبت في تلك الفترة بالقحط و الجذب، و نقصت ثمراتها بالجوائح الجوية و الآفات السماوية، و غرقت أرضها بطوفان، و هجمت عليها جيوش جراحة من الجراد تجتاح الأخضر و اليابس، و امتلأ الجو بالبعوض، و كثر «الدبا» في الأرض، و كذا الضفادع التي نغصت على الناس حياتهم، فكانوا يجدونها في كل

ص: 209

1- محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص 357-359، و كذا، OA, ynreC. J 177- 173. p، 1933، 6، و كذا، EAL, namrE. A 95. p، 1927.

مكان، وهكذا كانت النعمة عامة، و كان بلاء من السماء، لم يصب الطبقة الحاكمة وحدها، وإنما شمل الناس جميعا، بما فيهم الكهنة و عامة الناس (1)، و صدق الله العظيم حيث يقول: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2).

و مع ذلك فقد ظل فرعون على عناده و كفره و كبريائه، فدعا موسى على فرعون و ملئه، و استجاب الله لدعاء نبيه الكريم و أخذ فرعون و قومه ببعض ذنوبهم، لعل فرعون يرعوي و يؤمن بموسى و رسالته، و يطلق بني إسرائيل من أسرته، غير أن ذلك لم يزد إلا تجبرا و تكبرا، فيعلن للملا: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (3)، و لعل من الأهمية بمكان أن نقف قليلا عند هذه الآية الكريمة، ذلك أن ما عرف عن فراعين مصر، و ما تشهد به اليوم آثارهم، أنهم إنما كانوا ينشئون، ما شاءوا، من الحجر، و هو كثير وافر يغنيهم عما سواه، إن أرادوا لما ينشئون الدوام و طول البقاء، فكانوا يتخذون منه المعابد و المسلات و القبور، و لم يصطنعوا الطوب المحروق، و لغير ذلك كانوا يتخذون اللبن من طين غير محروق، فكانوا يتخذون منه بيوتهم، سواء أ كانت للعلية من القوم و الملوك، أم للعامة و غمار الناس، و ربما تردد القارئ غير المسلم فيما يسمع من قول الله في أمر فرعون أن يوقد له هامان على الطين، و قد عرف أن المصريين فيما خلفوا من آثارهم لم يتخذوا الأجر المحروق في البناء قبل عصر الرومان (4).

ص: 210

- 1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 183-184.
- 2- سورة الأنفال: آية 25.
- 3- سورة القصص: آية 38، و أنظر: سورة غافر: آية 36.
- 4- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 137-138.

و هنا لعنا نتساءل: ما ذا عن الطوب المحروق الذي جاء في الآية الكريمة على عهد فرعون موسى، وقد سبق عصره عصر الرومان بما لا يقل عن ألف من الأعوام؟

يروى الإمام الطبري في تاريخه عن قتادة أن فرعون موسى كان أول من طبخ الآجر ليبنى به الصرح، و روى الإمام النسفي في تفسيره لقوله تعالى: فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ، أي أطبخ لي الآجر و أتخذه، وإنما لم يقل مكان الطين هذا لأنه أول من عمل الآجر، فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة، و لأنه أفصح و أشبه بكلام الجبارة، إذ أمر هامان وزيره بالإبقاء على الطين فنادى باسمه ب «يا» في وسط الكلام، دليل التعظيم و التجبر، و روى القرطبي عن حبر الأمة و ترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، أن فرعون موسى إنما كان أول من صنع الآجر و بنى به، و روى عن الإمام السيوطي في تفسيره عن ابن أبي حاتم عن قتادة: كان فرعون أول من طبخ الآجر و صنع له الصرح، و أخرج ابن المنذر عن ابن جريح قال:

فرعون أول من صنع الآجر و بنى به، و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن سعيد بن جبيرة في قوله: «فأوقد لي يا هامان على الطين» قال: أوقد على الطين حتى يكون آجرا، و قال الإمام البيضاوي: أول من اتخذ الآجر فرعون، و لذلك أمر باتخاذها على وجه يتضمن تعليم الصنعة، مع ما فيه من تعظيم، و لذا نادى هامان باسمه بيا في وسط الكلام (1)، و من ثم فأكبر الظن أن المفسرين، كما بدا لنا من قبل، قد كانوا يستندون إلى طائفة من الخبر الصحيح كانت بين أيديهم، و أن اختلط كذلك بما لا قيمة له من الأوهام، كحديثهم عن أصل فرعون موسى هذا (2).

ص: 211

1- تفسير النسفي 237/3، تفسير الدر المنثور 129/5، تفسير القرطبي ص 5004، تفسير البيضاوي 128/4، تاريخ الطبري 405/1.

2- يروي المفسرون عن فرعون موسى حكايات أشبه بالأساطير منها بحقائق التاريخ، فهو، فيما يزعمون، الوليد بن مصعب أو مصعب بن ريان أو هو قنطورس أو قابوس، و كنيته أبو مرة، و هو مصري أو هو من بني عمليق و من يقايا عاد، على أن أسوأ ما في هذه الأساطير أن يكون فرعون مصر، (أعظم دول العالم وقت ذلك، و أعرقها حضارة و أرسخها ملكا، و أقدمها عرشا، بل و يكاد الوحيد، فيما نعلم، في كل تاريخ النبوات الذي أرسل إليه نبيين، و ليس نبيا واحدا) فرعون مصر هذا، فيما يزعم المفسرون، كان فارسيا من إصطخر أو أصفهان، و كان عطارا ركبته الديون فأفلس، فخرج إلى الشام فلم يتسن له المقام، فدخل مصر، و رأى في ظاهره حملا من البطيخ بدرهم، و في نفسه بطيخة بدرهم فخرج إلى السواد فاشترى حملا بدرهم، و توجه إلى السوق فكل من لقيه من المكاسين أخذ منه بطيخة، فدخل مصر و ما معه إلا بطيخة فباعها بدرهم، و رأى أهل البلد متروكين سدى لا يتعاطى أحد سياستهم (تصور هذا في عصر الإمبراطورية و في وقت كانت مصر تحكم فيه الشرق، و كان ملكها سيد الملوك طرا، لأنه أعظمهم و أغناهم و أقواهم) فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لأوليائه، على أنه أمين المقابر، و منعهم من دفنه حتى يدفعوا خمسة دراهم، فدفعوها، و كذا فعل آخرون، حتى جمع في ثلاثة أشهر مالا عظيما، ثم تعرض له يوما أحد أولياء متوفى و ذهبوا به إلى فرعون، فسأله: من أنت و من أقامك بهذا المقام، فقال لم يقمني أحد، و إنني فعلت ذلك لأحضر إلى مجلسك، فأنبئك إلى اختلال حال قومك، و قد جمعت بهذا الطريق هذا المال و أحضره و دفعه إلى فرعون، ثم قال ولني أمورك ترني أمينا فولاه فسار بهم سيرة حسنة فانتظمت مصالح العسكر و استقامت أحوال الرعية و لبث فيهم أمدا طويلا، و ترامى أمره بالعدل و الصلاح (و بدهي أن المفسرين تأثروا في هذا بقصة يوسف عليه السلام) فلما مات فرعون أقامه مقامه، فكان من أمره ما كان، و كان فرعون يوسف ريان، و كان بينهما أكثر من أربعمئة عام (و لا تعليق على هذه الأساطير سوى أنها تدل على جهل فاضح بالتاريخ المصري القديم). و على أية حال، فلقد ذهب الزمخشري إلى فرعون اسم علم لمن ملك العمالق، كقيصر لملك الروم و كسرى لملك الفرس. و لعتو الفراعنة اشتقوا

تفرعن إذا عتا و تجبر (تفسير الكشاف 102/1، الدر المنثور 105/3، روح المعاني 253/1، تفسير أبي السعود 172/1).

و مهما يكن من أمر، فلقد أعترتنا الأحافير على ما يوافق أقوال المفسرين من حيث البناء بالآجر، فلقد عثر «بيري» على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق، بنيت به قبور، و أقيمت به بعض من أسس المنشآت، ترجع إلى عصور الفراعين: رعمسيس الثاني و مرنبتاح و سيتي

ص: 212

الثاني، من الأسرة التاسعة عشرة (1308-1184 ق.م)، وكان عثوره عليها في «نيشة» و«دفنة» غير بعيد من «بي رعمسيس» (قنيترا) عاصمة هؤلاء الفراعين في شرق الدلتا، وقال «بترى» في ذلك: إن حرق اللبن قد ظل نادرا إلى عصر الرومان، و هو قول لا يكاد يخالف قول المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق، على عهد فرعون موسى، و هو كذلك من قرائن القرآن الكريم التي نتخذها مطمئنين في تحديد عصر خروج بني إسرائيل من مصر، و بأنه كان على أيام الأسرة التاسعة عشرة التي بدأت، كما أثبتت الحفائر، و ألمع القرآن الكريم، تصطنع في بنائها الآجر المحروق (1).

[3] ألوهية الفرعون المزعومة:-

اشارة

لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا، و قبل أن نترك موضوع موسى و فرعون، أن نشير إلى «ألوهية الفرعون المزعومة» التي رأيناها موضوع جدل شديد بين النبي الكريم و الملك الفرعون بل هي الصخرة التي تحطمت عليها، فيما نعتقد، كل أوجه التقارب بينهما، و مما يزيد الأمر أهمية أننا لا نعرف في تاريخ النبوات، دعوة يتعرض صاحبها لزعم كذوب ممن أرسل إليه، على أنه إله للناس، بل إن الفرعون إنما يهدد النبي الكريم نفسه قال لئن اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (2)، ثم يعلن للناس عامة ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (3)، و عند ما يتقدم له موسى عليه السلام بمعجزات تدل على صدق رسالته، إذا به يرفض الدعوة كلها ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى فَحَشَّ دَايَةَ فَتَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى (4).

ص: 213

- 1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 138، و كذا. 18- 19، 47، P. F. M. W 47، dna hehsebN، henefeD، p.
- 2- سورة الشعراء: آية 29.
- 3- سورة القصص: آية 38.
- 4- سورة النازعات: آية 22- 24.

يحدثنا التاريخ أن مؤسس الأسرة المصرية الأولى، استطاع أن يكون لمصر حوالي عام 3200 قبل الميلاد، حكومة مركزية قوية ثابتة الأركان، كان على رأسها «الملك المؤله» الذي استطاع أن يجمع بين يديه كل السلطات، حكومة كان الملك فيها هو المحور، بل هو الروح التي تبعث الحياة في الدولة هو المحور، بل هو الروح التي تبعث الحياة في الدولة، و كل ما يحدث فيها و حي منه، على أسس دينية عميقة الأثر، فهو «الإله الأعظم»، و هو «الإله الصقر حور»، الذي تجسم في هيئة بشرية، و لهذا فهو- في نظر رعاياه- إله حي على شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة الأخرى فيما لها من حقوق، و من ثم فله حق الاتصال بهم، و له على شعبه- ما لغيره من الآلهة- من التقديس و المهابة (1).

و من هنا كان الأساس السياسي و الاجتماعي الذي قامت عليه الحضارة المصرية، هو التأكيد كل التأكيد، بأن مصر يحكمها إله، و أن هذا الإله الجالس على العرش غير محدود المعرفة و المقدر، و أنه على علم بكل ما يدور في أرض الكنانة، و من هنا كان من الصعب أن نفرق بين الملك و الدولة، إذ كانت كلمته قانون، و رغبته أمر، و رعيته ملك يمينه، يتصرف فيها كيف شاء، و متى شاء (2).

و قد اختلف المؤرخون فيما بينهم في كيفية إيمان المصريين بأن الجالس على العرش إله يحكم بشرا؟ و كيف أصبحت ألوهية الفرعون عقيدة الدولة الرسمية، فهناك من يرى أنها إنما كانت وليدة أسباب انتصاره على

ص: 214

1- محمد بيومي مهران: التنظيم السياسي في مصر و العراق القديم ص 4 (الإسكندرية 1970)، الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 99-115.

2- محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة 1976 ص 17.

منافسيه. ثم اصطناعه صفات إلهية، حتى غدا إلهها بين الآلهة (1)، و من يرى أن الصعاب التي لاقاها مؤسسوا الوحدة دافعا للقول بأن مصر يحكمها إله، تتمثل فيه القوى التي تهيمن على القطرين (الصعيد والدلتا)، بل إنه ادعى منذ الأسرة الخامسة بأنه الابن الشرعي لإله الشمس «رع»، أعظم الآلهة طرا وسيدهم، وبذلك تمكن الملك من أن يتباعد بنفسه عن أن يكون من البشر، و عن أن يكون منتسبا لأي جزء من أجزاء مصر، و من ثم فقد انتفت حجة الوجه البحري في معارضته في أن يحكمه رجل من الصعيد (2).

و هناك وجه آخر للنظر، يذهب إلى أن المصري كان لا يحس بضرورة تحديد الأنواع تحديدا صريحا، فقد سهل عليه أن ينتقل من البشري إلى الآلهي براحة تامة، و أن يقبل العقيدة التي تنص على أن الفرعون الذي كان يعيش بين الناس كأنما هو من لحم و دم إنساني، كان في الحقيقة إلهها تكرم فأقام فوق الأرض ليحكم أرض مصر، و من ثم فإن طريقة التفكير هذه، فيما يرى جون ويلسون- بجانب العوامل الجغرافية- إنما كانت سببا في عقيدة الملكية الإلهية، التي ربما كانت سهلة و طبيعية بالنسبة للمصريين، و ربما كانت متأصلة الجذور منذ أيام ما قبل التاريخ (3).

و هناك رأي رابع، يجعلها نتيجة أسباب دينية، ذلك أن المصريين القدامى إنما كانوا يعتقدون- كما تروي الأساطير- أن آلهة التاسوعيين قد حكموا الواحد تلو الآخر على الأرض في مصر ذاتها، قبل أن يعرجوا إلى السماء- أو فيما يختص بالذين ذاقوا الموت قبل أن يهبطوا إلى الجحيم-

ص: 215

1- نجيب ميخائيل: مصر و الشرق الأدنى القديم- الجزء الرابع- ص 74 (الإسكندرية 1966).

2- عبد المنعم أبو بكر: تاريخ الحضارة المصرية- العصر الفرعوني، النظم الاجتماعية- القاهرة 1962 ص 111.

3- . p, tic- po, nosli W. A. J 47، 45 .

و كانت القوائم الملكية تبدأ بهم، بل و تحدد عدد سنى حكمهم- كما تفعل بردية تورين- و قد ترك «أوزير» آخر الآلهة العظام، لابنه حور ملك مصر، و من «حور» هذا تحدر في زعمهم كل ملوك مصر، و بناء على ذلك، فإن حتى الملك يقوم على طبيعته الإلهية التي كانت تنتقل مع الدم، و في عهد الأسرات الأولى لم تكن ألوهية الملك مؤكدة إلا لتسلسله من «حور» إله الأسرة بغض النظر عن أية مؤلفة دينية (1).

و تذهب وجهة النظر الخامسة إلى أن ألوهية الفرعون إنما تتصل اتصالاً وثيقاً بالعناصر الأساسية التي شكلت المبادئ و القيم المصرية منذ البداية، و تتركز تلك العناصر بصفة خاصة على تأثر الإنسان بكافة المقومات البيئية المحلية في مصر تأثراً كاملاً بطريق مباشر أو غير مباشر، فقد بدأ الإنسان حياته المستقرة بالزراعة، و نشأ لأول مرة المجتمع الزراعي المستقر و المعتمد على ضمان توفير مياه الري و مساعدة العوامل الطبيعية المختلفة اللازمة للإنتاج الزراعي السليم، ثم سرعان ما أدرك الإنسان ضرورة ضمان ذلك الاستمرار حتى يطمئن على حياته المستقلة، و في نفس الوقت آمن بالظواهر الطبيعية المحيطة به و المسيطرة على تلك البيئة، و شعر بارتباط حياته و مستقبله بتلك القوى الكونية المسيطرة على هذا العالم، و قد اعتبر الملك أحق من يقوم بوظيفة الوساطة بين الإنسان و الآلهة، حتى يستطيع أن يضمن رضى تلك القوى على الإنسان، و بالتالي اطمئنانه على حياته الحاضرة و المستقبلية، و لذلك ارتبط ملوك مصر بعالم الآلهة ارتباطاً كبيراً لم يألفه المؤرخ في أنظمة الحكم الأخرى في منطقة الشرق الأدنى القديم (2).

ص: 216

-
- 1- أيتين دريوتيوجاك فانديه: مصر، ترجمة عباس بيومي، القاهرة 1950 ص 90-91.
 - 2- رشيد الناصوري: جنوب غربي آسيا و شمال إفريقيا- الكتاب الأول- بيروت 1968، ص 282-283.

وهكذا نرى العلماء يختلفون في تفسيرهم لألوهية الملك المصري، وكيف نشأت؟ وكيف اقتنع المجتمع المصري وآمن بالألوهية ملوكه؟

وإذا أردنا مناقشة هذا كله، لرأينا أن الأسباب العسكرية لا تستطيع وحدها أن تصل بالمغلوبين إلى الإيمان بالألوهية ملوكهم، ذلك لأن الغزو قد يجبر قوما على الخضوع لآخرين، وقد يجعل من زعيم المنتصرين «دكتاتورا» يأمر فيطيع المغلوبين، ولكنه لا يجعل منه -بحال من الأحوال- إلها يؤمن الناس به، كواحد من آلهتهم الأخرى، وحتى لو آمنوا به في فترة الغزو- وفي أعقابه لفترة ما- فكيف تسنى لملوك مصر أن يجعلوا من ألوهيتهم عقيدة يؤمن بها الناس حتى نهاية العصور الفرعونية.

و أما النظرية التي تجعل الصعاب التي لاقاها مؤسسوا الوحدة دافعا إلى القول بأن مصر يحكمها إله تتمثل فيه القوى التي تهيمن على القطرين، فقد يكون الأمر كذلك إلى حد ما، وفي هذه الحال، فإن توطيد هذا المبدأ في جميع أنحاء البلاد إنما احتاج إلى وقت طويل، حتى قبل القوم أن ذلك الإنسان الذي يحكمهم ليس بشرا، بل هو من نوع آخر، فلدينا ما يثبت أن الوحدة التي قامت في أول عصر التأسيس لم يكتب لها البقاء طويلا، وإنما إنهارت في النصف الثاني من عصر الأسرة الثانية، إذ تدلنا آثار الملك «خع سخم»- والتي تقتصر على مدينة «نخن»- على مدى جهوده في استرجاع الدلتا، و توطيد الوحدة، و القضاء على الفتنة، الأمر الذي تمّ على يد خلفه «خع سخموي».

و أما الرأي الذي جعل من العوامل الجغرافية- إلى جانب طريقة التفكير المصري- سببا في الإيمان بالألوهية الفرعون، فإنها تضعف كثيرا، إذا ما تذكرنا أن ألوهية الملك المصري إنما كانت مرتبطة إلى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها- وليس بالعوامل الجغرافية فيها، وأن أية فترة من الفترات

التي كان يضعف فيها الحكم، كان القطران ينفصلان بعضهما عن البعض الآخر، ولم يمسك عليهما وحدتهما إلا اعتمادهما المشترك على مياه النيل.

و أما ذلك الرأي الذي أرجعها لأسباب دينية، فهو في الواقع إنما يعتمد على الأساطير - أكثر من اعتماده على الأدلة التاريخية - إذ لو كان الأمر كذلك، و كان مؤسس الوحدة معترفاً بالوهيته على اعتبار أنه سليل الإله «حور»، لما احتاجت الوحدة إلى كل هذه الحروب التي خاضها أبطال التوحيد، من أمثال «عقرب» و «عحا»، و لما احتاجت كذلك إلى جهود خلفائهم بعد النكسة التي أصيبت بها الوحدة في عصر الأسرة الثانية.

و أما النظرية الاقتصادية، فرغم أهمية ضمان توفير الأمن الاقتصادي وغيره من مظاهر الاستقرار في المجتمع، على أساس إمكان توسط الفراعنة بعد حملهم لتلك الصفة الإلهية من أجل تحقيق ذلك، فإن ذلك الأمر ليس بكاف لتعليل إيمان المصريين بالوهية ملوكهم، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان ملوك العراق القديم أحق بالوهية من ملوك مصر، فبلاد الرافدين إنما كانت معرضة بصورة مستمرة بتقلبات الجوية التي تحول دون الاستقرار و الطمأنينة، مما أدى إلى تعدد القوى الإلهية، و ظواهر التنبؤ و التمام، بينما كانت البيئة المصرية مطمئنة إلى حد كبير (1).

و من ثم، فالرأي عندي: أن هذه الأسباب مجتمعة هي التي عملت على تأليه الفرعون في أرض الكنانة، و ربما كانت هناك فكرة أصيلة عن الملكية الإلهية في مصر، و لكنها فكرة غير منتظمة، ثم جاءت الأسرة الأولى و انتهزت فرصة وجود هذا الرأي لتأييد النظام الجديد، فرفعت الفرعون من رتبة بشر متميز - من الجائز أن ينازعه في سلطانه بشر آخر متميز و أقوىاء - إلى مرتبة «إله» لا يمكن منازعته، و هكذا كانت عقيدة الملكية الإلهية، كما

ص: 218

نعرفها قد صيغت و عدلت كثيرا، ثم وجدت قبولاً رسمياً في أوائل أيام الأسرات، و هذا قول لا يمكن إثباته بالتأكيد، و لكننا نستطيع القول أن العوامل الاقتصادية. و حاجة الناس إلى وسيط يكون بينهم و بين آلهتهم، لتحقيق ما يمكن أن نسميه «بالأمن الوقائي» ضد كل ما يصيبهم بأذى من قريب أو بعيد، ثم بدأ الملوك ينسبون أنفسهم- بعد قيام الوحدة و إخضاع الدلتا- إلى الإله «حور»، خليفة أبيه «أوزير»- آخر الآلهة العظام الذين حكموا مصر في عصور ممعنة في القدم- و منذ الأسرة الخامسة (حوالي عام 2480 ق. م)، يصبح الملوك أبناء للاله «رع» من صلبه، و في عصور تالية، و حين يصبح آمون- سيد الآلهة و كبيرهم- يصبحون أبناء له.

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن ألوهية الفرعون لم تكن بمعنى أنه خالق الكون و مدبره أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية، إنما كان يدعي الألوهية على شعبه، بمعنى أنه حاكم هذا الشعب بشريعته و قانونه، و أنه بإرادته و أمره تمضي الشئون و تقضي الأمور، كما أشرنا من قبل، كذلك لم يكن الناس، في مصر يتعبدون إلى فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له، فقد كانت لهم آلهتهم، كما كان لفرعون نفسه آلهته التي يعبدها كذلك، كما هو ظاهر، من قول المأله «و يذرك و آلهتك»، و كما يثبت ذلك تاريخ مصر في العصور الفرعونية، و من هنا فإن هذا الملك المؤله لم تكن تقام له المعابد، كما كانت تقام لغيره من الآلهة، كما لم تكن تقدم له القرابين (1)، و أن تسميته بالآله العظيم لم تقف حائلاً دون أن تكون له شخصية بشرية، و أن طبيعته لم تمنع القوم من أن ينظروا إليه كحاكم بشري، له أملاكه الخاصة و مخازنه و دواوينه الخاصة. (.

ص: 219

1- قارن حالات: أمنحتب الثالث و رعمسيس الثاني و الثالث (محمد بيومي مهران- الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 128).

وبدهي أنه في مقابل هذه الحقوق التي كان يتمتع بها الفرعون، كان عليه عدة واجبات، فهو المسئول عن مصر و حماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة الطامعة في خيراتها، وهو الذي يعمل على تدعيم العدالة ونشر لواء الحور بين أفراد شعبه، وهو المسئول عن تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفر الترع وإقامة الجسور ليتيسر فلاحه الأرض وزراعتها، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان، و تشجيع الصناعات والفنانين، فضلا عن إقامة المعابد للآلهة وتقديم القرابين لها، فإن أهمل واجباته، كلها أو بعضها، فقد قدسيته، و من ثم يحور لغيره من الآلهة ألا يعترفوا به كواحد منهم، وهكذا يبدو أن الملكية، وإن أفاءت على الملك القداسة والألوهية، فهي في الوقت نفسه، قد حددت من سلطانه، بما فرضت عليه من واجبات.

ومن هنا فإن القوم في عصر الثورة الاجتماعية الأولى، وقد تدهورت أحوال البلاد الداخلية والخارجية، فضلا عن ظهور اللامركزية منذ أخريات الدولة القديمة، لم يعودوا ينظرون إلى ملوكهم تلك النظرة التي كان أسلافهم ينظرون بها إلى ملوك الأسرة الرابعة مثلا، الأمر الذي أدى إلى التقليل من هالة التقديس التي كان يحاط بها الملك أو يحيط بها نفسه، وهكذا لم يعد الملك ذلك الإله المترفع والحاكم الجبار فوق البشر، والذي يرجو رعاياه عطفه ورضاه، وإنما أصبح شخصا غير معصوم يتحدث عن ضعفه و عن خطاياهم، كما يتحدث الآخرون من رعاياه، بل إننا نرى في هذا العصر الحكيم «إيبو-ور» يتهم الفرعون بأنه سبب الفوضى والاضطرابات التي سادت في البلاد، فرغم أنه قد أعطي الحكمة والسلطة، فقد بقي في قصره يحيط نفسه بمجموعة من المنافقين، حتى ساءت الحال وفقد الناس الأمن والأمان، ثم يبلغ به العنف أشده حتى يتمنى للملك أن يذوق البؤس بنفسه، و حين يرد الفرعون بأنه حاول جهده أن يحمي شعبه، يتهمه «إيبو-ور» بالجهل و عدم الكفاءة للمنصب الخطير، ثم يرسم له صورة الملك

الأمثل بأنه الحاكم العادل الكفء الذي لا يحمل في قلبه شرًا لرعيته، ويعمل جهده على جمع كلمتها و توحيد صفوفها، إنه كالراعي يصرف يومه في جمع قطيعه بعضه إلى بعض، و من ثم فإن الثورة رغم أنها أبقت على مبدأ الملكية الإلهية، فإنها في الوقت نفسه نادى بحقوق الأفراد وبالعدالة الاجتماعية مما جعل الملك المؤله راعيا لشعبه يسهر على مصالحهم و يضني نفسه في سبيل سعادتهم، و هكذا لم يعد الملك ذلك الحاكم الجبار، فوق البشر، وإنما غدا إنسان له ما للإنسان من ضعف و نزوات، و حاكما يعمل لخير شعبه، و يجهد نفسه على أن يكون دائم اليقظة، حتى لا يؤخذ على غرة، شأنه في ذلك، شأن أي إنسان، قد يفعل الخير فيجد خيرا، و قد لا يجد سوى الشر.

هذا و قد أشرنا من قبل عن أن مصر لم تكن أبدا تعرف عبادة الملك الحي طوال العصور الفرعونية، و إن حاول ذلك «أمنحتب الثالث»، و على استحياء شديد في النوبة، و ليس في مصر نفسها، ثم حاول كذلك رمسيس الثاني في معابده التي أقامها في النوبة للالهة المصرية و في «هريبط» و كانت مدينة عسكرية، ثم رمسيس الثالث في منف و في العاصمة «بي رمسيس»، و إن لم تشر سجلات عصره في بردية هاريس و مدينته هابو إلى ذلك أبدا (1).

ص: 221

1- أنظر عن الموضوع و المراجع (محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى، الإسكندرية 1966 ص 190 - 240، الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 97-128).

الباب الثاني خروج بني إسرائيل من مصر

إشارة

ص: 223

[1] أسباب الخروج:

يختلف العلماء في أسباب خروج بني إسرائيل من مصر، أو طردهم منها، و لعل السبب في ذلك تناقض نصوص التوراة بشأنها، فهي تصوره، و كأنه إضراب عن العمل، و من ثم فإنها تتحدث عن تمرد العمال العبرانيين على رؤسائهم المصريين، كما تتحدث عن تكاسلهم عن القيام بواجباتهم بسبب رغبتهم في الخروج إلى البرية ليذبحوا للرب إلههم، و لكن فرعون يرفض ذلك (1)، الأمر الذي دفع «وارد» إلى القول بأن الخروج لم يكن إلا إضرابا عن العمل (2)، و يذهب «كيلر» إلى أن الإسرائيليين إنما كانوا يكوّنون رصييدا هائلا من الأيدي العاملة الرخيصة، و الأجنبية كذلك، و ما كان المصريين براغبين في تركهم يخرجون من البلاد (3)، في فترة البناء النشطة في عهد رعمسيس الثاني (1290-1224 ق.م) و الذي كان اهتمامه مركزا في الدلتا الشرقية، و من هنا حاول الإسرائيليون الهروب ضد رغبة المصريين (4)،

ص: 225

1- خروج 4/5-5.

2- ول ديورانت: قصة الحضارة 2/326، و كذا. 76 draW tneicnA, ylwoL p, II.

3- , 1967, p. 123. W relleK. ehT, elbiB sa yrotsiH.

4- , 1965, p. 114. M htoN. ehT, yrotsiH fo learsI, nodnoL.

على أن هناك من يذهب إلى أن مصر عند ما قررت التوسع شرقاً إلى بابل، رأت أنه من ضروريات السياسة الجديدة إقرار البدو نشراً للأمن، فضلاً عن الاستقرار، فشق هذا الوضع الجديد على بني إسرائيل الذين كانوا ينزلون «وادي جوشن» من عهد يوسف عليه السلام، كبدو يروحون ويغدون، وهم بحكم هذا الضرب من الحياة تغلب عليهم النزعة الفردية، وينفرون من الملكية الجماعية، و من ثم فقد تمردوا مفضلين البداوة والترحال، على الحضارة والاستقرار (1).

على أن هناك وجهاً آخر للنظر، يذهب إلى أن الخروج إنما قد تم برغبة المصريين، ذلك لأن الطاعون قد انتشر بين الإسرائيليين، مما اضطرت المصريين إلى أن يتركواهم يخرجون حتى لا ينتشر الوباء بين المصريين أنفسهم، ولعل هذا الرأي إنما يتفق مع ما رواه «يوسف اليهودي» نقلاً عن مانيتو، من أن خروج بني إسرائيل من مصر، إنما كان رغبة من المصريين في أن يتقوا وباء فشا بين اليهود المستعبدين المملكين، وأن موسى نفسه إنما كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين اليهود المجذومين، وأنه علمهم قواعد النظافة على نسق القواعد المتبعة عند الكهنة المصريين، هذا فضلاً عن أن المؤرخين الأغارقة والرومان إنما يفسرون قصة الخروج على هذا النحو (2).

ولعل الوصول إلى رأي في المشكلة يقرب من الصواب، أو يكاد، من وجهة نظر التوراة، إنما يتطلب منا الرجوع إلى نصوص التوراة نفسها، وبخاصة فيما يتصل بدعوة موسى عليه السلام، و هل كانت لهداية المصريين والإسرائيليين سواء بسواء، أم أنها كانت تهدي إلى إخراج بني إسرائيل من

ص: 226

1- فؤاد حسنين: إسرائيل عبر التاريخ 1/ 54-55.

2- ول ديورانت: المرجع السابق ص 326، وكذا F, mor sti B sgninnige ht fo elddiM ht yrutneC ,nmdnoL .A 168. p, 1962 .,learsI ,sdoL .

مصر فحسب، و من هنا لعلنا نعرف قدر الطاقة، هل خرج بنو إسرائيل من مصر راغبين أم مكروهين؟

إن التوراة تزخر بالنصوص التي تدل على أن دعوة موسى عليه السلام، إنما كانت تهدف إلى إخراج بني إسرائيل من مصر، وإطلاق سراحهم من عبودية المصريين، يبدو هذا واضحاً خاصة من الإصحاحات العشرة الأولى من سفر الخروج (1)، و من ثم فالهدف من دعوة موسى، كما تصورها التوراة، إنما هو إخراج بني إسرائيل من مصر، و أن يقيهم شر العذاب المهين الذي كانوا يتعرضون له في أرض الكنانة.

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القول بأن موضوع رسالة موسى إنما كان إطلاق بني إسرائيل من عبودية فرعون و قومه، إنما هو أمر يقره القرآن الكريم في عدة سور، من ذلك قول الله تعالى: وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (2)، وقوله تعالى:

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ (3)، وقوله تعالى: فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (4)، و يقول صاحب الظلال: و واضح من هذا أن موسى عليه السلام لم يكن رسولا إلى فرعون و قومه ليدعوهم إلى دينه و يأخذهم بمنهج رسالته، إنما كان رسولا إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون، و قد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل، و هو يعقوب أبو يوسف

ص: 227

1- أنظر: خروج 7/3-11، 5-1/5، 10-13، 26-2/7-5، 14، 8-1/2، 20-32، 9-1/2، 13، 17، 28، 35، 10/3، 7-11، 20.

2- سورة الأعراف: آية 104-105.

3- سورة طه: آية 47.

4- سورة الشعراء: آية 16-17.

عليهما السلام، فهت هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم، فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد، ويقول في مكان آخر من تفسيره أن موضوع رسالتهم (أي موسى و هارون) فَأُرْسِلُ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبُهُمْ، ففي هذه الحدود كانت رسالتهم إلى فرعون، لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها إلى أن يفسدوا فيها فيدمروها (1).

ويقول أبو حيان في بحره المحيط في تفسير آية الأعراف (105) لم يطلب موسى من فرعون في هذه الآية إلا إرسال بني إسرائيل معه، وفي غيرها دعاه إلى الإقرار بتوحيد الله و ربوبيته، قال تعالى: قُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ، وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (2)، و كل بدعوته إلى توحيد الله، وقوله تعالى حكاية عن فرعون: فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِسِحْرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (3) فهذا و نظائره دليل على أنه طلب منه الإيمان، خلافا لمن قال إن موسى لم يدعه إلى الإيمان، و لا إلى التزام شرعه، و ليس بنو إسرائيل من قوم فرعون و لا من المصريين (القبط)، ألا ترى أن بقية المصريين، و هم الأكثر، لم يرجع إليهم موسى (4).

و عودا على بدء، عودا إلى التوراة، حيث نرى اتجاه النصوص يتغير عند ما يعلن فرعون موافقته على رغبة موسى بإطلاق الرجال من بني إسرائيل ليعبدوا للرب إلههم في البرية، غير أن موسى لا يرضى إلا أن يخرج

ص: 228

1- في ظلال القرآن 4/ 2337، 5/ 2590.

2- سورة النازعات: آية 18- 19.

3- سورة المؤمنین: آية 47.

4- تفسير البحر المحيط 4/ 356.

الإسرائيليون جميعاً، بل حتى الغنم والبقر، و هنا يرفض الفرعون، وإن كان لا يمضي طويل وقت حتى يوافق على خروج بني إسرائيل جميعاً، وإن استثنى من ذلك الأغنام والأبقار، غير أن موسى لا يقبل إلا بخروج أغنامهم وأبقارهم معهم، لأن بني إسرائيل، فيما ترى توراتهم، ما كانوا بقادرين على عبادة ربهم بدون مواشيهم (1)، ويصر الفرعون على رأيه، و هنا تبدأ التوراة لا تتحدث عن خروج بني إسرائيل من مصر، وإنما تتحدث عن طردهم (2)، كما تبدأ النصوص التوراتية تخطط لسرقة المصريين (3)، و عن البلايا التي نزلت بمصر مما اضطر فرعون إلى أن يوافق على خروج الإسرائيليين بأغنامهم وأبقارهم (4)، و هنا لا يتورع كتابة التوراة أن يدونوا في نصوصها أن مشروع سرقة المصريين الذي كان قد دبر لبيل، إنما قد تم تنفيذه الآن «و أعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، أمتعة فضة و أمتعة ذهب، فسلبوا المصريين (5)»، و أن هذا قد تم برضى من موسى و بأمر منه، و في الحقيقة أن الإساءة إلى الأنبياء الكرام من بني إسرائيل أنفسهم، أمر معروف في التوراة، و نظائره كثيرة.

و أيا ما كان الأمر، فإن نصوص التوراة تشير إلى أن الخروج إنما قد تم بأمر فرعون و موافقته، بل إنها تشير صراحة إلى أن بني إسرائيل قد أكرهوا على الخروج من مصر (6)، أو على الأقل، فإنهم لم يكونوا جميعاً راضين عن الخروج، إذ وافق عليه فريق، و أنكره آخرون، إلا أن الغلبة إنما كانت

ص: 229

1- خروج 9/10-11، 24-26، 11/1-2.

2- خروج 6/1.

3- خروج 1/11-3.

4- خروج 12/29-33.

5- خروج 12/34-36.

6- خروج 12/39.

للأولين على الآخرين، و من هنا فإن الله لم يهدمهم إلى أقرب الطرق إلى كنعان «لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر (1)»، بل إن هناك نصوصاً توراتية تقرر أن بني إسرائيل إنما كانوا يعارضون فكرة الخروج من مصر منذ أن عرضها عليهم موسى، بادئ ذي بدء، و أنهم حين خرجوا منها، سواء أكان ذلك بأمر فرعون أو بتحريض من موسى، فقد كانوا لذلك من الكارهين، و من هنا فقد كثرت ثوراتهم على موسى في سيناء، بل حتى و هم على أبواب كنعان، حيث نادوا بخلع موسى، و المناداة برئيس جديد يستطيع أن يعود بها إلى أرض الكنانة «أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر، فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً و نرجع إلى مصر (2)».

على أن آي الذكر الحكيم إنما تقرر أن الخروج من مصر، إنما كان بوحى من الله تعالى إلى موسى عليه السلام، قال تعالى: وَ لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَ لَا تَخْشَى (3)، و قال تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (4)، و قال تعالى: فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ، وَ اتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (5) و هذا كله يفيد أن الخروج إنما كان بأمر من الله لموسى عليه السلام، فلقد أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسري بعباده، و أن يرحل بهم ليلاً، بعد تدبير و تنظيم، و نبأه أن فرعون سيبعثهم بجنده، و أمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (6)، و بدهي أنه ليس بعد قول الله تعالى قول،

ص: 230

1- خروج 17/13 - 18.

2- خروج 11/14 - 12، عدد 3/14 - 4.

3- سورة طه: آية 77.

4- سورة الشعراء: آية 52.

5- سورة الدخان: آية 23 - 24.

6- في ظلال القرآن 5/ 2597.

و بالتالي فإن الخروج من مصر إنما تم بأمر الله تعالى، و ليس بأمر موسى أو فرعون.

[2] تاريخ الخروج:-

اختلف المؤرخون، القدامى منهم و المحدثون، في تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، و بالتالي في الاستقرار الذي تلاه في كنعان (فلسطين)، و من ثم فقد قدموا لنا نظريات مختلفة، يصل الفرق بين أقدمها و أحدثها إلى أربعة قرون، و من ثم فقد رأينا البعض يجعل من طرد الهكسوس من مصر (حوالي عام 1575 ق. م) تاريخا للخروج، بينما يتأخر آخرون إلى ما بعد عصر رعمسيس الثالث (1182-1151 ق. م)، و الفرق بينهما، كما رأينا، كبير، يصل إلى أربعة قرون، و في نفس الوقت، إنما يشير إلى الغموض الذي يرين على تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام.

و لعل صعوبة الوصول إلى رأي محدد بشأن تاريخ الخروج، إنما يرجع، في أكبر الظن، إلى أسباب ثلاثة، أولها: أن الآثار المصرية، و كذا الفلسطينية، لم تقدم لنا تاريخا محددًا عن هذا الحدث الخطير، و الذي أصبح له تأثير ضخم على التاريخ الديني، و ما برح حتى الآن يؤثر في نفسية اليهود، بل إنه هو الذي أثمر بصفة عامة ذاتيتهم الخاصة، و أما سبب عدم ذكر هذا الحادث في الآثار أو الوثائق المصرية، فيرجع، فيما نرى، إلى أمرين، أولهما: أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء و الرسل، صلوات و سلامة عليهم، في النصوص الإنسانية، و خاصة المصرية، ضعيف إلى درجة كبيرة، في ذلك لأن حقيقة الصراع بين القيم السماوية و البشرية، ربما كان سببا، و هو كذلك، في إغفال ذكرها، و هذه ظاهرة يلمسها المؤرخ في تاريخ الشرق الأدنى القديم بوجه عام، بالنسبة إلى تعمد عدم التعريف

بالمعارضين (1)، و ثانيهما: أن المصادر المصرية القديمة، و التي تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الأدنى القديم بوضوحها و كثرة آثارها و نصوصها، كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر المصرية بمعلومات كافية عن موسى عليه السلام، غير أن هذه المصادر، في غالبيتها، إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحى منهم، أو على الأقل برضى منهم، فإذا تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة مؤلها، كان من الطبيعي ألا يستسيغ الفكر المصري أن يهزم الملك المؤله أو الإله في حرب خاض غمارها، و لهذا فالنصر كاد أن يكون حليفه فيها، و قد تكون الحقيقة غير ذلك (2)، و من المعروف أن قصة موسى، كما جاءت في التوراة و القرآن العظيم، إنما انتهت بغرق الفرعون و جنوده في البحر، و نجاة موسى و من آمن معه بالواحد الأحد، و ليس من المقبول، طبقا للعقيدة الملكية الإلهية في مصر القديمة، أن تسجل النصوص غرق الفرعون الإله، و نجاة عبده العبرانيين، و من هنا كان من الصعب العثور على اسم موسى و قصة خروجه ببني إسرائيل من مصر، حتى الآن على الأقل، رغم ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر في العصور الفرعونية (3).

و أما ثاني الأسباب فإنما يرجع إلى الاضطراب الواضح بين نصوص التوراة، حتى استطاع العلماء أن يستخرجوا منها تاريخين مختلفين للخروج في وقتين مختلفين، يكاد الواحد منهما يبعد عن الآخر بأكثر من قرنين من الزمان، حيث اعتمد البعض على نص في سفر الملوك، توصلوا إلى أن الخروج إنما كان على أيام تحوتمس الثالث (1490-1436 ق. م) (4) بينما

ص: 232

1- رشيد الناضوري: الفكر الديني - بيروت 1969 ص 174.

2- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص 3.

3- محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/314-315.

4- ملول أول 1/6.

اعتمد آخرون على نص في سفر الخروج توصلوا منه إلى أن الخروج إنما كان على أيام رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م) (1).

وأما ثالث الأسباب، فيرجع إلى أن القرآن الكريم، وكذا التوراة، لم يذكر أي منهما اسم الفرعون الذي عاصر موسى عليه السلام وذلك على الرغم من أن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم قصتان مسهبتان في أجزائه لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارات الإنسانية، وهما أمة وادي النهرين وأمة وادي النيل، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة، جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم، ولعل السبب في عدم ذكر القرآن لاسم فرعون موسى، أن الاسم لا أهمية له في موضوع القرآن أو في صميم رسالته، فإنه كتاب هداية وإرشاد، ومن ثم فهو يكتفي من القصة والوقائع التاريخية الصحيحة بالقدر الذي يستخلص منه العبرة، ويقتضيه المقام، ومن ثم فهذه قصة موسى في القرآن، كهدف غيرها، ليس التاريخ لهما، وإنما عبرا تفرض الاستفادة بما حل بالسابقين.

وعلى أي حال، فإن أهم الآراء التي دارت حول تاريخ الخروج خمسة، أولها رأي يذهب أصحابه إلى أن الخروج إنما تم أثناء طرد الهكسوس من مصر على أيام أحمس الأول، حوالي عام 1575 ق. م، و ثانيهما أنه تم على أيام تحوتمس الثالث (1490-1436 ق. م) أو ولده أمنحتب الثاني (1436-1413 ق. م)، و ثالثها أنه تم في أعقاب أيام إخناتون (1367-1350 ق. م)، وربما في الفترة ما بين موت إخناتون وتولية حور محب العرش حوالي عام 1335 ق. م، و رابعها أنه تم على أيام رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م)، و خامسها أنه على أيام ولده «مرنبتاح» (1224-1214 ق. م)، فإذا كان هذا الرأي صحيحا، وهذا ما

ص: 233

نميل إليه ونرجحه، فإن الخروج لا بد وأن يكون في العام الأخير من حكم مرنبتاح، سواء أكان هذا العام العاشر من الحكم (حوالي عام 1214 ق. م) أو العام الثامن من الحكم (حوالي عام 1216 ق. م)، على خلاف في الرأي، وذلك لأن التوراة (1) و القرآن العظيم إنما يقولان إن الفرعون قد غرق في البحر، وإن أضاف القرآن الكريم أن جثة الفرعون قد انتشلت لتكون آية لمن خلفه (2)، على أن هناك آراء أخرى، ذهب أولها إلى أن الخروج تم على أيام «سيتي الثاني»، وذهب ثانيها إلى أنه كان في نهاية الأسرة التاسعة عشرة، وأما ثالث الآراء فقد تأخر به إلى ما بعد عهد رعمسيس الثالث، ثاني ملوك الأسرة العشرين، الأمر الذي سنناقشه بالتفصيل في الفصل الثالث (فرعون موسى) من هذا الباب الثاني.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوصول إلى تاريخ محدد، على وجه اليقين أو حتى على وجه التقريب، أمر في غاية الأهمية من الناحيتين التاريخية والدينية، فأما من الناحية التاريخية، فلعلنا نستطيع، عن طريق معرفتنا لتاريخ الخروج، أن نعرف وقت دخول بني إسرائيل فلسطين، وبالتالي بداية التاريخ الإسرائيلي، ذلك لأن تاريخ بني إسرائيل كشعب، لا يبدأ إلا بالخروج من مصر، وأما من الناحية الدينية، فإننا نستطيع أن نعرف بداية ظهور اليهودية، ذلك أننا إذا عرفنا فرعون مصر الذي خرج اليهود في عهده من مصر، فإننا نستطيع، اعتماداً على وضوح التاريخ المصري على أيام الفراعين، أن نحدد عصر موسى عليه السلام، ذلك العصر الذي يعتبر واحداً من أهم الأعصر في تاريخ البشرية الديني، لأنه العصر الذي ظهرت فيه أولى الديانات السماوية الثلاثة الكبرى المعاصرة، اليهودية والمسيحية والإسلام.

ص: 234

1- خروج 14/26-31، 15/1-5، الرسالة إلى العبرانيين 15/29.

2- سورة يونس: آية 90-92.

ولعل مما يزيد الأمر أهمية أننا نعرف البداية المؤكدة للمسيحية و الإسلام، عن طريق معرفتنا لتاريخ نبييهما الكريمين سيدنا عيسى و سيدنا
و مولانا محمد رسول الله، صلوات الله و سلامه عليهما، فأما المسيح عليه السلام، فقد ولد على أيام أول قياصرة روما «أوغسطس» (27 ق.
م-14 م)، و أيام «هرودوس الكبير» (37-4 ق.م) أو ولده «إرخيلاوس» (4 ق.م-6 م) حاكمي اليهودية من قبل الرومان، و على أيام
«الحارث الرابع» (9 ق.

م-40 م) ملك الأنباط، هذا و يذهب البعض إلى أن المسيح ولد ما بين عامي 6، 2 قبل الميلاد، بينما رأى آخرون أنه ولد عام 5 ق.م، أو
أوائل عام 4 ق.م، أما الاحتفال بمولده في 25 ديسمبر، فقد بدأ في القرن الرابع الميلادي، و من ثم فرما كان مولده في 25 ديسمبر عام 5
ق.م، و هذا يجعله سابقا للتاريخ الذي وضعه «ديونيسيوس» في 25 ديسمبر عام 1 م، بخمس سنوات، على أن هناك من يراه قد ولد في عام
4 م، و أنه رفع إلى السماء في عام 27 م، و ربما في 23 مارس عام 29 م، على أن هناك من يرى المسيح بدأ دعوته، و قد ناهز الثلاثين من
عمره في عهد الإمبراطور «تييريوس» (14-37 م) (1).

و أما المولد النبوي الشريف لمولانا و سيدنا وجدنا محمد رسول الله، صلى الله عليه و آله و سلم، فقد كان، طبقا للمصادر الإسلامية، في
عام الفيل (2).

ص: 235

1- قاموس الكتاب المقدس 684/2، ه. ج. ويلز: تاريخ العالم- القاهرة 1967 ص 172، 416، فيليب حتى: المرجع السابق 311/1-
312، 363، محمد بيومي مهران: إسرائيل 359/1، 1145/2، و كذا ehT, suhpesoJ و كذا، 6، 4، suhpesoJ، seitiuqtnA، VIX،
8، raWhsiweJ، I، IIIX، 8، 3، 5، VX.

2- تاريخ الطبري 155/2-157، ابن كثير: البداية و النهاية 259/1-363، سيرة ابن هشام 158/1-159، دلائل النبوة للبيهقي، عماد
الدين خليل: دراسة في السيرة ص 37، محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم 388/1-410 (الرياض 1980).

غير أن عام الفيل نفسه غير معروف على وجه التحديد (1)، و الأمر كذلك إلى من يروونه يتفق و موقعه «ذي قار» (2)، و من ثم فقد اعتمد العلماء على تاريخين محققين من السيرة النبوية الشريفة، لتحقيق المولد النبوي الشريف، وهما: تاريخ الهجرة في عام 622 م، و تاريخ الانتقال إلى الرفيق الأعلى في عام 632 م، و مع ذلك لم يصل العلماء، إلى نتائج مؤكدة.

و على أية حال، فإن «جوستاف لوبون» يرى أن مولد المصطفى صلى الله عليه و سلم إنما كان يوم 27 أغسطس عام 570 م، بينما يتأخر به «كوسان دي برسيفال» يومين، فيراه في 29 أغسطس 570 م، و أما محمود باشا الفلكي فقد حدد لمولد مولانا و سيدنا وجدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم 9 ربيع الأول، الموافق 20 أبريل عام 571 م، و يتفق معه في ذلك «سلفستر دي ساسي»، و الحق أن الإمام السهيلي (1114 - 1185 م) قد سبق كلا من الفلكي و سلفستر في تاريخهما للمولد النبوي الشريف بيوم 20 أبريل (نيسان)، على أن المترجمين لحياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم إنما يجمعون على أنه ولد يوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول من عام الفيل، و يذهب جمهور كبير من العلماء على أن هذا التاريخ يوافق العام الثالث و الخمسين قبل الهجرة، أي عام 571 م، و أما الانتقال إلى الرفيق الأعلى فقد كان يوم 12 أو 13 ربيع الأول عام 11 هـ، الموافق 7 أو 8 يونيو عام 632 م، بعد أن بلغ صلى الله عليه و سلم 63 عاما قمريا بالكامل، أي أكثر من واحد و ستين عاما شمسيا، بحوالي شهر و أكثر من نصف الشهر، روى البخاري و مسلم و الترمذي عن ابن عباس أنه قال: مكث النبي صلى الله عليه و سلم بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، و بالمدينة عشرا، و توفي و هو ابن ثلاث و ستين سنة (3).

ص: 236

- 1- تتراوح تقديرات العلماء فيما بين أعوام 552 م، 563 م، 570 م، 571 م.
- 2- أنظر: محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص 594-597.
- 3- محمود الفلكي: التقويم العربي قبل الإسلام ص 38، محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص 22، و انظر: صحيح البخاري 6/19، صحيح مسلم 15/99-104 (بيروت 1981) و كذا P, emsimalstI'L tnava sebarA, snenammaL .P, ed egA, I 283. P, temohaM ed melporP eL, erehcalB. R 15. P, sed erioticsiH'L rus iassE, lavecraP ed nissuC, dammahom 209.

التف بنو إسرائيل حول موسى عليه السلام في مصر، لا كنبى، وإنما كقائد يرجي على يديه الخلاص من استعباد المصريين، وبدأ موسى مسيرة الخروج، و معه بطانة من السحرة المصريين الذين آمنوا به و صدقوه، بل كما وصفهم القرآن الكريم **أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**، هذا فضلا عن الإسرائيليين و من لاذ بهم ممن آمنوا بموسى و دعوته، و كانت بداية المسيرة من مدينة «بي رعمسيس» مقر الفرعون و عاصمة الإمبراطورية المصرية وقت ذاك، و التي قام جدل طويل بين العلماء حول موقفها، و إذا كان صحيحا ما ذهبنا إليه من دراسات سابقة لنا، فإنها تقع مكان قرية «قنتير»، على مبعدة 19 كيلا إلى الجنوب من صان الحجر، و على مبعدة 9 كيلا إلى الشمال الشرقي من فاقوس شرقية (1).

و على أية حال، فلقد ارتحل بنو إسرائيل من «بي رعمسيس».

(رعمسيس في التوراة) إلى سكوت (2)، و كان عددهم، فيما تروي التوراة،

ص: 237

- 1- محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث- الإسكندرية 1969 ص 46-62، إسرائيل 1/ 439-443.
- 2- سكوت: مكان غير معروف الآن بالضبط، و لكنها تقع في الإقليم الثامن من أقاليم الدلتا، و كان يسمى «واع إيب» أو «نفر إيب» و يقع في نهاية الدلتا الشرقية بين وادي طميلات و البحر الأحمر، و يذهب البعض إلى أن سكوت هي تل المسخوطة على مبعدة 15 كيلا شرقي الإسماعيلية و من يرى أنها «بيثوم» (فيثوم) (بر أتوم) و هي تل سليمان على مبعدة 3 كيلا من غربة أبو سعيد، قريبا من القصاصين، و على مبعدة 13 كيلا- غربي تل المسخوطة، أو هي التل الكبير على مبعدة 49 كيلا غربي الإسماعيلية، و من يرى أنها «ثكو» عند المصريين القدامى على مبعدة 10 كيلا- من قنتير، و إن رأى فريق رابع أن ذلك أمرا يحتمل الكثير من الشك، (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 172-173).

نحو ستمائة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد (1)، وقد تابع بعض المؤرخين و المفسرين (2) التوراة في ذكر تلك الأرقام، التي أثارت جدلا بين العلماء حول صحتها، ذلك لأن رقم (600 ألف) إنما يصل بيت يعقوب، و الذين كانوا سبعين نفسا يوم دخلوا مصر على أيام يوسف (3) منذ 215 عاما، طبقا للترجمة السبعينية (4) للتوراة، أو ضعف هذا الرقم طبقا لرواية التوراة العبرية، يصل بهم الآن، و عند الخروج من مصر، إلى ما يزيد عن المليونين، وربما الثلاثة، تقول التوراة: كان من بينهم «نحو ست مائة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، فكان جميع الأبقار الذكور، من ابن شهر فصاعد، اثنين وعشرين ألفا و مائتين و ثلاثة و سبعون (5)»، فإذا ضاعفنا هذا الرقم كان الأبقار من الجنسين قرابة 45 ألفا.

و من ثم فقد رفض كثير من العلماء هذه الأرقام، و إن قبلها آخرون، بينما حاول فريق ثالث إيجاد تفسير آخر لهذه الأرقام و من ثم فقد ذهب «فلند

ص: 238

1- خروج 37/12.

2- أنظر: تاريخ الطبري 404/1، تاريخ ابن خلدون 94/1، الكامل لابن الأثير 106/1، البداية و النهاية لابن كثير 270/1، تاريخ اليعقوبي 36/1، مروج الذهب للمسعودي 61/1، تفسير روح المعاني 270/1، تفسير الدر المنثور 84/5، تفسير أبي السعود 244/6، ثم قارن ذلك بما جاء في تفسير النسفي (60/3) حيث جعل بني إسرائيل سبعين ألفا فقط، و أن فرعون ركب إليهم في ستمائة ألف، هذا و قد جاء في تفسير السيوطي (85/5): روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: كان أصحاب موسى الذين جاوزوا البحر اثني عشر سبطا، فكان في كل طريق اثني عشر ألفا، كلهم ولد يعقوب عليه السلام.

3- تكوين 26/46-27.

4- أنظر عن الترجمة السبعينية للتوراة: محمد بيومي مهران: إسرائيل 107/3-112.

5- خروج 32/12، عدد 43/43، و انظر: عصام الدين حفني ناصف: محنة التوراة على أيدي اليهود- القاهرة 1965 ص 35.

رزبيري» إلى القول بأن الألف إنما تعني الأسرة و الجماعة أو العشيرة أو الخيمة، و على ذلك فإن 400 و 54 مثلا لا تعني إن هناك 54400 شخصا، و إنما تعني (54) عشيرة، عدتها (400) فردا، ثم يفترض «بيري» بعد ذلك أن الخيمة الواحدة كانت تضم في المتوسط تسعة أفراد، هم الجددين و الوالدين و ثلاثة أطفال، فضلا عن اثنين من الرعاة أو التابعين من الجمهور المختلط الذي صعد معهم، و هذا على اختلاف بين القبائل، فالقبيلة الفقيرة كانت تضم خيامها خمسة أفراد و ثلاثة أطفال، بينما تضم القبيلة الغنية أطفالا أكثر، ثم يقترح «بيري» بعد ذلك أن المجموع الكلي كان 5550 (خمسة آلاف و خمسمائة و خمسون شخصا) و بهذا يمكن لموسى عليه السلام أن يحكم في كل الخصومات التي تشب بين حوالي ستمائة خيمة أو مجموعة، لأن الفصل بين ستمائة ألف رجل جد محال (1).

هذا فضلا عن أن هناك قابلتين، هما شفرة و فوعة (2)، كانتا تقومان بمساعدة نساء بني إسرائيل في مصر أثناء الوضع، و ربما كان مقر الواحدة منهما في مدينة «بي رعسيس»، و الأخرى «فيثوم» (بر أتوم)، و هو أمر مقبول بالنسبة لمجموعة تعدادها ستة آلاف، و مواليدها بمعدل مولود كل أسبوع (3)، أضف إلى ذلك أننا لو أخذنا الرقم الأكبر، و هو ستمائة ألف، فهذا يعني 140 مولودا في كل يوم، و هو أمر جد محال بالنسبة لأية قابلة (4)، هذا فضلا عن أننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبقار لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية كانت تلد زهاء 65 وليدا، و هذا أمر لا يستقيم مع المنطق، فضلا عما تعرضوا له من ذل و عسف تحت رؤساء التسخير، و لا مع ما روى من عبورهم البحر في

ص: 239

1- , 1925 , 42- 44 . P. F. M. W 44- 42. p. 1925 , -1 .nodnoL, learsI dna tpygE, cirteP.

2- خروج 15/1.

3- . 44- 44 . P. F. M. W 46- 44 . p, tic- po, eirteP.

4- نجيب ميخائيل: مصر و الشرق الأدنى القديم 3/ 388.

سويغات قصار، و من ثم فإن علماء اللاهوت و المؤرخين سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلقون على هذه الأرقام التي ذكرتها التوراة أية أهمية، و يعتبرونها محض خيال إسرائيلي (1).

و على أية حال، فإن التوراة تروي أن الرب كان يعلم ما في الإسرائيليين «من صغر النفس و من العبودية القاسية»، و أنهم لم يصبحوا بعد أكفاء لدفع ثمن الحرية، أو حتى جادين في الخروج من مصر، حرصا منهم على حياة، و تقاعسا عن جهاد، و خوفا من موت، و من ثم فإنه لم يهدمهم إلى أقرب الطرق إلى كنعان، مع أنها قريبة، «لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا و يرجعوا إلى مصر، فأدار الله الشعب في طريق بحر سوف (2)»، و ربما كان السبب أن لا يمروا بجوار الحصون المصرية التي كانت تحمي البلاد من غارات البدو، و بخاصة عند «ثارو» (و هي تل أبو صيفة الحالي في مجاورات القنطرة شرق) و قد علمنا من نص موظف الحدود، و يرجع إلى العام الثامن من عهد مرنبتاح، كيف كانت سلطات الأمن تسيطر سيطرة كاملة على حركات الناس و البدو في تلك البقاع من تخوم مصر الشرقية (3).

و هكذا ارتحل بنو إسرائيل من سكوت، و نزلوا في «إيثام» في طريق البرية، ثم كلم الرب موسى قائلا «كلم بني إسرائيل أن يرجعوا، و ينزلوا أمام فم الحيروث، بين مجدل و البحر، أمام بعل صفون، مقابله تنزلون عند البحر (4)».

ص: 240

1- عصام الدين حفني ناصف: المرجع السابق ص 35، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 73، و كذا، I, HAC ni, learsI, II, fo esiR ehT, kooC. A. S 358. p, 1931.

2- خروج 17/13-18.

3- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/415-416، و كذا، G. H. A, renidraE, J naitpyG, B. H. J, ERA, detsaer, P, TENA, nosliW. J 259- 258 و كذا، III 638- 636, oN, rammarG 77- 76. p. 1966.

4- خروج 13/20، 14/1-2.

علم فرعون أن بني إسرائيل قد فروا بليل، وأنهم قد أخذوا معهم (1) ما

ص: 241

1- جاء في التوراة في ختام قصة يوسف عليه السلام أنه أوصى عند موته أن يحمل بنو إسرائيل عظامه معهم حين يخرجهم الرب من مصر إلى الأرض التي وعدهم بها (تكوين 24/50-26) وأخرج أبو يعلي والحاكم بسنده عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أَعْجَزَ تَمَّ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ: إِنْ مُوسَى لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَقَالَ مَا هَذَا؟ فَقَالَ عِلْمَاؤُهُمْ نَحْنُ نَحْدُثُكَ، إِنْ يُوسُفَ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ عِلْمَ مَوْضِعِ قَبْرِهِ، قَالُوا: مَا نَدْرِي أَيْنَ قَبْرِ يُوسُفَ إِلَّا عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَبَعَثْنَا إِلَيْهَا فَأَتَتْهُ، فَقَالَ: دَلُونِي عَلَى قَبْرِ يُوسُفَ، قَالَتْ:، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ حَتَّى تَعْطِينِي حَكْمِي، قَالَ: وَ مَا حَكْمُكَ، قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَكِرَهُ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهَا حَكْمَهَا، فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بَحِيرَةٍ مَوْضِعِ مَسْتَقْعِ مَاءٍ، فَقَالَتْ: انْضُبُوا هَذَا الْمَاءَ فَانْضُبُوا، قَالَتْ: احْفَرُوا وَ اسْتَخْرِجُوا يُوسُفَ، فَلَمَّا أَقْلَبُوا إِلَى الْأَرْضِ إِذَا الطَّرِيقُ مِثْلَ ضَوْءِ النَّهَارِ» (محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة بيروت 1403 هـ، حديث رقم 313). وَ تَذَهَبُ رِوَايَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ اللَّهَ حِينَ أَمَرَ مُوسَى بِالْمَسِيرِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَمَرَهُ أَنْ يَحْتَمِلَ يُوسُفَ مَعَهُ حَتَّى يَضَعَهُ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَسَأَلَ مُوسَى عَمَّنْ يَعْرِفُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ، فَمَا وَجَدَ، إِلَّا عَجُوزًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَتْ: يَا بَنِي اللَّهِ: أَنَا أَعْرِفُ مَكَانَهُ، إِنْ أَنْتَ أَخْرَجْتَنِي مَعَكَ وَ لَمْ تَخْلُفْنِي بِأَرْضِ مِصْرَ دَلَلْتُكَ عَلَيْهِ، (وَ أَضَافَتْ رِوَايَةُ الْخَازِنِ: أَلَّا يَنْزِلَ مُوسَى غُرْفَةً مِنْ غُرْفِ الْجَنَّةِ إِلَّا نَزَلَتْهَا مَعَكَ، فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، بَعْدَ أَنْ سَأَلَ رَبَّهُ، فَقَالَتْ: هُوَ فِي (النَّيْلِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ) فَخَرَجَتْ بِهِ الْعَجُوزُ حَتَّى أَرَتْهُ إِيَّاهُ فِي نَاحِيَةِ مِنَ النَّيْلِ فِي الْمَاءِ، فَاسْتَخْرَجَهُ مُوسَى صَنْدُوقًا مِنْ مَرْمَرٍ، فَاحْتَمَلَهُ مَعَهُ، قَالَ عُرْوَةُ: فَمَنْ ذَلِكَ تَحْمِلُ الْيَهُودُ مَوْتَاهَا مِنْ كُلِّ أَرْضٍ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ (تاريخ الطبري 419/1، الكامل لابن الأثير 105/1، تفسير الخازن 57/1-58، تاريخ يعقوبي 35/1).

أعاره المصريون لهم من الأمتعة والذهب والفضة (1) وطبقا لرواية التوراة، فلقد تغير قلب فرعون و ملئه على بني إسرائيل، «وقالوا: ما ذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا (2)»، وهنا لم يجد الفرعون مناصا من أن يلحق بالفارين حتى يعيد ما سرقوه، إن لم يرددهم إلى ما كانوا عليه من ذل العبودية، أو يفتك بهم ويستأصل شأفتهم من البلاد، و من ثم فقد أمر بما يسمى في عصرنا الحاضر «التعبئة العامة»، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون الجند، وإن كان هذا الجمع، كما يقول صاحب الظلال، قد يشي بانزعاج فرعون، و بقوة موسى و من معه و عظيم خطرهم، حتى ليحتاج الملك بزعمه، إلى التعبئة العامة، و لا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين إنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَ إِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِطُونَ، وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ، مستيقظون لمكاندهم محتاطون لأمرهم، ممسكون بزمام الأمور، قال الزمخشري: و هذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لئلا يظن به ما يكسر من قهره و سلطانه (3).

و تقول التوراة: و شدد الرب قلب فرعون حتى سعى وراء بني إسرائيل، و أدركتهم جميع خيل مركبات فرعون و فرسانه و جيشه، و هم نازلون عند البحر، و رأى بنو إسرائيل الخطر الزاحف من خلفهم، و هو يقترب منهم، فتملكهم الذعر و الخوف، و أيقنوا أنهم هالكون، و صاحوا

ص: 242

1- خروج 35/12-36، و انظر: تاريخ الطبري 1/413-414، تفسير الخازن 1/57، الدر المنثور 5/84، ابن الأثير 1/106.

2- خروج 5/14.

3- سورة الشعراء: آية 52-56، في ظلال القرآن 5/2597-2598، تفسير الكشاف 3/248.

بموسى «ما ذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر، قائلين: كف عنا فنخدم المصريين، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية» (1)، و يصبح موسى عليه السلام في مأزق حرج، فقد كانت بحيرة البوص على يمينه، و حصن مجدل، بما فيه من حامية، أمامه، سادا الطريق من جهة الشمال، و على يساره مستنقعات فرع النيل البيلوذي، و خلفه الفرعون و قواته الضاربة، و هكذا وقف موسى و قومه أمام البحر، ليس معهم سفن، و لا هم يملكون خوضه، و ما هم بمسلحين، و قد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم و لا يرحمون، و قالت دلائل الحال كلها: أن لا مفر و البحر أمامهم، و العدو خلفهم (2)، و هنا صاح بنو إسرائيل: «إنا لمدركون»، و قالوا يا موسى: أودينا من قبل أن تأتينا، كانوا يذبحون أبناءنا و يستحيون نساءنا، و من بعد ما جئتنا اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، إنا لمدركون البحر من بين أيدينا، و فرعون من خلفنا، و في).

ص: 243

1- خروج 8/14-12.

2- في ظلال القرآن 2598/5، محمد بيومي مهران: إسرائيل 450/1. تذهب روايات المفسرين و المؤرخين إلى كثير من المبالغة، بل الخيال، في تقدير أعداد جيش فرعون، فتذهب رواية إلى أن فرعون تبع بني إسرائيل في ألف ألف (مليون) و قيل في ألف ألف و سبعمائة ألف حصان (مليون و سبعمائة ألف) و تذهب أخرى إلى أنهم مليون و ستمائة ألف، و تذهب رواية ثالثة إلى أنهم مليون و مائة ألف، و تذهب رابعة إلى أنهم مليون و خمسمائة ملك، مع كل ملك ألف، و خرج فرعون في جمع عظيم، و كانت مقدمته سبعمائة ألف فارس، و تذهب رواية خامسة إلى أن فرعون كان في سبعة آلاف (7 مليون) و كان بين يديه مائة ألف ألف ناشب، و مائة ألف ألف حراب، و مائة ألف ألف معهم الأعمدة، و بدهي أن سكان مصر جميعا وقت ذاك، ربما لم يبلغوا هذا العدد، ثم إننا حتى لو صدقنا مبالغات التوراة و من تابعها من المفسرين عن أعداد بني إسرائيل وقت الخروج، فإن عددهم (ستمائة ألف غير الأولاد و الشيوخ) لا يتطلب بحال من الأحوال هذه الملايين من جنود مصر، لمطاردتهم، ثم كيف تمكن فرعون من جمع هذه الملايين من الرجال و الخيل من كل أنحاء مصر، حين علم فجأة بخروج بني إسرائيل، و راءهم مطاردا، و ربما كان أقرب إلى الصواب ما قاله الإمام النسفي «فخرج موسى ببني إسرائيل من أول الليل، و كانوا سبعين ألفا، و قد استعاروا حليهم، فركب فرعون في ستمائة ألف من القبط فقص أثرهم (تفسير الطبري 275/1-279، تفسير الخازن 58/1، الدر المنثور 84/5، تفسير أبي السعود 244/6، تفسير النسفي 60/3، تفسير البغوي 58/1، تاريخ الطبري 414/1-415، ابن كثير: البداية و النهاية 270/1، تاريخ يعقوبي 36/1، ثم قارن خروج 5/14-9).

رواية قالوا يا موسى: أين ما وعدتنا، فكيف نصنع، هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا، و البحر أمامنا إن دخلناه غرقنا (1).

وهكذا سدت السبل أمام بني إسرائيل، ولم يجد موسى عليه السلام من وسيلة لإقناذهم سوى طلب العون والرحمة من الله، ومن ثم فهو يصبح في وجوه الخائفين الفرعين من أتباعه «إن معي ربي سيهدين»، قال الرازي:

قوى نفوسهم بأمرين أحدهما أن ربه معه، وهذا دلالة النصر والتكفل بالمعونة، والثاني قوله «سيهدين» أي إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دل على طريق نجاته و هلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصر، و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال:

يا من كان قبل كل شيء، و الكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجا، فأوحى الله أن اضرب بعصاك البحر (2)، و هنا تحدث المعجزة الكبرى، إذ أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فأنفلق فكان كل فرقة كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى و من معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين (3).

و لعل سؤال البداهة الآن: أين و متى و كيف تم انغلاق البحر لموسى عليه السلام؟

ص: 244

1- تاريخ الطبري 415/1، تفسير الخازن 58/1.

2- تفسير الفخر الرازي 138/24 نختصر تفسير ابن كثير 648/2.

3- سورة الشعراء: آية 63-67.

قام جدل طويل بين العلماء حول تحديد هذا البحر الذي انغلق لموسى عليه السلام، فهو البحر الأحمر، في رأي التوراة، و هو بحيرة المنزلة أو جزء منها، في رأي آخر، و هو المنطقة التي كان يطلق عليها في العصور الهلينستية و الرومانية «بحر سربونين» (aeS nainobriS) أي «سبخة البردويل» في رأي ثالث، أو هو النهاية الشمالية لخليج السويس، في رأي رابع، أو إحدى البحيرات المرة، دونما تحديد لواحدة منها بالذات، في رأي خامس، أو حتى خليج السويس، في رأي سادس (1).

و هو عند المفسرين و المؤرخين المسلمين بحر القلزم (بحر السويس - أي البحر الأحمر و خليج السويس) أو هو عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات، أو هو النيل (أي أحد فروع النيل في الدلتا الشرقية) أو هو بحر «إساف أو ساف» من وراء مصر، فلقد أخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عن قتادة في تفسير قوله تعالى: فَتَبَدُّنَاهُمْ فِي الْيَمِّ قَالَ: في البحر، بحر يقال له ساف من وراء مصر، أغرقهم الله فيه، بل إن هناك رواية عن ابن عباس جاءت في تفسير الفخر الرازي تذهب إلى أن موسى لما انتهى إلى البحر مع بني إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا، إلا يوشع بن نون، فإنه ضرب دابته و خاض في البحر حتى عبر ثم رجع، فأبوا أن يخوضوا، و ربما كان هذا يشير إلى بعض البحيرات و ربما إلى بحيرة المنزلة بالذات (2).

على أن الحماس لإثبات أن البحر الذي انغلق هو البحر الأحمر،

ص: 245

1- , 1975 , 323. p. egdirbmaC ehT 323. p. 1975 , -1. egdirbmaC, 2. traP, III, yrotsiH tneicnA egdirbmaC

2- تفسير الفخر الرازي 139/24، تفسير روح المعاني 1/255، تفسير النسفي 3/185، تفسير الخازن 1/58، تفسير الدر المنثور 5/129، تفسير البيضاوي 4/67، تفسير أبي السعود 4/377، صفوة التفاسير 1/468، تاريخ ابن خلدون 1/94.

وصل بالبعض إلى أن يتعسفوا له الحلول، وأن يتكلفوا النظريات و من هنا قامت نظرية تنادي بأن فرعون قد غرق في البحر الأحمر، مع خلاف على المكان الذي وقع فيه هذا الحادث العظيم، فهناك ما كان يفكر فيه الحجاج المسيحيون القدامى، وهو الطريق الشمالي لخليج السويس، قرب مدينة السويس الحالية (1)، وهناك من يرون أن البحر الأحمر كان يمتد إلى الشمال بعد خليج السويس الحالي، و من هؤلاء علماء الحملة الفرنسية (1798- 1801 م) الذين افترضوا أن خليج السويس كان في العصور اليونانية يمتد شمالا حتى بحيرة التمساح الحالية، ثم جاء «لينان دي بلفون» وقام بدراسة برزح السويس، والمنطقة التي تليها حتى البحر المتوسط في الفترة ما بين عامي 1821، 1840 م، وذهب إلى أن تربة البحيرات المرة قبل أن تملؤها المياه قبل حفر قناة السويس، كانت بها أصداف ونباتات لها مثل على ساحل البحر الأحمر، و من ثم فقد رأى أن مياه البحر الأحمر كانت تغطي هذه الأماكن في فترة غير بعيدة جدا، لا تمتد إلى أبعد من العصور التاريخية (2)، بل وزاد البعض فذهب إلى أن خليج السويس ربما كان في الألف الثانية قبل الميلاد (حيث تم الخروج في أحياته) ما يزال على اتصال بالبحيرات المرة، بل و مع بحيرة التمساح كذلك، هذا فضلا عن أن بحيرة البلاح إنما كانت على اتصال بالبحر المتوسط، و من ثم فقد كان هناك برزخ ضيق نسبيا بين بحيرة التمساح و بحيرة الملاح، لعل الحادث العظيم كان قد وقع فيه (3).

ويتشكك كثير من العلماء، و منهم جادر نر و كوتمان، فيما قدمناه آنفا،

ص: 246

1- قاموس الكتاب المقدس 1/164، و كذا، 1965، p. 116. M nitraM htoN eht, I fo yrotsiH leartsI, L.nodno.

2- , 10, 1924, p. 36-48. E ni, ellivoN. AEJ.

3- .P, tic- Po, htoN. M 116 .

لعدم وجود أدلة تدعم هذا الرأي (1)، بل إن «مارتن نوث» إنما يذهب إلى أنه ليس هناك شيء مؤكد بالنسبة لهذا الأمر، سوى أن هذا الحادث قد وقع على حدود الدلتا الشرقية، و من المستحيل التحقق من مكان الحادث العظيم بدقة أكثر من ذلك، حتى لو كانت لدينا معلومات صحيحة عن امتداد فروع البحر و البحيرات في منطقة قناة السويس الحالية في الفترة التي وقع فيها هذا الحادث (2).

على أن هناك من يرى أن مكان انغلاق البحر إنما كان إلى الجنوب من مدينة السويس، و من هذا الفريق «روبرتسون» الذي خفض مستوى البحر الأحمر بما يتراوح ما بين خمسة عشرة عقدة، و عشرين عقدة، ليجعل عبوره من قبالة الطور ممكنا، و بذلك يقدم للناس اتساعا معقولا، بين سلسلة الجبال المعروفة باسم جلال الشمالية و الجنوبية (3)، و ربما قريب من هذا ما يراه البعض من أن هناك مكانا في خليج السويس يدعى «بركة قارون» يقولون: إن العبور كان بها، و هي بعيدة عن السويس كثيرا، بينما هناك من يرى أن بني إسرائيل قد عبروا في مكان ما، شمالي المكان المعروف باسم «عيون موسى» في البر الأسيوي، و هو لا يبعد كثيرا عن مدينة السويس (4).

هذا و يرى فريق من العلماء في نص التوراة «كلم بني إسرائيل أن يرجعوا و ينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل و البحر، أمام بعل صفون، مقابلة تنزلون عند البحر» (5)، بعض الإشارات الموجزة، و التي تعتبر واضحة

ص: 247

1- .P, tic- po, ellivoN. E 36 .

2- .P, tic- po, htoN. M 115 .

3- سليم حسن: مصر القديمة 7 / 128 .

4- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 203 .

5- خروج 2 / 14 .

بما يكفي للقول بأنها تخص منطقة كان يطلق عليها في العصور الهلينستية والرومانية «بحر سربونين» (أي سبخة البردويل الحالية)، ولكن رغم أن الإشارة دقيقة، فإنها موجودة فقط في النص الكهنوتي (1)، وربما كانت تصور مجهودا متأخرا، لوضع الحادث العظيم والحاسم في مكان يتفق والوضع التقليدي للأحداث التاريخية، ذلك لأن أقدم رواية في «البناتوك» (2) تبدو وكأنها على غير دارية بمثل هذا المكان المحدد بدقة، والذي لم نتوصل إليه حتى الآن، وإن أشير فقط، وبغموض، إلى مكان «على البحر» (3).

هذا ويذهب فريق من الباحثين إلى أن المراد بالبحر هنا «بحيرة المنزلة أو جزء منها»، على أساس أن ترجمة «يم سوف» بالبحر الأحمر، ترجمة خاطئة، والصحيح «بحيرة البوص أو القصب»، ذلك لأن كلمة «يم» ما تزال تعيش في لغتنا العربية، ونفهم أن من معناه «الماء»، و أما قديما فكانت تطلق على فروع النيل، وأما كلمة «سوف» فهي كلمة دخلت في اللغة العبرية من اللغة المصرية القديمة، وتعني «البوص» وهو نبات يكثر وجوده في المياه الضحضاحة عند مصبات الترع والمصارف العامة، وفي بحيرة المنزلة، قبالة «قنتير» (وهو مدينة بي رعمسيس التي بدأ منها الخروج) بصفة خاصة، ولما كان هذا النبات الذي تمتد فروعه كالسيوف ينمو بكثرة، وبارتفاع عظيم، في هذه الجهة، وكانت بلاد مصر، ولا سيما العاصمة «بي رعمسيس» (قنتير) تأخذ منه حاجتها، وكانت كلمة «البردي» التي أطلقت عليه من بعد لم تعرف وقت ذلك، لأنها لم تظهر في اللغة المصرية القديمة، إلا في عهد الدولة

ص: 248

1- أنظر عن: النص الكهنوتي وغيره من مصادر التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الثالث - الإسكندرية 1979 ص 97-106).

2- أنظر عن «البناتوك» (محمد بيومي مهران: إسرائيل 32/3، 136).

3- .P, tic- po, htoN. M 116- 115 . و كذا 2، 1975، p. 323. traP, III, HAC

الحديثة، فقد عرفت مصر القديمة هذه البحيرة باسم «يم سوف» (1) وليس هناك من ريب في أن النصوص المصرية مليئة بالإشارات إلى مستنقعات القصب في مجاورات «صوعن» (تانيس) أو مستنقعات البردي في شرق الدلتا، وهكذا يتضح لنا أن المعنى من كلمة «سوف» التي جاءت في الأصل العربي، و ترجمت في التوراة إلى «بحر سوف» فإن معناها العبري هو «بحر القصب»، و الذي ترجم خطأ إلى «البحر الأحمر»، و هو لا يعني شيئاً سوى «بحيرة المنزلة» إن لم يكن جزء منها، بخاصة و أن مدينة «بي رعمسيس» هي «قنتير» الحالية، و ليست «تانيس»، كما يعتقد بعض الأثريين من قبل (2).

هذا فضلاً عن أن «اليم» في اللغة العربية «البحر أو النهر»، و هو كذلك في اللغة المصرية القديمة، إذ «اليم» لفظة سامية عرفت في اللغة المصرية القديمة منذ الأسرة الثامنة عشرة، حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد، و كان المصريون يطلقون على البحر و النهر، و ما اتسع من لج الماء لفظة «أليم»، و منه جاء اسم منخفض الفيوم بعد إضافة «فاء التعريف» في المصرية إليه (و كانت في الدولة القديمة تدعى تاحت إن مرور)، على أن الذي يستوقف النظر هنا أن اللفظ ورد في القرآن الكريم ثماني مرات (3)، لم يذكر في أحد ما غير ما يخص مصر، ليس غير، حيث ذكر بمفهوم النيل ثلاثاً، و أطلق على البحر الذي غرق فيه فرعون أربعاً، و الثامنة بشأن عجل السامري، فكأنما يشير القرآن الكريم إلى موضع معلوم، كما يدعوه أهله

ص: 249

1- سليم حسن: المرجع السابق ص 129، ألكار السقاف: إسرائيل و عقيدة الأرض الموعودة- القاهرة 1967 ص 196.
2- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص 46- 62، و كذا. p, II, tpygE fo retpecS ehT, و كذا. W seyaH. و كذا، 11، 1952، 30. L, EASA, ihcabaH. L 559- 433. p، 1930، 30. L, EASA, azmaH. M 68- 31. p. و كذا 256.

3- سورة الأعراف: آية 136، طه: آية 39، 39، 78، 97، القصص: آية 7، 40، الذاريات: آية 40.

باسمه المعلوم (1)، هذا ورغم أن كثيرا من المفسرين يرون أنه بحر القلزم، يعنون بذلك البحر الأحمر، غير أن طائفة منهم ترى أنه النيل، و لعلهم يعنون أحد فروع النيل، ويرون أن العرب كانت تسمي الماء والملح والعذب بحرا، إذا كثر، هذا إلى أن فريقا ثالثا ذهب إلى أنه بحر ساف (بحر سوف)، بل إن الإمام الفخر الرازي روى عن ابن عباس أن يوشع بن نون ضرب دابته و خاض في البحر حتى عبر ثم رجع (2)، كما رأينا من قبل، و بدهي أن يوشع لا يمكنه أن يخوض البحر الأحمر بدابته، و من ثم فربما هذه الرواية قد تشير إلى مكان آخر، غير البحر الأحمر، وربما كانت بحيرة المنزلة.

هذه هي الآراء المختلفة التي دارت حول مكان انغلاق البحر لموسى عليه السلام، و كل منها له مؤيدوه و معارضوه، و من ثم فإنني لا أستطيع أن أجزم بمكان بعينه انغلاق فيه البحر لموسى، ما دمنا لا نملك نصا صريحا واضحا، و كل ما قدمناه إنما هو اجتهادات، و فوق كل ذي علم عليم، و الله وحده يعلم الغيب من الأمر، و هو وحده العليم بكل شيء ء.

[2] تاريخ انغلاق البحر:-

في الواقع أن تاريخ انغلاق البحر لموسى عليه السلام، إنما يتصل بتاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، و غرق فرعون و جنده، و نجاة موسى و من معه، و هذا ما سوف نناقشه بالتفصيل عند حديثنا عن «فرعون مصر»، و هو موضوع الفصل الثالث من هذا الباب، و يكفي أن نشير الآن إلى أننا نرجح أن فرعون موسى إنما هو «مرنبتاح» (1224-1214 ق. م)، على أن يكون تاريخ الخروج و غرق الفرعون في العام الأخير من حكمه، ذلك لأن

ص: 250

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 87.

2- تفسير الفخر الرازي 4/139، تفسير روح المعاني 1/255، تفسير النسفي 3/185، و انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/446-449.

التوراة والإنجيل و القرآن العظيم إنما تجمع كلها على أن الفرعون قد غرق في البحر عند ما أراد اللحاق ببني إسرائيل (1).

و القرآن العظيم لا يحدد زمنا بعينه للحادث الجلل، ذلك لأن التحديد التاريخي، كما هو معروف، ليس هدفا من أهداف القصة القرآنية و لا تزيد في دلالتها شيئا، و أما الحديث النبوي الشريف، فليس فيه، على قدر ما أعلم، سوى أن الحادث الجليل إنما كان يوم عاشوراء، فلقد روى البخاري و مسلم و النسائي و البيهقي عن ابن عباس قال: قدم النبي صلى الله عليه و سلم المدينة، و اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذي تصومونه، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي صلى الله عليه و سلم لأصحابه: و أنتم أحق بموسى منهم فصوموه» و أخرج أبو يعلي و ابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: فلق البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء»، و أخرج الإمام أحمد و البخاري و مسلم و النسائي و ابن ماجه، من طرق، عن ابن عباس أنه قال: قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذي تصومون، قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز و جل فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم «أنا أحق بموسى منكم، فصامه رسول الله صلى الله عليه و سلم و أمر بصومه» (2).

و أما التوراة فلا تذكر إلا أن الخروج حدث في شهر أبيب (3)، و هو

ص: 251

1- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 413-436.

2- تفسير الدر المنثور 1/ 69، تفسير النسفي 2/ 73، تفسير الخازن 1/ 59، تفسير ابن كثير 1/ 138، 2/ 667-668، صحيح البخاري 3/ 56، 57، 6/ 91، صحيح مسلم 8/ 9-10، مسند أحمد 1/ 292، 310، مجمع الزوائد 3/ 188، المطالب العالمية ص 3467، تفسير القرطبي ص 333.

3- خروج 4/ 13.

الشهر قبل الأخير من شهور السنة المصرية القديمة، (المعروفة خطأ بالشهور القبطية)، و ليس العبرية، غير أن اليهود إنما يحتفلون بخروجهم من مصر في عيدهم الأكبر، في الشهر الأول من السنة العبرية، شهر أيب (نيسان- أبريل)، و يبدو أن الطريقة القديمة للتقويم العبري تجعل بدء السنة في الربيع، وربما كان بدء التأريخ هو قصة خروج بني إسرائيل من مصر، في الفترة التي يقع فيها عيدهم الأكبر «عيد الفصح» حيث يتم الاحتفال به بين العشاءين (أي بين المغرب و العتمة) في ليلة الرابع عشر من أبريل (1).

[3] معجزة انغلاق البحر:-

رأينا من قبل كيف أحاط فرعون بقواته الضاربة ببني إسرائيل، و كيف تملكهم الذعر و الخوف، و أيقنوا أنهم هالكون، و كيف بلغ بهم الكرب مداه، و إن هي إلا دقائق تمر، ثم يهجم الموت و لا مناص و لا معين، و لكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه لا يشك لحظة، و ملء قلبه الثقة بربه، و اليقين بعونه، و التأكد من النجاة، و إن كان لا يدري كيف تكون، فهي لا بد كائنة، و الله هو الذي يوجهه و يرعاه، «قال كلا إن معي ربي سيهدين»، و هكذا، و في اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس و الكرب، و يفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اصْتَرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ، و هكذا وقعت المعجزة، و انكشف بين فرقي الماء طريق، و وقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم (2)، و أرسل الله الريح على أرض البحر، فلحفته حتى صار يابساً كوجه الأرض (3)، فلماذا قال: فَأَصْرَبَ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا

ص: 252

1- أنظر: عن التقويم العبري و عيد الفصح (محمد بيومي مهران: إسرائيل- الجزء الرابع- الإسكندرية 1979 ص 153- 163).

2- في ظلال القرآن 5/ 2598- 2599.

3- أخرج الطبراني و أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير: أن هرقل كتب إلى معاوية بن أبي سفيان و قال: إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه، قال و كتب إليه يسأله عن المجرة و عن القوس و عن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة، قال فلما أتى معاوية الكتاب و الرسول، قال هذا شيء ما كنت أوبه له أن أسأل إلى يومي هذا، من لهذا؟ فقالوا: ابن عباس (ابن عم النبي صلى الله عليه و سلم) و طوى معاوية كتاب هرقل و بعثه إلى ابن عباس فكتب إليه: إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، و المجرة باب السماء الذي تشق منه، و أما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار، فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل (الدر المنثور 1/ 69)، حلية الأولياء 1/ 320).

واقترح بنو إسرائيل البحر الذي صار فيه اثنا عشر طريقا، في كل طريق سبط، وكان الطريق إذ انغلقت بجدران، فقال: كل سبط، قد قتل أصحابنا، فلما رأى ذلك دعا الله فجعلها قناطر كهيئة الطيقان، فنظر آخرهم إلى أولهم، حتى خرجوا جميعا، ثم دنا فرعون وأصحابه فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقا، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم وندم في نفسه على خروجه في طلب بني إسرائيل، لكنه أظهر لجنوده تجلدا، وقال: ألا ترون البحر فرق مني، وقد تفتح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم، فذلك قول الله وَأَرْزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (2).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التوراة قد اختلفت في تفسيرها للمعجزة الكبرى عن القرآن الكريم، فالتوراة ترجعها إلى ريح شرقية هبت فأزالت الماء وظهرت اليابسة، وحينئذ عبر بنو إسرائيل (3)، ويذهب «روبنسون» إلى أن ريحا شرقية شمالية هبت على هذا الجزء، بدرجة تكفي لطردها من بعض الأماكن، وعلى كل حال، فلقد تغيرت

ص: 253

1- سورة طه: آية 77.

2- سورة الشعراء: آية 64-66، تاريخ الطبري 415/1، البداية والنهاية لابن كثير 272/1.

3- خروج 14/21-31.

المعالم في الصورة الغابرة، بحيث يتعذر معرفة الموضوع بالضبط (1)، وهناك من يرى أن منسوب الماء ما يزال حتى الآن متأثرا بدرجة عظيمة بالرياح في بحيرة المنزلة و البرلس، ويلاحظ أن الطريق من بلطيم حتى برج البرلس تغطى بالمياه عند ما يهب الهواء غربا، ثم تصبح جافة عند ما يهب الهواء من الشرق، ويمكن للإنسان أن يسير عليها بالسيارة (2)، وفي أنشودة الاحتفال بهذا الخلاص، نرى كاتب سفر الخروج يعلن عن قدرته الشعرية فيقول:

«بريح أنفك تراكمت المياه، انتصبت المجاري كراية» (3)، وقد وضعت هذه التقاليد أخيرا في الترجمات النثرية التي ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد (4).

ويقول «جراي» رغم أننا لا نستطيع أن ننكر التدخل الإلهي في الخلاص العظيم، فإنه لم يتضمن انغلاق البحر، وأن الأمر إنما تم عن طريق عاصفة ممطرة، بطريقة فجائية غير مألوفة، في مكان ووقت يتناسبان مع إرادة الله، ولم تقدم المعجزة بطريقة خارقة للطبيعة، كما جاءت في التوراة (5)، وإنما بطريقة مطابقة لها تماما (6).

وأما في القرآن الكريم، فالمعجزة واضحة لا ريب فيها، وذلك حين أوحى الله إلى نبيه موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين (7).

ص: 254

1- قاموس الكتاب المقدس 164/1.

2- سليم حسن: المرجع السابق ص 135.

3- خروج 8/15.

4- .Y. N, ygolohtyM nretsaE raeN eht ni, learsI, yarG. J 107. p. 1969 .

5- خروج 32/12.

6- .P, tic- po. yarG. J 107 .

7- سورة الشعراء: آية 62-67.

و لعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أن الله، جلت قدرته، قد أسند فرق البحر إلى ذاته الكريمة، ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه، و هو معهم، بعنايته، وقوله تعالى: فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بَيَانًا لِلْمُنَّةِ الْعَظْمَى التي امتن الله بها على بني إسرائيل، و التي ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر ترتب عليه أمران: أولهما: نجاتهم، و ثانيهما إهلاك عدوهم، و كلاهما نعمة عظيمة، و الإيمان الصحيح يقتضي بأن نفهم واقعة انفصال البحر لموسى و قومه على أنها معجزة كونية لموسى عليه السلام، و قد زعم البعض أنها كانت حادثة طبيعية، بدون سند و لا دليل (1).

و انطلاقًا من كل هذا، فإننا نرفض ما يذهب إليه البعض من أن انغلاق البحر، إنما كان نتيجة المد و الجزر، و بالتالي فتلك علة طبيعية لنظام جغرافي (2). كما نرفض كذلك القول بأن عنصر التهويل قد لعب دوره في القصة حتى أظهرها بهذه الصورة، و أن هناك رواية مشابهة لها قد رددتها التوراة عن يشوع (3)، خادم موسى و فتاه، و عبوره الأردن على ييس (4)، و أن).

ص: 255

1- محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن و السنة 1/ 459 (القاهرة 1968).

2- , 1969, p. 6. C 6. htoR. A, trohS H yrotsoH eht fo p hsiweJ elpo.

3- يشوع 10/ 18، 4/ 23-24.

4- تروي المصادر الإسلامية أن الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي كان قد بعثه سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى ملك البحرين المنذر بن ساوي فأسلم على يديه و أقام فيهم الإسلام و العدل، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم مات المنذر بعده بقليل، فارتد أهل البحرين، فبعث إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه العلاء بن الحضرمي، ثم حدثت معركة بين المسلمين و المرتدين، انتصر فيها المسلمون انتصارًا حاسمًا، ففر كثير من المرتدين إلى «دارين» بالبحرين، فتبعهم العلاء حتى أتى ساحل البحر ليركبوا في السفن، فرأى أن الشقة بعيدة، لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه و هو يقول «يا أرحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا محي، يا قيوم يا ذا الجلال و الإكرام، لا إله إلا أنت يا ربنا»، و أمر الجيش أن يقولوا ذلك و يقتحموا، ففعلوا ذلك، فأجاز بهم الخليج بإذن الله، يمشون على مثل رملة دمثة فوقها ماء، لا يغمر أخفاف الإبل، و لا يصل إلى ركب الخيل، و مسيرته للسفن يوم و ليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر، فقاتل عدوه و قهرهم، و اجتاز غنائمهم، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول، و ذلك كله في يوم، و لم يترك من العدو مخبرًا، و استاق الذراري و الأنعام و الأموال، و لم يفقد المسلمون شيئًا سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين، و مع ذلك رجع العلاء فجاء بها، ثم قسم الغنائم فأصاب الفارس ألفين، و الراجل ألفًا، مع كثرة الجيش، و كتب إلى الصديق فأعلمه بذلك، و روى أن راهبا من هجر رأى ذلك فأسلم، و قال: خشيت إن لم أفعل أن يمسخني الله، لما شاهدت من الآيات (ابن كثير: البداية و النهاية 6/ 369-371، تاريخ ابن خلدون 2/ 505).

و أما سبب رفضنا للآراء السابقة، فذلك لأننا نرى في حادث انغلاق البحر لموسى رأياً آخر، فهو، فيما نعتقد و نؤمن به الإيمان كل الإيمان، أنه معجزة موسى الكبرى، و المعجزة، فيما نعلم، قوى إلهية يعجز البشر عن الإتيان بمثلهما، و الحصول على نظير لها، و لا تأتي إلا في مقام التحدي و الإعجاز، و هي، كغيرها من معجزات الأنبياء، من عمل الله، و لا فضل لأحد فيها سواه سبحانه و تعالى، فليس لنبي يد في هذه الخوارق التي بهرت الناس و فهرت الخلق، و قامت أدلة صادقة على صدق من ظهرت على أيديهم في أنهم مبلغون عن الله سبحانه و تعالى، و من هنا خاف موسى عليه السلام، حين تحولت عصاه حية تسعى، فولّى مدبراً و لم يعقب لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه و أمن خوفه، و على هذا الأساس لا يستغرب و لا يستبعد وقوعها ممن لا يعجزه شيء في الأرض و لا في السماء (1)، فإنه جل شأنه، كما يقول **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (2)**، هذا فضلاً عن أن المعجزة إنما هي من البراهين العقلية التي تقرر قيومية الله الخالق عز شأنه، و إطلاق قدرته من قيود القوانين و العادات المعلومة في حدود مدارك العقول الإنسانية إلى سنن كونية و قوانين للوجود فوق آفاق تلك العقول، تحدث على وفقها تلك الأحداث الكونية و الأعاجيب الإعجازية، إذا تطلبها أسبابها، و حانت مناسبتها، و الله سبحانه و تعالى فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل (3).

و يقول الإمام الفخر الرازي أن انغلاق البحر لموسى معجزة من

ص: 257

1- أنظر: سورة طه: آية 66-69، النمل: آية 10، القصص: آية 31-32، عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 109.

2- سورة يس: آية 82.

3- محمد الصادق عرجون: معجزة الأنبياء بين العقل و العلم- الإسكندرية 1955 ص 2، ثم أنظر عن المعجزة و شروطها: الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن- القاهرة 1969 ص 70-72.

وجوه، منها (أولا) أن تفرق ذلك الماء معجزة، و ثانيا: أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضا لأنه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن، فلما جمع على الطرفين صار مؤكدا لهذا الإعجاز، و ثالثا: أنه إن ثبت ما روى في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الريح والظلمة ما حيرهم، فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني إسرائيل، فهو معجز ثالث، و رابعا: أن الله تعالى جعل في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض، فهو معجز رابع، و خامسا: أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون و طمعوا منها آل فرعون و طمعوا أن يتخلصوا من البحر، كما تخلص قوم موسى، فهو معجز خامس (1).

و هكذا نستطيع أن نصل من ذلك كله إلى نتيجة واحدة هي: أن انغلاق البحر لموسى عليه السلام، لا علاقة له ببني إسرائيل فتلك معجزة نبي، كما أن غرق فرعون لم يكن تكريما للإسرائيليين، فتلك عاقبة من أصر على كفر، و لم يؤمن بالله الواحد الأحد، بل و تجاوزه لكل الحدود البشرية، فقال: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (2)، ثم يهدد النبي الكريم قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (3)، و أخيرا اندفاعه في العذاب و إسرافه في القتل للمذنب و غير المذنب على سواء، و أما حساب بني إسرائيل فعسير عند الله تعالى، حتى أنه عز و جل، ليكتب على هؤلاء الذين أنجاهم من فرعون أن يتيهوا في الأرض أربعين عاما، ثم يحرم عليهم الأرض المقدسة أبدا (4).

ص: 258

1- تفسير الفخر الرازي 139/24.

2- سورة القصص: آية 38.

3- سورة الشعراء: آية 29.

4- سورة المائدة: آية 21-26، سفر العدد 4/34، أعمال الرسل 7/26، 42.

تحدث القرآن الكريم عن إيمان فرعون حين أدركه الغرق، فقال تعالى: وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، آ لَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (1).

و الآيات الكريمة تشير إلى أن فرعون حين غشيته سكرات الموت آمن، حيث لا ينفعه الإيمان، و لهذا قال تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال:

آ لَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، وَ ذَلِكَ لِأَن التَّوْبَةَ، كما يقول علماء السلف، قبل المرض و الموت، و روى الترمذي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، أي ما لم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به (2).

و يقول ابن السعود في تفسيره: إن فرعون حين أدركه الغرق «قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل»، لم يقل كمقالة السحرة «آمنا برب العالمين رب موسى و هارون»، بل عبّر عنه تعالى بالموصول، و جعل صلته إيمان بني إسرائيل به، تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء، و باتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا في القبول و الانتظام معهم في سلك النجاة (3)، و قال النسفي إن الآية دليل على إن الإيمان و الإسلام واحد، قال آمنت، ثم قال: و أنا من المسلمين»، كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصا على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ

ص: 259

1- سورة يونس: آية 90-92.

2- مختصر تفسير ابن كثير 2/205، حسن باجودة: التفسير البسيط للقرآن الكريم 4/286 (مكة المكرمة 286، تفسير القرطبي ص 1662.

3- تفسير النسفي 2/174-175.

وقته، وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار، أتؤمن الآن في وقت الاضطرار، حين أدركك الغرق، وأيست من نفسك، وروى الخازن في تفسير عن ابن عباس أنه قال: لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب وقد كان في مهل، وقال العلماء: إيمانه، غير مقبول لأن الإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين، وقيل إنه قال ليدفع ما نزل به من البلية الحاضرة، ولم يكن قصد به الإقرار بوحدانية الله، والاعتراف له بالربوبية، وقيل إن فرعون كان من الدهريين المنكرين لوجود الخالق، فلهذا قال:

«أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل»، فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في إيمانه، ولما رجع فرعون إلى الإيمان والتوبة حين أغلق بابهما، بحضور الموت ومعاينة الملائكة، قيل له: «الآن وقد عصيت من قبل»، يعني الآن تتوب، وقد أضعت التوبة في وقتها، وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية، وقيل إن المخاطب بذلك لفرعون هو جبريل وقيل الملائكة، وقيل هو الله تعالى، عرف فرعون قبيح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض، بدليل قوله تعالى: **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ**، والقول الأول أشهر (1)، ويعضده ما روى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لما قال فرعون: «أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فسدسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة» (2)، وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أعطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله، فيغفر له، يعني فرعون، وفي بعض الروايات إن جبريل قال: ما بغضت أحدا بغضي لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، ولقد

ص: 260

1- تفسير الخازن 206/3.

2- مختصر تفسير ابن كثير 206/2، وأنظر: تفسير الدر المنثور 315/3.

جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال» (1).

على أن الإمام فخر الدين الرازي اعترض في تفسيره على ذلك، فقال:

هل يصح أن جبريل أخذ يملأ فمه بالطين، لئلا يتوب غضبا عليه، و الجواب الأقرب أنه لا يصح، لأنه في تلك الحال إما أن التكليف كان ثابتاً أم لا، فإن كان ثابتاً لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة، بل يجب عليه أن يعينه على التوبة و على كل طاعة، و أما إن كان التكليف زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت، فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب إلى جبريل فائدة، و أيضاً لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر، و الرضا بالكفر كفر، و أيضاً كيف يليق بجلال الله بأن يمنعه من الإيمان، و إذا قيل إن جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله، فهذا يبطله قول جبريل: **وَ مَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ**.

و على أي حال، فإن موسى عليه السلام حين أخبر بني إسرائيل بغرق فرعون و قومه، قالوا: ما مات و ذلك لعظمته عندهم، و ما حصل في قلوبهم من الرعب لأجله، فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرا، كأنه ثور، فرآه بنو إسرائيل، فمن ذلك الوقت لا يقبل البحر ميتاً أبداً، و روى عن ابن عباس: أن الله أنجى فرعون لبني إسرائيل من البحر، فنظروا إليه بعد ما غرق، و أما معنى قوله تعالى: **بِيدَنِكَ**، يعني نلقيك جسداً بلا روح فيه، و قيل هذا الخطاب، على سبيل التهكم و الاستهزاء، كأنه قيل له ننجيك، و لكن النجاة لبدنك، لا لروحك، و قيل أراد بالبدن الدروع، و كان، لفرعون دروع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف في درعه عرفوه، و قيل ننجيك ببدنك، أي نجعلك على نجوة من الأرض كي ينظروا فيعرفوا أنك مت، و أخرج ابن الأبياري عن ابن سعود أنه قرأ «فاليوم ننجيك ببدنك» (2).

ص: 261

1- ابن كثير: البداية و النهاية 1/ 273.

2- تفسير الخازن 3/ 207-209، الدر المنثور 3/ 315-316.

و أما قوله تعالى: لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً، أي عظة وعبرة، وذلك أن بني إسرائيل ادعوا أن قتل فرعون لا يموت أبدا، فأظهره الله حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم، ويعتبروا به لأنه كان في غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة، ملقى على الأرض لا يهابه أحد، أو لتكون آية لمن يأتي بعدك من القرون، إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا عن الطغيان، أو حجة تدل على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك، إنما هو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية، وقرئ «لمن خلقتك» أي لخالقك آية كسائر الآيات، فإن إفراده إياك بالإلقاء إلى الساحل، دليل على أنه نعمد منه لكشف تزويرك وإماطة الشبهة في أمرك، ودليل على كمال قدرته و علمه وإرادته، وأيا كان المعنى، فإنه لم يكن آية لمن خلفه لمدة جيل أو جيلين، وإنما بقي آية للعشرات الكثيرة من الأجيال، والمئات الكثيرة من السنين، وذلك بما كان رب العرش لأهل مصر من سلطان العلم وأسرار التحنيط (1).

بقيت الإشارة إلى أن موت فرعون غرقا، ناسب هلاك بني إسرائيل على يديه بالذبح فيه تعجيل الموت بأنهار الدم، والغرق فيه إبطاء الموت و لا دم خارج، ولما كان الغرق من أعسر الموتات، وأعظمها شدة، فكان لمن ادعى الربوبية وقال: «أنا ربكم الأعلى»، وعلى قدر الذنب يكون العقاب، ولك أن تقول: لما افتخر فرعون بالماء، وقال: «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي»، جعل الله موته بالماء، بما افتخر به (2).

ص: 262

1- تفسير البيضاوي 100/3، الدر المنثور 316/3، تفسير الخازن 209/3، أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 123، تفسير النسفي 175/2.

2- تفسير روح المعاني 1/255-257.

إشارة

اختلفت الآراء، كما أشرنا من قبل، في هذا الفرعون الذي كان يعذب بني إسرائيل، فيذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، ثم يرفض بعد ذلك دعوة موسى عليه السلام، وكان الفرعون الذي أغرقه الله في البحر، انتقاماً منه لتجبره وكفره، و ما آل إليه أمره من الطغيان والكفر، و ادعاء الألوهية، فقال: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (1)، وقوله لموسى:

لَئِنِ اتَّخَذَتِ الْهَاءَ غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (2)، وقوله: «أنا ربكم الأعلى»، و من ثم فقد جاء بعد هذه الآية فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3)، هذا فضلاً عن تجاوزه لحدوده البشرية، و اندفاعه في التعذيب، و إسرافه في القتل للمذنب و غير المذنب على سواء.

و سنحاول هنا، قدر الطاقة، مناقشة الآراء المختلفة التي دارت حول تحديد اسم هذا الفرعون، لعلنا نستطيع، بمشيئة الله، أن نصل إلى رأي قريب من الصواب، أو لا يبعد عن الصواب كثيراً، مؤمنين تمام الإيمان، أن اليقين ما زال، و سيظل أبداً الدهر، عند صاحب اليقين، و ما زال، و سيظل، العلم عند رب العلم، يؤتاه من عباده من يشاء، و هو علام الغيوب، و ما تقوم

ص: 263

1- سورة القصص: آية 38.

2- سورة الشعراء: آية 29.

3- سورة النازعات: آية 22-26.

به، أو يقوم به غيرنا، لا يعدو محاولات قد تخطئ و تصيب، بل قد تخطئ كثيرا و تصيب قليلا.

[1] الرأي الأول: فرعون موسى هو أحمس الأول:-

يزعم اليهودي «يوسف بن متى» (37-98 أو 100 م) أن «مانيتو» المؤرخ المصري، الذي كتب تاريخه حوالي عام 280 قبل الميلاد، إنما يرجع بالهكسوس (1) إلى أصول يهودية (2)، و من ثم فالخروج، في نظر المؤرخ اليهودي، إنما هو طرد الهكسوس من مصر حوالي عام 1575 ق.

م، بقيادة أحمس الأول (1575-1550 ق.م)، و بالتالي فإن أحمس الأول هو فرعون موسى، هذا وقد تابع يوسف اليهودي بعض المؤرخين، و منهم الدكتور هول و الدكتور باهور لبيب.

و يذهب «هول» إلى توحيد «الخاير و» بالعاير و (العبرانيين)، و أن الخاير و هم قبائل بدوية قدمت إلى الجنوب الشرقي لفلسطين، فاكتمحت كنعان في الفترة ما بين عامي 1390، 1360 قبل الميلاد، و أن رسائل العمارنة تظهر لنا كيف أشاعت هذه القبائل الذعر بين الكنعانيين، ثم سيطرت على فلسطين بعد انسحاب السلطة المصرية منها على أيام «إخناتون» (1367-1350 ق.م)، و من ثم يجب أن يكون الخروج قبل أيام «أمنحتب الثالث» (1405-1367 ق.م)، ثم يقترح أن تكون لحظة خروج بني إسرائيل من مصر، هي لحظة قيام الأسرة الثامنة عشرة، و أن مؤسس هذه الأسرة الملك «أحمس الأول» هو فرعون موسى الذي روت التوراة أنه «لم يكن يعرف يوسف»، و بالتالي فإن التقرير التوراتي عن

ص: 264

1- قدم المؤلف دراسة مفصلة عن عصر الهكسوس و طردهم من مصر (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة- دار المعارف- القاهرة 1976 ص 101-223).

2- F, egdirbmaC (yrarbiL lacissalC beoL ehT), ohtenaM, leddeW. G. W 77. p. 1940

بين الهكسوس و اليهود في فلسطين، كما أن العبرانيين كانوا يعبدون الحمار، فإذا أمكن هذه هي كل حجج الباحثين الذين رأوا في اليهود دليلاً على أنهم من أصل سامي (1).

هذه هي كل حجج الباحثين الذين رأوا في اليهود هكسوسا، أو في الهكسوس يهودا، ولعل من الأفضل قبل مناقشتنا لهذا الإتجاه، الإشارة إلى أننا لا-نطمئن تماما إلى رواية المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» و من دعوا بدعوته، من أنهم ينقلون عن «مانيتو»، ما دمنا لا نملك النص الكامل لكتاب «مانيتو»، و الذي فقد في حريق الإسكندرية عام 48 ق. م، و قد وصلت إلينا منه مقتطفات مختصرة أحيانا، و مبتورة أحيانا أخرى، و ما دمنا، في نفس الوقت، لا-نملك من الأدلة التاريخية ما يقوم دليلاً على صحة ما نقله «يوسف اليهودي» و غيره، عن «مانيتو»، بل إن رواية يوسف اليهودي نفسه، و التي يزعم أنه نقلها عن مانيتو، من أن اليهود هم الهكسوس، تناقضها روايته التي أشرنا إليها من قبل، من أن سبب خروج بني إسرائيل من مصر، إنما كان رغبة المصريين في اتقاء وباء تقشى بين اليهود.

هذا فضلا عن أن يوسف اليهودي لم يقبل تفسير مانيتو لكلمة الهكسوس من أنها تعني «الملوك الرعاة» على أساس أن «هك» تعني في اللغة المقدسة «ملك»، و أن «سوس» تعني في اللغة الدارجة «راعي»، فيتابع هذا الاشتقاق باشتقاق آخر لاسم الهكسوس من مصدر آخر، بمعنى «الأسرى الرعاة» لأن كلمة «هك» تعني «أسير»، و هو يفضل هذا الاشتقاق، لأنه يعتقد أن قصة التوراة عن دخول الإسرائيليين مصر، ثم الخروج بعد ذلك، لهما أصول في احتلال الهكسوس ثم طردهما فيما بعد، و الواقع،

ص: 266

1- باهور لبيب: لمحات من الدراسات المصرية القديمة- القاهرة 1947 ص 41-45، و كذا. P, tic- po, bibaL. P 25.

فيما يرى «سير ألن جاردنر»، العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة، أنه على الرغم من وجود أسس لغوية للاشتقاق، فإنه قد جانبه الصواب، وأن كلمة «هكسوس» مشتقة من غير شك من اصطلاح «حقاخست»، أي «رئيس البلد الأجنبية الجبلية» التي كانت تعني منذ عهد الدولة الوسطى «مشايخ البدو» (1).

و أما أن قصة دخول بني إسرائيل مصر، ثم الخروج منها، لها صلة بدخول الهكسوس مصر، ثم الخروج منها، كما روح ذلك يوسف اليهودي، فقد كان يوسف هذا يهدف منها إلى رفع شأن قومه اليهود، الذين كان يحقرهم الإغريق و يحطون من قدرهم، و ليرهن للملا أن اليهود و الهكسوس من عنصر واحد، و أنهم قد خرجوا من مصر حوالي ألف عام قبل حرب طروادة، التي يراها الإغريق تاريخا سحيقا من القدم، غير أن كثيرا من المؤرخين ينكرون الصلة بين اليهود و الهكسوس، فيذهب «جاردنر» إلى أنه ليست هناك صلة بين الاثنين، بدليل أن الهكسوس لم يتركوا أي أثر في قصص العبرانيين، كما روتها التوراة، كما أن مجيء يوسف عليه السلام إلى مصر، إنما قد حدث، كما أثبتنا من قبل، على أيام حكم الهكسوس لمصر، هذا فضلا عن أن أحداث الملوك الرعاة (الهكسوس) لم تصور أبدا في قصة خروج بني إسرائيل من مصر، بل إن مدينة «بي رعمسيس» التي أنشأها رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م)، بعد طرد الهكسوس، بحوالي ثلاثة قرون، إنما تدخل في قصة بني إسرائيل في مصر و خروجهم منها، فهي المدينة التي سخر بنو إسرائيل في بنائها، كما أنها كانت بداية مسيرة الخروج من مصر (2)، و من ثم فليس من المستحيل أن تكون اقتباسات يوسف اليهودي

ص: 267

1- , 1964, p. 154. H. A. G. H. A. 154. p. 1964, -1.drofxO, shoarahP eht fo tpygE, renidraG.

2- خروج 11/1، 12/37.

من مانيتو، إنما توحى بأحداث وقعت فيما بعد، في أوائل عهد الأسرة التاسعة عشرة، وأنها قد اختلطت بذكر حوادث الهكسوس، وهناك ما يشير إلى مثل هذه العلاقات الموجودة في أغلب الأحيان بين مصر وأولئك البدو الذين يعيشون على تخومها، جاء ذكرها في «بردية أنسطاسي، السادسة»، ولكن ليس هناك ما يشير إلى حدوث مأساة كالتى مثلت في التوراة، كما جاءت في سفر الخروج (1).

و أما ما ذهب إليه «هول» فيناقضه أنه يتعارض تماما مع ما جاء في التوراة و القرآن العظيم بشأن دخول و خروج بني إسرائيل من مصر (2)، كما أن حملات تحوتمس الثالث (1490-1436 ق. م) المظفرة، تكون طبقا لهذا، قد حدثت بعد استقرار بني إسرائيل نهائيا في فلسطين، وهنا فمن الصعب أن نجد تفسيراً لصمت التقاليد الإسرائيلية فيما يختص بالنزاع الذي لا يمكن تجنبه مع الفاتحين المصريين، وخاصة فيما يتعلق بإدارة البلاد بموظفين مصريين، فضلا عن وجود الحاميات المصرية في فلسطين، تلك الحقيقة التاريخية التي كانت أهميتها تظهر أكثر فأكثر (3)، هذا فضلا عن أن التوراة تجعل إقامة بني إسرائيل في مصر 430 سنة (4)، بينما يتفق العلماء الآن على أن مدة حكم الهكسوس في مصر لا تتجاوز القرن ونصف القرن (1725-1575 ق. م) (5)، أضف إلى ذلك أن التوراة والإنجيل و القرآن).

ص: 268

1- , 10 , 1924، 87- 88، H. A renidraG. H. T fo yhpargoeG ehT ni AEJ.

2- أنظر: سورة يوسف: آية 8- 22، 57- 100، سفر التكوين: الاصحاحات 37- 47، خروج: اصحاحات 12- 14.

3- . P, tic- po, sdoL. A 183- 182 .

4- خروج 12/ 40- 41.

5- انظر: عن عصر الهكسوس في مصر (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص 137- 138، 211).

العظيم، إنما تجعل فترة التيه أربعين سنة (1)، بينما فترة التيه هنا تتجاوز القرنين من الزمان، وهي فترة أطول بكثير مما يجب، و مما افترضته التقاليد العبرانية، كما يرى «هول» نفسه (2).

و أما أدلة «باهور لبيب»، غير اعتماده على رواية مانيتو، كما نقلها يوسف اليهودي، فإنها تقوم أساسا على ما ذهب إليه من أن الهكسوس ساميون، و من فلسطين، و بالتالي فهم يهود، و الواقع أن رأيه هذا يحمل كثيرا من وجوه الخطأ، منها (أولا) أن وجود أسماء كنعانية بين الهكسوس، لا يعني أن اليهود كنعانيون، و إن كان كل منهما ينتمي إلى نفس المجموعة البشرية السامية و إن كانت التوراة ترفض، لأسباب سياسية و دينية، أن يكون الكنعانيون ساميين (3)، مع أنهم كانوا يعلمون ما بينهم و بين الكنعانيين من صلات لغوية و بشرية (4)، و منها (ثانيا) أن العبرانيين لم تكن لهم لغة خاصة بهم قبل عام 1000 ق. م، إذ كانوا يتكلمون الآرامية قبل دخولهم فلسطين، و الكنعانية بعد ذلك، كما أن اللغة العبرية نفسها، ليست إلا خليطا من الآرامية و الكنعانية و كثير من اللغات السامية و غير السامية (5)، و من ثم فإن الاعتماد على اللغة كأساس للعلاقة بين اليهود و الهكسوس، اعتماد مضلل لا يثبت تلك العلاقة، و منها (ثالثا) أن القول بأن اليهود كانوا يعبدون الحمار، قول غير صحيح، على وجه اليقين، بل إنه من المؤكد أن بني إسرائيل كانوا

ص: 269

-
- 1- أنظر: سورة المائدة: آية 26، حيث يقول تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، و انظر: سفر العدد 33/14، أعمال الرسل 7/36، 40.
 - 2- .. P, tic- po, llaH. R. H 408
 - 3- تكوين 6/10.
 - 4- أنظر: محمد بيومي مهران: الساميون و الآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي - الرياض 1974 ص 247-248.
 - 5- فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفية ص 4، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 32.

قبل دخولهم مصر موحدين، على ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قال تعالى على لسان يوسف: **وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (1)**، ومن ثم فعبادة الهكسوس للحمار أو عدم عبادتهم لا تفيدنا في معرفة العلاقة بين اليهود و الهكسوس، كما أنه ليس هناك من دليل على أن اليهود عبدوا الحمار في مصر.

و منها (رابعا) أن استخدام العربة و الحصان في عصر الهكسوس لا يدل أبدا على أن اليهود هم الهكسوس، وإن كانت الأسماء كنعانية و ليس الكنعانيون هم اليهود على أية حال، و مع ذلك فهناك من يرى أن الحصان، و ربما العربة التي تجرها الخيل، قد عرفا في وادي النيل، و في ميز و بوتاميا، قبل عصر الهكسوس (2)، بل و يذهب أمري» أن ذلك كان منذ أيام الدولة الوسطى، فقد عثر في حفرياته في منطقة بوهن (وادي حلفا) في عام 1962 م على هياكل دفنت في مستويات قديمة من أحد الحصون المصرية حددها بعصر الدولة الوسطى، و إن لم يعرفوا العربة، و إن كان أستاذنا المرحوم عبد المنعم أبو بكر (1907-1976) طيب الله ثراه، يرد هذا المستوى إلى عهد الدولة الحديثة (3)، هذا فضلا عن أن هناك من يرى أن الهكسوس لم يستخدموا الحصان حتى فترة متأخرة جدا من حكمهم، و أن أقدم نص يشير إلى ذلك إنما يتحدث عن طرد الهكسوس، و أما المقابر التي وجدها «بتري» في تل العجول بجنوب فلسطين، و قد دفنت فيها الحمير مع الخيول، مع الموتى من الآدميين، و أنها تدل على استخدام الهكسوس للحصان، فهي

ص: 270

1- سورة يوسف: آية 38.

2- W 18. p, 1965, seyah .W 18. p, 1965, erneneuqeS ot ,II semenemmA fo htaeD eht morf tpyge, egdirbmaC II

3- عبد العزيز صالح: مصر و العراق ص 190، نجيب ميخائيل: المرجع السابق 407/1.

ترجع إلى فترة متأخرة من عهد الهكسوس، وربما ترجع إلى بداية الدولة الحديثة، أما في مصر، فليست هناك أية دفنة لحصان واحد، أو حتى عظام حصان، في المقابر العديدة التي ترجع إلى عهد الهكسوس، كما أنه لا يوجد نقش واحد لحصان ما (1).

ومنها (خامسا) أن توحيد كلمة «خاييرو» بكلمة «عاييرو»، وأنها هي نفس الكلمة الحالية «عبري»، فقد اتفقت جمهرة من العلماء على أن هؤلاء العاييرو، لم يكونوا أبدا من بني إسرائيل، والأرجح أن الكلمة سامية لقبائل بدوية كانت تعيش في شرق الأردن، بل حتى الذين ينادون بتوحيد كلمة خاييرو بعاييرو، يرون أن الأمر غير مؤكد، ولا يمكن أن نتخذه أساسا لأية نتيجة تاريخية (2)، ومنها (سادسا) أن اليهود ساميون، بينما الأمر جد مختلف بالنسبة للهكسوس فمن يؤكد أنهم سلالة آرية كان موطنها في آسيا الصغرى (3)، ومن يرى أنهم من أعراب شبه الجزيرة العربية (4)، بل ويذهب المؤرخون المسلمون إلى أنهم العمالقة أو من العرب البائدة (5)، ويذهب «جاردنر» إلى أن اصطلاح «حقاخست» (حقيق خاس) أي رئيس البلدية الجبلية الأجنبية يشير إلى الحكام، وليس، كما يظن يوسف اليهودي، إلى

ص: 271

-
- 1- E, ott و Kذا, II, P, 333. oN, 37. 1951, p. 59- 60. T evaS- hgrevredoS- ehT, soskyH eluR ni tpygE AEJ, VPDZ 259. p. 61, و Kذا, FOFA, gnissiB noV. W. F 61
 - 2- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 22/1 - 28، الكسندر شارف: تاريخ مصر ص 144، تيودور روينسون: إسرائيل في ضوء التاريخ ص 108، و Kذا, F. W. 1970. I, neitSpE, msiaDuJ, و Kذا. J 201. W. J, tic- po, nosli و Kذا. J 118. F. J, tic- po, nageni. P, TENA, thgirblA 13., on 486. p. 1966, و Kذا, P. 14- 13, sedamoN xuerbeH sed noigileR aL, emrahD. E و Kذا 1937, 75- 85. S. N sellexurB.
 - 3- 1933, p. 105. H reknuJ. H 105. p. 1933, .retpygeA red ethcihcseG,
 - 4- 1907, p. 134. L 134. W. L 134. p. 1907, .F, nodnoL, ... aisA nretseW dna tpygE, yrotsiH nretsaE ni seidutS, gniK .W .L 134. p. 1907
 - 5- تفسير القرطبي ص 427، تاريخ الطبري 1/335-336، تاريخ ابن الأثير 1/10، 104، تاريخ ابن خلدون 2/27.

الجنس كله، و طالما أخطأ الباحثون في هذا الأمر، بل إن البعض منهم، كما رأينا، يرى أن الهكسوس جنس معين من الغزاة شقوا طريقهم إلى مصر، بعد أن تم لهم غزو سورية وفلسطين، وليس هناك ما يؤكد وجهة النظر هذه، وإن بدا أن كلمات مانيتو قد تشير إلى ذلك (1)، و من هنا فإن العلماء يكادون يجمعون على أن الهكسوس ليسوا شعبا معيناً، وإنما خليط من شعوب متعددة، اختلطت بعضها ببعض الآخر وهي في طريقها إلى مصر، وهذا يبدو واضحاً في أسمائهم التي تنبئ عن خليط من أجناس مختلفة، حتى وإن غلبت فيها الأسماء السامية، ففيها كذلك عناصر غير سامية، لا شك أن بعضها «كاسي»، و الآخر «حوري»، و كلا الجنسين من أصل «هندو- أوربي» نزل من أواسط آسيا، و على أية حال، فإن الساميين لا يكاد يتألف منهم العامل الرئيسي المسئول عن الزحف الجديد، و قد تغري غلبة الأسماء السامية المعروفة لنا الآن بتفوق الساميين في العدد، و لكن يمكن أن يرجع سببها لعدم كفاية الأدلة التي في متناولنا، أو لأن العناصر غير السامية قد هضمت بسرعة (2).

و منها (سابعاً) أن هذا الرأي الذي يرى في طرد الهكسوس قصة خروج بني إسرائيل من مصر، إنما يتعارض تماماً عما جاء في التوراة و القرآن الكريم (3)، اللذين لم يتحدثا أبداً عن دخول بني إسرائيل أرض الكنانة غزاة فاتحين، أو أن ملوك مصر كانوا يوماً ما ينتمون إلى أرومة سرائيلية، وإن

ص: 272

1- .P, tic- po, renidraG. A 156 .

2- أحمد فخري: مصر الفرعونية ص 187، سليم حسن: مصر القديمة 187/4، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 402، و كذا. P,

.P, tic- po, nosliW. J 164 و كذا. P, tic- po, renidraG. A 157.

3- أنظر: سورة يوسف: آية 41-100، تكوين: إصحاحات 37-47، و أنظر: قصة يوسف في هذه الدراسة.

تحدثنا عن وصول يوسف الصديق إلى منصب كبير في الحكومة المصرية على أيام الهكسوس كما أشرنا إلى ذلك من قبل، كما تحدثنا عن دخول بني إسرائيل مصر، وقد عضهم الجوع في أرض كنعان، فأتوا إلى أرض النيل يلتمسون المأوى و الشبع، وقد حققت لهم مصر ما يريدون، و تلك عاداتها طوال عصور التاريخ، و منها (ثامنا) أن التوراة تتحدث في سفر التكوين أن الرب أخبر خليله إبراهيم بأن بني إسرائيل سوف تكتب عليهم الذلة و المسكنة في مصر فترة قوامها قرونًا أربعة، زادهها سفر الخروج ثلاثين عاما، كما تحدثت عن خروج القوم من مصر، و قد كانوا في عجلة من أمرهم، حتى أنهم ما كانوا قادرين على أن ينتظروا حتى يختم عجينهم، و من ثم فقد خرجوا دون أن يصنعوا لأنفسهم زادا (1)، و قد أشار القرآن الكريم إلى أن الإسرائيليين قد خرجوا من مصر بأمر الله ليلا قال تعالى في سورة الدخان:

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ، و قال تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (2).

و منها (تاسعا) أن التوراة تجعل من مدينة «بي رعسيس» نقطة التجمع التي بدا منها بنو إسرائيل الخروج من مصر (3)، و هذه لم تنشأ، كما أشرنا من قبل، إلا على أيام «رعسيس الثاني» (1290-1224 ق. م)، و منها (عاشرا) أن التوراة و القرآن العظيم يصفان حياة بني إسرائيل في مصر، بكل الذل و الهوان، تقول التوراة «فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف، و مروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين و اللبن و كل عمل في الحقل، كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفا» (4)، و كان الهدف، فيما يرى جيمس

ص: 273

1- تكوين 13/15، خروج 12/31-40.

2- سورة الشعراء: آية 52، و أنظر سورة طه: آية 77.

3- خروج 12/37.

4- خروج 1/13-14، 23-24.

فريزر، أن المصريين أرادوا أن يحولوا دون تكاثرهم عن طريق تشغيلهم في الأعمال الشاقة التي ربما قضت عليهم، ولما فشلت هذه المعاملة في تحقيق النتيجة المرغوبة، أمر الملك بقتل الذكور من أطفالهم إثر ولادتهم، غير أن القابلات اللاتي كلفن بذلك كن يتهربن في تنفيذه (1)، ومن ثم فقد أمر فرعون شعبه جميعاً بأن «كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن البنت تستحيونها» (2)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (3)، وكان من نتائج ذلك كله، أن غدا العرف الشائع بين العبرانيين أنهم يتشاءمون تشاؤماً تقليدياً بالأيام التي قضوها بمصر، و يحسبونها بلية البلاء، و محنة المحن في تاريخهم كله، من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد النازية الهتلرية، أي طوال أربعين قرناً، من القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن العشرين بعد الميلاد، و قد مرت بهم محنة السبي إلى وادي النهرين، و لكنهم لا يتشاءمون بها، كما تشاءموا بالمقام في مصر، و لا يجعلون الخروج من بابل (عام 539 ق. م) عيداً باقياً متجدداً، كعيد الخروج من أرض وادي النيل في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، و هكذا كان الخروج من مصر أكبر أعياد اليهود، عيد الفصح، في الرابع عشر من شهر نيسان (أبريل) بين العشاءين.

و هكذا نستطيع أن نقول، دون أن يخالجننا ريب فيما نقول، أن دعوى).

ص: 274

1- جيمس فريزر: الفلكور في العهد القديم- القاهرة 1974 ص 5 (مترجم) و انظر: خروج 1/ 15-21.

2- خروج 1/ 22.

3- سورة البقرة: آية 49، و انظر: سورة الأعراف: آية 141، سورة القصص: آية 4 عباس محمود العقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان و العبريين- القاهرة 1960 ص 58، و انظر: عن هذا الرأي الأول (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 361-376).

يوسف اليهودي في الربط بين الهكسوس وأجداده العبرانيين لم تكن إلا- من نوع تلك الدعاوي الكذوب التي لا يزال يحذقها أحفادهم الصهاينة المحدثون، وأنه ليست هناك صلة بين الهكسوس واليهود، وذلك لأن اليهود لم يكونوا وقت ذلك قد استوطنوا فلسطين كقوم لهم كيان يستطيعون أن يحتلوا دولة كبرى كمصر، بل أكبر وأعظم دول الشرق الأدنى القديم قاطبة، الأمر الذي لم يكتب لهم أبداً، بل إنهم لم يكونوا حتى هذه المرحلة إلا- مجموعة من الرحل الذين يستقرون على أطراف إقليم زراعي بموافقة أصحابه، وهم في مركز الرعايا الخاضعين، إن لم يكونوا العبيد المستذلين، و ما حدثنا التاريخ من قبل و من بعد عن مستعمر يستدل في أرض يستعمرها، و من هنا فإننا نستبعد هذا الرأي تماماً، و لا نرى أن خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام، و كاموزا و أحمس الأول، و بالتالي فإن أحمس الأول ليس هو فرعون موسى.

[2] الرأي الثاني: تحوتمس الثالث هو فرعون موسى:-

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن فرعون موسى هو تحوتمس الثالث (1490-1436 ق. م) أو ابنه «أمنحتب الثاني» (1436-1413 ق. م) (1) اعتماداً على نص التوراة «و كان في سنة الأربع مائة و الثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على بني إسرائيل، في شهر زيو، هو الشهر الثاني أنه بنى البيت للرب» (2)، و لما كان حكم سليمان يقع في الفترة (972-936 ق. م) (3)، فالعام الرابع إذن هو عام 967 ق. م

ص: 275

1- قاموس الكتاب المقدس 933/2.

2- ملوك أول 1/6.

3- يختلف المؤرخون في فترة حكم سليمان، فيرى فضلو حوراني أنها في الفترة (974-932 ق. م) و يرى حسن ظاظا أنها في الفترة (973-936 ق. م) و يرى شموكل أنها في الفترة (970-932 ق. م) و يرى فيلب حتى أنها في الفترة (963-923 ق. م) و يرى هيتون أنها في الفترة (961-922 ق. م) و يرى أولبرايت أنها في الفترة (960-922 ق. م) و هكذا.

(أوعام 966/967 ق.م)، و بالتالي فالخروج في عام 1446 أو 1447 ق.

م (1)، إذا ما عدنا إلى الوراء 480 عاما، و من ثم فالخروج تم في عهد تحوتمس الثالث (1490-1436 ق.م) أو بالأحرى في العقد الأخير من عهده.

و يرى أصحاب هذا الإتجاه أن الصورة التي تقدم لتحوتمس الثالث كفرعون لموسى مقبولة تماما، لأنه كان بناء عظيمًا، ولأنه استخدم الأسرى الأسويين في مشروعاته البنائية، ولأن مدة الأربعين سنة التي قدرت لفترة التيه (2)، تجعل الإسرائيليين يصلون إلى كنعان حوالي عام 1400 ق.م، و من هنا يمكن توحيد العبرانيين (العابرو) بالخابير و الذين كانوا يضغظون على كنعان وقت ذاك (3)، هذا إلى جانب ما يقوله «جون جارستانج» من أنه قد كشف في مقابر أريحا الملكية ما يشير إلى أن موسى قد انتشلتته من الماء الأميرة المصرية «حتشبسوت» عام 1527 قبل الميلاد، على وجه التحقيق، وأنه قد تربى في بلاطها بين حاشيتها، ثم فر من مصر حين جلس على العرش المصري عدوها، تحوتمس الثالث، و يعتقد «جارستانج» كذلك أن المخلفات التي وجدت في قبور أريحا (جريكو ohcireJ) تؤيد ما جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر يشوع، و أن هذه البقايا ترجع إلى حوالي عام 1400 ق.م، و أن الخروج تم عام 1447 ق.م (4).

ص: 276

-
- 1- أنظر:، 3، 1953، p، 113-122، JEI، revil. J و كذا، 100، 1945، p، 16-22، ROSAB، thgirbla'. F. W
 - 2- خروج 16/35، تثنية 7/2، يشوع 6/5.
 - 3-، 1925، J. W. J، kcaJ. W. J، eht fo etaD، hgrubnidE، sudoxE و كذا. F. J، nageni، tic- po، 117-118.
 - 4- ول ديورانت: قصة الحضارة- الجزء الثاني- ترجمة محمد بدران- القاهرة 1961 ص 326، و انظر: عن هذا الرأي الثاني (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/377-390).

هذا ويؤيد «هومل» و «أور» هذا الرأي، مع بعض الاختلافات، فهما يذهبان إلى أن دخول بني إسرائيل مصر، وغزو الهكسوس لها، إنما كان في عام 1877 ق. م، وأن الخروج، طبقا لرواية التوراة التي تجعل إقامة الإسرائيليين في مصر 430 سنة، إنما كان في عام 1447 ق. م، في عهد الملك أمنحتب الثاني، وأن غزو فلسطين تم بعد ذلك بأربعين سنة وهذا بالضبط عصر رسائل العمارنة (1)، ثم بدأ سليمان في بناء معبده بعد خروج أسلافه من مصر ب 480 سنة، أي في عام 967 ق. م (2).

ولعل قريبا من هذا ما يراه «أونجر» من أن موسى عليه السلام ولد في عام 1520 قبل الميلاد، على أيام الملك تحوتمس الأول (1528-1510 ق. م) وأن ابنة فرعون التي أنجته هي حتشبسوت، وأن اضطهاد بني إسرائيل قد بدأ بعد أن نشب النزاع بين حتشبسوت و تحوتمس الثالث، ثم وصول الأخير إلى العرش المصري، ومن ثم فإن «أونجر» يحدد تاريخ الخروج بعام 1441 ق. م، على أيام أمنحتب الثاني الذي يراه قد حكم في الفترة (1450-1425 ق. م)، وأن أباه تحوتمس الثالث قد حكم في الفترة (1482-1450 ق. م).

(م) (3).

ورغم جاذبية هذه النظرية، فيما يرى البعض، إلا أننا نعتقد أن هناك عقبات كئود تقف في طريق قبولنا لها، والتي منها (أولا) أن توحيد «عابيرو» رسائل العمارنة عبراني التوراة أمر بعيد الاحتمال، كما أشرنا آنفا، ومنها (ثانيا) أن رسائل «عبد خيبا» أمير أورشليم من قبل الفرعون إنما تفيد أن

ص: 277

1- أنظر: عن رسائل العمارنة و عصرها (محمد بيومي مهران: إخناتون- الإسكندرية 1979 ص 233-245).

2- خروج 40/12، ملوك أول 1/6، وكذا. 182. P, tic -po ,sdoL .A ,aveneG ,tnematseT dlo eht fo melborP eht ,rrO و كذا 422-424. 1908. p،

3- , 1970 , -332. p. 333-332. F. M regnU, regnU. s'elbiB elbiB yranoitciD.

مدينته كانت عرضة لهجوم كبير (1)، هذا مع أن رواية التوراة يفهم منها أورشليم لم تكن هدفا رئيسيا بالنسبة إلى يشوع، بل إن احتلالها، طبقا لرواية التوراة لم يتم إلا على أيام داود عليه السلام (2)، و منها (ثالثا) أن التفاصيل التي يقدمها سفر يشوع والقضاة عن الاستيطان الإسرائيلي النهائي في فلسطين، لا يتفق بصفة عامة مع المادة التاريخية التي جاءت في رسائل العمارنة، فمثلا أسماء الملوك الكنعانيين التي جاءت في سفر يشوع والقضاة، إنما تختلف عن أسماء الأمراء الذين حكموا نفس المدن أثناء عهد أمنحتب الثالث وولده إخناتون، فمثلا «عبدي خيبا» من رسائل العمارنة (3)، هو «أدونني صادق» من يشوع، أو «أدونني بازاق» في القضاة (4)، وكذلك حاكم «جارز» هو «يباخي» أو «يباخو» في رسائل العمارنة (5)، و هو «هورام» في يشوع (6)، و حاكم صور هو «عيد تيرش» في رسائل العمارنة (7)، و هو «يابين» في سفر يشوع والقضاة (8) ... وهكذا.

و منها (رابعا) أن نص سفر الملوك الأول (1 / 6) و الذي يحدد الفترة من الخروج و حتى بناء المعبد في العام الرابع من حكم سليمان بمدة 480

ص: 278

1- محمد بيومي مهران: إسرائيل 826 / 2 - 827، إخناتون ص 233، و كذا، dna .o ,rebeW .o dna ,nlefaT anramA -IE eiD ,giapieL ,P, TENA 489- 487, otnoroT, II, stelbaT anramA- le lleT eht, recreM. و كذا. A .J ,thgirbla .F .W .p, 1934 ، 721، B. A. S 727، و كذا 877 . 1915 .p.

2- محمد بيومي مهران: إسرائيل 828 / 2 - 839، و كذا، 1965، 342- 346، R 346- 342، S. A. R 346- 342، III، HAC ni, retsilacaM. و كذا. P, tic- po, nageniF. J 118

3- .P, TENA 489- 487 .

4- يشوع 1 / 10، قضاة 1 / 5- 7.

5- .P, TENA 490 .

6- يشوع 10 / 33.

7- .P, tic- po, sdoL. A 184- 182 . و كذا. A. S 7- 356، tic- po, kooC. P.

8- يشوع 1 / 11، قضاة 2 / 4.

سنة، يناقضه، فيما يرى سبينوزا، من يجعل هذه الفترة نفسها 440 سنة، كما أن هذه المادة، طبقاً لنصوص من التوراة تصل إلى 580 سنة (1)، و من ثم فقد رأى البعض أن مدة الـ 480 سنة، إنما هي عنصر متأخر في النص، وأن الترجمة السبعينية للتوراة قد وضعته في مكان آخر، و من ثم ربما كان تخميننا لأحد المؤلفين المتأخرين نسبياً، والذي ربما قد استخلصها من السجلات التوراتية، ذلك لأن هناك فترة اثني عشر جيلاً تقع ما بين الحادتين (الخروج وبناء المعبد)، وأنه قد أعطى لكل جيل كتقدير أعلى أربعين عاماً، فكانت النتيجة 480 عاماً (40 - 12 x عاماً)، و من ثم فنفس الشيء يكون صحيحاً في حالة التقويمات المتصلة في أسفار يشوع والقضاة و صموئيل، والتي تقوم على نفس التقدير، أي 40 عاماً لكل جيل (2)، و هناك افتراض آخر، هو أن الـ 480 عاماً، ربما تشير إلى الوقت الذي دخلت فيه مجموعة مبكرة، ربما يهوداً أو قبائل أخرى، إلى فلسطين من الجنوب، و هذا يفصلها عن قبائل «بيت يوسف» التي خرجت من مصر تحت قيادة موسى و يسوع، كما يجعلها سابقة لها، و لو أن التقاليد التوراتية، و كذا أي الذكر الحكيم، تجعل الحادتين مرتبطتين معاً في النهاية (3).

و منها (خامساً) أن الخروج، طبقاً لهذه النظرية، كان في عام 1447 ق. م، و إذا سمحنا بفترة 430 سنة للإقامة في مصر، طبقاً لرواية التوراة (4)، فإننا سوف نصل إلى عام 1877 ق. م، كما رأى هومل و أور، و هذا يصل بنا إلى قرابة قرن و نصف القرن قبل دخول الهكسوس مصر، و إنه لأمر غير

ص: 279

1- باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت و السياسة- القاهرة 1971 ص 290-296 (مترجم).

2- 1950, -2, P, tic- po, nageniF. J, yelwoR. H. H 121- 120 F 147, F 139. و كذا. nodnoL, auhsoJ ot hpesoJ morF 1950, -2, P.

3- .P, tic- po, nageniF. J 118 . -3

4- خروج 12/40.

مقبول أن يدخل بنو إسرائيل مصر قبل عصر الهكسوس، لأسباب سبق لنا مناقشتها عند الحديث عن يوسف عليه السلام، هذا فضلا عن أن دخول بني إسرائيل مصر عام 1877 ق.م، فإن ذلك يجعل دخولهم على أيام الأسرة الثانية عشرة، وفي عصر «سنوسرت الثالث» (1878-1843 ق.م) على وجه التحديد، إلا إذا اعتمدنا على النص السبتاجوني للتوراة الذي يختزل مدة الإقامة في مصر إلى النصف، أو أخذنا بوجهة النظر التي إذا اعتمدنا على النص السبتاجوني للترابط بين مجموعة «أبشاي» الآسيوية، وعددهم 37 فردا، والتي دخلت مصر على أيام سنوسرت الثاني (1897-1877 ق.م) وقد وجدت مناظرهم في مقبة «خنوم حتب» أمير بني حسن بمحافظة المنيا (1)، وبين دخول سيدنا إبراهيم عليه السلام أرض الكنانة، فضلا عن دخول بني إسرائيل، بقيادة يعقوب عليه السلام إليها (2)، غير أنه من المعروف أن إبراهيم دخل مصر على أيام سنوسرت الثالث (1878-1843 ق.م)، وأن يعقوب عليه السلام كان يعيش في الفترة (1780-1633 ق.م).

(م) وأنه دخل مصر، هو وأسرته، على أيام الهكسوس (1725-1575 ق.م) بدعوة من الصديق عليه السلام، وكان عددهم، طبقا لرواية التوراة، 70 نفسا، وأقاموا في وادي جوشن على حدود الدلتا الشرقية (3)، كما أشرنا إلى ذلك بالتفصيل من قبل.

ومنها (سادسا) أن نص التوراة (ملوك أول 1/6) الذي يعضد هذه النظرية، يناقضه نص آخر من التوراة (خروج 11/1) يجعل رعمسيس الثاني فرعونًا للتسخير، لأن بني إسرائيل قد سخروا في بناء مدينتي «بي رعمسيس وفيثوم»،

ص: 280

1- محمد بيومي مهران: مصر- الجزء الأول- الإسكندرية 1982 ص 646-648، و كذا، nodnoL, I, nassaH- ineB, yrrebweN. .E. P 31- 28. sIP, 1893

2- , 1969, 16. p. etogreV ne hpesoJ, tpygE ne sirap.

3- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 213-359.

وقد دلت الحفائر على أن الأولى قد أنشئت في عهد رعمسيس الثاني، والثانية قد أعيد بناؤها، كما سنشير فيما بعد بالتفصيل، ومنها (سابعاً) أن تحوتمس الثالث كان بناء عظيمًا، دون شك، وكما يقول أصحاب هذه النظرية، ولكن مشاريعه البنائية كانت في الصعيد، وبخاصة في العاصمة طيبة (1) (الأقصر الحالية)، هذا فضلاً عن أن عاصمة الفراعين المصريين لم تكن أبداً في الدلتا، فيما قبل الأسرة التاسعة عشرة، كما أنه لم تكن هناك اهتمامات رئيسية بمشروعات بنائية في الدلتا، وبخاصة في شرقها، حيث كان يقيم بنو إسرائيل هناك (2)، بل إنه بالكاد يفهم أن التحامسة قد كرهوا هذا المكان لاتصاله بالغزاة الهكسوس المكروهين وربما كان هذا هو السبب في عدم وجود آثار للأسرة الثامنة عشرة في «تانيس» عاصمة الهكسوس، وأما في الأسرة التاسعة عشرة، والتي كان ملوكها من هذه المنطقة، فقد وجد لدى رعمسيس الثاني الباعث السياسي لاختيار عاصمة ملكه في الدلتا، فبنى أو أعاد بناء «فيثوم»، ثم بنى «بي رعمسيس» التي حملت اسمه (3)، ومنها (ثامناً) أن الفترة ما بين عامي 1500، 1200 ق. م، إنما تمثل فترة التقدم الذي أظهره الصناع الكنعانيون في وسائلهم الفنية تحت التأثير الإيجي، ومن ثم فقد كان هذا العصر هو العصر الذهبي لصناعة الفخار الكنعاني، ومن العجيب أن يتطابق ازدهار الفن، مع غزو البلاد بواسطة هؤلاء البدو، الذين كانوا بالتأكيد أقل مدينة من السكان الأصليين، ولهذا فمن الطبيعي جداً أن يتفق دخول هؤلاء البرابرة أرض كنعان، مع فترة التدهور التي نملك عليها الكثير من الأدلة، والتي جاءت بعد عام 1200 ق. م.

ومنها (تاسعاً) أن النتائج التي توصل إليها «جون جارستانج» من أن

ص: 281

1- أنظر: سليم حسن: مصر القديمة 4/ 455-496.

2- .P, tic- po, sdoL. A 183 .

3- , 19, 1933, p. 126-127. AEJ, renidraG. A

المدينة قد انهارت أمام قوات يشوع، فهناك احتمال على أن الزلازل ربما كانت هي السبب، لأن الموقع الجيولوجي للمدينة يبعث على مثل تلك الأحداث هذا إلى أن الجدار الأول، والذي يرجع إلى عصر البرونز المبكر، كان فيما يبدو، قد انهار بسبب الزلازل كذلك (1).

ومنها (عاشرا) أن الدليل الأثري من عبر النهر (شرق الأردن) وكذا من لخيش (2) وديبر، لا يتفق مع الخروج المبكر، فلقد قام «نلسون جلوك» بمسح أثري لمنطقة شرق الأردن، وتوصل إلى أن الفترة فيما بين عامي 1900، 1300 ق. م، تمثل ثغرة في السكان المقيمين في المنطقة، فإذا كان خروج بني إسرائيل من مصر، حوالي عام 1400 ق. م، فالمفروض، والأمر كذلك، ألا يلتقوا بالملوك الآدوميين و العمونيين و المؤابيين، الذين عاقوا تقدمهم، كما تقول التوراة، وإنما كان هناك بدو متفرقون هنا وهناك، والأمر كذلك بالنسبة للدليل الأثري من «لخيش» و «ديبر» (3)، ومنها (حادي عشر) أن الحفريات التي أجريت في دبير، (تل بيت مرسيم الحالية على مبعدة 13 ميلا جنوب غربي جبرون) (4) اكتشفت طريق الفرعون أمنحتب الثالث، والذي كان ما يزال يستعمله الموظفون في دبير، مما يدل على أن مصر كانت ما تزال صاحبة السيادة هناك حتى عصر أمنحتب الثالث، وأن الإسرائيليين لم يكونوا قد قدموا بعد إلى هذه المنطقة، وفي نهاية عصر البرونز المتأخر وجدت آثار حريق هائل، وفوقها بقايا إسرائيلية، مما يدل على عدم وصول

ص: 283

1- . P, tic- po, nagniF. J 159. و كذا F. P, tic- po, gnatsraG. J 144

2- لخيش: وهي تل الدوير الحالية، على مبعدة خمسة أميال جنوب غرب بيت جبرين، وقد أثبتت الحفائر أنها سكنت منذ عصر البرونز المبكر (محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 614).

3- . P, tic- po, regnU. F. M 334

4- . P, tic- po, nageniF. J 163 و كذا. P, . dibl 255

الإسرائيليين حتى هذا العصر (1)، و منها (ثاني عشر) أن حفائر متحف جامعة بنسلفانيا في بيت شان (2) (بيسان) في سهل يزرعيل أثبتت أن المنطقة ظلت تحت سيطرة الحاميات المصرية (3)، كما كانت على أيام أمنحتب الثالث، و حتى أيام رعمسيس الثاني، حيث وجدت أسماؤها على معبد المدينة (4)، مع أنها ذكرت من بين المدن التي استولى عليها يشوع (5).

و منها (ثالث عشر) أن التاريخ يحدثنا أن «حتشبسوت» حكمت مع أختها تحوتمس الثاني (1510-1490 ق. م)، كزوجة و ليست كملكة، ثم حكمت بعد ذلك مع ابن أخيها تحوتمس الثالث، كوصية على العرش، و إن ظلت المراسيم تصدر باسمه فترة ما بين أربع و سبع سنوات، بل إن «جاردنر» يرى أن هناك نصا لم ينشر بعد، يحدد تتويج حتشبوت كملك بالسنة الثانية (6)، و استمرت كذلك حتى عام 1468 ق. م، حيث خلفها تحوتمس الثالث، و الذي خلفه ولده أمنحتب الثاني، و إذا ما طبقنا ذلك على ما أرتآه «جارستانج» من أن موسى عليه السلام هرب من مصر بعد وفاة حتشبسوت، و جلوس عدوها تحوتمس الثالث على العرش، ثم خروج بني إسرائيل في أخريات عهده، لرأينا ذلك إنما يتناقض مع ما جاء في التوراة و القرآن العظيم من أن موسى عليه السلام قد خرج من مصر إلى مدين لأنه قتل مصريا على سبيل الخطأ (7)، كما أننا لو صدقنا «جارستانج» و من تابعه في رأيه، من أن

ص: 284

-
- 1- P, tic- po, seitiC neT s'rehpeS htajriK snoitavacxE, elyK. G. M 192, ROSAA 79، و كذا. thgirblA. F. A , -1
13. p. 55- 128، 17، 21- 22.
 - 2- أنظر: , ewoR. A 1930، dna yhpargopoT ehT, fo yrotsiH dne hteB- nahS- .ainavlysnncP.
 - 3- .P, tic- po, thgirblA. F. W 125 .
 - 4- .P, tic- po, regnU. F. M 142 .
 - 5- يشوع 11/17.
 - 6- .P, tic- po, renidraG. A 184 .
 - 7- سورة القصص: آية 15- 22، خروج 11/2- 15.

هروب موسى من مصر كان بسبب استيلاء تحوتمس الثالث على العرش، لكان على موسى ألا يعود إلى مصر إلا بعد وفاة تحوتمس الثالث، خاصة وأن التوراة تشير إلى أن عودة موسى إلى مصر كانت مرتبطة بوفاة من كان يطالبه بالقصاص (1)، هذا فضلا عن أن تدمير أريحا إن كان في عام 1407 أو عام 1400 ق. م، فهذا يعني أنه حدث في أخريات، عهد تحوتمس الرابع، أو أوائل عهد أمنحتب الثالث، و في كلا العهدين كانت مصر، دون شك، ما تزال تحتفظ بامبراطوريتها الواسعة في آسيا الغربية، بل إن تحوتمس الرابع إنما يعتبر واحدا من الفراعين العظام، وأنه قام بواجبه تماما في الحفاظ على الامبراطورية المصرية هذا فضلا عن أن أمنحتب الثالث كان، على الأقل، في النصف الأول من حكمه كبير ملوك الشرق الأدنى دون منازع.

ولعل سؤال البداهة الآن: كيف استطاع بنو إسرائيل دخول كنعان، وهي ولاية مصرية، ثم تدمير أريحا و عاي وبيت أيل وغيرها من فلسطين، دون أن يحرك الفرعون ساكنا؟ في الحقيقة إن هذا أمرا لا يمكن قبوله بسهولة، ما لم تعضده أدلة قوية، وهذا ما لم يثبت حتى الآن، فضلا عن أنه أمر تحيط به عوامل الشك و الريبة من كل جانب، و من ثم، فإنني أتردد كثيرا في الأخذ بهذا الرأي.

و منها (ثالث عشر) أن بعثة «جامعة ستراسبج» كشفت عام 1965 م عن نص في معبد أمنحتب الثالث في «صولب» في التوبة السودانية، وفيه ذكر لقبائل من بدو الصحراء، و منهم قبيلة «يهوه» في عصر أمنحتب الثالث (2)، و لعلنا نستنتج من هذا أن قبيلة يهوه البدوية كانت عصر أمنحتب الثالث (1405-1367 ق. م) ما تزال في مصر، و إن كنا على غير يقين من أن اسم

ص: 285

1- خروج 23 /2 -25، 19 /4.

2- مراد كامل: الكتب التاريخية في العهد القديم- القاهرة 1968 ص 19.

«يهوه» هنا له صلة ببني إسرائيل أم لا، و مع ذلك، فهو، على الأقل، يثير ظلالة من شك حول نظرية الخروج في عهد تحوتمس الثالث أو ولده أمنحتب الثاني.

[3] توت عنخ آمون: هو فرعون موسى:-

يعتمد هذا الرأي على آراء العالم اليهودي «سيجموند فرويد» (1856-1939 م) في موسى الذي يراه مصرياً، وليس عبرانياً، وفي ديانة إخناتون، و من ثم فقد عقد مقارنة بين الديانتين، الموسوية و المصرية القديمة، و خلص منها إلى أنهما على طريق نقيض، فبينما نرى في الموسوية وحدانية متشددة (1)، نرى في المصرية القديمة وثنية مفرقة في التعدد، هذا فضلاً عن أننا نكاد نعرف شعباً آخر في تاريخ العالم القديم وصل إلى الدرجة التي وصل إليها المصريون من تجاهل للموت، و لا بذل ما بذلوا لتأمين معيشتهم في الآخر، في الوقت الذي أغفلت فيه الموسوية الحياة الأبدية تماماً، فلم يرد في أي موضع من التوراة ذكر لإمكان حياة بعد الموت (2)، و هو أمر تزيد غرابته، إذا تبين لنا أن الإيمان بالآخرة يتفق تماماً مع عقيدة التوحيد (3).

ص: 286

1- لا ريب في أن دعوة موسى عليه السلام، شأنها في ذلك شأن بقية دعوات الأنبياء الكرام، إنما هي دعوة توحيدية صحيحة غير أن دعوة موسى تلقاها عن ربه، شيء، و ما سجلته توراة اليهود، و ليست توراة موسى، عن التوحيد شيء آخر، و قد قدمنا دراسة مفصلة عن الديانة اليهودية، اعتماداً على ما جاء في توراة اليهود المتداولة اليوم، و التي تبعد عن دعوات التوحيد كثيراً أو قليلاً (محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الرابع - الباب الأول (7 فصول) الديانة اليهودية ص 1-218).

2- أنظر عن الحياة بعد الموت، كما قدمتها توراة اليهود (محمد بيومي مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل - ص 102-106، إسرائيل 234/4-236، و كذا: حبيب سعيد: أديان العالم ص 182-183، و كذا: Y. N, msiehtonM dna sesoM, duerF. S 29- 18. و كذا: F. P, i, learsI'd notaeh. W. E 137- 134. p. 1969، و كذا: R. E. nane, 1939, p. 128 elpueP ud eriotSiH.

3- Y, N, msiehtonM dna sesoM, duerF. S 20- 18. p. 1939 , -3.

و هنا يبدأ «فرويد» يتحدث عن ديانة إخناتون، ثم يعقد مقارنة بينها وبين ديانة العبرانيين، فيقدم لنا صورة عن عقيدة الشمس منذ نشأتها حتى أيام إخناتون (1367-1350 ق. م)، ثم اعتناق الفرعون لعقيدة التوحيد، و تمجيده لها في أناشيده (1)، و على أن إله الشمس هو الخالق و الحافظ لكل الكائنات، و عن الحرارة التي تبدو في تسيحاته، و التي تسبه تلك التي تسري بعد ذلك ببضعة قرون في المزامير التي تمجد «يهوه» إله اليهود (2)، غير أن إخناتون، على وجه اليقين، لم يعبد الشمس على أنها شيء مادي، وإنما على أنها الكائن مقدس تتم هذه الأشعة عن قدرته، و هو أمر ذهب إليه من قبل كثير من الباحثين، من أمثال إرمان و برستد و هول و غيرهم (3)، هذا فضلا عن إخناتون قد أضاف إلى فكرة عالمية الرب شيئا جديدا أوضح فيه فكرة الوحداية، و هي الطبيعة الخاصة به، و من ثم فهو يقول في تسيحاته «اللهم إنك أنت الإله الواحد الذي ليس معه سواه» (4)، و من هنا فقد أغلقت معابد الآلهة في كل أنحاء الإمبراطورية المصرية، و صودرت ممتلكاتها، و عطلت شعائرها، و ضرب الحجز على خزائن الكهنوت، و ذهب إخناتون في حماسه إلى حد أنه أمر بفحص الآثار المصرية، و محو كلمة «الآلهة» حيثما وجدت منقوشة عليها في صيغة الجمع، لأن الله واحد لا يجمع (5)، كما حرم

ص: 287

- 1- أنظر: عن عقيدة الشمس قبل أيام إخناتون، و عن التوحيد في دعوة إخناتون و أناشيده (محمد بيومي مهران: إخناتون ص 295-315، ص 337-382).
- 2- .P, tic- po, deurF. S 21 .
- 3- محمد بيومي مهران: إخناتون ص 349-350، أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة ص 125-146- القاهرة 1952 (مترجم)، و كذا. .P, tic- po, llaH. R. H 300- 298. . P, . tic- po, duerF. S 22- 21
- 4- .Y. N, necneicsnoC fo nwaD ehT, detsaerB. H. J 280- 278. p, 1939 .,
- 5- أدولف إرمان: المرجع السابق ص 133-138 و كذا. H. J. و كذا. .P, tic- po, duerF. S 22. P, tic- po, detsaerB 280

إخناتون جميع الأساطير و أعمال السحر، و عدم السماح بعمل أي صنم لإلهه «آتون» (1) لأن الإله الحق لا صورة له، هذا فضلا عن التغيير في التعبير الشكلي لإله الشمس، فلم يصور بصورة هرم صغير و صقر، وإنما بأسلوب يكاد يكون عقلانيا، يبدو فيه قرص الشمس و قد انبعثت منه أشعة نهايتها على شكل الأيدي، و أخيرا فلم يرد أي ذكر للإله «أوزير»، إله الموتى و رب الآخرة عند المصريين، و لا لمملكة الموتى و الحساب في الآخرة (2).

ثم يبدأ «فرويد» في عقد مقارنة بين الديانتين، الأخناتونية و الموسوية، مع إقراره بأن ذلك سيكون أمرا صعبا، ذلك لأن تعطش كهنة آمون الحاقدين للثأر من ديانة آتون، قد حرمت الكثير من المعلومات عنها، بسبب تحطيم الغالبية العظمى من آثار إخناتون، كما أننا لا نعرف ديانة موسى عليه السلام، إلا في شكلها، كما تم تثبيتها بعد موسى عليه السلام، بثمانية قرون، على الأقل، (إذا أخذنا بالرأي الذي يناهز بأن الخروج كان على أيام مرنبتاح) على يد رجال الدين اليهودي، في العصر الذي تلا السبي البابلي (586-539 ق. م)، حيث ابتعثت دولة يهوذا في ظل الحماية الفارسية على يد «عزرا» الذي جاء من السبي، فيما يرى كثير من المؤرخين، حوالي عام 398 ق. م (3)، هو الذي يعزي إليه إرساء العقيدة اليهودية، كما تطالعنا الآن (4).

ص: 288

1- .P, tic- po, renidraG. H. A 227 .

2- .P, tic- po, detsaerB. H. J 300 . و كذا. .P, tic- po, duerF. S 26- 22

3- أنظر: نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 469، .F .W .F .P ,elbiB eht dna enitsalP fo ygoloeahcrA ehT ,thgirblA .
413 .H .yelwoR ehT fo tnavreS ehT .S ehT no yassE rehto dna droL ehT fo p ,tic -po ,kooC .A .S ehT no yassE rehto dna droL ehT fo tnavreS ehT ,yelwoR .H 413
و كذا. .P, tic- po, nageniF. J 239 و كذا، 1952، p، 159- 131 .tnematseT dlO و كذا. .P, tic- po, htoN. M 230

4- إذا كان «عزرا» هذا، هو «عزير» الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، و هذا ما نميل إليه و نرجحه، فإن اليهود وقت ذاك القرن (القرن 4 ق. م) قد أشركوا بربهم، و جعلوا من عزير ابنا لله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (التوبة: آية 30).

هذا ويقدم لنا «فرويد» بعض المقابلات بين الديانتين، لعل من أهمها (أولا) أن صيغة إعلان الإيمان (الشهادة اليهودية) إنما تنطق على الوجه التالي «شمع إسرائيل أدوناي إلهينو أدوناي أحد» و ترجمته إلى اللغة العربية كالتالي «اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا إله واحد»، فإذا لم يكن بالصدفة هذا التشابه في اللفظين بين «أتون» المصري، و «أدوناي» العبري و «أدونيس» السوري، وإذا كان هذا التشابه بالعكس نتيجة تماثل في الأصل من حيث اللفظ و المعنى، أمكن أن نترجم الجملة العبرية هكذا «اسمع يا إسرائيل أتون إلهنا إله واحد»، و منها (ثانيا) أنه من السهل أن نبين أوجه الشبه و الخلاف بين الديانتين، فكلاهما مظهر لوحداية مطلقة دقيقة (1)، و يميل «فرويد» أن يرد، من أول وهلة، لهذا الطابع الأساسي فيهما كل نقاط التشابه القائمة بينهما، و منها (ثالثا) أن الدين اليهودي، كما قدمته لنا تورا اليهود المتداولة اليوم، كان يجهل الآخرة و الحياة بعد الموت، و هي معتقدات لا تتعارض مع الوحداية مهما بلغت من الشدة، و الأمر كذلك بالنسبة لديانة إخناتون، و هذا التوافق بين اليهودية و الآتونية في هذه النقطة، إنما يعتبر أول حجة جديدة، إلى جانب مصرية موسى، و إن كانت ليست بالحجة الوحيدة (2).

و منها (رابعا) أن موسى عليه السلام لم يعط اليهود دينا جديدا فحسب، و إنما فرض عليهم الختان كذلك، و رغم أن التورا ترجعه إلى عصر الآباء

ص: 289

1- أنظر عن الوحداية في الآتونية و اليهودية (محمد بيومي مهران: إخناتون ص 462-477، إسرائيل 4/ 83-121).

2- .P, tic- po, duerF. S 29- 27 .

الأولين، وأن الرب غضب على موسى عند تركه و كاد أن يقتله، لو لا أن أسرعت زوجته المدنية وقامت بختان ابنها (1)، غير أن الحقيقة التي لا شبهة فيها أن الختان جاء إلى اليهود من مصر، وأنه لا يوجد شعب آخر في حوض البحر المتوسط يتبع هذه السنة غير المصريين، الذين تدل آثارهم على أنهم عرفوا الختان منذ عصور ما قبل التاريخ، حوالي عام 4000 ق. م، كما تدل على ذلك أجسام بلغ من حفظها أن أمكن فحصها والاستدلال منها على اتباع المصريين لسنة الختان، هذا فضلا عن صور تمثل عملية الختان يقوم بها جراح مصري في قبر جبانة مثقف من الدولة القديمة، وآخر في الكرنك من الدولة الحديثة (2)، كما أن رواية التوراة (3) يفهم منها أن إبراهيم عليه السلام قام بعملية الختان بعد عودته من مصر، وإنجابه ولده إسماعيل عليه السلام، هذا فضلا عن أن النص نفسه إنما دونه أحبار السبي البابلي، فيما بين القرن السادس والخامس ق. م. (4)، أي بعد عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، بما يربو عن ألف وخمسمائة عام، كما أنه لم يدخل في صلب أسفار الشريعة في صورتها الحالية، إلا في عام 400 ق. م، فلا غرو أن يتعارض تعارضا جذريا مع روايات أخرى في سفر التثنية (5)، والتي ربما كانت أصداء خافتة لوقائع في صورة من أساطير عن نشأة سنة الختان، تلك السنة كانت عادة مصرية متأصلة (6).

ص: 290

-
- 1- تكوين 10/17-11، خروج 24/4-26.
 - 2- .P, tic- po, detsaerB. J 10. on. 303.
 - 3- تكوين 10/17-11، 23-27، وانظر: محمد بيومي مهران: قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (2) مجلة الأسطول- العدد 67، الإسكندرية 1971 ص 5-6.
 - 4- .P, tic- po, sdoL. A 152.
 - 5- تثنية 1/5-3، وكذا. P, tic- po, sdoL. A 199.
 - 6- محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 6، وكذا، 1956. p. 59-60. Y. N, stnemdnammoC neT, seivaD. P. A

و هنا يتساءل فرويد: إذا كان موسى يهوديا راغبا في تحرير بني جلدته من نير المصريين، فما الذي دعاه إلى فرض سنة الختان على قومه، و كل ما يتوقع منها أن تجعل اليهود مصريين، و ما الداعي لتخليد ذكرى مصر فيما بينهم، رغم أن جهوده كانت موجهة إلى عكس ذلك، و هذا كله يدل على أن موسى لم يكن يهوديا، بل كان مصريا (1)، الأمر الذي يترتب عليه أن الديانة الموسوية كانت على الأرجح ديانة مصرية، و لكن ليست الديانة السائدة بين الشعب، و إنما ديانة إخناتون التي تتفق مع اليهودية في كثير من النقاط.

و هنا يتجه «فرويد» إلى هدفه مباشرة، و هو أن موسى كان مصريا، و كان طموحا عالي الهمة، و ربما راودته فكرة أن يصبح في يوم ما زعيم شعبه، و رئيس الإمبراطورية المصرية، و لما كان من المقربين إلى فرعون (إخناتون) فقد أبدى حماسة شديدة بالعقيدة الجديدة التي فهم أفكارها الرئيسية و تشربها، و لكن عند ما زحفت الرجعية على إثر موت إخناتون، رأى موسى أن كل آماله و تدابيرته تنهار، فمصر لم يعد عندها ما تعطيه له، اللهم إلا إذا كفرت بمعتقداتها التليدة، و هكذا أصبح موسى رجلا فقد وطنه، و هنا واثته فكرة: إن إخناتون الحالم قد بلبل فكر شعبه و ترك إمبراطوريته تتمزق إربا، فإذا موسى، بما جبل عليه من علو الهمة، يتصور خطة ينشئ بها إمبراطورية أخرى يكون دينها هو الدين الجديد الذي نبذته مصر، و ربما كان في ذلك الوقت حاكما للإقليم المتاخم للحدود الشرقية، حيث تقيم في «جوشن» بعض القبائل السامية منذ أيام الهكسوس، فمن هذه القبائل يقرر موسى أن يتخذ له شعبا جديدا، و من ثم فقد قام بإنشاء علاقات مع القبائل السامية في أرض جوشن و نصب نفسه زعيما عليها، و قادها إلى الخروج «بيد (1) ليس صحيحا، على وجه اليقين، أن موسى كان مصريا، و سوف تناقش هذه القضية بالتفصيل في هذه الدراسة (الباب الرابع - الفصل الأول).

قوية»، ويمكننا خلافا للتراث العبراني افتراض أن الخروج تم بسلام وبدون مطاردة، فإن سلطة موسى جعلت ذلك ممكنا، ولم يكن هناك حينئذ قوة مركزية يمكنها أن تمنعه، ثم يرى «فرويد» أن الخروج من مصر حدث خلال فترة السنوات الثماني التي تلت موت إخناتون و سبقت استيلاء «حورمحب» على العرش (1)، بل إن «آرثر ويجال» إنما يحدد الخروج بعام 1346 ق. م، و يرى أنه تم في آخر عهد «توت عنخ آمون» (2).

وفي الواقع فإن «كارل إبراهيم» إنما سبق «فرويد» في القول بأن إخناتون إنما كان مصلحا، و نبيا عظيما، ففي عصره لم ترسم الآلهة في شكل آدمي، و هكذا كان إخناتون رائد التوحيد الموسوي، بل الأبعد من ذلك أنه كان رائد المسيح عليه السلام، ففكرة إخناتون عن الإله أقرب إلى الفكرة المسيحية منها إلى الفكرة الموسوية (3)، هذا و يذهب المؤرخ "hceeW" إلى أن موسى قد دعا بني إسرائيل إلى التوحيد، و كانت هذه العقيدة قد ظهرت في العالم قبل ذلك على يد «إخناتون»، و يبدو أن موسى، و قد أمضى طفولته و صباه و شبابه في مصر، قد عرف هذه العقيدة و تأثر بها و دعا إليها (4)، و على أية حال، فنحن و إن كنا نرفض الربط بين وحدانية موسى عليه السلام، و دعوة إخناتون، ذلك الربط الذي يصل عند «فرويد» إلى أن الأولى منقولة عن الثانية، فلا نشك في وجود مقابلات بين الديانتين، حتى و إن كانت غير مباشرة، فالوحدانية المطلقة كانت من أوضح الصور الشائعة بينهما، و على سبيل المثال، فإنه إسرائيل يقول «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» (5).

ص: 292

1- .P, tic- po, duerF. S 32- 29 .

2- .siraP, enneicnA etpygE'L ed eriotSiH, lagieW. A 146. p. 1968 ,

3- .I, ogamI, maharbA. C 364- 346. p. 1912 ,

4- .P, tsaE raeN eht fo noitaziliviC, hceeW. H. E 88 .

5- خروج 3/20.

وإخناتون يصف إلهه بأنه «الإله الذي لا إله إلا هو»، ثم التأكيد بعد ذلك في التعاليم الآتونية، و الضغط المستمر على «الإله الواحد، و الخالق لكل شيء»، فأتون، كيهوه، هو الإله الخالق لكل من يأتي إلى هذه الحياة و ما يأتي إليها (1).

و أيا ما كان الأمر، فهناك من الأسباب ما يجعلنا نرفض وجهة نظر «فرويد» هذه، منها (أولاً) أن هذه النظرية تحتاج إلى دراسة جادة عميقة متأنية للديانتين، الموسوية و الآتونية، و هذا أمر في منتهى الصعوبة، إن لم يكن محالاً، و قد تنبه فرويد نفسه إلى ذلك فنحن حتى الآن لا نستطيع القول بأننا نملك، على وجه اليقين، الصورة الصحيحة للآتونية أو الموسوية، فالأولى قد أضع حقد كهان آمون أكثر الكثير من نصوصها، و الثانية لعبت فيها أيدي اليهود بما شاءت لهم أهواؤهم، كما أن معلوماتنا الحالية عنها إنما ترجع إلى نصوص كتب بعد الأسر البابلي أو أثناءه (586-539 ق. م)، و موسى عليه السلام عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إن لم يكن في القرن السادس عشر قبل الميلاد، كما رأينا من قبل، و الفرق بين نزول الرسالة على موسى و بين تدوينها، فرق كبير، يصل إلى ثمانية قرون على رأي، و قد يصل إلى أحد عشر قرناً أو حتى عشرة قرون فيما يرى آخرون، و منها (ثانياً) أنا لا نعرف عن إخناتون غير أنه الملك الذي جلس على عرش الكنانة في الفترة (1367-1350 ق. م)، و أنه نادى بعبادة الإله الواحد الأحد و من ثم فقد أغلقت معابد الآلهة في كل أنحاء الإمبراطورية المصرية، و صودرت ممتلكاتها و عطلت شعائرها، مما أثار عليه تجار الدين من كهنة آمون و غيرهم، و من ثم فقد هاجر من طيبة إلى بقعة عذراء لم تشهد عبادة إله آخر من قبل، فأقام عليها مدينته الجديدة «آخت أتون» (العمارنة) (2)، و بقي

ص: 293

1- , 1963 , 15- 16 p. F. w thgirblA. ehT, doireP lacilbiB morF, arZE ot maharbA morF, Y. N.

2- العمارنة، و تقع على مبعده 190 ميلاً جنوبي القاهرة، 260 ميلاً شمالي الأقصر، فيما بين ملوي و ديروط، في مقابل دير مواس عبر النهر، و كانت تمتد على مسافة تقرب من الميل شمالي قرية التل، و حتى الحوطة شرقي النهر، و تمثل العمارنة (أخيتاتون) في الوقت الحاضر، قرى بني عمران و الحاج قنديل و العمارنة و الحوطة، ثم الخرائب القليلة التي تقع على طول المدينة القديمة و من ورائها المقابر، و تحمل «أخيتاتون» اسم مليكها لأن المقطعين آخت و أخن مشتقان من نفس الجزع، على حين ألحقت كلمة أتون بكل من اسم الملك و عاصمته.

هناك حيناً من جدھر، يتعبّد إلى ربّه و يزعم مجالس الدعوة إليه، و أخيراً تجمعت قوى الشرّ ضده حتى انتهى أمره، فصبّ كهان آمون كلّ حقدهم عليه و على دعوته و اصطلموا أتباعه، و نصّبوا من بعده على العرش صبياً لما يّئفّع، فمكّن لهم و أطلق أيديهم، فأبادوا ديانة آتون، و أعادوا ديانة آمون (1).

و لعلّ سؤال البداهة الآن: ما صلة كلّ هذا بأستاذية إخناتون لموسى عليه السلام؟ و هل كانت دعوة إخناتون إرهاباً لدعوة موسى عليه السلام؟

أو هي تمهيد لدعوة التوحيد بين قوم ألفوا تعدد الآلهة، دون أن يجدوا في ذلك أمراً إذاً؟ أم أن إخناتون نبي، كما يرى بعض الباحثين؟

إن الإجابة على واحدة من هذه الأسئلة، لا يستطيع صاحب هذا الكتاب أن يتحمل مسؤوليتها أمام الله تعالى، أو قل: لا يستطيع أن يتحمل و زر الخطأ فيها رجل صحب القرآن الكريم، و هو لما يعدو السادسة من عمره، و ما يزال و سيظلّ، إن شاء الله في صحبته الكريمة ما دام حياً يرزق في هذه الدنيا، حيث الصحبة الأبدية، إن شاء الله، في عالم الآخرة، ذلك لأننا نحن المسلمين ملتزمين بما جاء في محكم التنزيل عن الأنبياء عليهم السلام، و ليس إخناتون، بالتأكيد، واحداً ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم، و في نفس الوقت نحن نعلم كمسلمين، أن موسى عليه السلام، نبي).

ص: 294

1- أنظر عن النكسة التي أصابت دعوة إخناتون و عودة الوثنية (محمد بيومي مهران: إخناتون ص 383-421).

الله ورسوله، كما نص على ذلك الذكر الحكيم (1) سورة غافر: آية 78. (2) ابن قتيبة: كتاب المعارف ص 26، الماوردي: أعلام النبوة ص 52، مجمع الزوائد 8/210، تفسير ابن كثير 2/422-428، تفسير الكشاف 3/18-19، تفسير القرطبي ص 2014-2015، تفسير روح المعاني 4/88-89. (3)، بل ونعلم كذلك أسماء خمسة وعشرين من هؤلاء المصطفين الأخيار (4)، غير أننا في الوقت نفسه لا نستطيع القول، ونحن مطمئنون إلى ما نقوله عن إختاتون إنما هو الحق كل الحق، ذلك لأن سبحانه تعالى أخبرنا في كتابه العزيز، أنه ما من أمة إلا وجاءها رسول من عند الله، العزيز الحكيم، قال تعالى: **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (5)**، وقال تعالى: **وَكَم أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأُولِينَ (6)** ثم يخبر نبيه ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم **مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (5)**، وقال تعالى: **رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ (7)**.

و من هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء عليهم السلام، فمن قائل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ومن قائل إنهم ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف نبي من بني إسرائيل، ومن قائل إنهم أربعة آلاف، ومن قائل إنهم ثلاثة آلاف (7)، وأن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم

ص: 295

-
- 1- أنظر: عن نبوة موسى عليه السلام: سورة البقرة (87) آل عمران (84) الأنعام (91، 154) الأعراف (103، 104، 144) يونس (75) هود (96)، إبراهيم
 - 2- مريم (51) طه (24، 43، 47) الأنبياء (48) المؤمنون (45) الفرقان (35) الشعراء (10، 16، 27) النمل (10) القصص (32، 36) العنكبوت (39) الأحزاب
 - 3- الصفات (17-18) غافر (32) الزخرف (46) الدخان (17) الذاريات (38).
 - 4- هم: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم.
 - 5- سورة فاطر: آية 24.
 - 6- سورة الزخرف: آية 6.
 - 7- سورة النساء: آية 164.

آدم، و آخرهم محمد صلى الله عليه و سلم (1)، و على أي حال، فليس من المستحب الخوض في إحصاء الرسل و الأنبياء، فإنه لا يعلم إلا بوحى من الله تعالى، و لم يبين الله ذلك في كتابه الكريم، و لا رسوله فيما صح عنه من الخبر (2)، غير أن حديث أبي ذر المشهور، فيما رواه ابن مردويه، و قد جاء فيه أنه دخل المسجد النبوي الشريف، فإذا رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس وحده، فسأله عن أشياء، منها الصلاة و الهجرة و الجهاد و الصيام و الصدقة، ثم قال: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف و أربعة و عشرون ألفاً، قال قلت يا رسول الله: كم الرسل من ذلك، قال ثلاثمائة و ثلاثة عشر، جم غفير، كثير طيب، قلت يا رسول الله: من كان أولهم، قال: آدم، قلت يا رسول الله نبي مرسل؟ قال نعم، خلقه الله بيده، و نفخ فيه من روحه ثم سواه قبيلًا، و قد روى هذا الحديث من وجه آخر عن صحابي آخر، فقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة، قال قلت: يا نبي الله كم الأنبياء؟ قال مائة ألف و أربعة و عشرون ألفاً، و الرسل من ذلك ثلاثمائة و خمسة عشر، جما غفيرا (3)، غير أن هناك رواية عن أنس بن مالك تذهب إلى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث بعد ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل (4).

و بدهي أنه ليس في كل هذا ما يشير من قريب أو بعيد، على أن إختاتون كان واحدا من أنبياء الله الكرام، و إن كانت آيات القرآن الكريم لا تمنع من أن يكون من الذين لم يقصصهم الله على رسوله صلى الله عليه و سلم، و هذا يعني

ص: 296

1- أنظر: تفسير القرطبي ص 4472 (دار الشعب- القاهرة 1970).

2- محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم ص 24.

3- تفسير ابن كثير 2/ 422-426، مختصر التفسير 1/ 465، ثم قارن سند الإمام أحمد 5/ 265، 266، تفسير روح المعاني 24/ 88.

4- تفسير ابن كثير 2/ 424، مجمع الزوائد 8/ 210.

أن سؤالنا ما يزال بغير جواب، هل كان إخناتون واحدا من أنبياء الله الأبطال؟ أم أنه لا يعدو أن يكون مجرد ملك ثار على دين قومه، وأتى لهم بدين جديد انتهى بانتهاك حياته؟ في الواقع أنه لا توجد لدى صاحب هذا الكتاب إجابة، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله.

ومنها (ثالثا) أن هذا الرأي يذهب إلى أن فرعون الخروج (فرعون موسى) إنما هو «توت عنخ آمون» طبقا لما صرح به «آرثر ويجال» أو لما ارتآه «فرويد»، صاحب النظرية، من أن الخروج تم بعد موت إخناتون بثماني سنوات، و من المعروف أن فترة حكم «توت عنخ آمون» كانت، فيما يرى جاردنر في الفترة (1347-1339 ق. م) أو في الفترة (1352-1343 ق. م) فيما ترى «كريستيان نوبلكور»، وكلا التاريخين يقع في الفترة التي حددها «ويجال» (أي في عام 1346 ق. م)، أو ما بين عامي 1350، 1342 ق. م، فيما يرى فرويد، غير أن آخر فحص لمومياء «توت عنخ آمون» في عام 1971، قد أثبت أن الفرعون الشاب كان عمره في لحظة الوفاة فيما بين الثامنة عشرة و العشرين، كما أثبت كذلك أنه مات بسبب حادث أو اغتيال، وذلك من أثر صدمة عنيفة في مؤخر رأسه، قد تكون ضربة من هراوة أو سقوطا من مرتفع (1)، ولم يثبت الفحص أنه مات غرقا، وهو الأمر المؤكد في وفاة فرعون موسى، كما أشارت إلى ذلك التوراة والقرآن العظيم (2).

هذا فضلا عن أن أحداث قصة فرعون مع موسى، وتجبره وعناده وإصراره على الكفر، و وصف الله تعالى له في القرآن الكريم بقوله تعالى:

وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ، وقوله تعالى:

ص: 297

1- , 1963, p. 173, C 215, D. C 215, truocelboN. D. C 215, natuT, nemahk.

2- سورة يونس: آية 90-92، خروج 14/26-31.

فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (1) وقوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (2)، وقوله تعالى: اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (3)، وأخيرا ادعاؤه الألوهية، كما جاء ذلك في كثير من آي الذكر الحكيم (4)، كل هذا وغيره إنما يتناقض و ما نعرفه تاريخيا عن «توت عنخ آمون»، ذلك الطفل الذي ولي العرش صبيا في التاسعة، وربما الثامنة من عمره، بتدبير من كهان آمون، فمكّن لهم و أطلق أيديهم في شؤون الدين و الدنيا، و لم يعمر على عرش الفراعين سوى عقد من الزمان، ثم ذهب غير مأسوف عليه، و إن كانت الأقدار قد حققت لذلك النكرة بين الفراعين أمجادا كان أولى بها غيره من الفرعين العظام، و سبحان علام الغيوب الذي أضع آثار كبار الفراعين، من أمثال تحوتمس الثالث و رعمسيس الثاني، و أبقى للدينا آثار نكرة، ما كان لها في تاريخ مصر دور يعتد به، حتى بين المعاصرين لها، و ذلك بسبب الكشف المثير الذي قام به، «هوارد كارتير» في الرابع من نوفمبر عام 1922 م (1342 هـ) في طيبة الغربية، حيث عثر على مقبرته بكل ما فيها (5).

و منها (رابعا) أن هذه النظرية لا يمكن أن تكون مقبولة أصلا، إلا إذا كان موسى عليه السلام يعيش فعلا على أيام إخناتون، وأنه، كما يقول جون

ص: 298

1- سورة الزخرف: آية 54.

2- سورة القصص: آية 4.

3- سورة طه: آية 43-45.

4- سورة الشعراء: آية 29، القصص: آية 38، النازعات: آية 22-26.

5- أنظر: 1933- 1923 H drawoC retra, ehT bmoT fo tuT hknA- nemA- sloV 3, Lnodno.

ويلسون، انتهز فرصة الضعف التي سادت أخريات أيام إخناتون وعهد خليفته الضعيفين (سمنخ كارع و توت عنخ آمون) ثم نجح مع فريق صغير من الإسرائيليين في الخروج من مصر، وذلك بأن خادعوا فرعوناً من الفراعين، و هربوا إلى صحراء سيناء، وكان ذلك الفريق أكثر العبرانيين تمصراً (1)، و حتى لو صدقنا ذلك كله، فكيف يمكن أن نفسر عدم ذكر إسرائيل في عهد سيتي الأول و رعمسيس الثاني، و المعروف أن «سيتي الأول» أول من عمل على استرداد الإمبراطورية المصرية بعد أزمة العمارنة، فقام بأربع حملات إلى سورية و فلسطين، هذا فضلاً عن أن عهد رعمسيس الثاني بالذات، و هو الذي كتب له نجحاً بعيد المدى في استرداد الإمبراطورية المصرية في غربي آسيا، و بخاصة في حملة العام الثامن (حوالي عام 1282 ق. م) و التي أخضع فيها كل فلسطين و سورية، بل و وصل إلى أطراف بلاد ما بين النهرين و بلاد الحثيين (2)، فإذا تذكرنا أن دخول بني إسرائيل فلسطين، طبقاً لهذه النظرية، سوف يكون على أيام سيتي الأول (1309-1291 ق. م) على أساس أن إخناتون مات عام 1350 ق. م، و أن الخروج عام 1342 ق. م، أو حتى ما بين عامي 1350، 1342 ق. م، و دخول فلسطين عام 1302 ق. م، على أساس أن فترة التيه كانت أربعين عاماً، كما جاء في التوراة و القرآن العظيم (3)، فهل استطاع بنو إسرائيل حقاً دخول فلسطين في عهد سيتي الأول و هل استطاعوا حقاً أن ينزلوا بفلسطين كل هذا الدمار و الخراب الذي

ص: 299

1- , 1963 . p. 256. J nosliW. ehT, erutluC fo tneicnA tpygE.

2- محمد بيومي مهران؛ مصر- الجزء الثاني- الإسكندرية 1984 ص 175-183، و كذا، AEJ, nruB. A. O. R 195- 194. p، و كذا، 1921، 7 و كذا، 33، 1947، AEJ, renkluaF 39- 37. p، و كذا، 52، 1966، AEJ, kcideoG. H A 79- 72. p، و كذا، 159- 157 W. A ilagie- po, tic- P. 1961. P، 263- 247. p، renidraG tpygE, shoarahP eht fo . و كذا.

3- سورة المائدة: آية 26، عدد 14/22-35.

روته التوراة، ورعمسيس الثاني حي يرزق، بل و ما يزال يجلس على عرش الكنانة، و لمدة تقارب ثلاثة أرباع القرن (1290-1224 ق. م) دون أن ينجح في القضاء على هؤلاء البدو الرحل، و هو الذي كتب له أن يهزم أكبر قوة في عصره، بعد مصر، و هي قوة الحيثيين، ثم يصبح بعد ذلك سيد الشرق كله، و هل من المنطق أن نتصور أنه لم يلتق بهم في حملة السنة الرابعة أو الخامسة أو الثامنة، أو حتى في حملة عامه الحادي والعشرين، ثم كيف استطاع أن يخضع كل فلسطين، و يحارب الحيثيين في شمال سورية، و بنو إسرائيل يعثون في فلسطين فسادا و ينشرون في ربوعها الخراب و الدمار، بل و يستولون على مدنها الواحدة تلو الأخرى، كما يحلو لمن كتبوا التوراة، أن يصفوا عمالهم، بعد دخولهم فلسطين، بقيادة يشوع بن نون (1)، كل هذه أسئلة لا نجد لها جوابا يتفق و خروج بني إسرائيل من مصر، بعد موت إخناتون بسنوات ثمان، أي في عام 1342 ق. م، طبقا لنظرية «فرويد» هذه.

و من هنا، فإننا نرى «فرويد» نفسه، يتردد في قبول نظريته هذه، ثم يفترض أن موسى عليه السلام، ربما عاش في عصر لاحق لإخناتون (و بهذا يهدم نظريته كلها من أساس) و أن هذا سوف يتأخر بتاريخ الخروج بعض الوقت، و يجعله إلى الزمن المفترض أكثر قربا، أي إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، و إن كان يعود ثانية ليفضل الخروج في أعقاب موت إخناتون (2).

و أخيرا (خامسا) فليس لهذه النظرية من أساس من الآثار و التاريخ

ص: 300

-
- 1- أنظر: سفر يشوع، محمد بيومي مهران: إسرائيل 601/2 - 622 (الإسكندرية 1978)، ف. ب. ماير: يشوع و أرض الموعد- ترجمة مرقس داود- القاهرة 1949. و كذا، J. 1931 gnatsraG, auhsoJ, segduJ, ehT, snoitadnuoF fo elbiB yrotsiH.
- 2- .P, tic- po, duerF. S 36- 35 .

تعتمد عليه، غير اعتمادها إلى افتراضات فرويد، هذا فضلا عن معارضتها لكل ما جاء في التوراة و القرآن العظيم بشأن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، مثل محاجة موسى فرعون و تقديم المعجزات الباهرة (1)، و تنكيل الله تعالى بفرعون و قومه (2)، فضلا عن الجدل الذي طال و استتال حول ألوهية الفرعون المزعومة (3)، و محاولة فرعون قتل موسى (4)، و خروج بني إسرائيل من مصر ليلا (5)، و أن فرعون قد تبعهم و لكن الله فرق لهم البحر، فاتخذوا لهم فيه سبيلا إلى النجاة، بينما هلك فرعون و جنده غرقا في البحر (6)، و أن موسى تلقى رسالة ربه على طور سيناء (7)، و غير ذلك من أحداث فصلناها من قبل في قصة موسى عليه السلام، تجاهلها فرويد في نظريته هذه، و ارتضى أن الخروج تم بسهولة لمكانة موسى في مصر، سواء أ كانت هذه المكانة دينية أو سياسية أو عسكرية، و أن التفاصيل التي ذكرتها التوراة عن موسى و الخروج، ليست أكثر من أسطورة دينية تسجل تراثا انحدر من زمن سحيق على نحو يخدم ميولها (8).

و انطلاقا من كل هذا، فإننا نرفض رأي فرويد هذا، لأنه مبني على

ص: 301

-
- 1- أنظر: سورة الأعراف: آية 103-126، طه: آية 17-24، الشعراء: آية 10-51، النمل: آية 8-14، القصص: آية 29-42.
 - 2- سورة الأعراف: آية 130-36، خروج 7/19-24، 8/11-32، 9/1-35، 10/1-29.
 - 3- سورة الشعراء: آية 29، القصص: آية 38، النازعات: آية 22-26، ثم قارن: سورة المؤمنون: آية 45-49.
 - 4- سورة غافر: آية 26-28.
 - 5- سورة طه: آية 77، الشعراء آية 52، الدخان: آية 23-24.
 - 6- سورة البقرة: آية 50، يونس: آية 90-92، طه: آية 77-99، الشعراء: آية 52-68، القصص: آية 40، الدخان: آية 23-24، الذاريات: آية 40، خروج 14/5-31.
 - 7- سورة طه: آية 9-16، القصص: آية 29-35، خروج 3/1-18.
 - 8- .P, tic- po, duerF. S 38 .

افتراضات، وأحياناً تخيلات، تتعارض مع الحقائق الدينية والتاريخية، و من ثم فالإيمان بها إنما يتعارض مع إيماننا بما جاء في القرآن الكريم بشأن قصة موسى عليه السلام، وهذا ما نبرأ إلى الله منه.

[4] رعمسيس الثاني: هو فرعون موسى: -

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن فرعون موسى الذي حدث الخروج في عهده، إنما هو رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م)، و لعل من أشهر المنادين بهذا الرأي، أو لبرايت وإيسفلت وروكس وأونجر (1)، معتمدين في ذلك على أن رعمسيس الثاني إنما وجد جالية من العبرانيين كبيرة، سخرها فيما اختط له وزراؤه ومهندسوه من العمائر والمنشآت، وكان على أي حال، فيما أثبتت وثائق التاريخ يسخر الأسرى و من حكمهم في إقامة ما يريد، فلقد حفظ لنا من النصوص عند «معبد السبع» بالنوبة، ما يتحدث فيه، «ستاو» نائب الملك بالنوبة، عما كان من استخدامه أسرى من قبائل «التمحو» (2) غربي مصر في بناء هذا المعبد (3)، وعند معبديه في أبو سنبل، ما يتحدث فيه «رعمسيس عشاحب» عن ملكه من أنه أتى بأفواج العمال من أسرى سيفه من كل البلاد، وأنه ملأ بيوت الأرباب بأبناء «رتو» (4) الأسيويين.

و من ثم فقد بدأ فريق من المؤرخين يربطون بين الجهود التي بذلت في إنشاء مدينة «بي رعمسيس» (قنتير) وبين ما روته التوراة في قصة الخروج

ص: 302

1 - 1957 p. F. W 194. thgirbIA. F. morF, eht enotS egA ot ytnaitsirhC F, Y. N, و كذا, HAC ni, II, traP,
2, 1975, p. 319-323. E. O tdlfesai, T. ehT, dna sudoxE dna sgnirednaW و كذا. G 242, P, tic- po, و كذا. P, tic- po,
331 regnU. F. M

2- أنظر عن التحو (محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص 145-153).

3- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 85.

4- .oN, ERA, detsaerB. H. J 498 .

من تسخير فرعون للبرانيين في إنشاء مدينة ضخمة في أرض جوشن بشرق الدلتا، تقول التوراة «فجعلوا عليهم (أي بني إسرائيل) رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورمسيس» (1)، واعتمادا على هذا النص رأى البعض أن بني إسرائيل بنوا لفرعون التسخير مدينتين، الواحدة فيثوم، والثانية رمسيس، وقد دلت الحفائر على أن الأولى قد أعيد بناؤها، وأن الثانية قد أنشئت في عهد رمسيس الثاني، وأن الإشارة إلى المدينتين في سفر الخروج لا يمكن أن تكون مصادفة، لأن ذلك إنما يتطابق مع كل ما نعرفه من المصادر الأخرى عن إقامة بني إسرائيل في مصر، لدرجة أنها يمكن أن تعتبر تقاليد يمكن الاعتماد عليها، فإذا كان ذلك كذلك، فإن هذه المعلومات لها وزن تاريخي أكثر من الافتراض المبهم حول الظروف التاريخية، و تاريخ دخول بني إسرائيل مصر.

وانطلاقا من هذا كله، فقد نظر بعض الباحثين إلى رمسيس الثاني، على أنه «فرعون التسخير» (2)، وهو أمر يتفق تماما مع نشاطه البنائي الكبير، بخاصة وأنه قد استقر في شرق الدلتا، وأن الانطباع العام الذي يعطيه لنا سفر الخروج أن بني إسرائيل إنما كانوا يقيمون في مكان ما ليس بعيدا عن البلاط الملكي في قنتير، هذا فضلا عن أن المزمور (78) إنما يعطينا تأكيدا بأنهم قد عاشوا في «أرض مصر في حقول صوعن» (3)، و صوعن هو الاسم العبري لمدينة «تائيس» (على مبعدة 19 كيلا من قنتير) حيث كان بلاط الفرعون في هذه المنطقة في عهد رمسيس الثاني، وليس في فترة مبكرة على أيام تحوتمس الثالث.

ص: 303

1- خروج 11 / 1.

2- .P, tic- po, htoN. M 120 .

3- مز مور 12 / 78، 41.

و يذهب «جاك فنجان» (1) إلى أن بني إسرائيل قد استخدموا، بادئ ذي بدء، في عهد «سيتي الأول»، ولكنهم لم يحملوا أثقالهم إلا في أيام رعمسيس الثاني، مما دفعهم إلى الهروب، وفي هذا الوقت ولد موسى عليه السلام، و تربي ثم عاش في البرية، وأخيرا عاد إلى مصر، كما يروي سفر الخروج (25-1/2) وهكذا فإن عصر رعمسيس الثاني يجب أن يكون عصر رحيل القوم المستعبدين، و من ثم فيجب أن يكون وصول الإسرائيليين إلى فلسطين و توغلهم في البلاد و التقاء مرتباج بهم في حوالي عام 1220 ق.

م، و هذا بالكاد يعطيهم الوقت للتيه في البرية مدة الأربعين سنة، وربما كان هذا الرقم تقليديا، لأن التيه في الواقع كان أقصر من ذلك (2)، و أما «وليم أولبرايت» فيحدد عام 1290 قبل الميلاد، تاريخا للخروج، على أساس أن حكم رعمسيس الثاني في رأيه كان في الفترة (1301 - 1234 ق. م) و أن السنين العشرة الأولى من حكمه قد شغلت بالنشاط العمراني الكبير في المدينة التي حملت اسمه (بررعمسيس) (3)، و يذهب «كيلر» إلى أن المطابقة المدهشة بين هذا التاريخ (أي عام 1290 ق. م) و بين طول مدة إقامتهم بمصر، و التي يحددها سفر الخروج (40/12) بمدة 430 سنة، تكاد تكون تامة، و هي في نفس الوقت جديرة بالاعتبار، و من ثم فإن الهجرة الإسرائيلية إلى مصر يجب أن تكون قد حدثت في عام 1720 ق. م (4).

غير أن هناك من العقبات ما يقف في وجه قبولنا لوجهة النظر هذه، منها

ص: 304

1- .P, tic- po, . nageniF. J 134, 120 .

2- إن فترة التيه أربعون سنة على وجه التأكيد كما تشير إلى ذلك و الإنجيل و القرآن العظيم (سورة المائدة: آية 26، عدد 33/14، أعمال الرسل 36/7).

3- .P, tic- po, thgirblA. F. W 194 . و كذا. P, tic- po, regnU. F. M 332

4- جون الدر: الأحجار تتكلم ص 55 (كترجم)، و كذا، P. 121- 122، 1967، K. W 1967، 122- 121. P. yrotsiH sa elbiB ehT, relleK.

(أولاً) أنها تجعل من رمسيس الثاني فرعوناً للتسخير وللخروج في آن واحد، وهذا يتعارض مع بعض نصوص التوراة، التي تفرق بينهما (1)، هذا وقد أشرنا من قبل، إلى تحريض المملأ من قوم فرعون على أن يقوم فرعون، بعد إيمان السحرة بدعوة موسى، وفضيحة فرعون أمام موسى بين الناس، بمذبحة جديدة بين بني إسرائيل، وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرِكَ وَ آلِهَتِكَ، قَالَ سَهْنُقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (2)، وقال تعالى: قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَ لِيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ (3)، ونحن نعرف أن بني إسرائيل قد عانوا من قبل، من إبان مولد موسى مثل التنكيل الوحشي من فرعون و ملئه، كما يقول تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)، و من ثم فهناك، فيما يرى صاحب الظلال، أحد احتمالين، أولهما: أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر الأخير، كان قد مات و خلفه ابنه و ولي عهده، و لم يكن الأمر منفذاً في العهد الجديد، حتى جاء موسى و واجه الفرعون الجديد، الذي كان يعرفه و هو ولي العهد، و يعرف قصته، و الاحتمال الثاني أن فرعون الذي تبني موسى ما يزال على عرشه، ولكنه تراخى أو وقف ذبح الأبناء و استحيا النساء، فالحاشية تشير بتجديده، و تخص به الذين آمنوا مع موسى و حدهم للإرهاب

ص: 305

- 1- خروج 23/2 - 25، 19/4.
- 2- سورة الأعراف: آية 127.
- 3- سورة غافر: آية 25-26.
- 4- سورة القصص: آية 4.

والتخويف (1)، وبدهي أن الاحتمال الأول يثير الشك حول أن يكون رعمسيس الثاني هو فرعون الخروج.

ومنها (ثانيا) أن الفترة الأولى من حكم رعمسيس الثاني، والتي شغلت ببناء المدينة، كما يقول أصحاب هذا الرأي، لا تتناسب، مدة بقاء موسى في مدين أربعين عاما، كما تقول التقاليد اليهودية و المسيحية (2)، وإن كنا نحن المسلمين لدينا ما يتناقض ذلك، ذلك أن الله تعالى قد أخبرنا في كتابه الكريم أنها سنون ثمان أو عشرا، وهو الأرجح، كما بينا من قبل، قال تعالى: قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُكَلِّمَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرْنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِدِّكَ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (3)، ومنها (ثالثا) أننا لا نستطيع حتى الآن أن نحدد تاريخا معيناً لبناء مدينة «بر رعمسيس» بالنسبة إلى عهد الفرعون، فضلا عن أن يكون ذلك في العقد الأول منه بالذات، وهو الذي حدثت فيه كل حروبه تقريبا في غربي آسيا (حملات العام الرابع و الخامس و الثامن من حكمه)، و من ثم فربما كان النصف الثاني من عهد رعمسيس الثاني أكثر ملاءمة لبناء المدينة من النصف الأول، و أن لزوجاه بنت ملك الحيثيين «خاتوسيل» في عام حكمه الرابع و الثلاثين (حوالي عام 1256 ق. م)، نتيجة لمعاهدة التحالف بين البلدين في العام الحادي و العشرين من عهد رعمسيس الثاني (حوالي عام 1269 ق. م) إلى جانب أسباب أخرى، أثر في بناء المدينة،

ص: 306

1- في ظلال القرآن 5/ 3077-3078، وانظر: البداية و النهاية 1/ 250.

2- خروج 7/ 7، أعمال الرسل 7/ 23، 30، قاموس الكتاب المقدس 2/ 931، شاهين مكاروريوس: تاريخ الأمة الإسرائيلية- القاهرة 1904 ص 40.

3- سورة القصص: آية 27-28.

مما يجعل بناءها في فترة متأخرة من عهده، وليس، على أية حال، في العقد الأول من عهده (1).

ومنها (رابعا) أن فترة التيه، وهي أربعون سنة، ليست رقما تقليديا، كما يقول أصحاب هذا الرأي، وإنما هي حقيقة دينية و تاريخية مؤكدة كل التأكيد، ذلك أن هذا الرقم إنما جاء في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم (2)، و بدهي أنه ليس من العلم، فضلا عن الإيمان بكتب السماء، أن نشك في أمر أجمعت عليه هذه الكتب، ومنها (خامسا) أن القول بدخول بني إسرائيل مصر عام 1720 ق. م، أمر غير مقبول، لأنه يجعل دخولهم مصر مع أو قبل دخول الهكسوس مصر، ذلك لأن الهكسوس، طبقا للوحة الأربعمائة سنة (3)، قد دخلوا مصر ما بين عامي 1730، 1720 ق. م، بل إن «ردفورد» إنما يذهب إلى أن بداية حكم الهكسوس في مصر يجب أن تكون في وقت ما في السنوات العشر التي تقع ما بين عامي 1660، 1649 قبل الميلاد (4)، و من المعروف، كما فصلنا من قبل، أن يوسف عليه السلام دخل مصر على أيام الهكسوس و بعد فترة لا تقل عن ربع قرن بحال من الأحوال، استدعى أباه وإخوته، بل إن هناك، كما رأينا من قبل، من يجعل دخول بني إسرائيل مصر على أيام أمنحتب الثاني (1436 - 1413 ق. م)، و إن كنا نرجح الرأي الأول، الذي يذهب إلى أنهم دخلوا على أيام الهكسوس، و من ثم فإن هذه الفترة من دخول بني إسرائيل مصر و حتى خروجهم منها، كما

ص: 307

-
- 1- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث- الإسكندرية 1969 ص 46-62. مصر- الجزء الثاني- الإسكندرية 1984 ص 175-183.
 - 2- سورة المائدة: آية 26، عدد 33/14-34، أعمال الرسل 7/36، 42.
 - 3- أنظر: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة- القاهرة 1976 ص 137-139، و كذا. na'L ed eletS eL, tetnoM. P 400., VI, imeK 215- 191. p, 1933.
 - 4- 39، 1970، .B .D 28. p, 1970، 39، 4- .abatneirO ,noitidarT dna yrotsiH ni noisavnI soskyH ehT ,drofedR .

يرى أصحاب هذا الرأي، لا تتفق وبقائهم في مصر مدة 430 سنة، وبالتالي فإن رعمسيس الثاني قد يكون فرعون التسخير، ولكنه ليس فرعون الخروج.

[5] مرنبتاح: هو فرعون موسى: -

يعتمد أصحاب هذا الرأي الذي يذهب إليه مرنبتاح (1224-1214 ق.م) هو فرعون موسى، على نص التوراة الخاص ببناء مدينتي فيثوم و رعمسيس (1)، وعلى ما جاء في «لوح إسرائيل» (2)، والذي ذكر فيه اسم إسرائيل لأول مرة في النصوص المصرية، وهكذا رأت جمهرة كبيرة من المؤرخين أن مرنبتاح هو فرعون الخروج، وأن أباه رعمسيس الثاني هو فرعون التسخير، وتتفق آراء «نافيل» و «بتري» و «سايس» على أن خروج بني إسرائيل من مصر إنما حدث على أيام مرنبتاح، ذلك لأن «نافيل» ظل متمسكا برأي «لبسيوس» من أن رعمسيس الثاني هو مضطهد اليهود، وأن ولده مرنبتاح هو الفرعون الذي خرجوا في عهده من مصر (3)، وأما «سايس» فإنه يرى أن الآثار المصرية إنما تحصر هذا الحادث في عصر مرنبتاح (4)، وأما «بتري» فيرى في كتابه «تاريخ مصر» (5) أن الخروج تم في عصر مرنبتاح، وفي عام 1213 ق.م بالذات، ثم يقدم لنا في كتابه «مصر وإسرائيل» (6) التقويم التالي: دخول بني إسرائيل مصر في عام 1650

ص: 308

1- خروج 11/1.

2- لوح إسرائيل: محفوظ بالمتحف المصري بالقاهرة برقم 340 25، وقد عثر عليه «بتري» عام 1896 م في خرائب معبد مرنبتاح الجنازي في طيبة الغربية، وقد نشره كثير من العلماء، منهم بتري وبرستد وكونتزر وإرمان وويلسون وغيرهم.

3- .nodnoL, tnematseT dIO ehT fo ygoloeahcrA, ellivA. E 93. p. 1913 ,

4- .nodnoL, sutodoreH dna swerbeH ehT fo tpygE ehT, ecyaS. H. A 1896 ,

5- .nodnoL, III, tpygE fo yrotsiH A, eirteP. F. M. W 115. p. 1927 ,

6- .nodnoL, learsI dna tpygE, eirteP. F. M. W 38. p. 1925 ,

م، و بداية الاضطهاد في عام 1580 ق. م، ثم الخروج من مصر في عام 1220 ق. م، و بناء معبد سليمان في عام 973 ق. م، و أن الاضطهاد قد استمر، طبقاً للتقاليد اليهودية و المسيحية، أربعة قرون (1).

و يرى الدكتور عبد الحميد زائد أن حفائر «بيير مونتيه» في تانيس إنما تثبت صحة الرأي القائل بخروج اليهود في عهد مرنبتاح، وأنه لا يوجد أي نشاط لملوك الأسرة الثامنة عشرة هناك، فقد كانت «بي رعمسيس» من إنشاء رعمسيس الثاني، و ليست من عمل ملك آخر، و قد جاء في المزامير (12، 43، 138) ما يفيد أن الحوادث التي سبقت خروج اليهود قد وقعت في تانيس، و تميل جمهرة العلماء إلى ترجيح خروج بني إسرائيل من مصر في الأيام الأولى لعهد مرنبتاح (2)، و أما «فيليب حتى» فيرى أن الفرعون الذي «لم يكن يعرف يوسف» إنما هو رعمسيس الثاني، و أن الخروج قد حدث على أيام ولده مرنبتاح (3)، و أما «رولي» فالرأي عنده أن الخروج كان في عهد مرنبتاح، و في عام 1225 ق. م (4)، و لعل من الأفضل أن نناقش أدلة المعارضين و المؤيدين كل على حدة.

(1) أدلة المعارضين و مناقشتها:-

ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور أحمد فخري طيب الله ثراه، من أن تحقيق هذا الموضوع من تاريخ العبرانيين و احتساب الزمن، ثم ما جاء من نتائج التنقيبات الأثرية في فلسطين، جعل خروج بني إسرائيل في عهد

ص: 309

1- تكوين 13 / 15، أعمال الرسل 6 / 7.

2- عبد الحميد زائد: الشرق الخالد- القاهرة 1966 ص 378.

3- فيلب حتى: تاريخ سورية و لبنان و فلسطين- بيروت 1958، 1 / 193 (مترجم).

4- , 1950 . p. 550. H. H. yelwoR. morF, auhsaJ ot nodnoL, و كذا. P, tic- po, regnU. F. M 332.

مرنبتاح أمرا غير مؤكد (1)، ويجب أن يكون في عهد الأسرة الثامنة عشرة، إلا أنه حتى الآن لم توجد أدلة أثرية تؤيد هذا الرأي (2)، ومنها (ثانيا) ما عرف بتقرير موظف الحدود، والذي يذكر صاحبه أنه سمح لقبائل البدو من أدوم بالعبور من قلعة مرنبتاح لرعي ماشيتهم بالقرب من فيثوم، ومن البدهي أن هذا لا- يمكن أن يحدث لو كان الإسرائيليون لا يزالون بمصر، حتى كتابه التقرير في السنة الثامنة من عهد مرنبتاح (3)، ومنها (ثالثا) ما يراه البعض من أن هذه النظرية إنما تضعف بحقيقة أن جسد الفرعون قد وجد في طيبة الغربية، وبذلك فلا يمكن أن يكون قد غرق في البحر الأحمر، طبقا للتقاليد الإسرائيلية (4)، ومنها (رابعا) أن مرنبتاح قد اعتبرهم من نزلاء فلسطين، ولم يذكر أنهم كانوا من رعايا أرض الكنانة، وهذا يعني أن بني إسرائيل قد نزلوا فلسطين قبل عهد مرنبتاح، وبالتالي فقد خرجوا من مصر قبل عهده (5).

ويمكن الرد على ذلك في النقاط التالية، والتي منها (أولا) أن لوح إسرائيل الذي يرى البعض أنه اعتبرهم من نزلاء فلسطين، وبالتالي فقد خرجوا قبل عهد مرنبتاح، قد جاء فيه بعد المقدمة «الأمرء منبطحون يصرخون طالبين الرحمة، وليس من بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، الخراب للتحنو، بلاد خاتي هادئة، وكنعان قد استلبت في قسوة، وأخذت عقلا، وقبض على جازر، وصارت ينوعام كأن لم يكن لها وجود،

ص: 310

1- أحمد فخري: مصر الفرعونية- القاهرة 1971 ص 359.

2- محمد عبد القادر: الساميون في العصور القديمة ص 197.

3- TENA, nosli W. A. J 259- 258. p, 1966, و كذا, . rammarG naitpygE, renidraG. H. A 77- 76. p, 1966. .
oN, III, ERA, detsaerB. H. J 638- 636 و كذا.

4- خروج 26/14- 31, 1/15- 21, و كذا, 1947. p, 223. O. E. O. W drofXO, tpygE fo ycegL ehT, yelretseO.

5- عبد العزيز صالح: مصر و العراق ص 236, 2, 1975. p, 234. traP, II, HAC, renkluaF. O. R

وإسرائيل قد خرجت وأزيلت بذرتها، وأصبحت خارو أرملة لمصر» (1)، فالنص إذن يتحدث عن جهود الفرعون في السنة الخامسة من الحكم عن جهود الفرعون الحربية ضد الأقواس التسعة، والتي يرى «جاردنر» أنها الشعوب المختلفة في وعلى حدود مصر (2)، و ضد التحنو و خاتي (الحثيين) و كنعان، ثم ضد عقلا ن و جازر و ينوعام و إسرائيل و خارو، و ليس في هذا من دليل على أن بني إسرائيل كانوا في فلسطين وقت ذلك، لأن النص إنما يتحدث عن حروب الفرعون في فلسطين، و حروبه ضد الحثيين، أي خاتي، و هي دولة، و عن تحنو و إسرائيل، و هما أقوام، و عن عقلا ن و جازر و بنوعام، و هي مدن، أي عن حروب مرنتاح في مصر، و خارج مصر، على الحدود الشرقية و الغربية، بل و قد تجاوز ذلك حتى بلاد الحثيين (آسيا الصغرى).

هذا فضلا عن أن اسم «إسرائيل» في النص إنما كان مصحوبا بالمخصص الذي كان يشار به إلى «قوم» و ليس إلى «منطقة» مثل ليبيا و عقلا ن و جازر و بنوعام، و من هنا يمكن أن نستنتج أن إسرائيل كانت ما تزال قبيلة أو مجموعة قبائل، و لم تكن بعد مثل الليبيين و الحثيين تسكن منطقة مأهولة بالسكان منذ فترة طويلة (3)، و يفسر الدكتور عبد الحميد زائد (4)، ذلك بأن المخصص الذي كتب به الإسرائيليون، يختلف عن المخصصات التي كتبت بها بقية الجماعات التي هزمت أو الأقطار التي قضى عليها مرنتاح، فجميع تلك البلاد قد وضع لها المخصص الخاص بالبلاد الأجنبية، أما اسم

ص: 311

1- .R dna .L .ssoM ,T lacihpargopB yhpargilbi fo tneicnA naitpygE cihpylgoreiH .A renidraG ,tic -po ,P

273 .B retroP .و كذا. 159 stxeT P, II,

2- , 1964 .p. 303 .A renidraG ,tic -po ,P .shoarahP ehT fo tpygE ,

3- .P, tic- po ,sdoL .A 188- 187 .

4- عبد الحميد زائد: المرجع السابق ص 746.

«إسرائيل» فقد مثل برجل وامرأة و ثلاثة خطوط رأسية خاصة بالجمع، و لا سبيل في هذه القصيدة إلى التشكيك بما قد يقال من احتمال خطأ الكاتب المصري القديم و سهوه، كما ذهب إلى ذلك «جون ويلسون» (1)، و من ثم فهذا المخصص على هذه الصورة إنما يشير إلى أقوام أجنب أو قبائل أجنبية، و ليس إلى أرض أجنبية (2)، و في الواقع أننا لو نظرنا إلى ترتيب المناطق، كما جاء على اللوح، فإننا نجد أنها قد كتبت من الشمال إلى الجنوب، و من الجنوب إلى الشمال، في داخل كل قطاع، و لا شك في أن الكتاب المصري إنما كان موفقا و اعياء، فلقد وردت أسماء الشعوب و البلاد الأجنبية في ذلك النص تسع عشرة مرة، لم يغفل رسم الأرض الأجنبية في واحدة منها، مما سبق اسم إسرائيل أو لحق به، بل كان من دقته أنه في ذكر اسم الشرطة المصرية و قد كان رجالها يتخذون من بجة النوبة، قد اقتصر مع رسم رمز الناس، على رمز يدل على الأجنبي، دون رسم الأرض، لأنهم في غير أرض لهم (3).

و انطلاقا من هذا كله، يمكننا القول أن إسرائيل إنما ذكرت على أنهم أقوام عاشوا على الحدود المصرية، و أنهم كانوا لا وطن لهم طوال تاريخهم، و من ثم فإن التوراة تسميهم «أبناء إسرائيل»، و أنهم ليسوا سكان هذه الأرض أو تلك، و من ذلك نعرف أن عناصر النقش نفسه إنما تعارض القول بأن الإسرائيليين كانوا يسكنون فلسطين، بل على العكس، فإنها تميل إلى أن الأرض التي كانت، في نظرهم، تفيض باليمن و السلوى لم تكن قد احتلت بعد، إذ كانت كنعان ما تزال بعد، الأرض الموعودة، و لم تصبح بعد

ص: 312

1- .P, TENA, nosliW. A. J 378, oN. 18 .

2- , 1975, p. 544. O 544. p. 1975, traP, HAC, tdlefssiE.

3- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 145.

الأرض المملوكة، وإذا اعترفنا بذلك، فضلا عن أهمية الرموز المختلفة المخصصة التي استعملت للأقوام المختلفين وإذا قبلنا ترجمة «إدوارد نافيل» ورأيه في كلمة «بذرة»، فمن البدهي إذن القول بأن النقش يشير هنا إلى خروج بني إسرائيل من مصر، وفي الوقت نفسه، فإنه يعني أن جنسا أجنبيا من البدو ويدعى «إسرائيل» قد خرج من مصر، ومن ثم يصبح لا وجود لهم بالنسبة إلى مصر، والواقع أن ما جاء في متن هذا اللوح، على ما يظن، إنما يعدو سجلا معاصرا لخروج بني إسرائيل من مصر، كما يدل على أنه قد وقع في السنة الخامسة من عهد مرنبتاح، فيما يعتقد «نافيل» (1).

ومنها (ثانيا) أن تقرير موظف الحدود إنما يتحدث عن السماح لبدو أدوم بالعبور من قلعة مرنبتاح في العام الثامن من حكم مرنبتاح، ومن المعروف أن بدو آدم ليسوا من بني إسرائيل، وإن كانوا أبناء عمومة، فالإسرائيليون إنما هم أبناء يعقوب عليه السلام، والذي لقب «إسرائيل» (2)، وأما الأدوميون فهم أبناء شقيقه التوأم «عيسو» (العيص من المصادر العربية) والذي دعي «أدوم»، وبدهي أن الذين لجأوا إلى مصر من قحط كنعان إنما هم الإسرائيليون أبناء يعقوب، وليسوا الأدوميين أبناء عيسو، وهذا وقد كان الأدوميون وقت خروج بني إسرائيل من مصر، وتجوأهم في التيه، فيما تروي التوراة (3)، يسكنون في شرق الأردن، مكونين مملكة قوية ذات حضارة مزدهرة (4)، كما كان لهم موقف معارض من الإسرائيليين، حتى أنهم منعوهم من أن يمروا في طرقهم (5)، كما أن كلمة «بدو» تعادل الكلمة

ص: 313

1- سليم حسن: مصر القديمة 112 / 7، وكذا، AEJ. ellivaN. E 6- 3. p، 21.

2- أنظر عن لقب «إسرائيل» (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1 / 29-32، 199-205).

3- عدد 14 / 20 - 17.

4- محمد بيومي مهران: إسرائيل 2 / 547-552، وكذا. P, tic- po, nageniF. J 152.

5- عدد 22 / 20 - 29.

المصرية «شاسو»، و هم يمثلون القبائل الآسيوية المحيطة بمصر بصفة عامة، هذا فضلا عن أن لنا رأيا خاصا فيما يختص بتاريخ الخروج في عهد مرنبتاح، يتفق و ما جاء في القرآن الكريم عن غرق الفرعون في البحر، و هو ليس في السنة الخامسة على أية حال، كما سنشير إليه في مكانه من هذه الدراسة.

و منها (ثالثا) أن تحقيق تاريخ الخروج و احتساب الزمن، و نتائج الحفريات الأثرية في فلسطين، إنما تؤيد هذا الرأي و لا تعارضه، ذلك أننا لو افترضنا أن الخروج كان في السنة الخامسة من عهد مرنبتاح، كما يقول الكثير من العلماء، أي في عام 1220 ق. م، ثم عدنا إلى الوراء مدة 430 سنة، و هي المدة التي حددتها التوراة (1) لإقامة بني إسرائيل في مصر، لوصلنا إلى عام 1650 ق. م، و هو تاريخ دخول بني إسرائيل مصر، و هو تاريخ يتفق تماما مع عصر الهكسوس، إلا إذا قبلنا وجهة نظر النص السبتاجوني، و الذي بكلمة واحدة تختزل هذه المرحلة إلى النصف، و أما التنقيبات الأثرية، فقد ناقشناها من قبل، و تبين لنا أنه لا يوجد حتى الآن دليل أثري واحد نستطيع أن نحدد به وقت دخول بني إسرائيل أرض كنعان، بل إن حفائر «فيشر» في بيسان (بيت شان القديمة) قد كشفت عن قلعة مصرية عثر بها على لوحات من عهد سيبي الأول و رعمسيس الثاني، بل و كذا تمثال لرعمسيس الثالث من الأسرة العشرين، و يقول «فيشر» إن هذه الآثار إنما تقدم برهاننا كافيا على أن بيسان ظلت في أيدي المصريين فعلا، من عام 1313 إلى عام 1167 ق. م، و قد أثبتت الحفائر المتوالية أن أيدي الرعامسة ظلت قوية باستمرار على الأرض الموعودة (2).

ص: 314

1- خروج 12/40-41.

2- AEJ, renidraG. A 88. p, 1924, 10, -2.

ومنها (رابعاً) أن اكتشاف جثة مرتبحة في طيبة الغربية، و تناقض ذلك مع التقاليد العبرية التي ترى أن الفرعون غرق في البحر الأحمر، إنما تلك وجهة نظر التوراة، كما جاءت في سفر الخروج (1)، ولكننا نحن المسلمين لدينا ما يناقض ذلك تماماً، فلقد أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أن الفرعون قد أنجى ببدنه بعد غرقه، ليكون آية لمن خلفه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل بالتفصيل، وصدق الله العظيم، حيث يقول: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (2)، و من ثم فإن وجود جثة مرتبحة بين جثث الفراعين لا تحل المشكلة، كما أنها لا تعقدها كذلك، هذا فضلاً عن أن كل الفراعين الذين دارت حولهم روايات تاريخ الخروج، وإيهم فرعون موسى، من أمثال أحمس الأول و تحوتمس الثالث و أمنحتب الثاني و توت عنخ آمون و رعمسيس الثاني و مرتبحة و سبتي الثاني، قد اكتشفت جثثهم (3)، وفي هذا إعجاز للقرآن ما بعده إعجاز.

ومنها (خامساً) أن نص التوراة (ملوك أول 1/6) و الذي يتحدث عن إقامة سليمان عليه السلام، لهيكله بعد خروج بني إسرائيل من مصر بمدة 480 سنة، و الذي اعتبره بعض العلماء المادة الأساسية في المشكلة (4)، فقد ناقشناه من قبل، و تبين لنا مدى الصعوبات التي تقف عائقاً في وجه قبولنا إياه، فضلاً عن أن هذا الرأي الذي يرجح الخروج في عهد مرتبحة، إنما يعتمد كذلك على نص توراتي آخر (خروج 1/11) و الذي يتحدث عن

ص: 315

-
- 1- خروج 14/26-31، 15/1-21.
 - 2- سورة يونس: آية 92، و انظر: تفسير الطبري 15/194-198، تفسير القرطبي ص 3218-3220، تفسير ابن كثير 4/326-329، تفسير المنار 11/387-390.
 - 3- أنظر: سليم حسن: مصر القديمة 4/217، 501، 692-693، 6/357-359، 8/673-698، أحمد فخري: مصر الفرعونية ص 390-392 ألن جاردنر: مصر الفراعنة ص 350-351، و كذا F. P, tic- po, truocelboN. D. C 215، 173.
 - 4-، 1954، p. 141. U. F. M regnA, ygoloeahcrA, Tdno ehT dlo tmatseM, nagihciM.

تسخير بني إسرائيل في مدينتي فيثوم ورعمسيس، وهكذا استطاع العلماء أن يستخرجوا من التوراة تاريخين للخروج في وقتين مختلفين، يكاد الواحد منهما يبعد عن الآخر بأكثر من قرنين من الزمان.

(1) أدلة المؤيدين و مناقشتها:

وهكذا يبدو لنا مما سبق بوضوح أن أدلة المعارضين لهذا الرأي الذي يرجح أن مرنبتاح هو فرعون الخروج (فرعون موسى) لم تكن بكافية لإسقاطه، أو حتى صرف النظر عنه، بل إننا نستطيع أن نعضده بحجج أخرى، غير ما ذكرنا، منها (أولا) أن التوراة إنما تذكر أن مدينة «رعمسيس» (بر رعمسيس) كانت هي المدينة التي بدأت منها مسيرة الإسرائيليين نحو سيناء، حيث التيه أربعين سنة، و من المعروف أن مدينة «بر رعمسيس» إنما كانت من إنشاء رعمسيس الثاني وحده، وليس من عمل ملك آخر، بل إننا لنعرف أنه ابتداء من عصر هذا الفرعون قد انتقل مركز الثقل من الصعيد إلى شرق الدلتا، حيث المدينة التي حملت اسمه، وغدت عاصمة البلاد على أيام الرعامسة (2)، و منها (ثانيا) أنه من المعروف تاريخيا أن رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م) إنما قدّر له أن يجلس على عرش الكنانة 67 عاما و هي أطول فترة عرفها التاريخ المصري لحكم ملك من الملوك، إذا استثنينا ببي الثاني الذي حكم 94 عاما (2)، و من ثم فهو قد حكم الفترة التي تتطلبها التقاليد الإسرائيلية، كما جاءت في التوراة، بشأن هروب موسى إلى مدين ثم بقائه هناك أربعين عاما، حتى إذا ما علم بوفاة الفرعون عاد إلى مصر لإطلاق سراح بني إسرائيل (3)، و إن اختلفت وجهة النظر الإسلامية في

ص: 316

1- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر 442/1-443، 130/2.

2- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص 46-62، مصر- الجزء الثاني ص 133-136.

3- خروج 23/2، 19/4، 7/7، أعمال الرسل 30/7، قاموس الكتاب المقدس 931/2، شاهين مكاربوس: المرجع السابق ص 40.

هذه المدة، فهي في القرآن الكريم، سنون ثمان، و الأرجح أنها كانت عشرا (1)، كما أشرنا من قبل.

ومنها (ثالثا) أن القائمة القديمة «للملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبل ما ملك ملك لبني إسرائيل (2)، لا تذكر إلا ثمانية ملوك بين «بالع بن بعود»، والذي وَّحد ببلعام بن باعور، طبقا لتقاليد جاءت في التوراة (3) و بين هدار، فإذا سمحنا بفترة من 25 إلى 30 سنة، كحد وسط لكل عهد، فسوف نحصل على مجموع من السنوات ما بين مائتين وأربعين عاما، وهذه الفترة تتناسب مع الفترة منذ خروج بني إسرائيل من مصر، طبقا لهذه النظرية، و بين قيام ملكية شاول (طالوت في القرآن) قبل القرن العاشر قبل الميلاد، بعقد أو عقدين من الزمان (4)، و منها (رابعا) أن هذه النظرية التي تذهب إلى أن مرنبتاح هو فرعون موسى، إنما يمكن أن تعطينا تفسيراً لما حدث في فلسطين في الفترة من 1400 إلى 1300 ق. م (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) فيما يتصل بوجود أسماء «شمعون» و «أشير»، فربما كانا اسمين لمجموعتين عبريتين لم تهاجر إلى مصر، و هذا يخالف التقاليد العبرية (5) فضلا عما جاء في القرآن الكريم بشأن دعوة يوسف عليه السلام أهله أجمعين إلى مصر (6)، أو ربما كانا اسمين لأماكن أو مدن كنعانية، أطلقها الإسرائيليون عليها فيما بعد، و هذا ما نميل إليه و نرجحه، و ربما كان نفس الشيء صحيحا بالنسبة

ص: 317

-
- 1- سورة القصص: آية 27-28.
 - 2- تكوين 31/36-39.
 - 3- عدد 14/22-41.
 - 4- أنظر عن قيام ملكية شاول (طالوت): محمد بيومي مهران: إسرائيل 668-674 (الإسكندرية 1978).
 - 5- تكوين 26/46-27.
 - 6- سورة يوسف: آية 92-100.

و منها (خامسا) أن الفترة الأولى من عهد مرنبتاح قد تميزت بالاضطرابات و الحروب، مما اضطره إلى الخروج إلى غربي آسيا، لإخماد ثورة شبت هناك في السنة الثالثة من حكمه، أو لأن شعوب البحر كانت قد وصلت إلى حدوده الشرقية في تلك السنة، و من ثم فقد زحف إلى فلسطين و سورية، ثم وجه إلى العصاة ضربة قاسية انتهت بإذلالهم (2)، و رغم أن البعض يرى أن مرنبتاح، الذي كان مهتدا في دولته بالليبيين، لا يمكن أن يقوم بفتوحات في فلسطين و سورية في السنتين الأولى و الثانية من حكمه، فإن العلماء يكادون يجمعون على قيامه بهذا النشاط الحربي في فلسطين (3)، و لعل مما يؤكد ذلك نعت «قاهر جازر» الذي نلتقي به في نقش معبد عمدا، هذا فضلا عن أنه من العسير أن نوافق على أن نص «لوح إسرائيل» مختلف تماما، إذ يصعب عندئذ أن نجد تفسيراً مقبولا في قائمة الأقاليم المذكورة، بل إن مجرد ذكر إسرائيل يخلع على النص شبهة من الحق لا يمكن إنكارها، لأنه لم يرد في أي نص مصري من قبل (4)، و أيا ما كان الأمر، ففي السنة الخامسة من عهد مرنبتاح تتعرض حدود مصر الغربية للخطر، ذلك أن شعوب البحر، فضلا عن قبائل «ريبو»، أخذوا يتدفقون نحو غرب الدلتا، فخرج إليهم الفرعون بقواته، حيث دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة ساحقة للغزاة (5)، و إن اختلف

ص: 318

1- .P, tic- po, sdoL. A 188 .

2- محمد بيومي مهران: مصر 183/2-184، دريوتون وفاندييه: مصر ص 480، و كذا، p. 165-166. J. detsaerB. tic- po، و كذا، 2، 1901، p. 269-279. EASA, niargeL. G 376-378. TENA. P.

3- .P, tpygE tneicnA fo erutluc ehT, nosliW. J 255 . و كذا، 12، 1915، p. 196. AEJ, ellivaN. E

4- .P, tic- po, renidraG. A 273 .

5- P, tic- po, nosliW. J، 255-254، L, LSJA 76-75. p. 1935، 1، dravraH، و كذا. fo retpecS ehT, seyaH. C. W-5 .II, tpygE 353. p. 1959

المؤرخون في مكانها، ولعل أرجحها ما ذهب إليه «بتري» (1) من أنها كانت في مكان بين الضهيرية (11 كيلاً- من كوم حمادة) وبين النجيلية (15 كيلاً من كوم حمادة) بمحافظة البحيرة، وعلى أي حال، فأكبر الظن، أنه في هذه الأوقات العصيبة بدأ تفكير الإسرائيليين في الهروب من مصر، دون إذن من الفرعون الذي رفض السماح لهم بالخروج مرارا، بل إن «جان يويوت» يرى أن الهروب إنما تم أثناء الزحف الليبي نفسه (2)، ولعل هذا يفسر قول التوراة على لسان فرعون «فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربونا و يصعدون من الأرض» (3)، على أن ما جاء في القرآن الكريم إنما يفيد أن الخروج لم يكن بتدبير من بني إسرائيل، وإنما كان بأمر من الله لموسى، وكان ليلا، وذلك حين أحس موسى عليه السلام أن القوم لن يؤمنوا له، ولن يستجيبوا لدعوته، ولن يسالموه أو يعتزلوه فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون، وأجابه ربه الكريم فأمر بعبادتي ليلاً إنكم متبعون، والسري لا يكون إلا ليلا، فالنص عليه يعيد تصوير مشهد السري بعباد الله، وهم بنو إسرائيل، ثم للإيحاء بجو الخفية، لأن سراهم كان خفية عن عيون فرعون و من وراء علمه (4)، فإذا كانت هناك علاقة بين سري بني إسرائيل ليلا بين الحرب الليبية، فلا بد أن تكون في أعقابها بفترة ما، وليس أثناءها، لأن الفرعون سرعان ما لحق بالقوم قبل أن يعبروا البحر، فأتبعهم بجنوده، حيث غرقوا جميعا، ونجا موسى و من معه، هذا فضلا عن هذه الحرب كانت في السنة الخامسة، و من المعروف أن فرعون غرق في البحر أثناء مطاردته لبني إسرائيل، و من ثم فإن الخروج يجب أن يكون في السنة

ص: 319

1- , 1927. p. 109. F. M. W. eirteP. A, yrotsiH fo tpygE, III, .nodnoL.

2- جان يويوت: مصر الفرعونية- القاهرة 1966 ص 140 (مترجم).

3- خروج 10/1.

4- سورة الدخان: آية 22- 23، وانظر: سورة طه: آية 77، الشعراء: آية 52، في ظلال القرآن 3213/5.

الأخيرة من حكمه، الثامنة أو العاشرة على خلاف في الرأي، وليس في السنة الخامسة.

ومنها (سادسا) أن الحفريات والأبحاث أثبتت أن ممالك أدوم و مؤاب وعمون (1)، لم تكن قد تكون حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مع أن سفر يشوع يذكر هذه الممالك بالاسم، بل ويذهب إلى أنها كانت نامية و مزدهرة إبان فتوحات يشوع و حملاته الحربية (2)، و منها (سابعاً) استمرار السلطة المصرية في فلسطين على أيام أممحتب الثالث (1405-1367 ق.

م) بدليل اكتشاف جعلول صيد الأسود، التي وجدت في «لخيش» (تل الدوير على مبعده خمسة أميال جنوب غرب بيت جبرين) تخليدا لمهارة الفرعون في صيد 102 أسدا، خلال السنوات العشر الأولى من حكمه (3)، و في الواقع فإن مصر على أيام أممحتب الثالث إنما كانت مركز الدنيا و قلبها النابض، و كان ملوك مصر حكام العالم دون منازع، على الأقل في النصف الأول من حكم هذا الفرعون، و من ثم فقد سعت الدنيا إلى بلاط هذا الإمبراطور العظيم تحمل جزيتها، و تثبت لنا الاحتجاجات المتذلة التي نقرؤها في رسائل العمارة التي كان نرسلها أصحابها من حكام الشرق و أمرائه، يؤكدون فيها ولاءهم و خضوعهم، و تسلط مصر على العالم (4)، و قد استمرت السيادة المصرية على هذا المنوال حتى القرن الثالث عشر، إلا على أيام أزمة العمارة، بدليل وجود جعارين من عهد رعمسيس الثاني، و كما تدلنا كذلك حروبه و حروب أبيه من قبل على السيادة المصرية في فلسطين و سورية (5)،

ص: 320

1- أنظر عن هذه الممالك (محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 547-558).

2- جون إدر: الأحجار تتكلم- علم الآثار يؤيد الكتاب المقدس ص 54 (مترجم)، و كذا، ogacihC, yranoitciD elbiB s'regnU, .regnU. F. M 334. p, 1970

3- .P, II, ERA, detsaerB. H. J 347- 346 . و كذا. P, tic- po, renidraG. H. A 206

4- .P, tic- po, nosliW. A. J 204 .

5- .P, tic- po, nageniF. J 162 .

ومنها (حادي عشر) أن حالة الاضطرابات التي كتب على الكنانة أن تعيشها في الفترة فيما بين وفاة مرنبتاح عام 1214 ق. م، وبداية عهد رعمسيس الثالث في عام 1182 ق. م، كانت أكثر الفترات ملاءمة لأن يعيش بنو إسرائيل في التيه، وهم في مأمن من أن تهاجمهم القوات المصرية فتقضي عليهم أو تعيدهم إلى مصر ثانية، ذلك أعقب موت مرنبتاح فترة من الاضطرابات حدثت فيها مؤامرات شتى حول العرش المصري، فتعاقب عليه عدد من الملوك لم يحكموا سوى فترات قصيرة، كما كانوا ملوكا ضعافا، مما أدى في نهاية الأمر إلى اضطراب الأمور وتعقيدها، وزادت الحال سوءا بالتدريج، حتى آلت آخر الأمر إلى فوضى شاملة، و صفتها «بردية هاريس» بأن أرض مصر قد اضطربت، و أصبح كل رجل يضع شريعته الخاصة، و لم يكن هناك قائد مدى بضع سنين سابقة، حتى كانت مصر في أوقات أخرى تضم أمراء و حكام قري، ثم جاء وقت بعد سنين فارغة... و سوري معهم أصبح أميراً، و جعل البلاد كلها تدفع الضرائب» (1)، و من هذا النص استنتج المؤرخون أن «إرسو» السوري حكم البلاد في نهاية الأسرة التاسعة عشرة و ربما كان «إرسو» هذا، هو «باي» رئيس الديوان الذي أرغم الملكة «تاوسرت» على أن تجلس «سبتاح» على العرش تحت وصايتها، و إن انفردت بالعرش بعد وفاته، ثم بقي الحال هكذا حتى نجح «ست نخت» في أن ينقذ البلاد من وهدتها، و أن يجلس على العرش المصري قرابة عامين (1184-1182 ق. م) ليخلفه ولده رعمسيس الثالث (2).

ومنها (ثاني عشر) أن اضطراب الأمور في سورية و فلسطين بسبب

ص: 322

1- , 1966, p. 160. TENA, nosliW. J

2- محمد بيومي مهران: مصر 141/2 - 143، ألكسندر شارف: تاريخ مصر ص 159 و كذا،. J V ynreC. و كذا. P, tic- po, renidraG. A 281- 279. و كذا، 29. p. 243- 258. AEJ, htarekceB 74- 71. p. 1963، 49. , AEJ

وربما لتغير ميزان الاقتصاد العالمي، بظهور معدن الحديد، قد اضطر مصر إلى التخلي عن سلطانها في آسيا الغربية، وربما كانت هذه الأسباب مجتمعة هي السبب، وأيا ما كان الأمر، فليس هناك من دليل واضح على أن مصر، بعد وفاة رعمسيس الثالث، قد احتفظت بإمبراطوريتها في فلسطين وسورية، وإن ظل لها نفوذ في كثير من المناطق، بدليل العثور على جعارين لرعمسيس الرابع في تل الصافي و تل زكريا و تل جازر، و لرعمسيس السادس في تل أسانة في سورية، و تمثال من البرونز لنفس الفرعون في مجدو، على أن مثل هذه الأشياء الصغيرة لا تدل على معان قوية لها من القيمة ما لها من ناحية سلطان مصر في غربي آسيا، و من هنا كانت فرصة بني إسرائيل في الاستيلاء على جزء من فلسطين، كما تمكن البلست (الفلسطينيين) من احتلال بعض مدن كنعان الساحلية، و كذا الكثير الذين احتلوا مدينة «دور» جنوبي الكرمل (1).

و منها (خامس عشر) ما جاء في القرآن الكريم من أن فرعون قد طلب من هامان أن يوقد له على الطين فيبني له صرحا، قال تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (2)، و قد ناقشنا من قبل قصة الآجر المحروق، و كيف أن المفسرين، و منهم الإمام الطبري و القرطبي و النسفي و البيضاوي و السيوطي و غيرهم، روى عن علماء السلف، كابن عباس و قتادة و سعيد بن جبير و ابن جريح و عبد بن حميد و غيرهم، أنهم قالوا: إن فرعون موسى كان أول من اتخذ الآجر ليبنى به

ص: 324

.ytsanyD tsriF -ytnewT ehT fo dnE ehT ot ,III ,sessmaR fo htaeD eht fo tpygE ,yenreC .J 13- 11. p، 1965، -1

2- سورة القصص: آية 38، و انظر: غافر: آية 36.

الصرح (1)، مما يشير إلى أنهم كانوا يستندون إلى طائفة من الخبر الصحيح، هذا وقد أعترتنا حفائر «بتري» في «نيشة» و «دفنة» غير بعيد من مدينة «بي رعسيس» عاصمة ملوك الأسرة التاسعة عشرة، على غير مألوف الفراعين بالبناء بالآجر المحروق، حيث بنيت به قبور، و أقيمت به بعض من أسس المنشآت التي ترجع إلى عصر الفراعين: رعسيس الثاني و مرنتاح و سיתי الثاني، وقد قال «بتري» إن حرق اللبن ظل نادرا في مصر إلى عصر الرومان، و هو قول لا يكاد يخالف المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى، و هو كذلك من قرائن القرآن الكريم التي تتخذها مطمئنين في تحديد عصر خروج بني إسرائيل من مصر على أيام الأسرة التاسعة عشرة التي بدأت، كما ألمح القرآن الكريم و أثبتت الحفائر، تصطنع في بنائها الآجر المحروق (2)، و الذي نرجح من جانبنا أنه عصر مرنتاح.

و منها (سادس عشر) ذلك الحديث النبوي الشريف (3)، حيث يروي أنس بن مالك عن سيدنا و مولانا و جدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: «خير نساء العالمين أربع، مريم ابنة عمران، و آسية امرأة فرعون و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد رسول الله»، و إذا تذكرنا أن «است نفرت»

ص: 325

1- تفسير النسفي 237/3، تفسير القرطبي ص 5004 تفسير البيضاوي 128/4، تفسير الدر المنثور للسيوطي 129/5، تاريخ الطبري 1/405.

2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 138، و كذا. P. F. M. W 47، 19- 18. P, hennefeD dna hehsebeN, eirte
3- أنظر عن الحديث الشريف و رواياته المختلفة: تفسير ابن كثير 2/32-34، البداية و النهاية 1/59-62، تفسير الطبري 6/393-398، صحيح البخاري 4/193، 339، صحيح مسلم 2/243، سنن الترمذي 4/365-336، مسند الإمام أحمد 3/136، تحفة الأحوزي 10/389، المستدرک الحاکم 3/184.

(أيسة نفرة) كانت الزوجة الثانية لرعمسيس الثاني بعد «نفر تاري»، بل إن الأثرية «مس مري» (1) إنما ترى أنها الزوجة الرئيسية، كما أن بعض الباحثين إنما يعتبرها «أم الأمراء» الذين لهم حق وراثة العرش (2)، وهناك في متحف بروكسل جزء من تمثال صغيرة لهذه الملكة، ما زالت عليه بعض نعوت لها تكاد تكون فريدة في بابها، فعلى الجهة اليمنى نقرأ «وعند ما تدخل في المقر المزدوج، فإن قاعة الاستقبال في القصر تصوع بشذي عبيرها، وإنها لحلوة الرائحة، بجانب والدها الذي يبتهج لرؤيتها، الزوجة الملكية...»، وعلى الجهة اليسرى نقرأ «التي تملأ قاعة الجلسة بعبيرها، وهي المنقطعة النظير بعطورها، إذ تعادل بلاد بونت (3) (حيث كان القوم يحصلون على أخشاب البخور والمر وغيرها من الأشجار ذات الرائحة الزكية) بشذي أعضائها، الزوجة الملكية»، وفي الواقع أن هذه النعوت النسوية الدالة على طيب العبير، وما يצוע منها من شذي العطور، لم توصف بها ملكة من قبل (4).

ولعل هذا إنما يدل على شدة حب الفرعون لها، ودالتها عليه، وإذا ما وضعنا هذا في اعتبارنا، وتذكرنا قصة موسى عليه السلام، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم، وكيف ألقته أمه في اليم فالتقطه آل فرعون لينشأ في قصر فرعون نفسه، وذلك عند ما قالتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنٌ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا (5)، إذا تذكرنا ذلك كله، وقارنا بين اسم امرأة فرعون، كما ورد في الحديث النبوي الشريف، وفي الآثار

ص: 326

1- , 1925 p. 100-104 M ssiM yrruA tneicnA.tpyE.

2- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر 139/2-140.

3- أنظر عن: بلاد بونت والآراء التي دارت حولها (محمد بيومي مهران: العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة- الرياض 1976- ص 307-310).

4- سليم حسن: مصر القديمة 634-637، وكذا، 33، 1934، p. 74-79 tpyE'd euqinorhC.

5- سورة القصص: آية 9.

المصرية، لما وجدنا صعوبة كبيرة في تقريب «إيسة» (أو إيسي أو حتى است) إلى آسية (أو آسيا)، مع مراعاة اختلاف قراءة أسماء الأعلام في اللغتين العربية والمصرية القديمة، وهكذا نستطيع القول إن الفرعون الذي التقطت امرأته موسى عليه السلام، هو رعمسيس الثاني، و هو فرعون التسخير، وأن الفرعون الذي جابهه موسى هو «مرنبتاح»، و لعل مرنبتاح نفسه هو الذي ذكر موسى بتربيتهم له، و تشتتهم إياه على فراشهم، ثم قتله واحدا من رعاياهم و هروبه إلى مدين، ثم إذا به يعود آخر الأمر فيدعوهم إلى إطلاق سراح بني إسرائيل، و إلى هذا يشير القرآن الكريم، في قوله تعالى: قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا، وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَ فَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ، فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّيْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (1).

و هكذا يبدو لي، بعد كل الحجج التي قدمناها، أن الرأي الذي يجعل خروج بني إسرائيل في عهد مرنبتاح، و بالتالي فهو فرعون موسى، إنما هو أقرب الآراء إلى الصواب، و هو الرأي الذي نميل إليه و نرجحه، على أن يكون الخروج في العام الأخير من حكم مرنبتاح، و ليس في العام الخامس كما هو المفترض، سواء أ كان هذا العام الأخير، هو العام العاشر (عام 1214 ق. م) كما ترى جمهرة المؤرخين، أم كان ذلك العام هو العام الثامن (عام 1216 ق. م) فيما يرى البعض، و أما سبب تحديدنا للعام الأخير من حكم مرنبتاح للخروج، فهو أن التوراة (2) و القرآن العظيم (3) يرويان أن الفرعون

ص: 327

1- سورة الشعراء: آية 18-22.

2- خروج 14/26-31، 15/1-5، الرسالة إلى العبرانيين 5/29.

3- أنظر: سورة البقرة: آية 50، الأعراف: آية 136، يونس: آية 90-92، طه: آية 78، الشعراء: آية 63-66 و غيرها.

قد غرق في البحر عند محاولته اللحاق بموسى وبنى إسرائيل، وإن أضاف القرآن الكريم أن جثة الفرعون قد انتشلت لتكون آية لمن خلفه، قال تعالى:

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً (1)، ولم تكن الآية لمن خلفه جيلاً أو جيلين، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال، و المئات الكثيرة من السنين، وهي إنما صارت كذلك بما مكّن رب العرش لأهل هذا المصر من سلطان العلم و أسرار التحنيط (2).

وهكذا نستطيع، عن طريق تحديدنا للخروج بالعام الأخير من حكم مرنبتاح، أن نوفق إلى حد كبير، بين أحداث التاريخ القديم، وبين ما جاء عن هذه الأحداث في التوراة و القرآن العظيم، فضلاً عن إيجاد تفسير مقبول لتسجيل انتصار مرنبتاح على لوحة ليست له، وإنما لسلفه البعيد «أمنحتب الثالث»، وذلك بسبب موته المفاجئ، و أما أن اللوحة قد حددت حادث الخروج بالعام الخامس من حكم مرنبتاح، فذلك يتناقض تماماً مع ما جاء في التوراة و القرآن العظيم عنه، إذ أن ذلك يعني أن الفرعون قد بقي على قيد الحياة بعد خروج بني إسرائيل من مصر (3). هذا فضلاً عن أن حملته على سورية، والتي ذكرت في اللوح، إنما كانت في العام الثالث، و أما تحديد العام الخامس بالذات تاريخاً للنص، فربما كان يهدف من كتبه (بعد غرق الفرعون) تخليد ذكرى انتصاره على الليبيين و حلفائهم من القهق

ص: 328

1- سورة يونس: آية 92.

2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 123.

3- ذهب الدكتور سليم حسن إلى أن الفرعون لم يموت، إذ أنه لا يتصور أن يغرق و عربته و من معه في ضحاضاح لا يزيد عمقه عن قدمين أو ثلاث، و يرى أن خيل الفرعون و عرباته قد ساخت في الأوحال فسقط مغشياً عليه، و أن ما جاء في القرآن عن الحادث لا يشعر بأن الفرعون قد غرق و مات (مصر القديمة 135/7)، و هذا الإتجاه، فوق مخالفته لكل آراء المفسرين، فهو تعسف في تفسير النصوص المقدسة، و خطأ في الاستنتاج.

والمشوش، إلى جانب خمسة من شعوب البحر، وإنقاذ أرض الكنانة من أن تقع في أيديهم.

[6] آراء أخرى:-

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الآراء الخمسة، الآفة الذكر، ليست هي كل ما ذهب إليه أفتكار الباحثين بالنسبة إلى تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، وبالتالي فرعون موسى، وإنما هناك آراء أخرى لعل أهمها ثلاثة:

أولهما: ما ذهب إليه الزميل الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف من أن فرعون الخروج إنما هو «سيتي الثاني» (سيتي مرنتاح)، وليس مرنتاح نفسه، اعتمادا على تقرير موظف الحدود، الآف الذكر، والذي رأى فيه دليلا على سواد الهدوء والنظام على التخوم الشرقية، وعلى ما كان لسلطات الأمن في عهد مرنتاح من سيطرة على حركات الناس والبدو في تلك البقاع، وعلى أن مومياء مرنتاح تدل على أنه كان قد طعن في السن وتقدمت به الأيام، مما يقعد به عن الخروج في حملات الحرب والقتال، ومن ثم فإن فرعون الخروج، على ما يرجح، إنما كان شابا أورا جلا مكتمل الصحة موفور النشاط، وهو ما يتبين من جثة سيتي الثاني بمتحف القاهرة، حيث الموت المفاجئ بغرق أدنى إلى العقل والافتناع (1).

وأما الرأي الثاني، فيذهب أصحابه إلى أن الخروج تم بعد نهاية الأسرة التاسعة عشرة (2)، وأما ثالث الآراء، فيذهب إلى أن الخروج إنما كان بعد عهد رع مسيس الثالث (3)، بل إن صاحب هذا يرى أن هناك

ص: 329

-
- 1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 139-147، وكذا، 69. p، 1912، .oriaC, seimmuM layoR, htimS toille
 - 2- 1947، .E. O .W 223. p، .drofxO ,tpygE fo ycageL eht ni ,learsI dna tpygE ,yelretseO .E. O .W
 - 3- 1963، .nodnoL, tsaE raeN eht fo yrotsiH tneicnA ehT, llaH. R. H 408. p،

خروجين، الواحد: عند نهاية حكم تحوتمس الثالث، و الآخر بعد أيام رعمسيس الثالث، وإن كان من البدهي أن ذلك أمرا غير مقبول، على أننا في نفس الوقت، لا نستطيع القول أن هناك ما يمنع طوائف من بني إسرائيل من الخروج من مصر عن طريق الهجرة أو التسلل في أوقات الضعف و الاضطرابات التي رأت مصر بعضا منها في تلك القرون الأربعة التي عاشها بنو إسرائيل في مصر، فيما بين عهدي يوسف و موسى عليهما السلام، خاصة و أن بني إسرائيل إنما كانوا يكوّنون في مصر مجموعة من الرحل يقومون برعي أغنامهم في وادي طميلات بشرق الدلتا أو يستقرون على أطراف الإقليم الزراعي هناك في أغلب الأحيانين.

[7] صمت الآثار المصرية عن قصة بني إسرائيل:-

من الغريب أن الآثار المصرية تصمت تماما عن موضوع بني إسرائيل في مصر، اللهم إلا تلك الجملة القصيرة التي جاءت في لوح إسرائيل من عهد مرنبتاح «و خربت إسرائيل وزالت بذرتها»، و من ثم فقد نظر بعض العلماء إلى القصة كلها بعين الحذر، و يذهب «جاردنر» إلى أن قصة خروج بني إسرائيل من مصر يجب أن تبقى تفاصيلها- حتى تظهر في الأفق براهين جديدة تختلف في شكلها عن التي في متناول أيدينا الآن- و كأنها أسطورة، مثلها في ذلك مثل قصة الخلق المذكورة في سفر التكوين من التوراة (1)، و علينا أن نسعى في تفسير هذه القصص على فرض أنها أساطير، و إن رأى بعد ذلك أنه بعيد عن القول أن كل قصة الخروج خرافية، إذا أنها تعكس في مجموعها حادثة تاريخية معينة هي طرد الهكسوس من مصر (2).

ص: 330

1- أنظر: تكوين 1/1 - 31، 1/2 - 25، محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الثالث - الإسكندرية 1979 ص 336 - 340.
2- AEJ ni, sudoxE fo yhpargoeG ehT, renidraG. H. A 88. p, 1924, 10, -

و يعلل «سمث» سكوت المصادر المصرية عن قصة الخروج بأن ذلك لا يدعو إلى الدهشة، لأن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادث خروج بني إسرائيل ولم تسجل خطواته، ذلك لأن فرار مجموعة من العبيد من سادتهم لا يمثل حدثا يثير الاهتمام الفكري لدى المصريين، خاصة وأن بني إسرائيل قد عاصروا بمصر عهدا حافلة بجلائل الأعمال استنفذت، فيما يبدو، نشاط المثالين و مدوني التاريخ (1).

و الرأي عندي أن العلامة «جاردنر» قد أخطأ كثيرا في تصويره عن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، ذلك، لأن القصة وإن لم تذكر في المصادر المصرية القديمة لأسباب سنذكرها حالا، فقد ذكرت بالتفصيل في التوراة والإنجيل و القرآن العظيم، كما رأينا من قبل، و بدهي أنه ليس من العلم، فضلا عن الإيمان بكتب السماء، و أن نشك في أمر أجمعت عليه هذه الكتب، كما أنه ليس ببعيد أن تكشف أعمال التنقيب، فيما تكشف، عن بعض الآثار التي تروي هذه القصة أو حتى تعين على مزيد من الإيضاح.

و أما تعليل «سمث» للحدث الخطير فبعيد عن الصواب كذلك، لأن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادث خروج بني إسرائيل، من مصر لأسباب أخرى، غير ما ذكر «سمث»، منها (أولا) أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء و الرسل في النصوص الإنسانية ضعيف، ذلك لأن حقيقة الصراع بين دعوات الأنبياء، و سلطات الملوك المؤلهين أو شبه المؤلهين يدعو إلى عدم سماح الملوك بتسجيل مبادئ هذه الدعوات و الصراع بينها و بينهم، و تلك ظاهرة يلمسها المؤرخ بوضوح في تاريخ الشرق الأدنى القديم، كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع ملك العراق، و قصة موسى عليه السلام مع فرعون مصر، على سبيل المثال، و منها (ثانيا) أن المصادر المصرية

ص: 331

القديمة، والتي تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الأدنى القديم، بوضوحها وكثرة آثارها، كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن قصة بني إسرائيل في مصر، منذ عهد يوسف وحتى عهد موسى، عليهما السلام، غير أن هذه المصادر، كما هو معروف، إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحى منهم، أو على الأقل برضى منهم، فإذا ما تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة، كما أثبتت النصوص و ألمع القرآن الكريم (1)، يزعم أنه إله أكثر منه بشرا، و من ثم فقد كان من الطبيعي ألا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك في حرب خاض غمارها، ولهذا فإن النصر كان أن يكون حليفه، وقد تكون الحقيقة غير ذلك (2).

و من المعروف أن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام، كما جاءت في التوراة والإنجيل و القرآن العظيم، إنما انتهت بغرق الفرعون و جنوده في البحر، و نجاة موسى و من آمن معه بالله الواحد القهار، و من ثم فليس من المقبول، طبقا للعقيدة المصرية القديمة، أن تسجل نصوص الفراعين، غرق الإله الفرعون، و نجاة عبيده العبرانيين، و من هنا كان من الصعب العثور على آثار تتحدث عن موسى و قومه، رغم ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر الفرعونية، و إن كان هذا لا يقطع الأمل في العثور على تلك الآثار، التي ربما سجلت بطريقة أو بأخرى عن طريق المعارضين لفرعون، المؤمنين برب موسى و هارون، و الله وحده يعلم الغيب من الأمر.

ص: 332

1- أنظر: سورة الشعراء: آية 29، سورة القصص: آية 38، سورة النازعات: آية 22-24.

2- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية ص 3.

الباب الثالث موسى و بني إسرائيل منذ انقلاق البحر و حتى موت موسى عليه السّلام

اشارة

ص: 333

[1] محاولة الردة الأولى و عبادة الأصنام:-

انتهت قصة بني إسرائيل مع مصر، و فرعون مصر، بعد انغلاق البحر و غرق فرعون و جنده، و نجاة موسى و قومه، فضلا عن الذين آمنوا معه من غيرهم، بالله الواحد القهار، و هنا تبدأ حلقة جديدة من حياة موسى مع بني إسرائيل، بما فيها من كفر و غدر، و لو كان موسى مجرد زعيم مخلص عرض حياته للخطر أكثر من مرة لإنقاذهم، لكان له عليهم حق السمع و الطاعة و الإخلاص، و إن كان موسى مجرد زعيم مخلص عرض حياته للخطر أكثر من مرة لإنقاذهم، لكان له عليهم حق السمع و الطاعة و الإخلاص، و امثال أمره، و اتباع هداه، ولكنه فوق ذلك رسول و نبي من الله تعالى، مؤيد بالمعجزات الباهرة، و مع ذلك فإن كليم الله عليه السلام لم يجد منهم إلا العناء و التمرد، فضلا عن الكفر و الفسوق و العصيان.

و في الواقع، فإن التراث الديني اليهودي ليزخر بأدلة لا تقبل الشك على أن اليهود الذين رافقوا موسى عليه السلام، إلى سيناء لم يكونوا أكفاء لحمل عبء التوحيد و فلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، و لم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا

على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسيم الدينية في مصر، وودوا لو أنهم يعودون إليها ويعيدونها منسوخة ممسوخة في الصحراوات (1).

كانت سيناء منذ أقدم العصور من أوفر مصادر مصر بالفيروز و النحاس، كانت مستودعا غنيا بالنحاس و من كريم الحجر و بالفيروزج بنوع خاص، و من ثم فقد كانت ميدانا لنشاط اقتصادي خصيب، حرص ملوك مصر منذ طلائع الأسرة الأولى على رعايته و حمايته، و هكذا كان من الواجبات الملقاة على عاتق الملوك منذ قيام الملكية المصرية، حوالي عام 3200 قبل الميلاد، أن يكفلوا حماية القوافل و بعثات المناجم و المحاجر التي تجوس خلال الصحراوات في سيناء، كما تشير إلى ذلك الأدلة التاريخية من عهد الملك «جر» و «دن» (وديمو) من الأسرة الأولى (2)، مما يدل على أن مصر إنما كانت جد حريصة على حماية سيناء منذ عصورها المبكرة، الأمر لم تتخل عنه مصر أبدا.

و على أي حال، فلقد كانت مناجم الفيروزج تكثر في وادي مغارة و سرابة الخادم، حيث أقيم معبد للإلهة «حاتحور» ربه الفيروزج منذ أيام الدولة الوسطى التي عملت على استغلال تلك المنطقة باهتمام كبير، و ما زالت تلك البقاع من سيناء تحفظ على صخورها آلافا من نقوش المصريين، ممن كانوا في تلك البقاع عاملين، و في الوقت نفسه للإلهة «حاتور» متعبدين (3)، و قد حدث في سيناء منذ أقدم العصور التاريخ الفرعوني اتصال بين الإلهة المصرية «حاتور» (و التي كانت الصفة القمرية من بين صفاتها العديدة في مصر) و بين الإلهة السامية القمرية التي كانت تعبد في الكهف

ص: 336

-
- 1- عباس العقاد: مطلع النور- أو طوالع البعثة المحمدية- القاهرة 1968 ص 107.
 - 2- F. P, VXXX, SAZ 7 و كذا، 1964. p. 415- 414. G. H. A 415- 414. p. 1964. drofXO, shoarahP eht fo tpygE, renidra
 - 3- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 125، 175.

المقدس في معبد سراييط الخادم في سيناء قبل مجيء المصريين، والتي حلت حلت «خاتور» المصرية محلها (1).

هذا وقد عبد المصريون الإلهة «خاتور» (حوت حور- مكان أو بيت حور)، وقد حازت شهرة واسعة منذ عصور ما قبل الأسرات وفي عصر الأسرتين الأولى والثانية، كإلهة للسماء، كما كانت وقت ذلك تمثل الصورة النسائية ل «حور» وقد صورت في الفن الديني المصري بأشكال تكاد لا تحصر، ولكنها غالبا كانت تصور كبقرة، أو بشكل امرأة يزين رأسها قرص الشمس بين قرني البقرة، وفي كثير من الأحيان كانت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين، وقد اختلطت الفكرتان الخاصتان برأس المرأة ورأس البقرة تدريجيا، حتى انتهى الأمر إلى أن تمثل برأس امرأة وأذني بقرة، وهو مظهر كانت تصور به خاتور باستمرار، فنراه مثلا كحلية ليد المرأة البدوية أو كعنصر معماري لتاج عمود، وبهذا الشكل الأخير نرى الإلهة ممثلة في صالة معبد دندرة (5 كيلا شمالي قناعير عبر النهر)، كما كانت خاتور في عقيدة القوم مرضعة «حور بن إيزة» ثم ربه الحب والحنان والموسيقى، ثم صارت ربه للجبانة ترعى الموت وترأهم، وكانت صاحبة ألقاب و نعوت كثيرة، منها «الذهبية» و «ربة الذهب» و «صاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها»، كما كانت لها تماثيل مموهة بالذهب حفظت بمتحف القاهرة (2).

هذا وقد انفرد القرآن الكريم، من دون التوراة، بأن بني إسرائيل لم

ص: 337

-1, 1955, p. 41. A. renidraG .T. A. TeeP. J. dna ynreC ,ynreC .J. dna teeP .T. A. renidraG .A 41. p, 1955, -1.

2- محمد بيومي مهرا- الحضارة المصرية ص 337-341، جيمس بيكي: الآثار المصرية في وادي النيل 190/2، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 137، وكذا. H 12- 10. P, sdoG eht dna pihsngniK, trofknarF.

يكادوا يمضون مع موسى عليه السلام، بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من آل فرعون، حتى رأوا قوما يعبدون أصناما لهم، فنسوا كل ما كانوا يذكرونه من آيات الله لموسى ونجاتهم معه وقالوا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْدَانِهِمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (1)، و «الفاء» في قوله تعالى:

فَأَتَوْا تَقِيدَ، كما هو معروف، الترتيب و التعقيب، و معنى ذلك أنه لم يمضي وقت بعد خروجهم من البحر و نجاتهم من الهلاك، حتى عادوا إلى الوثنية التي ألفوها، و ألفوا الذل معها، و هذا يدل على أن الإيمان لم يخالط بشاشة قلوبهم، و لم يتمكن من ضمائرهم و مشاعرهم، و لم يثمر فيهم الثمرة الطيبة لكل شجرة طيبة، و إنما كان إيمانهم بموسى إيمانا بإمامته و زعامته، لا إيمانا بالله الذي خلقه و سواه (2).

و ليس هناك من ريب في أن بني إسرائيل باتخاذهم العجل من بعد موسى، كما سنرى، و بمطالبتهم موسى أن يتخذ لهم إلهًا، كما لهؤلاء القوم المتعبدون لحاتور آلهة، إنما كانوا في الحالتين، لما اعتادوا في مصر من الآلهة الوثنية مرتدين، و أنهم ربما اتخذوا العجل من حليهم من الذهب فتنة ب «حاتور الذهبية»، و ما كان لها من منزلة في النفوس وقت ذلك، هذا فضلا تأثروا به من حب المصريين للذهب و صنع تماثيلهم الثمين منه، و ما ندري لعل لله تعالى حكمة فيما كان من أمره بني إسرائيل أن يذبخوا بقرة، و أنها «بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين»، و لقد كان البقر في مصر من أنواع

ص: 338

-
- 1- سورة الأعراف: آية 138-139، و انظر: تفسير الطبري 13/80-84، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/215-216، تفسير القرطبي ص 2709-2710، تفسير ابن كثير 3/464-465، تفسير المنار 9/91-99، تفسير النسفي 2/73-74.
 - 2- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 193-194.

وألوان حيث كان فيه الأسود، ونوع آخر لا نراه اليوم يجمع بين البياض والاسود، ويشبه ما هو معروف في أوربا اليوم، ولعل فيما أبدى بنو إسرائيل من تلكؤ و مراوغة في ذبح البقرة، و ما كان من تنطعهم في التساؤل عنها وعن لونها من أثر ما كان قد وقر في نفوسهم من تقديس «حاتور» (1)، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ، قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ، قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (2).

وهكذا يبدو واضحاً مدى تأثير الديانة المصرية القديمة في بني إسرائيل، تلك الديانة التي تمكنت من نفوسهم إبان إقامتهم الطويلة في مصر، و التي جاوزت قروناً أربعة، لدرجة أنهم ما كانوا بمستطيعين الإيمان بدعوة موسى، إما خوفاً من فرعون، وإما خوفاً من شيوخ بني إسرائيل، كما أشرنا من قبل، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَقْتُلَهُمْ (3).

ص: 339

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 127-128.

2- سورة البقرة: آية 67-71، و انظر عن القصة: تفسير الطبري 2/182-222، تفسير المنار 1/286-290، تفسير ابن كثير 1/154-160، البداية و النهاية 1/293-295، تفسير النسفي 1/53-55، تفسير القرطبي ص 378-387.

3- سورة يونس: آية 83، و انظر، تفسير المنار 11/383-384، معاني القرآن للفراء 1/476-477، تفسير الطبري 15/163-167، تفسير ابن كثير 4/222-223، تفسير القرطبي ص 3208-3209.

باعتبار أن الضمير في «ملئهم» راجع إلى قوم موسى، بل إن القوم برموا بموسى وضجروا به، وقالوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا (1).

هذا ويذهب المفسرون والمؤرخون المسلمون إلى أن الأصنام التي وجدها بنو إسرائيل بعد انغلاق البحر، إنما هي تماثيل بقر، وذلك فيما يرى البيضاوي، أول عبادة العجل، ويقول الطبري في تفسيره أن القوم كانوا يعبدون أصناما على صور البقر، فلما كان عجل السامري شبه إليهم أنه من تلك البقر، ومن ثم فقد أثار ذلك شبهة لهم في عبادة العجل بعد ذلك، وأما صاحب البحر المحيط، فقد أورد روايتين، الواحدة تذهب إلى أن البقر كان بقرا حقيقيا، وتذهب الثانية إلى أنه كان تماثيل بقر من حجارة و عيدان ونحوه، وكان ذلك أول فتنة العجل، على أن الإمام السيوطي إنما يذهب إلى أنها تماثيل بقر من نحاس، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر، فذلك أول شأن العجل لتكون لله عليهم حجة فينتقم منهم بعد ذلك، ويقول ابن عطية: الظاهر أنهم استحسنا ما رأوا، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يتقرب به إلى الله تعالى، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: «اجعل لنا إلها نقرده بالعبادة (2)»، فإذا كان ذلك كذلك، فإن القوم ما عرفوا بعد دعوة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام، ومن ثم فما آمنوا بعد برب موسى، أو على الأقل أكثرهم، حتى بعد انغلاق البحر، وما سبقه من معجزات، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (3). و تقول التوراة «فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد

ص: 340

1- سورة الأعراف: آية 129.

2- تفسير البيضاوي 25/3، تفسير الطبري 80/3-84، تفسير المحيط 377/4-378، تفسير الدر المنثور للسيوطي 114/3، مختصر تفسير ابن كثير 47/2، صفوة التفاسير للصابوني 468/1، تفسير النسفي 74/2.

3- سورة الشعراء: آية 65-67.

المصريين، ونظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين، فخاف الشعب الرب و آمنوا بالرب وبعده موسى» (1).

هذا فضلا عن أن ذلك يتعارض مع قول الله تعالى، على لسان موسى:

« قَالَ أَعْمَرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا، وما ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد و ابن أبي حاتم و ابن جرير عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا نبي الله: اجعل لنا هذه ذات أنواط، و كان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة و يعكفون حولها، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: الله أكبر هذه كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من قبلكم»، و ما رواه الإمام النسفي في تفسيره من أن يهوديا قال للإمام على بن أبي طالب، كرم الله وجهه في الجنة:

اختلفتم بعد نبيكم قبل أن تجف دماؤه، فقال الإمام: قلت اجعل لنا إلها و لم تجف أقدامكم»، و على أي حال، فإن موسى عليه السلام وصف قومه في قول الله تعالى: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، أي إنكم قوم تجهلون عظمة الله تعالى، و ما يجب أن ينزه عنه من الشريك و النظير، قال الإمام الزمخشري:

تعجب من قولهم، على إثر ما رأوا من الآية العظمى و المعجزة الكبرى (انغلاق البحر) فوصفهم بالجهل المطلق و أكده، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم و لا أشنع، و كما يقول أبو حيان: أتى بلفظ «تجهلون» و لم يقل «جهلتم» إشعارا بأن ذلك منهم كالطبع و الغريزة، لا ينفصلون عنه في ماض و لا مستقبل (2).

و هكذا لم يطل العهد ببني إسرائيل، كما يقول صاحب الظلال، منذ

ص: 341

1- خروج 30/14-31.

2- تفسير الكشاف 150/2، تفسير البحر المحيط 378/4، تفسير النسفي 74/2، مختصر تفسير ابن كثير 47/2.

أن كانوا يسامون الخسف في ظل الوثنية الفرعونية عند فرعون و ملئه، و منذ أن أنقذهم نبيهم زعيمهم موسى عليه السلام باسم الله الواحد رب العالمين الذي أهلك عدوهم، و شق لهم البحر، و أنجاهم من العذاب الوحشي الذي كانوا يسامون، إنهم خارجون للتو و اللحظة من مصر و وثنتها، و لكن ها هم أولاء ما أن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وثنيين عاكفين على أصنام لهم (للمعبودة حاتور في هيئة بقرة أو غيرها من الأشكال) مستغرقين في طقوسهم الوثنية، و إذا هم يطلبون إلى موسى، النبي الرسول، الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام و التوحيد، أن يتخذ لهم وثنا يعبدونه من جديد، و من ثم فإن موسى يغضب لربه أن يشرك به قومه قال **إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**، ثم ترتفع نغمة الغيرة في كلمات موسى على ربه و الغضب له، و التعجب لنسيان قومه لنعمة الله تعالى عليهم، و هي حاضرة ظاهرة، قال **أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**.

و التفضيل على العالمين يجب أن يكون واضحاً أنه كان في زمانهم فحسب، كما يجمع المفسرون، ذلك لأن لكل زمان عالماً، و يجب الحمل على ذلك، لأن أمة محمد صلى الله عليه و سلم أفضل منهم لقوله تعالى: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**، و قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها و أكرمها على الله» (رواه أصحاب السنن)، و على أي حال، فإن تفضيل بني إسرائيل في زمانهم إنما تتجلى في اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين، و ليس وراء ذلك فضل و لا منة، فهذا ما لا يعدله فضل و لا منة، فكيف بعد هذا يطلبون إلى نبيهم أن يطلب لهم إلها غير الله، و هم في نعمته و فضله يتقبلون (1).

ص: 342

1- في ظلال القرآن 3/ 1365-1367، مختصر تفسير ابن كثير 1/ 62، تفسير النسفي 2/ 74.

ما أن تمضي أيام ثلاثة على انغلاق البحر آية الله الكبرى لموسى وقومه عند «يم سوف» حتى تدمر بنو إسرائيل لأنهم «لم يقدرُوا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر، لذلك دعي اسمها مارة، فتدمر الشعب على موسى قائلين ما ذا نشرب، فصرخ إلى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذبا» (1)، و ما أن يمضي شهر ونصف الشهر حتى يعود بنو إسرائيل إلى التذمر مرة أخرى، و من الغريب أن مصدر التذمر الآن، كما كان في المرة الأولى، شهوة رخيصة، و سعي وراء لذة دنوية، فإذا كانت الأولى بسبب الماء العذب، فقد كانت الثانية بسبب حرمانهم من طعام كانوا يحصلون عليه من فتات الموائد و فضلات المصريين، كانوا يجدون في سيناء «المن» أو العسل البري يشتارونه في غير مشقة و لا جهد، و كانوا يجدون «السلوى» (2)، و لعله

ص: 343

1- خروج 15/23-25.

2- المن و السلوى: أما المن فقد اختلف المفسرون فيه، قال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على اشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا، و قال السدي كان يسقط على شجرة الزنجبيل، و قال قتادة كان ينزل عليهم في محلتهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منه ما يكفيه يومه، و لا يدخر إلا يوم الجمعة فادخاره مباح ليوم السبت، و قال عبد الرحمن بن أسلم: إنه العسل، و قال الربيع بن أنس كان المن ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، و قيل هو الترنجبين أو ما يسقط على شجرة الترنجبين أو الزنجبيل، و هو يشبه الصمغ حلومع شيء من الحموضة، و قيل المن خبز الرقاق، و قيل كان شرابا حلوا يطبخونه فيشربونه، و قيل هو جميع ما منّ الله به عليهم في التيه جاءهم عفوا بلا تعب، و أما السلوى: فهو طائر السماني أو طائر يشبه السماني، و كانت تأتيهم من السماء بكرة و عشيا أو متى أحبوا، أو أن ریح الجنوب كانت تسوقها إليهم فيذبح الرجل منها ما يكفيه، و قيل كانت تنزل عليهم مطبوخة أو مشوية، و كان ينزل عليهم، كالمن، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ما عدا يوم السبت، فكان الواحد منهم يأخذ حاجته ليومه، ما عدا يوم الجمعة فيأخذ ليومين، فخالفوا و ادخروا، فدوّد و فسد، فقطع الله عنهم ذلك، و يروي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «لو لا - بنو إسرائيل لم يخبث الطعام و لم يخنز اللحم»، و روى السدي أن السلوى هو العسل بلغة كنعان. (تفسير الطبري 1/293-298، تفسير النسفي 1/49، تفسير الخازن 3/63، تفسير روح المعاني 1/263-264، الدر المنثور 1/70-71، ابن الأثير 1/110-111، صفوة التفاسير 1/60، مختصر تفسير ابن كثير 1/66-67).

السماني، وفيما يسيرا صيده، وكانت سيناء، وما زالت، قبلة للأفواج الكثيرة من طيور الهجرة تقبل في الخريف متعبة مرهقة بعد عبور البحر، فما أن تجد الأرض حتى تحط، فإذا لاحت تباشير الربيع عادت إلى اجتياز سيناء في طريقها إلى البحر تعبره إلى حيث تقيم، ومع ذلك فلم يرضى اليهود بما أنزل عليهم من رزق الله (1).

وليس هناك من ريب في أن ذلك إن دل على شيء، فإنما يدل على أن اليهود إنما كانوا يفضلون الحياة الذليلة تحت سياط الرق والاستعباد، بجوار قدور اللحم، على حياة الحرية والكرامة، تقول التوراة «فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى و هارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل «ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع، فإنكما أخرجتانا إلى هذا القفر، لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع» (2)، ثم طفقوا يعددون ما كانوا يجدون في مصر من الخير و ألوان الطعام، تقول التوراة «فعاد بنو إسرائيل أيضا و بكوا وقالوا: من يطعمنا لحما، قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانا، و القثاء و البطيخ و الكرات و البصل و الثوم، و الآن قد يبست أنفسنا ليس شيء غير أن أعيننا إلى هذا المن» (3)، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا

ص: 344

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 128-129 و كذا.، 468-469 negariztrenieM s'llociN, tpygE sdriB P, 41.

2- خروج 2/16-3.

3- عدد 4/11-6.

وَفُومِهَا (1) وَعَدَسِيَّهَا وَبَصَّ لَهَا، قَالَ أَتَسَّ تَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَذْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَصَدْرِبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَ الْمَسْكَنَةَ وَبَأَوْ بَعْضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (2).

ثم ما يمضي حين حتى تقوم ثورة أخرى، فهناك في «رفيديم» «خاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماء لنشرب، و تدمر الشعب على موسى وقالوا:

لما إذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا و مواشينا بالعطش»، و يأمر الرب نبيّه «أن اضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب، ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل، و دعا اسم الموضوع مسه و مريبه، من أجل مخاصمة بني إسرائيل و من أجل تجربتهم للرب قائلين: أ في وسطنا الرب أم لا» (3)، و يفسر «يوسف اليهودي» ذلك بأنهم وصلوا إلى رفيديم في حالة يرثى لها بسبب العطش، و لا شك في أن الصخرة في «حوريب» حيث يوجد ماء مغطى، و يرى رواد الصحراء الذين درسوا تربتها و جاسوا خلالها، أمثال «جارفس» و «وولي» أنه يمكن الحصول أحيانا على الماء في هذه النواحي تحت طبقة رقيقة من الحجر الجيري على عمق قدمين و يظل مخزوننا طوال العام (4).

ص: 345

-
- 1- الفوم: قيل الثوم و قيل الحنطة، و هو البر الذي يصنع من الخبز، و قال الفخر الرازي: الثوم أوفق للعدس و البصل من الحنطة، و لقراءة ابن مسعود «و ثومها»، و أما القثاء فهو الخيار (تفسير النسفي 1/ 51، تفسير القرطبي 1/ 425، صفوة التفاسير 1/ 64).
 - 2- سورة البقرة: آية 61، و انظر تفسير الطبري 2/ 130-142، تفسير الطبرسي 1/ 269-278، تفسير النسفي 1/ 55-56، تفسير روح المعاني 1/ 273-278، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 1/ 73-74، تفسير أبي السعود 1/ 182-183، في ظلال القرآن 1/ 75، تفسير ابن كثير 1/ 145-102، تفسير القرطبي ص 359-370، تفسير المنار 1/ 273-276، تفسير القاسمي 2/ 137-140، تفسير الفخر الرازي 3/ 98-102، التفسير الكاشف 1/ 114-116، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 1/ 74-77.
 - 3- خروج 17/ 1-7.
 - 4- نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 304.

و الرأي عندي أن الأمر ليس كما فسره هؤلاء الباحثون، وإنما هو، فيما أو من به واعتقده، معجزة من معجزات موسى عليه السلام، إذ أمره الله تعالى بأن يضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، بقدر عدد أسباط إسرائيل، لكل سبط عين قد عرفوها، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

وَ إِذِ اسْتَسْتَقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ، كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (1)، وقال ابن عباس: و جعل بين ظهرانيهم حجر مربع، و أمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية منه ثلاث عيون، و أعلم كل سبط عينهم يشربون منها، و قال قتادة: كان حجرا طوريا، أي من الطور، يحملونه معهم إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه، و قال النسفي: اللام للعهد، و الإشارة إلى حجر معلوم، فقد روى أنه حجر طوري حمله معه، و كان مربعا له أربعة أوجه، كانت تتبع من كل وجهه ثلاث أعين، لكل سبط عين، و قيل هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه حين اغتسل (2)، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة، و لك فيه معجزة، فحمله في مخلاته، قال الزمخشري: و يحتمل أن تكون اللام).

ص: 346

1- سورة البقرة: آية 60، و انظر: تفسير النسفي 50/1-51، مختصر تفسير ابن كثير 68/1-69.

2- أخرج البخاري عند تفسير آية الأحزاب (69) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: إن موسى كان رجلا حيا ستيرا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، و إما أدرة (انتفاخ الخصية) و إما آفة، و إن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، و إن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه و طلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى مر على ملا من بني إسرائيل فأراه أحسن ما خلق الله عريانا، و أبراه مما يقولون... قال:، فذلك قوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (صحيح البخاري 312/6).

للجنس، لا- للعهد، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجرا بعينه، وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر، ثم يضربه فييبس، وعلى أي حال، فإن انفجار الماء، إنما كان على وجه المعجزة، وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء، وهنا تكون المعجزة أوضح، و البرهان أسطع (1).

[3] بنو إسرائيل و العماليق:-

تشير التوراة إلى أن بني إسرائيل قد التقوا بالعماليق في «رفيديم» حيث جرت بينهم المعركة الرئيسية على امتلاك الشريط الخصيب الوحيد في شبه جزيرة سيناء، وهو «وادي فيران» الحالي (2)، و طبقا لرواية التوراة فلقد «أتى عماليق و حارب إسرائيل في رفيديم فقال موسى ليشوع: انتخب لنا رجلا و أخرج حارب عماليق، و غدا أفق أنا على رأس التلة و عصا الله في يدي، ففعل يشوع كما قال له موسى ليحارب عماليق، و أما موسى و هارون و حور فصعدوا على رأس التلة، و كان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب، و إذا أخفض يده أن عماليق يغلب، فلما صارت يدا موسى ثقيلتين أخذ حجرا، و وضعه تحته فجلس عليه، و دعم هارون و حور يديه، الواحد من هنا و الآخر من هناك، فكانت يده ثابتتين إلى غروب الشمس، فهزم يشوع عماليق و قومه بحد السيف» (3).

و على أي حال، فما تنتهي المعركة، حتى يلتقي موسى عليه السلام

ص: 347

-
- 1- تفسير الطبري 1/306-309، تفسير الكشاف 1/107، تفسير النسفي 1/50، تفسير أبي السعد السعود 1/180، مختصر تفسير ابن كثير 1/69، صفوة التفاسير 1/62-64.
 - 2- , 1925, P. F. W 4. p. 1925, earsI dnatpygE, eirteP. F. W 4. p. 1925.
 - 3- خروج 17/8-13.

بحميه يثرون، الذي جاء معه صفورة، امرأة موسى وولده جرشوم وإيعازر (1)، هذا مع أن التوراة قد ذكرت من قبل، وفي نفس سفر الخروج أن موسى قد هبط مصر و معه زوجته وولده (2)، ولكن هذا لا يزعجنا كثيرا، فهو نوع من تناقض نصوص التوراة، ونظائره كثيرة، و على أي حال، فإن التوراة (3) تحدثنا أن يثرون، و هو شعيب بني مدين العربي فيما يرجع الكثيرون، كما أشرنا من قبل، كان يقدم القرابين إلى الله، و يتبعه موسى و هارون و شيوخ بني إسرائيل، و أنه قد أسدى إلى موسى النصح باختيار رؤساء للشعب لينظروا في القضايا الثانوية، و يبقى هو المرجع الأعلى، فاتبع نصيحة شعيب، و معنى هذا أن شعيبا، كما يقول الأستاذ العقاد، تقدم موسى في عقيدته الإلهية، و علمه تبليغ الشريعة، و تنظيم القضاء في قومه، و أن العبريين كانوا متعلمين من النبي العربي، و لم يكونوا معلمين (4).

[4] الردة و عبادة العجل في سيناء :-

تحدث التوراة في الإصحاحات من التاسع عشر إلى الحادي و الثلاثين من سفر الخروج عن الشريعة الموسوية، و في الإصحاح الثاني و الثلاثين من نفس السفر تحدث عن ردة بني إسرائيل عن التوحيد، و حبر وصايا الرب لم يجف كما يقولون، ذلك أن موسى عليه السلام، فيما يروي المفسرون، قد وعد بني إسرائيل و هو بمصر، إن أهلك الله عدوهم، أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون و يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوما، و هو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوق فمه (تغير رائحة فمه) فتسوّك، فقالت الملائكة: كنا نشم

ص: 348

1- خروج 18 / 1-7.

2- خروج 4 / 20.

3- خروج 18 / 12-27.

4- عباس العقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان و العبريين القاهرة 1960 ص 80.

من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، أو أن الله أوحى إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة، روي عن ابن عباس وغيره: فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكلم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**، وكان موسى لما أتم الصيام ثلاثين يوماً وعزم على الذهاب إلى الطور، استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون وصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء، وهناك كما أشرنا، أنكر ريح فمه فاستاك بعود خرنوب أو بلحاء شجرة، فأمره الله أن يصوم عشرة أيام أخرى، وفي تلك الليالي العشر، افتتن بنو إسرائيل، لأن الثلاثين انقضت ولم يرجع إليهم موسى (1)، وإلى هنا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **وَإِعْدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**، وقال موسى لأخيه هارون **اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** (2)، وقال تعالى: **وَإِذْ إِعْدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ** (3).

وهكذا لم يمضي وقت طويل على انغلاق البحر لموسى وقومه، حتى كانت الردة وعبادة العجل، كما جاء في التوراة والقرآن العظيم،

ص: 349

-
- 1- تفسير الكشاف 151/2، تفسير النسفي 48/1، 74/2، تفسير أبي السعود 174/1، الدر المنثور 115/3، تفسير روح المعاني 1/257-258، تفسير البحر المحيط 379/4، مختصر تفسير ابن كثير 48/2، تاريخ الطبري 421/1-422، ابن الأثير 107/1.
 - 2- سورة الأعراف: آية 142.
 - 3- سورة البقرة: آية 51، 54، 92-93 سورة طه: آية 83-98.

و يقول تعالى: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْتَدِيهِمْ سَبِيلًا، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ، وَ لَمَّا سَدَّ قَطْعَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَدُّوا قَالُوا لَنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنْكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَ كَادُوا يَفْتِنُونِي فَلَا- تُشَدِّ مَثِي بِئِ الْأَعْدَاءِ وَ لَا- تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيْنَالَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (1).

وهكذا بقيت الوثنية راسخة في قلوب بني إسرائيل، حتى بعد انغلاق البحر لهم، و حتى بعد أن جاوزوه على ييس، و حتى بعد أن من الله عليهم بالمن و السلوى، و حتى بعد أن استسقوا موسى فضرب الحجر بعصاه فأنجبت منه اثنتا عشرة عينا، لكل سبط من الأسباط الاثني عشر مشربهم، و حتى بعد أن نزلت عليهم شريعة تحذرهم من اتخاذ آلهة أخرى غير الله، حتى بعد هذا كله، فإنهم سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم، و كفروا بالله الواحد الأحد، «و صنعوا لهم عجلا مسبوكا و سجدوا له و ذبحوا و قالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (2)، و هو نفس ما سيفعلونه في دويلة

ص: 350

-
- 1- سورة الأعراف: آية 148-152، و انظر: تفسير الطبري 13/117-136، تفسير الطبرسي 9/26-32، تفسير القاسمي 7/2859، تفسير روح المعاني 9/67-70، تفسير ابن كثير 3/473-475، تفسير المنار 9/172-183، تفسير القرطبي ص 2720-2728، تفسير الفخر الرازي 15/108-111، تفسير الكشاف 2/118-120، تفسير أبي السعود 2/406-409، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/219-221، تفسير الجلالين ص 155، تفسير و جدي ص 214-215.
 - 2- خروج 32/7-8.

إسرائيل على أيام «يربعام الأول» (922-901 ق. م) وبعد موت سليمان عليه السلام مباشرة ذلك أن يربعام، خوفاً من أن تعود قلوب القوم تتعلق بأورشليم، قد هداه تفكيره المريض إلى أن يعيد المكانين المقدسين عند القوم، وكان الواحد منهما في «بيت إيل»، والآخر في «دان»، وأن يزود كل منهما «بالعجل الذهبي»، بل إن عاصمتهم السامرة فيما بعد، قد زودت كذلك «بعجل ذهبي» (1).

وليس هناك من ريب في أن هذا، إنما كان، مرة أخرى، من تأثير الوثنية المصرية على بني إسرائيل، ذلك أن عبادة العجل في مصر جد عميقة الجذور، إذ ترجع إلى ما قبل عصر موسى بكثير، إلى أيام الأسرة الأولى حوالي عام 3200 ق. م، ثم استمرت حتى ظهور المسيحية و غلبتها عليها، ويذهب «والتر إمري» إلى أن العجل كان في نظر القوم، رمزا للقوة في الحروب، كما أنه رمز للإخصاب، في نفس الوقت، و أن عبادته بدأت منذ أيام الأسرة الأولى، اعتماداً على تصوير ملوك هذه الأسرة على هيئة ثيران (2)، هذا وقد اشتهرت هذه العبادة باسم «مرور و عبي» (منفيس و أبيس في تصحيف اليونان) حيث عبد الأول في «أون» (عين شمس) رمزا لإله الشمس رع، و عبد الثاني في منف مدينة بتاح، رمزا للإله بتاح، و قد احتفظ المصريون في معبد بتاح بالعجل المقدس «أبيس»، دون أن تكون هناك علاقة ما بين الإلهين، على الأقل في العصور القديمة (3)، كما أن «بتاح» لم يصور أبداً على هيئة ثور، و لم يعتقد أحد أنه تجسد في ثور (4)، و لم يعتبر أبيس كروح للإله بتاح، إلا على أيام الدولة الحديثة، و إن كان هناك اعتقاد

ص: 351

1- ملوك أول 12/25-32، هوشع 8/5-6 و كذا. P, tic- po, htoN. M 232.

2- , 1963, p. 124. W remE. B. ciahcrA, tpygE.

3- أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة- القاهرة 1952 ص 31 (مترجم).

4- , 1942, p. 10. F. trofknar, K. pihsgni dna eht G, C. ogacih.

يجعل من «أبيس»، وكذا «منقيس» عجل أون، رسولين يقومان بتبليغ الرسائل إلى إلههما، وهو اعتقاد يرجع كذلك إلى عهد الدولة الحديثة (1575-1087 ق. م) (1).

هذا وقد قام جدال طويل حول حقيقة «العجل» الذي عبده بنو إسرائيل أثناء غياب موسى عليه السلام، فمن قائل أنه كان تمثالا أجوف من ذهب صاغه السامري من الحلبي، وصنع بحيث إذا استدبر الريح دخلت جوفه وخرجت من فمه بصوت جهير يشبه خوار البقر، ومن قائل إن هذا الرجل المحتال خدع بني إسرائيل وأخذ منهم الحلبي، ثم رأى عجلا على هيئة العجول التي رآها تعبد في مصر، فاشتره وقدمه لهم، على أنه إله، فقال «هذا إلهكم وإله موسى»، ومن قائل غير هذين الرأيين، ولكن المتفق عليه من الكتب السماوية (التوراة والإنجيل والقرآن العظيم) أنهم عبدوا عجلا، أيا كان هذا العجل (2).

ويختلف المؤرخون المحدثون حول عبادة العجل الذي عبده بنو إسرائيل، ففريق ينسبها إلى عبادة الإلهة «حاتحور» وفريق ينسبها إلى عبادة العجل «أبيس»، ذلك أن «سير ليوناردو وولي» (3) إنما يذهب إلى أن بني إسرائيل عند ما دخلوا منطقة جنوب سيناء، حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعدين معبدا لحاتور، ارتدوا عن الوحداية إلى العقائد التي اكتسبوها في

ص: 352

1- أدولف إرمان: المرجع السابق ص 31.

2- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 201، وانظر: تفسير الطبري 1/279-285، تفسير النسفي 1/48، 2/77-78، مختصر تفسير ابن كثير 2/51-52، تفسير البيضاوي 3/27-28، تفسير الخازن 1/59-62، تاريخ الطبري 1/422-425، ابن الأثير 1/107-108.

3- Y. N, noitaziliviC fo sgninnigeB ehT, yelloW dranoel riS 515- 513. p. 1965 , -3.

مصر، وصاغوا العجل الذهبي، تمجيذا للإلهة البقرة، والتي اصطلح على أنها كانت سيدة تلك البلاد.

هذا ويفترض «أوسترلي» (1)، طبقا لما جاء في التوراة (2)، أن هذا العجل الذهبي إنما كان معبودا مصرياً، وأنه هو الإلهة حاتور، وأن هناك تمثالا في المتحف المصري بالقاهرة لهذه الإلهة البقرة يرجع إلى أيام أممحتب الثاني (1436-1413 ق. م)، وقد غطى الرأس والعنق والقرنان في الأصل بالذهب، ويشير إلى «العجل الذهبي»، وقد وصف في مكان آخر، وكأنه الإلهة ذات القلائد المضيئة «مثل السماء بنجومها»، وهي تدعى «الواحدة الذهبية» أو «ذهب الآلهة»، ولعل في هذا إشارة كذلك إلى السبب الذي من أجله سمي العجل ب «الذهبي»، وقد وجدت صور هذه الإلهة في بيت شان (بيسان) و جازر وأريحا، وإن الإلهة «عشتار» كانت تمثل أحيانا بلباس الرأس الخاص بحاتور، ولهذا كله، فإننا نستطيع أن نوحّد العجل الذهبي بالإلهة المصرية «حاتور»، هذا فضلا عن أن من صفات حاتور، أنها كانت تدعى إلهة الحب، والإلهة المرحلة الطروب، ومن ثم فقد كانوا يسمونها «بالذهبية»، وقد دعاها اليونان «أفروديت»، ومن ثم فقد كانت النسوة يخدمنها ويحتفلن بها، وذلك بإقامة حفلات الرقص والغناء واللعب على الصاجات والشخشخة بقلاندهن، وبالعرف على الدفوف (3).

ولعل من الجدير بالإشارة أن قارئ التوراة يجد في سفر الخروج صدى لهذه الاحتفالات النسوية بحاتور، من إقامة حفلات الرقص والغناء

ص: 353

1- W. O. E. Oretse, I dnatyge, niTehL ycefy, Oxford. 1947, -1

2- خروج 2/32-4، ملوك أول 28/12.

3- أدولف إرمان: المرجع السابق ص 36-37، سليم حسن: المرجع السابق 1/208، جيمس بيكي: المرجع السابق 2/189.

و اللعب، ذلك أن بني إسرائيل، بعد أن صاغوا عجلهم الذهبي، وقدموا له القرابين، «جلس الشعب للأكل و الشرب ثم قاموا للعب» (1)، و أن موسى عليه السلام عند ما اقترب من المحلة أبصر العجل و الرقص (2)، و طبقا لترجمة اليسوعيين، فلقد «رأى موسى الشعب أنهم عراة، لأن هارون (3) كان قد عراهم أمام أعدائهم، لأجل ما هو عار نجاسة» (4)، و هكذا تصور لنا التوراة جماعة إسرائيل، و هي ترقص عارية، و يذهب بها المرح من حول «العجل الذهبي» كل مذهب، مما يتفق و مظاهر الاحتفال بحاتور (5).

على أن هناك فريقا آخر يعارض هذا الاتجاه، و يرى أن بني إسرائيل عبدوا عجلا، و ليس بقرة، فالأستاذ «دياكونوف» (ffonokaiD. M. I) يرى أن العجل الذهبي إنما كان في صورة حيوان ذكر، و ليس أنثى، و من هنا فإنه يشك كثير في أن الإسرائيليين قد صاغوا هذا العجل الذهبي تمجيذا للإلهة «حاتور» (6)، و يذهب الدكتور ثروت الأسيوطي إلى أن بني إسرائيل قد قدسوا النجوم، و تقربوا إلى القمر ربيب الرعاة في الليالي الرطبة، بعد الشمس المحرقة، و من ثم فقد عبدوا العجل باعتباره رمزا للقمر (7)، بل إن جوستاف لوبون إنما يذهب إلى أن العجل من أصل كلداني، و كان بنو

ص: 354

1- خروج 2/32-8.

2- خروج 19/32.

3- لاحظ هنا أن التوراة تجعل هارون، و حاشاه أن يفعل ذلك، هو الذي صنع العجل و أغوى بني إسرائيل، و ليس السامري، و هذا ما سنناقشه حالا.

4- نص ترجمة دار الكتاب المقدس بالقاهرة (ط 1982) كالتالي: و لما رأى موسى الشعب أنه معري لأن هارون كان قد عراه للهزة بين مقاوميه (خروج 19/32).

5- أنظر عن: الردة و عبادة العجل في سيناء (محمد بيومي مهران: إسرائيل 462/1-479- الاسكندرية 1978).

6- .P, tic- po, yellooW. L 514 .

7- ثروت الأسيوطي: نظام الأسرة بين الاقتصاد و الدين، بنو إسرائيل ص 149.

إسرائيل يعبدون العجول المعدنية بعد خروجهم من مصر بطويل زمن، لارتوائهم من مبادئ بلاد ما بين النهرين الدينية، و كان هذا هو الوجه المفضل الذي يرمزون به إلى ربهم «يهوه» (1).

و هناك ما يشير إلى أن إله العبريين «يهوه» إنما هو في الأصل إله قمري، فقد كان يرسم في العصور القديمة في صورة «ثور» فضلا عن أننا نجد قرنين في مذبحه (2)، هذا إلى جانب ما يفهم من التوراة (العهد القديم) أن الديانة العبرية كانت توصف قبل السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، بأنها ديانة قمر و شمس و كواكب (3)، مما يدل بوضوح على أن بني إسرائيل، على أيام الملكية، قد تبني ملوكهم ديانات الشرك، بجانب ديانة يهوه، و أقاموا عجولا من ذهب وضعوها في مبان كالمعابد، كما فعل يربعام أول ملوك دويلة إسرائيل بعد الانقسام في أعقاب موت سليمان عليه السلام، في مدينتي دان و بيت إيل (4)، كما أشرنا من قبل، و كما فعل خليفته البعيد «أخاب» (869-850 ق. م) في عاصمته السامرة (5).

و انطلاقا من هذا كله، فالرأي عندي، أن عجل الذهب الذي عبده بنو إسرائيل في أوائل مرحلة الخروج من سيناء، و موسى عليه السلام ما يزال بين ظهرانيهم يتلقى الوحي من ربه في طور سيناء، إنما كان تقليد العبادة العجل المقدس في مصر، و ليس تقليدا لعبادة الإلهة البقرة حاتور، و ربما كان من أسباب ذلك (أولا) أن حاتور إنما كانت معبودة في مصر العليا (الصعيد) أكثر منها في مصر السفلى (الدلتا) حيث كان بنو إسرائيل يعيشون على أطراف

ص: 355

1- جوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص 61.

2- ملوك أول 28/12، ملوك ثان 11/23، خروج 4/32، هوشع 5/8-6.

3- ملوك ثان 16/17، 3/21، 5، 4/23-5، إرميا 2/8.

4- ملوك أول 26/12-36.

5- ملوك أول 16/31-33.

الدلتا الشرقية، و من ثم فقد عبت حاتور في مناطق كثيرة من الصعيد، في كوم أمبو و الجبلين و الأقصر و هو بنجع حمادي و القوصية و أطيح و منف، كما عبت في بلاد النوبة و بونت و جبيل، و إن كان أهم مراكز عبادتها في «دندرة» (5 كيلا شمالي قنا عبر النهر) حيث معبدها الكبير، و الذي يضارع معبد أدفو في روعته و اكتماله، و قد بناه بطليموس الثاني (284-246 ق. م) على أنقاض معبد حاتور القديم، و إن لم يتم البناء إلا حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد، و ما يزال حتى الآن يعدّ من أحسن المعابد المصرية، و أكثرها تأثيرا (1)، و هذا يعني أن بني إسرائيل كانوا يعيشون في منطقة بعيدة عن نفوذ عبادة حاتور، و العكس صحيح بالنسبة إلى عبادة العجول كمنفيس و أيس.

و منها (ثانيا) أن القرآن الكريم قد انفرد، من دون التوراة، بذكر نوعين من الردة، الأولى محاولة عبادة حتحور، بينما الثانية و قد ذكرتها التوراة كذلك، عبادة العجل الذهبي، ذلك أن آية الأعراف (139) إنما تتحدث عن تطلع بني إسرائيل، بمجرد عبورهم البحر، إلى عبادة إله آخر، غير إله موسى، يقول تعالى: وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (2)، و قد أشرنا من قبل، إلى أن مناجم الفيروزج تكثف في وادي مغارة و سراية الخادم، حيث أقيم معبد للإلهة حاتور، ربة الفيروزج، منذ أيام الدولة الوسطى، التي عملت على استغلال تلك المنطقة باهتمام

ص: 356

1- محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية- الاسكندرية 1984 ص 160، 337-341، و كذا. P, I, seuqihpargoG smoN sed. oriac eL ,knraK a reL sirtsoseS ed llepahc enU ,rairvehC, و كذا. eriannoitciD, reihtuaG. H 105., IV, p 56. A .H dna uacaL .P 224. p, 1956. P, tic- po, renidraG. H 130- 129, 45

2- سورة الأعراف: آية 139.

كبير، و من ثم فإن بني إسرائيل عند ما دخلوا منطقة جنوب سيناء، حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعددين معبدا لحاتور، ارتدوا عن الوجدانية إلى العقائد الوثنية التي اكتسبها بمصر، و طالبوا موسى عليه السلام بأن يجعل لهم إلهًا، ربما على هيئة حاتور، غير أن كليم الله عليه السلام، استطاع بقوة إيمانه، و رسوخ عقيدته، و قوة شخصيته أن يمنع قطيعه من الردة الأولى هذه، و بالتالي لم يتمكن القطيع من عبادة حاتور أو غيرها من الآلهة الوثنية، لكنهم سرعان ما اهتبلوا فرصة ذهاب موسى لميقات ربه لمدة ثلاثين ليلة، فلما أتمها له ربه أربعين ليلة، كفر القطيع بموسى، و إله موسى، و عادوا إلى ما ألفوه من عبادة العجول في مصر، و انطلقا من كل هذا، يمكننا القول أن الردة الأولى إنما كانت لعبادة حاتور، الإلهة البقرة، و لكن موسى عليه السلام نجح في وأد المحاولة في بدايتها، و أما الردة الثانية فكانت لعبادة العجل الذهبي، تقليدا لعبادة العجل منفيس أو أبيس، لا ندري على وجه اليقين.

و من ثم فإننا نوافق الرأي الذي ذهب إلى أن معبود إسرائيل الذهبي في سيناء إنما كان عجلا، و لم يكن بقرة، صحيح أن بعض العلماء نادى المعبود إنما كان بقرة، و لكن الذي يلزمنا هنا هو كلام الله عز و جل، كما جاء في الذكر الحكيم (1)، فضلا عن التوراة (2)، و ليس ما درج الباحثون أن يقدموا، وإنما هو اجتهاد، و فوق كل ذي علم عليم، و صدق الله العظيم حيث يقول:

وَلَقَدْ جَاءكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (3)، و يقول: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا

ص: 357

1- أنظر: سورة البقرة: آية 51-54، 92-93، النساء: آية 153، الأعراف: آية 148-152، طه: آية 83-98.

2- خروج 32/3-6.

3- سورة البقرة: آية 92، و انظر: تفسير الطبري 1/354-358، تفسير النسفي 1/71-72، تفسير الطبرسي 1/363-367، تفسير

الكشاف 1/165، تفسير روح المعاني 1/325-327، تفسير المنار 1/308، تفسير ابن كثير 1/180-181.

لَهُ خُوَارٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (1) و يقول: فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى (2).

و يحاول هارون عليه السلام أن يعيد القوم الضالين إلى عقيدة التوحيد، وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (3)، و لكنهم و قد أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم أجابوه، قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (4)، و أخبر الله تعالى نبيه موسى برده قومه، و إخلال السامري لهم، فيعود موسى إلى قومه غضبان أسفا، و يشتد في اللوم على هارون أخيه، ظنا منه أن قصر، حين انساق القوم إلى عبادة العجل، يقول تعالى: وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَابَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَوْا هَفْوًا و كَادُوا يَقتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (5)، و يقول:

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي، قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (6).

و هنا تتجه التوراة إلى منزلق خطر، حيث يذهب كتبها في الضلال

ص: 358

1- سورة الأعراف: آية 148.

2- سورة طه: آية 88.

3- سورة طه: آية 90.

4- سورة طه: آية 91.

5- سورة الأعراف: آية 150.

6- سورة طه: آية 92-94.

بعيدا، فيرون في سفر الخروج أن الذي صنع العجل وأغوى بني إسرائيل، إنما هارون، وليس السامري، حين اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار في غيبة موسى (1)، ولست أدري كيف نسي كتبة التوراة أن هارون أخو موسى، ونبي ورسول من الله مع موسى، و نائب و خليفة لموسى في غيابه، ولكنهم بنو إسرائيل دائما مع الفاسد المفسد، ولو كان السامري، قال تعالى: **وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا، وَ وهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (2)**، وقال تعالى:

وَ لَقَدْ مَنَّآ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ، وَ نَجَّيْنَاهُمَا وَ قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَ نَصَرْنَا هُم فَكَانُوا هُم الْغَالِبِينَ، وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسَدِّتِينَ، وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (3).

و على أية حال، فإن موسى سرعان ما يقرر، فيما تروي التوراة، أن هذا الشر، و أن هذه الردة، ليس لها من توبة، إلا شفا الأسنة يسلونها ليضرب بها اللاويون، سبط موسى، رقاب الآخرين، و طبقا لرواية سفر الخروج فلقد «وقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل» (4)، هذا و قد اختلف المفسرون فيمن عبد العجل من بني إسرائيل، فمن قائل عبده ثمانية آلاف، و من قائل عبده جميعهم، إلا هارون، فضلا عن اثني عشر ألفا منهم، و من قائل عبده كل بني إسرائيل إلا هارون، و قال عبد الرحمن بن زيد: كانوا سبعين رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه (5)، على

ص: 359

1- خروج 1/32-24.

2- سورة مريم: آية 51-53، و انظر: طه: آية 29-36، الشعراء: آية 12-17، القصص: آية 34-35.

3- سورة الصافات: آية 114-122.

4- خروج 32/26-29.

5- تفسير الخازن 1/62، مختصر تفسير ابن كثير 1/65.

أن «سبينوزا» يذهب إلى أن الإسرائيليين جميعاً، قد عبدوا العجل، باستثناء اللاويين (1)، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان اللاويون، كما يقول فرويد، هم بطانة موسى من السحرة المصريين الذين وصفهم القرآن بأنهم أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ (2)، ومن ثم فهم، بجانب المؤمنين من بني إسرائيل، هم وحدهم الذين لم يعبدوا العجل، أو قل هم الذين عبدوا رب موسى و هارون عن عقيدة، لم تضعف حتى أمام وعيد فرعون و تهديده، و لعمرى إن الذين هددهم فرعون، كما يقول الذكر الحكيم: فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا ضَمَّةً لِمَبْنِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى (3)، فكان ردهم: قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى (4)، و في آية أخرى: قَالُوا لَا صَدِّيرٌ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ، إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ (5)، هم أنفسهم الذين بقوا على إيمانهم بالله الواحد القهار، لأن الذين آمنوا من أبناء مصر إنما كان إيمانهم أرسخ من الهرم، و كان استخفافهم بوعيد فرعون و تهديده بقطع أيديهم و أرجلهم و تصليبهم في جذوع النخل، إن هؤلاء ليسوا هم الذين ينكثون عهدهم، و يرتدون عن دينهم، بمجرد أن يتخلف نبيهم في ميقات ربه أياما عشرة، فوق الثلاثين المحددة.

و أما عقاب جريمة كفر بني إسرائيل، فقد كان أشد و بالاً و نکالاً من

ص: 360

1- باروخ سبينوزا: المرجع السابق ص 415.

2- سورة الشعراء: آية 51.

3- سورة طه: آية 71.

4- سورة طه: آية 72-73.

5- سورة الشعراء: آية 50-51.

المحن الأخرى التي تعرضوا لها، لقد كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم، وها هم الآن يقتلون أنفسهم بأنفسهم، وهكذا نرى أن ما حل ببني إسرائيل في ظل فرعون، كان من جنس ما حلّ بهم في ظل موسى، فقد كان ذلك بلاء من الله، و كان هذا بأمر من الله، وكلاهما محنة تنزل بالعصاة (1)، فلقد كانت توبتهم عن عبادة العجل أن يقتلوا أنفسهم بأنفسهم، قال تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فُتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (2)، يقول المفسرون أنهم أمروا أن يقتل من لم يعبد العجل من عبده، و كان الرجل منهم يرى قريبه فلا يقدر أن يمضي لأمر الله تعالى، فأرسل الله تعالى ضبابه و سحابة سوداء لا يتباصرون بهما، فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشى، حتى دعا موسى و هارون عليهما السلام، فكشفت السحابة و نزلت التوبة، و كان القتلى سبعين ألفاً، و قال السدى في قوله تعالى: فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ: اجتلد الذين عبدوه و الذين لم يعبدوه (أي العجل) بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيدا، حتى كثر القتلى، حتى كادوا أن يهلكوا، و حتى قتل منهم سبعين ألفاً، و حتى دعا موسى و هارون ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقية الباقية، فأمرهم أن يلقوا السلاح و تاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيدا، و من بقي مكفرا عنه، فذلك قوله تعالى: فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

و روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس: أمر موسى قومه، عن أمر ربه عز و جل، أن يقتلوا أنفسهم، قال: و أخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا، و قام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، و أصابتهم ظلمة

ص: 361

1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 204.

2- سورة البقرة: آية 54.

شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا، فانجلت الظلمة عنهم، وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، و كل من بقي كانت له توبة، على أن هناك من يرى أن التوبة لم تكن بالقتل، وإنما بالنجس أو بقطع الشهوات (1).

[5] طلب بني إسرائيل رؤية الله جهرة:

وهذا نوع آخر من ردة بني إسرائيل، فرغم تتابع الحجج عليهم والآيات، ورغم سبوغ النعم من الله تعالى عليهم، فإن موسى عليه السلام لم يجد منهم إلا العناء، فما أن جاوزوا البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنامهم، حتى قالوا لموسى اجعل لنا إلهًا، كما لهم آلهة، و كأن الله تعالى، الذي فرق لهم البحر ليس هو إلههم الواحد الأحد، و ما أن تمضي بضعة أيام حتى يتذمر القوم من حياتهم الجديدة، بسبب عدم وجود الماء العذب مرة، و بسبب حرمانهم من طعام كانوا يحصلون عليه من فتات الموائد و فضلات المصريين مرة أخرى، و ما أن يمضي حين من الدهر حتى يعودوا إلى ما ألفوه من عبادة العجول في مصر، و هكذا أتعب بنو إسرائيل أنفسهم، و اتعبوا نبي الله معهم، لا يطيعون أمره، و لا ينتهون عما نهى عنه، و كأن شعارهم «سمعنا و عصينا»، حتى إذا ما دعاهم إلى قتال عدوهم، أجابوه:

اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، و إذا أمرهم أن ادخلوا الباب سجدا، و قولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، قالوا مستهزئين: حنطة في شعيرة، و يدخلون الباب من قبل أستاهم (2)، إلى غير ذلك من أفعالهم

ص: 362

1- أنظر: تفسير الطبري 1/ 285-288، تاريخ الطبري 1/ 424، ابن كثير: مختصر التفسير 1/ 64-65، البداية و النهاية 1/ 288، تفسير الخازن 1/ 62، تفسير النسفي 1/ 48-49، تفسير أبي السعود 1/ 175-176، تفسير البغوي 1/ 62، تاريخ ابن الأثير 1/ 108، ثم قارن: خروج 32/ 22-29.

2- قال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، و إن استبعده الرازي، و قال السدي عن ابن مسعود: قيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا مقنعي رءوسهم، أي رافعي رءوسهم، خلاف ما أمروا، و روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه و سلم: قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا و قولوا حطة، فدخلوا يزحفون على أستاهم، فبدلوا و قالوا حبة في شعرة» (مختصر تفسير ابن كثير 1/ 68).

القبيحة التي آذوا بها نبيهم، والتي تكاد لا تحصى.

وفي هذه المرة يطلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام، حتى يؤمنوا، أن يروا الله جهرة، وكانهم بعد كل هذه المعجزات لم يؤمنوا بموسى وإله موسى، فيطلبون منه، في مقابل إيمانهم، رؤية الله جهرة، قال تعالى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (1)، هذا وقد اختلف العلماء في طلب الرؤية، وهل كانت قبل التوبة من عبادة العجل أم بعدها، فمن قائل إنها كانت قبل التوبة، ومن قائل إنها بعدها، وهذا ما نميل إليه، روى الطبري عن السدي: أن بني إسرائيل لما تابت من عبادة العجل، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً، أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً، فاختر موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا إلى ذلك المكان ودنا موسى من الجبل ووقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم، فقالوا له: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فإنا قد كلمته فأرنا، فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ما ذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلك خيارهم، رب لو شئت أهلكتهم وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، فأوحى الله إليه: إن هؤلاء السبعين ممن اتخذ العجل، ثم إن الله تعالى

ص: 363

1- سورة البقرة: آية 55-56.

أحياهم، فقاموا وعاشوا، رجلا-رجلا، ينظر بعضهم إلى بعض، كيف يحيون، وذلك قول الله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

ويقول ابن كثير: إن أهل الكتاب غلطوا في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه، فكيف يناله هؤلاء السبعون (1)، وهو يشير في ذلك إلى قوله تعالى: وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْمَهُ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ، و من هنا كما يقول النسفي في التفسير، تعلقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية، لأنه لو كان جائز الرؤية لما عذبوا بسؤال ما هو جائز الثبوت، قلنا (أي النسفي) إنما عوقبوا بكفرهم، لأن قولهم: إنك رأيت الله، فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة كفر منهم، ولأنهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته، و الإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم، و لا يجوز اقتراح الآيات عليهم، و لأنهم لم يسألوا سؤال استرشاد، بل سؤال تعنت و عناد.

ثم يقول الإمام النسفي في تفسير آية الأعراف (143) قَالَ رَبِّ أَرِنِي).

ص: 364

1- تقول التوراة إن الله أمر موسى أن يصعد إليه هو و هارون و ناداب و أبيهو و سبعون من شيوخ إسرائيل، و أن يسجدوا للرب من بعيد، و لا يقترب إلا موسى، ثم صعدوا «و رأوا إله إسرائيل و تحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف و كذات السماء في النقاوة، و لكنه لم يمد يده إلى أشرف بني إسرائيل، فرأوا الله و أكلوا و شربوا» (خروج 1/24 - 11) و من عجب أن التوراة نفسها، و في نفس سفر الخروج تقول إن موسى طلب أن يرى الله، فقال له: «لا- تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني و يعيش»، ثم أمره أن يقف على صخرة، و أن الرب حين يجتاز الصخرة سيضع موسى في نقرة من الصخرة و يستتره بيده حتى يجتاز «ثم أرفع يدي فتتظر ورائي، و أما وجهي فلا يرى» (خروج 20/33 - 23)، و انظر عن هذا التناقض في روايات التوراة و غيره (محمد بيومي مهران: إسرائيل 224/3 - 252).

أَنْظُرُ إِلَيْكَ يعني مكّني من رؤيتك بأن تتجلى لي حين أراك، وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية، فإن موسى عليه السلام اعتقد أن الله تعالى يرى حتى سأله، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر، قال لَنْ تَرَانِي بالعين الفانية، بل بالعطاء والنوال بعي باقية، وهو دليل لنا أيضا، لأنه لم يقل «لن أرى» ليكون نفيا للجواز، ولو لم يكن مرثيا لأخبر بأنه ليس بمرئي، إذا الحالة حالة الحاجة إلى البيان، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني»، وهو دليل لنا أيضا، لأنه على الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن، وتعليق الشيء بما هو ممكن يدل على إمكانه، كالتعليق بالمتنع يدل على امتناعه، والدليل على أنه ممكن قوله: جَعَلَهُ دَكًّا، ولم يقل اندك، وما أوجده تعالى كان جائز أن لا يوجد، ولو لم يوجد، لأنه مختار من فعله، ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالا لعاتبه، كما عاتب نوحا عليه السلام بقوله: «إني أعظك أن تكون من الجاهلين»، حين سأله إنجاء ابنه من الغرق (1).

ص: 365

1- تفسير النسفي 49/1، 75/2، تفسير الطبري 289/1-293، تاريخ الطبري 428/1، ابن كثير: مختصر التفسير 65/1-66، 48/2-49، البداية والنهاية 283/1-286، 289، الكامل لابن الأثير 108/1-109، صفوة التفاسير 59/1-60، 469.

[1] ظهور فكرة الوطن عند بني إسرائيل: -

بدأ بنو إسرائيل يفكرون في وطن يستقرون فيه، و كان هذا الوطن هو أرض كنعان، رغم أنها لم تكن لهم من قبل دار قرار، إذ أنهم لم يقيموا فيها إلا لفترة وجيزة، لا تتجاوز أيام إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ثم هاجروا منها بسبب قحط عم و طال، فكانت أرض النيل الطيبة هي الملجأ أو المأوى، فقدموا إليها بدعوة من يوسف الصديق عليه السلام، و الذي كان قد أصبح وقت ذلك عزيز مصر (1)، و في تلك الآونة التي أقاموا فيها هناك في الجنوب الفلسطيني لم يمتلكوا، كما تقول توراتهم، حتى مكان خيامهم أو موضع قبورهم (2)، و ها هم الآن بعد أن خرجوا من مصر، أو على الأصح، بعد أن هربوا منها، يهيمنون في صحراوات سيناء المقفرة، و هنا، و هنا فقط، بدأت فكرة الوطن عندهم، ذلك لأن ربهم «يهوه» كان، فيما تروي توراتهم (3)، قد وعدهم بأرض كنعان، ففكرة الوطن عند اليهود جاءت بعد ظهور بني إسرائيل، و عادة تتطور الشعوب في ظل أوطانها، و لكن بني

ص: 367

1- سورة يوسف: آية 58-100، تكوين 41/56-46/34.

2- تكوين 23/1-20، 37/1، 47/9.

3- خروج 3/8، 32/13، 33/1-2.

إسرائيل ظهروا إلى الوجود أولاً، ثم ادعوا ملكية أرض كانت لغيرهم، و لا حق لهم فيها (1).

ولعل سائلا يتساءل: لم وقع اختيار بني إسرائيل على فلسطين لتكون وطناً لهم؟ ولعل الإجابة إنما تكمن في الأسباب التالية، والتي منها (أولاً) أن العبرانيين قد اعتادوا العيش في أرض مصر الغنية، و من ثم فهم لا يستطيعون البقاء في الصحراء، و لا بدلهم من الاندفاع تجاه وطن أفضل من هذه الصحراوات القاحلة في شبه جزيرة سيناء، و ما داموا لن يستطيعوا العودة إلى أرض مصر الغنية، فليس أمامهم سوى كنعان، و من المعروف أن العبرانيين، مهما قيل عن أسلافهم و أصلهم التاريخي، فقد كانوا قبائل رحلا، و لما كانوا رحلا في الشرق الأدنى، فقد عاشوا، لا في السهول الخضراء التي لا تنتهي، و إنما في رقعة بين البادية و بين الزرع، بين أخصب البقاع و بين نفي الحياة العام، ذلك لأنه في هذه البقعة العجيبة من العالم، إنما يتجاور الخصب و البوار، و من ثم فلا بد أنهم قد اختبروا رفاه الحياة و عنتها في كلا الحالين، و قد تاق العبرانيون إلى الاستقرار في السهول الممرعة، و لكنهم كانوا يحملون بأرض تفيض غللا، كالتي تخيلها المصريون لآخرتهم (2).

و منها (ثانياً) ذلك السبب التقليدي، إذ كانت هذه القبائل الرحل، و لعدة أجيال متتالية، ترنوا بناظرها إلى «أرض الميعاد» (3)، حيث كان الأجداد يعيشون قبل رحيلهم إلى مصر (4)، و منها (ثالثاً) أن بني إسرائيل حين

ص: 368

1- عبد الحميد زائد: الشرق الخالد، القاهرة 1966 ص 379.

2- , 1949 , p. 246. F. H trofknar dna srehto , yhpsoalihP .

3- أنظر: محمد بيومي مهران: قصة أرض الميعاد بين الحقيقة و الأسطورة- مجلة الأسطول- العدد 66، 67، الاسكندرية 1970.

4- . P, tic- po, llaH. R. H 409 .

خرجوا من مصر فرارا من آل فرعون، أصبح عددهم يكفي لأن يقوم عليه مجتمع، له كيان و نظام و مكان، و قد جاءت التوراة بالنظام فأين يجدون المكان؟ إن أقرب مكان تطمح إليه أنظارهم، بعد مصر، إنما هو فلسطين (1)، أو كنعان كما كانوا يسمونها، فهي، كما حدثتهم توراتهم في أسفار موسى الخمسة، تفيض لبنا و عسلا (2)، و منها (رابعا) أن موسى عليه السلام أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، سواء أ كانت هذه الأرض هي فلسطين بعامة أو القدس أو أريحا فيما يرجح البعض، تنفيذًا لأمر الله تعالى: يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (3).

[2] الخوف من دخول كنعان:-

و هكذا بدأ موسى يسير بقومه نحو كنعان، و لكن كنعان كانت عامرة بالسكان، و من ثم فإن محاولة دخولها إنما تعني الحرب بين بني إسرائيل و بين سكان فلسطين الأصليين، و هنا، و في برية فاران، أمر الرب موسى أن يرسل بعضا من رجاله يمثلون الأسباب جميعا لكي يتجسسوا أرض كنعان، و يقوم الجواسيس بمهمتهم ثم يعودون إلى موسى بتفاصيل عما وجدوه في الأرض من تحصينات، و ما فيها من نقاط ضعف و قوة (4)، غير أن الرسل إنما ينقسمون إلى فريقين، الواحد و يضم عشرة رجال، يرى أن اليهود أضعف من أن يقوموا، «لأن الأرض التي مررنا فيها لتجسسها هي أرض تأكل سكانها، و جميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة، و قد رأينا هناك الجبابرة

ص: 369

1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 210.

2- خروج 8/3، 13/32، 3/33، عدد 8/14، تثنية 15/26.

3- سورة المائدة: آية 21، و انظر: تفسير الطبري 1/299-303، تفسير النسفي 2/278، تفسير روح المعاني 1/264، تفسير الخازن 1/

64، تفسير البيضاوي 1/148.

4- عدد 1/13-29.

فكنا في أعيننا كالجراد، و هكذا كنا في أعينهم» (1)، و أما الفريق الآخر، و يضم رجلين، كالب بن يقنة و يشوع بن نون، فقد عارض هذا الإتجاه الجبان، بل إن كالب ليقول: «إننا نصعد و نمتلكها لأننا قادرين» (2).

و هنا يثور بنو إسرائيل على موسى و هارون، و مع ذلك فإن موسى إنما يبدأ يحرضهم على القتال، و لكنهم مع كثرتهم، تحسبهم جميعاً و قلوبهم شتى (3)، كانوا يخافون الحرب و يهابون القتال، إذ تمكنت منهم المذلة و الصغار، فصاحوا بموسى و هارون قائلين: «ليتنا متنا في أرض مصر، أو ليتنا متنا في هذا القفر، و لما ذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف، تصير نساؤنا و أطفالنا غنيمة» (4)، بل و قد ذهب بهم التمرد، طبقاً لرواية التوراة، إلى حد الثورة على موسى شخصياً، و المناداة بخلع رئاسته، و قيام سلطة جديدة تعود بهم إلى مصر، «أليس خير لنا أن نرجع إلى مصر، فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً و نرجع إلى مصر» (5).

و يصور القرآن الكريم هذا الحادث تصويراً صادقا، الصدق كل الصدق، مبينا أن صفة الجبن عند الإسرائيليين، ليست صفة عرضية تزول بزوال أسبابها، و إنما هي جوهر مكوّن للشخصية الإسرائيلية، يتناسق مع بقية الصفات الجوهرية الأخرى، لأن القرآن الكريم إنما يصفهم بالجبن، و بين ظهرانيتهم نبيهم الكريم يحرضهم على القتال للدخول إلى أرض كنعان، و الناس حين يكون بينهم نبيهم يكونون أكثر تشوقاً للاستشهاد تحت

ص: 370

1- عدد 31 / 13 - 33.

2- عدد 30 / 13.

3- سورة الحشر: آية 14.

4- عدد 1 / 14 - 4.

5- عدد 3 / 14 - 4، و انظر: صفوة التفاسير 1 / 336، التسهيل 1 / 173.

قيادته و في ظل لوائه، و لكن الإسرائيليين شعب لم يؤمن بنبيّه (1)، شعب ليس في كيانه إلا عواطف ذليلة خانعة، و كيف يستطيع شعب ذليل لا يعرف سوى رائحة الشواء عند قدور اللحم في مصر، و إن استعبد من أجل ذلك و ذل، و كيف يستطيع شعب كهذا أن يخوض المعارك، حتى و إن كان قائده كليم الله موسى عليه السلام.

و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَرْتَدُوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ فَتَقَبَّلُوا خَاسِرِينَ، قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَ عَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَادْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (2).

و يقول ابن كثير في التفسير: و هذا نكول منهم عن الجهاد و مخالفة لرسولهم، و تخلف عن مقاتلة الأعداء، و يقال إنهم لما نكلوا على الجهاد و عزموا على الانصراف و الرجوع إلى مصر، سجد موسى و هارون عليهما السلام قدام ملاء من بني إسرائيل، إعظاما لما هموا به، و شق يوشع بن نون و كالب بن ينفنة ثيابهما، و لا- ما قومهما على ذلك، فيقال إنهم رجموهما، و جرى أمر عظيم و خطر جليل (3)، و قال الصابوني في صفوة التفاسير: و هذا

ص: 371

1- عبد الراجحي: الشخصية الإسرائيلية- الاسكندرية 1968 ص 90.

2- سورة المائدة: آية 21-24، و انظر: تفسير روح المعاني 4/106-108، تفسير الطبرسي 6/65-68، تفسير الطبري 10/171-187، تفسير المنار 6/265-276، تفسير الكشاف 1/619-621، تفسير القرطبي ص 2120-2125، تفسير النسفي 1/278-279، في ظلال القرآن 6/124-126.

3- تفسير ابن كثير 3/68-73.

إفراط في العصيان و ما سوء الأدب بعبارة تقتضي الكفر و الاستهانة بالله و رسوله (1)، على أن الإمام النسفي إنما يعلق على رأي بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ من حمله على الظاهر، و قال إنه كفر منهم، و ليس كذلك، إذ قالوا ذلك اعتقاداً و كفروا به لحاربهم موسى، و لم تكن مقاتلة الجبارين أولى من مقاتلة هؤلاء، و لكن الوجه فيه أن يقال: فاذهب أنت و ربك يعينك على قتالك، أو و ربك أي سيدك و هو أخوك الأكبر هارون، أو لم يرد به حقيقة الذهاب، و لكن كما تقول: كلمته فذهب يجيبي، تريد معنى الإرادة كأنهم قالوا: أريد اقتالهم «فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» ما كثون لا نقاتلهم لنصرة دينكم (2).

و أيا ما كان المعنى، فمن الواضح تماماً، أنه لم يستجب لموسى عليه السلام، إلا أخوه هارون، فيشكو لربه هؤلاء القوم الفاسقين الخانعين، «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (3)، فموسى عليه السلام يقول ذلك معتذراً إلى الله، متبرئاً من مقالة السفهاء، فهو لا يملك إلا نفسه و نفس أخيه و هارون، و كأن موسى لا يثق حتى بالرجلين المذكورين (يشوع و كالب) كل الوثوق، فلم يذكر إلا- النبي المعصوم، أخاه هارون، ثم يطلب من الله تعالى: فافصل بيننا و بينهم بأن تحكم لنا بما وعدتنا، و تحكم عليهم بما وعدتهم، و هو في معنى الدعاء عليهم، خاصة و قد وصفهم بالقوم الفاسقين (4).

و لعل هذا الموقف الجبان من بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه

ص: 372

-
- 1- صفوة التفاسير 336/1.
 - 2- تفسير النسفي 278/1-279.
 - 3- سورة المائدة: آية 25، و انظر تفسير ابن كثير 73/3، تفسير المنار 276/6-277، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 154/3، تفسير الطبرسي 68/6-69.
 - 4- تفسير النسفي 279/1، صفوة التفاسير 336/1.

السلام، بعد ما رأوا من الآيات كفلق البحر و إغراق عدوهم و إنزال المن و السلوى و تظليل الغمام و نحو ذلك من الأمور العظام، يذكرنا- مع الفارق الكبير، بموقف المسلمين، من مهاجرين و أنصار، من سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم قبيل بداية القتال في غزوة بدر الكبرى، و كانت القوة الإسلامية تكاد لا تبلغ ثلث القوة القرشية الكافرة، عددا و عدة، عند ما وقف «المقداد بن عمرو الكندي» يقول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، و الله لا نقول لك، كما قالت بنو إسرائيل لموسى «اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون».

و من هذا المنطق كذلك، يقف «سعد بن معاذ» ليرد على رسول الله صلى الله عليه و سلم حين أراد أن يعرف رأي الأنصار، «لقد آمننا بك و صدقناك، و شهدنا أن ما جئت به هو الحق، و أعطيناك على ذلك عهدنا و موثيقنا على السمع و الطاعة، فامضي لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، و ما تخلف منا رجل واحد، و ما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله» (1).

و هكذا بهذه الروح العالية، و بهدى من الله، و بإرشاد من رسول الله، و باتباع لكتاب الله و سنة رسوله، استطاع المسلمون أن يجعلوا راية الإسلام ترفرف عالية على ربوع الشرق، بعد أن طردوا الساسانيين و الرومان من شرقنا (1) صحيح البخاري 93/5، 64/6-65، مسند الإمام أحمد 389/1-390، ابن هشام:

سيرة النبي 614/1-615، ابن سعد: الطبقات الكبرى 8/2، ابن كثير: السيرة النبوية 392/2-393، تفسير الطبري 185/10-186، تفسير ابن كثير 71/3-72، الواقدي: كتاب المغازي 48/1-

[3] التيه:-

و هكذا كان حكم الله العادل على هؤلاء القوم الفاسقين من بني إسرائيل بالفناء والتشرد، تقول التوراة: «إن جميع الرجال الذين رأوا مجدي وآياتي التي عملتها في مصر وفي البرية، و جربوني الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولي، لن يروا الأرض التي حلفت لأبائهم، و جميع الذين أهانوني لا يرونها» (1)، ثم يقول لموسى: «حي أنا يقول الرب، لأفعلن بكم تكلمتم في أذني، في هذا القفر تسقط جثثكم، جميع المعدودين منكم حسب عددكم، من ابن عشرين سنة فصاعدا، الذين تدمروا على، لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكنكم فيها، ما عدا كالب بن يفنة و يشوع بن نون، و أما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة، فإنني سأدخلهم فيعرفون الأرض التي احتقرتموها، فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر، و بنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة، و يحملون فجوركم حتى تقني جثثكم في القفر، كعدد الأيام التي تجسستم فيها الأرض أربعين يوما للسنة، يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي أنا الرب، قد تكلمت لأفعلن هكذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليّ، في هذا القفر يفنون وفيه يموتون» (2).

و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (3).

ص: 374

1- عدد 22/14 - 23.

2- عدد 28/14 - 35.

3- سورة المائدة: آية 26، و انظر: تفسير الكشاف 1/ 621، تفسير الطبري 10/ 190 - 200، في ظلال القرآن 6/ 129 - 130 تفسير الطبرسي 6/ 69 - 71، تفسير النسفي 2/ 279 - 280، تفسير المنار 6/ 277 - 279، تفسير القرطبي ص 2126 - 2130.

و يقرر بعض العلماء أن «التيه» هو الذي حدد بأربعين سنة، وليس «التحريم»، فالتحريم مطلق أبدي (1)، ومن أجل هذا يوقف في القراءة بعد قوله تعالى: مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ثُمَّ يَبْتَدَأُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ ذَلِكَ لِأَنَّ الرِّجَالَ الصَّالِحِينَ لِلْحَرْبِ، الَّذِينَ عَصَوْا مُوسَى، مَاتُوا فِي الْبَرِيَّةِ أَثْنَاءَ السَّنِينَ الْأَرْبَعِينَ، وَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى أَرْضِ الْمَوْعَدِ، فَكَانَتْ مُحَرَّمَةً عَلَيْهِمْ بِاطِّلاقِ (2)، و يتفق هذا التفسير للنص القرآني الكريم تماما مع نص التوراة الآنف الذكر، و من ثم ترى جمهرة العلماء أن جميع الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر، سوف يموتون في البرية، و لن يروا أرض الميعاد أبدا، ما عدا يوشع بن نون و كالب بن يفيث (3).

و جاء في تفسير ابن كثير عن سعيد بن جبيرة قال: سألت ابن عباس عن قوله: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض قال: فتأهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه و أنزل عليهم المن و السلوى، و هذه قطعة من حديث الفتون، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام (4) ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة).

ص: 375

- 1- يرى بعض المفسرين أن التحريم هنا تحريم منع، لا تحريم تعبد، كقوله تعالى: وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ، و لذا قيل إن الحرمة مؤبدة حتى يموتوا و يدخلها أبناءهم (تفسير النسفي 1/ 279-280، تفسير الخازن 2/ 33).
- 2- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 228، تفسير الكشاف 1/ 622، تفسير الطبرسي 6/ 70، تفسير القرطبي ص 2126-2127، في ظلال القرآن 6/ 129، تفسير النسفي 1/ 279-280، تفسير روح المعاني 6/ 109، تفسير المنار 6/ 277، تاريخ الطبري 1/ 436.
- 3- تفسير ابن كثير 3/ 74، تاريخ الطبري 1/ 436، عدد 14/ 26-30.
- 4- روى الطبري في تفسيره عن الإمام علي كرم الله وجهه في الجنة في تفسير قوله تعالى: وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا، كان هارون حسن الخلق محبا في بني إسرائيل، فلما مات دفنه موسى، قال فلما أتى بني إسرائيل قالوا له أين هارون، قال مات، قالوا قتلته، قال فاختر منهم سبعين رجلا قال فلما أتوا القبر قال موسى: أقتلت أو مت، قال مت، فأصعقوا، فقال موسى: رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت، يقولون أنت قتلتهم قال فأحيوا، و في رواية في تفسير الخازن: أن موسى لما اتهم بقتل هارون أمر الله الملائكة فحملوه حتى مروا به على بني إسرائيل و تكلمت الملائكة بموته، فصدقت بنو إسرائيل أنه مات و برأ الله موسى مما قالوا، ثم إن الملائكة حملوه و دفنوه، و لم يطلع على قبره أحد، (تفسير الطبري 13/ 142-143، تفسير الخازن 2/ 34، ثم قارن عدد 20/ 22-2، حيث يرى أن هارون مات و دفن على رأس جبل هور).

موسى الكليم عليه السلام، وأقام الله فيهم يشوع بن نون نبيا خليفة عن موسى بن عمران، و مات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، و يقال إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع و كالب، وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض» قال: فتاهوا أربعين سنة، قال: فهلك موسى و هارون في التيه، و كل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون، و هو الذي قام بالأمر بعد موسى، و هو الذي افتتحها (أي الأرض المقدسة) (1).

و أما سبب فكرة التيه أربعين سنة في البرية، فهو موضع خلاف بين العلماء، فهناك من يرى أنها كانت بسبب خوف الإسرائيليين من المصريين، و انتظارا للوقت المناسب الذي تضعف فيه السيادة المصرية على كنعان فيدخلونها آمنين (2)، و من ثم فقد مضت أربعون سنة قبل أن يدخل بنو إسرائيل أرض الميعاد، حيث استطاع موسى أن يكون من هؤلاء العبيد المحررين حديثا، وحدة واحدة، و أمة منظمة، و أن يطبعهم بطابع الصفات الخلقية الروحية التي كان يتطلبها قدرهم (3).

و الرأي عند «ابن خلدون» أن التيه إنما كان لإفناء أبناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل و القهر و القوة، و إنشاء جيل آخر عزيز، لا يعرف

ص: 376

1- مختصر تفسير ابن كثير 1/ 504، و انظر تفسير النسفي 1/ 279-280.

2- حسين فوزي النجار: أرض الميعاد- القاهرة 1959 ص 156.

3- , 1970, p. 32. I, nietspE. msiaduJ.

الإحكام والقهر، ولا يسام الذل والهوان، والعلماء يقررون أن حضارة العلم خمس عشرة سنة، فإذا ابتدأت أمة تتعلم فإنها تجني ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة، وأما حضارة الأخلاق فمدتها أربعون سنة، فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فإنها لا تجني الثمرة إلا بعد أربعين سنة، لذلك أراد الله تعالى أن يبقى بنو إسرائيل في البرية أربعين سنة حتى يفنى الجيل الذي نشأ في الذل والاستعباد، وينشأ جيل ألف الحرية ولم تذله العبودية (1).

على أن هناك فريقاً من العلماء يرى أن فترة التيه هذه إنما تتصل اتصالاً وثيقاً بعقيدة إسرائيل الجديدة، ذلك لأن فترة الأربعين سنة للتيه إنما كانت ملائمة لغرس العقيدة الجديدة في عقول وقلوب القوم الذين اعتادوا رونق الطقوس المصرية، كما أن تلك العقيدة، سوف تتعرض لأخطار أعظم فيما بعد في فلسطين (2)، مما يجعلها في أشد الحاجة إلى فترة كافية لتثبيت الإيمان بها.

وأيما ما كان الأمر، فإن ختام القصة هنا في سورة المائدة بقوله تعالى:

فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ إِنَّمَا هُوَ تَسْلِيَةٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَي لَا تَأْسَفْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ فِيمَا حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِهِ فَإِنَّهُمْ مُسْتَحَقُونَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَضَمَّتْ تَقْرِيعَ الْيَهُودِ وَبَيَانَ فَضَائِحِهِمْ، وَمُخَالَفَتِهِمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَنُكُولِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ فَضَعَفَتْ نَفُوسَهُمْ عَنْ مِصَابِرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمَجَالِدَتِهِمْ وَمَقَاتَلَتِهِمْ، مَعَ أَنْ بَيَّنَّ أَظْهَرَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِيمَهُ وَصَفِيَهُ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ يَعِدُهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِأَعْدَائِهِمْ، هَذَا مَعَ مَا شَهِدُوا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بَعْدَهُمْ فِرْعَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنِّكَالِ وَالْغُرُقِ لَهُ وَلِجُنُودِهِ فِي الْيَمِّ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، لِتَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ وَمَا بِالْعَهْدِ

ص: 377

1- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 227-228.

2- .P, tic- po, yellooW. L 497 .

من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر، لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعدوهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا- يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعدائه، ويقولون مع ذلك نحن أبناء الله وأحباؤه، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخزائير والقردة، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل، وله الحمد من جميع الوجود (1).

[4] عودة التمرد ضد موسى:-

وما أن يمضي حين من الدهر قليل، بعد أن كتب الله على بني إسرائيل أن يتبهاوا في الأرض أربعين سنة، حتى تعود ثورات بني إسرائيل على موسى من جديد، غير أن الجديد هنا أن ثورة اليوم إنما يتزعمها أحد اللاويين، سبط موسى نفسه، ذلك أننا نقرأ في سفر العدد من التوراة أن مائتين وخمسين من شيوخ إسرائيل، بقيادة «قورح» «اللاوي» قد اتهموا موسى وهارون بأنهما يترفعان على جماعة الرب، رغم أن كل الجماعة بأسرها مقدسة، وفي وسطها الرب، ويحاول موسى أن يهدئ من ثائرة القوم، وأن يذكر قورح بأن الرب إنما قرب سبطه اللاويين إليه، دون بقية أسباط بني إسرائيل، غير أن الثورة لا تهدأ، ومن ثم يرسل موسى في طلب الزعيمين الآخرين «داثان وأبيرام»، لعله ينجح في تهدئة القوم عن طريقهما، إلا أن الرجلين يرفضان مجرد الاجتماع بموسى، قائلين «أقليل أنك أصعدتنا من أرض تقيض عسلا ولبنا لتميتنا في البرية، حتى تترأس علينا، كذلك لم تأت بنا إلى أرض تقيض لبنا وعسلا، ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم، هل تقلع أعين هؤلاء القوم، لا نصعد» (2)، ولعل هذا هو السبب في الثورات المتكررة من بني إسرائيل

ص: 378

1- مختصر تفسير ابن كثير 505 / 1.

2- عدد 1 / 16 - 14.

على موسى وأخيه وهارون عليهما السلام، ذلك لأن هؤلاء الرحل الشاردين الحائرين الذين كانوا يسعون جاهدين وراء حياة أفضل من الارتحال، ويحلمون، بعد أن ذاقوا مرارة التنقل و اشتد حنينهم إلى أرض كأرض مصر، بأرض تفيض لبنا وعسلا، ما داموا لا يستطيعون العودة إلى مصر، و من ثم فلم يلبثوا أن انحنوا باللانمة على من أثارهم ضد أصحابها (1).

و على أي حال، فإن الثورة قد انتهت بإبادة زعمائها، إذ «فتحت الأرض فاهها و ابتلعتهم و بيوتهم»، ثم سرعان ما خرجت نار من عند الرب فأكلت المائتين و الخمسين رجلا، و أما بقية بني إسرائيل فقد سلط الله عليهم و بآء كاد أن يفنيهم عن بكرة أبيهم، لو لا أن موسى قد أمر ابن هارون بأن يسرع بإيقاد البخور للتكفير عن جماعة الرب و مع ذلك فقد مات بهذا الوباء «أربعة عشر ألفا و سبع مائة، عدا الذين ماتوا بسبب قورح» (2).

و لم يكتف بنو إسرائيل بثورة «قورح» هذه، إذ سرعان ما تعاودهم آفتهم القديمة، فيعاودون التمرد على موسى، بل إن الثورة هذه المرة إنما تتجاوز كل الحدود، حتى تصل إلى ذات الله العلية، و ذلك حين «تكلم الشعب على الله و على موسى قائلين لما ذا أصعدت منا من مصر لنموت في البرية، لأنه لا خبز و لا ماء، و قد كرهت أنفسنا الطعام السخيف» (يعني المن و السلوى)، فسلط الله عليهم الحيات فمات قوم كثيرون من بني إسرائيل، و لم يرفع الله عنهم هذا البلاء، إلا بتضرع من موسى «فصلى موسى لأجل الشعب، فقال الرب لموسى: اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ و نظر إليها يحيا (3)، فصنع موسى حية من نحاس و وضعها على الراية

ص: 379

1- نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 222.

2- عدد 32/16-50.

3- من عجب أن يذهب المؤرخ الكبير «برستد» إلى أن موسى كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية، فقد كان يحمل عصا سحرية عظيمة في صورة «ثعبان» تسكن فيها قوة «يهوه»، كما كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس، و كان هذا الثعبان أحد الثعابين المقدسة العديدة في مصر، و قد بقيت صورة ذلك الإله المصري القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزم من طويل و استمروا في إطلاق البخور له من مدة خمسة قرون بعد موسى، و لم يبعد عن البيت المقدس إلا في حكم «حزقيا» (715-687 ق. م) ملك يهوذا، و أما الدكتور هاني رزق فيرى الحدث رمزا لصلب المسيح، فكما رفع موسى الحية لكي يحيا كل من ينظر إليها، هكذا رفع يسوع المسيح على الصليب لكي يحيا كل من يؤمن به (عدد 9/21، ملوك ثان 4/18، هاني رزق: يسوع المسيح في ناسوته و ألوهيته ص 152-153 و كذا، Y. N, ecneicsnoC fo nwaD ehT, detsaerB. H. J 354. p. 1939.

[5] بنو إسرائيل على تخوم كنعان: -

و يبدأ موسى عليه السلام يستعد لدخول أرض كنعان، فيرسل رسلا من «قادش» (عند طرف برية صين غرب وادي العربة، ويرجح أنها عين قضيرات على مقربة من عين قديس جنوبي بئر سبع بحوالي 50 ميلا) إلى ملك أدوم (2)، قائلا: «دعنا نمر في أرضك، لا نمر في حقل ولا في كرم ولا نشرب

ص: 380

1- عدد 21/5-9.

2- أدوم: نسبة إلى عيسو (العيس) بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، والشقيق التوأم ليعقوب، و من ثم فهم أقرب الناس إلى آل يعقوب، دما و لغة، و مع ذلك فكان بنو إسرائيل يعدون الآدوميين من ألد أعدائهم، حتى أن المنازعات السياسية بينهم قد استمرت حتى انتهى الأمر بفناء الآدوميين و امتزاجهم باليهود من ناحية، و بالأنباط من ناحية أخرى، و أما موطن الآدوميين فكان في أقصى جنوب بلاد شرق الأردن و جنوب وادي الحسا، و تطلق التوراة على هذا الإقليم اسم «سعير» و كانت عاصمتهم «سالع» و هي نفسها «البتراء» التي أصبحت عاصمة الأنباط فيما بعد، و تقع على مبعدة 50 ميلا جنوب البحر الميت، و من أهم مدنهم «بصرة» و هي بصيرة الحديثة على مبعدة 20 ميلا جنوب شرق البحر الميت، ثم «تيمان» على مقربة من البتراء، ثم «عصيون جابر» و هي تل الخليفة على الطرف الشمالي لخليج العقبة بالقرب من «إيلات»، و أما نظامهم السياسي فكانوا أولا يحكمون بأمرأ أشبه برؤساء العشائر، ثم كونوا مملكة ربما كان ملوكها منتخبين، و قد جلس على عرشها ثمانية ملوك قبل قيام الملكية الإسرائيلية و استيلاء داود على مملكة أدوم، و قد انتهت حياة الآدوميين ككيان سياسي مستقل حين استولى يوحنا المكابي على مدنهم ثم أجبرهم على الختان و اعتناق اليهودية في القرن الثاني قبل الميلاد، رغبة منه في إزالة الفوارق الدينية بينهم و بين اليهود (أنظر التفصيلات و المراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل 547/2-552).

ماء بئر، لا نميل يمينا ولا يسارا، حتى نتجاوز تخومك»، ولكن الملك الآدومي لا يجيب سؤلهم، و من ثم يجد الإسرائيليون أنه لا مناص من الذهاب إلى جبل هور، حيث يموت هارون هناك (1)، وهذا يدل على أنه كانت هناك مملكة قوية في أدوم في ذلك الوقت، و أن الأرض إنما كانت تعبر من «طريق الملك العمومي»، كما يدل على أن هناك حضارة مزدهرة كانت في أدوم في تلك الفترة (2).

و على أية حال، فإن ملك «عراد» (3) الكنعاني عند ما يسمع بقدوم الإسرائيليين، سرعان ما يشن عليهم حربا، و يسبي الكثير منهم، و من ثم «فقد نذر إسرائيل نذرا للرب و قال إن دفعت هؤلاء القوم إلى يدي أحرم مدنهم، فسمع الرب لقول إسرائيل و دفع الكنعانيين فحرموهم، و مدنهم، فدعي اسم المكان حرمة» (4)، و في الواقع أننا لم نسمع من قبل أن ينذر الناس لربهم إحراق أعدائهم، فضلا عن مدنهم، إن كتب الله لهم عليهم نصرا، و لكن ما حيلتنا و توراة اليهود لا تصور رب اليهود هذا، إلا قاسيا مدمرا، متعطشا للدماء، متعصبا لشعبه، لأنه إله اليهود فحسب، و ليس إله العالمين، و من ثم فقد دعوا «الله» رب الجنود، معتقدين بأن هذا معناه رب جنود إسرائيل، مما جعلهم يعتقدون كذلك بأن الله ملزم بأن يحامي عنهم،

ص: 381

1- عدد 20 / 22 - 29.

2- , 1969 . J 152. p. F. nageni, L. thgiL morf eht A tneicn, ... P. noitcenir.

3- عراد: اسم عبري بمعنى «حمار الوحش» و هي هنا بلد يقع على مبعدة 17 ميلا من حبرون (الخليل).

4- عدد 21 / 1 - 3.

لأن كرامة الله مرتبطة بكرامة الأمة، و من ثم فإن حمايتهم إنما هي حماية لكرامته، وإذا حدث أن سقطت الأمة، فمعنى هذا في نظرهم أن الله نفسه قد سقط (1)، و العياد بالله، و من هنا كان عليه أن يكرس كل قوته و سلطانه من جل شعبه إسرائيل، و هو لذلك يحارب إلى جانبهم أو يحارب بدلا عنهم أو يطرد من أمامهم أعداءهم، و ييسر لهم قتلهم، و يحل لهم نهبهم (2).

و أيا ما كان الأمر، فإن الملك الآدومي عند ما رفض أن يسمح للإسرائيليين بأن يمروا في مملكته، فإنهم اضطروا إلى أن يسلكوا طريقا شاقا في البرية، و نقرأ في التوراة أنهم قد ارتحلوا «من جبل هور في طريق بحر سوف (3)، ليدوروا بأرض أدوم (4)»، و هنا يضطر بنو إسرائيل إلى أن يتجولوا هنا و هناك من شرق الأردن، دون أن يستطيعوا العبور إلى غرب هذا الأردن، محتكين بكل القبائل الساكنة هناك، و الراضة أبدا استقبال أي واحد من بني إسرائيل، و أخيرا وصل الإسرائيليون إلى «مؤاب» شمال أدوم، و ذلك حين «نزلوا في عين عباريم (5) في البرية التي قبالة مؤاب إلى شروق

ص: 382

1- القس عاموس عبد المسيح: دراسة في عاموس - ترجمة حارث قريصة- القاهرة 1966 ص 18.

2- عبده الراجحي: المرجع السابق ص 47، تثنية 3/9.

3- بحر سوف: لعل هذا النص (عدد 4/21) إنما يعني خليج العقبة، و ليس البحر الذي انقلب لموسى في مصر، و الذي ذكر على أنه يم سوف أو بحر سوف (خروج 17/13-18) خاصة و إن نص الملوك الأول (26/9) يقول: «و عمل الملك سليمان سفنا من عصيون جابر التي بجانب إيلة على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم»، مما يؤكد أن بحر سوف في نصي (عدد 4/21، ملوك أول 26/9) هو خليج العقبة.

4- عدد 4/21.

5- عباريم: سلسلة جبال في شرق الأردن سميت عباريم لأنها في عبر النهر، و تمتد من وادي قفرين في الشمال إلى وادي الزرقاء و وادي الحسا في الجنوب، و لها عدة قمم منها «نبو» (حيث دفن موسى عليه السلام) و هوشع و عجلون.

الشمس، و من هناك ارتحلوا و نزلوا في وادي «زارد (1)»، و من هناك ارتحلوا و نزلوا في عبر «أرنون (2)» الذي في البرية خارجا عن تخم الآموريين (3)، لأن أرنون هم تخم مؤاب بين مؤاب و الآموريين (4).

هذا و يتجه بنو إسرائيل بعد ذلك إلى أرض جلعاد- منطقة الآموريين- و كان «سيحون» ملك الآموريين قد أخذ أرضا من مؤاب، و اتخذ من حشبون (5) عاصمة له، ثم امتدت أملاكه من نهر أرنون إلى نهر ييوق (6)، و التي هي الآن وادي الزرقاء، و بينما كان الإسرائيليون مضطرين إلى الدوران حول أدوم و مؤاب (7)، فقد نجحوا في تحدي سيحون في).

ص: 383

1- زارد: اسم عبري معناه «ازدهار» و هو جدول ماء يخرج من جبل عباريم و يصب في البحر الميت (بحر لوط) في الجزء الجنوبي الشرقي منه، و كان يمثل الحد الطبيعي بين أدوم و مؤاب، و يعرف الآن بوادي الحصى (قاموس الكتاب المقدس 422-421 / 1).

2- أرنون: و هو نهر يدعى الآن وادي الموجب في المملكة الأردنية الهاشمية و يتكون من وادي «وله» الذي يأتي من الشمال الشرقي، و وادي «عنقيلة» الآتي من الشرق، و «سيل الصعدة» الآتي من الجنوب، و يجري نهر أرنون في غور عميق حتى يصل إلى البحر الميت في نقطة تقع إلى مسافة قصيرة من منتصف الشاطئ الشرقي (قاموس الكتاب المقدس 57 / 1).

3- أنظر عن الآموريين: محمد بيومي مهران: إسرائيل 510/2-514.

4- عدد 11 / 21-13.

5- حشبون: و تعرف الآن باسم «حسبان» و هي مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون و ييوق، و تقع على مبعده سبة أميال و نصف شمال «مادبا».

6- ييوق: هو نهر الزرقاء الذي ينبع إلى الغرب من عمان، ثم يسير شرقا ثم شمالا، مارا بمدينة الزرقاء التي حملت اسمه، ثم يصب في نهر الأردن على مبعده 43 ميلا إلى الشمال من البحر الميت، و هناك في مخاضة في هذا النهر حدثت قصة المصارعة المشهورة مع يعقوب (تكوين 32 / 22-32، قاموس الكتاب المقدس 1051 / 2).

7- مؤاب: تنسب مؤاب إلى مؤاب بن لوط عليه السلام، و من ثم على صلة قرابة بالعرب و الإسرائيليين عن طريق لوط ابن أخي إبراهيم، عليهما السلام، هذا و قد امتدت مملكة مؤاب من ناحية الشرق، من البحر الميت حتى الصحراء، و اتسعت شمالا حتى وادي الموجب (نهر أرنون)، و كانت مؤاب، مثل أدوم، حصينة قوية ذات مواقع استراتيجية على الحدود و في الداخل، و من ثم فقد منعت بني إسرائيل من السير في البرية التي تقع قبالتها، و أما عاصمة مؤاب فهي «ديبون» (ذبيان الحالية على مبعده ثلاثة أميال شمال وادي الموجب)، هذا و قد كشفت آثار كثيرة في مؤاب، و خاصة في ربة مؤاب و كرك و ماديا و معين و أم رصاص، و في عام 1950 / 1951 كشفت بعثة أمريكية في ديبون عن عدد من المباني و الفخار الذي يرجع إلى عصر البرونز المبكر، و حتى العصر العربي المبكر، و إن لم تكشف شيئا عن عصر البرونز المتأخر، و أما لغة مؤاب فهي من اللهجات التي كتبت بها التوراة، و المعروف عادة بالعبرانية، و القرابة بين اللغة المؤابية و العبرية مؤكدة، و المؤابية على أية حال، لغة سامية قريبة من العبرية كذلك، كما يبدو و واضحا من نقش «الحجر المؤابي» و الذي يرجع إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، و يقدم لنا أقدم نقش مكتوب على النمط السامي الشمالي القديم، و قد كشف عنه عام 1868 م في ديبون العاصمة، و نقل إلى متحف اللوفر بباريس (أنظر عن التفصيلات و المراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل 552 / 2-556).

«ياهص» (1)، كما نجحوا في تحدي عوج ملك باشان في «أذرعى» (2) وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الأردن في مقابل «أريحا» (3).

و هناك من يميل إلى تأريخ هذه الأحداث بنهاية عصر البرونز الأخير، وقرب بداية عصر الحديد، ذلك لأن التوراة إنما تحدثنا عن أن عوج ملك باشان كان له سرير من حديد (4)، وإن كان هناك من يذهب إلى أن هذه العبارة إنما تشير إلى «ناءوس» من البازلت الأسود، كان به 20% من الحديد (5).

و أيا ما كان الأمر، فمن رأس الفسجة، التي يفترض أنها جزء من جبل

ص: 384

1- ياهص: ويقع على مبعدة ميل جنوب زرقاء معين، 12 ميلا شرقي البحر الميت، وهي إما قرية أم المواليد أو خربة إسكندر (قاموس الكتاب المقدس 1049/2).

2- أذرعى: وتسمى الآن «درعة» وتقع في وادي زبدة، على مبعدة 29 ميلا شرقي الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية، وعلى الحدود بين الأردن و سورية (قاموس الكتاب المقدس 42/1).

3- عدد 21/21 - 21/35، 1/12، تننية 2/26 - 3/11.

4- تننية 3/11.

5- .P, tic- po, nageniF. J 154 .

«نبو» على مبعدة ثمانية أميال إلى الشرق من نهر الأردن، نظر موسى عليه السلام إلى أرض الميعاد، ومات ودفن في أرض مؤاب (1)، كما سنفصل ذلك في الفصل الثالث من الباب الرابع.

ص: 385

1- تثنية 27/3، 1/34 - 8، وأنظر: J. retsevelyS 1941, rellaS .J, ehT, lairomiM fo sesoM no tnuoM no 2, olbeN sloV.

اشارة

ص: 387

الفصل الأول موسى بين الأصيل الإسرائيلي و المصري

لا ريب في أن شراح التوراة و مفسري القرآن الكريم إنما يجمعون، أو يكادون، على أن كليم الله موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وأنه «موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب، و هو إسرائيل عليه السلام، وإن أضافت المصادر الإسلامية اسم «يصهر» بين عمران و قاهت، و هو في التوراة «موسى بن عمر أم بن قهات بن لاوى»، و أما أمه فهي «يوكابد بنت لاوى، التي ولدت للاوى في مصر، و هي عمة زوجها عمرام، الذي ولدت له ولديه هارون و موسى و أختهما مريم (1)».

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن الإمام الطبري، و كذا ابن الأثير من بعده، إنما يذهبان إلى أن اسم موسى، إنما هو اسم مصري، و يتكون في اللغة المصرية القديمة من كلمتين «ماء و شجر» لأنه التقط من بين الماء و الشجر، و الماء في المصرية (القبطية كما يسمونها خطأ) «مو»، و الشجر «شا» أو «سا»، هذا و يذهب الألوسي إلى أن اسم موسى اسم أعجمي لا ينصرف للعلمية و العجمة، و يقال إنه مركب من «مو» و هو الماء، و «شى»

ص: 389

1- تاريخ ابن خلدون 92/2، تاريخ يعقوبي 33/1، تاريخ الطبري 385/1، تفسير الطبري 279/1، الكامل لابن الأثير 95/1، مروج الذهب للمسعودي 61/1، التوراة: سفر الخروج 20/6، عدد 58/26-59.

و هو الشجر، وغيّر إلى «سى» كأن من سماه أراد ماء البحر و التابوت الذي قذف فيه، على أن الخازن إنما يراه اسماً عبرياً عربياً، و هو بالعبرانية الماء و الشجر، سمي به لأنه أخذ من بين الماء و الشجر ثم قلبت الشين المعجمة سيناء في العربية، هذا و قد نقل السيوطي عن السدى أنه سمي موسى لأنهم وجدوه بين ماء و شجر، و الماء بالنبطية «مو»، و الشجر «سى» (1)، و بدهي أن اسم موسى اسم مصري على وجه اليقين، كما سنرى.

و في عام 1938 م أصدر العالم النفساني اليهودي «سيجموند فرويد» كتابه موسى و التوحيد (2)، فأراد أن يثير شبهة حول أصل موسى، الذي رآه «مصرياً»، و ليس إسرائيلياً، معتمداً في ذلك على أن اسم موسى، و الذي ينطق بالعبرية «موشيه» طبقاً لرواية التوراة في سفر الخروج (10/2)، ذلك أن الأميرة المصرية، و هي نفس الوقت ابنة فرعون، قد انتشلت من النيل، و سمته إثر ذلك «موسى» معللة لهذه التسمية بعلّة لغوية اشتقاقية، حيث رد كاتب التوراة اللفظ إلى اسم المفعول من الفعل العبري «مشه» بمعنى المنتشل أو المستنقذ.

و مع ذلك، فإن هذا التعليل ينطوي على خطأ واضح، إذ جاء في «المعجم اليهودي» أن تفسير التوراة لاسم موسى بأنه «المنتشل من الماء»، تفسير اشتقاقي شعبي، و هو لا يستقيم مع الصيغة و الوزن لكلمة «موشيه»، التي هي في العبرية اسم فاعل، لا اسم مفعول، و دلالتها الصحيحة «المنتشل» - بكسر الشين - لا «المنتشل» بفتحها، و من ثم فهو اسم فاعل،

ص: 390

1- تفسير الطبري 279/1، تاريخ الطبري 390/1، ابن الأثير 97/1، تفسير روح المعاني 258/1، تفسير الخازن 59/1، الدر المنثور 5/120، تفسير البغوي 58-59.

2- 1939, S. duerF dnumgiM dna sesoM ,msiehtonoM dna morf detalsnarT ,senoJ .Y .N.

بمعنى «المنتقد أو المحرر»، كأن الذين أسموه كانوا يعلمون ما سوف يصير إليه ذلك الطفل اللقيط (1).

هذا وهناك نقطتان أخريان تؤكدان عدم اشتقاق هذه التسمية، أولهما:

أنه من غير المؤكد كون الأميرة المصرية على علم بالاشتقاق في اللغة العبرية- هذا إذا كانت هناك لغة عبرية قد ظهرت في هذا الوقت المبكر، على الأقل من القرن الثالث عشر قبل الميلاد (2)؟- هذا فضلا عن أن ابنة فرعون، إنما هي أميرة مصرية، تتكلم المصرية و تفكر بها، و ما كان لها أن تتحدث العبرية في حياتها و بين مواطنيها، حتى تتخذ للطفل - مع كراهية شائعة للعبريين يومئذ- اسما عبريا (3).

و من ثم فقد رأى مؤرخ اليهود «يوسف بن متى» أن يرد اللفظ إلى أصل مصري و اشتقاق مصري، مع تقيده بما ورد في التوراة، من حيث ارتباط الاسم بما كان من التقاط من الماء، فقال: إن المصريين يسمون الماء «مو» و يقولون للذي يستنقذ من الماء «أوسيس»، غير أن حرص يوسف اليهودي على تفسير يكون مصدقا لما جاء في التوراة قد حمله- متعمدا- على إغفال معنى لفظ أوسيس، المصحوف عن لفظ «حسى» المصري، و هو أصلا- حتى زمان موسى في الأسرة التاسعة عشرة (1308-1184 ق. م)- بمعنى

ص: 391

1- . 4 . tic- po, dibT

2- كان أسلاف العبرانيين يتكلمون الآرامية قبل أن يستقروا في فلسطين، ثم بدءوا يتكلمون لغة الشعوب المضيفة لهم، ففي مصر كانوا يتكلمون المصرية، و في كنعان كانوا يتكلمون الكنعانية، و أما اللغة العبرية- و التي كانت خليطا من الآرامية و الكنعانية و كثير من اللغات السامية و غير السامية- فيرجع تاريخ ظهورها إلى ما قبيل عام 1100 ق. م (أنظر محمد عبد القادر: الساميون في العصور القديمة- القاهرة 1968- ص 208، نجيب ميخائيل: المرجع السابق 3/32، فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفية ص 4).

3- أحمد عبد الحميد: المرجع السابق- القاهرة 1968- ص 90. و كذا. 4 . F. S . tic- po, duer

«الحميد»، ثم أصبح يطلق منذ الأسرة الثلاثين (380-343 ق. م) على الموتى من الغرقى المنتشليين من النيل للدفن، وإلى ذلك أشار «كليمنت الإسكندري» (150-212 م) من بعده (أي من بعد يوسف اليهودي)، فكأنه بذلك قد اتخذ لفظا بمعنى متأخر عن عصر موسى و طبقه تطبيقا غير دقيق و لا سليم (1).

و أما النقطة الثانية التي تؤكد عدم اشتقاق هذه التسمية، فإنه يكاد يكون من المؤكد الآن أن الطفل موسى لم ينتشل من ماء النيل (2) وربما كان فرويد يعني أحد فروع النيل في الدلتا الشرقية، حيث يوجد قصر الفرعون وقت ذلك.

و على أي حال، فإن كثيرا من الباحثين قد ربطوا منذ سنين طويلة اسم موسى- و هو لفظ مشتق من مصدر الولادة بمعنى الولد أو الوليد- بأصول في اللغة المصرية القديمة، و من هؤلاء المؤرخ الأمريكي الكبير «جيمس هنري برستد» الذي يقول: إنه يجب أن نلاحظ أن اسم موسى كان اسما مصرية، بل هو نفس الكلمة المصرية «مس» (esom) و معناه «طفل»، و هي مختصرة من اسم مركب كامل، كالأسماء «آمون مس»، و معناها: آمون الطفل، أو «بتاح مس» و معناها: بتاح الطفل، و هذه الأسماء المركبة نفسها، هي الأخرى مختصرات للتركيب الكامل «آمون أعطى طفلا»، أو «بتاح أعطى طفلا»، و قد لقي اختصار الاسم إلى كلمة «طفل» قبولا منذ زمن مبكر، إذ كان سريع التداول و التناول بدلا من الاسم الكامل الثقيل (3).

ص: 392

1- أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 90، و كذا J. ynreC ,ykeerG E ygolomyt eht fo emaN to sisom ,EASA ,ILX ,F 1942، p. 349.

2- F. S. dueF, po- tic.

3- B. H. J 1939، N. Y 350 . P, ecneicsnoC fo nwaD ehT, detsaer.

على أن الإسم «مس» (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة، ولا شك في أن والد موسى كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصري قديم، مثل آمون وبتاح، ثم زال ذلك الاسم الإلهي تدريجيا بكثرة التداول، حتى صار الولد يسمى «موسى» (1).

و يعلق «فرويد» على قول «برستد» هذا، بالدهشة لتجاهل برستد بعضا من الأسماء المركبة من موسى أو «مس» مع أسماء الآلهة، ومنها أسماء «أحمس» (إيعح مس) و «تخوتمس» (تخوت مس) و «رعمسيس» (رع مس سو)، ثم يعرب عن دهشته كذلك من أن واحدا من العلماء الكثيرون العدد، الذين أقرروا مصرية اسم موسى أصلا و اشتقاقا، لم يفكر في أن يكون موسى نفسه- الشخص لا الإسم- مصريا أيضا (2)، حتى أولئك الذين يقررون مثل «برستد» أن موسى قد «تهذب بكل حكمة المصريين» (3).

و يرى «فرويد» أن ذلك، ربما كان مرجع ذلك إلى تقديس لمرويات التوراة التي لا يمكن التغلب عليها، وربما بدا لهم أن القول بأن موسى مصري غير عبري ادعاء عريض لا- يمكن تصوره، على أي حال، فإن الواقع هو أنه مع ترحيبهم عموما لمصرية اسم موسى، فإنهم لم يستخلصوا من ذلك شيئا ماسا بأصله هو نفسه (4).

و هنا يتساءل «فرويد» بأننا لو سلمنا بأن موسى كان مصريا- و لم يكن إسرائيليا- لوجدنا أنفسنا في الحالين مطالبين بحل لغز جديد و صعب؟ فمن المفروض أن نتوقع شخصا ما يتولى رئاسة الحركة أو ينتخبه إخوانه لهذه

ص: 393

1- .P, tic- po, detsaerB. H. J 350 .

2- .P, tic- po, duerF. S .5 .

3- أعمال الرسل 7: 22.

4- .P, tic- po, duerF. S 6- 5 .

المهمة، وعلى ذلك لا يمكننا أن نتصور أن مصرياً من الأرسقراطيين - ربما كان أميراً أو كاهناً أو موظفاً كبيراً - قد ساء له أن يضع نفسه على رأس جمع من الأجانب الطارئین على البلاد، المتخلفين حضارياً، وكيف نفسر أنه غادر البلاد معهم؟ إننا نعرف احتقار المصريين للآمم الأخرى، الأمر الذي يجعل هذه الظاهرة من موسى غير معقولة، وهذا - فيما يرى فرويد - هو الذي منع المؤرخين الذين ردوا اسم موسى إلى أصل مصري، ونسبوا إلى موسى «كل حكمة المصريين» من القول بإمكان أن يكون موسى نفسه مصرياً، هذه هي الصعوبة الأولى.

و أما الثانية، فيجب علينا ألا ننسى أن موسى لم يكن زعيماً سياسياً لليهود المستقرين في مصر فحسب، ولكنه كان كذلك المشرع والمعلم، والرجل الذي اضطرهم إلى اعتناق ديانة جديدة، ما زالت تعرف حتى اليوم «بالموسوية» نسبة إليه.

وهنا يتساءل «فرويد»: هل في استطاعة شخص واحد إيجاد ديانة جديدة بمثل هذه السهولة؟ ثم أليس من الطبيعي عند ما يرغب شخص ما في أن يؤثر في ديانة الآخرين أن يحاول تحويلهم إلى ديانتته هو؟.

إن اليهود في مصر لم يكونوا بالتأكيد مجردين من نوع ما من الديانة، وإذا كان موسى هو الذي أعطاهم ديانة جديدة. وكان هو نفسه مصرياً، فليس من الممكن إذن أن نرفض الظن بأن هذه الديانة الجديدة هي الديانة المصرية (1).

وهنا يعقد «فرويد» مقارنة بين الآتونية واليهودية، وبين سنة الختان عند المصريين وعند اليهود، الأمر الذي سوف نناقشه فيما بعد، و يرجع

ص: 394

«فرويد» ذلك كله إلى مصرية موسى، ثم يشير إلى أن المؤرخ اليهودي المشهور «يوسف بن متى»، قد ذكر في كتابه «تاريخ اليهود القديم»، أن موسى كان قائدا للجيش المصري، وأنه كان قد تولى قيادة حملة مظفرة على الحبشة (1)، و يرى «فرويد» أن يوسف اليهودي، ربما كانت بين يديه نصوصا أخرى، غير تلك التي في التوراة، يؤيد بها وجهة نظره هذه (2).

و هناك سمة أخرى تعزى إلى موسى تستحق منا اهتماما خاصا، إذ قيل أنه كان عييا لا يكاد يبين حين يتكلم، أو أنه كان «بطيئا في الكلام»، تقول التوراة- على لسان موسى مخاطبا ربه-: «استمع أيها السيد، لست أنا صاحب كلام منذ أمس، و لا أول أمس، و لا من حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم و اللسان، فقال له الرب: من صنع للإنسان فمًا، أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيرا أو أعمى، أما هو أنا الرب، فالآن أذهب و أنا أكون

ص: 395

1- يروي المؤرخ يوسف اليهودي عن هذه الحملة- دونما سند من التاريخ أو تأييد من التوراة- أن موسى، عليه السلام، تولى قيادة الجيش، و لكنه زاد- في قصة لا يخفي زيفها- أنه إنما تولى القيادة، بعد رجاء من الملك و الأميرة التي تبنته، و أن ذلك إنما وقع في أعقاب غارة شهنا أهل النوبة العليا على مصر، فأنزلوا بالمصريين هزيمة نكراء فولوا منهم الأدبار، حيث تعقبهم النوبيون إلى منف ف ساحل البحر، و هناك استلهم المصريون الوحي فأوحى باستخدام موسى الذي قبل القيادة سعيدا منشرحا، فأما كهان مصر و الإسرائيليين فقد سعدوا كذلك، سعد الكهنة لأنهم ظنوا أنهم بذلك إنما يتخلصون من موسى و من المهاجمين في وقت واحد، و أما الإسرائيليين فسعدوا لأنهم ظنوا أنهم يهربون من المصريون بقيادته، و مضى يوسف يروي أن موسى تمكن من صد العدو بشجاعته و حسن تدبيره، إذ تجنب النيل و صار إليهم برا عبر أرض غاصة بالثعابين الطائرة، فعبرها بفضل ما حمل معه من أعداد من طائر الإيبس و هو أعدى أعداء الثعابين، و عند ما وصل هاجم النوبيين، حيث رآته بنت الملك النوبي فأحبهته و عرضت عليه تسليم المدينة بشرط أن يتزوجها، ففعلت و فعل موسى، (أنظر: أحمد عبد

الحميد: المرجع السابق ص 93-94، و كذا.. 77 J. retgahC, II. kooB, suhpesoF. P, tic- po, notsihW. WIX.

-2 .. S 32, duerF. P, tic- po.

مع فمك وأعلمك ما تتكلم به، فقال (أي موسى): استمع أيها السيد، أرسل بيد من ترسل، فحمى غضب الرب على موسى، وقال: أليس هارون اللاوي أخاك، أنا أعلم أنه هو يتكلم، وأيضا هو خارج لاستقبالك، فتكلمه و تضع الكلمات في فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه، و أعلمكما ما ذا تصنعان، و هو يكلم الشعب عنك، و هو يكون لك فما» (1).

و هذا يعني أن الكليم، عليه السلام- فيما تروي التوراة- أنه كان يعاني من التلعثم، أو العجز عن النطق، ولذلك كان عليه أن يلتمس مساعدة هارون أخيه في مناقشته المفترضة مع فرعون، وربما مع بني إسرائيل الذين أشار إليهم النص باسم «الشعب».

وربما إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اسْرْخْ لِي صَدْرِي، وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَ اجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ اشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا، وَ نَذْكُرَكَ كَثِيْرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا، قَالَ قَدْ أُوتِيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (2).

فإذا كان ذلك كذلك، فربما أمكن القول أن هذه حقيقة تاريخية، تخدمنا كإضافة مفيدة في توضيح صورة هذا الرجل العظيم- سيدنا موسى عليه السلام- و يمكن أن تكون لها دلالة أخرى أكثر أهمية، فإن القصة قد تدل- إذا أخذنا في اعتبارنا عامل التشويه و التحوير- على حقيقة أن موسى كان يتكلم لغة أخرى، و لم يكن قادرا على التفاهم مع شعبه الجديد من الساميين بدون مساعدة مترجم على الأقل في بداية عهده بهم، و في هذا دليل على صحة نظرية أن موسى كان مصريا، أو لغته على الأقل.

ص: 396

1- خروج 4: 10-15.

2- سورة طه: آية 24-36، و أنظر: تفسير القرطبي ص 3231-4234.

غير أن هناك من يرى أن موسى عي لا يكاد يبين حين يتكلم، فقد أصيب بحبسة في لسانه، نتيجة لتأخر إرضاعه (1). هذا فضلا عن أن أحبار اليهود- إلى جانب المتأثرين بالإسرائيليات- إنما يرون في هذا المجال أسطورة مبناها أن فرعون إنما كان يداعب موسى- وهو ما يزال بعد في الثالثة- فحمله بين ذراعيه، ورفع مدللا إلى أعلى، فاختطف موسى التاج من على رأس فرعون ووضعه فوق رأسه، فانزعج فرعون بهذا الفأل، واهتم باستشارة حكمائه، إذ أحس أن الطفل إنما سوف يكون له شأن في تقويض عرشه، فأراد اختباره فأمر بإعداد طبقين، ووضع بأحدهما تمر أحمر، وبالأخر جمر، فأوحى الله- كما يدعون- إلى موسى أن يتناول الجمر، إبعادا لشبهة الإدراك الناضج عن الطفل، ووضع الجمر على لسانه، فأصبح عيبا لهذا السبب (2).

وإذا ما أردنا مناقشة آراء العالم اليهودي «فرويد»، فيما يختص بمصرية اسم موسى أصلا واشتقاقا، لرأينا أنها أمر قبول تماما، ذلك لأن فكرة الأصل المصري لاسم موسى، منذ أن نادى به «جيمس هنري برستد»، و«أدولف إرمان» و«سيجموند فرويد»، أصبحت الآن من الحقائق التي يكاد يتفق عليها العلماء- ومنهم أدولف لودز (3)، و جريفث (4)، و جاك فنجان (5)، و سيسل روث (6)، و وليم أولبرايت (7)، و ستانلي كوك (8)، وغيرهم.

ص: 397

1- عبد الرحيم فودة: في معاني القرآن ص 167.

2- فؤاد محمد شبل: إخناتون: رائد الثورة الثقافية، القاهرة 1974 ص 87، تفسير أبي السعود 12/6، تاريخ الطبري 390/1، ابن الأثير 1/98.

3- .P, tic- po, sdoL. A 169 .

4- .SENJ ni, shtiffirG. G. J 231. p, 1953، 12، -

5- .P, tic- po, nagoniF. J 134 .

6- .P, tic- po, htoR. C 8- 7 .

7- .P, tic- po, thgirblA. F. W 14 .

8- .P, tic- po, kooC. A. S 355 .

و يضيف أستاذنا الدكتور حسن ظاظا- إلى حجج «فرويد»- أنه لم يرد في أسماء الساميين جميعا- سواء أكانوا من العبريين أم من غيرهم كالآراميين و الكنعانيين و الأكاديين- اسم نطقه كاسم «موسى»، فهذا النبي هو أول شخص يحمل هذا الإسم (1)، و يقرر «الزوهار» مصرية موسى- و إن لم يستبعد يهوديته في نفس الوقت- اعتمادا على نص التوراة- على لسان بنات رعوثيل- بأنه رجل مصري (2).

و أما المصادر الإسلامية، فتكاد تجمع على أن موسى الكليم- عليه السلام- قد ولد لامرأة من بني إسرائيل، و أن هارون أخوه، فهما إذن من ذرية إبراهيم الخليل، شأنهما في ذلك، شأن إسحاق و يعقوب، عليهم السلام، إلا أن هناك في الكتاب الحكيم آيتين تقصان علينا ما وقع، إذ غضب موسى على أخيه هارون، ظنا منه أن قصر، حين انساق القوم إلى عبادة العجل، يقول سبحانه و تعالى في الآية الأولى: وَ أَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَصَدَّ عَفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (3)، و يقول في الآية الثانية: قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (4). ا-

ص: 398

1- حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة 1971 ص 17.

2- خروج 2: 19.

3- سورة الأعراف: آية 150، و أنظر: تفسير الطبري 13/120-133، تفسير الطبرسي 9/27-21، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/220، تفسير أبي السعود 2/407-408، تفسير روح المعاني 9/68-69، تفسير الكشاف 2/119، تفسير الفخر الرازي 15/9-10، تفسير القاسمي 7/2860-2862، تفسير المنار 9/177-181، تفسير تفسير القرطبي ص 2651-2652، تفسير و جدي ص 116، تفسير ابن كثير 3/474.

4- سورة طه: آية 94، و يقول أبو حيان في البحر المحيط (4/396) ناداه يا ابن أم استضعافا و ترفقا، و كان شقيقه و هي عادة العرب تتحنن بذكر الأم، و أيضا كانت أمهما مؤمنة و أيضا لما-

وفي كلا- الآيتين تركيز على كلمة «ابن أم»، وفي ذلك يقول المفسرون إن هارون إنما نادى موسى بنسبته لأمه، مع أنه كان شقيقه، لأن ذكرها أدمى إلى العطف (1)، ولكن الذي يلزمنا هنا هو كلام الله- عز وجل- وليس ما درج المفسرون أن يقدموا، وإنما هو اجتهاد، و فوق كل ذي علم عليم (2)، هذا فضلا عن أن «الزجاج» إنما يقول: قيل كان هارون أخا موسى لأمه، لا لأبيه (3)، فإذا تذكرنا أن اليهود إنما يعتبرون أن من كانت أمه يهودية فهو منهم، لا يعينهم على أي دين كان أبوه، هو يهودي صميم، حتى وإن ظل أقلف غير مختن (4)، لكان رأى الزجاج أو الياقوت إنما يستحق كثيرا من التأمل والتفكير.

وأما قصة التمر الأحمر أو الياقوت والجمر، ودورها في هذا العيب الذي جعل موسى عينا لا يكاد يبين حين يتكلم، أو «بطيئا في الكلام»، فيمكن الرد عليها في نقاط عدة، منها (أولا) أنه يستحيل على طفل طبيعي أو غير طبيعي أن يلمس النار، دون أن تحرق أصابعه فورا، فما بالك وقد رفع موسى الجمر إلى فمه، ثم أودعه إياه، ولم يحس به إلا بعد أن لدغ لسانه، ثم ألا يكفي هذا الفعل لإقناع فرعون أن الطفل غير طبيعي، ومنها (ثانيا) أن موسى لو كان حقا قد أمسك بالجمر وأمكنه احتمال قسوة النار، ثم وضع الجمر على لسانه، لفقد النطق كلية، ومنها (ثالثا) هل عدم فرعون- وهو ملك أعظم وأرقى دولة متحضرة في تلك العصور- وسيلة يستكشف بها حقيقة - كان حقها أعظم لمعاناتها الشديدة في حملن وتربيته والشفقة عليه فذكره

ص: 399

-
- 1- تفسير الطبري 131/3، معاني القرآن للفراء 394/1، تفسير القرطبي ص 2726، تفسير ابن كثير 474/3، تفسير المنار 180/9، تفسير النسفي 63/3.
 - 2- حسين ذو الفقار صبري: توراة اليهود، المجلة، العدد 157. يناير 1970 ص 19-20.
 - 3- تفسير القرطبي ص 2726 (دار الشعب- القاهرة 1970)، تفسير البيضاوي 29/4.
 - 4- .. (1970) p. 168. rD ibbaR msiaJ, nietspE. I. rD ibbaR 168. p، 1970) .. (skooB niugneP).

وأيا ما كان الأمر، فيبدو لي أن القول بأن سيدنا موسى عليه السلام، كان مصرياً، ولم يكن إسرائيلياً، قول فيه من الخطورة ما فيه، فإن احتمالات الخطأ فيه لجسيمة رهيبة خطيرة، ومع ذلك، فهو كافتراض - من حيث هو ظن، نجد له صدى في اسمه المصري (أولاً)، وفي التوراة حيث وصف، على لسان بنات رعوثيل صهره، بأنه «رجل مصري» (ثانياً) وفي «الزوهار» حيث يقر مصريته (ثالثاً) وفي الآيتين الكريمتين حيث التركيز فيهما على كلمة «ابن أم» (رابعاً) وفي رواية «الزجاج» على أنه ليس بشقيق لهارون، وكذا في رواية البيضاوي وأبي السعود بأنه كان أخا هارون من الأم، وإن ذهب الجمهور إلى أنهما شقيقان (خامساً)، وأخيراً (سادساً) في الأثر من أنه «كان بطيئاً في الكلام»، وفي قول التوراة: «أنه ثقيل الفم واللسان»، وفي قول الله تعالى في القرآن الكريم في سورة طه حيث يدعو ربه وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وفي الشعراء وَ يَصْنِقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ، وفي القصص: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وفي الزخرف، على لسان فرعون وَلَا يَكَادُ يُبِينُ، وفي إجماع التوراة والقرآن العظيم على استعانة موسى بأخيه هارون في توصيل رسالته إلى بني إسرائيل، وإلى فرعون وملئه (2).

و مع ذلك، فما زلت أشك كثيراً، في أن موسى عليه السلام لم يكن

ص: 400

-
- 1- محمد فؤاد شبل: المرجع السابق ص 87 ثم انظر: تفسير القرطبي ص 4232، تفسير الدر المنثور 5/119-120.
 - 2- سورة طه: آية 27، الشعراء: آية 13، القصص: آية 34، الزخرف: آية 52، تفسير القرطبي ص 2726، تفسير البيضاوي 4/29، تفسير النسفي: آية 3/63، تفسير أبي السعود 6/38، سفر الخروج 2/19، 4/10.

إسرائيليا، وإنما كان مصريا، ودهي أن شكى هذا لا يتصل بحال من الأحوال بقيمة موسى عليه السلام من الناحية الدينية أو التاريخية، ذلك لأن هذه القيمة لم تأت من كونه إسرائيليا، وإنما لأنه كليم الله ورسوله الكريم، ولأنه أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتلك أمور لا تتغير بتغير جنسه و من ثم فلا يؤثر في مكانة النبي الكريم، سيدنا موسى عليه السلام، أن يكون مصريا أو إسرائيليا.

و من ثم فإن شكى في مصرية موسى إنما يرجع لأسباب أخرى، منها (أولا) أن الجمهور على أن موسى إنما كان أخا شقيقا لهارون عليهما السلام، حتى وإن ذهب البعض إلى أنه كان أخاه من الأم، و هارون كان إسرائيليا دونما ريب، وبالتالي كان شقيقه موسى كذلك، و منها (ثانيا) أن الرسل إنما تبعث في أقوامها، و موسى قد أرسل إلى بني إسرائيل، و من ثم فهو إسرائيلي، و منها (ثالثا) أن دعوة موسى عليه السلام كان موضوعها، بجانب دعوة فرعون إلى الإقرار بتوحيد الله و ربوبيته، إنما هو إطلاق سراح بني إسرائيل من فرعون و قومه المصريين، كما يبدو ذلك واضحا في عدة آيات من الذكر الحكيم (الأعراف: آية 104-105، طه: آية 47، الشعراء: آية 16-17)، و الأمر كذلك بالنسبة إلى نصوص التوراة (سفر الخروج 7/3-22، 1/5-3، 10/6-13) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وردت في الإصحاحات من السادس إلى العاشر من سفر الخروج، و التي تتحدث عن إخراج بني إسرائيل من مصر، مما يشير بوضوح إلى أن دعوة موسى عليه السلام، كما تصورها التوراة، إنما هو إخراج بني إسرائيل من مصر، و أن يقيهم شر العذاب المهين الذي كانوا يتعرضون له في أرض الكنانة، و ليس من المنطق أن يكون موسى مصريا، ثم تكون دعوته إطلاق بني إسرائيل من مصر، من فرعون و ملئه، ثم الخروج بهم من مصر

إلى كنعان، إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، و كما يقول صاحب البحر المحيط: و ليس بنو إسرائيل من قوم فرعون المصريين، ألا ترى أن بقية المصريين (القبط كما يسميهم خطأ) و هم الأكثر، لم يرجع إليهم موسى.

و منها (رابعاً) أن اسم موسى المصري، لم يطلقه عليه أبوه، كما يزعم فرويد، و إنما أطلقته عليه امرأة فرعون، و بدهي أن الملكة المصرية، لحما و دما، لغة و ثقافة، إنما تطلق على موسى اسماً مصرياً، و ليس عبرياً، و كما أشرنا من قبل، فهي ملكة مصرية تتكلم اللغة المصرية و تفكر بها، و ما كان لها أن تتحدث العبرية في حياتها و بين مواطنيها، حتى تتخذ للطفل، مع كراهية شائعة للعبريين يومئذ، اسماً عبرياً، و منها (خامساً) أن وصف التوراة لموسى، على لسان بنات رعوثيل، بأنه رجل مصري، أمر طبيعي، ذلك لأن موسى عليه السلام، و قد تربى في قصر فرعون، و عاش في مصر عمره كله، و الذي ربما وصل وقت ذاك إلى أربعة عقود من الزمان، من البدهي أن يكون مصرياً في لسانه و هيئته، بل إن قومه الإسرائيليين أنفسهم، و قد عاشوا في مصر قرابة أربعة قرون، قد أصبحوا مصريين، أو على الأقل متمصرين، بل إن القرآن الكريم ليصفهم بأنهم «طائفة منهم»، هذا فضلاً عن أن ابنة رعوثيل ما كانت تعرف حتى ذلك الوقت جنساً يدعى «بنو إسرائيل»، ذلك لأن اليهود قبل موسى و نبوته، ما كان لهم وجود كأمة في مجتمعات الشرق القديم، صحيح أن القبائل الإسرائيلية التي كانت تعيش في مصر منذ عهد يوسف الصديق عليه السلام، على أيام الهكسوس، كانت تدرك، حتى قبل ظهور موسى، أنها تنتمي إلى أرومة واحدة، و لكنها مع ذلك لم تؤلف شعباً واحداً حتى حدث الاستعباد المصري لهم، و نجح موسى في أن يوحد بين هذه العشائر التي تراخت أو اصر القربي بينها، و يجعلها أمة واحدة، و ذلك بفضل نبوته و معجزته الكبرى.

و منها (سادساً) الاعتماد على أن موسى عليه السلام «كان بطيئاً في

الكلام» أو كان عيياً لا يكاد يبين حين يتكلم، وبالتالي فقد استعان في تبليغ رسالته إلى بني إسرائيل بأخيه هارون، دليل على أنه كان مصرياً، ولم يكن إسرائيلياً، استنتاج فيه من الخطأ أكثر ما فيه من الصواب، ذلك لأن بني إسرائيل ما كانوا يتحدثون العبرية في مصر، فمن المعروف تاريخياً أن أسلاف العبرانيين كانوا يتكلمون الآرامية قبل أن يستقروا في فلسطين، ثم بدءوا يتحدثون لغة الشعوب المضيفة لهم، ففي مصر كانوا يتكلمون اللغة المصرية، وفي كنعان كانوا يتكلمون الكنعانية، وأما اللغة العبرية، والتي كانت خليطاً من الآرامية و الكنعانية وكثير من اللغات السامية وغير السامية، فيرجع تاريخ ظهورها إلى ما قبيل عام 1100 قبل الميلاد، وبعد خروج بني إسرائيل من مصر، كما أشرنا من قبل.

ومنها (سابعاً) أن ما جاء في التوراة والقرآن العظيم من أن الكليم عليه السلام عيياً لا يكاد يبين، ومن ثم فقد سأل ربه الكريم وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي (1)، وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، فهو أفصح منه لساناً، إلى غير ذلك من الأدلة التي اعتمد عليها البعض، على أنها).

ص: 403

1- اختلف المفسرون في زوال العقدة بكاملها، فمن قال به تمسك بقوله تعالى: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى و من لم يقل به احتج بقوله تعالى: هُوَ أَفْصَحُ مِنِّْي، وقوله تعالى: وَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ، وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل حل عقدة تمنع الإفهام و لذلك نكرها، وقال: «عقدة من لسان» أي عقدة كائنة من عقد لساني، و جعل قوله تعالى: يَفْقَهُوا قَوْلِي جواب الأمر، و غرضاً من الدعاء، فبحلها في الجملة يتحقق إيتاء سؤاله، و الحق، كما يقول أبو السعود، أن ما ذكر لا يدل على بقائها في الجملة، و لكن الحسن البصري قال: حل عقدة واحدة، و لو سأل أكثر من ذلك أعطى، و أما قوله تعالى: هُوَ أَفْصَحُ مِنِّْي لا تستدعي عدم البقاء لأن الأفصحية توجب بثبوت أصل الفصاحة في المفضول أيضاً، و ذلك مناف للعقدة أصلاً، و أما قوله تعالى: وَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ فمن باب غلو فرعون في العتو و الطغيان، و إلا لدل على عدم زوالها أصلاً، و تنكيرها يفيد قلتها (تفسير أبي السعود 6/12).

دليل على مصرية موسى، وربما كانوا يعنون عدم إجادته اللغة المصرية، فالرأي عندي أنها لا تدل على شيء من ذلك، فربما كان سببها أن موسى عليه السلام قد أصيب بحبسة في لسانه نتيجة لتأخر في رضاعة أو لسبب آخر، أضعفه من الناحية العلمية قصة التمر الأحمر أو الياقوت و الجمر (1)، وعلى أية حال، فالإمام الفخر الرازي تفسير لاستعانة موسى بأخيه هارون يذهب فيه، كما أشرنا من قبل، إلى أن فرعون ربما كذب موسى، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعثر الكلام على من يكون في لسانه حبسة، لأنه عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية إلى باطن القلب، وإذا انقبضا إلى الداخل وخلا-منهما الخارج، ازدادت الحبسة في اللسان، فالتأذي من الكذب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب للحبسة، فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب، ثم ثنى بضيق الصدر، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان، وأما هارون فهو أفصح منه، وليس في حقه هذا المعنى، فكان إرساله لانتقا (2).

ومنها (ثامنا) أن الذين اعتمدوا على أن هناك حبسة في لسان موسى لا تمكنه من أداء رسالته نحو بني إسرائيل، ثم توصلوا من وراء ذلك إلى أن موسى كان يتكلم لغة أخرى، ولم يكن قادرا على التفاهم مع شعبه الجديد من الساميين (أي بنو إسرائيل) بدون مساعدة مترجم، على الأقل في بداية عهده بهم، وفي هذا دليل على صحة نظرية أن موسى كان مصريا، أو لغته على الأقل، نسوا، أو تناسوا، أنهم اعتمدوا في ذلك على نصوص التوراة (سفر الخروج 4/10-16، 27-31)، وأن هذه النصوص التوراتية

ص: 404

-
- 1- أنظر عن القصة: تفسير الطبري 159/16، تاريخ الطبري 390/1، تفسير القرطبي ص 423، تفسير النسفي 52/3، تفسير أبي السعود 12/6، تفسير صفوة التفاسير 233/2، ابن الأثير 98/1.
 - 2- تفسير الفخر الرازي 122/24.

المتداولة اليوم، ليست هي توراة موسى عليه السلام، وإنما قد داخلها كثير من التحريف والتصحيح، وأن القرآن الكريم قد جاء لتصحيح هذا التحريف، وذلك التصحيح، ومن هنا فإن شكوى موسى من حبسة لسانه في القرآن الكريم إنما كانت في مواجهة فرعون، وليس في مواجهة بني إسرائيل، وهذا ما تدل عليه الآيات بوضوح في سورة طه (24-32) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ اجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ اشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، وفي سورة الشعراء (10-13) وَ إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لَا يَتَّقُونَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ، وَ فِي سُوْرَةِ الْقَصَصِ (30-35) وَ فِي سُوْرَةِ الزَّخْرَفِ (51-52) وَ نَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ، وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ.

و منها (تاسعا) أن موسى عليه السلام كان على صلة بقومه الإسرائيليين قبل خروجه إلى مدين، بدليل قتله المصري عند ما استغاث به الإسرائيلي على المصري الذي سماه القرآن «عدوه» (أي عدو موسى)، ولا يمكن أن يستغيث الإسرائيلي بموسى إلا إذا كان على معرفة أنه من بني إسرائيل، بل إن قوله تعالى: رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيْرًا لِلْمُجْرِمِينَ إنما يستشف منه أن موسى كان يستخدم نفوذه في مناصرة بني إسرائيل، وكيف أبدى المصريين عنهم، بل إن موسى كاد أن يتورط في محنة جديدة بسبب ذلك الإسرائيلي الذي استصرخه بالأمس و يستصرخه اليوم، حتى ليكاد أن يفعل ما ندم عليه بالأمس، فيهم بأن يبطش بالذي هو عدو لهما (أي المصري)، وبدهي أن كل هذا إنما يدل على أن موسى إسرائيلي، وأنه كان يعرف تماما تلك

و منها (عاشرا) أن قصة موسى، كما جاءت في سورة القصص (3-21) و الشعراء (18-22) لا تدع مجالاً للشك في أن كلیم الله عليه السلام، إنما كان من بني إسرائيل، فلقد ولد في تلك الفترة العصيبة التي سلب الله فيها فرعون على بني إسرائيل، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، فأخفته أمه حيناً من الدهر، و لما خشيت أن يفتضح أمرها فرزت إلى الله مما تخشى على وليدها، فكان، كما فصلنا من قبل، أن أوحى الله إليها أن أرضعیه فإذا خفت علیه فألقیه في الیمّ و لا تخافي و لا تحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، وهكذا أراد الله أن ينشئ موسى في قصر فرعون، و بدهي أن موسى عليه السلام لو كان مصرياً، و لم يكن إسرائيلياً، ما تعرض لكل هذه المحن و البلايا، و لما ألقته أمه في اليم، و لما نشأ في قصر فرعون، ذلك لأن فرعون ما كان يقتل أبناء المصريين و يستحي نساءهم، و إنما كان يفعل ذلك مع بني إسرائيل، دون غيرهم من رعيتة، سواء أكانوا من المواطنين المصريين أو من أبناء الامبراطورية المصرية في إفريقيا أو آسيا، و الحق أن قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، و خاصة ما جاء منها في سورتي الشعراء (18-22) و القصص (3-21) لا يدع مجالاً للشك في أن النبي الكريم سيدنا موسى عليه السلام، إنما كان من بني إسرائيل، من ذرية أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي جعل في ذريته النبوة و الكتاب.

من الغريب المؤلم أن شك شراح التوراة و علماء اليهود لم يقتصر على جنسية كلیم اللّٰه عليه السلام، وإنما تجاوزوه إلى الوجود التاريخي لموسى عليه السلام نفسه، و لعل السبب في ذلك إنما هي التقاليد العجيبة التي اكتنفت شخصية موسى، كما تبرز في نصوص التوراة، فكأننا أمام تضارب تقييم، شخصية صكت بني إسرائيل بعقد عميقة الجذور، فهم عنها وإيها بين شد و جذب عنيفين.

فالتفسيرات جميعا تكاد تتفق، في سعي خبيث، إلى التهوين من قدر موسى عليه السلام، فأنبياء بني إسرائيل المتأخرون (1)، دون غيرهم، أصحاب الفضل في إرساء أركان الديانة- المتسامية بأخلاقياتها زعموا- و لا بأس من التسليم لموسى، بأن كان علما على منعرج حاسم في تاريخ بني إسرائيل، كفاه أن هيا لهم بعقيدة اصطفاء، أسبابا من تماسك و تلاحم، تفسيرات تكاد تكون انعكاسا صادقا لما طرأ عبر العصور على كتابات اليهود، فلا ذكر لموسى عليه السلام، أو يكاد، في الأصول التوراتية القديمة، و لا تقع على اسمه إلا خطفا، حتى في كتابات أنبياء القرن الثامن

ص: 407

1- أنظر عن هؤلاء الأنبياء (محمد بيومي مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل - الاسكندرية 1978 ص 50-60).

قبل الميلاد، عاموس (760-746 ق.م) وهو شع (740-730 ق.م) وإشعيا الأول (740-700 ق.م) و ميخا (735-700 ق.م) (1)، فالنبي إشعيا في المرة الوحيدة التي ذكر فيها موسى في نهايات سفره يقول: «ثم ذكر الأيام القديمة موسى وشعبه، أين الذين أصعدهم من البحر مع راعي غنمه، أين الذين جعل في وسطهم روح قدسه، الذي سير ليمين موسى ذراع مجده الذي شق المياه قدامهم، ليصنع لنفسه اسما أبديا» (2).

وهكذا أصبح موسى عليه السلام، في كتابات اليهود، نسيا منسيا أولا، ثم وجها أسطوريا فولكوريا فقط، منذ أيام سليمان، عليه السلام (960-922 ق.م) إلى قرب نهاية دولة اليهود في فلسطين، يشهد بذلك أيضا الموضوع الوحيد الذي تحدث فيه النبي إرميا (626-580 ق.م) عن موسى (3) بهذه العبارة: «وقال له الرب: لو أن موسى و صموئيل وقفا أمامي لما توجهت نفسي إلى هذا الشعب، فأطرحهم عن وجهي وليخرجوا (4)».

فإذا ما تكاثفت الأخطار حول مملكة يهوذا، يتهددها سوء مصير، أن يحيق بها ما حاق بمملكة إسرائيل في الشمال، تهيأت الفرصة- فإن الإيمان لهو ملاد الشعب في الملمات- لنفر من «لاويين»، ربما هم أحفاد بطانة موسى من كهنوت مصري، فتنبعث ذكرى كليم الله، و تلك الوصايا التي عهد بها إليه الرب في سيناء، بعد أن ظلت مطوية مطمورة في أعماق الوجدان زهاء قرون ستة أو يزيد (5).

ص: 408

-
- 1- حسين ذو الفقار صبري: إله موسى في توراة اليهود- المجلة- العدد 163- يوليو 1970 ص 5-6.
 - 2- إشعيا 63/11-12.
 - 3- حسن ظاظا: الصهيونية العالمية وإسرائيل ص 21.
 - 4- أرميا 15: 1، قارن الترجمة العربية للتوراة.
 - 5- حسين ذو الفقار صبري: المرجع السابق ص 6.

ولكن مؤلفي التوراة حرصوا مع ذلك على الاستنقاص من مكانته- إعلاء لشأن داود وبيت داود- في أمور أشد ما تكون التصاقا بالعقيدة التوحيدية، كما عند الأنبياء المتأخرين، غمزا و لمزا في سفر الخروج (1)، فكأن موسى لم يختن شأن أي أقلق، وأن قد ظل كذلك، مخالفا تعاليم الرب كما أنزلت على إبراهيم، من حيث السمة الدالة على العهد الأبدي الموثق (2)، بل متحديا ما دفع به الرب مباشرة (3)، فكأن نبي الله، حامل رسالته إلى شعب بني إسرائيل، إنما ناكث لعهد الرب (4).

ثم صراحة و دون موارد، إذ تعزى إليه شوائب من وثنية، فهو صاحب «حية النحاس» (5) «نحشتان» صنعها بيديه و رفعها أمام القوم على سارية (6)، هي من أسباب غواية بني إسرائيل، يقدمون لها القرابين متعبدين، فيسحقها).

ص: 409

- 1- خروج 4: 24-26.
- 2- تكوين 17: 10-14.
- 3- خروج 12: 48.
- 4- حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 6.
- 5- يرى «برستد» أن موسى كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية، فقد كان يحمل عصا سحرية عظيمة، في صورة «ثعبان» تسكن فيها قوة «يهوه»، كما كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفي به الناس، و كان هذا الثعبان أحد الثعابين المقدسة العديدة في مصر، وقد بقيت صورة ذلك الإله المصري القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل، و استمروا في إطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد «موسى» و لم يبعد من البيت المقدس إلا في حكم ملك يهوذا حزقيا، و ليس من شك في أن برستد يخطئ في كثير مما ذكره (أنظر: ملوك ثان 18: 4)، .P, ecneicsnoC fo nwaD ehT, detsaerB. H. J 354.
- 6- يرى الدكتور هاني رزق: معبرا عن وجهة النظر المسيحية أن هذا الحدث إنما كان رمزا لصلب المسيح، فكما رفع موسى الحية لكي يحيا كل من ينظر إليها، هكذا رفع يسوع المسيح على الصليب لكي يحيا كل من يؤمن به (هاني رزق: يسوع المسيح في ناسوته و ألوهيته، القاهرة 1971 ص 152-153).

حزقيا ملك يهوذا (715-687 ق. م)، ضمن ما كان قد حطم من نصب و أصنام (1).

هذا إلى أن التوراة جد حريصة على اثبات أنساب عديدة من شخصيات، و لكنها تمر على موسى مر الكرام، فتقول في سفر الخروج: إن أباه و أمه من بيت لاوى (2) و لا تزيد، لا تسميهما حتى، و إن كانت النسخ العربية للتوراة (3) تقرر: أن أمه هي بنت لاوى، و لكن دقة الترجمة تقتضيها أن تقول «من بيت لاوى»، أما ذلك النص الآخر (4) تقع عليه ضمن أنساب مفصلة لكافة بني إسرائيل، فإنما هو مدموس على الأصل القديم، نقل نقلا عما أثبتته الأحبار في سفر العدد (5)، بعد أن كان النص الأول قد سجل بأحقاب (6).

و لعل هذا كله هو الذي دفع المؤرخ اليهودي «سيسل روث» إلى القول: بأن موسى ينتمي إلى قبيلة أفرايم- مع نوع من الانتساب المصري- أكثر من انتمائه إلى قبيلة لاوى، التي انتسب إليها عن طريق التقاليد (7)- كما أشرنا من قبل- فإذا أضفنا إلى ذلك كله، انعدام أية وثيقة تاريخية معاصرة تحدثنا عن الكليم، عليه السلام، و عن وقائعه في مصر- غير ما ورد في الكتب

ص: 410

1- حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 6، عدد 21: 9، ملوك ثان 18: 4.

2- خروج 2: 1- 2.

3- خروج 1/2 جاء بحية «و ذهب رجل من بيت لاوى، و أخذ بنت لاوى»، تعني أن عمرا م تزوج عمته يوكابد بنت لاوى التي ولدت للاوى في مصر (خروج 6/ 20، عدد 26/ 59).

4- خروج 6: 20.

5- عدد 26: 59.

6- حسين ذي الفقار: توراة اليهود، المجلة يناير 1970، ص 12 و كذا، Y, N, sweJ ehT fo yrotsiH A, rahcaS. L. A 1954

7- .P, tic. po, htoR, C 8- 6 .

المقدسة، ونزلت اليهود- فضلا عن أن اليهود أصبحوا لا يعرفون، حتى أين دفن الكليم (1)؟ لتبين لنا كيف أضاع اليهود الرجل العظيم و جحدوا مكانته، مما أدى في نهاية الأمر، إلى أن يبدي بعض علماء التاريخ والآثار المصرية و الدراسات اليهودية، شكوكهم حول تاريخية الرجل العظيم، بل إن «جوستاف لوبون» ليقول بصراحة: إن موسى شخص أسطوري، أكثر من كونه شخصا تاريخيا، أي أن ذاتيته رتبت، كما رتبت ذاتية «بوذا» بعد حين (2).

و من هنا، فإن جمرة مفكري اليهود العلمانيين في العصر الحديث، تذهلهم تلك الشخصية، كما تتراءى عملاقة جبارة، بينما يؤرقهم في الوقت نفسه افتقارهم إلى الدليل المادي، مهما كان ضئيلا تافها، الذي يقنعهم بأنه كان له وجود، فيقولون بسفسطة رأى بأن: موسى كان، رغم أنه ما كان، أعظم شخصية في تاريخ اليهود، فلا معدي عن ابتداعها بخيال، فيصبح التاريخ اليهودي مغزى و قصدا (3).

و مع ذلك، ورغم كل ما أشرنا إليه آنفا، فإني لأومن- الإيمان كل الإيمان- بالوجود التاريخي لنبي الله الكريم، سيدنا موسى عليه السلام، لأسباب كثيرة. منها (أولا) أن الكتب السماوية الثلاثة- التوراة و الإنجيل و القرآن العظيم- تجمع على ذلك، و ليس من العلم، فضلا عن الإيمان بما جاء في كتب السماء، أن نشك في أمر أجمعت عليه.

و منها (ثانيا) أن الشك الذي يحوم حول موسى عليه السلام، إنما له مثل بالنسبة إلى أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل، عليه السلام (4)، و في كلا

ص: 411

1- تثنية 34: 1-6.

2- جوستاف لوبون: المرجع السابق ص 75.

3- حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 12، و كذا. P, tic- po, rahcaS. L. A 18- 16.

4- .P, tic- po, yellooW. L 514 .

الحالين فإن الذين يشكون- في الكليم و الخليل- إنما يعتمدون في شكهم هذا، على كثرة الأعاجيب و الخوارق في السيرتين الطاهرتين، كما رواها الأقدمون، و لست أعتقد- بحال من الأحوال- أن هذا سببا مقنعا، فنحن الدارسين للتاريخ المصري القديم- على سبيل المثال- نسمع عن الكثير من الأسرار التي حيكّت حول «الهرم الأكبر»، مما لا يعتمد على سند، أو دليل تاريخي، و مع ذلك فالهرم الأكبر موجود. و لا يستطيع أحد أن يمترى في وجوده.

و منها (ثالثا) أن ما يراه بعض النقاد من عدم وجود أي أثر يشير إلى تاريخية موسى، عليه السلام، فإذا كان الأمر كذلك، و إذا كانت تلك «الشقف» أكثر أهمية، بل و ربما يعتمد عليها أكثر من ذاكرة الناس، أو السجلات المكتوبة، فإن الأثر الذي تركه المشرع العظيم على العقل الإسرائيلي، و الذي يمكن تتبعه منذ عصر قديم جدا، عميق لدرجة لا يمكن أن تفشل في حالة الاعتماد عليها، لتحقيق شخصية تركت أثرا لا يمحي على المعاصرين (1).

و منها (رابعا) أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء و الرسل في النصوص الإنسانية ضعيف نسبيا، لأن حقيقة الصراع بين القيم السماوية و الإنسانية، ربما يكون قد دفع تلك المجتمعات الإنسانية إلى إغفال ذكرها.

و هذه ظاهرة يلمسها المؤرخ في تاريخ و حضارة الشرق الأدنى القديم بوجه عام، بالنسبة إلى تعمد عدم التعريف بالمعارضين (2).

و منها (خامسا) أن المصادر المصرية القديمة- و التي تمتاز عن غيرها

ص: 412

1- , 1969 , p. 6. C htoR. A trohsI htoP eht J hsiweP elpoeL, nodno.

2- رشيد الناصوري: جنوب غربي آسيا و شمال إفريقيا- الكتاب الثالث- المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني- بيروت 1969 ص

من مصادر الشرق الأدنى القديم بوضوحها وكثرة آثارها- كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن «موسى»، هذه المصادر- في غالبيتها- إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحى منهم، فإذا ما تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة إلها، أكثر منه بشرا، كان من الطبيعي ألا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك في حرب خاض غمارها، ولهذا فالنصر كاد أن يكون حليفه فيها، وقد تكون الحقيقة غير ذلك (1).

و من المعروف أن قصة موسى في مصر- كما جاءت في الكتب المقدسة- إنما انتهت بغرق الفرعون و جنوده في البحر، و نجاة موسى و من آمن معه بالواحد القهار، و ليس من المقبول- طبقا للعقيدة الملكية الإلهية المصرية القديمة- أن تسجل النصوص المصرية غرق الإله الفرعون، و نجاة عبيده العبرانيين، و من هنا كان من الصعب العثور على اسم موسى في النصوص المصرية القديمة حتى الآن، رغم ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر الفرعونية.

و انطلاقا من هذا كله، و رغم أن الوجود التاريخي لموسى، عليه السلام، إنما يفتقر إلى الدليل المادي التاريخي، خارج الكتب المقدسة، و تراث اليهود، فإن الغالبية العظمى من المؤرخين يعتقدون أن موسى عليه السلام له وجود تاريخي، و أنه عاش في مصر حينما من الدهر، و أن خروج الإسرائيليين من أرض الكنانة تم تحت قيادته، و أن ذلك كله- فيما أرى-، إنما هو من حقائق التاريخ التي لا يرقى إليها الشك- بحال من الأحوال- إيمانا منا بما جاء في الكتب السماوية، من ناحية، و لأن تاريخ إسرائيل الفعلي- و الذي يبدأ حقيقة بحادث الخروج من مصر- لا يمكن أن يفهم إلا إذا اعترفنا بوجود كليم الله، موسى عليه السلام).

ص: 413

1- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، الإسكندرية 1966 ص 3 (رسالة ماجستير).

نجد موسى عليه السلام، كما رأينا من قبل، في الخروج ببني إسرائيل من مصر، وهناك في صحراوات سيناء المقفرة لقي النبي الكريم من قومه الأمرين، وينتهي الأمر بأن يكتب على الخارجين من مصر أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة ينجح بنو إسرائيل في أخرياتها في الوصول إلى تخوم كنعان، وإن لم يكتب لهؤلاء أن يدخلوا الأرض المقدسة أبداً.

هذا وقد اختلفت المصادر الإسلامية في دخول موسى عليه السلام أرض كنعان، فذهب فريق من علماء السلف على رأسهم ابن إسحاق، إلى أن موسى قد عاش حتى خرج من التيه، وشهد دخول قومه أرض فلسطين، وأنه كان معهم يوم فتح مدينة الجبارين (أريحا أو بيت المقدس)، وكان على مقدمته يوشع بن نون، كما كان معه كالب بن يفتنة، صهره على أخته مريم بنت عمران، ويذهب ابن كثير إلى أن هذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين، و مما يدل على ذلك قول موسى عليه السلام، لما اختار الموت، كما سيأتي، «رب أدني إلى الأرض المقدسة رمية حجر»، ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه في التيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها وحث قومه عليها، ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية حجر، ولهذا قال سيد البشر، ورسول

اللّٰه! أهل الوبر و المدر سيدنا محمد صلى اللّٰه عليه و سلم «فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر».

على أن هناك فريقا آخر، على رأسهم ابن عباس، و كذا قتادة و السدى و عكرمة، إنما يذهب إلى أن موسى و هارون، عليهما السلام، توفيا في التيه، و كذا توفي كل من أبي المسير إلى كنعان مع موسى، حين أمرهم اللّٰه تعالى بقتال من فيها من الجبارين، و هكذا تذهب المصادر الإسلامية، و كذا التوراة (1)، إلى أن جميع بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر قد ماتوا في البرية، و لم يروا أرض الميعاد، ما عدا يوشع بن نون و كالب بن يفنه، و من لم يتجاوز العشرين من أعمارهم، و أن موسى عليه السلام قد عهد إلى يوشع بن نون بأن يدخل ببني إسرائيل الأرض المقدسة من بعده، أو أن يوشع قد بعث نبيا من بعد موسى، و أنه هزم الجبارين و دخل مدينتهم (2).

هذا و قد روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال:

أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه عز و جل فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعره سنة، قال: أي رب ثم ما ذا، قال ثم الموت، قال فالآن قال: فسأل اللّٰه عز و جل أن يدينه من الأرض المقدسة رمية حجر، قال أبو هريرة، فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه و سلم: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»، و في رواية في

ص: 416

1- عدد 14/22-38، 33/38-39.

2- تفسير الطبري 10/190-200، تاريخ الطبري 1/435-442، تفسير روح المعاني 6/109، تفسير الطبرسي 6/70-71، تفسير الكشاف 1/622-623، تفسير النسفي 1/279-280، تفسير الخازن 2/34-36، ابن كثير: التفسير 2/74-75، البداية و النهاية 1/316-325، تفسير البغوي 2/36-7، تاريخ ابن خلدون 2/98-99، تاريخ يعقوبي 1/45-46، مروج الذهب للمسعودي 1/62-63، الكامل لابن الأثير 1/111-115.

تفسير البغوي: «و الله لو كنت عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»، و روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما أسرى به، مررت بموسى و هو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر»، و في رواية قال صلى الله عليه وسلم: «مررت على موسى ليلة أسرى بي عن الكثيب الأحمر، و هو قائم يصلي في قبره» (رواه مسلم و النسائي و أحمد).

و روى الإمام أحمد و ابن جرير بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ملك الموت كان يأتي الناس عيانا حتى أتى موسى فلطمه ففقا عينه، قال فرجع فقال: يا رب إن عبدك موسى فقأ عينيه، و لو لا كرامته عليك لشققت عليه، فقال: أت عبدي موسى فقل له: فليضع يده على متن ثور، فله بكل شعرة وارت يده سنة، و خيره بين ذلك و بين أن يموت الآن، قال فأتاه فخيره، فقال له موسى: فما بعد ذلك؟ قال الموت، قال: فالآن إذا، قال: فشمه شمه قبض روحه، قال: فجاء بعد ذلك إلى الناس خفية» (1).

هذا و تقول التوراة في التثنية (27/3-29) و قال الرب لموسى:

«اصعد إلى رأس الفسجة و ارفع عينيك إلى الغرب و الشمال و الجنوب و الشرق و انظر بعينيك لكي لا تعبر هذا الأردن، و أما يشوع فأوصه و شدده و شجعه لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب و هو يقسم لهم الأرض التي تراها، فمكثنا في الجواء مقابل بيت فغور»، ثم تقول في آخر سفر التثنية نفسه (8-1/34) «و صعد موسى من عربات مؤاب إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة الذي في قبالة أريحا، فأراه الله الأرض من جلعاد إلى دان، و جميع نفتالي و أرض أفرايم و منسى و جميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي و الجنوب و الدائرة بقعة أريحا أرض النخل إلى صوغر، و قال له الرب: هذه هي الأرض التي

ص: 417

1- تاريخ الطبري 434/1، ابن كثير: البداية و النهاية 319/1.

أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها، قد أريتك إياها بعينيك و لكنك إلى هناك لا تعبر، فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم (1)، وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات، ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته، فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات مؤاب ثلاثين يوماً، فكملت أيام بكاء مناحة موسى».

وهكذا يذهب المؤرخون المحدثون إلى أنه من هناك من رأس الفسجة، التي يفترض أنها جزء من جبل «نبو» (2)، وطبقاً لرواية التوراة، ينظر موسى إلى أرض الميعاد، ثم يموت ويدفن في أرض «مؤاب»، ومن المحتمل أن جبل «نبو» إنما هو جبل «نبا» الحالي، على مبعده ثمانية أميال إلى الشرق من نهر الأردن، وأما «الفسجة» فربما كانت القمة الغربية والسفلى لنفس الجبل، ويقودنا الطريق المنحدر من الجبل إلى «عيون موسى»، التي تشرف على خرائب قلعة «خربة عين موسى» (3)، وهناك كذلك خرائب بعيدة عنها، وتعرف ب «خربة المخيط»، التي يمكن أن توجد بمدينة «نبو»، على مبعده خمسة أميال إلى الجنوب الشرقي من «حسبان»، بينما على الجبل نفسه بقايا كنيسة بيزنطية (4).

ومن الغريب المؤلم، أننا نقرأ في التوراة (5)، أن موت موسى و هارون إنما كان بسبب خيانتهم للرب «عند ماء مريية قادش في برية صين» إذا لم

ص: 418

1- روى أن الإمام مالك قال: إنه لا يعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض، غير قبر محمد صلى الله عليه وسلم ومن كان قبر محمد صلى الله عليه وسلم عندهم، فينبغي أن يعرف فضلهم على غيرهم».

2- J. S 1941, rellaS. J. S 1941, no sesoM fo lairomeM ehT, obeN tnuoM no sioV 2, nodnoL.

3- 1945, p. 143. kceulG, N 143. rehto ehT, ediS eht fo nadroJ weN, nevaH.

4- قاموس الكتاب المقدس 2/ 953-2954، وكذا، J 155. P. tic-po, nageniF.

5- تشنبة 32: 48-50.

يقديسانه في وسط بني إسرائيل، و من هنا فقد حرم الله الأرض المقدسة على موسى أبدا.

و يعلم الله- و تشهد ملائكته- أن موسى و هارون لم يكونا كما صورتهم يهود في التوراة، وإنما كانا رسولين كريمين، بذلا الجهد- كل الجهد- في تبليغ دعوة ربهما، وأفيا عمرهما من أجلها، حتى لقاها الله مطمئنين إلى رضاه، و هكذا نرى القرآن الكريم يكرمهما أمجد تكريم، حيث يقول سبحانه و تعالى: **وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِذْ كَانَ مُخْلَصًا، وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَ نادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا، وَ وهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (1)**، و يقول: **وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ وَ نَجَّيْنَاهُمَا وَ قَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ وَ نَصَرْنَا لَهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ، وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (2)**، و يقول عن موسى: **وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِيُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (3)**، و يقول: **وَ اصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي (4)**، و يقول: **يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (5)**.

ص: 419

-
- 1- سورة مريم: آية 51-53 و انظر: تفسير البيضاوي 36/2، تفسير الألوسي 16/193-194، تفسير الفخر الرازي 21/221، تفسير الطبري 16/94-، تفسير الطبرسي 16/44-46 تفسير القاسمي 11/4149، تفسير القرطبي ص 4152-4153.
 - 2- سورة الصفات: آية 114-122، و انظر: تفسير البيضاوي 3/298-299، تفسير الفخر الرازي 26/159-160، تفسير الطبري 23/90-92 تفسير روح المعاني 23/138-139، تفسير ابن كثير 7/31-33، تفسير القرطبي 15/114-115.
 - 3- سورة طه: آية 39.
 - 4- سورة طه: آية 41.
 - 5- سورة الأعراف: آية 144، و انظر: الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/7-2، تفسير الطبري 13/106-107، تفسير الطبرسي 19/18-20، تفسير القاسمي 7/2854، تفسير المنار 9/104-112، تفسير القرطبي ص 2716، تفسير و جدي ص 214، تفسير ابن كثير 3/471.

وهكذا يرفع القرآن الكريم هذين النبيين الكريمين إلى الدرجة التي يستحقانها، ثم يطلب إلى المؤمنين به أن يرتفعوا إلى مستوى دينهم القويم، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بني إسرائيل في حكمهم على موسى عليه السلام (1)، فيقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (2).

انتقل موسى، عليه السلام، راضيا مرضيا عنه، وقد أكمل الرسالة، وبلغ الدعوة، ونقرأ في التوراة (3): «وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات» (4)، وليست هناك أية دلائل في التوراة تشير إلى أن موسى لقي ميتة عنيفة، غير طبيعية غير أننا نرى في عام 1922 م «أرنست سيللين» يزعم أنه قد وجد في بعض فقرات من سفر «هوشع» (5) بقايا تقاليد مختلفة، ترى أن موسى قد مات شهيدا، فقد ذبحه الكهنة الذين أطاحوا تماما بالدين الذي أسسه (6).

و في عام 1938 م، أصدر «سيجموند فرويد» كتابه الشهير «موسى و التوحيد»، زعم فيه أن هذه التقاليد- الآنفه الذكر، لم تكن مقصورة على

ص: 420

-
- 1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 214.
 - 2- سورة الأحزاب: آية 69، وانظر: تفسير الفخر الرازي 233/25، تفسير القرطبي 250/14-252 (القاهرة 1967)، تفسير و جدي ص 561، تفسير الطبري 50/22-53.
 - 3- تثنية 34: 7.
 - 4- ترى التقاليد اليهودية و النصرانية أن موسى أقام في مدين أربعين عاما، وأنه حين خرج من مصر لاجئا إلى مدين كان في الأربعين من عمره، ثم بعث نبيا و هو في الثمانين، وأنه مات و هو ابن مائة و عشرون سنة (أعمال الرسل 7: 7، 23، 30، قاموس الكتاب المقدس 2/ 931، شاهين مكاربوس: المرجع السابق ص 40، عدد 14: 33، تثنية 34: 7).
 - 5- هوشع 4: 4-9، 5: 1-4، 8: 3-7، 9: 7-11.
 - 6- 1922، Etscheidt S. n. l. e. s. o. m. n. i. l. l. e. s. t. s. n. r. e. 1922، gizpieL.eth cihcsegsnoigileR ohcsiduJ hcsitilearsI eid ruf gnutuedeB enieS dnu esoM nilleS tsnrE

هوشع، وإنما هي تتكرر في كتابات معظم الأنبياء اللاحقين، بل إنها- فيما يرى سيللين- أساس التوقعات القادمة بمقدم المسيا (المسيح). وقرب نهاية الأسر البابلي (586-539 ق. م) انبثق الأمل بين الشعب اليهودي في أن الرجل الذي اغتالوه بكل قسوة، سوف يعود من مملكة الموتى، ليقود شعبه النادم- وربما غير شعبه أيضا- إلى أرض النعيم الخالد.

ثم يعترض «فرويد» على ما ذهب إليه «سيللين» من أن الحادث العنيف قد وقع عند «شيتم mittihs» بشرق الأردن، وإنما يفترض أن ذلك الحادث إنما وقع قبل اتحاد القبائل الخارجة من مصر، مع ذوي قرباها، في الأرض الواقعة بين مصر وكنعان- وفي قادش، فيما يرى ماير وجرسمان وآخرون- ثم استبدل بعد ذلك موسى المصري في التقاليد، بموسى آخر، هو الذي أسس فيما بعد ديانة «يهوه»، وهو زوج ابنة «يثرون» كاهن مدين، و الذي أطلقوا عليه اسم «موسى» كذلك (1).

ونحن لا نعرف، على أي حال، شخصية موسى الآخر، الذي يحجبه تماما موسى الأول أو المصري، فيما عدا بعض مفاتيح شخصيته التي تقدمها التناقضات التي يمكن العثور عليها في تصوير التوراة لشخصية موسى، ففي الوقت الذي يوصف فيه بأنه قوي حاد المزاج، بل عنيف أحيانا، يقال عنه في مواضع أخرى، إنه كان أكثر الرجال صبورا وتواضعا، و من الواضح أن مثل هذه الصفات الأخيرة، لا يمكن أن تكون ذات فائدة لموسى المصري الذي قام بمثل هذه المشروعات الشاقة العظيمة، و لربما تعزي هذه الصفات إلى موسى الآخر، موسى مدين.

ولعل لنا الحق بعد ذلك، فيما يرى فرويد- أن نفرص بين الشخصيتين احدهما عن الأخرى، و نفترض أن موسى المصري لم يذهب مطلقا إلى

ص: 421

«قادش»، كما أن موسى مدين لم يضع قدمه في مصر، ولم يعرف شيئاً عن «آتون» ولكن من أجل أن يصبح الاثنان واحدا جعلت التقاليد- أو الأساطير- موسى المصري يذهب إلى مدين، وهكذا نرى أن أكثر من تفسير يمكن أن يقدم (1).

و الرأي عندي أن ذلك أمر غير مقبول، وأنه تحمّل للنصوص أكثر مما تحتمل، صحيح أن التوراة تروي أن هناك ثورات عنيفة قامت أثناء فترة التيه في صحراوات سيناء ضد موسى (2)، وأن واحدة من هذه الثورات كانت من اللاويين، رهط موسى الأدين (3)، بل إن أخرى إنما كانت من بيت موسى نفسه، من أخويه هارون و مريم (4)، و صحيح أن واحدة من هذه الثورات إنما قد طالبت علانية بخلع موسى و العودة إلى مصر (5)، و صحيح أن رواية التوراة عن موت موسى و هارون إنما هي جد غامضة، و أنها تجعل خيانتهم للرب- و العياذ بالله- سببا في هذا الموت (6).

كل تلك أمور حدثتنا عنها التوراة، بل و صحيح كذلك أن قتل النبيين عند اليهود أمر مألوف، و صدق عز من قال: أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ (7)، و قد قتلت يهود

ص: 422

1- . p, tic- po, dseL. A 308 . و كذا، . p, tic- po, duerF. S 49- 46.

2- خروج 15: 23- 25، 16: 2- 3، 17: 1- 7.

3- عدد 16: 1- 41.

4- عدد 12: 1- 15.

5- عدد 14: 2- 4.

6- تثنية 32: 48- 53.

7- سورة البقرة: آية 87، وانظر: سورة البقرة: آية 61، 91، سورة آل عمران: آية 112، سورة المائدة 70، و كذا: تفسير الطبري 139/2- 142، 323- 324، 324- 323، 350- 354، 116/7- 118، 477/10 (دار المعارف)، تفسير ابن كثير 1/ 45- 147، 175 179، 148/3، 77- 86، تفسير المنار 1/ 273- 276، 311- 312، 317- 318، 574- 58، 397- 398.

يحيى عليه السلام (1)، كما حاولت نفس الأمر مع المسيح عيسى بن مريم، ولكن الله جلت قدرته نجاه من كيد الفاسقين، وصدق الله العظيم حيث يقول: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (2).

كل ذلك وغيره صحيح، ولكنه صحيح كذلك، أن التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، وهي دون شك مصدرنا الأساسي عن الأنبياء عليهم السلام، لم تقل أن موسى عليه السلام، مات مقتولا، أو حتى لقي ميتة عنيفة، ولم يقدم لنا «سيلين» أو «فرويد» نصا واحدا صريحا من نصوص التوراة، التي زعما أنها تشير إلى ذلك، كما أن الدليل التاريخي على هذا الحدث المؤلم مفقود تماما، و من هنا فالأمر، فيما أو من به واعتقد، مجرد ظن، وإن بعض الظن إثم.

و من ثم فلنا أن نعتبر ما ذهب إليه «سيلين وفرويد» من شطحات

ص: 423

-
- 1- متى 14: 2-11، مرقس 6: 17-28، تاريخ يوسفوس ص 214، فيلب حتى: المرجع السابق ص 420، 422 ثم قارن ابن الأثير 1/ 301-302، تاريخ الطبري 1/ 585-593، تاريخ ابن خلدون 2/ 144، ابن كثير: قصص الأنبياء 2/ 362-366، الثعلبي: قصص الأنبياء ص 340-341، عبد الرازق نوفل: يوحنا المعمدان ص 59-86، كتابنا «دراسات في تاريخ العرب القديم» ص 516-518 (الرياض 1977- أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم 1 من المكتبة التاريخية).
 - 2- سورة النساء: آية 157-158، وانظر: تفسير الطبرسي 6/ 279-284، تفسير الطبري 8/ 376-379، في ظلال القرآن 6/ 19-21، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 3/ 108-109، تفسير النسفي 1/ 376-377، تفسير الكشاف 1/ 584-589، تفسير روح المعاني 4/ 10-12، تفسير أبي السعود 1/ 808-810، تفسير الفخر الرازي 10/ 99-102، تفسير ابن كثير 2/ 399-419، تفسير المنار 6/ 10-20، تفسير القرطبي ص 2005-2006.

الباحثين، أو حتى أساطيرهم، التي لا تعتمد على نص سماوي صريح، أو حتى دليل مادي من التاريخ، و ما أكثرها، بل إننا ما كان لنا لنهتم بها، لولا أنها تتعلق بواحد من المصطفين الأخيار، أنبياء الله الكرام البررة، سيدنا موسى عليه السلام، فنظائرهما في كتب التاريخ كثيرة، خاصة في كتب هذا النوع من الباحثين الذين عرفوا بالجرأة على إصدار أحكام، باسم العلم، و العلم منها برى ء، براءة الذئب من دم ابن يعقوب، كما يقولون، و لكن ما حيلتنا، و هناك الكثير من الشباب الذي لم يدرس تاريخ الأنبياء في مصادرها الأصلية إنما يصدقون ما يقوله هؤلاء الباحثون من المستشرقين و المستغربين، هداانا الله و إياهم إلى سواء السبيل.

[1] مكانة موسى عند المسلمين: -

لا-ريب في أن سيدنا موسى عليه السلام، إنما يحتل مكانة ممتازة عند المسلمين، ذلك لأن كلم الله في القرآن الكريم إنما هو من المرسلين الكبار، أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتين من آي الذكر الحكيم، هما قوله تعالى: **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (1)**، وقوله تعالى: **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (2)**.

ولموسى منزلة كبرى عند الله تعالى: ولتقرأ هذه الآية من سورة طه:

ص: 425

1- سورة الأحزاب: آية 7، وانظر: تفسير القرطبي ص 5208-5209، تفسير النسفي 3/295، زاد المسير لابن الجوزي 6/354، وانظر: تفسير البيضاوي (1/114) حيث يقول: خصهم الله بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع، وقدم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له و تكريماً لشأنه، وقال ابن كثير (مختصر التفسير 3/83) بدأ بالخاتم لشرفه صلى الله عليه وسلم، و بياناً لعظم مكانته، ثم رتبهم حسب وجودهم في الزمان.

2- سورة الشورى: آية 13، وانظر: تفسير ابن كثير 7/182-183، تفسير النسفي 4/102، تفسير القرطبي ص 5829-5830، صفوة التفسير 3/

وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي، وَ لِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي، وَ مَا كَانَ فِي مَقْدَرَةِ لِسَانِ بَشَرٍ أَنْ يَصِفَ خَلْقًا يَصْنَعُ عَلَيَّ عَيْنَ اللَّهِ، إِنَّهَا لَمَنْزِلَةٌ، وَ إِنَّهَا لِكِرَامَةٌ أَنْ يَنَالَ إِنْسَانٌ لِحِظَةً مِنَ الْعَنَاءِ الْإِلَهِيَّةِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَصْنَعُ صِنْعًا عَلَيَّ عَيْنَ اللَّهِ، إِنَّهُ بِسَبَبٍ مِنْ هَذَا أَطَاقَ مُوسَى أَنْ يَتَلَقَى ذَلِكَ الْعَنْصَرَ الْعُلُويَّ الَّذِي تَلَقَاهُ، ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهِ وَ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي أَيَّ خَالِصًا مُسْتَخْلِصًا يَمَحِّضُ لِي وَ لِرِسَالَتِي وَ دَعْوَتِي، لَيْسَ بِكَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَ لَا لِهَذِهِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا أَنْتَ لِلْمَهْمَةِ الَّتِي صَنَعْتَكَ عَلَيَّ عَيْنِي لَهَا، وَ اصْطَنَعْتُكَ لِتُؤَدِّيَهَا، فَمَا لَكَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ، وَ مَا لِأَهْلِكَ مِنْكَ شَيْءٌ، وَ مَا لِأَحَدٍ فَيْكَ شَيْءٌ، فَامْضُ لِمَا صَنَعْتُكَ لَهُ (1)، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ: التَّقَى آدَمُ وَ مُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ الَّذِي أَشَقَّيْتَ النَّاسَ وَ أَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ آدَمُ: وَأَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ، وَ اصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَ أَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَةَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَوَجَدْتَهُ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي، قَالَ: نَعَمْ، فَحَجَّجَ آدَمُ مُوسَى (2).

ثُمَّ إِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ، وَ مِنْ ثَمَّ فَقَدْ اشْتَهَرَ بِأَنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ، يَعْنِي مُوسَى وَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَ سَلَّمَ (3) هَذَا وَ كَانَ مِنْ وَجَاهَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ شَفَعَ فِي أَخِيهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَ سَأَلَهُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ وَزِيرًا، وَ ذَلِكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، وَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، فَأَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ فَقَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَ لِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا

ص: 426

1- في ظلال القرآن 4/ 2335-2336.

2- ابن كثير: مختصر التفسير 2/ 482.

3- نفس المرجع السابق 1/ 226.

شفع أحد شفاعة في الدنيا، أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيا، قال الله تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا، وقال ابن عباس:

نبي هارون ساعته، وحين نبي هارون، عليهما السلام، روى عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراف فسمعت رجلا يقول:

أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قالوا لا ندري، قال أنا والله أدري، قالت فقلت في نفسي في حلفه لا يستثنى، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله (أخرجه ابن أبي حاتم) (1).

وقد نبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكانة موسى عليه السلام في قوله الشريف، الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه وقال: يا محمد إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي، قال ادعوه، فدعوه، قال لم لطمت وجهه، قال يا رسول الله، إني مررت باليهودي فسمعتة يقول:

والذي اصطفى موسى على البشر، قال: وعلى محمد، قال فقلت: وعلى محمد، وأخذتني غضبة فلطمته، فقال صلى الله عليه وسلم: لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور).

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: استب رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمد على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على

ص: 427

1- سورة مريم: آية 53، طه: آية 29-32، القصص: آية 34، وانظر: تفسير النسفي 3/ 51-52، 179، 236، صفوة التفاسير 2/ 233، 375-376، 433-234، مختصر تفسير ابن كثير 2/ 455، 474.

العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترف بذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا بموسى ممسك بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل».

ويقول ابن كثير: والكلام في قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله صلى الله عليه وسلم: لا تفضلوني على الأنبياء، ولا على يونس بن متى»، قيل من باب التواضع، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض، كما أختصه الله تعالى بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولو العزم الأكملون، كما ظهر شرفه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال: سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم».

والذي يؤمن المسلمون بأنه أفضل الرسل إطلاقاً، بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وليس أدل على هذه الأفضلية من أن المسلمين يصلون على إبراهيم وماله وبياركونهم، كما يصلون على نبيهم محمد وآله وبياركونهم، ثم يأتي بعد ذلك، كما يقول ابن كثير في التفسير، موسى بن عمران كليم الرحمن (1).

[2] مكانة موسى في التاريخ اليهودي:-

وأما مكانة موسى، عليه السلام، في التاريخ اليهودي، فهي مكانة لا يسمو إليها واحد من معاصريه، أو من اللاحقين به من بني قومه، ولهذا فهو

ص: 428

1- ابن كثير: مختصر التفسير 1/ 226-227، 2/ 48-50، البداية والنهاية 1/ 283-285، 312-315، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 52-53، صحيح البخاري، صحيح مسلم.

يعدّ حقاً شيخاً للأمة الإسرائيلية، بل هو الذي كان سبباً في وجود اليهود كأمة، صحيح أن القبائل الإسرائيلية كانت تدرك- قبل ظهور موسى- أنها تنتمي إلى أرومة واحدة، ولكنها مع ذلك لم تؤلف شعباً واحداً، حتى حدث الاستعباد المصري، ونجح موسى في أن يوحد بين هذه العشائر التي تراخت أواصر القرى بينها، ويجعلها أمة واحدة، وذلك بفضل نبوته ومعجزته الكبرى، فقد كان موسى يؤمن- الإيمان كل الإيمان- أن معه إلهها أكبر من كل آلهة مصر، معه «يهوه» الذي لا يريد تحرير القبائل العبرية فحسب، بل يريد كذلك أن يكونوا أمة واحدة، وأن شعب موسى لا بد أن يعتقد أن معه قوة فرعون وكل جنده، وقد نجح موسى بفضل عميق إيمانه بدينه الجديد في إقناع اليهود بذلك، رغم كل المتاعب التي وقفت عقبة كئود في طريقه، والتي لم تخفها أسفار التوراة (1).

وهكذا استطاع موسى أن ينشئ من الأسباط الاثني عشر، اتحاداً فيدرالياً منذ أول خطوة من رحلة الخروج، محدداً لكل سبط مهمته و مسؤوليته في المجموعة، وكان لعشيرة موسى- أي سبط اللاويين- الزعامة الدينية والاجتماعية على سائر الأسباط، وكان لهذا المجتمع مجلس تشريعي، يقابل ما يسمى أحياناً «مجلس الشيوخ»، ويتكون من السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى- والذين يرى فيهم فرويد السحرة المصريين الذي آمنوا به- وكان هو نفسه رئيس المجلس، وهذا التنظيم ما يزال يحاكي في المجتمعات اليهودية، ويوكل إليه- كما كان قديماً- أمر تطبيق الشريعة الموسوية وتنفيذها وتفسيرها والإفتاء بمقتضاها في الحالات المشككة (2).

و مع هذا فإن هذا العمل السياسي الضخم الذي بدأه موسى، عليه

ص: 429

1- تيودور روينسون: المرجع السابق ص 105.

2- حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم- الاسكندرية 1971- ص 76-77 وكذا.. A 310، 175، tic-po، sdoL.

السلام، لا يكاد يذكر، إلى جانب دعوته الدينية، و التغيير الاجتماعي الذي سببته هذه الدعوة بين العبرانيين، ذلك لأن موسى لم يؤسس أمة فحسب، وإنما أرسى كذلك قواعد دين، وكان الكلیم كحامل لوعي ديني- على مثال مولانا و سيدنا محمد رسول الله، صلى الله عليه و سلم، بعد ذلك بحوالي ألفي سنة- استطاع أن ينهض بتحويل بعيد المدى في عادات البدو الساميين للقبيلة، التي لو لا ذلك لظلت باقية على ما هي عليه، وقد ثبت عبادة «يهوه» لتكون عبادة شعب، و بهذا أتى إلى حيز الوجود بأمة جديدة، و منذ ذلك الحين، صار «يهوه» إله العبرانيين، الذي أطلق سراح آبائهم من العبودية، و قادهم خلال أخطار البرية، إلى أرض الموعد (1).

و من هنا نرى «جيمس هوسمر» يقرر أن مكانة موسى؛ إنما جاءت من كفاءته التي استطاع بها أن يقود بني إسرائيل و يخرجهم من مصر، ثم من مقدرته على إملاء التوراة، التي كانت قانون هذه الجماعة، بعد إن لم يكن لها قانون، كما كانت القاعدة التي قام عليها بناء الدولة من الناحية السياسية (2).

و هكذا تجمع الآراء على أنه لو لا موسى- عليه السلام- لما كان لبني إسرائيل، أو لعقيدتهم وجود، حتى إنه ليقال في الأساطير اليهودية نفسها، أنه لو لم يوجد موسى، لاضطروا إلى ابتداء شخصيته بخيال، فإن ذكره الحية هي التي تتأممهم إلى وجود (3)، و من ثم نستطيع تفسير وجود الشعب اليهودي، بأرائه و شريعته و فلسفته و دينه (4).

ص: 430

-
- 1- و. ج. دي بوج: تراث العالم القديم، ترجمة زكي سوسن- الجزء الأول، القاهرة 1965 ص 66.
 - 2- أحمد شلبي: اليهودية، القاهرة 1967، ص 146، و كذا، P, sweJ ehT, remsoH smaJ 14.
 - 3- حسين ذو الفقار صبري: المجلة، العدد 151 «يولية 1969 ص 18، و كذا، Y, N sweJ ehT fo yrotsiH A, rahcaS. L. A 17- .16. p, 1945
 - 4- P, tic- po, htoR. C .7 . -4

من عجب أن موسى عليه السلام، رغم أنه أعظم أنبياء بني إسرائيل، وإليه تنسب توراتهم، أو بمعنى أدق، الأسفار الخمسة الأولى منها (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية)، وأنه يحتل مكانة في التاريخ اليهودي، لا يسمو إليها واحد من معاصريه أو اللاحقين به من قومه (1)، ولهذا فهو يعدّ شيخاً للأمة اليهودية، بل إنه هو الذي كان سبباً في وجود اليهودية كأمة، مع ذلك كله، فإنه لم ينج من كيد يهود و تطاولهم عليه، و من ثم فإننا نرى توراة يهود، و ليست توراة موسى عليه السلام، تتهمه، مع أخيه هارون، «بخيانة الرب و لم يقدرسانه و وسط بني إسرائيل»، و من ثم فقد كتب عليه ألا تطأ قدماه الأرض المقدسة أبداً (2)، و حين يتوسل إلى ربه الكريم، أن يجعل من نصيبه عبور الأردن، فإن رب إسرائيل إنما يغضب عليه، و يطلب منه ألا يحدثه في هذا الأمر، لأنه من نصيب فتاة يشوع، دون سواه (3).

و أما هارون عليه السلام، فهو، في توراة يهود، و مرة أخرى نقول

ص: 433

1- تثنية 10/34 - 12.

2- تثنية 32/48 - 52.

3- تثنية 3/25 - 29.

وليست توراة موسى، إنما هو الذي صنع العجل الذهبي، وأغوى به بني إسرائيل، وليس السامري، بعبادته، وذلك حين اتخذ لهم من حليهم عجلا- جسدا في أثناء غياب موسى إلى ميقات ربه ثلاثين ليلة، فلما أتمها له ربه أربعين ليلة، كفرت خراف بني إسرائيل الضالة بموسى وإله موسى، وعادت إلى ما ألفته من عبادة العجول في مصر (1)، والحق أنني لست أدري، كيف نسي من كتب كل ذلك في توراة يهود المتداولة اليوم، أن هارون أخو موسى، و نبي ورسول من الله مع موسى، و نائب لموسى و خليفته في غيابه، و لكنهم بنو إسرائيل دائما مع الفاسد المفسد، و لو كان السامري.

و أما في القرآن الكريم، فإن هارون عليه السلام، إنما هو نبي الله ورسوله، و أن الله تعالى قد أرسله، مع أخيه موسى، إلى فرعون و ملئه (2)، و ليس هو الذي صنع العجل الذهبي، و حاشاه أن يفعل ذلك، و أغوى بني إسرائيل بعبادته، و إنما ذلك هو السامري (3).

و يعلم الله، و تشهد ملائكته، أن موسى و هارون، عليهما السلام، لم يكونا، و لن يكونا، كما صورتها توراة يهود، و إنما كانا رسولين كريمين، بذلا الجهد في تبليغ دعوة ربهما، و أفنيا عمرهما من أجلها، حتى لقا الله تعالى مطمئنين إلى رضاه، و هكذا يرفع القرآن الكريم هذين النبيين الكريمين إلى الدرجة التي يستحقانها من التكريم و الإجلال و المهابة، ثم يطلب من المؤمنين به أن يرتفعوا إلى مستوى دينهم القويم، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بني إسرائيل في حكمهم على موسى، عليه السلام (4)، فيقول

ص: 434

1- خروج 2/32-6.

2- سورة مريم: آية 51-53، طه: آية 25-36، الشعراء: آية 10-16، الصفات: آية 114-122.

3- الأعراف: آية 148-152، طه: 83-98.

4- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 197/3-203، عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 214.

سبحانه و تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (1).

وعلى أية حال، فإن قصة موسى عليه السلام في القرآن إنما تختلف عن قصته في التوراة، طبقاً للهدف من كل منهما، فقصة القرآن، شأنها في ذلك شأن غيرها من قصص الأنبياء والمرسلين، إنما أنزلت للعظة والعبرة، ولبیان الأسوة الحسنة في الجهاد في سبيل الله، فهدفها، كهدف غيرها، ليس التاريخ لها، وإنما عبرة تفرض الإفادة بما حلّ بالسابقين، وأما قصة التوراة، فالغرض منها إنما هو تمجيد بني إسرائيل، و ترديد الحديث عن قصة أرض الميعاد (2)، فضلاً عن إباحتها لهم سرقة المصريين بالغش والخديعة (3)، بل إن مؤلفي التوراة لا يتورعون هنا أن يذكروا في نصوصها، المقدسة زعموا، أن مشروع سرقة المصريين إنما كان قد دبر بليل، وأنه قد نفذ إبان الخروج من مصر، دون أن يحس المصريون، بل وحتى دون أن ينتظر بنو إسرائيل أن يختم عجينهم، وهكذا لم يعترف كتبة التوراة بجريمة قومهم فحسب، وإنما زادوا على ذلك أن جعلوها تتم برضى من موسى عليه السلام وبأمر منه، وحاشا بنبي الله الكريم أن يرضى بذلك، فضلاً عن أن يأمر به، و لكنها توراة اليهود، والحق أن الإساءة إلى أنبياء الله الكرام من بني إسرائيل أمر معروف في التوراة، ونظائره كثيرة.

ص: 435

-
- 1- سورة الأحزاب: آية 69، وانظر: تفسير الطبري 50/22-53، تفسير القرطبي 14/250-252، تفسير الفخر الرازي 25/235، تفسير النسفي 3/315.
 - 2- تكوين 4/17-8، 2/26-4، 11/35-12، 26، خروج 6/3-8، 1/33-3، تثنية 1/7-2، 2/15-26، محمد بيومي مهران: قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة- مجلة الأسطول، العدد 66، 67 الاسكندرية 1971 م.
 - 3- خروج 12/34-36، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/355.

ولعل أهم الاختلافات بين قصة موسى عليه السلام في القرآن، و تلك التي جاءت في التوراة، (أولاً) أن المرأة التي التقطت موسى من اليم وأنقذته من فرعون إنما هي في القرآن امرأة فرعون، بينما هي في التوراة ابنته (1)، ومنها (ثانياً) أنه ليس في القرآن الكريم ما يشير إلى أن امرأة فرعون كانت تعرف أن موسى عليه السلام إنما كان من أبناء العبرانيين، بينما هي في التوراة قد عرفت تلك الحقيقة منذ اللحظة الأولى، بل وقد أعلنت ذلك للملا (2)، ومنها (ثالثاً) أن التوراة إنما تصور المصري الذي قتلته موسى على أنه كان يضرب رجلاً عبرانياً، وأن موسى عند ما رأى ذلك التفث هنا وهناك، وعند ما تأكد أن أحداً لا يراه قتل المصري وطمره في الرمل، وفي اليوم التالي رأى عبريين يتخاصمان، أحدهما صاحبه بالأمس فزجره، فقال له صاحبه العبري: أتفكر في قتلي كما قتلت المصري بالأمس، فلما علم فرعون بالأمر طلب أن يقتل موسى، ولكنه هرب إلى مدين، ولكن القصة في القرآن أن موسى (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَنْجَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)، ولم يكن المجرمون الذين عزم موسى على ألا يظاهرهم ويناصرهم، إلا هؤلاء من بني إسرائيل، وهكذا ندم موسى على أن ظاهر الإسرائيلي على المصري، فكان من نتيجة ذلك أن قتل نفساً حرم الله قتلها، ومن ثم فقد عزم، بعد أن تاب وأناب، ألا يكون ظهيراً للمجرمين، (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ

ص: 436

1- سورة القصص: آية 8-9، خروج 2/5-10.

2- سورة القصص: آية 7-9، خروج 6/2.

يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ، وهكذا فإن القرآن إنما ينفرد من دون التوراة، بأن تدخل موسى إنما كان بناء على استغاثة هذا الذي من شيعته، وعلى أن موسى قتل مصرياً عن غير عمد، وعلى ندم موسى على قتل المصري، وعلى استغفاره لربه، وأن الله تعالى قد غفر له، وعلى عزمه ألا يكون ظهيراً للمجرمين، وعلى أن موسى قد مرّ بمن استصرخه بالأمس، فإذا به يستصرخه مرة أخرى ضد مصري آخر، وعلى أن موسى قد وصف ذلك الإسرائيلي بأنه غوي مبين بسبب ميله إلى المشاكسة والخصام، وعلى أن موسى حين همّ بنصرته على عدوهما المصري قال له: أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ، بينما رواية التوراة تذهب إلى أن أحداً لم يستصرخ موسى، وإنما هو الذي التفت هنا وهناك، وحين تأكد أن أحداً لن يراه قتل المصري وطمره في الرمل، كما أن المخاصمة الثانية كانت، في رواية التوراة، بين رجلين عبرانيين، وليس بين مصري وعبراني وحين أراد موسى أن يفض النزاع الذي نشب بينهما، إذا بصاحبه الذي استصرخه بالأمس يرفض تدخله، ويعلن أنه هو الذي قتل المصري بالأمس، فلما طلبه فرعون للقصاص هرب إلى مدين، ولا تتعرض لشيء آخر، مما جاء في القصة القرآنية (1).

ومنها (رابعا) أن القرآن إنما يحدثنا عن ابنتين لشيخ مدين الذي صاهر موسى عليه السلام، بينما تتحدث التوراة عن سبع بنات، فضلا عن أنها تجعل الرجل كاهنا لمدين (2)، ومنها (خامسا) أن إقامة موسى عليه السلام في

ص: 437

1- سورة القصص: آية 15-19، خروج 11/2-15.

2- سورة القصص: آية 23-26، خروج 16/2.

مدين، إنما هي في القرآن الكريم سنون ثمان، و الأرجح أنها كانت عشرة، فلقد روى عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، أنه قضى أكثر الأجلين و أطيهما»، وفي رواية: «قضى أوفاهما و تزوج صغراهما»، كما أشرنا بالتفصيل من قبل، و هي في التقاليد اليهودية و النصرانية أربعون عاما (1)، و منها (سادسا) أن موسى عليه السلام في القرآن تلقى الدعوة من ربه من جانب الطور الأيمن في الوادي المقدس طوى، بينما كان ذلك في التوراة على جبل الله حوريب (2)، و منها (سابعاً) أن التوراة تذهب إلى أن الفتاة التي تزوج منها موسى إنما كانت تدعى «صفورة» (3)، بينما أغفل القرآن الكريم ذكر اسمها، كما أغفل اسم أبيها، و كما أغفل أسماء النساء عامة، إلا مريم ابنة عمران، أم المسيح عليه السلام، فإنها انفردت بمعنى تذكر به و تشتهر، و تذكر به قدرة الله التي أوجدت عيسى من غير أب، و إلى ذلك يشير القرآن الكريم و جعلناها و ابنها آيةً للعالمين (4).

و منها (ثامناً) أن القرآن الكريم لم يذكر لنا اسم ذلك الشيخ الذي أصهر إليه موسى عليه السلام، بينما لم تستقر التوراة على رأي معين بشأنه، و كذا قبيلته، فهو في سفر الخروج «يثرون» كاهن مديان، و هو في سفر العدد «حوباب بن رعوثيل»، و هو مرة ثالثة في سفر الخروج كذلك «رعوثيل» نفسه، و هو كاهن مديان كذلك، بل إن التوراة لا تستقر على رأي واحد بشأن تلك القبيلة التي صاهرها موسى، فهي مرة قبيلة مديانية، كما رأينا كذلك، و هي مرة أخرى، كما في سفر القضاة، قبيلة قينية، ثم هي مرة ثالثة، في سفر

ص: 438

-
- 1- سورة القصص: آية 27-28، تفسير النسفي 234/3، مختصر تفسير ابن كثير 11/3، خروج 7/7، أعمال الرسل 30/7، قاموس الكتاب المقدس 931/2.
 - 2- سورة طه: آية 12، سورة القصص: آية 29-30، خروج 1/3-2.
 - 3- خروج 21/2.
 - 4- سورة الأنبياء: آية 91.

القضاة أيضا، فينية، على وجه اليقين، كما جاء في قصة «دبورة» قاضية إسرائيل و نبيتها (1)، و منها (تاسعا) أن دعوة موسى في القرآن إنما بدأت بعد أن قضى الأجل الذي بينه وبين صهره شيخ مدين، و بعد أن قرر العودة إلى مصر بأهله، و في الطريق إلى مصر، و عند طور سيناء، و في ليلة مباركة، اختاره الله تعالى رسولا نبيا، و عهد إليه برسالته إلى فرعون، بينما هي في التوراة بدأت، و موسى ما يزال عند صهره كاهن مدين يعمل عنده و يرعى غنمه (2).

و منها (عاشرا) أن من معجزات موسى و آيات نبوته أن يدخل يده في جيبه، فتخرج، كما في القرآن، من غير سوء، أي من غير برص و لا أذى، بينما هي في التوراة تخرج برصاء مثل الثلج (3)، و منها (حادي عشر) أن استعانة موسى بأخيه هارون عليهما السلام في أداء الرسالة و تبليغ الدعوة، إنما سببها في التوراة أن موسى احتج بأنه «ثقل الفم و اللسان»، و أنه لن يستطيع أداء مهمته عند فرعون، فحمى غضب الرب على موسى و قال: أليس هارون اللاوي أخاك، أنا أعلم أنه يتكلم فتكلمه و تضع الكلمات في فمه، و أنا أكون مع فمك و فمه، و أعلمكما ما ذا تصنعان، و هو يكلم الشعب عنك، و هو يكون لك فما و تكون له إلها»، و مرة أخرى يقول موسى لربه: «هو ذا بنو إسرائيل لم يسمعوا لي، فكيف يسمعني فرعون، و أنا أغلق الشفتين»، و لكن الأمر في القرآن غير ذلك، فموسى عليه السلام هو الذي دعا ربه، بعد أن كلفه برسالته ربّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ اشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، فأجابه ربه: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى

ص: 439

1- خروج 16/2-18، 1/3، عدد 29/10، قضاة 16/1، 11/4.

2- سورة طه: آية 9-14، القصص: آية 29-30.

3- سورة طه: آية 22، القصص: آية 32، خروج 6/4-7.

، وفي سورة القصص يقول موسى: وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِيدُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَ مَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (1)، وهكذا يبدو واضحاً أن الله تعالى في التوراة هو الذي يطلب من موسى أن يلجأ إلى أخيه هارون، بينما في القرآن موسى هو الذي يدعو ربه أن يعينه بأخيه هارون في أداء مهمته العظيمة و الخطيرة كذلك، بمعنى آخر أن موسى في القرآن هو الذي سأل النبوة لأخيه هارون، لأنه أفصح منه لساناً، كما أشرنا إلى ذلك من قبل بالتفصيل.

و منها (ثاني عشر) أن عصا موسى، إحدى معجزاته، إنما هي في التوراة، عصا هارون، و ليس موسى، و أن الذي ألقاها أمام فرعون و ملئه، إنما هو هارون، و ليس موسى، و لكن الأمر في القرآن جد مختلف، فالعصا معجزة موسى، و ليس هارون، و أن الذي ألقاها فإذا هي ثعبان مبین، إنما هو موسى و ليس هارون، و أن موسى فعل ذلك أول مرة أمام فرعون و ملئه، ثم مرة ثانية حين اجتمع السحرة لمناظرة موسى يوم الزينة (2)، و منها (ثالث عشر) أن معجزة انغلاق البحر لموسى إنما هي في التوراة بسبب ریح شرقية هبت فأزالت الماء، و ظهرت اليابسة، و حينئذ عبر بنو إسرائيل، و اندفع المصريون وراءهم، فرجع الماء، و أغرق جميع مركبات و فرسان جيش فرعون، و رأى بنو إسرائيل ما صنعه الرب بالمصريين فخافوا فأمنوا بالرب و بعبدته موسى، و أما في القرآن فالمعجزة واضحة، حيث أمر الله تعالى موسى: أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، 2:

ص: 440

-
- 1- سورة طه: آية 25-36، القصص: آية 32-35، خروج 10/4-16، 12/6.
 - 2- سورة الأعراف: آية 104-122، طه: آية 57-70، الشعراء: آية 30-48، خروج 8/7-12:

وَأَرْزَلْنَا نَمَّ الْآخَرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (1).

ومنها (رابع عشر) أن أم موسى في القرآن قد ألقته في اليم بوحى من الله، فضلا عن البشري بأن الله تعالى سيرده إليها، وأنه سيكون من المرسلين، قال تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، بينما نراها في التوراة تخبئه ثلاثة أشهر، وحين خشيت أن يفتضح أمرها صنعت «سفطا من البردي وطلته بالحمرة والزفت ووضعت فيه بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ما ذا يفعل به» (2)، ومنها (خامس عشر) أن القرآن الكريم يقص علينا أن موسى عليه السلام عند ما قص قصته على شيخ مدين هدا من روعه وقال له: لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، ثم عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، في مقابل أن يخدمه سنوات ثمان، فإن أتم عشرا فهذا من عنده، وارتضى موسى ذلك، لكنه لم يقطع على نفسه أطول الأجلين، فأعطى الأمل، وخص نفسه بالخيار، أو ترك لها الخيار، وإن كان قد قضى أطول الأجلين وأتمهما، بينما لم تشر التوراة إلى أكثر من أن موسى ارتضى أن يسكن مع الرجل، وتزوج ابنته صفورة (3).

ومنها (سادس عشر) أن القرآن الكريم إنما يشير إلى أن خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، إنما تم سرا، وبوحى من الله تعالى، قال تعالى:

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ، وأما في التوراة، فالأمر جد مضطرب، فالخروج مرة إنما يتم دون أمر فرعون، و مرة أخرى بموافقتة، بل وفي مرة الثالثة نرى بني إسرائيل وقد أكرهوا على الخروج من

ص: 441

1- سورة الشعراء: آية 63-67، خروج 21/14-31.

2- سورة القصص: آية 7، خروج 2/2-4.

3- سورة القصص: آية 25-28، خروج 21/2.

مصر، و مرة رابعة نرى التوراة تظهر لنا الإسرائيليين، وقد انقسموا على أنفسهم ففريق يرضى بالخروج من مصر، بينما يرفضه آخرون، وإن كانت الغلبة في النهاية للأولين على الآخرين (1).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القرآن الكريم، إنما قد انفرد، من دون التوراة، بعدة أمور في قصة موسى عليه السلام، منها (أولاً) أن القرآن قد انفرد من دون التوراة، بأن إرادة الله، ولا راد لإرادته، قد شئت أن يقع موسى من قلب امرأة فرعون، موقع الحب والحدب والإشفاق، بل إنها لتقول لفرعون قُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا (2)، و تشاء إرادة الله، مرة أخرى، أن يقتنع فرعون بمقالة زوجته، فلا- يقتل الطفل النبي، و منها (ثانياً) أن القرآن قد انفرد من دون التوراة، بالإشارة إلى أن موسى قد عاف المراضع جميعاً، من غير أمه، و هنا تتقدم أخته فتعرض على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة ترضعه و تكفله، و تكون له ناصحة مشفقة، و يقبل آل فرعون عرضها، و يبعثوا في طلب الطئر، و سرعان ما تجيء بأمها، دون أن تشعرهم بأن أمها أمه، و أنه أخوها، و يقبل موسى على ثدي أمه، و يعيش معها فترة حضانتها، قال تعالى: وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (3).

و منها (ثالثاً) أن القرآن الكريم قد انفرد من دون التوراة، بأن القوم حين استقر رأيهم على القصص من موسى جاءه ناصح أمين، ربما كان من

ص: 442

1- سورة الشعراء آية 52، و انظر: طه: آية 77، خروج 1/6، 1/11-2، 29/12-39، 17/13-18، عدد 3/14-4.

2- سورة القصص: آية 9.

3- سورة القصص: آية 12-13.

المتصلين بفرعون، يخبره بالأمر، ويشير عليه بالخروج من مصر، قال تعالى: وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (1)، ومنها (رابعا) أن القرآن قد انفرد، من دون التوراة، بالإشارة إلى ذلك الجدل الذي شق و استطال، ذكّر فيه فرعون موسى عليه السلام بتربيته في القصر الملكي، وكيف أنه عاش بينهم من عمره سنين عددا، وكيف فعل فعلته تلك، يعني قتل موسى لمصري ثم فراره إلى مدين قال أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا، وَلَكِثَّتْ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (2).

ومنها (خامسا) أن القرآن الكريم انفرد من دون التوراة بالإشارات مرات، وفي وضع تام، إلى ألوهية الفرعون المزعومة، والتي كانت موضع جدل شديد بين النبي الكريم و الملك الفرعون، بل هي الصخرة التي تحطمت عليها كل الآمال في أن يؤمن فرعون بموسى و دعوته، و يتخلى عن مزاعمه الكذوب، و يؤمن باللّه رب العالمين، و لعل مما يزيد الأمر أهمية أننا نكاد لا نعرف دعوة من دعوات الأنبياء الكرام البررة، يتعرض صاحبها، كما تعرض موسى، لزعم كذوب ممن أرسل إليه، أنه إله للناس، بل إن الفرعون إنما يهدد النبي الكريم نفسه: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ، ثم يعلن للناس عامة في مصر ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، و عند ما يتقدم له موسى بآية كبرى على نبوته، فما كان منه إلا أن يرفض الدعوة كلها ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى فَحَسْرَةً فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (3)، و من عجب أن التوراة تعكس الأمر، فتجعل موسى إلهًا لفرعون، و هارون نبيا لموسى: «فقال الرب لموسى أنظر: أنا جعلتك إلهًا لفرعون، و هارون

ص: 443

1- سورة القصص: آية 20.

2- سورة الشعراء: آية 18-19.

3- سورة الشعراء: آية 29، سورة القصص: آية 38، سورة النازعات: آية 22-24.

أخوك يكون نبيك، أنت تتكلم بكل ما أمرك، و هارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه» (1)، و لست أدري كيف قبل كتبة التوراة ذلك الكفر الصراح، فكيف يكون موسى، عبد الله ورسوله، إلها لفرعون، ثم كيف يكون هارون نبيا لموسى، و هل تعدّ التوراة بعد هذا كتاب توحيد كما يزعمون، فضلا عن أن تكون من لدن عليّ قدير.

و منها (سادسا) أن القرآن الكريم انفرد، من دون التوراة، بطلب فرعون من هامان أن يوقد له على الطين، فيجعل له صرحا، لعله يطلع إلى إله موسى، يقول سبحانه و تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (2)، و منها (سابعا) أن القرآن الكريم انفرد من دون التوراة، بإيمان السحرة المصريين برب موسى و هارون، كما انفرد كذلك بالإشارة إلى أن فرعون قد فوجئ بإيمان السحرة، فكاد أن يتميز من الغيظ، و من ثم فقد اتهمهم بالتآمر مع موسى، ثم هددهم بأشد العقاب، قال أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ، وَ لَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ، قالوا لا صير إنا إلى ربنا مُنْقَلِبُونَ، إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (3).

و منها (ثامنا) أن القرآن الكريم انفرد من دون التوراة بالإشارة إلى أن الملائكة من قوم فرعون إنما كانوا يحرضونه على القيام بمذبحة جديدة بين بني إسرائيل، يكون موسى أول ضحاياها، بعد أن شاع و ذاع، و ملأ الأسماع،

ص: 444

1- خروج 1/7-2.

2- سورة القصص: آية 38، و انظر: غافر: آية 36-37.

3- سورة الشعراء: آية 49-51، و انظر: الأعراف: آية 123-126، طه: آية 71-75.

نبا المعجزة الباهرة التي قهرت المهرة من السحرة، غير أن قتل موسى إنما كان جد صعب المنال، فهناك معارضة قوية تقف في وجه فرعون و تحول بينه وبين قتل موسى، و لعلنا نستطيع أن نلمس هذه المعارضة فيما حكاه القرآن عن فرعون، حيث يقول: ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، فإن كلمة «ذروني» تفيد أنه كان هناك من يعوقونه أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى، بل إن هناك دليلا من القرآن يفيد ذلك، ذلك لأن فرعون عند ما ضاق ذرعا بموسى و دعوته، و عقد مع الملأ مؤتمرا للفتك به، فوجئ بواحد من هذا الملأ ينهض لمعارضة هذه الفكرة، و يقول: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ، يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا (1)، و هال فرعون ما اسمع فأخذته العزة بالإثم، و نفخ الشيطان في روحه، فقال: ما أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ، و عاد الرجل يعقب على كلام فرعون، و يحذره من غضب الله، ثم يعلن أنه أبرأ ذمته فَسَدَ تَذَكُّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (2).

و منها (عاشرا) أن القرآن قد انفرد من دون التوراة، بإخبارنا أن الفرعون قد أنجى ببدنه، ليكون لمن خلفه آية، قال تعالى: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ، و لم تكن الآية لمن خلفه جيلا أو جيلين، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال و المئات الكثيرة من السنين، بما مكن رب العرش لأهل هذا المصر

ص: 445

1- سورة الأعراف: آية 127-129.

2- سورة غافر: آية 23-44.

من سلطان العلم وأسرار التحنيط، و من ثم فإن الفراعين الذين دارت حولهم روايات خروج بني إسرائيل من مصر، قد اكتشفت جثثهم، و في هذا إعجاز للقرآن، و ما أكثر معجزاته (1).

ومنها (تاسعا) أن القرآن الكريم انفرد، من دون التوراة، بأن الفرعون عند ما أدركه الغرق قال آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ولكنه أخطأ الوقت و من ثم لم يقبل إيمانه، قال تعالى: الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، و قد ناقشنا ذلك بالتفصيل من قبل (2).

ومنها (حادي عشر) أن القرآن انفرد من دون التوراة بالإشارة إلى أن بني إسرائيل ما كادوا يمضون مع موسى بعد خروجهم من البحر و نجاتهم من آل فرعون، بل و غرق فرعون و جنده، حتى رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم، (غير عبادة العجل التي جاءت في التوراة و الإنجيل و القرآن العظيم) فנסوا كل آيات موسى، و قالوا ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى:

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، و «الفاء» في قوله تعالى: فَأَتَوْا تقييد الترتيب و التعقيب، بمعنى أنه لم يمضي وقت بعد خروجهم من البحر و نجاتهم من الهلاك، حتى عادوا إلى الوثنية التي ألفوها في مصر، و ألفوا الذل معها، و يرى الإمام الطبري أن القوم كانوا يعبدون أصناما على صور البقر، و هذا صحيح، كما أشرنا من قبل بالتفصيل، فمن المعروف تاريخيا

ص: 446

-
- 1- سورة يونس: آية 92، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 435-436، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 123.
 - 2- سورة يونس: آية 90-91.

أن مناجم الفيروز كانت تكثر في سيناء، في وادي مغارة و سراية الخادم، حيث أقيم معبد للمعبود المصرية «حاتور»، ربة الفيروز عند القوم، حيث كان عمال المناجم يتعبدون للإلهة الوثنية «حاتور» التي كانت تصور غالبا كبقرة، وفي كثير من الأحيان كانت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين، كما أشرنا من قبل (1).

ص: 447

1- سورة الأعراف: آية 138-139، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/462-469.

الكتاب الأول دراسات تمهيدية الفصل الأول: النبوة والأنبياء 9

1- النبي و النبوة 9

2- الفرق بين النبي و الرسول 13

3- نبوة المرأة 18

4- وظائف الرسل 21

5- وحدة الهدف في دعوات الرسل 26

الكتاب الثاني سيرة يوسف عليه السلام الفصل الأول: يوسف فيما قبل الوزارة 39

1- يوسف و أخوته في كنعان 39

2- يوسف و امرأة العزيز 48

3- يوسف في السجن 56

الفصل الثاني: يوسف عزيز مصر 65

1- يوسف العزيز 65

ص: 449

2- يوسف وإخوته في مصر 74

3- استقرار بني إسرائيل في أرض جوشن 83

4- عصر يوسف عليه السلام 99

الفصل الثالث: قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة 109

1- تمهيد 109

2- قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة 112

الكتاب الثالث سيرة موسى عليه السلام الباب الأول: موسى من المولد إلى المبعث 135

الفصل الأول: بنو إسرائيل في مصر 137

أ- فيما قبل الاضطهاد 137

ب- الاضطهاد- أسبابه و نتائج 140

الفصل الثاني: موسى من المولد إلى المبعث 163

1- موسى في قصر فرعون 163

2- موسى في مدين 174

الفصل الثالث: موسى الرسول النبي 181

1- المبعث 171

2- بني موسى وفرعون 186

3- ألوهية الفرعون المزعومة 213

الباب الثاني: خروج بني إسرائيل من مصر 223

الفصل الأول: الخروج- أسبابه و تاريخه و مكانه 225

1- أسباب الخروج 225

2- تاريخ الخروج 231

3- مكان الخروج و بدايته 237

الفصل الثاني: معجزة انفلاق البحر 241

1- مكان انفلاق البحر 245

2- تاريخ انفلاق البحر 250

3- معجزة انغلاق البحر 252

4- إيمان فرعون عند الغرق 259

الفصل الثالث: فرعون موسى 263

1- الرأي الأول: فرعون موسى هو أحمس الأول 264

2- الرأي الثاني: تحوتمس الثالث هو فرعون موسى 275

3- توت عنخ آمون: هو فرعون موسى 286

4- رعمسيس الثاني: هو فرعون موسى 302

5- مرنبتاح: هو فرعون موسى 308

6- آراء أخرى 329

7- صمت الآثار المصرية عن قصة بني إسرائيل 330

الباب الثالث: موسى و بني إسرائيل منذ انفلاق البحر و حتى موت 333

موسى عليه السلام.

الفصل الأول: بنو إسرائيل في سيناء 335

1- محاولة الردة الأولى و عبادة الأصنام 335

2- التمرد الإسرائيلي بسبب الماء و الطعام 343

3- بنو إسرائيل و العماليق 347

4- الردة و عبادة العجل في سيناء 348

5- طلب بني إسرائيل رؤية الله جهرة 362

الفصل الثاني: بنو إسرائيل في التيه 367

ص: 451

1- ظهور فكرة الوطن عند بني إسرائيل 367

2- الخوف من دخول كنعان 369

4- عودة التمرد ضد موسى 378

5- بنو إسرائيل على تخوم كنعان 380

الباب الرابع: قضايا من سيرة موسى عليه السلام 387

الفصل الأول: موسى بين الأصل الإسرائيلي والمصري 389

الفصل الثاني: الوجود التاريخي لموسى عليه السلام 407

الفصل الثالث: موت موسى عليه السلام 415

الفصل الرابع: مكانة موسى في التاريخ اليهودي 425

1- مكانة موسى عند المسلمين 425

2- مكانة موسى في التاريخ اليهودي 428

الباب الخامس: قصة موسى بين آيات القرآن وروايات التوراة 431

ص: 452

بطاقة تعريف: مهراڻ محمدبيومي

عنوان واسم المؤلف: دراساٲ تاريخية من القرآن الكريم محمدبيومي مهراڻ

تفاصيل المنشور: بيروت : دارالنهضة العربية ، ق 1408 = م. 1988 = 1367.

خصائص المظهر: ج 4

حالة الاستماع: القائمة السابقة

ملحوظة: كتابناه مندرجات : ج 1. بلاد العرب -- ج 2. مصر -- ج 3. في بلاد الشام -- ج 4. في العراق

موضوع: قرآن -- قصه ها

ترتيب الكونجرس: 1367 4د86/BP88

رقم الببليوغرافيا الوطنية: م 81-8979

ص: 1

اشارة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على المبعوث رحمه للعالمين سيدنا محمد وآله تحدثنا في الجزء الأول من هذه الدراسات عن النبوات في بلاد العرب، ومن ثم فقد قدمنا دراسة تاريخية عن أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وكذا عن هود وصالح وشعيب عليهم السلام، هذا إلى جانب دراسة أحداث تاريخية جاء ذكرها في القرآن الكريم، كقصة سيل العرم وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل.

ثم خصصنا الجزء الثاني من هذه السلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» لدراسة تاريخ النبوات في أرض الكنانة، ومن ثم فقد قدمنا دراسة عامة عن النبوة والنبوات، ثم دراسة مفصلة عن تاريخ النبيين الكريمين يوسف وموسى عليهما السلام، فضلا عن تاريخ بني إسرائيل في مصر.

وفي هذا الجزء الثالث من هذه السلسلة نتحدث عن تاريخ النبوات في

بلاد الشام، و من ثم فإن حديثنا في هذا الجزء إنما سيكون عن الأنبياء الكرام: داود و سليمان، ثم أيوب و إلياس و اليسع و زكريا و يحيى، ثم ختمنا هذا الجزء الثالث بسيرة المسيح عيسى بن مريم رسول الله، صلوات الله عليهم أجمعين.

وإني لكبير الأمل في الله تعالى أن يكون في هذه الدراسة بأجزائها الثلاثة بعض النفع، و الله من وراء القصد، و هو الهادي إلى سواء السبيل.

«و ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب».

الإسكندرية في 12 ربيع الأول عام 1408 هـ.

4 نوفمبر عام 1987 م.

ص: 6

إشارة

ص: 9

[1] دخول بني إسرائيل كنعان:

آل أمر بني إسرائيل بعد موت موسى عليه السلام إلى يوشع بن نون خادم موسى و فتاه (1)، و منذ تلك اللحظة بدأ كتابة التوراة يضعوه في مكانة لا تقل عن مكانة موسى نفسه (2)، فكما كلم الزب موسى من قبل، كلم يوشع من بعد (3)؛ و كما أثر موسى بمعجزة انفلاق البحر في مصر، فقد أثر يوشع بمعجزة شق الأردن في كنعان، هذا فضلا عن معجزة أخرى يتعطل فيها مسير الأفلاك بإشارة من يوشع، فإذا الشمس تتوقف عن مغيبها عند «جبعون»، و إذا القمر لا يبزغ في حينه على وادي أيلون (4).

ص: 11

1- خروج: 13/24، عدد: 12/27-23، تثنية: 28/1.

2- يذهب بعض المفسرين إلى أن يوشع قد بعث بعد موسى نبيا (انظر تفسير الطبري: 192/10، تفسير الطبري: 70/6، تفسير ابن كثير: 74/2، تفسير الكشاف: 622/1) و بديهي أن هذا من اجتهادات المفسرين، و لكن الذي يلزمنا هنا هو كلام الله عز و جل، و ليس ما درج المفسرون أن يقدموا فإنما هو اجتهاد، و فوق كل ذي علم عليم، و ليس في كتاب الله نص صريح على نبوة يوشع أو يشوع هذا.

3- يشوع: 1/1-2.

4- خروج: 21/14، يشوع: 3/14-17، 10/12-14، مختصر تفسير ابن كثير: 504/1، محمد بيومي مهران: إسرائيل: 601/2،

610، و كذا، Y. N, ygolohtyM nretsaeN nI, learsI, yarG. J 111. p, 1969,

وقد بدأ يشوع بخطط لغز وكنعان، وبدأ بمدينة أريحا، ومن ثم فقد عبر بنو إسرائيل الأردن في «مقابل أريحا» (1)، وهي المخاضة المعروفة بالمغطس أو الحجلة، على مبعدة ميلين جنوبي كوبري النبي، ويبدو أن العبور كان في الربيع عند ما كان النهر ضحلا كما يفهم من بعض نصوص التوراة، وإن ذهب نص آخر إلى أن «المياه المنحدرة من فوق وقفت، وقامت ندا واحدا، بعيدا جدا عن أدام المدينة» (2)، فسار القوم في الأرض الجافة، وأما مدينة «أدام» هذه فيمكن أن توجد «بتل الدامية»، على مبعدة ميل واحد جنوبي اتصال يبوق بالأردن، وهناك يوجد جرف من الحجر الجيري يكون عند الزلزال شقا في النهر يسده تماما لفترة ما و يمنع تدفق مياه الأردن لمدة تزيد عن عشرين ساعة، الأمر الذي حدث مثل له في عام 1937 م (3).

وأيا ما كان الأمر، فلقد عبر بنو إسرائيل الأردن، وعسكروا في «الجلجال» عند تخم أريحا الشرقي (4)، ثم سرعان ما تقدموا نحو المدينة الحصينة، ذات الأسوار العالية، وطبقا لرواية التوراة، فلقد دار القوم حول أريحا مرة كل يوم، على مدى سبعة أيام، وفي اليوم السابع يدور القوم دورتهم السابعة، ويضرب الكهنة بالأبواق، وتسقط أسوار أريحا، وتحرق المدينة وكل من فيها و ما فيها «من رجل وامرأة و طفل و شيخ، حتى البقر والغنم والحمير»، ما عدا «الذهب والفضة و آنية النحاس فقد جعلوها في خزانة بيت الرب»، وأما «رحاب» الزانية التي خانت قومها ووطنها، وأخفت

ص: 12

1- يشوع: 3/16.

2- يشوع: 3/15-16.

3- 155. J. gnatsraG , auhsaJ , segduJ , ehT fo snoitadnuaf . elbiB . J . nageniF . P , tic . P و كذا yrotsiH , nodnoL , F,

136. p, 1931

4- يشوع: 4/19، 24.

جواسيس يشوع في بيتها و سهلت مهمتهم، فقد كافأها بنو إسرائيل بأن أبقوا عليها، هي و بيت أبيها، كما أسكنوها في وسط إسرائيل، و لم يكتف يشوع بكل ما فعله بأريحا، وإنما هو يصب اللعنات على من يعيد بناء المدينة، و إلا «فبكره يؤسسها، و بصغيره ينصب أبوابها» (1)، هذا و يذهب الكثير من العلماء إلى أن سقوط أريحا لم يكن بسبب ضرب كهنة يهود بأبواقهم، ثم الدوران حول المدينة طيلة أيام سبعة، و إنما بسبب زلازل وقعت في المدينة (2).

و كانت الضربة التالية من نصيب «عاي» التي سقطت عن طريق خدعة يهودية، ثم «ضربوهم حتى لم يبق منهم شارد و لا منقلب» (3) و إن كان البعض يعتبر ذلك مجرد خيال يهودي لأنه لم تكن هناك مدينة وقت ذلك باسم «عاي»، و أن حضائر «مدمام جوديت ماركيت كروز» في موقع عاي، و هي التل الحالية على مبعدة 13 ميلا شمال غرب أريحا، تشير إلى بقايا مدينة من عصر البرونز المبكر قد دمرت تماما حوالي عام 2200 قبل الميلاد، كما أن اسم «عاي» يعني الخراب، و من هنا يرى العلماء أن التفسير المحتمل لرواية التوراة هو الخلط بين عاي و بيت إيل (بيتين) على مبعدة ميل من عاي (4)، و على أية حال، و طبقا لرواية التوراة، فلقد امتد هذا المد الإسرائيلي سعيرا، فأحرق بالنار المدن الكنعانية، و قتل أهلها برمتهم، من رجال و نساء و أطفال، بل و في حمى لا و اعية، انطلق هذا المد مجنوناً، فلم يسلم من يده

ص: 13

1- يشوع: 1/6-27.

2- .P, tiC. pO, nageniF. J 158 . و كذا 1968. R. T 134. p. dlroW tneicnA, revolG.

3- يشوع: 3/7، 8/13-29.

4- , 118. p. 31. R O S A B dna A J A, thgirblA. F. W 158. p. 40, و كذا, (-) esuarK, selluoV seL, ed yA (te- llet-

1944- 1935، 2 slov 1949 teuqraM htiduJ و كذا. P, tiC- pO, nageniF. J 160- 159

عندي أنها لا تعدو القرن ونصف القرن، إذا اعتمدنا على الرأي الذي يرجح الخروج على أيام مرتبناح حوالي عام 1214 ق. م، وقيام ملكية طالوت حوالي عام 1020 ق. م، آخذين في الاعتبار فترة التيه وعهد يشوع بن نون.

وأيما كان الأمر، فلقد كانت القبيلة أو السبط هي أساس النظام الاجتماعي عند بني إسرائيل، وطبقا لرواية التوراة فقد كانت الأرض المفتوحة تقسم على إحدى عشرة قبيلة، بينما وزعت القبيلة الاثني عشر، وهي قبيلة لاوي رهط موسى، على القبائل الأخرى للخدمة الدينية، وهذه القبائل كانت بدورها تقسم إلى عشائر، ولكنها تتجمع حول هيكل مركزي في «شيلوه» الأمر الذي دفع بعض العلماء إلى أن يقارن هذا النظام القبلي العبراني بمجلس «الأمفكتيون» اليوناني (ynoytcihpMA) والذي يقوم على مبدأ مماثل من المركزية الدينية، وكانت سلطة الكاهن الأكبر عظيمة، ولكن من المبالغة أن نزع وجود حكومة «ثيوقراطية» فإن سلطته لم تكن سياسية، وإنما كان يتصدر القوم أثناء الأزمات الأزمت زعماء محليون هم «القضاة» الذين حكموا بني إسرائيل طوال القرن ونصف القرن التاليين لدخولهم فلسطين، وكانت سلطة القضاة عارضة محدودة المدى والمدة، وهي في هذا النظام تذكرنا بسلطة زعماء النظام البدوي الذي تتميز به الحياة السامية في مراحلها الأقدم عهدا (1).

ولم يكن القضاة قضاة بالمعنى المفهوم، ولم يكونوا مشرعين بالمعنى القديم، وإنما كانوا طبقة من الأبطال المحاربين والمنقذين أقامهم الرب «ليخلصوهم من يدها ناهيهم»، ولم يكونوا خلفاء لبعضهم البعض، بل إننا

ص: 16

1- يشوع: 8/1، 8، 10، موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص: 14-141، و كذا regnU. F. M و كذا slearsI emmeatS، flowZ red metsyS saD، htoN. M 60- 39. p، 1930. P، tiC- pO. 1015

لنشهد أكثر من واحد في وقت واحد، ولم يكن في إسرائيل ملوك في تلك الأيام، حتى إذا كانوا من الكهنة، وكان الواحد من هؤلاء القضاة يطلق عليه أحيانا لقب ملك أو قاض (1)، والحق أنك لا تجد واحدا من القضاة استطاع أن يبسط سلطانه على جميع بني إسرائيل، فكل واحد من هؤلاء الحكام والسيوخ كان يتسلم قيادة زمرة واحدة، عند ما تهدد هذه الزمرة تهديدا مباشرا، وهو إذا ما كتب له النصر، لم يحتفظ حتى بقيادة تلك الزمرة (2)، هذا وتفيد روايات التوراة عنهم أنها تختلف بينها بدرجة كبيرة، فبينما يبدو بعضها ذو أهمية تاريخية مثل شعر انتصار «دبورة» أو قصة «أبيمالك»، يبدو بعضها الآخر ذو صفة أسطورية لا أقل ولا أكثر، وأما أبطال هذه القصص فلا يظهرون أبدا كمصلحين دينيين، بل إن «شمعون» لم يكن حتى زعيما، كما أن هذه الروايات مستقلة تماما إحداها عن الأخرى، ولم يعد ممكنا أن نقول بالتأكيد ما هو الترتيب التاريخي للأحداث المسجلة (3) من عصر القضاة، والذين بلغ عددهم خمسة عشر قاضيا، أولهم «عثنيل» و آخرهم صموئيل النبي (4).

و من حوالي منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد، أصبح «عالي» الكاهن قاضيا لإسرائيل في «شيلوه» ولمدة 40 سنة، لم يستطع فيها بنو إسرائيل أن يوقفوا قوة الفلسطينيين (5)، وكان أولى المعارك بينهما في أفيق).

ص: 17

1- نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص: 325.

2- جوستاف لوبون: المرجع السابق ص: 35.

3- .P, tiC- P, sdoL. A 335 .

4- انظر: محمد بيومي مهران إسرائيل: 630/2 - 657.

5- الفلسطينيون هم: «برست» (بلستي) أحد شعوب البحر، وقد اختلف العلماء في مواطنهم الأصلي، فمن قائل أنهم شعب هندي أوريبي أتى من كريت، ولكنه لم ينشأ بها أصلا، ومن قائل إن موطنهم الأصلي كريت، ومن قائل إنهم ساميون، ولكن الإسرائيليون يشيرون إلى أنهم قوم لا يختنون، وهذا يناهض بهم عن الساميين والمصريين، ومن قائل إنهم ينتسبون إلى القومية الإليرية، ومن قائل إنهم يتشابهون مع البلاسجيين وأن لغتهم لهجة لوية، ومن قائل إنهم من آسيا الصغرى من منطقة سيليسيا الغربية، والأكثر احتمالا، المنطقة أعلى وأسفل نهر كالكادانوس في الجزء الشرقي، ومن قائل غير ذلك، ويبدو لي أن الذين يرجعون بهم إلى آسيا الصغرى أقرب الآراء إلى الاحتمال، لأن أغلب شعوب البحر من هذه المنطقة، ولأن الأدلة العلمية في صالح هذا الرأي أكثر من غيره، وقد اشترك الفلسطينيون مع غيرهم من شعوب البحر في غزو الامبراطورية المصرية ومصر نفسها على أيام رعمسيس الثالث، وقد هزموا هزيمة منكرة في معركتين، بحرية وبرية، وقد صورت المناظر المصرية رؤساءهم ملتحين، و جنودهم دون لحي، وبأغطية رأس ذات ريش، وسيوف طويلة عريضة وخناجر و حراب مثلثة و تروس مستديرة و حراب، وقد سمح لهم الفرعون بعد هزيمتهم بالاستقرار في ساحل فلسطين فيما بين يافا و غزة، وكانت أهم مدنها غزة و عسقلان و أشدود و عقرون و جت، وقد نظمت بشكل ممالك أو دويلات مدن، ولكنها كانت تشكل جميعا اتحاد تحت زعامة أشدود، وقد احتفظ التاريخ باسمهم على فلسطين، لا لأنهم أصبحوا غالبية السكان فيها ولأنهم بسطوا نفوذهم عليها جميعا، ولكن ربما لأنهم آخر من نزلها و لكثرة ترديد التوراة لاسمهم بسبب تهديدهم لليهود و غلبتهم عليهم، وقد بلغوا ذروة قوتهم عليهم جميعا، ولكن ربما لأنهم آخر من نزلها و لكثرة ترديد التوراة لاسمهم بسبب تهديدهم لليهود و غلبتهم عليهم، وقد بلغوا ذروة قوتهم في النصف الثاني من القرن الحادي عشر قبل الميلاد (انظر عن التفصيلات و المراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل 587/2 - 596).

يؤيد هذا أن «عالي» الكاهن لم يكن من بيت «العازار» الابن الأكبر لسيدنا هارون عليه السلام، والذي يجب أن تستمر الخلافة في نسله، وإنما كان من بيت الابن الأصغر «إيثمار» ومنها (رابعاً) أن ولدي عالي الكاهن (حفني و فيخاض) لم يكتفيا بطمعهما الجشع، بل كانا يرتكبان أقذر أنواع العبادة الوثنية وسط كروم شيلوه، حتى أنهما، رغم أنهما متزوجين، لم يترددا عن إفساد النسوة اللاتي كن يترددن على المعبد للقيام بالخدمات التي كانت تتطلب عملاً لا يليق بالنساء (1).

ومنها (خامساً) أن هناك نصاً في التوراة يجعل الحكم في إسرائيل ملكياً (2)، ومنها (سادساً) التهديد العموني لحدود إسرائيل الشرقية، و لعل هذا السبب، بجانب التهديد الفلسطيني و تدمير للكثير من مدن إسرائيل، كان السبب المباشر لقيام الملكية الإسرائيلية (3)، وهكذا أدى التهديد الخارجي، و الاضطراب الداخلي إلى أن يضطر شيوخ إسرائيل إلى الاجتماع و المطالبة بتتويج ملك على شعب إسرائيل، و هكذا اختار لهم «صموئيل النبي» ملكاً على إسرائيل هو «شاؤل بن قيس» من سبط بنيامين، و مع ذلك، فإن رواية التوراة إنما تشير إلى أنه تردد كثيراً في إجابة شيوخ إسرائيل إلى ما يطلبون، بل (4) لقد ساء الأمر في عيني صموئيل، و حذر قومه من غضب الرب، إن هو رضي فملك عليهم ملكاً، و لكن احتجاج صموئيل كان عديم الجدوى، إذ أصرّ شيوخ إسرائيل على رأيهم، و مع ذلك فما كان عند صموئيل النية في إقامة ملك مستقل حقيقة، بل كان كل ما يرجوه أن يكون قائداً حربياً وزعيماً

ص: 20

1- صموئيل أول: 22/2-25، ف. ب. ماير: حياة صموئيل النبي - القاهرة 1967 ص 35، 65 (مترجم).

2- تثنية 17/14-15.

3- انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 661-667.

4- تثنية 17/14-15.

وسندا لكل الشعب يخلصهم من سيطرة الفلسطينيين ثم بعد ذلك يخضع لصموئيل طوال حياته (1).

على أن الاتجاه القرآني، كما بين ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد، يذهب إلى أن الملائكة من بني إسرائيل قد طلبوا من نبيهم أن يختار لهم ملكا يقاتلون معه عدوهم، فحذروهم نبيهم من أن السوابق التاريخية تقيدهم ليس لهم صبر على القتال، ولا شجاعة يقفون بها أمام أعدائهم، ومع ذلك فقد أعلمهم أن الله تعالى قد اختار لهم طالوت ملكا.

هذا وقد وصف طالوت في التوراة بأنه «شاب حسن، ولم يكن في بني إسرائيل أحسن منه، من كتفه فما فوقه، كان أطول من كل الشعب»، وفي الواقع فإن اختيار شخص بالذات ليكون ملكا على إسرائيل، ليس أمرا سهلا، لأن اختياره من إحدى القبائل القوية فيه ما فيه من مساس بقدر القبائل الأخرى، وقد يثير حربا أهلية، كما أن المعارك الأخيرة بين بني إسرائيل والفلسطينيين قد حطمت من قوة «أفرايم» وهي التي كانت سيادتها على القبائل الأخرى حتى ذلك الوقت أمرا لا نزاع عليه، ومن ثم فإن اختيار طالوت «شاؤل في التوراة» كان موقفا، فبالإضافة إلى مميزاته الجسمانية، وكذا العلمية كما جاء في القرآن الكريم، فقد كان من سبط «بنيامين» أضعف الأسباط الإسرائيلية، الأمر الذي كان لا يسبب له حقدا من الأسباط الأخرى، هذا إلى أن خيامه إنما كانت تقع بين أفرايم ويهوذا، أي أنها تقع في مكان وسط إلى حد ما بين القبائل الشمالية والجنوبية (2).

ص: 21

1- صموئيل أول: 1/8 - 22، حسن ظاظا: الفكر الدين الإسرائيلي ص 40، و كذا. P, tiC. pO, llaH. R. H. 292 و كذا. P, tiC. pO, sdoL. 395

2- صموئيل أول: 1/9 - 2، محمد بيومي مهران: إسرائيل 668-674 و كذا 1967. p, 179. W 179. p, 1967. yrotsiH saelbiB eTT, elleK.

و من عجب أن يزعم الحاخام «أبشتين» أن اختيار شاول (طالبوت) ملكا على إسرائيل إنما يعتبر أول ملك دستوري في التاريخ، لأنه تم برضى عام من بني إسرائيل (1)، و الحق أن الأحداث التاريخية لا تتفق و مزاعم «أبشتين»، فالنبي صموئيل و ليس بنو إسرائيل، هو الذي اختار شاول ملكا، اعتمادا على سلطته الدينية، حيث فرضه عليهم كممثل معتمد لرب إسرائيل هذا إلى أن القوم لم يقبلوه جميعا، فلقد رفضه «بنو بليعال» الذين ازدروه وقالوا: كيف يخلصنا هذا فاحتقروه، و لم يقدموا له هدية فكان كأصم، «على حد تعبير التوراة» (2)، و كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم (3)، كما أن اختياره كان تجنباً لحرب أهلية يمكن أن تنشب، لو وقع الاختيار على واحد من أبناء القبائل القوية دون الأخرى، و من هنا كان اختياره من أضعف أسباط بني إسرائيل.

و أما أنه كان أول ملك دستوري في التاريخ، فيكذبه، أننا حتى لو صدقنا ذلك، فإن شاول قد اختير ملكا قبيل بداية الألف الأولى قبل الميلاد بأعوام قلائل، بينما نعرف أن هناك ما يدل على تواجد التفكير الديمقراطي منذ الألف الثالثة قبل الميلاد في العراق القديم، و أن انتخاب الحاكم الذي كان يرأس حكومة المدينة إنما كان يتم بناء على قرارات الجمعية العمومية، و التي تتكون من جميع المواطنين، و ربما بما فيهم النساء كذلك (4)، هذا فضلا عن أن مصر الفرعونية قد عرفت منذ النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد، إنما لها من الديمقراطية و من العدالة الاجتماعية على أيام الثورة الاجتماعية الأولى، حتى أصبح الملك يوصف بأنه ليس أكثر من «ابن امرأة

ص: 22

1- .msiaduJ nietspE. I 35. p، 1970 ،. -1

2- صموئيل أول 10 / 11 - 27.

3- سورة البقرة آية 247.

4- .II ,SENJ ,simatoposeM tneicnA ni ycarcomeD evitimirP ,nosilocaJ .T 165. p، 1943 ،. -4

من تاتسي، طفل من نحن» مرة، وبأنه «ابن الإنسان» مرة أخرى، لإقناع القوم بأن حاكمهم ليس من بيوت الإمارة و الملك، وإنما هو من الشعب و ربيب الشعب و صديق الشعب، ثم هو قبل ذلك و بعده، رجل يخدم مصالح الدولة و يعرى شئونها، و يعمل على وحدتها، و يمتلى قلبه بحب رعاياه، و الرغبة في العمل من أجل مصالحهم (1)، و هكذا يبدو واضحاً أن ما ادعاه الحاخام «أبشتين» من تمجيد لقومه اليهود، إنما كان ادعاء عربضاً إلى حد كبير.

هذا و قد اختلف المؤرخون في فترة حكم طالوت (شاؤل) فهناك من يرى أنها في الفترة (1030-1004 ق. م.) و من يرى أنها في الفترة (1025-1013 ق. م.) و من يرى أنها في الفترة (1020-1004 ق. م.)

و من يرى أنها في الفترة (1020-1000 ق. م.) و من يرى أنها في الفترة (1000-985 ق. م.) (2) و أما قصة طالوت في القرآن الكريم فقد جاءت في سورة البقرة، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا، قَالُوا وَ مَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَ أَبْنَانِنَا، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتْ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ

ص: 23

-
- 1- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية ص: 200-210، أحمد بدوي: في موكب الشمس: 120/2، و كذا، nosliW. A. J و كذا. 1960. p، TENA, 415. pO renidraG. A 120. P,- tic. pO 116- 115,
 - 2- محمد بيومي مهران: إسرائيل: 673/2-674، و كذا. 181. W thgirbla. W fo ygoloeahcrA ehT, relleK. W p, tic- pO, كذا، 1959. p، 415. p lacirotsiH ehT FsaltA Y. N, dnaL yloH I 35. P, tic. pO, nietspE. I 120. P, enitelA و كذا. Ptic. pO, dlefssiE. O 575 و كذا.

اصْطَفَاهُ عَلَيْنَكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (1).

وقد اختلف المفسرون في نبي إسرائيل الذي طلبوا منه أن يعث لهم ملكا، فروي عن قتادة أنه يوشع بن نون، قال ابن كثير في تفسيره: هو بعيد لأن هذا كان بعد موسى بزمن طويل، و كان ذلك في زمن داود عليه السلام، وقد كان بين داود و موسى ما يزيد على ألف سنة، وقول ابن كثير صحيح، لكنه بالغ كثيرا في تقديره الفترة بين موسى و داود، و هي التي يحددها الباحثون المحدثون ما بين أربعة قرون و قرن و نصف، وقد رجحنا من قبل أنها تقارب القرنين من الزمان، و قال السدي إنه شمعون، و قال مجاهد و غيره إنه شمويل (2) (صموئيل) و هو الأرجح، هذا و قد ذهب بعض المفسرين إلى أن سبب تنصيب ملك على بني إسرائيل أن جالوت رأس العمالقة و ملكهم، و هو جبار من أولاد عمليق، أو ملك الكنعانيين على رأي آخر، و كان قومه يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر و فلسطين، قد ظهروا على بني إسرائيل و سبوا أولادهم و أسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة و أربعين نفسا، و ضربوا عليهم الجزية و أخذوا توراتهم، فلما كتب على بني إسرائيل القتال تولوا،

ص: 24

-
- 1- سورة البقرة آية: 246-248، و انظر تفسير الطبري: 5/291-328، تفسير النسفي: 1/124-125، تفسير روح المعاني: 2/166-168، تفسير الكشاف: 1/378-379، تفسير الفخر الرازي: 6/181-193، تفسير القرطبي ص: 1051-1058، تفسير الطبرسي: 3/275-284، تفسير القاسمي: 2/641-674، في ظلال القرآن: 2/266-269، تفسير المنار: 2/372-373، تفسير ابن كثير: 1/449-452 (دار الكتب العلمية- بيروت 1986) تفسير الجلالين ص: 43-44، صفوة التفاسير: 1/156-158.
- 2- تفسير ابن كثير: 1/449 (ط 1986)، تفسير البحر المحيط: 1/370، تفسير النسفي: 1/124.

إلا ثلاثمائة و ثلاثة عشر، بعدد أهل بدر، وقد رفض بنو إسرائيل طالوت ملكا لأنه من سبط بنيامين، و النبوة كانت عندهم في سبط لاوي، و الملكية في سبط يهوذا، و لكن اختياره إنما كان بسبب علمه ليتمكن من معرفة أمور السياسة، و جسامته بدنه ليعظم خطره في القلوب، و يقدر على مقاومة الأعداء و مكابدة الحرب (1).

و أما آية ملكه أن يأتيهم التابوت فيه سكينه من ربهم و بقية مما ترك آل موسى و آل هارون، قال النسفي: هي رضاض الألواح و عصا موسى و ثيابه و شيء من التوراة و نعلا موسى و شمامة هارون عليهما السلام، تحمله الملائكة قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء و الأرض حتى وضعته بين يدي طالوت و الناس ينظرون، و قال السدي:

أصبح التابوت في دار طالوت فأمنوا بنبوة شمعون و أطاعوا طالوت، و قال عبد الرزاق عن بعض أشياخه: جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة، و قيل على بقرتين، و ذكر غيره أن التابوت كان بأريحا، و كان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير، فأصبح التابوت على رأس الصنم فأنزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك فسمروه تحته، فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيدا، فعلموا أن هذا أمر من الله

ص: 25

1- تفسير البحر المحيط: 371 / 1 - 372، و نلاحظ على هذا الرأي عدة أمور، منها (أولاً) أن جالوت هو ملك الفلسطينيين، و ليس العماليق أو الكنعانيين، و منها ثانيا أن بحر الروم هو البحر الأبيض المتوسط لم يكن يسمى في تلك الفترة «بحر الروم» بل إن الروم حتى ذلك الوقت لم يكونوا قد ظهوروا في العالم كقوة لها كيان يسمى باسمها البحر المتوسط، و على أي حال، فقد كان المصريون يسمون البحر المتوسط باسم «الأخضر العظيم» (وأج- ور: و في الدولة الوسطى سموه «واج ور إن حاونبو» و في الدولة الحديثة «بايم خاروه»، و منها ثالثا أن الكهانة، و ليس النبوة، هي التي كانت في سبط لاوي فقط، بل أن صموئيل النبي الذي اختار طالوت ملكا من سبط أفرايم، كما أن الملك لم يكن بعد في يهوذا، فالقضاة لم يكونوا جميعا من يهوذا إن أول ملك لإسرائيل كان من سبط بنيامين و هو طالوت.

لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم، فوضعوه في بعض القرى، فأصاب أهلها داء في رقابهم، فأمرتهم جارية من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين فسارتا به، لا يقر به أحد إلا مات، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل، فكسرتا النيرين ورجعتا، وجاء بنو إسرائيل فأخذوه، فقيل إنه تسلمه داود عليه السلام وأنه لما قام إليهما حجل من فرحه بذلك، وقيل شابان منهم فالله أعلم، وقيل كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها «أذدوه» (1).

[4] حروب طالوت و ظهور داود:

بدأ طالوت يعد العدة لقتال أعدائه الفلسطينيين الذين كانوا يسيطرون على البلاد، منذ انتصارهم في معركة أفيق، واستيلائهم على التابوت (2)، وتجريدتهم من السلاح، فضلا عن إقامة القلاع في أماكن مختلفة من البلاد

ص: 26

1- تفسير ابن كثير: 1/ 451 (ط 1986).

2- التابوت: وتطلق عليه التوراة تابوت العهد أو تابوت الشهادة أو التابوت المقدس أو تابوت إله إسرائيل أو تابوت يهوه، وهو عبارة عن صندوق صنعه موسى بأمر ربه من خشب السنط، طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، ومغشى بذهب نقي من الداخل والخارج، وعليه إكليل من ذهب وأربع حلقات ذهبية، وله عصوان من السنط مغشيان بالذهب لحمل التابوت، وكانت مسئولية حراسته لبني فهات من اللاويين رهط موسى، ويذهب البعض إلى أن فكرة التابوت مستعارة من المصريين، بينما يرى آخرون أنها مستعارة من الكنعانيين، وعلى أية حال، فلقد كان للتابوت مكانة ممتازة عند بني إسرائيل، وطبقا للتقاليد الإسرائيلية فقد كانوا يحملونه معهم أثناء المعارك الحربية، حتى عصر داود، على الأقل، وكان يستقبل بالتهليل والتكبير ليتحقق النصر، ويقع الذعر في قلوب الأعداء الذين كانوا يخافون منه ويقولون «جاء الله إلى المحلّة»، وفي أوقات الهدنة كان التابوت يودع في أحد أماكن العبادة أو في خيمة، في بيت إيل وشيلوه وبيت شمس ويعاريم وأورشليم، وطبقا لوجهة نظر سفر التثنية، فإن قدسية التابوت كانت في كونه يحمل ألواح الشريعة، ومن ثم سمي «تابوت العهد أو تابوت الشريعة أو الشهادة»، وطبقا لرواية التوراة فهو عرش يهوه، وكان التابوت على رأس الإسرائيليين عند ما دخلوا كنعان بقيادة يوشع بن نون، وأنهم حملوه عند ما عبروا الأردن، فانشق تيار النهر فوق المياه المنحدرة، وعبر الشعب على اليابسة، ثم بقي مدة في خيمة في الجبلجال ثم في شيلوه، حيث بقي فيها أكثر من ثلاثة قرون، ثم وقع في أيدي الفلسطينيين في موقعة أفيق، وعند ما أعاده الفلسطينيون لهم بقي في قرية يعاريم، ثم نقل منها على أيام داود إلى القدس، ثم وضع في هيكل سليمان بعد بنائه حتى أزاله «منسى» ووضع بدله تمثالا، ثم أعاده «يوشيا» وبقي حتى مرحلة السبي البابلي عام 586 ق.م، ثم اختفى، ولا يعلم أحد هل أخذه البابليون أم أن اليهود أخفوه في مكان ما ثم ضاع، وهناك تقاليد أثيوبية تذهب إلى أنه نقل إلى أكسوم في أثيوبيا، وليس هناك دليل على صحة تلك التقاليد (انظر عن التفصيلات والمراجع، محمد بيومي مهران إسرائيل: 124/4 - 133).

للسيطرة عليها تماما، والتي كان من أهمها تلك التي عند «بيت شان» (بيسان) للسيطرة على الطريق الموصل بين نهر الأردن و وادي يزرعيل، والتي عند «مخماس» و «جبعة» بين جبل أفرام و أورشليم، والتي في جنوب القدس عند «بيت لحم» هذا فضلا عن تعيين موظفين فلسطينيين لجمع الضرائب المفروضة على شعب بني إسرائيل المهزوم، كما كانوا يراقبونهم من مراكز المراقبة الثابتة (1)، و على أية حال، فلقد بدأ طالوت في أعداد العدة، فجهز جيشا كثيفا، بالغ المفسرون و المؤرخون في تقدير اعداده حتى وصلوا به إلى ثمانين ألفا (2)، غير أن طالوت إنما أجرى لهم اختبارا، كان من نتيجته أن ترك الجيش و تقاعس عن القتال جميع رجال إسرائيل، إلا أقل القليل ممن عصم الله، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ

ص: 27

1- . P, tic-P, llaH. R. H 423 .

2- تذهب رواية التوراة إلى أن هذا الحدث كان مع جدعون أحد قضاة إسرائيل، و ليس مع طالوت، و أن عدد جنوده كانوا اثنين و ثلاثين ألفا، بقي منهم على العهد ثلاثمائة، و أن الحرب كانت ضد المدينين، و ليس الفلسطينيين، و أن المدينين كانوا قد أذاقوا الإسرائيليين العذاب ألوانا، حتى اضطروهم إلى ترك قراهم و منهم إلى الكهوف و المغاور و الحصون، و مع ذلك فإن جدعون استطاع بمئاته، الثلاث أن يقتل من أعدائه في الجولة الأولى 120 ألف، و في الجولة الثانية 15 ألف، و بدهي أن هذا من تحريفات التوراة (انظر محمد بيومي مهران: إسرائيل: 635 /2 -640، قضاة: 7 /6 -21 /8).

يَطْعَمُهُ فَإِنَّهُ مِنِّي، إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (1).

وقال ابن عباس: من اغترف بيده روى، و من شرب منه لم يرو، وقال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرّب منه ستة و سبعون ألفاً، و تبقى معه (أي طالوت) أربعة آلاف، على أن هناك روايات أخرى تذهب إلى أن من بقي على العهد مع طالوت ثلاثمائة و بضعة عشر نفراً، قيل ثلاثمائة و تسعة عشر، أو ثلاثمائة و ثلاثة عشر، عدة أهل بدر، روى البراء بن عازب: كنا نتحدث أن أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم الذين كانوا معه يوم بدر ثلاثمائة و بضعة عشر، عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، و ما جاوزه معه إلا مؤمن، و أما النهر ففي رواية عن ابن عباس أنه نهر بين الأردن و فلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور (2).

و على أية حال فلقد دارت رحى الحرب بين بني إسرائيل و الفلسطينيين، و كادت الهزيمة تحقيق بالأولين، لو لا نصر الله و شجاعة داود عليه السلام الذي قتل جالوت قائد الفلسطينيين، و طبقاً لرواية التوراة فلقد كان جالوت (جليات) يخرج إلى الميدان صباح مساء طيلة أربعين يوماً دون أن يجرؤ واحد من بني إسرائيل على منازلته، حتى اضطر طالوت أن ينادي بين قومه «إن من يقتل هذا الرجل يغنيه الملك غنى جزيلاً، و يعطيه بنته

ص: 28

1- سورة البقرة آية: 249.

2- تفسير الكشاف: 1/ 294 - 296، تفسير الطبري: 5/ 246 - 248، تاريخ الطبري: 1/ 467 - 472، تفسير القرطبي ص: 1062 - 1063، تفسير المنار: 2/ 382 - 389، تفسير النسفي: 1/ 125 - 126، تفسير ابن كثير: 1/ 452 (بيروت 1986)، صحيح البخاري: 8/ 228، مسند الإمام أحمد: 4/ 290، تاريخ ابن الأثير: 1/ 123.

و يجعل بيت أبيه حرا في إسرائيل» و من ثم فقد خرج له داود بن يسي، و هو ما يزال بعد غلاما، و يتغلب على جالوت «فتمكن داود من الفلسطينيين بالمقلاع و الحجر، و ضرب الفلسطيني و قتله و لم يكن سيف بيد داود» (1)، و يشير القرآن الكريم إلى هذا الحادث في قوله تعالى: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وَ ثَبَّتْ أقدامنا وَ انصُرنا على القوم الكافرين، فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جَالُوتَ وَ آتاهُ اللَّهُ المُلْكَ وَ الحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَ لَوْ لا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَ لَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العالَمِينَ (2).

و هكذا استطاع داود عليه السلام بمقلاعه، و هو ما يزال بعد غلاما، أن يقتل بطل الفلسطينيين جالوت (3)، و أن يكون سببا في انتصار قومه على الفلسطينيين).

ص: 29

- 1- صموئيل أول: 1/17-54، محمد بيومي مهران إسرائيل: 2/680-687، ثم قارن: 2/635-640.
- 2- سورة البقرة آية: 250-251، و انظر تفسير الطبري: 5/354-376، تفسير الطبرسي: 2/289-292، تفسير الكشاف: 1/296-297، تفسير روح المعاني: 2/172-174، الجواهر في تفسير القرآن الكريم: 1/229-230، محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف: 2/382-383، تفسير المنار: 2/389-394، تفسير القرطبي ص: 1064-1069، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: 1/318-319، تفسير النسفي: 1/125-126، تفسير ابن كثير: 1/452-454، هذا و روى في تفسير قوله تعالى «وَلَوْ لا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ» أخرج ابن جرير عن ابن عمر قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» و أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت مرفوعا قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم ترزقون، و بهم تمطرون، و بهم تنصرون»، قال قتادة: إني لأرجو أن يكون الحسن منهم (تفسير ابن كثير: 1/453-454).
- 3- يروي تاريخ النبوة الشريف حادثا يشبه ذلك، فبينما كان المسلمون محاصرين في غزوة الأحزاب (5هـ - 1627 م) و قد و جاءتهم جنود من فوقهم و من أسفلهم، حتى زاغت الأبصار، و بلغت القلوب الخناجر، و ظن الناس بالله الظنون، و زلزل المؤمنون زلزالا شديدا، و بدأ فريق من المنافقين يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في العودة إلى بيوتهم لأنها عورة، و ما هي بعورة، و لكنهم يريدون الفرار من المعركة، في هذا الجو المليء بالخوف و الفزع، اقتحم عمرو بن ود، و كان أشجع قريش، و يحسب نفسه كفوا لألف رجل، اقتحم الخندق بجواده مع مجموعة من فرسان قريش، فركز رمحه في للأرض، و أخذ يصول و يجول، و يطلب المبارزة، فما برز له أحد، فقد كان مقاتلا غادرا فاتكا و بطلا مغوارا، لم يبارز أحد إلا صرعه، و هكذا أخذ ينادي من يبارز، فلا يتقدم أحد غير الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قائلا: أنا لها يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجلس إنه عمرو، ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز، ثم جعل يؤنبهم فيقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون إليّ رجلا، فقام علي فقال: أنا يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنه عمر، ثم نادى الثالثة فقام على كرم الله وجهه في الجنة، فقال يا رسول الله أنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنه عمرو، فقال علي: و إن كان عمرا، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم و قال له: أدن مني فعممه صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة، و قال: اللهم احفظه من بين يديه و من خلفه، و عن يمينه و عن شماله، ثم رفع صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه و قال: «اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أحد، و عبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم عليا، رب لا تذرني فردا و أنت خير الوارثين»، و برز الإمام علي لعمر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الآن برز الإيمان كله للشرك كله»، فقال عمرو لعلي: من أنت، قال علي بن أبي طالب، فقال عمرو، و قد أعرض عن الإمام علي استخفافا به، إن أباك كان صديقي و نديمي، و إني و الله ما أحب أن أقتلك، فقال الإمام: لكنني و الله ما أكره أن أقتلك، ثم قال يا عمرو: قد كنت تعاهد الله لقريش، ألا يدعوك رجل إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها، قال أجل، قال: فإني أدعوك إلى الله عز

و جل و إلى رسوله و الإسلام فتشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمدا رسول الله، فقال عمرو: لا حاجة لي في ذلك، هات الثانية، قال الإمام: فترجع إلى بلادك، فإن يك محمدا صادقا كنت أسعد الناس به، و إن يك كاذبا كان الذي تريد، قال عمرو: إذن تتحدث عني نساء قريش أنني جنت و خنت قوما رأسوني عليهم، هات الثالثة، قال الإمام: الحرب، قال عمرو: هذه خصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يرؤ عني بها، فقال الإمام: كيف أقاتلك و أنت فارس، و أنا راجل، فاقتحم عن فرسه و عقره و سل سيفه كأنه شعلة نار، ثم اندفع نحو الإمام علي مغضبا، و استقبله عليّ برقبته فضربه في الدرقة فشققها و أثبت فيها السيف، و ضربه الإمام علي كرم الله وجهه في الجنة، على جبل العاتق فسقط عمرو، و ثار العجاج و بانت سواة عمرو، و سمع سيدنا و مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم التكبير، فعرف أن عليا قتل عمرا، و أقبل الإمام علي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه و سلم و وجهه يتهلل، فعانقه النبي صلى الله عليه و سلم و دعا له، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعلني: هلا سلبته درعه، فإن ليس في العرب درع خير منها، فقال الإمام علي: إني حين ضربته استقبلني بسواته و استحييت ابن عمي أن استلبه، على أن رواية أخرى تذهب إلى أن الإمام علي ضرب عمرا على ساقيه فقطعهما جميعا، فسقط على الأرض فأخذ علي بلحيته فذبحه و أخذ رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فألقاها بين يديه، فقام أبو بكر و عمر فقبلا رأس علي، و روى أن النبي صلى الله عليه و سلم قال في قتل علي لعمر: لضربة علي يوم الخندق أفضل من عمل الثقلين، و روى أن حذيفة بن اليمان قال: لو قسمت فضيلة علي بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لو سعتهم، و قال ابن عباس في قوله تعالى: وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ، و قال: بعلي بن أبي طالب (سورة الأحزاب آية: 9-27، تفسير القرطبي ص: 5210-5244، ابن كثير: السيرة النبوية 2/202-207، ابن هشام: سيرة النبي ص: 224-226، تاريخ الطبري: 2/573-574، الواقي: المغازي: 2/470-472، البلاذري: أنساب الأشراف: 1/345، ابن سعد: الطبقات الكبرى: 2/49، السهيلي الروض الأنف: 6/316-320، عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ص: 212-213، السيرة النبوية للندوي ص: 287-288).

و من ثم فقد أخذ يملأ أعين الناس و آذانهم و قلوبهم، ثم يصبح ذا مكانة عالية بين قومه الإسرائيليين، مما أثار عليه حقد طالوت و أخذ يسعى إلى قتله، بينما هو في مسيس الحاجة إليه و إلى أمثاله من الرجال الشجعان، و لم تشفع له صداقته لولده ناثان و إصهاره للملك، و على أي حال، فما أن يمضي حين من الدهر، حتى يقتل طالوت و أولاده الثلاثة في معركة جبل جلبوع (حوالي عام 1000 ق. م) (1) و يصبح داود عليه السلام ملكا على بني إسرائيل.

و أما متى كانت سنوات حكم داود، فذلك موضع خلاف بين المؤرخين، فهناك من يرى أنها كانت في الفترة (1010-955 ق. م) و من يرى أنها في الفترة (1004-962 ق. م) و من يرى أنها في الفترة (985-963 ق. م) و من يرى أنها في الفترة (1012-972 ق. م) و من يرى أنها في الفترة (1000-960 ق. م) و هذا ما نميل إليه و نأخذ به (2).

ص: 31

-
- 1- صموئيل أول: 25-3 / 28، 12-7 / 31، جيمس فريزر المرجع السابق ص: 43-51، محمد بيومي مهران إسرائيل: 687 / 2-689، و كذا. P, tic- P, llaH. R. H 359. و كذا. P, tic-. pO, htoN. M 178- 177.
- 2- فيليب حتى: المرجع السابق ص 303. Y. N, dnaL yloH ehT fo saltA, lacilbiB ehT, thgirblA. F. W. و كذا، Y. N, arzE omaharbA morF doireP. 81. p. 1959 و كذا، lacirotsiH 81. p. 1966 و كذا، qarI tneicnA, xuaR. G 454. p. 1970 و كذا، msiaJ, nitspE. I 35. p. 1963، 120- 122 و كذا

لمع اسم داود عليه السلام، كما رأينا من قبل، و سطع نجمه، و تعلق الشعب به و التفوا حوله، و تنادوا بزعامته، و أصبح ملء أسماع الناس و أبصارهم، و هم عن طالوت منصرفون، و ما أن يمضي حين من الدهر حتى يقتل طالوت و ولداه و يصبح داود ملكا على بني إسرائيل (1)، ثم تمضي فترة لا ندري مداها على وجه اليقين، يختار الله تعالى بعدها عبده داود رسولا نبيا (2)،

ص: 33

1- تروي التوراة أن داود كان ابن ثلاثين سنة حين ملك، و ملك أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين و ستة أشهر، و في أورشليم ثلاثا و ثلاثين سنة على جميع إسرائيل و يهوذا (صموئيل ثان: 4/5 - 5).

2- هناك فروق بين النبوة و الملك، منها أن النبوة لا تكون بالإرث، فولد النبي لا يكون نبيا بطريق الإرث عن أبيه، بل هي بمحض الفضل الإلهي و الاصطفاء الرباني، و منها أن النبوة لا تعطي لكافر أبدا، و إنما تعطي لمؤمن فحسب، بخلاف الملك فقد يعطي لغير المؤمن، و منها أن النبوة خاصة بالرجال، و لا تكون للنساء، لقوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ و إن كان ابن خزم يرى أن هذه الآية الكريمة خاصة بالرسول دون الأنبياء، و من ثم فلم يدع أحد أن الله تعالى قد أرسل امرأة، و أما النبوة و هي لفظة مأخوذة من الإنباء و هو الإعلام، فمن أعلمه الله عز و جل بما يكون قبل أن يكون، أو أوحى إليه منبئا بأمر ما فهو نبي بلا شك، فأمرها مختلف، و قد جاء في القرآن الكريم بأن الله تعالى قد أرسل ملائكة إلى نساء فأخبرهن بوحي حق من الله تعالى، كما حدث مع أم إسحاق و أم موسى و أم المسيح عليهم السلام، و منها أن النبوة مجالها الدعوة إلى الإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح، و الملك قد يتعارض مع هذه الدعوة لأنه مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية التي جاءت بالتهديد عنها الأنبياء عليهم السلام، و لكن قد يجمع الله النبوة و الملك لرجل واحد، كما حدث مع داود و سليمان عليهما السلام (انظر ابن خزم: الفصل في الملك و الأهواء و النحل: 87/5، محمد بيومي مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل ص: 71-77، محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء ص: 10-11).

و كان قد بلغ سن الكمال أربعين سنة (1) و أنزل عليه الزبور، فيه مواعظ و أذكار، و آتاه الله الحكمة و فصل الخطاب، و هكذا أسس داود، و كذا ولده سليمان من بعده، مملكة التوحيد، تؤمن بالله ربا، و بالإسلام ديناً، و وسط عالم مشرك، و لم يجتمع النبوة و الملك لأحد قبلهما أو بعدهما من بني إسرائيل، هذا و قد ذكرت قصتهما في القرآن الكريم مطولة أحياناً (2)، و مختصرة أحياناً أخرى، و أحياناً يذكران معاً، و أحياناً يفرد أحدهما عن الآخر، ففي سورة البقرة يحكي الله تعالى أن داود كان في جيش طالوت، و أنه قتل جالوت، و أن الله آتاه من أجل ذلك الكتاب و الحكمة و علمه مما يشاء (3)، و في سورتي النساء و الأنعام يذكران معاً على أنهما من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم و أنهما من نسل إبراهيم عليه الصلاة و السلام (4).

معجزات داود عليه السلام

هذا و قد خص الله تعالى داود عليه السلام بكثير من المعجزات، منها (أولاً) تسخير الجبال معه يسبحن بكرة و عشياً قال تعالى: **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (5)**، و منها (ثانياً) ترجيع الطير معه كلما قرأ

ص: 34

- 1- يكاد يجمع العلماء على أن النبوة لا تكون إلا بعد بلوغ سن الأربعين، و قد أبطل ابن قيم الجوزية ما ذهب إليه البعض من أن عيسى بعث و هو في الثلاثين من عمره، و أما قوله تعالى في حق يحيى: **وَآتَيْنَاهُ الْكُتُبَ صَبِيًّا فَالمراد الفهم و الفقه في الدين كما فسره ابن عباس، و هو غير الحكمة المفسرة بالنبوة في آية البقرة: 251، و سنعود للموضوع ثانية عند الحديث عن يحيى و عيسى (زاد المعاد: 21 / 1، تفسير الكشاف: 504 / 2، عويد المطرفي: داود و سليمان في القرآن و السنة- مكة المكرمة: 1979 ص: 33).**
- 2- سورة الأنبياء آية: 78-82، النمل آية: 15-44، سبأ آية: 10-14، ص آية: 17-26.
- 3- سورة البقرة آية: 249-251.
- 4- سورة النساء آية: 163-164، الأنعام آية: 84.
- 5- سورة ص آية: 18.

الزبور، قال تعالى: وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ (1)، وقال تعالى:

وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ (2)، ويقول المفسرون عن هذه الآية إن الله تعالى قد وهب داود من الصوت ما لم يهبه لأحد، حتى أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه الزبور يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه، و يسبح بتسبيحه، و كذا الجبال تجيبه و تسبح معه كلما سبح بكرة و عشيا، و في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال صلى الله عليه و سلم: «لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود» (3).

و يقول الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه كان داود عليه السلام أوبا رجاعا إلى ربه بالطاعة و العبادة و الذكر و الاستغفار، و قد آتاه الله من فضله مع النبوة و الملك، قلبا ذاكرا، و صوتا رخيفا يرجع به تراتيله التي يمجد فيها ربه، و بلغ من قوة استغراقه في الذكرى، و من حسن حظه في الترتيل، أن تزول الحواجز بين كيانه و كيان هذا الكون، و تتصل حقيقته بحقيقة الجبال و الطير في صلتها كلها ببارئها، و تمجيدها له و عبادتها، فإذا الجبال تسبح معه، و إذا الطير مجموعة عليه، تسبح معه لو ملاها و مولاه إنا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ، وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ، و لقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ: الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى و الإشراق، حينما يخلو إلى ربه يرتل تراتيله في تمجيده و ذكره، و الطير تتجمع على نغماته لتسمع له و ترجع معه أناشيده، لقد يقف الناس مدهوشين للنبا، إذ يخالف مألوفهم، و يخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين

ص: 35

1- سورة ص آية: 19.

2- سورة الأنبياء آية: 79.

3- صحيح البخاري: 9 / 241، صحيح مسلم: 2 / 192.

جنس الإنسان و جنس الطير، و جنس الجبال، و لكن فيم الدهش؟ و فيم العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة وراء تميز الأجناس و الأشكال و الصفات و السمات، حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله، أحيائه و أشيائه جميعاً، و حين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص و الإشراق و الصفاء، فإن تلك الحواجز تنزاح، و تنساح الحقيقة المجردة لكل منهم، فتتصل من وراء حواجز الجنس و الشكل و الصفة و السمة التي تميزهم و تعزلهم في مألوف الحياة، و قد وهب الله عبده داود هذه الخاصية، و سخر الجبال معه يسبحن بالعشى و الإشراق، و حشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحا لله، و كانت هذه هبة فوق الملك و السلطان، مع النبوة و الاستخلاص (1)، قال ابن عباس: كانت الطير تسبح معه إذا سبح، و كان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته، و بكت لبكائه (2).

و منها (ثالثاً) إلانة الحديد له، فكان بين يديه كالعجين أو كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار، و لا ضرب بمطرقة، و قيل لان الحديد في يده لما أوتي من شدة القوة (3)، قال تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ، وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ، أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَ قَدْرٌ فِي السَّرْدِ، وَ اْعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (4)، و في قوله تعالى **وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ** قال الحسن البصري و قتادة و الأعمش و غيرهم: كان الله تعالى قد ألان الحديد لداود حتى كان يفتله بيديه لا يحتاج إلى نار و لا مطرقة، و قال الإمام الفخر الرازي: ألان الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع و هو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به، فأى عاقل يستبعد

ص: 36

1- في ظلال القرآن: 3017/5 (بيروت 1982).

2- زاد المسير: 436/6.

3- تفسير النسفي: 319/3.

4- سورة سبأ: آية: 10-11.

ذلك على قدرة الله، قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زرد، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح، وفي سياق الآية العاشرة من سورة سبأ، التي ابتدأها الله تعالى بقوله: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا**، ثم ذكر في آخرها **وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ**، ما يشعر بأن الله تعالى قد ألان الحديد تفضلا منه وكرما، وآية على الإعجاز من الآيات التي يمنحها الله لأتباعه، ولو أن إلانة الحديد بالنار، كما يقع للناس جميعا، لما ذكرها الله في سياق الامتتان على داود، ولما جعلها الله نعمة يختصه بها، وقد يقال إنه أول من اهتدى إلى أثر النار في إلانة الحديد، ولم يكن ذلك معروفا قبل داود، فكان هذا من نعم الله على داود أولا، ثم أصبح من سنن الطبيعة ثانيا أو بعد ذلك، ولكننا لا نذهب كما يقول الدكتور النجار، لمثل هذا المذهب ما دام فضل الله على أنبيائه بالمعجزات الخارقة أمرا مقرر لهم، وواجبا في حقهم (1).

ومن ثم يذهب العلامة سيد قطب إلى أنه في ظل هذا السياق يبدو أن الأمر كان خارقة ليست من مألوف البشر، فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلا للطرق، إنما كان والله أعلم معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة، وإن كان مجرد الهداية لإلانة الحديد بالتسخين يعد فضلا من الله يذكر، ولكننا إنما نتأثر بجو السياق وظلاله، وهو جو معجزات، وهي ظلال خوارق خارقة على المألوف، ثم يقول تعالى:

أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَالسَابِغَاتِ الدَّرْعَ، روى أنها كانت تعمل قبل داود عليه السلام صفائح، الدرع صفيحة واحدة فكانت تصلب الجسم وتثقله، فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم، وأمر بتضيق تداخل هذه الرقائق لتكون

ص: 37

1- تفسير ابن كثير: 3/ 838-839، تفسير الفخر الرازي: 25/ 245، تفسير النسفي: 3/ 319-320، تفسير القرطبي: 14/ 266، محمد الطيب النجار تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية- الرياض 1983 ص: 234-235.

محكمة لا تنفذ فيها الرماح، وهو التقدير في السرد، وكان الأمر كله إلهاما وتعلينا من الله (1).

هذا وقد روى الحافظ ابن عساكر عن وهب بن منبه أن داود عليه السلام كان يخرج متنكرا، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحدا إلا أثنى عليه خيرا في عبادته وسيرته وعدله، قال وهب: حتى بعث الله ملكا في صورة رجل فلقية داود عليه السلام، فسأل كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه لكان كاملا، قال:

ما هي، قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين، يعني بيت المال، فعند ذلك نصب داود إلى ربه عز وجل في الدعاء أن يعلمه عملا بيده يستغني به ويغني به عياله، فألان الله عز وجل له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فعمل الدروع وهو أول من عملها، فقال الله تعالى: **أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرُ فِي السَّرْدِ**، يعني مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع فإذا ارتفع من عمله درع باعها، فتصدق بثلاثها، واشترى بثلاثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوما بيوم إلى أن يعمل غيرها (2).

هذا وقد كشفت حفريات «سير فلنדרز بتري» عن مناجم للحديد في جمعة وعصيون جابر (3)، على مقربة من خليج العقبة، ترجع إلى أيام داود وسليمان عليهما السلام، ويبدو أن داود قد استولى عليها من الآدوميين بعد هزيمته إياهم.

ص: 38

1- في ظلال القرآن: 2897/5 - 2898.

2- تفسير ابن كثير: 839/3.

3- وليم أولبرايت: آثار فلسطين - ترجمة زكي اسكندر و محمد عبد القادر، القاهرة 1971 م ص: 128، وكذا، yrotsiH sa elbiB ehT, 1967-199. p. W. relleK.

ومنها رابعا قوى الله تعالى ملكه و جعله منصورا على أعدائه، مهابا في قومه، قال تعالى: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، ويذهب بعض المفسرين في معنى الآية الكريمة أن الله قواه و جعله منصورا على جميع أعدائه و مناوئيه، فكان لا يقوم له معارض إلا غلبه، قال مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطانا، وقال السدي: كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف، وقال بعض السلف بلغني أنه كان يحرسه في كل ليلة ثلاثة و ثلاثون ألفا، وقال غيره أربعون ألفا، وقد ذكر ابن جرير و ابن أبي حاتم رواية عن ابن عباس أن نفرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود عليه الصلاة و السلام أنه اغتصبه بقرا، فأنكر الآخر و لم يكن للمدعي بيّنة فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود عليه السلام في المنام بقتل المدعي، فلما كان النهار طلبهما و أمر بقتل المدعي، فقال يا نبي الله علام تقتلني و قد اغتصب هذا بقري، فقال له إن الله تعالى أمرني بقتلك فأنا قاتلك لا محالة، فقال و الله يا نبي الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادعيت عليه، و إنني لصادق فيما ادعيت، و لكنني كنت قد اغتلت أباه و قتلته و لم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود عليه السلام فقتل، قال ابن عباس: فاشتدت هيبتة في بني إسرائيل، و هو الذي يقول الله عز و جل: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ (1)، و على أي حال فإن التاريخ يحدثنا أن الله تعالى كتب له النصر المبين على الفلسطينيين أقوى أعدائه و أكثرهم أهمية، و أشدهم خطرا كما كتب له نجاحا بعيد المدى في طردهم من مناطق بني إسرائيل، بل إنه وصل إلى مدنهم ذاتها، كما كتب له نصرا مؤزرا على ممالك مؤاب و عمون و أدوم، فضلا عن الآراميين (2)، كما سنفصل ذلك في الفصل التالي .

ص: 39

1- تفسير ابن كثير: 4/ 46-47 (دار الكتب العلمية- بيروت 1986)، تفسير النسفي: 4/ 36 (ط دار الفكر).

2- انظر التفصيلات عن دولة داود عليه السلام (محمد بيومي مهران إسرائيل: 2/ 693-734).

و منها خامسا أن الله تعالى آتاه الحكمة و فصل الخطاب، و الحكمة، فيما يرى كثير من المفسرين النبوة (1) أو هي في رأي آخر، الزبور و علم الشرائع أو هي كل كلام وافق الحق فهو حكمة (2)، و أما فصل الخطاب فهو الحكم في القضايا التي تقع بين الناس في عهده، و قد بيّنه الله تعالى في قوله جل ثناؤه: يا داؤد إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق (3)، و قال مجاهد و السدي: هي إصابة القضاء و فهم ذلك، و قال مجاهد أيضا: هي الفصل في الكلام و في الحكم و هذا يشتمل كل ذلك، و هو المراد، و قد اختاره ابن جرير، و قيل فصل الخطاب قطعه و الجزم فيه برأي لا تردد فيه، و ذلك مع الحكمة و مع القوة غاية في الكلام و السلطان في عالم الإنسان، و عن أبي موسى أول من قال: «أما بعد» داود عليه السلام و هو فصل الخطاب، و كذا قال الشعبي: فصل الخطاب «أما بعد»، فإن من تكلم في الأمر الذي له شأن، يفتح بذكر الله و تمجيده فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه و بين ذكر الله بقوله «أما بعد» (4).

قصة الخصمين

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الآيات الكريمة من سورة «ص» (21-25) و التي ثار جدل حول تفسيرها، يقول تعالى: وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تَسْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا

ص: 40

- 1- انظر تفسير ابن كثير: 47/4، تفسير روح المعاني: 173/2، تفسير أبي السعود: 186/1، فتح القدير للشوكاني: 266/1، زاد المسير لابن الجوزي: 300/1، الراغب الأصفهاني المفردات في غريب القرآن ص: 128.
- 2- تفسير النسفي: 36/4-37.
- 3- سورة ص آية: 26.
- 4- تفسير ابن كثير: 47/4، تفسير النسفي: 37/4، في ظلال القرآن: 3017/5، عويد المطرفي المرجع السابق ص: 50.

وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ، قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ (1).

و تفسير الآيات الكريمة أن رجلين يمتلك أحدهما تسعا وتسعين نعجة، ويمتلك الآخر نعجة واحدة، وقد نازعه فيها صاحب التسع و التسعين، وقد دخل الخصمان على داود من غير المدخل المعتاد، فقد دخلا عليه من فوق الجدران، وهي طريقة توحى في أعراف الناس بشر يقع من هذا التسور، فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين، كما أن دخولهما كان في غير وقت جلوسه للحكم، وإنما في وقت خلوته إلى نفسه، واعتزال مجتمعه و أمته في هذا اليوم، إرضاء لرغبة نفسه في حبه لعبادة ربه، فقد كان داود يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة و ترتيل أناشيده تسيحا لله في المحراب، و كان إذا دخل المحراب للعبادة و الخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، روى عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن البصري قال: إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء، يوما لنسائه، و يوما للعبادة، و يوما للقضاء بين بني إسرائيل، و يوما لبني إسرائيل، و روى نحوه عن السدي فيما أخرجه الحكم في المستدرک و الطبري في التفسير (2).

و من ثم فقد فزع داود من الخصمين ظنا منه أنهما يريدان به شرا، فلما

ص: 41

1- سورة ص آية: 21-25.

2- انظر تفسير الطبري: 147/23-148، تفسير الدر المنثور: 301/5، تفسير الظلال: 3018/5، المستدرک للحاكم: 586/2، تاريخ الطبري: 482/1، عويد المطرفي المرجع السابق ص: 52-53.

ظهر أنهما جاءا من خصومة ليحكم بينهما فيها، استغفر ربه من هذا الظن و خر ساجدا منيبا إلى الله تعالى، فغفر الله له ذلك الظن، لأنه ما كان ينبغي من مثله و كما هو معلوم حسنات الأبرار سيئات المقربين، وربما كان استغفاره لأن انقطاعه للعبادة يوما كاملا عن أمته، و اختلاؤه بنفسه ذلك اليوم كله، يؤدي حتما تركه النظر في ذلك اليوم في أمر رعيته و أمته التي استودعه لله عز و جل رعاية مصالحها، فجاءه مثال من حاجتها إليه في كل وقت ليقوم بإصلاح ذات بينها، و إقرار التراحم و التآخي بين أفرادها حتى يكونوا على هدى من ربهم، كما يدل على ذلك قول الخصمين له «و اهدنا إلى سواء الصراط» ثم بين الله تعالى لداود عليه السلام مهمته في هذه الحياة الدنيا، باعتباره ملكا على بني إسرائيل، و نبيا مرسلا، إذ الملك يقتضي خلافته لله تعالى في الأرض بالنظر في مصالح رعيته و الحكم بينهم بالعدل، و فصل قضاياهم بما يرفع الظلم و البغي عن ضعفائهم، إذا حاوله كبرائهم و أقويائهم (1)، و ذلك لا يتم على الوجه المطلوب إلا إذا وضع نفسه قريبا منهم في كل آن، قال تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (2)، فأخبره أنه جعله خليفة في الأرض و أمره بالحكم بين الناس و الفصل في قضاياهم بالحق، و النبوة تعود الملك و تحرسه عن أن تندبه مطالب الدنيا عن سبيل الحق و العدل، و تسلك به مسالك الطهر و التزام الهدى (3).

على أن رواية أخرى تذهب إلى أن الخطأ الذي وقع من داود أنه سمع

ص: 42

1- جاء في بعض الآثار «السلطان ظل الله في أرضه»، و قال الخليفة عثمان بن عفان: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» البداية و النهاية: 10/2.

2- سورة ص آية: 26.

3- عويد المطرفي المرجع السابق ص: 53-54.

أحد الخصمين وهو صاحب النعجة الواحدة، ولم يسمع حجة الخصم الآخر وهو صاحب التسع والتسعين نعجة، وتسرع من أجل ذلك في الحكم دون أن يمعن النظر ويرى حجة الخصم الآخر، ومن أجل ذلك استغفر ربه من هذا الخطأ الذي وقع فيه نتيجة السهو، وهو خطأ لا يتنافى مع العصمة (1)، ولعل عذر داود عليه السلام، أن القضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلما صارخا مشيرا لا يحتمل التأويل، ومن ثم اندفع داود يقضي على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم «قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»، ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان فقد كانا ملكين جاء للامتحان امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل، ولتبيين الحق قبل إصدار الحكم، وقد اختارا أن يعرضوا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة، ولكن القاضي عليه ألا يستثار، وعليه ألا يتعجل، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعا أو كاذبا أو ناقضا، وعند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء، «و ظن داود إنما فتناه»، وهنا أدركته طبيعته إنه أواب «فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب» (2).

على أن بعض كتب التفسير قد خاضت مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوفا كبيرا تنتزه عنه طبيعة النبوة، ولا يتفق إطلاقا مع حقيقتها، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطا، وهي لا

ص: 43

1- محمد الطيب النجار المرجع السابق ص: 39.

2- في ظلال القرآن: 3018 / 5.

تصلح للنظر من الأساس، ولا تتفق مع قول الله تعالى: وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ، كما أن التعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة، ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ، فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين الناس وعدم اتباع الهوى، واتباع الهوى، فيما يختص بنبي، هو السير مع الانفعال الأول، وعدم التريث والتثبت والتبيين مما ينتهي إلى الاستطراد فيه إلى الضلال، أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله، وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب (1).

على أن بعض المفسرين والمؤرخين قد أسرفوا على أنفسهم، فذهبوا إلى أن هذين الخصمين اللذين تسوّرا المحراب على داود عليه السلام، إنما هما ملكان أرسلهما الله تعالى إليه لينتبه إلى خطئه من محاولة ضم امرأة «أوريا» إليه، وعنده تسع وتسعون امرأة، ومن ثم فهم يرون أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فتزوجها إذا أعجبت، و كان لهم عادة في المواساة بذلك، و كان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتفق أن داود عليه السلام وقعت عينه على امرأة أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها، فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها، وهي أم سليمان، فقبل له إنك، مع عظم منزلتك وكثرة نسائك، لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة النزول عنها لك، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به، على أن رواية

ص: 44

أخرى تذهب إلى أوريا خطب تلك المرأة، ثم خطبها داود، فأثره أهلها، فكانت زلتة أن خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه (1)، على أن هناك رواية ثالثة تذهب إلى أن خطبه داود كانت أنه لما بلغه حسن امرأة أوريا، فتمنى أن تكون له حلالا، فاتفق أن أوريا سار إلى الجهاد فقتل، فلم يجد له من الهم ما وجده لغيره (2).

على أن هناك رواية رابعة اندفعت في هذه الحماقة، جريا وراء إسرائيليات باطلة، وقد نسي أصحابها ما في هذا الصنيع من إصااق تهمة شنيعة برسول كريم، و نبي جليل، تقول هذه الرواية أنه بينما كان داود عليه السلام في خلوة عباده، جاءه الشيطان وقد تمثل في صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجله و هو يصلي، فمدّ يده ليأخذه فتنحى فتبعه، فتباعد حتى وقع في كوة، فذهب ليأخذه فطار من الكوة، فنظر أين يقع فبيعت في أثره، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل النساء خلقا، فحانت منها التفاتة فأبصرته، فألقت شعرها فاستترت به، فزاده ذلك فيها رغبة (و في رواية أخرى، فما زال يتبع الحمامة حتى أشرف على امرأة تغتسل، فأعجبه خلقها و حسنها، فلما رأت ظله في الأرض جللت نفسها بشعرها فزاده ذلك أيضا إعجابا بها، فسأل عنها فأخبر أن لها زوجا غائبا بمسلحة كذا و كذا، فبعث إلى صاحب المسلحة أن يبعث أوريا (أهريا) إلى عدو كذا و كذا، فبعثه ففتح له، ثم بعثه إلى أخرى حتى قتل في الثالثة، و تزوج داود امرأته (3)، فلما دخلت عليه لم تلبث عنده إلا يسيرا حتى بعث الله ملكين في).

ص: 45

1- تفسير النسفي 37/4 - 38، تفسير البيضاوي 17/5 - 19.

2- الكامل لابن الأثير 126/1.

3- قال مقاتل بلغنا أنها أم سليمان (تاريخ الطبري 482/1) وقال ابن كثير: و كانت لداود مائة امرأة، منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة (البداية و النهاية 15/2).

صورة إنسيين، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلوا عليه، فتسوّرا عليه المحراب، ففزع منهما فقالا: لا تخف خصمان بغي بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، قال قصا على قصتكما، فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع و تسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فهو يريد أن يأخذها ليكمل بها نعاجه مائة، فقال للآخر ما تقول، فقال إن لي تسعا و تسعين نعجة، ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه فأكمل بها نعاجي مائة، قال: وهو كاره، قال وهو كاره، قال: إذا لا ندعك وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: إن ذهبت تروم ذلك ضربنا مئات هذا وهذا (الأنف و الجبهة) فقال يا داود، أنت حق أن يضرب منك هذا وهذا حيث لك تسع و تسعون امرأة، و لم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتل، و تزوجت امرأته، قال فنظر فلم ير شيئا، فعرف ما وقع فيه، و ما ابتلى به، فخر ساجدا فبكى، فمكث يبكي ساجدا أربعين يوما، لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها، حتى أوحى الله إليه بعد أربعين يوما، يا داود: ارفع رأسك فقد غفرت لك...» (1).

و قريب من هذا ما رواه السيوطي في الدر المنثور، و خلاصته أن داود عليه السلام أمر في يوم عبادته ألا يدخل عليه أحد، و بينما هو يقرأ في الزبور، إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون الطير من كل لون، و لما حاول داود عليه السلام الإمساك به طار منه على كوة المحراب، و لما أراد مرة ثانية الإمساك به طار خارج الحجرة، فنظر داود ليراه أي ذهب فإذا به يرى امرأة تستحم عارية، فلما رأت ظله حركت رأسها فغطت كل جسدها، فأرسل إليها و عند ما جاءت علم منها أنها امرأة رجل محارب يدعى أوريا، فأرسل إلى قائد الجيش أن يجعل أوريا من حملة التابوت، الذين كانوا في مقدمة

ص: 46

1- في تاريخ الطبري 1/ 479-481، و انظر روايات أخرى في: تاريخ الطبري 1/ 481-484، الكامل لابن الأثير 1/ 125-126، تاريخ اليعقوبي 1/ 52-53.

الجيش، وكان من يوضع أمامه لا يرجع حتى يقتل، ولما قتل زوجها وانقضت عدتها خطبها داود لنفسه، ولكنها اشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده، وكتبت بذلك كتاباً أشهدت عليه خمسة من بني إسرائيل، وقد أنجبت له سليمان، فإنما شبّ تسوّر عليه الملكان المحراب، فكان شأنهما ما قص الله في كتابه، وخر داود ساجداً، فغفر الله له وتاب عليه (1).

وهكذا تابع بعض المؤرخين والمفسرين رواية توراة اليهود المتداولة اليوم، إلى حد ما، حين صورت النبي الأواب الذي آتاه الله الحكمة و فصل الخطاب، وهو يتمشى فوق سطح قصره، فيرى امرأة رائعة الجمال، وهي تستحم عارية، فيسأل عنها بعضاً من بطانته، ويعرف أنها «بتشيع» امرأة أوريا الحثي، فيرسل إليها من يأتيه بها، ثم ينال منها وطره، وهي مطهرة من طمثها، وسرعان ما تحبل المرأة من فورها، و حين تتأكد من حملها تخبر داود بالأمر، فيرسل إلى زوجها يستدعيه من ميدان القتال، حتى إذا ما ظهر الحمل بعد ذلك على المرأة ظن الناس أنه من زوجها، غير أن أوريا يابى أن يدخل على امراته، ويصر على العودة إلى ميدان القتال، و من ثم يأمر داود بأن يوضع أوريا في وجه العدو، وأن له مثلاً برجل يملك نعجة واحدة، وآخر يملك غنماً وبقراً كثيراً، ثم جاء للغني ضيف فأخذ نعجة الرجل الفقير، و هيأ منها طعاماً لضيفه، فحكم داود بأن يقتل الرجل الفاعل ذلك، ويرد النعجة أربعة أضعاف فقال ناثن لداود: أنت هو الرجل (2).

وهكذا تنتهي رواية العهد القديم الكذوب عند هذا الحد المحزن، فهل كان النبي الأواب كذلك؟ وهل هذا الاتهام يتجسم مع ما هو معروف عن

ص: 47

1- الدر المنثور في التفسير بالمأثور 5/300-306.

2- صموئيل الثاني 1/11-27، و انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/203-205.

داود عليه السلام، من خلق كريم منذ حداثة سنه؟ وهل من البر أن يخون الإنسان، أي إنسان، رجلاً في أعراضهم في وقت تدق فيه الحرب طبولها، إنه التناقض إذن، وهو لحن يميز اليهود عن سائر البشر، ولا بأس على الذين يقتلون الأنبياء بغير حق (1)، أن يدمروا سمعه من لم يقتلوهم أيضاً بغير حق، وكم من حوادث رهيبه تسجلها التوراة من هذا النوع دون تعقيب عليها، مع أن أحداثها تدور في بيوت الأنبياء (2).

و من عجب أننا نقرأ في سفر صموئيل الثاني، نفس السفر الذي روي القصة الكذوب، نقرأ على لسان داود عليه السلام «يكافئني الرب حسب بري، حسب طهارة يدي، يرد علي، لأنني حفظت طرق الرب، ولم أعصي إلهي، لأن جميع أحكامه أمامي وفرائضه لا أحيد عنها، وأكون كاملاً لديه، وأتحفظ من إثمي، فيرد الرب على كبري، وكطهارتي أمام عينيه» (3). هذا فضلاً عن نصوص أخرى من التوراة نفسها تصف داود عليه السلام، وكأنه يعمل المستقيم في عيني الرب، وأنه الأسوة الحسنة لغيره (4)، وأنه كان «يجري قضاء و عدلاً لكل شعبة» (5)، وأن الرب كان معه حيث توجه (6)، لأنه

ص: 48

-
- 1- انظر: سورة البقرة: آية 61، 87، 91، آل عمران: آية 112، المائدة: آية 70، وانظر: تفسير الطبري 2/139-142، 323-324، 350-354، 7/116-118، 10/447، تفسير ابن كثير 1/145-147، 175-179، 2/77-86، 3/148، تفسير المنار 1/273-276، 311، 317-318.
 - 2- تكوين 12/14-20، 19/30-38، 20/18، 26/1-11، 34/1-30، 35/22، 38/306، صموئيل ثان 13/1-39، 15/1-23، 16/23، وانظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل - الكتاب الثالث - التوراة والأنبياء ص 162-218.
 - 3- صموئيل ثان 22/21-25.
 - 4- ملوك أول 11/38، 15/3، ملوك ثان 18/3، هوشع 3/5.
 - 5- صموئيل ثان 8/15.
 - 6- ملوك أول 3/3-6.

كان يسير أمام الرب بأمانة وبر واستقامة، وأنه كان يحفظ فرائضه وصاياه ويسلك طريقه (1)، وأنه كان الناقل لشريعة الرب لشعبه إسرائيل (2)، هذا إلى أن التوراة إنما تشير بوضوح إلى أن الرب إنما قد اصطفى من شعبه إسرائيل سبط يهوذا، ومن سبط يهوذا بيت داود، ثم اصطفى من بيت داود، داود نفسه، ومن أولاد داود ولده سليمان (3)، هذا إلى أن داود عليه السلام إنما هو صاحب المزامير المشهورة في التوراة، وأخيراً فهو، في مقام النبوة عند بني إسرائيل، إنما يأتي مباشرة بعد إبراهيم وموسى عليهما السلام (4).

و أما في القرآن الكريم، فقد وصف داود عليه السلام بأنه نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (5)، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ (6)، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (7)، وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (8) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (9)، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (10)، وفي هذه

ص: 49

-
- 1- ملوك أول 14/3.
 - 2- إشعياء 3/55-6.
 - 3- أخبار أيام أول 28/4-5.
 - 4- محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/203-210.
 - 5- سورة ص: آية 30.
 - 6- سورة البقرة: آية 251. وانظر: تفسير الطبري 5/371-372، تفسير المنار 2/392-393، تفسير روح المعاني 2/173-174، الدر المنثور 1/319، تفسير الطبرسي 2/291-292، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 1/230، تفسير ابن كثير 1/447، تفسير الكشاف 1/296.
 - 7- سورة النساء: آية 163.
 - 8- سورة النمل: آية 15.
 - 9- سورة سبأ: آية 10-11.
 - 10- سورة ص: آية 17.

الآية يذكر الله تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيدٍ، والأيد: القوة في العلم والعمل، قال ابن عباس: الأيد القوة، وقال مجاهد: الأيد القوة في الطاعة، وقال قتادة: أعطى داود عليه السلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه عليه السلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، و كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»، وإنه كان أواباً، وهو الرجاء إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤنه (1).

وانطلاقاً من كل هذا، فالقصة التوراتية وما سار على نهجها من قصص، عن علاقة داود عليه السلام، بزوجة «أوريا» الحشبي، لا يتصور صدق وقائعها من رجل عادي ذي خلق، وفضلاً عن نبي كريم ورسول جليل، ومن هنا فقد أخطأ بعض المفسرين خطأ كبيراً، إذ فسروا ما جاء في سورة ص عن الخصمين اللذين اختصما إليه على نحو قريب مما جاء في التوراة (2)، مع أن العبارة التي ذكرت بها القصة في القرآن لا تدل على شيء من ذلك، ومن هنا فقد ختمت هذه الآيات الكريمة بقوله تعالى: وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ، وبدهي أنه لا يمكن أن تكون الزلْفى وحسن المآب للزناة القتلة، ومن هنا رأينا السدي يروي عن سيدنا الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه في الجنة، أنه قال: «لو سمعت رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرماً لجلدته ستين ومائة»، لأن حد قاذف الناس ثمانون، وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة، وفي رواية النسفي

ص: 50

1- تفسير ابن كثير 4/ 45-46، تفسير النسفي 4/ 36.

2- انظر: تفسير مقاتل 3/ 1266-1268.

قال الإمام علي «من حدثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين»، وهو حد الفرية على الأنبياء، بل إن ابن العربي يرى أن من قال إن نبياً زنى فقد كفر (1)، كما أنكرت جمهرة المفسرين هذه التهمة الكذوب بالإجماع، كما أن أحداً على الإطلاق لم يقل بأن النبي المعصوم قد قارف من تلك المرأة محرماً (2).

وروى النسفي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز، وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترها على نبيها، فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر:

لسماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، وقال النسفي:

و الذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله بقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح لكونهما أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة (3).

ص: 51

1- تفسير القرطبي ص 5625-5626، على عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام- القاهرة 1964 ص 43-44.

2- انظر: تفسير ابن كثير 4/47-50، تفسير البحر المحيط 7/393، تفسير القاسمي 14/5089-5090، تفسير البيضاوي 2/107-110، تفسير الفخر الرازي 26/188-198، تفسير القرطبي 15/166، الدر المنثور 5/300-306، الإكليل للسيوطي ص 185، ابن خرم: المرجع السابق 4/18، تفسير النسفي 4/37-39.

3- تفسير النسفي 4/38.

1- داود فيما قبل الملكية:

تروي التوراة أن داود كان حامل سلاح شاول (طالوت)، كما كان طلق اللسان فصيحاً، خفيف الروح، شجاعاً بل مقاتلاً جباراً، و داود بن يس من سبط يهوذا، موطنه بيت لحم، ونسبه ينتهي إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد أرسله الله حين غضب على شاول ليكون ملكاً على إسرائيل، مختاراً إياه من بين أولاد يس الستة على رأي، والسبعة على رأي آخر، بل والثلاثة عشر، فيما تروي المصادر العربية، وكان أشقر مع حلاوة العينين، وحسن المنظر، وفي المصادر العربية عن وهب بن منبه كان قصيراً أزرق قليل الشعر، طاهر القلب نقيّه (1)، وكان قبل اشتراكه في الحرب ضد جالوت وقومه مكلفاً بالعناية بأغنام أبيه، وقد أظهر في القيام بهذه المهمة إخلاصاً نادراً، وشجاعة فائقة فقد قتل أسداً و دباً هاجماً القطيع (2)، وقد جاء في تاريخ الطبري أنه أتى أباه ذات يوم فقال يا أبتاه: ما أرمي بقذافتي شيئاً إلا صرمته، قال أبشر يا بني إن الله جعل رزقك

ص: 53

1- صموئيل أول 16/1-12/17، أخبار أيام أول 15/2، تاريخ الطبري 1/472، 476، ابن كثير: البداية و النهاية 10/2، الكامل لابن الأثير 1/123.

2- صموئيل أول 17/34-36.

في قذافتك، ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسدا رابضا فركبت عليه و أخذت بأذنيه فلم يهجنني، فقال أبشريا بني، فإن هذا خير يعطيكه الله، و كان داود راعيا، و كان أبوه خلّفه يأتي إلى أبيه و إلى أخوته بالطعام (1).

وقد بدأ نجم داود يسطع بين قبائل بني إسرائيل منذ أن قتل جالوت، فقوّت به عين الملك، و وعده بأن يزوجه، ابنته الكبرى «ميرب» ولكنه زوجها إلى «عدريئيل المحولي» و لما أحبته أختها «ميكال» وعده بها على أن يمهره إياها مائة غلقة من الفلسطينيين (2)، و لكن يبدو أن الشعبية التي اكتسبها داود قد جعلت الملك يعدل عن الإصهار إليه، و إن كانت الرواية العربية تذهب إلى أن طالوت رجع فأنكح داود ابنته، و أجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داود و أحبه (3)، و من ثم فقد بدأ طالوت يخاف داود «و صار شاول (طالوت) عدوا لداود لكل الأيام» (4) بل «و كلم، شارل يونانان ابنه و جميع عبيده أن يقتلوا داود»، و لكنه سرعان ما يعفو عنه نتيجة توسلات ولده يونانان، صديق داود، غير أنه سرعان ما يغير رأيه مرة أخرى و يفكر في قتل داود، فيطعنه بالرمح و لكنه يخطئه، فيفر داود من أمامه، فيزداد غضب طالوت، و تتأجج نار الغيرة في صدره فيرسل إلى داود من يقتله في بيته «فأخبرت داود ميكال امرأته قائلة إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فإنك تقتل غدا، فأنزلت ميكال داود من الكوة فذهب هاربا و نجا»، و وضعت في مكانه على الفراش الترافيم و لبدة المغربي و غطته بثوب (5)، و في الرواية

ص: 54

1- تاريخ الطبري 472/1، تاريخ ابن الأثير 1/123.

2- صموئيل أول 7/18-29.

3- تاريخ الطبري 473/1، تاريخ ابن الأثير 1/124.

4- صموئيل أول 29/18.

5- صموئيل أول 19/1-17.

العربية أن داود لما علم أن طالوت يريد قتله، جعل في مضجعه زقّ خمر و سجاه، ودخل طالوت إلى منام داود، وقد هرب داود، فضرب الزق ضربة خرقه فوقت قطرة من الخمر في فيه فقال: يرحم الله داود ما كان أكثر شربه الخمر (1)، فلما أصبح طالوت علم أنه لم يصنع شيئاً، فخاف داود أن يغتاله فشدد حجابيه و حراسه، ثم إن داود أتاه من المقابلة في بيته و هو نائم، فوضع سهمين عند رأسه و عند رجله، فلما استيقظ طالوت بصر السهام فقال: يرحم الله داود هو خير مني، ظفرت به و أردت قتله و ظفر بي فكف عني، و أذكى عليه العيون فلم يظفروا به، و ركب طالوت يوماً فرأى داود فركض في إثره، فهرب داود منه و اختفى في غار في الجبل (2).

و هكذا اضطر داود للفرار من مكان إلى آخر، معرضاً حياته للخطر، و مع ذلك فلم يذهب إلى موطنه في بيت لحم (5 أميال جنوب القدس) و إنما ذهب إلى صموئيل النبي في الرامة (رامة الله) و من هناك إلى «نوب» (مدينة الكهنة) حيث يعيش «أخيمالك» الكاهن، الذي دفع حياته، و كذا مدينته بما فيها من رجال و نساء و أطفال و ماشية، ثمناً لإيوائه داود (3)، و هكذا ضيق طالوت الخناق على داود، حتى اضطره أن يودع أباه و أمه عند ملك مؤاب، و أن يلجأ هو إلى ملك «جت» الفلسطيني، و حين لم يأمن مكره، لجأ هو، إلى مغارة «عدلام» حيث جمع هناك من حوله أربعمائة رجل من مريديّة (4).

ص: 55

1- تاريخ الطبري 473/1، تاريخ ابن الأثير 124/1.

2- تاريخ الطبري 473/1، تاريخ ابن الأثير 124/1.

3- صموئيل أول 18/19-23/22، قارن: تاريخ الطبري 273/1، تاريخ ابن الأثير 124/1.

4- صموئيل أول 15-10/21، 5-1/22، و انظر: محمد بيرمي مهران: إسرائيل 697/2-701.

2- اختيار داود ملكا على يهوذا:

سرت الأنباء من كل أرجاء البلاد، كما تسري النار في الهشيم، بأن طالوت قد مات، وأن أولاده الثلاثة (يوناثان وأبيناداب وملكيشوع) لقوا نفس المصير، وأن الإسرائيليين قد هزموا شر هزيمة في معركة جبل جلبوع (حوالي عام 1000 ق. م) وأن البلاد قد عادت مرة أخرى تحت النير الفلسطيني (1)، وقد أدى ذلك إلى قيام صراع مرير بين القبائل الإسرائيلية على السلطة، خاصة وأن صموئيل النبي كان قد مسح داود أثناء حياته خليفة لطالوت، وإن لم يناد به ملكا على إسرائيل، وفي نفس الوقت كان «إيشبعل» بن شاول (طالوت) قد اعتبر نفسه الخليفة الشرعي لأبيه بعد وفاته، فضلا عن وفاة إخوته الكبار، و كان يسانده في ذلك «أبنير» قائد جيش أبيه، وأحد أمراء بيته، و من ثم فقد نودي به ملكا في «محنيم» (شمالي عجلون بميلين) عاصمة منطقة أفرايم في أرض جلعاد، جنوب يوبق، حيث ذكرى أعمال أبيه شاول الجرئية منذ سنوات مضت ما تزال باقية هناك، وعلى أية حال، فقد شملت ملكية إيشبعل مناطق غير محددة لقبائل الجبال في شرق الأردن وفي الجليل والسامرة، وقد أطلق إيشبعل على نفسه، كما فعل أبوه من قبل، لقب، «ملك إسرائيل» و ادعى أنه يحكم كل القبائل الإسرائيلية، ولكن بما أن القبائل الجنوبية قد انفصلت (تحت حكم داود) عن القبائل الأخرى، فإن التصور السياسي لإسرائيل تحت حكم «إيشبعل» إنما كان يشمل فقط الجزء الأكبر من القبائل فحسب (2).

وفي نفس الوقت كانت يهوذا قد مسحت داود ملكا على بيت يهوذا في

ص: 56

1- . . p. tic- po. . 1965. . III. HAC 426. p، 1963. . H 359. R. H 359. p، 1963. . III. HAC 426. p، 1965. . . p. tic- po. . -1

177- 180. M htoN. و كذا

2- . 181- 184. M htoN. p. tic- po. . -2

حبرون (مدينة الخليل) أو ممرا (1)، وليس هناك من شك في أن شخصية داود نفسه كان لها دور كبير في إغراء القبائل الجنوبية لاتخاذ هذه الخطوة، فقد كان لتأثيره الشخصي أثر كبير، ما في ذلك ريب، كما أنه كحامل لدرع طالوت قد جعل منه شخصا محبوبا لكل من حوله، و هو بالنسبة للقبائل الجنوبية رجل من دائرتهم، وقد برهن بنفسه، بعد انفصاله عن طالوت، أنه بالتأكيد رجل من القبائل الجنوبية، وإن كان النظام الملكي قد انتهى سريعا، فإن طالوت هو الملام لفشله، وقد ساهم المركز الخاص والثابت للقبائل الجنوبية بدور أساسي في الموقف دون شك، وقد استغل داود هذا الموقف لصالحه، كما كانت شخصية داود وعلاقاته وحاشيته الحربية، هي الأساس في تنصيبه ملكا على كل بيت يهودا، هذا فضلا عن أن رجال الدين كانوا موالين له، كما أن اختيار النبي صموئيل له من قبل، قد لاقى قبولا حسنا من غالبية القوم (2).

و أما الفلسطينيين، أعداء بني إسرائيل، فكانوا يرقبون الموقف عن كثب، وكان يهمهم في الدرجة الأولى أن تظل فلسطين تحت سيادتهم تماما، وربما رأوا في قيام مملكتين إسرائيليتين منفصلتين مما يحقق أراضهم، بل ربما كان الفلسطينيون من وراء قيام هاتين المملكتين، الواحدة في حبرون، وعلى رأسها داود، والأخرى في الشمال، وعلى رأسها «إيشبعل» وربما كانت هذه المملكة الشمالية تحت السيادة الفلسطينية، وفي كل الحالات فإن الوضع الجديد كان في مصلحة الفلسطينيين الذين ما كانوا أبدا بكارهين أن يروا أعداءهم الإسرائيليين ضعافا عن طريق الانقسام الداخلي (3).

ص: 57

1- صموئيل ثان 4/2.

2- , 1965 . p. 427. R. H. HAC, III. egdirbmaC, و كذا. M 183- 182. N. M 183- 182. p, tic- po, htoN.

3- , 1970 . p. 240. K. M. K 240. noyneK. M. K 240. p, 1970 . p. 452. ehT 452. hsiweJ ehT 452. dnoL, dnaL yloH eht ni ygoloeahcrA, كذا. aidedpolecynE hsiweJ ehT 452. p, 1903 .

و الذي يقضي بالتأكيد على تحالف القبائل الاثني عشر، كوحدة سياسية وحرية، خاصة و أن داود، و من ورائه القبائل الجنوبية كانوا يعملون على استمرار هذا التحالف، و من هنا فقد سكت الفلسطينيون مؤقتاً على ما يجري من أحداث، لأنهم لم يجدوا سبباً لمساعدة طرف على آخر، كما كانوا قانعين بترك مواليهم من بني إسرائيل يحطم بعضهم البعض الآخر (1).

3- داود و توحيد إسرائيل:

كان طموح داود أعظم و أكبر من أن تكفيه منطقة ضئيلة في أقصى جنوب فلسطين، كالتي اعترفت بسلطانه، فبدأ يرنو بناظرية إلى الشمال، الذي استقل تحت حكم إيشبعل الضعيف، و كان الصدام بين الحزبين المتنافسين أمراً لا مفر منه، و هكذا بدأ داود يعد عدته سياسياً و عسكرياً لاستعادة وحدة إسرائيل، و من ثم فإنه لا يكتفي بعلاقاته الودية مع القبائل الجنوبية، و لكنه يمدّها إلى شرق الأردن، و من ثم فقد تزوج من ابنة ملك «جشور» الآرامي، لأن مملكته كانت مجاورة ليايش جلعاد، حيث لجأ إيشبعل و تحصن هناك، كما أنه دخل في حلف مع ملك عمون، ليطبق كماشته على إيشبعل، و نقرأ في التوراة أن داود بدأ يتفاوض مع رجال عدوه و يدفعهم إلى الانضمام إليه، و قد أجابه كثيرون، و هكذا أصبح الموقف العام في يهوذا ضد إسرائيل، بل و بدأت يهوذا تستغل مشاكل إسرائيل لمصلحتها (2).

ثم سرعان ما لبثت يهوذا و إسرائيل، تحت حكم داود و إيشبعل، أن

ص: 58

1- . P. tic- pO, llaH. R. H 427. و كذا. . p, tic- pO, htoN. M 183 .

2- صموئيل ثان 8/2، محمد بيومي مهران: إسرائيل 706/2-710، إسماعيل راجي الفاروقي: أصول الصهيونية في الدين اليهودي- القاهرة 1964 ص 44-45، و كذا، 1931. p. 373. A. S 373. II, HAC, kooC.

غزوتنا في اشتباكات عسكرية في منطقة الحدود، وعند ما قرر «جبنير» قائد جيش إيشبعل، غزو مملكة داود الصغيرة، وضمها لمملكة إسرائيل، فقد هزم في «جبعون» على يد «يوآب» قائد جيش داود (1)، وقد كشفت البعثات الأمريكية عام 1956 م أسوار مدينة «جبعون» (7 أميال شمالي القدس)، كما اكتشفت كذلك مشهد المعركة الدموية في تلك الأيام الخوالي من بداية الألف الأولى قبل الميلاد، وطبقا لرواية التوراة، فلقد حدث قتال عنيف في هذه البقعة يدا بيد بين أعوان المتنافسين (2)، وسرعان ما قتل إيشبعل، وخلص حكم بني إسرائيل لداود وحده، ودانت له الأسباط جميعا (3) وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك، إلى حبرون، فقطع الملك داود معهم عهدا في حبرون أمام الرب، و مسحوا داود ملكا على إسرائيل، وكان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، وملك أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفي أورشليم ملك ثلاثا وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا (4)، وقد أشرنا من قبل إلى الآراء المختلفة التي دارت حول تحديد الفترة التي حكم فيها داود عليه السلام، وارتضينا أن نأخذ بما ذهب إليه «وليم أولبرايت» من أنها في الفترة (100-960 ق. م) (5).

4- داود و الفلسطينيين:

لم يتقبل الفلسطينيون عن رضى اتحاد قوى اليهودية وإسرائيل في دولة

ص: 59

1- .P, tic-pO, relleK. W 188 .

2- صموئيل ثان 13/2-32، وكذا، tic-p. . p. 21. . p. 1957. 26-3. BMU. 19، 1956، 62-75. AB, drahtirP. B. J
pO, relleK. W 188 و كذا

3- صموئيل ثان 13/2-12/4، وكذا. aideapolcycnE hsiweJ ehT 461. p. 4، وكذا، tic-po, htoN. M 186

4- صموئيل ثان 3/5.

5- .p. tic-pO. thgirella. F. W 122-120 .

واحدة، تحت زعامة داود، البطل الجديد، و من ثم فقد بدءوا يفكرون في مقاومة هذه الوحدة، التي كانت، دونما ريب، تمثل تهديدا خطيرا لسيطرتهم على فلسطين (1)، و نقرأ في التوراة «و سماع الفلسطينيين أنهم مسحوا داود ملكا على إسرائيل، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود، و احتلوا وادي الرفائين» (2) (وادي البقاع جنوب غربي القدس على الأرجح) ذلك لأن منطقة القدس هي التي تفصل المناطق التي تحتلها إسرائيل عن تلك التي تحتلها يهوذا، و بهذا قطعوا اتصال داود بالأسباط الشماليين أو على الأقبل عملوا على منع تجميع جيوش المملكتين.

و شرع داود يستعد بفرقته من الجنود المحترفين، و ربما قام بهجوم مفاجئ قرب وادي جبعون، نجح فيه في قهر الفلسطينيين تماما، و هزيمتهم باستخدام أسلوبهم الحربي، فلم يواجههم، كما فعل طالوت، بالجانب الأكبر من قواته، و إنما بفرقة من المحترفين التي ربما كانت قد عززت و تطورت أثناء حكم داود في يهوذا (3)، و كان لديهم الفهم المحترف لفن».

ص: 60

1- .. M 187 .p. tic- po, htoN.

2- صموئيل ثان 17/5-18.

3- كان جيش إسرائيل على أيام داود يتكون من عنصرين هما: (1) السبا (abaS) أي أفراد الحرس الملكي، و هم جماعة من رجال القبائل الأقوياء يستدعون بصوت النفير، و برفع الأعلام أو إشعال النار على التلال، و هي قوات بدون زي موحد كان تجميعها و وضعها تحت السلاح يعتمد على الإرادة الفردية الجيدة، و كان داود يستخدمهم ضد الشعوب المجاورة في شرق الأردن، و كانوا يحملون مع التابوت إلى أرض المعركة، و من الواضح أن داود كان ينظر إلى التابوت بأهمية كبيرة، فهو إلى جانب قيمته الدينية، إنما كان يمثل تحالف القبائل الإسرائيلية جميعا. (2) الجبوريم (mirobbiG) و هي القوات الدائمة و قد تكونت نواتها الأولى من ستمائة مقاتل كانوا قد تجمعوا حول داود عند ما هرب عن طالوت، و كانوا يسمعون «رجال داود الأقوياء» و إن لم يكونوا جميعا من بني إسرائيل، بل إن معظمهم من شعوب أجنبية (و منهم أوريا الحشي) و كانوا ينتمون إلى داود شخصا، و ليس إلى القبائل الإسرائيلية، و كانوا سلاحه في خطواته الأولى نحو عرش إسرائيل، و قد أحرز بهم انتصارات هامة، كانتصاره على الفلسطينيين و كاحتلاله «دولة المدينة أورشليم».

الحرب، وهكذا هزم داود الفلسطينيين بهذا الجهاز السريع الحركة، وبمهارته المتقطعة النظير (1)، ولكن سرعان ما قام الفلسطينيون بمحاولة ثانية، بعد أن قدّروا، نتيجة للجولة السابقة، القوة والمهارة الحربية لداود، ولم يعدوا كل قوتهم لمواجهته، ومن ثم فسرعان ما ظهروا في وادي رفائيم، وهزمهم داود مرة أخرى في مكان تصفه التوراة بأنه «مقابل أشجار البكا» (2)، وربما أطبق داود بقواتهم عليهم من الشمال، من جانب دولة إسرائيل، فجأة، كحدث من قبل، وعلى أية حال، فطبقا لرواية التوراة، فلقد قام داود «بضرب الفلسطينيين من جبع إلى مدخل جازر» وإن ذهبت رواية أخرى إلى أنه ضربهم «من جبعون إلى جازر، مقتفيا أثرهم حتى حدود بلادهم» (3).

وهكذا كتب لداود النصر المبين على أقوى أعدائه، وأكثرهم أهمية، كما كتب له نجما بعيد المدى في طردهم من المناطق الإسرائيلية بل إننا لنسمع عن حرب دقت طبولها عند «جت»، إحدى المدن الخمسة الرئيسية في الاتحاد الفلسطيني، بل وقد أصبحت مدينة «جت» فيما بعد مدينة إسرائيلية تحت حكم داود (4).

غير أن تلك الانتصارات التي حققها داود ضد الفلسطينيين، كما جاءت في التوراة، لم تجعل الفلسطينيين تابعين لداود سياسيا، صحيح أنها أجبرتهم على الاعتراف بسيادة داود على الجزء الأكبر من فلسطين، ولكنه صحيح كذلك أنهم بقوا في إقليمهم الصغير على ساحل البحر المتوسط، القوة

ص: 61

1- .. 187- 188 M. N. H. O. P. T. I. C.

2- صموئيل ثان 23/5.

3- صموئيل ثان 25/5، أخبار أيام أول 16/14، وكذا: 188- 189 M. N. H. O. P. T. I. C.

4- .. 360 L. A. S. D. O. P. T. I. C.

الوحيدة التي لم يقدر لداود أن يخضعها، ولعل السبب في ذلك فيما يرى بعض الباحثين، أن مصر، رغم أنها كانت تمر بفترة ضعف في تلك الآونة، قد أعطت الفلسطينيين من تأييدها، ما يمنع داود من ضمهم إلى نفوذه، بل إن السهل الساحلي الفلسطيني لم يصبح أبدا جزءا من الأملاك الإسرائيلية، هذا فضلا عن أن الفلسطينيين سرعان ما يظهرون مرة أخرى كجماعة مستقلة في القرن الثامن و السابع قبل الميلاد (1).

5- داود و مؤاب و عمون و آرام و أدوم:

كانت مؤاب أول قوة، من أعداء إسرائيل القدامى، هوجمت و هزمت و أصبحت ولاية تابعة لداود عليه السلام، و طبقا لرواية التوراة، فلقد «أصبح المؤابيون عبيدا لداود يقدمون هدايا»، و إن استمر النظام الملكي فيها قائما كما كان من قبل، مع الاعتراف بالتبعية لداود عليه السلام (2).

و كانت عمون هي القوة التالية التي ضربها داود، و لعل السبب المباشر للصدام بين داود و بنحمن إنما هو إساءة العمونيين لرسول داود الذين كانوا في مهمة ودية بمناسبة تغيير السلطة في عمون، حيث قام «حانون» ملك عمون الجديد «فأخذ عبيد داود و حلق أنصاف لحاهم و قص ثيابهم من الوسط إلى أستاذهم، ثم أطلقهم» (3)، و من ثم فقد أدرك العمونيون، بعد فعلتهم هذه، أن الحرب مع بني إسرائيل أصبحت أمرا لا مفر منه، و من هنا فقد بدءوا يطلبون معونة جيرانهم الآراميين في «أرام بيت رحوب» و آرام «صوبة» و في معكة و طوب (4)، و أتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال و المعدات لمساعدة

ص: 62

1- صموئيل ثان 17/5-25 و كذا. p, tic- pO, noyneK. M. K 244. و كذا. p, tic- pO, htoN. M 194.

2- صموئيل ثان 2/8، و كذا. p, tic- pO, htoN. M 194. و كذا. p, tic- pO, llaH. R. H 430.

3- صموئيل ثان 1/10-5.

4- انظر عن هذه الولايات الآرامية في شرق الأردن (محمد بيومي مهران: إسرائيل 539/2-542).

العمونيين ضد الهجوم الإسرائيلي المرتقب، وقد نجحت قوات داود بقيادة «يؤاب» في هزيمة هؤلاء الآراميين، ثم «رجع يؤاب عن بني عمون وأتى إلى أورشليم» (1).

و يعلم «هدد عزره ملك صوبة بذلك، فيستدعي «أرام الذي في عبر النهر» إلى «حيلام» (ربما كانت عليم أو علمه في سهل حوران) و يتقدم قائده «شوبك» لملاقاة بني إسرائيل، و ينجح داود، الذي كان على رأس جيشه هذه المرة، في إحراز النصر، و في العام التالي يأمر داود قائده «يؤاب» بالاتجاه نحو عمون، و سرعان ما يحاصر يؤاب «ربة» (ربه عمون) (2)، غير أنه لا يستطيع إخضاعها، و من ثم يطلب نجدة من داود، الذي يسرع لإنقاذ قائده بنفسه، فيستولي على قلعة المدينة، و يعاقب العمونيين بقسوة، و طبقا لرواية التوراة، فإن داود أمر بحرق المغلوبين، و سلخ جلودهم و وشرهم بالمنشار، بعد أن وضعهم تحت نوارج و فئوس من حديد (و بدهي أن ذلك من تحريفات التوراة، فما كان النبي الأواب يفعل ذلك أبدا)، ثم وضع التاج العموني، بما فيه من ذهب و أحجار كريمة، على رأسه، و بعبارة أخرى، فلقد أصبح داود ملكا على عمون (3).

ثم اتجه جيش داود بعد ذلك إلى أدوم، و طبقا لرواية التوراة، «فإن يؤاب و كل إسرائيل أقاموا في أدوم ستة أشهر، حتى أفنوا كل ذكر في أدوم»، و هكذا هزمت قوات إسرائيل أدوم، و قتل «حداد الثاني»، و هو الملك الثامن

ص: 63

1- صموئيل ثان 6/1-14 و كذا، 1965، p. 195، M. H. W. H. T. I. fo yrotsiH ehT, htoN. M 195. nodnoL.

2- ربة أوربة عمون: هي عاصمة العمونيين، و قد سميت في العصر الإغريقي «فيلادلفيا، نسبة إلى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلادلفيوس» (284-246 ق. م)، و هي في موقع تشغله حاليا عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية «عمان» حيث يوجد في اسمها جزء من اسم العمورتيين (محمد بيومي مهران) إسرائيل 2/557).

3- صموئيل ثان 12/26-31، و كذا.. 195، M. H. W. H. T. I. fo yrotsiH ehT, htoN. M 195. p, tic- pO.

السلام، فنطلق عليها وصف «إمبراطورية»، كما أراد أن يصفها بعض المؤرخين المحدثين (1)، أو نبالغ في حدودها كما فعل بعض الكتاب المصريين المحدثين، فجعلها تمتد من نهر الفرات إلى البحر المتوسط، و من دمشق إلى الخليج العربي (2)، بل إن هناك من زعم، دونما أي دليل، أن داود و سليمان عليهما السلام قد أقاما دولة تشمل الشام كله، و الجزيرة العربية كلها (3)، الأمر الذي يدعونا إلى مناقشته بشيء من التفصيل عند الحديث عن دولة سليمان عليه السلام.

و على أية حال، فربما كان تحديد الدكتور الحاخام «أبشتين» أقل مبالغة من غيره، فقد ذهب إلى أن دولة داود كانت تمتد من فينيقيا (لبنان) في الغرب، إلى حدود الصحراء العربية في الشرق، و من نهر العاص (الأورنت) في الشمال إلى خليج العقبة في الجنوب (4)، و أما التوراة فقد ذهبت إلى أن مملكة إسرائيل كانت في أقصى اتساع لها «من دان إلى بئر سبع» (5)، و من ثم فالتوراة التي اشتهرت بمبالغاتها فيما يتصل بمملكة إسرائيل، إنما تحدد لها من الشمال مدينة «دان» و تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضي حيث منابع الأردن على مبعدة ثلاثة أميال غربي بانياس (6)، و من الجنوب «بئر سبع» الحالية، و لم تشر التوراة إلى حدود لإسرائيل من الغرب أو الشرق، هذا أو قد ذهب المسعودي إلى أن ملك داود

ص: 65

1- , 1975 . p. 583. O 583. egdirbmaC, 2, traP, II, HAC ni, modgniK werbeH ehT, tdlefssiE.

2- علي إمام عطية: الصهيونية العالمية و أرض الميعاد ص 63.

3- جمال عبد الهادي و وفاء رفعت: ذرية إبراهيم عليه السلام و بيت المقدس - الرياض 1986 ص 255-256، 259، 270.

4- , 1970 . p. 35. msiaduJ, nietspE, I

5- قضاة 1/20، صموئيل أول 20/3، صموئيل ثان 15/24 أخبار أيام أول 2/21، و كذا. F. M 236. regnU. tic- p,

6- قاموس الكتاب المقدس 356/1-357.

إنما كان على فلسطين و الأردن، كما جاء في مروج الذهب (70/1).

ولعل من الجدير بالإشارة أن فينيقيا كانت- وخاصة على أيام «حيرام» (980-936 ق. م) الذي عاصر داود وسليمان و كان ذا نشاط كبير في الاقتصاد و الفن و العمارة في إسرائيل- دولة مستقلة، و ليست هناك أية إشارة في التوراة أو الوثائق التاريخية إلى أن حيرام كان خاضعا لداود، كما أن هناك ما يشير إلى محاولة داود توطيد علاقاته بحماة من أقصى الشمال، فضلا عن الفلسطينيين في الغرب، و أن السيطرة الإسرائيلية على أيام داود لم تكتمل بالاستيلاء على كل فلسطين، و حتى الجزية، فيما يبدو، لم تكن ترسل إلى القدس، أضف إلى ذلك أن الفلسطينيين الجنوبيين قد وضعوا أنفسهم، راغبين لا مكرهين، تحت حماية فراعين مصر الشماليين في تانيس، و الذين كانوا يتبعون سياسة نشطة في فلسطين في تلك الأيام، حتى إن «شيشنق، مؤسس الأسرة الثانية و العشرين، عند ما غزا يهوذا بعد موت سليمان عليه السلام، لم يذكر المدن الفلسطينية، مما يدل على أنها كانت تحت الحكم المصري من قبل» (1).

و من ثم يذهب «هربرت ويلز» إلى أن أرض الميعاد (المزعومة) لم تقع يوما- و لن تقع، في قبضة العبرانيين، هذا فضلا عن أن ما وطد ملك داود، و هيا له شيئا من الاتساع، أن أمور مصر كانت في عهده مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين و بلاد الشام، و كانت أمور آشور مرتبكة كذلك، و قد منح هذا كله لداود عليه السلام شيئا من الحرية و النشاط و ممارسة السيادة (2).

ص: 66

1- ج. كونتو: الحضارة الفينيقية- ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ص 71، و كذا. p, tic- pO, llaH. R. H 431.

2- , 1965 p. 279. G. H 279. p. 1965, yrotsiH fo eniltuo eht, slleW. G. H 279. p. 1965, nodnoL.

لم تكن هناك قاعدة عامة قد وضعت بعد لخلافة العرش في دولة إسرائيل الجديدة، ولكن مما لا شك فيه أن الابن الأكبر كان صاحب الحق في ذلك، إلا أن مكانة الأم و رغبة الملك و اختيار الشعب و الموافقات الدينية قد تكون سببا في اختيار أحد أخوته الصغار (1).

و يذهب بعض الباحثين إلى أنه ربما كانت فكرة داود عليه السلام عند ما طلب «ميكال» ابنة طالوت (شاؤل) لتكون زوجة له، إنما كان يبغي من وراء ذلك أن الابن الأكبر من هذا الزواج، تكون له الأفضلية على بقية إخوته من علات ميكال، وربما يستطيع هذا الابن المرتقب أن يجذب إليه عواطف هؤلاء الذين كانوا يؤيدون بيت شاؤل، بصفته حفيدا لشاؤل، ولكن «لم يكن لميكال بنت شاؤل ولد إلى يوم موتها» (2)، وهكذا ضاع الأمل في أن يكون خليفته داود هو في نفس الوقت حفيد شاؤل (طالوت)، و أما بالنسبة لبقية أبناء داود فطبقا للقانون الإسرائيلي - كما قررتة التوراة في سفر التثنية (3)، فإن للابن الأكبر نصيب الأسد في ميراث أبيه، بصرف النظر عن مكانة الأم بين علاتها من زوجات الأب، و من هنا كان من الطبيعي أن يخلف داود على عرش إسرائيل أكبر ولده، ولكن هنا في حالة داود عليه السلام، مؤسس الملكية و البيت المالک، فإن الابن الأكبر، الذي ولد بعد اعتلائه العرش مباشرة، ربما كانت له أفضلية خاصة، و لكن أبناء داود أنفسهم ما كانوا

ص: 68

1- . A 364 . p, tic- sdoL.

2- صموئيل ثان 6 / 23.

3- تثنية 21 / 5- 17، و انظر عن «البكورية» عند بني إسرائيل (تكوين 25 / 31، تثنية 21 / 17، خروج 22 / 29، قاموس الكتاب المقدس 187 / 1، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1 / 189- 192).

يعيرون المظهر الأخير أية أهمية خاصة، وإنما كانوا يعتبرون أنفسهم جميعا خلفاء محتملين للعرش، طبقا لترتيب أعمارهم (1).

وهناك في التوراة قائمة بستة أبناء ولدوا في حبرون، أثناء فترة ملكية داود على يهوذا وهم «وكان بكره أمنون من أخينوعم اليزرعيلية، وثانية كيلاب من أبيجايل، والثالث أبشالوم ابن معكة بنت تلماي ملك جشور، والرابع أدونيا بن جحيث، والخامس شفتيا بن أيطال، والسادس يثر عام من عجلة» (2)، ولكن نظرا لأن داود كانت له زوجتان، على الأقل، تعتبران أقدم من الأخريات (أخينوعم وأبيحايل)، وطبقا لرواية التوراة في صموئيل الأول (43-42/25) فربما كان البعض من هؤلاء الأبناء أكبر قليلا من الآخرين، وأن القائمة السابقة كانت إضافة لإحصاء أبناء داود الذين ولدوا في أورشليم (3)، وهم طبقا لرواية صموئيل الثاني (16-13/5): شموع وشوباب وناثان وسليمان وبيجار واليشوع ونافج ويافيع والبشمع والبداع واليفلطا).

هذا ويوصف «أمنون» صراحة في سفر صموئيل الثاني (2/3) بأنه ابن داود البكر، ومن ثم فقد اعتبر نفسه، كما اعتبره إخوته كذلك، وليا للعهد أو الملك القادم، غير أنه لم يكن حكيما بما فيه الكفاية، كما لم يكن كريما ولا عفيفا، وطبقا لرواية التوراة في صموئيل الثاني (إصحاح 13-14) فقد اعتدى على أخته غير الشقيقة، مما دفع أبشالوم إلى أن يثار لعرض شقيقته «تامار» فيقتله، ثم هرب عند أخواله في جشور، وبقي هناك ثلاث سنوات (4)، ومن ثم فقد أصبح كيلاب الابن الثاني لداود وليا للعهد، ولكنه).

ص: 69

1- . p, tic- pO, htoN. M 200

2- صموئيل ثان 2/3-5.

3- . p, tic- pO, htoN. M 200

4- انظر عن قصة أمنون وأخته تامار (صموئيل ثان 1/13-39، محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/211-213).

سرعان ما يختفي لسبب لا ندره على وجه اليقين، و من ثم فقد أصبح أبشالوم الابن الثالث لداود وليا للعهد، ولكنه بدوره سرعان ما يختفي في ثورة دامية، كما سنرى، و من ثم تصبح ولاية العهد من حق الابن الرابع «أدونيا»، ولكنه لم يصل إلى العرش أبدا، حيث سيكون ذلك من نصيب سليمان، الابن العاشر كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد.

8- ثورة أبشالوم:

بدأ أبشالوم يعدّ العدة لاعتلاء عرش أبيه، و كان أول ما فعله أن حصل - بمساعدة يؤاب - على عفو أبيه المطلق عن جريمته بقتل أخيه أمنون، و من ثم فقد عاد أبشالوم من جشور إلى أورشليم، و بدأ يبيث الدعوة لنفسه بين المقربين إليه، ثم سرعان ما نجح في اكتساب عطف و تأييد القبائل الإسرائيلية و خاصة يهوذا قبيلة أبيه، و حين استوثق من النجاح ذهب إلى حبرون يأذن من أبيه، بحجة الوفاء بنذر كان قد نذره إبان إقامته في «جشور»، و هناك في حبرون أعلن عصيانه و نادى بنفسه ملكا على إسرائيل، و من أسف أن القوم سرعان ما انضموا إليه ضد داود، بل إن ثورة أبشالوم سرعان ما ضمت إليها «أخيتوفل» و هو واحد من مستشاري داود المقربين (1).

و تعلق بعض المصادر الإسلامية بسرعة استجابة اليهود لأبشالوم، بأن قصة امرأة أوريا الحثي كانت سببا في إزالة طاعة داود عن بني إسرائيل و استخفوا بأمره و وثب عليه ابن يقال له «إيشا» و أمه ابنة طالوت، فدعى إلى نفسه، فكثرت أتباعه من أهل الزبيغ من بني إسرائيل، فلما تاب الله على داود اجتمع إليه طائفة من الناس، فحارب ابنه حتى هزمه، و وجه إليه بعض قواده

ص: 70

1- صموئيل ثان 29/13، 1/14-3، 7/15-10، ماير: حياة داود ص 362 (مترجم)، و انظر: تاريخ اليعقوبي 1/53.

و أمره بالرفق به و التلطف لعله يأسره و لا يقتله، و طلبه القائد و هو منهزم فاضطره إلى شجرة فقتله، فحزن عليه داود حزنا شديدا و تنكر لذلك القائد (1).

و يذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن القبائل الإسرائيلية ربما كانت غير راضية عن اتساع أملاك داود التي بدأت تمتد إلى ما وراء مناطقها، ذلك لأن ضم إسرائيل لعديد من المدن المستقلة ذات المستوى الحضاري المتقدم، و التي تمتلك صناعات هامة، فضلا عن سيطرتها على أراض كبيرة و غنية تمر خلالها طرق القوافل، كل ذلك أدى إلى رخاء مفاجئ في إسرائيل، تمتعت به طبقة خاصة صغيرة من رجال البلاط و كبار الموظفين و قادة الجيش و التجار، بينما لا يتمتع العامة من القوم ممن كانوا يعملون جنودا عاديين في الجيش بمثل هذا الرخاء، مما جعلهم غير راضين عن الوضع الجديد المفاجئ و يتقبلون دعاوي أبشالوم ضد أبيه (2)، أضف إلى ذلك، فيما يرى البعض، التوتر القائم بين يهوذا و إسرائيل، و الذي ظل قائما أبدا، و رغم أنه لم يكن السبب الرئيسي للثورة، إلا أنه لعب دورا هاما فيها، بخاصة و أن يهوذا حيث قامت الثورة في حبرون، بدأت تحس أن داود بدأ يفضل إسرائيل عليها (3)، و أخيرا فلعل من أسباب الثورة ذلك الاتجاه العدائي من القبائل الإسرائيلية، التي اعتادت النظام القبلي، ضد سياسة المركزية التي بدأت تسير عليها مملكة داود (4).

و مع ذلك فإن أسباب ثورة أبشالوم ما زالت تنتظر مزيدا من الوضوح،

ص: 71

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/ 127، و انظر: تاريخ الطبري 1/ 484.

2- .A . tIA . S eiD gnudiulnetaatS ni nitilearsI red ,anitsalaP ,nehc .ruM , F 1 585- 586 O . dlefssiE . pO . tic- p, 1953 .p, 56.

3- .p, tic- pO , tdlfssiE 586 .

4- .p, learsI fo noigileR dna ygoloeahcrA , thgirblA . W 158 .

ذلك لأن حركة السخط التي قام بها «شبع بن بكري» من سبط بنيامين (1) (سبط طالوت) ضد داود، بعد انتصاره على ولده أبشالوم، إنما قد استمدت قوتها من المعارضة الدائمة بين قبائل الشمال والجنوب، ورغم أن داود عليه السلام قد كتب له نجاحاً بعيد المدى في القضاء على كليهما، وأن القضاء على ثورة شبع كان أسرع من القضاء على ثورة أبشالوم، فالذي لا شك فيه أن الأمور في إسرائيل ربما كانت سوف تتغير كثيراً بسبب هاتين الثورتين، لولا وجود شخصية داود القوية (2)، ذلك لأن التنافس بين قبائل الشمال والجنوب كان أقوى عوامل هدم مملكة إسرائيل، وهو تنافس لم يقض عليه أبداً، بل هو نفسه الذي قضى على الدولة (3).

وأيما ما كان الأمر، فإن ثورة أبشالوم إنما كانت جد خطيرة، حتى إن داود عليه السلام لم يجد بجواره غير حرسه الخاص و حتى اضطر إلى أن يعبر الأردن إلى «مخانيم» تحت حماية التابوت مع رجاله، حتى لا يفاجأ بأبشالوم وأتباعه في العاصمة أورشليم (4)، بل إن بعض المصادر العربية جعلته يلحق بأطراف الشام، بل إن الخيال ذهب بهم إلى أن يصلوا به إلى خيبر و ما إليها من بلاد الحجاز (5)، بينما ذهب آخرون إلى أن داود هرب ماشياً على رجليه حتى صعد عقبة طور سيناء، وبلغ منه الجوع حتى لحقه رجل معه خبز و زيت فأكل منه، و دخل أبشالوم مدينة أبيه، و صار إلى داره و أخذ سراري أبيه فوطأهن و قال: ملكني الله على بني إسرائيل، و خرج معه اثنا عشر ألفاً فطلب داود ليقتله، فهرب داود حتى جاز نهر الأردن (6)، و هكذا يبدو واضحاً مدى).

ص: 72

- 1- صموئيل ثان 20 / 1-22.
- 2- .p, tic- pO, tdlefssiE. O 586 .
- 3- سبتينو موسكاتي: المرجع السابق ص 141.
- 4- صموئيل 14/16-14115.
- 5- تاريخ ابن خلدون 111 / 2 (بيروت 1981).
- 6- تاريخ يعقوبي 53 / 1 (بيروت 1980).

اضطراب الروايات في تحديد المكان الذي لجأ إليه داود عليه السلام، فهو في رواية لجأ إلى محانيم في عبر الأردن، و هو في رواية ثانية إنما يلجأ إلى خيبر في شمال غرب الجزيرة العربية، و في رواية ثالثة صعد إلى عقبة طور سيناء، بل إن نفس الرواية سرعان ما تعكس الاتجاه و تذهب به إلى الشرق، فتعبر به الأردن، و بدهي أن اضطراب هذه الروايات إنما يقلل من قيمتها التاريخية، و يجعلها في مظان الشك و هواتف الريبة، فضلاً عن الشك في القصة من أساس، و هذا ما نميل إليه و نرجحه.

و على أية حال، فإن أبشالوم، طبقاً لرواية التوراة، قد استطاع أن يستولى على أورشليم، و أن يغتصب عرش أبيه بل إنه حتى لم يتورع عن أن ينتهك عرض أبيه بمشورة أختوفل على مرأى من الناس «فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، و دخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل» (1)، غير أن بني إسرائيل بدءوا بعد ذلك يعودون إلى داود و الانضمام إلى جيشه تدريجياً، ربما نتيجة لما بذله بعض المخلصين له من جبرون، و ربما نتيجة لغرور أبشالوم و أخطائه الكثيرة، و إصغائه للحمقى من المقربين إليه، و ما ترك ذلك من آثار سيئة في نفوس الناس.

و أياً ما كان السبب، فإن أبشالوم قد حاول بكل ما وسعته المحاولة من أن يمنع عودة أبيه إلى أورشليم، و من ثم فقد جمع أنصاره قبل تفاقم الأمر، و زحف بهم إلى شرق الأردن، حيث كان أبوه في جلعاد، و قد اجتمع إليه عدد كبير من الأنصار، و هكذا بدأ القتال في «وعر أفرام» قرب محانيم على الأرجح، و أثبت رجال داود أنهم أعلى كعباً من رجال القبائل الإسرائيلية الذين التفوا حول أبشالوم، و دارت الدائرة على أبشالوم الذي أمر الملك بعدم قتله، «و كانت هناك مقتلة عظيمة في ذلك اليوم، قتل عشرون ألفاً،

ص: 73

وكان القتال هناك منتشرًا على وجه كل الأرض، وزاد الذين أكلهم الوعر من الشعب على الذين أكلهم السيف في ذلك اليوم»، وقاتل أبشالوم أثناء هروبه، على الرغم من أوامر الملك الصريحة على ملأ من الشعب بعدم قتله، وكما يقول الطبري: وجه داود في طلبه قائدًا من قواده (يؤاب) وتقدم إليه أن يتوفى حتفه، ويتطلف لأسره، فطلبه القائد وهو منهزم، فاضطره إلى شجرة فركض فيها، وكان ذا جمّة، فتعلق بعض أغصان الشجرة بشعره فحبسه، ولحقه القائد فقتله مخالفاً لأمر داود، فحزن عليه داود حزناً شديداً، وتكر للقائد، وربما طبقاً لرواية التوراة أن رجلاً رأى أبشالوم معلقاً من رأسه في شجرة كبيرة ملتفة الأغصان فأخبر القائد يؤاب الذي أمره بقتل أبشالوم على أن يعطيه عشرة من الفضة و منقطة، لكن الرجل رفض أن يقتل ابن الملك، بعد أن سمع الملك يوصي بعدم قتله، ولو أعطاه ألفاً من الفضة، ومن ثم فقد تقدم يؤاب «وأخذ ثلاثة سهام بيده ونسبها في قلب أبشالوم، وهو بعد حي في قلب البطمه، وأحاط بها عشرة غلمان حاملوا سلاح يؤاب و ضربوا أبشالوم وأماتوه»، وقد أدى ذلك كله إلى حزن داود المرير على ولده، حتى «صعد إلى عليّة الباب وكان يبكي ويقول، وهو يتمشى، يا ابني يا أبشالوم يا ابني يا ابني أبشالوم، يا ليتني مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابني يا ابني»، وهكذا لم يعد أمام القبائل الإسرائيلية سوى المناداة بـداود ملكاً عليها مرة ثانية (1).

9- التعداد العام و نتائجها:

تروي التوراة أن رب إسرائيل غضب على شعبه إسرائيل «فأهاج عليهم داود قائلاً: امض واحص إسرائيل ويهوذا، فقال الملك ليؤاب رئيس الجيش الذي عنده: طف في جميع أسباط إسرائيل من دان إلى بئر سبع

ص: 74

1- صموئيل ثان 1/18 - 41/19، تاريخ الطبري 484/1، تاريخ ابن خلدون 1/111، تاريخ اليعقوبي 53/1، الكامل لابن الأثير 1/127.

وعدوا الشعب فاعلم عدد الشعب»، و يقوم يوأب بالمهمة التي تستغرق ستة أشهر وعشرين يوماً. «و كان إسرائيل ثمان مائة ألف بأس مستل السيف، ورجال يهوذا خمس مائة ألف رجل»، غير أن رب إسرائيل سرعان ما يرسل جاد النبي ليخبر داود بين «سبع سني جوع في أرضك، أم تهرب ثلاثة أشهر بين أعدائك، أم يكون ثلاثة أيام وباء في أرضك»، و يترك داود الخيرة لربه «الذي يجعل وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع، سبعون ألف رجل، و بسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم الرب (1) عن الشر، و قال للملاك المهلك للشعب كفى، الآن رويدك» (2).

و من عجب أن التوراة لم تقدم لنا هنا سبباً مقنعاً لغضب يهوه على شعبه، و إن أشارت أن ذلك إنما كان بسبب خطايا داود، و من ثم فهو يقول، ملتسماً عفوره و رحمته بشعبه «ها أنا أخطأت، و أنا أذنبت، و أما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك على و على بيت أبي»، ثم تعود مرة أخرى فتروي نفس الرواية، و لكنها تقدم أرقاماً للإحصاء تختلف عن المرة الأولى «فإسرائيل كان ألف و مائة ألف رجل مستلى السيف، و يهوذا أربع مائة و سبعين ألف رجل مستلى السيف»، هذا بخلاف سبطي لاوي و بنيامين (3)، و التعارض هنا بين نصوص التوراة ليس أمراً جديداً علينا فنظائره كثيرة.

ص: 75

-
- 1- من المؤلم أن توراة اليهود، و ليست توراة موسى، كثيراً ما تصور يهوه (الله) ليس معصوماً، و أنه كثيراً ما يقع في الخطأ ثم يندم على خطئه، حدث ذلك عند ما فكر في إهلاك اليهود عن بكرة أبيهم، مما اضطر موسى إلى أن ينصحه فينتصح، ثم هناك ندمه على اختيار شاول (طالبوت) ملكاً، غير أن أشنع أخطائه خلقه الإنسان، ثم ندم على ذلك (انظر: تكوين 6/6، خروج 14/12، 10/32، صموئيل أول 15/11، إرميا 7/18-10، عاموس 1/7-6، يونان 3/9-10، محمد بيومي مهران: إسرائيل 4/12-14).
 - 2- صموئيل ثان 1/24-17.
 - 3- أخبار أيام أول 5/21-6، محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/738-740.

و على أي حال، فإن التوراة تجعل التعداد الذي قام به داود، بأمر من رب إسرائيل، سببا من البلايا التي أنزلها رب إسرائيل بإسرائيل، وإن كنا لا ندري لم يغضب رب إسرائيل من قيام ملك إسرائيل بهذا التعداد، الذي تقوم به شعوب كثيرة (1)، حتى يفرض عليه واحدة من بلايا ثلاثة: أقلها و بآء يروح ضحيتة سبعون ألف رجل، غير أن الإمام الطبري يروي عن «وهب بن منبه» أن سبب غضب الرب أن داود فعل ذلك دون أمر من ربه، فعتب الله عليه ذلك وقال: قد علمت أنني وعدت إبراهيم أن أبارك فيه وفي ذريته حتى أجعلهم كعدد نجوم السماء، و أجعلهم لا يحصى عددهم، فأردت أن تعلم عدد ما قلت، إنه لا يحصى عددهم، فاختاروا بين أن أبتليكم بالجوع ثلاث سنين أو أسلط عليكم العد ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام، فاستشار داود في ذلك بني إسرائيل فقالوا: ما لنا بالجوع ثلاث سنين صبورا، و لا بالعدو ثلاثة أشهر، فليس لهم بقية، فإذا كان لا بد فالموت بيده لا بيد غيره، فذكر و هب أنه مات منهم في ساعة من نهار ألوف كثيرة، لا يدري ما عددهم، فلما رأى داود ذلك شق عليه ما بلغه من كثرة الموت، فقتل إلى الله و دعاه فقال: يا رب أنا آكل الحماض (أي ما في جوف الأترجة) و بنو إسرائيل يضرسون، أنا طلبت ذلك فأمرت به بني إسرائيل، فما كان من شيء في، و اعف عن بني إسرائيل، فاستجاب الله لهم و رفع عنهم الموت» (2).

و الغريب في هذه الرواية أنها تناقض رواية التوراة في أمور، منها أن التعداد هنا كان بأمر داود، مع أن رواية التوراة صريحة في أن الذي أمر

ص: 76

1- لعل أول شعوب العالم التي قامت بعمل تعداد عام إنما هم المصريون، و قد قام به الملك «دن» (و ديمو) رابع ملوك الأسرة الأولى الفرعونية، و ذلك قبل عام 3000 ق. م، و لأول مرة في التاريخ، و بالمناسبة فإن آخر تعداد تم في مصر كان في نوفمبر عام 1986، و بلغ سكان مصر أكثر من 50 مليون.

2- تاريخ الطبري 485/1، و انظر تاريخ اليعقوبي 55/1-56، تاريخ ابن خلدون 111/1.

بالتعداد إنما هو رب داود، وليس داود، ومنها أن بني إسرائيل هنا هم الذين اختاروا الموت عقاباً لهم، وفي رواية التوراة أن داود ترك الخيرة لأمر ربه، فاختار لهم الموت، ومنها أن عدد القتلى هنا غير معروف وإن كان ألوفاً كثيرة، مع أنه في رواية التوراة قد حدد بسبعين ألفاً، ومنها أن داود اعتذر هنا بأنه يأكل الحمض وبنو إسرائيل يضرسون، وفي رواية التوراة اعتراف صريح «ها أنا أخطأت وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا» والأعجب أننا ما ندري لو هب بن منبه مصدراً في روايته هذه غير التوراة، ولم يقل لنا الإمام الطبري، أو هب بن منبه، عن مصدر آخر غير التوراة اعتمد عليه في روايته هذه، فما بالك والتوراة نفسها موضع شك كبير.

10- وفاة داود عليه السلام:

وتنتهي أيام داود، النبي الأواب، في هذه الدنيا، وينتقل عليه السلام إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه من ربه الكريم، «واضطجع داود مع آبائه ودفن في مدينة داود»، وفي الواقع فإن دفن النبي الأواب في مدينة أورشليم (1) (مدينة داود) لأمر غريب، ذلك لأن هناك عبارة طالما تكررت في التوراة، وهي أن فلاناً قد انضم إلى قومه» أو «انضم إلى آبائه» (2)، وربما لا تعدو أن تكون إشارة إلى عقيدة القوم في أن الموتى من أسرة ما، يجب أن يدفنوا في مكان واحد، ليبقوا كما كانوا على قيد الحياة (3)، ومن هنا فقد كان من المنتظر أن يدفن داود في مقابر أسرته في «بيت لحم»، وهو الحريص على التقاليد، والتي يستطيع قارئ التوراة أن يقدم الكثير من الأدلة عليها، بل إن داود لينقل عظام شاؤل، وكذا ولديه، من يابيش

ص: 77

1- يذهب ابن خلدون في تاريخه (1/112) إلى أن داود دفن في بيت لحم.

2- تكوين 8/25، قضاة 1/2.

3- SENJ, nipieY. S 30. p, 1948, 7, -3.

جلعاد، ليدفنوا» في أرض بنيامين في صيلع في قبر قيس أبيه» (1)، و مع في ذلك فإن داود نفسه الذي كان مخلصا للعداات و التقاليد إلى هذا الحد، لم يدفن في مقبرة أسلافه في بيت لحم، وإنما في مقبرة جديدة في القدس (مدينة داود)، وقد يقال إن ذلك تم بدون رغبة منه أو أنه لم يترك تعليمات فيما يختص بمكان دفنه، و لكن هناك عبارات في التوراة يفهم منها أن الرجل المحتضر كان يوصي أقرباءه بدفنه في مقبرة الأسرة (2)، و أن داود الذي أعطى تعليماته النهائية لولده و خليفته سليمان فيما يختص بأعدائه لم ينس بطبيعة الحال التعليمات الخاصة بمكان دفنه (3).

و يذهب بعض الباحثين إلى أن السبب في دفن داود في القدس، و ليس في بيت اللحم. و الأمر كذلك بالنسبة إلى خلفائه المباشرين الاثني عشر، هو تقليد الملك داود لجيرانه من الملوك، ذلك أنه منذ القرن الثالث عشر، و حتى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد على الأقل كان العرف السائد في كل حوض شرق البحر المتوسط هو أن يدفن الملوك في قصورهم، أو على مقربة منها، و ليس داخل أسوار مدنهم فحسب (4)، و إني لأظن، و ليس كل الظن إثما، أن المؤرخين قد أخطئوا كثيرا في تفسير الأحداث الخاصة بداود عليه السلام، فهم يتعاملون معه على أنه ملك إسرائيل فحسب، و نسوا، أو تناسوا، أنه قبل ذلك و بعده نبيّ الله و رسوله، و طبقا لهذه الحقيقة التي يتغافل عنها البعض، يمكننا تفسير مكان دفن داود عليه السلام في القدس، و ليس في بيت لحم، اعتمادا على ما روي عن سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم من أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون، فلقد حدث أبو بكر الصديق أنه

ص: 78

1-قضاة 8/32، صموئيل ثان 19/37-38، 21/11-14.

2- تكوين 49/29-33. (7)، 1948، p. 31. SENJ ,divaD fo esuoH eht fo sgniK eht fo srehlupeS ehT ,nivieY .7

3- 36 .. 38- nivieY . S tic- p.

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض»، وفي رواية «ما مات نبي إلا دفن حيث قبض».

هذا وكان عمر داود عليه السلام، فيما وردت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة سنة (1)، فقد جاء من الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره، فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام، ورأى فيهم رجلا يزهر فقال أي رب من هذا، قال ابنك داود، قال أي رب كم عمره، قال ستون عاما، قال رب زد في عمره، قال لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عاما، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال بقي من عمري أربعون سنة، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود، فأتمها الله لآدم ألف سنة، و لداود مائة سنة» (رواه الإمام أحمد عن ابن عباس، والترمذي عن أبي هريرة وصححه، وابن خزيمة وابن حبان، ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم) (2)، وقال الطبري: وأما بعض أهل الكتاب فإنه زعم أن عمره كان سبعا وسبعين سنة (3)؛ و أما رواية التوراة فتجعل عمره سبعين عاما «كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، و ملك أربعين سنة» (4) وبدهي أن رواية التوراة، وكذا رواية بعض أهل الكتاب كما نقلها الطبري وغيره، غير صحيحة، أو كما يقول ابن كثير فهذا غلط مردود عليهم، وأما مدة ملكه، وهي أربعون سنة (5)، فقد يقبل منهم، لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه (6).

ص: 79

1- تاريخ الطبري 485/1.

2- ابن كثير. البداية و النهاية 87/1 - 88، 16/2.

3- تاريخ الطبري 485/1، و انظر: تاريخ اليعقوبي حيث يذهب إلى أن داود عليه السلام مات و له مائة و عشرون سنة، و كان ملكه أربعين سنة (تاريخ اليعقوبي 56/1).

4- صموئيل ثان 4/5.

5- صموئيل ثان 4/5 - 6، أخبار أيام أول 26/29 - 27.

6- ابن كثير: البداية و النهاية 16/2، الكامل لابن الأثير 128/1، تاريخ المسعودي 70/1، تاريخ الطبري 485/1.

الفصل الرابع داود بين آي الذكر الحكيم و روايات التوراة

داود عليه السلام، نبي الله ورسوله إلى بني إسرائيل، وأحد الدوحة الطاهرة من ذرية أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، التي جعل الله فيها النبوة والكتاب، قال تعالى: **وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ (1)**، وقال تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَ وَ الْكِتَابَ (2)، فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء: بعد إبراهيم، فمن ذريته وشيعته **(3)**، و كان من هذه الكتب «الزبور» الذي أنزل على داود عليه السلام، و كما أن داود: من ذرية إبراهيم، فهو كذلك واحد من فروع تلك الشجرة المباركة التي ينتسب إليها المسيح عليه السلام **(4)**، فضلا عن أن داود هو والد سليمان، نبي الله ورسوله، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين.

و من أجل هذا وغيره، فإن القرآن الكريم إنما يصف سيدنا داود عليه السلام بقوله تعالى: **وَ هَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (5)**،

ص: 81

1- سورة الأنعام: آية 84.

2- سورة الحديد: آية 26.

3- ابن كثير: البداية و النهاية في التاريخ 1/ 167 (بيروت 1965).

4- متى 1/ 1-16، لوقا 3/ 23-28.

5- سورة ص: آية 30، وانظر: تفسير ابن كثير 4/ 51 (بيروت 1986)، تفسير النسفي 4/ 40، تفسير القرطبي ص 5636-5637.

وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ (1)، وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (2)، وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا، وَ قَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (3)، وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ، أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَ قَدِّزَ فِي السَّرْدِ وَ أَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)، وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (5)، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ وَ حَبِيبَهُ مَوْلَانَا وَ سَيِّدَنَا مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَنْ أَصْبِرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَ أَذْكَرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ، وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ، وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَضَّلْنَا الْخِطَابَ (6).

هذا هو رأي الإسلام في داود عليه السلام، كما جاء في القرآن الكريم، و ليس هناك من ريب في أنه ليس لمسلم بعد رأي الإسلام رأي.

ص: 82

- 1- سورة البقرة: آية 251، و انظر: تفسير النسفي 1/126، تفسير الطبري 5/371-372، تفسير الكشاف 1/296، تفسير المنار 2/392-393، تفسير روح المعاني 2/173-174، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 1/319، تفسير الطبرسي 2/291-292، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 1/230، تفسير القرطبي ص 1064-1066، تفسير ابن كثير 1/453.
- 2- سورة النساء: آية 163، و انظر، تفسير الألويسي 4/16-17، في ظلال القرآن 6/24، تفسير الطبرسي 6/399-402، تفسير النسفي 1/263، تفسير القرطبي ص 2013، تفسير ابن كثير 2/421-422، (القاهرة 1970) تفسير المنارة 5/57.
- 3- سورة النمل: آية 15، و انظر: تفسير النسفي 3/204، تفسير ابن كثير، 3/572-573 (بيروت 1986)، الدر المنثور 5/103، تفسير الطبري 19/87، صفوة التفاسير 2/404.
- 4- سورة سبأ: آية 10-11، و انظر تفسير القرطبي ص 5346-5350، تفسير النسفي 3/319-320، تفسير ابن كثير 3/838-839، تفسير الفخر الرازي 25/245، زاد المسير لابن الجوزي 6/436، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين 3/294.
- 5- سورة الإسراء: آية 55، تفسير النسفي 2/317، تفسير ابن كثير 3/76-77.
- 6- ص: آية 17-20، و انظر تفسير النسفي 4/36-37، تفسير ابن كثير 4/45-47، تفسير القرطبي ص 5602-5608.

ولكن: ما هو رأي التوراة في داود عليه السلام؟

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة، بادئ ذي بدء، إلى أن التوراة تنظر إلى داود، على أنه ملك اليهود القدير، قبل أن يكون نبي الله ورسوله الكريم، ومن ثم فإنها لم ترتفع إلى مستوى داود النبي، الأمر الذي صوّره القرآن في جلاء ووضوح، وإن حاولت في بعض الأحيان أن تتخلص من السقوط المريع الذي وصلت إليه بشأن النبي الأواب، فوصفته بما يتفق إلى حد ما و مكان النبوة السامي، كما نرى في بعض آيات من أسفار صموئيل الثاني (8/15، 22/21-25) و الملوك الأول (3/16، 14، 11/38، 15/3) و الملوك الثاني (18/3) و أخبار الأيام الأول (28/4-5) و إشعيا (3/5، 55/3-6) و هوشع (3/5) وغيرها.

و على أية حال، فليست هناك صورة تجمع بين النقيضين اللذين لا التقاء بينهما، كالصورة التي تقدمها التوراة عن داود عليه السلام، ملك اليهود القدير، فهو الشجاع قاتل جالوت (جليات) الجبار بمقلعه دون سيف في يده (1)، و بدأ يصبح مطاردا من الفلسطينيين يوما ما، و لكنه سرعان ما يشترك معهم في حروبهم ضد عدوهم يوما آخر، بل و يضع سيفه تحت تصرفهم ضد مواطنيه اليهود (2)، و هو يعمل حامل سيف طالوت (شاؤل) الإسرائيلي يوما ما، ثم حارسا للملك الفلسطيني «أخيش» يوما آخر (3)، و هو قد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين، ثم أنهاه و قد قضى على نفوذهم في المناطق الإسرائيلية تماما، و هو عدو شاؤل (طالوت) اللدود، ثم هو في نفس الوقت زوج ابنته، و حبيب ولده «يوناثان»، و كثير من فتيان و فتيات

ص: 83

1- صموئيل أول 50/17.

2- صموئيل أول 29/2-12.

3- صموئيل أول 28/1-2.

إسرائيل (1)، وهو يعمل مغنيا في بلاط شاؤل لأنه يجيد العزف على القيثارة، ويغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم، ولكنه في نفس الوقت الفارس المغوار، حامل سلاح الملك وقاتل أعدائه (2).

وهو قاس غليظ القلب، كما كان الناس في وقته، وكما كانت قبيلته، وهي صورة مستحبة في أذهان اليهود، خلعوا على إلههم «يهوه» من بين ما خلعوا عليه من صفات، ولكنه في نفس الوقت كان مستعدا لأن يعفو عن أعدائه، كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح، وكان يقتل الأسرى جملة، كأنه ملك من ملوك الآشوريين، بل إنه حتى ليبالغ في القسوة حين يأمر بحرق المغلوبين، و سلخ جلودهم، وشرهم بالمنشار (3)، وعند ما يطلب منه شاؤل مائة غلفة من الفلسطينيين مهرا لابنته ميكال، إذ به يقتل مائتي رجل من الفلسطينيين و يقدم غلقتهم مهرا لابنة شاؤل هذه (4)، وحين يوصي ولده سليمان، وهو على فراش الموت، بأن يجدر بالدم إلى الهاوية شبية شمعي بن جبر، الذي لعنه منذ سنين طويلة (5).

وهو يأخذ النساء من أزواجهن غصبا، مستغلا في ذلك جاهه و سلطانه، فهو يشترط لمقابلة «أبنير»، قائد جيوش شاؤل، أن يأتي بابة شاؤل ميكال، و التي كان قد خطبها من أبيها، و دفع مهرها رءوس مائتين من الفلسطينيين من زوجها «فلطيطيل بن لايش» الذي أدمى قلبه فراقها، ثم سار وراءها، وهو يبكي، حتى «بحوريم»، ولم يرجع من ورائها إلا بتهديد من

ص: 84

1- صموئيل أول 18 / 1-7.

2- صموئيل أول 16 / 21-23.

3- صموئيل ثان 12 / 29-31.

4- صموئيل أول 18 / 25-28.

5- ملوك ثان 2 / 9.

«أبئير و خوف منه (1)» ثم هو يأخذ «بتشبع» امرأة قائده» أوريا الحثي» من زوجها، و يأتي بها إلى نسانه، فيضطجع معها، و هي مطهرة من طمئتها، و حين تحس المرأة أن ثمرة اللقاء بدأت تتحرك في بطنها، يرسل إلى زوجها فيستدعيه من ميدان القتال، حتى إذا ما ظهر الحمل ظن الناس أنه من زوجها، و لما رفض الرجل أن يدخل إلى فراش زوجته الدافئ، بينما أخوة له يقتلون و يقتلون في ساحة الوغى، و أصر على أن ينام على عتبة بيت الملك مع النائمين، و ألا يضاجع امرأته أبدا، حتى يقتضي الله أمرا كان مفعولا، فإذا بداود يرسل به إلى الصف الأول، مع أمر واضح صريح، أن «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، و ارجعوا من ورائه فيضرب و يموت»، و حين يتم له ذلك يضم المرأة إلى حريمه، ثم هو يقبل بعد ذلك زجر «ناثان» على فعلته، و لكنه مع ذلك يحتفظ بالمرأة في حريمه (2).

و هو يعفو عن «طالوت» (شاول) عدة مرات، و لا يسلبه إلا درعه، في نفس الوقت الذي كان في مقدوره أن يسلبه حياته، و هو يعفو عن «مفيوشت»، حفيد طالوت، و قد يكون من المطالبين بالعرش، عرش عمه و جده من قبل، بل و يعينه على أمره (3)، و هو يعفو عن ولده «أبشالوم»، أن قبض عليه بعد قتله أخيه أمنون، ثم بعد قيامه بثورة مسلحة، و بعد أن دنس عرضه على ملاء من القوم، و بعد أن طارده حتى شرق الأردن، لو لا أن يوأب قتله، رغم أوامر داود الصريحة بعدم قتله (4)، بل إنه ليعفو عن «شاول» الذي

ص: 85

1- صموئيل ثان 12/3-16، ثم قارن: صموئيل أول 11/19-17، حيث يروي كيف أن ميكال هي التي أنقذت زوجها داود من مؤامرات أبيها شاول، و أنها أخرجته من كوة في الدار، ليفر بنفسه من أبيها و رجاله، و قد وضعت في مكانه في الفراش الترافيم، كما أشرنا من قبل، و بدهي أن هذا نوع من تناقضات التوراة و تعارض نصوصها لبعضها البعض.

2- صموئيل ثان 11/2-29، 12/1-12.

3- صموئيل ثان 4/4-5.

4- صموئيل ثان 16/32، 18/33.

كان يسعى لقتله، بعد أن تمكن منه مرات، وفي أمان مطلق، و مناعة تامة (1)، و من ثم يذهب «ول ديورانت» طبقاً لأوصاف التوراة هذه لداود، إلى أن ذلك وصف رجل حقيقي، لا رجل خيالي، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة، ينطوي على جميع بقايا الهمجية، و على كل مقومات الحضارة (2).

و بدهي أن هذا ليس رأينا، و لم ولن يكون، فحاشا للنبي الأواب أن يكون هكذا، و لكنه رأى توراة اليهود المتداولة اليوم، ذلك لأن داود عليه السلام، فيما نعتقد و نؤمن به الإيمان كل الإيمان، هو نبيّ الله و رسوله الكريم، قبل أن يكون ملك اليهود القدير، و من ثم فنحن لا نرضى للنبيّ الكريم، إلا- ما ارتضاه له رب العزة و الجلال في كتابه الكريم، و قد أشرنا إليه من قبل، و لكننا نقدم هذه الصورة ليعرف القارئ الكريم، رأى التوراة، كتاب اليهود المقدس، حتى في أنبياء بني إسرائيل و ملوكهم، و لأننا ندرس حياة داود الملك النبي ذلك لأننا نقدم هنا دراسة تاريخية دينية، و ليس من شك في أن الجانب التاريخي، و ليس الديني، إنما يعتمد على التوراة، كواحد من مصادر تاريخ الملك داود، و ليس النبي داود، و مع ذلك، فإننا إن اتفقنا معها في بعض الأمور، فإننا نختلف معها في الكثير من هذه الأمور، و بخاصة فيما يتعلق بالأنبياء و عصمتهم، تلك الصفوة المختارة من عباد الله الذين بعثوا بأمر من ربهم هداة راشدين، و اختارهم الله سبحانه و تعالى، مبشرين و منذرين، و اصطفاهم من خلقه، و صدق الله حيث يقول: **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (3)**، هذا فضلا عن اختلافنا مع توراة يهود فيما

ص: 86

1- صموئيل أول 24 / 2- 22.

2- ول ديورانت: قصة الحضارة 2 / 331-332 (القاهرة 1961)، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 362-373، محمد بيومي مهران: إسرائيل 2 / 693-697.

3- سورة الأنعام: آية 124.

يتصل بالحقائق التاريخية، ذلك لأن من كتبوا التوراة (1)، كانوا بشرا مثلنا، وهم كمؤرخين، لا يختلفون عن نظائرهم من معاصريهم في الشرق القديم، وبدهي أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة، بل لا يحتمل أن نخطئه.

ص: 87

1- انظر عن كتابة التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 18/3 - 106).

اشارة

ص: 89

1- وراثه سليمان داود:

جاء ذكر سيدنا سليمان عليه السلام في كثير من آي الذكر الحكيم (1)، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل، شأنه في ذلك شأن أبيه داود عليه السلام، فلقد كان سليمان، كما كان أبوه داود، عليهما السلام، نبيا ملكا، فقد جمع الله لكل منهما النبوة و الملك، وأعطاه خيرى الدنيا والآخرة، فكان نبيا ملكا، قال تعالى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ (2)، قال ابن كثير: أي في الملك و النبوة، وليس المراد وراثه المال، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائة امرأة، و لكن المراد بذلك وراثه الملك و النبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم في قوله الشريف: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة» (3)، و قال النسفي: ورث النبوة و الملك دون سائر بنيه، و كانوا تسعة عشر، قالوا أوتى النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه، و إلا فالنبوة لا تورث (4)، و قد

ص: 91

1- انظر: سورة البقرة (102) و النساء (163) و الأنعام (84) و الأنبياء (78-82) و النمل (15-44) و سبأ (12-14) و ص (30-40).

2- سورة النمل: آية 16.

3- تفسير ابن كثير 3/ 573 (ط بيروت 1986)، صحيح البخاري 8/ 185، صحيح مسلم 5/ 153، مسند الإمام أحمد 1/ 4.

4- تفسير النسفي 3/ 204.

أشرنا من قبل أن النبوة لا تكون بالإرث، فولد النبي لا يكون نبيًا بطريق الإرث عن أبيه، بل هي بمحض الفضل الإلهي والاصطفاء الرباني (1)، ويقول صاحب الظلال: أن داود أوتى الملك مع النبوة والعلم، ولكن الملك لا يذكر في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان، إنما يذكر العلم، لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال، ومن ثم فالمفهوم في الوراثة أنها وراثة العلم، لأنه هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر (2)، ويقول الطبري أن سليمان ورث أباه داود في العلم الذي كان آتاه الله في حياته، والملك الذي كان خصه به على سائر قومه، فجعله له بعد أبيه، دون سائر ولد أبيه (3).

ويقول الفخر الرازي في التفسير الكبير: أما قوله تعالى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ فَقَدْ اختلفوا فيه، فقال الحسن البصري: المال، لأن النبوة عطية مبتدأة ولا تورث، وقال غيره: بل النبوة، وقال آخرون: بل الملك والسياسة ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضا عطية مبتدأة من الله تعالى، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمنا، ولا يرث إذا كان كافرا أو قاتلا، ولكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط، وليس كذلك النبوة، لأن الموت لا يكون سببا لنبوة الله، فمن هذا الوجه يفترقان، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته، ومما يبين ما قلناه أنه تعالى لو فصل فقال: وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله «وقال يا أيها الناس علمنا منطلق الطير» معنى، وإذا قلنا وورث مقامه من النبوة والملك حسن

ص: 92

1- محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء ص 10، محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ص 71-77.

2- في ظلال القرآن 5/ 2634.

3- تفسير الطبري 19/ 141.

ذلك، لأن تعليم منطق الطير يكون داخلا في جملة ما ورثه، وكذلك قوله تعالى: «وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَأَنْ يَرِثَ الْمَلِكُ يَجْمَعُ ذَلِكَ، وَ يَرِثُ الْمَالُ لَا يَجْمَعُهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ لَا يَلِيقُ أَيْضًا إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَا دُونَ الْمَالِ الَّذِي قَدْ يَحْصُلُ لِلْكَامِلِ وَالنَّاقِصِ، وَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ جُنُودِ سَلِيمَانَ بَعْدَهُ، لَا يَلِيقُ إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَاهُ، فَبَطُلَ بِمَا ذَكَرْنَا قَوْلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَرِثْ إِلَّا الْمَالِ، فَأَمَّا إِذَا قِيلَ: وَ يَرِثُ الْمَالُ وَ الْمَلِكُ مَعًا، فَهَذَا لَا يَبْطُلُ بِالْوَجْهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، بَلْ بظَاهِرِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُوْرَثُ مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ» (1).

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ يَرِثُ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَ يَرِثُ نَبُوْتَهُ وَ مَلِكُهُ وَ عِلْمُهُ، وَ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي حَقِّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آيَةِ الْبَقْرَةِ (251) وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عِلْمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَ يَدْخُلُ فِي هَذَا أَيْضًا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي سُورَةِ النَّمْلِ (15) مِمَّا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ هَذَيْنِ النَّبِيِّينَ الْكَرِيمِينَ مِنْ عَظِيمِ الْمَنْحِ، وَ جَزِيلِ الْفَضْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا، وَ هَذَا يَشْمَلُ عَلَيَّ مَا شَرَفَهُمَا اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّبُوْتَةِ وَ الرِّسَالَةِ وَ مَا يَسِرُّ لِكُلِّ مِنْهُمَا مِنْ عِلْمِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ (2)، أَوْ هُوَ، كَمَا يَقُولُ الطَّبْرِيُّ، عِلْمُ كَلَامِ الطَّيْرِ وَ الدُّوَابِّ، وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ» (3)، وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ النَّسْفِيُّ: وَ الْكَثِيرُ الْمَفْضَلُ عَلَيْهِ مِنْ لَمْ يُوْتِ عِلْمًا أَوْ مِنْ لَمْ يُوْتِ مِثْلَ عِلْمِهِمَا، وَ فِيهِ أَنْهُمَا فَضْلًا عَلَى كَثِيرٍ، وَ فَضْلٌ عَلَيْهِمَا كَثِيرٌ، وَ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى شَرَفِ الْعِلْمِ وَ تَقَدُّمِ حَمَلَتِهِ وَ أَهْلِهِ وَ أَنَّ نِعْمَةَ الْعِلْمِ مِنْ أَجْلِ النِّعَمِ، وَ أَنَّ مِنْ أَوْتِيهِ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَ فَضْلًا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَ مَا سَمَاهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَرِثَةَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا لِمَدَانَاتِهِمْ لَهُمْ

ص: 93

1- تفسير الفخر الرازي 186/24.

2- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 64.

3- تفسير الطبري 140/19.

في الشرف والمنزلة لأنهم القوامون بما بعثوا من أجله، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمّدوا الله على ما أوتوه، وأن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير، فقد فضل عليه مثلهم (1). ويقول الفخر الرازي: وأما قوله تعالى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، ففيها أبحاث، أحدها: أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما مثل علمهما، وفيه أنهما فضلا على كثير، وفضل عليهما كثير، و ثانيهما: في الآية دليل على علو مرتبة العلم، لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما، فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم، و ثالثها: أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع، و رابعها: أن الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثم العلم بالله و بصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على العلم، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين، فإذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله و بصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات، و لا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان، و لا ساعة من الساعات (2).

2- من أحكام سليمان:

يذهب كثير من المؤرخين و المفسرين إلى أن سليمان عليه السلام قد تولى الملك صبيا لما ييفع، و من ثم فقد ذهب فريق منهم إلى أنه كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة (3)، عند ما خلف أباه في الحكم، و مع ذلك، فقد

ص: 94

1- تفسير النسفي 204/3.

2- تفسير الفخر الرازي 185/24-186.

3- تاريخ يعقوبي 56/1، المسعودي 71/1، تاريخ ابن الأثير 128/1، ثم قارن ابن خلدون: حيث يذهب إلى أنه كان في الثانية و العشرين من عمره حين ولي الحكم (تاريخ ابن خلدون 112/2).

كان، مع حداثة سنه، من ذوي الفطنة والذكاء، وقد أعطاه الله الحكمة وحسن القضاء منذ الصغر، وقد ذكر القرآن الكريم طرفاً من ذلك النبوغ والذكاء الذي كان عند سليمان، وذلك في الفتوى التي عرضت على أبيه داود، فأفتى فيها كل منهما بوجه يختلف عن الآخر، وكانت فتوى سليمان أضمن للحق وأقرب إلى الصواب، كما قال تعالى: **وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا،** فقوله تعالى: **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ** يدل على أن ما أفتى به سليمان كان أقرب إلى الصواب، وقوله تعالى: **وَ كُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا** يدل على أن داود وسليمان كانا على جانب عظيم من الحكمة والعلم (1)، وقال أبو حيان: والظاهر أن كلا من داود وسليمان حكم بما ظهر له، وهو متوجه عنده، فحكهما باجتهاد، وهو قول الجمهور (2).

و خلاصة القصة، كما يقدمها لنا أصحاب التفسير، أن زرعا دخلت فيه غنم لقوم لبلاد فأكلته وأفسدته، فجاء المتخاصمون لداود، وعنده سليمان، وقصوا عليه القصة، فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن حرثه الذي أتلفته الغنم ليلاً، فقال سليمان: غير هذا أرفق، تدفع الغنم لصاحب الزرع فينتفع بألبانها وأولادها وأشعارها، وتدفع الحرث إلى أهل الغنم يقومون بإصلاحه حتى يعود كما كان، ثم يترادان بعد ذلك، فيعود لأهل الغنم غنمهم، ولأهل الحرث حرثهم، فقال داود: قد أصبت القضاء فيما قضيت (3)، ثم أمضى حكم سليمان لما فيه من حفظ أصول المال).

ص: 95

1- سورة الأنبياء: آية 78-79، محمد علي الصابوني: المرجع السابق 283.

2- انظر: تفسير البحر المحيط 6/330، تفسير النسفي 3/85، تفسير أبي السعود 6/78-80.

3- جاء في تفسير النسفي والفخر الرازي: قال الحسن البصري هذه الآية محكمة، والقضاة بذلك يقضون إلى يوم القيامة، غير أن النسفي يذهب إلى أن هذا كان في شريعتهم، فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه بالليل أو بالنهار، إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد، وعند الشافعي. لا ضمان بالنهار لأن لصاحب الماشية تسيب ماشيته بالنهار، وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه، وإن كان ليلاً يلزمه الضمان لأن حفظها بالليل عليه، وقال الجصاص إنما ضمنوا لأنهم أرسلوها ونسخ الضمان بقوله صلى الله عليه وسلم: «جرح العجماء جبار، واحتج الشافعي بما روي عن البراء بن عازب أنه قال: كانت ناقة ضارية فدخلت حائطاً فأفسدته، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل»، وقال مجاهد: كان هذا صلحاً، وما فعله داود كان حكماً، والصلح خير» (تفسير النسفي 3/85، تفسير الفخر الرازي 22/199).

لصاحبيهما، ويقول صاحب الظلال: كان حكم داود و حكم سليمان اجتهادا منهما في القضية، و كان الله حاضرا حكمهما، فألهم سليمان حكما أحكم، و فهمه ذلك الوجه و هو أصوب، و لقد اتجه داود في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث، و هذا عدل فحسب، و لكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء و التعمير، و جعل العدل دافعا إلى البناء و التعمير، و هذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة، و هو فتح من الله و إلهام يهبه من يشاء، و لقد أوتى داود و سليمان كلاهما الحكمة و العلم» و كلا آتينا حكما و علما، و ليس في قضاء داود من خطأ، و لكن قضاء سليمان كان أصوب، لأنه من نبع الإلهام.

و قريب من هذه القصة التي جاءت في القرآن الكريم، ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى:

يرحمك الله هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى» (1). و هناك قصة أخرى أوردتها الحافظ ابن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه بسنده

ص: 96

1- الحديث أخرجه أيضا البخاري و مسلم في صحيحهما، و بوب له النسائي في كتاب القضاء، و انظر: تفسير ابن كثير 299/3، تاريخ الطبري 486/1-487.

عن ابن عباس ملخصها: «أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلبا لها قد عودته ذلك منها، فأمر بجمعها، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله، فانتصبت حاكما و تزيا أربعة منهم بزى أولئك، و آخر بزى المرأة، و شهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلبا، فقال سليمان، فرقوا بينهم، فسأل أولهم ما كان لون الكلب، فقال أسود، فعزله، و استدعى الآخر فسأله عن لونه، فقال أحمر، و قال الآخر أغيش، و قال الآخر أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم، فحكى ذلك لداود عليه السلام، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم» (1).

3- من معجزات سليمان:

منح الله سبحانه و تعالى عبده و رسوله سليمان عليه السلام كثيرا من المعجزات، منها (أولا) أن الله تعالى علمه منطق الطير، و سائر لغات الحيوان، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، و ربما تحدث معها، كما كان الأمر مع الهدد و النمل و غيرها، روي ابن عساكر قال: مرّ سليمان بعصفور يدور حول عصفورة، فقال لأصحابه أ تدرّون ما يقول، قالوا و ما يقول يا نبي الله، قال يخطبها إلى نفسه و يقول: زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئت قال سليمان عليه السلام لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد، و لكن كل خاطب كذاب» (2).

و روى النسفي و أبو السعود: يحكي أن سليمان مرّ على بلبل في شجرة

ص: 97

1- تفسير ابن كثير 3/ 299.

2- ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 18-19.

يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه: أ تدرّون ما يقول، قالوا الله و نبيّه أعلم، قال يقول: إذا أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء، وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاوس فقال يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين وصاحت رخمة فقال تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى وقال: الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس (1).

وقال تعالى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (2)، يذيعها سليمان عليه السلام في الناس تحدثا بنعمة الله وإظهار الفضلة، لا مباهاة ولا تنفجا على الناس فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله، وكذلك لا يؤتى أحدا من كل شيء، بهذا التعميم، إلا الله، ومن المعروف أن للطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم، هي لغاتها و منطقها، فيما بينها، والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول: «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم»، ولا تكون أمما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها، وذلك ملحوظ في أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات، ويجهتد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن، لا عن الجزم واليقين، فأما ما وهبه الله لسليمان عليه السلام، فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر، لا على طريق المحاولة منه، والاجتهاد لتفهم وسائل

ص: 98

1- تفسير أبي السعود 276/6-277، تفسير النسفي 205/3.

2- سورة النمل: آية 16.

الطير وغيره في التفاهم على طريق الحدس، كما هو حال العلماء اليوم (1).

وقال تعالى: حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا (2)، ولا شك أن فهمه عليه السلام لكلام النمل إعجازاً اختصه الله عز وجل به، إظهاراً لما أكرمه الله به من شرف النبوة والرسالة (3)، ونحن هنا، كما يقول صاحب الظلال، أمام خارقتين، لا خارقة واحدة، خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها، وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده، فأما الأولى، فهي مما علمه الله لسليمان، وسليمان إنسان و نبي، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة، فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر، وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه، وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة، أما أن تدرك النملة أن هذه الشخص هو سليمان وجنوده، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج على المؤلف، وتحسب في عداد الخوارق في مثل هذه الحال (4).

ومنها (ثانياً) أن جند سليمان عليه السلام إنما كان مؤلفاً من الإنس والجن والطير، وقد نظم لهم أعمالهم ورتب لهم شئونهم، فإذا خرج خرجوا معه في موكب حافل، يحيط به الجند والخدم من كل جانب، فالإنس والجن يسرون معه، والطير تظلمه بأجنحتها من الحر (5)، قال تعالى: وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (6)، والجدير

ص: 99

1- في ظلال القرآن 5/ 2634.

2- سورة النمل: آية 18-19.

3- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 68.

4- في ظلال القرآن 5/ 2637.

5- الصابوني: المرجع السابق ص 288.

6- سورة النمل: آية 17.

بالإشارة هنا أن الله سخر لسليمان طائفة من الجن و طائفة من الطير، كما سخر له طائفة من الإنس، و كما أنه لم، يكن كل أهل الأرض من الإنس جندا لسليمان، إذ إن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين و لبنان و سورية و العراق إلى ضفة الفرات، فكذلك لم يكن جميع الجن، و لا جميع الطير مسخرين له، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء و نستدل في مسألة الجن إلى أن إبليس و ذريته من الجن كما قال القرآن: **إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ وَقَالَ: الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ، وَهُوَ لَئِن كَانُوا يَازُولُونَ إِلَّا عَرَاءَ وَ الشَّرِّ وَ الوَسْوَسَةَ لِلبَشَرِ فِي عَهْدِ سَلِيمَانَ، وَ مَا كَانُوا لِيَزُولُونَ هَذَا، وَ هُمْ مَسْخَرُونَ لَهُ مُقِيدُونَ بِأَمْرِهِ، وَ هُوَ نَبِيٌّ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى، فَالْمَفْهُومُ إِذْنُ أَنْ طَائِفَةٌ مِنَ الْجِنِّ هِيَ الَّتِي كَانَتْ مَسْخَرَةً لَهُ، وَ نَسْتَدِلُّ فِي مَسْأَلَةِ الطَّيْرِ إِلَى أَنَّ سَلِيمَانَ حِينَ تَقْقُدُ الطَّيْرَ عِلْمٌ بِغَيْبَةِ الْهَدَاهِدِ، وَ لَوْ كَانَتْ جَمِيعُ الطَّيُورِ مَسْخَرَةً لَهُ، مَحْشُورَةً فِي مَوْكِبِهِ، وَ مِنْهَا جَمِيعُ الْهَدَاهِدِ، مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَبَيَّنَ غَيْبَةَ هَدَاهِدِ وَاحِدٍ مِنَ مَلَائِكَةِ الْهَدَاهِدِ، هَذَا فَضْلاً عَنِ بَلَائِكِ الطَّيْرِ، وَ لَمَا قَالَ: مَا لِي لَا أَرَى الْهَدَاهِدَ، فَهُوَ إِذْنُ هَدَاهِدٌ خَاصٌ بِشَخْصِهِ وَ ذَاتِهِ، وَ قَدْ يَكُونُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لِسَلِيمَانَ مِنْ أُمَّةِ الْهَدَاهِدِ، أَوْ يَكُونُ صَاحِبَ النَّوْبَةِ فِي ذَلِكَ الْمَوْكِبِ مِنَ الْمَجْمُوعَةِ الْمَحْدُودَةِ الْعَدَدِ مِنْ جِنْسِهِ، وَ يَعْينُ عَلَى هَذَا مَا ظَهَرَ مِنْ أَنَّ هَذَا الْهَدَاهِدَ مَوْهُوبٌ إِدْرَاكاً خَاصاً لَيْسَ مِنْ نَوْعِ إِدْرَاكِ الْهَدَاهِدِ، وَ لَا الطَّيْرِ بِصِفَةِ عَامَةٍ، وَ لَا بَدَأَ أَنَّ هَذِهِ الْهَبَةَ كَانَتْ لِلطَّائِفَةِ الْخَاصَةِ الَّتِي سَخَّرَتْ لِسَلِيمَانَ، لَا لِجَمِيعِ الْهَدَاهِدِ وَ جَمِيعِ الطَّيُورِ، فَإِنَّ نَوْعَ الْإِدْرَاكِ الَّذِي ظَهَرَ مِنْ ذَلِكَ الْهَدَاهِدِ الْخَاصِ فِي مَسْتَوَى يَعَادِلُ مَسْتَوَى الْعُقَلَاءِ الْأَذْكَيَاءِ الْأَتْقِيَاءِ مِنَ النَّاسِ (1).**

و منها (ثالثاً) تسخير الريح له، قال تعالى: **وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً**

ص: 100

1- في ظلال القرآن 5/ 2635-2636.

عُدُّوْهَا شَهْرًا وَرَوَّاحُهَا شَهْرًا» (1)، وقال تعالى: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (2)، وقال تعالى: وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (3)، وهكذا كان من معجزات سليمان عليه السلام تسخير الريح عاصفة قوية لتحمله و تحمل جنوده و ما معهم من الأثقال، و تقوم بأداء ما يريد من سخر الله له فيه، و هي تجري بأمره إلى الأرض التي بارك الله فيها، معجزة قاهرة أكرم الله بها، و أجراها على يديه إظهاراً لنبوته و تأييداً لرسالته (4)، و يقول الفخر الرازي: المسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة، لا هذه الرياح، فإنها المنافع عامة في أوقات الحاجات و يدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد، فما قرأ أحد الرياح (5)، و يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب، طيب الله ثراه، و تخير الرياح لسليمان تتكاثر حوله الروايات (6)، و تبدو ظلال الإسرائيليات واضحة في تلك الروايات، و إن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها، و التخرج من الخوض في تلك الروايات أولى، و الاكتفاء بالنص القرآني أسلم، مع الوقوف عند ظاهر النص لا تتعداه، و منه يستفاد أن الله سخر الريح لسليمان، و جعل غدوها، أي توجهها غادية إلى بقعة معينة (هي الأرض المقدسة في آية الأنبياء 81) يستغرق شهراً، و رواحها، أي انعكاس اتجاهها في الرواح يستغرق شهراً كذلك، وفق مصلحة تحصل من غدوها و رواحها، يدركها سليمان عليه السلام، و يحققها بأمر الله، و لا نملك أن

ص: 101

1- سورة سبأ: آية 12.

2- سورة ص: آية 36.

3- سورة الأنبياء: آية 81.

4- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 77-78.

5- انظر: تفسير الطبري 17/55-56، 22/68-69، 23/160، تفسير النسفي 3/320 تفسير ابن كثير 3/300، 840.

نزید هذا إیضاحا حتی لا ندخل فی أساطیر لا ضابط لها ولا تحقیق (1).

و منها (رابعا) أن الله تعالى سخر لسليمان طائفة من الجن و مرده الشياطين يعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر، كبناء الصروح الضخمة و القصور العالية و القدور الراسيات، و الجفان التي تشبه الأحواض، كما قال تعالى:

وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَ مَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانَ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَ قَلِيلًا مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ (2)، هذا و المحارِب، كما هو معروف، من أماكن العبادة، و التماثيل الصور من نحاس و خشب و غيره، و الجواب جمع جابية و هي الحوض الكبير الذي يجبي فيه الماء، و قد كانت الجن يصنعون لسليمان جفانا كبيرة للطعام تشبه الجوابي، قيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس، كما كانت تصنع له قدروا ضخمة للطبخ راسية لضخامتها، لا تنقل لكبرها، وإنما يغرف منها في تلك الجفان، و هذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله، و كلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها، إلا بأنها خارقة من صنع الله، و هذا هو تفسيرها الواضح الوحيد (3). و قال تعالى:

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يُغْوِصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ، و هذا العمل فيه احتمال قوي أن يكون من قبيل المعجزات، بل هو معجزة، ذلك لأن التحكم في جماعات الشياطين و استخدامها في الغوص، و عمل الأعمال التي دون الغوص، و حفظ الله تعالى لهم، ليكونوا تحت أمره عليه السلام خاصة، إنما هو أمر ظاهر في الإعجاز (4).

ص: 102

1- في ظلال القرآن 2898/5.

2- سورة سبأ: آية 12-13.

3- في ظلال القرآن 2899/5. و انظر: تفسير الفخر الرازي 248/25.

4- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 78.

و منها (خامسا) أن الله تعالى جعل لسليمان عليه السلام سلطة على طائفة من الجن (1)، يسخر من يشاء منهم في الأعمال الشاقة، و يقيد من يشاء في الأغلال ليكف شرهم عن الناس، كما قال تعالى: وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ، وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، و لم يكن هذا التسخير لأحد من الأنبياء غير سليمان عليه السلام، و ذلك غاية العظمة و نهاية الملك و السلطان لملوك الدنيا، فلم ينل أحد من الملوك ما ناله سليمان عليه السلام، نبي الله و رسوله، روي البخاري و مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «إن عفريتاً من الجن تقلت على البارحة ليقطع على صلاتي، فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان «رب اغفر لي و هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد بعدى» فرددته خاسئاً» (2)، و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه كان في مكنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يربط العفريت، كما هو واضح من لفظ الحديث الشريف، و كما في حديث أبي الدرداء عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال: «ثم أردت أن آخذه، و الله لو لا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة» (3)، و كما في حديث أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال: «لو

ص: 103

1- يقول الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله: «فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» أن الآية (سبأ: آية 14) تبين أن الجن لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي، و قوله: «ما لبثوا في العذاب المهين» دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير، لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين (تفسير الفخر الرازي 25/250).

2- انظر: صحيح البخاري 4/197، صحيح مسلم 1/384، و انظر رواية أخرى للحديث الشريف عن أبي الدرداء (صحيح مسلم 2/72، سنن النسائي 3/13) و ثالثة للإمام أحمد في المسند (3/83) عن أبي سعيد الخدري (انظر تفسير ابن كثير 4/56-57 ط بيروت 1986).

3- صحيح مسلم 2/72.

رأيتوموني و إبليس فأوهيت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين اصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - و لو لا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة» (1)، و لكن سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم أبى أن يفعل ذلك تحقيرا لدعوة أخيه سليمان عليه السلام (2).

و منها (سادسا) أسأل الله لسليمان عين القطر، قال تعالى: **وَ أَسْأَلُكَ عَيْنَ الْقَطْرِ (3)**، و هذه من خصوصيات سليمان كما كانت إلانة الحديد من خصوصيات أبيه داود، فهو إذن من المحتمل للإعجاز، و قد يكون ذلك بأن فجر الله له عينا بركانية من النحاس المذاب من الأرض، أو هو من قبيل العلم الذي آتاه الله تعالى عبده سليمان، و هذا ما نميل إليه و نرجحه، و ذلك بأن ألهمه الله تعالى إذابة النحاس حتى يسيل، و يصبح قابلا للصب و الطرق، و هذا فضل من الله كبير (4).

هذا و قد أثبتت الحفريات الأثرية، كما سنوضح بالتفصيل في مكانة من هذه الدراسة، أن مدينة «عصيون جابر»، إنما كانت ميناء و مركزا صناعيا في دولة سليمان، و قد اكتشفها بعثة أمريكية برياسة «نلسون جلوك» في موقع «تل الخليفة» على مبعده 500 مترا من ساحل البحر، على الطرق الشمالي من خليج العقبة، على مقربة من ميناء «إيلات» الحالي (5)، و على أية حال، فإنه لم يعثر حتى الآن في

ص: 104

1- مسند الإمام أحمد 3 / 83.

2- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 116.

3- سورة سبأ: آية 12، و القطر هو النحاس، و إسالته إذابته حتى يكون كالماء ليستطاع صبه في قوالب خاصة تنشأ فيها الصناعات التي يريدتها سليمان من آلات الحرب وغيرها، للنحاس خاصية في هذا يدل على أنه أقوى من الحديد، بدليل قوله تعالى: **آتُونِي أُفْرَغُ عَلَيْهِ قَطْرًا**، إذ لو لم يكن القطر أقوى من الحديد، لما احتاج إلى تقوية الحديد و إمساكه بإفراغ القطر عليه (عويد المطرفي: المرجع السابق ص 81).

4- في ظلال القرآن 5 / 2898، عويد المطرفي: المرجع السابق ص 81.

5- محمد بيومي مهران: إسرائيل 2 / 792-794، و كذا، 21، 1947، p. 66، J. H. J. I. A. n. e. H. J. 66، و كذا، nedroJ weN، nevaH
nodnoL، dnaL yloh eht ni ygoloeahcrA، eht fo ediS rehtO ehT، kceulG. N 113- 50، p. 1940. M. K
noyneK 257، p. 1970 eht، thgirilla. F. W و كذا، 44، p. 127-128، 1963، Y. N، enitselaP fo ygoloeahcrA

أي مكان آخر في العالم القديم، على ما يضاهاهي معامل تنقية النحاس في عصيون جابر و لعل أفضل هذه المعامل من جهة الإعداد و البناء ما وجد في الطبقة (ط) التي تحوي مخلفات أقدم للفترات الخمسة الرئيسية لعمران هذا الموقع (1).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك بعضا من آي الذكر الحكيم التي تتصل بسيدنا سليمان عليه السلام، قد أسرف المفسرون على أنفسهم و على الناس في تفسيرها، فيها قوله تعالى: وَ هَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ، رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ (2)، و في قصة الخيل هذه أو الصفات الجياد، و هي الخيل الكريمة، روايتان، تقول الأولى: إن سليمان عليه السلام، استعرض خيلا له بالعشي، ففاتته صلاة كان يصلها قبل الغروب، فقال ردوها علي فجعل يضرب أعناقها و سيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه، و رواية أخرى إنما جعل يمسح سوقها و أعناقها إكراما لها لأنها كانت خيلا في سبيل الله، و كلا الروايتين، فيما يرى صاحب الظلال، لا دليل عليها و يصعب الجزم بشيء عنها، و في تفسير ابن كثير و غيره أن هذه الخيل التي شغلت سليمان عليه السلام كانت عشرين ألف فرس فعقروها (3).

ص: 105

1- وليم أولبرايت: آثار فلسطين - القاهرة 1971 ص 128 (مترجم) و كذا.. 198- 199. K. W. p, tic- po, relle.

2- سورة ص: آية 30- 33.

3- في ظلال القرآن 3020/5، تفسير ابن كثير 51/4 - 52، تفسير الطبري 153/23 - 156، تفسير الفخر الرازي 203/26 - 206، تفسير النسفي 40/4 - 41.

هذا وقد ذكر غير واحد من السلف و المفسرين أن سليمان اشتغل بعرض الصافنات الجياد حتى فات وقت صلاة العصر، و الذي يقطع به أنه لم يتركها عمدا، بل نسيانا، كما اشتغل النبي صلى الله عليه و سلم يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب، و يحتمل أنه كان سائغا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو و القتال، و الأول أقرب، لأنه قال بعدها «ردوها على فطفق مسحاً بالسوق و الأعناق»، قال الحسن البصري: لا، قال: و الله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، و كذا قال قتادة، و قال السدي: ضرب أعناقها و عراقيتها بالسيوف، و لهذا عوضه الله عز و جل ما هو خير منها، و هي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر و رواحها شهر، فهذا أسرع و خير من الخيل (1).

و هكذا يوصم سليمان عليه السلام بأنه تلهى عن ذكر الله، و يوصم كذلك بأنه قتل الخيول البريئة المعدة للجهاد، دون سبب أو مسوغ معقول (2)، و من ثم فقد رد حذاق العلماء هذا القول بأنه عقوبة لما لا يستحق العقوبة، و بأنه إفساد للمال في غير منفعة المسلمين، و يقول الفخر الرازي أن هذا بعيد (أي عقر سليمان للخيل) و يدل عليه و جوه (الأول) أنه لو كان مسح السوق و الأعناق قطعها لكان معنى قوله تعالى: «وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ قطعها، و هذا مما لا يقوله عاقل، بل لو قيل مسح رأسه بالسيوف فربما فهم منه ضرب العنق، أما إذا لم يذكر لقط السيف لم يفهم البتة من المسح العقر و الذبح، و (الثاني) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الأفعال المذمومة، فأولها: ترك الصلاة، و ثانيها: أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة و الإنابة البتة، و رابعها: أنه خاطب رب العالمين بقوله: «ردوها علي» و هذه الكلمة لا يذكرها الرجل

ص: 106

1- تفسير ابن كثير 4/ 51-52 (ط بيروت 1986).

2- محمد الطيب النجار: المرجع السابق ص 40.

الحصيف إلا مع الخادم الخسيس، و خامسها: أنه تبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها، وروي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه: «نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكلة»، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها (1).

على أن هناك اتجاه آخر في القصة، فلقد روي الطبري عن ابن عباس، كما روي القرطبي عنه و عن قتادة و الحسن و الزهري و ابن كيسان أن المراد بمسح سوق الخيل و أعناقها في هذه الآية الكريمة هو مسح حبالها و كشفها للغبار عنها، و قال الإمام الطبري في التفسير: و هذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس (أي جعله يمسح أعراف الخيل و عراقبيها حبالها) أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله صلى الله عليه و سلم لم يكن إن شاء الله ليعذب حيوانا بالعرقبة، و يهلك مالا من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، و لا ذنب لها باشتغالها بالنظر إليها (2)، و من ثم يذهب الفخر الرازي إلى أن الصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين محمد صلى الله عليه و سلم، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغز و فجلس و أمر بإحضار الخيل و بإجرائها، و ذكر أنني لا أحبها لأجل الدنيا و نصيب النفس، و إنما أحبها لأمر الله و طلب تقوية دينه، و هو المراد في قوله: «عن ذكر ربي»، ثم إنه بإعدادها و تسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق

ص: 107

1- تفسير الفخر الرازي 205/26-206.

2- تفسير الطبري 156/23، ثم قارن تفسير ابن كثير 52/4، حيث يقول: و هذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر، لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، و لا سيما إذا كان غضبا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، و لهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله عز و جل ما هو خير منها و هو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر و رواحها شهر، فهذا أسرع و خير من الخيل.

يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور، الأول: تشريفا لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، والثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة و الملك يتضح إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، والثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها و عيوبها، فكان يمتحنها و يمسح سوقها وأعناقها، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض، فهذا التفسير الذي ذكرنا، ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقا موافقا، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات و المحذورات (1).

هذا فضلا عن أن حب الخيل من سنن الأنبياء و المرسلين، صلوات الله و سلامة عليهم أجمعين، روي النسائي و أبو داود و أحمد عن أبي وهب الجشمي عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: «ارتبطوا الخيل و امسحوا بنواصيها و أكفأها» (2)، و روي البخاري و مسلم و أصحاب السنن و مالك و أحمد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» (3)، و روي الطحاوي في مشكل الآثار بسنده عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، و أهلها معانون عليها، و امسحوا نواصيها و ادعوا لها بالبركة» (4)، هذا إلى أن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح، فكذلك في التوراة ممدوح (5)، و قد روت التوراة أن سليمان عليه السلام كان شغوفًا بالخيل (6)، و أنه كان يقول:

ص: 108

-
- 1- تفسير الفخر الرازي 26/206.
 - 2- سنن النسائي 6/218، سنن أبي داود 3/24، مسند الإمام أحمد 6/282.
 - 3- صحيح البخاري 4/34، صحيح مسلم 3/493، سنن الدارمي 2/212، سنن ابن ماجه 2/47، سنن أبي داود 3/22، سنن الترمذي 4/202، سنن النسائي 6/215، موطأ مالك ص 279، مسند الإمام أحمد 6/282.
 - 4- مشكل الآثار 1/132 (حيدرآباد 1333 هـ).
 - 5- تفسير الفخر الرازي 26/204.
 - 6- ملوك أول 10/26-29، أخبار أيام ثان 1/14-17.

«الفرس معدة ليوم الحرب»، وإن «كانت النصره من الرب» (1)، هذا وقد أثبتت الحفريات الأثرية أن سليمان عليه السلام قد أقام حظائر للخيل في أماكن متعددة من مملكته، وقد أُلقت بعثات الحفائر الأمريكية في مدينة «مجدو» القديمة، الضوء على هذه الحظائر، فلقد عثر المكتشفون، كما سنوضح ذلك في مكانة من هذه الدراسة، هناك على بقايا إسطبلات الخيول، والتي كانت دائما تنتظم حول فناء دائري مبلط ببلاط من الحجر الجيري، ويخترق وسط كل إسطبل ممر عرضه عشرة أقدام، وقد وصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل، وقد وضعت على كل جانب، وراء نتوءات الأحجار، مرابط فسيحة عرض كل منها عشرة أقدام، وما يزال الكثير من هذه الإسطبلات محتفظا بمعالف طعام الخيل، كما لا تزال كذلك أجزاء من معدات السقي ظاهرة، كما تدل فخامة الإسطبلات والعناية الشديدة التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات على أن الخيل كانت مرغوبا فيها في تلك الأيام، وعند ما تم الكشف عن المبنى بأكمله، قدر بعض الباحثين لكل إسطبل 450 حصانا، ولكل حظيرة 150 عربة (2)، هذا وقد كشفت نظائر لإسطبلات محدد هذه في بيت شان و حاصور و تعنك و القدس (3).

و هناك كذلك آية الفتنة و الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان، يقول عز من قال: **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** (4)، فلقد

ص: 109

1- سفر الأمثال 21 / 31.

2- . 591 و كذا. F. W 124، tic- po، thgirilla. F. W 87، negniztaW. C 87، F، gezipieL, I, sanitselaP relamkneD:، 1933، p. 67.

3- مجدو: تل المتسلم، على مبعده 20 ميلا جنوب شرق حيفا، و حاصور: على مبعده 5 كيلا جنوب غرب بحيرة الحولة و تسمى الآن تل قدح، و تعنك: على مبعده 8 كيلا جنوب شرق مجدو.

4- سورة ص: آية 34.

روي بعض المفسرين والمحدثين عدة روايات عن فتنة سليمان، وعن الجسد الذي ألقى على كرسيه، كثير منها تقدح في النبوة، وتتنافى مع العصمة التي أوجبها الله للأنبياء، والتي عرفت من الدين بالضرورة إجماعاً، فضلاً عن أنها تحط من مقام الاصطفاء الإلهي للنبوة والرسالة، وكلها قصص وروايات باطلة وفسادة عقلاً ونقلاً (1).

ولعل من أغرب وأنكر تلك الروايات، ما رواه ابن أبي حاتم (2) من أن سليمان عليه السلام، أراد أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمة، وكانت أحب نسائه إليه، فجاءها الشيطان بصورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي، فظنته سليمان، فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، وزادت بعض الروايات أنه تسلط حتى على نسائه (3)، وذهبت رواية ثالثة إلى أن الفتنة إنما كانت بسبب أن امرأته جرادة كانت تبكي على أبيها الذي قتله سليمان، فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته، وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشيا مع جواريتها يسجدن لها، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة (4)، ثم خرج

ص: 110

1- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 116.

2- مختصر تفسير ابن كثير 3/ 203 (هامش/ 2).

3- تفسير الفخر الرازي 26/ 208، الدر المنثور 5/ 312، تاريخ الطبري 1/ 499، ثم قارن: تفسير الطبري (23/ 158) حيث يقول وسلط الشيطان على ملك سليمان كله غير نسائه، وفي تفسير ابن كثير (4/ 55) أن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله عز وجل منه تشريفاً وتكريماً لنبيه عليه السلام.

4- هذه الأسطورة لا ريب أنها منقولة عن توراة اليهود المتداولة اليوم، والتي تزعم كذبا أن سليمان عليه السلام قد ضم إلى حريمه مئات سبعة من الزوجات، ومئات ثلاث من السراري، وأنه كان طوع أمرهن، حتى إنه أقام رغبة في مرضاتهن هياكل صغيرة، ودورا لعبادة الآلهة الوثنية، تقول التوراة «وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساء أملمن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب كقلب أبيه داود، فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين وملكوم إله العمونيين، وعمل سليمان الشرفي عيني الرب، وبنى مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، و لولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغربيات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»؛ وهكذا تصور توراة يهود، النبي الكريم، وهو يختم حياته، وغضب الرب، والعياذ بالله، قد حلّ به، لأن قلبه مال عن الرب ولم يحفظ وصاياه، (انظر: سفر الملوك الأول 11/ 1-13، محمد بيومي مهران. إسرائيل 3/ 213-218)، وانطلاقاً من كل هذا، فإن هذه الروايات التي ذكرها بعض المفسرين والمؤرخين، شأنها شأن ما جاء بتوراة يهود، إنما هي أكاذيب ضد النبي الكريم عليه السلام.

وحده إلى فلاء، وفرش الرماد فجلس عليه تائبا إلى الله، ورواية رابعة تذهب إلى أن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تقتنون الناس؟ فقال أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر، فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسية أربعين يوما، عدد ما عبد الوثن في بيته، ثم أعطاه أحد الصيادين سمكة فبقر بطنها، فإذا هو بالخاتم فتختم به، ووقع ساجدا لله، ورجع إليه ملكه، ثم أخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر (1).

هذا وقد أظهر حذاق العلماء، كابن كثير و ابن حزم و ابن العربي و الفخر الرازي و النسفي و الزمخشري و أبي حيان وغيرهم (2) زيف هذه الأساطير، يقول الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير: واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الأول) أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة و الخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من

ص: 111

-
- 1- انظر: تفسير الفخر الرازي 207/26 - 208، تفسير الطبري 157/23 - 158، تفسير ابن كثير 53/4 - 55، تاريخ الطبري 496/1 - 497، الكامل لابن الأثير 133/1 - 135، تاريخ يعقوبي 59/1 - 60.
 - 2- انظر: تفسير ابن كثير 55/4، تفسير البحر المحيط 397/7، تفسير الكشاف 375/3، تفسير الفخر الرازي 208/26 - 209، تفسير النسفي 42/4، ابن حزم: الفصل في الملل و الأهواء و النحل - القاهرة 1964 - الجزء الثالث ص 20، ابن العربي: أحكام القرآن 4/1638 (فاس 1376 هـ)، محمد محمد أبو شهبه: الإسرائيليات و الموضوعات في كتب التفسير - القاهرة 1393 هـ ص 380.

الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رأهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام، ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية، و (الثاني) أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة، لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع الأنبياء والزهاد، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم، و لما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى، و (الثالث) كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح، و (الرابع) لو قلنا أن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه؟.

و أما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء الأول أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن، فقالت الشياطين إن عاش صار متسلطا علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله، فعلم سليمان ذلك فكان يريبه في السحاب فبينما هو مشغول في مهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتا على كرسية فتنبه على خطئه في أنه لم يتوكل فيه على الله، فاستغفر ربه وأناب، و (الثاني) روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، و لم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسية فوضع في حجره، فو الذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرسانا أجمعون»، فذلك قوله تعالى: **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ**، و (الثالث) ولقد فتنا سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، وألقينا على كرسية منه جسدا وذلك لشدة المرض، و (الرابع) لا- يبعد أن يقال إنه ابتلاء الله تعالى بتسليط خوف و توقع بلاء من بعض الجهات عليه، و صار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد

الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم أزال الله عنه ذلك الخوف و أعاده إلى ما كان عليه من القوة و طيب القلب (1).

وأيما كان الأمر، فإن العلماء المحققين إنما يذهبون إلى أن يكون بيان الفتنة في قول سليمان عليه السلام و هو ما يتصل أيضا بالخيل اتصالا- قريبا، فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام، لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع و تسعين (2) كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، و الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون» (3)، و المراد بشق رجل، تفسره رواية أخرى عند البخاري أيضا في كتاب الأنبياء بلفظ «إلا واحدا ساقطا أحد شقيه» أي مشلولًا فاقدًا لكثير من مظاهر الرجولة، و لما رأى سليمان عليه السلام حرمانه مما تمنى من الولد للجهاد بهم في سبيل الله، لأنه لم يقل إن شاء الله، علم أنه ابتلى فأسرع إلى الإنابة إلى الله تعالى و الرجوع إليه بالتوبة من عدم استثنائه في طلبه و استعانتة بمشيئة الله تعالى ثم استغفر ربه، متذللًا خاشعًا راجيا عفوه و مغفرته و فضله فقال: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ

ص: 113

1- تفسير الفخر الرازي 26/208-209.

2- كانت زوجات سليمان يبلغن المائة أو أقل، كما جاء في روايات الحديث المتعددة عند البخاري (صحيح البخاري 4/27، 197، 7/50، 8/162، 9/169) ثم قارن ذلك برواية التوراة التي جعلتهن لفا «سبع مائة من النساء السيدات، و ثلاث مائة من السراري (ملوك أول 1/11-4) و كذا قارنه بما جاء في كتب المفسرين و المؤرخين التي وافقت رواية التوراة (تاريخ ابن خلدون 1/113، الكامل لابن الأثير 1/129) و في رواية يعقوبي 1/59) أنهن سبعمائة، و في تفسير الطبري (23/162-163) عن ابن عباس قال: كان سليمان في ظهره ماء مائة رجل بان له ثلاث مائة امرأة، و تسع مائة سرية».

3- صحيح البخاري 4/27، و انظر: تفسير القرطبي ص 5645-5646.

بَعْدِي (1) ليستعين بذلك الملك على الجهاد في سبيل الله، ناشرا لدين الله، مقيما لأحكام شرعه، فيحقق به من النصر على أعدائه أكثر مما كان يؤمله فيما فاتته من إنجاب مائة ولد.

ص: 114

1- سورة ص: آية 35، وانظر: تفسير القرطبي ص 5648-5649.

المسجد الأقصى أو بيت المقدس، موطن العديد من الأنبياء والمرسلين، ابتداء من أبيهم إبراهيم وحتى عيسى ابن مريم عليهم السلام، و ثاني مسجد وضع في الأرض بعد الكعبة البيت الحرام (1) و أولى القبلتين (2)، و ثالث الحرمين الشريفين (3)، و مسرى النبي الأعظم سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و صدق الله العظيم حيث يقول: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ (4)، و ليس هناك من شك في أن هذا الإسراء أو هذه الرحلة المباركة من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف إنما هي رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام إلى محمد صلى الله عليه و سلم رسول الله و خاتم النبيين،

ص: 115

-
- 1- صحيح البخاري 177/4، صحيح مسلم 370/1، 153/2-154، مسند الإمام أحمد 150/5، 167، تفسير القرطبي ص 1379، تفسير المنار 6/4-7.
 - 2- انظر: سورة البقرة: آية 142-144، صحيح البخاري 25/6-27، صحيح مسلم 160/2-162، مسند الإمام أحمد 246/5-247، مجمع الزوائد للهيثمي 13/2.
 - 3- انظر: صحيح مسلم 541/1 (القاهرة 1971)، الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد ص 287.
 - 4- سورة الإسراء: آية، و انظر: تفسير القرطبي ص 3819-3828، تفسير ابن كثير 5/3-41، فتح الباري 159/7-173، صحيح البخاري 66/5-140/69.

و تربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، و كأنما أريد بهذه الرحلة المباركة إعلان وراثته النبي الخاتم محمد صلى الله عليه و سلم لمقدسات الرسل قبله، و اشتغال رسالته على هذه المقدسات، و ارتباط رسالته بها جميعاً، و لهذا فقد جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلهم و دارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، و الرئيس المقدم، صلوات الله و سلامة عليهم أجمعين، و من ثم فقد كانت رحلة الإسراء ترمز إلى أبعد من حدود الزمان و المكان، و تشمل آمادا و آفاقا أوسع من الزمان و المكان، و تتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى (1).

و لعل سائلا يتساءل: من هذا الذي نال شرف بناء المسجد الأقصى؟

أخرج الإمام أحمد و ابن ماجه و ابن خزيمة و ابن حبان و الحاكم و النسائي (و اللفظ له) بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: إن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله عز و جل خلا لا ثلاثة، سأل الله عز و جل حكما يصادف حكمه فأوتيته، و سأل الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، و سأل الله عز و جل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه» (2).

و روى البخاري و مسلم عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول، قال المسجد الحرام، قلت ثم أي، قال المسجد الأقصى، قلت كم كان بينهما، قال أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة

ص: 116

1- في ظلال القرآن 2212/4، تفسير ابن كثير 5/3.

2- سنن النسائي 43/2، سنن ابن ماجه 1/451، انظر: جامع الأصول ج 9 حديث 6307، صحيح الجامع الصغير: حديث 2086، البداية و النهاية 2/26، تفسير ابن كثير 4/58.

بعده فصله، فإن الفضل فيه» (1)، وفي رواية عن أبي ذر أيضا قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول، قال المسجد الحرام ثم قلت أي، قال المسجد الأقصى، قلت كم بينها، قال أربعون سنة، وإنما أدركت الصلاة فصل فهو مسجد» (2). هذا وقد أثار هذان الحديثان الشريفان جدلا بين العلماء، على أساس أن إبراهيم عليه السلام هو باني البيت الحرام، وأن سليمان عليه السلام هو باني المسجد الأقصى، وبينهما ما يقرب من ألف عام (3)، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوي بأن الوضع غير البناء، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما، لا عن مدة ما بين بنائهما، فيحتمل أن يكون واضح المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان، ثم بنياه بعد ذلك (4)، ولعل قريبا من هذا ما ذهب إليه ابن الجوزي والقرطبي بأنه ليس المراد أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أسس بناء الكعبة المشرفة (5)، ولا أن سليمان عليه السلام بنى بيت المقدس، وإنما هما جددا ما كان قد

ص: 117

1- صحيح البخاري 177/4، صحيح مسلم 370/1.

2- صحيح مسلم 153/2 - 154 (القاهرة 1971)، مسند الإمام أحمد 150/5، 167، تفسير الطبري 22/7، تفسير ابن كثير 63/2، تفسير القرطبي ص 1379، تفسير المنار 6/4 - 7.

3- الواقع أن الفترة بين وفاة إبراهيم وولادة سليمان عليهما السلام، لا تصل أبدا إلى ألف عام، فإبراهيم عاش في الفترة (1940 - 1765 ق.م) وسليمان عاش في الفترة (973 - 922 ق.م).

4- صحيح مسلم 153/2 (هامش/2).

5- الرأي عندي أن الكعبة المشرفة ترجع في بنائها إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، دون غيرهما من العالمين ويرى ابن كثير وغيره من العلماء أنه لم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمن إبراهيم (ابن كثير: البداية والنهاية 1/163، 2/298، تفسير المنار 1/466-467، الكشاف 1/446، تفسير الطبري 3/70، محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية في القرآن الكريم 1/183-185).

أسسه غيرهما (1)، كما ذهب برهان الدين الزركشي إلى أن سليمان عليه السلام، إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه (2) على أن الأستاذ رشيد رضا يذهب إلى أن هذا التفسير ضعيف لأنه سماه بيتا، ولو جعل المكان مسجدا ولم يبين فيه لما سمي بيتا، بل مسجد أو قبلة، ثم إن ذلك مبنى على القول بأن إبراهيم هو الذي بنى أول مسجد للعبادة في أرض بيت المقدس، وذلك معقول، وإن لم يكن عندنا نص صريح (3).

هذا ويذهب ابن قيم الجوزية إلى أن الذي أسس بيت المقدس إنما هو يعقوب عليه السلام، وأن سليمان كان مجددا له، وإلى هذا ذهب ابن كثير أيضا، حيث يقول: وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى (4)، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله، وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث (يعني حديث أبي ذر المشهور) فعلى هذا يكون بناء يعقوب، وهو إسرائيل عليه السلام، بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء (5) كما ذهب إلى نفس الرأي

ص: 118

1- فتح الباري 408/6، تفسير القرطبي 4/138.

2- الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد ص 30.

3- تفسير المنار 7/4 (القاهرة 1973).

4- يذهب أهل الكتاب، كما جاء في العهد القديم، إلى أن داود عليه السلام، كان أول من فكر في بناء المسجد الأقصى، بل وقد اشترى مكانه من رجل ييوسى يدعى «أرنان» (أرونا أو أرونه) كان قد اتخذه جونا أو بيدرا، و كان قد عرض على داود أن يأخذ المكان بلا مقابل، فرفض داود واشتراه منه، وكذا بقرا ليقدمه محرقة للرب، بخمسين شاقلا من الفضة، وتذهب الرواية إلى داود قد منع من بناء البيت، لأن ذلك سيكون من نصيب ولده سليمان، ولكنها قد سجلت معاونة داود الفعالة لولده سليمان في إقامة البيت، وذلك بتجهيز المواد اللازمة للبناء، فضلا عن كميات من الذهب و الفضة و النحاس و الحديد وغيرها (صموئيل ثان 24/16-25، أخبار أيام ثان 22/1-19، محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/843-844، تاريخ ابن خلدون 2/111-112) ثم قارن: تفسير ابن كثير 4/58 (ط بيروت 1986).

5- ابن كثير: البداية و النهاية 1/163، 2/298.

الزركشي في إعلام الساجد (1)، و الحميري في الروض المعطار (2)، و أخيراً فلقد ربط البعض بناء المسجد الأقصى، كما ربطوا بناء المسجد الحرام من قبل، بالملائكة، و ربطه آخرون بآدم عليه السلام، بل إن فريقاً رابعا ربطه بسام بن نوح عليه السلام (3)، و جاء في تفسير القرطبي أن آدم هو الذي بنى المسجد الأقصى، بعد بنائه للبيت العتيق بأربعين عاماً، و أن يعقوب قد أقام قواعده و جدده فقط، بعد أن رفع جده إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت العتيق (4).

و يذهب الدكتور عويد المطرفي إلى أن أقرب الروايات إلى المعقول أن الذي بنى المسجد الأقصى تأسيساً، إنما هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، بعد فراغه من بناء الكعبة المشرفة، و رجوعه إلى مستقرة بالشام (5)، كما استظهر ذلك أبو حيان في تفسيره لقوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ (6)، من أن إبراهيم عليه السلام، كما وضع الكعبة، وضع بيت المقدس (7).

و في الواقع فإن كثيراً من المفسرين و المؤرخين إنما يذهبون إلى أن سليمان عليه السلام هو الذي بنى بيت المقدس، ففي تفسير أبي السعود أن سليمان لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج، و هناك في مكة كان يذبح كل

ص: 119

-
- 1- الزركشي: المرجع السابق ص 30.
 - 2- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1975 ص 556.
 - 3- مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل النجف 1388 هـ، الجزء الأول ص 8، فتح الباري 6/ 409، الزركشي: المرجع السابق ص 30.
 - 4- تفسير القرطبي 4/ 138، فتح الباري 6/ 408-409.
 - 5- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 149.
 - 6- سورة آل عمران: آية 96.
 - 7- تفسير البحر المحيط 6/ 3.

يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاه (1)، ويقول الحافظ السهيلي: وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ مبناه فأكماله ابنه سليمان عليه السلام، واسمه إيلياء، وتفسيره العربية: بيت الله (2)، ذكره البكري، وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بنى أيضا في زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام (3)، ويقول الطبري في التاريخ:

و أصاب بني إسرائيل في زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس يدعون الله ويسألونه كشف ذلك البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجدا، وكان ذلك فيما قيل، لإحدى سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يستتم بناءه، فأوصى إلى سليمان. باستتمامه، وقتل القائد الذي قتل أخاه (يعني يوأب الذي قتل أبشالوم كما ذكرنا من قبل) فلما دفنه سليمان نفذ لأمره في القائد و قتله واستتم بناء المسجد، ثم يتحدث الإمام الطبري بعد ذلك عن التعداد الذي قام به داود في بني إسرائيل، والبلايا التي حاقت بالقوم بسببه، كما أشرنا من قبل، وأن داود استغفر ربه و طلب العفو عن بني إسرائيل، فاستجاب الله لهم ورفع عنهم الموت، فرأى داود الملائكة سالين سيوفهم يغمدونها، يرتقون في سلم من ذهب عن الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان ينبغي أن يبنى فيه مسجد، فأراد داود أن يأخذ في بنائه، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدس، وأنك قد صبغت يديك في الدماء، فلست بانية، ولكن ابن لك أملكه بعدك أسميه سليمان

ص: 120

1- تفسير أبي السعود 278/6، وانظر تاريخ ابن خلدون 2/113.

2- قارن: (محمد بيومي مهران: إسرائيل الجزء الثاني ص 1155-1158، الإسكندرية 1979).

3- مختصر تفسير ابن كثير 2/354، هامش 1.

أسلمه من الدماء، فلما ملك سليمان بناه و شرفه (1): و يتفق ابن الأثير في روايته مع الطبري تماما (2).

و يقول المسعودي: و ابتدأ سليمان ببناء بيت المقدس، و هو المسجد الأقصى، الذي بارك الله عز و جل حوله (3)، و يقول اليعقوبي: و ابتدأ سليمان في بيت المقدس و قال: إن الله أمر أبي داود أن يبنى بيتا، و إن داود شغل بالحروب، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان يبنى البيت باسمي، فأرسل سليمان في حمل خشب الصنوبر و خشب السرو، ثم بنى بيت المقدس بالحجارة، فأحكمه و لبسه الخشب من الداخل، و جعل الخشب منقوشا، و جعل له هيكلًا مذهبًا، و فيه آلة الذهب ثم أصعد تابوت السكينة فجعله في الهيكل، و كان في التابوت اللوحان اللذان وضعهما موسى (4)، و يقول ابن خلدون: و لأربع سنين من ملكه (أي سليمان) شرع في بناء بيت المقدس بعهد أبيه إليه بذلك، و قد تم بناء الهيكل في سبع سنين (5).

هذا و قد أشرنا من قبل إلى الحديث الشريف الذي يقول فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن سليمان عليه الصلاة و السلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز و جل خلالا- ثلاثا، سأل الله عز و جل حكما يصادف حكمه فأوتيه، و سأل الله عز و جل ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، و سأل الله عز و جل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه» (6)، و عن رافع بن عمير قال سمعت رسول

ص: 121

- 1- تاريخ الطبري 1/484-485، ثم قارن: صموئيل ثان 1/7-17، 24/16-24.
- 2- الكامل لابن الأثير 1/127-128.
- 3- مروج الذهب للمسعودي 1/70، و انظر 1/69.
- 4- تاريخ اليعقوبي 1/58.
- 5- تاريخ ابن خلدون 2/111-113، ثم قارن ملوك أول 6/1-25/9.
- 6- سنن النسائي 2/43، سنن ابن ماجة 1/451، تفسير ابن كثير 4/58.

اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول: قال اللّٰه عز وجل لداود عليه الصلّٰة والسلام ابن لي بيتا في الأرض، فبنى داود بيتا لنفسه قبل البيت الذي أمر به فأوحى اللّٰه إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتي، قال يا رب هكذا قضيت من ملك استأثر، ثم أخذ في بناء المسجد فلما تم السور سقط ثلاثا فشكا ذلك إلى اللّٰه عز وجل، فقال يا داود إنك لا تصلح أن تبني لي بيتا قال ولم يا رب، قال لما جرى على يديك من الدماء، قال يا رب أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك، قال بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم، فشق ذلك عليه فأوحى اللّٰه إليه لا تحزن فإني سأقضي ببناءه على يدي ابنك سليمان، فلما مات داود أخذ سليمان في بناءه، ولما تم قرب القرابين وذبح الذبائح وجمع بني إسرائيل، فأوحى اللّٰه إليه قد أرى سرورك ببنيان بيتي، فسألني أعطك، قال أسألك ثلاث: خصال، حكما يصادف حكمك، و ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلّٰة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: أما الثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة» (1).

و انطلاقا من كل هذا، فإنني أميل، حدسا عن غير يقين، إلى أن إبراهيم عليه السلام، هو الذي وضع الأسس للمسجد الأقصى، على أساس أن رواية مسلم إنما تتحدث عن أول مسجد، وليس أول بيت، وهي العقبة التي احتج بها صاحب تفسير المنار، وعلى أساس ما جاء في الأحاديث الشريفة من أن سليمان هو الذي بنى بيت المقدس، وعلى أساس ما ذهب إليه جمع كبير من المؤرخين من أن سليمان قد بنى المسجد الأقصى بعهد أبيه إليه بذلك، وعلى أساس أن إبراهيم عليه السلام، طبقا لرواية العهد القديم (2)، إنما قد زار القدس، وأنه قد أقام المحاريب لله في فلسطين،

ص: 122

1- تفسير ابن كثير 58/1 (ط بيروت 1986).

2- تكوين 6/12-9، 14/19-20.

و خاصة في شكيم و بيت إيل و بلوطات ممرا، و من ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الأنبياء قد فعل الشيء نفسه في القدس، هذا فضلا عن أنه إذا ما كان صحيحا ما ذهبنا إليه في هذه الدراسة وغيرها من أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش في الفترة (1765-1940 ق.م) و أنه قد بنى الكعبة البيت الحرام حوالي عام 1824 قبل الميلاد(1)، و من ثم فإن بناءه أو وضعه لأسس المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين عاما، أي حوالي عام 1784 قبل الميلاد، يكون أمرا مقبولا، و أن ذلك قد تم قبل أن يولد حفيده يعقوب عليه السلام بأربع سنوات ذلك لأنه طبقا لما جاء في هذه الدراسة، و كما أشار العهد القديم(2)، فإن الخليل عليه السلام قد رزق بولده إسحاق عليه السلام، و قد أكمل المائة من عمره (بعد أن رزق بإسماعيل و هو في السادسة و الثمانين من عمره) و قد عاش إسحاق 180 عاما، و من ثم فهو كان يعيش في الفترة (1660-1840 ق.م)، و أن يعقوب كان يعيش في الفترة (1633-1780 ق.م) على أساس أنه ولد لأبيه إسحاق، و هو في الستين من عمره، و أنه عاش 147 سنة، و أن بنى إسرائيل قد دخلوا مصر حوالي عام 1650 قبل الميلاد، حين كان يعقوب في الثلاثين بعد المائة من عمره(3)، و أما سليمان فهو الذي بدأ بناء المسجد الأقصى، الذي وضع إبراهيم أسسه، في عام حكمه الرابع، حوالي عام 957 قبل الميلاد(4).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا بإيجاز إلى رواية العهد القديم

ص: 123

-
- 1- انظر عن بناء الكعبة المشرفة (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم 1/183-197).
 - 2- تكوين 17/17، 26/25، 28/35، 9/47، 28.
 - 3- انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/80-82، دراسات تاريخية من القرآن الكريم 1/194-195.
 - 4- انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/840-860.

عن بناء المسجد الأقصى، والذي تدعوه بيت الرب، حيث تذهب إلى أن مكان البيت إنما كان على جبل المريا في بيدر أرونة اليبوسي، فاشتره منه داود و معه بقر للقرابين بخمسين شاقلا من الفضة (1)، هذا و تشير الرواية بوضوح إلى أن داود عليه السلام إنما كان أول من فكر في إقامة بيت للرب، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولا حسنا من رب إسرائيل، الذي كان يدخر هذا العمل لولده سليمان (2)، و مع ذلك فإن داود عليه السلام، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه، راضيا مرضيا عنه، أراد أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان في إقامة بيت الرب، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء، و كان القوم في عصره ما يزالون في بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، و سنرى أن الاعتماد على الفينيقيين كان الحل الوحيد الممكن أمام داود و سليمان حتى يرتفع هيكل الرب، و تقرأ في التوراة أن داود قد «أمر بجميع الأجانب الذين في أرض إسرائيل فاتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله، و هيا داود حديدا كثيرا للمسامير لمصاريع الأبواب و الأوصال، و نحاسا كثيرا بلا وزن، و خشب أرز لم يحدد له عدد»، هذا فضلا عن كميات كبيرة من الذهب و الفضة و النحاس و الحديد و الخشب (3).

و هكذا، و في ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالي عام

ص: 124

1- من عجب أن بعض الروايات العربية التي تنسب إلى أبي بن كعب تذهب إلى أن صاحب المكان غلام إسرائيلي، و ليس يوسيا كنعانيا، و أن داود أراد أن يغتصبه منه، فنهاه ربه عن ذلك، و من ثم فقد اشتره بتسعة قناطير من الذهب (السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى 1/ 343 ط القاهرة 1320 هـ) و الثمن جهد مغالا فيه، بل إن رواية التوراة جعلت ثمنه هو و البقر، خمسين شاقلا من الفضة صموئيل ثان 24/24).

2- صموئيل ثان 1/ 17-17، 24-26/24، ملوك جول 2/2، و انظر: تفسير ابن كثير 1/ 58، تاريخ اليعقوبي 1/ 58، تاريخ ابن خلدون 1/ 111، ابن الأثير 1/ 127-128.

3- أخبار أيام أول 2/22-16، أخبار أيام ثان 2/17-18.

957 ق. م) وضع الحجر الأساسي لبناء بيت المقدس الذي استمر العمل فيه قائماً على قدم و ساق سبعة أعوام، ثم واصل مهرة الصنّاع و الفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك ليشيدوا صرحاً أكبر يسكن فيه سليمان و نساؤه (1).

هذا و لم يقدم لنا موقع المعبد أي دليل الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه، و من هنا فإن أية محاولة في هذه المجال لا تزيد عن كونها مجرد اجتهاد (2)، غير أن المعلومات التي يوفرها سفر حزقيال (40-44) للمعبد الجديد، ربما تجعل من الإمكان استعادة تخطيطه، كما يمكن قول شيء عن شكله الخارجي و تنظيمه الداخلي (3)، و من ناحية أخرى فإن المعلومات التي جاءت في سفر الملوك الأول (1/6-38) إنما تشير بوضوح إلى التأثير المصري و العراقي، رغم الإشادة المستمرة بالمساعدة الفينيقية و بضخامة الإنفاق (4).

و نقرأ في التوراة أن سليمان عليه السلام، إنما أقام حفلاً كبيراً بمناسبة الانتهاء من بناء المسجد الأقصى، دعا إليه شيوخ إسرائيل و كل رؤوس الأسباط «لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود، و أن الجميع، و على رأسهم سليمان، قد اجتمعوا أمام التابوت «يذبحون من الغنم و البقر ما لا يحصى و لا يعد من الكثرة، و أدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت، في قدس الأقداس، و هنا ملأ الغمام بيت الرب، حتى أن الكهنة، ما كانوا بقادرين على أداء الطقوس الدينية، و يعلن سليمان أن الرب إنما يسكن في الضباب (5)، و نقرأ في سفر الملوك الأول (8/22-53)

ص: 125

-
- 1- ملوك أول 1/6-2، 37-38، 2/7، و انظر: تاريخ ابن خلدون 2/112-113.
 - 2- J. L. Mery, *Les Temples de Jérusalem*, p. 14.
 - 3- E. O. Rieu, *The Temple of Jerusalem*, p. 14, 1951.
 - 4- أندريه إيمار و جانين أوبوايه: المرجع السابق ص 267.
 - 5- ملوك أول 8/13.

على التل الشرقي أو الغربي من المدينة المقدسة (1).

وفي عام 135 م استولى الروم على القدس، ثم أمر الامبراطور «هدريان» (117-138 م) بتدمير المدينة تماما وبنى فوقها مدينة جديدة باسم «إيليا كاييتولينا» (anilotipaC aileA) وأبدل المعبد القديم بمعبد آخر كرس للإله الوثني «جوبتر كاييتولينس» (sunilotipaC) ثم قام الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود في فلسطين، كدولة وكنومية، وانتهت بذلك علاقة اليهود بفلسطين سياسيا و سكانيا و دينيا (2).

ص: 127

1- محمد بيومي مهران: إسرائيل 1150/2 - 1155، و كذا. C 107- 103، p, tic- po, htoR. yrotsiH sa elbiB ehT, و كذا, 1967. W 388. p, relleK.

2- محمد بيومي مهران: إسرائيل 1155/2 - 1158، و كذا 23، 1927، p, H 92. F, VPDZ, و كذا F, BJ P, nnamhtartS. netluhcS. A 180. p, 1933، 56، و كذا. M 454- 453، p, tic- po, htoN.

جاءت قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ في التوراة (1) والإنجيل (2) والقرآن العظيم (3)، وإن اختلفت الكتب الثلاثة في سردها للقصة تبعاً للهدف من القصة لكل منها، غير أنها جميعاً لم تذكر اسم ملكة سبأ، أو الأرض التي كانت تقيم فيها، إلا إذا كان المراد بكلمة سبأ هنا، تلك الدولة التي قامت في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (4).

و من عجب أن يذهب بعض النقاد ممن تعرضوا لقصاص التوراة بالنقد، إلى أن قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام، إنما هي أسطورة من الأساطير دونها كتبة التوراة لبيان عظمة سليمان وحكمته (5)، ولو تريت هؤلاء البعض من النقاد بعض الشيء، ولما وقعوا في هذا المنزلق الخطير، وربما خيل لهؤلاء المتحذلقين من أدياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله في الإنكار، أنه خير يسهل إنكاره بغير حجة، وكان المنكر لا يطالب بحجة، ولا

ص: 129

-
- 1- ملوك أول 10 / 1 - 13، أخبار أيام ثان 9 / 1 - 9.
 - 2- إنجيل متى 12 / 42.
 - 3- سورة النمل: آية 20 - 44.
 - 4- قدم المؤلف دراسة مفصلة عن تاريخ دولة سبأ في أدوارها الأربعة (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم - الرياض 1977 ص 261 - 368).
 - 5- , 1936 p. J 843. H. J. S. gnitsa, A. D. A. fo yranoitci, elbiB, E. grubnid.

يعاب على النفي الجزاف، و الحق أن إنكارنا لأمر تجمع عليه التوراة والإنجيل و القرآن العظيم، لا يتفق و منهج البحث العلمي، فضلا عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء بإجماع، أضف إلى ذلك إنه ليس في زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام أمرا مستحيلا، أو تصرفا شاذا يستوجب الاستنكار، كما يجنح إلى ذلك بعض الباحثين (1)، و خاصة إذا كان هؤلاء الباحثون لهم دراية بقصص القرآن.

على أن هناك فريقا آخر من الباحثين إنما يذهب إلى أن هذه القصة لا يمكن فهمها جيدا، إلا إذا قدرنا أن السبئيين إنما كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب (2)، و لعل أصحاب هذا الرأي ممن يذهبون إلى أن السبئيين إنما ترجع أصولهم الأولى إلى شمال بلاد العرب، في بلاد الجوف أو قريبا منها، و ليس في جنوبها (3)، و أن دولتهم الحقيقية لم تبدأ في جنوب بلاد العرب، إلا حوالي عام 800 قبل الميلاد (4)، أي بعد هذه الأحداث بما يقرب من القرن و نصف القرن من الزمان، و من ثم فإن هذه الملكة التي زارت سليمان عليه السلام، لم تكن ملكة سبأ الشهيرة في اليمن، وإنما كانت ملكة على مملكة

ص: 130

1- محمد عزة دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم- بيروت 1969 ص 162-163.

2- فريتز هومل: التاريخ العربي القديم ص 63 (مترجم).

3- انظر عن: السبئيين و الآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص 265-270).

4- يرى بعض الباحثين أن عصر مملكة سبأ إنما يبدأ حوالي عام 750 ق. م و يرى آخرون أنه كان حوالي عام 800 ق. م، و يذهب فريق ثالث إلى أنه كان في القرن التاسع قبل الميلاد، و الرأي عندي أنه كان في القرن العاشر، أو قبله بقرن، اعتمادا على علاقة ملكة سبأ بسليمان عليه السلام، و الذي كان، فيما يجمع المؤرخون، يعيش في القرن العاشر قبل الميلاد (انظر: محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 271-273، جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 2/269، و كذا، 173، 1955، ROSAB 38. p، و كذا، aibarA، 1958، R 37. p، dna newoB .W thgirblA ,htuos ni seirevocsiD lacigoloeahcrA ,neihnuM، و كذا، 1963، G. A 122. p، nnamhor.

صغيرة في أعالي شبه الجزيرة الغربية، كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال، أو هي ملكة على الحكومات المحلية في منطقة معان و العلاء و التي ورثها السبئيون عن المعينيين (1)، و يستدلون على ذلك بأدلة منها (أولا) العثور على أسماء ملكات عربيات مثل زبيبة و شمس (2) و يثعي (ياتي) و تلخونو (تلخونو) و تاربو (بتوءة) (3) و بانلة (بايلو) و غيرهن في النصوص الآشورية، في حين أن العلماء لم يعثروا حتى الآن على اسم أبة ملكة في النصوص العربية الجنوبية، غير أن هذا السبب في حاجة إلى إعادة نظر، ذلك لأن هؤلاء الملكات اللائي ذكرن أنفا إنما عشن في فترة متأخرة زمنيا عن عصر سليمان عليه السلام، كما أن عدم العثور حتى الآن على أسماء ملكات في اليمن لا يعني بالضرورة عدم وجود ملكات في تاريخ سبأ، كما أنه من المعروف أنه لم تجر حتى الآن حفريات كافية تثبت عدم وجود ملكات في سبأ، و من يدري فقد تكشف لنا الحفريات في وقت قريب أو بعيد عن أسماء

ص: 131

- 1- كثيرا ما تخلط الوثائق الآشورية بين ملك معين أو سبأ في جنوب غرب بلاد العرب، و بين الوالي المقيم في العلاء و معان نائبا عن ملك معين أو سبأ، و من ثم فقد كان الآشوريون يذكرون هذا الوالي كما لو كان هو الملك الجنوبي، و هذا يفسر لنا الإشارات التي ترد في الوثائق السريانية و العبرية عن المعينيين و السبئيين و تذكرهم كما لو كانوا يقيمون في الجنوب الشرقي للبحر الميت، و قد أدى هذا الخلط إلى أن يظن البعض أن الملكين الآشوريين سرجون الثاني و سنحريب قد وصل نفوذهما إلى سبأ نفسها، و مع أن المراد في النصوص الجاليات المعينية و السبئية في العلاء- و معان، و إن أطلق الآشوريون على حكامها لقب ملك (محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 275-278 و كذا، P. B. J. ylluh. ehT, dnuorgkcaB fo malsI . 141. p, 1926. . lisuM. A 295. p، و كذا. F 580. H. lemno, G. ssirdnurp)
- 2- TENA, LSJA, sneeuQ cimaisI- erP, tobbA. N 4. p، 1941، 58، و كذا، p، tic- pO, lisuM. A 477 . 1966، 288. p، niehcnepPO. L. A
- 3- atreseD aibarA, p، tic- pO, miehneppO. L. A 291. و كذا. II, BARA, lliulnekcuL. D. D 518. p، 1927، و كذا. .lisuM. A 480. p، 1938

و التي سنوردها هنا بنصها كاملاً فيما بعد، ليعرف تماماً أن الملك سليمان ما كان في استطاعته مثلاً أن يفعل بعرشها ما فعل، وإنما الذي يستطيع ذلك، بإذن الله، إنما هو سليمان النبي، ذلك لأن ما حديث إنما كان يمثل معجزة للنبي الكريم، سيدنا سليمان عليه السلام، و صدق الله العظيم حيث يقول تعالى، على لسان سليمان، فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (1).

أضف إلى ذلك أن سليمان عليه السلام، كما رأينا من قبل، قد منحه الله تعالى كثيراً من المعجزات، فقد علمه الله منطق الطير و سائر لغات الحيوان، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، وربما تحدث معها، كما كان الأمر مع الهمد و النمل، كما كان جند سليمان عليه السلام مؤلفاً من الإنس و الجن و الطير، و قد نظم لهم أعمالهم و رتب لهم شئونهم، فإذا خرج خرجوا معه في موكب حافل يحيط به الجند و الخدم من كل جانب، فالإنس و الجن يسرون معه، و الطير تطلّله بأجنحتها من الحر، هذا فضلاً عن تسخير الريح له، بل و تسخير طائفة من الجن و مردة الشياطين يعملون له من الأعمال ما يعجز عنها البشر، كبناء الصروح الضخمة و القصور العالية و القدور الراسيات و الجفان التي تشبه الأحواض، و أخيراً، و ليس آخراً، فكما الآن الله الحديد لداود أبيه، فقد أسال له عين القطر (2)، و كل تلك أمور من معجزات النبي سليمان عليه السلام، و ما كان و لن يكون أبداً لملكة سبأ، أيا كانت، شيء من ذلك، و من ثم فالمقارنة بين البلاطين غير ذي موضوع.

ص: 133

1- سورة النمل: آية 38-40.

2- انظر سورة الأنبياء: آية 81-82، النمل: آية 15-31، سبأ: آية 12-13، ص: آية 30-40.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أننا نستطيع أن نقدم، من أي الذكر الحكيم و من دراستنا لتاريخ العرب القديم، كثيرا من الأدلة التي تشير بوضوح إلى أن ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام، إنما كانت ملكة عربية جنوبية، و أنها كانت تجلس على عرش مملكة سبأ المشهورة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية و التي منها (أولا) أن الذي يفهم صراحة من القصة القرآنية أن سليمان عليه السلام، لم يكن يعرف شيئا عن هذه الملكة سواء من ناحية دولتها أو ديانتها (1)، و من هنا نراه يقول للهدهد، بعد أن أعلمه خبرها قال: سَدَّ نَظْرُ أَسَدَقَتِ أُمِّ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (2)، و ليس من المقبول أن يكون سليمان، و هو الملك العظيم، كما هو النبي الكريم، لا يعرف شيئا عن ملكة سبئية تقيم في مجاورات فلسطين، و على تخوم دولته، خاصة و أن هناك علاقات تجارية بين سبأ و فلسطين، تتولى أمرها الجالية السبئية في العلا و معان، كما أن فلسطين مقر دولة سليمان، إنما تقع في نهاية طريق القوافل التي تشرف عليهما الجالية السبئية في واحة «ديدان» (العلا) و معون (معان)، هذا فضلا عن أن «عصيون جابر» (تل الخليفة على الطرف الشمالي لخليج العقبة) و كانت نقطة بداية تحرك أسطول سليمان التجاري، إنما كانت تمثل محطة هامة في طريق القوافل التجارية القادمة من جنوب بلاد العرب إلى وادي عربة و شرق الأردن حتى سورية، و هو طريق ذو أهمية خاصة للملك سليمان (3)، فكيف لا يعرف سليمان شيئا عن هذه الملكة الشمالية، سواء كانت ملكة لمملكة مستقلة أو على الجاليات السبئية في العلا و معان، الأمر الذي يشير بوضوح إلى أن هذه الملكة التي زارت سليمان إنما كانت ملكة في جنوب بلاد العرب حيث تقع دولة سبأ المشهورة.

ص: 134

1- سورة النمل: آية 22-26.

2- سورة النمل: آية 27.

3- E. O 593. p. 1975, II, HAC ni, modgniK werbeH ehT, tldfssiE. O 593. p. 1975, II, HAC ni, modgniK werbeH ehT, tldfssiE.

ومنها (ثانيا) أن النص القرآني صريح في أن هذه الملكة إنما كانت ملكة دولة سبأ، قال تعالى: **وَ جِئْتِكَ مِنْ سَبَأٍ نَبِيًّا يَقِينٍ** فالآية الكريمة تحدد هنا مجيء الهدهد من سبأ، ولا يعرف التاريخ دولة بهذا الاسم غير دولة سبأ المعروفة في جنوب غرب بلاد العرب، ومنها (ثالثا) أن وصف القرآن الكريم لملكة سبأ بها **أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** (1)، يجعلها يقينا ملكة جنوبية، وليست شمالية، بخاصة وأن القرآن الكريم يصف قومها بالقوة والبأس الشديد، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، «و يصف هذه الملكة بأنها صاحبة الأمر والنهي في دولتها. **وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** (2)، ومن ثم فإن ما جاء في هاتين الآيتين الكريمتين من أوصاف لهذه الملكة وقومها، لا يمكن أن ينطبق على ملكة صغيرة في شمال شبه الجزيرة العربية، وإنما على ملكة عظيمة تجلس على عرش دولة عظيمة تدعى سبأ، ولا يعرف التاريخ دولة بهذه الأوصاف سوى مملكة سبأ المشهورة في جنوب غرب بلاد العرب، وبعبارة أخرى، فإن هذه الملكة إنما هي، على وجه اليقين، ملكة جنوبية، وليست شمالية.

ومنها (رابعا) أنه من المعروف أن العرب الشماليين إنما كانوا يعبدون الأصنام، بينما سادت عبادة الكواكب عند العرب الجنوبيين، و خاصة عبادة ذلك الثالوث المشهور، والمكون من القمر والشمس والزهرة (و كانت الشمس تمثل فيه دور الأم، ويمثل القمر دور الأب، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن) وقد عبت الشمس بصفة خاصة في ممالك معين وسبأ وحضرموت وقتبان (3)، والقرآن الكريم صريح في أن ملكة سبأ هذه وقومها إنما كان).

ص: 135

1- سورة النمل: آية 23.

2- سورة النمل: آية 33.

3- كانت إلهة الشمس تسمى عند المعينيين «نكرح»، وعند السبئيين «ذات غضرن» و «ذات حمى» (ذات حميم) بمعنى ذات حرارة أو «ذات الحمى»، والحمى الموضع الذي يحمي، ويخصص للإله أو المعبد أو الملك أو سيد القبيلة، والمكان الذي يحيط بالمعبد يكون حرما آمنا لا يجوز لأحد انتهاكه، وتسمى الشمس عند القتبانيين «ذات صبهن» و «ذات رحين»، وهذا وقد انتسب بعض العرب إلى الشمس فسمي «عبد شمس»، وطبقا لرواية الإخباريين فقد كان سبأ الأكبر، أول من تسمى بهذا الاسم، كما كان أول من تعبد للشمس، و من ثم فقد دعى «عبد شمس» (انظر عن التفصيلات والمراجع: محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة- الإسكندرية 1978 ص 22-24، 86-90).

يسجدون للشمس من دون الله، قال تعالى: وَجَدْتُهُا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ (1)، و من ثم فهذا دليل واضح على أن ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام إنما كانت ملكة عربية جنوبية، وليست شمالية.

على أن الغريب من الأمر، أن يزعم المؤرخ اليهودي يوسف بن متى «أن ملكة سبأ هذه إنما هي ملكة أثيوبية، كما يزعم أن «سبأ abaS» هو اسم عاصمة الأحباش، وأن اسم الملكة هو (silakuam)، و من ثم تكون ملكة سبأ حبشية، وليست عربية (2)، و أما الروايات الحبشية نفسها فتذهب إلى أن «منيلك» أول ملوك أثيوبيا في القرن العاشر قبل الميلاد، إنما كان ابنا لبطلة الشمي «بلقيس» (أو مكيدا أو مقيدا) و بطل القمر سليمان الحكيم، و من ثم فقد حمل ملوك الحبشة (أثيوبيا) من بين ألقابهم لقب «أسد يهوذا» أو «الأسد الخارج من سبط يهوذا» (3) حتى نهاية دولتهم في (21 مارس 1975)، على أن الأمر بهذه الصورة جد مضلل، فليس صحيحا أن اسم عاصمة الأحباش كان «سبأ» كما زعم يوسف اليهودي، هذا فضلا عن أن مملكة أكسوم إنما قامت في القرن الأول قبل الميلاد، وليس في القرن العاشر، كما تزعم الروايات الحبشية، كما أن ملكة سبأ ليست حبشية، وإنما هي ملكة عربية

ص: 136

1- سورة النمل: آية 24.

2- . P, I, IE 027 .

3- الحيمي الحسن بن أحمد: سيرة الحبشة- القاهرة 1958، نجيب ميخائيل: مصر و الشرق الأدنى القديم 378/3-385، و كذا.. P, I, nodnoL, I, ainissybA dna ailuN, aipoihtE fo yrotsiH, eimissybA'L ed eriotSiH, xuaeblenoC. B. J 108 .egduB. W. A. E 193. p, 1928.

وتذهب الروايات العربية إلى أن ملكة سبأ هذه إنما كانت تسمى «بلقيس» أو «بلقمة أو يلقمة»⁽¹⁾، و يرى أستاذنا الدكتور أحمد فخري، طيب الله ثراه، أن أحد الاسمين، وربما كان يلقمه، نتيجة خطأ في النقل عن الآخر، وربما كان اسم الإله الوثني «الموقاة» (بمعنى إيل قوي، أي الله قوي) يدخل تركيبه، أما اسم «بلقيس» الذي تكرر ذكره في كتب المؤرخين المسلمين، فلم يرد على الإطلاق بين الأسماء السبئية (على الأقل حتى الآن) وهناك احتمال بأنه منقول عن العبرية التي نقلته عن اليونانية، ومعناه «أمة»، أو «جارية»⁽²⁾، وأما أستاذنا الدكتور حسن ظاظا، فالرأي عنده أن اسم هذه الملكة لم يكن يقينا «بلقيس»، وربما كانت هذه صفة تنطق في العبرية والآشورية «بلجشن» أو «فلجشن»، ومعناه العشيقة أو الزوجة غير الشرعية، والراجح أن ملكة سبأ وصمت بذلك من الشعب اليهودي الذي لم يكن يستريح إلى مثل هذه الصلات بين ملوكه والنساء الأجنيات⁽³⁾.

و أيا ما كان اسم ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام، و أيا كان السبب في تسميتها بهذا الاسم أو ذاك، كما تذكره المصادر العربية و العبرية و اليونانية و الحبشية، فالتوراة تزعم أن ملكة سبأ إنما كانت تهدف من وراء زيارتها هذه إلى البحث عن الحكمة و امتحان سليمان، و أنها حينما تأكدت من حكمته و عظمة ملكه، سرعان ما قدست إله إسرائيل، الذي جعل سليمان ملكا تجري على يديه الحكمة و فصل الخطاب، ثم دعت إله إسرائيل أن يثبت عرشه إلى الأبد «ليكن مباركا إلهك الذي سر بك و جعلك على كرسي

ص: 138

1- تاريخ الطبري 489/1، الكامل لابن الأثير 129/1، البكري 1298/4، ابن كثير: البداية و النهاية 21/2.

2- أحمد فخري: المرجع السابق ص 73.

3- حسن ظاظا: المرجع السابق ص 133.

إسرائيل، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكا لتجري حكما وبرا»، ثم انتهى بأن تبادل الملكان الهدايا، «وأعطت الملك مائة و عشرين وزنة ذهب و أطيابا كثيرة جدا و أحجار كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان»، و أعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطها إياه حسب كرم الملك سليمان، و ذهبت إلى أرضها هي و عبدها» (1).

على أن هناك فريقا من الباحثين إنما يجنح إلى أن زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام، إنما كانت لتوثيق العلاقات التجارية و تسهيل التعاون التجاري بينهما، بل إن هناك من يزعم أن هذه الملكة لم تكن الحاكم الفعلي لبلادها (2)، و لكنها هي التي قامت بالزيارة، و من ثم فيمكن الاستنتاج من ذلك أنها هي التي رغبت في القيام بأعمال تجارية مع سليمان، و ربما كان ذلك لتنظيم سير القوافل التجارية و الإشراف عليها، على أن هناك من يرى أن سليمان هو الذي دعا ملكة سبأ لزيارته و الإقامة فترة من الزمان في مكان ما من هضاب أدوم لمشاهدة عمال الملك و هم يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة من هناك (3).

و هكذا يبعد هؤلاء الباحثون عن الأهداف الحقيقية لزيارة ملكة سبأ لنبي الله سليمان عليه السلام، و إيمانها بدعوة النبي الكريم «قالت رب إنني ظلمت نفسي و أسلمت مع سليمان لله رب العالمين» (4)، يبعد الباحثون عن

ص: 139

1- ملوك أول 1/1 -13.

2- تكذب آيات القرآن الكريم هذا الادعاء، كما يبدو ذلك واضحا من الآيات 23-35، 41-42، 44 من سورة النمل.

3- محمد بيومي مهران: إسرائيل 772/2 و كذا، 1963، p. 124، W thgirbIA. A ygoloeahcrA eht dna noigileR fo Ilears، 1963، 95، F، QEP ni 7، K 1962، M. K. M. K 1962، F، QEP ni 7، p، 1963، 95. و كذا

4- سورة النمل: آية 44.

هذا الهدف النبيل من الزيارة، فيذهبون إلى أن مملكة سليمان إنما كانت في نهاية طريق البخور، وكان وكلاء سليمان يقومون بالإجراءات الجمركية، إن صح هذا التعبير، على البضائع الثمينة، كما كانوا هم الذين يسمحون للقوافل بالاستمرار في رحلتها إلى مصر وفينيقيا و سورية عبر مملكة سليمان في فلسطين، و من ثم فليس من الغريب أن تصل شهرة سليمان إلى ملكة سبأ (1)، و هكذا «فقد أتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا، بجمال حاملة أطيابا و ذهباً كثيرا جدا، و حجارة كريمة، و أتت إلى سليمان و كلمته بكل ما في قلبها» (2).

و الحق كل الحق، أن القصة كلها إنما تتصل بدعوة النبي سليمان عليه السلام، و ليس بالملك سليمان، و لنقرأ أولا هذه الآيات الكريمة التي تصور القصة أصدق تصوير، يقول تعالى: وَ تَقَدَّ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به و جئتك من سبأ بنبا يقين، إني وجدت امرأة تملكهم و أوتيت من كل شيء و لها عرش عظيم، و جدتها و قومها يسجدون للشمس من دون الله و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات و الأرض و يعلم ما تخفون و ما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ما ذا يرجعون، قالت: يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم، إنه من سليمان و إنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا علي و أتوني مسلمين، قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون، قالوا

ص: 140

-
- 1- جواد علي 263/2، و كذا. S. p, tic- po, relleK. W 215- 213 و كذا. p, tic- po, sgnitsaH. J 843.
tdlefssiE. O 39593. و كذا
2- ملوك أول 2/10.

نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد، والأمر إليك فانظري ما ذا تأمرين: قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون، فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، قال يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم كفر و من شكر فإنما يشكر لنفسه و من كفر فإن ربي غني كريم، قال نكروا لها عرشها ننظر أ تهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون، فلما جاءت قيل أ هكذا عرشك قالت كأنه هو، وأوتينا العلم من قبلها و كنا مسلمين، و صدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة و كشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير، قالت رب إني ظلمت نفسي و أسلمت مع سليمان لله رب العالمين» (1).

و تبدأ القصة بالنبي الملك سليمان عليه السلام في موكبه الفخم الضخم، من الجن و الإنس، و يتفقد عليه السلام الطير، فلا يجد الهدهد،

ص: 141

1- سورة النمل: آية 20-44، و انظر: تفسير الطبري 19/143-170، تفسير الطبرسي 19/208-230، تفسير روح المعاني 19/182-210، تفسير القرطبي 13/176-213، تفسير أبي السعود 4/127-134، في ظلال القرآن 5/2631-2643، تفسير الكشاف 3/142-151، تفسير البيضاوي 2/172-178، تفسير النسفي 3/207-215، تفسير الفخر الرازي 24/188-200، الدر المنثور في التفسير بالمأثور 5/104-112، صفوة التفاسير 2/406-412، تفسير ابن كثير 3/574-586، تيسير العلي القدير لتفسير ابن كثير 3/320-240، تاريخ الطبري 1/489-495، الكامل لابن الأثير 1/224-238، تاريخ ابن خلدون 2/113-114، ابن كثير: البداية و النهاية 2/18-24.

وقد اختلف العلماء فيما لأجله تفقده على وجوه، أحدها قول وهب: أنه أخل بالنوبة التي كان ينوبها فلذلك تفقده، وثانيها أنه تفقده لأن مقاييس الماء كانت إليه، وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده، فلحاجة سليمان إلى ذلك طلبه وتفقده (1)، وثالثها أنه كان يظله من الشمس، فلما فقد ذلك تفقده (2)، ولعل في هذا ما يشير إلى أنه هدهد خاص معين في نوبته، وليس هدهدا ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أمة الهداهد، كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته، سمة اليقظة والدقة والحزم، فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق ويتكث، وهو يسأل عنه في صيغة مرتفعة مرنة جامعة «ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين» ويتضح أنه غائب ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن، وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم كي لا تكون فوضى، ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف «لأعذبته عذابا شديدا، أو لأذبحنه»، ولكن سليمان ليس ملكا جبارا في الأرض، إنما هو نبي، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع ويتبين عذره، ومن ثم تبدر سمة النبي العادل «أو ليأتيني بسلطان مبين» أي حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذه عنه (3).

ص: 142

-
- 1- جاء في تفسير الطبري (144/19) اختلف عبد الله بن سلام والقائلون بقوله، ووهب بن منتهبه، فقال عبد الله: كان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه ليستخبره عن بعد الماء في الوادي الذي نزل به في مسيره، وقال وهب: كان تفقده إياه وسؤاله عنه لإخلاله بالنوبة التي كان ينوبها، والله أعلم، كما يقول الطبري، بأي ذلك كان إذ لم يأتنا بأي ذلك كان تنزيل، ولا خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح، والصواب أن يقال إن الله أخبر عن سليمان أنه تفقد الطير، إما للنوبة التي كانت عليها وأخلت بها، وإما لحاجة كانت إليها عن بعد الهاء.
 - 2- تفسير الفخر الرازي 189/24.
 - 3- في ظلال القرآن 5/2638.

ويأتي الهدهد بعد مكث غير بعيد، فيقول للنبي الكريم «أحطت بما لم تحط به»، وفي هذا، كما يقول الإمام الفخر الرازي، تنبيه لسليمان على أن من أدنى خلق الله تعالى من أحاط علما بما لم يحط، فيكون ذلك لطفًا في ترك الإعجاب، والإحاطة بالشيء علما أن يعلم من جميع جهاته (1)، ثم يخبره بهذا الذي لم يحط به وحيثك من سببًا بنيا بينين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وحدثها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، أي أنني أتيت من سبأ- وهي مملكة عظيمة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية- وقد وجدت القوم تحكمهم امرأة» (2) أوتيت من كل شيء، كناية عن عظمة ملكها و ثرائها و توافر أسباب الحضارة و القوة و المتاع، «ولها عرش عظيم» أي سرير ملك فخم ضخم يدل على الغنى و الترف و ارتقاء الصناعة أو عظيم في قدره و عظم خطره، لا عظمة في الكبر و السعة، لكن هذه المرأة و قومها يسجدون للشمس من دون الله و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، و هنا نجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، صاحب ذكاء و إيمان، و براعة في عرض النبأ، و يقظة إلى طبيعة موقفه و تلميح و إيحاء أريب، فهو يدرك أن هذه ملكة و أن هؤلاء رعية، و يدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، و يدرك أن السجود لا يكون إلا لله رب العرش العظيم، و ما هكذا تدرك الهداهد، إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف (3).

و من ثم فقد أراد النبي الكريم أن يختبر صدق الهدهد في دعواه، وفي

ص: 143

1- تفسير الفخر الرازي 190/24.

2- روي البخاري و الترمذي و النسائي بسنده عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال: لن يفلح قوم و لو أمرهم امرأة (البداية و النهاية 2/22).

3- في ظلال القرآن 5/2638، و انظر تفسير الطبري 19/148.

نفس الوقت أن يدعو هؤلاء المنحرفين عن عبادة الله الواحد القهار «قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ما ذا يرجعون»، و تجمع الملكة المملأ من القوم و تعرض عليهم الأمر يا أيها المملأ إني أُلقي إليّ كتاب كريم، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ، و يقول الفخر الرازي في وصف الكتاب بأنه كريم، فيه ثلاثة أوجه، أحدها حسن مضمونة و ما فيه، و ثانيها وصفه بالكريم لأنه من عند ملك كريم، و ثالثها أن الكتاب كان مختوما، و قال صلى الله عليه وسلم: «كرم الكتاب ختمه»، و كان صلى الله عليه وسلم: يكتب إلى العجم فقبل له إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتما» (1)، كما يدل ذلك أيضا على أدب جم تحلت به الملكة العربية، و على أية حال، فإن الكتاب يفيد أن الملكة كانت لا تعبد الله، و لكن صيت سليمان كان ذائعا في هذه الرقعة، و لغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء و حزم و جزم، مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته، و فحوى الكتاب في غاية البساطة و القوة، فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم، و مطلوب فيه أمر واحد: ألا يستكبروا على مرسله و يستعصوا و أن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه (2).

و تطلب الملكة الرأي و المشورة من المملأ في هذه الأزمة التي أتت إليها من حيث لا تحتسب، و في نفس الوقت تعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر، إلا بعد هذه المشورة، برضاهم و موافقتهم «يا أيها المملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون»، و يأتيها الجواب سريعا من المؤتمرين «نحن أولوا قوة و أولوا بأس شديد، و الأمر إليك فانظري ما ذا

ص: 144

1- تفسير الفخر الرازي 194/24، تفسير النسفي 3/ 209-210.

2- في ظلال القرآن 5/ 2639-2640.

تأمرين»، و ليس هناك من ريب في أن هذا السياق القرآني إنما يدل بوضوح على أنها صاحبة السلطان الفعلي في مملكتها، بعكس ما ذهب إليه بعض الباحثين (1)، كما أشرنا من قبل، و أما القوة و البأس اللتان أشار إليهما الملاء، فالمراد بالقوة قوة الأجسام و قوة الآلات، و أما البأس فالمراد النجدة و الثبات في الحرب، و حاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين، أحدهما إظهار القوة الذاتية و العرضية ليظهر أنها إن إرادتهم للدفع و الحرب و جدتهم بحيث تريد، و الآخر قولهم: «و الأمر إليك فانظري ما ذا تأمرين» و في ذلك إظهار الطاعة لها، إن أرادت السلم و لا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا (2)، و يقول الإمام النسفي: أرادوا بالقوة، قوة الأجسام و الآلات، و بالبأس النجدة و البلاء في الحرب، «و الأمر إليك فانظري ما ذا تأمرين» أي موكول إليك، و نحن مطيعون لك، فأمرينا بأمرك نطعك و لا نخالفك كأنهم أشاروا عليها بالقتال، أو أرادوا نحن من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأي و المشورة، و أنت ذات الرأي و التدبير فانظري ما ذا تريدين تتبع رأيك تتبع رأيك، فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة، مالت إلى المصالحة و رتبت الجواب، فزيفت أولاً ما رتبوه، و أرتهم الخطأ فيه حيث «قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية (عنوة و قهرا) أفسدوها و جعلوا أعزة أهلها أذلة و كذلك يفعلون» (أرادت و هذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير، لأنها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك (3)، و جاء في تفسير ابن كثير: قال الحسن البصري: فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم و أعلم بأمر سليمان، و أنه لا قبل لها بجنوده و جيوشه و ما سخر له من الجن و الإنس و الطير، و قد شاهدت مع الهدهد أمراً عجيباً

ص: 145

1- . O 593 . p, tic- po, tdlefssiE.

2- تفسير الرازي 195 / 24.

3- تفسير النسفي 210 / 3.

بديعا (1)، فقالت لهم إنني أخشى أن نحاربه و نمتنع عليه فيقصدنا بجنوده و يهلكنا بمن معه و يخلص إلى و إليكم الهلاك و الدمار دون غيرنا، و لهذا قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلدا عنوة أفسدوه أي خربوه، و جعلوا أعزة أهلها أذلة، أي و قصدوا من فيها من الولاة و الجنود و أهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو الأسر .. ثم عدلت إلى المصالحة و المهادنة و المسالمة و المخادعة و المصادفة (2).

و هكذا تبدأ الملكة في أعمال الحيلة و التدبير، بل و هنا تظهر شخصية المرأة من وراء الملكة، المرأة التي تكره الحروب و التدمير، و التي تنعني سلاح الحيلة و الملاينة، قبل أن تنفي سلاح القوة و المخاشنة (3)، و من ثم فإنها تعمل على أن تضع النبي الكريم موضع الاختبار لتصل إلى رأي تظمنن إليه بشأنه، و هل هو من الهداة المرشدين أم من الطغاة الظالمين، و من ثم فإنها تبعث برسول من عندها إلى صاحب هذه الرسالة الذي يطلب منها، و كذا قومها، ألا تعلقوا علي و أتوني مسلمين» يحملون الهدايا الثمينة (4)، كما أنها

ص: 146

1- قارن في ظلال القرآن (2639/5) حيث يرجح صاحبه أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب، و لا- كيف ألقاه، و لو كانت تعرف أن الهدهد هو الذي جاء به، كما تقول التفاسير، أعلنت هذه العجيبة التي لا تقع كل يوم، و لكنها قالت بصيغة المجهول، مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقى إليها و لا من ألقاه.

2- تفسير ابن كثير 3/ 579 (ط بيروت 1986).

3- في ظلال القرآن 5/ 2640.

4- روت كتب التفسير عن ابن عباس أنها بعثت إليه بوصائف و وصفاء و أبستهم لباسا واحدا حتى لا يعرف ذكر من أتى، فقالت إن زيل بينهم حتى يعرف الذكر من الأثني ثم رد الهدية فإنه نبيّ، و ينبغي لنا أن نترك ملكنا و نتبع دينه و نلحق به، و عن ابن جريح قال مجاهد: فخلص سليمان بعضهم من بعض و لم يقبل هديتها، و عن ثابت البناني قال: أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج، فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فمؤهوا له الأجر بالذهب، ثم أمر به فألقى في الطرق، فلما جاءوا فأروه ملقي ما يلتفت إليه، صغر في أعينهم ما جاءوا به، و في تفسير النسفي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى و حليهن راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم و السروج بالذهب المرصع بالجواهر، و خمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان و ألف لبنة من ذهب و فضة و تاجا مكللا بالدر و الياقوت، و حقا فيه درة عذراء و جزعة معوجة الثقب، و بعثت كتابا فيه نسخة الهدايا و قالت: إن كنت نيبا فمميز بين الوصفاء و الوصائف و أخبر بها في الحق و اثقب الدرّة ثقبا و اسلك في الخزرة خيطا، ثم قالت لكبير رسالها: إن نظر إليك نظرة غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظره، و إن رأيته بشاشا لطيفا فهو نبيّ، فأقبل الهدهد و أخبر سليمان الخبر كله، فأمر سليمان الجن فضربوا لبنت الذهب و الفضة و فرشوها في ميدان بين يديه طوله، سبعة فراسخ و جعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب و الفضة، و أمر بأحسن الدواب في البر و البحر فربطوها عن يمين الميدان و يساره على اللبنة و أمر بأولاد الجن و هم خلق كثير فأقيموها عن اليمين و اليسار، ثم قعد على سريره و الكراسي من جانبه، و اصطففت الشياطين صفوفًا فراسخ، و الإنس صفوفًا فراسخ، و الوحش و السباع و الطيور و الهدام كذلك، فلما دنا القوم و رأوا الدواب تروث على اللبنة رموا بما معهم من الهدايا، و لما وقفوا بين يديه نظر إليهم سليمان بوجه طلق فأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه و قال: أين الحق فأمر الأربعة فأخذت شعرة و نفذت في الدرّة و أخذت دودة بيضاء الخيط بفيها و نفذت فيها، و دعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، و الغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية، و في تفسير ابن كثير: أنها أرسلت إليه بقدرح ليملاء ماء رواء لا من السماء، و لا من الأرض، فأجرى الخيل حتى عرقت ثم ملاء من ذلك، و بخزرة و سلك ليحمله فيها ففعل و الله أعلم أكان ذلك أم لا، و الظاهر أن أكثره من الإسرائيليات، و أن سليمان لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية و لا اعتنى به، بل أعرض عنه (تفسير الطبري 19/

في الوقت نفسه طلبت من رسلها أن يقفوا على قوة سليمان، ثم يعودوا إليها بتقرير واف شامل عن حقيقته، ومدى ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة، وهل يمكنه أن يهدد أمنها وأمن قومها، إن لم تخضع لأمره، وذلك لتكون على بينة من أمرها، وحتى يمكنها اتخاذ القرار المناسب، قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، ذلك لأن الهدية تلين القلب وتعلن الود، وقد تقلح في دفع القتال، وهي تجربة، فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا، وسائل الدنيا إذن تجدي، وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة الذي لا يصدفه عنه مال، ولا عرض من أعراض

ص: 147

الدنيا، قال ابن عباس: قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقَاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه (1).

وجاءت الرسل إلى سليمان عليه السلام بالهدايا فرفضها، وأعلم رسل الملكة أن ما آتاه الله من الملك والنبوة والرسالة وما جعل له فيهما من ثواب عظيم، ومقام كريم، إنما هو خير من هداياهم، ومن كل ما عندهم من عرض الدنيا، ثم توعدهم بأن يرسل إليهم، وفي بلادهم نفسها، بجنود لا قبل لهم بها، وليخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَ تُمَدُّونَ بِي مَالٍ، فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ، اذْجَعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (2)، وهنا تتأكد الملكة العربية أنها أمام واحد من المصطفين الأخيار، يطلب لها، وكذا لقومها، الهداية إلى سواء السبيل، وليس رجالاً غزته قوته، فأراد أن يجعل دولتها جزءاً من مملكته، فتقرر الذهاب بنفسها إلى النبي الكريم، قال ابن عباس: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت: قد عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان إنني قادمة إليك بملوك قومي وما تدعو إليه من دينك (3).

ويستعد سليمان لاستقبال الملكة بأمر يخرج عن قدرة البشر العاديين، ويدخل في عداد معجزات الصفة المختارة من أنبياء الله ورسله الكرام البررة، قال يا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْتَلِمِينَ، قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه

ص: 148

1- في ظلال القرآن 5/2640، تفسير ابن كثير 3/579-580.

2- سورة النمل: آية 36-37.

3- انظر: حاشية زادة على البيضاوي 3/493، صفة التفاسير 2/409.

مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (1).

هذا وقد اختلف المفسرون والمؤرخون في قصد سليمان عليه السلام من استحضر عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها، كما اختلفوا كذلك في هذا الذي عنده علم من الكتاب، والذي قال: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، فأما عن الهدف من استحضر العرش، فذهب رأي إلى أنه وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله والإذعان لدعوته، ويقول الفخر الرازي: و اختلفوا في غرض سليمان عليه السلام من إحضار ذلك العرش على وجوه، أحدها: أن المراد أن يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى، وعلى نبوة سليمان عليه السلام حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلائل التي سلفت، و ثانيها: أراد أن يؤتي بذلك العرش فيغيّر وينكر ثم يعرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره، والمقصود اختبار عقلها، وقوله تعالى: نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرًا أَ تَهْتَدِي كالدلالة على ذلك، وثالثها، قال قتادة: أراد أن يأخذه قبل إسلامها، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها، ورابعها: أن العرش سرير الملك فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه، وقال أبو جعفر:

و أولي الأقوال بالصواب أنه أراد أن يجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه، وأما أولي التأويلين في قوله تعالى:

قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ فهو قول ابن عباس من أن معناه طائعين، لأن المرأة لم تأت سليمان إذ أتته مسلمة، وإنما أسلمت بعد مقدمها عليه، وبعد محاوره جرت بينهما ومساءلة (2).

و أما الذي عنده علم من الكتاب فقد اختلفوا فيه على قولين، قيل كان

ص: 149

1- سورة النمل: آية 38-40.

2- تفسير الطبري 160/19-161، في ظلال القرآن 5/2641، تفسير الفخر الرازي 24/197، تفسير البيضاوي 2/83، تفسير النسفي 3/212، تفسير ابن كثير 3/581، صفوة التفاسير 2/409، تفسير القرطبي ص 4918-4919.

من الملائكة وقيل كان من الإنس، فمن قال بالأول اختلفوا، قيل هو جبريل عليه السلام، وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام، و من قال بالثاني اختلفوا على وجوه، أحدها قول ابن مسعود إنه الخضر عليه السلام، و ثانيهما، وهو المشهور، من قول ابن عباس: إنه آصف بن برخيا وزير سليمان، و كان صديقا يعلم الاسم الأعظم إذا دعا به أجيب، و كذا روي عن يزيد بن رومان أنه «آصف بن برخيا» و كان صديقا يعلم الاسم الأعظم الذي إذا دعى الله به أجاب، و إذا سئل به أعطى، و ذهب ابن عطية و أبو حيان إلى أن هذا القول هو قول الجمهور، و عدّه الشوكاني قول أكثر المفسرين و ثالثها قول قتادة إنه رجل من بني آدم، قال معمر: أحسبه قال من بني إسرائيل، كان يعلم اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، و رابعها قول ابن زيد: كان رجلا صالحا في جزيرة في البحر، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان، فلما سمع العفريت يقول: «أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك و إنه عليه لقوي أمين»، قال: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» ثم دعا باسم من أسماء الله، فإذا هو يحمل بين عينيه، و قرأ «فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي» إلى قوله تعالى فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (1).

على أن هناك من يذهب إلى أنه النبي الكريم نفسه سيدنا سليمان عليه السلام (2)، و يذهب الدكتور المطرفي (3) إلى أن سليمان قال ذلك ليظهر

ص: 150

-
- 1- تفسير القرطبي 162/19-163، تفسير القرطبي 205/13-206، تفسير ابن كثير 582/3، تفسير الكشاف 149/3، تفسير البحر المحيط 76/7، تفسير النسفي 213/3، صفوة التفاسير 409/2، فتح القدير للشوكاني 139/4، البداية و النهاية 23/2، الكامل لابن الأثير 1/132، تفسير الفخر الرازي 197/24.
 - 2- تفسير الكشاف 149/3، تفسير القرطبي 205/13، تفسير الفخر الرازي 197/24.
 - 3- عويد المطرفي: المرجع السابق 75-76.

معجزة من الله تعالى تجري على يديه، توثيقاً لإيمان جموعه بنبوته ورسالته، ويكون الخطاب، كما قال ابن عطية، على هذا التأويل للعفريت لما قال أَمَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ، كأن سليمان استبطن ذلك، فقال له على جهة تحقيره أَمَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، ليبين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت (1)، وقد أيد القرطبي ابن عطية وقال: إن النحاس قال بذلك في معاني القرآن، وهو قول حسن إن شاء الله، وأن القائلين بأن قوله: أَمَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ من قول سليمان عليه السلام، استدلوا على ذلك بما جاء في هذه الآية نفسها من قوله فيها، إظهار الفضل الله تعالى عليه هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (2).

هذا وقد ذهب الفخر الرازي (3) إلى هذا الرأي، فقال إنه سليمان نفسه، والمخاطب هو العفريت الذي كلمه، وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة، فتحدهم أولاً، ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت، وهذا القول أقرب لوجه، أحدها أن لفظه الذي موضوعه في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة، والشخص المعروف بأنه عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام، فوجب انصرافه إليه، وأقصى ما في الباب أن يقال: كان آصف كذلك، لكننا نقول إن سليمان عليه السلام كان أعرف بالكتاب منه لأنه هو النبي، فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان أولى، والثاني: أن إحصار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية، فلو حصلت لآصف دون سليمان، لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان، وأنه غير جائز، والثالث: أن سليمان عليه السلام لو افتقر في ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال

ص: 151

1- تفسير القرطبي 205/13، تفسير الفخر الرازي 197/24.

2- تفسير القرطبي 205/13 (دار الكاتب العربي - القاهرة 1967).

3- تفسير الفخر الرازي 197/24 - 198.

سليمان في أعين الخلق، والرابع: أن سليمان قال: «هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر»، و ظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان، على أن الأستاذ سيد قطب إنما يرجح أنه غير سليمان، و حجته أنه لو كان هو لأظهره السياق باسمه، و لما أخفاه، و القصة عنه، و لا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر (1).

بقيت الإشارة إلى أن بعض المفسرين حاولوا تفسير «الكتاب» في قوله تعالى: عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ، فقال بعضهم إنه التوراة، و قال بعضهم إنه كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دعى به أجاب، كما أشرنا من قبل، و هو «يا حي يا قيوم يا ذا الجلال و الإكرام، أو يا إلهنا و إله كل شيء، إلهنا و إله واحد، لا إله إلا أنت»، و قيل كان له علم بمجاري الغيوب إلهاماً، و أنه قال لسليمان، فيما يروي عن وهب بن منبه، «امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به»، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ و دعا الله تعالى، قال مجاهد، قال يا ذا الجلال و الإكرام، و قال الزهري قال: يا إلهنا و إله كل شيء إلهنا و إله واحد لا إله إلا أنت، انتني بعرشها، قال فمثل بين يديه، قال مجاهد و سعيد بن جبير و محمد بن إسحاق و زهير بن محمد و غيرهم، لما دعا الله تعالى و سأله أن يأتيه بعرش بلقيس، و كان في اليمن و سليمان عليه السلام بيت المقدس، غاب السرير و غاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان (2).

و أيا ما كان الأمر، فلقد تمت المعجزة، و رأى سليمان عليه السلام عرش ملكة سبأ مستقراً بين يديه، فأمر أن تنكر لها معالم هذا العرش ليمتحن بذلك قوة ملاحظتها و انتباهها، فلما جاءت فوجئت بأول ظاهرة عجيبة،

ص: 152

1- في ظلال القرآن 5/ 2641.

2- تفسير النسفي 3/ 213، تفسير ابن كثير 3/ 582، في ظلال القرآن 5/ 2641.

فعرض عليها عرشها وقيل لها: أهكذا عرشك، فأجابت: كأنه هو، لا تنفي ولا تثبت، مما يدل على فراسة وبديهية في مواجهة المفاجأة العجيبة، فضلا عن غزارة في الفهم وقوة في الملاحظة، فلقد استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحدا يقدر على هذا الصنع العجيب، قال النسفي: أجابت أحسن جواب، فلم تقل هو هو، ولا ليس به، وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع في المحتمل للأمرين، أو لما شبهوا عليها بقولهم: أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها: كأنه هو، مع أنها علمت أنه عرشها، ثم كانت في انتظارها مفاجأة أخرى، فلقد أمر سليمان بأن يقام لها صرح من قوارير (زجاج) تجري تحته المياه حتى يحسبه من لا يعرف أمره أنه ماء (1).

وهكذا ما إن وصلت الملكة السبئية إلى القدس، عاصمة سليمان، حتى وجدت أمامها مفاجأتين، الواحدة عرشها، وقد نكر لها، والأخرى ذلك الصرح الزجاجي الذي تجري المياه من تحته، أو ذلك القصر البلوري، الذي أقيمت أرضيته فوق الماء، فظهر وكأنه لجة، فلما قيل لهما: ادخلي الصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة فكشفت عن ساقها، فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها «قال إنه صرح ممرد من قوارير»، و كل من المفاجأتين إنما تدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاعة البشر، فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنة إسلامها مع سليمان، لا لسليمان، ولكن «لله رب العالمين» (2)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فَلَمَّا جَاءَتْ قَيْلَ أ هَكَذَا عَرْشِكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ، وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ

ص: 153

1- تفسير النسفي 214/3، الصابوني: المرجع السابق ص 293-294.

2- في ظلال القرآن 5/2643.

مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ، قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (1).

وهكذا رأَت الملكة كل ما يبعد عنها أية ريبة في أنها أمام نبيِّ كريم، أمام نبيِّ الله سليمان عليه السلام، وليس، كما كانت تظن بادئ ذي بدء، أنها أمام ملك يطمع في دولتها أو يبغى الاستيلاء عليها، ثم يجعل من أعزة قومها أذلة، وكذلك يفعل الطامعون المستعمرون، و عندئذ تصرفت سيدة سباً تصرفاً تفخر به المرأة العربية على طول العصور، تصرفاً لم يقدر عليه من قبل، ملك العراق مع الخليل عليه السلام، أو فرعون مصر مع الكليم عليه السلام، كما رأينا من قبل في هذه الدراسة، كما لم يقدر عليه من بعد جبابرة قريش و طواغيت ثقيف وغيرهم من بعض رجالات العرب، مع سيد الأولين و الآخرين سيدنا و مولانا و جدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم، أو قل هي رحمة الله التي تداركت هذه السيدة الكريمة، و أراق لها الهداية و الرشاد، و من ثم فقد أنهت الأمر كله، كما رأينا، «قالت رب إنني ظلمت نفسي و أسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، و حتى في إسلامها فقد كانت عاقلة رشيدة، فلقد اهتدى قلبها و استنار، و من ثم فقد عرفت أن الإسلام لله وحده ليس استسلاماً لأحد من خلقه، حتى و إن كان هذا الأحد هو سليمان النبي الملك صاحب المنجزات، إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين، و مصاحبة للمؤمنين به و الداعين إلى طريقة، على سنة المساواة «و أسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، و قد سجل السياق القرآني هذه اللفتة الأخيرة و أبرزها، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، و الإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب و المغلوب أخوين في الله لا غالب

ص: 154

منهما ولا مغلوب، و هما أخوان في الله رب العالمين على قدم المساواة (1).

هذه عجالة نلخص بها قصة سليمان عليه السلام، مع ملكة سبأ، كما جاءت في القرآن الكريم، غير أن بعض المفسرين و المؤرخين قد أسرفوا على أنفسهم و على الناس، فعالجوا هذه القصة الواضحة بطريقة عجيبة، فأضافوا إليها ما شاء لهم الخيال أن يضيفوا تذهب بعضهم إلى أن بلقيس إنما هي بلقمة ابنة «ليشع بن الحارث بن صيفي بن يشجب بن يعرب بن قحطان»، و ذهب آخرون إلى أنها بلقيس (تلقمة أو بلقمة) بنت السيرج، و هو الهدهاد بن شرحبيل، و أنها حكمت اليمن مائة و عشرين سنة، بينما نزل البعض بحكمها إلى سبع سنين (2)، و من عجب أن بعض الأخباريين إنما يذهب به الخيال إلى أن يرى أن «أم بلقيس» إنما كانت «جنية» بنت ملك الجن، و اسمها «رواحة» بنت السكر، أو بلقمة بنت عمرو بن عمير الجني، و ذهب آخرون إلى أن والد بلقيس كان من أكابر الملوك، و كان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن، فيقال أنه تزوج من امرأة من الجن اسمها «ريحانة» بنت السكن، فولدت له بلقيس و اسمها تلقمة، و يقال لها بلقيس (3)، و أما كيف وصل أبو بلقيس إلى الجن و خطب ابنة ملكهم، فإنهم إنما يقدمون روايات من ذلك النوع من الأساطير، على أن أسوأ ما في الأمر و أشده خطورة أن يحاول بعض الرواة أن يعطوا لرواياتهم سنداً من شرعية أو نصيباً عن صواب، فينسبوا إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، عن طريق أبي هريرة،

ص: 155

1- في ظلال القرآن 5/ 2643.

- 2- تاريخ الطبري 1/ 489، الكامل لابن الأثير 1/ 129-130، الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص 278، 290، تاريخ اليعقوبي 1/ 196، مروج الذهب للمسعودي 2/ 50، تاريخ ابن خلدون 2/ 59.
- 3- تفسير القرطبي ص 4898-4927، الثعلبي: المرجع السابق ص 278، مروج الذهب 2/ 49-50، ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 21، ابن الأثير 1/ 129، قصص الأنبياء 2/ 290-291، تفسير الفخر الرازي 24/ 200-201.

أحاديث تؤيد مزاعمهم هذه (1)، ثم لا يقتصر القوم على ذلك، وإنما يقدمون كل دنيء عن القوم (2)، فالملك السبئي يعتدي على الأعراس، فلا تقوته عروس إلا ويفتضحها قبل زوجها، وبلقيس، وهي ابنة عمه، لا تنجو من هذه الإذلال، إلا أن تثور على قومها مؤنبة إياهم على قبولهم هذا الصغار، وتلك الخسة والدناءة، فنقول: «أما فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته»، ثم تعد له من وراء ستار رجلان يقتلانه في اللحظة التي يهيم بها (3).

و يبلغ الخيال بمؤرخينا أشده حين يزعمون أن بلقيس كانت عريضة الملك، كثيفة الجيش، ويقدم لنا الطبري عدة روايات عن قوة جيشها وكثرة عدده، فرواية تذهب إلى أنه كان مع بلقيس اثنا عشر ألف فيل، مع كل فيل مائة ألف، وأخرى تذهب إلى أنه كان مع بلقيس مائة ألف فيل مع كل ما قيل مائة ألف، وفي الكامل لابن الأثير «كان لها اثنا عشر ألف فيل، تحت يد كل».

ص: 156

- 1- جاءت في البداية والنهاية (21 / 1) أنه صلى الله عليه وسلم قال: «كان أحد أبوي بلقيس جنيا»، وهو، فيما يرى ابن كثير، حديث غريب وفي سنده ضعف، وفي تفسير الطبري (169 / 19) «كان أحد أبوي صاحبة سبأ جنيا».
- 2- تسرف المصادر العربية كثيرا في ذكر الجرائم الجنسية، في تاريخ العرب القديم، رغم أن هذه الجرائم، فضلا عن تعارضها مع المنطق والتاريخ، فإنها تتعارض أيضا مع التقاليد العربية التي يعترف بها الأعداء قبل الأصدقاء، فضلا عن الحاقدين والمتشككين في كل خلة عربية كريمة، ومع ذلك فقد تكرر ذكر هذه الجرائم المنحطة في مصادر لها ما لها من القيمة عند الناس، بصورة أو بأخرى، وفي مواضع مختلفة من الجزيرة العربية، تكررت في طسم و جديس، وفي المدينة بين العرب واليهود، وفي اليمن مع بلقيس وعتودة مولى أبرهة الحبشي (انظر تاريخ الطبري 629 / 1 - 632، 128 / 2 - 129، ابن الأثير: الكامل 232 / 1 - 233، 350، 354، 432 - 433، 656 - 658، مروج الذهب 111 / 2 - 119، تاريخ ابن خلدون 24 / 2 - 25، 287 - 289، المقدس: البدء والتاريخ 179 / 1 - 180، 28 / 3 - 29، معجم ياقوت 242 / 2، 84 / 5 - 87، الأغاني 96 / 19 - 97، عبد الفتاح شحاتة: المرجع السابق ص 286 - 292)، ثم انظر مناقشة هذه الأكاذيب (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص 169 - 173، 376 - 377، 461 - 475).
- 3- الديار بكري: تاريخ الخميس ص 276، ابن الأثير 232 / 1 - 233 (بيروت 1965).

قيل مائة ألف مقاتل، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش، في كل جيش سبعون ألف مبارز، ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرون سنة»، و صدق ابن الأثير حيث يقول: و ما أظن الساعة راوي هذا الكذب الفاحش عرف الحساب، حتى يعرف مقدار جهله، و لو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف، فإن أهل الأرض لا يبلغون جميعهم، شبابهم و شيوخهم و صبيانهم و نساؤهم، هذا العدد (1).

هذا و يجعل الأخباريون أمر بلقيس كله بيد سليمان، و حين ترفض الزواج من أحد رعاياها، يزوجهها سليمان من «ذي تبع» ملك همدان، بحجة أن ذلك لا يكون في الإسلام، و كأن الملوك قبل عصر سليمان ما كانوا يتزوجون من غير أنداد لهم، و كأن التاريخ لا يعرف زواجا بين الأمراء و غير الأمراء، و مع ذلك فإن سليمان لم يزوجه بواحد من رعاياها أو حتى من عظماء قومها، وإنما زوجها من ملك همدان، الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئا، و ليت الذين كتبوا كله، كانوا يعرفون أن قبيلة همدان لم تصبح لها المكانة الأولى بين قبائل اليمن، و لم يحمل شيوخها لقب «ملك» متحدين بذلك سلطة ملوك سبأ الشرعيين (2)، إلا منذ أيام «نصريةأمن» (نصريةنعم) و شقيقه «صدق يهب» حوالي عام 200 قبل الميلاد (3)، و أن بلقيس، و قد عاصرت الملك سليمان (960-922 ق.م)، إنما كانت تعيش في القرن العاشر قبل الميلاد، أي قبل ظهور ملوك همدان بما يقرب من سبعة قرون على الأقل، و على أية حال، فهناك رواية تذهب إلى أن سليمان قد زوجها من «سدد بن زرعة بن سبأ»، الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئا كسابقه، علي

ص: 157

1- تفسير الطبري 154/19، تاريخ الطبري 491/1، الكامل لابن الأثير 131/1 (بيروت 1978).

2- , 1961 p. 278. J. A. Emma, S. Naeba, I. S. NoitpircsnI, M. Marha, B. Siuqli, B. A. Eromitla.

3- , 1947 p. 142. B. J. P. Yllih, A. Mals, A. Airdnaxel.

أن هناك رواية تذهب إلى أن الزوج الذي ارتضته بلقيس، إنما كان سليمان نفسه، وأنه قد أحبها حبا شديدا، وردها إلى ملكها باليمن، و كان يزورها كل شهر مرة يقيم عندها ثلاثة أيام، و على أية حال، فليس لذلك ذكر في الكتاب، و لا في خبر مقطوع بصحته، و مع ذلك فإن بعض الروايات تزعم أن سليمان جعل الجن تحت إمرتها، و على رأسهم «زويعة» أمير جن اليمن، و أن بلقيس ماتت على أيام سليمان، و أنه قد دفنها باليمن على رواية، و في الشام على رواية أخرى، و أنه دفنها بتدمر و أخفى قبرها، على رواية [ثالثة \(1\)](#).

ص: 158

1- تفسير القرطبي ص 4926، تفسير النسفي 3/214-215، تفسير الطبري 19/169-170، تفسير الفخر الرازي 24/201، تاريخ الطبري 1/494-495، الكامل لابن الأثير 1/133، الثعلبي: المرجع السابق ص 269-270، البداية و النهاية 2/24 ابن دريد: الاشتقاق 2/311، تاريخ ابن خلدون 2/59، 113-114.

[1] السياسة الداخلية: -

ورث سليمان داود في مملكته، و من ثم فقد أصبح ملكا في أورشليم (القدس) و حاكما على مملكة إسرائيل، هذا و يتفق المؤرخون على أن سليمان قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد، و لكنهم يختلفون في تحديد فترة حكمه من هذا القرن العاشر، فهناك من يرى أنها في الفترة (974-932 ق.م) (1)، و من يرى أنها في الفترة (973-936 ق.م) (2)، و من يرى أنها في الفترة (970-933 ق.م) (3)، و من يرى أنها في الفترة (963-923 ق.م).

(م) (4)، و من يرى أنها في الفترة (961-923 ق.م) (5)، و من يرى أنها في الفترة (971-931 ق.م) (6)، و من أنها في الفترة (963-629 ق.م) (7)،

ص: 159

-
- 1- فضلو حوراني: المرجع السابق ص 34.
 - 2- حسن ظاذا: الساميون و لغاتهم ص 84.
 - 3- فيلب حتى: المرجع السابق ص 205.
 - 4- نفس المرجع السابق.
 - 5- سبتيانو موسكاتي: الحصارات السامية القديمة ص 143 (مترجم) و كذا، H. notae, T. ehT, O. dI, T. nematseP, L. nodno, 1969, p. 172. E. W.
 - 6- , 1970, p. 36. I. nietspE, J. msiadu.
 - 7- , 1959, p. 81. H. lacirotsi, A. fo salt, L. dna.

و من يرى أنها في الفترة (960-922 ق. م) (1)، و هذا ما نميل إليه و نرجحه، و سنسير عليه في هذه الدراسة.

هذا و كان اختيار سليمان بعد أبيه داود، عليهما السلام، ملكا على بني إسرائيل، إنما يرجع إلى كفاءته الشخصية، فهو لم يكن أبدا أكبر أبناء داود الكثيرين، كما أنه لم يكن حتى أكبر الأبناء الذين ولدوا بعد اعتلاء داود عرش إسرائيل، و أيا ما كان الأمر، فلقد خلف سليمان أباه دونما أية صعوبات أو ثورات داخلية، ثم سرعان ما عمل على القضاء على منافسيه و التخلص من مؤامراتهم، و ما قد يحيكون له من دسائس (2)، ثم اتجه بعد ذلك إلى تدعيم عرشه في الداخل، فاستخدم معظم موارد دولته في تقوية دعائم الحكومة، و تجميل العاصمة أورشليم، و من ثم فقد أقام سليمان كثيرا من الحصون، كما رمم القديم منها، و وضع حاميات في المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية، ليهرب بها الثائرين و الغازين على السواء.

ثم عمل سليمان بعد ذلك على القضاء على طموح البطون و العشائر التي كانت تسعى للاستقلال، ذلك لأن سليمان إنما كان يعرف تماما أن أخطر المشاكل التي واجهت أبوه داود من قبل، إنما كانت طموح بعض القبائل إلى التمتع بحكم ذاتي، و لا شك أن هذه الرغبة إنما كانت تتعارض كثيرا مع رغبة سليمان في الحكم المركزي، و من ثم فقد ركز كل جهوده في تقوية أي تحالف يقوم بين هذه القبائل و يهدد الوحدة الإسرائيلية العامة، و هكذا قسم سليمان مملكته إلى اثنتي عشرة محافظة، على كل واحدة منها محافظ يتولى الضرائب، كما فرض على كل محافظة إعاشة الملك و حاشيته و جيشه و خيله شهرا في السنة، ذلك لأن سليمان كان في حاجة إلى تزويد).

ص: 160

-
- 1- , 1963 , 120- 122. p. F. W thgirblA. ehT, lacilbiB morf doireP ARZE ot maharbA. Y. N.
- 2- ملوك أول 1/1 - 53، 2/3 - 48، 3/12 - 13، تاريخ الطبري 1/485، الكامل لابن الأثير 1/127 (بيروت 1978).

الجنود، وكذا الخيول، الموجودة في الحصون التي أقامها، بالمؤن والعلف، فضلا عن إعاشة رجالات القصر الذين زاد عددهم عن أيام أبيه كثيرا (1).

وأيما كان الأمر، فلقد كانت حدود المناطق الجديدة، باستثناء أربع أو خمس حالات، ليست متطابقة مع حدود القبائل الإسرائيلية، مما يتفق وهدف سليمان من تحطيم البناء الحكومي الإقليمي المستقل، وبالتالي يمكن أن يضعف النزعة الانفصالية بين القبائل الإسرائيلية، و أن يؤلف منهم شعبا واحدا (2)، وعلى أي حال، فلقد كان على كل منطقة من المناطق الجديدة «مشرفا» أو «وكيلا» عليه توزيع المسؤولية الخاصة بالمتونة بين الملاك المختلفين، وأن يراقب وصولها في الوقت المحدد، وأن يجمعها في مدن الصوامع، ثم يسلمها في أورشليم في الشهر المعين، وكان على رأس هذا النظام موظفا أعلى يسمى «رئيس الوكلاء» لم تظهر وظيفته على أيام داود، وإنما ظهرت، ولأول مرة، بين الموظفين الكبار في عهد سليمان، ومن هنا كان الصدام بما يسمى حرية القبائل الإسرائيلية، وذلك عن طريق التصرف في إنتاج زراعتهم ونتاج مواشيتهم بطريقتهم الخاصة أو على حسب هواهم (3).

ويبدو أن المدن الكنعانية التي كانت قد احتفظت باستقلالها حتى ذلك الوقت، مثل دور و مجدو و تعنك و بيسان، قد ضمت إلى مملكة إسرائيل، أما منطقة يهوذا، أو على الأقل الإقليم الجبلي منها، فلا يبدو أنها كانت تكون جزءا من أي إقليم من الأقاليم الاثني عشر، الأمر الذي يرى فيه بعض

ص: 161

-
- 1- فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 237، أندريه إيمار، و جانين إيوايه: المرجع السابق ص 266، صموئيل ثان 9/9، 23/13، 1/16 و ما بعدها، وكذا. P, tic- po, tdefssiE. O 591.
 - 2- ول ديورانت: المرجع السابق ص 334، وكذا. P, tic- po, sdoL. A 371.
 - 3- . P, tic- po, htoN. M 213- 212 .

الباحثين دلالة على أن سليمان قد أعفى هذه القبيلة الملكية من الواجبات المفروضة على غيرها، وبالتالي كان سببا في تدمير قبائل الشمال عند ما فرض عليهم العمل في تحصين العاصمة، وقد أخذ التذمر، وأجبر زعيمه «يربعام» إلى الهروب إلى مصر (1)، على أن كثيرا من الباحثين يرون أن يهوذا، لا بد وأنها قد كلفت بعمل آخر، لأنه من غير المقبول أن تترك بدون أي التزام مالي نحو الدولة (2)، فضلا عن أن سليمان، وهو الملك النبي، ما كان في حاجة إلى إجبار بني إسرائيل للعمل في تحصين العاصمة، وقد سخر الله له الجن يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ (3).

[2] السياسة الخارجية: -

كان سليمان عليه السلام سياسيا حكيما، كما كان محاربا عظيما، وإداريا قديرا، ورغم أنه قد أدرك بفطرته السليمة أنه من الضروري أن يكون له جيش قوي يحمي مملكته (4)، و يساعده في تبليغ الدعوة، فسليمان كما كان ملكا عظيما، فقد كان كذلك رسولا نبيا، فقد أدرك في نفس الوقت بتفكيره السليم أن مملكته الصغيرة في مساحتها لن تعيش في سلام إلا بالتفاهم مع جيرانها، وأن من وسائل هذا التفاهم، و ربما من وسائل نشر الدعوة أيضا، أن يرتبط برباط المصاهرة مع جيرانه من الملوك والأمراء، و من ثم فقد تزوج من بنات أمراء العمونيين و المؤابيين و الأراميين و الكنعانيين و الحثيين (5) و غيرهم، بل وقد تخطت مصاهرته حدود الشام، فصاهر فرعون

ص: 162

1- . P, tic- po, sdoL. A 72- 371 . ثم قارن: تاريخ ابن خلدون 2/ 214.

2- . P, tic- po, tdlefssiE. O 591 . F .W. ,thgirbIA ,thgrolaeahcarA ,thgirbIA ,learsI fo noigileR eht dna ygoloeahcarA ,eromitlaB . 1963, p. 140.

3- سورة سبأ: آية 13.

4- . P, tic- po, tdlefssiE. O (6). 589 .

5- ملوك أول 11 / 1- 2.

مصر، و من ثم فقد أصبحت الأميرة المصرية السيدة الأولى في مملكته (1).

ونقرأ في التوراة أن فرعون «قد صعد وأخذ جازر وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة، وأعطاهها مهرا لابنته امرأة سليمان» (2)، ونطالع هذه الأمور، فيما يرى جاردنر، وكأنها تاريخ حقيقي، ولكننا لا نلتقي بما يؤكد من الجانب المصري، وأما الشك من الناحية التاريخية في هذا الزواج، فإنه، وإن حصر في حدود ضيقة نسبياً، إلا أنه يكفي للتشكيك في أي الفراعين هو المقصود هنا، هذا إلى أن اسم «تحنيس» (senephaT) لا يستطاع مطابقته على نظير له بالهيروغليفية (3)، و من ثم فقد اختلف الباحثون في اسم هذا الفرعون الذي صاهر سليمان عليه السلام، فمن يرى أنه «سي أمون» (4)، و من يرى أنه «بسوسنس الثاني» (5)، و من يرى أنه آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين (6) (945-1087 ق. م) أو ما قبل الأخير من ملوك هذه الأسرة (7)، بل إن هناك من اقترح «شيشنق الأول» مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (8) (945-730 ق. م)، وعلى أي حال،

ص: 163

-
- 1- ملوك أول 1/3، و كذا. P, tic- po, tdlefssiE. O 601، و انظر: تاريخ ابن خلدون 112/2، تاريخ اليعقوبي 57/1، ثم قارن: Y. .N, yrotsiH fo eniltuO ehT, slleW. G. H 280. p, 1965
 - 2- ملوك أول 16/9.
 - 3- ,drofxO, shoarahP eht fo tpyGE, renidraG. H. A 329. p. 1964،
 - 4- عبد الحميد زائد: الشرق الخالد- القاهرة 1966 ص 389، و كذا. P, tic- po, tdlefssiE. O 588 و كذا SENJ, 1. F p . 22، 1963، .A ،tamalaM ,stcepsA eht fo seiciloP ngieroF dna divaD nomoloS،
 - 5- محمد أبو المحاس عصفور: المرجع السابق ص 211، و كذا، P. F. W 66. p، 1925، .nodnoL, learsI dna tpyGE, eirteP.
 - 6- من المفروض أن «بسوسنس الثاني» هو آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين، غير أن هناك من يرى أنه (بسوسنس الثالث) (أنظر: P, tic- po, renidraG. A 447. (و كذا. siraP, III, etpyGE'd sioR sed erviL eL, reihtuaG. H 301. p، 1907
 - 7- .P, tic- po, sdoL. A 368 .
 - 8- .P, tic- po, yelretseO. E. O. W 226 و كذا. tpyGE fo yrotsiH A, detsaerB. H. J 529. p، 1946،

فأيا كان فرعون مصر هذا، الذي تنسب التوراة إليه مصاهرة سليمان عليه السلام، فالذي لا شك فيه أن هذا الزواج، فيما يرى المؤرخ اليهودي سيل روث، قد ساعد سليمان عليه السلام في أن يضيف إلى مملكته إقليم جازر، وهي القلعة الكنعانية القديمة، وواحدة من أهم المراكز التجارية في الشرق الأدنى القديم، و من ثم فقد اكتسب مملكة إسرائيل موطناً على البحر المتوسط (1)، وإن كنا لا نرى أبداً أن سليمان كان في حاجة إلى عون فرعون، وقد سخر الله طائفة من الجن و مردة الشياطين يعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر، كما أشرنا من قبل، فضلاً عن أن جند سليمان إنما كان مؤلفاً من الإنس و الجن و الطير، قال تعالى: وَ حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (2).

[3] التنظيمات العسكرية: -

يجمع المؤرخون أو يكادون، على أن خليفة داود، عليهما السلام، المحارب الشجاع، إنما قد أدرك جيداً ضرورة تكوين جيش قوي للدفاع عن دولته، فضلاً عن دعوته، وربما تجارته كذلك، و من ثم فإن المصادر التاريخية إنما تنسب إلى سليمان عليه السلام استعمال «العربات الحربية»، و لأول مرة، في جيش إسرائيل، و نقرأ في التوراة أن داود عليه السلام عند ما هزم مملكة «أرام صوبة» قد استولى على مئات الخيول (3)، غير أن داود لم يكن يملك عربة حربية واحدة، رغم أنه قد أدرك بنفسه أهمية هذا السلاح أثناء حروبه مع الآراميين، هذا فضلاً عن أن المصريين كانوا قد استخدموا هذا السلاح منذ مئات السنين (4)، و كذا فعل الكنعانيون.

ص: 164

1- .P, tic- po, htoR. C 21 . -1

2- سورة النمل: آية 17.

3- صوثيل ثان 3/8 -5.

4- محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة- دار المعارف- الاسكندرية 1976 ص 140-143، ص 197-198.

العسكرية، بل على العكس من ذلك، فقد كان الواحد منهم إذا لم يستدع للخدمة في الجيش، فقد كان يكلف بالعمل في بناء التحصينات و الحظائر الخاصة بالعرب، فضلا عن العمل في المشاريع البنائية الأخرى، و من ثم فمن الأفضل أن نطلق على العمل الذي اشتهر خطأ باسم «السخرة»، اسم خدمة الأعمال العامة لبناء و صيانة التحصينات الدفاعية و خدمة الجيش (1)، و كان الرجال المكلفون بالخدمة العامة يستدعون طبقا لكشوف ثابتة، تحدد الأعمال التي يمكنهم القيام بها في المجال الزراعي و الصناعي، و كانوا بطبيعة الحال يتأثرون من هذا الاستدعاء في أعمالهم الخاصة (2)، و طبقا للتقاليد الخاصة بانقسام مملكة إسرائيل بعد موت سليمان، فلقد تحملت إسرائيل، و ليس يهوذا، العبء الأكبر من هذه الخدمة العامة (3).

[4] النشاط التجاري:-

امتاز عهد سليمان عليه السلام بنشاط تجاري عظيم، فلقد احتلت التجارة من اهتمامه و تديره مكانا عظيما، حتى أن فصائل العربات إنما كانت في خدمة التجارة، عند ما لا تكون في خدمة الدفاع عن الدولة (4) و نشر الدعوة، و قد ساعد على نجاح التجارة سيطرة سليمان عليه السلام على الطرق التجارية في سورية و فلسطين و التي كانت قائمة منذ عهد أبيه، و ليس هناك من ريب في أن سليمان قد احتفظ بحقوق كاملة على طرق القوافل التي كانت تمر عبر أراضي «أرامي دمشق»، فضلا عن تلك التي كانت تمر عبر أراضي الآدوميين (5)، و من هنا نراه يهتم بتحسين المراكز التي كانت تسيطر

ص: 166

1- .P, tic- po, tdlefssiE. O 590 .

2- .P, . dibI 590 .

3- ملوك أول 6 / 4، 30-27 / 5، 23-20 / 11، و كذا.. .P, tic- po, tdlefssiE. O 591 .

4- .P, . dibI 596 .

5- .P, . dibI 587 .

على الطرق التجارية الهامة التي كانت تمر بمملكته، حتى أصبحت فلسطين قنطرة بين آسيا وإفريقيا، كما استغل سليمان علاقاته الودية من ناحية، ومهارته السياسية من ناحية أخرى، فضلا عن أن حدوده الجنوبية إنما كانت آمنة بسبب صلاته الطيبة بمصر، هذا إلى أن تحالفه مع «حيرام» ملك صور، أقوى الأمراء الفينقيين، قد حمى مواصلات سليمان مع المدن الفينيقية، وهكذا تمكنت القوافل من السفر، بصفة دائمة، من أرض مصر إلى بلاد الرافدين، ومن فينقيا إلى الجزيرة العربية، في أمان وسلام، وهكذا نجح سليمان عليه السلام في السيطرة على مصدر الثروة العائد من التجارة (1)، ولعل الذي دفع سليمان إلى الإتجاه إلى التجارة، أن فلسطين إنما كانت بلدا زراعيا خاليا من الصناعة مما اضطره أن يحضر الصناع من صور، والتجارين من جبيل (بيلوس) عند ما بنى بيت المقدس، كما أن فلسطين لم تكن تملك سلعا للتصدير يمكن أن تقوم عليها تجارة ناجحة، ولكنه في موقع يمكن التصرف منه كوسيط، وقد استغل هذا الموقع أحسن استغلال (2)، فإلى جانب العمل في التجارة، فقد عبّدت الطرق وزودت ببعض المحطات، وهكذا كانت القوافل الآتية من الجزيرة العربية (3)، و المحملة بالتوابل، خاضعة لدفع الرسوم عند ما كانت تمر بتلك الطرق).

ص: 167

1- .P, tic- po, llaH. R. H 433 .

2- .P, tic- po, sdoL. A 370 .

3- أهم طرق القوافل هذه طريقان: الأول: الطريق الجنوبي الشمالي: ويبدأ من عدن وقنا في بلاد اليمن و حضرموت، ثم مأرب إلى نجران فالطائف ثم مكة ويثرب و خيبر و العلا و مدائن صالح، و هنا ينقسم إلى فرعين، فرع يتجه إلى تيماء صوب العراق، و يستمر الفرع الآخر إلى البتراء ثم غزة فالشام و مصر، و أما الطريق الثاني فهو طريق «جرها- البتراء» و يبدأ من الهفوف ثم إلى شمال اليمامة في موقع مدينة الرياض الحالي، ثم يتجه غربا إلى بريدة ثم حائل ثم تيماء فالبتراء (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم- الرياض 1977 ص 133-136).

و المحطات التي تقع في فلسطين (1).

و نقرأ في التوراة أن سليمان عليه السلام كان شغوفا بالخيل (2)، رغم أن رب إسرائيل، فيما تروي التوراة، كان قد حذر ملوك إسرائيل من الخيل و النساء و الذهب (3)، غير أن سليمان إنما كان يرى أن «الفرس معدة ليوم الحرب» و إن كانت «النصرة نمن الرب» (4)، و من ثم فقد اهتم سليمان عليه السلام بالخيل كثيرا، لأنها أداة الجهاد في سبيل الله، فضلا عن أنها وسيلة كسب، و من ثم فإن دولة سليمان إنما كانت في تلك الفترة تحتكر تجارة الخيل تماما، ذلك لأن كل طرق القوافل الهامة بين مصر و سورية و آسيا الصغرى كانت تمر بمملكة سليمان (5).

و كانت مصر المصدر الرئيسي للخيل و المركبات، و نقرأ في التوراة «و كان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر، و جماعة تجار الملك أخذوا جليية بثمان، و كانت المركبة تصعد و تخرج من مصر بست مائة شاقل من الفضة، و الفرس بمائة و خمسين» (6)، أي أن قيمة الحصان إنما كانت تساوي ربع قيمة العربية، و ربما كان ذلك لأن سليمان كان يتمتع في مصر بامتياز خاص، و لأن صناع المركبات المصريين إنما كانوا على درجة عالية من المهارة في صنع المركبات ذات العجلتين الخاصة بالصيد و الحرب، كما كانوا يستوردون الخشب المتين من فينقيا و سورية، و هذا يفسر لنا الفرق بين

ص: 168

1- فيليب حتى: المرجع السابق ص 207، فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 238.

2- ملوك أول 26/10-29، أخبار أيام ثان 14/1-17.

3- تثنية 17/16-17.

4- سفر الأمثال 31/21.

5- , 1967, p. 207. yrotsiH sA elbiB ehT, relleK renreW.

6- ملوك أول 28/10-29.

سعر المركبة والفرس في مصر (1)، وعلى أية حال، فهناك مصدر آخر للخيل، هو «aoK» وهو اسم دولة في سيليسيا كانت تقع في السهل الخصيب بين جبال طوروس والبحر الأبيض المتوسط، وتشتهر بتربية الخيول، وطبقا لرواية «هيرودوت» فإن الفرس كانوا يحصلون على أحسن خيولهم من سيليسيا (2)، وأما سوق هذه التجارة فقد كان عند ملوك الآراميين والحثيين (3).

وهناك ما يشير إلى أن سليمان قد أقام حظائر للخيل في جهات متعددة، وقد ألفت بعثة الحفائر الأمريكية في «مجدو» الضوء على هذه الحظائر، حيث عثر على بقايا من عدة أجزاء كبيرة من اسطبلات الخيول، والتي كانت دائما تنتظم حول فناء دائري مبلط ببلاط من الحجر الجيري، ويخترق وسط كل اسطبل ممر عرضه عشرة أقدام، وقد رصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل، وقد وضعت على كل جانب وراء نتوءات الأحجار، مرابط فسيحة عرض كل منها عشرة أقدام، وما يزال الكثير من هذه الإسطبلات محتفظا بمعالف طعام الخيل، كما لا تزال كذلك أجزاء من معدات السقي ظاهرة، ولعل مما يشير الانتباه فخامة تلك الإسطبلات حتى بالنسبة لظروف الحياة الحاضرة، فضلا عن العناية الفائقة التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات، والتي يمكن الحكم عن طريقها بأن الخيول إنما كانت مرغوبا فيها في تلك الأيام، وعند ما تم الكشف عن المبنى بأكمله، قدر بعض الباحثين لكل اسطبل 450 حصانا وكل حظيرة 150 عربة، هذا وقد

ص: 169

1- P, learsI .. كذا. O 593. P, tic- po, tdlefssiE. O 593. كذا. ecneicsnoC fo nwoD ehT, detsaerB. H. J 355. p, 1939, -1

.fo noigileR eht dna ygoloeahcrA, thgirblA. F. W 135

2- .ogacihC, uranoitciD elbiB s'regnU, regnU. F. M 1036. p, 1970, كذا, P, tic- po, relleK. W 207 . -2

3- ملوك أول 29/11.

و لعل سؤال البداهة الآن: أين تقع أوفير؟

لقد قام، و ما يزال، جدل طويل حول أوفير هذه، و هناك دائما من يزعم أنه وجدها في شرق إفريقيا، فهناك «كارل ماوخ» الذي وصل إلى أنقاض مدينة أحد المعابد في عام 1864 م، على حدود روديسيا الجنوبية و موزامبيق في شرق إفريقيا، و هناك «ستنبرج» الذي اكتشف بعد ذلك بخمسة عشر عاما، و على مبعده أميال قليلة إلى الجنوب من المكان الأول، محلات للتعددين من عصر ما قبل المسيحية، ظن أنها كانت تتصل بمعبد المدينة، و في عام 1910 م صوّر الرحالة الدكتور «كارل بطرس» نقوشا من هذا الموقع يزعم المتخصصون أنهم لاحظوا فيها ملامح فينيقية عربية (1)، و هناك وجه آخر للنظر يذهب صاحبه (وليم أولبرايت) أن أوفير في الصومال، و يتفق هذا مع رواية التوراة عن طول الوقت الذي يلزم للوصول إلى أوفير، حيث تقول «فكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنوات» (2)، ثم يقترح «أولبرايت» بعد ذلك أن الأسطول ربما كان يبحر من عصيون جابر في نوفمبر أو ديسمبر من السنة الأولى، و يعود في مايو أو يونية من السنة الثالثة و بهذا يتجنب الجو الحار، قدر استطاعته، و أن الرحلة في هذه الحالة لا تأخذ أكثر من ثمانية عشر شهرا، هذا فضلا عن أن طبيعة السلع (الذهب و الفضة و العاج و القروود) تشير إلى إفريقية من الواضح أنه كمكان إنما هو الأصل (3).

و هناك وجه ثالث للنظر يحاول أن يوحد «أوفير» ببلاد «بونت» (4)

ص: 172

1- .P, tic- po, relleK. W 202- 201 .

2- ملوك أول 12/10 .

3- .P, tic- po, relleK. W 434 .

4- .P, tic- po, llaH. R. H 454 .

هي دخيلة في اللغة العبرية من بعض لغات أخرى مثل «السنسكريتية» (1)، على أن الخيال ذهب بالبعض إلى أن يذهب أن أوفير إنما تقع في ولاية «الأمازون» البرازيلية في أمريكا الجنوبية، اعتماداً على أن هناك حتى اليوم في ولاية الأمازون أمكنة كثيرة حافظت على أسماء عبرية وفينيقية، كما أن السلع التي نقلتها سفن سليمان و حليفه حيرام من أوفير إلى أورشليم و صور و صيدا، يوجد نماذج كثيرة منها هناك، كما أن أسماءها ليست عبرية أو فينيقية، وإنما هي من صميم لغة سكان الأمازون، فضلاً عن أن اسم «سوليمونس» الذي يحمله أحد فروع الأمازون، إنما هو اسم الملك سليمان نفسه، وقد أطلقه على النهر الكبير أحد أفراد الأسطول تيمناً بالملك العظيم (2)، و هكذا يصل الخيال بالبعض إلى هذا الحد، إلى أن تكون أوفير في أمريكا الجنوبية.

و هناك وجه سابع للنظر يذهب إلى أن «أوفير» إنما تقع في «عسير»، و ثامن يرى أنها في مدين، و رجح كثيرون أنها على سواحل بلاد العرب الغربية أو الجنوبية، على أساس أن هذه الأماكن أقرب إلى الوصف الوارد في التوراة من غيرها (3)، هذا و قد ذكر الهمداني في معاد اليمامة موضعاً سماه «الحفير» فقال: «و معدن الحفير بناحية عماية، و هو معدن ذهب غزير» و وجود الذهب بغزارة في الحفير إنما ينطبق على وصف أوفير إلى حد كبير، إلا أن هذا الموضع بعيد عن البحر، و لكن من يدري فلعل كتبة التوراة لم يكونوا على معرفة بموقع أوفير، و إنما سمعوا بذهبه الذي يتاجر به العرب

ص: 174

1- , 1887 p. 122. E tseR nane, H ierotsiP ud elpueP, I' d larsP, sira و كذا. F. J. 181. niF. J. tic- po, P

2- الأب أميل أدة: الفينيقيون و اكتشاف أمريكا- بيروت 1969 ص 24- 25.

3- جواد عل: المرجع السابق 1/ 639، و كذا. M. B. J 38. tic- po, yremogtnoM. B. و كذا، M. B. 7. tic- po ztiroM. B. II, P, ezskiS, naidiM fo seniM dloG ehT, notruB. F. R. 347.

الجنوبيون، من الموانئ الساحلية، فأرسل سليمان سفنه إلى موضع يبعه في سواحل بلاد العرب لشرائه، و من هنا ظن كتاب التوراة أن أوفير على ساحل البحر، و الحفير كما يبدو اسم قريب جدا من أوفير (1)، و أخيرا فهناك من يرى أن «أوفير» معناها «الأرض الحمراء» (أي الحمراء بلون الذهب)، و أنها لم تكن علما على بلد بعينه، و إنما كانت اسم جنس ينطبق على بلاد عدة كاليمن و شرق إفريقيا و غرب الهند (2).

هذا و قد قدم لنا الأستاذ الدكتور السيد يعقوب بكر، دراسة علمية جادة عن موقع أوفير، ناقش فيها كل النظريات المختلفة و خلص منها إلى أن الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية هو مكان «أوفير» (3)، فقد كانت بلاد العرب موطننا للذهب الأمر الذي شاع بين الكتاب القدماء من الأغارقة و الرومان، حتى أنهم يذهبون إلى أنه كان يستخرج في مواضع معينة منها، خالصا نقيا لا يعالج بالنار لاستخلائه من الشوائب الغريبة و لا- يصهر لتنقيته، و لهذا قيل له «norypA» و من ثم فقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن العبرانيين إنما قد أخذوا لفظة «أوفير» من «أبيرون» (norypA) هذه (4)، و قد عثر في «مهد الذهب»، و يقع شمالي المدينة المنورة، على أدوات استعمالها القدامى في استخراج الذهب و استخلائه من شوائبه مثل رحي و أدوات تنظيف و مدقات و مصابيح، فضلا عما تركه القوم من آثار في حفر العروق التي يتكون منها الذهب، مما يدل على أن الموقع كان منجما للذهب في عصور ما

ص: 175

-
- 1- الهمداني: صفة جزيرة العرب ص 153، جواد علي: المرجع السابق 1/ 639-640.
 - 2- ytiuqitnA, III, sesmaR dna namoloS fo yad eht ni ytivitcalavaN, llemroH. J - 239. p, 1947, 21, ytiuqitnA,, -2
15, 1941, 364- 361. p, llemroH. J - aeS, llemroH. J 364- 361. p, 1941, 15. و كذا semiT ylraE ni edarT-
 - 3- السيد يعقوب بكر: أوفير ص 116-190 (من كتاب فضلو حورابي- العرب و الملاحة في المحيط الهندي- القاهرة 1958).
 - 4- elbiB eht dna aibarA, yremogtnoM. A. J 39. p, 1934 , -4

قبل الإسلام، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب إلى سليمان (1).

وهكذا كان من الطبيعي أن يطلب سليمان الذهب في بلاد العرب، وليس في مكان أقصى كالهند وإفريقية، وكان من الطبيعي أيضاً أن يطلبه في الجانب الجنوبي الغربي من بلاد العرب، لأنه أقرب أجزائه إليه، وبخاصة في «بيشة» وفي «خنكان» وفي المنطقة ما بين القنفذة و مرسى حليج، فضلاً عن «وادي تثليت» على مقربة من «حمضة»، وعلى مبعدة 183 ميلاً من نجران (2)، وربما قد حدث ذلك بعد إسلام ملكة سبأ، في أغلب الظن.

و كان أمام سليمان للوصول إلى ذهب بلاد العرب طريقان، طريق البر عبر الصحراء، وطريق البحر على طول ساحل البحر الأحمر، ولكنه آثر الطريق البحري، رغم أن قومه كانوا أهل زراعة ورعي، لم يتمرسوا بالبحار، ذلك لأن طريق البر جد شائق وقد تزيد نفقاته على طريق البحر، وثمة سبب آخر دعا سليمان إلى اختيار طريق البحر هو أنه أراد أن يشرك معه حليفه «حيرام» ملك صور، رغبة في الانتفاع بمهارة الفينيقيين في الملاحة، وربما يالحاح من حيرام نفسه، وأياً كان السبب، فإن الجانب الجنوبي الغربي من بلاد العرب، إنما كان المصدر الذي استقى منه سليمان الذهب، وكان الذهب أهم السلع التي كانت تجلب من أوفير، ثم يلي الذهب في الأهمية بين سلع أوفير، خشب الصندل والحجارة الكريمة وهما سلع عربية كذلك، هذا فضلاً عن أن التوراة (3) إنما تعد «أوفير» من أبناء يقطان (قحطان في جنوب بلاد العرب) تضعه بين سبأ وحويلة، و«أوفير بن يقطان» هذا (أي شعب أوفير القحطان) هو الشعب الذي يسكن أرض «أوفير»،

ص: 176

1- جواد علي 1/ 193، وكذا، 1954، p. 20، R 23، S. H. regna، T. A. naibar، P. C. alusnine، C. llenro.

2- K. S. T. Ilehctiw، S. A. idu، A. na htiW، C. A. nuocc، و كذا. R. secruoce، P. notecnir، M. B 110، tic- po. ztiro.

1943، p. 77، D. fo tnempolev، N. sti fo laruta.

3- تكوين 29/10.

وبدهي أنه ليس هناك «أوفيران»، أوفير في الجزيرة العربية، وأوفير في مكان آخر، كما يزعم البعض (1).

وأما الفضة والعاج والقروود والطواويس، فالفضة كانت دائما غالية في بلاد العرب، ولهذا رأى بعض الباحثين أنها مقحمة في النص (2)، ولكن من الممكن أنها كانت تستورد إلى أوفير، والأمر كذلك بالنسبة إلى العاج، إما من إفريقية القريبة، وهو الأرجح، وإما من الهند البعيدة، وأما القروود فهي مستوردة أيضا، إلا إذا كان المراد «النسانيس» كما يقول «مونتجمري» (3)، وهي ما تزال ترى في مرتفعات اليمن وحضرموت، وعندئذ فهي سلعة عربية، وكذلك «الطيوب» التي يجعلها «جلازر» مكان القروود، سلعة عربية كذلك، بل هي السلعة التي يتهافت عليها الشرق والغرب، وكانت مصدر غنى وثروة لعرب الجنوب، ثم يتبقى بعد ذلك «الطواويس»، وهي سلعة هندية في الأصل، فلا بد أن أوفير كانت تستوردهما من الهند، وإذا صح ما يقوله «نيبور» من أن المراد «العبيد»، كانت السلعة مستوردة أيضا، ولكن من إفريقية (4).

أضف إلى ذلك كله أن هناك ما يثبت أن الاتصال البحري بين شمال البحر الأحمر والهند لم يتم إلا في عصر قريب من القرن الأول الميلادي أوفي عصر لا يبعد كثيرا عن القرن الأول، وفي هذا زعزعة للنظرية الهندية (5)، وكذا النظرية «جلازر» والتي تذهب إلى أن أوفير التوراة إنما هي الساحل

ص: 177

1- السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص 150-154.

2- .Y. N, I, slateM dna naM, drakciR. A. T 267. p. 1932,

3- .P, tic- po, yremogtnoM. J 39.

4- السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص 154-155.

5- P, I, HAC. 212- 119 و كذا. P, tic- po, naneR. C 122- 119 و كذا، 15، 1941، 244. p. 1941، 15، 1947.

.ytiuaitnA 73- 72. p. 1947.

العربي من الخليج الفارسي (العربي) من الشمال حتى رأس مصندم (1)، ثم إن هذا يثبت كذلك أن السفن قبل القرن الأول كانت تستطيع عبور باب المندب إلى عدن، وفي هذا زعزعة لرأي «موريتز» (2) الذي يرى أن السفن في عصر سليمان كانت أضعف من أن تتجاوز مضيق باب المندب، و إذن فإن سفن سليمان كانت تستطيع حمل سلع أوفير من ميناء عربي قبل باب المندب، كميناء «مخا» أو بعده كميناء «عدن» ثم إن انتساب العاج و القروود و الطواويس في العربية إلى أصول هندية، ليس دليلا على أن السلع كانت تستورد من الهند نفسها، فقد كان باب الاستيراد مفتوحا، كذلك لا يستطيع الاستدلال على أن أوفير في بلد ما، بورود أسماء متشابهة لأوفير في هذا البلد، فكثيرا ما يكون التشابه اللفظي عارضا (3).

و يناقش الدكتور يعقوب بكر بعد ذلك الاعتراضات التي وجهت إلى هذه النظرية، و منها أن ذهب بلاد العرب كان قليلا بالقياس إلى المقادير الهائلة التي كانت تصل منه إلى سليمان، و أن السنوات الثلاث التي كانت تستغرقها رحلة أوفير، يستحيل معها أن تكون أوفير في مكان قريب من عصيون جابر، فهذان الاعتراضات يقومان على أساس التسليم بقصة التوراة عن أوفير حرفيا، و لكن ألا تجوز المبالغة في هذا المجال الأدبي، و لا سيما أن الأمر يتعلق بسليمان الذي سارت بذكره الركبان، و الذي كان يحتاج فعلا إلى ذهب كثير لتزيين الهيكل وقصر الملك، ثم ألا يمكن أن يكون الغرض من المبالغة التوراتية إظهار حملات أوفير، و كأنها أبهى من حملات الفراعنة إلى «بونت» أو بمنزلتها على الأقل، و أخيرا فمن المتفق عليه أن نصوص التوراة ليست فوق مظان الشك و الريبة.

ص: 178

1- . P, II, sneibarA sihpargoeG dnu ethcihcseG red ezzikS, resalG. E 373- 368 .

2- . P, tic- po, ztiroM. B 89- 86 .

3- السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص 156- 157.

و أما عن ذكر السنوات الثلاث التي كانت تستغرقها الرحلة إلى أوفير، فهي أولا قد وردت في المصادر التوراتية المتأخرة، ثم هي مبالغة أيضا، فقد يجوز أن يكون المعنى أن سليمان كان يبعث بسفنه مرة كل ثلاث سنين، وعندئذ لا تكون الإشارة إلى زمن الرحلة، ولكن إلى المدة الفاصلة بين كل رحلة وأخرى (1)، هذا فضلا عن أن وجهة نظر «أولبرايت» عن الرحلة، ربما كانت تتصل برحلة أخرى غير رحلة أوفير، ذلك لأن «ستانلي كوك» (2) يرى أن سليمان و حيرام قد امتلكا أسطول «ترشيش»، والذي يمكن الحكم عليه من اسمه أنه قد ذهب إلى ترشيش في أسبانيا، و أما أسطول الفينقيين فقد أبحر من عصيون جابر في أدوم ليحضر الذهب من أرض أوفير (في جنوب بلاد العرب)، وهكذا يبدو أن رحلة السنوات الثلاث ربما لا تتصل بأوفير، ولكنها تتصل بأسطول «ترشيش» (3) إلى أسبانيا، وإن كان ذلك سيجرنا إلى متاعب أخرى، علما بأن هناك من يرى أن هناك علاقات تجارية بين حيرام من ناحية، وبين قبرص و أسبانيا من ناحية أخرى (4).

[6] النشاط الصناعي:-

لم تكن عصيون جابر ميناء تجاريا فحسب، ولكنها كانت كذلك مركزا صناعيا، وفي الواقع فلقد كان اختيار موقعها اختيارا موفقا، في مكان لم يسكن من قبل بين تلال أدوم من الشرق، و تلال فلسطين من الغرب، حيث

ص: 179

1- انظر عن مصادر التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/ 97-106).

2- السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص 148-160.

3- .P, tic- po, kooC. A. S 367.

4- يذهب البعض إلى أن «ترشيش» تقع في سردينيا، ويذهب آخرون إلى أنها هي «ترتيسوس» في جنوب أسبانيا على مقربة من جبل طارق أو لعلها قرطاجة في شمال إفريقية (قاموس الكتاب المقدس 1/ 215-216 و كذا. P, tic- po, regnU. F. M 1071- 1070 و كذا. 1957, p. 206. F. M 1071- 1070. nodnoL, namoloS gniK, regrebeihT).

عليه السلام، فرأى يذهب أصحابه من المؤرخين المحدثين إلى أن المملكة التي ورثها سليمان عن أبيه داود عليهما السلام، أكبر من تلك التي ورثها سليمان لمن أتوا بعده من ملوك بيت يهوذا وإسرائيل، وذلك لأن الأمور في خارج فلسطين لم تكن تسير في نفس المجرى الذي اتخذته في الداخل (1)، وقد بدأت المتاعب ضد دولة سليمان تظهر على الحدود، ذلك أن «يوآب» قائد جيش داود كان قد اجتاح «أدوم» قبل ذلك بنصف قرن، وقتل كل ذكورها بحد السيف، وقد استطاع «هدد»، وهو طفل أدومي من الأسرة المالكة، أن يهرب إلى مصر، وحين اشتد ساعده وجد رضا في عين فرعون الذي زوجه من «تحنيس» (تحفيس) أخت زوجة الملكة، ثم عاد هدد إلى أدوم، بغير موافقة فرعون، وأصبح العدو اللدود لسليمان مدى الحياة (2)، ونقرأ في التوراة أنه «أصبح ملكا على أدوم» (3)، وربما قد حدث ذلك في فترة مبكرة من عهد سليمان، وطبقا لرواية أخرى في التوراة (4)، فقد كان لسليمان مدخل إلى خليج العقبة وميناء «عصيون جابر»، عبر وادي عربية، أي عبر الجزء الأساسي الهام من أدوم، ويفترض بعض المؤرخين أن سليمان قد عقد اتفاقا مع «هدد»، بتوسط من فرعون الذي كان يريد أن تفسد علاقاته الودية مع صهره سليمان، إن صحت روايات التوراة، وإن لم تعد لسليمان سيطرة على ولاية أدوم، كما أنه ليس هناك ما يدل على أن سليمان قد اتخذ من الخطوات ما يجعله يستعيد سيطرته على أدوم مرة أخرى (5).

ونقرأ كذلك في التوراة «أن الله أقام لسليمان خصما آخر، هو «رزون

ص: 181

1- .P, tic- po, sdoL. A 268 . و كذا. P, tic- po, htoN. M 206.

2- .P, tic- po, sdoL. A 368 . و كذا. P, tic- po, htoR. C 23 . و كذا. P, tic- po, htoN. M 256- 250 . و كذا. P, tic- po, sdoL. A 368 .
3- .llaH. R. H 433

3- ملوك أول 11 / 14 - 22 و كذا، 1961، p. 329. H. A. shoaraph eht fo tpygE, renidraG.

4- ملوك أول 11 / 25.

5- .P, . tic. PO, sdoL. A 268 . و كذا. P, . tic. PO, htoN. M 206.

بن اليداع» (رصين) الذي هرب من سيده «هدد عرر» ملك صوبة، و أقام مملكة في دمشق، و كان خصما لإسرائيل كل أيام سليمان مع «هدد» (1)، و هكذا نمت المملكة الآرامية في دمشق، ثم تطورت بعد فترة قصيرة حتى غدت أقوى سلطة في سورية، الأمر الذي أدى إلى أن ما أوجده داود من نفوذ في دمشق قد ضاع الآن (2).

هذا و في نفس الوقت كانت مصر قد بدأت حالتها في الانتعاش، و بالتالي فقد بدأت تحاول إعادة سيطرتها في غربي كنعان فهناك ما يشير إلى حملة ضد الفلسطينيين شعوب البحر في جنوب غرب كنعان، فقد عثر في «تانيس» على نقش بارز على جدران مبنى شيده «بسوسنس الأول» و «سيامون» (سي آمون) من الأسرة الحادية و العشرين، جنوب معبد آمون الرئيسي، يصور فيه «سيامون»، و هو يضرب عدوا راکعا أمامه، و قابضا في يده على فأس للحرب مزدوجة من ذلك النوع الذي كان يتخذه الإيجيون من أسلحة الحرب (3)، هذا فضلا عن أن هناك ما يشير إلى أن سيامون قد أرسل جيوشه لمحاربة الفلسطينيين في جنوب غرب كنعان، و أن مدينة أسدود قد غزيت، و أن هناك آثارا في «تل فرعة» لنفس الفرعون (4)، بل إن هناك من يذهب إلى أن سيامون قد فكر في غزو إسرائيل نفسها (5).

أضف إلى ذلك أن أعداء سليمان قد نشطوا كثيرا، و نجحوا في

ص: 182

1- ملوك أول 11 / 23-25.

2- .. M 206 .P, tic- po, htoN.

3- ., P 36 ., pl. 1 . P, II, nokrosO, tetnoM.

4- ., 1963, ., no. 12, p. 48-49 .A .tamalaM ,stcepsA fo eht fo ngieroF P seiciloD dna divaD fo SENJ ni ,nomoloS
.22

5- .F. P, . dibI 16, 13 .

استعادة بعض البقاع التي كانت خاضعة لداود، وأصبح ملك سليمان في غرب الأردن فقط (1) (فلسطين)، وأصبح الفلسطينيون الهنود و أوريون في غزو و ما بعدها في نجوة من سلطانه، هذا فضلا عن أن ممالك و ملوك شعوب شرق الأردن إنما كانوا يمارسون سلطانهم المحلي بعيدا عن قبضة سليمان، مما يدل على أن هذه الممالك و الشعوب التي كان داود قد أخضعها في شرق الأردن و سورية الآرامية قد تقلت من سيادته، كما تقلت الفلسطينيون منها كذلك (2).

و على أي حال، فإن النبي الكريم ما أن ينتقل إلى جوار ربه، راضيا مرضيا عنه، حتى يستولي «شيشنق الأول» أول فراغنة الأسرة الثانية و العشرين (945-730 ق. م) على أورشليم، و يأخذ معظم ما فيها من كنوز (3)، و سواء أ كانت حملة شيشنق هذه، فيما يرى البعض (4)، بسبب استنجد «يربعام» زعيم الثوار الإسرائيليين بمصر، ضد بيت سليمان، أو أنها كانت، فيما يرى آخرون، لإعادة سورية و فلسطين إلى حظيرة الامبراطورية المصرية (5)، فإن التدخل المصري في إسرائيل، في أعقاب موت النبي الكريم، إنما أدى إلى احتلال معظم مدن فلسطين، و الاستيلاء على خزائن معبد سليمان و قصره (6)، بل إن التوراة نفسها (7) إنما تشير إلى خضوع

ص: 183

1- , 1969 , C 21 . p. elpoeP hsiweJ eht fo yrotsiH trohs A, htoR.

2- محمد عزة دروزة: المرجع السابق ص 262-263.

3- , 1965 , G. H 77-76 . p. dlroW eht fo yrotsiH trohS A, slleW.

4- . P, tic- po, sdoL. A 375-374 . و كذا. P, tic- po, htoR. C 31 و كذا. R. H 437-436 .P, tic- po, llaH.

5- . P, tic- po, renidraG. H. A 330-329 .

6- ملوك أول 14 / 25-27.

7- أخبار أيام ثان 12 / 18.

«يهودا» التي كانت من نصيب رحبعام بن سليمان، للامبراطورية المصرية، أو على الأقل، فإن معظم المدن هناك إنما كانت تقوم بدفع الجزية لمصر، وأما الدولة الأخرى (إسرائيل) فقد أصبحت تحت النفوذ المصري تماما (1).

على أن فريقا آخر يذهب أصحابه من المؤرخين المسلمين إلى ملك واسع لسليمان عليه السلام، وربما بغير حدود، بل إن المصادر الإسلامية إنما تزعم لدولة سليمان ما لم تزعمه لها المصادر اليهودية نفسها، ذلك أن التوراة رغم المبالغات المعروفة عنها، إنما تذهب إلى أن مملكة إسرائيل في أقصى اتساع لها، وفي أزهى عهدها، إنما كان «من دان إلى بئر سبع» (2) (و دان تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضي، على مبعده ثلاثة أميال غربي بانياس) (3) من الشمال إلى الجنوب، وأما من الشرق إلى الغرب، «فمن النهر (الأردن) إلى أرض فلسطين و إلى تخوم مصر» (4)، وهي حدود تشمل فلسطين بالكاد، و مع ذلك فإن بعض المصادر العربية تجعل سليمان عليه السلام واحدا من أربعة ملكوا الدنيا كلها (نمرود و بختنصر و هما كافران، و سليمان بن داود و ذو القرنين و هما مؤمنان) (5)، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيدا في إيران، حيث).

ص: 184

1- . A. S 359 . p, tic- po, kooC.

2- قضاة 1/20، صوئيل أول 20/3، صموئيل ثان 15/24، أخبار أيام أول 2/21، و كذا. P, tic- po, regnU. F. M 236.

3- قاموس الكتاب المقدس 357-356/1.

4- ملوك أول 21/4، ثم قارن ملوك أول 11/9.

5- أنظر: تاريخ الطبري 234/1، الكامل لابن الأثير 54/1، البداية و النهاية 148/1، ثم أنظر مناقشتنا لهذا الاتجاه (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم 116/1-119).

اتخذ من «اصطخر» (التي ينسبون إليه أو إلى الجن المسخر بأمره، أمر بنائها)، مقرا لحكمه، بينما يذهب فريق ثالث إلى أن ملك سليمان إنما قد وصل إلى اليمن (1).

و في عام 1986 م صدر كتابان، يزعم الأول منهما أن دولة داود و سليمان عليهما السلام إنما قامت في غرب شبه الجزيرة العربية (من الطائف و حتى نجران)، و ليست في فلسطين، و كما تقول التوراة «من دان إلى بئر سبع» غير أن «دان» فيما يزعم المؤلف، ليست هي المدينة التي تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضي، حيث منابع الأردن، على مبعده ثلاثة أميال من بانياس، كما هو معروف، و إنما هي «الدنادنة» في تهامة زهران، و أن «بئر سبع» ليست هي المدينة المعروفة في جنوب فلسطين، و إنما هي الشباعة في مرتفعات خميس مشيط، و من ثم فإن دولة داود و سليمان، فيما يزعم المؤلف، إنما تمتد من «الدنادنة» في تهامة زهران جنوب وادي أضم، و حتى شباعة في مرتفعات خميس مشيط، شرقي رجال ألمع، و أما عاصمة الدولة القدس (أورشليم) فيذكر المؤلف رواية التوراة أن داود عليه السلام نقل عاصمته من حبرون إلى أورشليم، لكنه يزعم أن هناك خمسة أماكن تسمى «حبرون» ما تزال تحمل اسم «خربان» على المنحدرات البحرية لعسير، و من الأمكنة الخمسة يختار المؤلف قرية «الخربان» الحالية في منطقة المجرادة، كعاصمة أولى لداود، و هي نفسها، فيما يزعم، حبرون إبراهيم عليه السلام، و ليست «حبرون» المشهورة في فلسطين، و هي مدينة الخليل الحالية، على مبعده 19 كيلا شمال القدس، و أما «أورشليم» فهي ليست،

ص: 185

1- ياقوت الحموي: معجم البلدان 1/ 211 (بيروت 1955)، دائرة المعارف الإسلامية 3/ 458-569 (دار الشعب- القاهرة 1970)
علي إمام عطية: الصهيونية العالمية و أرض الميعاد ص 71-72.

فيما يزعم، مدينة القدس الحالية (حيث المسجد الأقصى) وإنما هي قرية «آل شريم» الحالية، على مبعده 35 كيلا شمالي بلده «النماص» في سراة عسير، شمال مدينة أبها (1).

و أما الكتاب الثاني فيزعم صاحبه أن سليمان عليه السلام قامت على عهده، و عهد أبيه (داود عليه السلام) دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس، و حدودها من المؤكد كانت تشمل بلاد الشام الحالية (سورية و فلسطين) و تشمل الجزيرة العربية كلها، و أنهما يعتبران ذلك من تمكين الله لسليمان فأعطاه ملكا لم و لن ينبغي لأحد من بعده (2)، ثم يقولان بعد ذلك، و في نفس الكتاب: لا يعقل أن تكون هناك أمة مشرقة في عهد سليمان الذي طويت له الأرض، و مكن له فيها، و أوتي من كل شيء (3)، فضلا عن أنهما زعما في كتاب آخر أن سليمان عليه السلام كان نبيا عربيا (4)، بينما يذهبان في كتاب آخر أنه من سلالة إسرائيل عليه السلام (5).

و لعل من الأفضل هنا، أن نرد أولا على هذه الآراء الآتفة الذكر، قبل أن نتعرض لرأي المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (6)، فأما أصحاب الرأي الأول، و الذي يذهب إلى أن المملكة التي ورثها سليمان عن أبيه داود عليهما السلام أكبر من تلك التي ورثها سليمان لمن أتوا بعده من ملوك

ص: 186

-
- 1- كمال سليمان الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب- ترجمة عفيف الرزاز- ط ثانية- بيروت 1986- مؤسسة الأبحاث العربية ص 175-193.
 - 2- جمال عبد الهادي و وفاء محمد رفعت: ذرية إبراهيم عليه السلام و بيت المقدس - دار طيبة- الرياض 1986 ص 256، 259.
 - 3- نفس المرجع السابق ص 270.
 - 4- جمال عبد الهادي و وفاء رفعت: جزيرة العرب ج 1 ص 80.
 - 5- جمال عبد الهادي و وفاء رفعت: ذرية إبراهيم عليه السلام و بيت المقدس ص 255-256.
 - 6- سورة طه: آية 35.

يهودا وإسرائيل، وذلك بسبب عودة «هدد» أمير أدوم من مصر و استقلاله بدولته، و بسبب «رصين» الذي أقام مملكة في دمشق و قضى على نفوذ إسرائيل فيها، و بسبب حالة الانتعاش في مصر و التي صاحبت عهد سليمان، فذلك رأي بالغ أصحابه فيه كثيرا، فضلا عن اعتمادهم في الدرجة الأولى على التوراة، فيما يتصل بهدد و رصين، و التوراة كما هو معروف، مصدر غير موثوق فيه، و أقل ما يوصف به أنه نص محرف (1)، و من ثم فلا يمكن الاعتماد عليه، ما لم تؤيده مصادر أخرى، و هذا ما لم يثبت حتى الآن، ثم إن كل الدلائل، الدينية و التاريخية، تشير إلى أن سليمان قد مكّن له، كما مكّن لأبيه من قبل، و أما الانتعاش المصري و الرغبة في إعادة السيادة المصرية على غربي كنعان، فأدلة أصحاب هذا الرأي تعتمد على آثار تشير إلى حملات مصرية ضد الفلسطينيين الهند و أوربيين، و الذين كانوا يسكنون المنطقة ما بين يافا و غزة على ساحل البحر المتوسط، و ليس هناك دليل واحد يشير إلى حملات مصرية ضد مملكة سليمان، بل إن الأدلة كلها تشير إلى علاقات ودية بين مملكة سليمان و مصر، و أن فرعون كان حريصا على أن لا يفسد العلاقات الودية بينه و بين صهره سليمان ملك إسرائيل، كما رأينا من قبل، و أما حملة «شيشنق» على فلسطين، و التي يعتبرها البعض دليلا على ضعف مملكة سليمان، فيكفي القول إن هذه الحملة كانت بعد موت سليمان بأعوام خمسة، و من ثم فهي غير ذي موضوع بالنسبة لعهد سليمان، كما أنها كانت بعد انقسام مملكة سليمان بين ولده رحبعام و الثائر يربعام.

و أما ما ذهب إليه «برستد» من أن سليمان كان واليا تحت النفوذ المصري (2)، فيكذبه أن صاحبه لم يقدم دليلا واحدا على صحته، و هي

ص: 187

1- أنظر: سورة البقرة آية 79، 159، آل عمران: آية 78، النساء: آية 46، المائدة 13، 15، محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/ 136-379.

2- Y. N, tpygE fo yrotsiH A, detsaerB. H. J 529. p. 1946 , -2

سقطه لا شك فيها من المؤرخ الكبير، كما أن مصر على أيام سليمان لم يكن لها نفوذ في فلسطين من أي نوع، والأهم من ذلك كله: هل يقبل عاقل أن يكون نبي، أي نبي، تابعا لملك كافر، ولما ذا يتبعه، هل ليكون ملكا على فلسطين، ولكن ما قيمة ملك فلسطين، بجانب شرف النبوة، فما بالك إذا كان هذا النبي هو سليمان، الذي وهبه الله، بجانب النبوة، ملكا لا ينبغي لأحد بعده، اللهم إنا نبرأ من قول كهذا، و نسألك أن تلهمنا جانب الصواب والأدب مع أنبيائك ورسلك، وأن تحمينا من أن نساق، دون أن ندري، في تيار كتبة التوراة، أو في تيار قلة من المؤرخين المحدثين ممن يلقون التهم جزافا على سيدنا سليمان عليه السلام، و بدهي أن خضوع سليمان النبي لفرعون من الفراعين تهمة لا شك فيها، نبرأ إلى الله منها، وأخيرا فإن أصحاب هذا الرأي تسقط كل حججهم بالرجوع إلى قصة سليمان مع ملكة سبأ، كما جاءت في القرآن الكريم، فإن الذي يهدد ملكة سبأ، أعظم دول الجزيرة العربية، وهي بعيدة عن مملكة سليمان بألاف الكيلومترات، لا يمكن بحال من الأحوال، أن تكون دولته ضعيفة، يهددها أمثال أمير أدوم أو دمشق أو غيرهم من النكرات التي كانت تعيش في سورية و فلسطين تحت ظلال دولة سليمان، ثم إن سليمان الذي سخر الله له طائفة من الإنس و الجن و الطير و الشياطين، لن يعجز عن جماع قوم من ضعاف المشركين، ولا ريب في أن من سخر له من يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه، يمكن أن يسخر له، ما يستطيع به القضاء على كل أعدائه.

و أما أصحاب الرأي الذي يعطي سليمان عليه السلام ملكا واسعا، ربما بغير حدود، و يجعل عاصمته في «اصطخر» و يملكه بلاد اليمن، فأما عن «اصطخر» فليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد يعرفون أن اصطخر لم يبدأ الفرس في بنائها إلا حوالي عام 520 ق. م، على أيام دارا الأول (522-486 ق. م)، و لم يتم البناء إلا في عهد «أرتخششتا الأول»،

حوالي عام 460 ق.م، أي بعد وفاة سليمان (960-922 ق.م) بحوالي أربعة قرون (1)، وأما ملك اليمن فأمره عجيب، فالبعض خلط بين إسلام ملكة سبأ وبين خضوع دولتها لسليمان، والبعض أعطى سليمان ملك اليمن 320 سنة، مع أن المؤرخين، ومنهم صاحب هذا الرأي، يجمعون على أن ملك سليمان لم يزد عن أربعين سنة، وأنه مات، وله اثنتان وخمسون سنة (2)، وأما إسلام ملكة سبأ فقد كان لله مع سليمان «قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، وهكذا اهتدى قلبها واستنار، وعرفت أن الإسلام لله وحده ليس استسلاماً لأحد من خلقه، حتى وإن كان هو سليمان، النبي الملك صاحب المعجزات، إنما الإسلام لله رب العالمين، ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» وقد سجل السياق القرآني هذه اللفتة الأخيرة وأبرزها، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله لا غالب منهما ولا مغلوب، وهما أخوان في الله رب العالمين على قدم المساواة (3)، ثم إن الذين يقولون بضم اليمن إلى مملكة سليمان إنما يخطئون في فهم دعوة الرسل، فهم لا يريدون ملك الناس وديانهم، وإنما يريدون هدايتهم إلى عبادة الله وحده، وإلى الإيمان بشرائعه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل في قصة سليمان مع ملكة سبأ.

وأما الدكتور الصليبي فلم يقدم لنا في دعواه أية أدلة علمية يمكن أن تؤيد مزاعمه التي تمس الدين والوطن، سوى الزعم بأن هناك قرى في غرب

ص: 189

-
- 1- أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم ص 229، آرثر كريستس: إيران في عهد الساسانيين ص 80.
 - 2- تاريخ يعقوبي 60/1، 196.
 - 3- في ظلال القرآن 5/ 2643.

الجزيرة العربية، يمكن أن تشابه أسماؤها مع أسماء أماكن جاءت في توراة يهود و من ثم زعم أن غرب الجزيرة العربية هي أرض التوراة، و ليست فلسطين، و في الواقع لو طبقنا مزاعمه هذه على الولايات المتحدة الأمريكية مثلا، لكان الكثير من مدنها، اعتمادا على تشابه أسماء بعض المدن، إنما هي مدن عربية، كان يسكنها العرب في العصور القديمة، ناهيك عن تشابه أسماء بعض المدن و القرى في البلاد، العربية نفسها، الأمر الذي يمكن أن يتفق و ما زعمه الدكتور الصليبي من مسخ للحقائق الدينية الثابتة، فضلا عن الحقائق التاريخية و الجغرافية المتعارف عليها منذ آلاف السنين.

و أما دعوة الدكتور جمال عبد الهادي و الدكتور وفاء رفعت من أن سليمان قامت على عهده، و عهد أبيه داود، عليهما السلام دولة إسلامية عاصمتها القدس، و حدودها من المؤكد أنها كانت تشمل الشام كله و الجزيرة العربية كلها، فلست أدري من أين جاء ادعواهما أن داود كون دولة شملت الشام كله و الجزيرة العربية كلها، و ليس في القرآن الكريم و الحديث الشريف و لا في المصادر العربية أو اليهودية أو الأثرية ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد، و أما ملك سليمان لليمن فقد ناقشناه من قبل، و ليس هناك من دليل يثبت استيلاء سليمان على اليمن و ضمها إلى مملكته، فضلا عن ضم الجزيرة العربية كلها، و اليمن جزء من الجزيرة العربية، و ليس كل الجزيرة العربية، ثم يقول المؤلفان أن الله مكن سليمان فأعطاه ملكا لم و لن ينبغي لأحد من بعده؟ فهل ملك الشام و الجزيرة العربية يعتبر هو الملك الذي لم ينبغ لأحد من بعد سليمان، أم أن هناك آخرون ملكوا أكثر من الشام و الجزيرة العربية، فمثلا الإسكندر المقدوني في التاريخ القديم، و الدولة الإسلامية على أيام الراشدين و الأمويين و العباسيين، ناهيك عن الامبراطوريات الأوربية في العصر الحديث.

و أما القول بأنه لا يعقل أن تكون هناك أمة مشرقة في عهد سليمان

الذي طويت له الأرض و مكن له فيها، و أوتي من كل شيء، فلست أدري ما ذا يعني المؤلفان بذلك، و هل تبق حقا أمة مشرقة في عهد سليمان بعد إيمان ملكة سبأ، و هل أصبحت مصر الفرعونية أو العراق القديم مثلا، و هما أقرب إلى فلسطين مقر مملكة سليمان من اليمن، من الأمم المسلمة في عهد سليمان؟ ثم، و هذا في منتهى الأهمية، هل بعث سليمان للناس عامة، أم أنه بعث إلى قومه خاصة، ذلك أنه من المعروف أن كل نبيّ إنما كان يبعث إلى قومه خاصة، و أن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم هو وحده الذي بعث إلى الناس كافة بشيرا و نذيرا «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا»، «و ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا و نذيرا»، و في الصحيحين عن جابر قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، و جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا، فأیما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، و أحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي، و أعطيت الشفاعة، و كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة» (1).

ثم إن المؤلفين مضطربان في نسب سليمان عليه السلام، فهو مرة نبي عربي، و هو مرة أخرى من بني إسرائيل من سلالة يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، و هذا هو الصحيح، ثم كيف يكون سليمان نبيا عربيا، و سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في حديث أبي ذر المشهور:

و أربعة من العرب، هود و صالح و شعيب و نبيك يا أبا ذر» (2)، و في رواية:

«و أربعة من العرب، هود و صالح و شعيب و محمد عليه السلام» (3).

بقي الآن أن نتحدث عن رأي المفسرين و المؤرخين المسلمين في قوله تعالى:

ص: 191

1- تفسير ابن كثير 3/ 857.

2- البداية و النهاية تفسير ابن كثير 1/ 891-892 (بيروت 1986).

3- تفسير النسفي 1/ 263-264.

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (1)، إذ ترى جمهرة كبيرة من المفسرين والمؤرخين أن سياق الآيات الكريمة تفيد أن الزيادة التي أوتيتها سليمان عليه السلام في ملكه المعبر عنها بقوله تعالى:

مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إنما هي إيتاؤه بعض المعجزات التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام، بدليل التعقيب عليه بقوله تعالى:

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ، وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (2)، المتضمن استجابة الله تعالى لدعائه، مفتتحاً بالفاء الدالة على الربط و التعقيب و الترتيب (3)، وهذا ما نميل إليه و نرجحه، و يقول ابن الأثير أن سليمان عليه السلام سأل الله أن يؤتیه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب الله و سخر له الإنس و الجن و الشياطين و الطير و الريح، فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه، عكفت عليه الطير، و قام له الإنس و الجن حتى يجلس (4)، و يقول الطبري (5): و سخرت له الريح و الشياطين يومئذ، و لم تكن سخرت له من قبل (أي بعد أن جلس الشيطان على كرسیه) و هو قوله تعالى: وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (6)، و من هنا فقد ذهب المسعودي إلى أن ملك سليمان كان أربعين سنة على فلسطين و الأردن (7)، و قول ابن خلدون: إن سليمان قد ضرب الجزية على جميع ملوك الشام مثل فلسطين و عمون و كنعان و مؤاب).

ص: 192

1- سورة ص: آية 35.

2- سورة ص: آية 36-37.

3- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 114-115.

4- الكامل لابن الأثير 1/128.

5- تاريخ الطبري 1/501.

6- سورة ص: آية 35.

7- مروج الذهب للمسعودي 1/70 (بيروت 1965).

وَأدوم والأرمن (أي الآراميين) وهذا لا يعدو أيضا فلسطين وشرق الأردن (1).

وإذا ما رجعنا إلى كتب التفسير لرأينا الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه، يقول في تفسير الآية الكريمة: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، أن أقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان عليه السلام لم يرد به أثره، وإنما أراد الاختصاص الذي يتجلى في صورة معجزة، فقد أراد به النوع، أراد به ملكا ذا خصوصية تميّزه من ملك كل ملك آخر يأتي بعده، وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا معهودة في الملك الذي يعرفه الناس، وقد استجاب الله له، فأعطاه فوق الملك المعهود، ملكا خاصا لا يتكرر (2)، ثم يحدد صاحب الظلال هذا الملك المعهود بأنه لا يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين وسورية ولبنان والعراق إلى ضفة الفرات (3)، أي الشام بمعنى آخر، لا أكثر ولا أقل، أو لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعده هذه السلبة (يعني الشيطان الذي جلس على كرسيه) أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته (4)، ويقول النسفي أن سليمان عليه السلام سأل ملكا بهذه الصفة (لا ينبغي لأحد من بعدي) ليكون معجزة له، لا حسدا (5)، و كان قبل ذلك لم يسخر له الريح والشياطين، فلما دعا بذلك «.

ص: 193

1- تاريخ ابن خلدون 2/ 112.

2- في ظلال القرآن 5/ 3020.

3- في ظلال القرآن 5/ 2635.

4- الدر المنثور 5/ 313.

5- تفسير البيضاوي 5/ 19. جاء في تفسير الطبري (23/ 164 ط بيروت 1984) ذكر عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قرأ قوله تعالى: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي فَقَالَ: «إنه كان لحسودا، فإن ذلك ليس من أخلاق الأنبياء، قيل: أما رغبته إلى ربه فيما رغب إليه من الملك، فلم تكن إن شاء الله به رغبة في الدنيا، ولكن إرادة منه أن يعلم منزلته من الله في إجابته فيما رغب إليه فيه، وقبول توبته، وإجابته دعائه».

سخرت له الريح والشياطين ولن يكون معجزة حتى يخرق العادات (1).

ويقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: قال بعضهم: معناه لا ينبغي لأحد من بعدي، أي لا يصح لأحد أن يسلبنيه بعدي، كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه، لا أن يحجر على من بعده من الناس، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال البخاري عند تفسير هذه الآية، حدثنا إسحاق إبراهيم أخبرنا روح و محمد بن جعفر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إني عفريتاً من الجن تقلت على البارحة، أو كلمة نحوها، ليقطع على الصلاة، فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام: «رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي»، قال روح: «فرده خاسئاً»، وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به (2).

هذا وقد قدم لنا الإمام الطبري عدة روايات في تفسير الآية الكريمة، منها أن الله تعالى سخر لسليمان الريح والشياطين يومئذ، ولم تكن سخرت له من قبل ذلك، وهو قوله: وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي، لا يسلبنيه أحد، كما سلبنيه قبل هذا الشيطان، ومنها يقول تعالى ذكره: -

ص: 194

1- تفسير النسفي 4/ 43.

2- تفسير ابن كثير 4/ 56-57 (ط بيروت 1986) وانظر: صحيح البخاري 6/ 156، صحيح مسلم 2/ 72، سنن النسائي 3/ 13، مسند الإمام أحمد 3 ك 83.

فاستجبنا له دعائه، فأعطيناه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، «فسخرنا له الريح» مكان الخيل التي شغلته عن الصلاة «تجري بأمره رخاء» يعني رخوة لينة، وهي من الرخاوة عن الحسن: أن نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم لما عرضت عليه الخيل، فشغله النظر إليها عن صلاة العصر «حتى توارت بالحجاب» فغضب الله، فأمر ففعلت، فأبدله الله مكانها، سخر الريح تجري بأمره رخاء حيث شاء، ومنها ما روى عن الضحاك في قوله تعالى: وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، فإنه دعا يوم دعا، ولم يكن في ملكه الريح، و كل بناء وغواص من الشياطين فدعا ربه عند توبته واستغفاره، فوهب الله له ما سأل، فتم ملكه، وعن الضحاك أيضا «و الشياطين كل بناء وغواص» قال لم يكن هذا في ملك داود، أعطاه الله ملك داود، وزاده الريح، «و الشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد»، يقول في السلاسل، و يقول الإمام الطبري:

و أولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القول الذي ذكرناه عن الحسن و الضحاك من أنه عني بالعطاء ما أعطاه الله تعالى ذكره من الملك، و ذلك أنه جل ثناؤه ذكر عقيب خبره عن مسألة نبيه سليمان، صلوات الله و سلامه عليه، إياه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأخبره أنه سخر له ما لم يسخر لأحد من بني آدم، و ذلك تسخيره له الريح و الشياطين على ما وصفت، ثم قال له عز ذكره:

هذا الذي أعطيناك من الملك، و تسخير ما سخرنا لك عطاؤنا، و وهبنا لك ما سألتنا أن نهبه لك من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك «فامنن أو أمسك بغير حساب» (1).

و يقول الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير في تفسير الآية: أن الملك هو القدرة، فكان المراد أفدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري البتة، ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي و رسالتي، و الدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال عقيب: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً).

ص: 195

حَيْثُ أَصَابَ، فَكُونَ الرِّيحَ جَارِيَا بِأَمْرِهِ قُدْرَةً عَجِيبَةً وَ مَلِكًا عَجِيبًا، وَ لَا شَكَّ أَنَّهُ مَعْجَزَةٌ دَالَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ، فَكَانَ قَوْلُهُ؛ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي هُوَ هَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّ شَرْطَ الْمَعْجَزَةِ أَنْ لَا يَقْدِرَ غَيْرُهُ عَلَى مَعَارَضَتِهَا، فَقَوْلُهُ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي يَعْنِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مَعَارَضَتِهِ، وَ هُنَاكَ وَجْهٌ آخَرٌ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا مَرَضَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الصِّحَّةِ، عَرَفَ أَنَّ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا صَائِرَةٌ إِلَى الْغَيْرِ يَارِثُ أَوْ بِسَبَبِ آخَرَ، فَسَأَلَ رَبَّهُ مُلْكًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَ ذَلِكَ الَّذِي سَأَلَهُ بِقَوْلِهِ: مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي، أَيَّ مُلْكًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَقِلَ عَنِّي إِلَى غَيْرِي (1).

وَ هَكَذَا يَبْدُو وَاضِحًا أَنَّ جَمَهْرَةَ الْمُفَسِّرِينَ لَا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، سَأَلَ اللَّهَ مُلْكًا وَاسِعًا، بِمَعْنَى مَسَاحَاتٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الْأَرْضِينَ، وَ إِنَّمَا سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى مُلْكًا مَعْجَزًا لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْمَعْجَزَاتُ مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَ غَوَاصٍ، وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعْجَزَاتٍ لَمْ يَشَارِكْ فِيهَا أَحَدٌ، كَمَا أَشْرْنَا إِلَى كُلِّ ذَلِكَ فِي مَكَانِهِ مِنْ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ، وَ مِنْ ثَمَّ فَلَا مَكَانَ لِلرِّبْطِ بَيْنَ مُلْكِ شَاسِعِ الْمَسَاحَاتِ، كَمَا ذَهَبَتْ إِلَى ذَلِكَ بَعْضُ الْمَصَادِرِ الْعَرَبِيَّةِ، وَ بَيْنَ نُبُوَّةِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ كَأَنَّ مَكَانَةَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ لَا تَكُونُ إِلَّا - بِمُلْكِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، كَمَا ذَهَبَ الْبَعْضُ، حَيْثُ جَعَلُوا مِنْ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاحِدًا مِنْ أَرْبَعَةٍ (نَمْرُودَ وَ بَخْتَنْصَرَ وَ ذُو الْقَرْنَيْنِ وَ سَلِيمَانَ) مُلْكُوا الدُّنْيَا بِأَسْرَافِهَا، بَلْ إِنَّ سَلِيمَانَ، فِيمَا يَقُولُونَ، «كَانَ لَا يَسْمَعُ بِمُلْكِ فِي نَاحِيَةِ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا أَتَاهُ حَتَّى يَذَلَّهُ»، وَ نَسُوا، أَوْ تَنَاسَوْا، أَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمْ يَكُنْ، وَ لَنْ يَكُونَ، جَبَارًا فِي الْأَرْضِ، وَ إِنَّمَا كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَ هَادِيًا إِلَى اللَّهِ يَازِنُهُ، وَ مَبْشَرًا وَ نَذِيرًا، وَ نَسُوا كَذَلِكَ أَنَّ النُّبُوَّةَ أَشْرَفُ وَ أَكْرَمُ مِنْ مُلْكِ الدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا، وَ إِنَّمَا جَمَعَ اللَّهُ لِسَلِيمَانَ، كَمَا جَمَعَ لِأَبِيهِ مِنْ قَبْلِ، بَيْنَ

ص: 196

النبوة و الملك، و نسوا أيضا أنهم ربطوا سليمان بملوك أربعة، منهم على الأقل كافران، فإذا كان هذا الملك الواسع المساحات هو المراد من دعاء النبي الكريم: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، فهم إذن قد ساووا بين سليمان عليه السلام، و بين هؤلاء الثلاثة (نمرود و بختنصر و ذو القرنين) في هذا الملك الواسع العريض، و هذا ما لم يقل به أحد.

و هكذا يبدو واضحاً أن سياق الآيات الكريمة، كما أشرنا من قبل، إنما يشير إلى أن الزيادة التي أوتيها سليمان عليه السلام في ملكه و المعبر عنها بقوله: مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي هي إيتاؤه بعض المعجزات التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام، بدليل التعقيب عليه بقوله تعالى: فَسَدَّخْرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ، وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، المتضمن استجابة الله تعالى لدعائه، مفتتحاً بالفاء الدالة على الربط و التعقيب و الترتيب (1).

[8] القدس عاصمة سليمان :-

تقع القدس على مبعده 14 ميلاً- إلى الغرب من البحر الميت، 33 ميلاً إلى الشرق من البحر المتوسط، و قد عرفت بأسماء كثيرة، حيث أطلقت عليها التوراة أو العهد القديم اسم «أريئيل» (إشعيا 1/29) و مدينة العدل (إشعيا 1/26) و المدينة (مزور 16/72) و مدينة الله (مزور 1/48) و مدينة الحق (زكريا 3/8) و مدينة القدس (نحميا 1/11) و جبل القدس (إشعيا 13/27) و المدينة المقدسة (متى 4/5) و مدينة داود، و أما أسماؤها العربية فهي: بيت المقدس و المقدس و القدس الشريف، أما الإسم الغالب فهو «القدس»، و الذي يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها، غير أن أشهر اسمين للمدينة إنما هما القدس و أورشليم.

ص: 197

هذا و يظن كثير من الناس خطأ أن اسم «أورشليم» اسم عبري أو يهودي، و الحقيقة غير ذلك تماماً، ذلك لأن أقدم النقوش التي ورد فيها اسم المدينة المقدسة إنما هو نقش مصري، يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وربما إلى أيام «سنوسرت الثالث (1878-1843 ق. م) أو بعده بقليل، وربما قبله بقليل، حيث ذكرت المدينة تحت اسم «أورشليم» (mumilasrU) على رأي (1)، و إلى أيام الأسرة الثالثة عشرة المصرية (1786-1650 ق. م) فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» (memahsuA) على رأي آخر (2)، و تقرأ في رسائل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد (3)، في رسالة من نائب الفرعون إخناتون (1367-1350 ق. م) و يدعى «عبد خيبا» أمير القدس و كانت تدعى «أورسالم» يقول فيها «لا أبي و لا أمي وضعاني في هذا المكان، بل يد الملك القوية هي التي وضعتني في بيت آبائي» (4)، و بقيت المدينة تدعى «أورسالم»، حتى استقل بها اليبوسيون في فترة الضعف التي انتابت الإمبراطورية المصرية، و سموها «يبوس» (5)، حتى جاء داود عليه السلام (1000-960 ق. م) و استولى عليها منهم، ثم اتخذها عاصمة لدولته، و نقل إليها «تابوت العهد»، و أطلق عليها اسم «مدينة داود»، و من ثم فقد أصبحت المدينة المقدسة مركزاً للحياة

ص: 198

1- .P, tic- po, regnU. F. M 576 ..

2- أحمد فخري: المرجع السابق ص 335 و كذا، M munnelliB. C. ni ,allatneirO .J 329. p. 1966 ,TENA, nosliW. W 30., amoR 32. p. 1961 .dnoceS eht ni naenarretideM tsaE ehT dna tpygE, draW .

3- أنظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومي مهران: إخناتون- الإسكندرية 1979 ص 233-245).

4- .P, TENA, thgirbla. otnoroT, II, tselbaT anramA- leT ehT, recreM. B. A. S 89- 286. p. 1939 ., .F. W 489- 487

5- .11-10/19 .

السياسية و الدينية معا، هذا و يختلف الباحثون في أسباب تغيير اسم المدينة القديم، فمن قائل لأن اسمها القديم كان غربيا على العبرانيين، و من قائل لأن فيه تخليدا للاهوت أجنبي، و من قائل لأن داود عليه السلام أراد أن يخلد اسمه على المدينة أو حتى على جزء منها، ذلك لأن اليهود أطلقوا على المدينة أيضا اسم «يورشالايم» أو «أورشالم» بإضافة لاحقة عبرية كي تصبح عبرية النطق، و أيا كان السبب فإن الإسم الجديد لم يحل محل الإسم القديم، الذي له جذور عميقة في الوعي الشعبي (1).

هذا و قد دعيت المدينة في النقوش الآشورية باسم «أورساليمو» (ummilasrU) و في النقوش اليونانية باسم «هيروسوليماس» (2) amylosoreiH، هذا و لم يذكر «هيرودوت» (484-430 ق. م) في تاريخه اسم «أورشليم» و لكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء الفلسطيني من الشام، و سماها «قديس»، مرتين في الجزء الثاني و الثالث من تاريخه، و يقول المستشرق اليهودي «سالومون مونك» في كتابه «فلسطين» أن هذا الإسم على الأرجح هو «القدس»، محرفا في اليونانية عن النطق الآرامي «قديشتا» (3).

و أما معنى «أورشليم» فموضع خلاف، و لعل أرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من «أور» بمعنى مدينة أو موضع، و من «شالم» و هو إله و ثني لسكان فلسطين الأصليين هو «إله السلام»، فالمدينة إذن كانت مكرسة لإله السلام، و هناك من يقول أن كلمة «أور» معناها «الميراث»، فتكون

ص: 199

-
- 1- صموئيل ثان 9/5، 13-12/6، 18-17/8، 26-25/20، عبد الحميد زائد: الشرق الخالد ص 56-57، و كذا، I fo lears SENJ, nivie Y. Y 10. p، 1948، 7، و كذا، yrotsiH ehT, htoN. M 191. p، 1965.
 - 2- .P, tic- po, regnU. F. M 576 .
 - 3- حسن ظاظا: المرجع السابق ص 8، قاموس الكتاب المقدس 1/135.

أورشليم بمعنى «ميراث السلام» أما أحبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «شلم» أي السلام، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام، قد سماها «يرأه»، وهي باللغة العبرية بمعنى الخوف، فقرر الله أن يسميها بالاسمين معا، «يرأه- شلم» أي «أورشليم» بمعنى الخوف و السلام، وبنوا على هذه التخريجات الفلوكلورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب، وقيل أيضا أن «يرو» يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى «إله»، ويكون اسم المدينة بكل بساطة «مدينة إله السلام» (1).

وأيا ما كان الأمر، فما أن يأتي الرومان، وتحدث مذبحه «هدريان» (117-138 م) عام 135 م، حتى تكون ختاماً نهائياً لليهود في فلسطين سياسياً وسكانياً، ثم يغير الرومان اسم المدينة إلى «إيليا كابيتولينا» أو «إيليا» فقط، ويصبح لفظ أورشليم لفظاً تاريخياً، يطلق فقط على المدينة التي كانت على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، وظلت المدينة تسمى «إيليا» ولا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادي، وفي العام الخامس عشر الهجري يفتح المسلمون المدينة المقدسة، ويعيدون إليها اسمها «القدس»، وإن اشترط أهلها ألا تسلم مدينتهم إلا للخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه، وأن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم، ويقبل الخليفة أن يتسلم المدينة بنفسه، ويأتي إلى القدس في عام 15 هـ (أو عام 635/636 م) ويتسلم المدينة من البطريك «صفرنيوس»، ويمنح أهلها النصرى الأمان في دينهم وأموالهم وأعراضهم، لا يضار أحد منهم بسبب دينه، ولا يكره على شيء في أمره، ولا يسكن معهم أحد من اليهود (2)، وبينما كان الخليفة الراشد في كنيسة القيامة مع البطريك أدركته).

ص: 200

1- حسن ظاظا: المرجع السابق ص 9.

2- هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفارق عمر رفض الموافقة على استمرار القرار الروماني بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذراً بأن القرآن الكريم قد حدد لأهل الكتاب ما لهم وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا، ولكنه تعهد للنصارى ألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم (حسن ظاظا: المرجع السابق ص 30).

الصلاة، فطلب إليه أن يصلي بها فرفض حتى لا يتبعه المسلمون إذ يرون أن عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم و خالفوا عهد الأمان، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة (1)، وإنما صلى في مكان قريب عند الصخرة المقدسة، وخط المسجد الذي عرف باسمه (2).

[9] مباني سليمان :-

لا ريب في أنه كان للقدس نصيب الأسد في المباني التي شيدت في عهد سليمان عليه السلام و طبقا لما جاء في التوراة فقد شيد سليمان سور المدينة وقلعتها، وإن كان بناء المسجد الأقصى و قصر سليمان إنما يمثلان أعظم إنجازات الملك النبي المعمارية، و أما المسجد الأقصى فقد خصصنا له فصلا مستقلا من قبل، و أما القصر فقد اختيرت له الهضبة الغربية، و طبقا لرواية التوراة، فلقد أقيم القصر على المنطقة الصخرية التي تدعى «تل

ص: 201

1- يقول المسعودي: أن سليمان عليه السلام بعد أن بنى المسجد الأقصى، بنى لنفسه بيتا في الموضع الذي يسمى في وقتنا هذا (أي وقته هو) كنيسة القيامة، و هي الكنيسة العظمى بيت المقدس عند النصارى (مرجع الذهب 70 / 1) و هي الكنيسة التي بنتها «هيلانة» أم الامبراطور قسطنطين (306-337 م) في عام 326 م، في المكان الذي يعتقد النصارى أن جثمان المسيح عليه السلام قد دفن فيه، ثم رفع إلى السماء، و هذا خطأ لأن المسيح لم يقتل و لم يصلب، قال تعالى: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (سورة النساء: آية 157-158).

2- تاريخ الطبري 607/3 - 613، الواقدي: فتوح الشام 26/2، 244، 267، البلاذري: فتوح البلدان ص 144 - 145، حسن ظاظا: المرجع السابق ص 30، عبد الحميد زائد: القدس الخالدة ص 173 - 175، البداية و النهاية 60/7 - 67.

موريا» (1)، ويذهب المسعودي، كما أشرنا آنفاً، أنه في مكان كنيسة القيامة (2)، وكان القصر يتكون من عناصر ثلاثة: «بيت وعر لبنان»، وكان يستخدم كترسانة أسلحة (3)، وربما كمكان للمالية في نفس الوقت (4)، ويحتمل كذلك أنه استخدم كحوش للإسطبلات، وأما «صالة الأعمدة» فلم يعرف الغرض الذي استخدمت من أجله، وأما «غرفة الاجتماعات الكبيرة»، فقد استخدمت كمكان للقضاء، فضلاً عن الاحتفالات الرسمية (5)، هذا وقد وجد إلى جانب هذا القصر الكبير من ناحية الغرب مباشرة، قصر آخر أحيط بجدار فاصل، وقد اتخذ مكاناً لسكني الملك وسيدات القصر، هذا وقد وجد أيضاً، إلى الشمال مباشرة، وفوق هضبة مرتفعة، مبنى آخر أحيط بسور خاص، اتخذ كمصلي، وأمامه مذبح لحرق الأضاحي (6).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الروايات التي وصلتنا عن مباني سليمان إنما تضعه في مرتبة أعلى البنائين المشهورين، ومن ثم فقد نسبت إليه مبان كثيرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، حتى أن بعض تلك المباني إنما كانت تقع بعيداً جداً عن منطقة نفوذه (7)، وقد نافست المصادر العربية المصادر اليهودية في نسبة مبان كثيرة إلى سليمان، حتى أن «ياقوت الحموي» يقول: «إن الناس كانوا إذا ما رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى جن سليمان (8)، ومع ذلك، فالذي لا شك فيه أن).

ص: 202

1- أخبار أيام ثان 1/3.

2- مروج الذهب 70/1.

3- ملوك أول 16/10-17.

4- ملوك أول 17/10-20.

5- ملوك أول 18/10-20، وكذا. P, tic- po, tdlefssiE. O 596.

6- .P., dibI 596.

7- .P., dibI 594.

8- ياقوت الحموي: معجم البلدان 17/2 (بيروت 1957).

لسليمان إنجازات معمارية كثيرة، وقد ذكرنا من قبل تشييده لكثير من الشكنات لفصائل عجلاته الحربية، والتي أطلقت عليها التوراة «مدن المركبات» و«مدن الفرسان» وكذا «مدن المخازن» (1) التي أقيمت للمؤمن والعلف التي تحتاجها المعسكرات والمحطات التي أقيمت على الطرق التجارية، وذلك لأن «مدن المخازن التي بناها سليمان في حماة» (2) إنما قد خدمت الهدفين، وبالتالي فربما يمكن القول أن الأماكن المحصنة التي أقيمت في مجاورات مجدو وتدمر وحماة وأورشليم إنما كانت «مدن مخازن» (3).

هذا وقد كشف عن بعض مبان لسليمان في حاصور (4) (تل قدح على مبعدة 5 كيلا جنوب غرب بحيرة الحولة) وفي «عصيون جابر» اكتشف «جلوك» حصنا يرجع إلى أيام سليمان، وكذا في «قادش برينع»، وهي خربة القضييرات أو عين قديس، على مبعدة 50 ميلا جنوب بئر سبع (5). ونقرأ في التوراة أن سليمان «بنى جازر وبيت حورن السفلى وبعلة وتدمر في البرية» (6)، أما «جازر» فهي المدينة الكنعانية الواقعة على مبعدة 18 ميلا شمال غرب أورشليم، وقد أشرنا من قبل إلى أن فرعون قد استولى عليها وقدمها مهرا لابنته امرأة سليمان، و يبدو أن سليمان قد أعاد بناء المدينة بعد ذلك (7)، وأما «بيت حورن السفلي» فتقع على مبعدة 12 ميلا شمال

ص: 203

-
- 1- ملوك أول 19/9.
 - 2- أخبار أيام ثان 4/8.
 - 3- .P, tiC. pO, tdlefssiE. O 595 .
 - 4- ملوك أول 15/9.
 - 5- قاموس الكتاب المقدس 708/2-709، وكذا. 595. P, tiC. pO, tdlefssiE. O 595. F, Y. N, dnaL elbiB ni وكذا F, Y. N, dnaL elbiB ni، 1955. seirevocsiD tneceR, thgirblA. F. W 86. p.
 - 6- ملوك أول 17/9-18.
 - 7- ملوك أول 15/9-17، قاموس الكتاب المقدس 1/242 وكذا. p, tic- po, regnU. F. M 401.

أورشليم، وتسمى حالياً «بيت عور السفلى» وهي أقدم من عصر سليمان، ومن ثم فيبدو أن سليمان قد حصنها ولكنه لم يبنها (1)، وأما «بعلة» فهي مدينة في منطقة «دان» لا يعرف الآن مكانها على وجه التحقيق، ويرجح أن سليمان حصنها ولم يبنها كذلك (1).

وأما مدينة «تدمر» فهي مدينة «تمر» التي قام سليمان ببنائها في البرية، وقد أشارت التوراة ويوسف بن متى أن سليمان قد أقام مدينة تدمر (2)، ولا شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة، ذلك لأن مدينة تدمر إنما ظهرت للمرة الأولى في التاريخ على أيام الملك الأشوري «تجلات بلاسر» (1116-1090 ق. م) في صورة «تدمر أمورو» (3) أي قبل أن يولد النبي الكريم، وكذا بفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها بأكثر من سبعة قرون، ومن هنا يذهب العلماء إلى أن الرواية التوراتية بشأن بناء سليمان لمدينة تدمر، إما أنها من نوع المبالغة، ومن ثم فقد نسبت إلى سليمان بناء مدينة تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيل (4)، وإما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين «تامارا» (تمر) التي بناها سليمان في جنوب شرق يهوذا (5)، وربما كانت الشهرة التي اكتسبتها «تدمر» (6) على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم، ومن ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التي بناها سليمان هي «تدمر» وليست

ص: 204

1- ملوك أول 18/11، قاموس الكتاب المقدس 82/1).

2- ملوك أول 18/9، أخبار أيام ثان 4/8، وكذا، 1924، p. 106، emorhD. E 106، BR, sneiryssA setxeT seL snad arymlaP، وكذا. P, III, IE 1020.

3- . P, III, IE 1020 و p, III, IE 1020، وكذا، 1924، p. 106، emorhD. E 106، BE 488، 17، و BE 161. p، 17، وكذا، BE 161.

4- فيليب حتى: المرجع السابق ص 432، جواد علي 77/3، وكذا. P, tic- po, sgnitsaH. J 889.

5- حزقيال 19/47، قاموس الكتاب المقدس 282/1.

6- عن «تدمر» أنظر (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم- الرياض 1977 ص 533-541).

«ثامار»، وسرعان ما انتقلت تلك الرواية إلى المصادر العربية، عن طريق مسلمة أهل الكتاب، فأخذوها بغير تدقيق ولا تحقيق، فضلا عن أن آثار المدينة ربما أدهشتهم و من ثم فقد نسبوا أبناءها إلى الجن، بأمر من سليمان عليه السلام (1).

هذا وقد ناقش الأستاذ «إيسفلت» الموضوع عام 1975 م بشيء من التفصيل، وخلص إلى أن «تدمر» المشار إليها في التوراة إنما هي «تمر»، وتقع في أو بالقرب من «عين الرس»، على مبعده 5 كيلا إلى جنوب النهاية الجنوبية للبحر الميت، وليست تدمر التي تقع على مبعده 150 كيلا شمال شرق دمشق، في منتصف المسافة بين دمشق والفرات وعلى أي حال، فإن بناء «تمر» إنما كان جزءا من مشروع أكبر لخدمة الأغراض التجارية التي كانت دولة سليمان ميدانا لها (2).

ص: 205

1- فيليب حتى: المرجع السابق ص 432، جواد علي 78/3، الألوسي: بلوغ الأرب 1/209-210، ياقوت 2/17-19، البكري 1/306-307، ثم قارن المسعودي 2/244-245 (بيروت 1973).

2- ملوك أول 1/3، 15/9، وكذا، 17، BE. O 161. p، وكذا. O 593-592، P, tic- po, tdlefssiE.

وردت قصة أيوب عليه السلام في القرآن الكريم في سورة النساء (آية 163) و الأنعام (آية 84)، وفي سورة الأنبياء و ص بشي ء قليل من التفصيل، قال تعالى في الأنبياء: وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذَكَرُوا لِلْعَابِدِينَ (1). وقال تعالى في سورة ص: وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ، اذْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ، وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ آوَّلِي الْأَلْبَابِ، وَ خُذْ يَدَكَ مِنْ حَتَّى فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (2).

هذا ويشير القرآن الكريم إلى أن أيوب إنما هو من ذرية إبراهيم

ص: 209

-
- 1- سورة الأنبياء: آية 83-84، وانظر: تفسير الطبري 17/56-73، تفسير ابن كثير 3/300-304، تفسير الفخر الرازي 22/203-209، تفسير النسفي 3/86-87، تفسير القرطبي ص 4362-4367، في ظلال القرآن 4/2391-2392، تفسير روح المعاني 17/79-82، صفوة التفاسير 2/272.
- 2- سورة ص: آية 41-44، وانظر: تفسير ابن كثير 4/59-61، تفسير النسفي 4/42-43، تفسير الفخر الرازي 26/211-215، تفسير الطبري 23/165-169، في ظلال القرآن 5/3021-3022، تفسير القرطبي ص 5651-5656.

الخليل عليهما السلام، قال تعالى: وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (1)، و من ثم فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه من سلالة العيص (عيسو) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، و أن أمه، فيما يرى ابن عساكر، بنت لوط عليه السلام، و إن ذهب رأي إلى أنه من الروم، قال ابن إسحاق: كان رجلا من الروم، و هو أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، و لعل خطأ وقع هنا في كلمة «الروم»، و المقصود «أدوم» و ليس «روم»، ذلك لأن عيسو (العيص) بن إسحاق (شقيق يعقوب التوأم)، إنما كان يسمى «أدوم» (الأحمر)، و إليه ينسب الآدوميون الذين كانوا يسكنون في أقصى بلاد شرق الأردن، و جنوب وادي الحسا، و كانت عاصمتهم «البتراء» (2)، على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب إلى أن أبا أيوب عليه السلام، إنما كان ممن آمن بإبراهيم عليه السلام و هاجر معه إلى فلسطين، على أن هناك رواية رابعة تنسب لابن إسحاق تذهب إلى أن أيوب كان من بني إسرائيل، و لم يصح في نسبه شيء، إلا- أن اسم أبيه أموص، و على أية حال، فالصحيح، فيما يرى كثير من المفسرين و المؤرخين، أنه من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، و أما امرأته فهي «ليا» (دينة) بنت يعقوب عليه السلام، و قيل هي «رحمة» بنت أفرايم بن يوسف أو ماضر بنت منشا (منسى) بن يوسف عليه السلام، و طبقا لهذا، فإن أيوب إنما قد عاش قبل موسى عليه السلام، و قال ابن جرير: كان بعد شعيب عليه السلام، و في التاريخ أنه كان نبيا في عهد يعقوب عليه السلام، و أنه عاش ثلاثا و تسعين سنة، و قال ابن أبي خيثمة كان بعد سليمان عليه السلام (3)، و سوف نناقش ذلك بالتفصيل فيما بعد.

ص: 210

- 1- سورة الأنعام: آية 84.
- 2- انظر: التفصيلات و المراجع (محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 547-552).
- 3- تفسير روح المعاني 17/ 80، تفسير الفخر الرازي 22/ 203، تفسير النسفي 3/ 86، البداية و النهاية لابن كثير 1/ 220-221، تاريخ الطبري 1/ 322-324، الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 264.

هذا وقد اقترن ذكر أيوب عليه السلام بالصبر، لأنه كان من أشد الأنبياء صبرا، إن لم يكن أشدهم، فلقد ابتلى عليه السلام بلاء شديدا في أهله وبدنه وماله، ولكنه كان مثال العبودية الحقة لله تعالى، فصبر على ذلك حتى أصبح يضرب به المثل في الصبر على الأذى، فيقال: «صبر كصبر أيوب»، وقد روى الليث عن مجاهد ما معناه: أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على الأرقاء (1)، وقد أثنى الله تعالى على أيوب بقوله تعالى: **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** (2).

هذا ويتحدث المفسرون عما كان يملكه أيوب عليه السلام من المزارع والحدائق، وما كان له من أموال ودواب وأنعام وحرث، يضيق بها الحصر والتعداد، فضلا عن نعمة القوة والصحة، إلى جانب زوجة صالحة حسنة الخلق والخلق، ومع هذا لم تبطره هذه النعم الكثيرة، وإنما صبر لها وأدى لها كل ما يلزم، من شكر للمنعم جل جلاله وتقدير وعرفان لفضله، وكان رحيما بالمساكين، كما كان يكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ومع ذلك فقد شاءت إرادة الله، ولا راد لمشيئته، أن تتغير الأحوال، فصوّح الزرع، وجف الصرع، ونفدت الأموال، ونفقت الماشية، وزال الثراء العريض، وهاجم الفقر الشديد، والمرض القاسي العنيد، نبي الله الكريم، ثم كانت مصيبته في موت البنين والبنات أنكى وأدح، روى الإمام النسفي (3) أنه عليه السلام كان له سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة آلاف بعير، وسبعة آلاف شاة، وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد ونخيل،

ص: 211

1- ابن كثير: البداية والنهاية 1/ 225.

2- سورة ص: آية 44.

3- تفسير النسفي 3/ 86-78.

فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده و ماله و بمرض في بدنه، فما وهن لما أصيب به من البلى، و ما ضعف و لا استكان و إنما قابل ذلك كله بالصبر الجميل و الإيمان الكامل، فكان في حالتي الرخاء و البلاء مثالا لعباد الله الصالحين في إرضاء الرحمن، و إرغام أنف الشيطان.

هذا و قد روى الإمام الرازي في التفسير الكبير: (1) أن إبليس سأل ربه فقال: هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقال الله تعالى: نعم عبيدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه و هو يرى إبليس عيانا و لا يلتفت إليه، فقال يا رب إنه قد امتنع علي فسلطني على ماله، و كان يجيئه و يقول له: هلك من مالك كذا و كذا، فيقول: الله أعطى و الله أخذ، ثم يحمد الله، فقال: يا رب إن أيوب لا يبالي فسلطني على ولده، فجاء و زلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه و أخبره فلم يلتفت إليه، فقال يا رب لا يبالي بماله و ولده فسلطني على جسده، فأذن فيه فنفخ في جلد أيوب، و حدثت أسقام عظيمة و آلام شديدة، فمكث في ذلك البلاء سنين (2)، و مع ذلك فقد ظل صابرا حتى ضرب في هذا المجال أروع المثل، و غدا صبره و إيمانه حديث القرون و الأجيال، و صدق سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم حيث يقول كما ثبت في الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه» (3).

و قد اختلف المفسرون في مدة بلاء أيوب عليه السلام و شدته، فذهبت

ص: 212

1- تفسير الفخر الرازي 26/212.

2- يعترض كثير من العلماء على هذه الرواية لأن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس في الأمراض و الآلام، فضلا عن أن يكون ذلك مع الأنبياء على وجه الخصوص، و قد حكى الله تعالى عن الشيطان أنه قال: «و ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي»، فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر، إلا على إلقاء الوسوس و الخواطر الفاسدة (راجع: تفسير الفخر الرازي 26/213).

3- البداية و النهاية 1/222، انظر مسند الإمام أحمد 1/172، تفسير ابن كثير 3/301.

رواية إلى أنها كانت ثماني عشرة سنة، روى ابن شهاب عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أيوب بقي في البلاء ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان ويروحان إليه، فقال أحدهما للآخر ذات يوم: والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه:

و ما ذلك، فقال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لأيوب عليه السلام، فقال أيوب: ما أدري ما تقولان، غير أن الله تعالى يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكر إن الله عز وجل فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق» (1)، وذهبت رواية أخرى عن الحسن البصري قال: مكث أيوب عليه السلام بعد ما ألقى على الكناسة سبع سنين وأشهر، ولم يبق له مال ولا ولد صديق، غير امرأته رحمة صبرت معه، وكانت تأتیه بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب، وكان أيوب مواظبا على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه، وفي رواية ثالثة قال الضحاک ومقاتل بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، وقال وهب في رواية رابعة بقي في البلاء ثلاث سنين، بل إن هناك رواية خامسة تذهب إلى أن البلاء بقي ثلاث عشرة سنة (2).

ويذهب المفسرون إلى أن شدة البلاء وصلت إلى أن ألقى به في كناسة خارج القرية لا يقربه أحد إلا زوجته، وقد تنكر الناس له، حتى الذين آمنوا به، وكانوا ثلاثة (3)، لما رأوا ما نزل به من البلاء رفضوه واتهموه من

ص: 213

1- تفسير الفخر الرازي 205/22، وانظر: تفسير الطبري 167/23، تفسير ابن كثير 60/4، تفسير الفخر الرازي 214/26.

2- تفسير الطبري 70/17، تفسير روح المعاني 80/17، تفسير الفخر الرازي 206/22، تفسير ابن كثير 301/3.

3- قال النسفي في تفسيره (43/4): روى أنه كان يعود ثلاثاً من المؤمنين فارتد أحدهم فسئل عنه فقيل: ألقى الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين.

غير أن يتركوا دينه، وفي تفسير الطبري عن الحسن قال: و مر رجلاين و هو على تلك الحال (يعني حال البلاء)، و لا و الله ما على ظهر الأرض يومئذ أكرم على الله من أيوب، فقال أحد الرجلين لصاحبه: لو كان لله في هذا حاجة ما بلغ به هذا، فلم يسمع أيوب شيئا كان أشد عليه من هذه الكلمة، وفي رواية أخرى، قال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم في أيوب خيرا ما ابتلاه بما أرى، فما جزع أيوب من شيء أصابه جزعه من كلمة الرجل، و بلغ من شدة البلاء أيضا أن امرأته اضطرتها الحاجة، بعد العز و الجاه، إلى أن تخدم الناس في بيوتهم، لتطعم زوجها، وليت المصاب اقتصر على ذلك، فإن الناس ما لبثوا أن كفوا عن استخدامها، لئلا ينالهم من بلاء يعقوب شيء، أو تنقل إليهم عدوى أمراضه، فلما لم تجد أحدا يستخدمها عمدت فباعته لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيريها بطعام طيب كثير، فأنت به أيوب، فقال: من أين لك هذا و أنكروه، فقالت خدمت به أناسا، فلما لم تجد في الغد أحدا باعت الضفيرة الأخرى بطعام، فأنت به فأنكره أيضا و حلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقا قال في دعائه: «أني مسني الضرّ و أنت أرحم الراحمين»، وفي رواية أن أيوب عليه السلام كان إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه و اشتد غمه (1).

و كان نبي الله أيوب عليه السلام، في كل ذلك، في غاية الصبر، و به يضرب المثل في ذلك، روى أن أبي حاتم عن يزيد بن ميسرة قال: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل و المال و الولد، و لم يبق له شيء أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إليّ، أعطيتني المال

ص: 214

1- تفسير روح المعاني 80/17 تفسير الطبري 71/17، تاريخ الطبري 324/1، تفسير الفخر الرازي 207/22، 214/26، ابن كثير: البداية و النهاية 1/222-223.

و الولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني، قال فلقي إبليس من ذلك منكرا، قال وقال أيوب عليه السلام: يا رب إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وإنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها، وأقول لنفسي يا نفسي إنك لم تخلقي لوطء الفراش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك (1).

هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى محنة أيوب، وكيف أنه لجأ إلى الله طالبا كشف الضر عنه، وراجيا رحمة ربه، فاستجاب الله له فكشف عنه الضر وأبدله خيرا مما فقد منه، يقول تعالى: وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَدْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (2)، ويقول صاحب الظلال: وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء، والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل، وهي في هذا الوضع تعرض دعاء أيوب، واستجابة الله للدعاء، لأن السياق (في سورة الأنبياء) سياق رحمة الله بأنبيائه ورعايته لهم في الابتلاء، سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح، أو بالنعمة كما في قصة داود وسليمان، أو بالضر كما في حال أيوب (3).

على أن المفسرين إنما يذهبون مذاهب شتى في تفسيرهم لقول أيوب «أني مسني الضر»، فرواية تذهب إلى أن البلاء لما طال على أيوب رفضه

ص: 215

1- تفسير ابن كثير 3/ 103.

2- سورة الأنبياء: آية 83-84.

3- في ظلال القرآن 4/ 2392.

القريب و البعيد، غير زوجته، إلا رجلا كانا يغدوان و يروحان إليه، فجاء يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع من شيء قط، فقال اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شبعا و أنا أعلم مكان جاع فصدقني، فصدق من في السماء و هما يسمعان، ثم قال اللهم أن كنت تعلم أنني لم يكن لي قميصان قط، و أنا أعلم مكان عار، فصدقني، فصدق من في السماء و هما يسمعان، ثم قال اللهم بعزتك ثم خر ساجدا، فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه» (1).

و تذهب رواية أخرى إلى أن الشيطان وسوس إلى زوجته لو أن أيوب ذبح لي أو سجد أو أكل طعاما و لم يسم الله تعالى لعوفي مما هو فيه من البلاء، و في رواية ثالثة أنه قال: لو شئت فاسجد لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال و الولد، و أعافي زوجك، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها، فقال لها أيوب: أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم لئن عافاني الله لأجلدك مائة جلدة، و قال عند ذلك «مسنى الضر» يعني طمع إبليس في سجودي له و سجود زوجتي و دعائه إياها و إياي إلى الكفر، و في رواية رابعة قال وهب: كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس و تأتيه بقوته، فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها، فالتمس ذات يوم شيئا من الطعام فلم تجد شيئا، فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به، فقال لها: أين قرنك، فأخبرته بذلك، فحينئذ قال: «مسنى الضر»، و في رواية خامسة قال إسماعيل السدي لم يقل أيوب: «مسنى الضر» إلا لأشياء ثلاث:

أحدهما: قول الرجلين له لو كان عمك الذي كنا نرى لله تعالى لما أصابك

ص: 216

1- تفسير ابن كثير 3/ 302-303، و انظر: تفسير الفخر الرازي 22/ 206.

الذي أصابك، و ثانيهما: كان لامرأته ثلاث ذوائب، فعمدت إلى احداها و قطعتها و باعتها فأعطوها بذلك خبزاً و لحماً فجاءت إلى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا؟ فقالت كل فإنه حلال، فلما كان من الغد لم تجد شيئاً فباعته الثانية، و كذلك فعلت في اليوم الثالث، و قالت: كل فإنه حلال، فقال لا آكل ما لم تخبريني فأخبرته، فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم، و قيل إنما باعت ذوائبها لأن إبليس تمثل لقوم في صورة بشر و قال: لئن تركتم أيوب في قريبتكم، فإني أخاف أن يعدي إليكم ما به من العلة فأخرجوه إلى باب البلد، ثم قال لهم إن امرأته تدخل بيوتكم و تعمل و تمس زوجها، أما تخافون أن تعدي إليكم علتها، فحينئذ لم يستعملها أحد فباعته ضفيريته، و ثالثها: حين قالت له امرأته ما قالت، و أخيراً هناك رواية سادسة ذهبت إلى أن إبليس أتاها في هيئة عظيمة فقال لها: أنا إله الأرض فعلت بزوجك ما فعلت لأنه تركني و عبد إله السماء، فلو سجد لي سجدة رددت عليه و عليك جميع ما أخذت منكما (1).

على أن كثيراً من العلماء يرفضون معظم هذه الروايات فهي مشوبة بالإسرائيليات التي تطغى عليها، هذا فضلاً من أن انتهاء هذا المرض الذي أصيب به أيوب إلى حد التنفير عنه غير جائز، لأن الأمراض المنفرة غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام، و قد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة، فكيف يتفق هذا مع منصب النبوة، و الصحيح أن المرض الذي ألم بأيوب عليه السلام لم يكن مرضاً منفرأ، و ليس فيه شيء من هذه الأقوال العليلة و إنما هو مرض طبيعي و لكنه استمر به سنين عديدة، و هو أجل طويل لا يصبر عليه عادة لإنسان، ثم إن بلاءه لم يكن في جسمه فحسب، بل شمل المال و الأهل و الولد (2)، و لهذا قال تعالى: وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ

ص: 217

1- تفسير الفخر الرازي 206/22-208، تفسير روح المعاني 80/17.

2- الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 267.

مَعَهُمْ، و من ثم فالحد المأمول من هذه القصة، كما يقول صاحب الظلال، أن أيوب عليه السلام كان، كما جاء في القرآن، عبدا صالحا أوابا، وقد ابتلاه الله فصبر صبورا جميلا، و يبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال و الأهل و الصحة جميعا، ولكنه ظل على صلته بربه و ثقته به و رضاه بما قسم له، و كان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له، و منهم زوجته، بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه، و كانوا يحدثونه بهذا فيؤذونه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر و البلاء، فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله لئن يضربنها عدد أعينه، قيل مائة (1).

و على أية حال، فلقد استجاب الله تعالى لدعاء عبده أيوب، فرفع عنه الضر في بدنه، فإذا هو معافي صحيح، و رفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، و رزقه مثلهم، و قيل هم أبناؤه فوهب الله له مثلهم أو أنه وهب له أبناء و أحفادا (2)، يقول تعالى: اذْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِدًا رَبِّ بِهِ وَ لَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (3)، فأما قوله تعالى: اذْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، أي اضرب الأرض، و هي أرض الجابية فيما يروي عن قتادة، برجلك، فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عينا باردة الماء، و أمر أن يغتسل فيها و يشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم و الأذى و السقم و المرض الذي كان في جسده ظاهرا و باطنا، و أبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة و باطنة و جمالا تاما (4).

و قال بعض المفسرين نبعث له عينان فاغتسل من إحداهما و شرب

ص: 218

1- في ظلال القرآن 5 / 3021.

2- في ظلال القرآن 4 / 2392.

3- سورة ص: آية 42-44.

4- البداية و النهاية 1 / 224.

الأخرى، فذهب الداء من ظاهره و من باطنه بإذن الله، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها، ثم اليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها، فذهب الداء من ظاهرة و باطنة بإذن الله تعالى، و كساه الله حله، ثم خرج فجلس على مكان مشرف، و أقبلت امرأته تلتسمه في مضجعه فلم تجده، فقامت كالوالهة متلدة، ثم قالت: يا عبد الله، هل لك علم بالرجل المبتلي الذي كان هاهنا، قال: لا، ثم تبسم، فعرفته بضحكه، فاعتنقته، و في الحديث الذي رواه ابن شهاب عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«و كان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، و أوحى إلى أيوب في مكانه «أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد و شراب»، فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، و هو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلي، فو الله على ذلك ما رأيت أحدا أشبه به منك إذ كان صحيحا؟ قال: «فإني أنا هو» (1).

هذا و يذهب بعض المفسرين إلى أن الله تعالى، بعد أن أذهب عن أيوب كل آلامه، و عاد إليه شبابه و جماله، كأحسن مما كان و أفضل، جعل يتلفت و لا يرى شيئا مما كان له من أهل و مال، إلا و قد أضعفه الله له، حتى أن الماء الذي اغتسل به، تطاير على صدره جرادا من ذهب، قال: فجعل يضمه بيده، أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«بينما أيوب يغتسل عريانا خرّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب عليه الصلاة و السلام يحثو في ثوبه، فناداه ربه عز و جل، يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى، قال عليه الصلاة و السلام: بلى يا رب، و لكن لا أغني بي عن

ص: 219

1- تفسير الطبري 68/17-72، 166/23-167، تفسير ابن كثير 60/4، تفسير الفخر الرازي 214/26-215، تفسير روح المعاني 81/17، تفسير النسفي 43/4.

بركتك» (1)، انفرد بإخراجه البخاري من حديث عبد الرازق به (2)، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما عافى الله أيوب أمطر عليه جرادا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه، قال فقيل له: يا أيوب أما تشبع، قال يا رب: «و من يشبع من رحمتك» (3).

هذا وقد اختلف أهل التأويل في أهل أيوب الذين قال الله تعالى فيهم في سورة الأنبياء: وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وفي سورة ص: وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِثًّا، أهم أهله الذين أوتيتهم في الدنيا، أم ذلك وعد وعده الله أيوب أن يفعل به في الآخرة؟ فقال بعضهم: إنما أتى الله أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا، فإنهم لم يردوا عليه في الدنيا، وإنما وعد الله أيوب أن يؤتته إياهم في الآخرة (4)، أخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق جويبر الضحاك عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى:

وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ الْآيَةَ، قال: رد الله تعالى امرأته وزاد في شبابها حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا»، فالمعنى على هذا آتيناها في الدنيا مثل أهله عددا، مع زيادة مثل آخر (5)، أو أنهم أبناؤه فوهب الله له مثلهم، أو أنه وهب له أبناء وأحفادا (6)، وروى ابن جرير بسنده عن الليث قال: أرسل مجاهد رجلا يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لأيوب: وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ فقال: قيل له: أن أهلك لك في الآخرة، فإن شئت

ص: 220

1- مسند الإمام أحمد 2/ 314.

2- صحيح البخاري 1/ 78، تفسير ابن كثير 4/ 61، تفسير روح المعاني 17/ 81.

3- تفسير ابن كثير 3/ 303.

4- تفسير الطبري 17/ 72.

5- تفسير روح المعاني 17/ 81.

6- في ظلال القرآن 4/ 2392.

عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة، وأوتي مثلهم في الدنيا، قال: فرجع إلى مجاهد فقال أصاب» (1).

على أن هناك وجهاً آخر للنظر، ذهب إليه ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب والحسن البصري والسدي يقول إن الله تعالى أحيا له أهله، يعني أولادهم بأعيانهم، قال ابن مسعود: مات أولاده سبعة من الذكور، وسبعة من الإناث، فلما عوفي أحيا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات، وقال ابن عباس: لما دعا أيوب استجاب الله له، وأبدله بكل شيء ذهب له ضعفين، رد إليه أهله ومثلهم معهم، وفي روح المعاني:

قال ابن مسعود والحسن وقتادة في الآية: إن الله تعالى أحيا له أولاده الذين هلكوا في بلائه، وأوتي مثلهم في الدنيا، وقال الألويسي: و الظاهر أن المثل من صلبه عليه السلام أيضاً، ويميل الإمام الرازي إلى هذا الرأي الثاني لأنه هو الظاهر، فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة، غير أن صاحب الظلال يقول إنه ليس في النص ما يحتم أنه أحيا له من مات، وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين، وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية، مما يصلح ذكرى لذوي العقول والإدراك، ويقول الأستاذ الصابوني في صفوة التفاسير إن القول بأن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها، إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام، والصحيح أن الله تعالى عوّضه من زوجته أولادا مثل من فقدهم (2).

ص: 221

1- تفسير الطبري 72/17.

2- تفسير الفخر الرازي 210/22، 215/26، تفسير الطبري 72/17-73، 167/23-168، تفسير روح المعاني 81/17، تفسير ابن كثير 303/3-304، 61/4، تفسير النسفي 87/3، في ظلال القرآن 3022/5، صفوة التفاسير 272/2.

و أما قوله تعالى: وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرُبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُتْ إِنَّا وَ جَدْنَا صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (1)، فأما «الضغث» فهو ما يحمل من شيء مثل حزمة الرطبة، و كملء الكف من الشجر أو الحشيش و الشماريخ و نحو ذلك مما قام على ساق، و في تفسير النسفي هو حزمه صغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك، و عن ابن عباس: قبضة من الشجر، و عن قتادة: كانت امرأته قد عرضت له بأمر، و أرادها إبليس على شيء، فقال: لو تكلمت بكذا و كذا، و إنما حملها عليها الجزع، فحلف نبي الله: لئن الله شفاه ليجلدنها مائة جلدة، قال: فأمر بغصن فيه تسعة و تسعون قضيبا، و الأصل تكملة المائة، فضربها ضربة واحدة، فأبر نبي الله، و خفف الله عن أمته، و الله رحيم، و في رواية في تفسير النسفي: كان أيوب حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ، فحلل يمينه بأهون شيء عليه و عليها لحسن خدمتها إياه، و هذه الرخصة باقية، و يجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة، و السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة، فخرج صدره، و قيل باعت ذوابتيها برغيفين، و كانتا متعلق أيوب إذا قام، و يذهب الفخر الرازي إلى أنه يبعد ما قيل إنها رغبت في طاعة الشيطان، و يبعد أيضا أنها خالفت في بعض المهمات، و ذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برأ، و من ثم فرحمة من الله به و بزوجة التي قامت على رعايته و صبرت على بلائه و بلائها به، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدده، فيضربها به ضربة واحدة، تجزئ عن يمينه فلا يحث فيها (2).

و يذهب الرازي و النسفي إلى أن هذه الرخصة باقية، و هي اليوم في الناس

ص: 222

1- سورة ص: آية 44.

2- تفسير الطبري 23/168-169، تفسير النسفي 4/43، تفسير الفخر الرازي 26/215، في ظلال القرآن 5/3022.

يمين أيوب من أخذ بها فهو حسن، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى بمجذم خبث بأمة فقال: «خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة»، وهكذا أمر الله أيوب أن يبرّ يمينه بأهون شيء عليه وعليها، قال ابن كثير: وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة، المكابدة الصديقة، البارة الراشدة، ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعلّلها بقوله: إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ، ثم عقب ابن كثير على الرخصة بأن كثيرا من الفقهاء قد استعمل هذه الرخصة في باب الإيمان والندور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدوره بهذه الآية، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب (1).

[2] سفر أيوب:-

من المعروف أن لأيوب عليه السلام سفرا في العهد القديم (2)، ومكانه في الترجمة السريانية (3) بين سفري التثنية ويشوع، وقد اختلف الباحثون في السفر وفي صاحبه، فيرى فيه شراح التوراة القدامى تاريخا حقيقيا، وينسبه بعضهم إلى موسى عليه السلام، غير أن كثيرا من الباحثين يرون أن أيوب أقدم من موسى (4)، عليهما السلام، بل ويحددون له تاريخا حوالي عام 1520 قبل الميلاد (5)، غير أن هناك فريقا يذهب إلى أن أيام عاش على أيام يعقوب عليه السلام (1780-1633 ق. م) وقد تزوج من ابنته «دينه» (6).

ص: 223

- 1- تفسير الفخر الرازي 215/26، تفسير النسفي 4/43، البداية والنهاية 1/224-225.
- 2- انظر عن سفر أيوب (محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/67-73).
- 3- انظر عن الترجمة السريانية للتوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/115).
- 4- أنظر عن تاريخ موسى عليه السلام والآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/281-455).
- 5- باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة- القاهرة 1971 ص 315 (مترجم).
- 6- نفس المرجع السابق ص 315، ثم قارن: تفسير روح المعاني 17/80، تاريخ الطبري 1/322، البداية والنهاية 1/221.

كانوا فيما يبدو، من العرب، اليعازر من تيمان، و بلد كان شوحيا من منطقة السويس، فيما يرى فولتير، و صوفر كان من نعمات (1).

و منها (ثالثا) ما لاحظته الباحثون من ذكر «الجمال» عند الحديث على ثروة أيوب من الماشية، و نحن نعلم أن لحوم الإبل محرمة على اليهود، و أنها لم تذكر بين ثرواتهم إلا نادرا، بل إن اسم أيوب نفسه لا مثل له في أسماء العبريين (2)، و منها (رابعا) ما جاء في السفر من أن أيوب رجل من أرض «عوص»، و أرض «عوص» هذه، و إن اختلف العلماء في مكانها، فالراجح عندهم أنها في بلاد العرب، أو في مناطق يسكنها عرب (أي في نجد و عمان أو في شمال بلاد العرب، في شمال غربي المدينة المنورة، أو في بلاد الشام، في حوران أو في اللجاة، أو على حدود و أدوم أو في أدوم نفسها، أو في شرقي فلسطين أو جنوبها الشرقي) و بعبارة أخرى، فهي أما في شبه الجزيرة العربية أو في بادية الشام (3). و لعل تحديدها ببادية الشام ربما كان هو الأرجح، و ذلك لسببين، الأول: ما ذكره معظم المفسرين و المؤرخين من أن أيوب من ولد العيص، و هو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، و الذي كان يسمى كذلك «أدوم» (الأحمر) و إليه ينسب الآدوميون الذين كانوا يسكنون في أقصى بلاد شرق الأردن و جنوب وادي الحسا، و الثاني: ما جاء في حديث أبي ذر المشهور في ذكر الأنبياء و المرسلين، حيث يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: و أربعة من العرب: هود و صالح و شعيب

ص: 225

1- أيوب 11 / 2، حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي ص 55، و كذا، reinnraG- siraP euqihPosolihP eriannoitciD، 1954، p. 257-260. F. eriatloV.

2- حسن ظاظا: المرجع السابق ص 56.

3- جواد علي: المرجع السابق 1 / 631، قاموس الكتاب المقدس 1 / 148، و كذا. J. sgnitsaH. A, elbiB eht fo yranoitciD P، 200، 469.

الأمر الذي سبقهم إليه المصريون بآلاف السنين (1).

وعلى الجملة، و كما يقول الأستاذ العقاد، يبدو سفر أيوب غريبا في موضعه و موضوعه بين أسفار العهد القديم، و لم يكن من عادة بني إسرائيل أن يجمعوا كتابا لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم و ميعادهم، و لكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه في بقاع فلسطين الجنوبية، محفوظا يتذكره الرواة، و حسبه بعضهم من كلام موسى، و بعضهم من كلام سليمان و لا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب، حيث تسامع به الناس، فإنه عزاء للمتعزين، و عبرة صالحة للمعتبرين، و لا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة الدارجة في مصر و الشام (2).

و أما زمن كتابة سفر أيوب، فهو موضع خلاف بين الباحثين، فهناك من يرجحه إلى عصر الآباء الأوائل، بل إن «هاليس» إنما يجعل من عام 2300 ق. م تاريخا لأيوب، اعتمادا على أن السفر لم يشر بكلمة واحدة إلى خروج بني إسرائيل من مصر، و الذي نراه حوالي عام 1214 ق. م (3)، فضلا عن المدن التي دمرتها الزلازل وقت ذلك، كما أنه لم يرد في صلب السفر أي ذكر ليهوه رب إسرائيل، و إنما ورد ذلك في المقدمة و الذيل، و هما مضافان بعد عصره، كما هو راجح عند شراح التوراة (4).

على أن هناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أن سفر أيوب إنما كتب على أيام سليمان عليه السلام (960-922 ق. م)، و حججهم أنه يحمل بين ثناياه

ص: 227

1- حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس ص 153.

2- عباس العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء ص 163.

3- أنظر عن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر و الآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 357-439).

4- عباس العقاد: المرجع السابق ص 160-161، قاموس الكتاب المقدس 1/ 148.

إشارات من ذلك العهد (1)، على أن هناك وجهاً ثالثاً للنظر يذهب إلى أن السفر قد كتب قبل السبي البابلي (586-539 ق.م)، وربما في عصر النبي إرميا (626-580 ق.م) بالذات، ذلك لأن النبي حزقيال (593-572 ق.م).

(م) إنما يذكر رجلاً اسمه أيوب مثلاً للبر، مع نوح و دانيال (2)، وأن ذهب البعض إلى أن حزقيال لم يستق الفكرة من سفر أيوب في وضعه الحالي، ولعل صورة من القصة الثرية كانت في ذهن النبي عن رجل خرج مبرراً من أفسى تجربة، وأمر محنة جازها إنسان (3)، وأما الجزء الشعري من السفر، فيرجع إلى تاريخ متأخر، ذلك لأن الإيمان ياله واحد ثابت فيه بوضوح، فضلاً عن محاولته الجادة تبرئة نفسه من خطيئة عبادة الشمس والقمر، ووصفه لله القدير بأنه أعلى من في السموات، وأعمق من الهاوية، وأعرض من البحر، ولم يذكر شيئاً عن «البعل» وغيره من الآلهة الوثنية التي عبدتها الشعوب قبل السبي البابلي (4)، وأخيراً فهناك وجه رابع للنظر يذهب إلى أن سفر أيوب إنما كتب بعد السبي البابلي بسبب الصراع الواضح فيه بشأن الثواب والعقاب (5).

و أما لغة سفر أيوب ففيها تأثيرات آرامية وعربية لا تخطئها العين (6)، وربما تشير إلى تاريخ متأخر لكتابة السفر (7)، ومن ثم ذهب البعض إلى

ص: 228

-
- 1- قارن: أيوب 8/15، 14-1/26، بالإصحاح الثامن من سفر الأمثال (. P, tic- po, regnU. F. M (594).
 - 2- حزقيال 14/14.
 - 3- حبيب سعيد: المرجع السابق ص 153.
 - 4- أيوب 26/31-28، عباس العقاد: المرجع السابق ص 161، حبيب سعيد: المرجع السابق ص 153.
 - 5- قاموس الكتاب المقدس 148/1.
 - 6- P, tic- po, yremogtnoM. A. j 15، 8، وكذا. F. P, tic- po, htuoilograM. S. D 149.
 - 7- قاموس الكتاب المقدس 148/1.

أنه إنما كتب حوالي عام 400 ق. م (1)، وفضل آخرون القول بأنه كتب خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد (2).

وأيا ما كان الأمر، فإننا لا نعرف سفراً من أسفار التوراة ظفر في رأي النقاد بالإعجاب الأدبي، الذي ظفر به سفر أيوب، فقال «توماس كارليل» عنه: «إنه واحد من أجل الأشياء التي وعتها الكتابة، وإنه أقدم المأثورات عن تلك القضية التي لا تنتهي، قضية الإنسان والقدر، والأساليب الإلهية معه على هذه الأرض، ولا أحسب أن شيئاً كتب مما يضارعه في قيمته الأدبية»، وقال «فيكتور هيجو»: إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الإنسان»، وقال «شاف»: إنه يرتفع كالهرم في تاريخ الأدب، بلا سابقة وبغير نظير» (3).

ص: 229

1- .P, tic- po, regnU. F. M 594 .

2- حبيب سعيد: المرجع السابق ص 153.

3- عباس العقاد: المرجع السابق ص 162.

[1] إِيَّاس عَلَيْهِ السَّلَام: -

جاء ذكر إِيَّاس عَلَيْهِ السَّلَام فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ، فِي آيَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَفِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الصَّافَّاتِ (1)، أَوْلَاهُمَا ذِكْرٌ فِيهِ لَفْظُ «إِيَّاس»، وَفِي الثَّانِيَةِ ذِكْرٌ لَفْظِ إِيَّاسِينَ قَالَ تَعَالَى: سَلَامٌ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ إِيَّاسٍ، وَالْعَرَبُ تَلْحَقُ النَّوْنَ فِي أَسْمَاءِ كَثِيرَةٍ، وَتَبْدِلُهَا مِنْ غَيْرِهَا، كَمَا يُقَالُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْمَاعِينَ وَإِسْرَائِيلَ وَإِسْرَائِينَ، وَإِيَّاسَ وَإِيَّاسِينَ، وَهِيَ لُغَةٌ بَنِي أَسَدٍ (2)، وَيَقُولُ صَاحِبُ الظَّلَالِ: وَتَقِفْ هُنَا لِنَلْمِ بِالنَّاحِيَةِ الْفَنِيَّةِ فِي الْآيَةِ: سَلَامٌ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ، وَقَدْ رُوِّعِيَتِ الْفَاصِلَةُ وَإِيْقَاعُهَا الْمَوْسِيقِيُّ فِي إِرْجَاعِ اسْمِ إِيَّاسٍ بِصِيغَةِ «إِيَّاسِينَ» عَلَىٰ طَرِيقِ الْقُرْآنِ فِي مَلَاخِظَةِ تَنَاسُقِ الْإِيْقَاعِ فِي التَّعْبِيرِ (3).

هَذَا وَقَدْ ذَهَبَ فَرِيقٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ إِلَىٰ أَنَّ إِيَّاسَ هُوَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ إِسْحَاقَ يُقَالُ: إِيَّاسٌ هُوَ إِدْرِيسُ، وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِيَّاسٌ هُوَ إِدْرِيسُ،

ص: 231

1- سورة الأنعام: آية 85، الصافات: آية 123-132.

2- ابن كثير: البداية والنهاية 339/1، التفسير 31/4.

3- في ظلال القرمان 2998/5.

و كذا قال الضحّاك، على أن هناك فريقاً آخر، وهو أكثر المفسرين، يذهب إلى أن إلياس إنما هو نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، وهو إلياس بن ياسين من ولد هارون أخي موسى عليه السلام، وأن الله تعالى بعثه في بني إسرائيل بعد حزقييل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له «بعل» فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه (1).

ولعنا نستطيع القول، ولكن بحذر (2)، إن إلياس النبي عليه السلام الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، إنما هو «إيليا» (وهو صيغة مختصرة من إيلياهو بمعنى الله يهوه) الذي جاء ذكره في العهد القديم، معتمدين في ذلك على قصة هذا النبي الكريم، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم، فقصة التوراة تشير إلى عبادة «بعل» في إسرائيل على أيام الملك «أخاب» (869-850 ق. م) وزوجه «إيزابيل» الصورية، ثم معارضة إيليا العنيفة لهذه الوثنية الصورية ودعوته إلى عبادة الله (يهوه) رب إسرائيل (3)، وأما في القرآن الكريم، فقد ذكر إلياس عليه السلام في سورة الأنعام حيث يقول تعالى: وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (4)، وفي سورة الصافات، حيث يقول تعالى: وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي

ص: 232

1- تفسير النسفي 27/4، تفسير ابن كثير 30/4، تفسير الطبري 91/23-92، تفسير الفخر الرازي 161/26.

2- الأرجح، فيما يرى صاحب الظلال (2997/5) أنه النبي المعروف في العهد القديم باسم إيلياء.

3- ملوك أول 16/29-33.

4- سورة الأنعام: آية 85، وانظر: تفسير المنار 487/7-490، تفسير الطبري 508/11-510، تفسير ابن كثير 247/2-248.

الآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (1).

هذا وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ، فقال بعضهم: هو اسم إلياس، وأنه كان يسمى باسمين: إلياس وإياسين، مثل إبراهيم وإبراهيم، ويستشهد على ذلك أن ذلك كذلك بأن جميع ما في السورة من قوله «سلام»، فإنه سلام على النبي الذي ذكر دون آله، فكذلك إياسين إنما هو سلام على إلياس دون آله، أو كما ذكرنا من قبل أنه إلياس بن ياسين، فكان إلياس آل ياسين، على أن هناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أن المراد «آل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم»، فقد قرأ عامة قراء المدينة «سلام على آل ياسين» بقطع آل من ياسين، فكان بعضهم يتأول ذلك بمعنى سلام على آل محمد صلى الله عليه وسلم، بينما ذهب فريق ثالث أن ياسين اسم القرآن، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين (2).

هذا و يقدم العهد القديم قصة النبي الكريم في سفر الملوك الأول، فيروي أن «أخاب بن عمري» ملك إسرائيل، قد اقترب كل أنواع الشرور، التي اقتربها أسلافه من قبل، ولعل السبب في ذلك أن أخاب كان قد تزوج من «إيزابيل» بنت «إيشبعل» ملك صور، والتي كانت ذات شخصية قوية، و من ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها تماما، وقد أثار هذا الزواج

ص: 233

-
- 1- سورة الصافات: آية 123-132، وانظر: تفسير البضاوي 2/299، تفسير النسفي 4/27-28، تفسير روح المعاني 23/138-142، تفسير ابن كثير 4/30-32، تفسير القرطبي ص 5551-5554، تفسير الطبري 23/91-96، تفسير الفخر الرازي 26/160-162، تفسير الجلالين ص 398، تفسير القاسمي 14/5059-5061، تفسير مجمع البيان 23/80-82، (وانظر: الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص 223-229، أبو الحسن علي الماوردي: أعلام النبوة- القاهرة 1971 ص 52).
 - 2- تفسير الطبري 23/95-96، تفسير ابن كثير 4/31، تفسير الفخر الرازي 26/162.

معارضة قوية في إسرائيل، تزعمها النبي إيليا، ذلك لأن «إيزابيل» (1) الصورية لم تأت في الواقع لإسرائيل بأفكار الحكم المطلق الغربية عن التصور العبري التقليدي عن الملكية فحسب، وإنما حاولت كذلك احلال آلهة الفينيقيين الوثنية شيئاً فشيئاً محل عبادة الله في مملكة إسرائيل، و ليس هناك من ريب في أن إيزابيل و حاشيتها الصورية كانوا يمارسون ديانتهم

ص: 234

1- ليس صحيحاً ما ذهب إليه بعض المراجع العربية من أن هذه الملكة الصورية إيزابيل (أربيل كما يدعونها) ابنة ملك سبأ، و أنها تزوجت بعد أخاب (لأجب أو أجب كما يدعونه) سبعة من ملوك إسرائيل و قتلهم بالاغتيال، و أنها ولدت سبعين ولداً، و كانت معمرة، و أنها هي التي قتلت يحيى عليه السلام (الماوردي: أعلام النبوة ص 52، الثعلبي: قصص الأنبياء ص 224)، و ربما اختلط الأمر عليهم بين هذه الملكة إيزابيل الصورية، و بين ابنتها «عثليا» التي تزوجت من «يهورام» (849-842 ق. م) ملك يهوذا، و قد سيطرت على زوجها كأماً، و أدخلت عبادة «البعل» في يهوذا، كما جعلت القتل وسيلة من وسائل سياسة الدولة، و هكذا نتيجة لتأثيرها القوي و غير المحدود على زوجها، فإنه لم يحتضن عبادة «بعل» مدينة صور فحسب، بل إنه عقد العزم كذلك على تثبيتها كديانة رسمية للبلاد، و ربما لكي يزيل المعارضة عن هدفه في سياسة عبادة الأوثان، فقد قتل إخوته الستة، كما قتل كثيراً من النبلاء، و إن كان التنافس على العرش ربما لعب دوره في هذه المجزرة المروعة، و على أية حال، فلقد خلفه ولده أخزيا من عثليا ابنة إيزابيل و أخاب، و لكنه قتل بعد عام، فانتهزت عثليا الفرصة، و كانت شديدة الرغبة في الحكم، فقتلت أبناء الأسرة المالكة جميعاً (إلا طفلاً خبأه الكاهن الأكبر في المعبد) ثم أعلنت عبادة بعل صور كعبادة رسمية في العاصمة القدس و في جميع أنحاء البلاد، بل إن هناك من يذهب إلى أنها كانت تخطط لإقامة أسرة ملكية جديدة في القدس من وطنها صور، رغم أنها صورية الأم، إسرائيلية الأب، غير أن حياتها انتهت فجأة، أما بمؤامرة من الجيش أو بتمرد شعبي عام ضد عبادة البعل، الذي سادت عبادته في دويلتي إسرائيل و يهوذا، و إن اعتبرت عبادته في يهوذا عبادة رسمية تعتنقها الدولة نفسها، و أما قتلها ليحيى عليه السلام فغير صحيح، لأن عهودها يسبق عهد يحيى بما يقرب من ثمانية قرون و نصف القرن، كما أن الذي قتل يحيى عليه السلام إنما هو هيرودوس إرضاء لهيروديا و ابنتها سالومي، كما سنرى فيما بعد (ملوك ثان 8/8-22، 1/11، أخبار أيام ثان 1/21-10، 10/22، إنجيل متى 3/14-12، مرقس 16/6-30، تاريخ يوسفوس ص 214، محمد بيومي مهران: إسرائيل 916/2، 960-694، و كذا-. P, tic- po, sdOL. A 385- 384. P, tic- po, nietspE. I 47 و كذا. P, tic- po, htoR. C 32 و كذا.

الصوربة الوثنبة فب معبء أنشب فب «السامرة» (1) نفسها من أبل هذا الغرض (2).

وعلى أى حال، فلم تكن هذه الالبانات هب عبابة الءولة الرسمية، فقد ظلت عبابة الله هب العبابة الرسمية، وإن كان الملك نفسه، فبما تروى التوراة، قء عبء «البعل» و سبء له (3)، كما أن ووب هذه الالبانة الأبنببة و عبابتها فب العاصمة السامرة، قء آثار مقاومة التقالب القببمة الصارمة للقبائل الإسرابلببة البب كانت تعبء ءبمة «ببوه» هو هءفها النهائي (4)، و قء تزعم النبب «إبلبا» البورة ءبء أءاب و زوبه إبزاببل اللببن ببها لإلباء عبابة الله، و اءلال عبابة البعل فب مكانها، فهءما مءابب رب إسراببل و قءلا أنبباء، و من ثم فقء انءفع إبلبا فب طول البلاد و عرضها كالإعصار مهءءا مءوعءا بأنه لا ظل و لا مطر فب هذه السنبن، و فب السنة البالبة بقول الرب لإبلبا «اذهب و تراء لأءاب فأعطبب مطرا على و بب الأرض» (5).

و مع أن المببابة كانت شببءة فب كل مكان، إلا أنها كانت فب السامرة أشء قسوة، و أعنف ضراوة، و بطلب النبب إبلبا من أءاب أن بءعو كل

ص: 235

1- ءكم عمرى والب أءاب إسراببل من «ترزة» و لكنه فب عام ءكمه السادس (ءوالب عام 870 ق.م) أقام عاصمة إسراببل البببءة فب «السامرة»، و هب بسبسطة البالببة على مبعءة ستة أمبال شمال غرب شكبم شرقب نابلس، فب موبع اسءرابببب هام، و قء سمبب السامرة نسبة إلى شامر صاحب البل الببب فوبه، و إن رأى البعب أن الاسم بمعبى مركز المراقبة أو ببب المراقبة و قء قامت عءة هبببب علمببة ببفرببب فب السامرة، لعل أهمها ما كان فب أعوام 1908/1910، 1931/1933، 1935 (أنظر البفصبلاب و المارببب: مءمء ببومب مهران: إسراببل 2/900-902).

2- ب. كوئبببب: البصارة الفببببببة ص 74، و انظر بفسبب الببببب 23/92-93.

3- ملوك أول 16/31.

4- .242 . P, tic- po, htoN. M.

5- ملوك أول 17/1-19/21، إنببب لوباب 4/25-26، رسالة بعبوب 5/17.

إسرائيل إلى جبل الكرمل، حيث يلتقي هناك سدنة البعل، و عددهم 450 سادنا، وكذا سدنة السواري (1) الذين يعيشون على مائدة إيزابيل، عددهم 400 سادنا، وأصدر أخاب أمره الملكي باستدعاء «جميع بني إسرائيل وجميع الأنبياء إلى الكرمل»، و طلب منهم إيليا أن يدعو بعولهم وأصنامهم أن تنزل عليهم المطر، فإن استجاب، فهم على حق، وإن لم تستجب، فهم على باطل، فدعوا فلم تستجب لهم، و دعا إيليا ربه فاستجاب له، و أرسل الله المطر فأغاثهم، فحييت بلادهم و فرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، ثم أمر إيليا القوم أن «امسكوا أنبياء البعل، و لا يفلت منهم رجل، فأمسكوكم فنزل بهم إيليا إلى نهر «ميشون» (نهر المقطع في وسط سهل مرج ابن عامر) و ذبحهم»، و تسمع إيزابيل بما حدث، و في غضب مريع تنذر قتل إيليا، (انتقاما منه لقتله كهنة البعل، و لكن إيليا يترك إسرائيل إلى جبل حوريب، بعد أن يعهد إلى حواريه «اليسع» الذي يتولى الدعوة من بعده (2).

هذا و قد اختلفت المصادر العربية في عبادة البعل (3) و مكانها، قال ابن .

ص: 236

1- انظر عن السواري و أهميتها الدينية في إسرائيل (محمد بيومي مهران: إسرائيل 4/ 123-124).

2- ملوك أول 1/ 18-17/ 19، و انظر: تاريخ الطبري 1/ 462-464 (بيروت 1984).

3- البعل: و جمعه بعليم أو بعالميم، و هو اسم سامي بمعنى، «سيد أو رب أو زوج»، و قد جرى بعض الباحثين على اعتبار «بعل» إلها و ثنيا معيننا، و هذا فيما يرى كونتنو، خلط يحسن أن يزول، فإن اللفظ يطلق على الآلهة الوثنية بوجه عام، فيما عدا إطلاقه في نصوص رأس الشمرا على الإله الوثني الأكبر «بعل»، فيقال، فيما عدا ذلك، بعل هذا الإقليم أو ذلك مثل بعل صور، و بعل لبنان، بمعنى سيد صور و سيد لبنان، و بما أنه كان لأغلب المدن الفينيقية بعولة يقدسونها، فكل بعل يوصف في الغالب باسم المكان الذي يعبد فيه، مثل «بعل روش» (سيد الرأس) و بعل آسافون (سيد الشمال) و بعل شمين (سيد السماوات)، و بعل لبنان (سيد لبنان)، كما كان الاسم من أسمائه يتدئ غالبا ببعل و ينتهي باسم تلك البلاد أو المدينة الموجود فيها أو بشيء ينسب إليه، مثل بعل فعور، و بعل زبوب، و بعلبك، و كان بعل إلها و ثنيا كنعانيا فينيقيا، و هو، في عقيدة القوم، ابن الإله إيل، و زوج الآلهة بعلة أو عشيرة أو عنات أو عشتارت، و كان إله المزارع و رب الخصب في الحقول و المواشي، كما كان يتولى أمر القمم العالية و العواصف و الرعد و المطر، و يصور على هيئة محارب ذي خوذة ممسك بيده صاعقة أمور، مما يجعل هويته نفس هوية الإله الكبير المعروف في سورية العليا ولدى الحثيين و الحوريين أيضا، و هو على الجملة إله أسيوي، و قد أولع أهل المشرق بعبادة البعل فكان يضحون بالذبائح البشرية على مذابحه، و يقيمون هياكله على الأماكن المرتفعة كالجبال و التلال، و قد صار البعل بعد ذلك عشرة للإسرائيليين الذين كسروا شريعة الله تعالى حين أدخلوا عبادته إلى بلادهم، كما كان للبعل كهنة كثيرون يخدعون الناس بسحرهم و شعوذتهم، كما رأينا في قصة إيليا، كما روتها توراة اليهود (كونتنو: الحضارة الفينيقية ص 104، 119-120، قاموس الكتاب المقدس 1/ 181-182).

عباس و مجاهد و عكرمة و قتادة و السدي: بعلا يعني ربا، قال عكرمة و قتادة:

و هي لغة أهل اليمن، و في رواية عن قتادة هي لغة أزد شنوءة، و قال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم عن أبيه هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق، و قال الضحاک هو اسم صنم كانوا يعبدونه، و في تفسير النسفي: بعل اسم صنم من الذهب كان موضعه يقال له «بك» فركب و صار «بعلبك» و هي من بلاد الشام، و قال الرازي في التفسير الكبير: في بعل قولان، أحدهما: أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة و هبل، و قيل كان من ذهب، و كان طوله عشرين ذراعا، و له أربعة أوجه، و فتوا به و عظموه، حتى عينوا له أربعمئة سادن و جعلوهم أنبياء، و باسم هذا الصنم سميت مدينتهم بعلبك، و ثانيهما: أن البعل هو الرب بلغة اليمن، يقال: من بعل هذه الدار، أي من ربها، و سمي الزوج بعلا لهذا المعنى، قال تعالى:

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ، و قال تعالى: وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا فَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الْمَعْنَى: أ تعبدون بعض البعول و تتركون عبادة الله؟ و قال صاحب الظلال إن إلياس أرسل إلى قوم في سورية كانوا يعبدون صنما كانوا يسمونه بعلا، و ما تزال آثار مدينة بعلبك تدل على آثار هذه العبادة (1).

ص: 237

1- تفسير الفخر الرازي 161/26، تفسير النسفي 28/4، تفسير ابن كثير 31/4، في ظلال القرآن 2997/5.

وقال ابن إسحاق: سمعت بعض أهل العلم يقول: ما كان بعل إلا امرأة يعبدونها من دون الله، يقول الله لمحمد: وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ- إلى قوله: اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فجعل إلياس يدعوهم إلى الله، وجعلوا لا يسمعون منه شيئا، ألا ما كان من ذلك الملك، والملوك متفرقة بالشام، كل ملك له ناحية منها يأكلها، فقال ذلك الملك الذي كان إلياس معه يقوم له أمره، و يراه على هدى من بين أصحابه، يوما يا إلياس: والله ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلا، والله ما أرى فلانا و فلانا، يعدد ملوكا من ملوك بني إسرائيل قد عبدوا الأوثان من دون الله، إلا على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون وينعمون مملكين، ما ينقص دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل، و ما نرى لنا عليهم من فضل، فيزعمون والله أعلم، أن إلياس استرجع وقام شعر رأسه و جلده، ثم رفضه و خرج عنه، ففعل ذلك الملك فعل أصحابه: عبد الأصنام، و صنع ما يصنعون، فقال إلياس: اللهم إن بني إسرائيل قد أبوا إلا أن يكفروا بك، و العبادة لغيرك فغير ما بهم من نعمتك»، قال (أي ابن إسحاق) فذكر لي أنه أوحى إليه: إنا قد جعلنا أمر أرزاقهم بيدك وإليك، حتى تكون أنت الذي تأذن في ذلك، فقال إلياس:

اللهم فامسك عليهم المطر، فحبس عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية و الهوام و الدواب و الشجر و جهد الناس جهدا شديدا، و في رواية عن وهب ابن منبه: أنهم سألوه أن يكشف ذلك عنهم و وعدوه الإيمان، أن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر فسأل الله أن يقبضه إليه، و كان قد نشأ على يديه «اليسع بن أخطوب» عليهما السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا و كذا، فمهما جاءه فليركبه و لا يهبه، فجاءته فرس من نار، فركب و ألبسه الله تعالى النور و كساه الريش، و كان يطير مع الملائكة إنسيا سماويا أرضيا، و في تفسير النسفي: قيل في إلياس و النخضر إنهما حيان، و قيل إلياس و كل بالفيافي،

كما وكل الخضر بالبحار، والحسن يقول: قد هلك إلياس والخضر، ولا تقول كما يقول الناس: أنهما حيان (1).

وأما متى كان عصر إلياس عليه السلام، فالثابت من نصوص العهد القديم، وبعض المصادر العربية، فضلا عن المؤرخين المحدثين، أن إلياس إنما أرسل إلى بني إسرائيل على أيام الملك أخاب بن عمري، ملك إسرائيل في الفترة (869-850 ق.م) (2)، أي أن إلياس عليه السلام كان يعيش في القرن التاسع قبل الميلاد، وربما في النصف الأول من هذا القرن التاسع ق.م.

[2] اليسع عليه السلام:-

أوجز القرآن الكريم عن حياته عليه السلام فلم يذكر عنها شيئا، و اكتفى بذكره بين مجموعة الأنبياء الكرام البررة الذين يجب الإيمان بهم إجمالا، وذلك في سورتي الأنعام و ص، يقول الله تعالى: **وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَ لُوطًا وَ كَلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ،** ويقول تعالى: **وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (3).**

و اليسع، في روايات العهد القديم، هو «اليسع بن شافاط» (4)، وفي

ص: 239

1- تفسير الطبري 23/ 93-94، تفسير ابن كثير 4/ 31، تاريخ الطبري 1/ 463-464، تفسير النسفي 1/ 28.

2- أنظر عن عهد أخاب (محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 903-913).

3- سورة الأنعام: آية 86، سورة ص: آية 48، وانظر: تفسير الطبري 11/ 510-512، 23/ 172-173، تفسير الفخر الرازي 13/ 64-

65، 26/ 216-217، تفسير روح المعاني 7/ 218-219، 23/ 211-212، تفسير ابن كثير 2/ 247-248، 4/ 62، تفسير الكشاف

2/ 34، تفسير البيضاوي 2/ 312، تفسير المنار 7/ 487-491 تفسير القرطبي ص 2467-2469، 5662-5663، تفسير أبي السعود

2/ 245.

4- ملوك أول 19/ 16.

المصادر العربية، هو «اليسع بن أخطوب» من سبط أفرايم، وقيل ابن عم إلياس، وقال ابن عساكر: اسمه أسباط بن عدي بن شوليم بن أفرايم (1)، وفي تفسير الطبري: أن إلياس عند ما دعا على بني إسرائيل، فحبس المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والهوام والدواب والشجر و جهد الناس جهدا شديدا، استخفى إلياس عن الناس شفقة على نفسه منهم، ثم إنه آوى ليلة إلى امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له «اليسع بن أخطوب»، به ضرّ، فأوته وأخفت أمره، فدعا إلياس لابنها فعوفي من الضرّ الذي كان به، و اتبع اليسع إلياس، فأمن به و صدقه و لزمه، فكان يذهب معه حيثما ذهب (2).

ويذهب بعض المفسرين إلى أن «اليسع» معرب الإسم العبراني «يوشع» فهو اسم أعجمي دخلت عليه لام التعريف، على خلاف القياس، بينما ذهب آخرون إلى أنه اسم عربي منقول من «يسع» مضارع «وسع»، وأنه من ولد إسماعيل عليه السلام، ويذهب صاحب تفسير المنار إلى أنه تعريب «اليشع»، وهو أحد «أنبياء بني إسرائيل و كان خليفة إلياس (إيليا) و من المعهود في نقل الإسم العبري إلى العربي إبدال الشين المعجمة بالمهملة (3)، وهذا ما نميل إليه و نرجحه، روى عن وهبه بن منبه أن الله قبض حزقييل و عظمت في بني إسرائيل الأحداث، و نسوا ما كان من عهد الله إليهم، حتى نصبوا الأوثان و عبدوها دون الله، فبعث الله إليهم إلياس من ولدها هارون نبيا و إنما كانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة، فكان إلياس مع ملك من ملوك بني إسرائيل يقال).

ص: 240

1- تاريخ ابن خلدون 2/ 129-130.

2- تفسير الطبري 23/ 93.

3- تفسير المنار 7/ 490-491 (القاهرة 1974)، تفسير القرطبي ص 2468-2469 (القاهرة 1970).

له «أحاب» كان اسم امرأته «أربل»، وكان يسمع منه و يصدقه، وكان إلياس يقيم له أمره، وكان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنما يعبدونه من دون الله يقال له «بعل» (1).

وقد جاءت قصة اليسع (اليشع) مفصلة في سفر الملوك الثاني (2-9) من العهد القديم، وعاش على أيام ملك إسرائيل «يهورام» (849-842 ق).

م) آخر ملوك أسرة عمري، وتقرأ في سفر الملوك الأول أن الرب أمر إيليا أن «امسح اليشع بن شافاط من آبل محوله، نبيا عوضا عنك»، فذهب إيليا و وجد اليشع «يحرث و اثنا عشر فدان بقرا قدامه و هو مع الثاني عشر، فمر إيليا و طرح رداءه عليه، فترك البقر و ركض وراء إيليا و قال: دعني أقبل أبي و أمي و أسير وراءك، فقال له اذهب راجعا لأنني ما ذا فعلت لك، فرجع من ورائه و أخذ فدان بقرا و ذبحهما و سلق اللحم بأدوات البقر، و أعطى الشعب فأكلوا، ثم قام و مضى وراء إيليا و كان يخدمه» (2)، ثم تولى الدعوة إلى الله تعالى بعد إلياس كما سار على نهجه و شريعته.

ص: 241

1- تفسير الطبري 92/23-93، تاريخ الطبري 1/461.

2- ملوك أول 19/16، 19-21.

جاء ذكر زكريا و ولده يحيى عليهما السلام في عدة سور من القرآن الكريم، منها ما جاء في سورة آل عمران في قوله تعالى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (1)، وفي قوله تعالى في سورة مريم: ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا، يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا، قَالَ رَبِّ

ص: 243

-
- 1- سورة آل عمران: آية 37-41، و انظر: تفسير النسفي 1/155-157، تفسير روح المعاني 3/139-154، تفسير الطبري 3/243-262، في ظلال القرآن 1/393-396، تفسير الفخر الرازي 8/29-42، تفسير ابن كثير 1/539-542، البداية و النهاية 2/47-55، صفوة التفاسير 1/199-201، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 1/181-182، تفسير القرطبي ص 1314-1324.

أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا، قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا، فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا، يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (1)، كما جاء ذكرهما في سورتي الأنعام (آية 85) والأنبياء (الآيات 89-90).

و لعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك بين القصة، كما جاءت في سورتي آل عمران و مريم، بعض المقابلات، منها (أولاً) أن الله تعالى بين في سورة مريم أن زكريا دعا ربه و لم يبين الوقت، بينما بيّنه في آل عمران بقوله تعالى: كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، و المعنى أن زكريا لما رأى خرق العادة في حق مريم طمع فيه في حق نفسه فدعا، و منها (ثانيا) أن الله تعالى صرح في آل عمران بأن المنادى هو الملائكة لقوله تعالى: فَنادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ، و في سورة مريم الأظهر أن المنادى بقوله تعالى: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ هُوَ اللَّهُ تعالى، و لا- منافاة بين الأمرين، و منها (ثالثا) أنه قال في آل عمران: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ، فذكر أولاً كبير نفسه، ثم عمر المرأة، و في سورة مريم قال: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، و جوابه أن الواو لا تقتضي الترتيب، و منها (رابعا) قال

ص: 244

1- سورة مريم: آية 2-15، تفسير روح المعاني 16/58-74، تفسير الطبري 16/45-59، في ظلال القرآن 4/2301-2304، تفسير الفخر الرازي 21/179-194، تفسير النسفي 3/28-30، تفسير ابن كثير 3/179-185.

تعالى في آل عمران؛ آيَتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا، وفي مريم: ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا، وقد دلت الآيتان أن المراد ثلاثة أيام بلياليهنَّ (1).

هذا وقد كان زكريا قد كفل مريم أم المسيح عليهم السلام، بعد وفاة أبيها عمران، فقد كان زوجها لخالتها، أو أختها، على الأرجح، كما سنرى إن شاء الله فيما بعد عند الحديث عن مريم البتول، واتخذ لها محرابا (2)، وهو المكان الشريف في المسجد، لا يدخله عليها أحد سواه، وقد شاء الله تعالى أن يطلعه على كرامة مريم، وجيل قدرها، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا: قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وكان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عتيا، وكانت امرأته عاقرا، قال ابن عباس: كان ابن عشرين و مائة سنة، وكانت امرأته بنت تسع و تسعين (3)، فلما رأى من كرامات الله تعالى).

ص: 245

1- تفسير الفخر الرازي 195/21.

2- المحراب: هو الموضع العالي الشريف، واحتج الأصمعي على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى: إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، والتسور لا يكون إلا من علو، وقيل المحراب أشرف المجالس وأرفعها، قال أبو عبيدة: سيد المجالس وأشرفها ومقدمها، وكذلك هو من المسجد، بل هو المكان الشريف في المسجد أو موقف الإمام، ويقول الألويسي: اعلم أن الصلاة في المحاريب المشهورة الموجودة الآن في مساجد المسلمين قد كرهها جماعة من الأئمة، وإلى ذلك ذهب سيدنا الإمام على كرم الله وجهه في الجنة، وإبراهيم رحمه الله، فيما أخرجه عنهما ابن أبي شيبة، وهي من البدع التي لم تكن في العصر الأول، فعن أبي موسى الجهني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى»، وعن عبد الله بن أبي الجعد قال: «كان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقولون: إن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح في المساجد»، وعن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا هذه المذابح»، يعني المحاريب، والروايات في ذلك كثيرة، ولالإمام السيوطي رسالة مستقلة فيها (تفسير روح المعاني 146/3، تفسير الفخر الرازي 30/8، تفسير البحر المحيط 433/2).

3- تذهب رواية أخرى إلى أن سن زكريا كان مائة، و سن زوجته تسعا و تسعين، وقيل كان له من العمر تسع و تسعون، وقيل اثنتان و تسعون، وقيل خمس و ثمانون، وقيل خمس و سبعون، وقيل سبعون، وقيل ستون (تفسير الفخر الرازي 39/8، 217/22، تفسير روح المعاني 149/3).

لمريم، البنية الصالحة المرزوقة، طمع في فضل الله ورحمته، يقول الفخر الرازي: و الجمهور الأعظم من المحققين و المفسرين أن زكريا عليه السلام رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء، و من فاكهة الشتاء في الصيف، فلما رأى خوارق العادات عندها طمع في أن يخرقها الله تعالى في حقه أيضا، فيرزق الولد من الزوجة الشبيخة العاقر (1)، و من ثم فقد أخذت تحرك في نفسه، و هو الشيخ الذي لم يوهن ذرية، تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية، الرغبة في الذرية، و في الامتداد و في الخلف، و تلك الرغبة التي لا تموت في نفوس العباد الزهاد الذين وهبوا أنفسهم للعبادة و نذروها للهيكال، إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لحكمة عليا في امتداد الحياة و ارتقاءها (2)، و من ثم فإنه يتوجه إلى ربه يناجيه، و يطلب منه أن يهب له من لدنه غلاما تقيا يرثه النبوة و هداية بني إسرائيل، و يجعله من عباده الصالحين:

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ (3) وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (4).

و هكذا تشير الآيات الكريمة إلى أن زكريا يشكو إلى ربه و هن العظم،

ص: 246

1- تفسير الفخر الرازي 8/ 32-33.

2- في ظلال القرآن 1/ 393.

3- اتفق أكثر المفسرين على أن «يعقوب» هنا، هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فإن زكريا من ولد هارون من نسل لاوى بن يعقوب، و كان متزوجا من أخت مريم بنت عمران، و هي من ولد سليمان بن داود من نسل يهوذا بن يعقوب، و إن ذهب آخرون (الكليبي و مقاتل) أن يعقوب هنا، هو يعقوب بن ماثان أخو عمران و ولد مريم البتول، بينما ذهب فريق ثالث إلى أنه أخو زكريا نفسه (روح المعاني 16/ 62).

4- سورة مريم: آية 4-6، و انظر: آل عمران: آية 38-41.

و حين يهن العظم يكون الجسم كله وهن، فالعظم هو أصلب ما فيه و هو قوامه الذي يقوم به و يجتمع عليه، و يشكو إليه اشتعال الرأس شيئا، و التعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل، و يجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد، و وهن العظم و اشتعال الرأس شيئا كلاهما كناية عن الشيخوخة و ضعفها الذي يعانیه زكريا و يشكوه إلى ربه، و هو يعرض عليه حاله و رجائه، ثم يعقب عليه بقوله: **وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** معترفا بأن الله قد عوّده أن يستجيب إليه إذا دعا، فلم يشق مع دعائه لربه، و هو في فتوته و قوته، فما أحوجه الآن في هرمه و كبرته أن يستجيب الله له و يتم نعمته عليه، و هذا و قد جاء في بعض الآثار أن العبد إذا قال في دعائه: يا رب، قال الله سبحانه و تعالى له: لبيك عبدي، و روى أن موسى عليه السلام قال يوما في دعائه: يا رب، فقال سبحانه و تعالى له: لبيك يا موسى، فقال موسى: أ هذا لي خاصة، فقال الله تبارك و تعالى: لا، و لكن لكل من يدعوني بالربوبية، و قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه، فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه و صفاته عز و جل (1).

هذا و قد اختلف العلماء في قوله تعالى: **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا**، يرثي و يرث من آل يعقوب و اجعله رب رضى (2)، فأما «الموالي»، فيما يروي عن ابن عباس و مجاهد، عصة الرجل، و عن ابن عباس أيضا و الحسن البصري: ورثته، و عن أبي صالح: الكلالة (3)، و عن الأصم بنو العم، و هم الذين يلونه في النسب،).

ص: 247

1- في ظلال القرآن 4/ 2302، روح المعاني 16/ 59-61.

2- سورة مريم: آية 5-6.

3- الكلالة: المراد هنا من يرثه من حواشيه، لا أصوله و لا فروع، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، أنه سئل عن الكلالة، فقال أقول فيها برأي، فإن يكن صوابا فمن الله، و إن يكن خطأ فمني و من الشيطان، و الله و رسوله بريئان منه، الكلالة: من لا ولد له، و لا والد، فلما ولي عمر رضي الله تعالى عنه، قال إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأيه، و روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن طاوس قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت آخر الناس بعمر فسمعته يقول: الكلالة من لا ولد له و لا والد، و هكذا قال الإمام علي و ابن مسعود، و به يقول الشعبي و النخعي و الحسن البصري و قتادة و جابر بن زيد و الحكم، و به يقول أهل المدينة و الكوفة و البصرة، و هو قول الفقهاء السبعة و الأئمة الأربعة و جمع السلف و الخلف، و قد حكى الإجماع عليه غير واحد، و إن روى عن ابن عباس أيضا أنه من لا ولد له، و الصحيح الأول (تفسير ابن كثير 1/ 693، تفسير الطبري 4/ 283-289).

وعن أبي مسلم المولي يراد به الناصر، وابن العم و المالك و الصاحب، و هو هنا من يقوم بميراثه مقام الولد، و المختار أن المراد من المولي الذين يخلفون بعده، إما في السياسة أو في المال الذي كان له في القيام بأمر الدين، فقد كانت العادة جارية أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب، فإنه كان متعينا في الحياة، و على أي حال، فهم على سائر الأقوال شرار بني إسرائيل فخاف عليه السلام أن لا يحسنوا خلافته في أمته، و كان زكريا يخشاهم ألا- يقوموا على تراثه بما يرضاه، و تراثه هو دعوته التي يقوم عليها، و هو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين، و أهله الذين يرعاهم، و منهم مريم البتول التي كان قيما عليها و هي تخدم المحراب الذي يتولاه، و ماله الذي يحسن تديره و إنفاقه في وجهه، و هو يخشى المولي من وراثه على هذا التراث كله، و يخشى ألا يسيروا فيه سيرته، لأنه يعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث (1)، على أن هناك من يرى احتمال أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه لم يبق من أنبياء بني إسرائيل نبي له أب إلا واحد، فخاف أن يكون ذلك من بني عمه، إذ لم يكن له ولد، فسأل الله تعالى أن يهب له ولدا يكون هو ذلك النبي، و ذلك يقتضي أن يكون خائفا من أمر يهتم بمثله الأنبياء، و إن لم يدل على تفصيل ذلك، و لا يمتنع أن زكريا كان إليه، مع النبوة، السياسة من جهة الملك و ما يتصل بالإمامة، فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما، و من أجل ذلك

ص: 248

1- تفسير الفخر الرازي 182/21، في ظلال القرآن 4/2302.

دعا زكريا أن يهبه من لدنه وليا، أي ولدا من صلبه، ويؤيده (أولا) قوله تعالى في آل عمران حكاية عنه: قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، و (ثانيا) قوله تعالى في سورة مريم: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، و (ثالثا) قوله تعالى في الأنبياء: رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا، وهذا يدل على أنه سأل الولد، لأنه قد أخبر في سورة مريم أن له موالى، وأنه غير منفرد عن الورثة، وهذا، وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه، لكن حمله على الولد أظهر (1).

و أما قوله تعالى: يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، فقد اختلف العلماء في المراد بالميراث هنا على وجوه، أحدهما: أن المراد بالميراث في الموضوعين هو وراثته لمال، وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك، و ثانيهما: المراد في الموضوعين وراثته النبوة، وهو قول أبي صالح، و ثالثها:

يرثني المال (2)، و يرث من آل يعقوب النبوة، وهو قول السدي ومجاهد والشعبي، و روى أيضا عن ابن عباس والحسن البصري والضحاك، و عن أبي صالح قال: يرث مالي من آل يعقوب النبوة، وفي تفسير الطبري: يرثني من بعد وفاتي مالي، و يرث من آل يعقوب النبوة، و ذلك أن زكريا كان من ولد يعقوب، و رابعها: يرثني العلم و يرث من آل يعقوب النبوة، وهذا مروى عن مجاهد، و قال البيضاوي: المراد وراثته الشرع و العلم، فإن الأنبياء لا يورثون مالا، و قال النسفي: أي هب لي ولدا وارثا مني العلم و من آل يعقوب النبوة، و معنى وراثته النبوة أنه يصلح لأن يوحى إليه، و لم يرد أن نفس النبوة تورث، كما أشرنا من قبل إلى ذلك مرارا، و يقول الفخر الرازي: أن هذه

ص: 249

1- تفسير الفخر الرازي 183/21.

2- جاء في تفسير ابن كثير (1/179-180): وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا يأكل من عمل يده في التجارة، و من ثم فلم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب يده، و مثل هذا لا يجمع مالا، و لا سيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الروايات ترجع إلى أحد أمور خمسة وهي المال و منصب الحبورة و العلم و النبوة و السيرة الحسنة، و لفظ الإرث مستعمل في كلها، أما في المال، فلقوله تعالى: **أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ**، و أما في العلم فلقوله تعالى:

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ، و قال صلى الله عليه و سلم:

العلماء و رثة الأنبياء، و إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً و لا درهما و إنما ورثوا العلم»، و ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «لا نورث ما تركناه صدقة»، و في رواية عن الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»، و قال تعالى: **وَ وَرَثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ**، و هذا يحتمل وراثة الملك و النبوة، و على أي حال، فلقد ثبت أن اللفظ محتمل لكل تلك الوجوه (1).

هذا و قد احتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر و المعقول، فأما الخبر فلقد أخرج ابن جرير في التفسير بسنده عن الحسن قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من و رثة ماله حين يقول فهب لي من لدنك وليا، يرثني و يرث من آل يعقوب»، و عن قتادة: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه و سلم كان إذا قرأ هذه الآية، و أتى على «يرثني و يرث من آل يعقوب»، قال: رحم الله زكريا ما كان عليه من و رثته (2)، و ظاهر ذلك يدل على أن المراد إرث المال، و ثانيهما: أنه قال «و اجعله رب رضىا»، و لو كان المراد من الإرث إرث النبوة، لكان سأل جعل النبي رضىا، و هو غير جائز، لأن النبي لا يكون إلا رضىا معصوما، و أما قوله صلى الله عليه و سلم: «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»، فهذا لا يمنع أن يكون خاصا به، و أما من حمله على العلم أو المنصب و النبوة، فقد احتج بما علم من حال الأنبياء أن اهتمامهم لا يشتد).

ص: 250

1- تفسير البيضاوي 14/2، تفسير الفخر الرازي 184/21، تفسير النسفي 29/3، تفسير ابن كثير 180/3.

2- تفسير الطبري 48/16 (بيروت 1984).

بأمر المال، كما يشتد بأمر الدين، وقيل لعله أوتي من الدنيا ما كان عظيم النفع في الدين، فلهذا كان مهتما به (1).

هذا وقد استدل الشيعة بالآية (يرثي ويرث من آل يعقوب) على أن الأنبياء عليهم السلام تورث عنهم أموالهم، لأن الوراثة حقيقة في وراثة المال، ولا داعي إلى الصرف عن الحقيقة، وقد ذكر الجلال السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي صالح أنهم قالوا في الآية: يرثي مالي، وأخرج عبد الرزق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم قال في الآية: «يرحم الله تعالى أخي زكريا ما كان عليه من ورثة»، وفي رواية: ما كان عليه ممن يرث ماله»، وقال بعضهم: إن الوراثة ظاهرة في ذلك ولا يجوز هاهنا حملها على وراثة النبوة لئلا يلغوا قوله: وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا، ولا على وراثة العلم لأنه كسبي، والموروث حاصل بلا كسب، ومذهب أهل السنة أن الأنبياء عليهم السلام لا يرثون مالا، ولا يرثون، لما صح عندهم من الأخبار (2).

وعلى أي حال، فإن زكريا، النبي الصالح، إنما يختم دعاءه:

وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا، وهكذا يصور أمه في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبرته بأن يجعله الله تعالى رضى، لا جبارا ولا غليظا، ولا متبطرا ولا طموعا، ولفظه «رضى» إنما تلقي هذه الظلال، فالرضى هو الذي يرضى ويرضى، وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله، يقول الطبري: واجعل يا رب الولي الذي تهبه لي مرضيا مرضاه أنت ويرضاه عبادك، دينا وخلقاً وخلقاً (3).

ويتقبل الله، سبحانه تعالى، دعاء عبده زكريا، وتحدث الاستجابة

ص: 251

1- تفسير الفخر الرازي 184/21.

2- تفسير روح المعاني 64/16 (بيروت 1978).

3- في ظلال القرآن 2302/4، تفسير الطبري 49/16.

التي لا تتقيد بسنن، ولا تتقيد بمألوف الناس، لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد: فَنادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (1)، وهكذا بشرت الملائكة زكريا عليه السلام بمولود ذكر، اسمه معروف قبل مولده (يحيى)، وفي آية أخرى: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (2)، وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد لوعده الله تعالى لزكريا عليه السلام، وتشريف ليحيى عليه السلام حيث تولى الله تعالى تسميته، ومن المعروف عادة أن كل الناس إنما يسميهم آبائهم وأمهاتهم بعد مولدهم، وأما يحيى عليه السلام فإن الله تعالى هو الذي سماه قبل دخوله في الوجود، فكان ذلك من خواصه، فلم يكن له مثل وشبيه في هذه الخاصية (3)، وأما قوله تعالى: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا، فقد اختلف المفسرون فيه على وجوه، أحدهما: وهو قول ابن عباس والحسن البصري وسعيد بن جبيرة وعكرمة وقتادة أنه لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، وثانيها: أن المراد بالسمى النظير، كما في قوله تعالى: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا، أي شريكا في الاسم، وفي فقرته بهذا الاسم ضرب من التعظيم، ومزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام وهذا، كما قال الزمخشري، شاهد على أن الأسماء النادرة التي لا يكاد الناس يستعملونها جدية بالأثرة، وإياها كانت العرب تنحي في التسمية، لكونها أئبه وأنوه وأزفه عن النبر، وثالثها: ما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، من أن العواقر لم تلد قبله مثله، وكما يقول ابن كثير).

ص: 252

1- سورة آل عمران: آية 39.

2- سورة مريم: آية 7.

3- تفسير الفخر الرازي 186/21، غير أننا نلاحظ أن هناك شبهة لهذا، ذلك أن إسحاق ويعقوب والمسيح عليهم السلام، قد بشر بهم، وسمعوا بأسمائهم قبل مولدهم (سورة آل عمران: آية 45، هود: آية 71، الصافات: آية 112)، بل إن التوراة تشير إلى أن إسماعيل قد بشر به وأعطى اسمه قبل أن يولد (تكوين 11/16).

وفي هذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقرا من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، لا لعقرهما (1) ولهذا قال: أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ، مع أنه كان قد ولد له من قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (2) وأخرج الإمام أحمد في الزهد، وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد أن «سميا» بمعنى شبيها، وروى عن عطاء وابن حبير مثله أي لم نجعل له شبيها، حيث أنه لم يعصي ولم يهجم بمعصية، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي في نوادر الأصول والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من أحد من ولد آدم، إلا وقد أخطأ أو همّ بخط، إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام، لم يهجم بخطيئة ولم يعملها»، وعن ابن المسيب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من أحد يلقي الله يوم القيامة إلا أذنب، إلا يحيى بن زكريا»، وقال قتادة: ما أذنب، ولا همّ بامرأة، والأخبار في ذلك متظافرة، وقيل لم يكن له شبيه لذلك (3).

هذا وقد وصف الله تعالى نبيه يحيى عليه السلام في سورة آل عمران بأربع صفات، قال تعالى: أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ (3) مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ).

ص: 253

1- هذا صحيح بالنسبة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، أما السيدة سارة فقد كانت عجوز عقيم، كما أخبرنا القرآن الكريم في سورة الذاريات: آية 29.

2- سورة هود: آية 72-73، تفسير ابن كثير 3/ 181-182.

3- روى أنه سمي «يحيى» لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه أو لأن الله تعالى أحيا قلبها لإيمان والطاعة، والله تعالى سمي المطيع حيا والعاصي ميتا بقوله تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَقَالَ تَعَالَى: إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، أو لأنه يحيى بإرشاد الخلق وهدايتهم أو لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يعصي أو يعم بمعصية أو لأنه استشهد، والشهداء أحياء عند ربهم لقوله تعالى: بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وقيل غير ذلك (تفسير الفخر الرازي 21/ 186).

وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (1)، فأما الصفة الأولى، فقد وصفه الله تعالى بأنه كان «مصدقاً بكلمة من الله»، والمراد بالكلمة هنا عيسى بن مريم، أي مصدقاً بعيسى مؤمناً به، فهو أول من آمن به، و سمي عيسى كلمة الله لأن تكونه بكن بلا أب (2)، و رغم أن صاحب الظلال (3) يرى أنه ليس هناك ما يحتم هذا الفهم (أي التصديق بعيسى)، فإن المفسرين يروون عن ابن عباس أنه قال: إن يحيى كان أكبر سناً من عيسى بستة أشهر، و كان يحيى أول من آمن و صدق بأنه كلمة الله و روحه، ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى، و أخرج الإمام أحمد عن مجاهد قال: قالت امرأة زكريا لمريم، إني أجد الذي في بطني يتحرك للذي في بطنك، و أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: كان يحيى و عيسى ابني خالة، و كانت أم يحيى تقول لمريم إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك»، فذلك تصديقه له، و كان أكبر من عيسى بستة أشهر، و قيل بثلاث سنين (4)، و في تفسير ابن كثير (5): روى العوفي و غيره عن ابن عباس، كما قال الحسن و قتادة و عكرمة و مجاهد و أبو الشعثاء و السدي و الربيع بن أنس و الضحاک و غيره في هذه الآية: مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ أَي بَعِيسَى بِنِ مَرْيَمَ، و قال الربيع هو أول من صدق بعيسى بن مريم، و قال قتادة: و على سنته و منهاجه، غير أن هناك رواية أخرى تنسب إلى عبدة، و تذهب إلى أن معنى «بكلمة من الله»، بكتاب منه، و المراد به

ص: 254

1- سورة آل عمران: آية 39.

2- تفسير النسفي 1/ 156.

3- في ظلال القرآن 1/ 394.

4- تفسير روح المعاني 3/ 147، تفسير الطبري 3/ 253.

5- تفسير ابن كثير 1/ 450.

الإنجيل، وإطلاق الكلمة عليه كإطلاقها على العصيدة، غير أن الإمام الطبري إنما يعتبر ذلك جهلا بتأويل الكلمة، واجترأ على ترجمة القرآن (1).

و أما (ثانيا) فكان سيّدا: وقد فسره ابن عباس بالحليم والكريم والتقي، وقال الجبائي: إنه كان سيّدا للمؤمنين، رئيسا لهم في الدين، أعني في العلم والحلم والعبادة والورع، وقال مجاهد: الكريم على الله، وقال ابن المسيب: الفقيه العالم، وقال عكرمة: الذي لا يغلبه الغضب، وقال الضحاك: الحليم التقي؛ وقال ابن زيد السيد هو الشريف، وفي تفسير النسفي: السيد هو الذي يسود قومه، أي يفوقهم في الشرف، وكان يحيى فائقا على قومه لأنه لم يرتكب سيئة قط، ويا لها من سيادة، وقال الجنيد: هو الذي جاد بالكونين عوضا عن المكون، و قال القاضي: السيد هو المتقدم المرجوع إليه، فلما كان سيّدا في الدين وقدوة فيه، فتدخل فيه جميع الصفات المذكورة من العلم والحلم والكرم والعفة والزهد والورع (2).

و أما (ثالثا) فكان حصورا: والحصر في اللغة الحبس، يقال حصره حصرا، وحصر الرجل: أي اعتقل بطنه، والحصور الذي يكتم السر ويحبسه، والحصور الضيق البخيل، وأما المفسرون فلهم قولان، أحدهما:

أنه كان عاجزا عن إتيان النساء، فقد روى عن ابن مسعود وابن عباس سعيد بن جبير وأبي الشعثاء وعطية العوفي أنهم قالوا: الذي لا يأتي النساء، وعن أبي العالية والربيع بن أنس: هو الذي لا يولد ولا ماء له، ثم منهم من قال كان ذلك لصغر الآلة، ومنهم من قال كان ذلك لتعذر الإنزال، ومنهم من قال كان ذلك لعدم القدرة، وقد روى الحفاظ عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ما معه عليه السلام كان كالأنملة، وفي بعض الروايات كالقذاة، وفي

ص: 255

1- تفسير الطبري 3/ 253-254، تفسير روح المعاني 3/ 147.

2- تفسير النسفي 1/ 156، تفسير الفخر الرازي 8/ 36.

أخرى كالنواة، وفي بعض كهدة الثوب، وتذهب جمهرة العلماء إلى أن هذا الرأي غير مقبول أصلاً، لأن هذه من صفات النقصان، وذكر صفة النقصان، في معرض المدح لا- يجوز، ولأنه على هذا التقدير لا يستحق به ثواباً ولا من تعظيماً، وأما القول الثاني، وهو اختيار المحققين أنه الذي لا يأتي النساء، لا للعجز، بل للعفة والزهد، وذلك لأن الحصور هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها، والمنع إنما يحصل أن لو كان المقتضى قائماً، فلولا أن القدرة والداعية كانتا موجودتين، وإلا لما كان حاصراً لنفسه، فضلاً عن أن يكون حصوراً، لأن الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنما تحصل عند قوة الرغبة والداعية والقدرة، وعلى هذا الحصور بمعنى الحاصر، فعول بمعنى فاعل (1).

وقال القاضي عياض في الشفا (2): اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان «حصوراً»، ليس كما قال بعضهم إنه كان هيوباً ولا ذكر له، بل قد أنكر ذلك حذاق المفسرين ونقاد العلماء وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات، وقيل ليست له شهوة في النساء، وقد بان ذلك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه، درجة عليا، وهي درجة نبياً صلى الله عليه وسلم الذي لم تشغله كثرته عن عبادته ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحسينهن وقيامه عليهن وإكسابه).

ص: 256

-
- 1- تفسير روح المعاني 3/ 148، تفسير الفخر الرازي 8/ 36-37، تفسير الطبري 3/ 255-256.
 - 2- القاضي عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى 1/ 88-89 (بيروت 1979)، شرح الشفا للملا على القاري 1/ 209-210 (دار الكتب العلمية- بيروت).

لهن وهدايته إياهن، بل وقد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حبب إلي من دنياكم»، و المقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور، ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم من الفواحش و القاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال و غشيانهن و إيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم، حيث قال: هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً كأنه قال: ولدا له ذرية و نسل و عقب (1)، و أما ما أخرجه الحفاظ، على تقدير صحته، يمكن أن يقال إنه من باب التمثيل و الإشارة إلى عدم انتفاعه عليه السلام بما عنده لعدم ميله للنكاح لما أنه في شغل شاغل عن ذلك.

و من هنا قيل: إن التبتل لنوافل العبادات أفضل من الاشتغال بالنكاح، استدلالا بحال يحيى عليه السلام، و من ذهب إلى خلافه احتج بما أخرجه الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أربعة لعنوا في الدنيا و الآخرة و أمنت الملائكة، رجل جعله الله تعالى ذكرا فأنث نفسه و تشبهه بالنساء، و امرأة جعلها الله تعالى أنثى فتذكرت و تشبهت بالرجال، و الذي يضل الأعمى، و رجل حصور، و لم يجعل الله تعالى حصورا، إلا يحيى بن زكريا»، و في رواية «لعن الله تعالى و الملائكة رجلا تحصر بعد يحيى بن زكريا»، و يجوز أن يراد بالحصور المبالغ في حصر النفس و حبسها عن الشهوات مع المقدرة، و قد كان حاله عليه السلام كذلك، و أخرج عبد الرزاق عن قتادة موقوفا، و ابن عساكر عن معاذ بن جبل مرفوعا، أنه عليه السلام مرّ في صبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب فقال: «ما للعب خلقت» (2).

و أما (رابعا) فكان نبيا من الصالحين: و هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى عليه

ص: 257

1- تفسير ابن كثير 1 / 541-542.

2- تفسير روح المعاني 3 / 148.

السلام بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله تعالى لأم موسى:

إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (1)، و أما الصلاح فالمراد به هنا ما فوق الصلاح الذي لا بد منه في منصب النبوة البتة من أقاصي مراتبه، وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام: وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (2)، و ذلك لأن للأنبياء قدرا من الصلاح لو انتقص لانفتت النبوة، فذلك القدر بالنسبة إليهم يجري مجرى حفظ الواجبات بالنسبة إلينا، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القدر تتفاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر، و كل من كان أكثر نصيبا منه كان أعلى قدرا (3).

و عودا على بدء، إلى زكريا عليه السلام، ذلك أن النبي الكريم قد عجب من أن يكون له غلام، على كبر سنه، و عقم زوجته، فقيل له كذلك يفعل الله ما يشاء، و طلب آية من ربه تدل على حمل امرأته، فقيل له آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا، مع أنك سوى صحيح، و الغرض أن يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انِّي كُنْتُ لِي غُلَامًا وَ كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا، وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَ قَدْ خَلَقْتُنَا مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئًا، قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (4)، و قد ذكر المفسرون في تفسير الآية الأخيرة (مريم: آية 10) (5) وجوها، أحدها: أنه تعالى حسب لسانه ثلاثة أيام، فلم يقدر أن يكلم الناس إلا رمزا، و الرمز: الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما، قال الطبري: الإيماء

ص: 258

1- سورة القصص: آية 7.

2- سورة النمل: آية 19.

3- تفسير الفخر الرازي 37/8.

4- سورة مريم: آية 8-10، و انظر: سورة آل عمران: آية 40-41.

5- و كذا: آية آل عمران 41 أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا.

بالشفقتين، وقد يستعمل في الحاجبين والعينين أحيانا، وفيه فائدتان، إحداهما: أن يكون ذلك آية على علوق الولد، والثانية: أنه تعالى حسب لسانه عن أمور الدنيا، وأقدره على الذكر والتسبيح والتهليل، ليكون في تلك المدة مشتغلا بذكر الله تعالى، والشكر على تلك النعمة الجليلة، وعلى هذا التقدير يصير الشيء الواحد علامة على المقصود، وأداء لشكر تلك النعمة فيكون جامعا لكل المقاصد، هذا فضلا عن أن تلك الواقعة إنما كانت مشتملة على المعجز من وجوه، أحدهما: أن قدرته على التكلم بالتسبيح والذكر، وعجزه عن الكلام بأمور الدنيا، من أعظم المعجزات، و ثانيهما:

أن حصول ذلك المعجزة في تلك الأيام المقدورة، مع سلامة البنية، واعتدال المزاج، من جملة المعجزات، وثالثها: أن إخباره بأنه متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد، ثم إن الأمر خرج على وفق هذا الخبر يكون أيضا من المعجزات (1).

وولد يحيى عليه السلام، فشب على الطهر والاستقامة، وكان آية في ورعه وزهده وطاعته لربه، وبره بوالديه وآتاه الله العلم والحكمة و منّ عليه بالرسالة، وقد روى أنه لم يهم بمعصية قط، ولم ينشغل في طفولته بما ينشغل به الأطفال، وكان يقول: ما للعب خلقت، وكان يحيى عليه السلام هو الآية الثانية لبني إسرائيل، وكانت الأولى ولادة مريم، وكانت أمها «حمنة» عقيما لا تلد، وأما الثالثة فكانت ولادة عيسى عليه السلام من غير أب (2)، وقد قدم الله تعالى قصة يحيى، وكذا مريم، على قصة عيسى، عليهم السلام، ذلك لأن خلق الولد من شيخين فانبين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد من غير أب، وأحسن الطرق في التعليم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقيا إلى الأصعب فالأصعب.

ص: 259

1- تفسير الطبري 260/3، تفسير الفخر الرازي 40/8.

2- محمد خليل هراس: المرجع السابق ص 183.

هذا وقد أثنى الله تعالى على يحيى عليه السلام بالثناء العاطر، ووصفه بالبر والتقوى والصلاح والاستقامة قال تعالى: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَرِكَاهًا وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا، وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (1).

ويقول المفسرون أن الله تعالى وصف يحيى عليه السلام في هذه الآيات بصفات تسع، منها (أولاً) أن الله تعالى أعطاه الكتاب، والكتاب هو التوراة، كتاب بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، وعليه كان يقوم أنبيأؤهم يعلمون به ويحكمون وهو نعمة الله على بني إسرائيل، قال تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ (2)، ويقول ابن عطية:

أن الإجماع هو التوراة، على أن «أل» للعهد، ولا- معهود إذ ذاك سواها، فإن الإنجيل لم يكن موجودا حينئذ، كما خص كثير من الأنبياء عليهم السلام بمثل ذلك، وقيل المراد بالكتاب صحف إبراهيم عليه السلام، وقيل المراد الجنس، أي كتاب الله تعالى، وعلى أي حال، فإن يحيى قد ورث أباه زكريا، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة (3).

ومنها (ثانيا) آتاه الله الحكم صبيا: وهكذا كان يحيى عليه السلام، فذا في زاده لينهض بالتبعة الكبرى، كما كان فذا في اسمه وفي ميلاده، فالحكمة تأتي متأخرة، ولكن يحيى قد زود بها صبيا (4)، أخرج أبو نعيم وابن مردويه والديلمي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في ذلك: أعطى الفهم وهو ابن سبع سنين، وجاء في رواية أخرى عنه مرفوعا أيضا، قال الغلطان ليحيى

ص: 260

1- سورة مريم: آية 12-15.

2- سورة الجاثية: آية 16.

3- تفسير روح المعاني 72/16، في ظلال القرآن 4/2304.

4- في ظلال القرآن 4/2304.

بن زكريا عليهما السلام: اذهب بنا نلعب، فقال: أَللَّعِبِ خَلَقْنَا، اذْهَبُوا نَصَلِي، فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَقَدْ اختلف العلماء في معنى «الحكم» هنا، فمن قائل أنها بمعنى الحكمة، وهي الفهم في التوراة والفقهاء في الدين، قال الطبري: المعنى أعطيناها الفهم لكتاب في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال، ومن قائل إنها بمعنى العقل والفراسة الصادقة، ومن قائل إنها النبوة وعليه كثير، قالوا: أوتيتها وهو ابن ثلاثين، وقبل وهو ابن سبع سنين أو ابن اثنتين، ولم يتنبأ أكثر الأنبياء عليهم السلام قبل الأربعين، وإن رأى البعض أن الحكم هنا ليس بمعنى النبوة، فهي على سن الأربعين، وإنما المراد الفهم والفقهاء في الدين، وهو غير الحكمة المفسرة بالنبوة، كما في الآية (251) من سورة البقرة، والتي جاءت في حق داود عليه السلام (1).

هذا ويرجح الفخر الرازي في التفسير الكبير أنها النبوة، ذلك لأن الله تعالى قد أحكم عقله في صباه وأوحى إليه، وذلك لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام، وهما صبيان، لا كما بعث موسى ومحمد عليهما السلام، وقد بلغا الأشد، والأقرب حمل الحكم على النبوة لوجهين، الأول: أن الله تعالى ذكر في هذه الآية صفات شرفه ومنقبته، ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان، فذكرها في معرض المدح أولى من ذكر غيرها، فوجب أن تكون نبوته مذكورة في هذه الآية، ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه اللفظة فوجب حملها عليها، والثاني: أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الإطلاق، وذلك لا يكون إلا بالنبوة، فإن قيل كيف يعقل حصول العقل والفتنة والنبوة حال الصبا؟ قلنا هذا السائل، إما أن يمنع من خرق العادة أو لا يمنع، فإن منع منه فقد سدَّ

ص: 261

1- تفسير الطبري 16/54-55، تفسير النسفي 3/30، تفسير ابن كثير 3/183، تفسير روح المعاني 16/72، صفوة التفاسير 2/213، تفسير الكشاف 2/504.

باب النبوت لأن الأنبياء بناء الأمر فيها على المعجزات، ولا معنى لها إلا خرق العادات، وإن لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد، فإنه ليس استبعاد صيرورة الصبي عاقلا، أشد من استبعاد انشقاق القمر، وانفلاق البحر (1).

ومنها (ثالثا) وحنانا من لدنا: أي أن الله آتاه الحنان هبة لندية لا يتكلفه ولا يتعلمه، وإنما هو مطبوع عليه، ومطبوع به، والحنان صفة ضرورية للنبي المكلف رعاية القلوب والنفوس، وتألفها واجتذابها إلى الخير في رفق، وعن زيد أن الحنان هنا المحبة، وهو رواية عكرمة، أي و آتينا محبة من لدنا، والمراد جعلناه محببا عند الناس، فكل من رآه أحبه، نظير قوله تعالى: **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**، وعن عطاء بن رباح أي آتينا الحكم صبيا تعظيما، إذ جعلناه نبيا وهو صبي، ولا تعظيم أكثر من هذا، والدليل عليه ما روى أنه مرّ وورقة بن نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء، ويقول: أحد أحد، فقال: **والذي نفسي بيده لئن قتلتموه لاتخذته حنانا أي معظما (2)**.

ومنها (رابعا) وزكاة: والزكاة: الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح، وقال الضحاك وابن جريح: العمل الصالح الزكي، وقال العوفي عن ابن عباس: وزكاة، قال بركة، والمعنى آتاه الله الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس، فيطهرها ويزكيها (3)، ويقول الرازي (4): **قوله تعالى: وَزَكَاةً فِيهِ وَجْوه**، أحدهما: المراد و آتينا زكاة، أي عملا صالحا زكيا، كما روى عن ابن عباس و قتادة و الضحاك و ابن جريح، و ثانيها: عن الحسن البصري:

ص: 262

1- تفسير الفخر الرازي 21/191-192.

2- تفسير روح المعاني 16/73، تفسير الفخر الرازي 21/192-193.

3- تفسير ابن كثير 3/184، في ظلال القرآن 4/2304.

4- تفسير الفخر الرازي 21/193.

زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أذكىء، و ثالثها: زكيناها بحسن الشئاء، كما تزكي الشهود الإنسان، و رابعها: عن الكلبي: صدقة تصدق الله تعالى بها على أبويه، و خامسها: بركة و نماء، و هو الذي قاله عيسى عليه السلام وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ.

و منها (خامسا): و كان تقيا: أي كان موصولا بالله، متحرجا معه، مراقبا له يخشاه و يستشعر رقابته عليه في سره و نجواه و أولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله و لا يهجم بمعصيته، و كان يحيى عليه السلام كذلك، و قد سبق أن أشرنا إلى عدة أحاديث تدل على ذلك، و منها قوله صلى الله عليه و سلم: «ما من أحد يلتقي الله يوم القيامة إلا أذنب، إلا يحيى بن زكريا»، و أخرج الأئمة مالك و أحمد في الزهد و عبد الله بن المبارك و أبو نعيم عن مجاهد قال: كان طعام يحيى بن زكريا عليهما السلام العشب و إنه كان ليبيكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه، و قد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه» (1).

و منها (سادسا): و برا بالديه: كان يحيى برا بالديه مسارعا في طاعتها و محبتها، غير عاق بهما، و ذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، و لهذا السبب قال تعالى: وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (2).

ص: 263

1- تفسير الطبري 58/16، تفسير روح المعاني 73/16.

2- سورة الإسراء: آية 23، هذا و قد جاء في بر الوالدين كثير من الأحاديث الشريفة، منها ما روي الإمام أحمد بسنده عن أنس و غيره أن النبي صلى الله عليه و سلم صعد المنبر ثم قال: آمين آمين آمين، قيل يا رسول الله علام ما أمنت، قال أتاني جبريل فقال يا محمد، رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل آمين فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل آمين فقلت آمين» (مسند الإمام أحمد 4/344)، و روى الإمام أحمد في مسنده (4/344) بسنده عن مالك بن عمرو القشيري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «من أعتق رقبة مسلم فهي فداؤه من النار، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه، و من أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز و جل، و من ضم يتيما من أبوين مسلمين إلى طعامه و شرابه حتى يغنيه الله و جبت له الجنة»، و روى الإمام أحمد في مسنده (5/29) عن أبي مالك القشيري قال قال النبي صلى الله عليه و سلم: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده الله و أسحقه» (و رواه أبو داود الطيالسي عن شعبه)، و روى الإمام أحمد في مسنده (2/346) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك أبويه أو كلاهما عند الكبر، و لم يدخل الجنة» (و رواه الإمام مسلم في صحيحه 8/5 من حديث أبي عوانة و جرير و سليمان بن بلال عن سهيل)، و روى الإمام أحمد في مسنده (2/254) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ، و رغم أنف رجل دخل عليهم شهر رمضان فأنسلخ فلم يغفر له، و رغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر، فلم يدخله الجنة»، قال ربي: لا أعلمه إلا قال: «أو أحدهما»، و روى الإمام أحمد في مسنده (3/497) عن مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ جاء رجل من الأنصار، فقال يا رسول الله: هل بقي عليّ من برّ أبوي شيء بعد موتها أبرهما به، قال نعم خصال أربع: الصلاة عليهما، و الاستغفار لهما، و إنفاذ عهدهما، و إكرام صديقتهما، و صلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلها، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما» (و رواه أبو داود و ابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان، و هو ابن الغسيل (سنن ابن ماجه 2/1208، سنن أبي داود 2/629) و روى الإمام أحمد في مسنده (3/429) بسنده عن معاوية بن جاهمة السلمي، أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، و جئتك أستشيرك، فقال: «فهل لك من أم» قال: نعم، قال: «فألزمها فإن الجنة عند رجلها»، ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول (و رواه النسائي و ابن ماجه من

حديث ابن جريح)، وروى الإمام أحمد في مسنده (132/4) بسنده عن المقدم بن معد يكرب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب» (وأخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عياش، سنن ابن ماجه 1207/2)، وروى الإمام أحمد في مسنده (64/4) بسنده عن رجل من بني يربوع قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعتة وهو يكلم الناس، يقول: «يد المعطي العليا، أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»، وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم: هل أدبت حقها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة» أو كما قال: (وانظر: تفسير ابن كثير 57/3 - 60 - بيروت 1986).

ومنها (سابعاً): ولم يكن جباراً: لم يكن متكبراً متعالياً عن قبول الحق والإذعان له أو متطاولاً ولا على الخلق، وقيل الجبار: هو الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، وعن ابن عباس أنه هو الذي يقتل ويضرب على الغضب (1)، والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب، وذلك من صفات المؤمنين، وقد وصف الله تعالى نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (2)، قال الحسن البصري: هذا خلق محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله به، هذا ولأن رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل، ومعرفة ربه بالعظمة والكمال، ومن عرف نفسه بالذل، وعرف ربه بالكمال، كيف يليق به الترفع والتكبر، ولذا فإن إبليس لما تجبر وتمرد صار مبعداً عن رحمة الله وعن الدين (3).

ومنها (ثامناً) ولم يكن عصياً: والعصي أبلغ من العاصي، كما أن العليم أبلغ من العالم، والمراد المبالغة في النقي، لا نفي المبالغة، وقيل:

عصياً: مخالفاً أمر مولاه عز وجل، وقيل: عاقاً لأبويه، ويقول الطبري: ولم يكن جباراً عصياً، أي لم يكن مستكبراً عن طاعة الله وطاعة والديه، ولكنه كان لله ولوالديه، متواضعاً متذللاً، يأتمر لما أمر به، وينتهي عما نهى عنه، لا يعصي ربه ولا والديه (4).

ومنها (تاسعاً) «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً» وفيه أقوال، أحدهما: قال الطبري: وأمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان

ص: 265

-
- 1- تفسير روح المعاني 73/16.
 - 2- سورة آل عمران: آية 159، وانظر: تفسير الطبري 150/4 - 153، تفسير ابن كثير 628/1 - 630 تفسير روح المعاني 105/4 - 106، في ظلال القرآن 500/1 - 501، تفسير النسفي 1/191.
 - 3- تفسير الفخر الرازي 193/21.
 - 4- تفسير الطبري 58/16.

من السوء بما ينال به بني آدم، و ثانيها: قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن، يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه، و يوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط، و يوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحيى عليه الصلاة و السلام، فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة، و ثالثها: قال عبد الله بن نبطويه: «و سلام عليه يوم ولد»، أي أول ما يرى الدنيا، و «يوم يموت» أي أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة، و «يوم يبعث حيا» أي أول يوم يرى فيه الجنة و النار، و هو يوم القيامة، و إنما قال «حيا» تنبيها على كونه من الشهداء لقوله تعالى: **بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**، و قال ابن عطية: الأظهر أن المراد بالسلام: التحية المتعارفة و التشريف بها، لكونها من الله تعالى في المواطن التي فيها العبد في غاية الضعف و الحاجة و قلة الحيلة و الفقر إلى الله عز و جل، و روى ابن جرير في التفسير بسنده عن قتادة أن الحسن البصري قال: «إن يحيى و عيسى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني، فقال الآخر: استغفر لي، أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي، و سلم الله عليك، فعرف و الله فضلها (و رواه الإمام أحمد في الزهد عن الحسن أيضا، كما ذكره الألويسي في روح المعاني) (1).

استشهاد يحيى عليه السلام:-

ترجع المصادر النصرانية قتل يحيى عليه السلام، و هو يوحنا المعمدان عندهم، إلى أن «هيرودوس أنتباس» (6-39 م) حاكم اليهودية من قبل الرومان، أراد أن يتزوج من «هيروديا» امرأة أخيه «فيلبس»، إلا أن يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) أفتى بعدم الزواج لأنها لا تحل له، و من ثم فقد قرر هيرودوس التخلص منه، إلا أنه خشي غضب القوم الذين كانوا

ص: 266

1- تفسير الطبري 16/58-59، تفسير روح المعاني 16/74، تفسير الفخر الرازي 21/193-194، تفسير النسفي 3/30.

يعتقدون في نبوة يحيى عليه السلام، ولهذا فقد اكتفى بإلقائه في غياهب السجن، و تنتهز «هيروديا» فرصة الاحتفال بعيد ميلاد هيرودوس، و تتفق مع ابنتها «سالومي» على أن ترقص شبه عارية لعمها الملك، و حين تنتهي من رقصتها، و يفتتن الملك بها، تطلب منه رأس يحيى على طبق، و تفعل سالومي ما أشارت به أمها، و يضطر هيرودوس إلى تنفيذ رغبة ابنة أخيه، بناء على وعد منه أن يعطيها ما تريد، أيا كان الذي تريد، و من ثم يأمر بقتل يحيى فوراً بالسيف و أن يؤتي برأسه على طبق ليكون هذا ختام الاحتفال، ثم يقدم الرأس الشريف إلى الداعرة سالومي التي قدمته بدورها إلى أمها، و عندئذ يسرع تلاميذ يحيى فيرفعوا الجسد و يدفنوه، ثم يخبروا السيد المسيح بالمأساة المروعة (1).

و الأمر بهذه الصورة يحتاج، فيما أرى إلى وقفة، (فأولاً) ليس هناك من ريب في أن سيدنا يحيى عليه السلام، و هو الذي يسميه النصارى يوحنا المعمدان، نبي من أنبياء الله المصطفين الأخيار، كما جاء في ذلك في القرآن الكريم، و كما رأينا من

ص: 267

1- أنظر: إنجيل متى 14 / 3-12، إنجيل مرقس 6 / 16-30، تاريخ يوسفوس ص 214، قاموس الكتاب المقدس 1011 / 2، فيلب حتى: المرجع السابق ص 420-422، عبد الرازق نوفل: يوحنا المعمدان- القاهرة 1977 م ص 61-68، و كذا، yranoitciD elbiB، 1970، p. 472، F. M reGNU، s'regnU- ثم قارن: ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1 / 301-302، تاريخ الطبري 1 / 585-593، تاريخ ابن خلدون 2 / 172، مروج الذهب للمسعودي 1 / 75-76، غير أن المراجع العربية مضطربة في تأريخها لهذه الفترة، حتى أنها تذهب إلى أن الله تعالى قد سلط على اليهود «بختنصر» (نبوخذ نصر 605-562 ق.م) جزاء وفاقاً لما ارتكبه في حق النبي الكريم يحيى عليه السلام، و أنه قتل منهم سبعين ألف رجل و امرأته، هذا مع العلم بأن تاريخ «نبوخذ نصر» أصبح الآن من الحقائق التاريخية المسلم بها، و هو أنه كان يعيش في أواخر القرن السابع، و حتى عام 562 من القرن السادس قبل الميلاد، و أن سيدنا يحيى كان يعيش بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون و نصف القرن، حيث أنه عاصر المسيح عليه السلام.

قبل، وليس كما يقول إنجيل متى «لأنه كان عندهم مثل نبي» (1) أو أنه «رجل بار وقديس» كما يقول إنجيل مرقس (2)، (و ثانيا) لما ذا يمنع يوحنا المعمدان (3) هذا الزواج، و مبلغ علمي أن التوراة، والتي كان على شريعتها كل من هيرودوس و هيروديا، لا تمنع ذلك الزواج، بل تفرضه على المؤمنين بها، بل إنها إنما تفرض كذلك أن ينسب الأبناء من هذا الزواج الجديد إلى الأخ المتوفي (4) و إذا كان ذلك صحيحا فإن التفسير الآنف الذكر للحدث الخطير المحزن إنما هو تفسير أناجيل النصارى، و ما كان هيرودوس نصرانيا، إنما كان ملكا يهوديا أدوميا على مملكة أدومية يهودية، فالتاريخ حتى تلك اللحظة ما كان يتعامل مع ملوك أو حتى شعوب نصرانية، كما أن يحيى عليه السلام لم يكن نصرانيا حتى يفتى بشريعة النصارى، بل إن السيد المسيح نفسه لم يكن حتى ذلك الوقت قد بعث رسولا نبيا، وبالتالي لم يكن يحكم بشريعة الإنجيل، و من ثم فلا بد أن يكون هناك سبب آخر يمنع هذا الزواج، و هنا نجد رواية تذهب إلى أن هيرودوس إنما كان قد ألقى بأخيه فيلبس، زوج هيروديا، في غياهب السجون، ثم أمر به فقتل، ثم أراد أن يتزوج من امرأته، و لعل هذا هو السبب في ثورة النبي الكريم على هذا الزواج و معارضته بشدة (5).

على أن المراجع العربية إنما تقدم روايات تختلف عن الرواية السابقة، فتذهب في أسباب قتل يحيى عليه السلام إلى أن ملك دمشق وقت

ص: 268

-
- 1- متى 5/14.
 - 2- مرقس 6/20.
 - 3- يسمى النصارى يحيى عليه السلام «يوحنا المعمدان»، فأما يوحنا فهو اسمه، و أما المعمدان، فلأنه، طبقا لما جاء في الأناجيل، إنما كان يعمد القوم، أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا، و قد عمّد يحيى السيد المسيح نفسه (متى 3/1-16).
 - 4- سفر التكوين 6/38-11.
 - 5- محمد بيومي مهران: إسرائيل 1147/2-1149.

ذاك أراد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له أن يتزوجها، فنهاه يحيى عن ذلك، فتبقى في نفسها منه، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله، وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها، فيقال إنها هلكت من فورها و ساعته، وقيل بل أحبه امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله و أحضر إليها رأسه ودمه في طشت.

و أما مكان قتله، فذهب فريق إلى أنه قتل على الصخرة التي بيت المقدس، و ذهب فريق آخر إلى أنه قتل في دمشق، و تذهب رواية لابن عساكر عن قاسم مولى معاوية إلى أن «هداد بن هداد» ملك دمشق كان قد زوج ابنه بابنة أخيه «أريل» ملك صيدا، فحلف بطلاقها ثلاثا ثم أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال له: لا تحل لك حتى تنكح زوجا غيرك، فحقدت عليه و سألت الملك رأس يحيى، و ذلك بإشارة من أمها، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك، و بعث إليه و هو قائم يصلي في مسجد حبرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول: لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، فأخذت المرأة الطبق فحملته إلى أمها، و هو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدي أمها خسفت بها الأرض إلى قدميها، ثم إلى حقويها ثم إلى منكبها، فأمرت أمها بقطع رأسها لتتسلى برأسها، فلفظت الأرض جثتها، و لم يزل دم يحيى يفور حتى قدم «بخت نصر» (نبوخذ نصر) فقتل عليه خمسة و سبعين ألفا، ثم ما زال الدم يفور حتى وقف عنده إرميا النبي، فقال: أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن ياذن الله، فسكن فرفع السيف، و هرب نبو هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس، فتبعهم نبوخذ نصر إليها فقتل منهم خلقا كثيرا لا يحصون كثرة، و سبى منهم ثم رجع عنهم (1).

ص: 269

وهذه الروايات، وإن كان فيها بعض الشبه من رواية الأناجيل، ففيها كذلك بعض نقاط ضعف، منها (أولا) أن يحيى عليه السلام إنما كان من أنبياء بني إسرائيل، ولم يكن أبدا من أنبياء الآراميين سكان دمشق، وبنو إسرائيل لم يكونوا في دمشق، وإنما كانوا في فلسطين، وبالتالي فإن حادث مقتل النبي الكريم إنما كان في بيت المقدس ولم يكن في دمشق، ومنها (ثانيا) أن دمشق كانت على أيام يحيى عليه السلام، بل وبالتحديد منذ عام 64 قبل مولد المسيح، مستعمرة رومانية، وبالتالي فلم يكن بها ملك، وإنما كان بها وال روماني (1)، ومنها (ثالثا) أن «هدد» (بنحدد) إنما كان ملك الآراميين في دمشق، وذلك في القرن التاسع قبل الميلاد، وقد اشترك في موقعه «قرقر» عام 853 ق. م ضد الملك الأشوري «شلمنصر الثالث (859-824 ق. م)، إلى جانب «أخاب» ملك إسرائيل وغيره من حكام ولايات سورية وفلسطين، ومن ثم فهو قد عاش قبل عهد يحيى عليه السلام بأكثر من ثمانية قرون، ومنها (رابعا) أن حاكم دمشق، أيا كان اسمه، لم يكن أبدا أخا لملك صيدا، فالأولى ولاية آرامية، والثانية فينيقية، ومنها (خامسا) ما أشرنا إليه من قبل من أن عهد يحيى عليه السلام إنما كان بعد عهد «بخت نصر» (نبوخذ نصر).

ص: 270

1- افتتح القائد الروماني «بومبي» (yepmoP) مدينة دمشق عام 64 ق. م، وفي عام 63 ق. م، وفي يوم سبت احتل مدينة القدس ودمر حصونها وقتل رجالها، وبذا أصبحت كل من دمشق والقدس ولاية رومانية ثم سرعان ما بدأ «بومبي» تنظيماته الجديدة، فأدخل سورية الجغرافية والتقليدية كلها تحت اسم واحد هو «ولاية سورية» (airyS aicnivorP) وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية القديمة وأصبحت عاصمتها «أنطاكية»، بينما جعلت «قلقيا» ولاية قائمة بذاتها، وأبقت اليهودية ولاية خاضعة ضمن إطار ولاية سورية، وبعد فترة منحت المدن ذات الدساتير اليونانية حرية داخلية في ظل حكام الولايات الرومان، وشكلت عشرة من هذه المدن اتحادا عرف باسم «الديكابوليس» ثم انضمت إليها مدن أخرى فيما بعد، وعلى أية حال فلقد ظلت سورية وفلسطين، طوال عصر مجد الامبراطورية الرومانية مجرد ولايات رومانية (أنظر: التفصيلات والمراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1136/2-1139).

605-562 ق. م) بأكثر من خمسة قرون ونصف القرن، و من ثم فلا علاقة بين الحادثين.

ومنها (سادسا) أن فتوى يحيى عليه السلام بشأن المرأة التي طلقها زوجها ثلاثا، بأنها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، إنما هي فتوى إسلامية على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، وليس الأمر كذلك في شريعة موسى، كما جاءت في التوراة المتداولة اليوم، وليس لدينا غيرها عن شريعة موسى (إلا بنص من الكتاب أو السنة يبطل هذا الحكم) وقد كان يحيى يفتي بشريعة التوراة، والتي اشترطت في الطلاق أن يعطي الرجل امرأته المطلقة وثيقة تسريح، ثم لها بعد ذلك أن تتزوج من غيره ولكنها لا تعود إلى زوجها الأول، إذا ما طلقت من زوجها الثاني أو حتى في حالة وفاة هذا الزوج الثاني (1)، تقول التوراة في سفر التثنية «إذا أخذ الرجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو مات الرجل الآخر الذي اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست» (2).

بقيت الإشارة إلى أن سيدنا يحيى عليه السلام، وقد عاصر المسيح عليه السلام، فإنه من ثم يكون قد عاش على أيام القيصر «أوغسطس» (27 ق. م- 14 م) والقيصر «تيريوس» (14- 37 م)، كما عاصر من حكام القدس من قبل الرومان «هيرودوس الكبير» (37- 4 ق. م) وولده «أرخيلاس» (4 ق. م).

م- 6 م) ثم ولده الثاني «هيرودوس أنتيباس» (6- 39 م)، ومن الحكام العرب من الأنباط «الحارث الرابع» (9 ق. م- 40 م).

ص: 271

1- أنظر عن الزواج والطلاق في التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 4/ 239-286).

2- تثنية 1/ 24-4.

تذهب الروايات إلى أن «حنة» امرأة عمران، وأم مريم البتول كانت قد أمسك عنها الولد حتى أسنت، وكانوا أهل بيت من الله، جل ثناؤه، بمكان، فبينما هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخا له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولدا، فحملت مريم، وهلك عمران أثناء الحمل، فلما عرفت أن في بطنها جنينا، جعلته لله نذيرة، والنذيرة أن تعبده لله فتجعله حبسا في الكنيسة، لا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا (1)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (2)، وكانت حتى تظن أن ما في بطنها ذكرا، ذلك لأن الذكر (3) أقوى على الخدمة

ص: 275

1- تفسير الطبري 235/3، وانظر: تفسير أبي السعود 230/1، تفسير النسفي 155/1، روح المعاني 133/3.

2- سورة آل عمران: آية 35.

3- كانت المرأة اليهودية المقالات تنذر لربها، إن رزقت أطفالا وعاشوا، فإنها تهب أكبرهم للإله (يهوه)، ومن ثم يصبح هذا الطفل خادما للكهننة و حارسا للمعبد، وربما يصبح كاهنا، كما يمكن افتداء الطفل بدفع مبلغ من المال للمعبد (لاويون 1/27 - 8)، و طبقا لرواية التوراة في سفري الخروج و صموئيل أول، فقد جندت بعض النساء للخدمة، عند باب خيمة الاجتماع، غير أن هذين النصين إنما هما تعديل لا حق، كما أنهما ليسا واضحين، وإن كانت روايتهما عن خدم المعبد و الأشخاص المتدينين الذين يعيشون بداخله، أو النساء المتدينات المشتركات في الأعياد (أنظر: P, tic- (siraP, learsI'd noitasiliviC al ed eriotSiH, telohtreB. A 356. p, 1929). و كذا. po, sdoL. A 449- 448.

وأقوم بها، وأن الأثنى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة لما يعترضها من الحيض والنفاس (1)، ومن ثم فإن النذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان ليخدموا الهيكل، وينقطعوا للعبادة والتبتل، ولكن «حنة» رزقت بأثنى، ومن ثم فهي تتوجه إلى ربها في نعمة أسيفة: رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ، وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (2)، وهكذا تودع الأم هديتها بين يدي ربها وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به وذريتها من الشيطان الرجيم، وهذه كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص، فما تود لوليدتها أمرا خيرا من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم (3) واستجاب الله لها فأعادها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلا، أخرج الشيخان، البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولد يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسه صارخا، إلا مريم وابنها»، و في رواية: «ما من ولد يولد، إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخا من مسة الشيطان، إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة:

اقرأوا إن شئتم: «وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» (4)، وهكذا قبل الله تعالى نذر حنة، قال تعالى: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا

ص: 276

-
- 1- تفسير الطبري 237/3.
 - 2- سورة آل عمران: آية 36.
 - 3- في ظلال القرآن 1/392-293 (بيروت 1982).
 - 4- صحيح البخاري 42/6، صحيح مسلم 96/7-97، وانظر روايات أخرى للحديث الشريف في: تفسير الطبري 3/238-240، تفسير روح المعاني 3/137، تفسير ابن كثير 1/538-539، تاريخ ابن خلدون 2/168-169.

حَسَنًا (1) جزء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر، وإعداد لها أن تستقبل نفخة الروح وكلمة الله، وأن تلد عيسى عليه السلام، على غير مثال من ولادة البشر (2).

هذا وقد روى عن ابن عباس، حبر الأمة و ترجمان القرآن، أن حنة لما وضعت مريم خشيت أن لا تقبل الأثى محررة، فلفتها في خرقة و وضعتها في بيت المقدس عند القراء، فتساهم القراء عليها لأنها كانت ابنة إمامهم، أيهم يأخذها (3)، فقال زكريا، وهو رأس الأحبار: أنا آخذها وأنا أحقهم بها لأن خالتها عندي، فقالت القراء: ولكننا نتساهم عليها فمن خرج سهمه فهو أحق بها، فدعوا بأقلامهم التي يكتبون بها الوحي و جمعوها في موضع ثم غطوها، وقال زكريا لبعض من الغلمان الذين لم يبلغوا الحلم ممن في بيت المقدس:

أدخل يدك فأخرج، فأدخل يده فأخرج قلم زكريا، فقالوا: لا نرضى ولكن نلقي الأقلام في الماء فمن خرج قلمه جرية الماء ثم ارتفع فهو يكفلها، فألقوا أقلامهم في نهر الأردن فارتفع قلم زكريا في جري الماء، فقالوا: نقترع الثالثة: فمن جرى قلمه مع الماء فهو يكفلها، فألقوا أقلامهم فجرى قلم زكريا مع الماء و ارتفعت أقلامهم في جرية الماء، وقبضها عند ذلك زكريا (4)، ويقول الفخر الرازي أن المراد بالأقلام التي يكتبون بها التوراة و سائر كتب الله تعالى، و كان القراع على أن كل من جرى قلمه عكس الماء، فالحق معه، فلما فعلوا ذلك

ص: 277

1- سورة آل عمران: آية 37.

2- في ظلال القرآن 1/ 393.

3- يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير (46/8): اختلفوا في السبب الذي لأجله رغبوا في كفالتها حتى أدتهم تلك الرغبة إلى المنازعة، فليل لأن عمران أبها كان رئيسا لهم و مقدا عليهم، فلأجل حق أبيها رغبوا في كفالتها، و قيل لأن أمها حررتها لعبادة الله و خدمة بيته، و قيل لأن في الكتب الإلهية كان بيان أمرها و أمر عيسى عليه السلام حاصلًا فتقربوا لهذا السبب حتى اختصموا.

4- تفسير روح المعاني 3/ 138.

صار قلم زكريا كذلك، فسلموا الأمر له، وهذا قول الأكثرين (1)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (2)، والنص القرآني يشير إلى حادث لم يذكره العهد القديم، ولا العهد الجديد، المتداولان، ولكن لا بد أنه كان معروفا عند الأحرار والرهبان، حادث إلقاء أقلام سدنة الهيكل، لمعرفة من تكون مريم من نصيبه، والنص القرآني لا يفصل الحادث ربما اعتمادا على أنه كان معروفا لسامعيه، أو لأنه لا يزيد شيئا في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة (3).

وهكذا كفل زكريا مريم أم المسيح عليهم السلام، بعد وفاة أبيها عمران، فقد كان زوجا لخالتها، أو أختها، كما ورد في الصحيح: «إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة»، وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير من أنه كان زوجا لخالتها، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها، امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال صلى الله عليه وسلم: «الخالة بمنزلة الأم» (4)، وعلى أية حال، فلقد اتخذ زكريا لمريم محرابا، والمحراب مقدم كل مسجد ومصلي، وهو سيد المجالس وأشرفها وأكرمها، وكذلك هو من المساجد، أو هو المكان الشريف من المسجد، لا يدخله عليها أحد سواه، وقد شاء الله أن يطلعه على كرامة مريم وجيل قدرها، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى:).

ص: 278

1- تفسير الفخر الرازي 45/8.

2- سورة آل عمران: آية 44.

3- في ظلال القرآن 1/396.

4- تفسير ابن كثير 1/539 (بيروت 1986).

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (1)، روى الطبري عن السدي قال: جعلها زكريا معه في بيت، وهو المحراب، فكان يدخل عليها في الشتاء، فيجد عندها فاكهة الصيف، ويدخل في الصيف فيجد عندها فاكهة الشتاء، وعن ابن عباس قال: وجد عندها ثمار الجنة، فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف (2).

وروى الحافظ أبو يعلي عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئا، فأتى فاطمة فقال: يا بنية هل عندك شيء آكله فأني جائع، فقالت: لا، بأبي أنت وأمي، فلما خرج من عندها، بعث إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعت في جفنة لها، وقالت: والله لأؤثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن عندي، وكانوا جميعا محتاجين إلى شعبة طعام، فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليها، فقالت: بأبي أنت وأمي، قد أتى الله بشيء فخباته لك، قال: هلمي يا بنية، قالت فأتيته بالجفنة، فكشفت عنها، فإذا هي مملوءة خبزا ولحما، فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصليت على نبيه، وقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه حمد الله وقال: من أين لك هذا يا بنية، قالت يا أبت: «هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»، فحمد الله وقال: الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئا وسئلت عنه قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي، ثم أكل رسول).

ص: 279

1- سورة آل عمران: آية 37.

2- تفسير الطبري 3/ 245-246 (بيروت 1984).

اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَكَلَ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَحَسَنٌ وَحُسَيْنٌ وَجَمِيعُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ حَتَّى شَبِعُوا جَمِيعًا، قَالَتْ: وَبَقِيَتِ الْجَفْنَةُ كَمَا هِيَ، فَأَوْسَعَتْ بِبَقِيَّتِهَا عَلَى جَمِيعِ الْجِيرَانِ، وَجَعَلَ اللّٰهُ فِيهَا بَرَكَةً وَخَيْرًا كَثِيرًا (1).

وَهَكَذَا نَشَأَتْ مَرْيَمُ الْبَتُولُ عَلَى الطَّهَارَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْبَعْدَ عَنِ الدَّنَسِ وَرِذَائِلِ الْأُمُورِ، قَالَ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهُ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصَّ طَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (2)، وَيَقُولُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: (3) اعْلَمْ أَنَّ الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

أَوَّلًا هُوَ الْاصْطِفَاءُ، وَثَانِيًا التَّطْهِيرُ، وَثَالِثًا الْاصْطِفَاءُ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْاصْطِفَاءُ الْأَوَّلُ مِنَ الْاصْطِفَاءِ الثَّانِي، لِمَا أَنَّ التَّصْرِيحَ بِالتَّكْرِيرِ غَيْرِ لَائِقٍ، فَلَا بَدَّ مِنْ صَرْفِ الْاصْطِفَاءِ الْأَوَّلِ إِلَى مَا اتَّفَقَ لَهَا مِنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ فِي أَوَّلِ عَمَرِهَا، وَالْاصْطِفَاءِ الثَّانِي إِلَى مَا اتَّفَقَ لَهَا فِي آخِرِ عَمَرِهَا، وَمِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْاصْطِفَاءِ أُمُورٌ: أَنَّهُ تَعَالَى قَبْلَ تَحْرِيرِهَا، مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ أُنْثَى، وَلَمْ يَحْصَلْ مِثْلُ هَذَا الْمَعْنَى لغيرِهَا مِنَ الْإِنَاثِ، وَثَانِيًا: قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ أُمَّهَا لَمَّا وَضَعَتْهَا مَا غَذَّتْهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، بَلَّ أَلْقَتَهَا إِلَى زَكْرِيَّا، وَكَانَ رِزْقُهَا يَأْتِيهَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَثَالِثًا: أَنَّهُ تَعَالَى فَرَّغَهَا لِعِبَادَتِهِ وَخَصَّهَا فِي هَذَا الْمَعْنَى بِأَنْوَاعِ اللَّطْفِ وَالْعِنَايَةِ وَالصَّحَّةِ، وَرَابِعًا: أَنَّهُ كَفَّاهَا أَمْرَ مَعِيشَتِهَا، فَكَانَ رِزْقُهَا يَأْتِيهَا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ تَعَالَى عَلَى مَا قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى: أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ، وَخَامِسًا: أَنَّهُ تَعَالَى أَسْمَعَهَا كَلَامَ الْمَلَائِكَةِ شَفَاهَا، وَلَمْ يَتَّفَقْ ذَلِكَ لِأُنْثَى غَيْرِهَا، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْاصْطِفَاءِ الْأَوَّلِ، وَأَمَّا التَّطْهِيرُ فَفِيهِ وَجُوهٌ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى طَهَّرَهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَثَانِيًا:

أَنَّهُ طَهَّرَهَا عَنِ مَسِيْسِ الرِّجَالِ، وَثَالِثًا: طَهَّرَهَا مِنَ الْحَيْضِ، قَالُوا كَانَتْ

ص: 280

1- تفسير ابن كثير 1/ 539-540، تفسير روح المعاني 3/ 141.

2- سورة آل عمران: آية 42-43.

3- تفسير الفخر الرازي 8/ 43.

مريم لا تحيض، و رابعها: طهرها من الأفعال الذميمة و العادات القبيحة، و خامسها: طهرها من مقالة اليهود و تهمتهم و كذبهم، و أما الاصطفاء الثاني:

فالمراد أنه تعالى و هب لها عيسى عليه السلام من غير أب، و أنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، و جعلها و ابنها آية للعالمين، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة.

هذا و قد ناقش العلامة الألوسي في تفسيره: «روح المعاني» قضية اصطفاء مريم على نساء العالمين (1)، و قيل على جميع النساء في سائر الأعصر، و استدل به على أفضليتها على السيدة فاطمة الزهراء، و أمها السيدة خديجة، و السيدة عائشة رضي الله تعالى عنهن، و أن ذلك بما أخرجه ابن عساكر في أحد الطرق عن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: سيدة نساء أهل الجنة: مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون»، و بما أخرجه ابن جرير عن فاطمة، صلى الله تعالى على أبيها و عليها و سلم، أنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم: أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول».

و أما القول الثاني: فالمراد عالمها، فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله تعالى عنها (2)، و يقول ابن كثير: يحتمل أن يكون عالمي زمانها، كقوله تعالى لموسى: إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ، و كقوله عن بني إسرائيل: وَ لَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، و معلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى و أن محمدا صلى الله عليه و سلم أفضل منهما، و كذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها و أكثر عددا و أفضل علما و أزكى عملا من بني إسرائيل و غيرهم (3).

ص: 281

1- روى الطبري و ابن كثير عدة أحاديث شريفة في فضل السيدة مريم (تفسير الطبري 1/ 263-264، تفسير ابن كثير 1/ 542-544، البداية و النهاية 2/ 59-63).

2- تفسير روح المعاني 3/ 155.

3- ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 59.

و يؤيد الألويسي قوله بأن اصطفاء مريم على نساء عالمها، ولا يلزم منه أفضليتها على الزهراء، بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أربع نسوة سادات عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم و أفضلهن عالما فاطمة»، و ما رواه الحرث بن أسامة في مسنده بسند صحيح، لكنه مرسل «مريم خير نساء عالمها»، و إلى هذا ذهب أبو جعفر رضي الله تعالى عنه (أي الإمام محمد الباقر)، و هو المشهور عن أئمة أهل البيت، و الذي أميل إليه (أي العلامة الألويسي): أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات و المتأخرات من حيث أنها بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل و من حيثيات أخرى أيضا، و لا يعكر على ذلك الأخبار السابقة لجواز أن يراد بها أفضلية غيرها عليها من بعض الجهات و بحيشية من حيثيات، و به يجمع بين الآثار، و هذا شائع على القول بنبوة مريم أيضا، إذ البضعية من روح الوجود و سيد كل موجود صلى الله عليه وسلم لا أرها تقابل بشيء، و أين الثريا من يد المتناول، و من هنا يعلم أفضليتها على عائشة، رضي الله تعالى عنها، الذاهب إلى خلافها الكثير، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم: «خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء» و قوله صلى الله عليه وسلم:

«فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»، و بأن عائشة يوم القيامة في الجنة مع زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، و فاطمة يومئذ فيها مع زوجها علي، كرم الله تعالى وجهه في الجنة، و فرق عظيم بين مقام النبي صلى الله عليه وسلم و مقام علي كرم الله وجهه.

و أنت تعلم ما في هذا الاستدلال، و أنه ليس بنص على أفضلية الحميراء على الزهراء، أما (أولا) فلأن قصارى ما في الحديث الأول، على تقدير ثبوته، إثبات أنها عالمة إلى حيث يؤخذ منها ثلثا الدين، و هذا لا يدل على نفي العلم المماثل لعلمها عن بضعته الزهراء صلى الله عليه وسلم، و لعلمه صلى الله عليه وسلم أنها لا تبقى بعده زمنا معتدا به يمكن أخذ الدين منها فيه لم يقل فيها ذلك، و لو علم لربما

قال: خذوا كل دينكم عن الزهراء، وعدم هذا القول في حق من دل العقل والنقل على علمه، لا يدل على مفضوليته، وإلا لكانت عائشة أفضل من أبيها، رضي الله تعالى عنه، لأنه لم يرو عنه في الدين إلا قليل، لقلة لبثه وكثرة غائته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن قوله صلى الله عليه وسلم: «إني تركت فيكم الثقلين، كتاب الله تعالى وعترتي، لا يفترقان حتى يردا على الحوض»، يقام مقام ذلك الخبر وزيادة، كما لا يخفي، كيف لا، وفاطمة، رضي الله تعالى عنها، سيدة تلك العترة؟.

و أما (ثانيا) فلأن الحديث الثاني معارض بما يدل على أفضلية غيرها، رضي الله تعالى عليها، فقد أخرج ابن جرير عن عمار بن سعد أنه قال، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين» بل هذا الحديث أظهر في الأفضلية وأكمل في المدح، عند من انجاب عن عين بصيرته عين التعصب والتعسف، لأن ذلك الخبر، وإن كان ظاهرا في الأفضلية، لكنه قيل، ولو على بعد، إن «أل» في النساء فيه للعهد، والمراد بها الأزواج الطاهرات الموجودات حين الإخبار، ولم يقل مثل ذلك في هذا الحديث، و أما (ثالثا) فلأن الدليل الثالث يستدعي أن يكون سائر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام، لأن مقامهم بلا ريب، ليس كمقام المحمود صلى الله عليه وسلم فلو كانت الشركة في المنزل مستدعية للأفضلية، لزم ذلك قطعاً، ولا قائل به.

وبعد هذا كله، الذي يدور في خلدي: أن أفضل النساء قاطبة: فاطمة ثم أمها (خديجة) ثم عائشة، بل لو قال قائل إن سائر بنات النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من عائشة، لا أرى عليه بأساً، وعندى بين مريم وفاطمة توقف نظراً للأفضلية المطلقة، وأما بالنظر إلى الحيثية، فقد علمت ما أميل إليه، وقد سئل الإمام السبكي، عن هذه المسألة فقال: الذي نختاره وندين الله تعالى به، أن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم أفضل، ثم أمها ثم عائشة، وواقفه في ذلك البلقيني،

وقد صحح ابن العماد أن خديجة أيضا أفضل من عائشة، لما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة، حين قالت: قد رزقك الله خيرا منها، فقال لها: لا والله ما رزقني الله تعالى خيرا منها، آمنت بي حين كذبتني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس، وأيد هذا بأن عائشة أقرأها السلام النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل، وخديجة أقرأها السلام جبريل من ربها، وبعضهم لما رأى تعارض الأدلة في هذه المسألة توقف فيها، وإلى التوقف مال القاضي أبو جعفر الأروشي منا، وذهب ابن جماعة إلى أنه المذهب الأسلم، وأشكل ما في هذا الباب حديث الثريد، ولعل كثرة الأخبار الناطقة بخلافه تهون تأويله، وتأويل واحد لكثير أهون من تأويل كثير لواحد، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل (1).

ص: 284

1- تفسير روح المعاني 3/ 155-156 (دار الفكر- بيروت 1978).

السيد المسيح عيسى بن مريم: اسمه عيسى، ولقبه المسيح، ويكنى ابن مريم، نسبة إلى أمه مريم بنت عمران، وأما سبب تقديم اللقب على الاسم، فذلك، فيما يرى الفخر الرازي، لأن المسيح كاللقب الذي يفيد كونه شريفا رفيع الدرجة مثل الصديق و الفاروق، فذكره الله تعالى أولا بلقبه ليفيد علو درجته، ثم ذكره باسمه الخاص، وأما نسبه لأمه، فلأن الأنبياء إنما ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات، فلما نسبه الله تعالى إلى الأم، دون الأب، كان ذلك إعلاما لها بأنه محدث بغير الأب، فكان ذلك سببا لزيادة فضله و علو درجته (1).

وكلمة المسيح عند أهل الكتاب تعني المخلص المنتظر الذي يتم على يديه خلاص الشعب المختار، و من ثم فقد أطلق على أتباع المسيح لفظ «المسيحيين» تمييزا لهم عن اليهود (2)، وربما تعني كلمة المسيح، الممسوح بزيت البركة، كما كان اليهود يفعلون عند تنصيب ملك جديد (3)، وأما كلمة «يسوع» التي استعملت في الأناجيل فهي الصيغة الهيلينية لكلمة «يشوع»،

ص: 285

1- تفسير الفخر الرازي 50/8.

2- جواد علي: المرجع السابق 6/585.

3- صموئيل أول 1/10.

و هو بالعربية تعني «يهوه هو الخلاص» (1)، على أنه من الجدير بالملاحظة أن هذه اللفظة اليونانية لم تستعمل في القرآن الكريم، وكذا المؤلفات العربية القديمة، فضلا عن الشعر الجاهلي، فالكلمة على ما يبدو من الكلمات المتأخرة (2)، وإن ذهب بعض علماء المسلمين إلى أن عيسى معرب يشوع ومعناه «السيد» (3).

و أما كلمة المسيح عند المسلمين فهي: لقب من الألقاب المشرفة كالصديق و الفاروق، و أصله مشيحا بالعبرية و معناه المبارك، و قيل بمعنى مسحه الله فطهره من الذنوب، و قيل لأنه مسح بالبركة، و عن إبراهيم النخعي بمعنى الصديق، و عن أبي عمرو بن العلاء بمعنى الملك، و عن كثير من السلف أن المسيح مشتق من المسح، و اختلفوا في وجه إطلاقه على عيسى عليه السلام، فقيل لأنه مسح بالبركة و اليمن، و قد روى ذلك عن الحسن البصري و سعيد بن جبير، و عن ابن عباس لأنه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلا برئ، و عن الكلبي لأنه كان يمسح عين الأكمة فيبصر، و عن الجبائي لأنه كان يمسح بدهن زيت بورك فيه، و كانت الأنبياء تتمسح به، و لا يمسح به غيرهم، و أن هذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبيا، و قيل لأن جبريل مسحه بجناحيه وقت الولادة ليكون عوذه من الشيطان الرجيم، و قيل لأنه حين مسح الله تعالى ظهر آدم عليه السلام، فاستخرج منه ذرات ذريته لم يرده (أي المسيح) إلى مقامه كما فعل بباقي الذرات بل حفظه عنده حتى ألقاه إلى مريم قد بقي عليه اسم المسيح أي الممسوح، و قيل لأنه كان مسيح القدمين لا أخصص لهما، و قيل لكثرة سياحته، فقد كان يمسح الأرض بالسياحة لا

ص: 286

1- فيلب حتى: المرجع السابق ص 363.

2- .P, malsI fo yranoitciD, sehguH 431 .

3- تفسير روح المعاني 161 / 3.

يستوطن مكانا، أو لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى، أو لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن (1).

و أما أتباع المسيح فيسمون «النصارى»، و النصارى جمع واحد «نصراني»، بإسقاط الياء فيما يرى «سيوييه»، و الأنتى «نصرانية» و هي نكرة يعرف بالألف و اللام، و ذهب الخليل إلى أن واحد النصارى «نصري» هذا و قد سمع في جمعهم أنصار، و الكلمة ليست عربية أصلية، و إنما معربة عن السريانية من كلمة «نصريو أو نصرايا» على رأي (2)، و من التسمية العبرية «الناصريين» أو «النذيريين» حيث أطلقها اليهود على أتباع السيد المسيح، على رأي آخر (3)، على أن البعض إنما يرى أن للكلمة صلة بالناصرة، بلد المسيح عليه السلام، فعن ابن عباس: إنما سميت النصارى نصارى، لأن قرية عيسى بن مريم كانت تسمى «الناصرة»، و كان أصحابها يسمون «الناصريين» و كان يقال لعيسى «الناصري»، أو نسبة إلى الناصريين إحدى الفرق اليهودية القديمة المنتصرة، أو أنهم سموا النصارى لتناصرهم فيما بينهم، و قد يقال لهم أنصار أيضا، كما قال عيسى عليه السلام: «من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله» (4)، و قد بقي اليهود يطلقون كلمة النصارى على من اتبع دين المسيح، و بهذا المعنى وردت الكلمة في

ص: 287

-
- 1- تفسير الطبري 270/3 تفسير ابن كثير 545/1، تفسير روح المعاني 161/3، تفسير الكشاف 278/1، صفوة التفاسير 201/1، لسان العرب 594/2، تفسير النسفي 158/1، تفسير الفخر الرازي 49/8-50، تفسير المنار 251/3-252.
 - 2- لسان العرب 68/7، تفسير الطبري 318/1، تفسير القرطبي ص 369، تفسير ابن كثير 156/1، تفسير البحر المحيط 238/1، معاني القرآن للفراء 44/1، أمالي ابن الشجري 79/1، 371، غرائب اللغة ص 207، و كذا.. P, III, IE .848.
 - 3- أعمال الرسل 5/24، و كذا.. ERE, sgnitsaH. J 574. p. 3.
 - 4- تفسير الطبري 318/1، تفسير ابن كثير 156/1.

القرآن الكريم، و من ثم فقد أصبحت النصرانية علما على ديانة المسيح عند المسلمين (1).

و أما النصرارى أنفسهم فقد كان القدامى منهم ينظرون إلى السيد المسيح نظرتهم إلى «المعلم»، و من ثم فقد كانوا يسمون أنفسهم «التلاميذ» و «تلاميذ المسيح» (2)، و الأمر كذلك بالنسبة إلى نظرتهم إلى «الحواريين» (و هي لفظة آرامية على رأي، و عربية على رأي آخر، و حبشية على رأي ثالث) (3)، كما دعوا أنفسهم «الأخوة» و «الأخوة في الله»، على أساس أن العقيدة الدينية قد آخت بينهم (4)، ثم سرعان ما أصبحت الكلمة مقصورة على رجال الدين الذين دعوا أنفسهم «القديسين» و «الأخوة المؤمنين في المسيح» و «المقديسين في المسيح يسوع المدعوين قديسين» (5)، هذا و قد عرف النصرارى كذلك «بالمسيحيين»، و نقرأ في أعمال الرسل أن «برنابا» قد خرج إلى طرطوس، و هناك التقى بشاؤل حيث جاء به إلى أنطاكية و بقيا هناك عاما يعلمان جمعا غفيرا من الكنيسة و دعي التلاميذ «مسيحيين» في أنطاكية أولا (6)، كما نقرأ أيضا «فقال أغريباس لبولس بقليل تقنعني أن أصير مسيحيا» (7)، و ربما كانت الكلمة نسبة إلى السيد المسيح، هذا و قد أطلق

ص: 288

- 1- سورة البقرة: آية 62، المائدة: آية 18، 51، 69، 82، التوبة: آية 30، الحج: آية 17، و انظر: محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة الإسكندرية 1978 ص 59-70، 103-107.
- 2- , 1936 p. J 192. sgnitsaH. J 192. p. 1936 .elbiB eht fo yranoitciD.
- 3- الأب لويس شيخو: النصرانية و آدابها بين عرب الجاهلية- بيروت 1933 ص 189، المشرق- السنة السابقة 1904 م ص 620.
- 4- .P, tic- po, sgnitsaH. J 104 .
- 5- أعمال الرسل 15/1-16، رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 2/1، 10.
- 6- أعمال الرسل 11/25-26.
- 7- أعمال الرسل 11/26، 26/28، رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 4/16، و كذا.. P, tic- po, sgnitsaH. J 127 .

القرآن الكريم على النصارى «أهل الإنجيل» في قوله تعالى: وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (1).

وعلى أي حال، فالمسيح عيسى بن مريم هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة العفيفة التي أحصنت فرجها وصدقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين، ويمثل المسيح عليه السلام آخر طور من أطوار الديانة الإسرائيلية، فهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد جعله الله عز وجل، هو وأمه، آية في ولادتهما ونشأتهما، قال تعالى:

وَالتِّي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (2)، يقول الرازي: وأما مريم فأياتها كثيرة، أحدها: ظهور الحبل فيها، لا من ذكر، فصار ذلك آية ومعجزة خارقة عن العادة، وثانيها:

أن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة، وهو قوله تعالى: أَنَّى لَكَ هَذَا، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وثالثها ورابعها: قال الحسن البصري: إنها لم تلتم ثديا يوما قط، وتكلمت هي أيضا في صباها، كما تكلم عيسى عليه السلام (3)، وأما آيات عيسى عليه السلام، فسوف نتحدث عنها بالتفصيل في مكانها من هذه الدراسة، ويقول تعالى: وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً، وَأَوْنَاهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (4)، أما الآية فهي آية غير مسبوقة ولا ملحوقة (أعني ولادة مريم للمسيح من غير مسيس)، آية فذة واحدة في تاريخ البشرية جميعا، ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفي لتأمل البشرية في أجيالها

ص: 289

1- سورة المائدة: آية 47.

2- سورة الأنبياء: آية 91.

3- تفسير الفخر الرازي 218/22.

4- سورة المؤمنون: آية 50.

جميعها، وتذكر يد القدرة الطليقة التي تخلق النواميس، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس (1).

وأما الربوة المشار إليها في الآية الكريمة، فقد اختلفت الروايات في تحديدها، بين مصر ودمشق وبيت المقدس (2)، ورغم أنه ليس المهم تحديد موضعها، وإنما المقصود هو الإشارة إلى إيواء لمريم وابنها في مكان طيب، ينضرب فيه النبات، ويسيل فيه الماء، ويجدان فيه الرعاية والإيواء (3)، وعلى آية حال، فلقد ذهبت رواية الإنجيل إلى أنها مصر (4)، وإلى هذا ذهب الطبري في التاريخ (5)، وكذا ابن خلدون الذي يرى أنهما أقاما بمصر اثني عشر سنة (6)، وكذا ابن كثير الذي يروي عن وهب بن منبه أن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا (بيت المقدس) فقدم عليه يوسف ابن خال أمه، فحملها على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم، وتحدث الناس بقدومه وفرعوا لما كان يأتي من العجائب فجعلوا يعجبون منه، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره (7)، وكذا ذهب اليعقوبي وابن الأثير في تاريخهما، والألوسي في تفسيره، إلى أنها مصر (8).

ص: 290

- 1- في ظلال القرآن 4 / 2395.
- 2- أنظر: تفسير الطبري 18 / 26-28، تفسير روح المعاني 18 / 37-39، تفسير ابن كثير 3 / 394-395، تفسير النسفي 3 / 121، تفسير الفخر الرازي 23 / 102-103.
- 3- في ظلال القرآن 4 / 2469.
- 4- إنجيل متى 2 / 13-15.
- 5- تاريخ الطبري 1 / 597.
- 6- تاريخ ابن خلدون 2 / 172.
- 7- ابن كثير: البداية والنهاية 2 / 77.
- 8- تاريخ اليعقوبي 1 / 69، الكامل لابن الأثير 1 / 178، تفسير روح المعاني 18 / 38-39.

وأي كان مكان هذه الربوة، فما يهمننا الآن الإشارة إلى أن الشعب الإسرائيلي في ذلك الوقت إنما كان قد فقد الروح الديني الصحيح، وجمد على الطقوس والمراسيم وأشكال العبادة، وارتكب الجرائم المروعة التي أشار القرآن الكريم إلى بعضها (1)، فأراد الله أن يهز في هذا الشعب ما جمد من عواطفه، ويحرك فيه المعاني الروحية التي نسيها، فأجرى له ثلاث آيات كبار، جاءت متتابعة متقاربة، الأولى في ولادة مريم، والثانية في ولادة يحيى، وأما الثالثة فكانت في ولادة المسيح، وذلك أن مريم البتول ما أن بلغت مبلغ النساء، حتى أراد الله أن يجعل لها من الكرامة ما لم يتيسر لغيرها من نساء العالمين، فهبأ لها الحمل دون تتوافر لها أسبابه، وذلك بأن جاءها جبريل، في أرجح الآراء، في صورة فتى غض الشباب فتملكها الرعب والخوف، وظنت أنه يريد بها سوء، ومن ثم فهي تنتفض منه انتفاضة العذراء يفجؤها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستشير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله والتخرج من رقابته في هذا المكان الخالي «قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً»، فالتقى ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان (2).

وروى عن ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد الشعر مستوى الخلقة (3)، قال المفسرون: إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولوبدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه، ودل على عفافها ورعها أنها تعودت بالله من تلك الصورة الجمالية الفائقة في الحسن (4)، ويقول الفخر الرازي إن في

ص: 291

1- أنظر: سورة آل عمران: آية 36، النساء: آية 160-161.

2- في ظلال القرآن 4/2305.

3- زاد المسير 5/217.

4- تفسير البحر المحيط 6/180، تفسير النسفي 3/31.

قوله تعالى: قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا وَجْهَهُ، أحدها:

أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله و يحصل ذلك بالاستعاذة بالله، فإني عائذة به منك، وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي، وهو كقوله: وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، أي أن شرط الإيمان يوجب هذا، لا أن الله يخشى في حال دون حال، و ثانيها: أن معناه ما كنت تقيا حين استحلت النظر إلي و خلوت بي، و ثالثها: أنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه «تقيا» يتبع النساء فظنت مريم أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقي، و الأول هو الوجه (1)، و من ثم ذهب الألوسي إلى أن من قال إن «تقيا» اسم رجل صالح أو حتى طالح، ليس بسديد (2).

و على أية حال، فلقد أخبرها جبريل عليه السلام أن الله تعالى أرسله إليها ليهب لها غلاما زكيا، يكون له شأن عجيب، و يهبه الله النبوة و الحكمة و حينئذ تملكها العجب، و أدركتها شجاعة الأثني المهددة في عرضها، فتسأل في صراحة أُنِّي يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمَسَّنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا، و يبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاما، إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر و الأثني، و هذا هو الطبيعي بحكم التصور البشري، قال كذلك قال رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا (3). و في سورة آل عمران تفصيل أكثر عن الغلام المبشر به قالتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَ جِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ (4)، و هكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح

ص: 292

1- تفسير الفخر الرازي 197/21 - 198.

2- تفسير روح المعاني 77/16.

3- سورة مريم: آية 20-21، في ظلال القرآن 4/2306.

4- سورة آل عمران: آية 45-46، و انظر: تفسير الطبري 3/269-273، تفسير ابن كثير 1/545، تفسير النسفي 1/158، تفسير روح المعاني 3/159-164، تفسير الفخر الرازي 8/46-52، تفسير الكشاف 1/277-278، تفسير القرطبي ص 1330-1331، تفسير المنار 3/249-255، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 1/182-183.

عيسى ابن مريم، فتضمنت البشارة نوعه، وتضمنت اسمه ونسبه، وظهر من هذا النسب أن مرجعه لأمه، ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه وحيهاً في الدنيا والآخرة ومن المُقَرَّبِينَ، كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، ولمحة من مستقبله «و كهلاً»، وسمته والموكب الذي ينتسب إليه «و من الصالحين»، فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بما لوف البشر في الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة، واتجهت إلى ربها تواجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذي يحير عقل الإنسان: أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّ نِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب وتزول الحيرة ويطمئن القلب، وهكذا كان القرآن يجلو الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة، ويقر الأمر في القلوب وفي العقول سواء (1).

وعلى أية حال، فليس هناك من ريب في أن ولادة المسيح عيسى بن مريم، على هذا الوضع العجيب آية بالغة على كمال قدرة الله على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى، يقول ابن كثير: فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه (2)، وعلى هذا المنوال الأخير من الخلق (أي من ذكر وأنثى) جرت سنة الله التي وضعها لا امتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في

ص: 293

1- في ظلال القرآن 1/ 398.

2- تفسير ابن كثير 3/ 187.

جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر و أنثى متميزان، تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير و التأنيث، جرت هذه السنة أحقابا طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه هي الطريقة الوحيدة، و نسوا الحادث الأول، حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس، فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى بن مريم عليه السلام، ليذكرهم بحرية القدرة و طلاقة الإرادة، و أنها لا تحبس داخل النواميس التي تختارها، و لم يتكرر حادث عيسى، لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله، و أن ينفذ الناموس الذي اختاره، و هذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية معلما بارزا على حرية المشيئة، و عدم احتباسها داخل حدود النواميس و لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ، و نظرا لغرابة الحادث و ضخامته، فقد عزّ على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته و أن تدرك الحكمة في إبرازه، فجعلت تضيفي على عيسى بن مريم عليه السلام، صفات الألوهية، و تصوغ حول مولده الخرافات و الأساطير، و تعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب، و هي إثبات القدرة الإلهية التي لا نتقيد، تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد (1)، بينما تدنت آراء أخرى إلى الحضيض، فاتهمت الطاهرة البتول بما هي منه براء.

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه من البشارات التي جاءت في الإنجيل عن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم قول المسيح عليه السلام: «ذاك يمجدني» (2)، و القرآن الكريم، كما رأينا من قبل، حافل بآيات الدفاع عن السيد المسيح و أمه الطاهرة البتول، و دفع الشبهات عنه بالحجة البالغة، و الاعتراف به عبدا لله تعالى، و رسولا إلى بني إسرائيل، و قد أيدته الله تعالى بالإنجيل و الروح القدس، و من البدهي أنه ليس هناك من تمجيد، أرفع، و لا

ص: 294

1- في ظلال القرآن 4/ 2304-2305.

2- إنجيل يوحنا 14/16.

دفاع أقوى وأشرف، مما جاء في كتاب الله الكريم- القرآن الكريم (1)- من ثناء و تقدير و تكريم للسيد المسيح عليه السلام، و تبرئه لعرضه، و عرض أمه مريم الطاهرة البتول العذراء مما اتهمها به اليهود (2)، من ذلك قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ

ص: 295

1- أنظر مثلا: سورة آل عمران: آية 35-37، 42-51، سورة مريم: آية 16-35.

2- يروي التلمود أن يسوع الناصري (و حاشاه أن يكون كما وصفه اليهود كذبا و افتراء) ارتد عن ديانة اليهود و عبد الأوثان، و كل مسيحي لم يتهود فهو و ثني عدو لليهود، كما يسمى التلمود السيد المسيح «ابن البخار» (ربما يقصد اليهود يوسف البخار خطيب السيدة مريم الذي لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل) على نحو ما كان اليهود يطلقون عليه أثناء حياته، و يصفه بأنه كان ساحرا و وثنيا و مجنوننا و كافرا لا يعرف الله، و من ثم فإن المسيحيين إنما هم كفرة مثله، و أن الطقوس الدينية المسيحية نوع من عبادة الأصنام، و أن أمه مريم قد أتت به من العسكري الروماني «باندارا» بمباشرة الزنا. و يشير اليهود إلى «يوسف باندارا» الذي عاش في الجليل، و عرف بالفسق و الفجور، إلى جانب شكله الحسن، ثم أقدم على التغير بالفتاة «ميريام» (مريم) ابنة الأرملة، و هناك كتاب يهودي يحكي القصة بأكملها، و يرجع تاريخه إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي، استخدمه اليهود في الهجوم على المسيحية و تحقيرها و يسمى «سفر حياة يسوع» (L fo efiL tsirhC fo theS rehpeS todloT :B kooB fo eht noitareneG suseJ ehT, hsiweJ) و يبدو أن الكتاب قد وقع في أيدي الكنيسة في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، و قد نشر الراهب الدومينيكي «ريموند مارتن» (1225-1284 م) بعض من مقتطفات من «سفر حياة يسوع» دون ذكر اسمه في مقدمة كتابه «خنجر الإيمان أو سيف الدين»، (R dnumyaR nitraM oigup, iediF A susrevdA te soruaM soeaduJ) الذي نشره للدفاع عن الدين المسيحي ضد تحديات اليهود و أكاذيبهم المفتراة، ثم قام «مارتن لوثر» (1483-1546 م) زعيم الإصلاح البروتستانتي، بترجمة «سفر حياة يسوع» إلى الألمانية، كما نشره المستشرق الألماني «يوحنا كريستوني فاجنزابل»، فوضع النص اللاتيني مقابل النص العبري في مجموعته الشهيرة التي ضمت العديد من النصوص و الكتابات اليهودية التي تضمنر العداء للمسيحية، ثم عكف على دحض كل ما فيها من تهجمات و افتراءات، (J nshoJ tsirhC hpotsirhC W liesnege aleT, I aengI eanataS frodtlA) 1681 و انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل- الكتاب الثالث- التوراة و التلمود- الاسكندرية 1979 ص 445-451.

العالمين (1)، وهنا يجب أن نلاحظ أمرين: أحدهما: أن القرآن الكريم لم يذكر اسم أية امرأة، إلا مريم بنت عمران، أم المسيح عليهما السلام، والهدف واضح هو ألا يكون في براءتها و طهرها أية ريبة لمستريب، و ثانيهما: أن القرآن الكريم قد أطلق اسمها على سورة من سوره، الأمر الذي لم يحدث لغيرها من النساء، وفي حاشية الصاوي على الجلالين: قال بعض العلماء: إن الحكمة في أن الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها، إلا «مريم» هي الإشارة من طرف خفي إلى رد ما قاله النصارى من أنها زوجته، فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس و لينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أب له، و لهذا قال تعالى: اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (2).

و يستمر السياق القرآني فيذكر مشهدا جديدا من القصة، يقول تعالى:

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيدًا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَ كُنْتُ نَسِيًّا مَسِيًّا (3)، و لا يذكر السياق القرآني كيف حملت مريم وليدها المبارك، و لا كم حملته، و هل كان حملا عاديا كما تحمل النساء، و تكون النفخة قد بعثت الحياة و النشاط في البويضة فإذا هي علقه فمضغة فعظام ثم تكسى باللحم و يستكمل الجنين أيامه المعهودة؟ إن هذا جائز، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط و النمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، و النفخة تكون قد أدت دور التلقيح فصارت البويضة سيرتها الطبيعية، كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة ألا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتتخصر المراحل اختصارا، و يعقبها تكوين

ص: 296

-
- 1- سورة آل عمران: آية 42، وانظر: تفسير الفخر الرازي 42/8-44، تفسير الطبري 262/3-264، تفسير ابن كثير 542/1-544، تفسير النسفي 157/1-158، تفسير روح المعاني 154/3-156، تفسير القرطبي ص 1324-1326، تفسير الكريم الرحمن 1/182، تفسير المنار 246/3-247.
 - 2- صفوة التفاسير 1/204.
 - 3- سورة مريم: آية 22-23.

الجنين ونموه و اكتماله في فترة وجيزة، ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين (1)، و من ثم فقد اختلف العلماء في مدة حمل مريم بعيسى على وجوه، الأول: قول ابن عباس أنها كانت تسعة أشهر، كما في سائر النساء بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع، فلو كانت عاداتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر، و الثاني: أنها كانت ثمانية أشهر، و لم يعش مولود وضع لثمانية، إلا عيسى بن مريم عليه السلام، و الثالث: قول عطاء و أبي العالية و الضحاك سبعة أشهر، و الرابع: أنها كانت ستة أشهر، و الخامس: ثلاث ساعات، حملته في ساعة، و صور في ساعة، و وضعته في ساعة، و السادس: قول آخر لابن عباس كانت مدة الحمل ساعة واحدة، ما هي إلا أن حملت فوضعت، و استدل عليه من وجهين، أولهما:

قوله تعالى: فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا، و الفاء للتعقيب فدلّت هذه الفاءات على أن كل واحدة من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل، و ذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة، لا يقال انتبأها مكانا قصيا كيف يحصل في ساعة واحدة، لأن السدى فسرها بأنها ذهبت إلى أقصى موضع في جانب محرابها، و ثانيهما: أن الله تعالى قال في وصف عيسى: إِنَّ مَثَلَّ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فثبت أن عيسى كما قاله الله تعالى: كُنْ فَيَكُونُ، و هذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل، و إنما تعقل المدة في حق من يتولد من النطفة (2)، و أخيرا فإن «إليان» و أشياعه من النصارى إنما يذهبون إلى أن مريم لم تحبل بعيسى تسعة أشهر، و إنما مرّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها، و خرجت من حيث يخرج الولد من

ص: 297

1- في ظلال القرآن 4/ 2306.

2- تفسير الفخر الرازي 21/ 202، تفسير روح المعاني 16/ 79-80 و انظر: تفسير الطبري 16/ 65، تفسير النسفي 3/ 32، تفسير ابن كثير 3/ 188-189، البداية و النهاية 2/ 65-66، الكامل لابن الأثير 1/ 176.

ساعتها (1)، هذا و اختلفوا كذلك في سن مريم يوم حملت بالسيد المسيح، بين أن تكون بنت عشر سنين أو خمس عشرة أو سبع عشرة أو عشرين، وقيل أنها كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل، وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال (2).

وأيما كان الأمر، فلقد حملت مريم الطاهرة البتول بالمسيح، كلمة الله وروحه، ثم انتبذت به مكانا قصيا، وقد اختلف المفسرون في المكان الذي انتبذت مريم بعيسى لوضعه، وأجاءها إليه المخاض، فقال بعضهم:

كان ذلك في أدنى أرض مصر، و آخر أرض الشام، و ذلك أنها هربت من قومها لما حملت، فتوجهت نحو مصر هاربة منهم (3)، على أن هناك رواية أخرى، وهي الأرجح، أنها ولدته في «بيت لحم» (4)، و يؤكد أنه أحاديث الإسراء من رواية النسائي عن أنس، و البيهقي عن شداد بن أنس، أن ذلك كان في بيت لحم، و هو المشهور، و لا يشك النصارى أن المسيح ولد في بيت لحم (5)، و في مروج الذهب يقول المسعودي أن مولد المسيح كان في يوم الأربعاء (الثلاثاء عند اليعقوبي) لأربع و عشرين ليلة خلت من كانون الأول (ديسمبر) (6)، و قال ابن العميد، مؤرخ النصارى، فيما يروي عنه ابن

ص: 298

1- في ظلال القرآن 864/2.

2- تفسير الفخر الرازي 201/21، تفسير النسفي 32/3 مروج الذهب للمسعودي 76/1، الكامل لابن الأثير 175/1.

3- تفسير الطبري 64/16 (بيروت 1984).

4- بيت لحم: مدينة على مبعده خمسة أميال جنوب القدس، و قد بنت الامبراطور «هيلانة» حوالي عام 330 م كنيسة هناك فوق المغارة التي يظن النصارى أن المسيح ولد فيها، و هي أقدم كنيسة مسيحية في العالم (قاموس الكتاب المقدس 205-206 و كذا. P, tic- 140 po, regnU. F. M) و لكن القرآن الكريم يذكر أنه ولد عند جذع نخلة (مريم آية 23) و من ثم فالصحيح أنه ولد عند جذع نخلة أو عند بيت لحم، و ليس في مغارة.

5- تفسير ابن كثير 189/3، تاريخ ابن خلدون 171/2، و انظر: إنجيل متى 1/2-6، لوقا 2/4-6.

6- مروج الذهب للمسعودي 76/1، تاريخ اليعقوبي 68/1.

خلدون، ولد المسيح لثلاثة أشهر من ولادة يحيى بن زكريا، عليهم السلام، وإحدى و ثلاثين من دولة هيرودوس الأكبر، و لاثنتين و أربعين من ملك أو غسطس قيصر (1).

على أن المؤرخين المحدثين إنما يختلفون في تاريخ مولد السيد المسيح، وإن كان الخلاف محصوراً في سنوات قلائل، فلقد كان مولد المسيح على أيام أول قيصرية روما «أوغسطس» (27 ق.م - 14 م)، و على أيام «هيرودوس الكبير» (37-4 ق.م) حاكم اليهودية من قبل الحاكم الروماني «بيلاطس النبطي»، و على أيام «الحارث الرابع» (9 ق.م - 40 م) ملك الأنباط، هذا و يذهب البعض إلى أن السيد المسيح إنما قد ولد فيما بين عامي 6، 2 قبل الميلاد، بينما يذهب فريق ثان إلى أنه ولد عام 5 قبل الميلاد أو أوائل عام 4 قبل الميلاد، أما الاحتفال بمولده في 25 ديسمبر، فقد بدأ في القرن الرابع الميلادي، و من ثم فر بما كان مولده في 25 ديسمبر عام 5 ق.

م، و هذا يجعله سابقاً للتاريخ الذي وضعه «ديونيسيوس» في 25 ديسمبر عام 1 م، بخمس سنوات، على أن هناك فريقاً رابعاً يرى أن مولد المسيح كان في عام 4 م، و أنه رفع إلى السماء في عام 27 م، و ربما في 23 مارس عام 29 م، و هذا يجعله و كأنه عاش 23 سنة أو 25 سنة، مع أن المشهور أنه عاش ثلاثاً و ثلاثين سنة، و أخيراً فهناك من يرى أن المسيح عليه السلام إنما بدأ دعوته، و قد ناهز الثلاثين من عمره في عهد الامبراطور «تبريوس» (14-37 م)، و كان حاكم اليهودية من قبل الرومان «هيرودوس أنتيباس» (6-39 م) الابن الثاني لهيرودوس الكبير (2).

ص: 299

1- تاريخ ابن خلدون 171 / 2.

2- ه. ج. ويلز: تاريخ العالم - القاهرة 1967 ص 172 - 416 (مترجم)، فيلب حتى: المرجع السابق 1 / 311 - 312، 263، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1 / 359، 2 / 145، و كذا، J, raW hsiwe, I, III, 8, ., 3, 5, XV, 6, 4, suhpesoJ, A, seitiuqitn, VIX, ehT

هذا وقد يحدثنا العهد الجديد أن هيرودوس علم أن مجوسا من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم يسألون عن المولود ملك اليهود، و من ثم فقد جمع رؤساء الكهنة وسألهم أين يولد المسيح، فأخبروه أنه يولد في بيت لحم، و من ثم فقد أسرع الطاغية فأمر بقتل جميع الأطفال في بيت لحم وفي كل تخومها، من ابن سنتين فما دونها، و هنا رأى يوسف النجار، فيما يرى النائم، من يأمره بأن يأخذ الصبي و أمه (المسيح و مريم البتول) و أن يلجأ بهم إلى أرض الكنانة، حيث بقوا هناك إلى مات هيرودوس، ثم عادوا من مصر إلى اليهودية، و لكنهم لم يقيموا في بيت لحم وإنما أقاموا في الناصرة بأرض الجليل، خوفا على السيد المسيح من «أرخيلاوس» ابن هيرودوس و خليفته (1).

و أما مكان الولادة فكان، كما جاء في القرآن الكريم، عند جذع نخلة، قال تعالى: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ (2)، و قال الزمخشري في الكشاف: كان جذع نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس و لا ثمر و لا خضرة، و كان الوقت شتاء، و التعريف إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم و الصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائر، و إما أن يكون تعريف الجنس، أي إلى جذع هذه الشجرة خاصة، كان الله قد أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء، و لأن النخلة أقل الأشياء صبرا على البرد، و لا تثمر إلا عند اللقاح، و إذا قطعت رأسها تثمر، فكانه تعالى قال: كما أن الأثني لا تلد إلا مع الذكر، فكذا النخلة لا تثمر إلا مع اللقاح، ثم إنني أظهر الرطب من غير لقاح، ليدل ذلك

ص: 300

1- متى 23-1/2 و كذا. P, tic- po, regnU. M 471. و كذا. P, tic- po, htoR. C 109.

2- سورة مريم: آية 23.

على ظهور الولد من غير ذكر (1).

وعلى أية حال، فبينما كانت البتول الطاهرة تستند إلى جذع النخلة إبان الوضع: قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مَتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (2)، مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل إليها، وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام، ووعدها بأن يجعلها و ابنها آية للعالمين (3)، و إنما قالت ذلك استحياء من الناس و خوفاً من لائمهم، أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما يتكلمون فيها، قال ابن كثير: في الآية دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى و تمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، و لا يصدقونها في خبرها، و بعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، و من ثم قالت و هي تطلق من الحبل استحياء من الناس، فيما يروي عن ابن عباس و السدي، يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، و الحزن بولادتي المولود من غير بعل، و هكذا تمت الموت، و تمني الموت لنحو ذلك مما لا كراهة فيه، نعم يكره تمنيه لضرر نزل بالإنسان من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، ففي صحيح مسلم و غيره، قال صلى الله عليه و سلم: لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل، فإن كان لا بد متمنياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، و توفي لي إذا كانت الوفاة خيراً لي»، و من ظن أن تمنيها ذلك كان لشدة الوجع، فقد أساء الظن، و العياذ بالله (4).

و في حدة الألم و غمرة الهول، تقع المفاجأة الكبرى فنأداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، و هزّي إليك بحذع النخلة تساقط

ص: 301

1- تفسير الفخر الرازي 203/21.

2- سورة مريم: آية 23.

3- تفسير الفخر الرازي 203/21.

4- تفسير ابن كثير 189/3، تفسير روح المعاني 81/16-82.

عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا، فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا، فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (1)، و قد اختلف في المنادى على قولين، الأول أنه عيسى عليه السلام، وهو قول الحسن البصري وسعيد بن جبير، واستظهر أبو حيان كون المنادى عيسى، والضمير لمريم، والفاء فصيحة، أي فولدت غلاما فأنطقه الله تعالى حين الولادة، فنادها المولود من تحتها، وروى ذلك أيضا عن مجاهد وهب وابن جرير وابن زيد، والثاني أنه جبريل، ونقل في البحر عن الحسن أنه قال: نادها جبريل وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت عليها، ولعله إنما كان موقفه هناك إجلالا لها، وتحاشيا من حضوره بين يديها في تلك الحال، والقول بأنه عليه السلام كان تحتها يقبل الولد مما لا ينبغي أن يقال لما فيه من نسبة ما لا يليق بشأن أمين وحي الملك المتعال، ويعضد الفخر الرازي القول الأول بأدلة منها: الأول أن قوله: فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا بِفَتْحِ الْمِيمِ، إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحدا، والذي علم كونه حاصلا تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه، وأما القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي كون المنادى جبريل عليه السلام، والثاني: أن ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة، وذلك لا يليق بالملائكة، والثالث: أن قوله فنادها فعل، ولا بد أن يكون فاعله قد تقدم ذكره، ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وعيسى عليهما السلام، إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى:

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ وَالضَّمِيرُ هُنَا عَائِدٌ إِلَى الْمَسِيحِ فَحَمَلَهُ عَلَيْهِ أُولَى، والرابع: هو دليل الإمام الحسن بن علي عليه السلام، أن عيسى لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق، فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام، فأما من قال إن المنادى هو عيسى عليه السلام، فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطيبا لقلبها وإزالة للوحشة عنها، حتى تشاهد في أول الأمر ما

ص: 302

بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد، و من قال إن المنادى جبريل قال إنه أرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل إليها في أول الأمر ليكون ذلك تذكيراً لها بما تقدم من أصناف البشارات، وأولى القولين عند جمهرة المفسرين أن المنادى هو عيسى عليه السلام (1).

و أما السرى، فقد اتفق المفسرون، إلا الحسن البصري و عبد الرحمن بن زيد، أنه النهر و الجدول، سمي لأن الماء يسرى فيه، قال ذلك البراء بن عازب و ابن عباس و عمرو بن ميمون و قتادة و إبراهيم النخعي و ابن منبه، و اختاره الطبري، و روى عن ابن عباس أنه جدول من الأردن أجراه الله تعالى منه لما أصابها العطش، و روى أن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولاً، و قيل فعل ذلك عيسى عليه السلام، و هو المروي عن أبي جعفر الباقر، رضي الله تعالى عنه، و قيل كان ذلك موجوداً من قبل، إلا أن الله تعالى نبهها عليه، و الأرجح، عند صاحب الظلال، أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل، و عن الحسن و ابن زيد و الجبائي أن المراد بالسرى عيسى عليه السلام، و هو من السرو بمعنى الرفعة، كما قال الراغب، أي جعل ربك تحتك غلاماً رفيع الشأن سامي القدر، و روى أن الحسن البصري رجع عنه، فقد تلا هذه الآية، و جنبه حميد بن عبد الرحمن الحميري: قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا، فقال إن كان لسريا، و إن كان لكريماً، فقال له حميد: يا أبا سعيد إنما هو الجدول، فقال له الحسن: من ثم تعجبنا مجالستك، و روى أن خالد بن صفوان قال له: إن العرب تسمي الجدول سرياً، فقال له الحسن:

صدقت و رجع إلى قوله، و احتج من قال إنه النهر بوجهين، أحدهما: أن النبي صلى الله عليه و سلم سئل عن السرى، فقال هو الجدول، و ثانيهما: أن قوله تعالى:

ص: 303

1- تفسير الفخر الرازي 204/21، تفسير روح المعاني 82/16، تفسير الطبري 68-69/16، تفسير ابن كثير 190/3، تفسير النسفي 3/32، الكامل لابن الأثير 177/1.

فَكُلِّي وَاشْرَبِي يدل على أنه نهر حتى ينضاف الماء إلى الرطب، فتأكل و تشرب (1).

وعلى أي حال، فإن الله تعالى أمرها أن تهز النخلة فتساقط عليها رطباً جنباً فتأكل منه، قال المفسرون: أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع، بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً، وذلك ليسكن أمها وتعلم أن ذلك كرامة من الله، فكلِّي وَ اشْرَبِي أي كلي من هذا الرطب الشهي، و اشربي من هذا الماء العذب السلسبيل (2)، وهكذا أعطاه الله تعالى طعاماً و شراباً، و الطعام الحلو مناسب للنفساء، و الرطب و التمر من أجود طعام النفساء، و نحسبها قد دهشت طويلاً، قبل أن تمديدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطباً جنباً، ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها، و إلى أن حجتها معها، هذا الطفل الذي ينطق في المهد، فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها (3).

و أت الطاهرة البتول بوليدها المبارك تحمله: قالوا يا مَرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا، يا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْيًّا (4)، و هكذا بدأت السنة القوم بالتقريع و التأنيب، ثم سرعان ما تحولت إلى تهكم مرير، قائلين: يا شبيهة هارون في الصلاح و العبادة، ما كان أبوك رجلاً فاجراً، و ما كانت أمك زانية، فكيف صدر هذا منك، و أنت من بيت طاهر معروف بالصلاح و العبادة، قال قتادة: كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبها به، و ليس بهارون أخي موسى،

ص: 304

-
- 1- تفسير روح المعاني 83 / 16، تفسير ابن كثير 190 / 3، تفسير الفخر الرازي 205 / 21، تفسير الطبري 69 / 16 - 71، تفسير النسفي 3 / 32، في ظلال القرآن 4 / 2307.
 - 2- صفوة التفاسير 2 / 214 - 215.
 - 3- في ظلال القرآن 4 / 2307.
 - 4- سورة مريم: آية 27 - 28.

عليهما السلام، لأن بينهما ما يزيد على ألف عام، وقال السهيلي: هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبه به في اجتهادها، وليس بهارون بن عمران النبي، فإن بينهما دهرا طويلا، و من ثم فقد أخطأ كثيرا جدا من قال أنها أخت هارون النبي لأبيه و أمه، كما أنها أخت موسى عليه السلام، التي قصت أثره، و قد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني و بينه نبي»، و أخرج الإمام أحمد بسنده عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى نجران فقالوا: أ رأيت ما تقرءون «يا أخت هارون» و موسى قبل عيسى بكذا و كذا، قال فرجعت فذكرت ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: أ لا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء و الصالحين قبلهم» (1)، و عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن كعبا قال: إن قوله: «يا أخت هارون»، ليس بهارون أخي موسى، قال، فقالت له عائشة: كذبت، قال يا أم المؤمنين: إن كان النبي صلى الله عليه و سلم قاله فهو أعلم و أخبر، و إلا فإني أجد بينهما ست مائة سنة، قال:

«فسكتت» قال ابن كثير: و في هذا التاريخ نظر (2)، و هذا صحيح لأن ما بين موسى و عيسى عليهما السلام قرابة اثنين و عشرين قرنا.

و اشتد القوم على الطاهرة البتول: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (3)، قال السدي: لما أشارت غضبوا و قالوا: لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، أي من هو موجود في مهده في حالة صباه و صغره، كيف يتكلم؟ قال الرازي في التفسير الكبير: روى أنه كان يرضع فلما سمع

ص: 305

-
- 1- تفسير روح المعاني 88/16، تفسير ابن كثير 193/3، تفسير الطبري 77/16-78، مسند الإمام أحمد 252/4، صحيح مسلم 16/171، تحفة الأحوذى 601/5.
 - 2- تفسير الطبري 77/16، تفسير ابن كثير 193/3.
 - 3- سورة مريم: آية 29.

ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته، وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان، وقيل إن زكريا عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود إياها، فقال لعيسى عليه السلام: انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عيسى عند ذلك: «(1) إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (2)».

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله، فليس هو ابنه كما تدعى فرقة، وليس هو إليها كما تدعى فرقة، وليس هو ثالث ثلاثة، هم إله واحد، وهم ثلاثة، كما تدعى فرقة، ويعلن أن الله جعله نبيا، لا ولدا ولا شريكا، وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته، فله إذن حياة محدودة ذات أمد، وهو يموت ويبعث، وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حيا، والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه، وهو لا يحتمل تأويلا في هذه الحقيقة ولا جدالا (3).

ص: 306

1- تفسير ابن كثير 3/ 193، تفسير الفخر الرازي 21/ 208، تفسير روح المعاني 16/ 89.

2- سورة مريم: آية 30-33.

3- في ظلال القرآن 4/ 2308.

[1] نبوة المسيح: -

لم يذكر القرآن الكريم متى بدأت نبوة المسيح عليه السلام، و لا كيف كان ذلك، و لكن عبارات الإنجيل اتفقت على أن نبوته كانت على رأس ثلاثين من عمره، و على ذلك جرى المؤرخون و كثير من المفسرين، يقول الألويسي في تفسير روح المعاني: و اختلف في زمن رسالته عليه السلام، فقيل في الصبا و هو ابن ثلاث سنين، و في البحر: أن الوحي أتاه بعد البلوغ و هو ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، قيل و ثلاثة أشهر و ثلاثة أيام، ثم رفع إلى السماء، و هو القول المشهور (1)، و في تفسير الطبري عن وهب بن منبه: لما صار عيسى ابن اثنتي عشرة سنة أوحى الله إلى أمه، و هي بأرض مصر، و كانت هربت من قومها حين ولدته إلى أرض مصر، أن اطلعي به إلى الشام، ففعلت الذي أمرت به، فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة، و كانت نبوته بثلاث سنين، ثم رفعه الله إليه (2)، و يقول ابن الأثير في الكامل: أتت المسيح النبوة و الرسالة و عمره ثلاثون سنة، و ظل رسولا سنتين، إذ رفع إلى السماء، و هو ابن اثنتين و ثلاثين سنة و أياما، و يقول

ص: 307

1- تفسير روح المعاني 167/3.

2- تفسير الطبري 278/3.

علماء التوحيد إن النبوة تكون على رأس الأربعين من العمر، أما عيسى عليه السلام فقد نبيء على رأس الثلاثين، وهذه خصوصية له عليه السلام، لأنه قد رفع إلى السماء قبل أن يبلغ سن الأربعين (1)، ويذهب الدكتور الطيب النجار إلى أنه لا بأس من ذلك، أي أن نبوة المسيح كانت على رأس الثلاثين، فإن سن الأربعين ليست شرطاً لتحديد بدء نبوة الأنبياء، فلقد أوتي يحيى عليه السلام العلم والحكمة وهو صبي وبدأت نبوته قبل أن يبلغ الثلاثين (2).

على أن الدكتور الشريف إنما يحدد ابتداء نبوة المسيح من منطوق الآيات (29-33 من سورة مريم) يقول تعالى: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (3). وظاهر الآيات الكريمة إنما يفيد أن المسيح نبيء وهو في المهدي، ولا غرابة في ذلك، فالقرآن يقول في شأن يحيى بن زكريا عليهما السلام:

وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، هذا فضلا عن اعتراف المسيح في الآية (30 مريم) وهو ما يزال في المهدي، بأن الله جعله نبيا وآتاه الكتاب، والتعبير بصيغة الماضي في (آتاني وجعلني)، كل ذلك يرجح أنه بعث في المهدي وهو صبي صغير، ولا حاجة بنا بعدئذ لأن نجاري البعض الذين قالوا إن المسيح نبيء على رأس الثلاثين، ولا برهان لهم على هذا، إلا من تكلف من

ص: 308

- 1- محمد علي الصابوني: المرجع السابق، ص 198، محمد بن الشريف: الأديان في القرآن، جده 1979، ص 157، ابن الأثير 1/179.
- 2- محمد الطيب النجار: المرجع السابق، ص 278.
- 3- سورة مريم: آية 29-33، وانظر تفسير الطبري 16/78-82، تفسير ابن كثير 3/191-194، تفسير الفخر الرازي 21/207-216، تفسير روح المعاني 16/88-91 تفسير النسفي 3/34-35. في ظلال القرآن 4/2308، تفسير القرطبي ص 4140-4144.

تمحلات لغوية، ولا أن نقول كما قال بعض علماء التوحيد إن الرسالة لا تكون إلا بعد الأربعين، ولا غرو فنحن أمام شخصية جعلها الإعداد الإلهي، والإعجاز الإلهي لا تسير على سنن العادة، فعيسى مخلوق غير عادي في مولده وفي مبعثه وفي مماته (1)، عليه صلوات الله وسلامه.

و جاء في تفسير النسفي: روى عن الحسن أنه كان في المهدي نبيا وكلامه معجزته، وقيل إن معناه أن ذلك سبق في قضائه أو جعل الآتي لا محالة كأنه وجد (2)، ويقول الفخر الرازي: إن قوله: وَجَعَلَنِي نَبِيًّا يدل على أن ذلك قد حصل من قبل، إما ملاصقا لذلك الكلام أو متقدما عليه بأزمان، والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبيا، بالصلاة والزكاة وأن يدعو إلي الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة، فقبل هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه، وقيل لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة، وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها، فلهذا أشارت إليه بالكلام، ثم يرد الإمام الرازي على من قال إنه نبي، ولكنه ما كان رسولا، لأنه في ذلك الوقت ما جاء بالشريعة، ومعنى كونه نبيا أنه رفيع القدر على الدرجة، فيقول إن هذا ضعيف، لأن النبي في عرف الشرع هو الذي خصه الله بالنبوة وبالرسالة، خصوصا إذا قرن إليه ذكر الشرع، وهو قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة (3).

و أما دليل نبوة المسيح في القرآن الكريم، فقوله تعالى: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ (4) وقوله

ص: 309

1- محمود بن الشريف: الأديان في القرآن ص 157-158.

2- تفسير النسفي 3/34.

3- تفسير الفخر الرازي 21/214.

4- سورة آل عمران: آية 48-49، وانظر: تفسير الطبري 3/273-275، تفسير الفخر الرازي 8/53-54، تفسير النسفي 1/158، تفسير ابن كثير 1/545-546، تفسير روح المعاني 3/166-167، تفسير الظلال 1/399-400، تفسير المنار 3/249-256، تفسير القرطبي ص 1335-1337.

تعالى: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (1).

هذا ومن المعروف أن دعوة المسيح عليه السلام، شأنها في ذلك شأن دعوات كل الرسل الكرام قبل بعثة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما هي دعوة خاصة إلى بني إسرائيل، كما جاء في القرآن الكريم (2)، وكما يقول الإنجيل على لسان المسيح «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (3)، ومن ثم فقد اتجه السيد المسيح عليه السلام بدعوته إلى بني إسرائيل يبغى من ورائها هداية خراف بيت إسرائيل الضالة، وأما الذي عمم الدعوة فهم تلاميذ المسيح، أو بالأحرى، فقد عممها «بولس» الذي زعم أن المسيح تراءى له، وجعله تلميذا له، مع أنه لم يره، وذلك بعد تكرارها على بني إسرائيل، ولجأجتهم في الإعراض عنها، ومن ثم فقد وجهت إلى كل مستمع لها، مقبل عليها، وقال لهم: إن العاملين بالخير هم ذرية إبراهيم الخليل، أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة إليه بالسلالة، لأنهم أبناؤه بالروح (4)، ومع ذلك تبقى دعوة المسيح في صميمها، دعوة خاصة، وأما الدعوة العامة فهي دعوة سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسل إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وصدق الله العظيم حيث يقول: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا

ص: 310

1- سورة الصف: آية 6.

2- سورة آل عمران: آية 48-49، الصف: آية 6.

3- متى 24/15.

4- متى 23/15-28، عباس العقاد: مطلع النور ص 96، محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة ص 61-62.

وَ نَذِيرًا (1)، و يقول: وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (2)، و يقول: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (3) هذا فضلا عن أن المسيح عيسى بن مريم إنما هو واحد من أولى العزم الخمسة، خيار ولد آدم قاطبة، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد ذكروا في القرآن الكريم تخصيصا من بين الأنبياء جميعا في آيتين، الأولى قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (4)، و الثانية:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (5).

[2] معجزات المسيح:-

إشارة

لا ريب في أن مولد المسيح معجزة، و حياته معجزة، و وفاته معجزة، ف عيسى عليه السلام، كما قلنا، غير عادي في مولده و في مبعثه و في مماته، فأما مولده، فلقد شاء الله، بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة، أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقا معيناً، طريق التقاء ذكر و أنثى، و اجتماع بويضة و خلية تذكير، فيتم الإخصاب، و يتم الإنسال، و البويضة حية غير ميتة، و الخلية حية كذلك متحركة، و مضى مألوف الناس على هذه القاعدة، حتى

ص: 311

1- سورة سبأ: آية 28.

2- سورة النساء: آية 79.

3- سورة الأعراف: آية 158 و انظر: سورة إبراهيم: آية 1، 52، الحج: آية 49، الفرقان آية 1، الأحزاب: آية 40، ص؛ آية 87.

4- سورة الأحزاب: آية 7.

5- سورة الشورى: آية 13، و انظر تفسير الطبري 14/25-16، تفسير القرطبي 9/16-12 (الغالب 1967)، تفسير البيضاوي 2/354-

355، تفسير روح المعاني 21/25-22، تفسير الفخر الرازي 27/154، تفسير الكشاف 3/463-464، تفسير الرحمن في تفسير كلام

المنان 7/96-97 (مكة المكرمة 1398 هـ).

شاء الله تعالى أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان، فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى، وإن لم تكن مثلها تماما، أنثى فقط تتلقى النفخة التي تنشئ الحياة ابتداء، فتنشأ فيها الحياة (1)، وهكذا جاء عيسى بن مريم إلى هذه الدنيا بطريقة أشبه بتلك التي جاء بها آدم عليه السلام، وصدق الله العظيم حيث يقول: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (2).

صحيح أن ولادة عيسى عجيبه حقا بالقياس إلى مألوف الناس، ولكنه صحيح كذلك أنه لا غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر، وأهل الكتاب الذين يناظرون ويجادلون حول عيسى بسبب مولده، ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب، أهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى، ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية، على حين أن العنصر الذي صار به آدم إنسانا هو ذاته العنصر الذي ولد به عيسى من غير أب، عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك، وإن هي إلا الكلمة «كن» تنشئ ما تتراد له النشأة «فيكون» وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة، حقيقة عيسى وحقيقة آدم وحقيقة الخلق كله، وتدخل إلى النفس في يسر، وفي وضوح، حتى ليعجب الإنسان، كيف ثار الجدل حول هذا الحادث، وهو جار وفق السنة الكبرى، سنة الخلق والنشأة جميعا (3).

ص: 312

-
- 1- في ظلال القرآن 1/ 398.
 - 2- سورة آل عمران: آية 59، وانظر: تفسير الفخر الرازي 8/ 74-76، تفسير الطبري 3/ 295-297، تفسير ابن كثير 1/ 550-552، تفسير النسفي 1/ 160-161، تفسير روح المعاني 3/ 186-187.
 - 3- في ظلال القرآن 1/ 404-405.

و أما معجزات المسيح عليه السلام، فقد جاءت في عدة آيات من آي الذكر الحكيم (1)، نذكر منها (أولاً) أن الله تعالى يعلمه الكتاب و الحكمة و التوراة و الإنجيل، فأما «الكتاب» فقد يراد به الكتابة، و كان عليه السلام أحسن الناس خطا في زمانه (2)، و قد يكون هو التوراة و الإنجيل، و أما «الحكمة» فهي حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها و إدراك الصواب و اتباعه، و هي خير كثير (3)، أو هي السنة التي يوحىها الله إليه في غير كتاب، و أما «التوراة»، فهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، و أما «الإنجيل» فهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، و قد كان عيسى يحفظ هذا و ذلك (4).

و لعل مما تجدر الإشارة إليه أن التوراة إنما كانت كتاب عيسى كالإنجيل، فهي أساس الدين الذي جاء به، و الإنجيل تكملة و إحياء لروح التوراة، و لروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل، و هذا ما يخطئ الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة، و هي قاعدة دين المسيح عليه السلام، و فيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع، و لم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل (5)، و من ثم فإن الله تعالى يقول على لسان المسيح: وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (6)، يقول ابن كثير: و فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، و هو الصحيح،

ص: 313

1- أنظر: سورة آل عمران: آية 47-50، المائة: آية 110-115، مريم: آية 29-33.

2- تفسير النسفي 1/158.

3- تفسير الظلال 1/399.

4- تفسير ابن كثير 1/546.

5- في ظلال القرآن 1/399.

6- سورة آل عمران: آية 50.

وقد قال بعض العلماء: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كان يتنازعون فيه خطأً وانكشف لهم عن الغطاء في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: **وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَحْتَلِفُونَ فِيهِ (1)**، ويقول الطبري: إن عيسى كان مؤمناً بالتوراة مقرباً، وأنها من عند الله (2)، وكذلك الأنبياء كلهم يصدقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلفت بعض شرائع أحكامهم لمخالفة الله بينهم في ذلك، مع أن عيسى كان، فيما بلغنا، عاملاً بالتوراة لم يخالف شيئاً من أحكامها، إلا ما خفف الله عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشدداً عليهم فيها (3)، وجاء في التفسير الكبير عن وهب بن منبه: أن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام، كان يقرر السبب ويستقبل بيت المقدس، ثم إنه فسر قوله: **وَلَا أُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ بِأَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ الْأَحْبَارَ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا مِنْ عِنْدِ**

ص: 314

1- تفسير ابن كثير 546/1.

2- نرى لزاماً علينا أن نبين هنا: أن التوراة التي كان عيسى عليه السلام مؤمناً بها مقراً بما فيها، إنما هي التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، فيها هدى ونور، فهي تقرر وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن كل مظاهر النقص، والتي تركز على الاعتراف باليوم الآخر، والإيمان بما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار، والتي تضمنت عظات وأفكاراً وشريعة لبني إسرائيل يحكم بها أبناؤهم، والتي تقرر عصمة هؤلاء الأنبياء، غير أن هذه التوراة الأصلية ببندوها ونصوصها وتعاليمها، لا وجود لها بهذه الصورة الإلهية في التوراة المتداولة اليوم، فلقد امتدت إليها يد أئمة من أحبار يهود فحرفت وبدلت، ثم كتبت سواها بما يتلاءم مع يهود، ويتواءم مع مخططاتهم، ثم زعموا بعد كل هذا، أنها التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام: **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا**، هذا فضلاً عن أن توراة موسى شيء، والعهد القديم شيء آخر، فالتوراة لا تعدو خمسة أسفار من أسفار العهد القديم، البالغ عددها 39 سفراً، عند البروتستانت، وأكثر من ذلك بسبعة أسفار، عند الكاثوليك، فضلاً عن أسفار الأبوكريف، والأسفار المفقودة أو الخفية (قدم المؤلف دراسة مفصلة عن التوراة: أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/3 - 379 - الاسكندرية 1979).

3- تفسير الطبري 281/3.

أنفسهم شرائع باطلة و نسبوها إلى موسى، فجاء عيسى و رفعها و أبطلها، و أعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام، و ثانيهما: أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنایات، كما قال تعالى: **فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**، ثم بقي هذا التحريم حتى جاء عيسى عليه السلام، و رفع تلك التشديدات عنهم، و قال آخرون: إن عيسى رفع كثيرا من أحكام التوراة، و لم يكن ذلك قادحا في كونه مصدقا بالتوراة على ما بيناه، و رفع السبب و وضع الأحد قائما مقامه، و كان محققا في كل ما عمل لأن الناسخ و المنسوخ كلاهما حق و صدق (1).

و من ثم فإن قوله تعالى: **وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**، إنما يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة، فالتوراة التي تنزلت على موسى، و هي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان، و ملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح عليه السلام و جاءت رسالته مصدقة لها، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم، و كان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاص و انحرافات، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالا لهم، ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم (2)، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن الربيع أنه قال: كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى عليهما السلام، و كان فيما حرم عليهم فيما جاء به موسى، لحوم الإبل و الثروب فأحلها لهم على لسان عيسى،

ص: 315

1- تفسير الفخر الرازي 59/8.

2- في ظلال القرآن 400/1.

و حرمت عليهم شحوم الإبل فأحلت لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السمك وفي أشياء من الطير، مما لا صيصة له، وفي أشياء أخرى حرمت عليهم و شدد عليهم فيها، فجاء عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل، وهذا يدل على أن الإنجيل مشتمل على أحكام تغيّر ما في التوراة، وأن شريعة عيسى نسخت بعض شريعة موسى، ولا يخل ذلك بكونه مصدقا للتوراة، فإن النسخ بيان لانتهاه زمان الحكم الأول، لا رفع وإبطال (1).

هذا وقد جاء في إنجيل متى، على لسان السيد المسيح، «لا تظنوا أنني جئت لأتقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأتقض بل لأأكمل، فإن الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (2) وليس هناك من شك في أن التصديق بالكتب السابقة يعني أن الكتب المتأخرة إنما هي تجديد للمتقدمة و تذكير بها، فلا تبدل معنى ولا تغيّر حكما، وإنما الواقع غير ذلك، فقد جاء الإنجيل بتغيير بعض أحكام التوراة، كما جاء القرآن بتبديل بعض أحكام الإنجيل، ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذاك لم يكن من المتأخرة تقصا للمتقدم، ولا إنكارا لحكمة أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفا عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر (3)، و من هنا كان قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق» (4).

و هكذا يمكن القول أن الإنجيل إنما كان نفحة إحياء و تجديد لروح الدين، و تهذيب لضمير الإنسان، بوصلة مباشرة بالله من وراء النصوص،

ص: 316

1- تفسير روح المعاني 3/ 171، تفسير الطبري 1/ 282.

2- إنجيل 17/5-18.

3- محمد عبد الله دزار: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان- القاهرة 1969 ص 185-186.

4- عبد الحليم محمود: دلائل النبوة و معجزات الرسول- القاهرة 1974 ص 462.

هذا الإحياء وهذا التهذيب، هما اللذان جاء بهما المسيح وجاهد لهما حتى مكرت يهود به عليه السلام (1).

ومنها (ثانيا) أن الله تعالى جعله يكلم الناس في المهد وكهلا: فأما المهد فهو حجر الأم أو مضجع الصبي وقت الرضاع، والمراد أن المسيح عليه السلام يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد، ولا يختلف هذا المقصود سواء كان في حجر أمه أو كان في المهد، وأما الكهل في اللغة فهو ما اجتمع قوته وكمل شبابه، وهو مأخوذ من قول العرب: اكتهل النبات إذا قوي (2)، والمراد أن المسيح يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالة الطفولة وحالة الكهولة التي يستحكم فيها العقل، ويستنبأ فيها الأنبياء، وأما كلامه في المهد (3)، فدلالة على براءة أمه مما قذفه بها المفترون، وحجة على نبوته، قال ابن عباس: كان كلامه في).

ص: 317

1- في ظلال القرآن 399/1.

2- نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثا وثلاثين وستة أشهر، وعلى هذا فهو ما بلغ الكهولة، والجواب من وجهين، الأول: أن الكهل في أصل اللغة هو الكامل التام، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين، فصح وصفه بكونه كهلا في هذا الوقت، والثاني هو قول الحسين بن الفضل البجلي: أن المراد بقوله: «كهلا» أن يكون كهلا بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان، ويكلم الناس ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض، ومن ثم فقد ذهب سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وغيرهما أنه عليه السلام رفع إلى السماء، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وأنه سينزل إلى الأرض ويبقى حيًا فيها أربعين سنة، كما رواه ابن جرير بسند صحيح عن كعب الأبحار، ويؤيده ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: قد كلمهم عيسى في المهد، وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل (تفسير الفخر الرازي 52/8، تفسير روح المعاني 164/3، تفسير الطبري 272/3-273، تفسير القرطبي ص 1332-1334، تفسير المنار 252/3-255).

3- روى ابن إسحاق عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى وصاحب جريح، وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم: لم يتكلم في المهد إلا ثلاث: عيسى وصبي كان في زمن جريح وصبي آخر (تفسير ابن كثير 1/545).

المهد ساعة واحدة بما قصى الله تعالى لنا، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام، على أن ابن الأخشيد إنما يذهب إلى أنه كان يتكلم دائما، و كان كلامه فيه تأسيسا لنبوته، وإرهاصا لها، وعليه يكون قوله: وَجَعَلَنِي نَبِيًّا إخبارا عما يؤول إليه، وقال الجبائي: إنه سبحانه أكمل عقله عليه السلام إذ ذاك وأوحى إليه بما تكلم به مقرونا بالنبوته و جَوَّزَ أن يكون ذلك كرامة لمريم دالة على طهارتها وبراءة ساحتها مما نسبته أهل الإفك إليها، و أما كلامه في الكهولة فقد ذكر، رغم أنه غير معجز، لأسباب منها بيان كونه متقلبا في الأحوال من الصبا إلى الكهولة، و التغيير على الله تعالى محال، و المراد منه الرد على وفد نجران في قولهم: إن عيسى كان إلها، و منها أن يكلم الناس في المهد مرة واحدة لإظهار براءة أمه ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي و النبوة، و منها أنه يكلم الناس حال كونه في المهد و كهلا على حد واحد، و صفة واحدة، و ذلك لا شك أنه في غاية المعجز، و منها أن المراد أنه سيبلغ الكهولة (1).

بقيت الإشارة إلى أن النصراني أنكرت كلام المسيح في المهد، محتجين بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور و أغربها، و بأنه لو حدث لشهده الجمع العظيم الذي يحصل القطع و اليقين بقولهم، لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد و الاثنین لا يجوز، و متى حدثت الواقعة العجيبة جدا عند حضور الجمع العظيم فلا بد و أن تتوافر الدواعي على النقل فيصير ذلك بالغا حد التواتر، و إخفاء ما يكون بالغا إلى حد التواتر ممتنع، كما أن الإخفاء ممتنع لأن النصراني بالغوا في إفراط محبته إلى حيث قالوا إنه كان إلها، و من كان كذلك يمتنع أن يسعى في إخفاء مناقبه و فضائله، بل ربما

ص: 318

1- تفسير الفخر الرازي 8/ 51-52، تفسير الطبري 3/ 271-273، تفسير ابن كثير 1/ 545، تفسير النسفي 1/ 158، تفسير الكشاف 1/ 278، تفسير روح المعاني 3/ 162-164.

يجعل الواحد ألفا، فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان النصرارى أولى الناس بمعرفتها، ولما أطبقوا على إنكارها، علمنا أنه ما كان موجود البتة.

ورد المتكلمون عليهم بأن كلام عيسى عليه السلام في المهد إنما كان للدلالة على براءة مريم عليها السلام من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعا قليلين، فالسامعون لذلك الكلام كان جمعا قليلا، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير أن يذكروا ذلك، إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت، فهم أيضا سكتوا لهذه العلة، فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوما إلى أن أخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بذلك، وأيضا فليس كل النصرارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه: لما قرأ علي النجاشي سورة مريم، قال النجاشي: لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور في هذا الكلام، بذرة (1).

ومنها (ثالثا) شفاء المرضى وإبراء الأكمة وإحياء الموتى والإخبار عن بعض المغيبات، قال تعالى، على لسان المسيح: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (2)، ولعل من الأهمية بمكان، وقبل الحديث عن هذه الخوارق المعجزة، الإشارة إلى أنه في هذه الآية (آل عمران 49) وفي آية المائدة (110) أن النص القرآني الكريم يذكر، على لسان المسيح، أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله تعالى، كما حرص النص على ذكر

ص: 319

1- تفسير الفخر الرازي 52/8-53، تفسير روح المعاني 3/163.

2- سورة آل عمران: آية 49.

اللّٰه بكل واحدة منها تفصيلا و تحديدا، و لم يدع القول يتم حتى يذكر في نهايته إذن اللّٰه زيادة في الاحتياط، و هذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أوردتها، أورد العافية و هي فرع عن الحياة، و رؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية، و هي في صميمها تتسق مع مولد عيسى و منهج الوجود و الحياة على غير مثال، إلا مثال آدم عليه السلام، و إذا كان اللّٰه قادرا على أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال، و لا حاجة إذن لكل الشبهات و الأساطير التي نشأت عن هذا المولد الخاص، متى رد الأمر إلى مشيئة اللّٰه الطليقة، و لم يقيد الإنسان اللّٰه، سبحانه و تعالى، بمألوف الإنسان (1).

و أما هذه المعجزات التي جاءت في هذه الآية و في غيرها فهي:-

أولا: كان المسيح يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن اللّٰه تعالى:-

و المراد بالخلق هنا، فيما يرى صاحب روح المعاني، التصوير و الإبراز على مقدار معين، لا الإيجاد من العدم، و المعنى أنني أقدر، لأجل تحصيل إيمانكم و دفع تكذيبكم إياي، أن اجعل من الطين شيئا مثل الطير المهيا أو هيئة كائنة كهيئته، فأنفخ فيه فيكون طيرا حيا طيارا كسائر الطيور، و في تفسير النسفي أي أقدر لكم شيئا مثل صورة الطير، أي في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، فيصير طيرا كسائر الطيور، و في التفسير الكبير:

أي أقدر و أصور، فالخلق هو التقدير و التصوير، و ذلك لأن العبد لا يكون خالقا بمعنى التكوين و الإبداع، فوجب تفسير كونه خالقا بالتقدير و التسوية، و هكذا كان المسيح عليه السلام يصور من الطين شكل، طير، ثم ينفخ فيه فيطير عيانا بإذن اللّٰه عز و جل، الذي جعل هذا معجزة له، تدل على أنه تعالى

ص: 320

1- في ظلال القرآن 1/ 399.

أرسله، و من ثم فقد جَوَّز بعض المفسرين أن يقال: إنه تعالى أودع في نفس عيسى عليه السلام خاصية بحيث متى نفخ في شيء، كان نفخه فيه موجبا لصيرورة ذلك الشيء حيا، أو يقال ليس الأمر كذلك، بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخه عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات، وهذا القول الثاني هو الحق لقوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، و حكى عن إبراهيم عليه السلام إنه قال في مناظرته مع الملك رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فلو حصل لغيره هذه الصفة، لبطل ذلك الاستدلال.

وأظهر المعجزات أنهم أخذوا يتعتون عليه و طالبوه بخلق خفاش، فأخذ طينا و صوره، ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء و الأرض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا، ثم اختلف الناس فقال قوم لم يخلق غير الخفاش، و قال آخرون: إنه خلق أنواعا من الطير (1).

ثانيا: إبراء الأكمة و الأبرص بإذن الله تعالى:-

وقد اختلف العلماء في معنى الأكمة، فمن قائل إنه الذي ولد أعمى، و كما روى عن ابن عباس و قتادة: كنا نتحدث أن الأكمة الذي ولد و هو أعمى مضموم العينين، و قال الخليل و غيره: هو الذي عمى بعد أن كان بصيرا، و أخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء عن ابن عباس: أنه الممسوح العين الذي لم يشق بصره، و لم يخلق له حدقة، قيل: و لم يكن في صدر هذه الأمة أكمة بهذا المعنى، غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير، و عن

ص: 321

1- تفسير الفخر الرازي 56/8، تفسير روح المعاني 168/3، تفسير النسفي 159/1، تفسير ابن كثير 546/1، تفسير الطبري 275/3، الكامل لابن الأثير 179/1، تفسير القرطبي ص 1335-1336، تفسير المنار 255/3-257.

مجاهد: الأكمة هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، فهو يتكمه، وعن عكرمة أنه الأعمش، وأما الأبرص فهو الذي به الوضع المعروف، يقول الإمام الطبري: وإنما أخبر الله تعالى عن عيسى عليه السلام أنه يقول ذلك لبني إسرائيل، احتجاجاً منه بهذه العبر والآيات عليهم في نبوته، وذلك أن الأكمة والأبرص لا علاج لهما، فيقدر على إبرائه ذو طب بعلاج، فكان ذلك من أدلته على صدق قوله إنه لله رسول لأنه من المعجزات مع سائر الآيات التي أعطاه الله إياها دلالة على نبوته، وأما ما قاله عكرمة من أن الكمه هو العمش، وما قاله مجاهد من أنه سوء البصر بالليل، فلا معنى لهما، لأن الله لا يحتج على خلقه بحجة تكون لهم السبيل إلى معارضته فيها، ولو كان ما احتج به عيسى على بني إسرائيل في نبوته أنه يبرئ الأعمش أو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل لقد رواه على معارضته بحجة أن فيهم خلقاً يعالجون ذلك، وليسوا لله أنبياء ورسلاً، هذا وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفاً، من أطلق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق منهم ذلك أتاه عيسى يمشي إليه، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله (1).

ثالثاً: إحياء الموتى بإذن الله:-

قيد الله الإحياء بالإذن، كما فعل في المعجزات السابقة، لأنه خارق عظيم يكاد يتوهم منه ألوهية فاعلة، لأنه ليس من جنس أفعال البشر، و كان إحياء عيسى الموتى بدعاء الله، يدعو لهم فتستجاب له، قال الكلبي: كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات، بياحي يا قيوم، وأحيا عازر و كان صديقاً له، ودعا سام بن نوح من قبره فخرج حياً، و مرّ على ابن ميث لعجوز فدعا الله فنزل عن سريره حياً، ورجع إلى أهله و ولد له (2).

ص: 322

1- تفسير الفخر الرازي 57/8، تفسير روح المعاني 169/3، تفسير الطبري 277/3-278.

2- تفسير روح المعاني 169/3، تفسير الفخر الرازي 57/8.

رابعاً: إخبار القوم بما يأكلون و ما يدخرون في بيوتهم:-

وقد اختلف العلماء في وقت هذا الإخبار على قولين، أحدهما: أنه عليه السلام كان يخبر عن الغيوب من أول أمره، أخرج ابن عساكر عن عبد الله بن عمر و بن العاصي، و كذا روى عن السدي: أنه كان يلعب مع الصبيان، ثم يخبرهم بأفعال آبائهم و أمهاتهم، و كان يخبر الصبي بأن أمك خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله و يبكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء، ثم قالوا لصبيانهم لا تلعبوا مع هذا الساحر، و جمعوهم في بيت، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا له: ليسوا في البيت، فقال فمن في البيت، قالوا خنازير، قال عيسى كذلك يكونون، فإذا هم خنازير، و أما القول الثاني:

فإن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر وقت نزول المائدة، و ذلك لأن القوم نهوا عن الإخبار، فكانوا يحزنون و يدخرون، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم، و قد أيد ذلك ما أخرجه عبد الرزاق و غيره عن عمار بن ياسر في الآية أنه قال:

وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ مِنَ الْمَائِدَةِ وَ مَا تَدْخُرُونَ مِنْهَا، وَ كَانَ أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَائِدَةِ حِينَ نَزَلَتْ أَنْ يَأْكُلُوا وَ لَا يَدْخُرُوا، فَادْخُرُوا وَ خَانُوا، فَجَعَلُوا قِرْدَةً وَ خَنَازِيرَ (1).

و بدهي أن الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة، ذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك، إلا عن سؤال تتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآله و يتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيراً، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة و لا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى، و هذا هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب و إخبارهم عنها، و بين علم سائر المتكذبة على الله أو المدعية علم ذلك، ثم إنه عليه السلام ختم كلامه بقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

ص: 323

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، يعني بذلك السيد المسيح: إن في خلقي من الطين الطير يأذن الله، وفي إبرائي الأكمه و الأبرص، وإحيائي الموتى، و
إبنائي إياكم بما تأكلون و ما تدخرون في بيوتكم، ابتداء من غير حساب و لا تنجيم، و لا كهانة و لا عرافة، لعبرة لكم، و متفكرا تفكرون في
ذلك، فتعتبرون به أني محق في قلبي لكم: إني رسول من ربكم إليكم، و تعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله و نهيه، صادق، إن كنتم
مؤمنين، يعني إن كنتم مصدقين حجج الله و آياته مقرنين بتوحيده و نبيه موسى، و التوراة التي جاءكم بها (1).

ص: 324

1- تفسير الطبري 281 / 3، تفسير الفخر الرازي 58 / 8، تفسير القرطبي ص 1337.

اشارة

ليس هناك من ريب في أن الخلاف الأساسي و الأصيل بين المسلمين و المسيحيين حول السيد المسيح عليه السلام، إنما يدور حول دعوى النصارى بالوهية المسيح و صلبه.

[1] دعوى التأليه:-

يعرض القرآن الكريم أكثر من مرة لعبودية المسيح لله تعالى، و أنه عبد الله و رسوله، و كفاه فخرا بهذه العبودية لله تعالى، كما اعتبر القرآن من ألهو المسيح كفارا، و من ثم فإنه يؤكد كثيرا أن عيسى بن مريم بشر، و أنه رسول من الله، مؤيد بكتاب إلهي، و بوحى سماوي، و أنه نادى بعقيدة التوحيد، فدعا إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كفوا أحد، و يذهب صاحب الظلال [\(1\)](#) إلى أن عقيدة التوحيد عاشت بعد المسيح عليه السلام في تلامذته و في أتباعهم، و أحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت، و هو إنجيل «برنابا» يتحدث عن عيسى عليه السلام بوصفه رسولا من عند الله، ثم وقعت بينهم الاختلافات، فمن قائل: إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل، و من قائل: إنه رسول نعم، و لكن له بالله صلة خاصة، و من قائل: إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب، و لكنه على هذا

ص: 325

مخلوق لله، و من قائل: إنه ابن الله، وليس مخلوقا، بل له صفة القدم كالأب.

ولتصفية هذه الخلافات عقد «مجمع نيقية» عام 325 م الذي اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفا من البطارقة والأساقفة، وقد اختار المجمع مقالة من كانوا يقولون بألوهية المسيح، وهي مقالة «بولس الرسول» ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا، وقد اختار الإمبراطور الروماني «قسطنطين» (306-337 م) ⁽¹⁾ هذا الرأي وسلط أصحابه على مخالفيهم وشرّد أصحاب سائر المذاهب، خاصة القائلين بألوهية الأب وحده، و ناسوتية المسيح، وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار: إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وجد من لا شيء، أو من يقول: إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب، وكل من يؤمن أنه مخلوق أو من يقول إنه قابل للتغيير ويعتريه ظل دوران»، ولكن هذا المجمع بقرارته لم يقض على نحلة الموحدين أتباع «أريوس» وقد غلبت على القسطنطينية وأنطاكية وبابل والاسكندرية ومصر.

ثم سار خلاف جديد حول «روح القدس» فقال بعضهم هو «إله» وقال آخرون ليس ياله، فاجتمع مجمع القسطنطينية الأول عام 381 م، وفيه تقررت ألوهية روح القدس، كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية عام

ص: 326

1- يذهب البعض إلى أن قسطنطين لم يعترف بالمسيحية كديانة رسمية فحسب، بل إنه هو نفسه اعتنق المسيحية في عام 312 م، بينما يذهب آخرون إلى أنه بقي وثنيا طوال حياته، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض، وقد بنت أمه «هيلانة» كنيسة القيامة في القدس عام 326 م نتيجة اعتقاد خاطئ أن جثمان المسيح دفن في مكان هذه الكنيسة ثم رفع إلى السماء (عمر كمال توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص 29، فيلب حتى: المرجع السابق ص 387 ثم قارن. 9، 2، suilesuE، XI، hC. و كذا 4، sunemozoS، I، KB، hC.

ثم ثار خلاف آخر حول طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية، أو اللاهوت والناسوت كما يقولون، فقد رأى «نسطور» بطريرك القسطنطينية أن هناك أفنوما وطبيعة، فأفنوم الألوهية من الأب وتنسب إليه، وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم، فمريم أم الإنسان في المسيح، وليست أم الإله، ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم، كما نقله عنه ابن البطريق، ثم يقول: «إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلها في حد ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله، فلم يرتكب خطئة وما أتى أمرا إذا»، وخالفه في هذا الرأي أسقف روما و بطريرك الاسكندرية وأساقفة أنطاكية فاتفقوا على عقد مجمع رابع، و انعقد مجمع «أفسس» عام 431 م، وقرر: «أن مريم العذراء والدة الله، وأن المسيح إله حق وإنسان، معروف بطبيعتين، متوحد في الأفنوم»، ولعنوا نسطور.

ثم خرجت كنيسة الاسكندرية برأي جديد، انعقد له «مجمع أفسس الثاني» الذي قرر «أن المسيح طبيعة واحدة، اجتمع فيها اللاهوت والناسوت»، ولكن هذا الرأي لم يسلم، واستمرت الخلافات الحادة، فاجتمع مجمع «خلقدونية» عام 451 م، وقرر: «أن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة، وأن اللاهوت طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحدها، التقتا في المسيح»، ولعنوا مجمع أفسس الثاني، ولم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع، و وقعت بين المذهب المصري «المنوفيسية» والمذهب «الملوكاني» الذي تبنته الدولة البيزنطية ما وقع من الخلافات الدامية (1). .

ص: 327

و ظل الأمر كذلك حتى بعث الله تعالى خاتم النبيين و سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم بالرسالة العامة، و نزل القرآن الكريم ليبيّن للناس أن النصرارى على فرق ثلاثة في عقيدتهم في المسيح، عبد الله و رسوله إلى بني إسرائيل ففرقه تزعم أنه الله، و أخرى تؤمن بعقيدة التثليث، و ثالثة تزعم أنه ابن الله.

1- تزعم الفرقة الأولى أنه الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، و أن الله تعالى تجسم و تجسد في صورة يسوع المسيح و نزل إلى الأرض ليخلص الناس من آثامهم، و إلى هذا الفريق يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (1)، و يقول تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ (2)، و يقول تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (3)، و يقول تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ، وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (4).

و هكذا يفرق القرآن الكريم بين ذات الله تعالى و طبيعته و مشيئته و سلطانه، و بين ذات عيسى، عليه السلام، و كذا ذات أمه، و كل ذات أخرى، في نصاعة قاطعة حاسمة، فذات الله، سبحانه و تعالى، واحدة،

ص: 328

1- سورة المائدة: آية 72.

2- سورة المائدة: آية 75.

3- سورة المائدة: آية 17.

4- سورة النساء: آية 172.

و مشيئته مطلقة، و سلطانه متفرد، و لا يملك أحد شيئاً في رد مشيئته أو دفع سلطانه، إن أراد أن يهلك المسيح و أمه و من في الأرض جميعاً، و هو سبحانه و تعالى، مالك كل شيء، و خالق كل شيء، و الخالق غير المخلوق، و كل شيء مخلوق: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، و كذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية، و وضوحها و بساطتها، و تزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات و التصورات و الأساطير و الوثنيات و المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب، و تبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية في تقرير حقيقة الألوهية، و حقيقة العبودية، و الفصل التام الحاسم بين الحقيقتين، بلا غش و لا شبهة و لا غموض (1).

2- يزعم الفريق الثاني أن الله ثالث ثلاثة: و هذا الفريق هو الذي يعتقد بعقيدة التثليث، و هي عقيدة تزخر بمزاعم و أضاليل و أباطيل، فهي تزعم أن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ثالث ثلاثة (2)، و أنه ثلاثة أصول (أقانيم) متساوية: الله الأب و الله الابن، و الله الروح القدس، فالمسيح عيسى ابن مريم إله، و هو ابن إله، و في الوقت نفسه هو بشر و إله، هو لاهوت و ناسوت، هو الله و ابن الله، و أصل من الأصول الثلاثة المكونة لله، و يصدر القرآن الكريم حكمه في هذه العقيدة، فيحكم بكفر من اعتنقها و اعتقد.

ص: 329

1- في ظلال القرآن 2/ 866.

2- يحكي المتكلمون عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم، أب و ابن و روح القدس، و هذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص و الشعاع و الحرارة، و عنوا بالأب الذات، و بالابن الكلمة، و بالروح الحياة، و أثبتوا الذات و الكلمة و الحياة، و قالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمير، و اختلاط الماء باللبن، و زعموا أن الأب إله، و الابن إله، و الروح إله، و الكل واحد، و اعلم إن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل فإن الثلاثة لا تكون واحداً، و الواحد لا يكون ثلاثة (تفسير الفخر الرازي 60/12).

فيها (1)، يقول تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ، وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (2)، ويقول تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ، وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3).

وقال الزجاج: لا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وذلك لأن القرآن يدل على أن النصارى يقولون: إن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، والدليل عليه قوله تعالى: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (4)، وقال الفراء: ولا تقولوا هم ثلاثة كقوله: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً، وذلك لأن ذكر عيسى ومريم مع الله تعالى بهذه العبارة يوهم كونهما إلهين، وبالجملة فلا نرى مذهبا في الدنيا أشد ركاكة وبعدا عن العقل من مذهب النصارى، ثم قال الله تعالى: انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ، ثم أكد التوحيد بقوله: إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، ثم نزه الله تعالى نفسه عن الولد بقوله: سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ (5).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القرآن الكريم إنما يقرن لفظ المسيح أو عيسى بكلمة: ابْنِ مَرْيَمَ ليقرع آذان النصارى بأنه «ابن مريم»، وليس «ابن الله»، كما ينبه القرآن الكريم المسيحيين إلى أن

ص: 330

1- محمد بن الشريف: المرجع السابق ص 190.

2- سورة المائدة: آية 73.

3- سورة النساء: آية 171.

4- سورة المائدة: آية 116.

5- تفسير الفخر الرازي 115/11-116.

المسيح و أمه كانا يأكلان الطعام، يقول تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ (1)، ومن البين أن الذي يأكل الطعام فيتحول في جسمه دما ولحما وعظما، وينضح عرقا، ويخرج فضلة لوبقبت في الجسم لأضرته، من الواضح أن كائنا من هذا النمط لا يمكن إلا أن يكون بشرا خاضعا لكل قوانين البشر التي لا تؤدي إلى نقص في مرتبته كرسول (2)، ويقول الفخر الرازي اعلم أن المقصود من قوله تعالى: كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيانه من وجوه، الأول: أن كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقا، لا إلهها، والثاني: أنهما كانا محتاجين، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنيا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون (المحتاج) إلهها، والثالث أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس بآله، والرابع: أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلهها لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه، كيف يعقل أن يكون إلهها للعالمين، وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل (3).

و أما قوله تعالى: قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (4)، فهذا، كما يقول الفخر الرازي، دليل آخر على فساد قول النصارى، وهو يحتمل أنواعا من الحججة، الأول: أن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكان أنصاره و صحابته

ص: 331

1- سورة المائدة: آية 75.

2- عبد الحلیم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام- القاهرة 1964 ص 74.

3- تفسير الفخر الرازي 61/12.

4- سورة المائدة: آية 76.

يحبونه، فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، و العاجز عن الإضرار و النفع، كيف يعقل أن يكون إلهها، و الثاني أن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه و مزقوا أضلاعهم، و لما عطش و طلب الماء منهم، صبوا الخل في منخريه، و من كان في الضعف هكذا، كيف يعقل أن يكون إلهها، و الثالث: أن إله العالم يجب أن يكون غنيا عن كل ما سواه، و يكون كل ما سواه محتاجا إليه، فلو كان عيسى كذلك لا-متنع كونه مشغولا بعبادة الله تعالى، لأن الإله لا يعبد شيئا، إنما العبد هو الذي يعبد الإله، و لما عرف بالتواتر كونه كان مواظبا على الطاعات و العبادات، علمنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجا في تحصيل المنافع و دفع المضار إلى غيره، و من كان كذلك، كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد و دفع المضار عنهم، و إذا كان كذلك كان عبدا كسائر العبيد، و هذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، حيث قال لأبيه: لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (1).

ثم إن الإله موجود، واجب الوجود لذاته، و يجب ألا يكون جسما و لا متحيزا و لا عرضا، و عيسى عليه السلام عبارة عن هذا الشخص البشري الجسماني الذي وجد بعد أن كان معدوما، و قتل بعد أن كان حيا على قول النصارى، و كان طفلا أولا ثم صار مترعرا ثم صار شابا، و كان يأكل و يشرب و يحدث و ينام و يستيقظ، و قد تقرر في بداهة العقول أن المحدث لا يكون قديما، و المحتاج لا يكون غنيا، و الممكن لا يكون دائما، كما أن النصارى يقولون بأن اليهود أخذوه و صلبوه و تركوه حيا على الخشبة، و قد مزقوا ضلعه، و أنه كان يحتال في الهرب منهم، و في الاختفاء عنهم، و حين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد (2)، فإذا كان إلهها أو أن الإله كان حالا فيه، «.

ص: 332

1- تفسير الفخر الرازي 62/12.

2- جاء في إنجيل متى (27/46-50) «و صرح يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلي إيلي لما شبقتني، أي إلهي إلهي لما ذا تركتني، فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا إنه ينادي إيليا، و للوقت ركض واحد منهم و أخذ اسفنجة و ملاًها خلا، و جعلها على قصبه و سقاه، و أما الباقون فقالوا: اترك لنرى هل يأتي إيليا يخلصه، فصرخ يسوع أيضا بصوت عظيم و أسلم الروح».

أو كان جزءاً من الإله حال فيه فلم لم يدفعهم عن نفسه؟ ولم لم يهلكهم بالكلية؟ وأي حاجة به إلى إظهار الجزع منهم، والاحتياط في الفرار منهم؟

كما يظهر بطلان القول بألوهية المسيح مما ثبت بالتواتر من أن عيسى عليه السلام كان عظيم الرغبة في العبادة والطاعة لله تعالى، ولو كان إلهاً لاستحال ذلك، لأن الإله لا يعبد نفسه، ثم لو كان المسيح حقاً إلهاً، وقد قتله اليهود وصلبوه، فهذا يعني أن اليهود قتلوا إله العالم، فكيف بقي العالم بعد ذلك من غير إله، ثم إن اليهود إنما هم أشد الناس ذلاً ودناءة، ومن ثم فإن الإله الذي تقتله اليهود إنما هو إله في غاية العجز (1).

هذا ويسجل القرآن الكريم أن دعوة المسيح عيسى بن مريم رسول الله، إنما كانت إلى التوحيد الكامل يقول تعالى: وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (2) وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْبِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (3).

ص: 333

1- تفسير الفخر الرازي / 78-79.

2- سورة المائدة: آية 72.

3- سورة المائدة: آية 116-117، وانظر: تفسير روح المعاني 7/ 64-70، تفسير ابن كثير 2/ 192-195، تفسير الفخر الرازي 12/

133-137، تفسير النسفي 1/ 310-311، تفسير البحر المحيط 4/ 58-59.

و يقول الألوسي (1): استشكلت الآية بأنه لا يعلم أن أحدا من النصارى اتخذ مريم عليها السلام إلهًا، وأجيب عنه بأجوبة، الأول: أنهم لما جعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلهًا، ألزمهم أن يجعلوا والدته أيضا كذلك لأن الولد من جنس من يلدته فذكر «إلهين» على طريق الإلزام لهم، والثاني: أنهم لما عظموها تعظم الإله أطلق عليها اسم الإله (2)، كما أطلق اسم الرب على الأخبار و الرهبان في قوله تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، كما أنهم عظموهم تعظيم الرب، والثالث:

أنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك (3).

و أيا ما كان الأمر، فإن النصوص القرآنية ستظل أبد الدهر، بما تحمل من قول المسيح، أو اعترافه، إن جاز هذا التعبير، بأنه بشر يتبرأ من دعوى الألوهية، وينفي ما لصقه به المنحرفون و المنحرفون من أتباعه وأشياعه، و بأن علمه محدود، و أجله محدود، و أنه عبد الله و رسوله، لا يبلغ إلا ما أمر الله مولاة أن يبلغه، و كذا بما تحمل من دلائل على جوهر المسيحية، الحققة، و نقائها، ستظل مسجلة على أهل التثليث غلوهم و كفرهم، و لعلمهم، إن كانوا أتباع المسيح حقا، أن يثوبوا إلى عقيدته الحققة (4)، و أن يؤمنوا بما بشر به، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم و ما أنزل عليه، فقد جاء في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه و سلم: «و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني، و لا يؤمن بي إلا دخل النار» (5).

و من عجب أن أناجيل النصارى إنما تشير إلى غير ما يزعمون، فهناك).

ص: 334

1- تفسير روح المعاني 65/7.

2- انظر: تفسير الفخر الرازي 134/12.

3- أنظر: ديتلف نلسن و آخرون: التاريخ العربي القديم ص 242-243.

4- محمود بن الشريف: المرجع السابق ص 192.

5- صحيح مسلم 367/1 (القاهرة 1971).

نصوص تشير إلى عبودية المسيح (1) لله تعالى وإلى رسالته (2) وإلى وحدانية الله (3)، وإلى إنسانية المسيح وأمه، وإلى أنه ابن الإنسان (تعني ابن مريم) وليس ابن الله كما يزعمون (4).

ولعل سائلا يتساءل: من أين جاءت عقيدة التثليث هذه لديانة المسيح التوحيدية؟ والجواب أن ذلك إنما كان من تأثير الديانات الوثنية التي كانت شائعة وقت ذلك في الشرق الأدنى القديم، وربما المصرية بصفة خاصة، والتي شاعت فيها عقائد التثليث، حتى كان لكل مدينة ثالوثها الخاص بها، والمكون من الإله الأب، والإله الأم، والإله الابن، فمثلا ثالوث طيبة (الأقصر الحالية) يتكون من الإله آمون (الأب) والإلهة موت (الأم) والإله خونسو (الابن)، وفي مدينة منف (ميت رهينة بمركز البدرشين بمحافظة الجيزة) يتكون الثالوث من الإله «بتاح» (الأب) والإلهة سمخت (الأم) والإله نفرتوم (الابن)، وفي اليفانتين (جزيرة أسوان) يتكون الثالوث من الإله خنوم وعنقت و سات، هذا فضلا عن ثالوث أوزير المشهور، حيث يمثل أوزير الإله الأب، وتمثل إيزة الإلهة الأم، ويمثل حور الإله الابن (5).

ص: 335

1- يوحنا 17/20.

2- يوحنا 14/24.

3- متى 9/23، 22، مرقس 12/28-33، حيث يقول: «فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله أية وصية هي أول الكل، فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها: هي تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين، فقال له الكاتب جيدا يا معلم، بالحق قلت لأنه الله واحد، وليس آخر سواه، ومحبتة من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس، ومن كل القدرة، ومحبة القريب كالنفس هي أفضل من جميع المحرقات والذبائح».

4- متى 1/1-17، 8/20، 13/37، 26/64، يوحنا 1/51، 3/17.

5- أنظر: محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة- الاسكندرية 1984 ص 243-361.

و الأمر كذلك بالنسبة إلى بلاد الرافدين (العراق القديم) وسورية وفينيقيا، فضلا عن بلاد العرب، حيث نرى اللات والعزى ومناة الثالثة في الشمال، و حيث سادت في الجنوب عبادة ثالوث من الكواكب هي القمر والشمس والزهرة، ويمثل القمر في هذا الثالوث دور الأب، و تمثل الشمس دور الأم، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن، و لم يكن بنو إسرائيل بعيدون عن عقيدة التثليث هذه، فقد وجد عندهم ثالوث (يهوه و بعل و عشتارت)، و قد كان هذا الثالوث يقدس عند العبرانيين في عصر الملوك بين جميع أفراد الشعب (1)، و إن كانت عبادة «بعل» على أيام الملك الإسرائيلي «أخاب» (869-850 ق. م) معاصر النبي «إيليا»، و هو إلياس عليه السلام فيما نرجح (2)، أوضح من غيرها (3)، و قد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة الصافات (4)، و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أننا نجد عند بني إسرائيل تلك الظاهرة العربية، أعني أن الشمس كان ينظر إليها كإلهة أم و مؤنثة، كما في زواج «يهوه» رب يهود الشمس، و في جميع الحالات ترد الشمس كإلهة مؤنثة، بينما ترد الزهرة (عشر) مذكورة (5)، و كان العربانيون يعظمون بعلا كثيرا، حتى حمل كثير منهم اسم «بعل» كجزء من أسمائهم مثل «إيشبعل» و «مريبعل» و «يربعل» و «بعلزكار» و «بعلاة» (6)، كما تقبلوا «كيموش» كإله للقوم، و كذا «بلزيوب» إله عقرون، و ملكوم إله عمون و غيرهم (7)، و رغم

ص: 336

-
- 1- ديتلف نالسن: المرجع السابق ص 236.
 - 2- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 910/2-916.
 - 3- ملوك أول 30/16-34.
 - 4- سورة الصافات: آية 122-128.
 - 5- ديتلف نالسن: المرجع السابق ص 236، محمد بيومي مهران: إسرائيل 21/4-22.
 - 6- أخبار أيام أول 33/8-34، 39/9-40، أخبار أيام ثان 7/14، 28/27، قضاة 6/32، 1/7، 9/8، 1/9، محمد بيومي مهران: إسرائيل 24/4-25، 32-33، و كذا، 1911، RTH, noyL. G D 143-136. p.
 - 7- قضاة 24/11، محمد بيومي مهران: إسرائيل 25/4.

أن البعض حاول أن يفسر ذلك على أنه نوع من النزعة الانفصالية التي كانت تتملك نفوس القوم من الناحيتين السياسية والاقتصادية والتي أدت إلى ما يمكن أن يسمى استقلالاً دينياً (1)، إلا أن ذلك لن يغير من الحقيقة شيئاً، وهو أنه شرك محض، وانطلاقاً من هذا، وكما يقول أنجل، فإن الوحدانية التي كان يدركها الإسرائيليون في ذلك الزمن إنما كانت وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب (2).

وهكذا لم يمض القرن الأول الميلادي حتى كانت ديانة المسيح، وهي ديانة توحيدية في أصلها وجوهرها، لا تختلف كثيراً عن ديانات الشرق القديم الوثنية، بل إنها لم تعد ديانة توحيدية، وإنما عدت ديانة متعددة الآلهة، فالمسيح وأمه كانا يقدسان فيها ككائنين إلهيين، و نافست الديانات المنتشرة وقت ذلك في عقيدة التثليث (3).

3- يزعم الفريق الثالث من النصارى أن المسيح إنما هو ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)، ويقول تعالى: إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (5)، وإذا كان النصارى يعجبون من أمر عيسى لأنه ولد بدون أب، فأمر آدم عليه السلام أعجب، لأنه خلق بدون أب وبدون أم، فالذي خلق آدم من تراب وقال له كن فيكون، هو

ص: 337

1- ول ديورانت: قصة الحضارة- الجزء الثاني من المجلد الأول- ترجمة محمد بدران- القاهرة 1961 ص 243.

2- عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء دار الهلال- ص 122.

3- ديتلف نلسن: المرجع السابق ص 242-243.

4- سورة التوبة: آية 30.

5- سورة النساء: آية 171.

الذي خلق عيسى من غير أب، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ، فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (1)، وقد أجمع المفسرون أن آية آل عمران (59) نزلت عند حضور وفد نجران على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه (أي عيسى) لا أب له من البشر، وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال صلى الله عليه وسلم: إن آدم ما كان له أب ولا أم، ولم يلزم أن يكون ابنا لله تعالى، فكذا القول في عيسى عليه السلام، وأيضا إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب، فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم، بل هذا أقرب إلى العقل، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم، أقرب من تولده من التراب اليابس (2).

وأخرج في الدلائل بسنده عن ابن عباس: أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أربعة عشر رجلا من أشرفهم، منهم السيد، وهو الكبير، والعاقب، وهو الذي يكون بعده وصاحب رأيهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلما، قالا أسلما قال ما أسلمتما، قالا بلى قد أسلما قبلك، قال كذبتما، يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما: عبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، و زعمكما أن لله ولدا، ونزل «إن مثل عيسى» الآية، فلما قرأها عليهم قالوا: ما نعرف ما تقول، ونزل «فمن حاجك» الآية، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى قد أمرني، إن لم تقبلوا هذا، أن أباهلكم، فقالوا يا أبا

ص: 338

-
- 1- سورة آل عمران: آية 59-61، وانظر: تفسير الفخر الرازي 74/8، تفسير النسفي 160/1-162، تفسير روح المعاني 186/3-193، تفسير الطبري 295/3-298، تفسير ابن كثير 550/1-555، في ظلال القرآن 1/404-406، تفسير المنار.
 - 2- صفوة التفاسير 1/206-207.

القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك، فخلا بعضهم ببعض و تصادقوا فيما بينهم، قال السيد للعاقب: قد والله علمتم أن الرجل نبي مرسل، ولئن لاعتموه أنه لاستئصالكم، وما لاعن قوم نبيا قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، فإن أنتم لم تتبعوه وأبيتم، إلا إلف دينكم، فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أنا دعوت فأمنوا أنتم، فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية»، وروي أن أسقف نجران لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا، ومعه علي والحسن وفاطمة، رضي الله عنهم، قال: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوها، لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا وتهلكوا»، وفي التفسير الكبير أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود، وكان قد احتضن الحسين، وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي رضي الله عنه، خلفها، وهو يقول:

«إذا دعوت فأمنوا، قال أسقف نجران: يا معشر النصارى: إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة» (1).

ولا ريب أن هذه القصة أوضح دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم، قال أبو حيان في البحر: وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم (2)، كما أن في دلالتها على فضل آل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أي أهل البيت، مما لا يمتري فيها مؤمن (3)، كما تدل على أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعد أن يدعو أبناءه، فدعا الحسن والحسين، فوجب أن يكونوا أبنية، ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة

ص: 339

1- تفسير الفخر الرازي 8/80، تفسير روح المعاني 3/188-189.

2- تفسير البحر المحيط 2/480.

3- تفسير روح المعاني 3/189.

الأنعام: وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ... إلى قوله وَرَكَرِيًّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ومعلوم أن عيسى عليه السلام إنما انتسب إلى إبراهيم عليه السلام بالأم، لا بالأب، فثبت أن ابن البنت قد يسمى ولداً، وكذا ما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج في المرط الأسود، فجاء الحسن رضي الله عنه، فأدخله، ثم جاء الحسين رضي الله عنه، فأدخله، ثم فاطمة ثم علي رضي الله عنهما، ثم قال:

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً، واعلم أن هذه الرواية كالمتمفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث (1).

هذا وقد استدلت الشيعة بقصة المباهلة هذه على أولوية الإمام علي كرم الله وجهه بالخلافة، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على رواية مجيء علي كرم الله تعالى وجهه، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجه أن المراد حينئذ بأبنائنا الحسن والحسين وبنسائنا فاطمة، وبأنفسنا الأمير، وإذا صار نفس الرسول، وظاهران المعنى الحقيقي مستحيل، تعني أن يكون المراد المساواة، ومن كان مساويا للنبي صلى الله عليه وسلم فهو أفضل وأولى بالتصرف من غيره، ولا معنى للخلافة إلا ذلك (2). وهكذا كان سائر الشيعة قديما وحديثا يستدلون بهذه الآية (آل عمران آية 61) على أن عليا رضي الله عنه، مثل نفس محمد صلى الله عليه وسلم، إلا فيما خصه الله بالنبوة، و كان نفس محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من الصحابة رضوان الله عليهم، فوجب أن يكون نفس علي أفضل أيضا من سائر الصحابة (3).

[2] دعوى الصلب:-

تمثل عقيدة الصلب عند النصارى (4) موضوع الخلاف الثاني بينهم

ص: 340

- 1- تفسير الفخر الرازي 8/80.
- 2- تفسير روح المعاني 3/189.
- 3- تفسير الفخر الرازي 8/81.
- 4- أنظر القصة بالتفصيل (إنجيل متى 1/26-20/28، إنجيل مرقس 1/14-20/16، إنجيل لوقا 1/22-53/24، إنجيل يوحنا 18/1-25/21).

بل نبهمه كما أبهمه الله تعالى، و من أراد أن يقطع فعليه دليل ما قطع به، و تقويض العلم إلى الله تعالى أسلم في العاقبة، و أكثر احتياطا للدين، فليس بهين أن يشهد المرء على الله بأمر لم يشهد به على نفسه، و ليس عنده عليه سلطان مبين (1).

و يقول صاحب الظلال: لقد أراد اليهود صلب عيسى عليه السلام و قتله، و أراد الله أن يتوفاه، و أن يرفعه إليه، و أن يطهره من مخالفة الذين كفروا و البقاء بينهم، و هم رجس و دنس، إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك و رافعك إلي و مطهرك من الذين كفروا، فأما كيف كانت وفاته، و كيف كان رفعه، فهي أمور غيبية تدخل في المشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله، و لا طائل وراء البحث فيها، لا في عقيدة و لا في شريعة، و الذين يجرون وراءها، و يجعلونها مادة للجدل ينتهي بهم الحال إلى المرء و إلى التخليط و إلى التعقيد، دونما جزم بحقيقة، و دون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله (2).

و على أي حال، و كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير

ص: 343

1- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 423.

2- في ظلال القرآن 1 / 403.

المنار، فإن للعلماء هنا طريقتين، إحداهما، وهي المشهورة، أنه رفع بجسمة حيًا، وأنه سينزل في آخر الزمان، فيحكم بين الناس بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يتوفاه الله تعالى (1)، ويقول الفخر الرازي: معنى قوله: إني مُتَوَفِّيكَ أي متمم عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك، وهذا تأويل حسن، وهناك وجه آخر في تأويل الآية هو: أن الواو في قوله:

مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ تفييد الترتيب، فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال، فأما كيف يفعل، ومتى يفعل، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت الدليل أنه حي، وورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه سينزل و يقتل الدجال» ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك (2).

وأما الطريقة الثانية، فيما يرى الأستاذ الإمام، فهي أن الآية على ظاهرها، وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر منه وهو «الإماتة العادية» وأن الرفع يكون بعده، وهو رفع الروح (3)، يقول الفخر الرازي: إني «متوفيك» أي مميتك، وهو مروى عن ابن العباس ومحمد بن إسحاق، قالوا:

والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله، ثم أنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء، ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه، أحدها: قال وهب توفي ثلاث ساعات، ثم رفع، وأخرج الحاكم عنه أن الله تعالى توفي عيسى سبع ساعات ثم أحياه، وأن مريم حملت به ولها ثلاث عشرة سنة وأنه رفع وهو ابن ثلاث و ثلاثين، وأن أمه بقيت بعد رفعه ست سنين، و ثانيها: قال محمد بن إسحاق توفي سبع ساعات (وهو قول لوهب كما رأينا) ثم أحياه الله ورفع، و ثالثها، قال الربيع بن أنس: أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال

ص: 344

1- تفسير المنار 3/ 260.

2- تفسير الفخر الرازي 8/ 67.

3- تفسير المنار 3/ 260.

تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا (1)، وروى عن الربيع أيضا وعن الحسن أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وهو نائم، رفقا به (2).

وهكذا وجد عندنا رأيان، الأول، وهو رأي الجمهور، ويذهب إلى أن المسيح عليه السلام رفع إلى السماء حيا، بجسده وروحه، وأنه الآن ما يزال حيا يرزق عند ربه، وفي رفعه إلى أي سماء خلاف، والذي اختاره الكثير من العارفين أنه رفع إلى السماء الرابعة، وعن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، أنه رفع إلى السماء الدنيا، فهو فيها يسبح مع الملائكة ثم يهبه الله تعالى عند ظهور الدجال على صخرة بيت المقدس (3)، ويستدل الذي ينادون بأن المسيح رفع حيا إلى السماء بآيتي سورة النساء (157-158) الآتفتي الذكر، وكذا بقوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (4)، فهي تفيد أن عيسى سينزل آخر الزمان، وإذا نزل آمن به كل من كان موجودا حينئذ من أهل الكتاب لأنه سينزل ليحكم بشريعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول الإمام القرطبي في تفسيره: إن الضمير يعود على عيسى عليه السلام، أي قبل موت عيسى، ثم يذكر رواية عن يزيد بن زريع عن الحسن البصري يقول فيها: «و الله إنه لحي الآن عند الله، ولكن إذا نزل آمن به أجمعون» (5)، وروى ابن أبي

ص: 345

1- تفسير الفخر الرازي 67/8، تفسير روح المعاني 179/3.

2- تفسير روح المعاني 179/3.

3- تفسير روح المعاني 182/3.

4- سورة النساء: آية 159، وانظر: تفسير الطبري 6/18-23، تفسير ابن كثير 1/876-878، تفسير النسفي 1/162-163، تفسير روح

المعاني 6/12-13، في ظلال القرآن 2/802-803.

5- تفسير القرطبي ص 2007-2008.

حاتم عن جويرية بن بشير، قال: سمعت رجلا قال للحسن يا أبا سعيد، قول الله تعالى: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، قال: قبل موت عيسى، إن الله رفع إليه عيسى، وهو باعته قبل يوم القيامة مقاما يؤمن به البر والفاجر، وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد (1).

ويقول الإمام الطبري في التفسير: أن أولى الأقوال بالصحة قول من قال إنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام، إلا آمن به (أي عيسى) قبل موت عيسى عليه السلام، ولا شك أن الذي قاله ابن جرير، فيما يرى ابن كثير، هو الصحيح، لأن المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله تعالى أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الظلالة ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال تعالى: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ أَي قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب (2).

و أما الأحاديث الشريفة المتواترة (3) بذلك، فمنها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «و الذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا،».

ص: 346

1- تفسير ابن كثير 1/ 877.

2- تفسير الطبري 6/ 21، تفسير ابن كثير 1/ 878.

3- أنظر: تفسير ابن كثير 1/ 879-889 (بيروت 1986).

فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خير له من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (1).

وكذا رواه مسلم عن الحسن الحلواني وعبد بن حميد (2)، كلاهما عن يعقوب به، وأخرجه البخاري و مسلم أيضا من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري به، وأخرجه من طريق الليث عن الزهري به (3)، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليهلن عيسى بن مريم بفتح الروحاء بالحج أو العمرة أو ليشبههما جميعا» (4)، وكذا رواه مسلم منفردا به من حديث سفيان بن عيينة و الليث بن سعد و يونس بن يزيد، ثلاثتهم عن الزهري به (5)، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ينزل عيسى بن مريم، فيقتل الخنزير ويمحو الصليب، وتجمع له الصلاة، ويعطى المال حتى لا يقبل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعها»، قال و تلا أبو هريرة: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ الْآيَةَ (6)، وأخرج البخاري عن ابن شهاب عن نافع مولي أبي قادة الأنصاري أن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم و إمامكم منكم» (7)، وروى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «و ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي: تعال صل بنا،

ص: 347

- 1- صحيح البخاري 205 / 4.
- 2- صحيح مسلم 93 / 1، صحيح البخاري 178 / 3.
- 3- صحيح البخاري 107 / 3، صحيح مسلم 93 / 1.
- 4- مسند الإمام أحمد 513 / 2.
- 5- صحيح مسلم 60 / 4.
- 6- مسند الإمام أحمد 260 / 2.
- 7- صحيح البخاري 250 / 4، ورواه أيضا الإمام أحمد و مسلم.

فيقول لا، إن بعضهم أمير بعض تكرمه الله لهذه الأمة» (1).

هذا ويستدل القائلون بنزول عيسى قبل يوم القيامة أيضا بآية الزخرف: **وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ (2)**، وفيها قراءتان الأولى: «وإنه لعلم للساعة» بمعنى أنه يعلم بقرب مجيئها، والقراءة الثانية: «وإنه لعلم للساعة» بمعنى أمانة وعلامة، وكلاهما قريب من قريب (3)، وهذه القراءة الأخيرة (بفتح العين واللام) قرأ بها ابن عباس وقتادة الأعمش، والمعنى أمانة وعلامة على اقتراب الساعة، قال ابن عباس في قوله: «وإنه لعلم للساعة» هو خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة، رواه الإمام أحمد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه هو والذهبي، وقد رواه ابن حبان في صحيحه، وقال مجاهد: «وإنه لعلم للساعة»، أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة، وهكذا روى عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن البصري وقتادة والضحاك وغيرهم (4).

وهكذا تستدل جمهرة العلماء من آيات القرآن ومن الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان (5)، وما قاله ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما من السلف في تفسير آتي النساء (159) والزخرف).

ص: 348

- 1- حمود بن عبد العزيز التجري: إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال ونزول المسيح في آخر الزمان - مجلة البحوث الإسلامية - العدد 13 - شوال 1405 ص 109.
- 2- سورة الزخرف: آية 61.
- 3- في ظلال القرآن 5 / 3198.
- 4- تفسير ابن كثير 4 / 201، حمود التويجري: المرجع السابق ص 105.
- 5- جاء في نزول عيسى عليه السلام أكثر من خمسين حديثا مرفوعا أكثرها من الصحاح، والباقي غالبه من الحسان، فمن زعم أنها كلها مزيفة، فلا شك أنه فاسد العقل والدين (حمود التويجري: المرجع السابق ص 105-106).

(61) من أن نزول عيسى عليه السلام حق، وقال إمام أهل السنة، أحمد بن حنبل في عقيدة أهل السنة و الجماعة التي رواها عنه «عبدوس بن مالك العطار»، «و الإيمان أن المسيح الدجال خارج مكتوب بين عينيه كافر، و الأحاديث التي جاءت فيه، و الإيمان بأن ذلك كله كائن، و أن عيسى بن مريم ينزل فيقتله باب لدّ، و في الحديث: «يقتل ابن مريم الدجال باب لدّ»، و في رواية «إلى جانب لدّ» (1)، و قال أبو محمد البربهاري في شرح السنة: و الإيمان بنزول عيسى بن مريم عليه السلام، ينزل فيقتل الدجال و يتزوج، و يصلي خلف القائم من آل محمد صلى الله عليه و سلم و يموت و يدفنه المسلمون»، و القائم من آل محمد صلى الله عليه و سلم هو المهدي، كما جاء في حديث جابر، الأنف الذكر، و فيه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: «و ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي تعال صل بنا، فيقول لا، إن بعضهم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة»، رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بإسناد جيد، و قد ذكره ابن القيم في كتاب «المنار المنيف» و قال إسناده جيد، و قال الطحاوي في العقيدة المشهورة «و نؤمن بأشراط الساعة (2) من خروج الدجال و نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء».

و قال الإمام ابن تيمية أن عيسى بن مريم عليه السلام حي رفعه الله تعالى إليه بروحه و بدنه، و قوله تعالى: إني مُتَوَفِّيكَ، أي قابضك،).

ص: 349

1- مسند الإمام أحمد 3/420، تحفة الأحوذى 6/513.

2- روى الإمام أحمد بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اشرف علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم من عرفة، و نحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، و الدخان، و الدابة، و خروج يأجوج و مأجوج، و نزول عيسى ابن مريم و الدجال، و ثلاثة خسوف: خسف بالمشرق و خسف بالمغرب و خسف بجزيرة العرب، و نار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا، و تقيل معهم حيث قالوا»، و هكذا رواه مسلم و أهل السنن من حديث فوات الفزارية (مسند الإمام أحمد 7/4، صحيح مسلم 8/178، تفسير ابن كثير 1/887).

وكذلك ثبت أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية حكما عدلا مقسطا، ويراد بالتوفي الاستيفاء، ويراد به الموت ويراد به النوم، ويدل على كل واحد القرينة التي معه، وقال القاضي عياض في شرح مسلم: نزول عيسى وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله، وإنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن يوافقهم، وزعموا أن هذه الأحاديث مردودة بقوله تعالى: وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وبقوله صلى الله عليه و هذا سلم: «لا نبي بعدي»، وإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد نبينا صلى الله عليه وسلم، وأن شريعته مؤبدة إلى يوم القيامة لا تنسخ، وهذا استدلال فاسد لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أن ينزل نبيا ينسخ شرعنا، ولا في الأحاديث شيء من هذا، بل صحت الأحاديث أنه ينزل حكما مقسطا يحكم بشرعنا، ويحیی من أمور شرعنا ما هجره الناس، وقد نقله النواوي في شرح مسلم وأقره، وقال المناوي في شرح الجامع الصغير: أجمعوا على نزول عيسى عليه السلام نبيا، لكنه بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم، وقال «السفاريني» في شرح عقيدته: نزول المسيح عيسى بن مريم ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافه، وقد انعقد الإجماع على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية (1).

وأما الرأي الثاني، ويقول به بعض علماء المسلمين، ويذهب إلى أن المسيح عليه السلام قد توفي فعلا، بعد أن نجاه الله من مؤامرة اليهود، ولم يمكنهم من قتله وصلبه، ومن ثم فإن معنى قوله تعالى: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ (2)

ص: 350

1- حمود التويجري: المرجع السابق ص 101-113.

2- سورة النساء: آية 158.

وقوله تعالى: وَرَافِعُكَ إِلَيَّ (1)، إنما يراد به: رفع التعظيم والتكريم، ويستدلون على ذلك بأن الله عز وجل قد قدم كلمة: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ عَلَى كَلِمَةٍ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ، كما يستدلون بقوله تعالى: (2) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (3)، بأن المقصود بها بأنه ليس من أحد من أهل الكتاب، اليهود أو النصارى، إلا- ويؤمن بعيسى عليه السلام، إذ عاين ملك الموت، ولكنه إيمان لا ينفع، لأنه إيمان عند اليأس، وحين التلبس بحالة الموت، فاليهودي في ذلك الوقت يقر بأنه رسول الله، والنصراني يقر بأنه كان رسول الله (4).

ص: 351

1- سورة آل عمران: آية 55.

2- سورة المائدة: آية 117.

3- يذهب الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه، في تفسير هذه الآية إلى أن ظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله سبحانه وتعالى قد توفي عيسى بن مريم ثم رفعه إليه، وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله، وليس هناك، فيما يرى، أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حيا عنده، فالشهداء كذلك يموتون في الأرض، وهم أحياء عند الله، أما صور حياتهم عنده، فنحن لا ندري لها كيفاً، وكذلك صورة حياة عيسى عليه السلام، وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ما ذا كان منهم بعد وفاتي (في ظلال القرآن 2/1001)، ويقول في تفسير قوله تعالى: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (مريم آية 33) بأن المسيح إذن حياة محدودة ذات أمد، وهو يموت ويبعث، وقد قدر الله له السلام والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا، والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه، وهو لا يحتمل تأويلا في هذه الحقيقة، ولا جدالا (في ظلال القرآن 4/2308)، ويقول في تفسير قوله تعالى: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ صَلِّ عَلَى رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مَطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا (آل عمران: آية 55) بأنهم أرادوا صلب عيسى عليه السلام وقتله، وأراد الله أن يتوفاه ويرفعه إليه، وأن يطّره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم، وهم رجس و دنس، وأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه، فهي أمور غيبية تدخل في التشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله، ولا طائل وراء البحث فيها، لا في عقيدة ولا شريعة (في ظلال القرآن 1/403).

4- محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنة النبوية- الرياض (1983) ص 282-283.

و يقرر الأستاذ الإمام محمود شلتوت في الفتاوي أن معنى قوله تعالى:

يا عيسى إني متوفيك أي مميتك إماتة عادية، إذ المعنى اللغوي الوضعي والمعنى القرآني لكلمة «متوفيك» إنما هو مميتك إماتة عادية (1)، ومن قال إن عيسى حي في السماء، فذلك ادعاء وزعم منه، كما قرر أن معنى الرفع في «ورافعك إلي»، رفع مكانة، لا رفع جسد، بدليل التعقيب الذي جاء بجانب الرفع، وهو قوله تعالى: وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم، ويؤيد ذلك أن الرفع جاء في القرآن كثيرا بهذا المعنى (في بيوت أذن الله أن ترفع - نرفع درجات من نشاء - ورفعنا لك ذكرك - ورفعناه مكانا - يرفع الله الذين آمنوا... إلخ)، ومن ثم فقد حكم بأن التعبير بقوله تعالى: وَرَافِعُكَ إِلَيَّ، «بل رفعه الله إليه»، كالتعبير في قولهم: «لحق فلان بالرفيق الأعلى» وفي «أن الله معنا» وفي «عند مليك مقتدر»، وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ، والدخول في الكنف المقدس، فمن يؤخذ كلمة «السماء» من كلمة «إليه»، اللهم إن هذا الظلم للتعبير القرآني الواضح، خضوعا لقصص وروايات لم يطمع على الظن بها، فضلا عن اليقين، برهان ولا شبه برهان.

ثم يذهب الأستاذ شلتوت بعد ذلك إلى أنه ليس في القرآن ولا في السنة المطهرة (2)، مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء، وأنه حي إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان، وأن كل ما تفيد الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى أنه متوفيه أجله ورافعه إليه، وعاصمه من الذين كفروا، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه، ولكن وفاه الله أجله ورفعته إليه، وأن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء وأنه حي إلى الآن، وأنه سينزل آخر

ص: 352

1- روى عن الجبائي: أن عيسى مات ثم رفع إلى السماء بعد ذلك (روح المعاني 69/7).

2- أنظر: ما سبق أن ذكرناه من الأحاديث النبوة الشريفة.

الزمان، فإنه لا يكون بذلك منكر لما ثبت بدليل قطعي، فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه.

ثم أورد بعد ذلك رأي الأستاذ الإمام محمد عبده، وتلميذه الأستاذ محمد رشيد رضا (في الجزء العاشر من المجلد 28 من مجلة المنار) و الذي قال فيه: و جملة القول أنه ليس في القرآن نص صريح في أن عيسى رفع بروحه و جسده إلى السماء حيا، حياة دنيوية بهما، بحيث يحتاج بحسب سنن الله تعالى إلى غذاء، و ليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء، وإنما هي عقيدة أكثر النصارى، و قد حاولوا في كل زمان، منذ ظهور الإسلام، بثها في المسلمين (1).

هذا و يذهب الأستاذ الإمام المراغي إلى أنه ليس في القرآن نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام، رفع بجسمة و روحه، و على أنه حيّ بجسمة و روحه، و قوله تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ وَ ارْفَعْكَ إِلَيْنَا وَ ارْفَعْكَ إِلَى الْمَكَانِ الْعَالِيِّ، و هذا الظاهر ذهب إليه بعض علماء المسلمين، فهو عند هؤلاء العلماء توفاه الله وفاة عادية، ثم رفع الله درجاته عنده، فهو حيّ حياة روحية، كحياة الشهداء، و حياة غيره من الأنبياء، لكن جمهور العلماء على أنه رفع بجسمة و روحه، فهو حيّ الآن بجسده و روحه، و فسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذي يسوغ تفسير القرآن بها، لكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة، و العقيدة لا تجب إلا

ص: 353

بنص من القرآن أو بحديث متواتر، وعلى ذلك فلا يجب على المسلم أن يعتقد أن عيسى عليه السلام حيّ بروحه وجسده، والذي يخالف في ذلك لا يعد كافرا في نظر الشريعة الإسلامية (1)، والأئمة المجتهدون الذي اتجهوا هذا الاتجاه كلهم قد استقوا من معين واحد، و استمدوا رأيهم من رأي الإمام الرازي الذي قال: و اعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله:

وَرَأْفَعُكَ إِلَيَّ هو الرفعة بالدرجة و المنقبة، لا بالمكان و الجهة، كما أن الفوقية في هذه ليست بالمكان، بل بالدرجة و الرفعة (2).

و أما النصارى، فقد جعلوا خاتمة المسيح عليه السلام، كما يقول الأستاذ رشيد رضا، خاتمة شنيعة، و مأساة مروعة، و جعلوا الاعتقاد بحصولها على الوجه الذي صوروه أصلا من أصول دينهم، و دعامة من دعائم عقيدتهم، لا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها، و هي الاعتقاد بصلب المسيح، و قد تلمسوا لتلك العقيدة أصلا في العهد القديم، و أسسوا عليه صلب المسيح، فقالوا: إن آدم، و هو أول كل البشر، قد عصي الله تعالى بالأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، فصار خاطئا، و صار جميع ذريته خطاه مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي، و قد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين، فهم يحملون وزر ذنوبهم، و وزر ذنب أبيهم، و لما كان الله من صفاته العدل و الرحمة، فمن عدله ألا يترك الجريمة دون عقاب، و إلا لم يكن عادلا، و لهذا شاء الله أن يحمل ابنه، الذي هو بنفسه (الله) في رحم امرأة من ذرية آدم، و يتجسد حيننا في رحمها و يولد منها، فيكون ولدها «إنسانا» كاملا من حيث أنه ابن لتلك المرأة، و «إلها» كاملا، من حيث أنه ابن الله، و يكون معصوما من جميع المعاصي، ثم بعد أن يعيش كما يعيش

ص: 354

1- نفس المرجع السابق ص 209-210.

2- تفسير الفخر الرازي 8/69.

الناس، و يأكل كما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويتلذذ ويتألم، كما يتلذذون ويتألمون يأتي أعداء الله، وأعداء شريعته، ويقتلونه شر قتلة وأفظعها، وهي أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه، ويضفروا له إكليلا من الشوك ويصقوا في وجهه، كل ذلك ليفدي البشر من جريمة لم يقتربها هو، ولا هم (1).

ص: 355

1- تفسير المنار 25/6، وانظر التفصيلات عن قصة الصلب هذه: إنجيل متى 1/26-20/28، مرقس 1/14-20/16، لوقا 1/22-53/24، يوحنا 1/18-25/21.

الكتاب الرابع داود و سليمان عليه السلام الباب الأول سيرة داود عليه السلام الفصل الأول: بنو إسرائيل فيما بين عهدي موسى و داود عليهما السلام 11

1- دخول بني إسرائيل كنعان 11

2- عصر القضاة 15

3- قيام ملكية طالوت 19

4- حروب طالوت و ظهور داود 26

الفصل الثاني: داود الرسول النبي 33

1- معجزات داود عليه السلام 34

قصة الخصمين 40

الفصل الثالث: داود ملك إسرائيل 53

1- داود فيما قبل الملكية 53

2- اختيار داود ملكا على يهوذا 56

3- داود و توحيد إسرائيل 58

ص: 357

4- داود و الفلسطينيين 59

5- داود و موآب و عمون و آرام و أدوم 62

6- دولة داود و مدى اتساعها 64

7- وراثة العرش و الخلافات العائلية 68

8- ثورة أبشالوم 70

9- التعداد العام و نتائجه 74

10- وفاة داود عليه السلام 77

الفصل الرابع: داود بين أي الذكر الحكيم و روايات التوراة 81

الباب الثاني سيرة سليمان عليه السلام الفصل الأول: سليمان الرسول النبي 91

1- وراثة سليمان داود عليهما السلام 91

2- من أحكام سليمان عليه السلام 94

3- من معجزات سليمان عليه السلام 97

الفصل الثاني: بناء المسجد الأقصى 115

الفصل الثالث: سليمان و ملكة سبأ 129

الفصل الرابع: سليمان ملك بني إسرائيل 159

1- السياسة الداخلية 159

2- السياسة الخارجية 162

3- التنظيمات العسكرية 164

4- النشاط التجاري 166

5- النشاط البحري 170

6- النشاط الصناعي 179

7- مملكة سليمان و مدى اتساعها 180

8- القدس عاصمة سليمان 197

9- مباني سليمان 201

الكتاب الخامس الأنبياء: من أيوب إلى يحيى عليهم السلام الفصل الأول: أيوب عليه السلام 209

1- قصة أيوب عليه السلام 209

2- سفر أيوب عليه السلام 223

الفصل الثاني: إلياس و اليسع عليهما السلام 231

1- إلياس عليه السلام 231

2- اليسع عليه السلام 239

الفصل الثالث: زكريا و يحيى عليهما السلام 243

1- زكريا عليه السلام 243

2- يحيى عليه السلام 259

3- استشهاد يحيى عليه السلام 266

الكتاب السادس المسيح عيسى بن مريم رسول الله الفصل الأول: مريم أم المسيح عليهما السلام 275

الفصل الثاني: مولد المسيح عليه السلام 285

ص: 359

الفصل الثالث: نبوة المسيح و معجزاته 307

1- نبوة المسيح 307

2- معجزات المسيح 311

الفصل الرابع: دعوى تأليه المسيح و صلبه 325

1- دعوى التأليه 325

2- دعوى الصلب 340

ص: 360

بطاقة تعريف: مهراڻ محمدبيومي

عنوان واسم المؤلف: دراساٲ تاريخية من القرآن الكريم محمدبيومي مهراڻ

تفاصيل المنشور: بيروت : دارالنهضة العربية ، ق 1408 = م. 1988 = 1367.

خصائص المظهر: ج 4

حالة الاستماع: القائمة السابقة

ملحوظة : كتابناه مندرجات : ج 1. بلاد العرب -- ج 2. مصر -- ج 3. في بلاد الشام -- ج 4. في العراق

موضوع : قرآن -- قصه ها

ترتيب الكونجرس: 1367 4د86/BP88

رقم الببليوغرافيا الوطنية: م 81-8979

ص: 1

اشارة

حقوق الطبع محفوظة الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بروت - ص.ب. ١١٠٧٤٩

الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا بناية

كريدية، تلفون: 303816

309830/ 312213

برقياً: دانهضة، ص. ب. ٧٤٩-١١

تلكس: NAHDA 40290 LE

LE 29354

المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني

رقم ٣ غربي الجامعة العربية،

تلفون: ٣١٦٢٠٢

المستودع: بشر حسن، تلفون: 833180

ص: 2

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد واله بفضل الله ونعمته تقدم هذا الجزء الرابع من سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم وقد خصصناه للأحداث التاريخية التي جاء ذكرها من القرآن الكريم وكان مجالها أرض العراق الطيبة.

وقد تحدثنا في الباب الأول منه عن سيرة سيدنا نوح عليه السلام وعن قصة الطوفان المشهورة كما جاءت في آثار بلاد الرافدين فضلاً عن التواترة والقرآن الكريم.

هذا وقد خصصنا الباب الثاني لسيرة أبي الانبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في العراق بعد ان تحدثنا عن سيرة الخليل العطرة صلوات الله وسلامه عليه في الشام ومصر والحجاز في بعض فصول الأجزاء السابقة.

وكان الباب الثالث مخصصاً لسيرة سيدنا يونس عليه السلام والذي

تذهب المراجع إلى أنه أرسل هادياً وبشيراً لأهل نينوى من أرض الموصل بالعراق.

والله تعالى أسأل أن يكون في هذه الدراسة بأجزائها الأربعة بعض النفع وأن يتقبلها وأن يتقبلها سبحانه وتعالى خالصة لوجهه الكريم.

(وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

الاسكندرية في ١٥ ربيع الآخر عام ١٤٠٨ هـ.

٧ ديسمبر عام ١٩٨٧ م.

ص: 6

إشارة

ص: 7

نوح عليه السلام نبي الله ورسوله، شيخ المرسلين، و أول رسل الله إلى الأرض، وأطول الأنبياء عمرا، وأكثرهم جهادا، وأحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الأنبياء في آيتين من القرآن الكريم، وهما قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (1)، وقوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (2).

وقال الإمام البيضاوي في تفسيره: خصّهم الله (أي أولى العزم الخمسة) بالذكر، لأنهم أولو العزم، ومشاهير أرباب الشرائع، وقدّم نبينا صلى الله عليه وسلم

ص: 9

1- سورة الأحزاب: آية 7.

2- سورة الشورى: آية 13، وانظر: تفسير القرطبي ص 5829-5830، تفسير ابن كثير 7/ 182-183، تفسير النسفي 4/ 102.

(في آية الأحزاب) تعظيماً له، و تكريماً لشأنه (1)، و روى أبو بكر البزار عن أبي هريرة قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح وإبراهيم و موسى و عيسى و محمد، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، و خيرهم محمد، صلى الله عليه و سلم (2).

هذا و قد وردت قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم في ثلاثة و أربعين موضحة، و إن ذكرت بشيء من التفصيل في سورة الأعراف و هود و المؤمنون و الشعراء و القمر و نوح (3).

هذا و قد لبث نوح في قومه - بنص القرآن الكريم - ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (4).**

و قد اختلف المفسرون في مبلغ عمر نوح عليه السلام، ف قيل مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه، قال قتادة: لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة، و دعاهم ثلاثمائة سنة، و لبث بعد الطوفان ثلاثمائة و خمسين سنة، و قال ابن عباس: بعث نوح لأربعين سنة، و لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، و عاش بعد الغرق ستين سنة، حتى كثر الناس و فشا، و عنه أيضاً: أنه بعث و هو ابن

ص: 10

1- تفسير البضاوي 1/ 114.

2- تفسير ابن كثير 3/ 748 (ط بيروت 1986).

3- انظر: سورة آل عمران. و النساء (آية 163) الأنعام (84) و الأعراف (59، 69) و التوبة (70) و يونس (71-73) و هود (25-48) و إبراهيم (9) و الإسراء (3، 17) و مريم (58) و الأنبياء (76-77) و الحج (42) و المؤمنون (23-30) و الفرقان (37) و الشعراء (105-122) و العنكبوت (14-15) و الأحزاب (7) و الصافات (75-16) و الحديد (26) و التحريم (10) و كذا سورة نوح.

4- سورة العنكبوت: آية 14، و يقول الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير (42/25) و في قوله تعالى: **وَهُمْ ظَالِمُونَ** إشارة لطيفة، و هي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم، و إنما يعذب على الإصرار على الظلم، و لهذا قال تعالى: **وَهُمْ ظَالِمُونَ** يعني أهلکم و هم على ظلمهم.

مائتين وخمسين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين، وعاش بعد الطوفان مائتي سنة، وقال وهب: عمّر نوح ألفاً وأربعمائة سنة، وقال كروب الأبحار: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان سبعين عاماً، فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاماً، وقال عون بن أبي شداد: بعث نوح، وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين سنة، فكان مبلغ عمره ألف سنة وستمائة وخمسين سنة، ونحوه عن الحسن (أي الحسن البصري) (1).

[2] معبودات قوم نوح:-

تعرض القرآن الكريم لمعبودات قوم نوح في قوله تعالى: وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ إِلِهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يُعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (2)، وهكذا يبيّن لنا القرآن الكريم أن الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح، هي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهي من أقدم الأصنام (3) التي عبدت قاطبة، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق، وأن ذلك

ص: 11

1- تفسير القرطبي ص (5048-5049) (ط الشعب- القاهرة 1970).

2- سورة نوح: آية 23.

3- يرى علماء اللغة أن كلمة «الأصنام» ليست عربية أصيلة، وإنما هي معربة من كلمة «شنم»، ورغم أنهم لم يذكروا لنا اسم اللغة التي عربت منها، فربما كانت من الآرامية «صلموا» أو العبرية «صلم»، وعلى أية حال، فإن الكلمة قد وردت في النصوص العربية الجنوبية تحت اسم «صلمو»، بمعنى «صنم» و«تمثال»، وفي الكتابات العربية الشمالية من أعالي الحجاز، تحت اسم «صلم» كاسم لإله علم ازدهرت عبادته في «تيماء» حوالي عام 600 ق. م، وهذا يبدو أن العرب كانوا يغرقون بين الأصنام والأوثان، فالصنم، فيما يرى علماء اللغة، هو ما اتخذ إليها من دون الله، وما كان له صورة كالتمثال، وعمل من خشب أو ذهب أو فضة أو وعرف بعضهم الصنم بأنه ما كان له جسم أو صورة، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو «وثن»، وأما «ابن الكلبي» فالتمثال عنده إذا كان معمولاً من خشب أو ذهب أو فضة أو غيرها من جواهر الأرض في صورة الإنسان فهو «صنم»، وإذا كان من حجارة فهو «وثن» وأما النصب فهي حجارة غفل ليست على صورة معينة تجرى عليه قبيلة من القبائل أوضاع العبادة لما تزعمه من أصلها السماوي، إن كانت حجراً بركانياً أو ما يشبهه، ولعل أدق الأصنام صنعا ما كان لأهل اليمن، ولا عجب، فخطهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز، ولا عرفه أهل نجد وكندة. انظر: القاموس المحيط 4/ 141، 274، اللسان 12/ 349، 15/ 141، تاج العروس 8/ 371، ابن الكلبي: كتاب الأصنام- القاهرة 1965 ص 53، محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام- القاهرة 1936 ص 113، السهيلي: المروض الأنف- القاهرة 1971- الجزء الأول ص 62، محمد حسين هيكل: حياة محمد- القاهرة 1970 ص 99، محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام- القاهرة 1952 ص 163، وكذا: P. 67، M. A. J yremogtno eht dna aibarA، 1934، و 80-79 no. eht fo noigiler، nodnol، 1927، P، W. R. htimS، serutcel، وكذا: P، 1964، 17، BE، arymlaP، kooC. A. G. 195-196.

يرجع إلى ما قبل طوفان نوح، وذلك حين صوّر القوم بعض الصالحين منهم، ثم وضعوا لهم الصور و التماثيل لإحياء ذكراهم و الاقتداء بهم، ثم بعد ذلك عبدوا هذه الصور، و تلك التماثيل (1).

هذا و يحاول بعض الباحثين إيجاد صلة بين المعبودين الوثنيين، «ود» العربي، و «إيروس» اليوناني، و أن الأول مستورد من بلاد اليونان، إلا أن هناك في الوقت نفسه من يعارض هذا الاتجاه، لانتفاء التشابه بينهما (2)، كما أن «ود» هذا هو إله «معين» الكبير، فضلا عن أنه قد عرف منذ ما قبل الطوفان، كما أشار القرآن الكريم، بين قوم نوح عليه السلام.

و على أية حال، فالذي لا شك فيه أن هذه الأصنام إنما كان يعبدها قوم نوح عليه السلام، روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال:

صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب (3)، أما ود كانت لكلب).

ص: 12

1- انظر: تفسير المنار 7/454، 8/436، تفسير البيضاوي 2/508، تفسير الألوسي 29/77، تفسير الطبري 29/71، تفسير النسفي 4/297، تفسير ابن كثير 4/666-667.

2- انظر: .17 J. nesuahleW. R. et al. A. nehcsibarA. smutnedieH. B. nilre. P, 1927. و كذا. P, 8, ERE, sgnitsaH. J 180.

3- انظر: عن عبادة هذه الأصنام في بلاد العرب (محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة- الإسكندرية 1978 ص (44-47)، (93-99).

بدومة الجندل، و أما سواع كانت لهذيل، و أما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف في الجوف عند سبأ، و أما يعوق فكانت لهمدان، و أما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا و سموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك و تنسخ العلم عدت (1).

و هكذا يبين لنا عبد الله بن عباس، حبر الأمة و ترجمان القرآن، في هذا الحديث أن هذه الأسماء كانت لرجال صالحين من قوم نوح، و أنهم لما ماتوا سؤل الشيطان لقومهم و زين لهم أن ينصبوا لهم صورا، و يسموها بأسمائهم حتى ينشطوا في العبادة إذا رأوهم و لم يعبدوهم آنذاك حتى إذا هلك أولئك القوم الذين نصبوا تلك الأنصاب و عمّ الجهل فيمن خلفهم عبودهم من دون الله تعالى.

و ذكر ابن عباس في هذا الحديث أن الأوثان صارت في العرب بعد ذلك، و أن «ودا» كان لقبيلة كلب في دومة الجندل، و «سواعا» لقبيلة هذيل، و «يغوث» لقبيلة مراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، و «يعوق» لقبيلة همدان، و «نسرا» لقبيلة حمير (2).

هذا و قد جاء في تفسير القرطبي: قال عروة بن الزبير و غيره: اشتكى آدم عليه السلام، و عنده بنوه، و د و سواع و يغوث و يعوق و نسر، و كان و د أكبرهم و أبرهم به، قال محمد بن كعب: كان لآدم عليه السلام خمس بنين:

و د و سواع و يغوث و يعوق و نسر، و كانوا عبادا فمات واحد منهم فحزنوا).

ص: 13

1- صحيح البخاري 6/199.

2- تفسير ابن عباس و مروياته في التفسير من كتب السنة- الجزء الثاني- الرياض 1987 ص 910-911 (نشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة).

عليه. فقال الشيطان أنا أصور لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه، قالوا افعل فصوّره في المسجد من صفر و رصاص، ثم مات آخر، فصوره، حتى ماتوا كلهم فصوّروهم، و تنقصت الأشياء كما تنتقص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين، فقال لهم الشيطان: ما لكم لا تعبدون شيئا، قالوا و ما نعبد، قال: آلهتكم و آلهة آبائكم، ألا ترون في مصلاكم، فعبدوها من دون الله، حتى بعث الله نوحا فقالوا: «لا تذرنا آلهتكم و لا تذرنا ودا و لا سواعا و لا يغوث و يعوق و نسرا، و قال محمد بن كعب و محمد بن قيس أيضا: بل كانوا قوما صالحين من آدم و نوح، و كان لهم تبع يقتدون بهم، فلما ماتوا زين لهم إبليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم، و ليتسلوا بالنظر إليها، فصوروهم، فلما ماتوا هم و جاء آخرون قالوا: ليت شعرنا، هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها، فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم و تسقيهم المطر، فعبدوها، فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت.

و يقول الإمام القرطبي: و بهذا المعنى فسر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة: أن أم حبيبة و أم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبيشة تسمى مارية فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه و سلّم، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلّم: «إن أولئك كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا، و صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» (1).

و من أجل هذا كله، جاءت الشريعة الإسلامية الغراء تحظر التصوير باليد لكل ذي روح، و تحرم اتخاذ التماثيل أيا كان الغرض منها، روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس عن أبي طلحة رضي الله).

ص: 14

1- تفسير القرطبي ص (6786-8687)، تفسير ابن كثير (4/666-667)، تفسير النسفي 4/297، صفوة التفاسير 3/454، تفسير جزء تبارك ض (135-137).

عنهم قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير» (1)، وروى البخاري أيضا في صحيحه عن الأعمش عن مسلم قال: كنا مع مسروق في دار يسار بن نمير، فرأى في صفته تماثيل، فقال: سمعت عبد الله، قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون»، وروى أيضا عن نافع أن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم احيوا ما خلقتهم، وفي رواية «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم احيوا ما خلقتهم»، وروى أيضا عن ابن عباس قال: سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يقول: «من صوّر صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافع» (2).

[3] دعوة نوح عليه السلام: -

كانت دعوة نوح عليه السلام- كما يقول صاحب تفسير جزء تبارك- مؤسسة على ثلاثة أركان كما جاء في قوله تعالى:

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3): الركن الأول: ترك عبادة الأصنام (ود و سواع و يغوث و يعوق و نسر) التي كان يعبدها أهل ذلك الزمان من دون الله، فكان نوح يأمرهم بخلعها، وعبادة الله وحده، وهذا معنى قوله تعالى: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ، و الركن الثاني: تقوى الله واجتناب المعاصي و الذنوب و الفواحش التي تقسد عليهم صحتهم و أخلاقهم و آدابهم، و تفكك روابط الألفة و عرا النظام بينهم، و هذا معنى قوله تعالى: وَ اتَّقُوهُ، و الركن الثالث: إطاعة ولي الأمر فيهم، و هو نوح عليه السلام نفسه، و هذا معنى قوله تعالى: وَ أَطِيعُوا.

ص: 15

-
- 1- صحيح البخاري 214/7-215 (دار الجيل - بيروت 1986). و انظر: صحيح مسلم 81/14-86 (بيروت 1981).
 - 2- صحيح البخاري 214/7-217، و انظر: صحيح مسلم 14-90-94.
 - 3- سورة نوح: آية 3.

فالدعوة السماوية التي هي أول ما أنزل على البشر، وبلغ إليهم، هي مطوية في ثلاث كلمات فقط: إيمان و تقوى و طاعة، بالإيمان ينتظم أمر عقائد الأمة فتسلم من الخرافات والأوهام، و بالتقوى ينتظم أمر أخلاقها و آدابها فتسلم من السقوط و الفساد، و بالطاعة ينتظم أمر اتحاد كلمتها و علو شأنها، فتسلم من الانحلال و الضياع، و ما زالت الأمم على سلم هذه الأركان السماوية تعلقو في الحياة الاجتماعية و تسقط، و ترقى في العزة و الغلبة و تهبط، و آية ذلك التاريخ، فهو الشاهد العدل، و إليه في هذه المسألة القول الفصل (1).

و هكذا أرسل الله تعالى نوحا إلى قومه، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، و إفراده بالشكر و الضراعة، و ترك ما هم عليه من عبادة الموروثات الباطلة، و أفرغ عليهم من طيب كلامه ليستميلهم إليه، و يذعنوا لدعوته، و يؤمنوا بها، و كان نوح عليه السلام، رجلا فتيق اللسان، عظيم الأناة، صابرا على الجدل، بصيرا بمسالك الإقناع، قادرا على تصريف الحجج، لكن روح الضلال و التقليد المتسلطة على المعاندين المستكبرين من قومه أبت عليهم أن يعرفوا طريق الهداية، و تحجرت قلوبهم فلم تلتن لدعوته، و لم تنقد لرجائه، كان، عليه السلام، كلما دعاهم إلى الله أعرضوا، و إذا أندرهم بالعذاب و الويل عموا و صموا، و إذا رغبهم في ثواب الله و رضائه استهانوا و سخروا منه و استكبروا و وضعوا أصابعهم في آذانهم (2)، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا، وَ إِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَسْمَعُوا ثِيَابَهُمْ وَ أَصْرُوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (3).

ص: 16

1- عبد القادر المغربي: تفسير جزء تبارك- المطبعة الأميرية- القاهرة 1947 ص 122.

2- سعد صادق: من قصص الأنبياء في القرآن- القاهرة 1969 ص 37.

3- سورة نوح: آية 5- 7. و انظر: تفسير القرطبي ص (6779- 7780)، تفسير ابن كثير 4/ 664- 665، تفسير النسفي 4/ 294- 295، تفسير جزء تبارك ص 123- 125.

ورغم ذلك كله، فقد صابروهم وطاولهم، ومدّ لهم في حبل صبره وأناته، وناضلهم وأخذ يفنن في الدعوة، من غير يأس ولا ملل، دعاهم ليلاً ونهاراً، وسراً وعلانية، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا** (1).

كان نوح عليه السلام يتكتم في أول الأمر في عرض الدعوة على قومه، فكان يدلي لهم بالمناصحة سرا، مستغرقا في ذلك جميع وقته، ليله و نهاره، كما هو شأن الداعي الحريص على بث دعوته، الحاذق في أدائها، العالم بطرق تبليغها، يتحين لها الفرص، ويختار لها الأوثق فالأوثق من الرجال، ولا يتسرع في إفشائها خشية أن يكاد لها، وتقام العواثر دونها، ومع كل ذلك لم تنجح دعوة نوح عليه السلام في القوم لفرط عتوهم، وتحجر العناد في نفوسهم، وهذا ما حمل نوحا على سلوك طريق آخر في الدعوة، وهو مصارحتهم بها، وتبليغهم إياها جهارا، من دون تكتم ولا خوف ولا تقيّة، وهو معنى قوله تعالى: **ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا،** إذ ربما فرط تكتمه في أمره، واستخفائه بدعوته، يجعلهم يظنونها باطلة، وإلا فما الذي يمنعه من الجهر بها؟ أو يظنون أنه عاجز جبان عن تبليغها فهو يكتمها خشية إيقاعهم به، وهذا مما يزيدهم نفورا وعنادا، ومن ثم قام نوح عليه السلام يصدعهم بدعوته صدعا، شأن الواثق من صدقها، المعتمد على ربه في حياطته و حياطتها، كأنه يقول: «هاكم دعوتي أبلغكموها على رءوس الأشهاد، فإن كان لكم سلطان بيني على بطلانها فهاتوه، أو كنتم تريدون قتلى و صدى بالقوة فافعلوه» (2).

ص: 17

1- سورة نوح: آية 8-9.

2- عبد القادر المغربي: تفسير جزء تبارك ص 125.

غير أن القوم لجوا في عنادهم، وأجابوه بأربع حجج، ظنوا كذبا أنها داحضة، الأولى: أنه بشر مثلهم، فساووه بأنفسهم في الجملة، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان من طبقتهم أو ما يقرب منها في بيته وفي شخصه، وهكذا كان كل رسول من وسط قومه (1)، ووجه الجواب: أن المسألة تنافي دعوى تفوق أحد المتساويين على الآخر، بجعل أحدهما تابعا طائعا، والآخر متبوعا مطاعا، لأنه ترجيح بغير مرجح.

و الثانية: أنه لم يتبعه منهم إلا أرذلهم في الطبقة والمكانة الاجتماعية «بادي الرأي» لا بديل من العقل والعلم، وبهذا تنتفي المساواة فينزل هو عن).

ص: 18

1- من المعروف أنه من فضل الله تعالى على رسله وأنبيائه، وسنته في اصطفائهم أن يختارهم من أكرم البيوت وأشرف الظهور، وأطهر البطون وأبعدها عن الدنيا، وألصقها بمكارم الأخلاق، على ما يقوله الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضٌهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، وعلى ما يقول جل شأنه: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ. وقد بين سيدنا وملانا وجدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا المعنى بقوله الشريف، فيما رواه مسلم والترمذي، «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، و اصطفى قريشا من كنانة، و اصطفى من قريش بني هاشم، و اصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار»، وأخرج ابن مردويه عن أنس أنه قال: «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، «لقد جاءكم من أنفسكم، بفتح الفاء»، وقال: «أنا أنفسكم نسا وصهرا وحسبا»، و روى الحاكم والبيهقي عن عائشة إنها قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال لي جبريل قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد، و قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أبي أفضل من بني هاشم (ورواه أيضا الطبراني في الأوسط و ابن عساکر). وفي الواقع فلقد كان بنو هاشم في ميزان المجتمع العربي سادته وقادته وأشرفه، وكانوا في ميزان القيم أجود الناس كفا، وأوفاهم ذمة، وأنداهاهم عطاء، وأكثرهم في سبيل الخير بلاء، وأحماهم للذمار، وبكلمة واحدة هم في قومهم وزمانهم ضمير أولئك القوم وذلك الزمان، وهكذا كان بنو هاشم، كما يقول ابن تيمية، أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل بني آدم، وهكذا كان منبت النبي صلى الله عليه وسلم، كما يقول الأستاذ الغزالي، في أسرة لها شأنها، بعض ما أعده الله لرسالته من نجاح، ولعل هذا كله يبين لنا الحكمة في اختيار الرسل من أواسط أقوامهم، ومن الجبهة القوية فيهم، حتى يكونوا لهم سندا وعضدا، ضد سفاهة السفهاء وبغي الباغين، (انظر التفصيلات: محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل البيت الطاهرين- الجزء الأول- السيرة النبوية الشريفة- الكتاب الأول).

رتبة الطبقة العليا إلى رتبة من اتبعه من الطبقات السفلى، وهذا مرجح لرد دعوته و التولي عنه، و الثالثة: عدم رؤية فضل له مع جماعته هؤلاء عليهم من قوة عصبية أو كثرة غالبية، أو غير هذا من المزايا التي ترفع الأردال من مقعدهم من السفلة، فيهن على الأشراف مساواتهم في اتباعه.

و الرابعة: أنهم بعد الإضراب أو صرف النظر عما ذكروا من التنافي و التعارض، يرجحون الحكم عليه و عليهم بالكذب في هذه الدعوى، و هذا هو المرجح الأقوى لرد الدعوة، و قد أخروه في الذكر لأنهم لو قدموه لما بقي لذكر تلك العلل الأخرى وجه، و هي وجهة في نظرهم لا بد لهم من بيانها، و هذه الأخيرة طعن لهم على نوح عليه السلام أشركوه فيه مع اتباعه، و لم يجابوه به وحده، و لم يجزموا به، كما أنهم لم يجعلوه في طبقتهم من الرذالة (1).

و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا (2)، و مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ، و مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، بَلْ نَطُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (3).

و كان رد نوح عليه السلام على قومه، كما جاء في القرآن الكريم:

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي، و آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ نُنزِلُ عَلَيْهَا مِثْلًا مِنْ سَمَوَاتِنَا وَمَا نَرَىٰ قَوْمًا يَشْكُرُونَ، و مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، بَلْ نَطُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (4).

ص: 19

1- تفسير المنار 53/12 (الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة 1975).

2- كرر القوم هذا الكلام مع نوح عليه السلام كما جاء في سورة المؤمنين (آية 24)، كما كرره فرعون مع موسى و هارون عليهما السلام، كما جاء في الآيات 45-48 من نفس سورة المؤمنين.

3- سورة هود: آية 27، و انظر: تفسير المنار 5/12-54، تفسير القرطبي ص 3250-3252، تفسير ابن كثير 2/685-686، تفسير النسفي 2/185، تفسير الطبري 15/295-297 (دار المعارف- القاهرة 1960).

وَيَا قَوْمِ لَا- أَسَدٌ مُلْكُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا، إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ، وَ لَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ، وَ يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا- تَذَكَّرُونَ، وَ لَا- أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا- أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (1).

و مع ذلك كله، فلم ينته القوم عن غيِّهم، و لم يؤمنوا بنبيِّهم، و إنما تمادوا في الكفر و العصيان و التناول على النبي الكريم صلى الله عليه و سلم، فاتهموه بالسفه و الضلال، قال تعالى: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي صَدَلٍ مُبِينٍ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ، وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (2)، ثم اتهموه بالجنون، قال تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَ قَالُوا مَجْنُونٌ وَ زُدَّجِرَ (3)، و قال تعالى: إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (4).

ثم اتهموه بكثرة الجدل و الافتراء على الله، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (5)، و لم تكف كل هذه الاتهامات الكذوب، في نظر هؤلاء اللئام، فإذا بهم يسخرون من النبي الكريم و يستهزءون، قال تعالى:

وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ، وَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا،

ص: 20

1- سورة هود: آية 28-31، و انظر: تفسير القرطبي ص 3253-3255، تفسير الطبري 15/297-303، تفسير المنار 12/54-58، تفسير النسفي 2/185-186، تفسير ابن كثير 2/686-687 (بيروت 1986)، صفوة التفاسير 2/14-15، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 3/195-197 (مكة المكرمة 1398 هـ).

2- سورة الأعراف: آية 60-62.

3- سورة القمر: آية 9.

4- سورة المؤمنون: آية 25.

5- سورة هود: آية 32.

فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (1).

وهكذا كانت حياة نوح عليه السلام، حياة شاقة مريرة، ومحنته مع قومه محنة شديدة أليمة، فقد قام بينهم قرونا ودهورا، بذل فيها أقصى جهده لكي يؤمن قومه بالله تعالى، وأن يذروا عبادة الأصنام، وطال الزمن وهو يدعو قومه في السر والعلانية، ويضرب لهم الأمثال، ويوجه نظرهم إلى صنع الله بخلقهم أطوارا مختلفة، وعنايته بهم في حياتهم الجينية، وحياتهم في الدنيا، وخلق السموات والأرض، وأن من بدأهم قادر على إعادتهم، ذلك أن من خلق لهم الأرض ومتعهم بما خلق فيها، قادر على إعادتهم ومجازاتهم (2).

ورغم ذلك كله، فإن نوحا عليه السلام، لم ير من قومه إلا آذانا صماء، وقلوبا غلغا، وعقولا متحجرة، لقد كانت نفوسهم أيبس من الصخر، وأفندتهم أقسى من الحديد، لم ينفعهم نصح أو تذكير، ولم يزرهم وعيد أو تحذير، وكلما ازداد لهم نصحا، ازدادوا في طريق الضلال سائرين، لا يلتفتون إلى دعوة نوح، ولا يبالون بتحذيره وإنذاره وقد أقام بينهم تسعمائة وخمسين عاما داعيا ومذكرا وناصحا، وسلك جميع الطرق الحكيمة لإنقاذهم، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان، فلم يفلح معهم أبدا، وكانت دعوته لهم ليلا ونهارا، وسرا و جهارا، ومع ذلك لم تلن قلوبهم، بل قابلوا الإحسان بالشدّة، ومالوا عليه بالضرب والأذى، وهو لا يفتأ يقول:

اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

روى المفسرون أن نوحا عليه السلام كان يأتي قومه فيدعوهم إلى

ص: 21

-
- 1- سورة هود: آية 38، وانظر: تفسير المنار 61/12-62، تفسير القرطبي ص 3258-3259، تفسير الطبري 15/310-317، تفسير ابن كثير 2/688-669، تفسير النسفي 2/187.
 - 2- محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم- القاهرة 1970 ص 133-134.

اللّه، فيجتمعون عليه و يضربونه الضرب المبرح، و يخنقونه حتى يغشى عليه ثم يلقونه في حصير و يرمون به في الطريق، و يقولون إنه سيموت بعد هذا اليوم، فيعيد الله سبحانه و تعالى إليه قوته فيرجع إليهم و يدعوهم إلى الله، فيفعلون به مثل ذلك (1).

و قال مجاهد و عبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

و قال ابن عباس، رضي الله عنه، إن نوحا كان يضرب ثم يلف في لبد فيلقى في بيته يرون أنه مات، ثم يخرج فيدعوهم، حتى إذا ينس من إيمان قومه، جاءه رجل و معه ابنه و هو يتوكأ على عصا، فقال: يا بني انظر هذا الشيخ لا يغرنك، قال: يا أبت أمكني من العصا، فأخذ العصا، ثم قال:

ضعني في الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشججه شجرة موضحة في رأسه، و سالت الدماء، فقال نوح: «رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خير فاهدهم، و إن يك غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم و أنت خير الحاكمين» (2).

و هكذا بقي النبي الكريم يؤذى و يعذب، و هو مع ذلك صابر، لا يدعو على قومه بالعذاب، و إنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير و الصلاح، و يقول: لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي و يؤمن بالله، و لكن مع هذه المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا القليل منهم، و كان كلما انقرض جيل جاء من بعده جيل أخبث و ألعن، فلقد كان القوم يوصون أولادهم بعدم الإيمان به، و كان الوالد يقول لولده إذا بلغ و عقل: يا بني احذر هذا لا يغرنك عن دينك و ألهتك (3).

ص: 22

1- محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء- بيروت 1970 ص 150.

2- تفسير القرطبي ص 3271.

3- محمد علي الصابوني: المرجع السابق ص 150-151.

و أوحى الله تعالى إلى نبيه نوح إنه لن يؤمن من هؤلاء القوم الكافرين أحد بعد ذلك، بل إنه لم يبق في أصلاب الرجال، ولا في أرحام النساء مؤمن (1)، قال تعالى: وَ أَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (2)، قال الضحاك: فدعا عليهم لما أخبر بذلك فقال: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا»، وقيل إن رجلا من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبي نوحا قال لأبيه: أعطني حجرا، ورمى به نوحا عليه السلام فأدماه، فأوحى الله تعالى إليه: أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، فدعا عليهم، فكان الطوفان الذي أغرقهم جميعا (3).

[4] قضية ابن نوح:-

اختلف المفسرون في ابن نوح الذي غرق في الطوفان من دون أهله، وقد أشار القرآن الكريم إلى قصته في قوله تعالى:

وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْرِلٍ يَا بُنَيَّ اذْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ، وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَاءَ أَقْلَعِي وَ غِيضَ الْمَاءِ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخَافُ أَنْ تُكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (4).

ص: 23

1- تفسير القرطبي ص 3271.

2- سورة هود: آية 36.

3- سورة نوح: آية 26-27، تفسير القرطبي ص 3257، 3271، و انظر: تفسير الطبري 15/306-307.

4- سورة هود: آية 42-47، و انظر: تفسير ابن كثير 2/690-694، تفسير القرطبي ص 3264 3276، تفسير الطبري 15/331-352،

تفسير النسفي 2/188-192، تفسير المنار 12/65-84، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 3/200-201، صفوة التفاسير

2/16-19، التسهيل 2/106-107.

وقد انقسم المفسرون في ابن نوح هذا إلى فرق، ففريق يرى أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه، قال قتادة: سألت الحسن (أي الحسن البصري) عنه فقال:

والله ما كان ابنه، قلت إن الله أخبر عن نوح إنه قال: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي»، فقال: لم يقل مني، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن امرأته من زوج آخر، فقلت له: إن الله حكى عنه إنه قال: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» و«وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ»، و لا- يختلف أهل الكتاب إنه ابنه، فقال الحسن: و من يأخذ دينه عن أهل الكتاب، إنهم يكذبون، وقرأ «فخانتاهما»، و قال ابن جريج: ناداه و هو يحسب أنه ابنه، و كان ولد على فراشه، و كانت امرأته خاتمه فيه، و لهذا قال:

«فخانتاهما» (1).

هذا و قد استهجن كثير من علماء السلف و الخلف هذا الإتجاه، فقال ابن عباس - حبر الأمة و ترجمان القرآن - «ما بغت امرأة نبي قط»، و قال الإمام الرازي في التفسير الكبير: و القائلون بهذا القول (أي أنه ولد على فراشه لغير رشده) فقد احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح و امرأة لوط «فخانتاهما» فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكروه، قيل لابن عباس، رضي الله عنه، ما كانت تلك الخيانة؟ فقال: كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، و امرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا، و في تفسير الطبري:

عن سليمان بن قتة قال: سمعت ابن عباس يسأل، و هو إلى جنب الكعبة، عن قوله تعالى: فَخَانَتَاهُمَا، قال: أما إنه لم يكن بالزنا، و لكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، و كانت هذه تدل على الأضياف، ثم قرأ «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ»، ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب، قوله تعالى:

ص: 24

الْحَيِّثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ، وقوله تعالى: الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (1).

وقال الألوسي في روح المعاني: وما يقال من أنه كان لغير رشده لقوله سبحانه وتعالى: فَخَانَتْهُمَا، فارتكاب عزيمة لا يقادر قدرها، فإن الله قد طهر الأنبياء عليهم السلام عما هو دون ذلك من النقص بمراحل، فحاشاهم ثم حاشاهم أن يشار إليهم بإصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة في الدين، ونسبة هذا القول إلى الحسن ومجاهد كذب صريح.

وقال أبو السعود في بحره المحيط: وما يقال إنه كان لغير رشده لقوله «فخانتاهما»، فارتكاب عزيمة لا يقادر قدرها فإن جناب الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، أرفع من أن يشار إليهم بإصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين، وقال البيضاوي: وكان لغير رشده لقوله تعالى:

فَخَانَتْهُمَا، وهو خطأ، إذ أن الأنبياء عصمت من ذلك، والمراد بالخيانة الخيانة في الدين.

وأما ما استند إليه البعض في عدم استبعاد أن تكون امرأة النبي زانية من القياس على الكفر، الذي هو أشد ذنبا من الزنا، وامرأة نوح كانت كافرة، وقد ضربها الله مثلا في الكفر، ومن أتى الذنب الأكبر يهون عليه الإتيان بالأصغر، فواضح البطلان، لأن كفر المرأة، وإن كان من أكبر الكبائر لا يعود ضرره إلا عليها، ولا يلحق الزوج منه عار ولا فضيحة بين الناس، ولذلك أباح الله للمسلم أن يتزوج من الكتابيات، بخلاف زناها، فإنه، وإن كان أصغر من الكفر، لا يقصر ضرره عليها وحدها، بل يلحق الزوج أيضا

ص: 25

1- سورة النور: آية 3، 26، تفسير الطبري 15/343، تفسير القرطبي ص 3274، عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء- القاهرة 1966 ص

.41

بسببه عار وفضيحة بين الناس في مطرد العادة، بحيث يكون بحالة لا يستطيع معها مجالسة الناس، و من ثم، فقد نص، كما يقول ابن كثير، غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زانية (1).

و هناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أنه كان ابن امرأته، قاله الحسن و مجاهد و عبيد بن عمير و أبي جعفر الباقر و ابن جريج (2)، وفي تفسير القرطبي، قرأ عروة بن الزبير: «و نادى نوح ابنها» يريد ابن امرأته، يقول القرطبي: إلا- أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليه لها، و الله أعلم (3).

على أن هناك وجهًا ثالثًا للنظر، يذهب إلى أنه ابنه من صلبه، و هذا ما نؤمن به الإيمان كل الإيمان، و إنه كان ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره و مخالفته أباه نبيّ الله نوحا عليه السلام، قال ابن عباس: «ما بغت امرأة بني قط، و أنه كان ابنه لصلبه، و كذلك قال الضحاك و عكرمة و سعيد بن جبيرة و ميمون بن مهران و غيرهم، و إنه كان ابنه لصلبه، و قيل لسعيد بن جبيرة يقول نوح: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» أ كان من أهله؟ أ كان ابنه؟ فسبح الله طويلا ثم قال: لا إله إلا الله، يحدث الله محمدا صلى الله عليه و سلم، إنه ابنه، و تقول إنه ليس ابنه، نعم كان ابنه، و لكن كان مخالفا في النية و العمل و الدين، و لهذا قال الله تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ (4).

و يقول القرطبي: و هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به، و إن قوله «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» ليس مما ينفي عنه أنه ابنه، و قوله «فخانتاهما»، يعني في الدين، لا في الفرائض، و ذلك أن هذه كانت تخبر

ص: 26

1- انظر: عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 41- 45.

2- تفسير ابن كثير 2/ 693.

3- تفسير القرطبي ص 3275.

4- تفسير القرطبي ص 3274.

الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها نعم، قالت فمتى، قال: إذا فار التنور، فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه مجنون، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التنور، فهذه خيانتها، و خيانة الأخرى إنها كانت تدل على الأضياف (1).

وروى الطبري في تفسيره عن فضالة بن الفضل الكومي قال قال بزيغ: سألت رجل الضحاك عن ابن نوح، فقال: ألا تعجبون إلى هذا الأحمق، يسألني عن ابن نوح، وهو ابن نوح، كما قال الله تعالى: (قال نوح لابنه)، وعن جوير عن الضحاك قال: هو والله ابنه لصلبه، و روى الطبري أيضا عن الضحاك إنه قرأ «و نادى نوحُ ابنَهُ»، وقوله «لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ»، قال يقول: ليس هو من أهلك، قال يقول: ليس هو من أهل ولايتك، ولا ممن وعدتك أن أنجي من أهلك «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ»، قال يقول: «كان عمله في شرك» (2).

وروى النسفي في تفسيره، قال الشيخ أبو منصور رحمه الله، كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه لأنه كان ينافق، وإلا لا يحتمل أن يقول ابني من أهلي، ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله: وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ، فكان يسأله على الظاهر الذي عنده، كما كان أهل النفاق يظهرن الموافقة لنبينا عليه الصلاة والسلام، ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتى أطلع الله عليه، وقوله: لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ أي من الذين وعدت النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السر والظاهر (3).

ص: 27

1- تفسير القرطبي ص 3275.

2- تفسير الطبري 5 / 345.

3- تفسير النسفي 2 / 191-192.

و أولى الأقوال بالصواب، عند الإمام الطبري، قول من قال: تأويل ذلك، إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، لأنه كان لدينك مخالفاً، وبي كافراً، وكان ابنه، لأن الله تعالى ذكره، قد أخبر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، أنه ابنه، فقال: «وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ»، و غير جائز أن يخبر أنه ابنه، فيكون بخلاف ما أخبر، و ليس في قوله «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» دلالة على إنه ليس بابنه، إذ كان قوله «لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» محتملاً من المعين ما ذكرنا، و محتملاً «إنه ليس من أهل دينك»، ثم يحذف الدين، فيقال: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ»، كما قيل «وَسَدَّ مَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا» (1).

ص: 28

1- تفسير الطبري 346 / 15 (دار المعارف- القاهرة 1960).

إشارة

من المعروف منذ زمن طويل أن قصص الطوفان الكبير الذي هلك فيه كل الناس على وجه التقريب، تنتشر انتشارا واسعا في جميع أنحاء العالم، فهناك قصص عن الطوفان، في بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم، وفي الهند و بورما و الصين و الملايو و استراليا و جزر المحيط الهادي، و في مجتمعات الهنود الحمر (1).

وقد قدم لنا «السير جيمس فريزر rezarF semaJ ris» دراسة عن قصص «الطوفان الكبير» في أساطير الأمم المختلفة، نستنتج منها أنها كانت منتشرة في قارة آسيا و في استراليا و في أمريكا الشمالية و الوسطى و الجنوبية- فيما قبل العهد الأوربي- و لكنها قليلة نسيبا في قارة أوروبا، و أقل منها في إفريقيا (2).

ولعل من الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه رغم كثرة قصص الطوفان و انتشارها، فإنها تختلف فيما بينها اختلافات كثيرة، كما أن قسما منها أساطير وضعت وضعا لتفسير بعض العوارض الأرضية كالمنخفضات الواسعة في البلاد التي وضعت فيها تلك الأساطير (3) أضف إلى ذلك أنه ليست هناك رواية واحدة أصيلة عن الطوفان الكبير دوت في إفريقيا، فمثلا لم يكشف أثر لهذه الحكاية في الأدب المصري القديم- و هو دون شك أهم الآداب الأفريقية و أكثرها أصالة دون منازع- أما عن رواية الطوفان التي تنسب

ص: 29

1- 11 . E. redrelloS . 1962, noodnol, dooiF ehT. P.,

2- جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم، ترجمة نبيلة إبراهيم، مراجعة حسن ظاظا، ص 91-219

3- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارة القديمة- الجزء الأول- العراق، ص 460.

إلى «غينيا الشمالية» فهي أسطورة أكثر منها قصة، اختلطت فيها الخرافات بالمعجزات حتى بات من الصعب علينا مقارنتها بغيرها من قصص الطوفان، هذا إلى أنها نقلت إلينا عن طريق المبشرين الأوربيين، حتى أصبحنا لا نستطيع الحكم عليها وإرجاعها إلى أصل غيني أو أوربي، أضف إلى ذلك أن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الرجال قد تحولوا بعد الطوفان إلى قرود، كما تحولت النساء إلى سحالي، وأن ذيل القرد هو بندقية الرجل، مما يدل بوضوح على مدى التأثير الأوربي الحديث في هذه الأسطورة الأفريقية عن الطوفان، كما أن الروايات التي اكتشفها الكتاب الألمان عن الطوفان الكبير بين سكان إفريقيا الشرقية ليست سوى روايات مختلفة لقصة الطوفان في الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) والتي تسربت إلى هؤلاء البدائيين عن طريق المسيحيين (1).

وبديهي أننا لن نناقش هنا كل القصص والأساطير التي دارت حول الطوفان الكبير الذي أغرق العالم، و لكننا سوف نقتصر على دراسة قصة الطوفان في منطقة الشرق الأدنى القديم، سواء تلك القصص التي روتها المصادر التاريخية، أو تلك التي تحدثت عنها الكتب المقدسة- التوراة والإنجيل والقرآن العظيم- وكلها- دون استثناء- أنزلت على أرض هذا الشرق القديم، كما أنه ليس واحدا من أصحابها- صلوات الله وسلامه عليهم- إلا و كان من هذا الشرق الخالد.

ولعل الذي دفعني إلى دراسة هذا الموضوع إحساس عميق بأن تنال الموضوعات التاريخية المتصلة بالكتب المقدسة قسطا وافرا من المؤرخين المسلمين، بعد أن ظل الميدان في العصر الحديث يكاد يكون مقصورا على الغربيين من يهود ونصارى، وساعدني على هذه المحاولة تخصصي في التاريخ القديم، فضلا عن دراسات إسلامية قضيت فيها الشطر المبكر من حياتي العلمية، وإن كنت لا أزعج نفسي فيها- بحال من الأحوال- مكانة تعدو مكانة عامة المسلمين الذين تعلموا من أمور دينهم القدر الذي يتعرفون به عليه، وإن كان مما لا ريب فيه أنه لا يصل بهم إلى مكانة الخاصة من المتخصصين في دراسات القرآن الكريم والحديث الشريف وعلومهما، ثم كان لوجودي بين أعضاء

ص: 30

أولاً: قصة الطوفان السومرية:

كان الناس يعتقدون حتى أواخر القرن الماضي أن التوراة هي أقدم مصدر لقصة الطوفان، ولكن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن ذلك مجرد وهم، حيث عثر في عام 1853 م على نسخة من رواية الطوفان البابلية، وفي الفترة ما بين عامي 1889، 1900 م، اكتشفت أول بعثة أمريكية قامت بالحفر في العراق اللوح الطيني الذي يحتوي على القصة السومرية للطوفان في مدينة «نيبور» (نفر)، و كان «أرنو بوبل» أول من قام بنشره في عام 1914 م، ثم تبعه آخرون (1)، وإن كانت ترجمة «بوبل» هي الأساس الذي ما يزال يعتمد عليه الباحثون.

ويبدو من طابع الكتابة التي كتبت بها القصة السومرية أنها ترجع إلى ما يقرب من عهد الملك البابلي الشهير «حمورابي» (1728-1686 ق. م)، على أنه من المؤكد أن القصة نفسها، إنما ترجع إلى عصر أقدم من ذلك بكثير، ذلك لأنه في هذا الوقت الذي كتب فيه اللوح لم يكن هناك وجود للسومريين، بوصفهم عنصراً مستقلاً، إذ كانوا قد ذابوا في الشعب السامي، كما أن لغتهم الأصلية كانت قد أصبحت من قبل لغة ميتة، وذلك على الرغم من أن الكهنة و الكتاب الساميين كانوا لا يزالون يدرسون الأدب القديم و النصوص المقدسة المحفوظة في ثنانيا تلك الآداب، و يعيدون كتابتها، و من ثم فإن اكتشاف رواية قصة الطوفان السومرية يدعو إلى افتراض أنها إنما ترجع إلى زمن سابق على احتلال الساميين لوادي الفرات، و أن هؤلاء الساميين قد أخذوا هذه

ص: 31

1- «أ». 70-9. P. I. tP, VI, ni, lebeoP onrA. fo 1914. noitidarT worbeH ot noitaleR ni tpygE dna nolybaB
L. W. L. gniK, sdnegeL «ح». 97-98. N. S. 1944. aihpledalihP, ygohtyM naireruS, remarK. كذلك. /44
P, TENA. 42

لقصة- فيما يبدو- بعد هجرتهم إلى وادي الفرات عن السومريين (1) الذين سكنوا المنطقة قبلهم (2).

و أما سبب الفيضان، فلا يعسر علينا إدراكه، ولا سيما في بلد تكثرت فيه الفيضانات الفجائية كالقسم الجنوبي من العراق، ولكن طوفانا كبيرا كالذي تحدثت عنه المصادر لسومرية و البابلية هو دون شك حدث عظيم وقع قبيل تغلب الإنسان على الأنهار، بما أنشأه من السدود و أعمال الإرواء، و أن هطول الأمطار كان مصحوبا بعواصف مدمرة (3).

و تتضمن قصة الطوفان السومرية عدة وقائع هامة، يتعلق أول ما يمكن قراءته من سطورها بخلق الإنسان و النبات و الحيوان، و بأصل الملكية السماوي، فضلا عن خمس مدن ترجع إلى ما قبل فترة الطوفان، و من أسف أن من بين اللوحات التي تتناول القصة لم تبق سوى لوحة واحدة، و حتى هذه فإن ما بقي منها لا يعدو ثلثها الأخير فحسب، و قد فقدت المقدمة و النهاية الخاصة بذلك النص، و من ثم فإنه غامض في أكثر نواحيه، هذا و يقدر عدد الأسطر التي يتكون منها النص في جملته بحوالي ثلاثمائة سطر، لم يعثر إلا على حوالي المائة منها، و رغم ذلك فإنها تقدم لنا الخطوط الرئيسية للنص.

ص: 32

1- السومريون: يتفق المؤرخون على أن السومريين جنس غير سامي، و أن لغتهم غريبة لا تشبه اللغات السامية، و لا يعلم زمن مجيئهم إلى وادي الرافدين، و إن رأى البعض أن ذلك ربما كان في فترة مبكرة من الألف الرابعة ق. م.، (64-156. AJA، 52، 1948، p) و قد اختلفت الآراء في موطنهم الأصلي، فقد ذكرت أساطيرهم أنهم جاءوا من الجنوب، و من ثم ذهب رأي إلى أنهم مهاجرون من منطقة ما تقع فيما بين شمال الهند و بين أفغانستان و بلوجستان عن طريق الخليج العربي و جزيرة البحرين بعد أن استقروا في غربي إيران فترة ما (عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم ج 1 ص 838)، (S. A. E. resiepS. A. E. (deveiver melborP nairemuS ehT، و ذهب رأي ثان إلى اعتبارهم بدوا مما وراء القوقاز أو مما وراء بحر قزوين، و يرى «روتزني» أنهم جاءوا من آسيا الصغرى، بينما رأى آخرون أنهم جاءوا من السند (أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم ص 28) بل لقد ذهب طه باقر (المرجع السابق ص 89-90) إلى أنهم من الأقوام التي قطنت العراق في عصور ما قبل التاريخ، و أن حضارتهم أصيلة في العراق، بل و يمكن تسمية أهل حضارة «العبيد» بالسومريين، على الرغم من أننا لا نعرف اللغة التي تكلم بها أهل حضارة العبيد.

2- جيمس فريزر: المرجع السابق ص 103.

3- مجلة سومر- المجلد السابع 1951 م- العدد الأول.

و على أى حال، فبعد 37 سطرا، نلتقي بمعبود يشير إلى أنه سوف ينقذ البشر من الهلاك و أن الإنسان سوف يبني المدن و المعابد، و يلي ذلك ثلاثة سطور غامضة، ربما كانت تتضمن ما سوف يبذله المعبود في هذا السبيل، ثم الحديث عن خلق الإنسان و الحيوان و ربما النبات ... ثم 37 سطرا ضائعة، نعرف بعدها أن الملكية هبطت من السماء، و أن خمس مدائن أسست ... ثم 37 سطرا ضائعة ... ربما تشير إلى إصرار الآلهة على الإتيان بالفيضان و تدمير البشر، و حين يصبح النص مقروءا نجد بعض الآلهة غير راضين، و تجتاحهم التعاسة بسبب القرار القاسي ثم نلتقي ببطل القصة «زيوسودرا ardu sui Z» الذي يوصف بالتقوى، و بأنه ملك يخاف الإله، و يكب على خدمته في تواضع و خشوع، و يطيل النظر إلى المكان المقدس، و هو يقيم بجوار حائط يستمع منه إلى صوت معبوده أنكى الذي أخبره بالقرار الذي اتخذته مجمع الآلهة بإرسال الطوفان «لإهلاك بذرة الجنس البشري».

و لعل من المؤكد أن ما يلي ذلك تعليمات مسهبة إلى «زيوسودرا» ببناء سفينة هائلة لينقذ نفسه من الهلاك، غير أن هذا كله ناقص لوجود كسر كبير في اللوحة، ربما كان يشغل 40 سطرا، و من ثم فنحن ننتقل فجأة من موضوع تحذير الإله للإنسان إلى موضوع الطوفان، فيصف اللوح العاصفة و الأمطار و قد ثارت جميعا، ثم تستمر الرواية فتقول «و بعد أن هبت العاصفة الممطرة على الأرض سبعة أيام و سبع ليال يكتسح الفيضان فيها الأرض، و يدفع الفلك قدما على المياه المضطربة، ثم يظهر بعد ذلك إله الشمس «أوتو» و هو يكسب الضوء على السماء و الأرض، و عند ما تخترق أشعة الشمس السفينة، و يرى «زيوسودرا» نور ربه، و يعلم بصفحة، يخرج من الفلك و يسجد للرب مضحيا له بفحل و شاة».

و يلي ذلك كسر يشغل 39 سطرا، ثم تصف الأسطر الباقية كيف نفث الإله روح الخلود في «زيوسودرا»، مستقرا بأرض دلمون، حيث تشرق الشمس، أي حيث القوة القاهرة للموت (1)، دلمون التي هي مركز الخلق في الأساطير السومرية، جنة الخلد، E.

ص: 33

وازدهر الزرع في الأرض، وأخرجت الحيوانات و مخلوقات السهول ذوات الأربع إلى الوجود بحكمة ... ثم نجابه بحوالي 37 سطرا مهشمة ... وبعد أن أنزلت الملكية من السماء، وبعد أن أنزل «تيارا» المعظم، عرش الملك من السماء ... أكمل الشعائر والشرائع الإلهية المبجلة، وأسّس المدن الخمس في ... مواضع طاهرة، و سماها بأسمائها وجعلها مراكز للعبادة، وكانت أولى هذه المدن «أريدو» فأعطاهما إلى «نوديمو» القائد، والثانية «بادتيرا» وأعطاهما إلى ...، وكانت الثالثة «لارك» وأعطاهما إلى أندو بيلهور ساج، وأعطى الرابعة «سيبار» للبطل «أوتو»، وأما الخامسة ف «شورباك» وقد أعطاهما ل «سود»، و حين سمى هذه المدن وجعلها مراكز للعبادة، فإنه أحضر ... ثم قرر تطهير الأنهار الصغيرة ... ثم حوالي 37 سطرا مهشمة ...

الطوفان ... هكذا حلّ ب ... ثم بكت نينتو مثل ... وناحت «أنانا» الطاهرة من أجل أناسها، ثم قام زيوسودرا، الملك، الباشيشو (لقب كهنوتي) وبنى ... ضحما، مطيعا متواضعا في احترام ... حاضرا كل يوم دائما ... محضرا كل أنواع الاحترام ...

ناطقا اسمي السماء والأرض ... الآلهة حائط ... وكان زيوسودرا واقفا إلى جانبه، وقد سمع ... قف عند الحائط إلى جانبي الأيسر، وعند الحائط سوف ألقى إليك كلمته ... أصغ إلى تعليماتي، بقضائنا ... طوفانا سوف يكتسح مراكز العبادة، ويقضي على بذرة البشر، ذلك قرار، إنها كلمة مجلس الآلهة، بناء على الكلمة التي أمر بها «أنو» و «إنليل» ... وسوف ينتهي ملكها وحكمها ... (حوالي 40 سطرا مهشمة).

وهبت جميع الزوابع بعنف و ضراوة كقوة واحدة، وبعد ذلك و لمدة سبعة أيام و سبع ليال، اكتسح الطوفان الأرض (1) فيها، و تقاذفت الأعاصير السفينة الضخمة فوق المياه)

ص: 35

الضخمة، و ظهر «أوتو» الذي يضئ السماء والأرض، وفتح زيوسودرا كوة (نافذة) في الفلك العظيم، و أنفذ البطل «أوتو» أشعته في الفلك العظيم، و سجد زيوسودرا الملك أمام أوتو العظيم، و في نفس الوقت اكتسح الطوفان مراكز العبادة، وضحى الملك بفحل و شاة ... (حوالي 39 سطرا مهشمة) تنطق أنت «نسمة السماء» و «نسمة الأرض» حقا، و تبسط نفسها عنه ... و نادى أنو و أنليل نسمة السماء و نسمة الأرض ب ... فبسطة نفسها ... و ازدهر الزرع الذي ينبت من الأرض، و سجد زيوسودرا أمام أنو و إنليل، و رضئ أنو و إنليل عن زيوسودرا، الملك، الذي حافظ على اسم الزرع و بذرة البشر، و في أرض دلمون، أرض العبور، حيث تشرق الشمس أسكنه هناك، ... أما بقية اللوح (39 سطرا) فهي مكسورة، و لهذا لا نعرف ما ذا حدث لزيوسودرا بعد ذلك.

و لكن أين أرض دلمون هذه؟

إن العلماء مختلفون في موقع دلمون السومرية هذه، فذهب بعضهم إلى أنها في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس (الجزء الشرقي من ساحل الخليج العربي) (1)، و منهم من رأى أنها منطقة وادي السند (2)، و منهم من رأى أنها سهول العراق الكائنة إلى جنوب غرب بابل (3)، و هناك من رأى أنها إنما تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب بين مجان و بيت نيسانو (4)، إلا أن غالبية العلماء يكادون يتفقون على أن موقع دلمون، إنما هو جزيرة البحرين الحالية، أو جزيرة البحرين و الساحل المقابل لها (5).

و سؤال البداية الآن: هل هناك من الأدلة الأثرية في العراق ما يثبت قصة الطوفان السومرية هذه؟. J

ص: 36

1- 18- 28.. N.S. .N .SAB ,gniviL eht fo dnal eht ,numliD ,reMark .P ,1944 ,96 ,RoSAB

2- 45.. eht .I sudnI noitaziliviC dna noitidepxE dnaL esidaraP nairemuS eht ,numliD .P ,1946 ,aihpledalihP ,reMark .N .S

3- جون ألدر: الأحجار تتكلم- ترجمة عزت زكي- ص 30.

4- 250 .. S, I, ssirdnurG, lemnoH. F

5- P, 1946, 103, ROSAB 32. P, . tic- po, .3 - 11 و كذلك . numliD fo noitacoL eht no, llewnroC. B. P, . nageniF. J

لقد عثر «سير ليونارد و ولي (1)» في حفائره في «أور» عام 1929 م على طبقة من الغرين السميكة الذي يقدر بحوالي ثمانية أقدام و الذي اعتبره دليلا ماديا على الطوفان السومري نظرا لكثافة تلك الطبقة الغرينية و توافقها الزمني إلى حد كبير مع النصوص السومرية، هذا مع ملاحظة أن تلك الطبقة الغرينية تقع فوق و تحت آثار تنتمي إلى عصر حضارة العبيد، و التي تمثل عصر ما قبل الأسرات الأول في جنوب العراق، ثم اتجه «و ولي» بعد ذلك إلى الحفر في موقع بعيد عن «أور» بحوالي ثلاثمائة ياردة من ناحية الشمال الغربي للبحث عن مدى امتداد تلك الطبقة الغرينية، و كانت نتيجة الحفر إيجابية، مما أدى إلى القول بوجهة نظره المشهورة في ارتباط تلك الطبقة الغرينية السميكة بالطوفان الذي ذكرته الكتب المقدسة (2).

و لكن أستاذنا الدكتور رشيد الناضوري يرى أنه لا ينبغي الجزم بصورة حاسمة في هذا الشأن، ذلك لأن جنوب العراق القديم قد واجه الكثير من الفيضانات و الطوفان، فهناك أدلة غرينية على فيضان أو طوفان كبير في شورباك يرجع إلى نهاية عصر «جمدة نصر»، و آخر في «كيش» يرجع إلى فترة لاحقة للفيضان السابق، و هكذا بات من الصعب علينا المقارنة بين تلك الفيضانات، و أيها هو الذي يتفق مع قائمة الملوك السومرية، و لعل فيضان «شورباك» أكثر قربا منها على أساس أن تلك القائمة قد أشارت إلى المدينة الأخيرة، كآخر مدينة قبل حادث الطوفان، و لكن في نفس الوقت علينا ألا نستبعد كلية طوفان «أور» ذي الطبقة السميكة للغاية، أضف إلى ذلك أن عدم العثور على الطبقة الغرينية الموازية في كافة المدن السومرية يدفع إلى الاتجاه باحتمال كون الطبقة الغرينية التي عثر عليها «و ولي» في أور، إنما هي مجرد ترسيب محلي، ليس له الصفة الشاملة (3). H.

ص: 37

1- 26- 36. L. C. yellowW. eht fo ru, seedlahC, nodnoL, 1950. P, 22- 29. P, ru ta snoitavacxE,

2- رشيد الناضوري: المرجع السابق ص 225.

3- نفس المرجع السابق ص 225- 226، و انظر كذلك J. F. nageni, P, tic po, و كذلك 34- 35. P, etontoof, 1962.

H. F. W. Ssga, eht, ssentaerG saw taht, nolybaB, nodnoL,

و هناك من الأدلة كذلك قائمة الملوك السومرية. و المكتوبة بالخط المسماري بعد عام 2000 ق. م (1)، أو في فترة لا- تتأخر كثيرا عن منتصف عهد أسره أور الثالثة (حوالي 2112-2015 ق. م)، وربما قبيل عهد «أوتوحيجال» من أسرة الوركاء الخامسة، و إن كان يبدو أنها نسخت عن قوائم قديمة ربما ترجع إلى أخريات العهد الأكدي، و على أى حال، فإنها تحتوي على معلومات تاريخية ترجع إلى بداية العصر التاريخي في العراق القديم، وربما إلى أقدم من ذلك (2).

و تبدأ الوثيقة بالقول أنه «عند ما أنزلت الملكية من السماء كانت في مدينة «أريدو»، ثم تذكر القائمة ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان في خمس مدن هي: أريدو، بادتيبيرا (تل المدائن قرب تلولو) لارك (الوركاء: قرب كوت العمارة)، سيبار (أبو حبة) و شورباك (تل فارة)، و أن هؤلاء الملوك قد حكموا 200، 241 سنة، و أن آخر هؤلاء الملوك كان «وبار- توتو» و أنه قد حكم في مدينة شورباك لمدة 600، 18 سنة، ثم جاء من بعدهم الطوفان الذي أغرق الأرض، و بعد زوال الطوفان هبطت الملكية ثانية من السماء إلى «كيش»- و هي تل الأحيمر الآن قرب الحلة- ثم الوركاء (إرك في التوراة)، و هنا تعود القائمة مرة أخرى إلى ذكر أسماء المدن التي حكمت العراق القديم بعد ذلك (3).

و رغم الأرقام الأسطورية التي قدمتها الوثيقة كفترة حكم لملوكها، حتى بات من الصعب علينا أن نعرف منها متى انتهى العصر الأسطوري و متى بدأ العصر التاريخي؟، إلا أن الوثيقة- دون شك- تحمل بين طياتها كثيرا من المعلومات التاريخية الصحيحة، و مع ذلك، فما يهمنا هنا في الدرجة الأولى، أن الوثيقة تتحدث بوضوح عن طوفان يفصل بين فترتي حكم، الأولى سابقة له، و الثانية تالية له، تبدأ بنزول الملكية مرة ثانية G.

ص: 38

1- . 14 . S . yellowW. L. S . 1963, nodnoL, rU tA snoitavacxE, P,

2- . 29 . J . F . niF, nage . tic, P, . و كذلك 14 . dibI, P,

3- 29-30 . J . F . niF, tic- po, nage . P, . و كذلك 14-15 . S . 14 . yellowW. L. S . 1963, Tena ni, . 265-67 . P,

A . O . L . A . miehnepp و كذلك 1939, T, dlikroh, nosbocaJ, eht, nairamuS, gniK, tsiL, nairyssA, seidutS, 11, ogacihC, و

كذلك . A . G . A . B . notra, eht, R, layo, I, snoitpircsn, fo, remuS, dna, dakka, P, 346 . F

من السماء إلى كيش ثم الوركاء فأور، ولعل في هذا دليلا واضحا على أن قائمة الملوك السومرية إنما تعتبر حادث الطوفان الخطير بمثابة كسر في عملية استمرار تاريخ العراق القديم، ومن ثم فهو حد فاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي.

و من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الأدلة الأثرية التي عثر عليها في طبقات مدينتي أريدو و الوركاء لتثبت حقيقة ما نصت عليه وثيقة قائمة الملوك السومرية من حيث انتقال السيادة السياسية في جنوب العراق القديم بين تلك المدن (1).

ويتجه «yellow dranoeris» إلى اعتبار هذا الطوفان- موضوع الحديث- طوفانا كبيرا لا مثيل له في أي عصر لاحق من تاريخ العراق القديم، صحيح أن هناك في أور، وفي مواضع أخرى من ميزوبوتاميا، أدلة على فيضانات مؤقتة و محلية حدثت في أوقات مختلفة من تاريخ العراق القديم، وفي بعض الأحيان لم يكن أكثر من نتيجة أمطار هطلت في منطقة محدودة، و لكن صحيح كذلك أن الطوفان الذي وضع نهاية لحضارة «العبيد» إنما يتفق في توقيته مع التاريخ السومري الذي وصل إلينا عن طريق التقاليد، و أنه بعينه الطوفان الذي تحدثت عنه قائمة الملوك السومرية، و هو الطوفان الذي روته التوراة في سفر التكوين، على أنه يجب ألا يفهم أن القصة بحذافيرها صحيحة، صحيح أن الخلفية حقيقة تاريخية، و لكن التفاصيل قد زخرفها المؤلف السومري و العبري ببيانات و أوصاف تتفق و هدف كل منهما من كتابتها، فمثلا تقول التوراة إن الماء قد ارتفع 26 قدما، و هذا ما يبدو صحيحا إلى حد كبير، كما أن القصة السومرية تصف إنسان ما قبل الطوفان بأنه كان يعيش في أكواخ من بوص، و هذا أمر أثبتته الحفائر في العبيد و في أور، و أن نوحا قد بنى فلكه من خشب خفيف لا ينفذ منه الماء و لا يؤثر فيه، و أنه قد طلاه من داخل و من خارج، و هو أمر قد أثبتته الحفائر (2).

و هناك من الأدلة كذلك ما حدثنا عنه «سير ليونارد و ولي» من أنه قد وجد في أمور is

ص: 39

1- رشيد الناصوري: المرجع السابق ص 247.

2- . 34-36 . yellow dranoeris . P. tic. po.

أسفل طبقة المباني السومرية طبقة طينية مليئة بقدور من الفخار الملون، مختلط بها أدوات من الصوان و الزجاج البركاني، وكان سمك هذه الطبقة حوالي 16 قدما (3 أمتار تقريبا) أسفل المباني الطينية التي يمكن تأريخها بحوالي عام 2700 ق.م، وأن أور قد عاشت أسفل هذه الطبقة في عصر ما قبل الطوفان، ولم تجر حتى الآن أي حفائر على نطاق واسع في هذه المنطقة، وكل ما أمكن إثباته هو وجود مدينة قبل الطوفان... وأن الفخار الملون قد اختفى، ويستنتج «وولي» أن سبب اختفاء هذا الفخار الملون الذي كان منتشرا في جنوب بلاد الرافدين قبل الطوفان اختفاء تاما مرة واحدة، هو أن الطوفان قد قضى قضاء تاما على سكان هذه البلاد، وحتى من بقي منهم حيا فقد فقد القدرة على الإنتاج، فجاء شعب جديد، هم السومريون، إلى تلك البلاد الخالية، وأسسوا حضارة جديدة، وكان فخارهم مصنوعا على دولاب الفخار، بدلا من الفخار المصنوع باليد الذي كان سائدا في عصور ما قبل الطوفان، كما استعملوا الأدوات المعدنية بدلا من الصوان (1).

ولعل سائلا يتساءل، وهل كان الطوفان السومري هذا طوفانا عاما أغرق الدنيا كلها، أم أنه كان مقصورا على جنوب العراق؟.

ويجيب «وولي» بأن الطوفان لم يكن طوفانا عالميا عمّ الكون بأسره، وإنما كان مقصورا على الحوض الأسفل لنهري الدجلة و الفرات، و أنه قد أغرق المنطقة الصالحة للسكنى هناك بين الجبال و الصحراء،- و التي هي بالنسبة إلى السكان الذين يعيشون فيها بمثابة العالم كله- و أن المساحة التي شملها الطوفان ربما كانت 400 ميل طولا، في 100 ميل عرضا، و أن الغالبية العظمى من السكان قد أغرقهم الطوفان، و أن القوم قد رأوا أن هذه الكارثة بمثابة عقاب من الإله بسبب آثام الناس و خطاياهم، و أن قلة نادرة قد نجت، و أن رأس هذه القلة قد نظر إليه كبطل للقصة، و هو هنا «زيوسودرا» (2). iS.

ص: 40

1- محمد عبد القادر: المرجع السابق ص 96-97.

2- Wren, R. A., *The Story of Mankind*, New York, 1967, p. 36. P. 15-50. P. 15-50. P. 15-50. P. 15-50.

1- ملحمة جلجاميش:

لقد ظل العالم لا يعرف شيئاً عن قصة الطوفان البابلية إلا من خلال رواية «بيروسوس» التي كتبت باللغة اليونانية- والتي سوف نتحدث عنها فيما بعد- إلى أن عثر «ه. رسام R. H. massa» في عام 1853 م على نسخة من رواية الطوفان البابلية في مكتبة «آشور بانيال» (668-626 ق. م) الشهيرة في العاصمة الآشورية «نينوى» ترجع إلى القرن السابع ق. م.

وفي الثالث من ديسمبر 1872 م أعلن «سيدني سمث» نجاحه في جمع القطع المتناثرة من ملحمة جلجاميش بعضها إلى بعض، مكتوبة في اثني عشر نشيداً، أو بالأحرى لوحاً، و محتوية على قصة الطوفان في لوحها الحادي عشر (1).

وأما «جلجاميش» هذا فهو واحد من الملوك الذين ورد اسمهم في ثبت ملوك الوركاء في عهد أسرتها الأولى التي لا نعرف عنها شيئاً سوى أسماء ملوكها، وقد صار بعضهم- مثل جلجاميش- موضوعاً لقصص و ملاحم شعرية، ويرجح العلماء الآن أن هؤلاء الملوك قد حكموا في العراق- في مدينة الوركاء- قبل عصور فجر الأسرات أو في بدايته (2)، على أننا نستطيع أن نعين تاريخاً تقريبياً لعهد «جلجاميش» هذا عن طريق قطعة من المرمم موجودة بالمتحف العراقي- وإن كانت مجهولة الأصل- كتب عليها «مي- براج- سي» ملك كيش، وقد ثبت أنه الملك الثاني والعشرين من أسرة كيش الأولى «إن مي- براج- سي» هو في نفس الوقت والد «أجا» ملك كيش الذي حارب ضد «جلجاميش» خامس ملوك الوركاء- كما تحدثنا أسطورة جلجاميش و أجا السومرية (3)- ويرى «جورج روكس» أن «إن- مي- براج- سي» هو أقدم حاكم

ص: 41

1- . 371 . F. M. regnU, regnU. P, yranoitciD elbiB s'regnU, و كذا: جيمس فريزر: المرجع السابق ص 96-97.

2- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج 1 ص 459.

3- . 44-47 . N. S. Tena ni, remarK. و كذا نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 265-267.

سومري معروف لنا، وإذا ما اعتبرنا أن «سرجون الأكدي» كان يعيش في الفترة (2371-2316 ق. م)، فإنه من الممكن تقدير تاريخ حكم «إن-مي-براج-سي» هذا بحوالي عام 2700 ق. م، كما يمكن اعتبار ذلك التاريخ بداية للعصر التاريخي في العراق القديم (1)، و من ثم فإن جلعاميش كان يعيش بعد هذا التاريخ بفترة ليست بعيدة على أي حال.

وقد اشتهر جلعاميش في آداب العراق القديم منذ أقدم عصور التاريخ، وصار موضوعا لعدة ملاحم سومرية و بابلية، تدور حول مغامراته و أعماله البطولية، حتى صار أشبه ما يكون بأبطال اليونان في عهد الأشعار الهومرية، و هرقل و الإسكندر في المآثر العربية، و نمرود الوارد في التوراة (2)، و إن كانت ملحمة المشهورة بقصة جلعاميش، و التي يؤلف خبر الطوفان جزءا منها، أشهر ما عرف عنه من قصص و ملاحم.

و هاك ملخصا لها:

تبدأ قصة الطوفان بعد أن ينتهي جلعاميش من قصته التي فقد في أخرياتها صديقه «أنكيدو»، ذلك أن جلعاميش كان ملكا حكيما واسع المعرفة، شجاعا جريئا، ولكنه كان ظالما مستبدا، و من ثم فإن الآلهة قد خلقت له «أنكيدو» ليدافع عن الناس ضد ظلمه، إلا أن الصراع بينهما لم يحسم في مصلحة واحد منهما، و من ثم فقد تمّ الصلح بينهما، و قام الاثنان بمغامرات كثيرة، ثم مات أنكيدو فجأة، فحزن جلعاميش لفقده، ثم أسلمه الحزن إلى المرض، و ظل خائفا يترقب مصيره المحتوم، و إن كان في الوقت نفسه بدأ يفكر في وسيلة يتقي بها غائلة الموت، و هكذا هداه تفكيره إلى البحث عن جده «أوتنايشتم» بن «وبار-توتو» ليسأله عن كيفية إمكان أن يكون الإنسان الفاني مخلدا، إذ كان على يقين من أن «أوتنايشتم» على علم بهذا الأمر، ذلك لأن الآلهة قد رفعته إلى مصافها، و جعلته يسكن بعيدا في مكان ما متمتعا بنعمة الخلود.

و يتحمل جلعاميش من أجل بغيته هذه رحلة مضنية خطيرة، يلتقي في أثناءها

ص: 42

1- محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص 349 - 350. و كذا. P, 1966, skooB . 119 - 120

P, . tic. po, yellooW dranoE riS . 14. و كذا. niugneP (, qarI tneicnA, xuoR egroeG

2- طه باقر: المرجع السابق ص 459.

برجل و امرأة في شكل ثعبانين يحرسان جبلا، كما يخترق طريقا مفرعا مظلمًا لم تطأه قدما إنسان فان من قبل، ثم يعبر بحرا مترامي الأطراف، وأخيرا يلتقي بإحدى الإلهات فيطلب منها أن تدله على مكان جده «أوتنايشتم»، ولكنها- وقد علمت هدفه- تسدي إليه النصيحة قائلة: إلى أين تسعى يا جلعاميش؟ إن الحياة التي تبغي لن تجدها، ذلك لأن الآلهة لما خلقت البشر جعلت الموت من نصيبهم، و استأثرت هي بالخلود ...

لتكن مبتهجا ليل نهار، و لتجعل كل يوم من حياتك يوم فرح و حبور ... دَلِّمُ الطفل الذي يمسك بيدك، أدخل السرور إلى قلب المرأة التي في أحضانك ... فهذا هو نصيب البشرية»، و مع ذلك فإن جلعاميش يصر على سؤاله، فلا تجد الإلهة إلا أن تجيبه إلى ما يريد.

و يلتقي جلعاميش بجده «أوتنايشتم» فيطرح سؤاله عن كيفية حصول الإنسان على الخلود، و هنا يجيبه «أوتنايشتم»: هل بنينا بيتا يقوم إلى الأبد؟ هل عقدنا عهدا على أن نستمر إلى أبد الأبدين؟ لم يكن هناك خلود منذ القدم، ما أعظم الشبه بين الميت و النائم، ألا تظهر على وجهيهما هيبة الموت؟ و هكذا مصير السيد و العبد حتى ينتهي أجلهما في هذه الدنيا ... و حين يتعجب جلعاميش من هذه الإجابة من شخص كان هو نفسه إنسانا فانيا ثم أصبح مخلدا فيما بعد، كان على «أوتنايشتم» أن يشرح له كيف استطاع هو نفسه أن يهرب من المصير المحتوم لكل إنسان، فقص عليه قصة الطوفان الكبير التي تجرى على النحو التالي.

و هاك ترجمة (1) لها: E

ص: 43

-1 . 72 - 99 . E . A . S . resiep . T . ehT . cipE . fo . hsemagliG . ni . TENA . P . و كذلك محمد عبد القادر: المرجع السابق ص 98-110، و كذلك طه باقر: المرجع السابق ص 467-470، و كذا نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 347-359، و كذلك: جيمس فريزر: المرجع السابق ص 97-101. و كذلك. F. J . 33 - 63 . nageni . po . tic . P . و كذلك. 48 - 51 . E . nretsA . M . ygolohty . P . J . yarG . N . rae و كذا 23 - 210 . S . L . nodgna . S . citimeS . M . ygolohty . P . و كذلك. 1949 . dna . T . tmatsel . P . lllara . A . hsemagliG . fo . cipE . ehT . ledieH . rednaxelA . و كذلك 1920 . yrots . ehT . fo . eguleD . dna . ehT . cipE . fo . hsemagliG . E . A . W . silla . B . egdu . ehT . nainolyba . و كذلك. 40 . F . P . AENA . و كذا 1930 . T . nospmoh . ehT . cipE . fo . hsemagliG . E . E . C . E . llebpm

قال أوتنايشتم له، لجلجاميش، سأكشف لك يا جلجاميش عما خفي من الأمر، سوف أخبرك بسر الآلهة، شورباك مدينة أنت تعرفها على ضفاف الفرات، وهي مدينة قديمة قدم الآلهة التي بها، عند ما انتوت الآلهة إحداث الطوفان، كان من بينهم «أنو» أبوهم، و«انليل» الشجاع مستشارهم، و«نينورتا» مساعدهم، و«إينوجي» مفتش الترع، و«نينجيكو-أيا» كان حاضرا معهم، وأعاد قولهم إلى كوخ القصب (ربما مسكن أوتنايشتم): يا كوخ القصب، يا حائط، يا حائط، اصغ يا كوخ القصب، استمع يا حائط، يا رجل شورباك، يا ابن «وبار-توتو».

اهدم هذا البيت، وابن فلكا، دع الأملاك وأتخذ حياتك، اهجر المتاع ودع الروح حية، واحمل على ظهر الفلك بذرة كل شيء حي، و الفلك التي ستبنيها ستكون أبعادها حسب هذا المقياس، عرضها مثل طولها، واجعل سقفها كسقف الأيسو (العالم السفلي). ففهمت و قلت لمولاي «إيا»: نعم يا مولاي، إن ما تأمر به يشرفني أن أنفذه، لكن بم أجيب المدينة: الناس والشيوخ.

ففتح «إيا» فاه وأجاب قائلاً لخادمه، لي أنا، قل لهم: علمت أن إنليل يعاديني، و من ثم فلا أستطيع أن أقيم في مدينتكم أو أضع قدمي في أملاك أنليل، ولذا فسوف أنزل إلى الأعماق، وأسكن مع مولاي «إيا»، وأما أنتم فسوف ينزل عليكم مطرا مدارا ... خير الطيور وأندر الأسماك، وسوف تمتلئ الأرض بمحاصيل وفيرة، و مع انبثاق الفجر تجمعت الأرض من حوالي ... النص مهشم، و حمل الصغار القار، و جاء البالغون بكل ما احتجنا إليه.

وفي اليوم الخامس أقيمت هيكلها (أي السفينة)، وكانت أرضيتها فداناً كاملاً، و كان ارتفاع كل حائط من حوائطها 120 ذراعاً، و طول كل ضلع من السطح 120 ذراعاً، و بنيت هيكل جوانبها وربطتها إلى بعضها، و جعلت فيها ستة أسطح، قسمتها إلى سبعة طوابق، و قسمت أرضيتها تسعة أجزاء، و دقت سدادات المياه بها، و جهزتها بما نحتاج إليه من المؤن، و صببت في الفرن ست سار (السا-800 جالون) من القار، كما صببت كذلك ثلاثة سار من الأسفلت، (فضلاً) عن ثلاثة سار من الزيت نقله

حاملو السلال، و سار من الزيت استهلكته القلقة، كما خزن الملاح سارين من الزيت، و ذبحت ثيرانا للناس، و نحررت ماشية كل يوم، و أعطيت العمال عصير فواكه، و نبيذا أحمر و آخر أبيض، و كأنه مياه النهر، ليشربوا و كأنهم في يوم عيد رأس السنة، و فتحت ... الدهون، لوضعها على يدي.

و اكتمل الفلك في اليوم السابع، و كان إنزاله إلى الماء بالغ المشقة، حتى إنهم اضطروا لدفع ألواح الأرضية من أعلى و من أسفل، حتى أمكن إنزال ثلثي هيكله إلى الماء، و حملتها بكل ما عندي، حملتها بكل ما لذي من فضة، حملتها بكل ما لدي من ذهب، حملتها بكل ما أملك من الكائنات الحية و كل عائلتي و ذوي قرباي، أركبتهم الفلك، و كذا حيوان الحقل و وحوش الحقل، و كل الصناعات أركبتهم معي.

و قد حدّد لي «شمس» (شماس) وقتا معيناً، عند ما ينزل الموكل بالزوابع ليلا مطرا مهلكا، أصعد إلى الفلك و أوصد بابه. و جاء اليوم الموعد، و أنزل الموكل بالزوابع ليلا مطرا مهلكا، و أخذت أرقب وجه السماء، و كان منظر العاصفة مخيفا يثير الرعب، فصعدت إلى الفلك و أوصدت بابه، و عهدت إلى النوتي «بوزور-أموري» بقيادة الفلك، و بسد جميع منافذه.

و مع انبثاق الفجر، ظهرت في السماء غمامة سوداء، و أرعد «أداد» من داخلها، و تقدمها «شولات» و «هانيش» كنديرين فوق التل و السهل، و نزع «إيرجال» (رجال إله العالم السفلي) الأعمدة (أي الأعمدة الخاصة بسد العالم)، و جاءت «نينورتا» و جعلت السدود تفيض، و حمل «أنوناكي» المشاعل و جعلوا الأرض تشتعل نارا، و وصل الذعر من «أداد» إلى عنان السماء، فأحال النور إلى ظلمة، و انصدعت الأرض الواسعة، و كأنها جرة، و هبت عاصفة الجنوب يوما كاملا بسرعة عنيفة حتى أخفت الجبال، و حلت بالناس و كأنها حرب، فلا يرى الأخ أخاه، و لم يعد الناس يعرفون من في السماء، و خشى الآلهة الطوفان فأجفلوا و صعدوا إلى سماء «أنو» (أعلى سماء في النظرية العالمية عند الأكديين) حيث ربضوا كالكلاب على الأسوار الخارجية، و صرخت عشتار و كأنها امرأة جاءها المخاض، و ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت الشجي

بصوت عال: وا حسرتاه! لقد تحولت الأيام الخوالي إلى طمي، لأنني لعنت الناس في مجمع الآلهة، ولكن: كيف ألعن الناس في مجلس الآلهة، وأعلن حرباً لفناء الناس، بينما أنا التي وهبتهم الحياة، إنهم يملئون البحر كبيض السمك، وبكى آلهة «أنوناكي» معها وجلس الآلهة جميعاً يبكون في ذلة، وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض، واستمرت ريح الفيضان تهب ستة أيام وست ليال، وعاصفة الجنوب تكتسح الأرض.

وفي اليوم السابع سكنت عاصفة الجنوب عن الحرب التي شنتها وكأنها جيش من الخيالة، وهدأ البحر، وسكنت العاصفة وتوقف الطوفان، وتطلعت إلى الجو، فإذا السكون شامل، وإذا الناس وقد تحولوا إلى طين، وإذا الأرض قد تشققت وكأنها جرة، ففتحت كوة و سقط الضوء على وجهي، فجلست وبكيت وسالت دموعي على وجهي، وتطلعت إلى الدنيا في عرض البحر، وفي كل من الأقاليم الأربعة عشر، (الاثني عشر) طلع نجم.

واستوت الفلك على جبل نيصير (1)، وأمسك جبل نيصير بالفلك ولم يدعها تتحرك، ويوم ثم يوم آخر، وجبل نيصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكا، ويوم ثالث ورابع، وجبل نيصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكا ويوم خامس ثم يوم سادس وجبل نيصير يستمسك بالسفين فلا- تحير حراكا، فلما كان اليوم السابع أطلقت حمامة فذهبت وعادت وعزّ عليها أن تجد مكانا ظاهرا تحط عليه، ثم أطلقت «سنونو»، إلا أنه عاد، إذ لم يكن ثمة مكان ظاهر يحط عليه، ثم أطلقت غرابا فذهب ورأى الماء يتناقص فأكل وعبّ ودار ولم يعد، ثم أطلقت الجميع إلى الرياح الأربعة، وضحيت وأرقت سكببة على قمة الجبل، ونصبت 4 أقدار، وعلى صحاف قوائمها كومت القصب و خشب الأرز والآس. فشمت الآلهة الرائحة الزكية، وتكأأت حول الأضحى، وعند ما وصلت سيدة الآلهة (عشتار) نزعَت المجوهرات العظيمة التي صاغها لها «أنو».

ص: 46

1- تصف النصوص المسمارية البابلية القديمة موقع جبل نيصير (نيزير) بأنه بين الدجلة و الزاب الأسفل و حيث سلسلة جبال كردستان في شرق الدجلة، و على أي حال فهو يمكن توحيدده بجبل بئر عمر جدرون (انظر 57, tic. po, relleK و كذا. 35. tic. po, nageniF P, و كذا. 7, 17-18, ROSAA, reziepS, 27-1926, 8, P, و محمد عبد القادر: قصة الطوفان في أدب بلاد الرافدين).

طبقا لمشتهاها، وقالت: أيتها الآلهة، كما أنني سوف لا أنسى حقا عقد اللازورد الذي في عنقي، فسوف أذكر هذه الأيام ولن أنساها، ليتقدم الآلهة إلى القربان، إلا أنليل، فإنه لا يتقدم، لأنه أحدث الطوفان دون روية، وقاد شعبي إلى التهلكة.

ولما جاء أنليل ورأى الفلك عزّ عليه ذلك، وامتلاً غضبا على آلهة «أجيبي» (آلهة السماء) وقال: هل نجت روح، ما كان للبشر أن يبقى، ففتح «نينورتا» فاه وقال: من غير «إيا» يفشي الخطط، فإنه، يا أنليل الباسل، يعلم كل شي ء. وفتح «إيا» فاه وقال لأنليل البطل: أنت يا أحكم الآلهة، أيها البطل، كيف تحدث الطوفان دون روية، على الآثم وزر إثمه، وعلى المعتدي وزر اعتدائه، كن رحيمًا وإلا قطع ... كن صبورا وإلا أقضي ...

ليت أسدا هب وقلل من بني الإنسان، بدلا من أن تأتي بالطوفان، ليت ذنبا هب وقلل من بني الإنسان، بدلا من إحداث الطوفان، ليت مجاعة هبت وقللت من بني الإنسان بدلا من إحداث الطوفان، ليت طاعونا هب وقلل من بني الإنسان بدلا من إحداث الطوفان.

لست أنا الذي أفشيت سر الآلهة العظام، بل جعلت «أتراخاسيس» (حكيم الحكماء- أوتنايشتم) يرى حلما كشف فيه سر الآلهة، فاقض فيه ما أنت قاض، وحينئذ صعد أنليل إلى ظهر السفين وأمسك بيدي وأخذني إلى ظهرها وأخذ زوجتي وجعلها ترقع بجاني ووقف بيننا ليباركنا وقال: لم يعد أوتنايشتم بشرا، سيكون هو وزوجته أشبه بنا معشر الأرباب، وعلى ذلك أخذوني وأسكنوني بعيدا عند مصاب الأنهار، ولكن أنت يا جلعاميش من يجمع لك مجمع الآلهة ليهبوا لك الحياة التي تريد؟ ..

2- قصة بيروسوس:

في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، وعلى أيام الملك «أنتيوخوس الأول» (280-261 ق.م)، كان هناك أحد كهنة الإله «مردوك» البابلي، ويدعى «بيروسوس (SossoreB)» قد كتب تاريخ بلاده باللغة اليونانية في ثلاثة أجزاء، ومن

أسف أن هذه الكتابات- شأنها في ذلك شأن كتابات الكاهن المؤرخ المصري مانيتو من نفس الفترة- والتي تقدم وجهة النظر القومية حينئذ عن تاريخ العراق القديم لم تصل إلينا كاملة، وكل ما وصلنا منها مقتطفات حفظها لنا المؤرخون المتأخرون من الأغرقة، ومن حسن الحظ أن هذه المقتطفات كانت تحتوي على قصة الطوفان البابلية التي تجري أحداثها على النحو التالي:

في عهد الملك «أكسيسوثروس»، وفي ليلة ما، رأى هذا الملك فيما يرى النائم أن الإله «كرونوس» يحذره من طوفان سوف يغمر الأرض و يهلك الحرث و النسل، في اليوم الخامس عشر من شهر «دايسوس»- وهو الشهر الثامن من السنة المقدونية- و من ثم فإن عليه أن يكتب تاريخ البشرية منذ بدايتها، وأن يدفن ما يكتبه في مدينة سيبار، بلد الشمس، حتى لا يضيع في طوفان سوف يدمر كل شيء، كما أمره كذلك أن يبني فلكا يأوي إليه.

و يسأل «أكسيسوثروس» ربه عن المكان الذي يبجر إليه بفلكه هذا، فإذا به يجيبه «إلى الآلهة، ولكن بعد أن تصلي من أجل خير الناس»، و يصدع الملك بأمر إلهه، و يبني فلكا طوله مائة و ألف ياردة، و عرضه أربعمائة و أربعون ياردة، يجمع فيه كل أقربائه و أصحابه، و يختزن فيه زادا من اللحم و الشراب، فضلا عن الكائنات الحية من الطيور و ذوات الأربع.

و يغرق الطوفان الأرض، و عند ما ينحسر عنها يطلق الملك سراح بعض الطيور التي تعود إليه ثانية، ثم يطلقها بعد أيام، فإذا بها تعود و أرجلها ملوثة بالطين، و حين يكرر الأمر مرة ثالثة لا تعود الطيور إلى الفلك، و يعلم الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض، و ينظر من كوة في السفين فيرى الشاطئ الذي يتجه إليه، و هناك تستقر الفلك عند جبل، حيث ينزل الملك و زوجته و ابنته و قائد الدفة.

و يسجد الملك لربه و يقدم له القرابين، ثم يختفي هو و من معه، و يبحث الذين ما يزالون في الفلك عن الملك و رفاقه، و لكنهم لا يجدون لهم أثرا، و حين يجدون في البحث عن المختفين يسمعون صوتا يدوي في الهواء، و يطلب منهم أن يتقوا الآلهة و يكفوا عن

البحث عن المختفين، لأن الآلهة قد اختارتهم لكي يسكنوا إلى جوارها، ثم يأمرهم الصوت بالعودة إلى بابل والبحث عن الكتابات المدفونة هناك، وأن يوزعوها فيما بينهم، كما أخبرهم الصوت أن الأرض التي يقفون عليها، إنما هي أرض أرمينيا، وهكذا عاد القوم- دون المختفين- إلى بابل، واستخرجوا الكتابات المدفونة في سيار، وشيدوا مدنا كثيرة، وأعادوا الأرض المقدسة وعمرها بابل بنسبهم (1).

وهناك رواية أخرى لأسطورة الطوفان قديمة كل القدم، اكتشفت في مدينة «نيبور» (2) في أثناء عمليات الحفر التي قامت بها جامعة بنسلفانيا، وهذه الرواية مدونة على كسرة من الفخار غير المحترق، وقد رأى الأستاذ «ه. و. هيلبرخت» مرتكزا على أسلوب كتابتها، وعلى المكان الذي عثر عليها فيه، أن هذه الرواية لم تدون بعد عام 2100 ق. م، وقد ورد في هذه الرواية أن الإله ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشري في الحال، وحذر من هذا الطوفان شخصا بعينه، فطلب منه أن يبني فلكا كبيرا، ذا سقف قوي، لينجو فيها بحياته، وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيوان الأليفة وطيور السماء (3).

وهكذا فإن هناك الكثير من الشواهد الأثرية لقصة الطوفان البابلية، تؤيدها كتابات على لوح مهشم اكتشف في مدينة «سييار» أثناء عملية الحفر التي قامت بها الحكومة التركية، ويرجع إلى حوالي عام 1966 ق. م، نستطيع أن نستخلص منه اسم «أثرخاسيس» (أترام خاسيس)، فضلا عن إشارات إلى المطر الغزير، وإلى السفين

ص: 49

-
- 1- سير جيمس فريزر: الفلكور في العهد القديم- ترجمة نبيلة إبراهيم- مراجعة حسن ظاظا- ج 1- ص 94-95.
 - 2- نيبور: وتقع على مبعده مائة ميل إلى الجنوب من بغداد، وفي منتصف المسافة تقريبا بين كيش و شوريك، وتعتبر نيبور أهم المراكز الثقافية السومرية في العراق القديم، كما أنها أكبر مدينة مقدسة، وربما أكبر مركز ديني في بابل، كما أن «انليل» إله المدينة كان رئيس مجمع الآلهة البابلي، وقد أمدتنا المدينة بالآلاف من اللوحات المكتوبة والجذازات التي صنفت في الألف الثالثة والثانية ق. م، والتي تدل بوضوح على مدى انتشار الثقافة السومرية (انظر P, STFK. 277) وكذلك. 1897. slo 2 ,setahpuE eht no snoitarolpxE., 1903 .P, FF 289 .P .J ro ,ruppiN ,sreteP .P .J و كذلك .W .H .thcepliH .eht ,snoitavacxE ni snoitayssA dna ainolybaB .P, 1903 .P, FF 289 .P .J
 - 3- جيمس فريزر: المرجع السابق- ص 102.

الذي أمر الملك التقي في «شورباك» ببنائه، وإلى الأفراد الذين أنقذوا من الطوفان بواسطة الفلك (1).

هذه هي أهم الروايات لقصة الطوفان في العراق القديم، وقبل أن نعقد مقارنة بين القصص السومرية والبابلية، نوّد أن نشير إلى أنه قد عثر في أرشيف «بوغازكوي» العاصمة الحيثية على نسخة ترجع إلى الألف الثاني ق. م، فضلا عن ترجمة للقصة باللغة الحيثية، وأخرى بالحوارية على جزء من لوحة حورية.

يرى «جيمس فريزر (2)» أن قصة الطوفان السومرية تتفق في ملامحها الأساسية مع قصة الطوفان كما جاءت في ملحمة جلجاميش التي تتميز عن أختها السومرية بطولها وكثرة حوادثها، ففي كلتا القصتين قرر إله كبير أن يهلك الجنس البشري عن طريق إغراق الأرض بالمطار، وفي كليتهما حذر إله آخر رجلا من حدوث الكارثة، وقد أنقذ هذا الرجل و من معه عن طريق سفينة أمر ببنائها، وفي كلتا الحكايتين بلغ الفيضان ذروته في اليوم السابع، وفي كلتا الحكايتين قدم الإنسان ضحيته للآلهة بعد أن انتهى الطوفان، ثم رفعته الآلهة بعد ذلك إلى مصافها.

أما الاختلاف الجوهرى الوحيد بين الروايتين، فيتمثل في اسم البطل فيهما، فهو «زيوسودرا» في الرواية السومرية، وهو «أوتنابيشتم» أو «أثرخاسيس» في الرواية السامية.

ثالثا: قصة الطوفان اليهودية كما تروىها التوراة:

إشارة

وردت هذه القصة في الإصحاحات من السادس إلى التاسع من سفر التكوين، وتجري أحداثها على النحو التالي - كما يصورها النص العربى للتوراة:-

بدأ الناس يتكاثرون على الأرض، و يلدون بنات، و هنا رأى أبناء الله أن بنات الناس حسناوات، و من ثم فقد اتخذوا منهن لأنفسهم نساء، و سرعان ما أنجبت النسوة من بنات الناس، أبناء للرجال من أبناء الله، «و هم الجبابرة منذ الدهر».

ص: 50

1- جيمس فريزر: المرجع السابق- ص 102. و كذا F 24. P, doolf ehT, regreblloS. E و كذا f 24. p, doolf eht, regrebllos.

e

2- جيمس فريزر: المرجع السابق- ص 105.

وهنا رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، فحزن أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، وعزم على أن يمحو الإنسان و البهائم والدواب والطيور عن وجه الأرض، وإن استثنى من ذلك نوحا، لأنه «كان رجلا بارا كاملا في أجياله، و سار نوح مع الله».

وتزداد شرور الناس، وتمتلئ الأرض ظلما، ويقرر الرب نهاية البشرية، إذ تحدرت إلى شر و غواية، ويحيط نوحا علما بما انتواه، أمرا إياه بأن يصنع فلكا ضخما، «ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك و خمسين ذراعا عرضه، و ثلاثين ذراعا ارتفاعه»، وأن يكون طلاؤها بالقار و القطران من داخل و من خارج، حتى لا يتسرب إليها الماء، وأن يدخل فيها اثنين من كل ذى جسد حي، ذكرا و أنثى، فضلا عن امرأته و بنيه و نساء بنيه، هذا إلى جانب طعام يكفي من في الفلك و ما فيه (1).

ويكرر الرب أوامره لنوح في الإصحاح التالي، فيأمره أن يدخل الفلك و من معه، «و من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة ذكرا و أنثى، و من البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكرا و أنثى، و من طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكرا و أنثى لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض»، ذلك لأن الرب قرر أن يغرق الأرض و من عليها و ما عليها بعد سبعة أيام عن طريق مطر يسقط على الأرض أربعين يوما و أربعين ليلة، و يصدع نوح بأمر ربه فيأوي إلى السفين و معه أهله و اثنين من البهائم الطاهرة و غير الطاهرة، فضلا عن الطيور و كل ما يدب على الأرض.

و في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني من عام ستمائة من حياة نوح بدأ الطوفان، «و انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم و انفتحت طاقات السماء، و استمر الطوفان أربعين يوما على الأرض»، و تكاثرت المياه و رفعت الفلك عن الأرض و تغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء، خمس عشرة ذراعا في الارتفاع تعاضمت المياه، و مات كل جسد كان يدب على الأرض، من الناس، و الطيور و البهائم و الوحوش و كل

ص: 51

الزحافات، وبقي نوح والذين معه في الفلك فحسب (1).

ومضت مائة وخمسون يوما نقصت من بعدها المياه، حتى إذا ما كان اليوم السابع عشر من الشهر السابع استقرت الفلك على جبل أراراط، ثم ظهرت رءوس الجبال في اليوم الأول من الشهر العاشر، ثم تمضي أربعون يوما، وبعدها يرسل نوح غرابا ثم حمامة تعود بعد فترة، «لأنها لم تجد مقرا لرجلها»، ثم يعود نوح فيرسلها ثانية بعد سبعة أيام آخر، فتعود ومعها ورقة زيتون خضراء، ويكرر نوح المحاولة بعد سبعة أيام آخر، فلا تعود إليه الحمامة.

وفي أول الشهر الأول من السنة الواحدة بعد الستمئة من حياة نوح «فإذا وجه الأرض قد نشفت»، وأمر نوحا أن يخرج من السفين، وكذا من معه وكل الحيوانات والدواب والطيور، ويني نوح مذبحا للرب ويصعد له محرقة، «فتنسم الرب رائحة الرضا، وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض من أجل الإنسان .. ولا أعود أميت كل حي كما فعلت» (2).

«وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملئوا الأرض، ولتكن خشيتكم ورهبتمكم على كل حيوانات الأرض وطيور السماء»، ثم حرم عليهم قتل بعضهم البعض الآخر، لأن «سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه، لأن الله على صورته عمل الإنسان»، ثم يقيم الله ميثاقه مع نوح وبنيه ومع نسلهم من بعدهم، فضلا عن الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض، على ألا يكون هناك طوفان بعد اليوم، ذلك لأن الرب قد وضع قوسه في السحاب كعلامة ميثاق بينه وبين كل ذي جسد على الأرض، وأنه متى نشر السحاب على الأرض وظهر القوس، تذكر الرب ميثاقه، فلا يكون طوفان يهلك كل ذي جسد على الأرض (3).

وتختتم التوراة قصة الطوفان برواية دنيئة كاذبة مؤداها أن نوحا قد شرب مرة بعد

ص: 52

1- تكوين 7: 1-23.

2- تكوين 7: 1-21.

3- تكوين 9: 1-17.

نجاته من الطوفان نبذ العنب الذي غرس كرمه بيده، ففقد وعيه وانكشفت سواته، فرآه ابنه حام على هذه الصورة فسخر منه و حمل الخبر إلى أخويه سام و يافث، ولكن هذين كانا أكثر منه أدبا، فحملا رداء و سارا به القهقري نحو أبيهما و سترتا عورته دون أن يبصرها، فلما أفاق نوح من خمرة، و بان له ما فعله به حام، لعن كنعان و دعا على نسله أن يكونوا عبدا لعبيد أولاد سام و يافث (1).

و عاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة و خمسين سنة، فكانت كل أيام نوح تسع مائة و خمسين سنة و مات (2).

1- مناقشة قصة التوراة عن الطوفان:

يجمع نقاد التوراة (العهد القديم) (3)، على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هي مدونة في سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين في أصلهما، و متناقضتين تناقضا جزئيا، و قد مزج المؤلف بين القصتين لكي يكون منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل، و مع ذلك فقد مزج المؤلف بينهما بطريقة فجحة للغاية، بحيث لا يفوت القارئ ما فيهما من تكرار و تناقض، حتى و إن كان القارئ غير مدقق في قراءته (4).

و أما هذان المصدران اللذان أخذ سفر التكوين قصة الطوفان عنهما، فأولهما:

المصدر اليهودي «tnemucoD citsivhaJ» و يرمز له بالحرف «J»، و ربما ألف حوالي عام 850 ق. م في يهوذا، و سمي كذلك لأنه يستعمل اسم العلم «يهوه»، و أما ثانيهما فهو المصدر الكهنوتي «tnemucoD yltseirP» و يرمز له بالحرف

ص: 53

1- تكوين 9: 20-27 و كذلك علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة ص 32.

2- تكوين 9: 28، 29.

3- التوراة: كلمة عبرانية تعني الهداية و الإرشاد، و يقصد بها الأسفار الخمسة الأولى (التكوين و الخروج و اللاويين و العدد و التثنية) و التي تنسب إلى موسى - عليه السلام - و هي جزء من العهد القديم، و الذي يطلق عليه تجاوزا اسم «التوراة» من باب اطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة و نسبتها إلى موسى - و التوراة، أو العهد القديم - تميزا له عن العهد الجديد (كتاب المسيحيين المقدس) - هو كتاب اليهود الذي يضم إلى جانب تاريخهم، عقائدهم و شرائعهم، و يقسمه أحبار اليهود إلى ثلاثة أقسام: الناموس و الأنبياء و الكتابات (راجع كتابنا إسرائيل ص 19 و ما بعدها).

4- جيمس فريزر: المرجع السابق، ص 106.

(P)، وهو حواشي الكهنة التي أضافوها إلى نص التوراة على عهد عزرا ونحميا، وقد أدمج في مصادر التوراة (1) الأخرى حوالي نهاية القرن الخامس، وربما الرابع ق. م، وليس من شك أن كلا المصدرين يختلف عن الآخر اختلافاً بيناً في أسلوبه وصيغته، كما أنهما ينتميان إلى عصور مختلفة، كما رأينا، هذا إلى جانب أن الرواية «اليهوية» تنبض بحيوية وخيال، بينما النص «الكهنوتي»، وإن كان جافاً بالقياس، فهو يتميز بدقة و تدبر (2).

و تتميز العناصر التفصيلية التي تتألف منها قصة الطوفان في سفر التكوين بعضها عن بعض من حيث اللفظ و المادة (3)، فإذا بدأنا بوجوه الاختلاف الشكلية، فإن أول ما يلفت النظر هو اختلاف اسم الرب في كلا المصدرين فهو في المصدر اليهودي «يهوه»، وهو في المصدر الكهنوتي «إلوهيم»، وكلا- الاسمين نقلتهما «الترجمة الإنجليزية المعتمدة» إلى كلمتي «السيد» و «الرب» على التوالي (4)، و أما الترجمة العربية للتوراة، فإنها تستعمل كلمة «الرب» و «الله» بدلا من «يهوه» و «إلوهيم».

على أن الاختلافات المادية بين الحكايتين- اليهودية و الكهنوتية- لا تزال تلفت النظر إلى أكثر من ذلك، و حيث إن هذه الاختلافات تصل في بعض الحالات إلى حد التناقض القاطع، فإن إثبات أن هذه الحكايات مستمدة من مصدرين منفصلين يصل إلى حد اليقين، و لنقرأ ما جاء في سفر التكوين (5)، من أن الله أمر نوحاً أن يأخذ «من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكراً و أنثى، و من البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً و أنثى، و من طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكراً و أنثى»، ثم نقرأ بعد ذلك في نفس السفر- بل و في نفس الإصحاح- «و من البهائم الطاهرة و البهائم التي ليست

ص: 54

1- راجع عن «مصادر التوراة» كتابنا إسرائيل ص 45-48.

2- 14. aL. elbiB etniaS elocE(ed euqilbiB melasu reJ ud .dE)siraP ,freC ,1961 ,P و انظر التعليق في الهامش، و

كذلك: حسين ذو الفقار صبري: توراة اليهود، المجلة، العدد 157، يناير 1970 م.

3- راجع «التناقضات في التوراة» في كتابنا إسرائيل، ص 97-109.

4- جيمس فريزر: المرجع السابق ص 110.

5- تكوين 7: 2-3.

بظاهرة و من الطيور و كل ما يدب على الأرض، دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكرا و أنثى، كما أمر الله نوحا» (1)، فهل أمر الله نوحا أن يأخذ «سبعة سبعة» أم «اثنين اثنين»؟ أم أن نوحا- و حاشا نبي الله أن يكون كذلك- قد عصى أمر ربه؟

أم أن هذا كان خطأ من الكاتب؟ وإذا كان ذلك كذلك، ففي أي النصين كان الخطأ، أفي نص الأمر، أم في نص التنفيذ؟ علما بأن نص التنفيذ قد تكرر مرة ثانية في التكوين «و دخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة» (2)، كما أن الواضح من نص التكوين هذا أنه يضغط على أن ما أمر به الرب «اثنين اثنين»، و لكنه في التكوين (7: 2) يختلف عن ذلك كثيرا.

و لعل السبب في هذا التناقض- فيما يرى جيمس فريزر (3)- أن الحكاية اليهودية عن الطوفان تميز بين الحيوانات الطاهرة و الحيوانات النجسة، فبينما أخذ نوح معه في الفلك سبعة من كل صنف من صنف الحيوانات الطاهر، لم يأخذ معه سوى زوج من كل صنف من صنف الحيوانات النجس، أما الكاتب الكهنوتي فلم يميز بين صنف الحيوانات على هذا النحو، بل جعلها تدخل الفلك و هي على قدم المساواة مع بعضها البعض، و إن قصر عددها بدون تحيز على زوج من كل صنف، و السبب في هذا الاختلاف البين، هو أن الكاتب الكهنوتي لم يفرق بين ما هو طاهر من الحيوان و ما هو نجس، على أساس أن هذه التفرقة قد أوحى بها الرب لموسى لأول مرة، و من ثم فإن نوحا لم يكن يعرفها، أما الكاتب الكهنوتي فقد رأى أن التفرقة بين صنف الحيوانات على أساس الطهارة و النجاسة كانت معروفة لدى الجنس البشري منذ العصور الأولى.

و مرة أخرى تناقض التوراة نفسها في سبب الطوفان، ففي الرواية اليهودية يعزو «يهوه» القضاء على البشرية، إذ تحدرت إلى شر و غواية (4)، أما في الرواية الكهنوتية، فإن الله (إلوهيم)- لاحظ مرة أخرى الاختلاف بين «يهوه» هناك، و بين «إلوهيم»

ص: 55

1- تكوين 7: 8-9.

2- تكوين 7: 15-16.

3- جيمس فريزر: المرجع السابق. ص 112.

4- تكوين 6: 5-7. كذلك: حسين ذو الفقار صبري. توراة اليهود، المجلة، العدد 157 يناير 1970 ص 11.

(اللّه) هنا- إنما يتخذ قراره! إذ يرى الأرض قد فسدت جميعا ... كل من و ما عليها من حي» (1).

و الأمر كذلك بالنسبة إلى مصدر الطوفان، فبينما يعزوه النص اليهودي إلى مطر عارم يتهاطل على الأرض أربعين يوما بلياليها دون انقطاع (2)، يعزوه النص الكهنوتي ليس إلى المطر وحده، وإنما تنفجر أيضا ينابيع الغمر العظيم من أسفل كما من فوق، فكأن قد انهار «الجلد» الذي نصبه الإله عند بدء الخليقة فاصلا بين المياه السفلية و التي في السماء، كما تحدثنا التوراة (3).

ثم إن هناك اختلافا جوهريا آخر بين الكاتبين يتعلق بدوام مدة الطوفان، فقد ظلت الأمطار تهطل في قصة الكاتب اليهودي مدة أربعين يوما و أربعين ليلة (4)، ثم ظل نوح في فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من الرسو بسفينته، و وفقا لهذا الحساب فإن الفيضان يكون قد دام واحدا و ستين يوما، أما في الحكاية الكهنوتية فقد أخذ الطوفان يهطل مدة مائة و خمسين يوما (5)، و بعده أخذت المياه في الانخفاض، أما مدة الطوفان في العموم فقد استغرقت اثني عشر شهرا و عشرة أيام، و حيث إن الشهور العبرية كانت شهورا قمرية، فإن الاثني عشر تقدر بثلاثمائة و أربعة و خمسين يوما، و إذا أضفنا إلى هذا الرقم عشرة أيام أخرى، فإن المدة تكون حينئذ سنة شمسية كاملة، أي ثلاثمائة و أربعة و ستين يوما، و حيث إن الكاتب الكهنوتي قد حسب مدة الفيضان بما يساوي سنة شمسية، فإنه يمكننا أن ندعي - و نحن مطمئنون- أن هذا الكاتب قد عاش في الزمن الذي استطاع فيه اليهود أن يصححوا الخطأ الكبير في التقويم القمري عن طريق مراقبتهم للشمس (6).

و أخيرا فإن الكاتب اليهودي- كما يقول جيمس فريزر (7)- عن بناء نوح للهيكل

ص: 56

1- تكوين 6: 11-13 و كذلك: حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 11.

2- تكوين 7: 4، 12.

3- تكوين 1: 6-7 و كذلك حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 11.

4- تكوين 7: 5، 13، 17.

5- تكوين 7: 24، 8: 3.

6- جيمس فريزر: المرجع السابق ص 112.

7- نفس المرجع السابق ص 113.

و تقديمه الضحية للرب شكرا له على إنقاذه من الطوفان، في حين أن الكاتب الكهنوتي لا يذكر شيئا عن بناء الهيكل أو تقديم الضحية، و سبب هذا بدون شك هو أنه لم يكن هناك هيكل سوى هيكل أورشليم من وجهة نظر القانون «اللاوي» الذي انشغل به الكاتب الكهنوتي، كما أن تقديم الضحية من قبل رجل عادي مثل نوح يعد عملا غير لائق لم يحدث من قبل، كما يعد تعديا كبيرا على حقوق رجال الدين لم يفكر الكاتب الكهنوتي لحظة في أن ينسبه إلى الشيخ المبجل.

و بناء على ذلك فإن الموازنة بين الحكايتين تؤكد بصورة واضحة النتيجة التي توصل إليها النقاد، و هي أنهما كانتا في الأصل مستقلتين، و أن الحكاية اليهودية تعد بحق أقدم من الحكاية الكهنوتية، ثم مزج كاتب النص الحالي في التوراة بينهما بطريقة فجة للغاية.

ثم يزعمون بعد ذلك- و يا للعجب- أن هذا تنزيل من عليّ قدير، «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» (1). فإن كتابا من عند الله لا تتضارب نصوصه بعضها مع بعض «أفلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» (2).

بقيت نقطة أخيرة في قصة الطوفان- كما قدمتها التوراة- تتصل بوجهة نظر جديدة في الحقيقة، ذلك لأنه نظرا لما تتمتع به الأساطير الطوفانية من دلالات خاصة في كافة الديانات، فإنما ترمز إلى إعادة خلق (3)، أو إلى تكرار عملية التكوين الأولى، فتأكد فيه بالنسبة للمكان قدسية «المركز الكوني»، و إنا لنجد إichاءات بذلك في الكتابات الحاخامية، تقريرا بأن «العالم خلق إلى وجود ابتداء من صهيون»، و أن آدم إنما «سوّي في أورشليم» (4)، ثم الادعاء بأن أرض فلسطين متسامقة عن غيرها، لم تغمرها مياه الطوفان، مع التركيز في نصوص أخرى على أن مدينة أورشليم و جبل صهيون بالذات، هما اللذان أفلتا من الغمر العظيم (5).

ص: 57

1- سورة الكهف: آية 5.

2- سورة النساء: آية 82.

3- 182. edailE aecriM. etiarT, d'eriortsIH sed snoigileR, sirap, 1964, P.

4- 16-18. edailE aecriM. dna somsoC, yrotsiH dna kroY weN, 1959, P.

5- 13-15. dibI, P., و كذلك حسين ذو الفقار: إله موسى في توراة اليهود: المجلة- العدد 163 يوليو 1970 ص 15.

فلو كانت العقيدة اليهودية صادقة مع نفسها، لما انحط فلك نوح على جبل «أرارات»، وإنما على جبل صهيون، الذي انعقدت من بعد نصوص التوراة على تجسيده في صورة من تفرد قدسي، من حول معبد سليمان، مما حدا بالحاخامات أن يدونوا ما دونوا- و سبق الإشارة إليه- من أنها منطقة متسامقة قصر عن أن يغمرها الطوفان، في تحد سافر لما تقرره النصوص القديمة (1) من أن قد «تعاضمت المياه كثيرا جدا على الأرض، فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء»، و من هنا، فهو إذن صهيون، و ليس أرارات، الجبل الذي انحط عليه فلك نوح، إلا أن نكون أمام حقيقة تاريخية- فهو «الجودي» استوت عليه سفينة نوح، إذ «غِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ» (2)، و لكن من أدرانا أن «الجودي» كان قمة من جبال أرارات، حتى نسلم أننا أمام حقيقة تاريخية، إنما هو افتراض لا يستقيم مع المنطق- نستخلصه من الدراسات المقارنة- الذي خضعت له في جوهرها أساطير الأولين- بل و حتى تحبيرات الحاخامات، بعد ذلك بقرون- حريصة كل الحرص على قدسية المكان، من حيث مركزية تكوين، و بالضرورة، من حيث إعادة خلق، أو إعادة توالد و تكاثر من صلب ذرية مصطفاه، و قد أيدت أسباب الحياة جميعا (3).

إننا بصدد أسطورة أجمع النقاد على أنها استعيرت من أصول سابقة- سومرية أو بابلية فيما قيل- استنادا إلى النصوص التي تمّ الكشف عنها، و لكن ليس حتما و بالضرورة، فقد كانت شائعة ذائعة فيما بين الشعوب القديمة، فمن يدرينا أن لم تستق عناصرها عند العبريين من روايات أخرى، ضاعت أصولها فيما ضاع، أو ربما هي بعد في طي الغيب، لم تنهياً ظروف الكشف عنها، كما كان الحال بالنسبة للرواية السومرية قبل عام 1914 م (4).

و لعل الذي يدفعنا إلى هذا التساؤل، إنما هو كلمة «أرارات» استوقفتنا فنحار

ص: 58

1- تكوين 7: 19.

2- سورة هود آية: 44.

3- حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 15.

4- نفس المرجع السابق ص 15، و كذلك، H. S 16. P، 1963، nodnoL, ygolohtyM nretsA elddiM, ekooH. H.

كيف أمكنها التسلسل إلى نصوص التوراة ... لا تفسير إلا أن الأسطورة هنا مستقاة من أصول تداولها أقوام استوطنوا وقتنا ما هضاب أرمينيا، تلك المنطقة الجبلية، حرية بأن تكون قد أورتهم عبادة إله ما، بركاني الصفات و السمات، يطلقون عليه من بعد- إذ يستقر بهم المقام في أرض كنعان- تحريفاً أو تبديلاً، أسماء سامية أو قريبة في مخرجها على الأقل من اللغات السامية، مثل «أداد» و «شداي». و إلهه ربما كان هو الاسم العتيق للإله «يهوه» إله القننين منذ الأزل ... بل إن بعض الثقافات يرجعون أسطورة الطوفان- كما في التوراة- إلى أصول «حورية» من الذين استقروا بأرض فلسطين في عصر إبراهيم (تك 14: 6) تعثر بنقوشهم متناثرة فيما بين تل الحريري (ماري القديمة) و رأس شمرا (أوجاريت)، و لكن أقدمها، تلك التي في «بوغازكوي» عاصمة الحيثيين القديمة بقلب الأناضول، اشتملت على مقاطع من ملحمة جلجاميش، و لغتهم- أو لهجة متفرعة عنها- هي التي كانت سائدة في مملكة «أوراتو (Utrartu)»- أرمينيا القديمة- إليها تسب جبال «أارات» أو «أارات» كما في التوراة (1)، و مع ذلك فإننا نميل إلى أن قصة الطوفان، كما جاءت في التوراة، إنما تعتمد في الدرجة الأولى على أساطير طوفانية- سومرية أو بابلية- من العراق القديم، الأمر الذي سوف نوضحه فيما بعد.

و لكن: لعل من الأفضل قبل ذلك، أن نشير إلى الدور الذي لعبه الخيال اليهودي في العصور المتأخرة بحكاية الطوفان- كما روتها التوراة- فأضافوا إليها تفاصيل جديدة تميل إلى المغالاة أحياناً، و إلى الزخارف الرخيصة أحياناً أخرى، و إلى تشويه القصة في غالب الأحيان، و كأن هؤلاء اليهود لم يكفهم ما فعله أسلاف لهم في عصور خلت من مسخ القصة الحقيقية- كما أنزلها الله على كلمه موسى عليه السلام- فخلطوا بينها و بين ما وجدوه في العراق القديم- على أيام السبي البابلي- من قصص عن طوفان يروي السومريون، و البابليون من بعدهم أنه أغرق أرضهم. nA

ص: 59

1- حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 15، 16 و كذلك: : 123-124. G. Yenu (H. T. Skoob, 1969, P, R. O. وفي الترجمة العربية للدكتور محمد عبد القادر ص 171، و كذلك. 92. M. A. E. (Sirap, 1963, P, seigolohtyM, touqaC erdnA seigolohtyM ni xuatnediccO setimeS seD seigolohtyM

و من بين الزخارف الرخيصة أو الإضافات الغريبة التي أضيفت إلى الأسطورة القديمة، تصوير الناس و هم يعيشون في دعة قبل أن يحدث الطوفان، فقد كانوا من زراعة واحدة يجنون محصولا يكفي حاجاتهم طيلة أربعين عاما، كما كانوا بفنونهم السحرية يسخرون الشمس و القمر لخدمتهم، و لم تكن الأجنة تمكث في بطون أمهاتها سوى بضعة أيام بدلا من تسعة شهور، و بمجرد أن يولد الأطفال يكونون قادرين على الكلام و السير على الأقدام، بل إنهم يتحدون الشياطين و يستهزئون بهم. و إن هذه الحياة السهلة المرفهة كانت هي السبب فيما وصل إليه الناس من ضلالة، كما كانت دافعا لهم إلى ارتكاب الآثام، و بخاصة الفسق و السلب، الأمر الذي أثار غضب الرب و جعله يقرر أن يقضي على العاصين بأن يغرقهم في الطوفان.

و مع ذلك فقد أمهلهم الرب و أمر نوحا بأن يعظهم حتى يرجعوا عن هذه الطريق، و هددهم بأن الرب سيغرقهم في الطوفان جزاء جورهم، و قد أخذ نوح يعظهم طيلة مائة و عشرين عاما، بل إن الرب منحهم مهلة أسبوع آخر في نهاية هذه المدة، و في هذا الأسبوع جعل الرب الشمس تشرق كل صباح من المغرب، و تغرب في المساء في المشرق، و لكن هذا كله لم يحرك هؤلاء العاصين للرجوع إلى التوبة، بل على العكس أخذوا يسخرون من نوح الورع، و يستهزئون به عند ما أبصروه يبني الفلك، و كان نوح قد تعلم بناءه عن طريق كتاب مقدس كان قد سلمه الملاك «رزائيل» إلى آدم، و كان يحتوي بين ثناياه على العلم الديني و الدنيوي معا، و قد كان هذا الكتاب من الياقوت الأزرق، و قد وضعه نوح في صندوق ذهبي أحكم إغلاقه و أخذه معه في الفلك، فقام مقام الساعة في التمييز بين الليل و النهار في أثناء فترة الفيضان التي لم تكن تسطع فيها الشمس أو يبرز فيها القمر، أما الطوفان فقد تسبب عن التقاء المياه المذكورة التي هطلت من السماء بالمياه الأنثوية التي تدفقت من الأرض، و قد تدفقت مياه السماء من تجاويف صنعها الرب بأن انتزع نجمين من برج الثريا فتركا مكانهما تجويفا، و عند ما شاء الرب بعد ذلك أن يسكت الأمطار الهائلة من السماء عاد فسد التجويفين بنجمين أخذهما من برج الدب، و هذا هو السبب في أن برج الدب ما زال يلاحق برج الثريا حتى اليوم مطالبا بأولاده و لكنه لن يحصل عليهم إلى الأبد.

و منها كذلك أن هناك حيوانا ضخما هو «الريم» لم يجد له مكانا في الفلك لضخامته،

ولهذا فقد قيده نوح بحبل طويل ربطه في الفلك، وأخذ الحيوان يخب من ورائها، وبالمثل كان المارد «عوج بن عنق» ملك باشان من الضخامة بحيث لم يجد مكانا في الفلك، فجلس على ظهره وبذلك أنقذ، أما عن الناس الذين كانوا مع نوح في الفلك فهم زوجته «نعمة» ابنة «أنوش» وأولاده الثلاثة وزوجاتهم.

على أن مشكلة المشاكل التي كان على نوح أن يواجهها هي مشكلة توزيع المؤن، إذ كان عليه أن يطعم حيوان النهار نهارا، وحيوان الليل ليلا، كما كان عليه أن يقدم الطعام للمارد «عوج» من خلال ثقب في سقف السفينة، ورغم أنه كان يقضي ليله ونهاره صاعدا هابطا في السفينة لإطعام ما فيها ومن فيها، فإنه لم يسلم من الأذى، ذلك أن الأسد الذي كان هادئا نسبيا لإصابته بالحمى طوال الوقت كان فظا للغاية، وذات مرة لم يقدم له نوح الغذاء الكافي، فما كان منه إلا أن ضرب نوحا بكفه ضربة أصابته بالعرج سائر أيام حياته (1).

وهناك رواية لكاتب مسيحي - ربما عاش في فترة الفتح الإسلامي - عثر عليها من بين مخطوطات دير سانت كاترين في سيناء، تقدم لنا تفصيلات مثيرة عن نظام الفلك الداخلي، فالقطعان والوحوش قد سكنت جوف السفينة، كما سكنت الطيور الدور الأوسط منها، وخص نوح سطح التزهة في السفينة له ولأسرته بعد أن عزل الرجال عن النساء، فأقام نوح وأولاده في الجانب الشرقي من هذا السطح، كما أقامت الزوجات مع أطفالهن في الطرف الغربي منه، وكان الحاجز بين هؤلاء وأولئك جثة آدم التي كانت قد انتشلت من قبر غمرته المياه، كما تخبرنا الرواية بعد ذلك بأبعاد السفينة على وجه التحديد بالذراع وعن اليوم والشهر الذي ركب فيه الركاب الفلك (2).

2- قصة الطوفان: بين التوراة وقصص السومريين و البابليين:

يكاد يتفق العلماء - من أمثال ليوناردو ولي (3)، وأدولف لودز (4)، وستانلي

ص: 61

1- راجع عن هذه الصور الغربية وأمثالها: جيمس فريزر: المرجع السابق ص 116-119.

2- جيمس فريزر: المرجع السابق ص 119.

3- .34 . P, rU tA snoitavacxE, yellooW dranoEL riS .

4- 486. P, yrutneC thgiE ehtfo elddiM eht ot sgninnigeB sti morf ,learsI ,sdoL ehplodA.

كوك (1)، و جورج بارتون (2)، و جاك فينجان (3)، و يونجر (4)، و ول ديورانت (5)، و جيمس فريزر (6) - على أن قصة الطوفان، كما جاءت في التوراة، ليست قصة عبرية أصيلة، وإنما أخذها الإسرائيليون من ميزوبوتاميا، ولكن القصة لم تنقل بطريقة عمياء، وإنما تصرفوا فيها بطريقة تتفق وأهداف كتابهم المقدس، ذلك لأن القصة التوراتية هي نفس القصة التي وجدت على ألواح مكتوبة منذ فترة ترجع إلى ما قبل عصر إبراهيم - عليه السلام (7) - بل إن الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثني عشر قرناً، فضلاً عن أن الحكاية العبرية في جوهرها - كما لاحظ تسيمرن - تقضي بأن يكون البلد المشار إليه قابلاً لحدوث الفيضان مثل بابل، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن الحكاية نشأت أصلاً في بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى فلسطين، فإذا أضفنا إلى ذلك أن القصتين تتفقان لا في الأحداث الأساسية فحسب، بل إن وجوه الاتفاق بين القصتين تتعدد حتى تشمل التفاصيل الجزئية، بحيث لا يمكننا أن نرجع ذلك إلى محض الصدفة (8)، أو حتى إلى توارد الأفكار، يتبين لنا إلى أي حد اعتمدت قصة الطوفان في التوراة على قصص سومر و بابل الخاص بالطوفان.

ولعل سؤال البداهة الآن: إذا كان ذلك كذلك، وإذا كانت قصة الطوفان في التوراة تعتمد على قصص الطوفان في بلاد النهرين، فمتى و كيف تم ذلك؟

يقول (ه. ج. ويلز): إنه من الراجح أن العهد القديم (التوراة) قد جمع لأول مرة

ص: 62

1- .S. 481. A. S. kooC eht ni ,egdirbmaC tneicnA yrotsiH ,III ,1965 ,P

2- .320 .A egroeG ,notraB .A ygoloeahcrA ,elbiB eht dna ,1937 ,P

3- .30 .A eht ,tsap tneicnA eht ,lacigoloeahcrA fo dnuorgkcaB ,ytinaitSirhC dna ,notecniP ,1969 ,P
kcaJ ,nageniF morf thgiL

4- .372 .F. IlirreM ,regnU ,regnu s'elbiB ,yranoitciD ,ogacihC ,1970 ,P

5- ول ديورانت: قصة الحضارة - الجزء الثاني - ترجمة محمد بدران - القاهرة 1961 ص 368.

6- جيمس فريزر: المرجع السابق ص 113-119.

7- .34 .P ,tic .po ,yellowW dranoel riS

8- جيمس فريزر: المرجع السابق ص 113، 115.

في بابل، ثم ظهر في التاريخ في القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد، ذلك لأن اليهود قد جمعوا هناك أثناء السبي البابلي تاريخهم بعضه إلى بعض، و طوروا تقاليدهم ونموها، و من ثم فقد أصبح الذين آباؤا إلى أورشليم بأمر كيروش الثاني (558-529 ق. م) شعبا يختلف اختلافا عظيما في الروح و المعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسورا، و ذلك لأنهم تعلموا الحضارة هناك من البابليين (1).

و يقدم العلماء الكثير من الأدلة على تأثير الأدب البابلي في التوراة، و إن كانوا يختلفون على وقت هذا التأثير و طريقته، فهناك من يرى أن ذلك إنما كان على أيام الأسر البابلي (2) (586-539 ق. م)، بينما يذهب رأي آخر إلى أن ذلك ربما كان في القرن الثامن و السابع ق. م، أثناء فترة اتصال الإسرائيليين الفعلي بالآشوريين، ذلك لأن قصة الطوفان هذه- على ما يبدو- لم تكن موجودة في الروايتين المبكرتين في المصدر «اليهوي»، ذلك لأن واحدة منهما تعتبر أبناء «لامك» الثلاثة من زوجته «عادة» و «صلة» أساسا لتقسيمات الجنس البشري، و أما الأخرى، فإن اختراع النبيذ- فيما ترى هذه الرواية- لهو أبرز حادث في حياة نوح (3).

و هناك رأي ثالث يذهب إلى أن الروايتين- السومرية و البابلية- إنما تسربت إلى بني إسرائيل منذ زمن طويل عن طريق مصادر سومرية و سامية كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى القديم (4)، لدرجة أن أصبحت معها في متناول الأقوام جميعا ينتحلها هذا أو ذاك، فيأخذ عنها الرواة كل على هواه، تمجيدا لذكرى أسلاف، و قد تكون- في أغلب الأحيان- لا تمت إلى بني إسرائيل أو إلى بني يهوذا أصلا، إلا أنها صارت بمرور الزمن شائعة مشتركة بين شعوب المنطقة جميعا (5)، فقد مضى الزمن الذي كانت تعالج فيه الأصول الإسرائيلية بعزلة عما كان يتحوطها من مؤثرات، و إنما تداخلت مع غيرها، نهبا لتفاعلات اجتاحت المنطقة كلها، فرسمت مسار التاريخ A

ص: 63

1- 73, 78. H. G. W. L. A. S. (1965), P. .

2- 481. A. S. C. P. .

3- 486. A. S. L. P. . و كذا تكوين. 92: 5, 22-02: 4

4- ول ديورانت: المرجع السابق ص 368.

5- 160-161. A. S. L. P. .

في الشرق القديم جميعا (1)، بخاصة في الفترة التي كتب اليهود فيها توراتهم (2).

وهكذا يمكننا القول أن كتاب التوراة قد تعرفوا على التراث البابلي - عن طريق الروايات الشفوية أو المدونة - وذلك إبان قيام دولتهم في كنعان، وربما أثناء السبي البابلي أو بعده، ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التي مهد لها الغزو البابلي في فلسطين، ربما أدت على نحو ما إلى انتشار الأدب البابلي في فلسطين، كما أدى السبي إلى انتشار الأدب اليهودي في بابل، وبناء على وجهة النظر هذه، فإن بعض التفصيلات التي تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهودية، و تتفق فيها مع الرواية البابلية، ربما نقلها الكتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية، وهذه التفصيلات تتعلق ببناء السفينة و طلائها بالقار أو القطران اللذين يعدان بصفة خاصة من منتجات بابل، على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا في الأسر يزمن طويلا، وقرب حكايتهم في شكلها من الحكاية البابلية، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهودية في سفر التكوين التي يمكن أن ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد والتي لا يمكن أن تتأخر بحال من الأحوال عن القرن الثامن ق. م (3).

وأيما كان الأمر، فهناك إجماع بين العلماء على أن هناك تأثيرات بابلية في التوراة - فضلا عن التأثيرات المصرية الواضحة (4) - كما أن الأساطير البابلية مثل قصة الطوفان قد وجدت في بابل قبل أن توجد في التوراة، ولكنها لم تنقل بطريقة عمياء (5).

وربما كانت المقارنة السطحية بين الحكايتين اليهودية و البابلية كافية لأن تؤكد لنا أن كلتا الحكايتين لم تنشأ في الأصل مستقلة، بل من المؤكد أن إحدهما قد اعتمدت S

ص: 64

1- M. 35. -llahnedneM, lacilbiB yrotsiH ni noitisnarT ni eht dna elbiB eht .neicnA .tsaE raeN .n div(P)23 .n
egroeG

2- راجع مراحل كتابة التوراة في كتابنا إسرائيل ص 24-45.

3- جيمس فريزر: المرجع السابق ص 115، 116.

4- راجع أمثلة لهذه التأثيرات في كتابنا إسرائيل ص 151-159.

5- J. 104. P, . tic. po, yarG. و كذلك A. S. 481. P, . tic. po, kooC.

على الأخرى، ذلك لأنه من الجلي أن بين الرواية العبرية و البابلية عناصر مشتركة كثيرة، وربما رجعا كلاهما إلى مصدر واحد (1).

و إذا ما أردنا أن نقدم أدلة على ذلك، وجدنا عدة مقابلات بين قصة الطوفان في التوراة، وبينها في الأدب الميزوبوتامي القديم، فمن ذلك (أولاً) أن الطوفان هنا وهناك بسبب إلهي، وذلك حين قررت القوى الإلهية أن تقضي على الجنس البشري عن طريق طوفان عظيم، ومنها (ثانياً) أن البطل هنا وهناك ينال تحذيراً مما هو مؤكد أن يكون، فيبني فلكا للخلاص، وهذا الفلك يطليه بالقار حتى لا ينفذ إليه الماء، و يحضر معه حيوانات و طيور و يدخلها إلى الفلك، فينقذ نفسه و ينقذ معه صنوف الكائنات الحية جميعاً، و منها (ثالثاً) أن الطوفان هنا و هناك كان لأن القوم قد فسدوا، و أن الشر قد انتشر بينهم، و أن المبادئ الخلقية قد لطخت تماماً، و من ثم فالطوفان للقضاء على بذرة البشر (2).

و منها (رابعاً) أن بطل القصة هنا و هناك كان رجلاً كريم الخلق، نقي السريرة ف «زيوسودرا» في القصة السومرية يوصف بالتقوى، و بأنه ملك متواضع يخشى الإله، و الأمر كذلك بالنسبة إلى نوح التوراة، فقد كان «رجلاً باراً كاملاً في أجياله، و سار مع الله» (3)، و منها (خامساً) أن الأمطار الغزيرة قد هطلت هنا و هناك، و من ثم فقد تجمع الطوفان بمقدار كبير، و دام أياماً يختلف عددها قلة أو كثرة، و كان في كلتا الحالتين بأسباب طبيعية، ريح عاتية و أمطار مستمرة، و عواصف مرعبة في القصة البابلية، و «انفجار كل ينابيع الغمر العظيم، و انفتاح طاقات السماء» في القصة التوراتية، و منها (سادساً) أن البطل هنا و هناك قد أنقذ هو و عائلته، و كذا الحيوانات التي صاحبتة في السفين، و إن كان عدد الناجين في القصة البابلية، أكثر منه في القصة التوراتية، و منها (سابعاً) أن السفينة الضخمة- و المكونة من عدة طوابق- تظهر هنا

ص: 65

1- قاموس الكتاب المقدس- ج 2- ص 584.

2- P. tic. po, regnU. F. M .372 .

3- راجع كتابنا اسرائيل ص 145.

و هناك، وإن كانت السفينة البابلية قد احتاجت في تحريكها إلى خمسة أمثال ما احتاجته سفينة التوراة (1).

ومنها (ثامنا) أن الفلك يستقر على قمة جبل - نيزير (نيسير) في القصة البابلية، و «أرارات» في التوراة - ومنها (تاسعا) أن البطل هنا و هناك يرسل طيوراً لاستكشاف حالة الجو، ولمعرفة مدى انحسار مياه الطوفان عن الأرض، و في كليهما عادت الحمامة إلى السفين، لأنها لم تجد مكاناً تستقر فيه، أما الغراب فلم يعد في كلتا الحالتين، و منها (عاشرًا) أن البطل هنا و هناك يقدم تقديماً بعد خروجه من السفين شكراً على إنقاذه، و في كلتا الحالتين اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة، فسكن غضبها، و تنسدت رائحة الرضا (2).

ومنها (حادي عشر) أن البطل هنا و هناك ينال البركات بعد الكارثة، فضلاً عن الأمان في المستقبل، ففي القصة السومرية، ينفث الإله في «زيوسودرا» روح الخلود، و يستقر في دلمون، حيث تشرق الشمس، أي حيث القوة القاهرة للموت (3)، و في القصة البابلية يصبح «أوتنايشتم» و زوجته مخلدين، و يعيشان بعيداً عند مصاب الأنهار، و في التوراة يبارك الله نوحاً و بنيه و يعقد معهم ميثاقاً و يمنحهم خشية و رهبة على كل الحيوانات و الطيور (4).

ومنها (ثاني عشر) أن الإله هنا و هناك يندم على إهلاك البشر بالطوفان، ففي القصة البابلية يندم أنليل لأنه «أحدث الطوفان دون روية، و قاد الناس إلى التهلكة»، بل إن الآلهة نفسها قد لامته على ذلك، و تمت لو أرسل أسداً أو ذئباً أو مجاعة أو طاعوناً، فأهلك بني البشر الآثمين، «فعلى الآثم و زر إثمه، و على المعتدي و زر

ص: 66

1- جيمس فريزر: المرجع السابق ص 114 و كذا. P., tic. po, regnU. F. M. 372.

2- . P. 372. ،، و كذا جيمس فريزر: المرجع السابق ص 114.

3- .. 247. O. E. semaJ ,semaJ te sehtyM, setiR el snad ehorP -neicnA ,siraP ,1960 P,

4- تكوين 9: 1-2، 11.

اعتدائه» (1)، وفي التوراة يندم الرب كذلك على إحداث الطوفان ويعزم على ألا يلعن الأرض من أجل الإنسان أبداً، وألا يميمت بعد اليوم كل حي، بل ويقطع الرب على نفسه ميثاقاً «لا يكون طوفان ليخرب الأرض»، ويضع للميثاق علامة، هي «القوس في السماء، فيذكر وعده ولا يأتي بطوفان يغرق الأرض أبداً» (2).

ومنها (ثالث عشر) التركيز على الشخص العاشر فيما قبل الطوفان، ففي القصة البابلية- وفقاً لرواية بيروسوس- أن البطل الذي أنقذ من الطوفان، إنما كان ملك بابل العاشر، وفي قصة التوراة إنما هو «نوح» الرجل العاشر في سلسلة العشرة الرؤساء الآباء من آدم إلى نوح (3)- عليهما السلام-.

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والعبرية في مجموعتهما، فإذا شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات، فإننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب إلى الحكاية اليهودية منها إلى الكهنوتية، فكل من الرواية البابلية واليهودية تعطي أهمية للعدد سبعة، فقد حذر نوح في الرواية اليهودية من حدوث الطوفان سبعة أيام على التوالي، كما أخذ معه في السفينة سبعا من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة ثم إن المدة الزمنية بين إطلاقه طائراً وآخر كانت سبعة أيام، وبالمثل دام الطوفان في الرواية البابلية حتى بلغ قمته سبعة أيام، كما أن البطل فيها وضع مجموعات أوعية التضحية فوق الجبل، وكانت كل مجموعة تكون من سبعة أوعية. على أننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية في سفر التكوين تقترب من الحكاية البابلية في بعض التفصيلات المحددة، أكثر من اقتراب الرواية اليهودية منها، ففي كل من الروايتين، أصدرت الآلهة تعليمات محددة إلى البطل لبناء السفينة، ومن ثم فقد بنيت السفينة في كل منهما من عدة طوابق وقسم كل طابق إلى عدة حجرات، كما أنها طليت في كل منهما بالقار أو القطران ورست J

ص: 67

1- انظر في هذا المجال ما جاء في القرآن الكريم في سورة الأنعام «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ مَا جَاءَ فِي سُوْرَةِ الزَّلْزَلَةِ «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»، ثم انظر ما جاء في التوراة «أنا الرب إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث و الرابع من مبغضي» (خروج 20: 5-6).

2- تكوين 9: 8-17.

3- رشيد الناصوري: المرجع السابق ص 249 و كذا P. tic. po, nostraB. A. G. 320 و كذا. P. tic. po, nageniF. J. 3.

كل منهما على جبل، واستقبل البطلان بركة الإله عند خروجهما (1).

ولعل أفضل ما نختم به أوجه الشبه بين الروايتين البابلية و التوراتية لقصة الطوفان، أن نقدم نصوصا من الروايتين جنبا إلى جنب (2)، ثم نترك للقارئ الحكم في أمر هذه الشبه.

الصورة

رقم	ملحمة جلجاميش	التوراة
(١)	يا رجل شورباك، يا ابن «وبار-توتو» اقتلع بيتك ، وابن الفلك ، دع أملاكك وانقذ حياتك، دع الروح حية ، واحمل على ظهر الفلك بذرة كل شيء حي، الفلك التي ستبنيها تكون أبعادها حسب هذا المقياس .	فقال الله لنوح . . . اصنع لنفسك فلكاً من خشب « جفر » ، ومن كل حي من كل ذي جسد ، اثنين من كل تدخل الفلك لاستبقائها معك حية ، تكون ذكراً وأنثى (تكوين ٦ : ١٣ - ٢٠)
(٢)	وفي اليوم الخامس أقيم هيكلها (السفينة) وكانت مساحة أرضيتها فداناً كاملاً ، وارتفاع كل حائط من جدرانها ١٢٠ (ذراعاً ؟)	ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك ، وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه (تك ٦ : ١٥)
(٣)	وجعلت فيها ست أسطح ، قسمتها إلى سبع طوابق	مساكن سفلية ومتوسطة تجعله (تك ٦ : ١٦)
(٤)	وجعلت أرضيتها تسعة أجزاء	تجعل الفلك مساكن (تك ٦ : ١٤)
(٥)	ست سار من القارصيته في القرن	وتطليه من داخل ومن خارج بالقار (تك ٦ : ١٤)
(٦)	وحملتها بكل ما أملك من الكائنات الحية ، وكل عائلتي وذوي قرباي أركبتهم الفلك ، وكذا حيوان الحقل ووحوش الحقل وكل الصناعات أركبتهم معي	فدخل نوح وامرأته وبنوه ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان ، ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ، ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض ، دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ، ذكراً وأنثى (تك ٧ : ٧ - ٩)

رقم	ملحمة جلجاميش	التوراة
(٧)	ودخلت إلى الفلك وأوصدت بابه	وأغلق الرب عليه (تك ٧ : ١٦)
(٨)	ومع انبثاق الفجر ، ظهرت من الأفق غمامة سوداء وأرعد «أداد» من داخلها . . . ووصل الذعر من أداد عنان السماء ، وقد حول النور إلى ظلام	وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض ... في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء (تك ٧ : ١٠-١١) .
(٩)	واستمرت ريح الفيضان تهب ستة أيام وست ليال وعاصفة الجنوب تكتسح الأرض	وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض ، وتكاثرت المياه... وتعاطمت المياه وتكاثرت جدا على الأرض ... فتغطت جميع الجبال الشاخنة التي تحت كل السماء (تك ٧ : ١٧-١٩) .
(١٠)	وفي اليوم السابع سكنت عاصفة الجنوب	وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت السماء (تك ٨ : ١)
(١١)	عن الحرب التي شنتها كجيش ، وهدأ البحر ، وسكنت العاصفة وتوقف الطوفان	وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء ، فامتنع المطر من السماء ، ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً ، وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه (تك ٨ : ٢-٣)
(١٢)	وتحول الناس إلى طين ، وتشققت الأرض كأنها جرة	فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض ... وجميع الناس (تك ٧ : ٢١) .
(١٣)	وفتحت طاقة في الفلك وسقط الضوء على وجهي	وفتح نوح طاقة الفلك التي كان قد عملها (تك ٨ : ٦)
(١٤)	واستوت الفلك على جبل نيبير ، وأمسك جبل نيبير بالفلك ، ولم يدعها تتحرك .	واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبل أراط (تك ٨ : ٤) .

و يقدم لنا «الدكتور جون إيدر» خلافاً بين القصتين، ففي التوراة يحدث الطوفان كعقاب من الله لمحو الأشرار، وفي القصة البابلية يحدث الطوفان لهوى في نفس

الآلهة القساة، وفي التوراة يخلص نوح من معه لأنه إنسان بار، وفي القصة البابلية ينال البطل النجاة لأن له نصيرا من بين الآلهة الكثيرة، فقصة التوراة تقدم لنا ديانة توحيدية، ولكن البابليين يقدمون لنا أحط دركات الديانات التي تنادي بتعدد الآلهة، وهكذا نرى الفارق العظيم بين فكرة الوحي السامية في قصة التوراة، وبين الفكرة الخرافية المليئة بالخيالات والأوهام والمتناقضات في القصة البابلية، مع أنها خلاصة أرقى ما وصل إليه الفكر البشري في دولة سامية متحضرة (1).

و الحق أن ما يقوله الدكتور «جون إدر» ليس هو الحق كل الحق، ذلك لأن الطوفان كان في القصتين عقابا من الإله لمحو الأشرار، فكما أخبر نوح بأن الطوفان كان لأن الرب أراد أن يمحو الإنسان الذي خلقه لأن شره كثر في الأرض (2)، فكذلك أخبر «زيوسودرا» أن الآلهة أرادت بالطوفان أن «تقضي على بذرة الشر»، وكما أن نوحا قد أنجي لأنه إنسان بار، فالأمر كذلك بالنسبة إلى «زيوسودرا»، لأنه كان ملكا صالحا تقيا، يخشى الإله، كما كان يتلهف شوقا إلى الاتصال بالوحي الإلهي في الأحلام وفي تلاوة التعاويذ والأدعية- وهي صفات لو كان الدكتور إدر غير متعصب في حكمه، لعرف أن التوراة لم تسبغها على نوح، الأمر الذي لم يظهر بما يتفق ومكانة النبي الكريم في غير القرآن الكريم- بخاصة إذا علمنا أن القصة السومرية- وليست قصة التوراة- هي التي تقدم لنا بطل الطوفان (زيوسودرا) وهو يجلس إلى جانب حائط، يستمع إلى صوت وحي إلهه، وهو يبلغه القرار بإهلاك البشر (3).

وأما أن قصة التوراة تقدم لنا ديانة توحيدية، وأن الأخرى ليست كذلك، فذلك أمر نتفق فيه معه بحذر، كما أن أحدا لم يقل- بل حتى لم يفكر- في أن ديانة السومريين-- و البابليين من بعدهم- كانت ديانة توحيدية، ومع ذلك ألا يرى «الدكتور جون إدر» أن قصة التوراة لا تقدم لنا ديانة توحيدية- كما نعرف التوحيد الآن-. صحيح أن ديانة السومريين و البابليين ديانة وثنية، بل ومغرفة في الوثنية كذلك، ولكن صحيح

ص: 70

-
- 1- جون إدر: الأحجار تتكلم: ص 34، 35 و انظر كذلك.. P. tic. po, regnU. F. M. 372-373
 - 2- تكوين 6: 5-12.
 - 3- صمويل نوح كريم: من ألواح سومر- ترجمة طه باقر ص 254-256، القاهرة 1957.

كذلك- رغم أن دعوة موسى عليه السلام كانت دعوة توحيد، وأن كليم الله دعا إلى عبادة الله الواحد الأحد- أن توراة اليهود المتداولة اليوم، لا تقدم لنا بين صفحاتها ما يتفق ودعوة الوحدانية، وتنزيه الله- جل وعلا- عن صفات البشر (1).

وإلا- فهل من التوحيد- الذي يريد لنا الدكتور إيدر أن نفهمه من توراة اليهود- أن يوصف الله- جل وعلا- بالحزن والأسف لخلقه الإنسان، كما جاء في سفر التكوين (2) (6: 6-7)، وهل من التوحيد أن يكون لله- جل جلاله- أولاد منذ بدء الخليقة، وأنهم قد فتنوا بجمال بنات الناس، «فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا»، ثم تحدر من هؤلاء وأولئك نسل رزقه الله بسطة في الجسيم، وهم الجبابرة الذين سكنوا في الأرض قبل الطوفان (3)، وهل من التوحيد أن تكون قوس قزح (4) التي تظهر في الأفق غب المطر، أنشأها الله لتكون تذكرة له ألا يعود إلى إغراق الأرض أبدا (5)، وهل من التوحيد أن يوصف الله- سبحانه وتعالى- في التوراة (6)، بأن نفسه ترتاح من رائحة الدخان المتصاعد من المحرقات، وأنه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم له في الصورة التي يرتضيها (7).

ص: 71

-
- 1- راجع في ذلك صفات الله- سبحانه وتعالى- كما تقدمها التوراة (كتابنا إسرائيل ص 57-69).
 - 2- لبيان أمثلة كثيرة تردت في التوراة في هذا الصدد انظر كتابنا «إسرائيل» ص 64-65.
 - 3- تكوين 6: 1-5.
 - 4- و«قزح» هذا من أسماء الشيطان، ولهذا فقد نهى الحبيب المصطفى- صلوات الله وسلامه عليه- عن هذه التسمية، مؤثرا تسميتها بقوس الله (راجع ص 41 من كتاب محنة التوراة على أيدي اليهود لمؤلفه عصام حفني ناصف).
 - 5- تكوين 9: 13-15.
 - 6- تكوين 8: 20-21، لاويون 1: 1-9، 10: 1-2، وكذلك إبراهيم خليل: إسرائيل والتلمود ص 86، 87.
 - 7- ويرد القرآن الكريم على مزاعمهم هذه بقوله تعالى: «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا، وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ، كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» (الحج: آية 37) وإذ يقول عز وجل في هدي الحج من الأنعام: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ» (الحج: آية 28).

يزخر القرآن الكريم بالكثير من القصص الذي ساقه الله لتأكيد قيم دينية شتى فهو يحارب الوثنية ويدعو إلى الوجدانية، ويؤكد المعاني الخلقية السامية، ويضرب الأمثال، ثم هو يطمئن صاحب الرسالة- صلوات الله وسلامه عليه- ويواسيه في الشدائد، مذكرا إياه بما لاقه إخوة كرام له من عنت الضالين وبغي الكافرين، فما وهنوا وما استكانوا، وما ضعفوا وما تخاذلوا، ولكنهم صبروا وصابروا، ومن هنا يخاطب الله رسوله الكريم في كتابه الكريم، «وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (1)».

و القرآن الكريم في كل ما جاء به من قصص- وإن لم يكن كتاب تاريخ يقدم لنا تفصيلات عن الأحداث التي يتعرض لها، إلا في عرض القصة حيث يقتضيه السياق- تعليم للمصلحين، وتربية للهداة، ولكنه في كل ذلك «لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (2) ثم «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ» (3) و«لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (4).

وإن في القرآن الكريم لقصصا شتى من غير قصص الدعوة، أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة، ولكنها تراد كذلك لعبرتها، ولا تراد لأخبارها التاريخية، ومنها قصة

ص: 73

1- سورة هود: آية 120.

2- سورة فصلت: آية 42.

3- سورة آل عمران: آية 62.

4- سورة يوسف: آية 111.

يوسف، وكذا قصة إسماعيل عليها السلام، فقصة يوسف قصة إنسان قد تمرس منذ طفولته بأفات الطبائع البشرية، من حسد الإخوة إلى غواية المرأة إلى ظلم السجن، إلى تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إبان الشدة والمجاعة، وقصة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنسانية من عهد الطفولة كذلك، فيصاب بالغربة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد والماء، وإن كان الأخطر من ذلك كله أن تكتب عليه التجارب الإنسانية ضريبة الفداء، وهي في مفترق الطرق بين الهمجية التي كانت- في معظم مجتمعات الشرق القديم- لا تتورع عن الذبائح البشرية، وبين الإنسانية المهذبة التي لا تأبى الفداء بالحياة، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان، ثم يكتب لهذا الغلام الوحيد بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم، أن تنمي إليه أمة ذات شعوب وقبائل تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام (1).

على أن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم قصتان مسهبتان في أجزائه لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارة الإنسانية، وهما أمة وادي النهرين وأمة وادي النيل، ومن أجل ذلك كانت قصة إبراهيم وموسى عليهما السلام أوفى القصص بين جميع قصص الأنبياء، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم (2).

وفي قصة نوح- عليه السلام- نرى كيف ينقاد الجهلاء للأمر والسطوة، ولا يتقادون للحجة والدليل، ويريدون من صاحب الدعوة أن يكون ملكاً، أو تكون عنده خزائن الأرض، ويقولون له «قد جادلنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» (3)، كما نرى كذلك أن المسيطرين على أقدار القوم يكرهون التغيير، ويتشبثون بالقديم، يأخذون على النبي الكريم أن يتبعه أناس من غير ذوي السيادة والجاه «وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين» (4).

ص: 74

-
- 1- عباس العقاد: الإسلام دعوة عالمية- القاهرة 1970 ص 218-219، وانظر كذلك قصة التضحية البشرية في كتابنا إسرائيل ص 207-209، قصة يوسف في مصر ص 225-245.
 - 2- عباس العقاد: المرجع السابق ص 218.
 - 3- سورة هود: آية 32.
 - 4- سورة هود: آية 27.

و أما الطوفان- موضوع هذا الفصل - فلقد تحدث القرآن الكريم عنه، حين تعرض لقصة نوح عليه السلام، في سور كثيرة منها سورة الأعراف (59-64) و يونس (71-73) و هود (25-49) و الأنبياء (76-77) و المؤمنون (23-30) و الشعراء (105-122) و العنكبوت (14-15) و الصافات (75-82) و القمر (9-17) ثم سورة كاملة، هي سورة نوح، فضلا عن ذكره في مواضع متفرقة من القرآن الكريم، كما في سورة النساء و الأنعام و التوبة و إبراهيم و الإسراء و الأحزاب و «ص» و غافر و الشورى و «ق» و الذاريات و النجم و الحديد و التحريم.

و في كل هذه السور الكريمة، كان نوح- شأنه في ذلك شأن غيره من المصطفين الأخيار- يدعو قومه إلى عبادة الله الواحد القهار، «و كان قومه قد صوروا بعض الصالحين منهم، ثم وضعوا لهم الصور و التماثيل لإحياء ذكرهم و الاقتداء بهم، ثم عبدوا صورهم و تماثيلهم» (1)، و استمر نوح في دعوته، يحثهم ليل نهار على عبادة الله تعالى وحده، إلا أن القوم «جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَ أَصْرُوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا» (2)، إذ كبر عليهم أن يكون داعي الهدى، و حامل لواء التوحيد، واحدا منهم، لا يمتاز عليهم بامارة، و لا يفضلهم بغنى أو ثروة، كما أنفوا أن ينضموا إلى جماعة المهتدين من الضعفاء.

و يبذل النبي الكريم الجهد كل الجهد، بغية أن يؤمن القوم بربهم، و أن يكفوا عن عبادة الأصنام، و يطول الزمن، و نوح يغاديهم بالنصح و يراوهم بالعظة سرا و علانية، و مع ذلك كله، فالذين أجابوا الدعوة، إنما كانوا قلة نادرة، فيشتكي نوح إلى ربه عجزه و قلة حيلته، و ما يلاقيه على أيدي السفهاء من قومه من عنت و هوان، فيناديه ربه «لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (3)، و يدعو نوح ربه «رَبِّ لَا تَذُرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذُرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (4).

ص: 75

1- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الجزء السابع ص 454 و ما بعدها، الجزء الثامن ص 436، القاهرة القاهرة 1974 (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب)، و كذلك: صحيح البخاري.

2- سورة نوح: آية 7.

3- سورة هود: آية 36.

4- سورة نوح: آية 27، 28.

و يجيب العليّ القدير دعوة النبي الكريم، فيأمره أن يصنع الفلك «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ، قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» (1)، وهكذا أنقذ الله نوحا و من آمن معه، و أهلك الكافرين من قومه «وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْبِعِي وَ غِيضِ الْمَاءِ، وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (2) ثم أمر الله نوحا أن «اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَّمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَّمٌ سَنَمَتُّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ» (3).

هذه هي الخطوط الرئيسية بإيجاز شديد لقصة نوح عليه السلام- كما أخبر عنها ربي جلّ جلاله في القرآن الكريم- و هي هنا إذا ما قورنت بغيرها من القصص الذي تعرض لقصة الطوفان، سواء أ كان ذلك من القصص الإنساني أو السماوي، لبان لنا بوضوح الفرق الشاسع- بغير حدود- بين ما أنزله الله على مولانا و سيدنا رسول الله- صلى الله عليه و سلم- و بين ما كتبه أقلام ناقصة معرفة أحيانا، و متعصبة أحيانا أخرى، و ساذجة في أغلب الأحيان، و إن كان بعضها يزعم لها أصحابها ما يزعمون من قداسة.

و القرآن الكريم حين تناول قصة الطوفان تناولها بما يتفق و أغراض القصص القرآني، دونما حاجة إلى تفصيلات لا يقتضيه سياق القصة، ثم جاء المفسرون و المؤرخون الإسلاميون و حاولوا تفسير هذه القصة بإسهاب و تفصيل، إلا أن هذا التفصيل لعبت فيه الإسرائيليات دورا عكّ صفوها في كثير من الأحيان، فيرون مثلا أن الله أمر نوحا أن يغرس شجرا ليصنع منه السفينة، و أن النبي الكريم قد غرس هذا الشجر، ثم انتظره مائة عام، ثم نجره في مائة أخرى على رواية، و في أربعين على رواية أخرى (4)، و لست أدري من أين جاءوا بهذا الأرقام، و ما هو المصدر الذي اعتمدوا عليه.

و الأمر كذلك بالنسبة إلى طول السفينة، فهي ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين).

ص: 76

1- سورة هود: آية 40.

2- سورة هود: آية 44.

3- سورة هود: آية 48.

4- الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير:- البداية و النهاية في التاريخ ج 1 (القاهرة 1932) ص 110، و كذلك الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن- دار الشعب 1970- ص 3259، و كذلك الإمام الطبري: تاريخ الرسل و الملوك ج 1 ص 181 (حيث يذكر رواية ثالثة تذهب إلى أنها أربعمائة عام).

ذراعاً- فيما ترى التوراة على رأي، وفيما يرى ابن عباس على رأي آخر- وهي ستمائة ذراع في عرض ثلاثمائة، فيما يرى الحسن البصري، و هي ألف و مائتا ذراع في عرض ستمائة، فيما يرى ابن عباس، و هي ثمانون ذراعاً في عرض خمسين على رواية رابعة، و هي ألفا ذراع في عرض مائة ذراع على رواية خامسة، بل و ذهبت رواية سادسة إلى أنها سفينة عظيمة لم يكن لها نظير من قبل، و لن يكون لها نظير من بعد، هذا فضلاً عن أن الرواية قد تنسب أحياناً إلى شخص معين، بينما تنسب في مرة ثانية إلى شخص آخر، و إن كانت الروايات جميعاً تكاد تتفق على أن ارتفاع السفينة إنما كان ثلاثين ذراعاً- و هو رأي التوراة- إلا واحدة تنسب إلى الكلبي و قتادة و عكرمة رأت أنها ثلاثمائة ذراع (1)، و هكذا بات من الصعب علينا أن نصل إلى رأي نطمئن إلى أنه القول الفصل، ذلك لأن هذه الروايات لا تقدم لنا دليلاً على صحتها و ضعف غيرها حتى نستطيع أن نختار الأقوى حجة منها.

و هناك رواية تنسب إلى ابن عباس- رضي الله عنه- تقسم السفين إلى ثلاثة بطون، الأسفل للوحوش و السباع و الدواب، و الأوسط للطعام و الشراب، و الأعلى لنوح و من معه، فضلاً عن جسد آدم معترضاً بين الرجال و النساء- و الذي دفنه بعد ذلك في بيت المقدس- كما كان معهم إبليس في الكوثل (مؤخر السفينة) (2).

و اختلف المؤرخون الإسلاميون كذلك في أمر التنور، فهناك من يذهب إلى أنه «وجه الأرض» أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار (3)، و هناك من ذهب إلى أنه تنور الخبز، و كان من حجارة لحواء حتى صار لنوح، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنه مسجد الكوفة، و ذهب رأي رابع- ينسب

ص: 77

1- ابن كثير: البداية و النهاية ص 109، 110، و كذلك الطبري: المرجع السابق ص 180-184، و كذلك القرطبي المرجع السابق ص 3259، و كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 1 (بيروت 1965) ص 70.

2- القرطبي: المرجع السابق ص 326، و كذلك محمد بن سعد كاتب الواقدي- الطبقات الكبرى ج 1 (دار التحرير- القاهرة 1968) ص 17.

3- ابن كثير: البداية و النهاية ص 111، تفسير القرآن العظيم ج 4 (دار الشعب- القاهرة 1971) ص 254.

إلى الإمام علي رضي الله عنه- إلى أنه فلق الصبح و تنوير الفجر- أي إشراقه و ضياؤه- و رغم أن هذه الرواية- فيما يرى ابن كثير- غريبة، فإنها الرواية الأ-كثر قبولا، فيما نظن، فضلا عن أنها الرواية الوحيدة التي تتفق إلى حد ما مع النصوص القديمة، و أما مكان التنور، فهو موضوع خلاف كذلك، فهناك من يراه في الهند، و هناك من يراه في الكوفة، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنه في الجزيرة، بل و يتجه رأي رابع إلى أن هذه الآراء جميعا ليست بمتناقضة، لأن الله عز و جل أخبرنا أن الماء جاء من الأرض و من السماء «ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، و فجرنا الأرض عيونا» فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة (1).

و مما هو جدير بالذكر أن «ابن بطوطة» يذكر أن بالكوفة مسجدا صغيرا محلقا عليه أيضا بأعواد الساج، يذكر أنه الموضوع الذي فار منه التنور، إيذانا بطوفان نوح عليه السلام، و في ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام، و إزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس عليه السلام، و يتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي يقال إنه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام، هذا و يذكر «ستون لويد»- و هو من كبار علماء الآثار الآشورية- أنه بالجامع الكبير بالكوفة مقصورة في باطن الأرض تعرف باسم السفينة حيث يعتقد المسلمون أن الفلك قد استقر بها، و يرى أن موقعها على صخرة مطلة على ساحل البحر القديم أفضل مكان بلا شك لرسو السفينة من قمة جبل «أرارات»، و يرى الدكتور محمد عبد القادر، أننا إذا نظرنا إلى خريطة العراق، لوجدنا أن الكوفة تتوسط المنطقة التي حدث بها الطوفان، و الممتدة تقريبا من أبو حبة (سييار) في الشمال إلى أبو شهرين (أريدو) في الجنوب، كما أنها قريبة نسبيا من فارة (شورباك) المذكورة في القصة السومرية و التي كانت يوما ما على الفرات، فالقصة المتواترة في الكوفة و التي رواها ابن بطوطة و غيره من الرحالة- و كانوا لا يعلمون عند ما كتبوا بالقصص السومري و الأكدي القديم- كان لها أساس قوي من الصحة (2). eS

ص: 78

1- ابن كثير: البداية و النهاية ص 111، تفسير القرآن العظيم ص 254، و كذلك الطبري: المرجع السابق ص 186-187. و كذلك ابن الأثير: المرجع السابق ص 70.

2- محمد عبد القادر: المرجع السابق ص 97، و كذلك. 30. eS (nacileP (tsuR eht ni snoitsduoF, dyoiL noteS. P, 1955)

وقد اختلف المؤرخون الإسلاميون كذلك في عدد من ركب الفلك، فذهب رأي إلى أنهم ثمانون نفسا (1)، وذهب رأي آخر إلى أنهم اثنان وسبعون نفسا، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنهم كانوا ثلاثة عشرة، وذهب رأي رابع إلى أنهم كانوا عشرة فقط، بينما ذهب رأي خامس إلى أنهم كانوا ثمانية- نوح وامرأته وبنوه الثلاثة و نساؤهم- وأخيرا ذهب رأي سادس إلى أنهم سبعة فقط (2).

و الأمر كذلك بالنسبة إلى مدى ارتفاع الماء على أعلى جبل في الأرض، فذهب رأي إلى أن ذلك إنما كان خمسة عشر ذراعا، و ذهب رأي آخر إلى أنها ثمانون ذراعا، وأنه لم يبق من الأحياء عين تطرف إلا نوح و من معه في الفلك، وإلا عوج بن عنق، فيما يزعم أهل التوراة (3)، وفي الواقع إن هذه رواية متأخرة ليست في التوراة، فضلا عن أنها تتعارض مع رأي هؤلاء العلماء في أن الطوفان عام، كما أن طول عوج بن عنق- إن كان هناك من يسمى عوج بن عنق- يتعارض مع ما جاء في الصحيحين عن المصطفى- صلوات الله و سلامه عليه- من «أن الله خلق آدم و طوله ستون ذراعا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن» وقوله- صلى الله عليه و سلم- «لورحم الله من قوم نوح أحدا، لرحم أم الصبي».

ويذهب المفسرون إلى أن الطوفان قد غطى كل بقاع الأرض إلا الكعبة الشريفة، ذلك لأن سفينة نوح- فيما يرون- قد طافت بالأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء، حتى أتت الحرم فلم تدخله و دارت بالحرم أسبوعا، ورفع الله البيت الذي بناه آدم عليه السلام- و هو البيت المعمور و الحجر الأسود- على جبل أبي قبيس (4)،

ص: 79

1- راجع رواية ياقوت الحموي (معجم البلدان 3: 23) عن قرية الثمانين و أنها عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر التغلبي فوق الموصل.

2- ابن كثير: البداية و النهاية ص 111-112، تفسير القرآن العظيم ص 255 و كذلك القرطبي ص 3263، و كذلك الطبري ص 187-189، و كذلك الطبقات الكبرى ص 18، و كذلك ابن الأثير ص 70.

3- ابن كثير: البداية و النهاية ص 112، و كذلك الطبري ص 185، و كذلك الطبقات ص 17، و كذلك ابن الأثير ص 70.

4- الطبري ص 185، و كذلك الطبقات ص 17.

وذهب رأي آخر إلى أن الله أمر جبريل برفع الكعبة إلى السماء الرابعة، وخبأ الحجر الأسود بجبل أبي قبيس، فبقي فيه إلى أن بنى إبراهيم البيت فأخذه فجعله في موضعه (1)، بينما ذهب رأي ثالث إلى أن البيت لم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أنه كان مبنيا قبل أيام الخليل، وأن الروايات التي ذهبت إلى أن آدم قد نصب عليه قبة، وأن الملائكة قالوا قد طفنا قبلك بهذا البيت، وأن السفينة قد طافت به أربعين يوما (أو أسبوعا)، كل هذه الأخبار مأخوذة عن بني إسرائيل (2).

والمواقع أن هناك خلافا على وقت بناء الكعبة، فهناك رواية تنسب بناءها إلى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض، وقبل أن يخلق آدم بألفي سنة (3)، وهناك رواية أخرى تنسب بناءها إلى آدم عليه السلام (4)، بينما ينسب ابن قتيبة- في رواية ثالثة- بناء الكعبة إلى شيث بن آدم (5)، وليس في كل هذا خبر صحيح يعول عليه وإنما اقتبسوه من مجمل الآية «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ»، فظاهر التعبير أن القواعد كانت موجودة، وأن كل عمل إبراهيم وإسماعيل إنما كان رفعها وليس تأسيسها، وليس في لغة العرب ما يمنع من أن يراد برفع القواعد ابتداء بناء البيت، على ضرب من التوسع في التعبير (6).

وأما الرواية الرابعة- وهي ما نميل إليه ونرجحه، فهي رواية للطبري (7)- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس- تقول إن إبراهيم جاء فوجد إسماعيل يصلح نبلا له من وراء زمزم، فقال إبراهيم: يا إسماعيل إن ربك قد أمرني أن أبني له بيتا، فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك، فقال إبراهيم: قد أمرك أن تعيني عليه، قال:

إذا فعل، فقام معه، فجعل إبراهيم بينه وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان

ص: 80

- 1- ابن الأثير: المرجع السابق ص 70.
- 2- ابن كثير: البداية والنهاية ص 163.
- 3- العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج 1 ص 93 (طبعة دار الكتب 1924 م).
- 4- نفس المرجع السابق ص 93، وراجع: علي حسني الخربوطلي: الكعبة على مر العصور ص 7، القاهرة 1967.
- 5- ابن قتيبة: المعارف ص 10 (المطبعة الحسينية، 1934).
- 6- أحمد حسن الباقوري: مع القرآن- القاهرة 1970 ص 47.
- 7- الطبري: المرجع السابق ص 259-260.

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (1)، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة، قام على حجر- وهو مقام إبراهيم- فجعل يناوله ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذي أمره الله عز وجل ببناؤه، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج، فقال له «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (2)، وهكذا بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام «الكعبة المشرفة» بيتا لله تعالى، ليكون رمزا إلى الحقيقة الكبرى في الوجود، حقيقة التوحيد، توحيد التوجه إلى الله الواحد الأحد، وتضرع خليل الله ودعائه، وأمن إسماعيل، أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم (3)، «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (4).

وإذا كان صحيحا ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل- عليه السلام- كان في الثلاثين من عمره يوم أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة (5)، فإن بناء الكعبة حينئذ يكون في حوالي عام 1824 ق. م، على أساس أن إسماعيل قد ولد في عام 1854 ق. م، (و توفي عام 1717 ق. م) على أساس أنه ولد لإبراهيم وهو في السادسة والثمانين من عمره، وأن إبراهيم قد عاش في الفترة (1765-1940 ق. م) (6)، وهو تاريخ متأخر جدا عن طوفان نوح عليه السلام.

هناك روايات كثيرة عن دخول الحيوانات والطيور إلى السفين، و من أسف أنها روايات أشبه بالأساطير منها بحقائق التاريخ، و من أمثلة ذلك دخول إبليس إلى السفينة في ذيل الحمار (7)، بناء على كلمة صدرت من النبي الكريم دون أن يقصد منها ما

ص: 81

- 1- سورة البقرة: آية 127.
- 2- سورة الحج: آية 27.
- 3- محمد الصادق عرجون: محمد صلى الله عليه وسلم من نبعته إلى بعثته- القاهرة 1971 ص 17.
- 4- سورة إبراهيم: آية 37.
- 5- علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق ص 16.
- 6- راجع في ذلك كتابنا إسرائيل ص 177، 202، وانظر كذلك تكوين 12: 4، 16: 16، 25: 7، 17.
- 7- الطبري: المرجع السابق ص 184.

حدث، و الرواية التي تذهب إلى أن «عوج بن عنق» لم يغرق في طوفان نوح، وأنه قد عاش من قبل عهد نوح، و إلى أيام موسى، و أنه كان جبارا عنيدا، كافرا متمردا، و أن أمه عنق بنت آدم قد ولدته من زنا، و أنه كان طويلا بدرجة لا يمكن أن تحدث، حتى إنه كان يأخذ السمكة من قرار البحار ثم يشويها في عين الشمس، و أن طوله كان $3333 \frac{1}{3}$ ذراعا، و أنه كان يستهزئ بسفينة نوح و بصاحبها و أنه كان يسميها القصيعة، و الواقع أن هذه الأسطورة لا تستحق حتى أن تناقش، و لكنني أتساءل مع ابن كثير، إذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن يقبل العقل أن يهلك ابن نوح، و لا يرحم من أمته حتى صبيانها، ثم يترك هذا الجبار الباغي ابن الزنى، ثم كيف تتفق هذه الخرافة مع الآيات الكريمة التي استخلصوا منها أن الطوفان كان قد قضى على كل ما و من في الدنيا، ثم حديث سيدنا و مولانا الحبيب المصطفى - صلوات الله و سلامه عليه- عن طول آدم، و أنه كان 60 ذراعا، و أن الناس من بعده كانوا أقل منه طولاً (1).

و من هذا النوع من الروايات كذلك، رواية تذهب إلى أن السيد المسيح- عليه السلام- بناء على رغبة الحواريين، قد أعاد «حام بن نوح» إلى الحياة، ثم سأله عن فلك نوح، فأخبر أن طولها كان ألف ذراع و مائتي ذراع، و أن عرضها ستمائة ذراع، و من هذا النوع كذلك رواية تذهب إلى أنه لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر و لا بحر، و أن مياه البحار إنما هي من بقية الطوفان، و من هذا النوع كذلك رواية تذهب إلى أن القوم بعد أن استوت بهم السفينة على الجودي هبطوا إلى أسفله و ابتنوا قرية سموها ثمانين، و أنهم قد أصبحوا ذات يوم، و قد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة- إحداها اللسان العربي- فكان بعضهم لا يفهم كلام بعض، و كان نوح عليه السلام يعبر عنهم (2).

و ليس هناك باحث منصف يستطيع أن ينكر أثر الإسرائيليات في هذه الروايات التي تجنح إلى الخيال أحيانا و إلى منافاتها للعقيدة الإسلامية الصحيحة أحيانا أخرى،

ص: 82

1- ابن كثير: البداية و النهاية ص 114.

2- نفس المرجع السابق ص 116، تفسير القرآن العظيم ص 254-257، و كذلك القرطبي المرجع السابق ص 3259-3266.

وإلى تعارض بعضها مع بعضها الآخر في أحيان كثيرة، وإذا ما أردنا أن نقدم الدليل على ذلك، وأخذنا على سبيل المثال قصة تبليل السنة الناجين من الطوفان، لوجدنا أثر التوراة واضحا فيها- إن لم تكن منقولة عنها أو تكاد- ذلك أن التوراة حاولت أن تقدم تفسيراً ساذجاً غير علمي لاختلاف اللغات والأجناس، فروت أن الناجين من الطوفان أرادوا أن يبنوا برجاً عالياً، بغية الصعود إلى الله- عز وجل- في علياء سمائه، إذ كانوا يحسبون السماء أشبه شيء بلوح زجاجي يعلو على الأرض بضع مئات من الأمتار، فخشي الله شرهم واحتاط لنفسه فهبط إلي الأرض وبلبل ألسنتهم ففترقوا شذراً مذبذباً، ومن ثم فقد سميت المدينة «بابل» لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض (1).

ولعل سؤال البداهة الآن: هل عمّ الطوفان الأرض كلها، أم كان طوفاناً خاصاً بقوم نوح دون سواهم من العالمين؟

يكاد يتجه غالبية المؤرخين الإسلاميين وعلماء التفسير إلى أن طوفان نوح كان طوفاناً عاماً، وأنه أهلك كل من وما على وجه الأرض، ولم يبق عليها إلا نوح ومن معه، وإلا عوج بن عنق، وأن السفينة طافت بالأرض كلها لا تستقر، حتى أتت الحرم فلم تدخله، ثم انتهت آخر الأمر إلى الجودي، فاستوت عليه (2).

ويحتجون على ذلك بالآيات الكريمة «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَتْرُكُونِي يَتْرُكُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (3)، وقوله تعالى: «فَلَمَّا أَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِّنْ أَثْمِينِ» (4)، وقوله تعالى «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» (5).

وقوله تعالى: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْهُوِّ حُونِ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ» (6) وقول الحبيب المصطفى، سيدنا ومولانا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- «أول رسول أرسل

ص: 83

1- تكوين 11: 1-9 وكذلك كتابنا إسرائيل ص 117 وكذلك P., tic. po, yarG. J. 104 وكذلك عصام حفني: المرجع السابق ص 42.

2- ابن كثير: البداية والنهاية ص 163، وكذلك ابن الأثير: المرجع السابق ص 72.

3- سورة نوح: آية 26، 27.

4- سورة هود: آية 40.

5- سورة الصافات: آية 77.

6- سورة الشعراء: آية 119، 120.

نوح، وأرسل إلى جميع أهل الأرض، فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً» (1).

و هناك رأي آخر يتجه إلى أن الطوفان كان محلياً في المنطقة التي كان يعيش فيها نوح وقومه، و أما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان (2).

و إنني لأظن - و ليس كل الظن إثماً - أن الطوفان كان خاصاً بقوم نوح دون سواهم من العالمين، معتمداً في ذلك على أدلة كثيرة، منها (أولاً) أن كل آيات القرآن الكريم تنص - دونما لبس أو غموض - على أن نوحاً إنما أرسل إلى قومه خاصة، و من ذلك قوله تعالى «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَ لِتُنذِرُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (3)، و قوله تعالى: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (4)، و قوله تعالى: «وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَ تَذِكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ» (5) و قوله تعالى: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ، فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَ مَا تَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ وَ مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ، قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عَزْمِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ نُلْزِمُكُمْوهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ، وَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا

ص: 84

1- القرطبي: المرجع السابق ص 6777.

2- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 36.

3- سورة الأعراف: آيات 59-63.

4- سورة التوبة: آية 70.

5- سورة يونس آية 71.

رَبِّهِمْ وَلِكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ، وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (1) وقوله تعالى: «وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (2)، وقوله تعالى: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ» (3)، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ، فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ» (4)، وقوله تعالى:

«كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوْحَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ» (5)، وقوله تعالى:

«قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (6) وقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ» (7)، وقوله تعالى: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» (8)، وقوله تعالى: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ ظَالِمُونَ» (9)، وقوله تعالى: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ» (10)، وقوله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ، أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (11)، وقوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا» (12) ... إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تؤكد كل التأكيد أن دعوة نوح إنما كانت لقومه خاصة- شأنه في ذلك شأن غيره من المصطفين الأخيار، غير الحبيب المصطفى- صلوات الله وسلامه عليه-.

ص: 85

1- سورة هود: آيات 25-30.

2- سورة هود: آية 36.

3- سورة إبراهيم: آية 9.

4- سورة المؤمنون: آية 23، 24.

5- سورة الشعراء: آية 105، 106.

6- سورة الشعراء: آية 117، 118.

7- سورة العنكبوت: آية 14.

8- سورة الذاريات: آية 46.

9- سورة النجم: آية 52.

10- سورة القمر: آية 9.

11- سورة نوح: آية 1، 2.

12- سورة نوح: آية 5.

ومنها (ثانيا) أن هناك اتفاقا عاما على أن الرسل جميعا قد أرسلوا إلى قومهم خاصة، باستثناء حبيب الله محمد- صلى الله عليه وسلم- و هكذا يحكي القرآن الكريم عن رسالات الأنبياء السابقين على سيدنا محمد- عليه الصلاة والسلام- بعنوان القومية الخاصة، يقول الله سبحانه وتعالى: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ، وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ، إِنَّ كُلًّا إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ» (1)، وقوله تعالى: «مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ» (2)، وقوله تعالى: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبِعَ كُلًّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدٌ» (3)، وقوله تعالى: «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» (4)، وقوله تعالى: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ» (5)، وقوله تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ، وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (6)، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» (7)، و قوله تعالى عن عيسى عليه السلام:

«وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ» (8).

ومنها (ثالثا) أن النبي الوحيد من بين الأنبياء جميعا الذي قد أرسله الله إلى الناس كافة هو سيدنا و مولانا محمد- صلى الله عليه وسلم- و قد دل القرآن على عالمية الدعوة

ص: 86

- 1- سورة ص: آيات 12-14.
- 2- سورة غافر: آية 31.
- 3- سورة ق آيات 12-14.
- 4- سورة الأعراف: آية 73.
- 5- سورة الأعراف: آية 80.
- 6- سورة الأعراف: آية 103، 104.
- 7- سورة إبراهيم: آية 5، 6.
- 8- سورة آل عمران: آية 49.

المحمدية بأساليب متعددة في نصوص واضحة (1)، بل إن هناك أكثر من أربعين آية في القرآن الكريم يذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين، هذا عدا الآيات التي ذكر فيها بالنص الواضح أنه- صلوات الله عليه و سلامه عليه- قد أرسل إلى الناس كافة، وأن القرآن قد تنزل عليه ليقرأه على الناس كافة» (2)، و من ذلك قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» (3)، وقوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (4)، وقوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (5)، وقوله تعالى: «الرَّكَّابُ أُنزِلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» (6)، وقوله تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» (7)، وقوله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» (8)، وقوله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» (9)، وقوله تعالى: «هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ» (10)، وقوله تعالى: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ» (11)، ثم هناك قوله تعالى: «قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ، اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» (12)، فمن يقرأ وصف هؤلاء العباد الذين سخر لهم

ص: 87

-
- 1- راجع في ذلك البحث الرائع لفضيلة الشيخ مناع القطان تحت عنوان «الإسلام شريعة الله الخالدة إلى البشرية كافة» في مجلة كلية الشريعة العدد الخامس ص 11-40.
 - 2- انظر المجلة الإنجليزية (yadoT yrotsiH) يونية 1961، وكذا عباس العقاد: المرجع السابق ص 157.
 - 3- سورة النساء: آية 49.
 - 4- سورة الأنبياء: آية 107.
 - 5- سورة سبأ: آية 28.
 - 6- سورة إبراهيم: آية 1.
 - 7- سورة الفرقان: آية 1.
 - 8- سورة الأعراف: آية 158.
 - 9- سورة الحج: آية 49.
 - 10- سورة إبراهيم: آية 52.
 - 11- سورة ص: آية 87.
 - 12- سورة إبراهيم: آيات 31-33.

البحر و سخر لهم الأنهار و سخر لهم الليل و النهار، لا يخطر له لحظة أنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بني الإنسان في جميع البلدان (1)، و أخيراً فليس هناك من يشك أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - هو خاتم النبيين «ما كان مُحَمَّدٌ أباً أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ» (2)، و بالتالي فإن دعوته لن تكون - بحال من الأحوال - مقصورة على قوم دون آخرين، و من ثم كانت عالمية الدعوة الإسلامية.

و منها (رابعا) أن السنة الشريفة تتفق مع القرآن الكريم على عالمية الدعوة المحمدية، و أن تلك ميزة الحبيب المصطفى - صلوات الله و سلامه عليه - على غيره من أنبياء الله الكرام الذين كانت دعواتهم مقصورة على أقوامهم دون غيرهم من العالمين، يقول - صلى الله عليه و سلم - كما جاء في الصحيحين «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، و جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا، فأیما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، و أحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي، و أعطيت الشفاعة، و كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة»، و عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - قال: «و الذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي و لا نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار»، و يذهب سعيد بن جبیر إلى أن تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ» (3).

و منها (خامسا) أن قول أهل الموقف لنوح - كما في حديث الشفاعة - أنت أول رسول إلى أهل الأرض، ليس المراد به عموم بعثته، بل إثبات أولية إرساله (4)، و من ثم فإن نوحا - عليه السلام - هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى قوم مشركين، هم قومه (5).

ص: 88

- 1- عباس العقاد: المرجع السابق ص 160.
- 2- سورة الأحزاب: آية 40.
- 3- راجع في ذلك: مجموعة فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: الجزء الرابع ص 203-208، ج 11 ص 169-170، ج 19، ص 9-12، 101، 103، الرياض 1381-1382 هـ، و كذلك مناع القطان: المرجع السابق ص 20-21، و كذلك صحيح البخاري.
- 4- محمد رشيد رضا: تفسير المنارج 7 ص 503.
- 5- نفس المرجع السابق ج 8، ص 436.

و منها (سادسا) أن مبلغ علمي - وأنا واحد من عامة المسلمين لم يكتب له شرف التخصص في الدراسات القرآنية- أن القاعدة الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم هي إلا يعذب الله قوما إلا إذا أرسل إليهم رسولا يهديهم سواء السبيل، تصديقا لقوله تعالى:

«وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» (1)، فإذا افترضنا أن نوحا- عليه السلام- كان في جنوب العراق- كما هو المتواتر، أو الذي يميل إليه أغلب الباحثين على الأقل فكيف يعذب الله- وهو أعدل العادلين- المصريين أو السوريين أو سكان الجزيرة العربية، على سبيل المثال، بسبب كفر العراقيين بنوح و بدينه القويم بخاصة و أن القرآن الكريم يقول «مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا» (2)، وهذا يعني أن الذين أغرقوا، إنما بسبب خطيئتهم في حق نوح و كفرهم بدعوته، بل إن القرآن الكريم ليصرح- دونما لبس أو غموض- بأنهم قد عصوا نوحا حقيقة، يقول الله سبحانه و تعالى: «قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي»، و أنهم لم يتركوا و ثبتهم الضالة المضلة إلى عبادة الله الواحد القهار، فإذا كان الطوفان عاما، فلا بد أن تكون دعوة نوح بالتالي عامة، و هذا يتعارض مع مبادئ الإسلام الأساسية، فضلا عن معارضته لآيات من القرآن الكريم، و من ثم فلا بد أن تكون الدعوة خاصة، و أن الذين أغرقوا كانوا من الخاطئين، أو كما يقول ابن كثير «اجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم و فجورهم و دعوة نبيهم عليهم»، ثم هناك قوله تعالى: «وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ» (3)، أليس في هذه الآية الكريمة دليل على أن الكافرين، إنما كانوا من قوم نوح فحسب، و أن الفلك التي ستبنى إنما هي لإنقاذ المؤمنين من قومه، و إغراق الكافرين منهم، ثم أليس في قوله تعالى: «وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرْعَلِيهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ» (4) دليل على أن الساخرين من نوح كانوا من قومه، و أنهم هم أنفسهم الكافرون به، و الأمر كذلك بالنسبة إلى قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون» (5)، و قوله تعالى:

ص: 89

- 1- سورة الإسراء: آية 15.
- 2- سورة نوح: آية 25.
- 3- سورة هود: آية 36.
- 4- سورة هود: آية 38.
- 5- سورة المؤمنون: آية 26.

«فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (1)، وقوله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ»، (2) وكل هذه الآيات وغيرها تضغط بشدة على أن الذين أغرقوا إنما كانوا من المكذبين لسيدنا نوح عليه السلام، بل إن الآية الأخيرة لتشير بوضوح إلى أن ما حدث لهم كان بعد إنذارهم «فَإَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ» تصديقا لقوله تعالى «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا». (3)

و منها (سابعاً) أن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بالعالمين، أنه ما من أمة إلا وجاء أهلها رسول من عند الله العليّ القدير، «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا» (4)، بل إنه لمن أصول العقائد الإسلامية أنه يجب الإيمان بأن الله أرسل في كل الأمم رسلاً (5)، يقول سبحانه وتعالى: «وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» (6)، ويقول: «وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ» (7)، «مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ» (8)، «وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ» (9)، ومن هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء عليهم السلام، فمن قائل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ومن قائل إنهم ثمانية آلاف نبي، ومن قائل إنهم ثلاثة آلاف ... إلخ (10).

و منها (ثامناً) أن حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي يحتاج به على أن الله

ص: 90

-
- 1- سورة المؤمنون: آية 28.
 - 2- سورة يونس: آية 73.
 - 3- سورة الإسراء: آية 15.
 - 4- سورة النحل: آية 36.
 - 5- محمد رشيد رضا: تفسير المنارج 7، ص 500.
 - 6- سورة فاطر: آية 24.
 - 7- سورة الزخرف: آية 6.
 - 8- سورة غافر: آية 78.
 - 9- سورة النساء: آية 164.
 - 10- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج 2 ص 422-428، وكذلك القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ص 2014-2015، وكذلك محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم، وكذلك كتابنا إسرائيل ص 288-289.

ثم يرحم أحدا من طوفان نوح حتى الأطفال، أنه نفسه- فيما أظن- دليل على أن الغارقين إنما كانوا من قوم نوح، وليس من كل بقاع الأرض، ولنقرأ الحديث الشريف- حيث التركيز على كلمة قوم- «فلو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبي».

ومنها (تاسعا) أن الذين ينادون بعالمية الطوفان (1) هم أنفسهم الذين يرون أن الفترة ما بين آدم ونوح عليهما السلام، تقارب عشرة قرون، فإذا كان المراد بالقرن مائة سنة- كما هو معروف- فبينهما ألف سنة، وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرور الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألف من السنين، بل إن بعضهم يذهب إلى أنه ما كان في زمن نوح شبر من الأرض إلا وهناك إنسان يدعيه، وهناك رواية تنسب إلى الإمام مالك- عن زيد بن أسلم- أن أهل ذلك الزمان قد ملئوا السهل والجبل، فهل يتفق ذلك مع رأي آخر لهم هو أن العالم كان في تلك الفترة قليل السكان بدرجة يستطيع أن يبلغ فيها دعوته للناس كافة، وبالتالي فإن الكافرين به قد انتشروا في كل أنحاء المعمورة، مما يستدعي أن يكون الطوفان عاما، ثم ما علاقة ذلك بفكرة العشرة الأجيال، أو رؤساء الآباء، ما بين آدم ونوح التي جاءت في التوراة (2)، بل ما علاقة الأخيرة بالعشرة الحكام الذين سبقوا الطوفان، كما يقدمهم المؤرخ البابلي بيروسوس (3)؟

ومنها (عاشرا) أن الرواية التي تذهب إلى أن الطوفان قد حدث في العام الستمائة من حياة نوح- و تلك للعلم منقولة عن التوراة (4)- وفي عام 2256 بعد هبوط آدم

ص: 91

1- القرطبي: المرجع السابق ص 3259، وكذلك الطبري: المرجع السابق ص 178، 190، وكذلك ابن كثير: البداية والنهاية ص 101.
2- تكوين 5: 5-32، وهم كالأتي: آدم وعاش 930 سنة، و شيث وعاش 912 سنة، وأنوش وعاش 905 سنة، وقينان وعاش 910 سنة، و مهلائيل وعاش 895 سنة، و يارد وعاش 962 سنة، وأخنوخ وعاش 365 سنة، و متوشالح وعاش 969 سنة، و لاملك وعاش 595 سنة، و نوح وعاش 950 سنة.

3- . 30 . j . nagenif . tic . po , . P, . tic . po , notaB . A . G . 320 . كذا .

4- تكوين 7: 6.

إلى الأرض، ألا تكفي كل هذه السنين لإيجاد أقوام غير قوم نوح في هذه الدنيا؟

أم أن الأمر كان مقصوراً على قوم نوح؟

وإذا كان طوفان نوح قد حدث في الفترة التي تسبق بداية العصر التاريخي في العراق القديم، والتي يرى علماء الآثار أنها قد حدثت في حوالي عام 2700 ق. م (1)، فإن عصور ما قبل الطوفان تزيد بآلاف السنين عما قدره علماء التوراة، ونقله عنهم أصحاب هذه الروايات.

ومنها (حادي عشر) أن الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ» (2)، ألا يفهم من قوله تعالى «أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ» أن هناك آخرين لم يشملهم طوفان نوح، وأن الله سبحانه وتعالى سيمنعهم إلى حين، ثم يمسهم عذاب أليم؟.

ومنها (ثاني عشر) أن المفسرين والمؤرخين الإسلاميين أنفسهم يكادون يجمعون على أن الطوفان إنما بدأ وانتهى في العراق القديم، فهناك رواية مجاهد والشعبي التي تذهب إلى أن التور إنمأ كان بأرض الكوفة، ورواية قتادة من أنه كان بأرض الجزيرة، فضلاً عن رواية ثالثة تذهب إلى أن سفينة نوح قد بدأت رحلتها من «عين وردة»، و عين وردة هذه- كما يقول ياقوت الحموي- رأس عين المدينة المشهورة في الجزيرة (3)، فإذا أضفنا إلى ذلك ما جاء في القرآن الكريم من أن سفينة نوح قد استوت على الجودي- والجودي جبل يقع شرق جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل- فإذا كانت كل هذه الأماكن التي ذكرت إنما تقع في العراق، فمن البدهي أن رحلة سفينة نوح إنما بدأت وانتهت في العراق.

ص: 92

1- . 119-120 . G . 1966, qarI tneicnA, xuoR. P, وكذلك- . 16 . P, rU tA snoita vacxE, yellooW dranoEL riS .

2- سورة هود: آية 48.

3- ابن كثير: البداية والنهاية ص 111، وكذلك ابن الأثير: المرجع السابق ص 70 وكذلك الطبري: المرجع السابق ص 190.

ومنها (ثالث عشر) أن صاحب «تفسير جزء تبارك» يتجه إلى أن مسألة شمول الطوفان لجميع أقسام الأرض، وعدم شموله لم يرد عنها في الكتاب نص قطعي، وكلمة لأرض في قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ» ليست نصاً في الدلالة على جميع أجزاء سطح الأرض، وإنما هي تستعمل أحياناً كثيرة استعمالاً فصيحاً في الجهة الواحدة من جهات الأرض، ففي سورة يوسف «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ»، «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ»، والمراد بالأرض في الموضعين «أرض مصر»، لا الكرة الأرضية كلها، وليس هذا ممارسة منا في قدرة الله أن يعم سطح الأرض كلها بالطوفان، وإنما يجب أن نقف في العقائد خاصة على ما جاء في صحيح النقل وارتاح إليه العقل (1).

ومنها (رابع عشر) أن صاحبي «تفسير الجلالين» يتجهان في تفسيرهما لقوله تعالى: «وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ» (2) إلى أن الأرض هنا هي أرض مصر (3).

ومنها (خامس عشر) أن صاحب «تفسير جزء تبارك» يتجه في تفسير قوله تعالى:

«رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا» (4) إلى أن نوحاً عليه السلام ختم دعاءه بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات جملة واحدة، يومئذ من طرف خفي إلى أن هناك مؤمنين ومؤمنات غير جماعة بيته الذين نجوا معه في السفينة، وعلى هذا فالطوفان لم يعم الأرض كلها، ويكون في بعض جهاتها البعيدة مؤمنون ومؤمنات لم يغرقوا، وقد دعا لهم نوح مع أهل بيته المذكورين (5).

ومنها (سادس عشر) أن هناك جماعة من أهل فارس والهند- كما يروي المؤرخون الإسلاميون- يرون أن الطوفان كان خاصاً، وأنه كان ببابل ومجاوراتها، ولم يصل إليهم، وأن تاريخ الملك عندهم يمتد في الماضي إلى تاريخ أبعد من الذي قدرته التوراة

ص: 93

1- عبد القادر المغربي: تفسير جزء تبارك، المطبعة الأميرية- القاهرة 1947 م ص 139.

2- سورة يونس: آية 83.

3- جلال الدين المحلي، و جلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، دار الشعب- القاهرة 1970 ص 193.

4- سورة نوح: آية 28.

5- عبد القادر المغربي: تفسير جزء تبارك. ص 143.

لطوفان نوح، وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم (1).

ومنها (سابع عشر) أن الآثار تثبت، دونما ريب، أن هناك طوفانا- بل طوفانات- حدثت في العراق القديم، و من ثم فإن الأثرين يكادون يتفقون- وعلى رأسهم سير وليم ويلكوكس، و سير ليونارد و ولي- على أن الطوفان لم يشمل الكرة الأرضية كلها، وإنما كان طوفانا كبيرا على وادي دجلة و الفرات أغرق كل الأرض الصالحة للسكنى في هذه المنطقة بين الجبال و الصحراء، و التي هي في نظر سكان المنطقة- و خاصة في تلك الفترة المبكرة- بمثابة العالم كله، و تقدر المساحة التي شملها الطوفان- في نظر بعض علماء الآثار- بحوالي 400 ميل طولا (حوالي 650 كيلومترا) في 100 ميل عرضا (حوالي 150 كيلومترا)، و كان ذلك كافيا لأن يغمر الوادي كله، إذ بلغ 40 ألف ميل مربع، و رغم أن أحدا لم يستطع حتى الآن أن يحدد زمن الطوفان تحديدا تاما، إلا أن هناك من يرى أنه ربما يرجع إلى قرب نهاية «عصر جمدة نصر»، أي قبيل بداية الألف الثالثة ق. م (2).

ومنها (ثامن عشر) أنه من المعروف في كلام الأنبياء و الأقوام و في أخبارهم أن تذكر «الأرض»، و يراد بها أرضهم و وطنهم، كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى و هارون «وَ تَكُونُ لَكُمْ أَلْبَانًا فِي الْأَرْضِ» (3)، يعني أرض مصر، و قوله تعالى: «وَ إِن كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا» (4) فالمراد بالأرض هنا مكة المكرمة، و قوله تعالى: «وَ قَصَّيْنَا إِلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي

ص: 94

1- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 36 و كذلك ابن كثير: البداية و النهاية ص 118-، و كذلك ابن الأثير: المرجع السابق ص 73، و كذلك الطبري: المرجع السابق ص 192.

2- P, tic. po, .50-51. كذلك. و F 22 P ,1950 ,seedlahC eht fo rU ,36 .P ,rU tA snotavacxE ,yellowW .L .S-2
relleK. W و كذلك محمد عبد القادر: المرجع السابق ص 95، و كذلك عبد الحميد زائد: الشرق الخالد ص 12.

3- سورة يونس: آية 78.

4- سورة الإسراء: آية 76.

الأرضِ مَرَّتَيْنِ» (1)، والمراد بها الأرض التي كانوا يعيشون فيها، أي فلسطين.

ولعل من الأفضل هنا أن ننقل فتوى الأستاذ الإمام محمد عبده في طوفان نوح، كما جاءت في تفسير المنار، ردا على سؤال الشيخ عبد الله القدومي بمدينة نابلس.

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية:

وصلنا مکتوبکم المؤرخ في 4 شوال سنة 1317 هـ، الذي أنهيتهم به أنه ظهر قبلكم نشء جديد من الطلبة ديدنهم البحث في العلوم و الرياضة و الخوض في توهين الأدلة القرآنية، وقد سمع من مقالتهم الآن: أن الطوفان لم يكن عاما لأنحاء الأرض، بل هو خاص بالأرض التي كان بها قوم نوح عليه السلام، وأنه بقي ناس في أرض الصين لم يصبهم الغرق، وأن دعاء نوح عليه السلام بهلاك الكافرين لم يكن عاما بل هو خاص بكفار قومه، لأنه لم يكن مرسلا إلى قومه، بدليل ما صحح «و كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، و بعث إلى الناس كافة».

فإذا قيل لهم: إن الآيات الكريمة ناطقة بخلاف ذلك، كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام «رَبِّ لا تَذَرْ عَلَيَّ الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دِيَّاراً»، وقوله تعالى: لا عاصمَ اليَوْمَ مِنَ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ، قالوا هي قابلة للتأويل و لا حجة فيها، وإذا قيل لهم: إن جهابذة المحدثين أجابوا بأنه صح في أحاديث الشفاعة أن نوحا عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وأنه يتعين أن يكون قومه أهل الأرض، و يكون عموم بعثته أمرا اتقاقيا لعدم وجود أحد غير قومه، ولو وجد غيره لم يكن مرسلا إليهم، سخروا من المحدثين، واستندوا إلى حكايات منسوبة إلى أهل الصين، و رغبتهم منا بذلك المکتوب كشف الغطاء عن سر هذا الحادث العظيم، و رغبتهم منا

ص: 95

يقتضيه الحق، ويطمئن إليه القلب.

و الجواب على ذلك و الحمد لله، أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان، و لا على عموم رسالة نوح عليه السلام، و ما ورد من الأحاديث، على فرض صحة سنده، فهو آحاد لا يوجب اليقين، و المطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين، لا الظن، إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين.

و أما المؤرخ و مرید الاطلاع، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوي أو المؤرخ أو صاحب الرأي، و ما يذكره المؤرخون و المفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها، و لا تتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني.

و أما مسألة عموم الطوفان في نفسها فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان، و أهل النظر في طبقات الأرض، و موضوع خلاف بين مؤرخي الأمم، أما أهل الكتاب و علماء الأمة الإسلامية فعلى أن الطوفان كان عاماً لكل الأرض، و وافقهم على ذلك كثير من أهل النظر، و احتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف و الأسماك المتحجرة في أعالي الجبال، لأن هذه الأشياء مما لا تكون إلا في البحر، فظهورها في رءوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات، و لن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض، و يزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاماً، و لهم على ذلك شواهد يطول شرحها، غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز، بل على كل من يعتقد بالدين ألا ينفي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات و الأحاديث التي صحّ سندها، و ينصرف عنها إلى التأويل، إلا بدليل عقلي يقطع بأن الظاهر غير المراد، و الوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج

ص: 96

إلى بحث طويل، وعناء شديد، وعلم غزير في طبقات الأرض وما تحتوي عليه، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية، ومن هذى برأيه بدون علم يقيني فهو مجازف لا يسمع له قول، ولا يسمح له ببث جهالاته، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ويقول السيد محمد رشيد رضا: وخلاصة هذه الفتوى أن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطوفان كان عاما، شاملا لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم، فيجب اعتقاده، ولكنه لا يقتضي أن يكون عاما للأرض، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملئون الأرض، وكذلك وجود الأصداف والحيوانات البحرية في قمم الجبال لا يدل على أنها من أثر ذلك الطوفان، بل الأقرب أنه كان من أثر تكوين الجبال وغيرها من اليابسة في الماء، فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر منها، وكما قلنا فإن هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن، ولذلك لم يبينها بنص قطعي، فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص، ولا نتخذة عقيدة دينية قطعية، فإن أثبت علماء الجيولوجية خلافه لا يضرنا، لأنه لا ينقض نصا قطعيا عندنا.

وبعد: فهذه قصة الطوفان، كما قدمتها الآثار والتوراة، وكذا القرآن الكريم، ولعل مما يلفت النظر أنها جميعا تتفق على أن القوم قد انحرفوا عن سواء السبيل، ومن ثم فقد كان قضاء الله العادل في صورة طوفان أهلك الحرث والنسل، ولم تكتب النجاة من عقاب الله لأحد، إلا بطل القصة والذين آمنوا معه، وهو الذي اتفقت الروايات جميعا على أنه كان بارا تقيا ورعا، ولكن هناك خلافات جوهرية بين النص القرآني وبين غيره من النصوص - سواء كانت تلك النصوص بشرية كنص سومر و بابل، أو نصوصا يزعم لها أصحابها ما يزعمون من قداسة، كنص التوراة.

ومن هذه الاختلافات (أولا) أن النص القرآني كان هو النص الوحيد الذي

حدثنا أن نوحا كان رسولا من رب العالمين، وأنه قضى من الزمن ما شاء الله له أن يقضى في دعوة قومه إلى عبادة الله الواحد القهار، وأن الله - جل وعلا - لم يأت بالطوفان إلا بعد أن تحمل النبي الكريم في دعوته كل صنوف الأذى والاضطهاد، وإلا بعد أن جرب نبي الكريم كل سبل الإقناع، دونما أية نتيجة، «قال رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا» (1)، وإلا بعد أن يسس النبي الكريم من أن يؤمن به قومه، فدعا «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (2)، وإلا بعد أن أوحى الله إليه «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدِ آمَنَ» (3)، وهكذا اتبع نبي الله الكريم كل ما يمكن اتباعه تصديقا لقوله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا» (4).

ومنها (ثانيا) أن الناجين من الطوفان في القصة القرآنية، إنما نجوا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحكيم، وصدقوا بدعوة نوح عليه السلام، بعكس النصوص الأخرى التي جعلت نجاتهم، إنما ترجع إلى أنهم من أهل بطل القصة وذوي قرباه، ويزيد القرآن الكريم الأمر وضوحا في هذه النقطة بالذات، فيقص علينا - من بين ما يقص من أحداث - ما حدث مع ابن نوح، وكيف كان من الغارقين، ثم كيف «نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (5). وهكذا يبدو واضحا المبدأ القرآني العظيم «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»، «وَلَا تَرَرُ وَازِرَةً وِرْرًا أُخْرَى، «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (6).

ص: 98

1- سورة نوح: آيات 5-10.

2- سورة نوح: آية 26، 27.

3- سورة هود: آية 36.

4- سورة الإسراء: آية 15.

5- سورة هود: آيات 45-47.

6- سورة الزلزلة: آية 7، 8.

ومنها (ثالثا) أن زوجة بطل القصة في النصوص السومرية و البابلية- وكذا في نص التوراة- تنجو من الطوفان مع الناجين، ولكن القرآن الكريم كان وحده هو الذي أخبرنا أن زوج النبي الكريم لم تكن من المؤمنين به «صَدَرَ رَبِّ اللَّهِ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ» (1)، ولا شأن لنا بروايات ذهبت إلى غير ما ذهب إليه النص القرآني الكريم، فإنما هي اجتهادات على مسئولية أصحابها، وهي قبل ذلك باطلة لمخالفتها للقرآن الكريم.

ومنها (رابعا) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي يتفق إلى حد كبير- مع الفارق الشاسع بين ما أنزله الله و ما كتبه أيدي البشر- مع أقدم نصوص قصة الطوفان في أن الطوفان إنما بدأ وانتهى- أو على الأقل انتهى- في العراق، وذلك حين «غِيَصَ الْمَاءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ».

ومنها (خامسا) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي تسامى عن مهاوي الشرك و ضلال الوثنية، فهو في صراحة تامة يذكر أن القوم قد حادوا عن عبادة ربهم و انصرفوا إلى عبادة الأوثان، وفي كل هذا يقدم لنا وصفا لله سبحانه و تعالى- بما يتفق و مقام الذات العلية- فلا ينتزل إلى الدرك الأسفل من التفكير الوثني في قصص العراق القديم، أو يصف الله سبحانه و تعالى بما وصفته التوراة من أوصاف لا يرتضيها عقل و لا يقرها منطق، بل هي أوصاف لا يرتضيها عقلاء الناس لأنفسهم في كثير من الأحيان.

ومنها (سادسا) أن النص القرآني الكريم هو النص الوحيد الذي تنزه عن التناقض الذي ساد قصة التوراة مثلا.

ومنها (سابعا) أن النص القرآني هو الوحيد الذي نزه الله سبحانه و تعالى عن الندم على إحداث الطوفان، بعكس النصوص الأخرى التي ذهبت إلى ندم الله- أو الآلهة في النصوص البابلية- على الإتيان بالطوفان، بل ذهبت التوراة إلى أبعد من ذلك، حين زعمت أن الله- تعالى عن ذلك علوا كبيرا- قد عزم ألا يحدث طوفانا بعد ذلك،

ص: 99

وأنه قد وضع علامة هي القوس في السماء، ليتذكر وعده، فلا يكون طوفان يغرق الأرض أبداً.

ومنها (ثامنا) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي تنزهه عن الماديات، ذلك أن كلا من النصين - البابلي و التوراتي - يضحى فيه البطل بالأضاحي، فتشم الآلهة في القصة البابلية، ويشم الرب في قصة التوراة، رائحة الشواء فيسكن غضبه ويتنسم رائحة الرضا، بل إن القرآن الكريم ليرد على فحش يهود هذا- وهم يزعمون أنهم موحدون و أن كتابهم هذا تنزيل من عليّ قدير- بقوله تعالى «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَ لَا دِمَائُهَا، وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ» (1) و يقول: «فَكُلُّوا مِنْهَا وَ أَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ» (2).

ومنها (تاسعا) أن النص القرآني هو الوحيد الذي لا تجد فيه نصا قطعيا على أن الطوفان قد شمل الأرض كلها- الأمر الذي ناقشناه من قبل- و إن كانت النصوص السومرية و البابلية، إنما عنت بالأرض المنطقة التي يسكنها أصحاب الطوفان، ثم جاءت يهود، و نقلت ما نقلت من المصادر البابلية، ثم مزجت ذلك كله بما أنزله الله على موسى عليه السلام، ثم أخرجت لنا التوراة الحالية التي لا تمثل وحيًا من عند الله، كما أنها لا تمثل الكتابات الإنسانية، وإنما هي خليط من هذا و ذلك، و من ثم كانت روايتها أكثر الروايات تعرضا للخطأ، فضلا عن أنها لا تقدم لنا رواية سماوية مقدسة تماما، و لا وجهة النظر الإنسانية التي فيها ما في الإنسان نفسه من خطأ و صواب، و إنما هي بين بين.

ومنها (عاشرا) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي لم يعتمد على غيره من المصادر القديمة، ذلك أن السومريين بعد أن كتبوا روايتهم عن الطوفان، جاء البابليون من بعدهم، و أخذوا منها ما أخذوا، ثم جاءت يهود و نقلت ما نقلت عن الاثنيين، و هكذا كانت كل رواية طوفانية تعتمد على رواية سبقت في التدوين- و لكن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى القصة القرآنية، و التي هي وحي من رب العالمين، ذلك أنه في القرن السابع الميلادي، و في مكة المكرمة، و في غار حراء بدأ نزول الوحي على مولانا و سيدنا

ص: 100

1- سورة الحج: آية 37.

2- سورة الحج: آية 28.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن الكريم، ولم يكن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ولا قومه، على دراية بقصة الطوفان هذه، وإلى هذا يشير القرآن الكريم «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا» (1).

ثم أليس كل ما جاء في هذه الدراسة يدل بوضوح على هيمنة القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية - فما بالك بالكتابات الإنسانية - مصداقا لقوله تعالى، مخاطبا الحبيب المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ، بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ» (2)، ثم أليس هو الذي «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (3).

ص: 101

1- سورة هود: آية 49.

2- سورة المائدة: آية 47.

3- سورة فصلت آية 42.

لعل من الأفضل أن نشير هنا، وقبل الحديث عن معبودات قوم إبراهيم، إلى أننا قدمنا في الجزء الأول من هذه السلسلة وغيرها، دراسات مفصلة عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، عن: نسبه وعصره، فضلا عن موطنه الأصلي، وهجرته في بلاد الشام ومصر والحجاز (1)، ومن ثم فلسنا في حاجة إلى تكرار ذلك في هذا الجزء الرابع من سلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، والذي سوف تقتصر الدراسة فيه عن دعوة أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل، عليه السلام، في موطنه الأصلي، في العراق القديم.

معبودات قوم إبراهيم:- من الحقائق المتفق عليها في تاريخ أبي الأنبياء، عليه السلام، أنه ولد ونشأ في العراق، كما أنه تلقى وحي ربه وبلغ رسالاته، أول ما بلغها، في العراق كذلك، وأن قومه إنما كانوا يعبدون الأصنام، فضلا عن عبادة الكواكب.

هذا ويكاد يتفق المؤرخون أن أهل بلاد الرافدين (بلاد النهرين- ميزوبوتاميا- بارابوتاميا) قد نسبوا إلى معبوداتهم صفات البشر، والتي لا تختلف عنها إلا أنها أكثر تجريدا وكمالا، كما كانت ثياب الآلهة كثياب البشر،

ص: 105

1- قدم المؤلف دراسة مفصلة عن سيدنا إبراهيم عليه السلام شملت الموضوعات التالية (1- إبراهيم بين التوراة والقرآن الكريم 2- اسم الخليل ونسبه 3- موطن الخليل 4- عصر الخليل 5- هجرات الخليل 6- الرحلة إلى مصر 7- رحلة الخليل إلى الحجاز 9- قصة الذبيح 10- زوجات الخليل)، وذلك في كتابين لنا. (انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل- الجزء الأول- الإسكندرية 1978 ص (49-184)، دراسات تاريخية من القرآن الكريم- الجزء الأول- في بلاد العرب- الرياض 1980 ص (113-183).

ولكن ثياب الآلهة أبهى من ثياب الأمراء، ويصدر عنها بريق يخطف الأبصار، وللالهة أسر وأسلحة، وصراعها كصراع الناس، ولكنه بالطبع على نطاق أعظم وأهول، ومع ذلك فقد ميّز القوم آلهتهم عن البشر بالخلود، وبأنهم كانوا خيرين دائما، ولم يكن الشر من عملهم، بل من أرواح خبيثة تفوق البشر، ولكنها دون الآلهة.

وكان الثالون الأعظم بين معبودات بلاد النهرين يتكون من: أنو وإنليل وإيا.

(1) أنو:- اعتبر القوم منذ أقدم العصور معبودهم «أنو» (وأصله من السومرية آن) بمثابة الإله الأعظم، وكان دائما يتصدر قوائم الآلهة، و يلقب خاصة بملك السماوات، إلى جانب لقبه إله السماوات وأبي السماوات، وعرشه في قمة قبة السماء، وله السلطة العليا، يخضع له آلهة السماء وآلهة الأرض معا، وهو الذي يخول لملوك الأرض السلطة التي يحكمون بها، ونظيره «زيوس» لدى اليونان، وامرأته هي الإلهة «أنتم»، واسمها مأخوذ من اسمه، بزيادة تاء التأنيث.

وكانت مدينة «أوروك» (وهي أونوك في السومرية، وإرك في التوراة، والوركاء في الوقت الحاضر) هي المركز الرئيسي في العصور القديمة لعبادتهما، وعند ما انتقل مركز الثقل السياسي من سومر إلى بابل، أصبح «مردوك» إله بابل، سيد الآلهة، وبالتالي فقد حل محل «أنو»، ومع ذلك فقد أطلق الملك البابلي الشهير «حمورابي» (1728-1686 ق.م) على «أنو» لقب الإله العظيم في استهلال قانونه.

هذا وتشير أساطير القوم إلى أن «أنو» إنما كان يسكن قمة قبة السماء (سماة آنو)، وكان يحرس بوابته معبودان هما: تموز وجيزيدا، وكان يوضع أمامه: الصولج والعصا والتاج وعصا القيادة، قبل نشوء الملكية على وجه الأرض، وحين كان الآلهة في خوف من الطوفان هربوا و صعدوا إلى سماء

أنو، و جثوا، كما يفعل الكلب على الحائط، و رقدوا هناك حتى اشتموا الرائحة الجميلة للضحية.

(2) إنليل:- وهو أكبر معبودات السومريين (و معنى اسمه المركب «إن- ليل» سيد الريح) و لما كانت الريح تهب، في اعتقادهم، من الجبل، فقد سمي «الجبل الكبير»، و لما كان رمز الجبل في السومرية هو رمز بلد في الأكديّة، فقد لقب إنليل أيضا بسيد البلاد، و هو لقب حملة من أقدم النصوص السومرية، و احتفظ به من نقوش بابل و آشور التاريخية و الدينية، و هكذا صار إله الجبل إله الأرض.

و من ثم فقد فرض إنليل قانونه على سكان الأرض، و هو قانون، فيما يزعم القوم، مكتوب في ألواح القدر، كما أن إنليل لم يكن يكتف بتحديد مصائر الناس، و إنما كان أيضا يشرف بنفسه على تنفيذ أحكامه، و هو أيضا محارب عنيف يلقب بالثور الوحشي، و هو مستشار الآلهة، كما أنه هو الذي أحدث الطوفان.

و كانت زوجته «نليل»، و اسمها مأخوذ من اسمه، و ذلك بوضع (nin) سيدة، موضع (i) سيد، و كانت مدينته «نيبور»، و هي «نفر» الآن (سوم- نيبور) في بلاد بابل، مركز عبادتهما.

(3) إنكي:- كان إنكي هو اسم ثالث إله من الثالوث، و هو نفسه الإله السامي «إيا» بمعنى «بيت الماء» و إنكي في السومرية بمعنى «سيد الأرض»، حيث كان القوم يعتقدون، فيما تروى أساطيرهم، أن هناك ثلاث أرضين، الأرض العليا حيث يحكم إنليل، و الأرض السفلى حيث يهيمن المعبود «نرجل»، و الأرض الوسطى التي تقع بين سطح الأرض و الأرض السفلى، و هي مملكة «إنكي» أو «إيا»، و هو يلقب في النصوص القديمة بملك «إيسو» أي ملك المياه العذبة، فقد كان السومريون و الأكديون يعتقدون أنه يوجد تحت أرضنا، عند مشارف الأرض الوسطى، سطح كبير من المياه العذبة

تطفو عليه أرضنا، و هو الحوض الذي تتدفق منه منابع الجداول و الأنهار.

و كان «إيا» (انكي) هو إله السحر و المعوِّذ بين الآلهة، و لا-غرو فالماء كان يستعمل في التطهير و القضاء و التنبؤ، و كان ماء «إيسو» المقدس في معبد مدينة «أريدو» (أبو شهرين الحاليين على مبعده سبعة أميال جنوب غرب مدينة أور) يستخدم كثيرا في طقوس السحر للشفاء أو الوقاية من الأمراض.

و كان «إيا» كذلك إلهة للحكمة، خلق الإنسان من كتلة من الطين (الطمي)، ثم نفخ فيها نسمة الحياة، و هو الذي أنقذ البشر من الفناء في زمن الطوفان؟) و علمهم مختلف الصناعات، و منح الذكاء للملوك، و هو الذي أقام عبادة الآلهة على الأرض.

و كانت زوجته «ننكي»، و معنى اسمها في السومرية «سيدة الأرض»، و قد سميت فيما بعد «دمكينا»، و كانت مدينة «أريدو» المركز الرئيسي لعبادتهما.

هذا و قد عرف القوم كذلك عبادة الكواكب، و من ثم فقد كان هناك ثالوث آخر من أجرام سماوية هي: الشمس و القمر و كوكب الزهرة (1) (نجم الصباح)، و كان إله القمر يعدّ أقدم آلهة هذا الثالوث، و يعتبر أبا لإله الشمس و كوكب الزهرة، و على هذا كان إله الشمس أخا للزهرة، و كانت الزهرة أختا).

ص: 108

1- سادت جنوب بلاد العرب عبادة ثالوث من الكواكب هي القمر و الشمس و الزهرة، و يمثل القمر في هذا الثالوث دور الأب، كما تمثل الشمس دور الأم، بينما تمثل الزهرة دور الابن، و ربما كان العرب الجنوبيون متأثرين في هذا الثالوث ببلاد النهرين، حيث يحتل هذا الثالوث فيها مكانة ممتازة، و إن كنت أميل إلى أن عبادة التثليث هذه كانت أمرا مشاعا بين سكان المنطقة العربية كلها، و من ثم فقد رأيناه في بلاد الرافدين و سورية و فينيقيا، و إلى حد ما في مصر، بل إن الرمز الذي اتخذته أهل بابل و آشور و سورية و آسيا الصغرى، لإله الشمس، و هو قرص ذو جناحين، إنما هو رمز الشمس في مصر، و مع ذلك فربما كان تأثير بلاد الرافدين الديني على جنوب بلاد العرب، أكبر من تأثير غيرهم من الساميين (محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة ص 19).

له، وإله الشمس ذكر كآبيه إله القمر، أما كوكب الزهرة (عشتر)، وهي تارة نجمة الصباح، وتارة نجمة المساء، فقد كان يكتنفها الغموض، فكانت تارة ذكرا، وتارة أنثى، ولكن غلب الجانب الأنثوي، وقضى على التعارض بين الذكورة والأنوثة بأن اتحدت في شخصها إلهة الحرب (جانب الذكورة) وإلهة الحب (جانب الأنوثة).

(1) إله القمر: - يأتي إله القمر عند القوم، في المرتبة التي تلي «إنكي» (إيا)، وقد أطلق السومريون و الأكديون عليه اسم «سين» وهو اسم سومري نقله الأكديون عن السومريين، ونظائره السامية هي «ود» لدى عرب الجنوب (1)، و «سهر» لدى الآراميين، و «رخ» أو «يرخ» لدى الأموريين،.

ص: 109

1- اعتبر عرب الجنوب القمر أبا في الثالوث الكوكبي، و من ثم فقد صارت له منزلة خاصة عندهم، فهو المقدم على غيره، وهو كبير الآلهة، وهو الذي ينفرد بالكثرة المطلقة من الأسماء، والألقاب في الأساطير والطقوس وأسماء الأعلام وغيرها، وهكذا أصبح الإله القمر مهيمنا على سائر مناحي الحياة، هيمنة أشبه ما تكون بهيمنة الشمس في الديانات السامية الشمالية، حتى قيل إن الديانة العربية الجنوبية ديانة قمرية، وذلك بسبب العوامل الجغرافية والمناخية، حتى أصبحنا نرى في العربية «القمران» كتعبير يدل على الشمس والقمر. هذا ويعرف الإله القمر بالإله «ود» عند المعنيين، و «المقة» عند السيبئيين، و «عم» في قتبان، و «سين» في حضرموت، فأما «ود» فهو في طليعة الآلهة المدونة في نصوص المسند، وهو إله «معين» الكبير، فضلا عن قبائل عربية أخرى، كشمود و لحيان، كما كان من الأصنام الكبرى في الحجاز عند ظهور الإسلام، وقد حكى القرآن الكريم عنه بأنه إله جاهلي قديم، وجد قبل زمن الطوفان، وقد عبده قوم نبي الله نوح عليه السلام، كما كان المعبود القومي لدويلة أوسان، و كان معبده الرئيسي في وادي نعمان. و أما «المقة» إله سبأ الكبير، ويتكون اسمه من «إل»، وهو اسم الإله «إيل» الشهير عند الساميين، و من «مقهو» بمعنى قوي، و من ثم يصبح معنى الإسم «إيل قوي» بمعنى «الله قوي» و قد اتخذ القوم الثور رمزا للإله «المقة»، وهو من الرموز الدالة على الإله القمر عند الساميين القدامى. و أما الإسم «عم» فهو من الأسماء السامية الواسعة الانتشار، و التي كانت من أوصاف الآلهة، ثم صارت علما على إله قتبان، و أما «سين» إله حضرموت، فهو اسم سومري، و ليس ساميا، نقله الأكديون عن السومريين، و يبدو أن الآلهة القمرية كانت أكثر من ذلك، فهناك في النقوش العربية الجنوبية «ورخن»، و الظاهر أنه كان يدل على الهلال، فقد استعملت في اللغات السامية كلها تقريبا ألفاظ مشابهة لهذه اللفظة لمعايير متصلة بالهلال، منها «يرخ» بالعبرية، و «يرخا» بالسريانية و الآرامية، و «أرخو» بالآشورية، و «أرخ» بالبابلية، و «رخ» بالعربية اليمنية و بالحشبية، و كلها بمعاني الهلال و القمر و الشهر، و منها جاء الفعل «أرخ» من العربية الفصحى، أي حسب الأيام و الشهور على دورة القمر، و الإسم «التاريخ» و أخيرا، فهناك من يرى أن اسم «سيناء لا بد و أن يكون له علاقة بإله القمر «سين».

و لإله القمر عند السومريين اسم آخر هو «ننا» بمعنى رجل السماء، وقد حرفه الأكديون الساميون إلى «ننرا» بمعنى المنير، و يرمز إليه في كثير من الأحيان بالهلال، و بجانبه قرص الشمس، رمزا لإله الشمس، و نجمة في وسط دائرة، رمزا لكوكب الزهرة.

و الإله «سين» هو سيد الشهر، ينظم أيام الشهر و السنة، و من ثم فهو الذي يقيس الزمن، و هو الذي ينهى الأيام و الشهور و السنين للملوك المذنبين بالدموع و التآوهات، و كان رمزه الهلال، هذا و كانت لحركات القمر دور هام في التنبؤ، و كان خسوف القمر أهول الظواهر و أشدها روعا، و كان ينسب إلى هجوم محل الإله «سين» من سبع أرواح شريرة في السماء، و كانت صورة الكارثة تختلف حسب الشهر الذي يقع فيه الخسوف فكانت ترسل الدعوات إلى الإله، و تقدم إليه القرابين، و أخيرا يولد من جديد أشد بهاء من ذي قبل منتصرا على الظلمات و الموت، و ذلك عن طريق القوس التي يدافع بها عن نفسه ضد القوى التي تعترض مجراه، أو تحاول حجب نوره.

و كانت زوجته «ننجل» بمعنى السيدة الكبيرة، و إلى هذا الإسم يرجع الإسم «نكل» الذي يطلقه عليها كل من الآراميين و أهل أوجاريت (تل شمرا)، و قد أنجبا الإله شمس و الإلهة عشتار، و يعتبر «نسكو» إله النار، في بعض الأحيان، ابنا لهما.

و كانت مدينة «أور» (تل المقير، على مبعده 120 ميلا شمال مدينة البصرة) مركز عبادة «سين» و زوجته «ننجل» و ولدهما «نسكو» (سدرننا)، ثم

انتقلت عبادتهم جميعا إلى الشمال في «حران» (حاران، وتقع على نهر بلخ، على مبعدة 60 ميلا من اتصاله بالفرات)، وقد انتشرت عبادة القمر من أور إلى كل أرجاء بابل، ومن «حران» إلى كل من سورية وفينيقيا، وكان البدو الآراميون والعرب يعبدون إله القمر، ولا يستبعد أن يكون لاسم «شبه جزيرة سيناء» علاقة بإله القمر «سين».

(2) إله الشمس:- يأتي إله الشمس (شمش) في المرتبة الثانية بعد أبيه إله القمر، وكان السومريون يسمونه «أوتو» و يسمون الشمس «بير» و هي تشرق، أما الساميون فقد أطلقوا على الإله الأكدي اسم الشمس نفسها (شمش) و كان العبرانيون والآراميون ينطقون «شمش»، و العرب «شمس» (1)، وأهل أوجاريت «شيش، و كان عرب الجنوب والأوجاريتيون يعتبرونها إلهة مؤنثة، بينما كان السومريون والآكديون يعتبرونها إلهة ذكرا، و كان الحيثيون يميزون بين إمله للشمس، و إلهة للشمس يسمونها «أرنا».

و كان يرمز لإله الشمس في بابل و آشور و سورية و آسيا الصغرى بقرص ذي جناحين، أي بصورة الشمس في مصر، و من ألقابه في بلاد الرافدين «نور العالم»، هذا و كان إله الشمس، في نظر القوم، هو القاضي الأعظم الذي أملى قوانين العدالة على الملوك، و كانت مدينة «لارسا» في سومر، «.

ص: 111

1- عبادت الشمس في قتيان و حضرموت و سبأ تحت اسم شمس، و غالبا ما كانت أسماء الشمس في بلاد العرب الجنوبية تبدأ ب «ذات»، و كانت إلهة الشمس تسمى عند المعينيين «نكرح»، و ربما بمعنى «ذات حميم»، كما كانت تسمى عند السبئيين «ذات غضرن» و «ذات حميم»، بمعنى ذات حرارة في الغالب، و هذا المعنى قريب من «آل حمون» و «بعل حمون» في العبرية، و إن فسر البعض «ذات حميم» بمعنى ذات الحمى، و الحمى الموضع الذي يحمى، و يخصص للإله أو المعبد أو الملك أو سيد القبيلة، فيكون حرما آمنا لا يجوز لأحد انتهاكه أو التعدي عليه، و أما في النقوش القتبانية فهي «ذات صهرن» «ذات رحبن»، فضلا عن اسم آخر للشمس ذكرته الكتابات القتبانية، و أعنى «إث رت»، و هو بعينه اللفظ العبراني «أشرت»، و يرجح «هومل»، و يؤيده نقش جلازر رقم 1600، أن هذا الاسم القتباني إنما يشير عادة إلى آلهة الشمس، و إلى زوج الإله «ود».

و مدينة «سبر» من أكبر، مركزين لعبادة شمش منذ أقدم الأزمان، و أما زوجته فهي «أيا».

(3) الإلهة الزهرة:- كانت الإلهة الزهرة (عشتر- عشطار) أهم إلهة في سومر و أكبر، و كان السومريون يسمونها «أنينا» بمعنى سيدة السماء، و «عشتر» هو الاسم الأكدي السامي، و نظيره «عشتار» لدى الفينيقيين و العبريين، إلهة أنثى، و «عنتر» لدى العرب الجنوبيين إله ذكر (1)، و هي تأتي في المرتبة بعد «سين» أبيها، و «شمش» أخيها مباشرة، و هي أخت «أرشكيجل» إلهة العالم السفلى.

و كان يرمز إليها بنجمة ذات ثمانية أشعة أو ستة عشر شعاعا، منقوشة داخل دائرة، و هي التي ترشد النجوم إلى طريقها، و هي نجمة الصباح تارة، و المساء تارة، و هي إلهة الحب و اللذة حين تكون إلهة المساء، ترفع إلى عرش الملك من تهواه من البشر، و قد مجدها الآشوريون كإلهة محاربة، سلاحها المفضل هو القوس، و حيوانها الأثير هو الأسد، نراها واقفة على ظهره في أغلب الصور التي تمثلها، و قد انتشرت عبادتها في سومر و أكد، ثم انتقلت من أكد إلى آشور، ثم امتدت غربا و شمالا و شرقا مع جيوش آشور الفاتحة.

هذا، و إلى جانب هذه المعبودات الوثنية، كانت كل قوى الطبيعة، و كل قوى الخير، تؤله عند السومريين و البابليين، كما كان لكل مدينة معبودات، حتى أصبح عدد المعبودات كثيرا جدا، غير أن أهمها جميعا، إنما كان مردوك و آشور.

ص: 112

1- كان الإله العربي «عشتر» ذكرا، بينما كانت نظائره في جميع الأديان السامية الأخرى مؤنثة، و هكذا رأينا الشعر العربي يذكر الزهرة مذكرة، و حتى عند العرب الذين عرفهم «نيلوس» كان هذا النجم مذكرا، و لما كانت العادة أن يقدم القربان من جنس المقرب إليه، إن كان ذكرا فذكر، و إن كان أنثى فأنثى، و حيث نظر للقمر كشيخ كان قربانه رجلا هرما ما ممتلى الوجه، و أما هنا فكان ينظر إلى الزهرة كطفل صغير يتفق و مكانته بين العائلة المقدسة، كابن لإله القمر، و أمه إلهة الشمس.

(1) مردوك:- بلغ هذا المعبود الوثني من الشهرة مبلغا ربما لم يبلغه إله وثني آخر من تاريخ الشرق الأدنى القديم، وقد ارتبط مصيره بمصير مدينة بابل، والتي كان لها شأن عظيم في التاريخ القديم، سياسيا وعسكريا ودينيا واجتماعيا، ويدل على هذه الصلة الوثيقة بين مردوك و بابل قول إرميا، النبي العبراني، «قولوا أخذت بابل، خزي بيل، تضعض مردوخ» وذلك عند سقوط بابل عام 539 ق. م.

و كان مردوك، في نظر القوم، هو ابن انكى البكر، و من ثم فقد ورث عنه العلم و السحر، و صار مثله المعوذتين الآلهة، و كان الساحر عند ما يمارس مهنته إنما يعمل باسم مردوك، كما يعمل باسم أبيه «أيا»، و في الأمور المستعصية كان مردوك يلجأ إلى أبيه انكى طلبا للمعونة، و كما كان «أيا» إله الحكمة، كان مردوك أحكم الحكماء، و الخبير بين الآلهة.

هذا، و كما تبين لنا مقدمة قانون حمورابي المكانة العليا التي وصل إليها مردوك في الإمبراطورية البابلية، تبين لنا قصيدة الخلق البابلية مكانته السامية أيضا، حيث أسبغت عليه خمسين اسما أو لقبا، مما جعل «دورم» يزعم أنه في نسبة هذه الأوصاف جميعا إلى إله واحد، اتجاها إلى التوحيد، و هو يجد هذا الاتجاه أيضا في عصر الدولة الكلدانية، إذا صارت الآلهة المختلفة مجرد جوانب من شخص مردوك.

و كانت «صبريانيتم» بمعنى الفضية أو اللامعة كالفضة، زوجة لمردوك، و كان الاثنان يجلان حينما تعلقو مكانة بابل، و عند ما فتح ملوك آشور أرض بابل أبدوا ولاءهم لآلهتها، و هي في مقدمتها مردوخ و زوجته، و كذا في أيام الكلدانيين و الفرس، بل ظلا موضع الاجلال بعد ذلك أيام السلوقيين، سواء في الحياة الخاصة أو الاحتفالات الرحية.

(2) آشور:- و هو الإله القومي للآشوريين، و كبير آلهتهم الوثنية،

أشرنا آنفاً إلى أن قوم إبراهيم إنما كانوا يمارسون عبادة الأصنام، فضلاً عن عبادة الكواكب، و من ثم فمن الأفضل هنا أن نناقش موقف أبي الأنبياء عليه الصلاة و السلام من ممارسات قومه الوثنية في شتين، الواحد:

موقف إبراهيم من عبادة الكواكب، و الثاني: موقفه من عبادة الأصنام.

[1] موقف إبراهيم من عبادة الكواكب: -

قدم لنا القرآن الكريم تلك المناظرة التي دارت بين إبراهيم عليه السلام و بين قومه من عبدة الكواكب في الآيات الكريمة من سورة الأنعام، يقول عز من قال: وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآهْلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ، وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ، وَ تِلْكَ

حُجَّتْنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (1).

و الآيات الكريمة تفيد أن إبراهيم، صلوات الله و سلامه عليه، تطلع إلى السماء فرأى كوكبا يعبده القوم (و لعله كوكب الزهرة) فيما يعبدون، فقال: «هذا ربي، ثم اضطبر قليلا حتى أفل الكوكب، فقال: لا أحب الآفلين»، أي أنه لا يحب الآلهة المتغيرة المتحولة التي لا تبقى في مكان واحد، و لا تستقر على حال.

ثم تطلع بعد ذلك إلى السماء، فرأى القمر ساطعا يأخذ نوره بالأبصار، فقال: هذا ربي، لكنه لم يلبث إلا يسيرا، ثم أفل و احتجب نوره، فقال إبراهيم: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين.

ثم رأى الشمس في كبد السماء بعد ذلك، يعم نورها الأرجاء، تملأ أشعتها الكون دفئا و ضياء، ثم ما لبث أن رآها تأفل، كما أفل الكوكب، و كما أفل القمر، من قبل، فقال: يا قوم إني بريء مما تشركون (2).

هذا و قد اختلف المفسرون من وقت هذه الرؤية؟ و في وقت هذا القول من عمر إبراهيم عليه السلام؟ و هل كان ذلك في مقام النظر و الاستدلال لنفسه؟ أم كان في مقام المناظرة و الحجاج لقومه؟.

و هكذا ذهب فريق إلى أن ذلك الوقت اعتبار، و لا يترتب عليه حكم، لأن الأحكام إنما تثبت بعد البلوغ.

ص: 116

1- سورة الأنعام: آية 75-83، و انظر: تفسير الطبري 11/470-506، في ظلال القرآن 2/1135-1143، تفسير النسفي 2/19-21، تفسير الجلالين ص 174-176، تفسير ابن كثير 2/240-247، صفوة التفاسير 1/401-403، تفسير البحر المحيط 4/165-169، تفسير الكشاف 2/30-33، تفسير القرطبي ص 2459-2467، تفسير المنار 7/444-486.

2- محمد حسني عبد الحميد: أبو الأنبياء إبراهيم الخليل - القاهرة 1947 ص 39.

وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على ما روي في التفسير بالمأثور من عبادته، عليه السلام، لهذه الكواكب في صغره اتباعاً لقومه، حتى أراه الله تعالى بعد كمال التمييز حجته على بطلان عبادتها، والاستدلال بأفولها وتعددتها وغير ذلك من صفاتها على توحيد خالقها، وأن ذلك كله كان قبل النبوة ودعوتها، ومنه قصة طويلة مروية عن محمد بن إسحاق فيها أن إبراهيم عليه السلام، ولدته أمه في مغارة أخفته فيها خوفاً عليه من ملكهم «نمرود بن كنعان» أن يقتله، إذ كان قد أخبره المنجمون بأنه سيولد في قريته غلام يفارق دينهم، ويكسر أصنامهم فشرع يذبح كل غلام ولد في الشهر الذي وصف أصحاب النجوم من السنة التي عينوا، وفيها أن إبراهيم كان يشب في اليوم، كما يشب غيره في شهر، وفي الشهر كما يشب غيره في سنة، وأنه طلب من أمه بعد خمسة عشر يوماً من ولادته، أن تخرجه من المغارة، فأخرجته فنظر و تفكر في خلق السماوات والأرض، وذكر رؤيته للكواكب فالقمر فالشمس (1).

وكان الله تعالى قد خصّه بالعقل الكامل والنظرة السليمة، ومن ثم فقد تفكر في نفسه وقال: لا بد لهذا الخلق من خالق، وهو إله الخلق، ثم نظر حال تفكره، فرأى الكوكب وقد ازدهر فقال: هذا ربي على ما سبق إلى وهمه، وذلك في حالة طفولته، وقبل استحكام النظر في معرفة الرب سبحانه وتعالى، وقد استدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله: لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين، وهذا يدل على نوع من التحير، وذلك لا يكون إلا في حالة الصغر، وقبل البلوغ وقيام الحجّة (2).

ص: 117

-
- 1- تفسير المنار 464/11، وانظر: تفسير النسفي 20/2، تفسير الطبري 481/11-482، تفسير القرطبي ص 246، محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ح-1 ص 116-117، إسرائيل ح-1 ص 280.
 - 2- محمد حسني: المرجع السابق ص 40.

وليس هناك إلى سبيل من شك في أن هذا القول غير صحيح تماماً، لأسباب كثيرة، منها أن رواية ابن إسحاق وأمثالها، إنما هي موضوعة لهذه المسألة، وقد أخذها ابن إسحاق عن بعض اليهود الذي كانوا يلقتون المسلمين أمثال هذه القصص، ليلبسوا عليهم دينهم، فتبطل ثقة يهود وغيرهم (1)، ومنها أن الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، معصومون في كل حال من الأحوال، ولا يجوز أن يكون لله عز وجل رسول يأتي عليه وقت من الأوقات، إلا وهو بالله عارف، وله موحد، ومن كل منقصة منزه، ومن كل معبود سواه، سبحانه وتعالى، بريء، وإن هذا القول لينقصه تماماً كون الله تعالى قد أتى إبراهيم رشده من قبل، وأطلعته على أسرار الكون، وملكوت السموات والأرض، قال تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (2)**، وقال تعالى: **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (3)**.

وقال أبو حيان في بحره المحيط: لما أوضح لهم أن الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون ربا، ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ، فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ، وأكبر جرماً، وأعم نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم، وبيّن أنها مساوية للنجم من صفة الحدوث (4)، وروى ابن جريج عن القاسم عن إبراهيم النخعي قال: فرجت له السموات السبع فنظر إليهن حتى انتهى إلى العرش، وفرجت له الأرضون فنظر إليهن، ورأى مكانه في الجنة، فذلك قوله تعالى:

وَ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا (5).

ص: 118

- 1- تفسير المنار 11/ 464.
- 2- سورة الأنبياء: آية 51.
- 3- سورة الأنعام: آية 75.
- 4- تفسير البحر المحيط 4/ 167.
- 5- تفسير القرطبي ص 2459-2460.

و هكذا استحق إبراهيم عليه السلام، بصفاء فطرته و خلوصها للحق، أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون، و الدلائل الموحية بالهدى في الوجود، قال تعالى: وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، و يمثل هذه الفطرة السليمة، و هذه البصيرة المفتوحة، و على هذا النحو من الخلوص للحق، و من إنكار الباطل في قوة، نرى إبراهيم حقيقة هذا الملك، ملك السماوات و الأرض، و نطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون، و نكشف له عن الآيات الماثورة في صحائف الوجود، و نصل بين قلبه و فطرته و موحيات الإيمان و دلائل الهدى في هذا الكون العجيب، لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة، إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق (1).

و بديهى أن من يكن هذا مقامه، لا يعقل بحال من الأحوال، أن يرى الكوكب فيقول: هذا ربي، عن عقيدة، فإبراهيم الخليل لأرشد من أن يعتقد ذلك، قال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ و غلط ممن قاله، و قد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: «وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»، و قال عز و جل: بِقَلْبٍ سَلِيمٍ أي لم يشرك قط، قال: و الجواب عندي أنه قال «هذا ربي» على قولكم، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام و الشمس و القمر، و نظير هذا قوله تعالى: أَيْنَ شُرَكَائِي، و هو جلا و علا واحد لا شريك له، و المعنى:

أين شركائي على قولكم (2).

و من العجيب، كما يقول صاحب تفسير المنار، أن ابن جرير اختار هذا القول، مع تقريره القول المقابل له على أحسن وجه، و هو الذي جزم به الجمهور، من أنه كان مناظرا لقومه (3)، و قد احتج ابن جرير أولا بالرواية،

ص: 119

1- في ظلال القرآن 2/ 1139.

2- تفسير القرطبي ص 2461.

3- قال أبو جعفر في تفسيره (11/ 483-484): و أنكر من غير أهل الرواية هذا القول الذي روي عن ابن عباس و عمن روى عنه، من أن إبراهيم قال للكوكب أو القمر: هذا ربي، و قالوا: غير جائز أن يكون لله نبي ابتعثه بالرسالة، أتى عليه وقت من الأوقات و هو بالغ، إلا هو لله موحد، و به عارف، و من كل ما يعبد من دونه بريء، قالوا: و لو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات و هو به كافر، لم يجز أن يختصه بالرسالة، لأنه لا معنى فيه إلا و في غيره من أهل الكفر به مثله، و ليس بين الله و بين أحد من خلقه مناسبة، فيحاييه باختصاصه بالكرامة، قالوا: و إنما أكرم من أكرم منهم لفضله في نفسه، فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة، و زعموا أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو الشمس أو القمر «هذا ربي» لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون ربه، و إنما قال ذلك على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه، و على العيب لقومه في عبادتهم الأصنام، إذ كان الكوكب و القمر و الشمس أضوأ و أحسن و أبهج من الأصنام، لوم تكن مع ذلك معبودة، و كانت أقللة زائلة غير دائمة، فالأصنام التي هي دونها في الحسن و أصغر منها في الجسم، أحق أن لا تكون معبودة و لا آلهة، قالوا: و إنما قال ذلك لهم، معارضة.

وهي، كما يقول صاحب تفسير المنار، لا تصلح حجة على دعوى شرك الخليل، عليه الصلاة والسلام، ولو في الصغر، على أنها مطلقة، و
ثانياً:

بالعبارة التي قالها بعد أفول القمر، يعني قوله تعالى: لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (1).

وهناك وجه آخر للنظر، وهو الذي جزم به الجمهور (2)، من أن ذلك كان في مقام المناظرة والحجاج لقومه، وأن هذه الرؤية، وهذا القول إنما كانا بعد بلوغ إبراهيم عليه السلام، وحين شرفه الله بالنبوة، وأكرمه بالرسالة، وقد حدث بين أصحاب هذا الرأي خلاف في تفسير الآية وتأويلها وما تحمل من معان، فذكروا فيها وجوهاً:

الوجه الأول: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أراد أن يستدرج قومه بهذا القول، ويعرفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها،
لأنهم

ص: 120

-
- 1- سورة الأنعام: آية 77، تفسير المنار 465 / 7.
 - 2- انظر: تفسير ابن كثير 242 / 2، تفسير القرطبي ص 2461 تفسير الكشاف 31 / 2، تفسير البحر المحيط 167 / 4، تفسير الفخر الرازي 47 / 13، تفسير المنار 465 / 11.

كانوا يرون أن الأ-مر كله إليها، لا- إلى الله خالقهم، فأراهم إبراهيم تعظيمه ما يعظمون، فلما أفل الكوكب، و أفل القمر، و أفل الشمس، أراهم النقص الداخـل على النجوم بسبب الغيبوبة و الأفل، ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية (1)، و يقول الأستاذ النجار: و يرى فريق من الناس أنها تدرج في تكوين العقيدة، ذلك أن القوم كانوا يعبدون الأصنام ينحتونها على أسماء الكواكب كالشمس و القمر و نحوهما، فأراد أن يلزمهم أن الكواكب و الشمس و القمر لا- تصلح لأن تكون آلهة، وإنما الإله هو الذي خلقهن و خلق السماوات و الأرض، و بيده ملكوت كل ما فيهما، و أن التماس الصحة و العافية و الرزق من غيره تعالى باطل (2).

و يقول الإمام ابن كثير: و الحق أن إبراهيم عليه الصلاة و السلام، كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل و الأصنام، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، و إنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق و النصر، و غير ذلك مما يحتاجون إليه، و بيّن في المقام خطأهم و ضلالهم في عبادة الهياكل، و هي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، و هي القمر و عطارد و الشمس و المريخ و المشتري و زحل، و أشدهم إضاءة و أشرفهن عندهم: الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فبيّن أولا صلوات الله و سلامه عليه، أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينا و لا شمالا، و لا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأ-جرام خلقها الله منيرة، لماله في ذلك من الحكم العظيمة، و هي تطلع من الشرق ثم تسير فيما بينه و بين المغرب حتى تغيب عن

ص: 121

1- محمد حسنى: المرجع السابق ص 40-41.

2- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء- القاهرة ص 80.

الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، و مثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، و تحقق ذلك بالدليل القاطع: «قال: يا قوم إني بريء مما تُشركون» أي أنا بريء من عبادتهم و مولاتهم، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً و ما أنا من المشركين»، أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء و مخترعها و مسخرها و مقدرها و مدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، و خالق كل شيء، و ربه و مليكه و إلهه، كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (1).

وقال الإمام الزمخشري: كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبههم على ضلالهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى ألا يكون شيء منها إلهاً، وأن وراءها محدثاً أحدثها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها، وقوله: «هذا ربي» قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق، ثم يكر عليه فيبطله بالحجة (2)، وقال أبو حيان في بحره: لما أوضح لكم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون ربا، ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ، فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ، وأكبر

ص: 122

1- تفسير ابن كثير 2/ 242-243.

2- تفسير الكشاف 2/ 31.

جرما وأعم نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم، وبيّن أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث (1).

وأما الوجه الثاني: فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال هذا على سبيل الاستفهام الإنكاري والتوبيخ للقوم، وتقديره أ هذا ربي الذي تزعمون، وقد جرى العرف على إسقاط حرف الاستفهام، وهو كثير في كلامهم، ومن هذا القبيل، قوله تعالى: أَفَأَنْ مِتَّ فَهَمُّ الْخَالِدُونَ، يعني أفهم الخالدون، والمعنى فيما نحن بصدده، أيكون هذا ربا، ودلائل النقص فيه ظاهرة. ويقول الإمام النسفي: كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى شيئا منها ليس ياله، لقيام دليل الحدوث فيها، ولأن محدثا أحدثها، ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها، فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه قال: «هذا ربي» أي قال لهم: هذا ربي في زعمكم، أو المراد أ هذا استهزائهم، وإنكار عليهم، والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت، والصحيح أن هذا قول من ينصف خصمه، مع علمه أنه مبطل، فيحكي قوله، كما هو، غير متعصب لمذهبه لأنه أ دعى إلى الحوار، وأنجى من الشعب، ثم يكر عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجة، فلما أفل قال:

«لا أحب الآفلين» أي لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، لأن ذلك من صفات الأجسام، «فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين»، نبه قومه على أن من اتخذ القمر إلها، فهو ضال، وإنما احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال، لأن الاحتجاج به أظهر، لأنه انتقال مع

ص: 123

خفاء واحتجاب، فلما رأى الشمس بازغة قال: «هذا ربي»، وإنما ذكره لأنه أراد الطالع، أو لأنه جعل المبتدأ مثل الخبر، لأنهما شيء واحد معني، وفيه صيانة الرب عن شبهة التأنيث، ولهذا قالوا: في صفات الله تعالى علام، ولم يقولوا علامة، وإن كان الثاني أبلغ، تفاديا من علامة التأنيث، «فَلَمَّا أَفَلَّتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ»، أي من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها (1).

و أما الوجه الثالث: لو كان إلهها، كما تزعمون، لما غاب، فهو كقوله تعالى: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، يعني عند نفسك وبزعمك، وقد جرى العرب على إضمار القول، ومنه قوله تعالى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا.

و أما الوجه الرابع: أن في هذه الآية إضممارا تقديره: يقولون: هذا ربي، أي يقولان: ربنا تقبل منا (2).

على أن هناك أخيرا وجهها خامسا، يذهب إلى أن الله سبحانه وتعالى قال في حق إبراهيم: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، هذا فضلا عن تشبيه إراءة الله تعالى إياه هذا الملكوت وما يترتب عليه من إبطال ربوبية الكواكب بإراءته ضلال أبيه وقومه في عبادة الأصنام، ومن إسناد هذه الإراءة إلى الله تعالى الدال على تمييز ما رأى بها على ما كان يرى قبلها، ومن تعليل الإراءة بما تقدم، ومن التعقيب على ذلك بمحاجة قومه، وقوله تعالى إنه آتاه الحجة عليهم (3)، كل هذا وغيره، فضلا عن منزلة إبراهيم العالوية عند الله تعالى، و اتخاذ إياه خليلا، وأنه كان أمة قانتا لله

ص: 124

1- تفسير النسفي 2/ 19-20.

2- محمد حسني: المرجع السابق ص 41.

3- تفسير المنار 7/ 465.

حنيفا، ثم أمر الله تعالى لأشرف خلقه سيدنا و مولانا وجدنا محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، أن اتبع ملة إبراهيم (1)، كل ذلك وغيره من أوصاف إبراهيم من القرآن الكريم، إنما يؤكد، التأكيد كل التأكيد، أنه من المحال، بحال من الأحوال، أن يعبد إبراهيم الكواكب، و يتخذها ربا، و أما قوله: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين»، فإن الأنبياء، عليهم السلام لا يسألون الله التثبيت، و منه قوله: «و اجنبي و بني أن نعبد الأصنام».

و أخيرا، و كما يقول ابن كثير في تفسيره: كيف يكون إبراهيم ناظرا في هذا المقام، و هو الذي قال الله في حقه: وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (2)، و قد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»، و في صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله إني خلقت عبادي حنفاء»، و قال تعالى: فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، و قال تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَسَّاهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوا بَلَى فإِذَا كَانَ فِي حَقِّ سَائِرِ الْخَلْقِ، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتا لله حنيفا و لم يك من المشركين، ناظرا في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، و السجدة المستقيمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بلا شك و لا ريب، و مما يؤيده أنه كان في هذا المقام مناظرا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك، لا ناظرا، قوله تعالى: وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ

ص: 125

1- انظر: سورة النساء: آية 125، الأنعام: آية 161، هود: آية 75، النحل: آية 120، 123، الأنبياء: آية 51، الممتحنة: آية 4.

2- سورة الأنبياء: آية 51-52، و انظر: العمران: آية 95، النساء: آية 95، النساء: آية 125، الأنعام: آية 161، النحل: آية 120-123.

شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (1).

وهكذا يختم القرآن الكريم هذا الفصل من قصة إبراهيم مع قومه وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ يعني ما جرى بين إبراهيم وقومه، واستدل به على حدوث الكواكب والشمس والقمر بالأفول، وكانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله تعالى إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه، ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه، وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله، ولا أنه صاحب القوة والسلطان في الكون، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة، فلما واجههم إبراهيم بأن من كان يخلص نفسه لله، لا يخاف من دونه، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة، لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها، سقطت حجتهم، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة، وهكذا يرفع الله من يشاء درجات، متصرفا في هذا بحكمته وعلمه إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (2).

وهكذا يبدو واضحا من هذه المناظرة التي دارت بين إبراهيم وقومه، أن الأنبياء، عليهم السلام، قد عمدوا إلى طرق خاصة في الإقناع، وأن أبي الأنبياء، عليه السلام، قد عمد إلى طريقة تدل على صفاء ذهنه، وسرعة بديهته، وهي طريقة المجازاة والتظاهر بالتصديق، ليصل إلى غايته، وهي إظهار فساد تلك العبادات، وكاشفة عابديها بأن آلهتهم غير جديرة بالعبادة أو

ص: 126

1- سورة الأنعام: آية 80-83، تفسير ابن كثير 2/ 243-244 (بيروت 1986).

2- في ظلال القرآن 2/ 1142.

التقديس، لأنها آلهة زانفة يقوم دليل الحدوث فيها، ذلك بأن لها محدثاً أحدثها، و مدبراً دبر طلوعها و أفولها و انتقالها و مسيرها و سائر أحوالها (1).

[2] موقف إبراهيم من عبادة الأصنام:-

إشارة

كان قوم إبراهيم، كما أشرنا من قبل، يعبدون الأصنام، كما كانوا يعبدون الكواكب و النجوم، و من ثم فقد أرسله الله تعالى إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده، قال تعالى:

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَإِن تَكذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، قُل سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسُوءُ مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ، فَأَمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (2).

ص: 127

1- محمد حسني: المرجع السابق ص 43.

2- سورة العنكبوت: آية 16-27، وانظر: تفسير النسفي 3/252-256، تفسير القرطبي ص 5051-5056، صفوة التفاسير 2/455-458، في ظلال القرآن 5/2726-2733، تفسير ابن كثير 3/649-656 (وانظر: عن موقف إبراهيم من عبادة الأصنام: سورة الأنعام: آية 74، مريم: آية 41-48، الشعراء: آية 69-89، الصافات: آية 83-99).

وهكذا تشير هذه الآيات الكريمة بوضوح إلى دعوة أبي الأنبياء، سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم مرسومة الخطوط واضحة المعالم، بشر فيها وأنذر، غير أن القوم قد تملكهم الغرور، وركبوا رءوسهم، وقد عزّ عليهم أن يرجعوا إلى الحق أو يثوبوا إلى الرشد، وهم يحسبون أن آلهتهم تنجيهم من عذاب أليم ينتظرهم، ولم تكن تلك الآلهة التي أصموا آذانهم عن كلمة الحق فيها، غير نصب وأوثان من خشب و حجارة لا تنفع ولا تضر، لكنهم كانوا يعظمونها ويقدمونها، ويقدمون لها القرابين، ويركعون أمامها ويسجدون، ومن ثم فقد أعدوا عدتهم لمقاومة دعوة إبراهيم، حفاظا على أوثانهم وأصنامهم.

وهنا لعل من الأفضل هنا أن نناقش موقف إبراهيم عليه السلام منهم و من أوثانهم، وكذا موقفهم منه، عليه السلام، في شقين، الأول مع أبيه، والآخر مع قومه:

(أ) بين إبراهيم وأبيه

:- كان والد إبراهيم في طليعة عابدي الأصنام وصانعيها من الأخشاب، والداعين لها، وكان يعرضها على الناس ليشتريها منه من يرغب فيها، وقد عزّ على إبراهيم أن يكون والده (1) زعيما من زعماء المشركين، وإماما من أئمة الإفك المبين، وهو أقرب قومه إليه، وأولى الناس بتصديق دعوته، والإيمان برسالته، فرأى إبراهيم عليه السلام من واجبه أن يبصر والده بأمره، ويحذره عاقبة كفره بما فيه الخير له، برأيه، و حرصا على أن يكون مسلكه سليما، فيتبع الدين القويم والطريق المستقيم، وقرر أن تكون مفاتحته والده في الأمر بالحسنى، إذ ما كان له أن يرشده إلى الحق بغيرها، وهو المؤمن بما للأبوة من جليل القدر، ورفعة الشأن.

ص: 128

1- انظر الآراء التي دارت حول «آزر» وهل هو والد الخليل أم عمه؟ (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 53-61).

و يقص علينا القرآن الكريم، كيف بدأ النبي الكريم دعوته مع أبيه بلهجة تسيل أدبا ورقة، يهديه بها صراطا مستقيما، فأشار إلى الأصنام مبينا أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا ترى، ولا تشعر بعباد يعبدها، أو عاص يعصاها، ثم بين لأبيه أنه ليس مخترعا للدعوة، وأنها من لدن عليّ قدير، وأنه قد تلقى من العلم ما لم يتلق أبوه، وأنه لا ضرر عليه إذا اتبع ملة ولده أو عمل برأيه، واختتم نصحه برجاء تقدم به إلى أبيه أن يحذو حذوه، ويسلك سبيله، وإلا فالطريق التي يسلكها غير طريق الهدى، هي طريق ملأى بالأشواك، وهي طريق الشيطان الرجيم، وهو عدو لا يرشد إلى خير، ولا يبتغي إلا إيقاع الناس في الشر وإهلاكهم، فقد عصى ربه فطرده وأبعده عن رحمته، فتوعد الناس بالإغواء والضلالة (1).

ولكن «آزر» رفض الدعوة، بل وأصر على عناده، وصمم على كفره، وتجاهل بنوته، وأنكر إشفاقه به، ونصحه له، وهدده إن لم ينته عن دعوته هذه ليرجمنه، وليهجرنه مليا، وكان آزر في ذلك مغمضا عينيه عن اعتبارات النبوة، متجاهلا إياها، فاستنكر النصيحة، وسفه الرأي، وسخر من الشريعة الجديدة، فما كان من الخليل، تأدبا مع أبيه وحببا عليه، إلا أن يدعو له بالمغفرة، وأن ينتظر إجابة دعوته إلى حين.

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة مريم، قال تعالى: **وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا، قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا، قَالَ**

ص: 129

سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا، وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي سَقِيًّا (1).

وهكذا تشير هذه الآيات الكريمة إلى شخصية إبراهيم الرضي الحليم، تبدو وداعته و حلمه في ألفاظه و تعبيراته التي يحكي القرآن الكريم ترجمتها بالعربية، و في تصرفاته و مواجهته للجهالة من أبيه (2)، و يصف الله تعالى خليله إبراهيم بأنه كان صديقاً نبياً، فجمع الله له بين الصديقية و النبوة، فالصديق كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله و أفعاله و أحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، و ذلك يستلزم العمل العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه الموجب لليقين، و العمل الصالح الكامل، و لا غرو لإبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام، أفضل الأنبياء و المرسلين قاطبة بعد سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم، و هو الذي جعل الله في ذريته النبوة و الكتاب (3).

وقال الإمام الرازي في التفسير الكبير: و إيراد الكلام يلفظ «يا أبت» في كل خطاب، دليل على شدة الحب و الرغبة في صونه عن العقاب، و إرشاده إلى الصواب، و قد رتب إبراهيم الكلام في غاية الحسن، لأنه نبهه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في الاستدلال و ترك التقليد الأعمى، ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام، مع رعاية الأدب و الرفق، و قوله «إني أخاف» دليل على).

ص: 130

1- سورة مريم: آية 41-48، و انظر: تفسير ابن كثير 3/198-200، تفسير القرطبي ص 4149-4153، تفسير النسفي 3/36-38، تفسير ابن ناصر السعدي 5/53-56، في ظلال القرآن 4/2310-2313، صفوة التفاسير 2/218-219، تفسير الفخر الرازي 21/225-227، تفسير البيضاوي 2/16-18.

2- في ظلال القرآن 4/2311.

3- عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 5/54 (مكة المكرمة 1398 هـ).

شدة تعلق قلبه بمصالحه، قضاء لحق الأبوة (1).

غير أن أباه، كما يقول الإمام البيضاوي، قابل استعطافه و لطفه بالفظاظة و غلظة العناد، فناداه باسمه، و لم يقابل قوله «يا أبت» ب «يا ابني» و قدّم الخبر و صدره بالهمزة لانكار نفس الرغبة، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل (2).

و هكذا تشير الآيات الكريمة بوضوح، كيف راعى إبراهيم الخليل المجاملة و الرفق و الخلق الحسن كما أمر، ففي الحديث «أوحى إلى إبراهيم إنك خليلي، حسن خلقك و لو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار»، فطلب من أبيه أولاً العلة في خطئه طلب منه على تماديه، موقظ لإفراطه و تناهيه، لأن من يعبد أشرف الخلق منزلة، و هم الأنبياء، كان محكوماً عليه بالغي المبين، فكيف بمن يعبد حجراً أو شجراً لا يسمع ذكر عابده، و لا يرى هيآت عبادته، و لا يدفع عنه بلاء، و يقضي له حاجة، ثم ثني بدعوته إلى الحق مترققاً به، متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، و لا نفسه بالعلم الفائق، و لكنه قال:

إن معي شيئاً من العلم ليس معك، و ذلك علم الدلالة على الطريق السوى، فهب أني و إياك في مسير، و عندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل و تتيه، ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي عصى الرحمن الذي جميع النعم منه أوقعك في عبادة الصنم و زينها لك، فأنت عابده في الحقيقة، ثم ربح بتخويفه العاقبة و ما يجره ما هوفيه من التبعية و الوبال، مع مراعاة الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لا-حق به، و أن العذاب لا-حق به، بل قال أخاف أن يمسك عذاب بالتفكير المشعر بالتقليل، كأنه قال إنني أخاف أن يصيبك نفيًا من عذاب الرحمن، و جعل ولاية الشيطان و دخوله في

ص: 131

1- تفسير الفخر الرازي 21/226.

2- تفسير البيضاوي 2/17.

جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، كما أن رضوان الله أكبر من الثواب في نفسه، وصدّر كل نصيحة بقوله: يا أبت، توسلا إليه و استعطافا، وإشعارا بوجوب احترام الأب، وإن كان كافرا (1).

غير أن الخلاف بين أبي الأنبياء وأبيه إنما كان عميق الجذور، فإذا أبو إبراهيم يقابل الدعوة بالاستنكار والتهديد والوعيد، بل ويأمر ولده بالهجرة، ما دام راغبا عن آلهته، حيث لا أمل في اتفاق، ولم يغضب إبراهيم الحليم، ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه «قال: سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله، وأدعوري عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا»، وهكذا يرد الخليل عليه السلام على تهديد أبيه «سلام عليك»، فلا جدال ولا أذى، ولا رد للتهديد والوعيد، سادعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولى الشيطان، بل يرحمك فيرزقك الهدى، وقد عودني ربي أن يكرمني فيجيب دعائي، وإذا كان وجودي إلى جوارك و دعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة، وأدعوري وحده، بسبب دعائي لله، ألا يجعلني شقيا (2).

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبعد أن بنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، في قوله «ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب» (3).

ولم يجد سيدنا إبراهيم من بين القوم من يؤمن به، إلا ابن أخيه لوط، عليه السلام، يقول سبحانه وتعالى: فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى

ص: 132

1- تفسير النسفي 3/36-37.

2- في ظلال القرآن 4/2312.

3- تفسير ابن كثير 3/200.

رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)، و من ثم فقد اعتزل إبراهيم أهله، و ودع والده، ثم هجره لحكمة هي حرصه على أن لا يكون في إقامته مع أبيه معنى الرضا بعصيانه و كفرانه.

و يكتب الله، جل جلاله، لخليله عليه السلام، و كذا لابن أخيه لوط، النجاة من القوم الكافرين، بعد أن أعدوا العدة لإحراقه قالوا حَرِّقُوهُ وَ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَ ارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ، وَ نَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (2).

و ليس في هذه الآيات الكريمة ما يشير إلى هجرة أبي إبراهيم معه، و لو/ آمن أبوه به، ثم هاجر معه، لكان ذلك حدثا هاما جديرا بالتنصيص عيه، تكريما له و لإبراهيم في نفس الوقت، و لم يكن ابن أخيه لوط أقرب إليه من أبيه، حتى ينال وحده شرف الهجرة، و مثوبة التوحيد (3).

بل إن القرآن الكريم ليشير بصراحة و وضوح إلى أن إبراهيم إنما تبرأ من أبيه، بعد ما تبين له أنه عدو لله قال تعالى: وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (4)، هذا فضلا عن أن القرآن الكريم قد أمر المسلمين أن يقتدوا

ص: 133

1- سورة العنكبوت: آية 26.

2- سورة الأنبياء: آية 68-71، و انظر: تفسير البيضاوي 76/2-77، تفسير القرطبي ص 4343-4345، في ظلال القرآن 4/2387-2388، تفسير النسفي 3/83-85، صفوة التفاسير 2/267-269، زاد المسيرة 5/367-369، تفسير ابن كثير 3/294-296.

3- محمود عمارة: اليهود في الكتب المقدسة- القاهرة 1969 ص 12-13.

4- سورة التوبة: آية 114، و انظر: تفسير الطبري 14/511-536، تفسير القرطبي ص 3112-3115، تفسير ابن كثير 2/610-614، تفسير المنار 11/45-49، مسند الإمام أحمد 2/116 (طبعة دار المعارف)، صفوة التفاسير 1/565-566، في ظلال القرآن 3/1721-1722.

بإبراهيم والذين معه، إلا من استغفاره، قال تعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (1).

و حكمة تحريم الاستغفار للمشركين أن الله تعالى لا يغفر الشرك أبداً، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ، ومن ثم فطلب الغفران للمشركين معدوم الفائدة، ويوهم أمرا بالملا، وهو أنه يجوز شرعا أن يغفره، ولما كان هذا الخطر يعارضه استغفار سيدنا إبراهيم لأبيه، وقد كان من الكافرين، وأحكام الأصول لا نسخر فيها، فيشعر استغفاره ذلك بجوازه بيّن الله عذره في ذلك الاستغفار بأنه استغفر لوالده بناء على وعد من الوالد أن يتوب، فلما تبين له أنه عدو لله ولم يتب، تبرأ منه، فليس ما فعله دليلا للجواز، لأنه إنما يكون دليلا إذا استغفر له، وهو يعلم أنه كافر، فالحكم بأن الله لا يغفر الشرك وأن طلبه غير جائز لم يتغير، فلا يجوز طلبه، ولا ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يطلبوه، ولو لأقاربهم (2).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أمرين، يختلف القرآن فيهما عن التوراة، الواحد: أن أبا إبراهيم لم يهاجر أبداً مع النبي الكريم، فضلا عن عدم الإيمان به، والآخر: أن الهجرة إنما كانت «إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين»، وليست هذه الأرض بحال من الأحوال «حاران» (حاران)،

ص: 134

1- سورة الممتحنة: آية 4، وانظر: تفسير الفخر الرازي 300/29-301، تفسير روح المعاني 69/28-73، تفسير الطبري 62/28-63، تفسير الطبرسي 47/28-49، تفسير الزمخشري 90/4، تفسير القاسمي 5765/16-5766، تفسير القرطبي ص 6535، تفسير ابن كثير 4/543-54.

2- محمد حسني: المرجع السابق ص.

كما ذهب إلى ذلك كعب الأخبار، وإنما هي موضع خلاف بين المفسرين، فيما بين مكة وبيت المقدس و مصر (1)، وكلها أماكن حط الخليل رحاله فيها بعد هجرته من حاران، موطنه الأصلي، وليس أور التي في منطقة الفرات الأدنى، و من ثم فقد كانت هجرة الخليل من حاران إلى كنعان، ثم مصر، فكنعان فالحجاز، فكنعان مرة ثالثة، حيث استقر هناك في حبرون (مدينة الخليل الحالية) (2).

(ب) بين إبراهيم و قومه

- لا ريب في أن جدنا الأكبر، سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام، إنما كان عظيماً بكل ما وسعته هذه الكلمة من معان، و لم تكن الشدائد التي وقفت في طريقه، و الأهوال التي اعترضت سبيله، لتقل من غربه أو توهن من عزمه، فلقد كان، عليه السلام، في أرحم موقف حيال من بعث بالحق إليهم، ذلك أن قومه و أهله، و على رأسهم أبوه، كل أولئك قد تقم عليه دعوته و ضاق به صدرا و ضاعف من دقة موقفه إزاء المناوئين، تلك الغلظة التي بدت في لهجة أبيه، و ذلك التهديد الذي قابل به دعوته، و أمره إياه بهجره و إصراره على ما هو فيه من ضلال و عبادة أصنام، كما رأينا من قبل، قد حزت كل هذه الأحداث في نفس إبراهيم، لكنها لم تكن لترجعه القهقري، أو لتدخل على قلبه اليأس، أو لتفقد الأمل في نصر الله تعالى، فصمد كالطود الراسخ، و زاده الإصرار من جانب الكفار، قوة على قوة، و إيماناً مع إيمان، فاعتزل أباه، و اعتز بالله، و مضى في طريقه غير وجل أو هيباب، موطننا النفس على تحمل المكاره، مستنصراً بخالقه و باعته إلى الناس رسولا نبياً (3).

ص: 135

-
- 1- انظر: تفسير القرطبي ص 4345، تفسير البيضاوي 76/2-77، ابن كثير: قصص الأنبياء 1/1-1-2-1 (القاهرة 1968)، تفسير ابن كثير 3/296.
 - 2- انظر: عن موطن الخليل و هجرته (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/61-132).
 - 3- محمد حسني: المرجع السابق ص 48.

و هكذا كانت مواقف إبراهيم مع قومه متعددة، فتارة يحاج والده، و تارة يحاج الجمهور، و تارة يحاج الملك، و تارة يفعل ما يستفزهم إلى محاجته، كتكسير الأصنام ليحاجوه في شأنها، إلى أن أوقدوا النار لتحيقته، فنجاته منها، بعد أن ألقى فيها (1).

و يقص علينا القرآن الكريم، في آيات كريمة من سورة مريم (2)، كيف بدأ إبراهيم الخليل عليه السلام دعوته مع أبيه يهديه بها صراطا مستقيما، كما أشرنا من قبل، و كيف أن أباه قد رفض الدعوة، و هددته إن لم ينته عنها ليرجمته و ليهجرنه مليا، فما كان من أبي الأنبياء- تأدبا مع أبيه و حذبا عليه- إلا أن يدعو له بالمغفرة، و إلا أن ينتظر إجابة دعوته إلى حين.

غير أن الأمور سرعان ما بدأت تتأزم بين الخليل و قومه، حين بذل أبو الأنبياء الجهد، كل الجهد، لصرفهم عن عبادة الأوثان، و الاتجاه إلى عبادة الله، الواحد القهار، إلا أن القوم ظلوا في طغيانهم يعمهون، مما دفع الخليل إلى أن يجرب معهم وسائل حسنة، و من ثم فقد حطم الأصنام و ترك كبيرهم، لعل القوم يفكرون في هذا الموقف الجديد، أملا في أن يهديهم الله سواء السبيل، فيعرفوا أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعا، و لا تمنع عنها ضرا، فضلا عن أن يكون ذلك للقوم أنفسهم، إلا أن هذه العقول المتحجرة، لم تزد على أن تلجأ إلى العنف لنصرة أصنامها، و لم تجد لها مخرجا من الموقف الجديد، إلا أن تلقي إبراهيم في نار، ظنوا أنها ستكون القاضية على الخليل، و أنها الحل السعيد لمشكلتهم، مع هذا الذي سفه عقولهم و حطم أصنامهم، دون أن يفكروا مرة في مقابلة الحجة بالحجة، و دون أن يرجعوا إلى الحق ما دام الحق مع إبراهيم، و تلك- و يم الله- عادة من طمس الله على قلوبهم، و أعمى أبصارهم، في كل زمان و مكان، لا

ص: 136

1- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 81.

2- سورة مريم: آية 41-48.

يعرفون إلا القوة الطاغية ضد العقول المستنيرة، التي تبغي لهم الخير والصلاح.

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة الأنبياء ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين، قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين، قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعيبين، قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين، وتالله لا أكيدن أصد نامكم بعد أن تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون، قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم، قال بل فعله كبيرهم هذا فسد ملوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؛ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون، قالوا حرّفوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (1).

وتقدم لنا الآيات الكريمة كما يقول صاحب الظلال حلقة من سيرة أبي الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه، تبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد، ويعني به الهداية إلى التوحيد، فهذا هو الرشد الأكبر الذي تنصرف إليه لفظة «الرشد» في هذا المقام، ثم تشير إلى محاكاة إبراهيم قومه «إذ قال

ص: 137

1- سورة الأنبياء: آية 51-70، وأنظر: تفسير ابن كثير 3/ 291-29، تفسير القرطبي ص 433-434، في ظلال القرآن 4/ 2382-2388، صفوة التفاسير 2/ 266-268، تفسير النسفي 3/ 81-84 تفسير الخازن 3/ 240-242، تفسير ابن ناصر السعدي 5/ 118-122، تفسير الجلالين ص 425-427.

لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون»، فكانت قولته هذه دليل رشده، فقد سمي تلك الأحجار و الخشب باسمها، فقال «هذه التماثيل»، و لم يقل إنها آلهة و استنكر أن يعكفوا عليها بالعبادة، و كلمة «عاكفون» تعيد الانكباب الدائم المستمر، و هم لا يقضون وقتهم كله في عبادتها، و لكنهم يتعلقون بها، فهو عكوف معنوي لازمني، و هو يسخف هذا التعلق و يبشعه بتصويرهم منكبين أبدا على هذه التماثيل.

و كان جوابهم و حجتهم أن «قالوا إنا وجدنا آباءنا له عابدين»، و هو جواب يدل على التحجر العقلي و النفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، و انطلاق للنظر و التدبر، و تقويم الأشياء و الأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله طلاقة و تحرر من القداسات الوهمية التقليدية، و الوراثة المتحجرة التي لا تقوم على دليل «قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»، و ما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها، و لا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها، فالقيم لا تتبع من تقليد الآباء و تقديسهم، إنما تتبع من التقويم المتحرر الطليق.

و عند ما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة في التقدير، و بهذه الصراحة في الحكم، راحوا يسألون: «قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ»، و هو سؤال المززع العقيدة الذي لا يطمئن إلى ما هو عليه، لأنه لم يتدبره و لم يتحقق منه، و لكنه كذلك معطل الفكر و الروح بتأثير الوهم و التقليد، فهو لا يدري أي الأقوال حق، و العبادة تقوم على اليقين، لا على الوهم المززع الذي لا يستند إلى دليل، و هذا هو التيه الذي يخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة في العقل و الضمير.

فأما خليل الرحمن، صلوات الله و سلامه عليه، فهو مستيقن واثق عارف بربه، متمثل له في خاطره و فكره، يقولها كلمة المؤمن المطمئن

لإيمانه «قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ»، فهو رب واحد، رب السموات والأرضين، ربوبية ناشئة عن كونه الخالق، فهما صفتان لا تتفكان، فهذه هي العقيدة المستقيمة الناصعة، لا كما يعتقد المشركون أن الآلهة أرباب، في الوقت الذي يقرون أنها لا تخلق، وأن الخالق هو الله، ثم هم يعبدون تلك الآلهة التي لا تخلق و هم يعلمون.

ثم يعلن إبراهيم عليه السلام لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار، أنه قد اعترم في شأن آلهتهم أمرا لا رجعة فيه «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصَدَانَاكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ»، ويترك ما اعترفه من الكيد للأصنام مبهما لا يفصح عنه، ولا يذكر السياق كيف ردوا عليه، ولعلمهم كانوا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع لآلهتهم كيدا، فتركوه، «فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ»، وتحولت الآلهة المعبودة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة، إلا كبير الأصنام فقد تركه إبراهيم، لعلمهم يسألونه كيف وقعت الواقعة، وهو حاضر، فلم يدفع عن صغار الآلهة، ولعلمهم حينئذ يراجعون القضية كلها، فيرجعون إلى صوابهم، ويدركون منه ما في عبادة هذه الأصنام من سخف و تهافت.

و عاد القوم ليروا آلهتهم جذاذا، إلا ذلك الكبير، ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه، ولا إلى أنفسهم يسألونها، إن كانت هذه الآلهة فكيف وقع لها ما وقع، دون أن تدافع عن نفسها شيئا، وهذا كبيرهم كيف لم يدفع عنها؟

ذلك لأن الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير، ولأن التقليد قد غلّ أفكارهم عن التأمل والتدبر، فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينقموا على من حط آلهتهم، وصنع بها هذا الصنيع «قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ»، وعندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه و من معه

عبادة التماثيل، و يتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها «قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ».

ويبدو من هذا أن إبراهيم عليه السلام كان شابا صغير السن، حينما آتاه الله رشده، فاستنكر عبادة الأصنام و حطمها، ولكن أكان قد أوحى إليه بالرسالة في ذلك الحين؟ أم هو إلهام هداه إلى الحق قبل الرسالة، فدعا إليه أباه، و استنكر على قومه ما هم فيه؟ وهذا هو الأرجح، فيما يرى صاحب الضلال، و هناك احتمال أن يكون قولهم «سمعنا فتى» يقصد به إلى تصغير شأنه، بدليل تجهيلهم لأمرهم في قولهم «يقال له إبراهيم»، للتقليل من أهميته، وإفادة أنه مجهول لا خطر له؟ قد يكون هذا هو المراد، و هذا ما نميل إليه و نرجحه، و لكن الأستاذ سيد قطب، يرجح أنه كان فتى حديث السن في ذلك الحين.

ثم أرادوا التشهير به، و إعلان فعلته على رءوس الأشهاد «قَالُوا فَأُتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ يَا إِبْرَاهِيمُ»، فهم ما يزالون يصرون على أنها آلهة، و هي جذاذ مهشمة، و من ثم فقد أراد إبراهيم أن يسخر منهم «قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ».

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزا، و ردهم إلى شيء من التدبر و التفكير «فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» و لكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام، و إلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود «ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ»، و من ثم فإن الخليل عليه السلام يجيبهم بعنف و ضيق، على غير عادته و هو الصبور الحليم، لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم «قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ، أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ»، وهي قولة يظهر فيها ضيق الصدر، و غيظ النفس، و العجب من السخف الذي يتجاوز كل مألوف».

و عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم «قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ»، فيا لها من آلهة ينصرها عبادها، وهي لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تحاول لها ولا لعبادها نصرا، و لكن كلمة الله العليا ردت على كلمتهم «حرقوه»، فأبطلت كل قول، و أحبطت كل كيد، لأن كلمة الله العليا لا ترد «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ».

و أما كيف لم تحرق النار إبراهيم؟ و المشهور المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية، فلا نسأل عن ذلك، لأن الذي قال للنار: كوني حارقة، هو الذي قال لها: كوني بردا و سلاما على إبراهيم، و هي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول، مألوف للبشر أو غير مألوف، و عز من قال «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (1).

و من عجب أن يحاول بعض المؤرخين الإسلاميين كما أشرنا في الجزء الأول من هذه السلسلة (2)، أن يقدموا لنا قصصا تدعو إلى العجب في هذه المواقف الجادة، فيرون أن «نمرودا»- و هو الملك المعاصر لإبراهيم فيما يقولون- أمر بجمع الحطب، حتى أن المرأة العجوز كانت تحمل الحطب على ظهرها، و تقول: «اذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا»، و حتى أن المرأة لتتذمر إن بلغت ما تريد أن تحتطب لنار إبراهيم، و أن أمه نظرت إليه في النار، فطلبت أن تجيء إليه فيها، على أن يدعو إبراهيم ربه ألا- يضرها شيء من حر النار، ففعل، و هكذا ذهبت إليه فاعتنقته و قبلته، ثم عادت و قد

ص: 141

1- في ظلال القرآن 4/ 2384-2388.

2- انظر: محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم- الرياض 1980 /1 129-134.

اطمأنت على ولدها (1)، ويتسابق البعض الآخر في رواية الأساطير، فيذهب إلى أنها إنما كانت ابنة نمرود، وليست أم الخليل، هي التي ذهبت إليه في النار، وأن الخليل قد زوجها بعد ذلك من ولده مدين، فحملت منه عشرين بطناً، أكرمهم الله بالنبوة (2).

ولست أدري كيف احتاج نمرود، وهو في رأي هذا النفر من المؤرخين قد ملك الدنيا بأسرها، إلى أن تحمل المرأة العجوز ما لا تطيق، و إلى أن ينتظر نذر النساء بجمع الحطب لناره، و هل كان جمع الحطب يحتاج إلى فترة تمضى بين أن يتحقق للمرأة ما طلبت و بين أن توفي بنذرهما حطبا للنار التي أعدها النمرود لل خليل عليه السلام؟، و أما قصة أم إبراهيم فأمرها عجب، فكيف رأته في النار سليماً معافى، ثم اعتنقته و قبلته، ثم كيف سمح لها القوم- و خاصة زوجها- بأن تذهب إليه؟ أم أن أصحابنا المؤرخين أرادوا أن تذهب خلصة، كما وضعته خلصة (3) فيما يزعمون، و إن كان الأعجب من).

ص: 142

1- تاريخ الطبري 1/ 241، ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/ 98-99 (بيروت 1965)، ابن كثير: البداية و النهاية 1/ 146 (الرياض 1966).

2- الديار بكري: تاريخ الخميس ص 93-95 (القاهرة 1302 هـ).

3- يروى الأخباريون أن أصحاب النجوم قد أخبروا النمرود أن غلاماً يقال له إبراهيم سوف يولد في شهر كذا من سنة كذا من عهده، وأنه سيفارق دين القوم و يحطم أصنامهم، و من ثم فقد أمر النمرود بقتل كل غلام يولد في تلك الفترة، غير أن أم إبراهيم قد أخفت حملها، ثم وضعته سرا في مغارة قريبة من المدينة، و من ثم فقد نجا إبراهيم من القتل، ثم أعلمت زوجها بأن الغلام قد مات على زعم، و أخبرته بالحقيقة على زعم آخر، و على أي حال، و طبقاً للرواية، فقد أخذت تتردد على وليدها يوماً بعد آخر، و أنها كانت تتعجب كثيراً من أنه كان يشب في اليوم ما يشبه غيره في الشهر (انظر: تاريخ الطبري 1/ 234-236) الكامل لابن الأثير 1/ 94-95، المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء 1/ 13، البداية و النهاية لابن كثير 1/ 148، تاريخ الخميس ص 89-91، 114، كتاب البدء و التأريخ للمقدسي 3/ 45-48، المحبر ص 392-394، مروج الذهب 1/ 56، و في الواقع أن مثل هذه الروايات و الأساطير إنما دارت كذلك عن مولد موسى و المسيح عليهما السلام (تاريخ يعقوبي 1/ 33، مروج الذهب 1/ 61، تاريخ الطبري 1/ 386-388، تاريخ ابن كثير 1/ 237-238، متى 1/ 2).

ذلك أن تكون هذه المرأة بالذات هي بنت النمرود، وأن يزوجها أبو الأنبياء من ولده مدين، وأن تنجب له عشرين بطنا من الأنبياء، وأخيرا ما الهدف من هذا القصص وأمثاله، كقصة الميرة، وقصة جيوش الذباب، وقصة أفراس النور (1).

وأيما كان الأمر، فليس هناك إلى سبيل من شك في أن حادث إلقاء إبراهيم في النار ونجاته، إنما كان معجزة للخليل عليه السلام حفظه الله بها، ورد كيد الكافرين في نحورهم، روى المفسرين أن القوم حين ألقوا إبراهيم عليه السلام في النار مقيدا مغولا، قال: حسبي الله ونعم الوكيل، وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد عليه السلام، حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل (2).

وروى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن إبراهيم حين قيده ليلقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد و لك الملك لا شريك لك»، قال: ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع، فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم أ لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل:

فاسأل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فقال الله تعالى، وهو أصدق القائلين «يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ»، قال بعض العلماء:

ص: 143

-
- 1- تاريخ الطبري 1/288-290، تاريخ ابن الأثير 1/115-117، تاريخ ابن كثير 1/149، تاريخ الخميس ص 95-96، المقدسي 3/56، أخبار الزمان للمسعودي ص 104-109، تفسير مقاتل 1/123-124.
- 2- تفسير ابن كثير 3/294.

جعل الله فيها حرا يمنع بردها، و بردا يمنع حرها، فصارت سلاما عليه، قال أبو العالية: ولو لم يقل «بردا و سلاما»، لكان بردها أشد عليه من حرها، و لو لم يقل «على إبراهيم» لكان بردها باقيا على الأبد (1).

وروى عن الإمام علي و ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاما، لمات إبراهيم من بردها، و لم تبق يومئذ نار إلا أطفئت، ظنت أنها تعني، و عن ابن عباس: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها، و المعنى، كما يقول الإمام النسفي، أن الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر و الإحراق، و أبقاها على الإضاءة و الإشراف كما كانت، و هو على كل شيء قدير (2).

وروى الحافظ أبو يعلي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد، و أنا في الأرض واحد أعبدك»، و يروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد و لك الملك لا شريك لك» (3).

و قال سعيد بن جبير - و يروى أيضا عن ابن عباس - قال: لما ألقى إبراهيم، جعل خازن المطر يقول: متى أوامر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع منه، قال الله: يا نازر كوني برداً و سلاماً على إبراهيم، قال: لم يبق نار في الأرض إلا أطفئت، و قال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار، و لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

و قال كعب و قتادة و الزهري: و لم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه، فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم، بقتلها و سماها فويسقة، و روى ابن أبي حاتم عن مولاة الفاكه بن المغيرة

ص: 144

1- تفسير القرطبي ص 4343-4344.

2- تفسير القرطبي ص 4344، تفسير النسفي 3/84.

3- تفسير ابن كثير 3/294، تفسير الدر المنثور 4/323، تفسير القرطبي ص 4343.

المخزومي قالت: دخلت على عائشة، فرأيت في بيتها رمحا، فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح، تقتل به هذه الأوزاع، إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا- تطفئ النار، غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم بقتله».

ص: 145

فشا في الناس أمر الدعوة التي أخذ أبو الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه، ينشرها ويروج لها، وإذا القوم لا حديث لهم غير إبراهيم و دعوته، و أحس الملك أن خاتمته قد دنت، أو على أن زلزالا يهدد عرشه، وقد يقضي عليه بعد حين من الدهر، و من ثم فقد ازداد غضبه، و كاد يطير منه الصواب، فأمر بدعوة إبراهيم، و قامت بينهما مناظرة، ليس أبلغ من القرآن الكريم في عرضها، يقول عز من قال: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (1).

و تحكى الآيات الكريمة حوارا بين إبراهيم عليه الصلاة و السلام، و ملك في أيامه يجادله في الله، لا يذكر السياق باسمه، لأن ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التي تمثلها الآية شيئا، و هذا الحوار يعرض على النبي صلى الله عليه و سلم، و على الجماعة المسلمة في أسلوب التعجيب من هذا المجادل، الذي حاج

ص: 147

1- سورة البقرة: آية 258، و انظر: تفسير الطبري 5/ 429-438، تفسير النسفي 1/ 130، تفسير ابن ناصر السعدي 1/ 153-154، تفسير الحلالين ص 56-57، تفسير القرطبي ص 1091-1096، صفوة التفاسير 1/ 165، تفسير ابن كثير 1/ 468-469، تفسير المنار 11/ 38-40، في ظلال القرآن 1/ 296-298.

إبراهيم في ربه، و كأنما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآني العجيب (1).

و جاء في تفسير المنار: قال الأستاذ الإمام (أي الإمام محمد عبده)- وعزاه إلى المحققين، الكلام متصل بما قبله، و شاهد عليه، كأنه يقول: انظروا إلى إبراهيم كيف كان يهتدي بولاية الله له إلى الحجج القيمة و الخروج من الشبهات التي تعرض عليه، فيظل على نور من ربه، و إلى الذي حازه كيف كان بولاية الطاغوت له، يعمى عن نور الحجة و ينتقل من ظلمات الشبه و الشكوك إلى أخرى، قالوا: الاستفهام في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، للتعجيب من هذه المحاجة و غرور صاحبها و غباوته، مع الإنكار (2).

و يقول صاحب الظلال: إن هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكرا لوجود الله أصلا، إنما كان منكرا لوحدانيته في الألوهية و الربوبية، و لتصريفه للكون و تدبيره لما يجري فيه و حده، كما كان بعض المنحرفين في الجاهلية يعترفون بوجود الله، و لكنهم يجعلون له أندادا ينسبون إليها فاعلية و عملا في حياتهم، و كذلك كان منكرا أن الحاكمية لله و حده، فلا حكم إلا حكمه في شئون الأرض و شريعة المجتمع (3). على أن الأستاذ النجار إنما يذهب إلى أن قصة إبراهيم المحكية في القرآن إنما تشعرا أن هؤلاء القوم إنما كانوا يعبدون ملوكهم مع آلهتهم، يدل على ذلك المحاجة التي كانت بين إبراهيم و بين الملك، فأحب الملك أن يرجع إبراهيم عن نحلته الجديدة المخالفة لنحلة قومه، و أن يعبده و آلهته (4).

ص: 148

1- في ظلال القرآن 1/ 297.

2- تفسير المنار 11/ 39.

3- في ظلال القرآن 1/ 297.

4- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 81.

و على أية حال، فإن هذا الملك المنكر المتعنت، إنما ينكر ويتعنت للسبب الذي كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر، هذا السبب هو «أن آتاه الله الملك»، و جعل في يده السلطان (1)، أو كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده: إن الذي حمّله على هذه المحاجة هو إيتاء الله تعالى الملك له، فكان منشأ إسرافه في غروره، و سبب كبريائه و إعجابه بقدرته (2)، مع أن المفروض أن يشكر و يعترف بنعمة الله عليه، لو لا أن الملك يطغى و يبطر من لا يقدرون نعمة الله، و لا يدركون مصدر الإنعام، و من ثم يصنعون الكفر في موضع الشكر، و يضلون بالسبب الذي كان ينبغي أن يكونوا مهتدين، فهم حاكمون لأن الله حكّمهم، و هو لم يخولهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع من عندهم، فهم كالناس عبيد الله، يتلقون مثلهم الشريعة من الله، و لا يستقلون دونه بحكم و لا تشريع، فهم خلفاء لا أصلاء، و من ثم يعجب الله من أمره، و هو يعرضه على نبيه (3).

هذا و يروي المفسرون في سبب هذه المحاجة روايتين، إحداهما:

أنهم خرجوا إلى عيد لهم، فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها، فلما رجعوا قال لهم: أ تعبدون ما تتحتون، فقال: فمن تعبد، قال: أعبد ربي الذي يحيي و يميت، و قال بعضهم أن نمروذ كان يحتكر الطعام، فكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترونه منه، فإذا دخلوا عليه سجدوا له، فدخل إبراهيم فلم يسجد له، فقال: ما لك لا تسجد لي، قال: أنا لا أسجد إلا لربي، فقال له نمروذ: من ربك، قال إبراهيم: ربي الذي يحيي و يميت، و ذكر زيد بن أسلم أن النمروذ هذا قعد يأمر الناس بالميرة، فكلما جاء قوم يقول: من ربكم و إلهكم، فيقولون أنت، فيقول: ميروهم، و جاء إبراهيم عليه السلام

ص: 149

1- في ظلال القرآن 1/ 297.

2- تفسير المنار 11/ 39، و انظر: تفسير النسفي 1/ 130، صفوة التفاسير 1/ 165، تفسير الطبري 5/ 431.

3- في ظلال القرآن 1/ 7297.

يتمتار فقال له: من ربك وإلهك، فقال: ربي الذي يحيي ويميت، فلما سمعها نمرود قال: أنا أحي وأميت، فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذي كفر، وقال: لا تميروه، فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيء، فمر على كئيب رمل كالدقيق، فقال في نفسه: لو ملأت غرارتي من هذا، فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهم، فذهب بذلك، فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبون فوق الغرارتين، ونام هو من الإعياء، فقالت امرأته: لو صنعت له طعاما يجده حاضرا إذا انتبه، ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الحواري (الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه) فخبزته، فلما قام وضعته بين يديه فقال: من أين هذا؟، فقالت: من الدقيق الذي سقت، فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسر لهم ذلك (1).

وأما وقت هذه المحاجة فهو موضع خلاف، فذهب رأي إلى أن ذلك إنما كان بعد أن كسر إبراهيم الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، و سفه أحلام عابديها (2)، و ذهب رأي آخر إلى أنها كانت بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن إبراهيم اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة (3)، على أنه قد يفهم من رواية ابن الأثير أن ذلك كان قبل تكسيره الأصنام (4).

وأما هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه، فهو، فيما يرى كثير من المفسرين والمؤرخين، «النمرود بن كنعان بن كوش»، والذي كان، فيما يزعمون، واحدا من ملوك أربعة ملكوا الأرض كلها: نمرود وبختنصر

ص: 150

1- تفسير القرطبي ص 1092-1093، وانظر: تفسير الطبري 5/ 433-434، تفسير ابن كثير 1/ 469.

2- تفسير المنار 11/ 39.

3- تفسير ابن كثير 1/ 469.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/ 96.

(نبوخذ نصر) و هما كافران، و سليمان بن داود و ذي القرنين، و هما مؤمنان، كما كان نمرود هذا أول جبار تجبر في الأرض، و أول ملك في الأرض، و هو كذلك صاحب الصرح في بابل، و أول من صلب و أول من قطع الأيدي و الأرجل، إلى غير ذلك من صفات أسبغت عليه، و لا يعلم إلا الله سبحانه و تعالى، من أين أتى بها مؤرخونا، و كثير منهم ممن يعتد بهم، و لهم مكانة عالية في التاريخ، فضلا عن التفسير (1).

و الواقع أن تلك الأسطورة التي تتردد في المصادر العربية عن الملوك الأربعة الذين حكموا الدنيا بأسرها (2) تتفق و الحقائق التاريخية المتعارف عليها، بحال من الأحوال، فأول هؤلاء الملوك، و هو نمرود، و الذي يهمننا هنا، قد لا يعلم أصحاب هذه الأسطورة أن التاريخ البابلي لا يعرف ملكا بهذا الاسم، حتى الآن على الأقل، و لست أدري من أين جاء به أصحابنا المؤرخون الإسلاميون، و أكبر الظن أنهم أخذوه من مسلمة أهل الكتاب، حيث جاء في توراة يهود «و كوش ولد نمرود الذي ابتداء يكون جبارا في الأرض ... و كان ابتداء مملكته بابل و أرك و أكد و كأنه في أرض شنعار» (3)، على أن التاريخ يعرف بلدا باسم «نمرود»، على مجرى الزاب الأعلى، و قد كانت عاصمة لامبراطورية الآشورية على أيام الملك «سرجون الثاني» (722-705 ق. م)، و هي نفسها مدينة «كالح» في التوراة (4)، و التي أسسها «آشور بانيبال الثاني» عام 883 ق. م، و تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة، و على مبعدة 22 ميلا جنوب الموصل الحالية، و هكذا خلط كاتب سفر التكوين من التوراة بين الملك و المدينة،

ص: 151

-
- 1- انظر: تفسير الطبري 5/ 431-433، تفسير القرطبي ص 1092، تفسير ابن كثير 1/ 468، تاريخ الطبري 1/ 233-234، تاريخ ابن الأثير 1/ 94، أبو الفداء 1/ 13، المقدسي 3/ 45-48، تاريخ الخميس ص 89-91، مروج الذهب 1/ 56، المحبر ص 392-394، ابن كثير: البداية و النهاية 1/ 148.
 - 2- تكوين 8/ 10-10.
 - 3- تكوين 8/ 10-10.
 - 4- تكوين 10/ 711.

ثم جاء مؤرخونا ونقلوا ما في التوراة، و كأنه التاريخ الذي يرقى فوق كل هواتف الريبة و الشك، و هو غير ذلك بكل مقاييس منهج البحث التاريخي و الديني.

هذا فضلا عن مؤرخينا أنفسهم هم الذين يزعمون أن النمرود إنما كان من الأنباط، الذين لم يستقلوا بشبر واحد من الأرض، و من ثم فإن النمرود إنما كان عاملا للضحك، و هو فارسي، على السواد و ما اتصل به يمنة و يسرة (1)، و ليت هؤلاء الذين كتبوا ذلك كانوا يعرفون أن الأنباط لم يكونوا في العراق، و إنما في شمال غرب الجزيرة العربية، و أن عاصمتهم إنما كانت «البتراء»، و أنهم أقاموا دولة مستقلة، فيما بين القرنين الثاني قبل الميلاد، و أوائل الثاني بعد الميلاد، حيث استولى الرومان على البتراء عام 106 م، على أيام «تراجان (98-117 م)، و من ثم فالفرق الزمني بين عهد الخليل عليه السلام و بين عهد الأنباط، جهد كبير (2).

و أما أن نمرود هذا إنما كان أول من تجبر في الأرض، فليس هناك من دليل يؤكد، أو حتى يعضده، و الأمر كذلك إلى بنائه لصرح بابل، بل إن هذا الصرح نفسه في حاجة إلى دليل يؤيد وجوده، و أما أنه أول من ملك في الأرض، فمن المعروف تاريخيا أن مصر إنما كانت أول «أمة» في التاريخ نمت فيها عناصر الأمة بمعناها الكامل الصحيح، و بعدها كانت أول «دولة» بالمعنى السياسي المنظم، نجحت في أن تؤسس أول ملكية عرفتها البشرية على طوال تاريخها و بالتالي فإن الملك «مينا» (نعرمر - عحا) مؤسس الأسرة المصرية الأولى، إنما كان أول ملك في التاريخ، و أن ذلك كان حوالى عام

ص: 152

1- انظر عن دولة الأنباط (محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم - الرياض 1980 ص 493-523 - طبعة ثانية).

2- تاريخ الطبري 1/291-192، الكامل لابن الأثير 1/116-117، تفسير القرطبي ص 1092.

3200 قبل الميلاد، وقبل عهد إبراهيم عليه السلام (1765-1940 ق. م) والذي شرفت مصر بزيارته لها على أيام الملك «سنوسرت الثالث (1843-1878 ق. م) من ملوك الأسرة الثانية عشرة (1786-1991 ق. م)، بأكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان (1).

و أما أنه أول من صلب وقطع الأيدي والأرجل، فيعارضه إن ذلك إنما كان فرعون موسى، كما جاء في القرآن الكريم عن فرعون موسى (2)، وكما جاء في تفسير النسفي (3)، هذا إلى وجود تاريخي يصور وسائل التعذيب هذه في زمان فرعون موسى، وقد ورد النص في معبد عمدا، ويرجع إلى السنة الرابعة من عهد الفرعون «مرنبتاح» (1214-1224 ق. م) وهو الفرعون الذي شاع في الناس أنه فرعون الخروج (4)، وهذا ما نميل إليه من دراساتنا عن فرعون موسى (5).

وعلى أية حال، فإن بعض المفسرين إنما يذهبون إلى أن الناس كانوا يمتارون من عند هذا الذي آتاه الله الملك، الطعام، فخرج إبراهيم يمتار مع من يمتار، فإذا مرّ به ناس قال (أي الملك): من ربكم، قالوا أنت، حتى مرّ إبراهيم، قال من ربك، قال: الذي يحيي ويميت (6)، أو كأنه كان قد سأله عن ربه الذي يدعو إلى عبادته، وقد كسر الأصنام التي تعبد من دونه و سفه

ص: 153

-
- 1- انظر (محمد بيومي مهران: مصر- الكتاب الأول- الإسكندرية 1988 ص 241-272- طبعة رابعة، إسرائيل- الكتاب الأول- الإسكندرية 1978 ص 72-82، 91-104).
 - 2- انظر: سورة الأعراف: آية 123-126، طه: آية 71-76.
 - 3- تفسير النسفي 70/2.
 - 4- أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة- القاهرة 1973 ص 110، وكذا: EASA, mIIIIV L, 1964 .P, F 273 .A, adamA ta txeT raey htruof 'hatpnereM, fessuoY .A
 - 5- محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 351-439.
 - 6- تفسير الطبري 5/ 433.

أحلام عابديها لأجله، فأجاب بهذا الجواب، فأنكره الملك الطاغية الذي حكي عنه ادعاء الألوهية لنفسه، وقال «أَنَا أَحْيِي وَ أَمِيتُ»، أحي من أحكم عليه بالإعدام بالعفو عنه، وأميت من شئت إمامته بالأمر بقتله، فدل جوابه هذا على أنه لم يفهم قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم (1)، ذلك لأن إبراهيم عليه السلام وهو رسول موهوب موهبة ربانية إنما يعني من الأحياء و الاماتة الانشاء، إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء، فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه، ولكن الذي حاج إبراهيم في ربه، رأى في كونه حاكما لقومه، وقادرا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة و الموت مظهرا من مظاهر الربوبية، فقال لإبراهيم: أنا سيد هؤلاء القوم، وأنا المتصرف فيهم وفي شئونهم، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له و تسلم بحاكميته (2).

وقال قتادة و ابن إسحاق و السدى و غير واحد: و ذلك أنه أوتي بالرجلين قد استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما، فيقتل، و أمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء و الإماتة، و الظاهر و الله أعلم، أنه ما أراد هذا، لأنه ليس جوابا لما قال إبراهيم، و لا في معناه، لأنه غير مانع لوجود الصانع، و إنما أراد أن يعي لنفسه هذا المقام، عنادا و مكابرة و يوهم أنه الفاعل لذلك، و أنه هو الذي يحيي و يميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: «ما عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي»، و لهذا قال إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة:

«فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» (3).

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده: لم يقل «فقال إني أحي و أميت»، لأن جوابه مقطوع عن الدليل لا يتصل به بالمرة، فإنه أراد أن يكون سببا للإحياء و الإماتة، و الكلام في الإنشاء و التكوين، لا في اتخاذ الأسباب و التوسل في

ص: 154

1- تفسير المنار 39 / 11.

2- في ظلال القرآن 298 / 1.

3- تفسير ابن كثير 468 / 1.

الشيء المكون، فالمراد بالذي يحيي ويميت الذي ينشئ الحياة في جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها، ويزيل الحياة بالموت، وعبر «الذي» الدال على المعهود المعروف صلته دون «من» التي فيها الإبهام، وبالمضارع الدال على التجدد والاستمرار، الإفادة أن هذا شأنه دائما، كما هو معهود معروف لمن نظر في الأكوان نظر المفكر المستدل، ولما رأى إبراهيم أنه لم يفهم أن مراده بالذي يحيي ويميت مصدر التكوين الذي يحيا كل حيِّ بإحيائه، ويموت بقطع إمداده بالحياة «قال إبراهيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ»، فهذا إيضاح لقوله الأول، وإزالة لشبهة الخصم، لأنه جواب آخر، كما فهم الجلال وغيره، والمعنى إن ربي الذي يعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته، هو الذي يطلع الشمس من المشرق، أي هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نشاهدها عليها، فإن كنت تفعل كما يفعل، فغيّر لنا نظام طلوع الشمس، واثت بها من الجهة المقابلة للجهة التي جرت سنته تعالى بظهورها منها (1).

وهذا، كما يقول الإمام النسفي، ليس بانتقال من حجة إلى حجة، كما زعم البعض، لأن الحجة الأولى كانت لازمة، ولكن لما عاند اللعين حجة الإحياء، بتخلية واحد وقتل الآخر، كلمة من وجه لا يعاند، وكانوا أهل تنجيم، وحركة الكواكب من المغرب إلى المشرق معلومة لهم، والحركة الشرقية المحسوسة لنا قسرية، كتتحريك الماء النمل على الرحي، إلى غير جهة حركة النمل، فقال إن ربي يحرك الشمس قسرا على غير حركتها، فإن كنت ربا فحركها بحركتها، فهو أهون (2)، «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ»، ذلك لأن التحدي قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم أو الجدال أو المراء، وكان التسليم أولى والإيمان أجدر، ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق

ص: 155

1- تفسير المنار 39/11، وانظر: تفسير الجلالين ص 57.

2- تفسير النسفي 130/1.

يمسك بالذي كفر، فيبتهت و يبلس و يتحير، و لا يهديه الله إلى الحق، لأنه لم يلتمس الهداية، و لم يرغب في الحق، و لم يلتزم القصد و العدل «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (1).

و هذا التنزيل على هذا المعنى، كما يقول الإمام ابن كثير، أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين، أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني، انتقال من دليل إلى أوضح منه، و منهم من قد يطلق عبارة ترديه، و ليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، و يبين بطلان ما ادعاه نمرود في الأول و الثاني (2).

و انطلاقاً من كل هذا، فلا محل للشبهة التي يوردها بعض الناس على حجة إبراهيم عليه السلام، و هي أنه كان للنمرود أن يقول له: إذا كان ربك هو الذي يأتي بالشمس من المشرق، و هو قادر على ما طالبتني به من الاتيان بها من المغرب، فليأت بها يوماً ما، قال بعض المقلدين: و لا- يمكن أن يسأل إبراهيم ربه ذلك، لأن فيه خراب العالم، و قال بعض المرتابين: إنه لو قال له نمرود ذلك لألزمه، و قد فهم نمرود، على طغيانه و غروره، من الحجة ما لا يفهم هؤلاء القائلون، فهم أن مراد إبراهيم أن هذا النظام في سير الشمس لا بد له من فاعل حكيم، إذ لا يكون مثله بالمصادفة و الاتفاق، و إن ربي الذي أعبده هو ذلك الفاعل الحكيم الذي قضت حكمته بأن تكون الشمس على ما نرى، و من فهم هذا لا يمكن أن يقول: اطلب من هذا الحكيم أن يرجع عن حكمته و يبطل سنته، كذلك لا محل لقول بعضهم لم سكت إبراهيم عن كشف شبهته الأولى، إذ زعم أن ترك القتل إحياء، فقد علمت أن مسألة الشمس قد كشفت ذلك انكشافاً لا يخفى إلا على من تخفى عليه الشمس (3).

ص: 156

1- في ظلال القرآن 1 / 298.

2- تفسير ابن كثير 1 / 469.

3- تفسير المنار 11 / 40.

كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام محبا لربه، خالق الناس جميعا، غاية الحب، محبا للتحدث بما لهذا الرب من قوة، دونها كل قوة، و بما يقدر عليه هذا الرب العظيم، بما لا يقدر عليه مخلوق في الوجود، محبا لإظهار ما خفى من أسرار تلك الوجدانية التي برأت النسم، و خلقت الدنيا من العدم، و تقول للشئ ء كن فيكون، و بهذا الشوق إلى اجتلاء أسرار القدرة الإلهية، و التحدث بما لله من عظمة و قوة، سأل إبراهيم ربه «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى .

قال تعالى: وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى وَ لَكِن لِيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخَذَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنَ الطَّيْرِ فَصَدَّرَهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (1).

يقول الأستاذ الباقوري، طيب الله ثراه، «أول ما ينبغي أن يبدأ به

ص: 157

1- سورة البقرة: آية 260، و انظر: تفسير الطبري 5/ 485-512، في ظلال القرآن 1/ 297-298، صفوة التفاسير 1/ 166-167، تفسير ابن ناصر السعدي 1/ 156، تفسير الجلالين ص 57-58، تفسير القرطبي ص 1105-1110، تفسير ابن كثير 1/ 471-472، تفسير البحر المحيط 2/ 293-295، تفسير المنار 3/ 44-49، علي بن أحمد الواحدي: أسباب النزول- القاهرة 1968 ص 53-55، تفسير النسفي 1/ 132-133.

الحديث حول هذه الآية الكريمة، هو أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، كان بغير شك مؤمنا بقدرة الله على إحياء الموتى، إيماناً لا يرقى إلى سمائه غبار الشكوك والأوهام، وقد أراد بسؤاله هذا أمراً يزيد إيمانه، ويضاعف يقينه، فأعطاه الله تبارك وتعالى مثلاً من الحسن، تتضح به سورة إحياء الموتى، والمعاني المجردة حين توضع في صور تدركها الحواس، تكون أبيض و أتم وضوحاً.

و الذين يتأملون كتاب الله يرونه في مجال إقامة الحجة، يضع المعاني المجردة في صورة حسية يزداد بها إيمان المؤمن و تتضح بها لغير المؤمن سبل الإيمان، و هذه الصور الحسية منبثة في القرآن الكريم انبثا، لا يستعصى على رائديه فمن ذلك قول الله عز و جل في سورة الرعد له دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ، إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَ مَا هُوَ بِبَالِغِهِ، فالمعنى المجرد الذي أشارت إليه هذه الآية هو أن الذين اتخذهم الكافرون أولياء من دون الله يفزعون إليهم، لا يقدرّون على جلب النفع لهم، و لا دفع الضرر عنهم، و الصورة الحسية لهذه الصورة المعنوية هي أن هؤلاء الكفار في دعائهم آلهتهم هذه، مثلهم كمثل من يبسط كفيه إلى الماء و يريد أن يبلغ فاه، و الماء لا يشعر بمن يبسط إليه كفه طلباً للري، و لا يقدر أن يجيب دعاءه فيبلغ فاه، ذلك هو الفرق بين المعنى يذكر مجرداً، و المعنى يذكر في صورة تدركها الحواس.

فإبراهيم عليه السلام كان يطلب صورة حسية تنطوي على المعنى المجرد للإيمان بقدرة الله على إحياء الموتى، و قد أعطاه الله تعالى هذه الصورة، لا- لتغرس الإيمان في نفسه، فإن إيمانه موجود لا شك فيه، و لكن لتزيده قوة و استمساكاً، من حيث كانت الصورة الحسية في مجتلى الأعين، تظاهر الصورة المعنوية في أعماق النفوس، و من أجل هذا أجاب الله تعالى إبراهيم على دعائه قائلاً: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ فقال عليه السلام: بلى، يعني

آمنت، ولكنني أطلب ذلك ليطمئن قلبي، يعني ليزيد سكوننا وطمأنينة بمظاهرة المحسوس للمعقول، ففضل الله عليه بإعطائه الدليل القائم على الحس والعيان، لمظاهرة الدليل القائم على الحججة والبرهان (1).

ويقول صاحب الظلال: إنه التشوف إلى ملامسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل، فإنه يكشف عما يختلج أحيانا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين، إنه تشوف لا- يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلبا للبرهان أو تقوية الإيمان، إنما هو أمر الشوق الروحي إلى ملامسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي، ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب، ولو كان إيمان إبراهيم الخليل، الذي يقول لربه، ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان، ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملامسة فيتروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان (2).

هذا وقد اختلف المفسرون في السبب المباشر لتوجيه الخليل هذا السؤال لربه سبحانه وتعالى، فذهب فريق إلى أن إبراهيم عليه السلام مر على دابة مبيتة قد توزعتها دواب البر والبحر، قال: «رب أرني كيف تحيي الموتى»، وقال الحسن وعطاء الخرساني والضحاك، فيما يروي الواحد عن سعيد عن قتادة، وابن جريج: كانت جيفة حمار بساحل البحر (بحيرة طبرية في رواية عطاء) قالوا: فراها قد توزعتها دواب البر والبحر، فكان إذا مدّ البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها، فما وقع منها يقع في

ص: 159

1- أحمد حسن الباقوري: مع القرآن- القاهرة 1970 ص 197-198.

2- في ظلال القرآن 1/ 301-302.

الماء، وإذا جذر البحر جاءت السباع فأكلت منها فما وقع منها يصير ترابا، فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها، فما سقط قطعه الريح في الهواء، فلما رأى ذلك إبراهيم تعجب منها وقال: يا رب قد علمت لتجمعنها، فأرني كيف تحييها لأعين ذلك.

وقال ابن زيد: مرّ إبراهيم بحوت ميت، نصفه في البر، ونصفه في البحر، فما كان في البحر فدواب البحر تأكله، وما كان منه في البر فدواب البر تأكله، فقال له إبليس الخبيث: متى يجمع الله هذه الأجزاء من بطون هؤلاء، فقال: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، بذهاب وسوسة إبليس منه (1).

وقد أراد الخليل عليه السلام أن يصير له علم اليقين عين اليقين، لأن الخير ليس كالمعاينة فتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه ربه، ولم يكن إبراهيم عليه السلام، ولن يكون، شاكاً في قدرة الله تعالى على أحياء الموتى، ولكنه أحب أن يصير له الخبر عياناً، قال الأخفش: لم يرد رؤية القلب ولكن أراد رؤية العين، وقال الحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبيرة والربيع: سأل ليزداد يقينا على يقينه (2).

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن مسألة إبراهيم ربه ذلك المناظرة والمحاكاة التي جرت بينه وبين النمرود في ذلك، قال محمد بن إسحاق بن يسار: إن إبراهيم لما احتج على نمرود فقال: ربي الذي يحيي ويميت، وقال النمرود: أنا أحيي وأميت، ثم قتل رجلاً وأطلق رجلاً، قال: قد أمت هذا، وأحييت هذا، قال له إبراهيم: فإن الله يحيي بأن يرد الروح إلى جسد ميت، فقال له نمرود: هل عاينت هذا الذي تقوله، ولم يقدر أن يقول

ص: 160

1- علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول ص 53-54.

2- تفسير القرطبي ص 1106، وانظر: تفسير الطبري 5/485-486.

نعم رأيت، فتنقل إلى حجة أخرى، ثم سأل ربه أن يريه إحياء الميت لكي يطمئن قلبه عند الاحتجاج، فإنه يكون مخبرا عن مشاهدة وعيان (1).

وذهب فريق ثالث إلى أن ذلك إنما كان عند البشارة التي أتته من الله بأنه اتخذ خليلا، فسأل ربه أن يريه عاجلا من العلاقة على ذلك، ليطمئن قلبه بأنه قد اصطفاه لنفسه خليلا، ويكون ذلك لما عنده من اليقين مؤيدا (2)، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي: لما اتخذ الله إبراهيم خليلا، استأذن ملك الموت ربه أن يأتي إبراهيم فيشره بذلك، فأثاه فقال: جئتك أبشرك بأن الله تعالى اتخذك خليلا، فحمد الله عز وجل وقال: ما علاقة ذلك، قال: أن يحيب الله دعاءك، و تحيي الموتى بسؤالك، ثم انطلق و ذهب، فقال إبراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أو لم تؤمن، قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي بعلمي إنك تجييني إذا دعوتك، و تعطيني إذا سألتك، إنك اتخذتني خليلا (3).

على أن هناك وجها رابعا للنظر يذهب إلى أن الخليل عليه السلام قال ذلك لربه، لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى، قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر بن أيوب في قوله: «و لكن ليطمئن قلبي»، قال قال ابن عباس:

ما في القرآن آية أرجى عندي منها (4).

وروى ابن أبي حاتم عن ابن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو: أي آية في القرآن أرجى عندك، فقال عبد الله بن عمرو «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا

ص: 161

1- تفسير الطبري 486/5، الواحدي: المرجع السابق ص 54.

2- تفسير الطبري 487/5.

3- الواحدي: المرجع السابق ص 55، تفسير الطبري 487/5-488، تفسير القرطبي ص 1108.

4- تفسير الطبري 489/5-490، تفسير الدر المنثور 1/335.

عَلَى أَنْفُسِهِمْ» حتى ختم الآية، فقال ابن عباس: لكني أقول قول الله عز وجل: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى فَرَضِي مِنْ إِبْرَاهِيمَ قَوْلَهُ «بلى»، قال فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان، وهكذا رواه الحاكم في المستدرک (1).

وقال أبو جعفر في التفسير: وأولى الأقوال عندي بتأويل الآية، ما صح به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، قال:

رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ»، وأن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه، ذلك أن إبراهيم لما رأى الحوت الذي بعضه في البر وبعضه في البحر، قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء، ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء، فسأل إبراهيم ربه حينئذ أن يريه كيف يحيي الموتى ليعاين ذلك عيانا، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي القى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك، فقال له ربه: أ ولم تؤمن؟.

يقول: أولم تصدق يا إبراهيم بأني على ذلك قادر، قال بلى يا رب، لكن سألتك أن تريني ذلك ليطمئن قلبي، فلا يقدر الشيطان أن يلقي في قلبي مثل الذي فعل عند رؤيتي هذا الحوت (2).

و الحديث الشريف الذي ذكره الطبري في تفسيره، ورد في صحيح البخاري بسنده عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد، عن أبي هريرة، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن أحق بالشك في إبراهيم، إذ قال رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى وَ لَكِنَّ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي» (3)، وكذا رواه مسلم في صحيحه بسنده عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن

ص: 162

1- تفسير ابن كثير 1/ 471-482، المستدرک للحاكم 1/ 60.

2- تفسير الطبري 5/ 491-492.

3- صحيح البخاري 6/ 39، فتح الباري 6/ 293-394، 8/ 150-151.

وسعيد المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد و لولبت في السجن طول لبت يوسف لأجبت الداعي» (1).

فالحديث صحيح إذن، ما في ذلك من ريب، ولكن تفسيره بشك إبراهيم في قدرة الله على إحياء الموتى تفسير خاطئ فاسد، ما في ذلك من ريب أيضا، ولعل من أحسن وأصح ما نقل المزملي وغيره من قول النبي صلى الله عليه وسلم، إن الشك مستحيل في حق إبراهيم إذ الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقا إلى الأنبياء، لكنت أنا أحق به من إبراهيم، ولقد علمتم أنني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم لم يشك، وإنما خص إبراهيم بالذكر لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة أن القصد منها احتمال الشك، فنفي ذلك عنه.

وقال الخطابي: ليس في قوله صلى الله عليه وسلم: نحن أحق بالشك من إبراهيم، اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم، لكن فيه نفى الشك عنهما، ومعناه: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، فأبراهيم أولى بأن لا يشك، وقد قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل التواضع، وكذلك قوله: لولبت في السجن ما لبت يوسف لأجبت الداعي، وفيه الإعلام بأن المسألة من إبراهيم لم تعرض من جهة الشك، لكن من قبيل زيادة العلم بالعيان، والعيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال (2).

وقال ابن عطية: وما ترجم به الطبري عندي مرود (يعني شك إبراهيم في قدرة الله على إحياء الموتى)، وما أدخل تحت الترجمة متأول، فأما قول

ص: 163

1- صحيح مسلم 122/15-123 (دار الكتب العلمية- بيروت 1981).

2- محمد حسن عبد الحميد: المرجع السابق ص 45-46.

ابن عباس «هي أرجى آية»، فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى، وسؤال الأحياء في الدنيا، وليست فطنة ذلك، ويجوز أن يقول: هي أرجى آية لقوله «أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ» أي أن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقيح وبحث، وأما قول عطاء بن أبي رباح «دخل قلب إبراهيم ما يدخل قلوب الناس» فمعناه من حيث المعاينة على ما تقدم، وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، بمعناه أنه لو كان شاكا لكننا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام، أخرى ألا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم، والذي روى فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ذلك محض الإيمان» إنما هو في خواطر التي لا تثبت، وأما الشك فهة توقف بين أمرين، لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام، وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به، يدلك على ذلك قوله: «رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ»، فالشك يبعد على من تثبت قدمه من الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلة، والأنبياء معصومون من الكبائر، ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعا.

وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود، متقرر الوجود عند السائل والمسئول، نحو قولك «كيف علم زيد» ونحو ذلك، ومتى قلت:

كيف زيد، وإنما السؤال عن حال من أحواله وقد تكون «كيف» خبراً عن شيء، شأنه أن يستفهم عنه بكيف، نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء الوحي، و«كيف» من هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح، مثال ذلك أن يقول مدع:

أنا أرفع هذا الجبل، فيقول المكذب له: أرني كيف ترفعه، فهذه طريقة

مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأن يقول: افرض أنك ترفعه، فارني كيف ترفعه، فلما كانت عبارة الخليل عليه السلام بهذا الاشتراك المجازي، خلص الله له ذلك، وحملة على أن يبين له الحقيقة فقال له:

«أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى، فكمّل الأمر وتخلص من كل شك، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة.

ويقول الإمام القرطبي: هذا ما ذكره ابن عطية، وهو بالغ، ولا يجوز على الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، مثل هذا الشك، فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث، وقد أخبر الله أن أنبياءه وأوليائه ليس للشيطان عليهم سبيل، فقال تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، وقد اللعين: إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ وإذا لم يكن له عليهم سلطنة، فكيف يشككهم؟ وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين، فيقول: أرني كيف، طلب مشاهدة كيفية (1).

ويقول صاحب تفسير المنار: فهم بعض الناس من سؤال إبراهيم عليه السلام أنه كان قلقا مضطربا في اعتقاده بالبعث وذلك شك فيه، و ما أبلد أذهانهم وأبعد أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد في الصحيحين «نحن أولى بالشك من إبراهيم»، أي أننا نقطع بعدم شكه، كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعا نعم ليس في الكلام ما يشعر بالشك، فإنه ما من أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيمانا يقينا، وهو لا يعرف كيفيتها، ويودّ لو يعرفها... ذلك لأن طلب المزيد من العلم، والرغبة في إسكانه الحقائق، والتشوق إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان، وأكمل الناس علما وفهما أشدهم للعلم طلبا، وللوقوف على المجهولات تشوفا، ولن يصل أحد

ص: 165

من الخلق إلى الإحاطة بكل شيء علماء، وقتل كل موجود فقها وفهما، وقد كان طلب الخليل عليه الصلاة والسلام رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه من هذا القبيل، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية، لا طلب للطمأنينة في أصل عقد الإيمان بالبعث الذي عرفه بالوحي والبرهان، دون المشاهدة والعيان (1).

وفي صفوة التفاسير: سؤال الخليل ربه بقوله «كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، ليس عن شك في قدرة الله، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ويدل عليه وروده بصيغة «كيف»، وموضوعها السؤال عن الحال، ويؤيد المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» ومعناه: ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أخرى وأولى (2).

وهكذا كان إبراهيم عليه السلام، كما يقول صاحب الظلال، ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل، واطمئنان التذوق للسر المحجب، وهو يجلي ويتكشف، ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليه، ولكنه سؤال الكشف والبيان، والتعريف بهذا الشوق وإعلانه، والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم، مع عبده الأواه الحليم المنيب، ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة قال فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وهكذا أمر الله إبراهيم أن يختار أربعة من الطير، فيقربهن منه ويميلهن إليه، حتى يتأكد من شياتهن ومميزاتهن التي لا يخطئ معها معرفتهن، وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة، ثم يدعوهن فتتجمع أجزاءهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعات، وقد كان طبعاً.

ص: 166

1- تفسير المنار 46/11.

2- صفوة التفاسير 167/1.

ورأى إبراهيم السر الإلهي يقع بين يديه، طيوراً فارقتها الحياة، وتفرقت مزقتها من أماكن متباعدة، تدب فيها الحياة مرة أخرى، وتعود إليه سعياً، وأما كيف؟ فهذا هو السر الذي يعلو على التكوين البشري إدراكه، إنه قد يراه كما رآه إبراهيم، وقد يصدق به، كما يصدق به كل مؤمن، ولكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته، إنه من أمر الله، والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو لم يشأ أن يحيطوا بهذا الطرف من علمه، لأنه أكبر منهم، وطبيعته غير طبيعتهم، ولا حاجة لهم به في خلافتهم، إنه الشأن الخاص للخالق الذي لا تتناول إليه أعناق المخلوقين، فإذا تطاولت لم تجد إلا الستر المسدل على السر المحجوب، وضاعت الجهود سدى، جهود من لا يترك السر المحجوب لعلام الغيوب (1).

ويقول الإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب: أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهم، وعلى أن إبراهيم قطع أجزاءها، وروى أنه عليه السلام أمر بذبحها و تنف ريشها، و تقطيعها جزءاً جزءاً، و خلط دماؤها و لحومها، و أن يمسك رءوسها، ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربعاً من كل طائر ثم يصيح بها «تعالين ياذن الله»، قال الراوي: فأخذ كل جزء يطير إلى الآخر حتى تكاملت الجثث، ثم أقبلت كل جثة إلى رأسها، وانضم كل رأس إلى جثته، و صار الكل أحياء ياذن الله تعالى.

هذا ويقول صاحب مفاتيح الغيب أن الاجماع قد انعقد على ما قاله، ولكن الأستاذ الباقوري يقول: إنه لن يستطيع منصف أن يقبل القول بالاجماع على هذه الصورة، ولا هو يستطيع أن يتصور إجماعاً بغير أن يكون فيه مثل أبي مسلم الأصفهاني، فكيف وأبو مسلم ينكر هذا الذي قيل،

ص: 167

فيقول: إن إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالا قرب به الأمر عليه، وعلينا أن نفهم من الكلمة القرآنية فَصْرُهُنَّ إِلَيْكَ (1) الإمالة والتمرين على الإجابة، يعني جل ثناؤه: خذ أربعة من الطير فمرنها تمرينا تعتاد به إن أنت دعوتها أن تأتيك، فإذا صارت كذلك وعتادته وقلت التمرين، فاجعل على كل جبل من هذه الطيور الأربعة واحدا حال حياته، ثم ادع الجميع يأتينك سعيا.

وقال أبو مسلم: والغرض ذكر مثال محسوس من عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة، وأنكر أبو مسلم أن يكون المراد من كلمة «صرهن»: قطعهن، ومضى يحتج لرأيه هذا بوجوه: أولها: أن كلمة «صر» معناها في اللغة: الإمالة، وأما التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدل عليه، فكان إدراجه في الآية إلحاقا وزيادة بغير دليل، وهذا لا يجوز.

وثاني الوجوه: أنه لو كان المراد بكلمة صرهن قطعهن، لم يقل إليك، فإن الكلمة حينئذ لا تتعدى بحرف إلى، وإنما يتعدى الفعل بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة، فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: فخذ إليك أربعة من الطير فصرهن يعني فقطعهن، قلنا لهذا القائل: إن التزام التقديم والتأخير من غير دليل ملجئ إلى ذلك التزام بغير ملزم، وهو خلاف الظاهر.

وثالث الوجوه: أن الضمير في كلمة «ثم ادعهن» عائد إلى الأربعة من الطير، لا إلى الأجزاء، وإن كانت الأجزاء متفرقة متفاصلة، وكان الموضوع (1) انظر عن معنى «فصرهن إليك» تفسير الطبري 5/ 595-505، معاني القرآن للفراء 1/ 174، مجاز القرآن لأبي عبيدة 1/ 81، تفسير القرطبي ص 1109-1110، تفسير الجلالين ص 58، تفسير ابن ناصر السعدي 1/ 156، تفسير النسفي 1/ 132، تفسير ابن كثير 1/ 471، صفوة التفاسير 1/ 166، أبو بكر السجستاني: غريب القرآن ص 41 (القاهرة 1980).

على كل جبل بعض تلك تلك الأجزاء، لا إليها، و هو خلاف الظاهر، و أيضا الضمير في كلمة «يأتينك سعيًا» عائد إليها، لا إلى الأجزاء.

و يرى الأستاذ الباقوري أن رأي أبي مسلم أدنى إلى القبول بأيسر كلفة، من حيث كان غير محوج إلى تقدير محذوف لفهم الآية، ثم من حيث كانت اللغة نصيرا له أي نصير، فإن هذه المادة تعطي معنى الميل، كما تقول: إني إليكم لأصول، أي مشتاق مانل، ثم يرى أن معنى قوله سبحانه «فَصُرُّهُنَّ إِلَيْكَ» أملهن إليك و وجهن نحوك، كما يقال: صر وجهك إلي، أي أقبل به علي (1).

على أن الفائلين بالقول المشهور (أي الذبح و ليس الإمالة) قد احتجوا على رأي أبي مسلم بوجوه: الأول: أن كل المفسرين الذي كانوا قبل أبي المسلم أجمعوا على أنه حصل ذبح تلك الطيور و تقطيع أجزائها، فيكون إنكار ذلك إنكارا للإجماع، و الثاني: أن ما ذكره غير مختص بإبراهيم صلى الله عليه و سلم، فلا يكون له فيه مزية على الغير، و الثالث: أن إبراهيم أراد أن يريه الله كيف يحيى الموتى، و ظاهر الآية يدل على أنه أجيب إلى ذلك، و على قول أبي مسلم لا تحصل الإجابة في الحقيقة.

و الرابع: أن قوله تعالى: ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، يدل على أن تلك الطيور جعلت جزءا جزءا، قال أبو مسلم في الجواب عن هذا الوجه: إنه أضاف الجزء إلى الأربعة، فيجب أن يكون المراد بالجزء هو الواحد من تلك الأربعة، و الجواب أن ما ذكرته (أي الرازي) و إن كان محتملا، إلا أن حمل الجزء على ما ذكرنا أظهر، و التقدير: فاجعل على جبل من كل واحد منهن جزءا أو بعضا.

و يقول صاحب المنار: و آية فهم الرازي و غيره فيها، خلاف ما فهمه

ص: 169

1- أحمد حسن الباقوري: مع القرآن- القاهرة 1970 ص 198-200.

جميع المفسرين من قبله، ولم يقل أحد: إن فهم فئة من الناس حجة على فهم الآخرين، على أن ما فهمه أبو مسلم هو المتبادر من عبارة الآية الكريمة، و ما قالوه أخذوه من روايات حكموها في الآية، و آيات الله الحكم الأعلى، و على ما في تلك الرواية هي لا تدل.

و أما قوله: إن ما ذكره أبو مسلم غير مختص بإبراهيم فلا- يكون فيه مزية، فهو مردود بأن هذا المثل لكيفية إحياء الله للموتى أو لكيفية التكوين، فيه توضيح لها، و تحديد لما يصل إليه علم البشر من أسرار الخليقة، و لا دليل على أن العلم بذلك كان عاما بين الناس، فيقال: إنه لا خصوصية فيه لإبراهيم، على أنه يرد مثل هذا الإيراد على حجة إبراهيم على الذي آتاه الله الملك، و حجته على عبدة الكواكب في سورة الأنعام، فإن مثل هذه الحجج التي أيد الله تعالى بها إبراهيم، مما يحتج به الرازي وغيره، فهل ينفي ذلك أن تكون هداية من الله لإبراهيم، و إخراجا من ظلمات الشبه التي كانت محيطة بأهل زمنه إلى نور الحق (1). و قد قال الله تعالى: وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (2).

و أما قوله: إن إجابة إبراهيم إلى ما سأل لا تحصل بقول أبي مسلم، وإنما تحصل بقول الجمهور، فلأمر بعكسه، و ذلك أن إتيان الطيور بعد تقطيعها و تفريق أجزائها، من الجبال لا يقتضي رؤية كيفية الإحياء، إذ ليس فيها إلا رؤية كيفية الإحياء، إذ ليس فيها إلا رؤية الطيور، كما كانت قبل التقطيع، لأن الإحياء حصل في الجبال البعيدة، و افرض أنك رأيت رجلا قتل و قطع إربا إربا، ثم رأيت حيا فتقول إذن أنك عرفت كيفية إحيائه، هذا ما يدل عليه قولهم.

ص: 170

1- تفسير المنار 48 / 11 (القاهرة 1973).

2- سورة الأنعام: آية 83.

و أما قول أبي مسلم فهو الذي يدل على غاية ما يمكن أن يعرف البشر عن سر التكوين و الإحياء، و هو توضيح معنى قوله تعالى للشيء «كُنْ فَيَكُونُ»، و لو لا- أن الله تعالى بين لنا ذلك، بما حكاه عن خليله، لجاز أن يطمح في الوقوف على سر التكوين الطامحون، و لو فهم الرازي هذا لما قال: إنه لا خصوصية لإبراهيم على الغير، و هذا النوع من الجواب قريب من جواب موسى، إذ طلب رؤية الله تعالى، و نهى عما زاد على ذلك.

و جملة القول، فيما يرى صاحب تفسير المنار، أن تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الذي يدل عليه النظم، و هو الذي يجلي الحقيقة في المسألة، فإن كيفية الإحياء هي عين كيفية التكوين في الابتداء، و إنما تكون بتعلق إرادة الله تعالى بالشيء المعبر عنه بكلمة التكوين «كن» فلا يمكن أن يصل البشر إلى كيفية له، إلا إذا أمكن الوقوف على كنه إرادة الله تعالى، و كيفية تعلقها بالأشياء، و ظاهر القرآن، و ما هو عليه المسلمون، أن هذا غير ممكن، فصفت الله منزهة عن الكيفية، و العجز عن الإدراك فيها، هو الإدراك؛ و هو ما أفاده قول أبي مسلم رحمه الله تعالى، و مما يؤيده في النظم المحكم قوله تعالى: ثُمَّ اجْعَلْ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى التَّرَاخِي الَّذِي يَتَّقِيهِ إِمَالَةَ الطُّيُورِ وَ تَأْنِيسَهَا عَلَى أَنْ لَفْظُ «صِرْهَنْ» يَدُلُّ عَلَى التَّأْنِيسِ، و لو لا أن هذا هو المراد لقال: فخذ أربعة من الطير فقطعهن، و اجعل على كل جبل منهن جزءا، و لم يذكر لفظ الإمالة إليه، و يعطف جعلها على الجبال ب «ثم»، و يدل عليه أيضا ختم الآية باسم العزيز الحكيم، دون اسم القدير، و العزيز: هو الغالب الذي لا ينال.

و ما صرف جمهور المتقدمين عن هذا المعنى على وضوحه، إلا الرواية بأنه جاء بأربعة طيور من جنس كذا و كذا، و قطعها و فرقها على جبال الدنيا، ثم دعاها فطار كل جزء إلى مناسبه، حتى كانت طيورا تسرع إليه، فأرادوا تطبيق الكلام على هذا، و لو بالتكلف، و أما المتأخرون فهمهم أن يكون في الكلام خصائص للأنبياء من الخوارق الكونية، و إن كان المقام

مقام العلم و البيان و الإخراج من الظلمات إلى النور، و هو أكبر الآيات، و لكل أهل زمن غرام في شيء من الأشياء يتحكم في عقولهم و أفهامهم، و الواجب على من يريد فهم كتاب الله تعالى أن يتجرد من التأثير بكل ما هو خارج عنه، فإنه الحاكم على كل شيء، و لا يحكم عليه شيء، و لله در أبي مسلم ما أدق فهمه، و أشد استقلاله فيه (1).

بقيت الإشارة إلى أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الأربعة من الطيور، فذهب ابن إسحاق و مجاهد و ابن جريج إلى أنها: الديك و الطاوس و الغراب و الحمام، و قال ابن زيد: قال فخذ أربعة من الطير:

قال: فأخذ طاوسا و حماما و غرابا و ديكاً، مخالفةً أجناسها و ألوانها، و قال ابن عباس: هي الغرنوق و الطاوس و الديك و الحمامة، إلى غير ذلك من آراء، و إن كان لا طائل تحت تعيين هذه الطيور الأربعة، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن (2).

ص: 172

1- تفسير المنار 48 / 11 - 49.

2- تفسير الطبري 494 / 5 - 495، تفسير ابن كثير 471 / 1.

[1] قصة يونس عليه السلام

- هو يونس بن متى، وهو اسم أبيه على ما في صحيح البخاري وغيره، وصححه ابن حجر قال: ولم أقف في شيء عن الأخبار على اتصال نسبه (1)، روى البخاري بسنده عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى، ونسبه إلى أبيه»، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به، قال شعبة، فيما حكاه أبو داود عنه، لم يسمع قتادة عن أبي العالية سوى أربعة أحاديث هذا أحداها (2)، وقال ابن كثير في التفسير: وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»، ونسبه إلى أمه (3)، وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» (4)، وقال ابن الأثير وغيره: إنه اسم أمه، ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه غيره وغير عيسى عليهما السلام (5)، وفي العهد القديم دعى «يونا بن

ص: 175

1- تفسير روح المعاني: 82/17-83.

2- ابن كثير: البداية والنهاية 1/236.

3- صحيح البخاري: 4/193، وصحيح مسلم: 7/102، تفسير ابن كثير: 4/32.

4- مسند الإمام أحمد: 1/390، تفسير ابن كثير: 4/639.

5- تفسير روح المعاني: 83/17، تاريخ ابن الأثير: 1/360.

أمتاي» (1) وقد ذكر في القرآن الكريم بيونس وبذي النون، و النون هو الحوت (السمكة)، و يجمع على «نينان» كما في البحر، وأنون أيضا، كما في القاموس (2)، و يقول الرازي في التفسير الكبير: إنه لا خلاف في أن ذا النون هو يونس عليه السلام لأن النون هو السمكة، و أن الإسم إذا دار بين أن يكون لقباً محضاً، و بين أن يكون مفيداً، فحمله على المفيد أولى، خصوصا إذا علمت الفائدة التي يصلح لها ذلك الوصف (3).

هذا وقد ذكر يونس عليه السلام في القرآن باسمه أربع مرات، في سورة النساء (163) و الأنعام (86) و يونس (98) و الصافات (139)، و ذكر بالوصف في موضعين، حيث لقبه الله تعالى «بذي النون» (أي الحوت) في سورة الأنبياء (87)، و بصاحب الحوت في سورة القلم (48) لأن الحوت التقمه ثم نبذه، غير أن ذكر النبي الكريم في سورتي الأنبياء و الصافات إنما فيه شيء من التفضيل، قال تعالى: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (4)، و قال تعالى: وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ

ص: 176

1- يونان: 1/1.

2- تفسير روح المعاني: 83/17، القاموس المحيط: 276/4.

3- تفسير الفخر الرازي: 212/22.

4- سورة الأنبياء: آية 87-88، و انظر: تفسير الطبري 76/17-82 (بيروت 1984)، تفسير ابن كثير: 306/3-309 (بيروت 1986)، تفسير النسفي: 87/3-88 (دار الفكر- بيروت) تفسير البحر المحيط 335/6-336، تفسير روح المعاني: 82/17-87 (بيروت 1978)، صفوة التفاسير للصابوني 273/2 (بيروت 1981)، تفسير الفخر الرازي: 212/22-217، تفسير القرطبي ص 4369-4375 و انظر: صحيح البخاري: كتاب الأنبياء 193/4، صحيح مسلم 102/7-103.

لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَتَبَدَّنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَ أَنْتَبْنَا عَلَيْهِ شَجْرَةً مِنْ يَفْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مَائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَأَمَّنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ» (1).

و الآيات الكريمة تذكر أن يونس عليه السلام كان مرسلا إلى قوم، غير أنها لا تذكر أين كان قوم يونس عليه السلام، وإن كان المفهوم أنهم كانوا في بقعة قريبة من البحر، على أن الروايات تذهب في الغالب الأعم إلى أنه أرسل إلى أهل «نينوى» (2) من أرض الموصل بالعراق (3)، وفي السيرة النبوية الشريفة أن «عداسا»، وهو غلام نصراني لعتبة وشيبة ابني ربيعة، قدم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الطائف، طبقا من عنب، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده، قال: باسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه ثم قال:

والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أي أهل البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى، فقال

ص: 177

-
- 1- سورة الصافات: آية 139-148، وانظر: تفسير القرطبي 15/121-125 (القاهرة 1967)، تفسير روح المعاني 23/142-144، تفسير الطبرسي 23/83-86 (بيروت 1961)، تفسير الطبري 23/98-106 (بيروت 1984)، تفسير البيضاوي 2/299-300، تفسير الفخر الرازي 26/163-166 (القاهرة 1938)، تفسير ابن كثير 4/32-34، ابن كثير: البداية والنهاية 1/231-237، قصص الأنبياء 1/380-398، تفسير النسفي 4/28-30، الدر المنثور في التفسير بالمأثور 5/291-292، صحيح البخاري- كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ 4/193، صحيح مسلم 7/102-103- كتاب الفضائل، باب ذكر يونس عليه السلام.
 - 2- نينوى: عاصمة الإمبراطورية الآشورية، وتقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة، على فم رافد صغير يدعى «الخسر» على مبعده 25 ميلا من التقاء الدجلة بالزاب، قبالة الموصل، وكان العبرانيون يعممون اسم نينوى ليشمل كل المنطقة حول التقاء الزاب بالدجلة (تكوين 10/11-12، يونان 1/2، 3/2-7، قاموس الكتاب المقدس 2/990).
 - 3- تفسير الفخر الرازي 22/213، تفسير ابن كثير 2/670، تفسير روح المعاني 17/84، البداية والنهاية 1/232.

له عداس: و ما يدريك ما يونس بن متى، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ذاك أخي، كان نبيا، و أنا نبي فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه و سلم يقبل رأسه و يديه و قدميه (1).

و في تفسير الفخر الرازي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال:

كان يونس عليه السلام و قومه يسكنون فلسطين، فغزاهم ملك و سبى منهم تسعة أسباط و نصفا، و بقي سبطان و نصف، فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك، و قل له حتى يوجه نبيا قويا أميناً، فإنني ألقى في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك: فمن ترى، و كان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال: يونس بن متى، فإنه قوي و أمين، فدعا الملك بيونس و أمره أن يخرج، فقال يونس:

هل أمرك الله بإخراجي، قال: لا، قال: فهل سماني لك، قال: لا، قال:

فههنا أنبياء غيري، فألحوا عليه فخرج مغاضبا للملك و لقومه فأتى بحر الروم فوجد قوما هيئوا سفينة فركب معهم (2).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى عدة أمور في هذا النص، منها (أولا) أن الملك الذي غزا قوم يونس في فلسطين ربما كان، فيما نميل إليه و نرجحه، إنما هو «سرجون الثاني» الآشوري (722-705 ق. م)، فهو فيما يحدثنا التاريخ، الملك الذي غزا بني إسرائيل و استولى على السامرة، و سبى منهم تسعة أسباط و نصف (3)، كما أن «نينوى» كانت عاصمة آشور وقت ذلك، غير أن «نينوى» لا يمكن الذهاب إليها عن طريق بحر الروم (البحر المتوسط)، إلا إذا صحت تلك الرواية التي تقول إن الحوت التقمه A

ص: 178

1- انظر: السير النبوية لابن هشام 2/266- تحقيق أحمد حجازي السقا.

2- تفسير الفخر الرازي 22/212، و انظر: تفسير روح المعاني 17/83.

3- ملوك أول 11/35، محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/884-886، 940-1950، و كذا .J .P. 210. 6. nageniF ,tic -po

.A .G .eiL ehT ,snoitpircsnI fo nograS ,II ,traP ,I ,salannA ehT , و كذا .L .A .248. TENA, miehneppO .L .A .1966, P,

من ذلك المكان الذي ألقى به فيه من السفينة (و الذي ربما كان شمال أيلة أو إيلاط على خليج العقبة) ثم انطلق به من ذلك المكان حتى مرّ به على الأيلة، ثم انطلق به حتى مرّ على دجلة، ثم انطلق به حتى ألقاه في نينوى (1) (أي أنه دار به حول شبه الجزيرة العربية من خليج العقبة، فالبحر الأحمر، فخليج عدن، ثم بحر العرب فخليج عمان ثم الخليج العربي، فنهر دجلة ثم نينوى).

و منها (ثانيا) أن النبي شعيب عليه السلام، ربما لا يقصد به هنا شعيب النبي العربي الذي بعث في مدين، وإنما النبي الإسرائيلي أشعيا، و ذلك لسببين، أحدهما: أن أشعيا كان معاصرا أو قريبا من فترة الغزو الآشوري لإسرائيل حيث كان يعيش في الفترة (734-680 ق.م)، بينما النبي العربي شعيب كان يعيش حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بل إن هناك من يرجح أنه هو نفسه صهر موسى عليه السلام، و ثانيهما: أن الملك حزقيال المذكور في النص هو الملك اليهودي «حزقيال» (715-687 ق.م).

و أيا كان الأمر، فما أن ركب يونس عليه السلام السفينة، و وصلت إلى وسط اللجة حتى ناوأتها الرياح و الأمواج و كان هذا إيذانا عند القوم بأن من بين الركاب راكبا مغضوبا عليه لأنه ارتكب خطيئة، و أنه لا بد أن يلقي في الماء لكي تنجو السفينة من الغرق، فاقترعوا على من يلقيه من السفينة، فخرج سهم يونس، و كان معروفا عندهم بالصلاح، و لكن سهمه خرج بشكل أكيد، فألقوه في البحر، أو ألقى هو نفسه فالتقمه الحوت و هو مليم (2)، ثم تذهب الرواية بعد ذلك إلى أن الله أنجى يونس، ثم أوحى إليه أن يذهب إلى ملك من أرسل إليهم و أن يطلب إليه أن يرسل معه بني إسرائيل، فقالوا له: ما

ص: 179

1- تفسير الطبري 105 / 23.

2- في ظلال القرآن 5 / 2998.

نعرف ما تقول، ولو علمنا أنك صادق لفعلنا، ولقد أتيناكم من دياركم و سيناكم، فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم، فطاف ثلاثة أيام يدعوهم إلى ذلك فأبوا عليه، فأوحى الله تعالى إليه، قل لهم: إن لم تؤمنوا جاءكم العذاب، فأبلغهم فأبوا، فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يصلبونه فلم يقدروا عليه، ثم ذكروا أمرهم و أمر يونس للعلماء الذين كانوا في دينهم، فقالوا: انظروا و اطلبوه في المدينة، فإن كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شيء و إن كان قد خرج فهو كما قال، فطلبوه فقبل لهم إنه خرج العشي، فلما آيسوا أغلقوا أبواب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم و لا غنمهم، و عزلوا الوالدة عن ولدها و كذا الصبيان و الأمهات، ثم قاموا ينتظرون الصبح، فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم و وضعت الحوامل ما في بطونها، و صاح الصبيان، و ثغت الأغنام و البقر، فرفع الله تعالى عنهم العذاب، فبعثوا إلى يونس عليه السلام فأمنوا به، و بعثوا معه بني إسرائيل، فعلى هذا القول، كما يقول الإمام الرازي، كانت رسالة يونس عليه السلام، بعد ما نبذه الحوت، و دليل هذا القول قوله تعالى في الصافات فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ، وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّطِينٍ، وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، و في هذا القول رواية أخرى، و هي أن جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام: انطلق إلى أهل نينوى و أنذرهم أن العذاب قد حضرهم، فقال يونس عليه السلام: التمس دابة، فقال الأمر أعجل من ذلك، فغضب و انطلق إلى السفينة، و باقي الحكاية كما مرت إلى أن التقمه الحوت، فانطلق إلى أن وصل إلى نينوى، فألقاه هناك (1).

على أن هناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أن قصة الحوت كانت بعد

ص: 180

دعائه أهل نينوى و تبليغه رسالة الله إليهم، و لكنهم استعصوا عليه، فضاق بهم صدرا، و عاد مغاضبا (1)، و لم يصبر على معاناة الدعوة معهم، ظانا أن الله لن يضيق عليه الأرض، فهي فسيحة، و القرى كثيرة، و الأقسام متعددون، و ما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة فسيوجهه الله إلى قوم آخرين، ذلك معنى «فظن أن لن نقدر عليه» أي أن لن نصيق عليه (2)، و ذلك لأن يونس عليه السلام ظن، كما يقول الإمام الرازي، أنه مخير إن شاء أقام و إن شاء خرج، و أنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره، و كان من المعلوم أن الصلاح في تأخر خروجه، و هذا من الله تعالى بيان لما يجري مجرى العذر له من حيث خرج، لا على تعمد المعصية، لكنه لظنه أن الأمر في خروجه موسع يجوز أن يقدم و يؤخر، و كان الصلاح خلاف ذلك (3).

هذا و قد ظن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان أنه من القدرة، فاستشكل ذلك، إذ لا يظن أحد، فضلا عن النبي عليه السلام، عدم قدرة الله تعالى، و فرغ إلى ابن عباس في ذلك (4)، «روى أن ابن عباس، رضي الله عنهما، دخل يوما على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصا إلا بك، قال: و ما هي يا معاوية، فقرأ الآية فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فقال: أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه، قال:

ص: 181

1- يقول الألويسي في روح المعاني: و قيل مغاضبا لربه عز و جل، و حكى في هذه المغاضبة كيفيات و تعقب (أبو حيان) ذلك في البحر بأنه يجب إطراح هذا القول، إذ لا يناسب ذلك منصب النبوة، و ينبغي أن يتأول لمن قال ذلك من العلماء كابن مسعود و الحسن و الشعبي و ابن جبير و غيرهم بأن يكون معنى قولهم لربه لأجل ربه تعالى و حمية لدينه، فاللام لام العلة، لا اللام الموصولة للمفعول به (روح المعاني 3/ 83-84، و انظر أيضا: تفسير البحر المحيط 6/ 335، تفسير الطبري 76/ 17-7/ 1، تفسير الفخر الرازي 22/ 214).

2- في ظلال القرآن 4/ 2393.

3- تفسير الفخر الرازي 22/ 215.

4- تفسير روح المعاني 17/ 84.

هذا من القدر لا من القدرة (1)، ويقول الرازي في التفسير الكبير (215/22): من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ولا خلاف في أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين، فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام.

وعلى أي حال، وكما أشرنا من قبل، فلقد اتجه يونس عليه السلام إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها، حتى إذا كانت في اللجة ثقلت، وقال ربانها: إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق، فساهموا فجاء السهم على يونس، فألقوه أو القى هو بنفسه، فالتقمه الحوت (2) وهو مليم، لأنه تخلى عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضبا قبل أن يأذن الله له، وروى عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخذش له لحما ولا تكسر له عظما، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا، فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسييح دواب البحر، قال: وسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسيحه فقالوا:

يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه من كل يوم و ليلة عمل صالح، قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله تعالى «وَهُوَ سَقِيمٌ»، رواه ابن جرير ورواه البزار في مسنده (3)، وعن عوف الأعرابي قال: لما صار يونس في بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله، فلما تحركت سجد

ص: 182

1- تفسير النسفي 87/3.

2- في ظلال القرآن 4/2393.

3- تفسير ابن كثير 3/307-308، تفسير الطبري 17/81، 23/100، تفسير الفخر الرازي 22/216، 26/165، تفسير القرطبي ص: 4370-4371.

مكانه، ثم نادى: يا رب اتخذت لك مسجدا في موضع ما اتخذته أحد (1)، وفي رواية «يا رب اتخذت لك مسجدا في موضع لم يبلغه أحد من الناس» (2).

هذا وقد اختلف المفسرون في المدة التي لبثها يونس عليه السلام في بطن الحوت، فقال قتادة: ثلاثة أيام (وهذا ما جاء في العهد القديم) (3)، وقال الإمام جعفر الصادق رضوان الله عليه: سبعة أيام، وروى ابن أبي حاتم عن أبي مالك أنه بقي أربعين يوما، وعن الضحاك عشرين يوما، وقيل شهرا، وروى مجاهد عن الشعبي قال: التقمه ضحى ولفظه عشية، وقال الحسن: لم يلبث إلا قليلا وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه (4).

وعلى أية حال، فما أن أحس النبي الكريم بالضيق في بطن الحوت، حتى سبح الله واستغفره، «فنادى من الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بهذه الظلمات، فقال بعضهم: عني بها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، وقال آخرون: إنما عني بذلك أنه نادى في ظلمة جوف حوت في جوف حوت آخر، أو لأن الحوت إذا عظم غوصه في قعر البحر كان ما فوقه من البحر في ظلمة، والصواب من القول، عند الطبري، إن الله تعالى أخبر يونس أنه ناداه في الظلمات «أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، ولا شك أنه قد عني بإحدى الظلمات بطن الحوت، وبالأخرى ظلمة البحر، وفي الثالثة اختلاف: و جائز أن تكون تلك الثلاثة ظلمة الليل، و جائز أن تكون

ص: 183

1- تفسير الطبري 81/17، 100/23.

2- تفسير ابن كثير 307/3.

3- يونان 17/2.

4- تفسير الطبري 79/17، 101/23، تفسير روح المعاني 85/17 (بيروت 1978)، تفسير ابن كثير 32/4 (بيروت 1986)، تفسير

الفخر الرازي 165/26.

كون الحوت في جوف حوت آخر، ولا دليل يدل على أي ذلك من أي، فلا قول في ذلك أولى بالحق من التسليم لظاهر التنزيل (1)، وأما من قال: إن الحوت الذي ابتلعه غاص في الأرض السابعة، فإن ثبت ذلك بخبر فلا كلام، وإن قيل بذلك لكي يقع نداؤه في الظلمات، فما قدمناه يغني عن ذلك (2).

وإما قوله تعالى لا إله إلا أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (3)، فلقد أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي، والحكيم في نواتر الأصول، والحاكم في المستدرک (وصححه) والبيهقي في الشعب وجماعة عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له» (4)، وفي رواية «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له» (5)، و عن الحسن البصري: ما نجاه الله تعالى إلا بإقراره عن نفسه بالظلم (6)، وروى ابن أبي حاتم عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن فقلت: يا أبا سعيد اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، قال ابن أخي أما تقرأ القرآن قول الله تعالى: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا- إلى قوله: وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ، ابن أخي، هذا اسم الله الأعظم، إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى (7).

ص: 184

1- تفسير الطبري 80/17 (بيروت 1984)، وانظر روح المعاني 84/17.

2- تفسير الفخر الرازي 216/22.

3- سورة الأنبياء: آية 87-88.

4- تفسير روح المعاني 85/17.

5- تفسير النسفي 87/3، تفسير الفخر الرازي 216/22، وأصل الحديث في سنن أبي داود.

6- تفسير الفخر الرازي 216/22، تفسير النسفي 87/3.

7- تفسير ابن كثير 309/3.

وروى ابن جرير في التفسير بسنده عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك (سعد بن أبي وقاص) يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى قال: فقلت يا رسول الله: هي ليونس بن متى خاصة، أم لجماعة المسلمين، قال: هي ليونس بن متى خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تبارك وتعالى: فَنادى في الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ، فهو شرط الله لمن دعا بها (1).

وروى الإمام أحمد بسنده عن إبراهيم بن محمد بن سعد قال: حدثني والدي محمد عن أبيه سعد هو ابن أبي وقاص (رض) قال: مررت بعثمان بن عفان (رض) في المسجد فسلمت عليه، فملاً عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء، مرتين، قال: لا، وما ذاك، قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملاً عينيه مني ثم لم يرد السلام، قال:

فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام، قال: ما فعلت، قال سعد قلت بلى حتى حلف و حلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر، فقال بلى، واستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا والله ما ذكرتها قط إلا تعشى بصري وقلبي غشاوة، قال سعد: فأنا أنبتك بها، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله، ضربت بقدمي الأرض فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «من هذا، أبو إسحاق، قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال

ص: 185

«فمه» قلت، لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت» «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط، إلا استجاب له» (1)، ورواه الترمذي (2) والنسائي: في اليوم واللييلة، في حديث إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه سعد به (3).

وهكذا استجاب الله تعالى لعبده يونس لأنه كان من قبل من المسبحين، «فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (4)، روى ابن جرير عن ميمون بن مهران قال: سمعت الضحاك بن قيس يقول على منبره: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبدا لله ذاكرا، فلما أصابته الشدة دعا الله، فقال الله: فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فذكره الله بما كان منه» (5)، ومن ثم فقد استجاب الله لدعائه فلفظه الحوت على الشاطئ، وكان سقيما عاريا، قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال ابن عباس والسدي كهيئة الضبي حين يولد، وهو المنفرش ليس عليه شيء (6)، وقال ابن زيد: ما لفظه الحوت حتى صار مثل الضبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم، فصار مثل الضبي المنفوس، فألقاه في موضع، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين (7)، والجمهور على أن شجرة اليقطين هي «القرع»، وفائدته أن الذباب لا يجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتا وامتدادا، قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك لتحب

ص: 186

- 1- مسند الإمام أحمد 1/170.
- 2- تحفة الأحوذى 9/479.
- 3- تفسير ابن كثير 3/308، تفسير روح المعاني 17/85.
- 4- سورة الصافات: آية 143-144.
- 5- تفسير الطبري 23/100.
- 6- ابن كثير: البداية والنهاية 1/235.
- 7- تفسير الطبري 23/102.

القرع، قال: «أجل هي شجرة أخي يونس» (1)، قال المبرد و الزجاج:

اليقطين كل شجر لا يقوم على ساق، وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين، نحو الدّباء و الحنظل و البطيخ، و روى عن ابن مسعود و ابن عباس و مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و وهب بن منبه و هلال بن يساف و عبد الله بن طاوس و السّدي و قتادة و الضحاك و عطاء الخراساني و غير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع، و عن سعيد بن جبير: اليقطين هو كل شيء ينبت على وجه الأرض ليس له ساق، و في رواية عنه أيضا: كل شيء ينبت يموت من عامه (2)، و قد ثبت أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يحب الدّباء و يتبعه من حواشي الصفحة (3)، و قال الواحدي: و الآية تقتضي شيئين لم يذكرهما المفسرون، أحدهما: إن هذا اليقطين لم يكن قبل، فأنبته الله تعالى لأجله، و الآخر: أن اليقطين كان معروشا ليحصل له ظل، لأنه لو كان منبسطا على الأرض لم يكن أن يستظل (4).

و على أية حال، فما أن استكمل يونس عليه السلام عافيته حتى رده الله تعالى إلى قومه الذين تركهم مغاضبا، و كانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه، فأمنوا و استغفروا و طلبوا العفو من الله فسمع لهم و لم ينزل بهم عذاب المكذبين فأمنوا فمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ و كانوا مائة يزيدون و لا ينقصون، و قد آمنوا أجمعين (5)، و حكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون، هذا و قد اختلف المفسرون في عدد زيادة قوم يونس عن المائة ألف، فعن ابن عباس كانوا

ص: 187

1- تفسير النسفي 29/4.

2- تفسير الفخر الرازي 166/26، تفسير ابن كثير 34/4، تفسير الطبري 104/23.

3- انظر: صحيح البخاري 98/7، 102.

4- تفسير الفخر الرازي 166/26.

5- في ظلال القرآن 2999/5.

مائة ألف و ثلاثين ألف، و عنه أيضا مائة ألف و بضعة و ثلاثين ألفا، و عنه مائة ألف و بضعة و أربعين ألفا، و عن مكحول إنهم كانوا مائة ألف و عشرة آلاف، و عن سعيد بن جبير يزيدون سبعين ألفا، و عن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَا إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ قَالَ:

يزيدون عشرون ألفا، و عند الرازي أن المعنى أو يزيدون في تقديركم بمعنى إنهم إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة (1).

و تنتهي قصة يونس عليه السلام بقوله تعالى: فَأَمَّنُوا فَمَرَّغَتْهُمْ إِلَى حِينٍ (2)، أي متع الله أهل نينوى في مدينتهم مدة إقامة يونس فيهم و بعده آمنين مطمئنين إلى حين، أي إلى الوقت الذي جعله الله تعالى أجلا لكل واحد منهم، كقوله تعالى جلت عظمته: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (3).

[2] سفر يونان (يونس عليه السلام)

و كان هذا السفر في العهد القديم بين سفرى عوبديا و ميخا، و هو من أسفار الأنبياء الصغيرة، و يتكون من أربع إصحاحات (48 آية)، و لا يقدم لنا العهد القديم إلا أقل المعلومات عن صاحب سفر يونان (hanoJ) فكل ما جاء عنه في سفر الملوك الأول (25 / 14) إنه النبي «يونان بن أمثاي» من «جت حافر»، على مقربة من الناصرة، بأرض الجليل.

هذا و يذهب بعض الباحثين إلى أن يونان إنما كان يعيش في الفترة (785-745 ق. م)، و إنه كان نبيا قوميا من أنبياء بني إسرائيل على أيام

ص: 188

1- تفسير ابن كثير 34/4، تحفة الأحوذى 97/9، تفسير الطبري 104/23، تفسير النسفي 29/4، تفسير الفخر الرازي 166/26.

2- سورة الصافات: آية 148.

3- سورة يونس: آية 98، و انظر: تفسير ابن كثير 34/4، تفسير الطبري 104/23-105.

أسباب منها (أولاً): وجود السفر مع الأسفار النبوية، وليس مع الأسفار التاريخية (1)، و منها (ثانياً): ذكره لمعجزات تختلف عن المعجزات المذكورة في الأسفار التاريخية، ولا سيما النبأ المتعلق بالحوت (2)، و منها (ثالثاً): عدم الاتفاق بين ما قيل عن توبة أهل «نينوى»، و ما جاء في سفر «ناحوم» وبل لمدينة الدماء، كلها مألوفة كذبا وخطفا، و«جرحك عديم الشفاء، كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك» (3)، و من المعروف أن ناحوم عاش بعد يونان أي أن نبوته كانت حوالي عام (650-625 ق. م)، و منها (رابعاً): ما جاء في سفر إرميا، (و الذي عاش في الفترة 626-580 ق. م) (4)، «أكلني أفناني، نبوخذ نصر ملك بابل، جعلني إناء فارغا، ابتلعني كتنين ... و أخرج من فمه ما ابتلعه» (5)، و هذا القول تشبيهه بغير شك، و من ثم فقد ذهب بعض الباحثين المحدثين إلى أن رواية سفر يونان، إنما هي أيضا تشبيهه ليس إلا (6).

على أن هناك فريقا من الباحثين من المحافظين من شراح العهد القديم إنما يذهب إلى أن سفر يونان هذا، إنما هو سفر تاريخي كتبه «يونان النبي بن أمثاي» من سبط «زبولون» (أحد أبناء يعقوب الاثني عشر) من «جت حافر»، على مبعده ثلاثة أميال من الناصرة (قرية المسيح عليه

ص: 190

1- انظر عن أسفار الأنبياء و الأسفار التاريخية (محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/ 33-60).

2- باروخ سبينوزا: المرجع السابق ص 32، حبيب سعيد: المرجع السابق ص 127، قاموس الكتاب المقدس 2/ 1126-1127، و كذا.

P, 1949, tneTseT dIO ehT ot noitcudaitnI, gnuoY. J. 257

3- ناحوم 3/ 19.

4- انظر عن سفر إرميا و عصره (محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 997-1012، 3/ 44-47).

5- إرميا 34/ 51، 44.

6- قاموس الكتاب المقدس 2/ 1127.

السلام)، ويؤيد هذا الفريق وجهة نظره هذه بعدة أدلة، منها (أولاً): أن السفر لا يقول «صار قول الرب إلى إنسان»، وإنما يقول «صار قول الرب إلى يونان بن أمتاي» (1)، فالخطاب هنا موجه إلى شخص معين بذاته، ومنها (ثانياً): ما جاء في كلام السيد المسيح «لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ... رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل و يدينونه، لأنهم تابوا بمناداة يونان و هو ذا الأعظم من يونان هاهنا»، ومنها (ثالثاً): أن نبا الحوت ليس من الحكايات التي غايتها أن تثير فضول الناس ودهشتهم، بل غايته الرمز إلى موت المسيح وقيامته، و أما بخصوص توبة أهل نينوى فمن المحتمل إنهم تابوا توبة وقتية فقط، و لعل هذا السفر من عداد الأسفار النبوية، لأن ما ورد فيه إنما يرمز إلى أمور مستقبلية (2).

و الرأي عندي أن «قصة الحوت» التي جاءت في سفر يونان (3) هذا، و التي ثار حولها جدل طويل بين علماء التوراة و شراحها، ليس كما يزعم بعض الباحثين المحدثين، قصة رمزية أو رواية تمثيلية في قالب تاريخي (4)، وإنما هي دونما أي ريب، و بكل يقين المسلم و إيمانه بما جاء في كتاب الله (5)، و حديث المعصوم سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم (6) كما رأينا من قبل، إنما هي قصة تاريخية حقيقية، لأنها فيما نعتقد و نؤمن به الإيمان كل

ص: 191

-
- 1- يونان 1 / 1.
 - 2- قاموس الكتاب المقدس 1126/2 - 1127، محمد بيومي مهران: إسرائيل 52/3 - 56.
 - 3- يونان 1 / 1 - 10/2.
 - 4- قاموس الكتاب المقدس 1126/2، حبيب سعيد: المرجع السابق ص 127.
 - 5- انظر: سورة يونس: آية 98، الأنبياء: آية 87-88، الصافات: آية 139-148، سورة القلم: آية 48.
 - 6- انظر: تفسير روح المعاني 85/17، تفسير النسفي 87/3، تفسير الفخر الرازي 216/22، تفسير الطبري 82/17، تفسير ابن كثير 308، مسند الإمام أحمد 170/1، تحفة الأحوذى 479/9.

الإيمان، إنما تمثل معجزة نبيّ، و المعجزة فيما نعلم، قوى إلهية يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، و الحصول على نظير لها، و لا تأتي إلا في مقام التحدي و الإعجاز، و هي، كغيرها من معجزات الأنبياء، من عمل سبحانه و تعالى، و لا لأحد فيها سواه، جلّ جلاله، فليس لنبيّ يد في الخوارق التي بهرت الناس، و قهرت الخلق، و قامت أدلة صادقة على صدق من ظهرت على أيديهم في أنهم مبلغون عن الله سبحانه و تعالى (1)، و من هذا النوع كانت معجزة الحوت لسيدنا يونس (يونس) عليه السلام كما رأينا من قبل).

ص: 192

1- محمد الصادق عرجون: معجزات الأنبياء بين العقل و العلم- الإسكندرية 1955 ص 2، و انظر عن المعجزة و شروطها: تفسير القرطبي ص 70-72 (القاهرة 1969).

أولاً- القرآن الكريم :

المراجع المختارة (1)

1- القرآن الكريم.

ثانياً- كتب الحديث:

2- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (10 أجزاء)، للألباني، بيروت 1979.

3- إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، للقسطلاني، بيروت 1323 هـ.

4- الجامع الصحيح، للترمذي، المدينة المنورة 1967.

5- الجامع الصغير، للسيوطي، القاهرة 1954.

6- الجامع الكبير، للسيوطي، القاهرة 1969.

7- السنن الكبرى، للبيهقي، حيدرآباد 1347 هـ.

8- المستدرک على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، حيدرآباد 1335 هـ.

9- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، دمشق 1974.

ص: 193

1- هذه المراجع المختارة تختص بالأجزاء: الثاني و الثالث و الرابع، من هذه السلسلة (دراسات تاريخية من القرآن الكريم)، و أما الجزء الأول فقد ذكرت مراجعه في آخره.

- 10- تهذيب الآثار- مسند عبد الله بن عباس (جزءان)، للطبري، القاهرة 1982.
- 11- تهذيب الآثار- مسند عمر بن الخطاب، للطبري، القاهرة 1983.
- 12- تهذيب الآثار- مسند علي بن أبي طالب، للطبري، القاهرة 1983.
- 13- سنن ابن ماجه، القاهرة 1972.
- 14- سنن أبي داود (جزءان)، القاهرة 1952.
- 15- سنن النسائي، القاهرة 1964.
- 16- صحيح البخاري (9 أجزاء)، القاهرة 1386 هـ.
- 17- صحيح مسلم بشرح النووي (18 جزءا)، بيروت 1981.
- 18- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، القاهرة 1959.
- 19- كنز العمال في سنن الأقوال و الأفعال، للمتقي الهندي، حلب 1399 هـ.
- 20- مجمع الزوائد و منبع الفوائد، للهيثمي، بيروت 1967.
- 21- مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت 1969.
- 22- موطأ الإمام مالك، القاهرة 1970.
- 23- المعجم الصغير، للطبراني، المدينة المنورة 1968.
- 24- المعجم الكبير، للطبراني بغداد 1404 هـ.
- 25- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار (8 أجزاء)، للشوكاني، القاهرة 1980.

ثالثا- كتب التفسير:

- 26- تفسير ابن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، (4 أجزاء)، بيروت 1986.
- 27- تفسير أبي السعود، (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، القاهرة 1347 هـ.

- 28- تفسير الألوسي، (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني)، بيروت 1978.
- 29- تفسير البيضاوي، (أنوار التنزيل و أسرار التأويل)، القاهرة 1968.
- 30- تفسير الخازن، (لباب التأويل في معاني التنزيل)، القاهرة 1955.
- 31- تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق عوامل التنزيل و عيون الأقاويل في وجود التأويل)، القاهرة 1966.
- 32- تفسير الصابوني، (صفوة التفاسير)، بيروت 1981.
- 33- تفسير الطبرسي، (مجمع البيان في تفسير القرآن)، بيروت 1961.
- 34- تفسير الطبري، (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، القاهرة 1960/57.
- 35- تفسير السيوطي، (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، طهران 1377 هـ.
- 36- تفسير سيد قطب، (في ظلال القرآن)، بيروت 1400 هـ.
- 37- تفسير الجلالين، بيروت 1402 هـ.
- 38- تفسير الفخر الرازي، (التفسير الكبير)، القاهرة 1938.
- 39- تفسير القرطبي، (الجامع لأحكام القرآن)، القاهرة 1970.
- 40- تفسير المنار، (تفسير المنار، (تفسير القرآن الحكيم)، القاهرة 1975/73.
- 41- تفسير القاسمي، (محاسن التأويل)، القاهرة 1957.
- 42- تفسير طنطاوي جوهرى، (الجواهر في تفسير القرآن الكريم)، القاهرة 1974.
- 43- تفسير ابن حبان، (تفسير البحر المحيط)، بيروت 1983.
- 44- تفسير ابن ناصر السعدي، (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، مكة المكرمة 1398 هـ.

- 45- تفسير النسفي، (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، بيروت 1980.
- 46- تفسير محمد عزة دروزة، (التفسير الحديث)، القاهرة 1963.
- 47- تفسير ابن عطية، (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، الرباط 1979.
- 48- تفسير الرازي، (مفاتيح الغيب)، بيروت 1970.
- 49- تفسير ابن العربي، (أحكام القرآن)، القاهرة 1957.
- 50- تفسير النيسابوري، (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، القاهرة 1381 هـ.
- 51- تفسير الجصاص، (أحكام القرآن)، القاهرة 1959.
- 52- تفسير ابن عباس و مروياته في التفسير في كتب السنة، مكة المكرمة 1986.

رابعا- المراجع العربية:

- 53- التوراة، طبعة دار الكتاب المقدس، القاهرة 1970.
- 54- إبراهيم خليل: إسرائيل و التلمود، القاهرة 1967.
- 55- ألكار السقاف: إسرائيل و عقيدة الأرض الموعودة، القاهرة 1967.
- 56- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت 1965 71 57- ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية، (37 جزءا)، الرياض 1382 هـ.
- 58- ابن تيمية: كتاب النبوات، بيروت 1982.
- 59- ابن حزم: الفصل في الملل و الأهواء و النحل، القاهرة 1964.
- 60- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت 1971.
- 61- ابن سعد: الطبقات الكبرى، القاهرة 1968.
- 62- ابن كثير: البداية و النهاية، بيروت 1966.
- 63- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، القاهرة 1325 هـ.

- 64- أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء و طبقات الأصفياء (10 أجزاء)، بيروت 1985.
- 65- الدكتور أحمد بدوي: في موكب الشمس (جزءان)، القاهرة 1952.
- 66- أحمد حسن الباقوري: مع القرآن، القاهرة 1970.
- 67- الدكتور أحمد شلبي: اليهودية، القاهرة 1967.
- 68- الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن و السنة، القاهرة 1973.
- 69- الدكتور أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة 1963.
- 70- الدكتور أحمد فخري: مصر الفرعونية، القاهرة 1971.
- 71- الدكتور إسرائيل و لفسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة 1927.
- 72- الدكتور إسرائيل و لفسون: تاريخ اللغات السامية، القاهرة 1929.
- 73- الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي: أصول الصهيونية في الدين اليهودي، القاهرة 1964.
- 74- الشهرستاني: الملل و النحل، القاهرة 1968.
- 75- البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع، القاهرة 1951/45.
- 76- الثعلبي: قصص الأنبياء- المسمى عرائس المجالس، القاهرة.
- 78- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت 1975.
- 79- الدكتور التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، تونس 1974.
- 80- العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القاهرة 1924.
- 81- الدكتور السيد يعقوب بكر: أوفير (من كتاب العرب و الملاحة في المحيط الهندي)، القاهرة 1958.

- 82- الطبري: تاريخ الطبري، (تاريخ الرسل والملوك)، القاهرة 1967.
- 83- المسعودي: مروج الذهب و معادن الجواهر، بيروت 1973.
- 84- المقدسي: كتاب البدء و التأريخ، باريس 1907/3.
- 85- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، بيروت 1960.
- 86- باهور لبيب: لمحات من الدراسات المصرية القديمة القاهرة 1947.
- 87- الدكتور جمال حمدان: شخصية مصر، القاهرة 1970.
- 88- الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت 1971/68.
- 89- حبيب سعيد: خليل الله في اليهودية و المسيحية و الإسلام، القاهرة-.
- 90- الدكتور حسن ظاظا: القدس مدينة الله، أم مدينة داود؟، القاهرة 1970.
- 91- الدكتور حسن ظاظا: الساميون و لغاتهم، القاهرة سنة 1970.
- 92- الدكتور حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة 1971.
- 93- حسين ذو الفقار: توراة اليهود- المجلة العدد 157، القاهرة 1970.
- 94- حسين ذو الفقار: إله موسى في توراة اليهود- المجلة العدد 163، القاهرة 1970.
- 95- الدكتور رشيد الناضوري: جنوب غربي آسيا و شمال إفريقيا (جزءان)، بيروت 1969/8.
- 96- الدكتور سليم حسن: مصر القديمة (16 جزءا)، القاهرة 1960/40.
- 97- شاهين مكاروريوس: تاريخ الأمة الإسرائيلية، القاهرة 1904.
- 98- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (جزءان)، بغداد 1955.
- 99- عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، القاهرة-.

- 100- عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام و أباطيل خصومه، القاهرة 1965.
- 101- عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية، القاهرة 1970.
- 102- الدكتور عبد الحميد زائد: مصر الخالدة، القاهرة 1966.
- 103- الدكتور عبد الحميد زائد: الشرق الخالد، القاهرة 1966.
- 104- الدكتور عبد الحميد زائد: القدس الخالدة، القاهرة 1974.
- 105- عبد الرحيم فودة: في معاني القرآن، القاهرة.
- 106- الدكتور عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، القاهرة 1967.
- 107- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، القاهرة 1966.
- 108- عصام الدين حفني ناصف: محنة التوراة على أيدي اليهود، القاهرة 1965.
- 109- الدكتور عويد المطرفي: داود و سليمان في القرآن و السنة، مكة المكرمة 1979.
- 110- الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، الإسكندرية 1968.
- 111- الدكتور محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم و السنة النبوية، الرياض 1983.
- 112- الدكتور محمد بيومي مهران: مصر (جزءان)، الإسكندرية 1982.
- 113- الدكتور محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة 1976.
- 114- الدكتور محمد بيومي مهران: إخناتون، القاهرة 1979.
- 115- الدكتور محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة، الإسكندرية 1984.
- 116- الدكتور محمد بيومي مهران: إسرائيل (أربعة أجزاء)، الإسكندرية 1978-1979.

- 117- الدكتور محمد بيومي مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل، الإسكندرية 1979.
- 118- الدكتور محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، الرياض 1977.
- 119- الدكتور محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة، الإسكندرية 1978.
- 120- الدكتور محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (أربعة أجزاء)، بيروت 1988.
- 121- الدكتور محمد بيومي مهران: قصة الطوفان بين الآثار و الكتب المقدسة، الرياض 1975.
- 122- الدكتور محمد بيومي مهران: في رحاب النبي و آل البيت الطاهرين (خمسة أجزاء)، تحت الطبع.
- 123- محمد حسني عبد الحميد: أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، القاهرة 1947.
- 124- محمد رشيد رضا: تفسير سورة يوسف، القاهرة 1936.
- 125- الدكتور محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن و السنة (جزءان)، القاهرة 1969/8.
- 126- محمد عزة دروزة: تاريخ بين إسرائيل من أسفارهم، بيروت 1969.
- 127- محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء، بيروت 1980.
- 128- محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام، القاهرة 1952.
- 129- الشيخ محمد متولي الشعراوي: الفتاوي (10 أجزاء في مجلدين)، بيروت 1981.
- 130- الدكتور محمود بن الشريف: الأديان في القرآن، جدة 1979.

- 131- محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم، القاهرة 1970.
- 132- الشيخ محمد شلتوت: الفتاوى- ط الثالثة، القاهرة.
- 133- مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل، النجف 1388 هـ.
- 134- الدكتور مراد كامل: الكتب التاريخية في العهد القديم، القاهرة 1968.
- 135- الدكتور نجيب ميخائيل: مصر و الشرق الأدنى القديم (6 أجزاء)، الإسكندرية 1966.
- 136- الدكتور محمد عبد القادر محمد: قصة الطوفان في أدب بلاد الرافدين، القاهرة 1965.
- 137- ياقوت الحموي: معجم البلدان (5 أجزاء)، بيروت 1957/55.
- 138- قاموس الكتاب المقدس (جزءان)، بيروت 1967/64.
- 139- مجلة سومر- المجلد السابع-، بغداد 1951.

خامسا- المراجع المترجمة:

- 140- باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت و السياسة- ترجمة حسن حنفي، القاهرة 1971.
- 141- جرنبي: الحيشيون- ترجمة محمد عبد القادر محمد، القاهرة 1963.
- 142- جون الدر: الأحجار تتكلم- ترجمة عزت زكي، القاهرة 1960.
- 143- ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية- ترجمة محمد عبد الهادي شعيره، القاهرة.
- 144- جان يويوت: مصر الفرعونية- ترجمة سعد زهران، القاهرة 1966.
- 145- جورج فضلو حوراني: العرب و الملاحة في المحيط الهندي- ترجمه وزاد عليه: يعقوب بكر، القاهرة 1958.

- 146- جوستاف لوبون: اليهود في الحضارات القديمة- ترجمة عادل زعيتر، القاهرة 1967.
- 147- جيمس فريزر: الفلكور في العهد القديم- ترجمة نبيلة إبراهيم، القاهرة 1972.
- 148- جيمس هنري برستد: تاريخ مصر- ترجمة حسن كمال، القاهرة 1929.
- 149- جيمس هنري برستد: فجر الضمير- ترجمة سليم حسن، القاهرة 1956.
- 150- جيمس هنري برستد: تطور الفكر و الدين في مصر- ترجمة زكي سوسن، القاهرة 1961.
- 151- سبتيانو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة- ترجمه وزاد عليه يعقوب بكر، القاهرة 1968.
- 152- صمويل نوح كريم: من ألواح سومر- ترجمة طه باقر، القاهرة 1957.
- 153- صويل نوح كريم: أساطير العالم القديم- ترجمة أحمد عبد الحميد، القاهرة 1974.
- 154- فيلب حتى: تاريخ سورية و لبنان و فلسطين- ترجمة جورج حداد و عبد الكريم رافق، بيروت 1958.
- 155- م. سيجال: حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل- ترجمة حسن ظاظا، بيروت 1967.
- 156- وليم أولبرايت: آثار فلسطين- ترجمة زكي اسكندر و محمد عبد القادر، القاهرة 1971.
- 157- ول ديورانت: قصة الحضارة- ترجمة محمد بدران، القاهرة 1961.

158- يوسفىوس: تاريخ يوسفىوس، بيروت.

159- دائرة المعارف الإسلامية- دار الشعب، القاهرة 1972 /69.

سادسا- المراجع الأجنبية:

.Albright, (W.F), the Archaeology of Palestine, London, 1949' .160

.Albright,(W.F.), the Bible and the Ancient near east, London,1961 .161

.Albright, (W.F.), the Bilblical period from Abraham to Ezra, N.Y.1963 .162

.Barton (G.A.), Archaeology and the Bible, 1937 .163

.Baron, (S.W.), A social and religious history of the Jews,N.Y.1967 .164

.Bulber, (M.), moses, Oxford, 1946 .165

.Budge (E.A.), The Babylonian story of the deluge and the epic of Gilgamesh, 1920 .166

.Burney (C.F.), Israel's (C.F.), Israel's canaan, London, 1918 .167

Cook (S.A.), in CAH, III, Cambridge, 19653settlement in .168

Davies (A.P.), the ten commandment, N.Y.1965.170. Dhorme (E), La religion des hebreux Nomades, .169
.Bruxelles, 1937

.Dimont, (M.), Jeuis god and history, N.Y.1956 .171

.Eliade (M.), Traite d'histoire des religions, paris, 1964 .172

.Eissfeldt (O.) the hebrew kingdom, in CAH,II,Part, 2, 1975 .173

.Finegan (J.) light from the ancient past, I, Princeton, 1969 .174

.Gray (J.) Near eastern mythology, N.Y.1969 .175

.Epstein (R.I.), Judaism, 1970 .176

.Freud (S.), moses and monotheism, N.Y.1939 .177

- .Faster (C.K.), A history of the hebrew people, London, 1940 .178
- .Gardiner, (A.H.) the geography of the exodus, in JEA,10,1924 .179
- .Gardiner, (A.H.) Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964 180
- .Gastring (J.) Jashua, Judge, the foundations of the bible history London 1031 .181
- .Glueck (N), the other side of Jordan, New haven, 1945 .182

- .Glueck (N.) the Excavations of soloman's seaport, Ezian Gaber, STAR, 1941 .183
- .Guillaume, prophecy and divination among the hebrews and other semeites, London 1938 .184
- Hall, (H.) the ancient history of near east, london, 1963. 186. Hastings, (J.), A dictionary of the bible, .185
.edinburgh, 1936
- .Heaton,(E. W.) the old testament prophets, 1969 .187
- .James (E.O.), mythes et rites dans le proche-orient, Paris 1960 .188
- .Keller (W) the bible as history, 1967 .189
- Kenyon (K.M.), Archaeology in the holy land, London 1970. 191. Kramer (S. A), sumerian . 190
.mythology, 1944
- .Krmer (S.A.), The deluge, in ANET, 1966 .192
- .Lods (A), Israel, from the beginnings to the middle of the eight century, London, 1962 .193
- .Malamat (A.) the last wars of the kingdom of judah, JNES, 9,1950 .194
- .Malamat (A.) Aspects of the foreign policies of david and solaman, JNES,22,1963 .195
- .Montet (P.), L'Egypte et la bible, Neuchatel, 1959 .196
- .Myres (J.L.), king soloman's temple and other buldings and works of art, PEQ,80,1948 .197
- Manille, (E.), the Geography of the exadus, JEA.,I,1924. 199. Noth (m.) the history of Israel, London, .198
.1965
- .Oesterley (W.O.E.) Egypt and Israel, in the legacy of egypt, Oxford, 1948 .200
- .Oppenheim, (A.L.), Babyloniam and Assyrian historical texts in ANET, 1966 .201
- .Parker (J.), A, history of the Jewish people, London, 1964 .202
- .Petrie (W.F), Egypt and Israel, London 1955 .203
- .Renan (E.) histoire du peuple d'Israel, Paris, 1887 .204

.Rowley (h.), From Joseph to joshua, London, 102T .205

.Rai (G.), Ancient Iraq 1966.206

.Saggs (H. F.), The Creatness that was babylon, London, 1962 .207

.Saller (S.L.), the memorial of moses on maunt nebo, 2 vols, London, 1941 .208

ص: 204

- .Sollberger (E.), The Flood, London, 1962 .209
- .Unger (M.F.), unger's bible dictionary, chicago, 1970 .210
- .Waterman (L.), the treasuries of soloman's private chapel, in JNES,6,1947 .211
- .Woolley (L.), Ur of the chaldees, 1938 .212
- .Wolley (L.), excavations at ur, London, 1963 .213
- .Wright (G.E), the bible and the ancient near east, N.Y.1965 .214
- .Yadin (Y.) new light on Soloman's mejiddo, BA,23,1963 .215
- .Yeiuin (G.E.), the sepulchers of the kings of the house of david, in JNES,7,1948 .216
- .Encyclopaedia Biblica. 218. Encyclopaedia Britanica .217
- .Encyclopaedia of Islam .219
- .Encyclopaedia of religion and Ethics .220
- .The Jewish Encyclopaedia, N.Y. 1903 .221
- .Historical Atlas of the holy land, N.Y.1959 .222
- .The Westminster historical Atlas to the bible philadelphia,1946 .223

أولاً- في التاريخ المصري القديم:

1- الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية الاسكندرية 1966.

2- مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية 1969.

3- حركات التحرير في مصر القديمة- دار المعارف القاهرة 1976 (و هو الجزء الثالث من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم)
4- أخناتون: عصره و دعوته الاسكندرية 1979 (و هو الجزء الرابع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم) 5- مصر
الكتاب الأول- التاريخ الاسكندرية 1982.

6- مصر الكتاب الثاني- التاريخ الاسكندرية 1984 و هما الجزءان الأول و الثاني من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم).

7- الحضارة المصرية القديمة الاسكندرية 1984 (و هو الجزء الخامس من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم)

- 8- دراسات في تاريخ اليهود القديم- التوراة (1)- مجلة الأسطول- العدد 63 الاسكندرية 1970.
- 9- دراسات في تاريخ اليهود القديم- التوراة (2)- مجلة الأسطول- العدد 64 الاسكندرية 1970.
- 10- دراسات في تاريخ اليهود القديم- التوراة (3)- مجلة الأسطول- العدد 65 الاسكندرية 1970.
- 11- قصة أرض الميعاد بين الحقيقة و الأسطورة (1)- مجلة الأسطول- العدد 66 الاسكندرية 1971.
- 12- قصة أرض الميعاد بين الحقيقة و الأسطورة (2)- مجلة الأسطول- العدد 67 الاسكندرية 1971.
- 13- النقاوة الجنسية عند اليهود- مجلة الأسطول- العدد 68 الاسكندرية 1971.
- 14- أخلاقيات الحرب عند اليهود- مجلة الأسطول- العدد 69 الاسكندرية 1971.
- 15- التلمود- مجلة الأسطول- العدد 70 الاسكندرية 1972.
- 16- إسرائيل- الكتاب الأول- التاريخ الاسكندرية 1978 (و هو الجزء السابع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم).
- 17- إسرائيل- الكتاب الثاني- التاريخ الاسكندرية 1978 (و هو الجزء التاسع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم).
- 18- إسرائيل- الكتاب الثالث- الحضارة الاسكندرية 1979 (و هو الجزء التاسع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم).
- 19- إسرائيل- الكتاب الرابع- الحضارة (و هو الكتاب العاشر من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم).

20- النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل الاسكندرية 1979.

ثالثا- في تاريخ العرب القديم:

21- الساميون و الآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي مجلة كلية اللغة العربية- العدد الرابع الرياض 1974.

22- العرب و علاقاتهم الدولية في العصور القديمة مجلة كلية اللغة العربية و العلوم الاجتماعية- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- العدد السادس الرياض 1976.

23- مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة مجلة كلية اللغة العربية و العلوم الاجتماعية- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الأول الرياض 1977.

24- دراسات في تاريخ العرب القديم (و هو الجزء السادس من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم. وقد أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم (1) من المكتبة التاريخية) الرياض 1977.

25- دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الأول، في بلاد العرب (أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- تحت رقم (2) من الرياض 1981.

26- دراسة حول الديانة العربية القديمة، الإسكندرية 1978.

27- العرب و الفرس في العصور القديمة، الإسكندرية 1978.

28- دراسات في الحضارة العربية القديمة.

29- الفكر الجاهلي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1982 (بحث في كتاب الحضارة الإسلامية على مدى أربعة عشر قرنا).

رابعا: في تاريخ العراق القديم:

30- قصة الطوفان بين الآثار و الكتب المقدسة مجلة كلية اللغة العربية

و العلوم الاجتماعية- العدد الخامس الرياض 1975.

21- قانون حمورابي وأثره في تشريعات التوراة، الإسكندرية 1979.

22- المدخل في تاريخ الشرق الأدنى القديم- (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور رشيد الناصوري)، (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

خامسا: سلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»

33- الجزء الأول- في بلاد العرب، بيروت 1988.

34- الجزء الثاني- في مصر، بيروت 1988.

35- الجزء الثالث- في بلاد الشام، بيروت 1988.

36- الجزء الرابع- في العراق، تحت الطبع.

سادسا: سلسلة «في رحاب النبي و آل البيت الطاهرين»

37- السيرة النبوية- الجزء الأول، تحت الطبع.

38- السيرة النبوية- الجزء الثاني، تحت الطبع.

39- الإمام علي بن أبي طالب، تحت الطبع.

40- الإمام الحسن بن علي، تحت الطبع.

41- الإمام الحسين بن علي، تحت الطبع.

الباب الأول سيرة نوح عليه السلام الفصل الأول: دعوة نوح عليه السلام 9

(1) نوح عليه السلام 9

(2) معبودات قوم نوح 11

(3) دعوة نوح عليه السلام 15

(4) قضية ابن نوح 23

الفصل الثاني: قصة الطوفان بين الآثار و التوراة 29

أولاً: قصة الطوفان السومرية 31

ثانياً: قصص الطوفان البابلية 41

ثالثاً: قصة الطوفان اليهودية كما ترويها التوراة 50

الفصل الثالث: قصة الطوفان في القرآن الكريم 73

الباب الثاني سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام في العراق الفصل الأول: معبودات قوم إبراهيم 105

الفصل الثاني: دعوة إبراهيم عليه السلام 115

(1) موقف إبراهيم عليه السلام من عبادة الكواكب 115

ص: 211

(2) موقف إبراهيم من عبادة الأصنام 127

الفصل الثالث: بين إبراهيم و الملك 147

الفصل الرابع: سر الحياة و الموت 157

الباب الثالث سيرة يونس عليه السلام (1) قصة يونس عليه السلام 175

(2) سفر يونان (يونس عليه السلام) 188

المراجع المختارة 193

مؤلفات الأستاذ الدكتور محمد بيومي مهران 207

ص: 212

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلا:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

